الجزء الأول

من تفسير القرآن الجليل المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل تأليف الامام العلامة قدوة الامة وعلم الائمة ناصر الشريعة ومحيي السنة علاء الدين علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي الصوفي المعروف بالخازن

تغمده الله برحمته

آمين

وقد حلى هامش هذا الكتاب بالتفسير المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل تأليف الامام الجليل العلامة أبي البركات عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي عليه سحائب الرحمة والرضوان

﴿قال في كشف الظنون﴾

﴿لباب التأويل * في معاني التنزيل﴾ في ثلاث مجلدات للشيخ علاء الدين علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي الصوفي المعروف بالخازن فرغ من تأليفه يوم الاربعاء العاشر من رمضان (سنة ٧٢٥) أوله الحمد لله الذي خالق الاشياء فقدرها الخ ذكر فيه ان معالم التنزيل للبغوي موصوف بالاوصاف المحمودة لكنه طويل فانتخبه وضم اليه فوائد لخصها من كتب التفاسير بحذف الاسانيد وجعل علامة للصحيحين وذكر أسامي غيرهما وعرض فيه بشرح غريب الحديث وما يتعلق به

﴿وقال في حرف الميم﴾

﴿مدارك التنزيل * وحقائق التأويل﴾ للامام حافظ الدين عبدالله بن أحمد النسفي المتوفى (سنة ٧٠١) وقيل عشرة وسبعمائة أوله الحمد لله المنفرد بذاته عن اشارة الاوهام الخ وهو كتاب وسط في التأويلات جامع لوجوه الاعراب والقرا آت متضمن لدقائق علم البديع والاشارات موشح باقاويل أهل السنة والجماعة خال عن أباطيل أهل البدع والضلالة ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخل * اهـ قلت الذي وقع بايدينا من نسخ المدارك المنزه بدل قوله المنفرد فلعل ذلك من اختلاف النسخ اهـ مصححه

﴿طبع بمطبعة﴾

دار الكتب العربية الكبرى

﴿على نفقة أصحابها﴾

﴿مصطفى البابي الحلبي وأخويه بكري وعيسى بمصر﴾

BP 130 .4 [illegible] V.1

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلق الاشياء فقدرها تقديرا وصور شكل الانسان فاحسنه تصويرا ومنحه بالعقل وجعله سميعا بصيرا وشرفه بما عرفه به من العلم ونور قلبه تنويرا وهداه الى معرفته فيا لها نعمة وفضلا كبيرا وأطلق لسانه فاذعن بشكره تحميدا وتهليلا وتكبيرا وأرسل محمدا صلى الله عليه وسلم الى كافة الخلق بشيرا ونذيرا وأنزل عليه كتابا منيرا وأودعه حكمة وحكما وترغيبا وتحذيرا وألهم حفاظه تلاوته وتحبيرا وعلم عباده علومه تفهيما وتبصيرا وضرب فيه الامثال ليزيل جهالة وتحييرا وجعله برهانا واضحا وصوابا لائحا ووفر فضله توفيرا فى الصدور محفوظا وبالالسنة متلوا وفى الصحف مسطورا يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا وجعل كل بليغ عن الاتيان بسورة مثله حسيرا قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (أحمده) على تواتر انعامه حمدا كثيرا وأتوكل عليه مفوضا أمرى اليه ومستجيرا وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة يغدو قلب قائلها مطمئنا مستنيرا وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى كساه من فضله عزا ومهابة وتوقيرا صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه كما أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا (وبعد) فان الله جل ذكره ونفذ أمره أرسل رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله رحمة للعالمين وبشيرا للمؤمنين ونذيرا للمخالفين أكمل به بنيان النبوة وختم به ديوان الرسالة وأتم به مكارم الاخلاق ونشر فضله فى الآفاق وأنزل عليه نورا هدى به من الضلالة وأنقذ به من الجهالة وحكم بالفوز والفلاح لمن اتبعه وبالخسران لمن أعرض عنه بعد ما سمعه عجز الخلائق عن معارضته حين تحداهم على أن يأتوا بسورة من مثله فى مقابلته ثم سهل على عباده المؤمنين مع اعجازه تلاوته ويسر على الالسن قراءته أمر فيه وزجر وبشر وأنذر وذكر المواعظ ليتذكر وضرب فيه الامثال ليتدبر وقص فيه من أخبار الماضين ليعتبر ودل فيه على آيات التوحيد ليتفكر ثم لم يرض منا بسرد حروفه دون حفظ حدوده ولا باقامة كلماته دون العمل بمحكماته ولا بتلاوته دون تدبر آياته فى قراءته ولا بدراسته دون تعلم حقائقه وتفهم دقائقه ولا حصول لهذه المقاصد منه الا بدراية تفسيره وأحكامه ومعرفة حلاله وحرامه وأسباب نزوله وأقسامه والوقوف على ناسخه ومنسوخه فى خاصه وعامه فانه أرسخ العلوم أصلا وأسبغها فرعا وفصلا وأكرمها نتاجا وأنورها سراجا فلا شرف الا وهو السبيل اليه ولا خير الا وهو الدال عليه وقد قيض الله تعالى له رجالا موفقين وبالحق ناطقين حتى صنفوا فى سائر علومه المصنفات وجمعوا سائر فنونه المتفرقات كل على قدر فهمه ومبلغ علمه نظرا للخلف واقتداء بالسلف فشكر الله سعيهم ورحم كافتهم ولما كان كتاب معالم التنزيل الذى صنفه الشيخ الجليل والحبر النبيل الامام العالم الكامل محيي السنة قدوة الامة وامام الائمة مفتى الفرق ناصر الحديث ظهير الدين أبو محمد الحسين بن مسعود البغوى قدس الله روحه ونور ضريحه

من

(بسم الله الرحمن الرحيم) الحمد لله المنزه بذاته عن اشارة الاوهام المقدس بصفاته عن ادراك العقول والافهام المتصف بالالوهية قبل كل موجود الباقى بالنعوت السرمدية

من أجل المصنفات فى علم التفسير وأعلاها وأنبلها وأسناها جامعا للصحيح من الاقاويل عاريا عن الشبه والتصحيف والتبديل محلى بالاحاديث النبوية مطرزا بالاحكام الشرعية موشى بالقصص الغريبة وأخبار الماضين العجيبة مرصعا باحسن الاشارات مخرجا باوضح العبارات مفرغا فى قالب الجمال بافصح مقال فرحم الله تعالى مصنفه واجزل ثوابه وجعل الجنة متقلبه ومآبه ولما كان هذا الكتاب كما وصفت أحببت أن انتخب من غرر فوائده ودرر فرائده وزواهر نصوصه وجواهر فصوصه مختصرا جامعا لمعانى التفسير ولباب التأويل والتعبير حاويا بالخلاصة منقوله متضمنا لنكته وأصوله مع فوائد نقلتها وفرائد لخصتها من كتب التفاسير المصنفة فى سائر علومه المؤلفة ولم أجعل لنفسى تصرفا سوى النقل والانتخاب مجتنبا حد التطويل والاسهاب وحذفت منه الاسناد لانه أقرب الى تحصيل المراد فما أوردت فيه من الاحاديث النبوية والاخبار المصطفوية على تفسير آية أو بيان حكم فان الكتاب يطلب بيانه من السنة وعليهما مدار الشرع وأحكام الدين عزوته الى مخرجه و بينت اسم ناقله وجعلت عوض كل اسم حرفا يعرف به ليهون على الطالب طلبه فما كان من صحيح أبى عبد الله محمد بن اسمعيل البخارى فعلامته قبل ذكر اسم الصحابى الراوى للحديث (خ) وما كان من صحيح أبى الحسين مسلم بن الحجاج النيسابورى فعلامته (م) وما كان مما اتفقا عليه فعلامته (ق) وما كان من كتب السنن كسنن أبى داود والترمذى والنسائى فانى اذكر اسمه بغير علامة وما لم أجده فى هذه الكتب ووجدت البغوى قد أخرجه بسند له انفرد به قلت روى البغوى بسنده وما رواه البغوى باسناد الثعلبى قلت روى البغوى باسناد الثعلبى وما كان فيه من أحاديث زائدة وألفاظ متغيرة فاعتمده فانى اجتهدت فى تصحيح ما أخرجته من الكتب المعتبرة عند العلماء كالجمع بين الصحيحين للحميدى وكتاب جامع الاصول لابن الاثير الجزرى ثم انى عوضت عن حذف الاسناد شرح غريب الحديث وما يتعلق به ليكون أكمل فائدة فى هذا الكتاب وأسهل على الطلاب وسقته بابلغ ما قدرت عليه من الايجاز وحسن الترتيب مع التسهيل والتقريب و ينبغى لكل مؤلف كتابا فى فن قد سبق اليه ان لا يخلو كتابه من خمس فوائد استنباط شئ كان معضلا أو جمعه ان كان متفرقا أو شرحه ان كان غامضا أو حسن نظم وتأليف أو اسقاط حشو وتطويل وأرجو أن لا يخلو هذا الكتاب عن هذه الخصال التى ذكرت ﴿وسميته لباب التأويل * فى معانى التنزيل﴾ والله تعالى أسأل التوفيق لاتمام ما قصدت واليه أرغب فى تيسير ما أردت وان يجعله خالصا لوجهه الكريم وان يتقبله منى انه هو السميع العليم وهو حسبى ونعم الوكيل عليه توكلت واليه أنيب وقبل أن أشرع فى الكلام على التفسير أقدم مقدمة تتضمن ثلاثة فصول

﴿الفصل الاول فى فضل القرآن وتلاوته وتعليمه﴾ (م) عن زيد بن أرقم قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فينا خطيبا بماء يدعى خما بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال أما بعد ألا أيها الناس انما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيب وانى تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى زاد فى رواية كتاب الله فيه الهدى والنور من استمسك به وأخذ به كان على الهدى ومن أخطأه ضل وفى رواية كتاب الله هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى ومن تركه كان على ضلالة وفى رواية الترمذى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى تارك فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدى أحدهما أعظم من الآخر وهو كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الارض وعترتى أهل بيتى لن يفترقا حتى يردا على الحوض فانظروا كيف تخلفونى فيهما (م) عن عمر بن الخطاب قال أما ان نبيكم صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى يرفع بهذا الكتاب أقواما و يضع به آخرين وعن الحرث الاعور

بعد كل محدود الملك الذى طمست سبحات جلاله الابصار المتكبر الذى أزاحت سطوات كبريائه الافكار القديم الذى تعالى عن مماثلة الحدثان العظيم الذى تنزه عن مماسة المكان المتعالى عن مضاهاة الاجسام ومشابهة الانام القادر الذى لا يشار

قال مررت فى المسجد فاذا الناس يخوضون فى الاحاديث فدخلت على على فقلت يا أمير المؤمنين ألا ترى الناس قد خاضوا فى الاحاديث قال أوقد فعلوها قلت نعم قال أما انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألا انها ستكون فتنة فقلت ما المخرج منها يا رسول الله قال كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذى لا تزيغ به الاهواء ولا تلتبس به الالسنة ولا تشبع منه العلماء ولا يخلق عن كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه هو الذى لم تنته الجن اذ سمعته حتى قالوا انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به من قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم خذها اليك يا أعور أخرجه الترمذى وقال حديث غريب واسناده مجهول وفى الحرث مقال (قوله هو الفصل) أى الفاصل بين الحق والباطل ليس بالهزل أى هو جد كله ليس فيه شئ من الهزل والجبار فى صفة الآدمى هو المتسلط العاتى المتكبر على الناس قصمه الله أى أهلكه (قوله هو حبل الله المتين) الحبل يرد على وجوه منها العهد ومنها الأمان فاذا اعتصم به الانسان آواه الله تعالى الى جواره والذكر الشرف والحكيم المحكم العارى من الاختلاف والاضطراب والصراط المستقيم الطريق الواضح ومعنى لا تزيغ به الاهواء أى لا يميل عن الحق * عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل الذى ليس فى جوفه شئ من القرآن كالبيت الخرب أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح (خ) عن عثمان عن النبى صلى الله عليه وسلم قال خيركم من تعلم القرآن وعلمه (ق) عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران (قوله الماهر بالقرآن) يعنى الحاذق الكامل الحفظ الجيد التلاوة وقوله مع السفرة جمع سافر وهو الرسول من الملائكة سمى بذلك لانه يسفر برسالات الله الى أنبيائه وقيل السفرة الكتبة من الملائكة والبررة المطيعون لله تعالى فيما يأمر به ومعنى كونه مع الملائكة أن له منازل فى الجنة يكون فيها رفيقا لهم وقوله يتتعتع أى يتردد فى تلاوته لضعف حفظه له أجران يعنى يحصل له أجر بسبب القراءة وأجر بسبب تعبه فيها والمشقة التى تحصل له فيها وليس معناه ان له أجرا أكثر من الماهر بل الماهر أفضل منه وأكثر أجرا (ق) عن أبى موسى الاشعرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الاترجة طعمها طيب وريحها طيب ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ومثل الفاجر الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب ولا طعم لها ومثل الفاجر الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها فيه دليل على فضيلة حفاظ القرآن واستحباب ضرب الامثال لايضاح المقاصد * عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح غريب وقد رفعه بعضهم عن ابن مسعود ووقفه بعضهم عليه * عن ابن عباس قال قال رجل يا رسول الله أى الاعمال أحب الى الله تعالى قال الحال المرتحل قال وما الحال المرتحل قال الذى يضرب من أول القرآن الى آخره كلما حل ارتحل أخرجه الترمذى * عن عبد الله بن عمرو ابن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا فان منزلك عند الله آخر آية تقرؤها أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح * عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يجئ القرآن يوم القيامة فيقول يا رب حله فيلبس تاج الكرامة ثم يقول يا رب زده فيلبس حلة الكرامة ثم يقول يا رب ارض عنه فيرضى عنه فيقال اقرأ وارق ويزاد بكل آية حسنة أخرجه الترمذى وقال حديث حسن * عن سهل بن معاذ الجهنى عن أبيه أن رسول الله صلى الله

اليه بالتكييف القاهر الذى لا يسئل عن التحميل والتكاليف العليم الذى خلق الانسان وعلمه البيان الحكيم الذى نزل القرآن شفاء للارواح والابدان والصلاة والسلام على المستل من أرومة البلاغة والبراعة المحتل

عليه

عليه وسلم قال من قرأ القرآن وعمل به ألبس والداه يوم القيامة تاجا ضوؤه أحسن من ضوء الشمس فى بيوت الدنيا لو كانت فيكم فما ظنكم بالذى عمل بهذا أخرجه أبو داود * عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ القرآن فاستظهره فاحل حلاله وحرم حرامه أدخله الله به الجنة وشفعه فى عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار أخرجه الترمذى وقال حديث غريب وليس له اسناد صحيح (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أذن الله لشئ كاذنه لنبى يتغنى بالقرآن يجهر به معنى أذن فى اللغة استمع ولا نحمله على الاصغاء فانه يستحيل على الله تعالى بل هو كناية عن تقريبه قارئ القرآن واجزال ثوابه فى ذلك وذلك لان سماع الله لا يختلف فوجب تأويل الحديث وقوله يتغنى بالقرآن أى يحسن صوته به ويكون ذلك مع تحزين وترقيق فى القراءة وقيل معناه يستغنى به عن الناس والقول الاول أولى ويدل عليه سياق الحديث وهو قوله يجهر به (خ) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس منا من لم يتغن بالقرآن

* (الفصل الثانى فى وعيد من قال فى القرآن برأيه من غير علم ووعيد من أوتى القرآن فنسيه ولم يتعهده) * عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار وفى رواية من قال فى القرآن برأيه أخرجه الترمذى وقال حديث حسن (قوله فليتبوأ) معناه فليتخذ له مباءة أى منزلا من النار * عن جندب بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال فى كتاب الله عز وجل برأيه فاصاب فقد أخطأ أخرجه أبو داود والترمذى وقال حديث غريب وسئل أبو بكر الصديق رضى الله عنه عن قوله تعالى وفاكهة وأبا فقال أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى اذا قلت فى كتاب الله بغير علم قال العلماء النهى عن القول فى القرآن بالرأى انما ورد فى حق من يتأول القرآن على مراد نفسه وما هو تابع لهواه وهذا لا يخلو اما أن يكون عن علم أو لا فان كان عن علم كمن يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم أن المراد من الآية غير ذلك لكن غرضه أن يلبس على خصمه بما يقوى حجته على بدعته كما يستعمله الباطنية والخوارج وغيرهم من أهل البدع فى المقاصد الفاسدة ليغروا بذلك الناس وان كان القول فى القرآن بغير علم لكن عن جهل وذلك بان تكون الآية محتملة لوجوه فيفسرها بغير ما تحتمله من المعانى والوجوه فهذان القسمان مذمومان وكلاهما داخل فى النهى والوعيد الوارد فى ذلك فاما التأويل وهو صرف الآية على طريق الاستنباط الى معنى يليق بها محتمل لما قبلها وما بعدها وغير مخالف للكتاب والسنة فقد رخص فيه أهل العلم فان الصحابة رضى الله عنهم قد فسروا القرآن واختلفوا فى تفسيره على وجوه وليس كل ما قالوه سمعوه من النبى صلى الله عليه وسلم ولكن على قدر ما فهموا من القرآن تكلموا فى معانيه وقد دعا النبى صلى الله عليه وسلم لابن عباس فقال اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل فكان أكثر ما نقل عنه التفسير (ق) عن أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعاهدوا هذا القرآن فوالذى نفس محمد بيده لهو أشد تفلتا من الابل فى عقلها (ق) عن ابن عمر رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال انما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الابل المعقلة ان تعاهد عليها أمسكها وان أطلقها ذهبت الابل المعقلة التى حبست بالعقال وهذا مثل ضربه لصاحب القرآن وفيه الحث على تعاهده بكثرة التلاوة والتكرار لئلا ينسى (ق) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بئسما لاحدكم أن يقول نسيت آية كيت وكيت بل هو نسى استذكروا القرآن فانه أشد تفصيا من صدور الرجال من النعم من عقلها وفى رواية لا يقل أحدكم نسيت آية كذا وكذا بل هو نسى (قوله بئسما لاحدكم) أى بئست الحالة حالة من حفظ القرآن ثم غفل عنه حتى نسيه (قوله لا يقل أحدكم نسيت آية كذا وكذا) معناه انما كره نسبة النسيان الى النفس لاجل أن الله تعالى هو المقدر للاشياء كلها

فى بحبوحة النصاحة والفصاحة محمد المبعوث الى خليقته الداعى الى الحق وطريقته صلى الله وسلم عليه وعلى آله وشيعته (قال) مولانا الشيخ الامام المعظم والحبر الهمام المقدم أستاذ أهل الارض محيى السنة والفرض كشاف حقائق

وهو الذى أنساه اياه وقيل أصل النسيان الترك فكره أن يقول تركت القرآن أو قصدت الى نسيانه وقوله بل نسى هو بضم النون وتشديد السين وفتح الياء أى عوقب بالنسيان على ذنب صدر منه أو لسوء تعهده القرآن وقوله أشد تفصيا أى خروجا من صدور الرجال وفى معناه تفلتا من الابل فى عقلها أى تخلصا من العقال وهو الحبل الذى تربط به * عن سعد بن عبادة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامن امرئ يقرأ القرآن ثم ينساه الا لقى الله يوم القيامة أجذم أخرجه أبو داود الاجذم قيل هو مقطوع اليد وقيل هو مقطوع الحجة وقيل هو الذى به جذام * عن أنس بن مالك رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عرضت على أجور أمتى حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد وعرضت على ذنوب أمتى فلم أر فيها ذنبا أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها أخرجه أبو داود والترمذى وقال حديث غريب (ق) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تسافروا بالقرآن الى أرض العدو مخافة أن يناله العدو أراد بالقرآن المصحف فلا يجوز حمله الى أرض العدو وهى بلاد الكفار للنهى الوارد فيه ولو كتب كتابا اليهم فيه آية من القرآن فلا باس من ذلك لان النبى صلى الله عليه وسلم كتب الى هرقل ملك الروم قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم * عن عمران بن حصين انه مر على رجل يقرأ ثم سأل فاسترجع قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من قرأ القرآن فليسأل الله به فانه سيجىء أقوام يقرؤن القرآن يسألون به الناس أخرجه الترمذى * عن صهيب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما آمن بالقرآن من استحل محارمه أخرجه الترمذى وقال ليس اسناده بالقوى * عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب

﴿الفصل الثانى فى جمع القرآن وترتيب نزوله وفى كونه نزل على سبعة أحرف﴾ (خ) عن زيد بن ثابت قال بعث الى أبو بكر لمقتل أهل اليمامة وعنده عمر فقال أبو بكر ان عمر جاءنى فقال ان القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن وانى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى كل المواطن فيذهب من القرآن كثير وانى أرى أن تأمر بجمع القرآن قال قلت لعمر كيف أفعل شيأ لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر هو والله خير فلم يزل يراجعنى فى ذلك حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر عمر ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر قال زيد فقال لى أبو بكر انك رجل شاب عاقل لا نتهمك قد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه قال زيد فوالله لو كلفنى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن فقلت كيف تفعلان شيأ لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر هو والله خير فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وفى رواية فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر ورأيت فى ذلك الذى رأيا قال فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والعسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع خزيمة أو مع أبى خزيمة الانصارى فلم أجدها مع أحد غيره لقد جاءكم رسول من أنفسكم الى آخر براءة فالحقتها فى سورتها قال فكانت الصحف عند أبى بكر حياته حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر قال بعض الرواة اللخاف يعنى الخزف (خ) عن أنس ان حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فافزع حذيفة اختلافهم فى القراءة فقال حذيفة لعثمان يا أمير المؤمنين أدرك هذه الامة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى فارسل عثمان الى حفصة أن أرسلى الينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها اليك فارسلت بها اليه فامر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام رضى الله عنهم

أسرار التنزيل مفتاح أسرار حقائق التأويل ترجمان كلام الرحمن صاحب علم المعانى والبيان الجامع بين الاصول والفروع المرجوع اليه فى المعقول والمسموع حافظ الملة والدين شيخ الاسلام والمسلمين

فنسخوها فى المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شئ من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فانما نزل بلسانهم ففعلوا حتى اذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف الى حفصة وأرسل الى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سوى ذلك من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق قال ابن شهاب وأخبرنى خارجة بن زيد انه سمع زيد بن ثابت يقول فقدت آية من سورة الاحزاب حين نسخت الصحف قد كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة ابن ثابت الانصارى من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فالحقناها فى سورتها فى المصحف قال فى رواية ابن اليمان مع خزيمة بن ثابت الذى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته شهادة رجلين زاد فى رواية قال ابن شهاب اختلفوا يومئذ فى التابوت فقال زيد التابوه وقال عبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص التابوت فرفع اختلافهم الى عثمان فقال اكتبوه التابوت فانه بلسان قريش * شرح غريب ألفاظ الحديثين وما يتعلق بهما (قوله بعث الى أبو بكر مقتل أهل اليمامة) أى لأوان قتلهم وأراد به الوقعة التى كانت باليمامة فى زمن أبى بكر الصديق وهى وقعة الردة مع أصحاب الردة قتل فيها خلق كثير من قراء القرآن واليمامة مدينة باليمن على يومين من الطائف وعلى أربعة أيام من مكة ولها عمائر وهى فى عداد أرض نجد (قوله استحر القتل) أى كثر وينسب المكروه الى الحر والمحبوب الى البرد وشرح الصدر سعته وقبوله الخير (قوله فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع) جمع رقعة وهى ما يكتب فيها والعسب بضم العين والسين المهملتين جمع عسيب وهو جريد النخل وسعفه واللخاف حجارة بيض رقاق واحدته لخفة (قوله يغازى أهل الشام) أى مع أهل الشام (فى فتح ارمينية) بكسر الهمزة وتخفيف الياء لاغير سميت بارمين ابن لمطى بن لومن بن يافث بن نوح وهو أول من نزل بها سميت باسمه (وأذربيجان) بفتح الهمزة وسكون الذال وغير ذلك فى ضبطها وقال ابن جنى فيها خمسة موانع من الصرف التعريف والتأنيث والعجمة والتركيب والالف والنون وهو موضع من بلاد العجم يشتمل على بلاد كثيرة (قوله حتى وجدت آخر سورة التوبة مع خزيمة أو مع أبى خزيمة الانصارى) وفى الحديث الآخر فقدت آية من سورة الاحزاب الى قوله فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الانصارى من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه الآية فاعلم أن المذكور فى الحديث الاول غير المذكور فى الحديث الثانى وهما قضيتان فاما المذكور فى الحديث الاول فهو أبو خزيمة بن اوس بن زيد بن أصرم بن ثعلبة بن عمرو بن مالك بن النجار الانصارى شهد بدرا وما بعدها وتوفى فى خلافة عثمان وهو الذى وجدت عنده آخر سورة التوبة كذا ذكره ابن عبد البر وأما المذكور فى الحديث الثانى فهو أبو عمارة خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة بن ساعدة الخطمى الاوسى الانصارى يعرف بذى الشهادتين شهد بدرا وما بعدها وقتل يوم صفين مع على بن أبى طالب (قوله فقدت آية من سورة الاحزاب الى قوله فوجدناها مع خزيمة) معناه انه كان يتطلب نسخ القرآن من الاصل الذى كتب بامر النبى صلى الله عليه وسلم وبين يديه فلم يجد تلك الآية الا مع خزيمة وليس فيه اثبات القرآن بقول الواحد لان زيدا كان قد سمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلم موضعها من سورة الاحزاب بتعليم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صرح به الحديث قد كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها وتتبعه الرجال كان للاستظهار لا لاستحداث علم لان القرآن العظيم كان محفوظا عند زيد وغيره من الصحابة فقد ثبت فى الصحيح عن أنس قال جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة كلهم من الانصار أبى بن كعب ومعاذ بن جبل وأبو زيد وزيد يعنى ابن ثابت قلت لانس من أبو زيد قال أحد عمومتى أخرجاه فى الصحيحين اسم أبى زيد سعد بن عبيد وأخرج الترمذى من حديث ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خذوا القرآن من أربعة من ابن مسعود وأبى بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبى حذيفة

وارث علوم الانبياء والمرسلين أكمل فحول المجتهدين قدوة قروم المحققين ذو السعادات والكرامات أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى نفع الله الاسلام والمسلمين بطول بقائه والمسلمين بعين

قال حديث حسن صحيح وتقدم حديث زيد بن ثابت وفيه أنه استحر القتل بقراء القرآن فثبت بمجموع
هذه الاحاديث ان القرآن كان على هذا التأليف والجمع فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما ترك
جمعه فى مصحف واحد لان النسخ كان يرد على بعضه ويرفع الشئ بعد الشئ من التلاوة كما كان ينسخ بعض
أحكامه فلم يجمع فى مصحف لانه لو جمع لو رفع بعض تلاوته أدى ذلك الى الاختلاف واختلاط أمر الدين
فحفظ الله كتابه فى القلوب الى انقضاء زمن النسخ ثم وفق لجمعه الخلفاء الراشدين رضى الله تعالى عنهم
وثبت بالدليل الصحيح ان الصحابة انما جمعوا القرآن بين الدفتين كما أنزله الله عز وجل على رسوله صلى
الله عليه وسلم من غير أن زادوا فيه أو نقصوا منه شيأ والذى حملهم على جمعه ما جاء مبينا فى الحديث وهو أنه
كان مفرقا فى العسب واللخاف وصدور الرجال فخافوا ذهاب بعضه بذهاب حفظته ففزعوا الى خليفة
رسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم أبى بكر فدعوه الى جمعه فرأى فى ذلك رأيهم فامر بجمعه فى موضع
واحد باتفاق من جميعهم فكتبوه كما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير أن قدموا أو أخروا
شيأ أو وضعوا له ترتيبا لم يأخذوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم
يلقن أصحابه ويعلمهم ما ينزل عليه من القرآن على الترتيب الذى هو الآن فى مصاحفنا بتوقيف جبريل عليه
السلام اياه على ذلك واعلامه عند نزول كل آية ان هذه الآية تكتب عقب آية كذا فى سورة كذا
فثبت أن سعى الصحابة كان فى جمعه فى موضع واحد لا فى ترتيبه فان القرآن مكتوب فى اللوح المحفوظ
على النحو الذى هو فى مصاحفنا الآن وقد صح فى حديث ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان
يعرض القرآن على جبريل عليه السلام فى كل عام مرة فى رمضان وانه عرضه فى العام الذى توفى فيه
مرتين ويقال ان زيد بن ثابت شهد العرضة الاخيرة التى عرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم على جبريل
عليه السلام وهى العرضة التى نسخ فيها ما نسخ وبقى فيها ما بقى ولهذا أقام أبو بكر زيد بن ثابت فى كتابة
المصحف وألزمه بها لانه قرأ على النبى صلى الله عليه وسلم فى العام الذى توفى فيه مرتين فكان جمع القرآن
سببا لبقائه فى الامة رحمة من الله تعالى لعباده وتحقيقا لوعده فى حفظه على ما قال تعالى انا نحن نزلنا الذكر وانا له
لحافظون واعلم أن الله تعالى أنزل القرآن المجيد من اللوح المحفوظ جملة واحدة الى سماء الدنيا فى شهر
رمضان فى ليلة القدر ثم كان ينزله مفرقا على لسان جبريل عليه السلام الى النبى صلى الله عليه وسلم مدة
رسالته نجوما عند الحاجة وحدوث ما يحدث على ما شاء الله تعالى وترتيب نزول القرآن غير ترتيبه فى التلاوة
والمصحف فاما ترتيب نزوله على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاول ما نزل من القرآن بمكة اقرأ باسم ربك
الذى خلق ثم نون والقلم ثم يا أيها المزمل ثم المدثر ثم تبت يدا أبى لهب ثم اذا الشمس كورت ثم سبح
اسم ربك الاعلى ثم والليل اذا يغشى ثم والفجر ثم والضحى ثم ألم نشرح ثم والعصر ثم والعاديات
ثم انا أعطيناك الكوثر ثم ألهاكم التكاثر ثم أرأيت الذى ثم قل يا أيها الكافرون ثم الفيل ثم قل هو الله
أحد ثم والنجم ثم عبس ثم سورة القدر ثم سورة البروج ثم التين ثم لايلاف قريش ثم القارعة ثم القيامة
ثم الهمزة ثم المرسلات ثم ق ثم سورة البلد ثم الطارق ثم اقتربت الساعة ثم ص ثم الاعراف ثم الجن
ثم يس ثم الفرقان ثم فاطر ثم مريم ثم طه ثم الواقعة ثم الشعراء ثم النمل ثم القصص ثم سورة بنى اسرائيل
ثم يونس ثم هود ثم يوسف ثم الحجر ثم الانعام ثم والصافات ثم لقمان ثم سبأ ثم الزمر ثم المؤمن
ثم السجدة ثم حم عسق ثم الزخرف ثم الدخان ثم الجاثية ثم الاحقاف ثم الذاريات ثم الغاشية
ثم الكهف ثم النحل ثم نوح ثم ابراهيم ثم الانبياء ثم قد أفلح المؤمنون ثم تنزيل السجدة ثم الطور
ثم الملك ثم الحاقة ثم سأل سائل ثم عم يتساءلون ثم النازعات ثم اذا السماء انفطرت ثم اذا السماء انشقت
ثم الروم ثم العنكبوت واختلفوا فى آخر ما نزل بمكة فقال ابن عباس العنكبوت وقال الضحاك وعطاء

لقائه قد سألنى من تتعين
اجابته كتابا وسطاف
التأويلات جامعا لوجوه
الاعراب والقراآت
متضمنا الدقائق على البدع
والاشارات حاليا باقاويل
أهل السنة والجماعة خاليا

المؤمنون وقال مجاهد ويل للمطففين * فهذا ترتيب ما نزل من القرآن بمكة فذلك ثلاث وثمانون سورة على ما استقرت عليه روايات الثقات وأما ما نزل بالمدينة ٣ فاحد وثلاثون سورة فاول ما نزل بها سورة البقرة ثم الانفال ثم آل عمران ثم الاحزاب ثم الممتحنة ثم النساء ثم اذا زلزلت الارض ثم الحديد ثم سورة محمد صلى الله عليه وسلم ثم الرعد ثم سورة الرحمن ثم هل أتى على الانسان ثم الطلاق ثم لم يكن ثم الحشر ثم الفلق ثم الناس ثم اذا جاء نصر الله والفتح ثم النور ثم الحج ثم اذا جاءك المنافقون ثم المجادلة ثم الحجرات ثم التحريم ثم الجمعة ثم الصف ثم التغابن ثم الفتح ثم التوبة ثم المائدة ومنهم من يقدم المائدة على التوبة فهذا ترتيب ما نزل من القرآن بالمدينة واختلفوا في شورى فقيل نزلت بمكة وقيل نزلت بالمدينة وسنذكر ذلك في مواضعه ان شاء الله تعالى

﴿فصل في كون القرآن نزل على سبعة أحرف وما قيل في ذلك﴾ (ق) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستمعت لقراءته فاذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكدت أساوره في الصلاة فتربصت حتى سلم فلببته بردائه فقلت من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرؤها قال أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت كذبت فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقرأنيها على غير ما قرأت فانطلقت به أقوده الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله اني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسله اقرأ ياهشام فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرؤها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا أنزلت ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم اقرأ ياعمر فقرأت بقراءتي التي أقرأني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا أنزلت ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤا ما تيسر منه (قوله فكدت أساوره في الصلاة) أي أواثبه وأقاتله وهو في الصلاة والتربص التثبت (قوله فلببته بردائه) هو بتشديد الباء الاولى ومعناه أخذت بمجامع ردائه في عنقه وجذبته به مأخوذ من اللبة وفيه بيان ما كانوا عليه من الاعتناء بالقرآن والذب عنه والمحافظة على لفظه كما سمعوه من غير عدول الى ما تجوزه العربية وأما أمر النبي صلى الله عليه وسلم عمر بارساله فلانه لم يثبت عنده ما يقتضي تعزيره ولان عمر انما نسبه الى مخالفته في القراءة والنبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم من جواز القراءة ووجوهها ما لا يعلمه عمر ولانه اذا قرأ وهو ملبب لا يتمكن من حضور القلب وتحقيق القراءة تمكن المطلق (قوله ان هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤا ما تيسر منه) قال العلماء سبب انزاله على سبعة أحرف التخفيف والتسهيل واختلفوا في المراد بسبعة أحرف فقيل هو توسعة وتسهيل ولم يقصد به الحصر وقال الاكثرون هو حصر العدد في سبعة أحرف ثم قيل هي في سبع من المعاني كالوعد والوعيد والمحكم والمتشابه والحلال والحرام والقصص والامثال والامر والنهي وقيل هي في صورة التلاوة وكيفية النطق بكلمات القرآن من ادغام واظهار وتفخيم وترقيق ومد وقصر وامالة لان العرب كانت مختلفة اللغات في هذه الوجوه فيسر الله تعالى عليهم ليقرأ كل انسان بما يوافق لغته ويسهل على لسانه وقال أبو عبيدة هي سبع لغات من لغات العرب تميمها ومعدها وهي أفصح لغات العرب وأعلاها وقيل هي لغة قريش وهوازن وهذيل وأهل اليمن وقيل السبعة كلها لمضر وحدها وهي متفرقة في القرآن العزيز غير مجتمعة في كلمة واحدة وقيل بل هي مجتمعة في بعض الكلمات كقوله تعالى وعبد الطاغوت ونرتع ونلعب وباعد بين أسفارنا وبعذاب بئيس وقيل هي سبع قرا آت وهو الصحيح الموافق للحديث لان هذه السبعة ظهرت واستفاضت عن النبي صلى الله عليه وسلم

٣ قوله فاحد وثلاثون فيه ان المعدود ثلاثون لا غير ثم سيذكر أن شورى نزلت بالمدينة على قول وعليه فهي أحد وثلاثون اه مصححه

رضـبطها عنه الصحابة وأثبتها عثمان والجماعة فى المصاحف وأخبر بصحتها وحذف منها مالم يثبت متواترا وان هـذه الاحرف تختلف معانيها تارة وألفاظها أخرى وليست متضادة ولا متباينـة فامامن قال ان المراد بالاحرف سبعة معان مختلفة كالاحكام والامثال والقصص فخطأ محض لان النبى صـلى الله عليه وسلم أشار الى جواز القراءة بكل واحد من الحروف وابدال حرف بحرف وقد تقرر اجماع المسلمين على انه يحرم ابدال آية أمثال بآية أحكام وقول من قال ان المراد خواتيم الآى فيجعل مكان غفور رحيم سميع عليم ففاسد أيضا وخطأ للاجماع على انه لا يجوز تغيير نظم القرآن والله أعلم (ق) عن ابن عباس رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أقرأنى جبريل على حرف فراجعته فزادنى فلم أزل أستزيده ويزيدنى حتى انتهى الى سبعة أحرف معنى الحـديث لم أزل أطلب من جبريل ان يطلب من الله عز وجـل الزيادة فى الاحرف للتوسعة والتخفيف ويسأل جبريل ربه عز وجل فيزيده حتى انتهى الى السبعة (م) عن أبى بن كعب رضى الله عنه قال كنت فى المسجد فدخل رجل يصلى فقرأ قراءة أنكرتها عليه ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت ان هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه فدخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرآ فحسن النبى صـلى الله عليه وسـلم شأنهما فسـقط فى نفسى من التكـذيب ولا اذ كنت فى الجاهليـة فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما غشينى ضرب فى صدرى ففضت عرقا وكأنما أنظر الى الله عز وجـل فرقا فقال لى يا أبى أرسل الى ان اقرأ على حرف واحد فرددت اليه أن هون على أمتى فرد الى الثانية أن اقرأه على حرفين فرددت اليه أن هون على أمتى فرد الى الثالثة ان اقرأه على سبعة أحرف ولك بكل ردة رددتها مسئلة تسألنيها فقلت اللهم اغفر لامتى اللهم اغفر لامتى وأخرت الثالثة ليوم ترغب الى الناس كلهم حتى ابراهيم (قوله فسقط فى نفسى من التكذيب ولا اذ كنت فى الجاهلية) معناه وسوس لى الشيطان تكذيبا للنبوة أشد مما كنت عليـه فى الجاهلية لانه كان فى الجاهلية غافلا ومشككا فوسوس له الشيطان الجزم بالتكذيب وقيل معناه انه اعترته حيرة ودهشة ونزغ الشيطان فى قلبه تكذيبا لم يعتقده وهذه الخواطر اذا لم يستقر عليها الانسان لا يؤاخذ بها (قوله ضرب فى صدرى ففضت عرقا) قال القاضى عياض ضربه صلى الله عليه وسلم فى صـدره تثبيتا له حين رآه قد غشيه ذلك الخاطر المذموم (قوله وكأنما أنظر الى الله تعالى فرقا) الفرق بالتحريك الخوف والخشـية والمعنى أنه غشيه من الهيبة والخوف والعظمة حين ضربه ما أزال عنه ذلك الخاطر (قوله تعالى ولك بكل ردة رددتها مسـئلة تسألنيها) معناه مسئلة مجابة قطعا وأما باقى الدعوات فرجوة الاجابة وليست قطعية الاجابة والله أعلم * روى البغوى بسنده عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان القرآن نزل على سبعة أحرف لكل آية منه ويروى لكل حرف منه ظهر وبطن ولكل حـد مطلع قيـل فى معناه الظهر لفظ القرآن والبطن تأويله وقيـل فى معناه الظهر ما حدث عن أقوام أنهم عصوا فعوقبوا فهو فى الظاهر خبر وفى الباطن عظة وقيـل الظهر التلاوة والبطن الفهم وقيل الظهر التلاوة باللسان كما أنزل والبطن التدبر والتفهم والتفكر بالقلب فالتـلاوة باللسان تكون بالتعليم والتلقين والتـدبر والتفهم تكون بصدق النيـة وتعظيم الحرمة واخلاص العمل وطيب المطعم من الحـلال المحض (قوله ولكل حد مطلع) معناه مصعد يصـعد اليه من معرفة علمه وقيل المطلع الفهم وقـد يفتح الله تعالى على المتدبر والمتفكر فى القرآن العزيز من التأويل والمعانى ما لا يفتحه على غيره وفوق كل ذى علم عليم والله أعلم

﴿فصل فى معنى التفسير والتأويل﴾ فاما التفسير فاصـله فى اللغة من الفسر وهو كشف ما غطى وهو بيان المعانى المعقولة فكل ما يعرف به الشئ ومعناه فهو تفسير وقـد يقال فيما يختص بمفردات الالفاظ وغريبها

عن أباطيـل أهل البـدع والضـلالة ليس بالطويل الممـل ولا بالقصـير المخـل وكنت أقدم فيـه رجـلا وأؤخر أخرى استقصارا لقوة البشر عن درك هذا الوطر وأخذ السبيل الحذر عن ركوب متن الخطر حتى شرعت فيـه بتوفيق الله والعوائق كثيرة وأتممتـه فى مدة يسيرة ﴿وسميته بمدارك التنزيل وحقائق التأويل﴾ وهو الميسر

تفسير وقيل هو من التفسرة وهو الدليل الذى ينظر فيه الطبيب فيكشف عن علة المريض فكذلك المفسر يكشف عن معنى الآية وشأنها وقصتها وأما التأويل فاشتقاقه من الاول وهو الرجوع الى الاصل يقال أولته فآل أى صرفته فانصرف وهو رد الشئ الى الغاية والمراد منه بيان غايته المقصودة منه فالتأويل بيان المعانى والوجوه المستنبطة الموافقة للفظ الآية والفرق بين التفسير والتأويل ان التفسير يتوقف على النقل المسموع والتأويل يتوقف على الفهم الصحيح والله أعلم ﴿القول فى الاستعاذة﴾ ولفظها المختار أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لموافقة قوله تعالى فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ومعنى أعوذ بالله التجئ اليه وامتنع به مما أخشاه من عاذ يعوذ والشيطان أصله من شطن أى تباعد من الرحمة وقيل من شاط يشيط اذا هلك واحترق والشيطان اسم لكل عارم عات من الجن والانس وشيطان الجن مخلوق من قوة النار فلذلك فيه القوة الغضبية أشد الرجيم فعيل بمعنى فاعل أى يرجم بالوسوسة والشر وقيل بمعنى مفعول أى مرجوم بالشهب عند استراق السمع وقيل مرجوم بالعذاب وقيل مرجوم بمعنى مطرود عن الرحمة وعن الخيرات وعن منازل الملأ الاعلى وأما حكم الاستعاذة ففيه مسائل (المسئلة الاولى) اتفق الجمهور على ان الاستعاذة سنة فى الصلاة فلو تركها لم تبطل صلاته سواء تركها عمداً أو سهوا ويستحب لقارئ القرآن خارج الصلاة أن يتعوذ أيضا وحكى عن عطاء وجوبها سواء كانت فى الصلاة أو غيرها وقال ابن سيرين اذا تعوذ الرجل فى عمره مرة واحدة كفى فى اسقاط الوجوب دليل الوجوب ظاهر قوله تعالى فاستعذ والامر للوجوب وان النبى صلى الله عليه وسلم واظب على التعوذ فيكون واجبا ودليل الجمهور ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يعلم الاعرابى الاستعاذة فى جملة أعمال الصلاة وتاخير البيان عن وقته غير جائز (وأجيب) عن قوله تعالى فاستعذ بان معناه عند جماهير العلماء اذا أردت القراءة فاستعذ كقوله اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا معناه اذا أردتم القيام الى الصلاة وأجيب عن مواظبة النبى صلى الله عليه وسلم بانه صلى الله عليه وسلم واظب على أشياء كثيرة من أفعال الصلاة ليست بواجبة كتكبيرات الانتقالات والتسبيحات فى الصلاة فكان التعوذ مثلها (المسئلة الثانية) وقت الاستعاذة قبل القراءة عند الجمهور سواء كان فى الصلاة أو خارجها وحكى عن النخعى انه بعد القراءة وهو قول داود واحدى الروايتين عن ابن سيرين حجة الجمهور ما روى عن أبى سعيد الخدرى قال كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا قام الى الصلاة بالليل كبر ثم يقول سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا اله غيرك ثم يقول الله أكبر كبيرا ثم يقول أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه أخرجه الترمذى وقال هذا الحديث أشهر حديث فى الباب وقد تكلم فى بعض رجاله وقال أحمد لا يصح ولابى داود والنسائى عن أبى سعيد نحوه وعن جبير بن مطعم انه رأى النبى صلى الله عليه وسلم صلى صلاة قال عمرو ولا أدرى أى صلاة هى قال الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا ثلاثا وسبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثا أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخه ونفثه وهمزه قال نفخه الكبر ونفثه الشعر وهمزه الموتة أخرجه أبو داود وقيل الموتة الجنون لان من جن فقد مات عقله وقيل همزه هو الذى يوسوسه فى الصلاة ونفخه هو الذى يلقيه من الشبه فى الصلاة ليقطع عليه صلاته واحتج مخالف الجمهور بظاهر قوله تعالى فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله وأجيب عنه بما تقدم وقال مالك لا يتعوذ فى المكتوبة ويتعوذ فى قيام رمضان بعد القراءة لنا ما تقدم من الادلة ﴿المسئلة الثالثة﴾ المختار من لفظ الاستعاذة عند الشافعى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وبه قال أبو حنيفة لموافقة قوله تعالى فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ولحديث جبير بن مطعم وقال أحمد الاولى أن يقول أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم جمعا بين هذه الآية وبين قوله تعالى فاستعذ بالله انه هو السميع العليم ولحديث أبى سعيد

لكل عسير وهو على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير

﴿فاتحة الكتاب﴾

مكية وقيل مدنية والاصح انها مكية ومدنية نزلت بمكة حين فرضت الصلاة ثم نزلت بالمدينة حين حولت القبلة الى الكعبة وتسمى أم القرآن للحديث قال عليه السلام لا صلاة لمن لم يقرأ بام القرآن ولاشتمالها على المعانى التى فى القرآن وسورة الوافية والكافية لذلك وسورة الكنز لقوله

وقال الثوري والاوزاعي الاولى أن يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ان الله هو السميع العليم و بالجملة فالاستعاذة تطهر القلب عن كل شئ يشغله عن الله تعالى ومن لطائف الاستعاذة ان قوله أعوذ بالله من الشيطان الرجيم اقرار من العبد بالعجز والضعف واعتراف من العبد بقدرة البارى عز وجل وانه هو الغنى القادر على دفع جميع المضرات والآفات واعتراف من العبد أيضا بان الشيطان عدو مبين ففى الاستعاذة الجاء الى الله تعالى القادر على دفع وسوسة الشيطان الغوى الفاجر وانه لا يقدر على دفعه عن العبد الا الله تعالى والله تعالى أعلم

﴿تفسير سورة الفاتحة﴾

وهى سبع آيات بالاتفاق وسبع وعشرون كلمة ومائة وأربعون حرفا واختلف العلماء فى نزولها فقيل نزلت بمكة وهو قول اكثر العلماء وقيل نزلت بالمدينة وهو قول مجاهد وقيل نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة وسبب ذلك التنبيه على شرفها وفضلها ولها عدة أسماء وكثرة الاسماء تدل على شرف المسمى وفضله (فاول ذلك) فاتحة الكتاب سميت بذلك لان بها افتتح القرآن وبها تفتتح كتابة المصاحف وبها تفتتح الصلاة (الثانى) سورة الحمد سميت بذلك لافتتاحها بالحمد لله (الثالث) أم القرآن وأم الكتاب سميت بذلك لانها أصل القرآن وأم كل شئ أصله وقيل هى امام لما يتلوها من السور (الرابع) السبع المثانى سميت بذلك لانها تثنى فى الصلاة ويقرأ بها فى كل ركعة وقيل لان الله تعالى استثناها لهذه الامة وادخرها لهم لم ينزلها على غيرهم وقيل لانها أنزلت مرتين (الخامس) الوافية سميت بذلك لانها لا تقسم فى القراءة فى الصلاة كما يقسم غيرها من السور (السادس) الكافية سميت بذلك لانها تكفى عن غيرها فى الصلاة ولا يكفى عنها غيرها

﴿فصل فى ذكر فضلها﴾ (خ) عن أبى سعيد بن المعلى قال كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه ثم أتيته فقلت يارسول الله انى كنت أصلى فقال ألم يقل الله استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم ثم قال لى لاعلمنك سورة هى أعظم السور فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد ثم أخذ بيدى فلما أراد أن يخرج قلت له يارسول الله ألم تقل لاعلمنك سورة هى أعظم السور فى القرآن قال الحمد لله رب العالمين هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته ورواه مالك فى الموطأ عنه وقال فيه ان النبى صلى الله عليه وسلم نادى أبى بن كعب وهو يصلى وذكر نحوه وفيه حتى تعلم سورة ما أنزل فى التوراة ولا فى الانجيل ولا فى الزبور مثلها ورواه الترمذى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أبى وهو يصلى وذكر نحو رواية الموطأ وقال فيه حديث حسن صحيح عن أبى بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الانجيل مثل أم القرآن وهى السبع المثانى وهى مقسومة بينى و بين عبدى ولعبدى ما سأل أخرجه الترمذى والنسائى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى أخرجه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن صحيح (م) عن ابن عباس قال بينا جبريل قاعد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال هذا باب من السماء فتح اليوم ولم يفتح قط الا اليوم فنزل منه ملك فقال هذا ملك نزل الى الارض لم ينزل قط الا اليوم فسلم وقال ابشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منها الا أعطيته (قوله سمع نقيضا) هو بالقاف والضاد المعجمة أى صوتا كصوت فتح الباب (م) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى صلاة لم يقرأ فيها بام القرآن فهى خداج هى خداج غير تمام قال فقلت يا أباهريرة انا أحيانا نكون وراء الامام فغمز ذراعى وقال اقرأ بها فى نفسك يا فارسى فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تبارك وتعالى قسمت الصلاة بينى و بين عبدى نصفين

عليه السلام حاكيا عن الله تعالى فاتحة الكتاب كنز من كنوز عرشى وسورة الشفاء والشافية لقوله عليه السلام فاتحة الكتاب شفاء من كل داء الا السام وسورة المثانى لانها تثنى فى كل صلاة وسورة الصلاة لما يروى ولانها تكون واجبة أو فريضة وسورة الحمد والاساس فانها أساس القرآن قال ابن عباس رضى الله عنهما اذا اعتللت أو اشتكيت فعليك بالاساس وآيها سبع بالاتفاق

فنصفها

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها على ان التسمية ليست بآية من الفاتحة ولا من غيرها من السور وانما كتبت للفصل والتبرك للابتداء بها وهو مذهب أبي حنيفة ومن تابعهم رحمهم الله ولذا لايجهر بها عندهم في الصلاة وقراء مكة والكوفة على انها آية من الفاتحة ومن كل سورة وعليه الشافعي وأصحابه رحمهم الله ولذا يجهرون بها في الصلاة وقالوا قد أثبتها السلف في المصحف مع الامر بتجريد القرآن عما ليس منه وعن ابن عباس رضي الله عنهما من تركها فقد ترك مائة وأربع عشرة آية من كتاب الله ولنا حديث أبي هريرة قال سمعت النبي عليه السلام يقول قال الله تعالى قسمت الصلاة أي الفاتحة بيني و بين عبدي نصفين ولعبدي ماسأل فاذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله تعالى حمدني عبدي واذا قال الرحمن الرحيم قال الله تعالى أثنى على عبدي واذا قال مالك يوم الدين قال مجدني عبدي واذا قال اياك نعبد واياك نستعين قال هذا بيني و بين عبدي ولعبدي ماسأل فاذا قال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال هذا لعبدي ولعبدي ماسأل فالابتداء بقوله الحمد لله دليل على أن التسمية ليست من الفاتحة واذا لم تكن من الفاتحة لاتكون من غيرها اجماعا والحديث مذكور في صحاح المصابيح وما ذكروا مايضرنا لان التسمية آية من القرآن أنزلت للفصل بين السور عندنا ذكره فخر الاسلام في المبسوط وانما يرد علينا ان لو لم نجعلها آية من القرآن وتمام تقريره في الكافي وتعلقت الباء بمحذوف تقديره بسم الله أقرأ أو أتلو لان الذي يتلو التسمية مقروء كما ان المسافر اذا حل وارتحل فقال بسم الله والبركات كان المعنى بسم الله أحل و بسم الله أرتحل وكذا الذابح وكل فاعل يبدأ في فعله باسم الله كان مضمرا ماجعل التسمية مبدأ له وانما قدر المحذوف متأخرا لان

فنصفها الى ونصفها لعبدي ولعبدي ماسأل فاذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله حمدني عبدي واذا قال الرحمن الرحيم قال أثنى على عبدي واذا قال مالك يوم الدين قال مجدني عبدي وربما قال فوض الى عبدي واذا قال اياك نعبد واياك نستعين قال هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ماسأل واذا قال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال هذا لعبدي ولعبدي ماسأل (قوله فهي خداج) أي ناقصة (قوله فغمز ذراعي) أي كبس ساعدي بيده (قوله قسمت الصلاة) أراد بالصلاة هنا القراءة لانه فسرها بها ولان القراءة ركن من أركانها وجزء من أجزائها (قوله نصفين) حقيقة هذه القسمة التي جعلها بينه و بين عبده راجعة الى المعنى لا الى اللفظ لان هذه السورة من جهة المعنى نصفها ثناء ونصفها مسئلة ودعاء وقسم الثناء انتهى عند قوله تعالى اياك نعبد وقوله واياك نستعين من قسم الدعاء ولهذا قال هذا بيني و بين عبدي ولعبدي ماسأل (قوله حمدني عبدي ومجدني) أي أثنى على لان الحمد هو الثناء بجميل الفعال والتمجيد الثناء بصفات الجلال وقيل التحميد والتمجيد التعظيم (قوله وربما قال فوض الى عبدي) وجه مطابقة هذا لقوله مالك يوم الدين يقال فلان فوض أمره الى فلان اذا رده اليه وعول فيه عليه وفي الحديث دليل على وجوب قراءة الفاتحة وأنها متعينة وهو مذهب الشافعي وجماعة وستأتي هذه المسئلة ان شاء الله تعالى بعد ذكر تفسير الفاتحة والله أعلم

(بسم الله الرحمن الرحيم) الباء في بسم الله حرف خافض يخفض مابعده مثل من وعن والمتعلق به مضمر محذوف لدلالة الكلام عليه تقديره أبدأ باسم الله أو باسم الله أبدأ أو أقرأ وانما طولت الباء في بسم الله وأسقطت الالف طلبا للخفة وقيل لما أسقطوا الالف ردوا طولها على الباء ليدل طولها على الالف المحذوفة وأثبتت الالف في قوله تعالى فسبح باسم ربك العظيم لقلة استعماله وقيل انما طولوا الباء لانهم أرادوا أن يستفتحوا كتاب الله بحرف معظم وقيل الباء حرف منخفض الصورة فلما اتصل باسم الله ارتفع واستعلى وقيل ان عمر بن عبد العزيز كان يقول لكتابه طولوا الباء من بسم الله وأظهروا السين ودوروا الميم تعظيما لكتاب الله عز وجل والاسم هو المسمى عينه وذاته قال الله تعالى انا نبشرك بغلام اسمه يحيى ثم نادى الاسم فقال يايحيى وقال سبح اسم ربك وتبارك اسم ربك وهذا القول ليس بقوي والصحيح المختار أن الاسم غير المسمى وغير التسمية فالاسم ماتعرف به ذات الشئ وذلك لان الاسم هو الاصوات المقطعة والحروف المؤلفة الدالة على ذات ذلك الشئ المسمى به فثبت بهذا أن الاسم غير المسمى وأيضا قد تكون الاسماء كثيرة والمسمى واحد كقوله تعالى ولله الاسماء الحسنى وقد يكون الاسم واحدا والمسميات به كثيرة كالاسماء المشتركة وذلك يوجب المغايرة وأيضا فقوله فادعوه بها أمر أن يدعى الله تعالى باسمائه فالاسم آلة الدعاء والمدعو هو الله تعالى فالمغايرة حاصلة بين ذات المدعو و بين اللفظ المدعو به وأجيب عن قوله تعالى انا نبشرك بغلام اسمه يحيى بان المراد ذات الشخص المعبر عنه بيحيى لا نفس الاسم وأجيب عن قوله تعالى سبح اسم ربك وتبارك اسم ربك بان معنى هذه الالفاظ يقتضي اضافة الاسم الى الله تعالى واضافة الشئ الى نفسه محال وقيل كما يجب تنزيه ذاته سبحانه وتعالى عن النقص فكذلك يجب تنزيه أسمائه وكون الاسم غير التسمية هو ان التسمية عبارة عن تعيين اللفظ المعين لتعريف ذات الشئ والاسم عبارة عن تلك اللفظة المعينة والفرق

ظاهر واختلفوا في اشتقاق الاسم فقال البصريون من السمو وهو العلو فاسم الشئ ماعلاه حتى ظهر به وعلا عليه فكأنه علا على معناه وصار علماله وقال الكوفيون من السمة وهي العلامة فكأنه علامة لمسماه وحجة البصريين لو كان الاسم اشتقاقه من السمة لكان تصغيره وسيم وجمعه أوسام وأجمعوا على أن تصغيره سمي وجمعه أسماء وأسام (الله) هو اسم علم خاص لله تعالى تفرد به الباري سبحانه وتعالى ليس بمشتق ولا يشركه فيه أحد وهو الصحيح المختار دليله قوله تعالى هل تعلم له سميا يعني لا يقال لغيره الله وقيل هو مشتق من أله يأله الاهة مثل عبد الرجل يعبد عبادة دليله و يذرك وآلهتك أي وعبادتك ومعناه المستحق للعبادة دون غيره وقيل من الوله وهو الفزع لان الخلق يولهون اليه أي يفزعون اليه في حوائجهم قال بعضهم

ولهت اليكم في بلايا تنوبني * فالفيتكم فيها كرائم محتد

وقيل أصله أله يقال ألهت الى فلان أي سكنت اليه فكأن الخلق يسكنون اليه و يطمئنون بذكره وقيل أصله ولاه فابدلت الواو همزة سمي بذلك لان كل مخلوق واله نحوه اما بالتحير أو بالارادة ومن هذا قيل الله محبوب كل الاشياء يدل عليه وان من شئ الا يسبح بحمده ومن خصائص هذا الاسم انك اذا حذفت منه شيأ بقي الباقي يدل عليه فان حذفت الالف بقي لله وان حذفت اللام وأثبت الالف بقي اله وان حذفتهما بقي له وان حذفت الالف واللامين معا بقي هو والواو عوض عن الضمة وذهب بعضهم الى ان هذا الاسم هو الاسم الاعظم لانه يدل على الذات و باقي الاسماء تدل على الصفات (الرحمن الرحيم) قال ابن عباس هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر قيل هما بمعنى مثل ندمان ونديم ومعناهما ذو الرحمة وانما جمع بينهما للتأكيد وقيل ذكر أحدهما بعد الآخر تطميعا لقلوب الراغبين اليه وقيل الرحمن فيه معنى العموم والرحيم فيه معنى الخصوص فالرحمن بمعنى الرزاق في الدنيا وهو على العموم لكافة الخلق المؤمن والكافر والرحيم بمعنى الغفور الكافي للمؤمنين في الآخرة فهو على الخصوص ولذلك قيل رحمن الدنيا ورحيم الآخرة ورحمة الله ارادة الخير والاحسان لاهله وقيل هي ترك عقوبة من يستحق العقاب واسداء الخير والاحسان الى من لا يستحق فهو على الاول صفة ذات وعلى الثاني صفة فعل وقيل الرحمن بكشف الكروب والرحيم يغفر الذنوب وقيل الرحمن بتبيين الطريق والرحيم بالعصمة والتوفيق

﴿فصل في حكم البسملة﴾ وفيه مسئلتان (الاولى) في كون البسملة من الفاتحة وغيرها من السور سوى سورة براءة اختلف العلماء في ذلك فذهب الشافعي وجماعة من العلماء الى أنها آية من الفاتحة ومن كل سورة ذكرت في أولها سوى سورة براءة وهو قول ابن عباس وابن عمر وأبي هريرة وسعيد بن جبير وعطاء وابن المبارك وأحمد في احدى الروايتين عنه واسحق ونقل البيهقي هذا القول عن علي بن أبي طالب والزهري والثوري ومحمد بن كعب وذهب الاوزاعي ومالك وأبو حنيفة الى أن البسملة ليست بآية من الفاتحة زاد أبو داود ولا من غيرها من السور وانما هي بعض آية في سورة النمل وانما كتبت للفصل والتبرك قال مالك ولا يستفتح بها في الصلاة المفروضة وللشافعي قول انها ليست من أوائل السور مع القطع بانها من الفاتحة فاما حجة من منع كون البسملة آية من الفاتحة ومن غيرها فحديث أنس المشهور المخرج في الصحيحين

الاهم من الفعل والمتعلق به هو المتعلق به وكانوا يبدؤن باسماء آلهتهم فيقولون باسم اللات وباسم العزى فوجب أن يقصد الموحد معنى اختصاص اسم الله عزوجل بالابتداء وذا بتقديمه وتاخير الفعل وانما قدم الفعل في اقرأ باسم ربك لانها أول سورة نزلت في قول وكان الأمر بالقراءة أهم فكان تقديم الفعل أوقع ويجوز أن يحمل اقرأ على معنى افعل القراءة وحققها كقولهم فلان يعطي و يمنع غير متعد الى مقروء به وان يكون باسم ربك مفعول اقرأ الذي بعده واسم الله يتعلق بالقراءة تعلق الدهن بالانبات في قوله تنبت بالدهن على معنى متبركا باسم الله اقرأ ففيه تعليم عباده كيف يتبركون باسمه وكيف يعظمونه و بنيت الباء على الكسر لانها تلازم الحرفية والجر فكسرت لتشابه حركتها عملها والاسم من الاسماء التي بنوا أوائلها على السكون كالابن والابنة وغيرهما فاذا نطقوا بها مبتدئين زادوا همزة تحاديا عن الابتداء بالساكن تعذرا واذا وقعت في الدرج لم يفتقر الى زيادة شئ ومنهم من لم يزدها واستغنى عنها بتحريك الساكن فقال سم وسم وهو من الاسماء المحذوفة الاعجاز كيد ودم وأصله سمو بدليل تصريفه كاسماء وسمي وسميت واشتقاقه من السمو وهو الرفعة لان التسمية تنويه بالمسمى واشارة بذكره وحذفت الالف في الخط هنا وأثبتت في قوله اقرأ باسم ربك لانه اجتمع فيها أي في التسمية مع أنها تسقط في اللفظ كثرة الاستعمال وطولت الباء عوضا عن حذفها وقال عمر بن عبد العزيز لكاتبه طول الباء وأظهر السينات ودور الميم والله أصله الاله ونظيره الناس أصله الاناس حذفت الهمزة وعوض منها حرف التعريف والاله من أسماء الاجناس يقع على كل معبود بحق أو باطل ثم غلب على المعبود بالحق كالنجم اسم لكل كوكب

الصحيحين وحديث عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين قالوا ولان أول ما نزل به جبريل اقرأ باسم ربك الذى خلق ولم يذكر البسملة فى أولها فدل على انها ليست منها قالوا ولان محل القرآن لا يثبت الا بالتواتر والاستفاضة ولان الصحابة أجمعوا على عدد كثير من السور منها سورة الملك ثلاثون آية وسورة الكوثر ثلاث آيات وسورة الاخلاص أربع آيات فلو كانت البسملة منها لكانت خمسا * وأما حجة من ذهب الى اثباتها فى أوائل السور من جهة النقل فقد صح عن أم سلمة ان النبى صلى الله عليه وسلم قرأ البسملة فى أول الفاتحة فى الصلاة وعدها آية منها وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى قوله تعالى ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم قال هى فاتحة الكتاب قيل فأين السابعة قال بسم الله الرحمن الرحيم أخرجهما ابن خزيمة وغيره وروى عن ابن عباس ان النبى صلى الله عليه وسلم كان لا يعلم فصل السورة وفى رواية انقضاء السورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم أخرجه أبو داود والحاكم أبو عبد الله فى مستدركه وقال فيه انه صحيح على شرط الشيخين وروى الدارقطنى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قرأتم الحمد لله فاقرؤا بسم الله الرحمن الرحيم فانها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى و بسم الله الرحمن الرحيم احدى آياتها قال الدارقطنى فى رجال اسناده كلهم ثقات وروى موقوفا وروى الدارقطنى عن أم سلمة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الى آخرها قطعها آية آية وعدها عد الاعراب وعد بسم الله الرحمن الرحيم آية ولم يعد عليهم وأخرج مسلم فى أفراده عن أنس قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا اذ أغفى اغفاءة ثم رفع رأسه متبسما فقلنا ما أضحكك يا رسول الله قال أنزلت على آنفا سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم انا أعطيناك الكوثر الحديث قال البيهقى أحسن ما احتج به أصحابنا فى ان بسم الله الرحمن الرحيم من القرآن وانها من فواتح السور سوى سورة براءة ما روينا فى جمع الصحابة كتاب الله عز وجل فى المصاحف وانهم كتبوا فيها بسم الله الرحمن الرحيم على رأس كل سورة سوى سورة براءة فكيف يتوهم متوهم انهم كتبوا فيها مائة وثلاثة عشر آية ليست من القرآن قال وقد علمنا بالروايات الصحيحة عن ابن عباس أنه كان يعد بسم الله الرحمن الرحيم آية من الفاتحة وروى الشافعى بسنده عن ابن عمر أنه كان لا يدع بسم الله الرحمن الرحيم لام القرآن والسورة التى بعدها وزاد غيره عنه أنه كان يقول لما كتبت فى المصحف لم تقرأ وروى الشافعى عن ابن عباس أنه كان يفعله ويقول انتزع الشيطان منهم خير آية فى القرآن وفى افراد البخارى من حديث أنس أنه سئل كيف كانت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كانت مدا ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم فقد ثبت بهذه الادلة الصحيحة الواضحة أن البسملة من الفاتحة ومن كل موضع ذكرت فيه وأيضا فاجماع الصحابة على اثباتها فى المصاحف وأنهم طلبوا بكتابة المصاحف تجريد كلام الله عز وجل المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم قرآنا وتدوينه مخافة من أن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه ولهذا لم يكتبوا فيه لفظة آمين وان كان قد ورد أنه كان يقولها بعد الفاتحة فلو لم تكن البسملة

ثم غلب على الثريا وأما الله بحذف الهمزة فمختص بالمعبود بالحق لم يطلق على غيره وهو اسم غير صفة لانك تصفه ولا تصف به لا تقول شئ اله كما لا تقول شئ رجل وتقول اله واحد صمد ولان صفاته تعالى لا بد لها من موصوف تجرى عليه فلو جعلتها كلها صفات لبقيت صفات غير جارية على اسم موصوف بها وذا لا يجوز ولا اشتقاق لهذا الاسم عند الخليل والزجاج ومحمد بن الحسن والحسين بن الفضل وقيل معنى الاشتقاق ان ينتظم الصيغتين فصاعدا معنى واحد وصيغة هذا الاسم وصيغة قولهم أله اذا تحير ينتظمهما معنى التحير والدهشة وذلك ان الاوهام تتحير فى معرفة المعبود وتدهش الفطن ولذا كثر الضلال وفشا الباطل وقل النظر الصحيح وقيل هو من قولهم أله يأله الهة اذا عبد فهو مصدر بمعنى مألوه أى معبود كقوله هذا خلق الله أى مخلوقه وتفخم لامه اذا كان قبلها فتحة أو ضمة وترقق اذا كان قبلها كسرة ومنهم من يرققها بكل حال ومنهم من يفخم بكل حال والجمهور على الاول والرحمن فعلان من رحم وهو الذى وسعت رحمته كل شئ كغضبان من غضب وهو الممتلئ غضبا وكذا الرحيم فعيل منه كمريض من مرض وفى الرحمن من المبالغة ما ليس فى الرحيم لان فى الرحيم زيادة واحدة وفى الرحمن زيادتين وزيادة اللفظ تدل على زيادة المعنى ولذا جاء فى الدعاء يا رحمن الدنيا لانه يعم المؤمن والكافر ورحيم الآخرة لانه يخص المؤمن وقالوا الرحمن خاص تسمية لانه لا يوصف به غيره وعام معنى لما بينا والرحيم بعكسه لانه يوصف به غيره ويخص المؤمنين ولذا قدم الرحمن وان كان أبلغ والقياس الترقى من الادنى الى الاعلى يقال فلان عالم ذو فنون نحرير لانه كالعلم لما لم يوصف به غير الله ورحمة الله انعامه على عباده وأصلها العطف وأما قول الشاعر فى مسيلمة * وأنت غيث الورى لا زلت رحمانا * فباب من تعنتهم فى كفرهم ورحمن غير منصرف عند من زعم ان الشرط انتفاء فعلانة اذ ليس له فعلانة ومن زعم ان الشرط وجود فعلى صرفه اذ ليس له فعلى والاول الوجه

(الحمد) الوصف بالجميل على جهة التفضيل وهو رفع بالابتداء وأصله النصب وقد قرئ باضمار فعله على أنه من المصادر المنصوبة بأفعال مضمرة في معنى الاخبار كقولهم شكرا وكفرا والعدول عن النصب الى الرفع للدلالة على ثبات المعنى واستقراره والخبر (لله) واللام متعلق بمحذوف أي واجب أو ثابت وقيل الحمد والمدح اخوان وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها تقول حمدت الرجل على انعامه وحمدته على شجاعته وحسبه وأما الشكر فعلى النعمة خاصة وهو بالقلب واللسان والجوارح قال

* أفادتكم النعماء مني ثلاثة * يدي ولساني والضمير المحجبا

أي القلب والحمد باللسان وحده وهو احدى شعب الشكر ومنه الحديث الحمد رأس الشكر ما شكر الله عبد لم يحمده وجعله رأس الشكر لان ذكر النعمة باللسان أشيع لها من الاعتقاد بالقلب وآداب الجوارح لخفاء عمل القلب وما في عمل الجوارح من الاحتمال ونقيض الحمد الذم ونقيض الشكر الكفران وقيل المدح ثناء على ما هو له من أوصاف الكمال ككونه باقيا قادرا عالما أبديا أزليا والشكر ثناء على ما هو منه من أوصاف الافضال والحمد يشملهما والالف واللام فيه للاستغراق عندنا خلافا للمعتزلة ولذا قرن باسم الله لانه اسم ذات فيستجمع صفات الكمال وهو بناء على مسئلة خلق الافعال وقد حققته في مواضع

من القرآن في أوائل السور لما كتبوها وكان حكمها حكم آمين

(المسئلة الثانية في حكم الجهر بالبسملة والاسرار) اذا ثبت بما تقدم من الادلة أن البسملة آية من الفاتحة ومن غيرها من السور حيث كتبت كان حكمها في الجهر والاسرار حكم الفاتحة فيجهر بها مع الفاتحة في الصلاة الجهرية و يسر بها مع الفاتحة في الصلاة السرية وممن قال بالجهر بالبسملة من الصحابة أبو هريرة وابن عباس وابن عمر وابن الزبير ومن التابعين فمن بعدهم سعيد بن جبير وأبو قلابة والزهري وعكرمة وعطاء وطاوس ومجاهد وعلي بن الحسين وسالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي وابن سيرين وابن المنكدر ونافع مولى ابن عمر وزيد بن أسلم ومكحول وعمر بن عبد العزيز وعمرو بن دينار ومسلم بن خالد واليه ذهب الشافعي وهو أحد قولي ابن وهب صاحب مالك ويحكى أيضا عن ابن المبارك وأبي ثور وممن ذهب الى الاسرار بها من الصحابة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود وعمار بن ياسر وابن مغفل وغيرهم ومن التابعين فمن بعدهم الحسن والشعبي وابراهيم النخعي وقتادة والاعمش والثوري واليه ذهب مالك وأبو حنيفة وأحمد وغيرهم أما حجة من قال بالجهر فقد روى جماعة من الصحابة منهم أبو هريرة وابن عباس وأنس وعلي بن أبي طالب وسمرة بن جندب وأم سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم جهر بالبسملة فمنهم من صرح بذلك ومنهم من فهم ذلك من عبارته ولم يرد في صريح الاسرار بها عن النبي صلى الله عليه وسلم الا روايتان احداهما ضعيفة وهي رواية عبد الله بن مغفل والاخرى عن أنس وهي في الصحيح وهي معللة بما أوجب سقوط الاحتجاج بها وروى نعيم بن عبد الله المجمر قال صليت وراء أبي هريرة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ثم قرأ بأم القرآن وذكر الحديث وفيه ثم يقول اذا سلم اني لأشبهكم صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجه النسائي وابن خزيمة في صحيحه وقال أما الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم فقد ثبت وصح عن النبي صلى الله عليه وسلم وروى الدارقطني بسنده عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا قرأ وهو يؤم الناس افتتح ببسم الله الرحمن الرحيم وذكر الحديث قال الدارقطني اسناده كلهم ثقات وعن ابن عباس قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم أخرجه الدارقطني وقال ليس في روايته مجروح وأخرجه الحاكم أبو عبد الله وقال اسناده صحيح وليس له علة وفي رواية عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتتح الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم أخرجه الدارقطني وقال صحيح ليس في اسناده مجروح وأخرجه الترمذي وقال ليس اسناده بذاك قال الشيخ أبو شامة أي لا يماثل اسناده ما في الصحيح ولكن اذا انضم الى ما تقدم من الادلة رجح على ما في الصحيح وعن أنس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهر بالقراءة ببسم الله الرحمن الرحيم أخرجه الدارقطني وقال اسناده صحيح وفيه عن محمد ابن أبي السري العسقلاني قال صليت خلف المعتمر بن سليمان ما لا أحصي صلاة الصبح والمغرب فكان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم قبل فاتحة الكتاب وبعدها وسمعت المعتمر يقول ما ألوى أن أقتدي بصلاة أنس بن مالك وقال أنس بن مالك ما ألوى أن أقتدي بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجه الدارقطني وقال كلهم ثقات وأخرجه الحاكم أبو عبد الله وقال رواة هذا الحديث عن آخرهم كلهم ثقات قلت وفي الباب أحاديث وأدلة وايرادات وأجوبة من الجانبين يطول ذكرها وفي هذا القدر كفاية وبالله التوفيق قوله عز وجل (الحمد لله) لفظه خبر كأنه سبحانه وتعالى يخبر أن المستحق للحمد هو الله تعالى ومعناه الامر أي قولوا الحمد لله وفيه تعليم الخلق كيف يحمدونه والحمد والمدح اخوان وقيل بينهما فرق وهو أن المدح قد يكون قبل الاحسان وبعده والحمد لا يكون الا بعد الاحسان وقيل ان المدح قد يكون منهيا عنه وأما الحمد فأمور به والحمد يكون بمعنى الشكر على النعمة ويكون بمعنى الثناء بجميل الافعال تقول حمدت الرجل على

علمه وكرمه والشكر لا يكون الا على النعمة فالحمد أعم من الشكر ذلا تقول شكرت ولانا على علمه فكل حامد شاكر وليس كل شاكر حامدا وقيل الحمد باللسان قولا والشكر بالاركان فعلا والحمد ضد الذم واللام فى لله لام الاستحقاق كقولك الدار لزيد يعنى انه المستحق للحمد لانه المحسن المتفضل على كافة الخلق على الاطلاق (رب العالمين) الرب بمعنى المالك كما يقال رب الدار ورب الشئ أى مالكه ويكون بمعنى التربية والاصلاح يقال رب فلان الضيعة يربها اذا أصلحها فالله تعالى مالك العالمين ومربيهم ومصلحهم ولا يقال الرب للمخلوق معرفا بل يقال رب الشئ مضافا والعالمين جمع عالم لا واحد له من لفظه وهو اسم لكل موجود سوى الله تعالى فيدخل فيه جميع الخلق وقال ابن عباس هم الجن والانس لانهم المكلفون بالخطاب وقيل العالم اسم لذوى العلم من الملائكة والجن والانس ولا يقال للبهائم عالم لانها لا تعقل واختلف فى مبلغ عددهم فقيل لله ألف عالم ستمائة عالم فى البحر وأربعمائة فى البر وقيل ثمانون ألف عالم أربعون ألفا فى البر ومثلهم فى البحر وقيل ثمانية عشر ألف عالم الدنيا منها عالم واحد وما العمران فى الخراب الا كفسطاط فى صحراء الفسطاط الخيمة واشتقاق العالم من العلم وقيل من العلامة وانما سمى بذلك لانه دال على الخالق سبحانه وتعالى (الرحمن الرحيم) فالرحمن هو المنعم بما لا يتصور صدور تلك النعمة من العباد والرحيم هو المنعم بما يتصور صدور تلك النعمة من العباد فلا يقال لغير الله رحمن ويقال لغيره من العباد رحيم فان قلت قد سمى مسيلمة الكذاب برحمن اليمامة وهو قول شاعرهم فيه * وأنت غيث الورى لا زلت رحمانا * قلت هو من باب تعنتهم فى كفرهم ومبالغتهم فى مدح صاحبهم فلا يلتفت الى قولهم هذا فان قلت قد ذكر الرحمن الرحيم فى البسملة فما فائدة تكريره هنا مرة ثانية قلت ليعلم ان العناية بالرحمة أكثر من غيرها من الامور وان الحاجة اليها أكثر فنبه سبحانه وتعالى بتكرير ذكر الرحمة على كثرتها وانه هو المتفضل بها على خلقه ۞ قوله تعالى (مالك يوم الدين) يعنى انه تعالى صاحب ذلك اليوم الذى يكون فيه الجزاء والمالك هو المتصرف بالامر والنهى وقيل هو القادر على اختراع الاعيان من العدم الى الوجود ولا يقدر على ذلك الا الله تعالى وقيل مالك أوسع من ملك لانه يقال مالك العبد والدابة ولا يقال ملك هذه الاشياء ولانه لا يكون ملكا لشئ الا وهو يملكه وقد يكون مالكا للشئ ولا يملكه وقيل ملك أولى لان كل ملك مالك وليس كل مالك ملكا وقيل هما بمعنى واحد مثل فرهين وفارهين قال ابن عباس مالك يوم الدين قاضى يوم الحساب وقيل الدين الجزاء ويقع على الخير والشر يقال كما تدين تدان وقيل هو يوم لا ينفع فيه الا الدين وقيل الدين القهر يقال دنته فدان أى قهرته فذل فان قلت لم خص يوم الدين بالذكر مع كونه مالكا للايام كلها قلت لان ملك الاملاك يومئذ زائل فلا ملك ولا أمر يومئذ الا الله تعالى كما قال تعالى الملك يومئذ الحق للرحمن وقال لمن الملك اليوم لله الواحد القهار وقد يسمى فى دار الدنيا آحاد الناس بالملك وذلك على المجاز لا على الحقيقة ۞ قوله تعالى (اياك نعبد) رجع من الخبر الى الخطاب وفائدة ذلك من أول السورة الى هنا ثناء والثناء فى الغيبة أولى ومن قوله اياك نعبد دعاء والخطاب فى الدعاء أولى وقيل فيه اضمار أى قولوا اياك نعبد والمعنى اياك نخص بالعبادة ونوحدك ونطيعك خاضعين لك والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل وسمى العبد عبدا لذلته وانقياده وقيل العبادة عبارة عن الفعل الذى يؤدى به الفرض لتعظيم الله تعالى فقول العبد اياك نعبد معناه لا أعبد

(رب العالمين) الرب المالك ومنه قول صفوان لابى سفيان لأن يربنى رجل من قريش أحب الى من أن يربنى رجل من هوازن تقول ربه يربه ربا فهو رب ويجوز أن يكون وصفا بالمصدر للمبالغة كما وصف بالعدل ولم يطلقوا الرب الا فى الله وحده وهو فى العبيد مع التقييد انه ربى أحسن مثواى قال ارجع الى ربك وقال الواسطى هو الخالق ابتداء والمربى غذاء والغافر انتهاء وهو اسم الله الاعظم والعالم كل ما علم به الخالق من الاجسام والجواهر والاعراض أو كل موجود سوى الله تعالى سمى به لانه علم على وجوده وانما جمع بالواو والنون مع انه يختص بصفات العقلاء أو ما فى حكمها من الاعلام لما فيه من معنى الوصفية وهى الدلالة على معنى العلم (الرحمن الرحيم) ذكرهما قدمر وهو دليل على ان التسمية ليست من الفاتحة اذ لو كانت منها لما أعادهما لخلو الاعادة عن الافادة (مالك) عاصم وعلى ملك غيرهما وهو الاختيار عند البعض لاستغنائه عن الاضافة ولقوله لمن الملك اليوم ولان كل ملك مالك وليس كل مالك ملكا ولان أمر الملك ينفذ على المالك دون عكسه وقيل المالك أكثر ثوابا لانه أكثر حروفا وقرأ أبو حنيفة والحسن رضى الله عنهما ملك (يوم الدين) أى يوم الجزاء ويقال كما تدين تدان أى كما تفعل تجازى وهذه اضافة اسم الفاعل الى الظرف على طريق الاتساع كقولهم * ياسارق الليلة أهل الدار * أى مالك الامر كله فى يوم الدين والتخصيص بيوم الدين لان الامر فيه لله وحده وانما ساغ وقوعه صفة للمعرفة مع أن اضافة اسم الفاعل اضافة غير حقيقية لانه أريد به الاستمرار فكانت الاضافة حقيقية فساغ أن يكون صفة للمعرفة وهذه الاوصاف التى اجريت على الله سبحانه وتعالى من كونه ربا أى مالكا للعالمين ومنعما بالنعم كلها ومالكا للامر كله يوم الثواب والعقاب بعد الدلالة على اختصاص الحمد به فى قوله الحمد لله دليل على ان من كانت هذه صفاته لم يكن أحد أحق منه بالحمد والثناء عليه (اياك نعبد

واياك نستعين) ايا عند الخليل وسيبويه اسم مضمر والكاف حرف خطاب عند سيبويه ولا محل له من الاعراب وعند الخليل هو اسم مضمر أضيف اياليه لانه يشبه المظهر لتقدمه على الفعل والفاعل وقال الكوفيون اياك بكمالها اسم وتقديم المفعول لقصد الاختصاص والمعنى نخصك بالعبادة وهي أقصى غاية الخضوع والتذلل ونخصك بطلب المعونة وعدل عن الغيبة الى الخطاب للالتفات وهو قد يكون من الغيبة الى الخطاب ومن الغيبة الى التكلم كقوله تعالى حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وقوله والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه وقول امرئ القيس تطاول ليلك بالأثمد ونام الخلي ولم ترقد * بات وباتت له ليلة * كليلة ذي العائر الارمد * وذلك من نبأ جاءني * وخبرته عن أبي الاسود فالتفت في الابيات الثلاثة حيث لم يقل ليلي وبت وجاءك والعرب يستكثرون منه ويرون الكلام اذا انتقل من أسلوب الى أسلوب أدخل في القبول عند السامع وأحسن تطرية لنشاطه واملأ لاستلذاذ اصغائه وقد تختص مواقعه بفوائد ولطائف قلما تتضح الا للحذاق المهرة والعلماء النحارير وقليل ماهم ومما اختص به هذا الموضع أنه لما ذكر الحقيق بالحمد والثناء وأجرى عليه تلك الصفات العظام تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل اياك يامن هذه صفاته نعبد ونستعين لا غيرك وقدمت العبادة على الاستعانة لان تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة أقرب الى الاجابة أو لنظم الآي كما قدم الرحمن وان كان الابلغ لا يقدم وأطلقت الاستعانة لتتناول كل مستعان فيه ويجوز أن يراد الاستعانة به وبتوفيقه على أداء العبادات ويكون قوله اهدنا بيانا للمطلوب من المعونة كأنه قيل كيف أعينكم فقالوا (اهدنا الصراط المستقيم) أي ثبتنا على المنهاج الواضح كقولك للقائم قم حتى أعود اليك أي اثبت على ما أنت عليه او اهدنا في الاستقبال كما هديتنا في الحال وهدى يتعدى بنفسه الى مفعول واحد فاما تعديه الى مفعول آخر فقد جاء متعديا اليه بنفسه كهذه الآية وقد جاء متعديا باللام وبالى كقوله تعالى هدانا لهذا وقوله هداني ربي الى صراط مستقيم والسراط الجادة من سرط الشئ اذا ابتلعه كأنه يسرط السابلة اذا سلكوه والصراط من قلب السين صادا لتجانس الطاء في الاطباق لان الصاد والضاد والطاء والظاء من حروف الاطباق وقد تشم الصاد صوت الزاي لان الزاي الى الطاء أقرب لانهما مجهورتان وهي قراءة حمزة والسين قراءة ابن كثير في كل القرآن وهي الاصل في الكلمة والباقون بالصاد الخالصة وهي لغة قريش وهي الثابتة في المصحف الامام ويذكر ويؤنث كالطريق والسبيل والمراد به طريق الحق وهو ملة الاسلام (صراط الذين أنعمت عليهم) بدل من الصراط وهو في حكم تكرير العامل وفائدته التأكيد والاشعار بان الصراط المستقيم تفسيره صراط المسلمين ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة على أبلغ وجه وآكده وهم المؤمنون والانبياء عليهم السلام أو قوم موسى قبل أن يغيروا (غير المغضوب عليهم

أحدا سواك والعبادة غاية التذلل من العبد ونهاية التعظيم للرب سبحانه وتعالى لانه العظيم المستحق للعبادة ولا تستعمل العبادة الا في الخضوع لله تعالى لانه مولى أعظم النعم وهي ايجاد العبد من العدم الى الوجود ثم هداه الى دينه فكان العبد حقيقا بالخضوع والتذلل له (واياك نستعين) أي منك نطلب المعونة على عبادتك وعلى جميع أمورنا فان قلت الاستعانة على العمل انما تكون قبل الشروع فيه فلم أخر الاستعانة على العبادة وما الحكمة فيه قلت ذكروا فيه وجوها أحدها ان هذا يلزم من يجعل الاستطاعة قبل الفعل ونحن بحمد الله نجعل التوفيق والاستطاعة مع الفعل فلا فرق بين التقديم والتأخير الثاني ان الاستعانة نوع تعبد فكأنه ذكر جملة العبادة أولا ثم ذكر ما هو من تفاصيلها ثانيا الثالث كأن العبد يقول شرعت في العبادة فانا أستعين بك على اتمامها فلا يمنعني من اتمامها مانع الرابع ان العبد اذا قال اياك نعبد حصل له الفخر وذلك منزلة عظيمة فيحصل بسبب ذلك العجب فاردف ذلك بقوله واياك نستعين ليزول ذلك العجب الحاصل بسبب تلك العبادة (اهدنا الصراط المستقيم) أي أرشدنا وقيل ثبتنا وهو كما تقول للقائم قم حتى أعود اليك ومعناه دم على ما أنت عليه وهذا الدعاء من المؤمنين مع كونهم على الهداية بمعنى سؤال التثبيت وطلب مزيد الهداية لان الالطاف والهدايات من الله لا تتناهى وهذا مذهب أهل السنة والصراط الطريق قال جرير

أمير المؤمنين على صراط * اذا اعوج الموارد مستقيم

أي على طريقة حسنة قال ابن عباس هو دين الاسلام وقيل هو القرآن وروى ذلك مرفوعا وقيل السنة والجماعة وقيل معناه اهدنا صراط المستحقين للجنة (صراط الذين أنعمت عليهم) هذا بدل من الاول أي الذين مننت عليهم بالهداية والتوفيق وهم الأنبياء والمؤمنون الذين ذكرهم الله تعالى في قوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقال ابن عباس هم قوم موسى وعيسى الذين لم يغيروا ولم يبدلوا وقيل هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وأهل بيته (غير المغضوب عليهم) يعني غير صراط الذين غضبت عليهم والغضب في الاصل هو ثوران دم القلب لارادة الانتقام ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اتقوا الغضب فانه جمرة تتوقد في قلب ابن آدم ألم تروا الى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه واذا وصف الله به فالمراد منه الانتقام فقط دون غيره وهو انتقامه من العصاة وغضب الله لا يلحق عصاة المؤمنين

المؤمنين وانما يلحق الكافرين (ولا الضالين) أي وغير الضالين عن الهدى وأصل الضلال الغيبوبة والهلاك يقال ضل الماء في اللبن اذا غاب فيه وهلك وقيل غير المغضوب عليهم هم اليهود والضالين هم النصارى عن عدي بن حاتم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضلال أخرجه الترمذي وذلك لان الله تعالى حكم على اليهود بالغضب فقال من لعنه الله وغضب عليه وحكم على النصارى بالضلال فقال ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وقيل غير المغضوب عليهم بالبدعة ولا الضالين عن السنة والله أعلم

﴿فصل في آمين وحكم الفاتحة وفيه مسئلتان﴾ ﴿الاولى﴾ السنة للقارئ بعد فراغه من الفاتحة أن يقول آمين مفصولا عنها بسكتة وهو مخفف وفيه لغتان المد والقصر قال في المد * ويرحم الله عبدا قال آمينا * وقال في القصر * أمين فزاد الله ما بيننا بعدا * ومعنى آمين اللهم اسمع واستجب وقال ابن عباس معناه كذلك يكون وقيل هو اسم من أسماء الله تعالى وقيل هو خاتم الله تعالى على عباده يدفع به عنهم الآثام (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا أمن الامام فأمنوا فان من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه قال ابن شهاب وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول آمين وفي رواية للبخاري ان الامام اذا قرأ غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين فان الملائكة تقول آمين فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه (قوله فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة) معناه وافقهم في وقت التأمين فأمن مع تأمينهم وقيل وافقهم في الصفة والخشوع والاخلاص والقول الاول هو الصحيح اختلفوا في هؤلاء الملائكة فقيل هم الحفظة وقيل غيرهم من الملائكة (قوله غفر له ما تقدم من ذنبه) يعني تغفر له الذنوب الصغائر دون الكبائر وقول ابن شهاب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول آمين معناه ان هذه صيغة تأمينه صلى الله عليه وسلم

﴿المسئلة الثانية في حكم الفاتحة﴾ اختلف العلماء في وجوب قراءة الفاتحة فذهب مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء الى وجوب الفاتحة وانها متعينة في الصلاة ولا تجزئ الا بها واحتجوا بما روى عبادة بن الصامت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب أخرجاه في الصحيحين وبحديث أبي هريرة من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج ثلاثا غير تمام الحديث وقد تقدم في فضل سورة الفاتحة وذهب أبو حنيفة الى ان الفاتحة لا تتعين على المصلي بل الواجب عليه قراءة آية من القرآن طويلة أو ثلاث آيات قصار واحتج بقوله تعالى فاقرؤا ما تيسر منه وبقوله صلى الله عليه وسلم في حديث الاعرابي المسيء صلاته ثم اقرأ بما تيسر معك من القرآن أخرجاه في الصحيحين دليل الجمهور ما تقدم من الاحاديث فان قيل المراد من الحديث لا صلاة كاملة قلنا هذا خلاف ظاهر لفظ الحديث ومما يدل عليه حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تجزئ صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب أخرجه الدارقطني وقال اسناده صحيح وعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن يخرج فينادي لا صلاة الا بفاتحة الكتاب فما زاد أخرجه أبو داود وأجيب عن حديث الاعرابي بانه محمول على الفاتحة فانها متيسرة أو على ما زاد على الفاتحة أو على العاجز عن قراءة الفاتحة والله أعلم

﴿تفسير سورة البقرة﴾

قال ابن عباس هي أول ما نزل بالمدينة قيل سوى آية وهي قوله تعالى واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله فانها نزلت يوم النحر بمكة في حجة الوداع وهي مائتان وست وقيل سبع وثمانون آية وستة آلاف ومائة واحدى

ولا الضالين) بدل من الذين أنعمت عليهم يعني أن المنعم عليهم هم الذين سلموا من غضب الله والضلال أو صفة للذين يعني أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة وهي نعمة الايمان وبين السلامة من غضب الله والضلال وانما ساغ وقوعه صفة للذين وهو معرفة وغير لا يتعرف بالاضافة لانه اذا وقع بين متضادين وكانا معرفتين تعرف بالاضافة نحو عجبت من الحركة غير السكون والمنعم عليهم والمغضوب عليهم متضادان ولان الذين قريب من النكرة لانه لم يرد به قوم باعيانهم وغير المغضوب عليهم قريب من المعرفة للتخصيص الحاصل له باضافته فكل واحد منهما فيه ابهام من وجه واختصاص من وجه فاستويا وعليهم الاولى محلها النصب على المفعولية ومحل الثانية الرفع على الفاعلية وغضب الله ارادة الانتقام من المكذبين وانزال العقوبة بهم وان يفعل بهم ما يفعله الملك اذا غضب على ما تحت يده وقيل المغضوب عليهم هم اليهود لقوله تعالى من لعنه الله وغضب عليه والضالون هم النصارى لقوله تعالى قد ضلوا من قبل ولا زائدة عند البصريين للتوكيد وعند الكوفيين هي بمعنى غير * آمين صوت سمي به الفعل الذي هو استجب كما ان رويدا اسم لامهل وعن ابن عباس رضي الله عنهما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى آمين فقال افعل وهو مبني وفيه لغتان مد ألفه وقصرها وهو الاصل والمد باشباع الهمزة قال يارب لا تسلبني حبها أبدا * ويرحم الله عبدا قال آمينا وقال * أمين فزاد الله ما بيننا بعدا * قال عليه السلام لقنني جبريل آمين عند فراغي من قراءة فاتحة الكتاب وقال انه كالختم على الكتاب وليس من القرآن بدليل أنه لم يثبت في المصاحف (سورة البقرة مدنية وهي مائتان وست أو سبع وثمانون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم الم) ونظائرها أسماء مسمياتها الحروف المبسوطة التي منها ركبت الكلم فالقاف تدل على أول حروف قال والالف تدل على أوسط حروف قال واللام تدل على الحرف الاخير منه وكذلك ما أشبهها والدليل على انها أسماء ان كلا منها يدل على معنى في نفسه ويتصرف فيها بالامالة والتفخيم وبالتعريف والتنكير والجمع والتصغير وهي معربة وانما سكنت سكون زيد وغيره من الاسماء حيث لا يمسها اعراب لفقد مقتضيه وقيل انها مبنية كالاصوات نحو غاق في حكاية صوت الغراب ثم الجمهور على أنها أسماء السور وقال ابن عباس رضي الله عنهما أقسم الله بهذه الحروف وقال ابن مسعود رضي الله عنه انها اسم الله الاعظم وقيل انها من المتشابه الذي لا يعلم تأويله الا الله وما سميت معجمة الا لاعجامها وابهامها وقيل ورود هذه الاسماء على نمط التعديد كالايقاظ لمن تحدى بالقرآن وكالتحريك للنظر في ان هذا المتلو عليهم وقد عجزوا عنه عن (٣٠) آخرهم كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم ليؤديهم النظر الى أن يستيقنوا ان لم تتساقط مقدرتهم دونه ولم يظهر عجزهم عن أن يأتوا بمثله بعد المراجعات المتطاولة وهم أمراء الكلام الا لانه ليس من كلام البشر وانه كلام خالق القوى والقدر وهذا القول من الخلاقة بالقبول بمنزل وقيل انما وردت السور مصدرة بذلك ليكون أول ما يقرع الاسماع مستقلا بوجه من الاعراب وتقدمة من دلائل الاعجاز وذلك ان النطق بالحروف أنفسها كانت العرب فيه مستوية الاقدام الاميون منهم وأهل الكتاب بخلاف النطق بأسامي الحروف فانه مختص بمن خط وقرأ وخالط أهل الكتاب وتعلم منهم وكان مستبعدا من الامي التكلم بها استبعاد الخط والتلاوة فكان حكم النطق بذلك مع اشتهاره انه لم يكن ممن اقتبس شيأ من أهله حكم الاقاصيص المذكورة في القرآن التي لم تكن قريش ومن يضاهيهم في شئ من الاحاطة بها في ان ذلك حاصل له من جهة الوحي وشاهد لصحة نبوته واعلم ان المذكور في الفواتح نصف أسامي حروف المعجم وهي الالف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم وهي مشتملة على انصاف أجناس الحروف فمن المهموسة نصفها الصاد والكاف والهاء والسين والحاء ومن المجهورة نصفها الالف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف والياء والنون ومن الشديدة نصفها الالف والكاف والطاء والقاف ومن الرخوة نصفها اللام والميم والراء والصاد والهاء والعين والسين والحاء والياء والنون ومن المطبقة نصفها الصاد والطاء ومن المفخمة نصفها الالف واللام والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون ومن المستعلية نصفها القاف والصاد والطاء ومن المنخفضة نصفها الالف واللام والميم والراء والكاف والهاء والياء والعين والسين والحاء والنون ومن حروف القلقلة نصفها القاف والطاء وغير المذكور من

وعشرون كلمة وخمسة وعشرون ألف حرف وخمسمائة حرف

﴿فصل في فضلها﴾ (م) عن أبي امامة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اقرؤا القرآن فانه يأتي يوم القيامة شفيعا لاصحابه اقرؤا الزهراوين البقرة وآل عمران فانهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن صاحبهما اقرؤا البقرة فان أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة قال معاوية بن سلام بلغني ان البطلة السحرة (قوله اقرؤا الزهراوين) سميتا بذلك لنورهما يقال لكل مستنير زاهر (قوله كأنهما غمامتان أو غيابتان) قال أهل اللغة الغمامة والغيابة كل شئ أظل الانسان فوق رأسه من سحابة وغيرها والمعنى ان ثوابهما يأتي كغمامتين (قوله فرقان من طير صواف) الفرقان الجماعة من الطير والصواف جمع صافة وهي التي تصف أجنحتها عند الطيران يحاجان الحاجة المجادلة والمخاصمة واظهار الحجة والبطلة السحرة كما جاء في الحديث مبينا يقال أبطل اذا جاء بالباطل وفي الحديث دليل على جواز قول سورة البقرة وسورة آل عمران وكذا باقي السور وأنه لا كراهة في ذلك وكرهه بعض المتقدمين وقال انما يقال السورة التي يذكر فيها البقرة وكذا باقي السور والصواب هو الاول وبه قال الجمهور لورود النص به (م) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تجعلوا بيوتكم مقابر ان الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة * وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل شئ سنام وان سنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هي سيدة آي القرآن آية الكرسي أخرجه الترمذي وقال حديث غريب (بسم الله الرحمن الرحيم) قوله عز وجل (الم) قيل ان حروف الهجاء في أوائل السور من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه وهي سر الله في القرآن فنحن نؤمن بظاهرها ونكل العلم فيها الى الله تعالى وفائدة ذكرها طلب الايمان بها قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في كل كتاب سر وسر الله في القرآن أوائل السور وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ان لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي وأورد على هذا القول بأنه لا يجوز أن يخاطب الله عباده بما لا يعلمون وأجيب عنه بأنه يجوز أن يكلف الله عباده بما لا يعقل معناه كرمي الجمار فانه مما لا يعقل معناه والحكمة فيه هو كمال الانقياد والطاعة فكذلك هذه الحروف يجب الايمان بها ولا يلزم البحث عنها وقال آخرون من أهل العلم هي معروفة المعاني ثم اختلفوا فيها فقيل كل حرف منها مفتاح اسم من أسماء الله تعالى

فالالف

هذه الاجناس مذكورة بالمذكورة منها وقد علمت ان معظم الشئ ينزل منزلة كله فكأن الله تعالى عدد على العرب الالفاظ التى منها تراكيب
كلامهم اشارة الى ما ذكر من التبكيت لهم والزام الحجة اياهم وانما جاءت مفرقة على السور لان اعادة التنبيه على المتحدى به مؤلفا منها لا غير
أوصل الى الغرض وكذا كل تكرير ورد فى القرآن فالمطلوب منه تمكين المكرر فى النفوس وتقريره ولم يجئ على وتيرة واحدة بل اختلفت
أعداد حروفها مثل ص وق ون وطه وطس ويس وحم والم والر وطسم والمص والمر وكهيعص وحم عسق فوردت على حرف
وحرفين وثلاثة وأربعة وخمسة كعادة افتنانهم فى الكلام وكما أن أبنية كلماتهم على حرف وحرفين الى خمسة أحرف فسلك فى الفواتح هذا
المسلك والم آية حيث وقعت وكذا المص آية والمر لم تعد آية وكذا الر لم تعد آية فى سورها الخمس وطسم آية فى سورتها وطه

ويس آيتان وطس ليست بآية وحم آية فى سورها كلها وحم عسق آيتان وكهيعص آية وص ون وق ثلاثتها لم تعد آية وهذا عند الكوفيين ومن عداهم لم يعد شيئا منها آية وهذا علم توقيفى لا مجال للقياس فيه كمعرفة السور ويوقف على جميعها وقف التمام اذا حملت على معنى مستقل غير محتاج الى ما بعده وذلك اذا لم تجعل أسماء للسور وينعق بها كما ينعق بالاصوات أو جعلت وحدها أخبار ابتداء محذوف كقوله الم الله أى هذه الم ثم ابتدأ فقال الله لا اله الا هو الحى القيوم ولهذه الفواتح محل من الاعراب فيمن جعلها أسماء للسور لانها عنده كسائر الاسماء الاعلام وهو الرفع على الابتداء أو النصب أو الجر لصحة القسم بها وكونها

بمنزلة الله والله على اللغتين ومن لم يجعلها أسماء للسور لم يتصور أن يكون لها محل فى مذهبه كما لا محل للجملة المبتدأة وللمفردات المعدودة (ذلك
الكتاب) أى ذلك الكتاب الذى وعد به على لسان موسى وعيسى عليهما السلام أو ذلك اشارة الى الم وانما ذكر اسم الاشارة والمشار اليه
مؤنث وهو السورة لان الكتاب ان كان خبره كان ذلك فى معناه ومسماه مسماه فجاز اجراء حكمه عليه بالتذكير والتأنيث وان كان صفته
فالاشارة به الى الكتاب صريحا لان اسم الاشارة مشار به الى الجنس الواقع صفة له تقول هند ذلك الانسان أو ذلك الشخص فعل كذا ووجه
تأليف ذلك الكتاب مع الم ان جعلت الم اسما للسورة أن يكون الم مبتدأ أو ذلك مبتدأ ثانيا والكتاب خبره والجملة خبر المبتدأ الاول ومعناه أن
ذلك هو الكتاب الكامل كأن ما عداه من الكتب فى مقابلته ناقص كما تقول هو الرجل أى الكامل فى الرجولية الجامع لما يكون فى الرجال
من مرضيات الخصال وان يكون الم خبر مبتدأ محذوف أى هذه الم جملة وذلك الكتاب جملة أخرى وان جعلت الم بمنزلة الصوت كان ذلك

فالالف مفتاح اسمه الله واللام مفتاح اسمه لطيف والميم مفتاح اسمه مجيد وقيل الالف آلاء الله واللام
لطفه والميم ملكه ويؤيد هذا ان العرب تذكر حرفا من كلمة تريد كلها قال الراجز

قلت لها قفى فقالت قاف * لا تحسبى أنا نسينا الايجاف

قولها قاف أى وقفت فاكتفت بجزء الكلمة عن كلها والايجاف الاسراع فى السير قال ابن عباس الم أنا
الله أعلم وقيل هى أسماء الله مقطعة لو علم الناس تأليفها لعلموا اسم الله الاعظم ألا ترى أنك تقول الر وحم
ون فيكون مجموعها الرحمن وكذلك سائرها ولكن لم يتهيأ تأليفها لنا وقيل أسماء السور وبه قال جماعة
من المحققين وقال ابن عباس هى أقسام فقيل أقسم الله بهذه الحروف لشرفها وفضلها لانها مبانى كتبه
المنزلة وأسمائه الحسنى وصفاته العليا وانما اقتصر على بعضها وان كان المراد كلها فهو كما تقول قرأت الحمد لله
وتريد انك قرأت السورة بكمالها فكأنه تعالى أقسم بهذه الحروف ان هذا الكتاب هو الكتاب المثبت
فى اللوح المحفوظ وقيل ان الله تعالى لما تحداهم بقوله فأتوا بسورة من مثله وفى آية بعشر سور مثله فعجزوا
عنه أنزل هذه الاحرف ومعناه ان القرآن ليس هو الا من هذه الاحرف وأنتم قادرون عليها فكان يجب
أن تأتوا بمثله فلما عجزتم عنه دل ذلك على انه من عند الله لا من عند البشر وقيل انهم لما أعرضوا عن سماع
القرآن وأراد الله صلاح بعضهم أنزل هذه الاحرف فكانوا اذا سمعوها قالوا كالمتعجبين اسمعوا الى
ما يجئ به محمد فاذا أصغوا اليه وسمعوه رسخ فى قلوبهم فكان ذلك سبب ايمانهم وقيل ان الله تعالى حير
عقول الخلق فى ابتداء خطابه ليعلموا أن لا سبيل لاحد الى معرفة خطابه الا باعترافهم بالعجز عن معرفة
كنه حقيقة خطابه واعلم أن مجموع الاحرف المنزلة فى أوائل السور أربعة عشر حرفا فى تسع وعشرين
سورة وهى الالف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف
والنون وهى نصف حروف المعجم وسيأتى الكلام على باقيها فى مواضعها ان شاء الله تعالى ۞ وقوله تعالى
(ذلك الكتاب) أى هذا الكتاب هو القرآن وقيل فيه اضمار والمعنى هذا الكتاب الذى وعدتك به
وكان الله قد وعد نبيه صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليه كتابا لا يمحوه الماء ولا يخلق على كثرة الرد فلما
أنزل القرآن قال هذا ذلك الكتاب الذى وعدتك به وقيل ان الله وعد بنى اسرائيل أن ينزل كتابا
ويرسل رسولا من ولد اسمعيل فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة وبها من اليهود
خلق كثير أنزل الله تعالى هذه الآية الم ذلك الكتاب أى هذا الكتاب الذى وعدت به على لسان
موسى ان أنزله على النبى الذى هو من ولد اسمعيل والكتاب مصدر بمعنى المكتوب وأصله الضم
والجمع ومنه يقال للجند كتيبة لاجتماعها فسمى الكتاب كتابا لانه يجمع الحروف بعضها الى بعض

مبتدأ خبره الكتاب أى ذلك الكتاب المنزل هو الكتاب الكامل (لاريب) لاشك وهو مصدر رابنى اذا حصل فيك الريبة وحقيقة الريبة قلق النفس واضطرابها ومنه قوله عليه السلام دع مايريبك الى مالايريبك فان الشك ريبة وان الصدق طمأنينة أى فان كون الامر مشكوكا فيه مما تقلق له النفس ولا تستقر وكونه صحيحا صادقا مما تطمئن له وتسكن ومنه ريب الزمان وهو مايقلق النفوس ويشخص بالقلوب من نوائبه وانما نفى الريب على سبيل الاستغراق وقد ارتاب فيه كثير لان المنفى كونه متعلقا للريب ومظنة له لانه من وضوح الدلالة وسطوع البرهان بحيث لاينبغى لمرتاب أن يقع فيه لا ان أحدا لايرتاب وانما لم يقل لافيه ريب كما قال لافيها غول لان المراد فى ايلاء الريب حرف النفى نفى الريب عنه واثبات انه حق لاباطل كما زعم الكفار ولو أولى الظرف لبعد عن المراد وهو ان كتابا آخر فيه ريب لافيه كما قال فى قوله تعالى لافيها غول ففيه تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا بانها لاتغتال العقول كما تغتالها هى والوقف على فيه هو المشهور وعن نافع وعاصم انهما وقفا على ريب ولا بد للواقف من أن ينوى خبرا والتقدير لاريب فيه (فيه هدى) فيه باشباع كل هاء مكى ووافقه حفص فى فيه مهانا وهو الاصل كقولك مررت به ومن عنده بنى داره وكما يقال فى داره ومن عنده وجب ان لايقال فيه ٧ وقال سيبويه ماقاله مؤد الى الجمع بين ثلاثة أحرف سواكن الياء قبل الهاء والهاء اذ الهاء المتحركة فى كلامهم بمنزلة الساكنة لان الهاء خفية والخفى قريب من الساكن والياء بعدها والهدى مصدر على فعل كالبكا وهو الدلالة الموصلة الى البغية بدليل وقوع الضلالة فى مقابلته فى قوله أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى وانما قيل هدى (للمتقين) والمتقون مهتدون لانه كقولك للعزيز المكرم أعزك الله وأكرمك تريد طلب الزيادة على ماهو ثابت فيه واستدامته كقوله اهدنا الصراط المستقيم ولأنه سماهم عند مشارفتهم لاكتساب لباس التقوى متقين كقوله عليه السلام من قتل قتيلا فله سلبه وقول ابن عباس رضى الله عنهما اذا أراد أحدكم الحج فليعجل فانه يمرض المريض فسمى المشارف للقتل والمرض قتيلا ومريضا ولم يقل هدى للضالين لانهم فريقان فريق علم بقاءهم على الضلالة وفريق علم ان مصيرهم الى الهدى وهو هدى لهؤلاء فحسب فلوجىء بالعبارة المفصحة عن ذلك لقيل هدى للصائرين الى الهدى بعد الضلال فاختصر الكلام باجرائه على الطريقة التى ذكرنا فقيل هدى للمتقين مع ان فيه تصدير السورة التى هى أولى الزهراوين وسنام القرآن بذكر أولياء الله والمتقى فى اللغة اسم فاعل من قولهم وقاه فاتقى ففاؤها واو ولامها ياء واذا بنيت من ذلك افتعل قلبت الواو تاء وأدغمتها فى التاء الاخرى فقلت اتقى والوقاية فرط الصيانة وفى الشريعة من يقى نفسه تعاطى مايستحق به العقوبة من فعل أوترك ومحل هدى الرفع لانه خبر مبتدأ محذوف أو خبر مع لاريب فيه لذلك أو النصب على الحال من الهاء فى فيه والذى هو أرسخ عرقا فى البلاغة أن يقال ان قوله الم جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها وذلك الكتاب جملة ثانية ولاريب فيه ثالثة وهدى للمتقين رابعة وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة حيث جىء بها متناسقة هكذا من غير حرف عطف وذلك لمجيئها متآخية آخذا بعضها بعنق بعض فالثانية متحدة بالاولى معتنقة لها وهلم جرا الى الثالثة والرابعة بيان ذلك انه نبه أولا على انه الكلام المتحدى به ثم أشير اليه بانه الكتاب المنعوت بغاية الكمال فكان تقريرا لجهة التحدى ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب فكان شهادة وتسجيلا بكماله لانه لا كمال أكمل مما للحق واليقين ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة وقيل لعالم فيم لذتك قال فى حجة تتبختر اتضاحا وفى شبهة تتضاءل افتضاحا ثم أخبر عنه بانه هدى للمتقين فقرر بذلك كونه يقينا لايحوم الشك حوله وحقا لاياتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه ثم لم تخل كل واحدة من الاربع بعد أن رتبت هذا الترتيب الانيق ونظمت هذا النظم الرشيق من نكتة ذات جزالة ففى الاولى الحذف والرمز الى المطلوب بألطف وجه وفى الثانية مافى التعريف من الفخامة وفى الثالثة مافى تقديم الريب على الظرف وفى الرابعة الحذف ووضع المصدر الذى هو هدى موضع الوصف الذى هو هاد كأن نفسه هداية وايراده منكرا ففيه اشعار بانه هدى لايكتنه كنهه والايجاز فى ذكر

الكتاب اسم من أسماء القرآن (لاريب فيه) أى لاشك فيه انه من عند الله وانه الحق والصدق وقيل هو خبر بمعنى النهى أى لاترتابوا فيه فان قلت قد ارتاب فيه قوم فما معنى لاريب فيه قلت معناه انه فى نفسه حق وصدق فمن حقق النظر عرف حقيقة ذلك (هدى للمتقين) الهدى عبارة عن الدلالة وقيل دلالة بلطف وقيل الهداية الارشاد والمعنى هو هدى للمتقين وقيل هو هاد لاريب فى هدايته والمتقى اسم فاعل من وقاه فاتقى والتقوى جعل النفس فى وقاية مما يخاف وقيل التقوى فى عرف الشرع حفظ النفس مما يؤثم وذلك بترك المحظور وبعض المباحات قال ابن عباس المتقى من يتقى الشرك والكبائر والفواحش وهو مأخوذ من الاتقاء وأصله الحجز بين الشيئين يقال اتقى بترسه اذا جعله حاجزا بينه وبين مايقصده وفى الحديث كنا اذا اشتد البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم معناه انا كنا اذا اشتد الحرب جعلنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجزا بيننا وبين العدو فكأن المتقى يجعل امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه حاجزا بينه وبين النار وقيل المتقى هو من لايرى نفسه خيرا من أحد وقيل التقوى ترك ماحرم الله وأداء ما افترض وقيل التقوى ترك الاصرار على المعصية وترك الاغترار بالطاعة وقيل التقوى أن لايراك مولاك حيث نهاك وقيل التقوى الاقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وفى الحديث جماع التقوى فى قوله تعالى ان الله يأمر بالعدل

المتقين كامر (الذين) في موضع رفع أو نصب على المدح أي هم الذين يؤمنون أو أعني الذين يؤمنون أو هو مبتدأ وخبره أولئك على هدى أو جر على أنه صفة للمتقين وهي صفة واردة بيانا وكشفا للمتقين كقولك زيد الفقيه المحقق لاشتمالها على ما أسست عليه حال المتقين من الايمان الذي هو أساس الحسنات والصلاة والصدقة فهما العبادات البدنية والمالية وهما العيار على غيرهما ألا ترى أن النبي عليه السلام سمى الصلاة عماد الدين وجعل الفاصل بين الاسلام والكفر ترك الصلاة وسمى الزكاة قنطرة الاسلام فكان من شأنهما استتباع سائر العبادات ولذلك اختصر الكلام بان استغنى عن عد الطاعات بذكر ما هو كالعنوان لها مع ما في ذلك من الافصاح عن فضل هاتين العبادتين أو صفة مسرودة مع المتقين تفيد غير فائدتها كقولك زيد الفقيه المتكلم الطبيب ويكون المراد بالمتقين الذين يجتنبون السيآت (يؤمنون) يصدقون وهو افعال من الامن وقولهم آمنه أي صدقه وحقيقته أمنه التكذيب والمخالفة وتعديته بالباء لتضمنه معنى أقر واعترف (بالغيب) بما غاب عنهم مما أنبأهم به النبي عليه السلام من أمر البعث والنشور والحساب وغير ذلك فهو بمعنى الغائب تسمية بالمصدر من قولك غاب الشيء غيبا هذا ان جعلته صلة للايمان وان جعلته حالا كان بمعنى الغيبة والخفاء أي يؤمنون غائبين عن المؤمن به وحقيقته متلبسين بالغيب والايمان الصحيح أن يقر باللسان ويصدق بالجنان والعمل ليس بداخل في الايمان

بالعدل والاحسان الآية وقيل المتقي هو الذي يترك ما لا بأس به حذرا مما به بأس وخص المتقين بالذكر تشريفا لهم لان مقام التقوى مقام شريف عزيز لانهم هم المنتفعون بالهداية ولو لم يكن للمتقين فضل الا قوله تعالى هدى للمتقين لكفاهم فان قلت كيف قال هدى للمتقين والمتقون هم المهتدون قلت هو كقولك للعزيز الكريم أعزك الله وأكرمك تريد طلب الزيادة له الى ما هو ثابت فيه كقوله تعالى اهدنا الصراط المستقيم (الذين يؤمنون بالغيب) أي يصدقون بالغيب وأصل الايمان في اللغة التصديق قال تعالى وما أنت بمؤمن لنا أي بمصدق فاذا فسر الايمان بهذا فانه لا يزيد ولا ينقص لان التصديق لا يتجزأ حتى يتصور كماله مرة ونقصانه أخرى والايمان في لسان الشرع عبارة عن التصديق بالقلب والاقرار باللسان والعمل بالاركان واذا فسر بهذا فانه يزيد وينقص وهو مذهب أهل السنة من أهل الحديث وغيرهم وفائدة هذا الخلاف تظهر في مسئلة وهي ان المصدق بقلبه اذا لم يجمع الى تصديقه العمل بموجب الايمان من الصلاة والزكاة والصوم والحج ونحو ذلك من أركان الدين هل يسمى مؤمنا أم لا فيه خلاف والمختار عند أهل السنة انه لا يسمى مؤمنا لقوله صلى الله عليه وسلم لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن فنفى عنه اسم الايمان أو كمال الايمان وأنكر أكثر المتكلمين زيادة الايمان ونقصانه وقالوا متى قبل الزيادة والنقص كان ذلك شكا وكفرا وقال المحققون من متكلمي أهل السنة ان نفس التصديق لا يزيد ولا ينقص والايمان الشرعي يزيد وينقص بزيادة الاعمال ونقصانها وبهذا أمكن الجمع بين ظواهر نصوص الكتاب والسنة التي جاءت بزيادة الايمان ونقصانه وبين أصله من اللغة وقال بعض المحققين ان نفس التصديق قد يزيد وينقص بكثرة النظر في الادلة والبراهين وقلة امعان النظر في ذلك ولهذا يكون ايمان الصديقين أقوى وأثبت من ايمان غيرهم لانهم لا تعتريهم شبهة في ايمانهم ولا تزلزل وأما غيرهم من آحاد الناس فليس كذلك اذ لا يشك عاقل ان نفس تصديق أبي بكر رضي الله عنه لا يساويه تصديق غيره من آحاد الامة وقيل انما سمي الاقرار والعمل ايمانا لوجه المناسب لانه من شرائعه والدليل على ان الاعمال من الايمان ما روي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الايمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا اله الا الله وأدناها اماطة الاذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان أخرجاه في الصحيحين البضع بكسر الباء ما بين الثلاثة الى العشرة والشعبة القطعة من الشيء واماطة الاذى عن الطريق هو عزل الحجر والشوك ونحو ذلك عنه والحياء بالمد هو انقباض النفس عن فعل القبيح وانما جعل من الايمان وهو اكتساب لان المستحي ينزجر باستحيائه عن المعاصي فصار من الايمان وقيل الايمان مأخوذ من الامن فسمي المؤمن مؤمنا لانه يؤمن نفسه من عذاب الله والاسلام هو الانقياد والخضوع فكل ايمان اسلام وليس كل اسلام ايمانا اذا لم يكن معه تصديق وذلك ان الرجل قد يكون مسلما في الظاهر غير مصدق في الباطن (ق) عن أبي هريرة قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بارزا للناس فاتاه رجل فقال يا رسول الله ما الايمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر قال يا رسول الله ما الاسلام قال أن تعبد الله ولا تشرك به شيأ وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان قال يا رسول الله ما الاحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك قال يا رسول الله متى الساعة قال ما المسؤل عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أشراطها اذا ولدت الامة ربها فذاك من أشراطها واذا كانت الحفاة العراة رؤس الناس فذاك من أشراطها واذا تطاول رعاء البهم في البنيان فذاك من أشراطها وخمس لا يعلمهن الا الله ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الارحام الى قوله عليم خبير قال ثم أدبر الرجل فقال رسول الله صلى الله عليه

(ويقيمون الصلاة) أي يؤدونها فعبر عن الاداء بالاقامة لان القيام بعض اركانها كما عبر عنه بالقنوت وهو القيام وبالركوع والسجود والتسبيح لوجوده فيها أو أريد باقامة الصلاة تعديل أركانها من أقام العود اذا قومه والدوام عليها والمحافظة من قامت السوق اذا نفقت لانه اذا حوفظ عليها كانت كالشئ النافق الذي تتوجه اليه الراغبات واذا أضيعت كانت كالشئ الكاسد الذي لا يرغب فيه والصلاة فعلة من صلى كالزكاة من زكى وكتابتها بالواو على لفظ المفخم وحقيقة صلى حرك الصلوين أي الاليتين لان المصلي يفعل ذلك في ركوعه وسجوده وقيل للداعي مصل تشبيها له في تخشعه بالراكع والساجد (ومما رزقناهم) أعطيناهم وما بمعنى الذي (ينفقون) يتصدقون ادخل من التبعيضية صيانة لهم عن التبذير المنهي عنه وقدم المفعول دلالة على كونه أهم والمراد به الزكاة لاقترانه بالصلاة التي هي أختها أو هي وغيرها من النفقات في سبل الخير لمجيئه مطلقا وأنفق الشئ وأنفده اخوان كنفق الشئ ونفد وكل ما جاء مما فاؤه نون وعينه فاء فدال على معنى الخروج والذهاب ودلت الآية على ان الاعمال ليست من الايمان حيث عطف الصلاة والزكاة على الايمان والعطف يقتضي المغايرة (والذين يؤمنون) هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام واضرابه من الذين آمنوا بكل وحي أنزل من عند الله وأيقنوا بالآخرة ايقانا زال معه ما كانوا عليه من انه لا يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى وان النار لن تمسهم الا أياما معدودات ثم ان عطفتهم على الذين يؤمنون بالغيب دخلوا في جملة المتقين وان عطفتهم على المتقين لم يدخلوا فكأنه قيل هدى للمتقين وهدى للذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أو المراد به وصف الاولين ووسط العاطف كما يوسط بين الصفات في قولك هو الشجاع والجواد وقوله الى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتيبة في المزدحم والمعنى أنهم الجامعون بين تلك الصفات وهذه (بما أنزل اليك) يعني القرآن والمراد جميع القرآن لا القدر الذي سبق انزاله وقت ايمانهم لان الايمان بالجميع واجب وانما عبر عنه بلفظ الماضي وان كان بعضه مترقبا تغليبا للموجود على ما لم يوجد ولانه اذا كان بعضه نازلا وبعضه منتظر النزول جعل كأن كله قد نزل

وسلم ردوا علي هذا الرجل فاخذوا ليردوه فلم يروا شيئا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم وفي أفراد مسلم من حديث عمر بن الخطاب نحو هذا الحديث وبمعناه وقد تقدم الكلام على معنى الايمان والاسلام * وبقي أشياء تتعلق بمعنى الحديث فقوله كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بارزا أي ظاهرا وقوله ان تؤمن بالله ولقائه وتؤمن بالبعث الآخر هو بكسر الخاء وقيل في الجمع بين قوله وتؤمن بلقاء الله وبالبعث فان اللقاء يحصل بمجرد الانتقال الى الدار الآخرة وهو الموت والبعث هو بعده عند قيام الساعة وفي تقييده بالآخر وجه آخر وهو ان خروجه الى الدنيا بعث من الارحام وخروجه من القبر الى الآخرة بعث آخر قوله ما الاحسان * هنا الاخلاص في العمل وهو شرط في صحة الايمان والاسلام لان من أتى بلفظ الشهادة وأتى بالعمل من غير اخلاص لم يكن محسنا وقيل أراد بالاحسان المراقبة وحسن الطاعة فان من راقب الله حسن عمله وهو المراد بقوله فان لم تكن تراه فانه يراك وأشراط الساعة علاماتها التي تظهر قبلها قوله اذا ولدت الامة ربها يعني سيدها والمعنى ان الرجل تكون له الامة فتلد له ولدا فيكون ذلك الولد ابنها وسيدها ورعاء البهم بكسر الراء وفتح الباء واسكان الهاء من البهم وهي الصغار من أولاد الضأن والمعنى أنه يبسط المال على أهل البادية وأشباههم حتى يتباهون في البناء ويسودون الناس فذلك من أشراط الساعة والله أعلم * قوله تعالى بالغيب الغيب هنا مصدر وضع موضع الاسم فقيل للغائب غيب وهو ما كان مغيبا عن العيون قال ابن عباس الغيب هنا كل ما أمرت بالايمان به مما غاب عن بصرك من الملائكة والبعث والجنة والنار والصراط والميزان وقيل الغيب هنا هو الله تعالى وقيل القرآن وقيل بالآخرة وقيل بالوحي وقيل بالقدر وقال عبد الرحمن بن يزيد كنا عند عبد الله بن مسعود فذكرنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وما سبقونا به فقال عبد الله بن مسعود ان أمر محمد صلى الله عليه وسلم كان بينا لمن رآه والذي لا اله غيره ما آمن أحد قط أفضل من ايمان بغيب ثم قرأ الم ذلك الكتاب لا ريب فيه الى قوله وأولئك هم المفلحون (ويقيمون الصلاة) أي يداومون عليها في مواقيتها بحدودها واتمام أركانها وحفظها من ان يقع فيها خلل في فرائضها وسننها وآدابها يقال قام بالامر وأقام الامر اذا أتى به معطى حقوقه والمراد به الصلوات الخمس والصلاة في اللغة الدعاء والرحمة ومنه وصل عليهم أي ادع لهم وأصله من صليت العود اذا لينته فكان المصلي يلين ويخشع وفي الشرع اسم لافعال مخصوصة من قيام وركوع وسجود وقعود ودعاء مع النية (ومما رزقناهم) أي أعطيناهم من الرزق وهو اسم لما ينتفع به من مال وولد وأصله الحظ والنصيب (ينفقون) أي يخرجون ويتصدقون في طاعة الله تعالى وسبيله ويدخل فيه انفاق الواجب كالزكاة والنذر والانفاق على النفس وعلى من تجب نفقته عليه والانفاق في الجهاد اذا وجب عليه والانفاق في المندوب وهو صدقة التطوع ومواساة الاخوان وهذه كلها مما يمدح بها وأدخل من التي هي للتبعيض صيانة لهم ونهاهم عن السرف والتبذير المنهي عنهما في الانفاق (والذين يؤمنون بما أنزل اليك

(وما أنزل من قبلك) يعنى سائر الكتب المنزلة على النبيين (وبالآخرة) وهى تأنيث الآخر الذى هو ضد الاول وهى صفة والموصوف محذوف وهو الدار بدليل قوله تلك الدار الآخرة وهى من الصفات الغالبة وكذلك الدنيا وعن نافع أنه خففها بان حذف الهمزة وألقى حركتها على اللام (هم يوقنون) الايقان اتقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه (أولئك على هدى) الجملة فى موضع الرفع ان كان الذين يؤمنون بالغيب مبتدأ والا فلا محل لها ويجوز أن يجرى الموصول الاول على المتقين وأن يرتفع الثانى على الابتداء وأولئك خبره ويجعل اختصاصهم بالهدى والفلاح تعريضا باهل الكتاب الذين لا يؤمنون بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم ظانون أنهم على الهدى وطامعون أنهم ينالون الفلاح عند الله ومعنى الاستعلاء فى على هدى مثل لتمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه وتمسكهم به بحيث شبهت حالهم بحال من اعتلى الشئ وركبه ونحوه هو على الحق وعلى الباطل وقد صرحوا بذلك فى قولهم جعل الغواية مركبا وامتطى الجهل واقتعد غارب الهوى ومعنى هدى (من ربهم) أى أوتوه من عنده ونكر هدى ليفيد ضربا مبهما لا يبلغ كنهه كأنه قيل على أى هدى ونحوه لقد وقعت على لحم أى على لحم عظيم (وأولئك هم المفلحون) أى الظافرون بما طلبوا الناجون عما هربوا فالفلاح (٢٥) درك البغية والمفلح الفائز بالبغية كأنه الذى انفتحت له وجوه الظفر والتركيب دال على معنى الشق والفتح وكذا اخواته فى الفاء والعين نحو فلق وفلذ وفلى وجاء بالعطف هنا بخلاف قوله أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون لاختلاف الخبرين المقتضيين للعطف هنا واتحاد الغفلة والتشبيه بالبهائم ثم فكانت الثانية مقررة للاولى فهى من العطف بمعزل وهم فصل وفائدته الدلالة على ان الوارد بعده خبر لا صفة والتوكيد وايجاب ان فائدة المسند ثابتة للمسند اليه دون غيره أو هو مبتدأ والمفلحون خبره والجملة خبر أولئك فانظر كيف كرر الله عز وجل

(وما أنزل من قبلك) أى يصدقون بالقرآن المنزل عليك وبالكتب المنزلة على الانبياء من قبل كالتوراة والانجيل والزبور وصحف الانبياء كلها فيجب الايمان بذلك كله (وبالآخرة) يعنى وبالدار الآخرة سميت آخرة لتأخرها عن الدنيا وكونها بعدها (هم يوقنون) من الايقان وهو العلم والمعنى يستيقنون ويعلمون انها كائنة (أولئك) أى الذين هذه صفتهم (على هدى من ربهم) أى على رشاد ونور من ربهم وقيل على استقامة (وأولئك هم المفلحون) أى الناجون الفائزون نجوا من النار وفازوا بالجنة والمفلح الظافر بالمطلوب أى الذى انفتحت له وجوه الظفر ولم تستغلق عليه ويكون الفلاح بمعنى البقاء قال الشاعر

لو كان حى مدرك الفلاح * أدركه ملاعب الرماح

يريد البقاء فيكون المعنى أولئك هم الباقون فى النعيم المقيم الفلاح الظفر وادراك البغية من السعادة والعز والبقاء والغنى وأصل الفلاح الشق كما قيل * ان الحديد بالحديد يفلح * أى يقطع فعلى هذا يكون المعنى أولئك هم المقطوع لهم بالخير فى الدنيا والآخرة * واعلم ان الله عز وجل صدر هذه السورة باربع ايات أنزلها فى المؤمنين وبآيتين أنزلهما فى الكافرين وبثلاث عشرة آية أنزلها فى المنافقين فاما التى فى الكفار فقوله تعالى (ان الذين كفروا) أى جحدوا وأنكروا وأصل الكفر فى اللغة الستر والتغطية ومنه سمى الليل كافرا لانه يستر الاشياء بظلمته قال الشاعر * فى ليلة كفر النجوم غمامها * أى سترها والكفر على أربعة أضرب كفر انكار وهو أن لا يعرف الله أصلا ككفر فرعون وهو قوله ما علمت لكم من اله غيرى وكفر جحود وهو أن يعرف الله بقلبه ولا يقر بلسانه ككفر ابليس وكفر عناد وهو أن يعرف الله بقلبه ويقر بلسانه ولا يدين به ككفر أمية بن أبى الصلت وأبى طالب حيث يقول فى شعر له

ولقد علمت بان دين محمد * من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذار مسبة * لوجدتنى سمحا بذاك مبينا

وكفر نفاق وهو أن يقر بلسانه ولا يعتقد صحة ذلك بقلبه فجميع هذه الانواع كفر وحاصله أن من جحد الله أو

التنبيه على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله أحد على طرق شتى وهى ذكر اسم الاشاره وتكريره ففيه تنبيه على انهم كما ثبتت لهم الاثرة بالهدى فهى ثابتة لهم بالفلاح وتعريف المفلحون ففيه دلالة على ان المتقين هم الناس الذين بلغك انهم يفلحون فى الآخرة كما اذا بلغك ان انسانا قد تاب من أهل بلدك فاستخبرت من هو فقيل زيد التائب أى هو الذى أخبرت بتوبته وتوسيط الفصل بينه وبين أولئك ليبصرك مراتبهم ويرغبك فى طلب ما طلبوا وينشطك لتقديم ما قدموا اللهم زينا بلباس التقوى واحشرنا فى زمرة من صدرت بذكرهم سورة البقرة لما قدم ذكر أوليائه بصفاتهم المقربة اليه وبين ان الكتاب هدى لهم قفى على اثره بذكر اضدادهم وهم العتاة المردة الذين لا ينفع فيهم الهدى بقوله (ان الذين كفروا) الكفر ستر الحق بالجحود والتركيب دال على الستر ولذا سمى الزراع كافرا وكذا الليل ولم يأت بالعاطف هنا كما فى قوله ان الابرار لفى نعيم وان الفجار لفى جحيم لان الجملة الاولى هنا مسوقة لبيان ذكر الكتاب لا خبرا عن المؤمنين وسيقت الثانية للاخبار عن الكفار بكذا فبين الجملتين تفاوت فى المراد وهما على حد لا مجال للعطف فيه وان كان مبتدأ على تقدير فهو كالجارى عليه والمراد بالذين كفروا أناس باعيانهم علم الله انهم لا يؤمنون كابى جهل وأبى لهب وأضرابهما

(سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم) بهمزتين كوفي وسواء بمعنى الاستواء وصف به كما يوصف بالمصادر ومنه قوله تعالى الى كلمة سواء أي مستوية وارتفاعه على انه خبر لان وأنذرتهم أم لم تنذرهم مرتفع به على الفاعلية كانه قيل ان الذين كفروا مستو عليهم انذارك وعدمه أو يكون سواء خبرا مقدما وأنذرتهم أم لم تنذرهم في موضع الابتداء أي سواء عليهم انذارك وعدمه والجملة خبر لان وانما جاز الاخبار عن الفعل مع انه خبر أبدا لانه من جنس الكلام المهجور فيه جانب اللفظ الى جانب المعنى والهمزة وأم مجردتان لمعنى الاستواء وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام رأسا قال سيبويه جرى هذا على حرف الاستفهام كما جرى على حرف النداء في قولك اللهم اغفر لنا أيتها العصابة يعني ان هذا جرى على صورة الاستفهام ولا استفهام كما جرى ذلك على صورة النداء ولا نداء والانذار التخويف من عقاب الله بالزجر عن المعاصي (لا يؤمنون) جملة مؤكدة للجملة قبلها أو خبر لان والجملة قبلها اعتراض أو خبر بعد خبر والحكمة في الانذار مع العلم بالاصرار اقامة الحجة وليكون الارسال عاما وليثاب الرسول (ختم الله على قلوبهم) قال الزجاج الختم التغطية لان في الاستيثاق من الشئ بضرب الخاتم عليه تغطية له لئلا يطلع عليه وقال ابن عباس طبع الله على قلوبهم فلا يعقلون الخير يعني ان الله طبع عليها فجعلها بحيث لا يخرج منها ما فيها من الكفر ولا يدخلها ما ليس فيها من الايمان وحاصل الختم والطبع خلق الظلمة والضيق في صدر العبد عندنا فلا يؤمن ما دامت تلك الظلمة في قلبه وعند المعتزلة اعلام محض على القلوب بما يظهر للملائكة انهم كفار فيلعنونهم ولا يدعون لهم بخير وقال بعضهم ان اسناد الختم الى الله تعالى مجاز والخاتم في الحقيقة (٢٦) الكافر الا انه تعالى لما كان هو الذي أقدره ومكنه أسند اليه الختم كما يسند الفعل الى المسبب فيقال بني الامير المدينة لان للفعل ملابسات شتى يلابس الفاعل والمفعول به والمصدر والزمان والمكان والمسبب له فاسناده الى الفاعل حقيقة وقد يسند الى هذه الاشياء مجازا لمضاهاتها الفاعل في ملابسة الفعل كما ضاهى الرجل الاسد في جرأته فيستعار له اسمه وهذا فرع مسئلة خلق الافعال (وعلى سمعهم) وحد السمع كما وحد البطن في قوله

* كلوا في بعض بطنكم تعفوا * لامن اللبس ولان السمع مصدر في أصله يقال سمعت الشئ سمعا وسماعا والمصدر لا يجمع لانه اسم جنس يقع على القليل والكثير فلا يحتاج فيه الى التثنية والجمع فلمح الاصل وقيل المضاف محذوف أي وعلى مواضع سمعهم وقرئ على اسماعهم (وعلى أبصارهم غشاوة) بالرفع خبر ومبتدأ والبصر نور العين وهو ما يبصر به الرائي كما ان البصيرة نور القلب وهي ما به يستبصر ويتأمل وكانهما جوهران لطيفان خلقهما الله تعالى فيهما آلتين للابصار والاستبصار والغشاوة الغطاء فعالة من غشاه اذا غطاه وهذا البناء لما يشتمل على الشئ كالعصابة والعمامة والقلادة والاسماع داخلة في حكم الختم لا في حكم التغشية لقوله وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ولوقفهم على سمعهم دون قلوبهم ونصب المفضل وحده غشاوة باضمار جعل وتكرير الجار في قوله وعلى سمعهم دليل على شدة الختم في الموضعين قال الشيخ الامام أبو منصور بن علي رحمه الله الكافر لما لم يسمع قول الحق ولم ينظر في نفسه وغيره من المخلوقات ليرى آثار الحدوث فيعلم أن لا بد له من صانع جعل كأن على بصره وسمعه غشاوة وان لم يكن ذلك حقيقة وهذا دليل على ان الاسماع عنده داخلة في حكم التغشية والآية حجة لنا على المعتزلة في الاصلح فانه أخبر انه ختم على قلوبهم ولا شك ان ترك الختم أصلح لهم (ولهم عذاب عظيم) العذاب مثل النكال بناء ومعنى لانك تقول أعذب عن الشئ اذا أمسك عنه كما تقول نكل عنه والفرق بين العظيم والكبير ان العظيم يقابل الحقير والكبير يقابل الصغير فكان العظيم فوق الكبير كما ان الحقير دون الصغير ويستعملان في الجثة والاحداث جميعا تقول رجل عظيم وكبير تريد جثته أو خطره ومعنى التنكير ان على أبصارهم نوعا من التغطية غير ما يتعارفه الناس وهو غطاء التعامي عن آيات الله ولهم من بين الآلام العظام نوع عظيم من العذاب لا يعلم كنهه الا الله

أنكر وحدانيته أو أنكر شيئا مما أنزله على رسوله أو أنكر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أو أحدا من الرسل فهو كافر فان مات على ذلك فهو في النار خالدا فيها ولا يغفر الله له نزلت في مشركي العرب وقيل في اليهود (سواء عليهم) أي متساو لديهم (أأنذرتهم) أي خوفتهم وحذرتهم والانذار اعلام مع تخويف فكل منذر معلم وليس كل معلم منذرا (أم لم تنذرهم لا يؤمنون) أي لا يصدقون وهذه الآية في أقوام حقت عليهم كلمة العذاب في سابق علم الله الازلي أنهم لا يؤمنون ثم ذكر سبب تركهم الايمان فقال تعالى (ختم الله على قلوبهم) أي طبع الله عليها فلا تعي خيرا ولا تفهمه وأصل الختم التغطية وحقيقته الاستيثاق من الشئ لكي لا يخرج منه ما حصل فيه ولا يدخله ما خرج منه ومنه ختم الكتاب قال أهل السنة ختم الله على قلوبهم بالكفر لما سبق في علمه الازلي فيهم وانما خص القلب بالختم لانه محل الفهم والعلم (وعلى سمعهم) أي وختم على موضع سمعهم فلا يسمعون الحق ولا ينتفعون به لانها تمجه وتنبو عن الاصغاء اليه كانها مستوثق منها بالختم أيضا وذكر السمع بلفظ التوحيد ومعناه الجمع قيل انما وحده لانه مصدر والمصدر لا يثنى ولا يجمع (وعلى أبصارهم غشاوة) هذا ابتداء كلام والغشاوة الغطاء ومنه غاشية السرج أي وجعل على أبصارهم غشاوة فلا يرون الحق وهي غطاء التعامي عن آيات الله ودلائل توحيده (ولهم عذاب عظيم) يعني في الآخرة وقيل الاسر والقتل

(ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر) افتتح سبحانه وتعالى بذكر الذين أخلصوا دينهم لله وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم ثم ثنى بالكافرين قلوبا وألسنة ثم ثلث بالمنافقين الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم وهم أخبث الكفرة لانهم خلطوا بالكفر استهزاء وخداعا ولذا أنزل فيهم ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار وقال مجاهد أربع آيات من اول السورة فى نعت المؤمنين وآيتان فى ذكر الكافرين وثلاث عشرة آية فى المنافقين نعى عليهم فيها نكرهم وخبثهم وسفههم واستجهلهم واستهزأ بهم وتهكم بفعلهم وسجل بطغيانهم وعمههم ودعاهم صما بكما عميا وضرب لهم الامثال الشنيعة وقصة المنافقين عن آخرها معطوفة على قصة الذين كفروا كما تعطف الجملة على الجملة وأصل ناس أناس حذفت همزته تخفيفا وحذفها كاللازم مع لام التعريف لا يكاد يقال الاناس ويشهد لاصله انسان واناسي وانس وسموا به لظهورهم وانهم يؤنسون أى يبصرون كما سمى الجن لاجتنانهم ووزن ناس فعال لان الزنة على الاصول فانك تقول وزن قه أفعل وليس معك الا العين وهو من أسماء الجمع ولام التعريف فيه للجنس ومن موصوفة ويقول صفة لها كانه قيل ومن الناس ناس يقولون كذا وانما خصوا الايمان بالله وباليوم الآخر وهو الوقت الذى لا حد له وهو الابد الدائم الذى لا ينقطع وانما سمى بالآخر لتاخره عن الاوقات المنقضية أو الوقت المعهود من النشور الى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار لانهم أوهموا فى هذا المقال انهم أحاطوا بجانبى الايمان أوله وآخره وهذا لان حاصل المسائل الاعتقادية يرجع الى مسائل المبدأ وهى العلم بالصانع وصفاته وأسمائه ومسائل المعاد وهى العلم بالنشور والبعث من المقبور والصراط والميزان وسائر أحوال الآخرة وفى

تكرير الباء اشارة الى انهم ادعوا كل واحد من الايمانين على صفة الصحة والاستحكام وانما طابق قوله (وماهم بمؤمنين) وهو فى ذكر شان الفاعل لا الفعل قولهم آمنا بالله وباليوم الأخر وهو فى ذكر شان الفعل لا الفاعل لان المراد انكار ما ادعوه ونفيه على أبلغ وجه وآكده وهو اخراج ذواتهم من أن تكون طائفة من المؤمنين ونحوه قوله تعالى يريدون أن يخرجوا من النار وماهم بخارجين منها فهو أبلغ من قولك وما يخرجون منها وأطلق الايمان فى الثانى بعد تقييده فى الاول لانه يحتمل أن يراد التقييد ويترك لدلالة المذكور عليه ويحتمل أن يراد نفى أصل الايمان وفى ضمنه نفى المذكور أولا والآية تنفى قول الكرامية ان الايمان هو الاقرار باللسان لا غير لانه نفى عنهم اسم الايمان مع وجود الاقرار منهم وتؤيد قول أهل السنة انه اقرار باللسان وتصديق بالجنان ودخلت الباء فى خبر ما مؤكدة للنفى لانه يستدل به السامع على الجحد اذا غفل عن أول الكلام ومن موحد اللفظ فلذا قيل يقول وجمع وماهم بمؤمنين نظرا الى معناه (يخادعون الله) أى رسول الله فحذف المضاف كقوله واسال القرية كذا قاله أبو على رحمه الله وغيره أى يظهرون غير ما فى أنفسهم فالخداع اظهار غير ما فى النفس وقد رفع الله منزلة النبى صلى الله عليه وسلم حيث جعل خداعه خداعه وهو كقوله ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم وقيل معناه يخادعون الله فى زعمهم لانهم يظنون ان الله ممن يصح خداعه وهذا المثال يقع كثيرا لغير اثنين نحو قولك عاقبت اللص وقد قرئ يخدعون الله وهو بيان ليقول أو مستانف كانه قيل ولم يدعون الايمان كاذبين وما منفعتهم فى ذلك فقيل يخادعون الله ومنفعتهم فى ذلك متاركتهم عن المحاربة التى كانت مع سواهم من الكفار واجراء أحكام المؤمنين عليهم ونيلهم من الغنائم وغير ذلك قال صاحب الوقوف الوقف لازم على بمؤمنين لانه لو وصل لصار التقدير وماهم بمؤمنين مخادعين فينتفى الوصف كقولك ماهو برجل كاذب والمراد نفى الايمان عنهم واثبات الخداع لهم ومن جعل يخادعون حالا من الضمير فى يقول والعامل فيها يقول والتقدير يقول آمنا بالله مخادعين أو حالا من الضمير فى بمؤمنين والعامل اسم الفاعل فيها والتقدير وماهم بمؤمنين فى حال خداعهم لا يقف والوجه الاول (والذين آمنوا) أى يخادعون رسول الله

والقتل فى الدنيا والعذاب الدائم فى العقبى وحقيقة العذاب هو كل ما يؤلم الانسان ويعييه ويشق عليه وقيل هو الايجاع الشديد وقيل هو ما يمنع الانسان من مراده ومنه الماء العذب لانه يمنع العطش والعظيم ضد الحقير * قوله عز وجل (ومن الناس من يقول آمنا بالله) نزلت فى المنافقين عبد الله بن أبى ابن سلول ومعتب ابن قشير وجد بن قيس وأصحابهم وذلك انهم أظهروا كلمة الاسلام ليسلموا بها من النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأسروا الكفر واعتقدوه وأكثرهم من اليهود وصفة المنافق أن يعترف بلسانه بالايمان ويقر به وينكره بقلبه ويصبح على حال ويمسى على غيرها والناس جمع انسان سمى به لانه عهد اليه فنسى قال الشاعر * وسميت انسانا لانك ناسى * وقيل سمى انسانا لانه يستأنس بمثله (وباليوم الآخر) أى وآمنا باليوم الآخر وهو يوم القيامة سمى بذلك لانه يأتى بعد الدنيا وهو آخر الايام المحدودة المعدودة وما بعده فلا حد له ولا آخر قال الله تعالى ردا على المنافقين (وماهم بمؤمنين) نفى عنهم الايمان بالكلية (يخادعون الله والذين آمنوا) أى يخالفون الله والخديعة الحيلة والمكر وأصله فى اللغة الاخفاء والمخادع يظهر ضد ما يضمر ليتخلص فهو بمنزلة النفاق وهو خادعهم أى يظهر لهم نعيم الدنيا ويعجله لهم بخلاف ما يغيب عنهم من عذاب الآخرة فان قلت المخادعة مفاعلة وانما تجئ فى الفعل المشترك والله تعالى منزه عن المشاركة قلت

والمؤمنين باظهار الايمان واضمار الكفر (ومايخدعون الا أنفسهم) أى ومايعاملون تلك المعاملة المشبهة بمعاملة المخادعين الا أنفسهم لان ضررها يلحقهم وحاصل خداعهم وهو العذاب فى الآخرة يرجع اليهم فكانهم خدعوا أنفسهم ومايخادعون ابو عمرو ونافع ومكى للمطابقة وعذر الاولين ان خدع وخادع هنا بمعنى واحد والنفس ذات الشئ وحقيقته ثم قيل للقلب والروح النفس لان النفس بهما والدم نفس لان قوامها بالدم وللماء نفس لفرط حاجتها اليه والمراد بالانفس ههنا ذواتهم والمعنى بمخادعتهم ذواتهم أن الخداع لاصق بهم لايعدوهم الى غيرهم (ومايشعرون) ان حاصل خداعهم يرجع اليهم والشعور علم الشئ علم حس من الشعار وهو ثوب يلى الجسد ومشاعر الانسان حواسه لانها آلات الشعور والمعنى ان لحوق ضرر ذلك بهم كالمحسوس وهم لتمادى غفلتهم كالذى لاحس له (فى قلوبهم مرض) أى شك ونفاق لان الشك تردد بين الامرين والمنافق متردد فى الحديث مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين والمريض متردد بين الحياة والموت ولان المرض ضد الصحة والفساد يقابل الصحة فصار المرض اسما لكل فساد والشك والنفاق فساد فى القلب (فزادهم الله مرضا) أى ضعفا عن الانتصار وعجزا عن الاقتدار وقيل المراد به

خلق النفاق فى حالة البقاء بخلق أمثاله كما عرف فى زيادة الايمان (ولهم عذاب أليم) فعيل بمعنى مفعل أى مؤلم (بما كانوا يكذبون) كوفى أى بكذبهم فى قولهم آمنا بالله وباليوم الآخر فما مع الفعل بمعنى المصدر والكذب الاخبار عن الشئ على خلاف ماهو به يكذبون غيرهم أى بتكذيبهم النبى عليه السلام فيما جاء به وقيل هو مبالغة فى كذب كما بولغ فى صدق فقيل صدق ونظيرها بان الشئ وبين (واذا قيل لهم) معطوف على يكذبون ويجوز أن يعطف على يقول آمنا لانك لو قلت ومن الناس من اذا قيل لهم (لاتفسدوا فى الارض) لكان صحيحا والفساد خروج الشئ عن حال استقامته وكونه منتفعا به وضده الصلاح وهو الحصول على الحال المستقيمة النافعة والفساد فى وقيل الارض هيج الحروب والفتن لان فى ذلك فساد مافى الارض وانتفاء الاستقامة عن أحوال الناس والزروع والمنافع الدينية والدنيوية وكان فساد المنافقين فى الارض أنهم كانوا يمالئون الكفار ويمالؤنهم على المسلمين بافشاء أسرارهم اليهم واغرائهم عليهم وذلك ممايؤدى الى هيج الفتن بينهم (قالوا انما نحن مصلحون) بين المؤمنين والكافرين بالمداراة يعنى أن صفة المصلحين خلصت لنا وتمحضت من غير شائبة قادح فيها من وجه من وجوه الفساد لان انما لقصر الحكم على شئ أو لقصر الشئ على حكم كقولك انما ينطلق زيد وانما زيد كاتب وما كافة لانها تكفها عن العمل (ألا انهم هم المفسدون ولكن لايشعرون) أنهم مفسدون فحذف المفعول للعلم به ألا مركبة من همزة الاستفهام وحرف النفى لاعطاء معنى التنبيه على تحقق مابعدها والاستفهام اذا دخل على النفى أفاد تحقيقا كقوله تعالى أليس ذلك بقادر ولكونها فى هذا المنصب من التحقيق لاتقع الجملة بعدها الا مصدرة بنحو مايتلقى به القسم وقد رد الله ماادعوه من الانتظام فى جملة المصلحين أبلغ رد وأدله على سخط عظيم والمبالغة فيه من جهة الاستئناف ومافى ألا وان من التأكيد وتعريف الخبر وتوسيط الفصل وقوله لايشعرون

المفاعلة قد ترد لا على وجه المشاركة تقول عافاك الله وطارقت النعل وعاقبت اللص فالمخادعة هنا عبارة عن فعل الواحد والله تعالى منزه عن أن يكون منه خداع فان قلت كيف يخادع الله وهو يعلم الضمائر والاسرار فمخادعة الله ممتنعة فكيف يقال يخادعون الله قلت ان الله تعالى ذكر نفسه وأراد به رسوله صلى الله عليه وسلم وذلك تفخيم لامره وتعظيم لشانه وقيل أراد به المؤمنين واذا خادعوا المؤمنين فكانهم خادعوا الله تعالى وذلك انهم ظنوا ان النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لم يعلموا حالهم ولتجرى عليهم أحكام الاسلام فى الظاهر وهم على خلافه فى الباطن (ومايخادعون الا أنفسهم) أى ان الله تعالى يجازيهم على ذلك ويعاقبهم عليه فلا يكونون فى الحقيقة الا خادعين أنفسهم وقيل ان وبال ذلك الخداع راجع اليهم لان الله تعالى يطلع نبيه صلى الله عليه وسلم على نفاقهم فيفتضحون فى الدنيا ويستوجبون العقاب فى العقبى والنفس ذات الشئ وحقيقته وقيل للدم نفس لان به قوة البدن (ومايشعرون) أى لايعلمون أن وبال خداعهم راجع عليهم (فى قلوبهم مرض) أى شك ونفاق وأصل المرض الضعف والخروج عن الاعتدال الخاص بالانسان وسمى الشك فى الدين والنفاق مرضا لانه يضعف الدين كالمرض يضعف البدن (فزادهم الله مرضا) يعنى أن الآيات كانت تنزل تترى أى آية بعد آية فكلما كفروا بآية ازدادوا بعد ذلك كفرا ونفاقا (ولهم عذاب أليم) أى مؤلم يخلص وجعه الى قلوبهم (بما كانوا يكذبون) أى بتكذيبهم الله ورسوله فى السر وقرئ بالتخفيف أى بكذبهم اذ قالوا آمنا وهم غير مؤمنين (واذا قيل لهم) يعنى المنافقين وقيل اليهود والمعنى اذا قال لهم المؤمنون (لاتفسدوا فى الارض) أى بالكفر وتعويق الناس عن الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن (قالوا انما نحن مصلحون) يعنى يقولونه كذبا (ألا) كلمة تنبيه ينبه بها المخاطب (انهم هم المفسدون) يعنى فى الارض بالكفر وهو أشد الفساد (ولكن لايشعرون) وذلك لانهم يظنون ان ماهم عليه من النفاق وابطان الكفر صلاح وهو عين الفساد

(وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء) نصحوا من وجهين أحدهما تقبيح ما كانوا عليه لبعده عن الصواب وجره الى الفساد وثانيهما تبصيرهم الطريق الاسد من اتباع ذوي الاحلام فكان من جوابهم أن سفهوهم لتمادي جهلهم وفيه تسلية للعالم مما يلقى من الجهلة وانما صح اسناد قيل الى لا تفسدوا وآمنوا مع أن اسناد الفعل الى الفعل لا يصح لانه اسناد الى لفظ الفعل والممتنع اسناد الفعل الى معنى الفعل فكانه قيل واذا قيل لهم هذا القول ومنه زعموا مطية الكذب وما في كما كافة كما في ربما أو مصدرية كما في بما رحبت واللام في الناس للعهد أي كما آمن الرسول ومن معه وهم ناس معهودون أو عبد الله بن سلام وأشياعه أي كما آمن أصحابكم واخوانكم أو للجنس أي كما آمن الكاملون في الانسانية أو جعل المؤمنون كانهم الناس على الحقيقة ومن عداهم كالبهائم والكاف في كما في موضع النصب لانه صفة مصدر محذوف أي ايمانا مثل ايمان الناس ومثله كما آمن السفهاء والاستفهام في أنؤمن للانكار واللام في السفهاء مشار بها الى الناس وانما سفهوهم وهم العقلاء المراجيح لانهم لجهلهم اعتقدوا ان ماهم فيه هو الحق وان ما عداه باطل ومن ركب متن الباطل كان سفيها والسفه سخافة العقل وخفة الحلم (ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون) أنهم هم السفهاء وانما ذكر هنا لا يعلمون وفيما تقدم لا يشعرون لانه قد ذكر السفه وهو جهل فكان ذكر العلم معه أحسن طباقا له ولان الايمان يحتاج فيه الى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة أما الفساد في الارض فامر مبني على العادات فهو كالمحسوس والسفهاء خبران وهم فصل أو مبتدأ والسفهاء خبرهم والجملة خبران (واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا) وقرأ أبو حنيفة رحمه الله واذا لاقوا يقال لقيته ولاقيته اذا استقبلته قريبا منه والآية الاولى في بيان مذهب المنافقين والترجمة عن نفاقهم وهذه في بيان ما كانوا يعملون مع المؤمنين من الاستهزاء بهم واتقائهم بوجوه المصادقين وايهامهم أنهم معهم (واذا خلوا الى شياطينهم) خلوت بفلان واليه اذا انفردت معه وبالى أبلغ لان فيه دلالة الابتداء والانتهاء أي اذا خلوا من المؤمنين الى شياطينهم ويجوز أن يكون من خلا بمعنى مضى وشياطينهم الذين ماثلوا الشياطين في تمردهم وهم اليهود وعن سيبويه أن نون الشياطين أصلية بدليل قولهم تشيطن وعنه أنها زائدة واشتقاقه من شطن اذا بعد لبعده من الصلاح والخير أو من شاط اذا بطل ومن أسمائه الباطل (قالوا انا معكم) انا مصاحبوكم وموافقوكم على دينكم وانما خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم بالاسمية محققة بان لانهم في خطابهم مع المؤمنين في ادعاء حدوث الايمان منهم لا في ادعاء أنهم أوحديون في الايمان امالان أنفسهم لا تساعدهم عليه اذ ليس لهم من عقائدهم باعث ومحرك واما لانه لا يروج عنهم لو قالوه على لفظ التأكيد والمبالغة وكيف يطمعون في رواجه وهم بين ظهراني المهاجرين والانصار وأما خطابهم مع اخوانهم فقد كان عن رغبة وقد كان متقبلا منهم ورائجا عنهم فكان مظنة للتحقيق ومئنة للتأكيد وقوله (انما نحن مستهزؤن) تأكيد لقوله انا معكم لان معناه الثبات على اليهودية وقوله انما نحن مستهزؤن رد للاسلام ودفع له منهم لان المستهزئ بالشيء المستخف به منكر له ودافع لكونه معتدا به ودفع نقيض الشيء تأكيد لثباته أو استئناف كانهم اعترضوا عليهم بقولهم حين قالوا لهم انا معكم ان كنتم معنا فلم توافقون المؤمنين فقالوا انما نحن مستهزؤن والاستهزاء السخرية والاستخفاف وأصل الباب الخفة من الهزء وهو القتل السريع وهزأ يهزأ مات على المكان

وقيل لا يشعرون بما أعد الله لهم من العذاب (واذا قيل لهم) يعني المنافقين وقيل اليهود (آمنوا كما آمن الناس) يعني المهاجرين والانصار وقيل عبد الله بن سلام وأصحابه من مؤمني أهل الكتاب والمعنى أخلصوا في ايمانكم كما أخلص هؤلاء في ايمانهم لان المنافقين كانوا يظهرون الايمان (قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء) أي الجهال فان قلت كيف يصح النفاق مع المجاهرة بقولهم أنؤمن كما آمن السفهاء قلت كانوا يظهرون هذا القول فيما بينهم لا عند المؤمنين فاخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بذلك فرد الله ذلك عليهم بقوله (ألا انهم هم السفهاء) يعني الجهال وأصل السفه خفة العقل ورقة العلم وانما سمى الله المنافقين سفهاء لانهم كانوا عند أنفسهم عقلاء رؤساء فقلب ذلك عليهم وسماهم سفهاء (ولكن لا يعلمون) يعني انهم كذلك ۞ قوله تعالى (واذا لقوا الذين آمنوا) يعني هؤلاء المنافقين اذا لقوا المهاجرين والانصار (قالوا آمنا) كايمانكم (واذا خلوا) أي رجعوا وقيل هو من الخلوة (الى) قيل بمعنى الباء أي (شياطينهم) وقيل بمعنى مع أي مع شياطينهم والمراد بشياطينهم رؤساؤهم وكهنتهم قال ابن عباس وهم خمسة نفر كعب بن الاشرف من اليهود بالمدينة وأبو بردة في بني أسلم وعبد الدار في جهينة وعوف بن عامر في بني أسد وعبد الله بن السوداء بالشام ولا يكون كاهن الا ومعه شيطان تابع له وقيل هم رؤساؤهم الذين شابهوا الشياطين في تمردهم (قالوا انا معكم) أي على دينكم (انما نحن مستهزؤن) أي بمحمد وأصحابه بما اظهرنا لهم من الاسلام لنأمن من شرهم ونقف على سرهم ونأخذ من غنائمهم وصدقاتهم قال ابن عباس نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي وأصحابه وذلك أنهم خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبد الله بن أبي لاصحابه انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم فذهب فاخذ بيد أبي بكر الصديق فقال مرحبا بالصديق سيد بني تيم وشيخ الاسلام وثاني رسول الله صلى الله عليه وسلم

(الله يستهزئ بهم) أي يجازيهم على استهزائهم فسمى جزاء الاستهزاء باسمه كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه فسمى جزاء السيئة سيئة وجزاء الاعتداء اعتداء وان لم يكن الجزاء سيئة واعتداء وهذا لان الاستهزاء لا يجوز على الله تعالى من حيث الحقيقة لانه من باب العبث وتعالى عنه قال الزجاج هو الوجه المختار واستئناف قوله الله يستهزئ بهم من غير عطف في غاية الجزالة والفخامة وفيه ان الله تعالى هو الذي يستهزئ بهم الاستهزاء الابلغ الذي ليس استهزاؤهم اليه باستهزاء لما ينزل بهم من النكال والذل والهوان ولما كانت نكايات الله وبلاياه تنزل عليهم ساعة فساعة قيل الله يستهزئ بهم ولم يقل الله مستهزئ بهم ليكون طبقا لقوله انما نحن مستهزؤن (ويمدهم) اي يمهلهم عن الزجاج (في طغيانهم) في غلوهم في كفرهم (يعمهون) حال أي يتحيرون ويترددون وهذه الآية حجة على المعتزلة في مسئلة الاصلح (أولئك) مبتدأ خبره (الذين اشتروا الضلالة بالهدى) أي استبدلوها به واختاروها عليه وانما قال اشتروا الضلالة بالهدى ولم يكونوا على هدى لانها في قوم آمنوا ثم كفروا أو في اليهود الذين كانوا مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم فلما جاءهم كفروا به أو جعلوا لتمكنهم منه كان الهدى قائم فيهم فتركوه بالضلالة وفيه دليل على جواز البيع تعاطيا لانهم لم يتلفظوا بلفظ الشراء ولكن تركوا الهدى بالضلالة عن اختيارهم وسمى ذلك شراء فصار دليلا لنا على أن من أخذ شيأ من غيره وترك عليه عوضه برضا فقد اشتراه وان لم يتكلم به والضلالة الجور عن القصد وفقد الاهتداء يقال ضل منزله فاستعير للذهاب عن الصواب في الدين (فما ربحت تجارتهم) الربح الفضل على رأس المال والتجارة صناعة التاجر وهو الذي يبيع ويشتري للربح واسناد الربح الى التجارة من الاسناد المجازي ومعناه فما ربحوا في تجارتهم اذ التجارة لا تربح ولما وقع شراء الضلالة بالهدى مجازا أتبعه ذكر الربح والتجارة ترشيحا له كقوله

ولما رأيت النسر عز ابن دأية ٭ وعشش في وكريه جاش له صدري

لما شبه الشيب بالنسر والشعر الفاحم بالغراب أتبعه ذكر التعشيش والوكر (وما كانوا مهتدين) لطرق التجارة كما يكون التجار المتصرفون العاملون بما يربح فيه ويخسر والمعنى أن مطلوب التجار سلامة رأس المال والربح وهؤلاء قد أضاعوهما فرأس مالهم الهدى ولم يبق لهم مع الضلالة واذا لم يبق لهم الا الضلالة لم يوصفوا باصابة الربح وان ظفروا بالاغراض الدنيوية لان الضال خاسر ولانه لا يقال لمن لم يسلم له رأس ماله قد ربح وقيل الذين صفة أولئك وفما ربحت تجارتهم الى آخر الآية في محل الرفع خبر أولئك (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا) لما جاء بحقيقة صفتهم عقبها بضرب المثل زيادة في الكشف وتتميما للبيان ولضرب الامثال في ابراز خفيات المعاني ورفع الاستار عن الحقائق تأثير ظاهر ولقد كثر ذلك في الكتب السماوية ومن سور الانجيل سورة الامثال والمثل في أصل كلامهم هو المثل وهو النظير يقال مثل ومثل ومثيل كشبه وشبه وشبيه ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده مثل ولم يضربوا مثلا الا قولا فيه غرابة ولذا حوفظ عليه فلا يغير وقد استعير المثل للحال أو الصفة أو القصة اذا كان لها شأن وفيها غرابة كأنه قيل حالهم العجيبة الشأن كحال الذي استوقد نارا وكذلك قوله مثل الجنة التي وعد المتقون أي فيما قصصنا عليك من العجائب قصة الجنة العجيبة الشأن ثم أخذ في بيان عجائبها ولله المثل الاعلى أي الوصف الذي له شأن من العظمة والجلالة

في الغار الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أخذ بيد عمر فقال مرحبا بسيد بني عدي بن كعب الفاروق القوي في دين الله الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أخذ بيد علي فقال مرحبا بابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه وسيد بني هاشم ما خلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له علي اتق الله يا عبد الله ولا تنافق فان المنافقين شر خليقة الله تعالى فقال مهلا يا أبا الحسن اني لا أقول هذا نفاقا والله ان ايماننا كايمانكم وتصديقنا كتصديقكم ثم تفرقوا فقال عبد الله لاصحابه كيف رأيتموني فعلت فاثنوا عليه خيرا (الله يستهزئ بهم) أي يجازيهم جزاء استهزائهم بالمؤمنين فسمي الجزاء باسمه لانه في مقابلته قال ابن عباس يفتح لهم باب الجنة فاذا انتهوا اليه سد عنهم وردوا الى النار (ويمدهم) أي يتركهم ويمهلهم والمد والامداد واحد وأصله الزيادة وأكثر ما يأتي المد في الشر والامداد في الخير (في طغيانهم) أي في ضلالهم وأصل الطغيان مجاوزة الحد (يعمهون) أي يترددون في الضلالة متحيرين (أولئك) يعني المنافقين (الذين اشتروا الضلالة بالهدى) أي استبدلوا الكفر بالايمان وانما أخرجه بلفظ الشراء والتجارة توسعا على سبيل الاستعارة لان الشراء فيه اعطاء بدل وأخذ آخر فان قلت كيف قال اشتروا الضلالة بالهدى وما كانوا على هدى قلت جعلوا لتمكنهم منه كانه في أيديهم فاذا تركوه الى الضلالة فقد عطلوه واستبدلوها بها والضلالة الجور عن القصد وفقد الاهتداء (فما ربحت تجارتهم) أي ما ربحوا في تجارتهم والربح الفضل عن رأس المال وأضاف الربح الى التجارة لان الربح فيها يكون (وما كانوا مهتدين) أي مصيبين في تجارتهم لان رأس المال هو الايمان فلما أضاعوه واعتقدوا الضلالة فقد ضلوا عن الهدى وقيل وما كانوا مهتدين في ضلالتهم ۞ قوله عز وجل (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا) المثل عبارة عن قول يشبه ذلك القول قولا آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر

ووضع الذي موضع الذين كقوله وخضتم كالذي خاضوا فلا يكون تمثيل الجماعة بالواحد أو قصد جنس المستوقدين أو أريد الفوج الذي استوقد نارا على أن ذوات المنافقين لم يشبهوا بذات المستوقد حتى يلزم منه تشبيه الجماعة بالواحد وانما شبهت قصتهم بقصة المستوقد ومعنى استوقد أوقد ووقود النار سطوعها وارتفاع لهبها والنار جوهر لطيف مضيء حار محرق واشتقاقها من نار ينور اذا نفر لان فيها حركة واضطرابا (فلما أضاءت ما حوله) الاضاءة فرط الانارة ومصداقه قوله هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وهي في الآية متعدية ويحتمل أن تكون غير متعدية مسندة الى ما حوله والتأنيث للحمل على المعنى لان ما حول المستوقد أماكن وأشياء وجواب فلما (ذهب الله بنورهم) وهو ظرف زمان والعامل فيه جوابه مثل اذا وما موصولة وحوله نصب على الظرف أو نكرة موصوفة والتقدير فلما أضاءت شيئا ثابتا حوله وجمع الضمير وتوحيده للحمل على اللفظ تارة وعلى المعنى أخرى والنور ضوء النار وضوء كل نير ومعنى أذهبه أزاله وجعله ذاهبا ومعنى ذهب به استصحبه ومضى به والمعنى أخذ الله نورهم وأمسكه وما يمسك فلا مرسل له فكان أبلغ من الاذهاب

ولم يقل ذهب الله بضوئهم لقوله فلما أضاءت لان ذكر النور أبلغ لان الضوء فيه دلالة على الزيادة والمراد ازالة النور عنهم رأسا ولو قيل ذهب الله بضوئهم لاوهم الذهاب بالزيادة وبقاء ما يسمى نورا ألا ترى كيف ذكر عقيبه (وتركهم في ظلمات) والظلمة عرض ينافي النور وكيف جمعها وكيف نكرها وكيف اتبعها ما يدل على انها ظلمة لا يتراءى فيها شبحان وهو قوله (لا يبصرون) وترك بمعنى طرح وخلى اذا علق بواحد فاذا علق بشيئين كان مضمنا معنى صير فيجري مجرى أفعال القلوب ومنه وتركهم في ظلمات أصله هم في ظلمات ثم دخل ترك فنصب الجزأين والمفعول الساقط من لا يبصرون من قبيل المتروك المطروح لا من قبيل المقدر المنوي كان الفعل غير متعد أصلا وانما شبهت حالهم بحال المستوقد لانهم غب الاضاءة وقعوا في ظلمة وحيرة نعم المنافق خابط في ظلمات الكفر أبدا ولكن المراد ما استضاؤا به قليلا من الانتفاع بالكلمة المجراة على ألسنتهم ووراء استضاءتهم بنور هذه الكلمة ظلمة النفاق المفضية بهم الى ظلمة العقاب السرمدي وللآية تفسير آخر وهو أنهم لما وصفوا بانهم اشتروا الضلالة بالهدى عقب ذلك بهذا التمثيل ليمثل هداهم الذي باعوه بالنار المضيئة ما حول المستوقد والضلالة التي اشتروها بذهاب الله بنورهم وتركه اياهم في الظلمات وتنكير النار للتعظيم (صم بكم عمي) أي هم صم كانت حواسهم سليمة ولكن لما سدوا عن الاصاخة الى الحق مسامعهم وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم وان ينظروا ويتبصروا بعيونهم جعلوا كأنما أيفت مشاعرهم وطريقته عند علماء البيان طريقة قولهم هم ليوث للشجعان وبحور للاسخياء الا أن هذا في الصفات وذلك في الاسماء وما في الآية تشبيه بليغ في الاصح لا استعارة لان المستعار له مذكور وهم المنافقون والاستعارة انما تطلق حيث يطوى ذكر المستعار له ويجعل الكلام خلوا عنه صالحا لان يراد به المنقول عنه والمنقول اليه لولا دلالة الحال أو فحوى الكلام

الآخرة ويصوره ولهذا ضرب الله تعالى الامثال في كتابه وهو أحد أقسام القرآن السبعة ولما ذكر الله تعالى حقيقة وصف المنافقين عقبه بضرب المثل زيادة في الكشف والبيان لانه يؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه ولان المثل تشبيه الشيء الخفي بالجلي فيتأكد الوقوف على ماهيته وذلك هو النهاية في الايضاح وشرطه أن يكون قولا فيه غرابة من بعض الوجوه كمثل الذي استوقد نارا لينتفع بها (فلما أضاءت) يعني النار (ما حوله) يعني حول المستوقد (ذهب الله بنورهم) فان قلت كيف وحد أولا ثم جمع ثانيا قلت يجوز وضع الذي موضع الذين كقوله وخضتم كالذي خاضوا وقيل انما شبه قصتهم بقصة المستوقد وقيل معناه مثل الواحد منهم كمثل الذي استوقد نارا (وتركهم في ظلمات لا يبصرون) قال ابن عباس نزلت في المنافقين يقول مثلهم في نفاقهم كمثل رجل أوقد نارا في ليلة مظلمة في مفازة فاستدفأ ورأى ما حوله فاتقى مما يخاف فبينا هو كذلك اذ طفئت ناره فبقي في ظلمة حائرا متخوفا فكذلك حال المنافقين أظهروا كلمة الايمان فامنوا بها على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وناكحوا المسلمين وقاسموهم في الغنائم فذلك نورهم فلما ماتوا عادوا الى الظلمة والخوف وقيل ذهاب نورهم ظهور عقيدتهم للمؤمنين على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل ذهاب نورهم في القبر أو على الصراط فان قلت ما وجه تشبيه الايمان بالنور والكفر بالظلمة قلت وجه تشبيه الايمان بالنور ان النور أبلغ الاشياء في الهداية الى المحجة القصوى والى الطريق المستقيم وازالة الحيرة وكذلك الايمان هو الطريق الواضح الى الله تعالى والى جنانه وشبه الكفر بالظلمة لان الضال عن الطريق المسلوكة في الظلمة لا يزداد الا حيرة وكذلك الكفر لا يزداد صاحبه في الآخرة الا حيرة وفي ضرب المثل للمنافقين بالنار ثلاث حكم أحدها أن المستضيء بالنار مستضيء بنور غيره فاذا ذهب ذلك بقي هو في ظلمته فكأنهم لما أقروا بالايمان من غير اعتقاد قلوبهم كان ايمانهم كالمستعار الثانية ان النار تحتاج في دوامها الى مادة الحطب لتدوم فكذلك الايمان يحتاج الى مادة الاعتقاد ليدوم الثالثة أن الظلمة الحادثة بعد الضوء أشد على الانسان من ظلمة لم يجد قبلها ضياء فشبه حالهم بذلك ثم وصفهم الله تعالى فقال (صم) أي عن سماع الحق لانهم لا يقبلونه واذا لم يقبلوه فكأنهم لم يسمعوه (بكم) أي خرس عن النطق بالحق فهم لا يقولونه (عمي) أي لا بصائر لهم يميزون بها بين الحق

(فهم لا يرجعون) لا يعودون الى الهدى بعد ان باعوه أو عن الضلالة بعد أن اشتروها والتنوع الرجوع الى الشئ وعنه أو أراد انهم متحيرون بقوا جامدين في مكانهم لا يبرحون ولا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق) ثنى الله سبحانه وتعالى في شأنهم بتمثيل آخر لزيادة الكشف والايضاح وشبه المنافق في التمثيل الاول بالمستوقد نارا واظهاره الايمان بالاضاءة وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار وهنا شبه دين الاسلام بالصيب لان القلوب تحيا به حياة الارض بالمطر وما يتعلق به من شبه الكفار بالظلمات وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق وما يصيبهم من الافزاع والبلايا من جهة أهل الاسلام بالصواعق والمعنى أو كمثل ذوي صيب فحذف مثل لدلالة العطف عليه وذوي لدلالة يجعلون عليه والمراد كمثل قوم أخذتهم السماء بهذه الصفة فلقوا منها ما لقوا فهذا تشبيه أشياء بأشياء الا أنه لم يصرح بذكر المشبهات كما صرح في قوله وما يستوي الاعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء وقول امرئ القيس كأن قلوب الطير رطبا ويابسا * لدى وكرها العناب والحشف البالي بل جاء به مطويا ذكره على سنن الاستعارة والصحيح أن التمثيلين من جملة التمثيلات المركبة دون المفرقة لا يتكلف لواحد واحد شيء يقدر شبهه به بيانه أن العرب تأخذ أشياء فرادى معزولا بعضها من بعض لم يأخذ هذا بحجزة ذاك فتشبهها بنظائرها كما فعل امرؤ القيس وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامت وتلاصقت حتى عادت شيأ واحدا بأخرى مثلها كقوله تعالى مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها الآية فالمراد تشبيه حال اليهود في جهلها بما معها من التوراة بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة وتساوي الحالتين عنده من حمل أسفار الحكمة وحمل ما سواها من الاوقار لا يشعر من ذلك الا بما يمر بدفيه من الكد والتعب وكقوله واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فالمراد قلة بقاء زهرة الدنيا كقلة بقاء الخضر فهو تشبيه كيفية بكيفية فاما أن يراد تشبيه الافراد بالافراد غير منوط بعضها ببعض ومصيره شيأ واحدا فلا فكذلك

لما وصف وقوع المنافقين في ضلالتهم وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة شبهت حيرتهم وشدة الامر عليهم بما يكابد من طفئت ناره بعد ايقادها في ظلمة الليل وكذلك من أخذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق والتمثيل الثاني أبلغ لانه أدل على فرط الحيرة وشدة الامر ولذا أخروهم يتدرجون في مثل هذا من الاهون الى الاغلظ وعطف أحد التمثيلين على الآخر باو لانها في أصلها لتساوي شيئين فصاعدا في الشك عند البعض ثم استعيرت لمجرد التساوي كقولك جالس الحسن أو ابن سيرين تريد أنهما سيان في استصواب أن يجالسا وقوله تعالى ولا تطع منهم آثما أو كفورا أي الآثم والكفور سيان في وجوب العصيان فكذا هنا معناه ان كيفية قصة المنافقين مشبهة لكيفيتي هاتين القصتين وان الكيفيتين سواء في استقلال كل واحدة منهما بوجه التمثيل فبأيتهما مثلتها فانت مصيب وان مثلتها بهما جميعا فكذلك والصيب المطر الذي يصوب أي ينزل ويقع ويقال للسحاب صيب أيضا وتنكير صيب لانه نوع من المطر شديد هائل كما نكرت النار في التمثيل الاول والسماء هذه المظلة وعن الحسن انها موج مكفوف والفائدة في ذكر السماء والصيب لا يكون الا من السماء انه جاء بالسماء معرفة فأفاد انه غمام أخذ بآفاق السماء ونفى أن يكون من سماء أي من أفق واحد من بين سائر الآفاق لان كل أفق من آفاقها سماء ففي التعريف مبالغة كما في تنكير صيب وتركيبه وبنائه وفيه دليل على أن السحاب من السماء يتحدر ومنها يأخذ ماءه وقيل انه يأخذه من البحر ويرتفع ظلمات مرفوع بالجار والمجرور لانه قد قوي لكونه صفة لصيب بخلاف ما لو قلت ابتداء فيه ظلمات ففيه خلاف بين الاخفش وسيبويه والرعد الصوت الذي يسمع من السحاب لاصطكاك أجرامه أو ملك يسوق السحاب والبرق الذي يلمع من السحاب من برق الشئ بريقا اذا لمع والضمير في فيه يعود الى الصيب فقد جعل الصيب مكانا للظلمات فان أريد به السحاب فظلماته اذا كان اسحم مطبقا ظلمتا سحمته وتطبيقه مضمومة اليهما ظلمة الليل وأما ظلمات المطر فظلمة تكاثفه بتتابع القطر وظلمة اظلال غمامه مع ظلمة الليل وجعل الصيب مكانا للرعد والبرق على ارادة السحاب به ظاهر وكذا ان أريد به المطر لانهما ملتبسان به في الجملة ولم يجمع الرعد والبرق لانهما مصدران في الاصل يقال رعدت السماء رعدا وبرقت برقا فروعي حكم الاصل بان ترك جمعهما ونكرت هذه الاشياء لان المراد أنواع منها كأنه قيل فيه ظلمات

والباطل ومن لا بصيرة له كمن لا بصر له فهو أعمى كانت حواسهم سليمة ولكن لما سدوا عن سماع الحق آذانهم وأبوا أن تنطق به ألسنتهم وأن ينظروا اليه بعيونهم جعلوا كمن تعطلت حواسه وذهب ادراكه قال الشاعر
صم اذا سمعوا خيرا ذكرت به * وان ذكرت بسوء عندهم أذن
(فهم لا يرجعون) أي عن ضلالتهم ونفاقهم * قوله تعالى (أو كصيب) أي كأصحاب صيب وهو المطر وكل ما نزل من الاعلى الى الاسفل فهو صيب (من السماء) أي من السحاب لان كل ما علاك فأظلك فهو سماء ومنه قيل لسقف البيت سماء وقيل من السماء بعينها وانما ذكر الله تعالى السماء وان كان المطر لا ينزل الا منها ليرد على من زعم ان المطر ينعقد من أبخرة الارض فأبطل مذهب الحكماء بقوله من السماء ليعلم أن المطر ليس من أبخرة الارض كما زعم الحكماء (فيه) أي الصيب (ظلمات) جمع ظلمة (ورعد) هو الصوت الذي يسمع من السحاب (وبرق) يعني النار التي تخرج منه قال ابن عباس الرعد اسم ملك

داجية ورعد قاصف و برق خاطف (يجعلون أصابعهم فى آذانهم) الضمير لاصحاب الصيب وان كان محذوفا كما فى قوله أوهم قائلون لان المحذوف باق معناه وان سقط لفظه ولا محل ليجعلون لكونه مستأنفا لانه لما ذكر الرعد والبرق على مايؤذن بالشدة والهول فكأن قائلا قال فكيف حالهم مع مثل ذلك الرعد فقيل يجعلون أصابعهم فى آذانهم ثم قال فكيف حالهم مع مثل ذلك البرق فقال يكاد البرق يخطف أبصارهم وانما ذكر الاصابع ولم يذكر الانامل ورؤس الاصبع هى التى تجعل فى الآذان اتساعا كقوله فاقطعوا أيديهما والمراد الى الرسغ ولان فى ذكر الاصابع من المبالغة ماليس فى ذكر الانامل وانما لم يذكر الاصبع الخاص الذى تسد به الاذن لان السبابة فعالة من السب فكان اجتنابها أولى بآداب القرآن ولم يذكر المسبحة لانها مستحدثة غير مشهورة (من الصواعق) متعلق بيجعلون أى من أجل الصواعق يجعلون أصابعهم فى آذانهم والصاعقة قصفة رعد تنقض معها شقة من نار قالوا تنقدح من السحاب اذا اصطكت أجرامه وهى نار لطيفة حديدة لاتمر بشئ الاأتت عليه الاأنها مع حدتها سريعة الخمود يحكى أنها سقطت على نخلة

فاحرقت نحو نصفها ثم طفئت و يقال صعقته الصاعقة اذا أهلكته فصعق أى مات اما بشدة الصوت أو بالاحراق (حذر الموت) مفعول له والموت فساد بنية الحيوان أوعرض لايصح معه احساس معاقب للحياة (والله محيط بالكافرين) يعنى أنهم لايفوتونه كما لايفوت المحاط به المحيط فهو مجاز وهذه الجملة اعتراض لامحل لها (يكاد البرق يخطف أبصارهم) الخطف الاخذ بسرعة وكاد يستعمل لتقريب الفعل جدا وموضع يخطف نصب لانه خبر كاد (كلما أضاء لهم) كل ظرف وما نكرة موصوفة معناها الوقت والعائد محذوف أى كل وقت أضاء لهم فيه والعامل فيه جوابها وهو (مشوا فيه) أى فى ضوئه وهو استئناف ثالث كأنه جواب لمن يقول كيف يصنعون فى تارتى خفوق البرق وخفيته وهذا تمثيل لشدة الامر على المنافقين كشدته على أصحاب الصيب وماهم فيه من غاية التحير والجهل بما يأتون ومايذرون اذا صادفوا من البرق خفقة مع خوف أن يخطف أبصارهم انتهزوا تلك الخفقة فرصة فخطوا خطوات يسيرة فاذا خفى وفتر لمعانه بقوا واقفين وأضاء متعد أى كلما نور لهم ممشى ومسلكا أخذوه والمفعول محذوف أو غير متعد أى كلما لمع لهم مشوا فى مطرح نوره والمشى جنس الحركة المخصوصة فاذا اشتد فهو سعى فاذا ازداد فهو عدو (واذا أظلم عليهم) أظلم غير متعد وذكر مع اضاء كلما ومع أظلم اذا لانهم حراص على وجود ماهمهم به معقود من امكان المشى فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها ولا كذلك التوقف

ملك يسوق السحاب والبرق لمعان سوط من نور يزجر به السحاب وقيل الرعد اسم ملك يزجر السحاب اذا تبددت جمعها وضمها فاذا اشتد غضبه يخرج من فيه النار فهى البرق والصواعق وقيل الرعد تسبيح الملك وقيل اسمه (يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق) جمع صاعقة وهى الصيحة التى يموت كل من يسمعها أو يغشى عليه وقيل الصاعقة قطعة من العذاب ينزلها الله على من يشاء عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا سمع صوت الرعد والصواعق قال اللهم لاتقتلنا بغضبك ولاتهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك أخرجه الترمذى وقال حديث غريب (حذر الموت) أى مخافة الهلاك (والله محيط بالكافرين) أى عالم بحالهم وقيل يجمعهم و يعذبهم (يكاد البرق) أى يقرب يقال كاد يفعل ولم يفعل (يخطف أبصارهم) أى يختلسها والخطف استلاب الشئ بسرعة (كلما) أى متى ماجاء ٢ (أضاء لهم) يعنى البرق (مشوا فيه) أى فى اضاءته ونوره (واذا أظلم عليهم قاموا) أى وقفوا متحيرين وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى للمنافقين ووجه التمثيل ان الله عز وجل شبههم فى كفرهم ونفاقهم بقوم كانوا فى مفازة فى ليلة مظلمة أصابهم مطر فيه ظلمات وهى ظلمة الليل وظلمة المطر وظلمة السحاب من صفة تلك الظلمات ان السارى لا يمكنه المشى فيها ورعد من صفته أن يضم سامعوه أصابعهم الى آذانهم من هوله و برق من صفته أن يخطف أبصارهم و يعميها من شدته فهذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن وصنيع الكافرين والمنافقين معه فالمطر هو القرآن لانه حياة القلوب كما ان المطر حياة الارض والظلمات مافى القرآن من ذكر الكفر والشرك والنفاق والرعد ماخوفوا به من الوعيد وذكر النار والبرق مافيه من الهدى والبيان والوعد وذكر الجنة فالكافرون والمنافقون يسدون آذانهم عند قراءة القرآن وسماعه مخافة أن تميل قلوبهم اليه لان الايمان به عندهم كفر والكفر موت وقيل هذا مثل ضربه الله تعالى للاسلام فالمطر هو الاسلام والظلمات مافيه من البلاء والمحن والرعد مافيه من ذكر الوعيد والمخاوف فى الآخرة والبرق مافيه من الوعد يجعلون أصابعهم

٢ قوله أى متى ماجاء هكذا فى جميع النسخ التى بأيدينا ولم تظهر لنا فائدة جاء فلعلها زائدة وكذا قوله فيما بعد من صفته أن يخطف أبصارهم و يعميها ليس بظاهر من التعبير بيكاد فى الآية اهـ مصححه

(قاموا) وقفوا وثبتوا فى مكانهم ومنه قام الماء اذا جمد (ولوشاء الله لذهب بسمعهم) بقصيف الرعد (وأبصارهم) بوميض البرق ومفعول شاء محذوف لدلالة الجواب عليه أى ولوشاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بهما ولقد تكاثر هذا الحذف فى شاء وأراد لا يكادون يبرزون المفعول الا فى الشئ المستغرب كنحو قوله فلوشئت أن أبكى دما لبكيته * عليه ولكن ساحة الصبر أوسع وقوله تعالى لوأردنا أن نتخذ لهوا ولوأراد الله أن يتخذ ولدا (ان الله على كل شئ قدير) أى ان الله قادر على كل شئ ولما عدد الله فرق المكلفين من المؤمنين والكفار والمنافقين وذكر صفاتهم وأحوالهم وما اختصت به كل فرقة مما يسعدها ويشقيها ويحظيها عند الله ويرديها أقبل عليهم بالخطاب وهو من الالتفات المذكور فقال (يأيها الناس) قال علقمة ما فى القرآن يأيها الناس فهو خطاب لاهل مكة وما فيه يأيها الذين آمنوا فهو خطاب لاهل المدينة وهذا خطاب لمشركى مكة ويا حرف وضع لنداء البعيد وأى والهمزة للقريب ثم استعمل فى مناداة من غفل وسها وان قرب ودنا تنزيلا له منزلة من بعد ونأى فاذا نودى به القريب المقاطن فذاك للتوكيد المؤذن بأن الخطاب الذى يتلوه معتنى به جدا وقول الداعى يارب وهو أقرب اليه من (٣٤) حبل الوريد استقصار منه لنفسه واستبعاد لها عن مظان الزلفى هضما لنفسه واقرارا عليها بالتفريط مع فرط التهالك على استجابة دعوته وأى وصلة الى نداء ما فيه الالف واللام كما أن ذو والذى وصلتان الى الوصف بأسماء الاجناس ووصف المعارف بالجمل وهو اسم مبهم يفتقر الى ما يزيل ابهامه فلا بد أن يردفه اسم جنس أو ما يجرى مجراه يتصف به حتى يتضح المقصود بالنداء فالذى يعمل فيه يا أى والتابع له صفته نحو يازيد الظريف الا أن أيا لا يستقل بنفسه استقلال زيد فلم ينفك عن الصفة وكلمة التنبيه المقحمة بين الصفة وموصوفها لتأكيد معنى النداء وللعوض عما يستحقه أى من الاضافة وكثر النداء فى القرآن على هذه الطريقة لان ما نادى الله به عباده من أوامره ونواهيه ووعده ووعيده أمور عظام وخطوب جسام يجب عليهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم اليها وهم عنها غافلون فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الابلغ (اعبدوا ربكم) وحدوه قال ابن عباس رضى الله عنهما كل عبادة فى القرآن فهو توحيد (الذى خلقكم) صفة موضحة مميزة لانهم كانوا يسمون الآلهة أربابا والخلق ايجاد المعدوم على تقدير واستواء وعند المعتزلة ايجاد الشئ على تقدير واستواء وهذا بناء على أن المعدوم شئ عندهم لان الشئ ما صح أن يعلم ويخبر عنه عندهم وعندنا هو اسم للموجود خلقكم بالادغام أبو عمرو (والذين من قبلكم) احتج عليهم بأنه خالقهم وخالق من قبلهم لانهم كانوا مقرين بذلك فقيل لهم ان كنتم مقرين بأنه خالقكم فاعبدوه ولا تعبدوا الاصنام (لعلكم تتقون) أى اعبدوا على رجاء ان تتقوا فتنجوا بسببه من العذاب ولعل للترجى والاطماع ولكنه اطماع من كريم فيجرى مجرى وعده المحتوم وفاؤه وبه قال سيبويه وقال قطرب هو بمعنى كى أى لكى تتقوا (الذى جعل لكم الارض) أى صير ومحل الذى نصب على المدح أو رفع باضمار هو (فراشا) بساطا تقعدون عليها وتنامون وتتقلبون وهو مفعول ثان لجعل وليس فيه دليل على ان الارض مسطحة أو كرية اذ الافتراش ممكن على التقديرين (والسماء بناء) سقفا كقوله تعالى وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهو مصدر سمي به المبنى

فى آذانهم يعنى المنافقين اذا رأوا فى الاسلام بلاء وشدة هربوا حذرا من الهلاك والله محيط بالكافرين يعنى لا ينفعهم الهرب لان الله من ورائهم يجمعهم ويعذبهم يكاد البرق يعنى دلائل الاسلام تزعجهم الى النظر لولا ما سبق لهم من الشقاوة كلما أضاء لهم يعنى المنافقين واضاءته لهم هو تركهم بلا ابتلاء ولا امتحان مشوا فيه يعنى على المسالمة باظهار كلمة الايمان وقيل كلما نالوا غنيمة وراحة فى الاسلام ثبتوا وقالوا انا معكم واذا أظلم عليهم قاموا يعنى اذا رأوا شدة وبلاء تأخروا (ولوشاء الله لذهب بسمعهم) أى بصوت الرعد (وأبصارهم) بوميض البرق وقيل لذهب بأسماعهم وأبصارهم الظاهرة كما أذهب أسماعهم وأبصارهم الباطنة (ان الله على كل شئ قدير) أى هو الفاعل لما يشاء لا منازع له فيه * قوله عز وجل (يأيها الناس) قال ابن عباس يأيها الناس خطاب لاهل مكة ويأيها الذين آمنوا خطاب لاهل المدينة وهو هنا خطاب عام لسائر المكلفين (اعبدوا ربكم) قال ابن عباس وحدوا ربكم وكل ما ورد فى القرآن من العبادة فمعناه التوحيد وأصل العبودية التذلل والعبادة غاية التذلل ولا يستحقها الا من له غاية الافضال والانعام وهو الله تعالى (الذى خلقكم) أى ابتدع خلقكم على غير مثال سبق (والذين من قبلكم) أى وخلق الذين من قبلكم (لعلكم) لعل وعسى حرفا ترج وهما أى كل منهما من الله واجب (تتقون) أى لكى تنجوا من العذاب وقيل معناه تكونوا على رجاء التقوى بأن تصيروا فى ستر ووقاية من عذاب الله وحكم الله من ورائكم يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد (الذى جعل لكم الارض فراشا) أى خلق لكم الارض بساطا ووطاء مذللة ولم يجعلها حزنة لا يمكن القرار عليها والحزن ما غلظ من الارض (والسماء بناء) أى سقفا مرفوعا قيل اذا تأمل الانسان المتفكر فى العالم وجده كالبيت المعمور فيه كل ما يحتاج اليه فالسماء مرفوعة كالسقف والارض مفروشة كالبساط والنجوم كالمصابيح والانسان كمالك البيت وفيه ضروب النبات المهيأة لمنافعه وأصناف الحيوان مصروفة فى مصالحه فيجب على الانسان المسخر له هذه الاشياء شكر الله

(وأنزل من السماء ماء) مطرا (فاخرج به) بالماء نعم خروج الثمرات بقدرته ومشيئته وايجاده ولكن جعل الماء سببا في خروجها كماء الفحل في خلق الولد وهو قادر على انشاء الكل بلا سبب كما أنشأ نفوس الاسباب والمواد ولكن له في انشاء الاشياء مدرجا لها من حال الى حال وناقلا من مرتبة الى مرتبة حكما وعبرا للنظار بعيون الاستبصار ومن في (من الثمرات) للتبعيض أو للبيان (رزقا) مفعول له ان كانت للتبعيض ومفعول به لاخرج ان كانت للبيان وانما قيل الثمرات دون الثمر والثمار وان كان الثمر المخرج بماء السماء كثيرا لان المراد جماعة الثمرة ولان الجموع يتعاور بعضها موقع بعض لالتقائها في الجمعية (لكم) صفة جارية على الرزق ان أريد به العين وان جعل اسما للمعنى فهو مفعول به كانه قيل رزقا اياكم (فلا تجعلوا لله أندادا) هو متعلق بالامر أي اعبدوا ربكم فلا تجعلوا له أندادا لان أصل العبادة وأساسها التوحيد وأن لا يجعل له ند ولا شريك ويجوز أن يكون الذي رفعا على الابتداء وخبره فلا تجعلوا ودخول الفاء لان الكلام يتضمن الجزاء أي الذي حفكم بهذه الآيات العظيمة والدلائل النيرة الشاهدة بالوحدانية فلا تتخذوا له شركاء والند المثل ولا يقال الا للمثل المخالف المناوي ومعنى قولهم ليس لله ند ولا ضد نفي مايسد مسده ونفي ماينافيه (وأنتم تعلمون) أنها لا تخلق شيأ ولا ترزق والله الخالق الرازق أو مفعول تعلمون متروك أي وأنتم من أهل العلم وجعل الاصنام لله أندادا غاية الجهل والجملة حال من الضمير في فلا تجعلوا ولما احتج عليهم بما يثبت الوحدانية ويبطل الاشراك لخلقهم أحياء قادرين وخلق الارض التي هي مثواهم ومستقرهم وخلق السماء التي هي كالقبة المضروبة والخيمة المطنبة على هذا القرار وما سواه عز وجل من شبه عقد النكاح بين المقلة والمظلة بانزال الماء منها عليها والاخراج به من بطنها اشباه النسل من الثمار رزقا لبني آدم فهذا كله دليل موصل الى التوحيد مبطل للاشراك لان شيأ من المخلوقات لا يقدر على ايجاد شئ منها

عطف على ذلك ما هو الحجة على اثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ومايقرر اعجاز القرآن فقال (وان كنتم في ريب مما نزلنا) ما نكرة موصوفة أو بمعنى الذي (عبدنا على) محمد عليه السلام والعبد اسم لمملوك من جنس العقلاء والمملوك موجود قهر بالاستيلاء وقيل نزلنا دون أنزلنا لان المراد به النزول على سبيل التدريج والتنجيم وهو من مجازه لمكان التحدي وذلك انهم كانوا يقولون لو كان هذا من عند الله لم ينزل هكذا نجوما سورة بعد سورة وآيات غب آيات على حسب النوازل وعلى سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر من وجود ما يوجد منهم مفرقا حينا فحينا شيأ فشيأ لا يلقي الناظم ديوان شعره دفعة ولا يرمي الناثر بخطبه ضربة فلو أنزله الله لانزله جملة قال الله تعالى وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة فقيل ان ارتبتم في هذا الذي وقع انزاله هكذا على تدريج (فاتوا بسورة) أي فهاتوا أنتم نوبة واحدة من نوبه وهلموا نجما فردا من نجومه سورة من أصغر السور والسورة الطائفة من القرآن المترجمة التي أقلها ثلاث آيات وواوها ان كانت أصلا فاما أن تسمى بسور المدينة وهو حائطها لانها طائفة من القرآن محدودة محوزة على حيالها كالبلد المسور أو لانها محتوية على فنون من العلم وأجناس من الفوائد كاحتواء سور المدينة على ما فيها واما أن تسمى بالسورة التي هي الرتبة لان السور بمنزلة المنازل والمراتب يترقى فيها القارئ وهي أيضا في نفسها مرتبة طوال وأوساط وقصار أو لرفعة شأنها وجلالة محلها في الدين وان كانت منقلبة عن همزة فلانها قطعة وطائفة من القرآن كالسؤرة التي هي البقية من الشئ وأما الفائدة في تفصيل القرآن وتقطيعه سورا فهي كثيرة ولذا أنزل الله تعالى التوراة والانجيل والزبور وسائر ما أوحاه الى أنبيائه مسورة مترجمة السور وبوب المصنفون في كل فن كتبهم أبوابا موشحة الصدور بالتراجم منها ان الجنس اذا انطوت تحته أنواع واشتمل على أصناف كان أحسن من أن يكون بيانا واحدا ومنها ان القارئ اذا ختم سورة أو بابا من الكتاب ثم أخذ في آخر كان أنشط له وأبعث على الدرس والتحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله ومن ثم جزأ القراء القرآن أسباعا وأجزاء وعشورا وأخماسا ومنها ان الحافظ اذا حذق السورة اعتقد انه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها لها فاتحة وخاتمة فيعظم عنده ما حفظه ويجل في نفسه ومنه حديث أنس رضي الله عنه كان الرجل اذا قرأ البقرة وآل عمران جل فينا ومن ثم كانت القراءة في الصلاة بسورة تامة أفضل

الله تعالى عليها (وأنزل من السماء) يعني السحاب (ماء) يعني المطر (فاخرج به) أي بذلك الماء (من الثمرات) يعني من ألوان الثمرات وأصناف النبات (رزقا لكم) أي وعلفا لدوابكم (فلا تجعلوا لله أندادا) يعني أمثالا تعبدونهم كعبادته والند المثل (وأنتم تعلمون) يعني انكم بعقولكم تعلمون ان هذه الاشياء والامثال لا يصح جعلها أندادا لله وانه واحد خالق لجميع الاشياء وأنه لا مثل له ولا ضد له ۞ قوله تعالى (وان كنتم في ريب) أي ان كنتم في شك لان الله تعالى علم أنهم شاكون (مما نزلنا على عبدنا) أي محمد صلى الله عليه وسلم لما تقرر اثبات الربوبية لله سبحانه وتعالى وانه الواحد الخالق وانه لا ضد له ولا ند أتبعه باقامة الحجة على اثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ومايدحض الشبهة في كون القرآن معجزة وانه من عند الله تعالى لا من عند نفسه كما تدعون فيه وقوله على عبدنا اضافة تشريف لمحمد صلى الله عليه وسلم وان القرآن منزل عليه من عند الله سبحانه وتعالى (فاتوا) أمر تعجيز (بسورة) والسورة قطعة من القرآن

(من مثله) متعلق بسورة صفة لها والضمير لما نزلنا أى بسورة كائنة من مثله يعنى فأتوا بسورة مما هو على صفته فى البيان الغريب وعلو الطبقة فى حسن النظم أو لعبدنا أى فأتوا ممن هو على حاله من كونه أميا لم يقرأ الكتب ولم يأخذ من العلماء ولا قصد الى مثل ونظير هنالك ورد الضمير الى المنزل أولى لقوله تعالى فأتوا بسورة مثله فأتوا بعشر سور مثله على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولان الكلام مع رد الضمير الى المنزل أحسن ترتيبا وذلك ان الحديث فى المنزل لا فى المنزل عليه وهو مسوق اليه فان المعنى وان ارتبتم فى أن القرآن منزل من عند الله فهاتوا أنتم نبذا مما يماثله وقضية الترتيب لو كان الضمير مردودا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقال وان ارتبتم فى ان محمدا منزل عليه فهاتوا قرآنا من مثله ولان هذا التفسير يلائم قوله (وادعوا شهداءكم) جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة (من دون الله) أى غير الله وهو متعلق بشهداءكم أى ادعوا الذين اتخذتموهم آلهة من دون الله وزعمتم انهم يشهدون لكم يوم القيامة انكم على الحق أو من يشهد لكم بانه مثل القرآن (ان كنتم صادقين) ان ذلك مختلق وأنه من كلام محمد عليه السلام وجواب الشرط محذوف يدل عليه ماقبله أى ان كنتم صادقين فى دعواكم فأتوا أنتم بمثله واستعينوا بآلهتكم على ذلك (فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة) لما أرشدهم الى الجهة التى منها يتعرفون صدق النبى عليه السلام قال لهم فاذا لم تعارضوه وبان عجزكم ووجب تصديقه فآمنوا وخافوا العذاب المعد لمن كذب وعاند وفيه دليلان على اثبات النبوة صحة كون المتحدى به معجزا والاخبار بانهم لن يفعلوا وهو غيب لا يعلمه الا الله ولما كان العجز عن المعارضة قبل التأمل كالمشكوك فيه لديهم لاتكالهم على فصاحتهم واعتمادهم على بلاغتهم سيق الكلام معهم على حسب حسبانهم فجيء بان الذى للشك دون اذا الذى للوجوب وعبر عن الاتيان بالفعل لانه فعل من الافعال والفائدة فيه انه جار مجرى الكناية التى تعطيك اختصارا اذ لو لم يعدل من لفظ الاتيان الى لفظ الفعل لاستطيل أن يقال فان لم تأتوا بسورة من مثله ولن تأتوا بسورة من مثله ولا محل لقوله ولن تفعلوا لانها جملة اعتراضية وحسن هذا الاعتراض ان لفظ الشرط للتردد فقطع التردد بقوله ولن تفعلوا ولا ولن أختان فى نفى المستقبل الا أن فى لن تأكيدا وعن الخليل أصلها لا أن وعند الفراء لا أبدلت ألفها نونا وعند سيبويه حرف موضوع لتأكيد نفى المستقبل واعلم انه اخبار عن الغيب على ماهو به حتى صار معجزة لانهم لو عارضوه بشئ لاشتهر فكيف والطاعنون فيه أكثر عددا من الذابين عنه وشرط فى اتقاء النار انتفاء اتيانهم بسورة من مثله لانهم اذا لم يأتوا بها وتبين عجزهم عن المعارضة صح عندهم صدق الرسول واذا صح عندهم صدقه

معلومة الاول والآخر وقيل السورة اسم للمنزلة الرفيعة ومنه سور البلد لارتفاعه سميت سورة لان القارئ ينال بها منزلة رفيعة حتى يستكمل المنازل باستكمال سور القرآن (من مثله) أى مثل القرآن وقيل الضمير فى مثله راجع الى عبدنا يعنى من مثل محمد صلى الله عليه وسلم أى لم يحسن الكتابة ولم يجالس العلماء ولم يأخذ العلم عن أحد ورد الضمير الى القرآن أوجه وأولى ويدل عليه ان ذلك مطابق لسائر الآيات الواردة فى التحدى وانما وقع الكلام فى المنزل ألا ترى ان المعنى وان ارتبتم فى ان القرآن منزل من عند الله فأتوا أنتم بسورة مما يماثله ويجانسه ولو كان الضمير مردودا الى محمد صلى الله عليه وسلم لقال وان ارتبتم فى ان محمدا منزل عليه فهاتوا قرآنا من مثل محمد صلى الله عليه وسلم ويدل على ان القرآن معجز ما اشتمل عليه من الفصاحة والبلاغة فى طرفى الايجاز والاطالة فتارة يأتى بالقصة فى اللفظ الطويل ثم يعيدها باللفظ الوجيز ولا يخل بالمقصود الاول وأنه فارقت أساليبه أساليب الكلام وأوزانه أوزان الاشعار والخطب والرسائل ولهذا تحدث العرب به فعجزوا عنه وتحيروا فيه واعترفوا بفضله وهم معدن البلاغة وفرسان الفصاحة ولهم النظم والنثر من الاشعار والخطب والرسائل حتى قال الوليد بن المغيرة فى وصف القرآن والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أصله لمغدق وان أعلاه لمثمر (وادعوا شهداءكم من دون الله) أى استعينوا بآلهتكم التى تعبدونها من دون الله والمعنى ان كان الامر كما تقولون انها تستحق العبادة فاجعلوا الاستعانة بها فى دفع ما نزل بكم من أمر محمد صلى الله عليه وسلم والا فاعلموا انكم مبطلون فى دعواكم انها آلهة وقيل معناه وادعوا ناسا يشهدون لكم (ان كنتم صادقين) ان محمدا صلى الله عليه وسلم يقوله من تلقاء نفسه (فان لم تفعلوا) أى فيما مضى (ولن تفعلوا) فيما بقى وهذه الآية دالة على عجزهم وأنهم لم يأتوا بمثله ولا بمثل شئ منه وذلك ان النفوس الابية اذا قرعت بمثل هذا التقريع استفرغت الوسع فى الاتيان بمثل القرآن أو بمثل سورة منه ولو قدروا على ذلك لاتوا به فحيث لم يأتوا بشئ ظهرت المعجزة للنبى صلى الله عليه وسلم وبان عجزهم وهم أهل الفصاحة والبلاغة والقرآن من جنس كلامهم وكانوا حراصا على اطفاء نوره وابطال أمره ثم مع هذا الحرص الشديد لم توجد المعارضة من أحدهم ورضوا بسبى الذرارى وأخذ الاموال والقتل واذا ظهر عجزهم عن المعارضة صح صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم واذا كان الامر كذلك وجب ترك العناد وهو قوله تعالى (فاتقوا النار) أى فآمنوا واتقوا بالايمان النار (التى وقودها) أى حطبها (الناس والحجارة) قال ابن

عباس

ثم لزموا العناد وأبوا الانقياد استوجبوا النار فقيل لهم ان استبنتم العجز فاتركوا العناد فوضع فاتقوا النار موضعه لان اتقاء النار سبب ترك العناد وهو من باب الكناية وهي من شعب البلاغة وفائدته الايجاز الذي هو من حلية القرآن والوقود ما ترفع به النار يعني الحطب وأما المصدر فمضموم وقد جاء فيه الفتح وصلة الذي والتي تجب أن تكون معلوما للمخاطب فيحتمل أن يكونوا سمعوا من أهل الكتاب أو من رسول الله أو سمعوا قبل هذه الآية قوله تعالى نارا وقودها الناس والحجارة وانما جاءت النار منكرة ثم ومعرفة هنا لان تلك الآية نزلت بمكة ثم نزلت هذه الآية بالمدينة مشارا بها الى ما عرفوه أولا ومعنى قوله تعالى وقودها الناس والحجارة أنها نار ممتازة عن غيرها من النيران بانها تتقد بالناس والحجارة وهي حجارة الكبريت فهي أشد توقدا وأبطأ خمودا وأنتن رائحة وألصق بالبدن أو الاصنام المعبودة فهي أشد تحسرا وانما قرن الناس بالحجارة لانهم قرنوا بها أنفسهم في الدنيا حيث عبدوها وجعلوها لله أندادا ونحوه قوله تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أي حطبها فقرنهم بها محماة في نار جهنم ابلاغا في ايلامهم (أعدت للكافرين) هيئت لهم وفيه دليل على أن النار مخلوقة خلافا لما يقوله جهم سنة الله في كتابه أن يذكر الترغيب مع الترهيب تنشيطا لاكتساب ما يزلف وتثبيطا عن اقتراف ما يتلف فلما ذكر الكفار وأعمالهم وأوعدهم بالعقاب قفاه بذكر المؤمنين وأعمالهم وتبشيرهم بقوله (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات) والمأمور بقوله وبشر الرسول عليه السلام أو كل أحد وهذا أحسن لانه يؤذن بان الامر لعظمه وفخامة شأنه محقوق بان يبشر به كل من قدر على البشارة به وهو معطوف على فاتقوا كما تقول يا بني تميم احذروا عقوبة ما جنيتم وبشر يا فلان بني أسد باحساني اليهم أو جملة وصف ثواب المؤمنين معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين كقولك زيد يعاقب بالقيد والارهاق وبشر عمرا بالعفو

والاطلاق والبشارة الاخبار بما يظهر سرور المخبر به ومن ثم قال العلماء اذا قال لعبيده أيكم بشرني بقدوم فلان فهو حر فبشروه فرادى عتق أولهم لانه هو الذي أظهر سروره بخبره دون الباقين ولو قال أخبرني مكان بشرني عتقوا جميعا لانهم أخبروه ومنه البشرة لظاهر الجلد وتباشير الصبح ما ظهر من أوائل ضوئه وأما فبشرهم بعذاب أليم فمن العكس في الكلام الذي يقصد به الاستهزاء الزائد في غيظ المستهزأ به كما يقول الرجل لعدوه أبشر بقتل ذريتك ونهب مالك والصالحة نحو الحسنة في جريها مجرى الاسم والصالحات كل ما استقام من الاعمال بدليل العقل والكتاب والسنة واللام للجنس والآية حجة على من جعل الاعمال ايمانا لانه عطف الاعمال الصالحة على الايمان والمعطوف غير المعطوف عليه ولا يقال انكم تقولون يجوز أن يدخل المؤمن الجنة بدون الاعمال الصالحة والله تعالى بشر بالجنة لمن آمن وعمل صالحا لان البشارة المطلقة بالجنة شرطها اقتران الاعمال الصالحة بالايمان ولا نجعل لصاحب الكبيرة البشارة المطلقة بل نثبت بشارة مقيدة بمشيئة الله ان شاء غفر له وان شاء عذبه بقدر ذنوبه ثم يدخله الجنة (أن لهم جنات) أي بان لهم جنات وموضع أن وما عملت فيه النصب بيبشر عند سيبويه خلافا للخليل وهو كثير في التنزيل والجنة البستان من النخل والشجر المتكاثف والتركيب دائر على معنى الستر ومنه الجن والجنون والجنين والجنة والجان والجنان وسميت دار الثواب جنة لما فيها من الجنان والجنة مخلوقة لقوله تعالى اسكن أنت وزوجك الجنة خلافا لبعض المعتزلة ومعنى جمع الجنة وتنكيرها ان الجنة اسم لدار الثواب كلها وهي مشتملة على جنان كثيرة مرتبة مراتب بحسب أعمال العاملين لكل طبقة منهم جنات من تلك الجنان (تجري من تحتها الانهار) الجملة في موضع النصب صفة لجنات والمراد من تحت أشجارها كما ترى الاشجار النابتة على شواطئ الانهار الجارية وأنهار الجنة تجري في غير أخدود وأنزه البساتين ما كانت أشجارها مظلة والانهار في خلالها مطردة والجري الاطراد والنهر المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر يقال للنيل نهر مصر واللغة العالية نهر ومدار التركيب على السعة واسناد الجري الى الانهار مجازي وانما عرف الانهار لانه يحتمل ان يراد بها أنهارها

عباس يعني حجارة الكبريت لانها أكثر التهابا وقيل جميع الحجارة وفيه دليل على عظم تلك النار وقوتها وقيل أراد بها الاصنام لان أكثر أصنامهم كانت من حجارة وانما قرن الناس مع الحجارة لانهم كانوا يعبدونها معتقدين فيها انها تنفعهم وتشفع لهم فجعلها الله عذابهم في نار جهنم (أعدت) أي هيئت (للكافرين) قوله عز وجل (وبشر الذين آمنوا) أي أخبر المؤمنين وهذا أمر للنبي صلى الله عليه وسلم والبشارة ايراد الخبر السار على سامع يستبشر به ويظهر السرور في بشرة وجهه لان الانسان اذا فرح بشيء وسر به ظهر ذلك على بشرة وجهه ثم كثر حتى وضع موضع الخير والشر ومنه قوله وبشرهم بعذاب أليم ولكن هو في السرور والخير أغلب (وعملوا الصالحات) أي الفعلات الصالحات وهي الطاعات قيل العمل الصالح ما كان فيه أربعة أشياء العلم والنية والصبر والاخلاص وقال عثمان بن عفان وعملوا الصالحات أي أخلصوا الاعمال يعني عن الرياء (أن لهم جنات) جمع جنة وهي البستان الذي فيه أشجار مثمرة سميت جنة لاجتنانها وتسترها بالاشجار والاوراق وقيل الجنة ما فيه نخل والفردوس ما فيه كرم (تجري من تحتها) أي من تحت أشجارها ومساكنها (الانهار) أي تجري المياه في الانهار لان الانهار لا تجري وقيل معناه تجري بامرهم وفي الحديث ان أنهار

فعوض التعريف باللام من تعريف الاضافة كقوله تعالى واشتعل الرأس شيبا أو يشار باللام الى الانهار المذكورة فى قوله تعالى فيها أنهار من ماء غير آسن الآية والماء الجارى من النعمة العظمى واللذة الكبرى ولذا قرن الله تعالى الجنات بذكر الانهار الجارية وقدمه على سائر نعوتها (كلما رزقوا) صفة ثانية لجنات أو جملة مستانفة لانه لما قيل ان لهم جنات لم يخل خلد السامع أن يقع فيه أثمار تلك الجنات أشباه ثمار جنات الدنيا أم أجناس أخر لا تشابه هذه الاجناس فقيل ان ثمارها أشباه ثمار جنات الدنيا أى أجناسها وان تفاوتت الى غاية لا يعلمها الا الله (منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى) أى كلما رزقوا من الجنات أى من أى ثمرة كانت من تفاحها أو رمانها أو غير ذلك رزقا قالوا ذلك فمن الاولى والثانية كلتاهما لابتداء الغاية لان الرزق قد ابتدئ من الجنات والرزق من الجنات قد ابتدئ من ثمرة ونظيره أن تقول رزقنى فلان فيقال لك من أين فتقول من بستانه فيقال من أى ثمرة رزقك من بستانه فتقول من الرمان وليس المراد من الثمرة التفاحة الواحدة أو الرمانة الفذة وانما المراد نوع من أنواع الثمار (رزقنا) أى رزقناه فحذف العائد (من قبل) أى من قبل هذا فلما قطع عن الاضافة بنى والمعنى هذا مثل الذى رزقنا من قبل وشبهه بدليل قوله (٣٨) (وأتوا به متشابها) وهذا كقولك أبو يوسف أبو حنيفة تريد أنه لاستحكام الشبه كان ذاته ذاته والضمير فى به يرجع الى المرزوق فى الدنيا والآخرة جميعا لان قوله هذا الذى رزقنا من قبل انطوى تحته ذكر ما رزقوه فى الدارين وانما كان ثمار الجنة مثل ثمار الدنيا ولم تكن أجناسا أخر لان الانسان بالمألوف آنس والى المعهود أميل واذا رأى مالم يألفه نفر عنه طبعه وعافته نفسه ولانه اذا شاهد ما سلف له به عهد ورأى فيه مزية ظاهرة وتفاوتا بينا كان استعجابه به أكثر واستغرابه أوفر وتكريرهم هذا القول عند كل ثمرة يرزقونها دليل على تناهى الامر وتمادى الحال فى ظهور المزية وعلى أن ذلك التفاوت العظيم هو الذى يستملى تعجبهم فى كل أوان أو الى الرزق كأن هذا اشارة اليه والمعنى أن ما يرزقونه من ثمرات الجنة يأتيهم متجانسا فى نفسه كما يحكى عن الحسن يؤتى أحدهم بالصحفة فيأكل منها ثم يؤتى بالاخرى فيقول هذا الذى أتينا به من قبل فيقول الملك كل فاللون واحد والطعم مختلف وعنه عليه السلام والذى نفس محمد بيده ان الرجل من أهل الجنة ليتناول الثمرة ليأكلها فما هى بواصلة الى فيه حتى يبدل الله مكانها مثلها فاذا أبصروها والهيئة هيئة الاولى قالوا ذلك وقوله وأتوا به متشابها جملة معترضة للتقرير كقولك فلان أحسن بفلان ونعم ما فعل ورأى من الرأى كذا وكان صوابا ومنه وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون (ولهم فيها أزواج) أزواج مبتدأ ولهم الخبر وفيها ظرف للاستقرار (مطهرة) من مساوى الاخلاق لا طمحات ولا مرحات أو مما يختص بالنساء من الحيض والاستحاضة ومالا يختص بهن من البول والغائط وسائر الاقذار والادناس ولم تجمع الصفة كالموصوف لانهما لغتان فصيحتان ولم يقل طاهرة لان مطهرة أبلغ لانها تكون للتكثير وفيها اشعار بان مطهرا طهرهن وما ذلك الا الله عز وجل (وهم فيها خالدون) الخلد والخلود البقاء الدائم الذى لا ينقطع وفيه بطلان قول الجهمية فانهم يقولون بفناء الجنة وأهلها لانه تعالى وصف بانه الاول والآخر وتحقيق وصف الاولية بسبقه على الخلق أجمع

الجنة تجرى فى غير أخدود أى فى غير شق والخد الشق (كلما رزقوا) أى أطعموا (منها) أى من الجنة (من ثمرة رزقا) أى طعاما (قالوا هذا الذى رزقنا من قبل) أى فى الدنيا وقيل ان ثمار الجنة متشابهة فى اللون مختلفة فى الطعم فاذا رزقوا ثمرة بعد أخرى ظنوا أنها الاولى (وأتوا به) أى بالرزق (متشابها) قال ابن عباس مختلفا فى الطعوم وقيل يشبه بعضه بعضا فى الجودة لا رداءة فيها وقيل يشبه ثمار الدنيا فى الاسم لا فى الطعم (م) عن جابر ابن عبد الله رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجنة يأكلون ويشربون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون ولا يبزقون يلهمون الحمد والتسبيح كما يلهمون النفس طعامهم جشاء ورشح كرشح المسك وفى رواية ورشحهم المسك قوله يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس أى يجرى على ألسنتهم كما يجرى النفس فلا يشغلهم عن شئ كما أن النفس لا يشغل عن شئ قوله طعامهم جشاء يعنى أن فضول طعامهم يخرج فى الجشاء وهو تنفس المعدة والرشح العرق وقوله تعالى (ولهم فيها) أى فى الجنات (أزواج) أى من الحور العين (مطهرة) يعنى من البول والغائط والحيض والولد وسائر الاقذار وقيل هن عجائز الغمص العمش طهرن من قذرات الدنيا وقيل طهرن من مساوى الاخلاق قيل فى الجنة جماع ماشئت ولا ولد (وهم فيها خالدون) أى لا يخرجون منها ولا يموتون والخلد البقاء الدائم الذى لا انقطاع له (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم على أشد كوكب درى فى السماء اضاءة لا يبصقون ولا يمتخطون ولا يتغوطون ولا يبولون أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرهم الالوة وأزواجهم الحور العين على خلق رجل واحد وعلى صورة أبيهم آدم ستون ذراعا فى السماء وفى رواية ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم قلب رجل واحد يسبحون الله بكرة وعشيا (ق) عن أبى موسى الاشعرى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ان للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها فى السماء ستون ميلا للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضا * عن أبى هريرة قال قلت يا رسول الله

فيجب تحقيق وصف الآخرية بالتأخر عن سائر المخلوقات وذا انما يتحقق بعد فناء الكل فوجب القول به ضرورة ولانه تعالى باق وأوصافه باقية فلو كانت الجنة باقية مع أهلها لوقع التشابه بين الخالق والمخلوق وذا محال قلنا الاول في حقه هو الذي لا ابتداء لوجوده والآخر هو الذي لا انتهاء له وفي حقنا الاول هو الفرد السابق والآخر هو الفرد اللاحق واتصافه بهما لبيان صفة الكمال ونفي النقيصة والزوال وذا في تنزيهه عن احتمال الحدوث والفناء لا فيما قالوه وأنى يقع التشابه في البقاء وهو تعالى باق لذاته و بقاؤه واجب الوجود و بقاء الخلق به وهو جائز الوجود

* لما ذكر الله تعالى الذباب والعنكبوت في كتابه وضرب به مثلا ضحكت اليهود وقالوا ما يشبه هذا كلام الله فنزل (ان الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة) أي لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحيي أن يتمثل بها لحقارتها وأصل الحياء تغير وانكسار يعتري الانسان من تخوف ما يعاب به و يذم ولا يجوز على القديم التغير وخوف الذم ولكن الترك لما كان من لوازمه عبر عنه به ويجوز أن تقع هذه العبارة في كلام الكفرة فقالوا أما يستحيي رب محمد أن يضرب مثلا بالذباب والعنكبوت فجاءت على سبيل المقابلة واطباق الجواب على السؤال وهو فن من كلامهم بديع وفيه لغتان التعدي بنفسه وبالجار يقال استحييته واستحييت منه وهما محتملتان هنا وضرب المثل صنعه من ضرب اللبن وضرب الخاتم وما هذه ابهامية وهي التي اذا اقترنت باسم نكرة أبهمته ابهاما وزادته عموما كقولك أعطني كتابا ما تريد أي كتاب كان أو صلة للتأكيد كالتي في قوله تعالى فيما نقضهم ميثاقهم كأنه قال لا يستحيي أن يضرب مثلا البتة و بعوضة عطف بيان لمثلا أو مفعول ليضرب ومثلا حال من النكرة مقدمة عليه أو انتصبا مفعولين على ان ضرب بمعنى جعل واشتقاقها من البعض وهو القطع كالبضع والعضب يقال بعضه البعوض ومنه بعض الشئ لانه قطعة منه والبعوض في أصله صفة على فعول كالقطوع فغلبت (فما فوقها) فما تجاوزها وزاد عليها في المعنى الذي ضربت فيه مثلا وهو القلة والحقارة أو فما زاد عليها في الحجم كأنه أراد بذلك رد ما استنكروه من ضرب المثل بالذباب والعنكبوت لانهما أكبر من البعوضة ولا يقال كيف يضرب المثل بما دون البعوضة وهو النهاية في الصغر لان جناح البعوضة أقل منها وأصغر بدرجات وقد ضرب به رسول الله صلى الله عليه وسلم

اللهم من خلق الله الخلق قال من الماء قلت الجنة ما بناؤها قال لبنة من فضة ولبنة من ذهب وملاطها المسك الاذفر وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وتربتها الزعفران من يدخلها ينعم ولا يبأس ويخلد ولا يموت ولا تبلى ثيابهم ولا يفنى شبابهم أخرجه الترمذي بزيادة وقال ليس اسناده بذلك القوي * عن عبادة بن الصامت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والارض والفردوس أعلاها درجة ومنها تفجر أنهار الجنة الاربعة ومن فوقها يكون العرش فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس أخرجه الترمذي (م) عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان في الجنة لسوقا يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسنا وجمالا فيرجعون الى أهليهم وقد ازدادوا حسنا وجمالا فيقول لهم أهلوهم والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا فيقولون وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا * عن علي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان في الجنة لمجتمعا للحور العين يرفعن باصوات لم تسمع الخلائق مثلها يقلن نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط طوبى لمن كان لنا وكنا له أخرجه الترمذي وقال حديث غريب قوله تعالى (ان الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) سبب نزول هذه الآية ان الله تعالى لما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت وذكر النحل والنمل قالت اليهود ما أراد الله بذكر هذه الاشياء الخسيسة وقيل قال المشركون انا لا نعبد الها يذكر هذه الاشياء وذلك لان الكفار واليهود كانوا متفقين على ايذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ذلك فانزل الله تعالى ان الله لا يستحيي الحياء تغير وانكسار يعتري الانسان من خوف ما يعاب به و يذم عليه وقيل هو انقباض النفس عن القبائح هذا أصله في وصف الانسان والله تعالى منزه عن ذلك كله فاذا وصف الله تعالى به يكون معناه الترك وذلك لان لكل فعل بداية ونهاية فبداية الحياء هو التغير الذي يلحق الانسان من خوف ان ينسب اليه ذلك الفعل القبيح ونهايته ترك ذلك الفعل القبيح فاذا ورد وصف الحياء في حق الله تعالى فليس المراد منه بدايته وهو التغير والخوف بل المراد منه ترك الفعل الذي هو نهاية الحياء وغايته فيكون معنى ان الله لا يستحيي أن يضرب مثلا أي لا يترك المثل لقول الكفار واليهود قيل ما قيل ما صلة فيكون المعنى أن يضرب مثلا بعوضة وقيل ليس هي بصلة بل هي للابهام والنكرة والبعوض صغار البق وهو من عجيب خلق الله تعالى فانه في غاية الصغر وله خرطوم مجوف وهو مع صغره يغوص خرطومه في جلد الفيل والجاموس والجمل فيبلغ منه الغاية حتى ان الجمل يموت من قرصه فما فوقها يعني الذباب والعنكبوت وما هو أعظم منهما في الجثة وقيل معناه فما دونها وأصغر منها وهذا القول أشبه بالآية لان الغرض بيان ان الله تعالى لا يمتنع من التمثيل بالشئ الصغير الحقير وقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم مثلا للدنيا بجناح البعوضة وهو أصغر منها وقد ضربت العرب المثل بالمحقرات فقيل هو أحقر من ذرة وأجمع

مثلا للدنيا (فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق) الضمير للمثل أو لأن يضرب والحق الثابت الذى لا يسوغ انكاره يقال حق الامر اذا ثبت ووجب (من ربهم) فى موضع النصب على الحال والعامل معنى الحق وذو الحال الضمير المستتر فيه (وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا) و يوقف عليه اذ لو وصل لصار ما بعده صفة له وليس كذلك وفى قولهم ماذا أراد الله بهذا مثلا استحقار كما قالت عائشة رضى الله عنها فى عبد الله بن عمرو يا عجبا لابن عمرو هذا محقرة له ومثلا نصب على التمييز أو على الحال كقوله هذه ناقة الله لكم آية وأما حرف فيه معنى الشرط ولذا يجاب بالفاء وفائدته فى الكلام ان يعطيه فضل توكيد تقول زيد ذاهب فاذا قصدت توكيده وانه لا محالة ذاهب قلت أما زيد فذاهب ولذا قال سيبويه فى تفسيره مهما يكن من شئ فزيد ذاهب وهذا التفسير يفيد كونه تأكيدا وانه فى معنى الشرط وفى ايراد الجملتين مصدرتين به وان لم يقل فالذين آمنوا يعلمون والذين كفروا يقولون احماد عظيم لامر المؤمنين واعتداد بليغ بعلمهم أنه الحق ونعى على الكافرين اغفالهم حظهم ورميهم بالكلمة الحمقاء وماذا فيه وجهان أن يكون ذا اسما موصولا بمعنى الذى وما استفهاما فيكون كلمتين وأن تكون ذا مركبة مع ما مجعولتين اسما واحدا للاستفهام فيكون كلمة واحدة فما على الاول رفع بالابتداء وخبره ذا مع صلته أى أراد والعائد محذوف وعلى الثانى منصوب المحل بأراد والتقدير أى شئ أراد الله والارادة مصدر أردت الشئ اذا طلبته نفسك ومال اليه قلبك وهى عند المتكلمين معنى يقتضى تخصيص المفعولات بوجه دون وجه والله تعالى موصوف بالارادة على الحقيقة عند أهل السنة وقال معتزلة بغداد انه تعالى لا يوصف بالارادة على الحقيقة فاذا قيل أراد الله كذا فان كان فعله فمعناه انه فعل وهو غير ساه ولا مكره عليه وان كان فعل غيره فمعناه انه أمر به (يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا) جار مجرى التفسير والبيان للجملتين المصدرتين بأما وان فريق العالمين بانه الحق وفريق الجاهلين المستهزئين به كلاهما موصوف بالكثرة وان العلم بكونه (٤٠) حقا من باب الهدى وان الجهل بحسن مورده من باب الضلالة وأهل الهدى كثير فى أنفسهم وانما يوصفون بالقلة بالقياس الى أهل الضلال ولان القليل من المهتدين كثير فى الحقيقة وان قلوا فى الصورة * ان الكرام كثير فى البلاد وان * قلوا كما غيرهم قل وان كثروا والاضلال خلق فعل الضلال فى العبد والهداية خلق فعل الاهتداء هذا هو الحقيقة عند أهل السنة وسياق الآية لبيان أن ما استنكره الجهلة من الكفار واستغربوه من أن تكون المحقرات من الاشياء مضروبا بها المثل ليس بموضع الاستنكار والاستغراب لان التمثيل انما يصار اليه لما فيه من كشف المعنى وادناء المتوهم من المشاهد فان كان المتمثل له عظيما كان المتمثل به كذلك وان كان حقيرا كان المتمثل به كذلك ألا ترى ان الحق لما كان واضحا جليا تمثل له بالضياء والنور وان الباطل لما كان بضد صفته تمثل له بالظلمة ولما كانت حال الآلهة التى جعلها الكفار أندادا لله لا حال أحقر منها وأقل ولذلك جعل بيت العنكبوت مثلها فى الضعف والوهن وجعلت أقل من الذباب وضربت لها البعوضة فالذى دونها مثلا لم يستنكر ولم يستبدع ولم يقل للمتمثل استحى من تمثيلها بالبعوضة لانه مصيب فى تمثيله محق فى قوله سائق للمثل على قضية مضربه ولبيان ان المؤمنين الذين عادتهم الانصاف والنظر فى الامور بناظر العقل اذا سمعوا بهذا التمثيل علموا انه الحق وان الكفار الذين غلب الجهل على عقولهم كابروا وعاندوا وقضوا عليه بالبطلان وقابلوه بالانكار وان ذلك سبب هدى المؤمنين وضلال الفاسقين والعجب منهم كيف أنكروا ذلك وما زال الناس يضربون الامثال بالبهائم والطيور وخشاش الارض فقالوا أجمع من ذرة وأجرأ من الذباب وأسمع من قراد وأضعف من فراشة وآكل من السوس وأضعف من البعوضة وأعز من مخ البعوض ولكن ديدن المحجوج والمبهوت أن يرضى لفرط الحيرة بدفع الواضح وانكار اللائح (وما يضل به الا الفاسقين) هو مفعول يضل وليس بمنصوب على الاستثناء لان يضل لم يستوف مفعوله والفسق الخروج عن القصد وفى الشريعة الخروج عن الامر بارتكاب الكبيرة وهو النازل بين المنزلتين أى بين منزلة المؤمن والكافر عند المعتزلة وسيمر عليك ما يبطله ان شاء الله (الذين ينقضون عهد الله) النقض الفسخ وفك التركيب والعهد الموثق والمراد بهؤلاء الناقضين لعهد الله أحبار اليهود المتعنتون أو منافقوهم أو الكفار جميعا وعهد الله ما ركز فى عقولهم من الحجة على التوحيد كأنه أمر وصاهم به ووثقه عليهم أو أخذ الميثاق عليهم بانهم اذا بعث اليهم رسول يصدقه الله بمعجزاته صدقوه واتبعوه ولم يكتموا ذكره أو أخذ الله العهد عليهم أن لا يسفكوا دماءهم ولا يبغى بعضهم على بعض ولا يقطعوا

من نملة وأطيش من ذبابة وألح من ذبابة (فاما الذين آمنوا) يعنى بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (فيعلمون أنه) يعنى ضرب المثل (الحق) يعنى الصدق (من ربهم) الثابت الذى لا يجوز انكاره لان ضرب المثل من الامور المستحسنة فى العقل وعند العرب (وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا) أى بهذا المثل (يضل به كثيرا) أى من الكفار وذلك انهم يكذبونه فيزدادون به ضلالا (ويهدى به كثيرا) يعنى المؤمنين يصدقونه ويعلمون انه حق (وما يضل به الا الفاسقين) يعنى الكافرين وقيل المنافقين وقيل اليهود والفسق الخروج عن طاعة الله وطاعة رسوله ثم وصفهم فقال تعالى (الذين ينقضون) أى يخالفون ويتركون وأصل النقض الفسخ وفك المركب (عهد الله) أى أمر الله وأصل العهد حفظ الشئ ومراعاته حالا بعد حال (من بعد ميثاقه) أى من بعد عقده وتوكيده وفى معنى هذا العهد أقوال أحدها انه الذى أخذه

أرحامهم وقيل عهد الله الى خلقه ثلاثة عهود العهد الاول الذى أخذه على جميع ذرية آدم عليه السلام بان يقروا بربوبيته وهو قوله تعالى واذ أخذ ربك من بنى آدم الآية وعهد خص به النبيين أن يبلغوا الرسالة ويقيموا الدين وهو قوله تعالى واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم وعهد خص به العلماء وهو قوله تعالى واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه (من بعد ميثاقه) أصله من الوثاقة وهى احكام الشئ والضمير للعهد وهو ما وثقوا به عهد الله من قبوله والزامه أنفسهم ويجوز أن يكون بمعنى توثقته كما ان الميعاد بمعنى الوعد والله تعالى أى من بعد توثقته عليهم ومن لابتداء الغاية (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) هو قطعهم الارحام وموالاة المؤمنين أو قطعهم ما بين الانبياء من الوصلة والاجتماع على الحق فى ايمانهم ببعض وكفرهم ببعض والامر طلب الفعل بقول مخصوص على سبيل الاستعلاء وما نكرة موصوفة أو بمعنى الذى وأن يوصل فى موضع جر بدل من الهاء أى بوصله أو فى موضع رفع أى هو أن يوصل (ويفسدون فى الارض) بقطع السبيل والتعويق عن الايمان (أولئك) مبتدأ (هم) فصل والخبر (الخاسرون) (٤١) أى المغبونون حيث استبدلوا النقص بالوفاء والقطع بالوصل والفساد بالصلاح والعقاب بالثواب (كيف تكفرون بالله) معنى الهمزة التى فى كيف مثله فى قولك أتكفرون بالله ومعكم ما يصرف عن الكفر ويدعو الى الايمان وهو الانكار والتعجب ونظيره قولك أتطير بغير جناح وكيف تطير بغير جناح والواو فى (وكنتم أمواتا) نطفا فى أصلاب آبائكم للحال وقد مضمرة والاموات جمع ميت كالاقوال جمع قول ويقال لعادم الحياة أصلا ميت أيضا كقوله تعالى بلدة ميتا (فأحياكم) فى الارحام (ثم يميتكم) عند انقضاء آجالكم (ثم يحييكم) للبعث (ثم اليه ترجعون) تصيرون الى الجزاء أو ثم يحييكم فى قبوركم ثم اليه ترجعون للنشور وانما كان العطف الاول بالفاء والبواقى بثم لان الاحياء الاول قد تعقب الموت بلا تراخ وأما الموت فقد تراخى عن الحياة والحياة الثانية كذلك تتراخى عن الموت ان أريد النشور وان أريد احياء القبر فمنه يكتسب العلم بتراخيه والرجوع الى الجزاء أيضا متراخ عن النشور وانما أنكر اجتماع الكفر مع القصة التى ذكرها لانها مشتملة على آيات بينات تصرفهم عن الكفر ولانها تشتمل على نعم جسام حقها ان تشكر ولا تكفر (هو الذى خلق لكم ما فى الارض) أى لاجلكم ولانتفاعكم به فى دنياكم ودينكم أما الاول فظاهر وأما الثانى فالنظر فيه وما فيه من العجائب الدالة على صانع قادر حكيم عليم وما فيه من التذكير بالآخرة لان ملاذها تذكر ثوابها ومكارهها تذكر عقابها وقد استدل الكرخى وأبو بكر الرازى والمعتزلة بقوله خلق لكم على أن الاشياء التى يصح أن ينتفع بها خلقت مباحة فى الاصل (جميعا) نصب على الحال من ما (ثم استوى الى السماء) الاستواء الاعتدال والاستقامة يقال استوى العود أى قام واعتدل ثم قيل استوى اليه كالسهم المرسل أى قصده قصدا مستويا من غير أن يلوى على شئ ومنه قوله تعالى ثم استوى الى السماء أى أقبل وعمد الى خلق السموات بعد ما خلق ما فى الارض من غير أن يريد فيما بين ذلك خلق شئ

أخذه عليهم يوم الميثاق وهو قوله تعالى ألست بربكم قالوا بلى الثانى المراد به الذى أخذه على أحبار اليهود فى التوراة أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ويبينوا نعته وصفته الثالث المراد به الكفار والمنافقون الذين نقضوا عهدا أبرمه الله تعالى وأحكمه بما أنزل فى كتابه من الآيات الدالة على توحيده (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) يعنى الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وجميع الرسل فآمنوا ببعض وكفروا ببعض وهم اليهود وقيل أراد به قطع الارحام التى أمر الله بوصلها (ويفسدون فى الارض) يعنى بالمعاصى وتعويق الناس عن الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (أولئك هم الخاسرون) أى المغبونون وأصل الخسار النقص ثم قال تعالى لمشركى العرب على وجه التعجب لكن فيه تبكيت وتعنيف لهم (كيف تكفرون بالله) يعنى بعد نصب الدلائل ووضع البراهين الدالة على وحدانيته ثم ذكر الدلائل فقال تعالى (وكنتم أمواتا) يعنى نطفا فى أصلاب آبائكم (فأحياكم) يعنى فى الارحام والدنيا (ثم يميتكم) أى عند انقضاء آجالكم (ثم يحييكم) يعنى بعد الموت للبعث (ثم اليه ترجعون) أى تردون فى الآخرة فيجزيكم بأعمالكم ۞ قوله عز وجل (هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا) يعنى من المعادن والنبات والحيوان والجبال والبحار والمعنى كيف تكفرون بالله وقد خلق لكم ما فى الارض جميعا لتنتفعوا به فى مصالح الدين والدنيا أما مصالح الدين فهو الاعتبار والتفكر فى عجائب مخلوقات الله تعالى الدالة على وحدانيته وأما مصالح الدنيا فهو الانتفاع بما خلق فيها (ثم استوى الى السماء) أى قصد وأقبل على خلقها وقيل عمد وقال ابن عباس ارتفع وفى رواية عنه صعد قال الزهرى معناه صعد أمره وكذا ذكره صاحب الحكم وذلك ان الله تعالى خلق الارض أولا ثم عمد الى خلق السماء فان قلت كيف الجمع بين هذا وقوله تعالى والارض بعد ذلك دحاها قلت الدحو البسط فيحتمل ان الله تعالى خلق جرم الارض ولم يبسطها ثم خلق السماء وبسط جرم الارض بعد ذلك فان قلت هذا مشكل أيضا لان قوله تعالى خلق لكم ما فى الارض جميعا يقتضى ان ذلك لا يكون الا بعد الدحو قلت يحتمل انه ليس هنا ترتيب وانما هو على سبيل تعداد النعم كقول الرجل لمن يذكره ما أنعم به عليه ألم أعطك ألم أرفع قدرك ألم أدفع عنك ولعل بعض هذه النعم متقدمة على بعض والله أعلم

أخو والمراد بالسماء جهة العلو كأنه قيل ثم استوى الى فوق والضمير في (فسواهن) مبهم يفسره (سبع سموات) كقولهم ربه رجلا وقيل الضمير راجع الى السماء ولفظها واحد ومعناها الجمع لانها في معنى الجنس ومعنى تسويتهن تعديل خلقهن وتقويمه واخلاؤه من العوج والفطور أو اتمام خلقهن وثم هنا لبيان فضل خلق السموات على خلق الارض ولا يناقض هذا قوله والارض بعد ذلك دحاها لان جرم الارض تقدم خلقه خلق السماء وأما دحوها فمتأخر وعن الحسن خلق الله الارض في موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليها دخان ملتزق بها ثم أصعد الدخان وخلق منها السموات وأمسك الفهر في موضعها وبسط منها الارض فذلك قوله تعالى كانتا رتقا وهو الالتزاق (وهو بكل شيء عليم) فمن ثم خلقهن خلقا مستويا محكما من غير تفاوت مع خلق ما في الارض على حسب حاجات أهلها ومنافعهم وهو وأخوانه مدني غير ورش وأبو عمرو وعلي جعلوا الواو كأنها من نفس الكلمة فصار بمنزلة عضد هم يقولون في عضد عضد بالسكون ولما خلق الله تعالى الارض أسكن فيها الجن وأسكن في السماء الملائكة فأفسدت الجن في الارض فبعث اليهم طائفة من الملائكة فطردتهم الى جزائر البحار ورؤس الجبال وأقاموا مكانهم فأمر نبيه عليه السلام أن يذكر قصتهم فقال (واذ قال ربك للملائكة) اذ نصب باضمار اذكر والملائكة جمع ملأك كالشمائل جمع شمأل والحاق التاء لتأنيث الجمع (اني جاعل) أي مصير من جعل الذي له مفعولان وهما (في الارض خليفة) وهو من يخلف غيره فعيلة بمعنى فاعلة وزيدت الهاء للمبالغة والمعنى خليفة منكم لانهم كانوا سكان الارض فخلفهم فيها آدم وذريته ولم يقل خلائف أو خلفاء لانه أريد بالخليفة آدم الله واستغنى بذكره عن ذكر بنيه كما تستغني بذكر أبي القبيلة في قولك مضر وهاشم أو أريد من يخلفكم أو خلفا يخلفكم فوحد لذلك أو خليفة مني لان آدم كان خليفة الله في أرضه وكذلك كل نبي قال الله تعالى يا داود انا جعلناك خليفة في الارض وانما أخبرهم بذلك ليسألوا ذلك السؤال ويجابوا بما أجيبوا به فيعرفوا حكمته في استخلافهم قبل كونهم أو ليعلم عباده المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها وان كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنيا عن المشاورة (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها) تعجب من أن يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية وهو الحكيم الذي لا يجهل وانما عرفوا ذلك باخبار من الله تعالى أو من جهة اللوح أو قاسوا أحد الثقلين على الآخر (ويسفك الدماء) أي يصب والواو في (ونحن نسبح) للحال كما تقول أتحسن الى فلان وأنا أحق منه بالاحسان (بحمدك) في موضع الحال أي نسبح حامدين لك ومتلبسين بحمدك كقوله

(فسواهن سبع سموات) خلقهن سبع سموات مستويات لا صدع فيها ولا فطور وسيأتي ذكر خلق الارض عند قوله تعالى قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين في سورة حم السجدة ان شاء الله تعالى (وهو بكل شيء عليم) يعني يعلم الجزئيات كما يعلم الكليات ۞ قوله تعالى (واذ قال ربك) أي واذكر يا محمد اذ قال ربك وكل ما ورد في القرآن من هذا النحو فهذا سبيله وقيل اذ زائدة والاول أوجه (للملائكة) جمع ملك وأصله مألك من المألكة والألوكة وهي لفظ البغوي وهي الرسالة وأراد بالملائكة الذين كانوا في الارض وذلك أن الله تعالى خلق الارض والسماء وخلق الملائكة والجن فأسكن الملائكة السماء وأسكن الجن الارض فعبدوا دهرا طويلا ثم ظهر فيهم الحسد والبغي فأفسدوا واقتتلوا فبعث الله اليهم جندا من الملائكة يقال لهم الجن ورأسهم ابليس وهم خزان الجنان فهبطوا الى الارض وطردوا الجن الى جزائر البحور وشعوب الجبال وسكنوا هم الارض وخفف الله عنهم العبادة وأعطى الله ابليس ملك الارض وملك السماء الدنيا وخزانة الجنة وكان رئيسهم ومرشدهم وأكثرهم علما فكان يعبد الله تارة في الارض وتارة في السماء وتارة في الجنة فدخله العجب وقال في نفسه ما أعطاني الله هذا الملك الا لاني أكرم الملائكة عليه فقال له ولجنده (اني جاعل في الارض خليفة) أي اني خالق خليفة يعني بدلا منكم ورافعكم الي فكرهوا ذلك لانهم كانوا أهون الملائكة عبادة والمراد بالخليفة هنا آدم عليه الصلاة والسلام لانه خلف الجن وجاء بعدهم وقيل لانه يخلفه غيره والصحيح انه انما سمي خليفة لانه خليفة الله في أرضه لاقامة حدوده وتنفيذ قضاياه (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها) أي بالمعاصي (ويسفك الدماء) أي بغير حق كما فعل الجن فان قلت من أين عرفوا ذلك حتى قالوا هذا القول قلت يحتمل أن يكونوا عرفوا ذلك باخبار الله اياهم أو قاسوا الشاهد على الغائب وقيل انهم لما رأوا ان آدم خلق من أخلاط مركبة علموا انه يكون فيه الحقد والغضب ومنهما يتولد الفساد وسفك الدماء فلهذا قالوا ذلك وقيل لما خلق الله تعالى النار خافت الملائكة وقالوا لمن خلقت هذه النار قال لمن عصاني فلما قال اني جاعل في الارض خليفة قالوا هو ذلك فان قلت الملائكة معصومون فكيف وقع منهم هذا الاعتراض قلت ذهب بعضهم الى أنهم غير معصومين واستدل على ذلك بوجوه منها قوله أتجعل فيها من يفسد فيها ومن ذهب الى عصمتهم أجاب عنه بأن هذا السؤال انما وقع على سبيل التعجب لا على سبيل الانكار والاعتراض فانهم تعجبوا من كمال حكم الله تعالى واحاطة علمه بما خفي عليهم ولهذا أجابهم بقوله اني أعلم ما لا تعلمون وقيل ان العبد المخلص في حب سيده يكره أن يكون له عبد آخر يعصيه فكان سؤالهم على وجه المبالغة في اعظام الله عز وجل (ونحن نسبح بحمدك) أي نقول سبحان

الله وبحمده وهى صلاة الخلق وعليها يرزقون (م) عن أبى ذر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أى الكلام أفضل قال ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده سبحان الله وبحمده قال ابن عباس رضى الله عنهما كل ما جاء فى القرآن من التسبيح فالمراد منه الصلاة فيكون المعنى ونحن نصلى لك وقيل أصل التسبيح تنزيه الله عما لا يليق بجلاله فيكون المعنى ونحن ننزهك عن كل سوء ونقيصة ومعنى بحمدك حامدين لك أو متلبسين بحمدك فانه لولا انعامك علينا بالتوفيق لم نتمكن من ذلك (ونقدس لك) أصل التقديس التطهير أى نطهرك عن النقائص وكل سوء ونصفك بما يليق بعزك وجلالك من العلو والعظمة واللام صلة وقيل معناه نطهر أنفسنا لطاعتك وعبادتك (قال انى أعلم ما لا تعلمون) قيل انه جواب لقول الملائكة أتجعل فيها فقال تعالى أعلم من وجوه المصلحة والحكمة ما لا تعلمون وقيل اعلم ان فيهم من يعبدنى ويطيعنى وهم الانبياء والاولياء والصالحون ومن يعصينى منكم وهو ابليس وقيل اعلم انهم يذنبون ويستغفرون فاغفر لهم

﴿فصل فى ماهية الملائكة وقصة خلق آدم عليه السلام﴾ قيل ان الملائكة أجسام لطيفة هوائية خلقت من النور تقدر أن تتشكل باشكال مختلفة مسكنهم السموات * عن أبى ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع الا وملك واضع جبهته لله ساجدا أخرجه الترمذى بزيادة وقال حديث حسن غريب * وأما صفة خلق آدم عليه السلام فقال وهب بن منبه لما أراد الله تعالى أن يخلق آدم أوحى الى الارض انى خالق منك خليقة منهم من يطيعنى ومنهم يعصينى فمن أطاعنى أدخلته الجنة ومن عصانى أدخلته النار قالت الارض أتخلق منى خلقا يكون للنار قال نعم فبكت الارض فانفجرت منها العيون الى يوم القيامة فبعث الله اليها جبريل ليأتيه بقبضة منها من أحمرها وأسودها وطيبها وخبيثها فلما أتاها ليقبض منها قالت أعوذ بعزة الله الذى أرسلك الى أن لا تأخذ منى شيأ فرجع جبريل الى مكانه وقال يارب استعاذت بك منى فكرهت أن أقدم عليها فقال الله تعالى لميكائيل انطلق فأتنى بقبضة منها فلما أتاها ليقبض منها قالت له مثل ما قالت لجبريل فرجع الى ربه فقال ما قالت له فقال لعزرائيل انطلق فأتنى بقبضة من الارض فلما أتاها قالت له الارض أعوذ بعزة الله الذى أرسلك أن لا تأخذ منى شيأ فقال وأنا أعوذ بعزته أن أعصى له أمرا وقبض منها قبضة من جميع بقاعها من عذبها ومالحها وحلوها ومرها وطيبها وخبيثها وصعد بها الى السماء فسأله ربه عز وجل وهو أعلم بما صنع فأخبره بما قالت له الارض وبما رد عليها فقال الله تعالى وعزتى وجلالى لأخلقن مما جئت به خلقا ولأسلطنك على قبض أرواحهم لقلة رحمتك ثم جعل الله تلك القبضة نصفها فى الجنة ونصفها فى النار ثم تركها ما شاء الله ثم أخرجها فعجنها طينا لازبا مدة ثم حمأ مسنونا مدة ثم صلصالا ثم جعلها جسدا وألقاه على باب الجنة فكانت الملائكة يعجبون من صفة صورته لانهم لم يكونوا رأوا مثله وكان ابليس يمر عليه ويقول لامر ما خلق هذا ونظر اليه فاذا هو أجوف فقال هذا خلق لا يتمالك وقال يوما للملائكة ان فضل هذا عليكم ما تصنعون فقالوا نطيع ربنا ولا نعصيه فقال ابليس فى نفسه لئن فضل على لاعصينه ولئن فضلت عليه لاهلكنه فلما أراد الله تعالى أن ينفخ فيه الروح أمرها أن تدخل فى جسد آدم فنظرت فرأت مدخلا ضيقا فقالت يارب كيف أدخل هذا الجسد قال الله عز وجل لها ادخليه كرها وستخرجين منه كرها فدخلت فى يافوخه فوصلت الى عينيه فجعل ينظر الى سائر جسده طينا فسارت الى أن وصلت منخريه فعطس فلما بلغت لسانه قال الحمد لله رب العالمين وهى أول كلمة قالها فناداه الله تعالى رحمك ربك يا أبا محمد ولهذا خلقتك ولما بلغت الروح الى الركبتين هم ليقوم فلم يقدر قال الله تعالى خلق الانسان من عجل فلما بلغت الى الساقين والقدمين استوى قائما بشرا سويا لحما ودما وعظاما وعروقا وعصبا وأحشاء وكسى لباسا من ظفر يزداد جسده جمالا وحسنا كل يوم وجعل فى جسده تسعة أبواب سبعة فى رأسه وهى الاذنان يسمع بهما والعينان يبصر بهما والمنخران يشم

تعالى وقد دخلوا بالكفر أى دخلوا كافرين (ونقدس لك) ونطهر أنفسنا لك وقيل التسبيح والتقديس تبعيد الله من السوء من سبح فى الارض وقدس فيها اذا ذهب فيها وأبعد (قال انى أعلم ما لا تعلمون) أى أعلم من الحكم فى ذلك ما هو خفى عليكم يعنى يكون فيهم الانبياء والاولياء والعلماء وما بمعنى الذى وهو مفعول أعلم والعائد محذوف أى ما لا تعلمونه انى حجازى وأبو عمرو

(وعلم آدم) هو اسم أعجمى وأقرب أمره أن يكون على فاعل كآزر واشتقاقهم آدم من أديم الارض أو من الادمة كاشتقاقهم يعقوب من العقب وادريس من الدرس وابليس من الابلاس (الاسماء كلها) أى اسماء المسميات فحذف المضاف اليه لكونه معلوما مدلولا عليه بذكر الاسماء اذ الاسم يدل على المسمى وعوض منه اللام كقوله تعالى واشتعل الرأس شيبا ولا يصح أن يقدر وعلم آدم مسميات الاسماء على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه لان التعليم تعلق بالاسماء لا بالمسميات لقوله تعالى أنبؤنى باسماء هؤلاء وأنبئهم باسمائهم ولم يقل أنبئونى بهؤلاء وأنبئهم بهم ومعنى تعليمه أسماء المسميات انه تعالى أراه الاجناس التى خلقها وعلمه أن هذا اسمه فرس وهذا اسمه بعير وهذا اسمه كذا وهذا اسمه كذا وعن ابن عباس رضى الله عنهما علمه اسم كل شئ حتى القصعة والمغرفة (ثم عرضهم على الملائكة) أى عرض المسميات وانما ذكر لان فى المسميات العقلاء فغلبهم وانما استنبأهم وقد علم عجزهم عن الانباء على سبيل التبكيت (فقال انبؤنى) أخبرونى (باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين) فى زعمكم انى أستخلف فى الارض مفسدين سفاكين للدماء وفيه رد عليهم وبيان أن فيمن يستخلفه من الفوائد العلمية التى هى أصول الفوائد كلها ما يستأهلون لاجله أن يستخلفوا (قالوا سبحانك) تنزيها لك أن يخفى عليك شئ أو عن الاعتراض عليك فى تدبيرك وأفادتنا الآية أن علم الاسماء فوق التخلى للعبادة فكيف بعلم الشريعة وانتصابه على المصدر تقديره سبحت الله تسبيحا (لا علم لنا الا ما علمتنا) قولكم

وليس فيه علم الاسماء وما بمعنى الذى والعلم بمعنى المعلوم أى لا معلوم لنا الا الذى علمتنا (انك أنت العليم) غير المعلم (الحكيم) فيما قضيت وقدرت والكاف اسم ان وأنت مبتدأ وما بعده خبره والجملة خبر ان أو أنت فصل والخبر العليم والحكيم خبر ثان (قال يا آدم أنبئهم باسمائهم فلما أنبأهم باسمائهم) سمى كل شئ باسمه (قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والارض) أى أعلم ما غاب فيهما عنكم مما كان ومما يكون (وأعلم ما تبدون) تظهرون

بهما والفم فيه اللسان يتكلم به والاسنان يطحن بها ما يأكله ويجد لذة المطعومات بها وبابين فى أسفل جسده وهما القبل والدبر يخرج منهما ثفل طعامه وشرابه وجعل عقله فى دماغه وفكره وصرامته فى قلبه وشرهه فى كليتيه وغضبه فى كبده ورغبته فى رئته وضحكه فى طحاله وفرحه وحزنه فى وجهه فسبحان من جعله يسمع بعظم ويبصر بشحم وينطق بلحم ويعرف بدم وركب فيه الشهوة وحجزه بالحياء (ق) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال خلق الله تعالى آدم عليه السلام وطوله ستون ذراعا ثم قال اذهب فسلم على أولئك نفر من الملائكة فاستمع ما يحيونك به فانها تحيتك وتحية ذريتك فقال السلام عليكم فقالوا السلام عليك ورحمة الله فزادوه ورحمة الله فكل من يدخل الجنة على صورة آدم قال فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن (م) عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صور الله آدم تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل ابليس يطوف به ينظر ما هو فلما رآه أجوف عرف أنه لا يتمالك * عن أبى موسى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله تبارك وتعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الارض فجاء بنو آدم على قدر الارض منهم الاحمر والابيض والاسود وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب أخرجه الترمذى وأبو داود * قوله عز وجل (وعلم آدم الاسماء كلها) سمى آدم لانه خلق من أديم الارض وقيل لانه كان آدم اللون وكنيته أبو محمد وقيل أبو البشر ولما خلق الله آدم وتم خلقه علمه أسماء الاشياء كلها وذلك ان الملائكة قالوا ليخلق ربنا ما شاء فلن يخلق خلقا أكرم عليه منا وان كان فنحن أعلم منه لانا خلقنا قبله ورأينا ما لم يره فاظهر الله فضل آدم عليهم بالعلم وفيه دليل لمذهب أهل السنة ان الانبياء أفضل من الملائكة وان كانوا رسلا قال ابن عباس علمه اسم كل شئ حتى القصعة والقصيعة وقيل خلق الله كل شئ من الحيوان والجماد وغير ذلك وعلم آدم أسماءها كلها فقال يا آدم هذا بعير وهذا فرس وهذا شاة حتى أتى على آخرها وقيل علم آدم أسماء الملائكة وقيل أسماء ذريته وقيل علمه اللغات كلها (ثم عرضهم) يعنى تلك الاشخاص وانما قال عرضهم ولم يقل عرضها لان المسميات اذا جمعت من يعقل ومن لا يعقل عبر عنه بلفظ من يعقل لتغليب العقلاء عليهم كما يعبر عن الذكور والاناث بلفظ الذكور (على الملائكة فقال) يعنى تعجيزا لهم (أنبؤنى) أى أخبرونى (باسماء هؤلاء) يعنى تلك الاشخاص (ان كنتم صادقين) أى انى لم أخلق خلقا الا كنتم أفضل منه وأعلم (قالوا) يعنى الملائكة (سبحانك) تنزيها لك وذلك لما ظهر عجزهم (لا علم لنا الا ما علمتنا) أى انك أجل من أن نحيط بشئ من علمك الا ما علمتنا (انك أنت العليم) أى بخلقك وهو من أسماء الصفات التامة وهو المحيط بكل المعلومات (الحكيم) أى فى أمرك وله معنيان أحدهما أنه القاضى العدل والثانى المحكم للامر كيلا يتطرق اليه الفساد (قال) يعنى الله تعالى (يا آدم أنبئهم باسمائهم) وذلك لما ظهر عجز الملائكة فسمى كل شئ باسمه وذكر وجه الحكمة التى خلق لها (فلما أنبأهم باسمائهم قال) يعنى الله تعالى (ألم أقل لكم) يعنى يا ملائكتى (انى أعلم غيب السموات والارض) يعنى ما كان وما سيكون وذلك أنه سبحانه وتعالى علم أحوال آدم قبل أن يخلقه فلهذا قال لهم انى أعلم ما لا تعلمون (وأعلم ما تبدون) يعنى قول الملائكة أتجعل فيها (وما كنتم تكتمون) يعنى

(وما كنتم تكتمون) تسرون (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) أى اخضعوا له وأقروا بالفضل له عن أبى بن كعب وعن ابن عباس رضى الله عنهما كان ذلك انحناء ولم يكن خرورا على الذقن والجمهور على أن المأمور به وضع الوجه على الارض وكان السجود تحية لآدم عليه السلام فى الصحيح اذ لو كان لله تعالى لما امتنع عنه ابليس وكان سجود التحية جائزا فيما مضى ثم نسخ بقوله عليه السلام لسلمان حين أراد أن يسجد له لا ينبغى لمخلوق أن يسجد لاحد الا لله تعالى (فسجدوا الا ابليس) الاستثناء متصل لانه كان من الملائكة كذا قاله على وابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهم ولان الاصل ان الاستثناء يكون من جنس المستثنى

منه ولهذا قال مامنعك أن لاتسجد اذ أمرتك وقوله كان من الجن معناه صار من الجن كقوله فكان من المغرقين وقيل الاستثناء منقطع لانه لم يكن من الملائكة بل كان من الجن بالنص وهو قول الحسن وقتادة ولانه خلق من نار والملائكة خلقوا من النور ولانه أبى وعصى واستكبر والملائكة لايعصون الله ماأمرهم ولايستكبرون عن عبادته ولانه قال أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى ولانسل للملائكة وعن الجاحظ ان الجن والملائكة جنس واحد فمن طهر منهم فهو ملك ومن خبث فهو شيطان ومن كان بين بين فهو جن (أبى) امتنع مما أمر به (واستكبر) تكبر عنه (وكان من الكافرين) وصار من الكافرين باباته واستكباره ورده الامر لابترك العمل بالامر لان ترك السجود لايخرج من الايمان ولا يكون كفرا عند أهل السنة خلافا للمعتزلة والخوارج أو كان من الكافرين فى علم الله أى وكان فى علم الله أنه يكفر بعد ايمانه لانه كان كافرا أبدا فى علم الله وهى مسئلة الموافاة (وقلنا يا آدم اسكن) أمر من سكن الدار يسكنها سكنى اذا أقام فيها ويقال سكن المتحرك سكونا (أنت) تأكيد للمستكن فى اسكن ليصح عطف (وزوجك) عليه (الجنة) هى جنة الخلد التى وعدت للمتقين للنقل المشهور وللام التعريف وقالت المعتزلة كانت بستانا باليمن لان الجنة لاتكليف فيها ولا خروج عنها قلنا انما لايخرج منها من دخلها جزاء وقد دخل النبى عليه السلام ليلة المعراج ثم خرج منها وأهل الجنة يكلفون المعرفة والتوحيد (وكلا منها) من ثمارها فحذف المضاف (رغدا) وصف للمصدر أى أكلا رغدا واسعا (حيث شئتما) شئتما وبابه بغير همز أبو عمرو وحيث للمكان المبهم أى أى مكان من

قولكم لن يخلق الله تعالى خلقا أكرم عليه منا وقال ابن عباس أعلم ما تبدون من الطاعة وما كنتم تكتمون يعنى ابليس من المعصية ﴿ قوله عز وجل (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) قيل هذا الخطاب كان مع الملائكة الذين كانوا سكان الارض والاصح أنه خطاب مع جميع الملائكة بدليل قوله فسجد الملائكة كلهم أجمعون الا ابليس (فسجدوا) يعنى الملائكة وفى هذا السجود قولان أصحهما أنه كان لآدم على الحقيقة ولم يكن فيه وضع الجبهة على الارض وانما هو الانحناء وكان سجود تحية وتعظيم لاسجود عبادة كسجود اخوة يوسف له فى قوله وخروا له سجدا فلما جاء الاسلام أبطل ذلك بالسلام وفى سجود الملائكة لآدم معنى الطاعة لله تعالى والامتثال لامره والقول الثانى ان آدم كان كالقبلة وكان السجود لله تعالى كما جعلت الكعبة قبلة للصلاة والصلاة لله تعالى وفى هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة فى تفضيل الانبياء على الملائكة (الا ابليس) سمى به لانه ابلس من رحمة الله أى يئس وكان اسمه عزازيل بالسريانية وبالعربية الحرث فلما عصى غير اسمه فسمى ابليس وغيرت صورته قال ابن عباس كان ابليس من الملائكة بدليل أنه استثناه منهم وقيل انه من الجن لانه خلق من النار والملائكة خلقوا من النور ولانه أصل الجن كما أن آدم أصل الانس والاول اصح لان الخطاب كان مع الملائكة فهو داخل فيهم ثم استثناه منهم (أبى) أى امتنع من السجود فلم يسجد (واستكبر) أى تكبر وتعظم عن السجود لآدم (وكان من الكافرين) أى فى علم الله تعالى فانه وجبت له النار لسابق علم الله تعالى بشقاوته (م) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى يقول ياويله وفى رواية ياويلتاه أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فعصيت فلى النار ﴿ قوله عز وجل (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) أى اتخذها مأوى ومنزلا وليس معناه الاستقرار لانه لم يقل أسكنتك الجنة لانه خلق لعمارة الارض ولما أسكن الله آدم فى الجنة بقى وحده ليس معه من يستأنس به ويجالسه فألقى الله عليه النوم ثم أخذ ضلعا من أضلاع جنبه الايسر وهو الاقصر فخلق منه زوجته حواء ووضع مكان الضلع لحما من غير أن يحس بذلك آدم ولم يجد ألما ولو وجد ألما ماعطف رجل على امرأة قط وسميت حواء لانها خلقت من حى فلما استيقظ آدم من نومه ورآها جالسة كأحسن ماخلق الله تعالى فقال لها من أنت قالت أنا زوجتك حواء قال ولماذا خلقت قالت لتسكن الى وأسكن اليك واختلفوا فى الجنة التى أمر آدم بسكناها فقيل انها جنة كانت فى الارض بدليل أنه لو كانت الجنة التى هى دار الجزاء والثواب لما أخرج منها وأجاب صاحب هذا القول عن قوله تعالى اهبطا بان المراد من الهبوط التحول والانتقال فهو كقوله تعالى اهبطوا مصرا والقول الصحيح انها الجنة التى هى دار الجزاء والثواب لان الالف واللام للعهد والجنة بين المسلمين وفى عرفهم التى هى دار الجزاء والثواب وقيل كلا القولين ممكن فلا وجه للقطع (وكلا منها رغدا) أى واسعا كثيرا (حيث شئتما) أى كيف شئتما ومتى شئتما وأين شئتما والمقصود منه الاطلاق

الجنة شئتما (ولا تقربا هذه الشجرة) أى الحنطة ولذا قيل كيف لا يعصى الانسان وقوته من شجرة العصيان أو الكرمة لانها أصل كل فتنة أو التينة (فتكونا) جزم عطف على تقربا أو نصب جواب للنهى (من الظالمين) من الذين ظلموا أنفسهم أو من الضارين أنفسهم (فأزلهما الشيطان عنها) أى عن الشجرة أى حملهما الشيطان على الزلة بسببها وتحقيقه فاصدر الشيطان زلتهما عنها أو فأزلهما عن الجنة بمعنى أذهبهما عنها وأبعدهما فازالهما حمزة وزلة آدم بالخطا فى التأويل اما بحمل النهى على التنزيه دون التحريم أو بحمل اللام على تعريف العهد وكان الله تعالى أراد الجنس والاول الوجه وهذا دليل على انه يجوز اطلاق اسم الزلة على الانبياء عليهم السلام كما قال مشايخ بخارى فانه اسم لفعل يقع على خلاف الامر من غير قصد الى الخلاف كزلة الماشى فى الطين وقال مشايخ سمرقند لا يطلق اسم الزلة على أفعالهم كما لا تطلق المعصية وانما يقال فعلوا الفاضل وتركوا الافضل فعوتبوا عليه (فاخرجهما مما كانا فيه) من النعيم والكرامة أو من الجنة ان كان الضمير للشجرة فى عنها وقد توصل الى ازلالهما بعد ما قيل له اخرج منها فانك رجيم لانه منع عن دخولها على جهة التكرمة كدخول الملائكة لا عن دخولها على جهة الوسوسة ابتلاء لآدم وحواء وروى انه أراد الدخول فمنعته الخزنة فدخل فى فم الحية حتى دخلت به وقيل قام عند الباب فنادى (وقلنا اهبطوا) الهبوط النزول الى الارض والخطاب لآدم وحواء وابليس رسول وقيل والحية والصحيح لآدم وحواء والمراد هما وذريتهما لانهما لما كانا أصل الانس ومتشعبهم جعلا كأنهما الانس كلهم ويدل عليه قوله تعالى قال اهبطا منها جميعا (بعضكم لبعض عدو) المراد به ما عليه الناس من التباغى والتعادى وتضليل بعضهم لبعض والجملة فى موضع الحال بين

فى الاكل من الجنة بلا منع الاما نهى عنه وهو قوله تعالى (ولا تقربا هذه الشجرة) يعنى للاكل قيل انما وقع هذا النهى عن جنس الشجرة وقيل عن شجرة مخصوصة قال ابن عباس هى السنبلة وقيل الكرمة وقيل هى شجرة التين وقيل هى شجرة العلم وقيل الكافور وقيل ليس فى ظاهر الكلام ما يدل على لتبيين اذ لا حاجة اليه لانه ليس المقصود تعريف عين تلك الشجرة وما لا يكون مقصودا لا يجب بيانه (فتكونا من الظالمين) يعنى ان أكلتما من هذه الشجرة ظلمتما أنفسكما فمن جوز ارتكاب الذنوب على الانبياء قال ظلم نفسه بالمعصية وأصل الظلم وضع الشئ فى غير موضعه ومن لم يجوز ذلك على الانبياء حمل الظلم على انه فعل ما كان الاولى أن لا يفعله وقيل يحمل على انه فعل هذا قبل النبوة فان قلت هل يجوز وصف الانبياء بالظلم أو بظلم أنفسهم قلت لا يجوز أن يطلق عليهم ذلك لما فيه من الذم * قوله عز وجل (فأزلهما الشيطان) أى استزل آدم وحواء ودعاهما الى الزلة وهى الخطيئة وسيأتى الكلام ان شاء الله تعالى على عصمة الانبياء والجواب عما صدر منهم عند قوله عز وجل وعصى آدم ربه فغوى فى سورة طه (عنها) أى الجنة (فاخرجهما مما كانا فيه) يعنى من النعيم وذلك أن ابليس أراد أن يدخل الجنة ليوسوس لآدم وحواء فمنعه الخزنة فاتى الحية وكانت صديقة لابليس وكانت من أحسن الدواب لها أربع قوائم كقوائم البعير وكانت من خزان الجنة فسألها أن تدخله الجنة فى فيها فادخلته ومرت به على الخزنة وهم لا يعلمون وقيل انما أتاهما على باب الجنة لانهما كانا يخرجان منها وكان ابليس بقرب الباب فوسوس لهما وذلك ان آدم لما دخل الجنة ورأى ما فيها من النعيم قال لو ان خلدا فاغتنم ذلك الشيطان منه وأتاه من قبل الخلد وقيل لما دخل الجنة وقف على آدم وحواء وهما لا يعلمان أنه ابليس فبكى وناح نياحة أحزنتهما وهو أول من ناح فقالا ما يبكيك قال أبكى عليكما انكما تموتان فتفارقان ما أنتما فيه من النعمة فوقع ذلك فى أنفسهما واغتما ومضى ابليس ثم أتاهما بعد ذلك وقال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد فابى أن يقبل منه فقاسمهما بالله انى لكما لمن الناصحين فاغترا وما ظنا أن أحدا يحلف بالله كاذبا فبادرت حواء الى أكل الشجرة ثم ناولت آدم فاكل منها قال ابراهيم بن أدهم أورثتنا تلك الاكلة حزنا طويلا قال ابن عباس قال الله تعالى يا آدم ألم يكن فيما أبحتك من الجنة مندوحة عن الشجرة قال بلى يا رب وعزتك ولكن ما ظننت أن أحدا يحلف بك كاذبا قال فبعزتى لاهبطنك الى الارض ثم لا تنال العيش فيها الا نكدا فاهبط من الجنة وعلم صنعة الحديد وأمر بالحرث فحرث وزرع وسقى حتى اذا بلغ واشتد حصده ثم درسه ثم ذراه ثم طحنه ثم عجنه وخبزه ثم أكله فلم يبلغه حتى بلغ منه الجهد وفى رواية أخرى عن ابن عباس أن آدم لما أكل من الشجرة التى نهى عنها قال الله تعالى يا آدم ما حملك على ما صنعت قال يا رب زينته لى حواء قال فانى أعقبتها أن لا تحمل الا كرها ولا تضع الا كرها ودميتها فى الشهر مرتين فرنت حواء عند ذلك فقيل عليك الرنة وعلى بناتك والرنة الصوت فلما أكلا من الشجرة تهافتت عنهما ثيابهما وبدت سوآتهما وأخرجا من الجنة فذلك قوله عز وجل (وقلنا اهبطوا) أى انزلوا الى الارض يعنى آدم وحواء وابليس والحية فهبط آدم بسرنديب من أرض الهند على جبل يقال له نود وأهبطت حواء بجدة وابليس بالابلة من أعمال البصرة والحية باصبهان (بعضكم لبعض عدو) يعنى العداوة التى بين المؤمنين من ذرية آدم وبين ابليس واليه الاشارة بقوله عز وجل ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا والعداوة التى بين ذرية آدم والحية عن ابن عباس قال قال

الواو في اهبطوا أي اهبطوا متعادين (ولكم في الارض مستقر) موضع استقرار أو استقرار (ومتاع) وتمتع بالعيش (الى حين) الى يوم القيامة أو الى الموت قال ابراهيم بن أدهم أورثتنا تلك الاكلة حزنا طويلا (فتلقى آدم

من ربه كلمات) أي استقبلها بالاخذ والقبول والعمل بها وبنصب آدم ورفع كلمات مكي على انها استقبلته بان بلغته واتصلت به وهن قوله تعالى ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين وفيه موعظة لذريتهما حيث عرفوا كيفية السبيل الى التنصل من الذنوب وعن ابن مسعود رضي الله عنه ان أحب الكلام الى الله تعالى ما قاله أبونا آدم حين اقترف الخطيئة سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا اله الا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي انه لا يغفر الذنوب الا أنت وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال يارب ألم تخلقني بيدك قال بلى قال يارب ألم تنفخ في من روحك ألم تسبق رحمتك غضبك ألم تسكني جنتك وهو تعالى يقول بلى بلى قال فلم أخرجتني من الجنة قال بشؤم معصيتك قال فلو تبت أراجعي أنت اليها قال نعم (فتاب عليه) فرجع عليه بالرحمة والقبول واكتفي بذكر توبة آدم لان حواء كانت تبعا له وقد طوى ذكر النساء في أكثر القرآن والسنة لذلك

(انه هو التواب) الكثير القبول للتوبة (الرحيم) على عباده (قلنا اهبطوا منها جميعا) حال أي مجتمعين وكرر الامر بالهبوط للتأكيد أو لان الهبوط الاول من الجنة الى السماء والثاني من السماء الى الارض أو لما نيط به من زيادة قوله (فاما يأتينكم مني هدى) أي رسول أبعثه اليكم أو كتاب أنزله عليكم بدليل قوله تعالى والذين كفروا وكذبوا بآياتنا في مقابلة قوله (فمن تبع هداي) أي بالقبول والايمان به (فلا خوف عليهم) في

رسول الله صلى الله عليه وسلم من ترك الحيات مخافة طلبهن فليس منا ما سالمناهن منذ حاربناهن أخرجه أبو داود وله عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اقتلوا الحيات كلهن فمن خاف من ثارهن فليس مني وفي رواية أقتلوا الكبار كلها الا الجان الابيض الذي كأنه قضيب فضة م عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان بالمدينة جنا قد أسلموا فاذا رأيتم منهم شيأ فآذنوه ثلاثة أيام فان بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فانما هو شيطان وفي رواية ان بهذه البيوت عوامر فاذا رأيتم منها شيأ فحرجوا عليه ثلاثا فان ذهب والا فاقتلوه فانه كافر (ولكم في الارض مستقر) أي موضع قرار (ومتاع) أي بلغة ومستمتع (الى حين) أي الى وقت انقضاء آجالكم ۞ قوله عز وجل (فتلقى آدم) أي فتلقن والتلقي هو قبول عن فطنة وفهم وقيل هو التعلم (من ربه كلمات) أي كانت سبب توبته وقيل ان تلك الكلمات هي قوله ربنا ظلمنا أنفسنا الآية وقيل هي لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك رب عملت سوأ وظلمت نفسي فتب علي انك أنت التواب الرحيم لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك رب عملت سوأ وظلمت نفسي فاغفر لي انك أنت الغفور الرحيم لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك رب عملت سوأ وظلمت نفسي فارحمني انك أنت أرحم الراحمين وقيل قال آدم يارب أرأيت ما أتيت أشيء ابتدعته من تلقاء نفسي أم شيء قدرته علي قبل أن تخلقني قال بل شيء قدرته عليك قبل أن أخلقك قال يارب فكما قدرته علي فاغفر لي وقيل ان الله تعالى أمر آدم بالحج وعلمه أركانه فطاف بالبيت سبعا وهو يومئذ ربوة حمراء ثم صلى ركعتين ثم استقبل البيت وقال اللهم انك تعلم سري وعلانيتي فاقبل معذرتي وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي وتعلم ما في نفسي فاغفر لي ذنوبي فأوحى الله تعالى اليه يا آدم قد غفرت لك ذنوبك وقيل ان آدم لما أهبط الى الارض مكث ثلثمائة سنة لا يرفع رأسه الى السماء حياء من الله تعالى وقيل هي ثلاثة أشياء الحياء والدعاء والبكاء قال ابن عباس بكى آدم وحواء على ما فاتهما من نعيم الجنة مائتي سنة ولم يأكلا ولم يشربا أربعين يوما وقيل لو أن دموع أهل الارض جمعت لكانت دموع داود أكثر منها حيث أصاب الخطيئة ولو أن دموع داود ودموع أهل الارض جمعت لكانت دموع آدم أكثر حيث أخرجه الله من الجنة (فتاب عليه) أي فتجاوز عنه وغفر له وأصل التوبة من تاب يتوب اذا رجع فكأن التائب رجع عن ذلك الذنب الذي كان عليه ولا تتحقق التوبة منه الا بثلاثة أمور علم وحال وعمل أما العلم فهو أن يعلم العبد ضرر الذنب وانه حجاب عن الله تعالى فاذا حصل هذا العلم تألم القلب فعند ذلك يحصل الندم وهو الحال فيترك العبد الذنب ويعزم في المستقبل ان لا يعود اليه وهو العمل فاذا تحققت هذه الثلاثة الامور حصلت التوبة وسيأتي بسط هذا عند قوله تعالى توبوا الى الله توبة نصوحا في سورة التحريم ان شاء الله تعالى (انه هو التواب) أي الرجاع على عباده بقبول التوبة والتواب في وصف الله سبحانه وتعالى المبالغ في قبول توبة عباده (الرحيم) أي بخلقه وصف سبحانه وتعالى نفسه مع كونه توابا بانه رحيم (قلنا اهبطوا منها جميعا) يعني هؤلاء الاربعة وقيل ان الهبوط الاول من الجنة الى سماء الدنيا والهبوط الثاني من السماء الدنيا الى الارض وفيه ضعف لانه قال في الهبوط الاول ولكم في الارض مستقر فدل على انه كان من الجنة الى الارض والاصح انه للتأكيد (فاما يأتينكم مني هدى) فيه تنبيه على عظم نعم الله على آدم وحواء كأنه قال وان أهبطتكم من الجنة الى الارض فقد انعمت عليكم بهدايتي التي تؤديكم الى الجنة مرة أخرى على الدوام الذي لا ينقطع وقيل المخاطب هم ذرية آدم يعني يا ذرية آدم اما يأتينكم مني رشد وبيان وشريعة وقيل كتاب ورسول (فمن تبع هداي فلا خوف عليهم)

المستقبل (ولاهم يحزنون) على ما خلفوا والشرط الثانى مع جوابه جواب الشرط الاول كقولك ان جئتنى فان قدرت أحسنت اليك فلا خوف بالفتح فى كل القرآن يعقوب (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك) مبتدأ والخبر (أصحاب النار) أى أهلها ومستحقوها والجملة فى موضع الرفع خبر المبتدأ أعنى والذين (هم فيها خالدون يابنى اسرائيل) هو يعقوب عليه السلام وهو لقب له ومعناه فى لسانهم صفوة الله أوعبد الله فاسرا هو العبد والصفوة وايل هو الله بالعبرية وهو غير منصرف لوجود العلمية والعجمة (اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) ذكرهم النعمة أن لا يخلوا بشكرها ويطيعوا مانحها وأراد بها ما أنعم به على آبائهم مما عدد عليهم من الانجاء من فرعون وعذابه ومن الغرق ومن العفو عن اتخاذ العجل والتوبة عليهم وما أنعم به عليهم من ادراك محمد صلى الله عليه وسلم المبشر به فى التوراة والانجيل (وأوفوا) أدوا وافيا تاما يقال وفيت له بالعهد فانا واف به وأوفيت له بالعهد فانا موف به والاختيار أوفيت وعليه نزل التنزيل (بعهدى) بما عاهدتمونى عليه من الايمان بى والطاعة لى أو من الايمان بنبى الرحمة والكتاب المعجز (أوف بعهدكم) بما عاهدتكم عليه من حسن الثواب على حسناتكم والعهد يضاف الى المعاهد والمعاهد جميعا وعن قتادة هما لئن أقمتم ولأكفرن وقال أهل الاشارة أوفوا فى دار محنتى على بساط خدمتى بحفظ حرمتى أوف فى دار نعمتى على بساط كرامتى بسرور رؤيتى (واياى فارهبون) فلا تنقضوا عهدى وهو من قولك زيدا رهبته وهو أوكد فى افادة الاختصاص من اياك نعبد واياى منصوب بفعل مضمر دل عليه ما بعده وتقديره فارهبوا اياى فارهبون وحذف الاول لان الثانى يدل عليه وانما لم ينتصب بقوله فارهبون لانه أخذ مفعوله وهو الياء المحذوفة وكسرة النون دليل الياء كما لا يجوز نصب زيدا فى زيدا فاضربه بالضرب الذى هو ظاهر (وآمنوا بما أنزلت) يعنى القرآن (مصدقا) حال مؤكدة من الهاء المحذوفة كأنه قيل أنزلته مصدقا (لما معكم) من

يعنى فيما يستقبلهم (ولاهم يحزنون) أى على ما خلفوا وقيل لا خوف عليهم ولاهم يحزنون فى الآخرة (والذين كفروا) أى جحدوا (وكذبوا بآياتنا) أى بالقرآن (أولئك أصحاب النار) أى يوم القيامة (هم فيها خالدون) أى لا يخرجون منها ولا يموتون فيها ۞ قوله عز وجل (يابنى اسرائيل) اتفق المفسرون على ان اسرائيل هو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم صلى الله عليهم وسلم أجمعين ومعنى اسرائيل عبد الله وقيل صفوة الله والمعنى يا أولاد يعقوب (اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) أى اشكروا نعمتى وانما عبر عنه بالذكر لان من ذكر النعمة فقد شكرها ومن جحدها فقد كفرها وقيل الذكر يكون بالقلب ويكون باللسان ووحد النعمة لانها المنفعة المفعولة على جهة الاحسان الى الغير ومعناه ان المضرة المحضة لا تكون نعمة ولو فعل الانسان منفعة وقصد نفسه بها لا تسمى نعمة اذا لم يقصد بها الغير ثم ان النعم ثلاثة نعمة تفرد بها الله تعالى وهى ايجاد الانسان ورزقه ونعمة وصلت الى الانسان بواسطة الغير لكن الله مكنه من ذلك فالمنعم بها فى الحقيقة هو الله تعالى ونعمة حصلت للانسان بسبب الطاعة وهى أيضا من الله تعالى فالله هو المنعم المطلق فى الحقيقة لان أصول النعم كلها منه وأما النعم المختصة ببنى اسرائيل فكثيرة لان قوله اذكروا نعمتى لفظها واحد ومعناها الجمع فمن النعم ان الله تعالى أنقذهم من فرعون وفلق البحر لهم وأغرق فرعون وظلل عليهم بالغمام وانزال المن والسلوى فى التيه عليهم وانزال التوراة ونعم غير هذه كثيرة فان قلت اذا فسرت النعمة بهذا فما كانت على المخاطبين بها بل كانت على آبائهم فكيف تكون نعمة عليهم حتى يذكروها قلت انما ذكر المخاطبين بها لان فخر الآباء فخر الابناء ولان الابناء اذا تيقنوا ان الله قد أنعم على آبائهم بهذه النعم فقد وجب عليهم ذكرها وشكرها وقيل ان هذه النعمة هى ادراك المخاطبين بها زمن محمد صلى الله عليه وسلم وذكرها الايمان به (وأوفوا بعهدى) أى امتثلوا أمرى (أوف بعهدكم) أى بالقبول والثواب وأصل العهد حفظ الشئ ومراعاته حالا بعد حال ومنه سمى الموثق الذى تلزم مراعاته عهدا وقيل أراد بالعهد جميع ما أمر الله به من غير تخصيص ببعض التكليف دون بعض وقيل أراد به ما ذكر فى سورة المائدة وهو قوله ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا الى قوله لأكفرن عنكم سيئاتكم فهذا قوله أوف بعهدكم وقيل هو قوله واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة يعنى شريعة التوراة وقيل هو قوله واذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون الا الله وقيل أراد بهذا العهد ما أثبته فى كتب الانبياء المتقدمة من وصف محمد صلى الله عليه وسلم وانه مبعوث فى آخر الزمان وذلك ان الله عهد الى بنى اسرائيل على لسان موسى عليه الصلاة والسلام انى باعث من بنى اسماعيل نبيا أميا فمن تبعه وصدق النور الذى يأتى به غفرت له ذنبه وأدخلته الجنة وجعلت له أجرين اثنين وهو قوله واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس يعنى أمر محمد صلى الله عليه وسلم وصفته (واياى فارهبون) أى خافون فى نقضكم العهد (وآمنوا بما أنزلت) يعنى بالقرآن (مصدقا لما معكم) يعنى ان القرآن موافق لما فى التوراة من التوحيد والنبوة والاخبار ونعت النبى صلى الله عليه وسلم فالايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن تصديق للتوراة لان التوراة فيها الاشارة الى نعت النبى صلى الله عليه وسلم وانه

التوراة يعنى فى العبادة والتوحيد والنبوة وأمر محمد عليه السلام (ولا تكونوا أول كافر به) أى أول من كفر به أو أول حزب أو فوج كافر به أو ولا يكن كل واحد منكم أول كافر به وهذا تعريض بانه كان يجب أن يكونوا أول من يؤمن به لمعرفتهم به وبصفته والضمير فى به يعود الى القرآن (ولا تشتروا) ولا تستبدلوا (بآياتى) بتغييرها وتحريفها (ثمنا قليلا) قال الحسن هو الدنيا بحذافيرها وقيل هو الرياسة التى كانت لهم فى قومهم خافوا عليها الفوات لو اتبعوا رسول الله (واياى فاتقون) فخافونى فارهبونى فاتقونى بالياء فى الحالين وكذلك كل ياء محذوفة فى الخط يعقوب (ولا تلبسوا الحق بالباطل) لبس الحق بالباطل خلطه والباء ان كانت صلة مثلها فى (٤٩) قولك لبست الشئ بالشئ خلطته به كان المعنى ولا تكتبوا فى التوراة ما ليس منها فيختلط الحق المنزل بالباطل الذى كتبتم حتى لا يميز بين حقها وباطلكم وان كانت باء الاستعانة كالتى فى قولك كتبت بالقلم كان المعنى ولا تجعلوا الحق ملتبسا مشتبها بباطلكم الذى تكتبونه (وتكتموا الحق) هو مجزوم داخل تحت حكم النهى بمعنى ولا تكتموا أو منصوب باضمار أن والواو بمعنى الجمع أى ولا تجمعوا بين لبس الحق بالباطل وكتمان الحق كقولك لا تاكل السمك وتشرب اللبن وهما أمران متميزان لان لبس الحق بالباطل ما ذكرنا من كتبهم فى التوراة ما ليس منها وكتمانهم الحق أن يقولوا لا نجد فى التوراة صفة محمد أو حكم كذا (وأنتم تعلمون) فى حال علمكم انكم لابسون وكاتمون وهو أقبح لهم لان الجهل بالقبيح ربما عذر مرتكبه (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) أى صلاة المسلمين وزكاتهم (واركعوا مع الراكعين) منهم لان اليهود لا ركوع فى صلاتهم أى أسلموا واعملوا عمل أهل الاسلام وجاز أن يراد بالركوع الصلاة كما يعبر عنها بالسجود وأن يكون أمرا بالصلاة مع المصلين يعنى فى الجماعة أى صلوها مع المصلين لا منفردين والهمزة فى (أتأمرون الناس) للتقرير مع التوبيخ والتعجب من حالهم (بالبر) أى سعة الخير والمعروف ومنه البر لسعته ويتناول كل خير ومنه قولهم صدقت وبررت وكان الاحبار يامرون من نصحوه فى السر من أقاربهم وغيرهم باتباع محمد عليه السلام ولا يتبعونه وقيل كانوا يامرون بالصدقة ولا يتصدقون واذا أتوا بالصدقات ليفرقوها خانوا فيها

نبى مبعوث فمن آمن به فقد آمن بما فى التوراة ومن كذبه وكفر به فقد كذب التوراة وكفر بها (ولا تكونوا أول كافر به) الخطاب لليهود نزلت فى كعب بن الاشرف ورؤساء اليهود والمعنى ولا تكونوا يا معشر اليهود أول من كفر به فان قلت كيف جعلوا أول من كفر به وقد سبقهم الى الكفر به مشركو العرب من أهل مكة وغيرهم قلت هذا تعريض لهم والمعنى كان يجب أن تكونوا أول من آمن به لانكم تعرفون صفته ونعته بخلاف غيركم وكنتم تستفتحون به على الكفار فلما بعث كان أمر اليهود بالعكس وقيل معناه ولا تكونوا أول كافر به من اليهود فيتبعكم غيركم على ذلك فتبوؤا باثمكم واثم غيركم ممن تبعكم على ذلك (ولا تشتروا) أى ولا تستبدلوا (بآياتى) أى ببيان صفة محمد صلى الله عليه وسلم التى فى التوراة (ثمنا قليلا) أى عوضا يسيرا من الدنيا لان الدنيا بالنسبة الى الآخرة كالشئ اليسير الحقير الذى لا قيمة له والذى كانوا يأخذونه من الدنيا كالشئ اليسير بالنسبة الى جميعها فهو قليل القليل فلهذا قال الله تعالى ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا وذلك ان كعب بن الاشرف ورؤساء اليهود وعلماءهم كانوا يصيبون المآكل من سفلتهم وجهالهم وكانوا يأخذون منهم فى كل سنة شيأ معلوما من زرعهم وثمارهم ونقودهم وضروعهم فخافوا ان بينوا صفة محمد صلى الله عليه وسلم وتابعوه ان تفوتهم تلك المآكل فغيروا نعته وكتموا اسمه واختاروا الدنيا على الآخرة وأصروا على الكفر (واياى فاتقون) أى فخافون فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم والتقوى قريب من معنى الرهبة والفرق بينهما ان الرهبة خوف مع حزن واضطراب والتقوى جعل النفس فى وقاية مما تخاف ۞ قوله عز وجل (ولا تلبسوا الحق بالباطل) أى ولا تكتبوا فى التوراة ما ليس فيها فيختلط الحق المنزل بالباطل الذى كتبتم وقيل معناه ولا تخلطوا الحق الذى أنزل عليكم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم فى التوراة بالباطل الذى تكتبونه بايديكم من تغيير صفته وقيل لا تخلطوا صفة محمد صلى الله عليه وسلم التى هى الحق بالباطل أى بصفة الدجال وذلك انه لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حسده اليهود وقالوا ليس هو الذى ننتظره وانما هو المسيح بن داود يعنى الدجال وكذبوا فيما قالوا (وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) يعنى ان محمدا صلى الله عليه وسلم نبى مرسل وفيه تنبيه لسائر الخلق وتحذير من مثله فصار هذا الخطاب وان كان خاصا فى الصورة لكنه عام فى المعنى فعلى كل أحد أن لا يلبس الحق بالباطل ولا يكتم الحق لما فيه من الضرر والفساد وفيه دلالة أيضا على ان العالم بالحق يجب عليه اظهاره ويحرم عليه كتمانه (وأقيموا الصلاة) يعنى الصلوات الخمس بمواقيتها وحدودها وجميع أركانها (وآتوا الزكاة) أى أدوا الزكاة المفروضة عليكم فى أموالكم (واركعوا مع الراكعين) أى صلوا مع المصلين يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه وعبر عن الصلاة بالركوع لانه ركن من أركانها وهذا خطاب لليهود لان صلاتهم ليس فيها ركوع فكأنه قال لهم صلوا صلاة ذات ركوع فلهذا المعنى أعاده بعد قوله وأقيموا الصلاة لان الاول خطاب الكافة والثانى خطاب قوم مخصوصين وهم اليهود وفيه حث على اقامة الصلاة فى الجماعة فكأنه قال صلوا مع المصلين فى الجماعة ۞ قوله عز وجل (أتأمرون الناس بالبر) الاستفهام فيه للتقرير مع التقريع والتعجب من حالهم والبر اسم

(وتنسون أنفسكم) وتتركونها من البر كالمنسيات (وأنتم تتلون الكتاب) تبكيت أي تتلون التوراة وفيها نعت محمد

جامع لجميع أعمال الخير والطاعات نزلت هذه الآية في علماء اليهود وذلك ان الرجل منهم كان يقول لقريبه وحليفه من المسلمين اذا سأله عن أمر محمد صلى الله عليه وسلم اثبت على دينه فان أمره حق وقوله صدق وقيل ان جماعة من اليهود قالوا لمشركي العرب ان رسولا سيظهر منكم ويدعوكم الى الحق وكانوا يرغبونهم في اتباعه فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم حسدوه وكفروا به فبكتهم الله ووبخهم بذلك حيث انهم كانوا يأمرون الناس باتباعه قبل ظهوره فلما ظهر تركوه وأعرضوا عنه وقيل كانوا يأمرون الناس بالطاعة والصلاة والزكاة وأنواع البر ولا يفعلونه فوبخهم الله بذلك (وتنسون انفسكم) أي وتعدلون عما لها فيه نفع والنسيان عبارة عن السهو الحادث بعد حصول العلم والمعنى أتتركون أنفسكم ولا تتبعون محمدا صلى الله عليه وسلم (وأنتم تتلون الكتاب) يعني تقرؤن التوراة وتدرسونها وفيها نعت محمد صلى الله عليه وسلم وصفته وفيها أيضا الحث على الافعال الحسنة والاعراض عن الافعال القبيحة والاثم (أفلا تعقلون) يعني انه حق فتتبعونه والعقل قوة تهيء قبول العلم ويقال للعلم الذي يستفيده الانسان بتلك القوة عقل ومنه قول علي بن أبي طالب

وان العقل عقلان * فمطبوع ومسموع * ولا ينفع مطبوع
اذا لم يك مسموع * كما لا تنفع الشمس * وضوء العين ممنوع

وأصل العقل الامساك لانه مأخوذ من عقال الدابة كعقل البعير بالعقال ليمنعه من الشرود فكذلك العقل يمنع صاحبه من الكفر والجحود والافعال القبيحة * ومعنى الآية أن المقصود من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر هو ارشاد الغير الى تحصيل المصلحة وتحذيره عما يوقعه في المفسدة والاحسان الى النفس أولى من الاحسان الى الغير وذلك لان الانسان اذا وعظ غيره ولم يتعظ هو فكأنه أتى بفعل متناقض لا يقبله العقل فلهذا قال أفلا تعقلون وقيل ان من وعظ الناس يجتهد ان تنفذ موعظته الى القلوب فاذا خالف قوله فعله كان ذلك سبب تنفير القلوب عن قبول موعظته (ق) عن اسامة بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق اقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى فيجتمع اليه أهل النار فيقولون يا فلان مالك ألم تكن تأمر الناس بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه (قوله فتندلق) أي تخرج أقتاب بطنه أي أمعاء بطنه واحدها قتب وروى البغوي بسنده عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت ليلة أسري بي رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من نار قلت من هؤلاء يا جبريل قال هؤلاء خطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون قيل مثل الذي يعلم الناس الخير ولا يعمل به كالسراج يضيء للناس ويحرق نفسه وقيل من وعظ بقوله ضاع كلامه ومن وعظ بفعله نفذت سهامه وقال بعضهم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها * فاذا انتهت عنه فانت حكيم
فهناك يسمع ما تقول ويقتدى * بالقول منك وينفع التعليم

۞ قوله عز وجل (واستعينوا بالصبر والصلاة) قيل ان المخاطبين بهذا هم مؤمنون لا من ينكر الصلاة والصبر على دين محمد صلى الله عليه وسلم لا يقال له استعن بالصبر والصلاة فلا جرم وجب صرفه الى من صدق محمدا صلى الله عليه وسلم وآمن به وقيل يحتمل أن يكون الخطاب لبني اسرائيل لان صرف الخطاب الى غيرهم يوجب تفكيك نظم القرآن ولأن اليهود لم ينكروا أصل الصلاة والصبر لكن صلاتهم غير صلاة المؤمنين فعلى هذا القول ان الله تعالى لما أمرهم بالايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والتزام شريعته وترك الرياسة وحب الجاه والمال قال لهم استعينوا بالصبر أي بحبس النفس عن اللذات وان ضممتم الى ذلك الصلاة هان عليكم ترك ما أنتم فيه من حب الرياسة والجاه والمال وعلى القول الاول يكون معنى الآية واستعينوا على حوائجكم الى الله وقيل على ما يشغلكم من أنواع البلاء وقيل على طلب الآخرة بالصبر وهو حبس النفس

عليه السلام أوفيها الوعيد على الخيانة وترك البر ومخالفة القول العمل (أفلا تعقلون) أفلا تفطنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه وهو توبيخ عظيم (واستعينوا) على حوائجكم الى الله (بالصبر والصلاة) أي بالجمع بينهما وان تصلوا صابرين على تكاليف الصلاة محتملين لمشاقها وما يجب فيها من اخلاص القلب ودفع الوساوس الشيطانية والهواجس النفسانية ومراعاة الآداب والخشوع واستحضار العلم بانه انتصاب بين يدي جبار السموات والارض أو استعينوا على البلايا والنوائب بالصبر عليها والالتجاء الى الصلاة عند وقوعها وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه نعي اليه أخوه قثم وهو في سفر فاسترجع وصلى ركعتين ثم قال واستعينوا بالصبر والصلاة وقيل الصبر الصوم لانه حبس عن المفطرات ومنه قيل لشهر رمضان شهر الصبر وقيل الصلاة الدعاء أي واستعينوا على البلايا بالصبر والالتجاء الى الدعاء والابتهال الى الله في دفعه

(وانها) الضمير للصلاة أو للاستعانة (لكبيرة) لشاقة ثقيلة من قولك كبر على هذا الامر (الا على الخاشعين) لانهم يتوقعون ما ادخر للصابرين على متاعبها فتهون عليهم ألا ترى الى قوله (الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم) أي يتوقعون لقاء ثوابه ونيل ما عنده ويطمعون فيه وفسر يظنون بيتيقنون لقراءة عبد الله يعلمون أي يعلمون أنه لا بد من لقاء الجزاء فيعملون على حسب ذلك وأما من لم يوقن بالجزاء ولم يرج الثواب كانت عليه مشقة خالصة والخشوع الاخبات والتطامن وأما الخضوع فاللين والانقياد وفسر اللقاء بالرؤية وملاقو ربهم بمعاينوه بلا كيف (وأنهم اليه راجعون) لا يملك أمرهم في الآخرة أحد سواه (يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) التكرير للتأكيد وتفضيلي (وأني فضلتكم) نصب عطف على نعمتي أي اذكروا نعمتي (على العالمين) على الجم الغفير من الناس يقال رأيت عالما من الناس والمراد الكثرة (واتقوا يوما) أي يوم القيامة وهو مفعول به لا ظرف (لا تجزي نفس) مؤمنة (عن نفس) كافرة (شيأ) أي لا تقضي عنها شيأ من الحقوق التي لزمتها وشيأ مفعول به أو مصدر أي قليلا من الجزاء والجملة منصوبة المحل صفة يوما والعائد منها الى موصوف محذوف تقديره لا تجزي فيه (ولا يقبل منها شفاعة) ولا تقبل بالتاء مكي وبصري والضمير في منها يرجع الى النفس المؤمنة أي لا تقبل منها شفاعة للكافرة وقيل كانت اليهود تزعم ان آباءهم الانبياء يشفعون لهم فاويسوا فهو كقوله فما تنفعهم شفاعة الشافعين وتشبث المعتزلة بالآية في نفي الشفاعة للعصاة مردود لان المنفي شفاعة الكفار وقد قال عليه السلام شفاعتي لاهل الكبائر من أمتي من كذب بها لم ينلها (ولا يؤخذ منها عدل) أي فدية لانها معادلة للمفدى (ولا هم ينصرون) يعانون وجمع لدلالة النفس المنكرة على النفوس الكثيرة وذكر لمعنى العباد أو الاناسي (واذ نجيناكم من آل فرعون) أصل آل أهل ولذلك يصغر باهيل فابدلت هاؤه ألفا وخص استعماله باولي الخطر كالملوك وأشباههم فلا يقال آل الاسكاف والحجام وفرعون علم لمن ملك العمالقة كقيصر لملك الروم وكسرى لملك الفرس (يسومونكم) حال من آل فرعون أي يولونكم من سامه خسفا اذا أولاه ظلما وأصله من سام السلعة اذا طلبها كأنه بمعنى يبغونكم (سوء العذاب) ويريدونكم عليه ومساومة البيع مزايدة أو مطالبة وسوء مفعول ثان ليسومونكم وهو مصدر سيء يقال أعوذ بالله من سوء الخلق وسوء الفعل يراد قبحهما ومعنى سوء العذاب والعذاب كله سيء أشده وأفظعه

عن اللذات وترك المعاصي وقيل بالصبر على أداء الفرائض وقيل الصبر هو الصوم لان فيه حبس النفس عن المفطرات وعن سائر اللذات وفيه انكسار النفس والصلاة أي اجمعوا بين الصبر والصلاة وقيل معناه واستعينوا بالصبر على الصلاة وعلى ما يجب فيها من تصحيح النية واحضار القلب ومراعاة الاركان والآداب مع الخشوع والخشية فان من اشتغل بالصلاة ترك ما سواها وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة أي اذا أهمه أمر لجأ الى الصلاة وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما انه نعي له أخوه قثم وهو في سفر فاسترجع ثم تنحى عن الطريق فصلى ركعتين أطال فيهما السجود ثم قام الى راحلته وهو يقول استعينوا بالصبر والصلاة (وانها) يعني الصلاة وقيل الاستعانة (لكبيرة) أي ثقيلة (الا على الخاشعين) يعني المؤمنين وقيل الخائفين وقيل المطيعين المتواضعين لله وأصل الخشوع السكون فالخاشع ساكن الى الطاعة وقيل الخشوع الضراعة وأكثر ما تستعمل في الجوارح وانما كانت الصلاة ثقيلة على غير الخاشعين لان من لا يرجو لها ثوابا ولا يخاف على تركها عقابا فهي ثقيلة عليه وأما الخاشع الذي يرجو لها ثوابا ويخاف على تركها عقابا فهي سهلة عليه (الذين يظنون) أي يستيقنون وقيل يعلمون (انهم ملاقو ربهم) يعني في الآخرة وفيه دليل على ثبوت رؤية الله تعالى في الآخرة (وأنهم اليه راجعون) يعني بعد الموت فيجزيهم بأعمالهم ۞ قوله عز وجل (يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) انما أعاد هذا الكلام مرة أخرى توكيد للحجة عليهم وتحذيرا من ترك اتباع محمد صلى الله عليه وسلم (وأني فضلتكم على العالمين) يعني على عالمي زمانكم وهذا التفضيل وان كان في حق الآباء ولكن يحصل به الشرف للابناء (واتقوا يوما) أي واخشوا عذاب يوم (لا تجزي) أي لا تقضي (نفس عن نفس شيأ) يعني حقا لزمها وقيل معناه لا تنوب نفس عن نفس يوم القيامة ولا ترد عنها شيأ مما أصابها بل يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه (ولا تقبل منها شفاعة) أي في ذلك اليوم والمعنى لا تقبل الشفاعة اذا كانت النفس كافرة وذلك ان اليهود قالوا يشفع لنا آباؤنا فرد الله عليهم ذلك بقوله ولا تقبل منها شفاعة وقيل ان طاعة المطيع لا تقضي عن العاصي ما كان واجبا عليه وقيل معناه ان النفس الكافرة لو جاءت بشفيع لا يقبل منها (ولا يؤخذ منها عدل) أي فدية وهو مماثلة الشيء بالشيء (ولا هم ينصرون) أي لا يمنعون من العذاب * قوله عز وجل (واذ نجيناكم) أي واذكروا اذ خلصنا أسلافكم وأجدادكم فاعتدها نعمة ومنة عليهم لانهم نجوا بنجاة أسلافهم (من آل فرعون) أي من اتباعه وأهل دينه وفرعون اسم علم لمن كان يملك مصر من القبط والعماليق وفرعون هذا كان اسمه الوليد ابن مصعب بن الريان وعمر أكثر من أربعمائة سنة (يسومونكم) أي يكلفونكم ويذيقونكم (سوء العذاب) أي أشد العذاب وأسوأه وقيل يصرفونكم في العذاب مرة كذا ومرة كذا وذلك ان

فرعون جعل بني اسرائيل خدما وخولا وصنفهم في الاعمال أصنافا فصنف يبنون و يزرعون وصنفا يخدمونه ومن لم يكن في عمل وضع عليه الجزية وقال ابن وهب كانوا أصنافا في أعمال فرعون فذوو القوة يسلخون السواري من الجبال حتى تقرحت أيديهم وأعناقهم ودبرت ظهورهم من قطعها ونقلها وصنف ينقلون الحجارة والطين يبنون له القصور وطائفة يضربون اللبن و يطبخون الآجر وطائفة نجارون وحدادون والضعفة منهم يضرب عليهم الخراج يعني الجزية ضريبة يؤدونها كل يوم فمن غربت عليه الشمس قبل أن يؤدي ضريبته غلت يداه الى عنقه شهرا والنساء يغزلن الكتان و ينسجنه وقيل تفسير يسومونكم سوء العذاب ما بعده وهو قوله عز وجل (يذبحون أبناءكم و يستحيون نساءكم) أي يتركونهن أحياء وذلك ان فرعون رأى في منامه كأن نارا أقبلت من بيت المقدس وأحاطت بمصر وأحرقت كل قبطي بها ولم تتعرض لبني اسرائيل فهاله ذلك وسأل الكهنة عن رؤياه فقالوا يولد غلام يكون على يديه هلاكك وزوال ملكك فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد في بني اسرائيل ووكل بالقوابل فكن يفعلن ذلك حتى قتل في طلب موسى اثني عشر ألفا وقيل سبعين ألفا وأسرع الموت في مشيخة بني اسرائيل فدخل رؤساء القبط على فرعون وقالوا ان الموت قد وقع ببني اسرائيل فتذبح صغارهم و يموت كبارهم فيوشك أن يقع العمل علينا فأمر فرعون أن يذبحوا سنة و يتركوا سنة فولد هرون في السنة التي لا يذبح فيها وولد موسى في السنة التي يذبح فيها (وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) أي اختبار وامتحان والبلاء يطلق على النعمة العظيمة وعلى المحنة الشديدة ليختبر الله العبد على النعمة بالشكر وعلى الشدة بالصبر فان حمل قوله وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم على صنع فرعون كان من البلاء والمحنة وان حمل على الانجاء كان من النعمة ۞ قوله عز وجل (واذ فرقنا بكم البحر) أي فصلنا بعضه من بعض وجعلنا فيه مسالك بسبب دخولكم البحر وسمي بحرا لاتساعه

﴿ذكر سياق القصة﴾

وذلك أنه لما دنا هلاك فرعون أمر الله موسى عليه الصلاة والسلام أن يسري ببني اسرائيل من مصر بالليل فأمر موسى قومه أن يسرجوا في بيوتهم السرج الى الصبح وأن يستعيروا حلي القبط لتبقى لهم أو ليتبعوهم لاجل المال وأخرج الله كل ولد زنا كان في القبط من بني اسرائيل الى بني اسرائيل وكل ولد زنا كان في بني اسرائيل من القبط الى القبط حتى يرجع كل ولد الى أبيه وألقى الله الموت على القبط فمات كل بكري لهم فاشتغلوا بدفنهم وقيل بلغ ذلك فرعون فقال لا أخرج في طلبهم حتى يصيح الديك فما صاح تلك الليلة ديك وخرج موسى في بني اسرائيل وهم ستمائة ألف وعشرون ألفا لا يعدون ابن عشرين سنة لصغره ولا ابن ستين سنة لكبره وكانوا يوم دخلوا مصر مع يعقوب اثنين وسبعين انسانا ما بين رجل وامرأة فلما أرادوا السير ضرب عليهم التيه فلم يدروا أين يذهبون فدعا موسى مشيخة بني اسرائيل وسألهم عن ذلك فقالوا ان يوسف لما حضره الموت أخذ على اخوته عهدا أن لا يخرجوا من مصر حتى يخرجوه معهم فلذلك انسد علينا الطريق فسألهم عن موضع قبره فلم يعلموه فقام موسى ينادي أنشد الله كل من يعلم أين قبر يوسف الا أخبرني به ومن لم يعلم صمت أذناه عن سماع قولي فكان يمر بالرجل وهو ينادي فلا يسمع صوته حتى سمعته عجوز منهم فقالت له أرأيتك ان دللتك على قبره أتعطيني كل ما سألتك فأبى عليها وقال حتى أسأل ربي فأمره أن يعطيها سؤلها فقالت اني عجوز لا أستطيع المشي فاحملني معك وأخرجني من مصر هذا في الدنيا وأما في الآخرة فأسألك أن لا تنزل غرفة من غرف الجنة الا نزلتها معك قال نعم قالت انه في النيل في جوف الماء فادع الله أن يحسر عنه الماء فدعا الله فحسر عنه الماء ودعا الله أن يؤخر عنه طلوع الفجر حتى يفرغ من أمر يوسف ثم حفر موسى ذلك الموضع فاستخرجه وهو في صندوق من مرمر وحمله معه حتى دفنه بالشام فعند ذلك فتح لهم الطريق فسار موسى ببني اسرائيل هو في ساقتهم وهرون في مقدمتهم ثم خرج فرعون في طلبهم في ألف

(يذبحون أبناءكم) بيان لقوله يسومونكم ولذا ترك العاطف (و يستحيون نساءكم) يتركون بناتكم احياء للخدمة وانما فعلوا بهم ذلك لان الكهنة أنذروا فرعون بانه يولد مولود يزول ملكه بسببه كما أنذر نمرود فلم يغن عنهما اجتهادهما في التحفظ وكان ما شاء الله (وفي ذلكم بلاء) محنة ان أشير بذلكم الى صنع فرعون ونعمة ان أشير به الى الانجاء (من ربكم) صفة لبلاء (عظيم) صفة ثانية (واذ فرقنا) فصلنا بين بعضه و بعض حتى صارت فيه مسالك لكم وقرئ فرقنا أي فصلنا يقال فرق بين الشيئين وفرق بين الاشياء لان المسالك كانت اثني عشر على عدد الاسباط (بكم البحر) كانوا يسلكونه و يتفرق الماء عند سلوكهم فكانما فرق بهم أو فرقناه بسببكم أو فرقناه ملتبسا بكم فيكون في موضع الحال روي ان بني اسرائيل قالوا لموسى عليه السلام أين أصحابنا فنحن لا نرضى حتى نراهم فأوحى الله اليه ان قل بعصاك هكذا فقال بها على الحيطان فصارت فيها كوى فتراءوا وتسامعوا كلامهم

ألف وسبعمائة ألف وكان فيهم سبعون ألفا من دهم الخيل سوى سائر الشيات وقيل كان معهم مائة ألف حصان أدهم وكان فرعون فى الدهم وكان على مقدمة عسكره هامان وكان فرعون فى سبعة آلاف ألف وكان بين يديه مائة ألف ألف ناشب ومائة ألف ألف حراب ومائة ألف ألف معهم الاعمدة وسار بنو اسرائيل حتى وصلوا البحر والماء فى غاية الزيادة ونظروا حين أشرقت الشمس فاذاهم بفرعون فى جنوده فبقوا متحيرين وقالوا ياموسى أين ما وعدتنا به فكيف نصنع هذا فرعون خلفنا ان أدركنا قتلنا والبحر أمامنا ان دخلناه غرقنا فاوحى الله الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه فلم يطعه فاوحى الله اليه ان كنه فضربه وقال انفلق يا أباخالد فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وظهر فيه اثنا عشر طريقا لكل سبط منهم طريق وارتفع الماء بين كل طريقين كالجبل وأرسل الله الريح والشمس على قعر البحر حتى صارت يبسا وخاضت بنو اسرائيل البحر كل سبط فى طريق عن جوانبهم الماء كالجبال الضخم لا يرى بعضهم بعضا فخافوا وقال كل سبط منهم قد هلك اخواننا فاوحى الله الى جبال الماء أن تشبكي فصار الماء كالشباك يرى بعضهم بعضا ويسمع بعضهم كلام بعض حتى عبروا البحر سالمين فذلك قوله تعالى واذ فرقنا بكم البحر (فأنجيناكم) يعنى من فرعون (وأغرقنا آل فرعون) وذلك أن فرعون لما وصل الى البحر فرآه منفلقا قال لقومه انظروا الى البحر كيف انفلق من هيبتى حتى أدرك عبيدى الذين أبقوا منى ادخلوا البحر فهاب قومه أن يدخلوا وقيل قالوا له ان كنت ربا فادخل البحر كما دخل موسى وكان فرعون على حصان أدهم ولم يكن فى خيل فرعون فرس أنثى فجاء جبريل عليه السلام على فرس أنثى وديق فتقدمه وخاض البحر فلما شم أدهم فرعون ريحها اقتحم البحر فى أثرها ولم يملك فرعون من أمره شيأ واقتحمت الخيول خلفه فى البحر وجاء ميكائيل خلفهم يسوقهم وهو على فرس ويقول الحقوا بأصحابكم حتى صاروا كلهم فى البحر وخرج جبريل من البحر وهم أولهم بالخروج فأمر الله البحر أن يأخذهم فالتطم عليهم وأغرقهم أجمعين وكان بين طرفى البحر أربع فراسخ وهو بحر القلزم وهو على طرف من بحر فارس وقيل هو بحر من وراء مصر يقال له اساف وكان اغراق آل فرعون بمرأى من بنى اسرائيل فذلك قوله (وأنتم تنظرون) يعنى الى هلاكهم وقيل الى مصارعهم وقيل ان البحر قذفهم حتى نظروا اليهم ووافق ذلك يوم عاشوراء فصام موسى عليه السلام ذلك اليوم شكر الله تعالى ۞ قوله عزوجل (واذواعدنا) من المواعدة وهو من الله الامر ومن موسى القبول وذلك ان الله وعده بمجىء الميقات (موسى) اسم عبرى معرب فموسى بالعبرية الماء والشجر سمى موشى لانه أخذ من بين الماء والشجر ثم قلبت الشين سينا فسمى موسى (أربعين ليلة) أى انقضاء أربعين ليلة ثلاثين من ذى القعدة وعشر من ذى الحجة وقرن التاريخ بالليل دون النهار لان الاشهر العربية وضعت على سير القمر وقيل لان الظلمة أقدم من الضوء

﴿ ذكر القصة فى ذلك ﴾

قال العلماء لما أنجى الله بنى اسرائيل من البحر وأغرق عدوهم ولم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينتهون اليهما وعد الله موسى أن ينزل عليه التوراة فقال موسى لقومه انى ذاهب الى ميقات ربى لآتيكم منه بكتاب فيه بيان ما تأتون وما تذرون ووعدهم أربعين ليلة واستخلف عليهم أخاه هرون فلما جاء الموعد أتاه جبريل عليه الصلاة والسلام على فرس يقال له فرس الحياة لا يصيب شيأ الا حيي ليذهب بموسى الى ميقات ربه فرآه السامرى وكان صائغا اسمه ميخا وقال ابن عباس اسمه موسى بن ظفر وقيل كان من أهل باجرا وقيل كرمان وقيل من بنى اسرائيل من قبيلة يقال لها السامرة وكان منافقا يظهر الاسلام وكان من قوم يعبدون البقر فلما رأى جبريل على ذلك الفرس ورأى موضع قدم الفرس يخضر فى الحال فقال فى نفسه ان لهذا لشأنا وقيل رأى جبريل حين دخل البحر قدام فرعون فقبض قبضة من تراب فرسه وألقى فى روعه انه اذا ألقى فى شئ حيي فلما ذهب موسى الى الميقات ومكث على الطور أربعين ليلة وأنزل الله عليه التوراة فى الالواح وكانت الالواح

(فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون) الى ذلك وتشاهدونه ولا تشكون فيه وانما قال (واذواعدنا موسى) لان الله تعالى وعده الوحى ووعده هو المجىء للميقات الى الطور وعدنا حيث كان بمصرى لما دخل بنو اسرائيل مصر بعد هلاك فرعون ولم يكن لهم كتاب ينتهون اليه وعد الله تعالى موسى أن ينزل عليه التوراة وضرب له ميقاتا ذا القعدة وعشر ذى الحجة وقال (أربعين ليلة) لان الشهور غررها بالليالى وأربعين مفعول ثان لواعدنا لاظرف لانه ليس معناه واعدناه فى أربعين ليلة

من زوجها وقرابته نجيا وأسمعه صرير الاقلام وقيل انه بقى أربعين ليلة لم يحدث فيها حدثا حتى هبط من الطور وكانت بنو اسرائيل قد استعاروا حليا كثيرا من القبط حين أرادوا الخروج من مصر بعلة عرس لهم فلما هلك فرعون وقومه بقى ذلك الحلى فى أيديهم فلما فصل موسى قال لهم السامرى ان الحلى الذى استعرتموه من القبط غنيمة لا تحل لكم فاحفروا حفيرة وادفنوه فيها حتى يرجع موسى ويرى فيها رأيه وقيل ان هرون أمرهم بذلك فلما اجتمعت الحلى أخذها السامرى وصاغها عجلا فى ثلاثة أيام ثم ألقى فيها القبضة التى أخذها من تراب فرس جبريل عليه الصلاة والسلام فصار عجلا من ذهب مرصعا بالجواهر وخار خورة وقيل كان يخور ويمشى فقال لهم السامرى هذا الهكم واله موسى فنسى أى فتركه ههنا وخرج يطلبه وكان بنو اسرائيل قد أخلفوا الوعد فعدوا اليوم مع الليلة يومين فلما مضى عشرون يوما ولم يرجع موسى وقعوا فى الفتنة وقيل كان موسى وعدهم ثلاثين ليلة ثم زيدت العشرة فكانت فتنتهم فى تلك العشرة فلما مضت الثلاثون ولم يرجع موسى ظنوا أنه قد مات ورأوا العجل وسمعوا قول السامرى فعكف عليه ثمانية آلاف رجل يعبدونه وقيل عبده كلهم الا هرون مع اثنى عشر ألف رجل وهذا أصح فذلك قوله عز وجل (ثم اتخذتم العجل) يعنى الها (من بعده) أى من بعد موسى (وأنتم ظالمون) أى وأنتم ضارون لانفسكم بالمعصية حيث وضعتم العبادة فى غير موضعها (ثم عفونا عنكم) أى محونا ذنوبكم وتجاوزنا عنكم (من بعد ذلك) أى من بعد عبادتكم العجل (لعلكم تشكرون) أى لكى تشكروا عفوى عنكم وحسن صنيعى اليكم وأصل الشكر هو تصور النعمة واظهارها ويضاده الكفر وهو نسيان النعمة وسترها والشكر على ثلاثة أضرب شكر القلب وهو تصور النعمة وشكر اللسان وهو الثناء على النعمة وشكر بسائر الجوارح وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقها وقيل الشكر هو الطاعة بجميع الجوارح فى السر والعلانية وقيل حقيقة الشكر العجز عن الشكر وحكى أن موسى عليه الصلاة والسلام قال الهى أنعمت على النعم السوابغ وأمرتنى بالشكر وانما شكرى اياك نعمة منك فأوحى الله تعالى اليه يا موسى تعلمت العلم الذى لا فوقه علم حسبى من عبدى أن يعلم أن ما به من نعمة فهى منى وقال داود عليه الصلاة والسلام سبحان من جعل اعتراف العبد بالعجز عن شكره شكرا كما جعل اعترافه بالعجز عن معرفته معرفة وقال الفضيل شكر كل نعمة أن لا يعصى الله بعدها بتلك النعمة وقيل شكر النعمة ذكرها وقيل شكر النعمة أن لا يراها البتة ويرى المنعم وقيل الشكر لمن فوقك بالطاعة والثناء ولنظيرك بالمكافأة ولمن دونك بالاحسان والافضال قوله عز وجل (واذ آتينا موسى الكتاب) يعنى التوراة (والفرقان) قيل هو نعت الكتاب والواو زائدة والمعنى الكتاب المفرق بين الحلال والحرام والكفر والايمان وقيل الفرقان هو النصر على الاعداء والواو أصلية (لعلكم تهتدون) يعنى بالتوراة (واذ قال موسى لقومه) يعنى الذين عبدوا العجل (يا قوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل) يعنى الها تعبدونه فكأنهم قالوا فما نصنع قال (فتوبوا الى بارئكم) أى ارجعوا الى خالقكم بالتوبة قالوا كيف نتوب قال (فاقتلوا أنفسكم) يعنى ليقتل البرىء منكم المجرم فان قلت التوبة عبارة عن الندم على فعل القبيح والعزم على أن لا يعود اليه وهذا مغاير للقتل فكيف يجوز تفسير التوبة بالقتل قلت ليس المراد تفسير التوبة بالقتل بل بيان ان توبتهم لا تتم الا بالقتل وانما كان كذلك لان الله أوحى الى موسى عليه الصلاة والسلام ان توبة المرتد لا تتم الا بالقتل فان قلت التائب من الردة لا يقتل فكيف استحقوا القتل وقد تابوا من الردة قلت ذلك مما تختلف فيه الشرائع فلعل شرع موسى كان يقتضى أن يقتل التائب من الردة اما عاما فى حق الكل أو خاصا فى حق الذين عبدوا العجل (ذلكم خير لكم عند بارئكم) يعنى القتل وتحمل هذه الشدة لان الموت لا بد منه فلما أمرهم موسى بالقتل قالوا نصبر لامر الله تعالى فجلسوا محتبين من

الى الطور (وأنتم ظالمون) أى بوضعكم العبادة غير موضعها والجملة حال أى عبدتموه ظالمين (ثم عفونا عنكم) محونا ذنوبكم عنكم (من بعد ذلك) من بعد اتخاذكم العجل (لعلكم تشكرون) لكى تشكروا النعمة فى العفو عنكم (واذ آتينا موسى الكتاب والفرقان) يعنى الجامع بين كونه كتابا منزلا وفرقانا يفرق بين الحق والباطل وهو التوراة ونظيره رأيت الغيث والليث تريد الرجل الجامع بين الجود والجراءة أو التوراة والبرهان الفارق بين الكفر والايمان من العصا واليد وغيرهما من الآيات أو الشرع الفارق بين الحلال والحرام وقيل الفرقان انفلاق البحر أو النصر الذى فرق بينه وبين عدوه (لعلكم تهتدون) لكى تهتدوا (واذ قال موسى لقومه) للذين عبدوا العجل (يا قوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل) معبودا (فتوبوا الى بارئكم) هو الذى خلق الخلق بريئا من التفاوت وفيه تقريع لما كان منهم من ترك عبادة العالم الحكيم الذى برأهم أبرياء من التفاوت الى عبادة البقر الذى هو مثل فى الغباوة والبلادة (فاقتلوا أنفسكم) قيل هو على الظاهر وهو البخع وقيل معناه قتل بعضهم بعضا وقيل أمر من لم يعبد العجل أن يقتلوا العبدة فقتل سبعون ألفا (ذلكم) التوبة والقتل (خير لكم عند بارئكم) من الاصرار على المعصية

الحبوة

(فتاب عليكم انه هو التواب) المفضال بقبول التوبة وان كثرت (الرحيم) بعفو الحوبة وان كبرت والفاء الاولى للتسبيب لان الظلم سبب التوبة والثانية للتعقيب لان المعنى فاعزموا على التوبة فاقتلوا أنفسكم اذ الله تعالى جعل توبتهم قتل أنفسهم والثالثة متعلقة بشرط محذوف كأنه قال فان فعلتم فقد تاب عليكم (واذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) عيانا وانتصابها على المصدر كما تنصب القرفصاء بفعل الجلوس أو على الحال من نرى أي ذوي جهرة (فأخذتكم الصاعقة) أي الموت قيل هي نار جاءت من السماء فأحرقتهم روي ان السبعين الذين كانوا مع موسى عليه السلام عند الانطلاق الى الجبل قالوا له نحن لم نعبد العجل كما عبده هؤلاء فأرنا الله جهرة فقال موسى سألته ذلك فاباه على فقالوا انك رأيت الله تعالى فلن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فبعث الله عليهم صاعقة فاحرقتهم وتعلقت المعتزلة بهذه الآية في نفي الرؤية لانه لو كان جائز الرؤية لما عذبوا بسؤال ما هو جائز الثبوت قلنا انما عوقبوا بكفرهم لان قولهم انك رأيت الله فلن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة كفر منهم ولانهم امتنعوا عن الايمان بموسى بعد ظهور معجزته حتى يروا ربهم جهرة والايمان بالانبياء واجب بعد ظهور معجزاتهم ولا يجوز اقتراح الآيات عليهم ولانهم لم يسألوا سؤال استرشاد بل سؤال تعنت وعناد (وأنتم تنظرون) اليها حين نزلت

(ثم بعثناكم) أحييناكم وأصله الاثارة (من بعد موتكم لعلكم تشكرون) نعمة البعث بعد الموت (وظللنا عليكم الغمام) جعلنا الغمام يظلكم وذلك في التيه سخر الله لهم السحاب يسير بسيرهم يظلهم من الشمس وينزل بالليل عمود من نار يسيرون في ضوئه وثيابهم لا تتسخ ولا تبلى (وأنزلنا عليكم المن) الترنجبين وكان ينزل عليهم مثل الثلج من طلوع الفجر الى طلوع الشمس لكل انسان صاع (والسلوى)

الحبوة وهو ضم الساق الى البطن بثوب وقيل لهم من حل حبوته أو مد طرفه الى قاتله أو اتقاه بيد أو رجل فهو ملعون مردودة توبته وأصلت القوم الخناجر والسيوف وأقبلوا عليهم فكان الرجل يرى ابنه وأباه وأخاه وقريبه وصديقه وجاره فيرق له فما يمكنهم المضي لامر الله تعالى فقالوا ياموسى كيف نفعل فأرسل الله تعالى عليهم سحابة سوداء لا يبصر بعضهم بعضا فكانوا يقتلون الى المساء فلما كثر القتل دعا موسى وهرون الله وبكيا وتضرعا اليه وقالا يارب هلكت بنو اسرائيل البقية البقية فكشف الله السحابة عنهم وأمرهم أن يكفوا عن القتل فتكشفت عن ألوف من القتلى قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان عدد القتلى سبعين ألفا فاشتد ذلك على موسى فأوحى الله اليه أما يرضيك أن أدخل القاتل والمقتول الجنة فكان من قتل منهم شهيدا ومن بقي مكفرا عنه ذنوبه ۞ فذلك قوله عز وجل (فتاب عليكم) أي فعلتم ما أمرتم به فتجاوز عنكم (انه هو التواب) أي الرجاع بالمغفرة القابل للتوبة (الرحيم) بخلقه ۞ قوله عز وجل (واذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك) أي لن نصدقك (حتى نرى الله جهرة) أي عيانا وذلك ان الله عز وجل أمر موسى أن يأتيه في ناس من بني اسرائيل يعتذرون اليه من عبادة العجل فاختار موسى من قومه سبعين رجلا من خيارهم وقال لهم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم ففعلوا وخرج بهم موسى الى طور سيناء لميقات ربه فقالوا لموسى اطلب لنا أن نسمع كلام ربنا قال افعل فلما دنا من الجبل وقع عليه عمود الغمام وتغشى الجبل كله فدخل موسى في الغمام وقال للقوم ادنوا حتى دخلوا تحت الغمام وخروا سجدا وكان موسى اذا كلمه ربه وقع على وجهه نور ساطع فلا يستطيع أحد أن ينظر اليه فضرب دونهم الحجاب وسمعوه يكلم موسى يأمره وينهاه وأسمعهم الله تعالى اني أنا الله لا اله الا أنا ذو بكة أخرجتكم من أرض مصر بيد شديدة فاعبدوني ولا تعبدوا غيري فلما فرغ موسى وانكشف الغمام أقبل اليهم فقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة وانما قالوا جهرة توكيدا للرؤية لئلا يتوهم متوهم ان المراد بالرؤية العلم (فأخذتكم الصاعقة) قيل هي الموت وفيه ضعف لان قوله وأنتم تنظرون يرده اذ لو كان المراد منها الموت لامتنع كونهم ناظرين اليها وقيل ان الصاعقة هي سبب الموت واختلفوا في ذلك السبب فقيل ان نارا نزلت من السماء فأحرقتهم وقيل جاءت صيحة من السماء وقيل أرسل جنودا من الملائكة فسمعوا بحسهم فخروا صعقين (وأنتم تنظرون) أي ينظر بعضكم الى بعض كيف يأخذه الموت فلما هلكوا جعل موسى يبكي ويتضرع ويقول الهي ماذا أقول لبني اسرائيل اذا أتيتهم وقد هلك خيارهم لو شئت أهلكتهم من قبل واياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا فلم يزل يناشد ربه حتى أحياهم الله رجلا بعد رجل بعدما ماتوا يوما وليلة ينظر بعضهم الى بعض كيف يحيون فذلك قوله تعالى (ثم بعثناكم) أي أحييناكم (من بعد موتكم) أي لتستوفوا بقية آجالكم وأرزاقكم ولو أنهم كانوا قد ماتوا لانقضاء آجالهم لم يبعثوا الى يوم القيامة (لعلكم تشكرون) ۞ قوله عز وجل (وظللنا عليكم الغمام) يعني في التيه يقيكم حر الشمس وذلك انه لم يكن لهم في التيه شيء يسترهم ولا يستظلون به فشكوا الى موسى فأرسل الله غماما أبيض رقيقا يسترهم من الشمس وجعل لهم عمودا من نور يضيء لهم بالليل اذا لم يكن قمر (وأنزلنا عليكم المن والسلوى) أي في التيه والاكثرون على أن المن هو الترنجبين وقيل هو شيء كالصمغ يقع على الشجر طعمه كالشهد وقال وهب هو الخبز الرقاق وأصل المن هو ما يمن الله به من غير تعب (ق) عن سعيد بن زيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الكماة من المن وماؤها شفاء

كان يبعث الله عليهم الجنوب فتحشر عليهم السلوى وهي السماني فيذبح الرجل منها ما يكفيه وقلنا لهم (كلوا من طيبات) لذيذات أو حلالات (ما رزقناكم وما ظلمونا) يعني فظلموا بأن كفروا هذه النعم وما ظلمونا (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أنفسهم مفعول يظلمون وهو خبر كان (وإذ قلنا) لهم بعد ما خرجوا من التيه (ادخلوا هذه القرية) أي بيت المقدس أو أريحاء والقرية المجتمع من قريب لأنها تجمع الخلق أمروا بدخولها بعد التيه (فكلوا منها) من طعام القرية وثمارها (حيث شئتم رغدا) واسعا (وادخلوا الباب) باب القرية أو باب القبة التي كانوا يصلون إليها وهم لم يدخلوا بيت المقدس (٥٦) في حياة موسى عليه السلام وأعاد دخلوا الباب في حياته ودخلوا بيت المقدس بعده (سجدا)

حال وهو جمع ساجد أمروا بالسجود عند الانتهاء إلى الباب شكرا لله تعالى وتواضعا له (وقولوا حطة) فعلة من الحط كالجلسة وهي خبر مبتدأ محذوف أي مسئلتنا حطة أو أمرك حطة والأصل النصب وقد قرئ به بمعنى حط عنا ذنوبنا حطة وإنما رفعت لتعطي معنى الثبات وقيل أمرنا حطة أي أن نحط في هذه القرية ونستقر فيها وعن علي رضي الله عنه هو بسم الله الرحمن الرحيم وعن عكرمة هو لا إله إلا الله (نغفر لكم خطاياكم) جمع خطيئة وهي الذنب يغفر مدني تغفر شامي (وسنزيد المحسنين) أي من كان محسنا منكم كانت تلك الكلمة سببا في زيادة ثوابه ومن كان مسيئا كانت له توبة ومغفرة (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم) فيه حذف وتقديره فبدل الذين ظلموا بالذي قيل لهم قولا

غير الذي قيل لهم فبدل يتعدى إلى مفعول واحد بنفسه وإلى آخر بالباء فالذي مع الباء متروك والذي بغير باء موجود و يخرجون
يعني وضعوا مكان حطة قولا غيرها أي أمروا بقول معناه التوبة والاستغفار فخالفوه إلى قول ليس معناه معنى ما أمروا به ولم يمتثلوا أمر الله وقيل قالوا مكان حطة حنطة وقيل قالوا بالنبطية حطا سمقاثا أي حنطة حمراء استهزاء منهم بما قيل لهم وعدولا عن طلب ما عند الله إلى طلب ما يشتهون من أعراض الدنيا (فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا) عذابا وفي تكرير الذين ظلموا زيادة في تقبيح أمرهم وإيذان بأن إنزال الرجز عليهم لظلمهم (من السماء) صفة لرجزا (بما كانوا يفسقون) بسبب فسقهم روي أنه مات منهم في ساعة بالطاعون أربعة وعشرون ألفا وقيل

للعين ومعنى الحديث أن الكمأة شيء أنبته الله من غير سعي أحد ولا مؤنة وهو بمنزلة المن الذي كان ينزل على بني إسرائيل وقوله وماؤها شفاء للعين معناه أن يخلط مع الأدوية فينتفع به لا أنه يقطر ماؤها بحتا في العين وقيل إن تقطيره في العين ينفع لكن لوجع مخصوص وليس يوافق كل وجع في العين وكان هذا المن ينزل على أشجارهم في كل ليلة من وقت السحر إلى طلوع الشمس كالثلج لكل إنسان صاع فقالوا يا موسى قد قتلنا هذا المن بحلاوته فادع لنا ربك أن يطعمنا اللحم فأرسل الله عليهم السلوى وهو طائر يشبه السماني وقيل هو السماني بعينه فكان الرجل يأخذ ما يكفيه يوما وليلة فإذا كان يوم الجمعة يأخذ ما يكفيه اليومين لأنه لم يكن ينزل يوم السبت شيء (كلوا) أي وقلنا لهم كلوا (من طيبات) أي حلالات (ما رزقناكم) أي ولا تدخروا لغد فخالفوا وادخروا فدود وفسد فقطع الله عنهم ذلك (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا بنو إسرائيل لم يخبث الطعام ولم يخنز اللحم ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر قوله لم يخنز اللحم لم ينتن ولم يتغير (وما ظلمونا) أي وما بخسوا حقنا (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) يعني بأخذهم أكثر مما حد لهم فاستحقوا بذلك عذابي وقطع مادة الرزق الذي كان ينزل عليهم بلا مؤنة ولا تعب في الدنيا ولا حساب في العقبى ۞ قوله عز وجل (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية) سميت قرية لاجتماع الناس فيها قال ابن عباس هي أريحاء قرية الجبارين وقيل كان فيها قوم من بقية عاد يقال لهم العمالقة ورأسهم عوج بن عنق فعلى هذا يكون القائل يوشع بن نون لأنه هو الذي فتح أريحاء بعد موت موسى لأن موسى مات في التيه وقيل هي بيت المقدس وعلى هذا فيكون القائل موسى والمعنى إذا خرجتم من التيه بعد مضي الأربعين سنة ادخلوا بيت المقدس (فكلوا منها حيث شئتم رغدا) أي موسعا عليكم (وادخلوا الباب) فمن قال إن القرية أريحاء قال ادخلوا من أي باب كان من أبوابها وكان لها سبعة أبواب ومن قال إن القرية هي بيت المقدس قال هو باب حطة (سجدا) منحنين خضعا متواضعين كالراكع ولم يرد به نفس السجود (وقولوا حطة) أي حط عنا خطايانا أمروا بالاستغفار وقال ابن عباس قولوا لا إله إلا الله لأنها تحط الذنوب والخطايا على تقدير مسئلتنا (نغفر لكم خطاياكم) أي نسترها عليكم من الغفر وهو الستر لأن المغفرة تستر الذنوب (وسنزيد المحسنين) يعني ثوابا (فبدل) أي فغير (الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم) أي قالوا قولا غير ما قيل لهم وذلك أنهم بدلوا قول الحطة بالحنطة وقالوا بلسانهم حطانا سمقاثا أي حنطة حمراء وذلك استخفافا منهم بأمر الله تعالى وقيل طوطئ لهم الباب ليخفضوا رؤوسهم فأبوا ذلك ودخلوا زحفا على أستاههم فخالفوا في الفعل كما خالفوا في القول وبدلوه (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة فبدلوا فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا حبة في شعرة (فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء) يعني عذابا من السماء قيل أرسل الله عليهم طاعونا فهلك منهم في ساعة واحدة سبعون ألفا (بما كانوا يفسقون) أي يعصون

سبعون ألفا (واذ استسقى موسى لقومه) موضع اذ نصب كانه قيل واذكروا اذ استسقى أى استدعى أن يسقى قومه (فقلنا اضرب بعصاك الحجر) عطشوا فى التيه فدعا لهم موسى بالسقيا فقيل له اضرب بعصاك الحجر واللام للعهد والاشارة الى حجر معلوم فقد روى انه حجر طورى حمله معه وكان مربعا له أربعة أوجه كانت تنبع من كل وجه ثلاث أعين لكل سبط عين وكانوا ستمائة ألف وسعة المعسكر اثنا عشر ميلا أو للجنس أى اضرب الشئ الذى يقال له الحجر وهذا أظهر فى الحجة وأبين فى القدرة (فانفجرت) الفاء متعلقة بمحذوف أى فضرب فانفجرت أى سالت بكثرة أو فان ضربت فقد انفجرت وهى على هذا فاء فصيحة لا تقع الا فى كلام بليغ (منه اثنتا عشرة عينا) على عدد الاسباط وقرئ بكسر الشين وفتحها وهما لغتان وعينا تمييز (قد علم كل أناس) كل سبط (مشربهم) عينهم التى يشربون منها وقلنا لهم (كلوا) من المن والسلوى (واشربوا) من ماء العيون (من رزق الله) أى الكل مما رزقكم الله (ولا تعثوا فى الارض) لا تفسدوا فيها والعيث أشد الفساد (مفسدين) حال مؤكدة أى لا تتمادوا فى الفساد فى حال فسادكم لانهم كانوا متمادين فيه (واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد) هو ما رزقوا فى التيه من المن والسلوى وانما قالوا على طعام واحد وهما طعامان لانهم أرادوا بالواحد ما لا يتبدل ولو كان على مائدة الرجل ألوان عدة يداوم عليها كل يوم لا يبدلها يقال لا يأكل فلان الا طعاماً واحدا ويراد بالوحدة نفى التبدل والاختلاف أو أرادوا أنهما ضرب واحد لانهما معا من طعام أهل التلذذ والترف وكانوا من أهل الزراعات فارادوا ما ألفوا من البقول والحبوب وغير ذلك (فادع لنا ربك) سله وقل له أخرج لنا (يخرج لنا) يظهر لنا ويوجد (مما تنبت الارض من بقلها) هو ما أنبتته الارض من الخضر والمراد به أطايب البقول كالنعناع والكرفس والكراث ونحوها مما يأكل الناس (وقثائها) يعنى الخيار (وفومها) هو الحنطة أو الثوم لقراءة ابن مسعود وثومها (وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذى هو أدنى) أقرب منزلة وأدون مقدارا والدنو والقرب يعبر بهما عن قلة المقدار (بالذى هو خير) أرفع وأجل

ويخرجون عن أمر الله تعالى ۞ قوله عز وجل (واذ استسقى موسى لقومه) أى طلب السقيا لقومه وذلك انهم عطشوا فى التيه فسألوا موسى أن يستسقى لهم ففعل فاوحى الله اليه كما قال مبينا (فقلنا اضرب بعصاك) وكانت العصا من آس الجنة طولها عشرة أذرع على طول موسى عليه الصلاة والسلام ولها شعبتان تتقدان فى الظلمة نورا واسمها عليق وقيل نبعة حملها آدم معه من الجنة فتوارثها الانبياء حتى وصلت الى شعيب فاعطاها موسى (الحجر) قال وهب لم يكن حجرا معينا بل كان موسى يضرب أى حجر كان فيتفجر عيونا لكل سبط عين وكانوا اثنى عشر سبطا وقيل كان حجرا معينا بدليل انه عرفه بالالف واللام قال ابن عباس كان حجرا خفيفا مربعا قدر رأس الرجل وكان موسى عليه الصلاة والسلام يضعه فى مخلاة فاذا احتاجوا الى الماء وضعه وضربه بعصاه وقيل كان للحجر أربعة وجوه فى كل وجه ثلاثة أعين لكل سبط عين وقيل كان من الرخام وقيل كان من الكذان وهى الحجارة اللينة وقيل هو الحجر الذى وضع عليه موسى ثوبه ليغتسل ففر به فاتاه جبريل وقال ان الله يأمرك أن ترفع هذا الحجر فلى فيه قدرة ولك فيه معجزة فوضعه فى مخلاة فلما سألوه السقيا قيل اضرب بعصاك الحجر فكان اذا احتاجوا الى الماء وضعه وضربه بعصاه فتتفجر منه عيون لكل سبط عين تسيل اليهم فى جدول وكان اذا أراد حمله ضربه بعصاه فيذهب الماء وييبس الحجر فذلك قوله تعالى (فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا) يعنى على عدد أسباط بنى اسرائيل والمعنى فضربه فانفجرت قال المفسرون انفجرت وانبجست بمعنى واحد وقيل انبجست أى عرقت وانفجرت أى سالت (قد علم كل أناس مشربهم) أى موضع شربهم لا يدخل سبط على غيره (كلوا واشربوا) أى وقلنا لهم كلوا واشربوا (من رزق الله) يعنى المن والسلوى والماء فهذا كله من رزق الله كان يأتيهم بلا مشقة ولا كلفة (ولا تعثوا فى الارض مفسدين) العيث أشد الفساد فى هذه الآية معجزة عظيمة لموسى عليه الصلاة والسلام حيث انفجر من الحجر الصغير ما روى منه الجمع الكثير ومعجزة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أعظم لانه انفجر الماء من بين أصبعيه فروى منه الجم الغفير لان انفجار الماء من الدم واللحم أعظم من انفجاره من الحجر قوله عز وجل (واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد) وذلك انهم سئموا من المن والسلوى وملوه فاشتهوا عليه غيره لان المواظبة على الطعام الواحد تكون سببا لنقصان الشهوة فان قلت هما طعامان فما لهم قالوا على طعام واحد قلت أرادوا بالواحد ما لا يختلف ولا يتبدل ولو كان على مائدة الرجل عدة ألوان يداوم عليها فى كل يوم لا يبدلها كانت بمنزلة الطعام الواحد (فادع لنا ربك) أى فاسأل لنا ربك (يخرج لنا مما تنبت الارض من بقلها وقثائها وفومها) قال ابن عباس الفوم الخبز وقيل هو الحنطة وقيل هو الثوم (وعدسها وبصلها) انما طلبوا هذه الانواع لانها تعين على تقوية الشهوة أو لانهم ملوا من البقاء فى التيه فسألوا هذه الاطعمة التى لا توجد الا فى البلاد وكان غرضهم الوصول الى البلاد لا تلك الاطعمة (قال) يعنى موسى (أتستبدلون الذى هو أدنى) أى الذى هو أخس وأردأ وهو الذى طلبوه (بالذى هو خير) يعنى بالذى هو أشرف وأفضل وهو ما هم فيه

(اهبطوا مصرا) من الامصار أى انحدروا اليه من التيه و بلاد مابين بيت المقدس الى قنسرين وهى اثناعشر فرسخا فى ثمانية فراسخ أومصر فرعون وانما صرفه مع وجود السببين وهما التأنيث والتعريف لارادة البلد أولسكون وسطه كنوح ولوط وفيهما العجمة والتعريف (فان لكم) فيها (ماسألتم) أى فان الذى سألتم يكون فى الامصار لافى التيه (وضربت عليهم الذلة والمسكنة) أى الهوان والفقر يعنى جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم فهم فيها كما يكون فى القبة من ضربت عليه أوألصقت بهم حتى لزمتهم ضربة لازب كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه فاليهود صاغرون أذلاء أهل مسكنة وفقر اما على الحقيقة واما لتصاغرهم وتفاقرهم خيفة أن تضاعف عليهم الجزية عليهم الذلة حمزة وعلى وكذا كل ما كان قبل الهاء ياء ساكنة وبكسر الهاء والميم أبو عمرو وبكسر الهاء وضم الميم غيرهم (وباؤا بغضب من الله) من قولك باء فلان بفلان اذا كان حقيقة بان يقتل به لمساواته له أى صاروا أحقاء بغضبه وعن الكسائى حقوا (ذلك) اشارة الى ماتقدم من ضرب الذلة والمسكنة والخلافة بالغضب (بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين) بالهمزة نافع وكذا بابه أى ذلك بسبب كفرهم وقتلهم الانبياء وقد قتلت اليهود شعياء وزكريا ويحيى صلوات الله عليهم والنبى من النبا لانه يخبر عن الله تعالى فعيل بمعنى مفعل أو بمعنى مفعل أومن نبا أى ارتفع والنبوة المكان المرتفع (بغير الحق) عندهم أيضا فانهم لو أنصفوا لم يذكروا شيأ يستحقون به القتل عندهم فى التوراة وهو فى محل النصب على الحال من الضمير فى يقتلون أى يقتلونهم مبطلين (ذلك) تكرار للاشارة (بما عصوا وكانوا يعتدون) بسبب ارتكابهم أنواع المعاصى واعتدائهم حدود الله فى كل شئ مع كفرهم بآيات الله وقتلهم الانبياء وقيل هو اعتداؤهم فى السبت ويجوز أن يشار بذلك الى الكفر وقتل الانبياء على أن ذلك بسبب عصيانهم واعتدائهم لانهم انهمكوا فيهما وغلوا حين قست قلوبهم فجسروا على جحود الآيات وقتلهم الانبياء أوذلك الكفر والقتل مع ماعصوا (ان الذين آمنوا) بالسنتهم من غير مواطأة القلوب وهم المنافقون (والذين هادوا) تهودوا يقال هاد يهود وتهود اذا دخل فى اليهودية وهو هائد والجمع هود (والنصارى) جمع نصران كندمان وندامى يقال رجل نصران وامرأة نصرانة والياء فى نصرانى للمبالغة كالتى فى أحمرى سموا نصارى لانهم نصروا المسيح (والصابئين) الخارجين من دين مشهور الى غيره من صبأ اذا خرج من الدين وهم قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة وقيل هم يقرؤن الزبور

(اهبطوا مصرا) يعنى ان أبيتم الا ذلك فأتوا مصرا من الامصار وقيل بل هو مصر البلد الذى كانوا فيه ودخول التنوين عليه كدخوله على نوح ولوط والقول هو الاول (فان لكم ماسألتم) يعنى من نبات الارض (وضربت عليهم الذلة) أى جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم والزموا الذل والهوان وقيل الذلة الجزية وزى اليهودية وفيه بعد لانه لم تكن ضربت عليهم الجزية بعد (والمسكنة) أى الفقر والفاقة وسمى الفقير مسكينا لان الفقر أسكنه وأقعده عن الحركة فترى اليهود وان كانوا أغنياء مياسير كأنهم فقراء فلا ترى أحدا من أهل الملل أذل ولا أحرص على المال من اليهود (وباؤا) أى رجعوا ولا يقال باء الا بشر (بغضب من الله) وغضب الله ارادة الانتقام ممن عصاه (ذلك) أى الغضب (بانهم كانوا يكفرون بآيات الله) أى بصفة محمد صلى الله عليه وسلم وآية الرجم التى فى التوراة ويكفرون بالانجيل والقرآن (ويقتلون النبيين) النبى معناه المخبر من أنبأ ينبئ وقيل هو بمعنى الرفيع مأخوذ من النبوة وهو المكان المرتفع (بغير الحق) أى بغير جرم فان قلت قتل الانبياء لا يكون الا بغير حق فما فائدة ذكره قلت ذكره وصفا للقتل والقتل يوصف تارة بالحق وهو ما أمر الله به وتارة بغير الحق وهو قتل العدوان فهو كقوله قل رب احكم بالحق فالحق وصف للحكم لان حكمه ينقسم الى حق وجور يروى ان اليهود قتلت سبعين نبيا فى أول النهار وقامت الى سوق بقلها فى آخره وقتلوا زكريا ويحيى وشعياء وغيرهم من الانبياء (ذلك بما عصوا) أى ذلك القتل والكفر بما عصوا أمرى (وكانوا يعتدون) أى يتجاوزون أمرى ويرتكبون محارمى ۞ قوله عز وجل (ان الذين آمنوا والذين هادوا) يعنى اليهود سموا بذلك لقولهم انا هدنا اليك أى ملنا اليك وقيل هادوا أى تابوا عن عبادة العجل وقيل انهم مالوا عن دين الاسلام ودين موسى عليه السلام (والنصارى) سموا بذلك لقول الحواريين نحن أنصار الله وقيل لاعتزائهم الى قرية يقال لها ناصرة وكان المسيح ينزلها (والصابئين) أصله من صبا اذا خرج من دين الى دين آخر سموا بذلك لخروجهم من الدين قال عمر وابن عباس هم قوم من أهل الكتاب قال عمر ذبائحهم ذبائح أهل الكتاب وقال ابن عباس لاتحل ذبائحهم ولا مناكحتهم وقيل هم قوم بين اليهود والمجوس لاتحل ذبائحهم ولا مناكحتهم وقيل هم بين اليهود والنصارى يحلقون أوساط رؤسهم وقيل هم قوم يقرون بالله ويقرؤن الزبور ويعبدون الملائكة ويصلون الى الكعبة أخذوا من كل دين شيأ والاقرب انهم قوم يعبدون الكواكب وذلك انهم يعتقدون ان الله تعالى خلق هذا العالم وجعل الكواكب مدبرة له فيجب على البشر عبادتها وتعظيمها وانها هى التى تقرب الى الله

(من آمن بالله واليوم الآخر) من هؤلاء الكفرة ايمانا خالصا (وعمل صالحا فلهم أجرهم) ثوابهم (عند ربهم) في الآخرة (ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ومحل من آمن الرفع ان جعلته مبتدأ خبره فلهم أجرهم والنصب ان جعلته بدلا من اسم ان والمعطوف

الله تعالى ولما ذكر هذه الوظائف قال (من آمن بالله واليوم الآخر) فان قلت كيف قال في أول الآية ان الذين آمنوا وقال في آخرها من آمن بالله فما فائدة التعميم أولا ثم التخصيص آخرا قلت اختلف العلماء في حكم الآية فلهم فيه طريقان أحدهما أنه أراد ان الذين آمنوا على التحقيق ثم اختلفوا فيهم فقيل هم الذين آمنوا في زمن الفترة وهم طلاب الدين مثل حبيب النجار وقس بن ساعدة وورقة بن نوفل وبحيرا الراهب وأبي ذر الغفاري وسلمان الفارسي فمنهم من أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وتابعه ومنهم من لم يدركه فكأنه تعالى قال ان الذين آمنوا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم والذين كانوا على الدين الباطل المبدل من اليهود والنصارى والصابئين من آمن منهم بالله واليوم الآخر وبمحمد صلى الله عليه وسلم فلهم أجرهم عند ربهم وقيل هم المؤمنون من الامم الماضية وقيل هم المؤمنون من هذه الامة والذين هادوا يعني الذين كانوا على دين موسى ولم يبدلوا والنصارى الذين كانوا على دين عيسى ولم يغيروا والصابئين يعني في زمن استقامة أمرهم من آمن منهم ومات وهو مؤمن لان حقيقة الايمان تكون بالوفاة وأما الطريقة الثانية فقالوا ان المذكورين بالايمان في أول الآية انما هو على طريق المجاز دون الحقيقة وهم الذين آمنوا بالانبياء الماضين ولم يؤمنوا بك وقيل هم المنافقون الذين آمنوا بالسنتهم ولم يؤمنوا بقلوبهم واليهود والنصارى والصابئون فكأنه تعالى قال هؤلاء المبطلون كل من آمن منهم الايمان الحقيقي صار مؤمنا عند الله وقيل ان المراد من قوله ان الذين آمنوا يعني بمحمد صلى الله عليه وسلم في الحقيقة حين الماضي وثبتوا على ذلك في المستقبل وهو المراد من قوله تعالى من آمن بالله واليوم الآخر (وعمل صالحا) أي في ايمانه (فلهم أجرهم عند ربهم) أي جزاء أعمالهم (ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أي في الآخرة ۞ قوله عز وجل (واذ أخذنا ميثاقكم) أي عهدكم يا معشر اليهود (ورفعنا فوقكم الطور) يعني الجبل العظيم قال ابن عباس أمر الله جبلا من جبال فلسطين فانقلع من أصله حتى قام على رؤسهم وسبب ذلك ان الله تعالى لما أنزل التوراة على موسى وأمرهم أن يعملوا بأحكامها فابوا أن يقبلوها لما فيها من الآصار يعني الاثقال والتكاليف الشاقة أمر الله تعالى جبريل عليه السلام أن يقلع جبلا على قدر عسكرهم وكان قدره فرسخا في فرسخ فرفعه فوق رؤسهم قدر قامة كالظلة وقيل لهم ان لم تقبلوا ما في التوراة والا أرسلت هذا الجبل عليكم (خذوا) أي قلنا لهم خذوا (ما آتيناكم) أي ما أعطيناكم (بقوة) أي بجد واجتهاد (واذكروا ما فيه) أي ادرسوا ما فيه (لعلكم تتقون) أي لكي تنجوا من الهلاك في الدنيا والعذاب في العقبى والا رضخت رؤسكم بهذا الجبل فلما رأوا ذلك نازلا بهم قبلوا وسجدوا وجعلوا يلاحظون الجبل وهم سجود فصار ذلك سنة في سجود اليهود لا يسجدون الا على انصاف وجوههم ويقولون بهذا السجود رفع عنا العذاب (ثم توليتم) أي أعرضتم (من بعد ذلك) أي من بعد ما قبلتم التوراة (فلولا فضل الله عليكم ورحمته) أي بالامهال (لكنتم من الخاسرين) أي المغبونين بذهاب الدنيا والعذاب في العقبى ۞ قوله عز وجل (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم) أي جاوزوا الحد (في السبت) يقال سبت اليهود لانهم يعظمونه ويقطعون فيه أعمالهم وأصل السبت القطع

﴿ ذكر الاشارة الى القصة ﴾

قال العلماء بالاخبار انهم كانوا في زمن داود عليه الصلاة والسلام بقرية بارض ايلة وحرم الله عليهم صيد السمك يوم السبت فكان اذا دخل يوم السبت لم يبق حوت في البحر الا اجتمع هناك حتى لا يرى الماء من كثرتها فاذا مضى السبت تفرقت الحيتان ولزمن قعر البحر فذلك قوله تعالى اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم

عليه فخبران في الوجه الاول الجملة كما هي وفي الثاني فلهم والفاء لتضمن من معنى الشرط (واذ أخذنا ميثاقكم) بقبول ما في التوراة (ورفعنا فوقكم الطور) أي الجبل حتى قبلتم وأعطيتم الميثاق وذلك أن موسى عليه السلام جاءهم بالالواح فرأوا ما فيها من الآصار والتكاليف الشاقة فكبرت عليهم وأبوا قبولها فأمر الله تعالى جبريل عليه السلام فقلع الطور من أصله ورفعه فظله فوقهم وقال لهم موسى ان قبلتم والا ألقي عليكم حتى قبلوا وقلنا لكم (خذوا ما آتيناكم) من الكتاب أي التوراة (بقوة) بجد وعزيمة (واذكروا ما فيه) واحفظوا ما في الكتاب وادرسوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه (لعلكم تتقون) رجاء منكم ان تكونوا متقين (ثم توليتم) ثم أعرضتم عن الميثاق والوفاء به (من بعد ذلك) من بعد القبول (فلولا فضل الله عليكم ورحمته) بتأخير العذاب عنكم أو بتوفيقكم للتوبة (لكنتم من الخاسرين) الهالكين في العذاب (ولقد علمتم) عرفتم فيتعدى الى مفعول واحد (الذين اعتدوا منكم في السبت) هو مصدر سبتت اليهود اذا عظمت يوم السبت وقد اعتدوا فيه أي جاوزوا ما حد لهم فيه من التجرد للعبادة وتعظيمه واشتغلوا بالصيد وذلك أن الله تعالى نهاهم أن يصيدوا في السبت ثم ابتلاهم

فما كان يبقى حوت فى البحر الا أخرج خرطومه يوم السبت فاذا مضى تفرقت فحفروا حياضا عند البحر وشرعوا اليها الجداول فكانت الحيتان تدخلها يوم السبت لأمنها من الصيد فكانوا يسدون مشارعها من البحر فيصطادونها يوم الاحد فذلك الحبس فى الحياض هو اعتداؤهم (فقلنا لهم كونوا) بتكويننا اياكم (قردة خاسئين) خبر كان أى كونوا جامعين بين القردية والخسوء وهو الصغار والطرد (فجعلناها) يعنى المسخة (نكالا) عبرة تنكل من اعتبر بها أى تمنعه (لما بين يديها) لما قبلها (وما خلفها) وما بعدها من الامم والقرون لان مسختهم ذكرت فى كتب الاولين فاعتبروا بها واعتبر بها من بلغتهم من الآخرين (وموعظة للمتقين) الذين نهوهم عن الاعتداء من صالحى قومهم أو لكل متق سمعها (واذ قال موسى لقومه) أى واذكروا اذ قال موسى وهو معطوف على نعمتى فى قوله اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم كأنه قال اذكروا ذاك واذكروا اذ قال موسى وكذلك هذا فى الظروف التى مضت أى اذكروا نعمتى واذكروا وقت انجائنا اياكم واذكروا وقت فرقنا واذكروا نعمتى واذكروا وقت استسقاء موسى ربه لقومه والظروف التى تأتى الى قوله واذا ابتلى ابراهيم ربه (ان الله يأمركم أن) أى بأن (تذبحوا بقرة) قال المفسرون أول القصة مؤخر فى التلاوة وهو قوله تعالى واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها وذلك ان رجلا موسرا اسمه عاميل قتله بنو عمه ليرثوه وطرحوه على باب مدينة ثم جاؤا يطالبون بديته فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها ليحيا فيخبرهم بقاتله (قالوا أتتخذنا هزؤا) أتجعلنا مكان هزء أو أهل هزء أو الهزء نفسه لفرط الاستهزاء هزأ بسكون الزاى والهمزة حمزة وبضمتين والواو حفص وغيرهما بالتثقيل والهمزة (قال أعوذ بالله) العياذ واللياذ من واد واحد (أن أكون من الجاهلين) لان الهزء فى مثل هذا من باب الجهل والسفه وفيه تعريض بهم أى أنتم جاهلون حيث نسبتمونى الى الاستهزاء

شرعا يوم لا يسبتون لا تأتيهم ثم ان الشيطان وسوس اليهم وقال انما نهيتم عن أخذها يوم السبت ولم تنهوا عن أخذها فى غيره فعمد رجال منهم فحفروا حياضا كبارا حول البحر وشرعوا منه اليها أنهارا فاذا كان عشية الجمعة فتحوا تلك الانهار فيقبل الموج من البحر بالحيتان الى تلك الحياض فيقعن فيها ولا يقدرن على الخروج منها لعمقها فاذا كان يوم الاحد أخذوها وقيل انهم كانوا ينصبون الشخوص والحبائل يوم الجمعة ويخرجونها يوم الاحد ففعلوا ذلك زمانا ولم تنزل بهم عقوبة فتجرؤا على السبت وقالوا ما نرى السبت الا قد أحل لنا فأخذوا وملحوا وأكلوا وباعوا واشتروا فلما فعلوا ذلك صار أهل القرية ثلاثة أصناف وكانوا نحو سبعين ألفا صنف أمسك عن الصيد ونهى عن الاصطياد وصنف أمسك ولم ينه وصنف انهمكوا فى الذنب وهتكوا الحرمة وكان الصنف الناهون اثنى عشر ألفا فلما أبى المجرمون قبول نصحهم قالوا والله لا نساكنكم فى قرية واحدة فقسموا القرية بينهم بجدار فعبروا على ذلك سنين ثم لعنهم داود وغضب الله عليهم لاصرارهم على المعصية فخرج الناهون ذات يوم من بابهم ولم يخرج من المجرمين أحد ولم يفتحوا الباب فلما أبطؤا تسوروا عليهم الجدار فاذا هم جميع قردة لهم أذناب وهم يتعاوون وقيل صار الشباب قردة والشيوخ خنازير فمكثوا ثلاثة أيام ثم هلكوا ولم يمكث مسخ فوق ثلاث ولم يتوالدوا قال الله عز وجل (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) أمر تحويل وتكوين ومعنى خاسئين مبعدين مطرودين وقيل فيه تقديم وتأخير معناه كونوا خاسئين قردة ولهذا لم يقل خاسئات (فجعلناها) يعنى عقوبتهم بالمسخ (نكالا) أى عقوبة وعبرة (لما بين يديها وما خلفها) قيل معناه عقوبة لما مضى من ذنوبهم وعبرة لمن بعدهم وقيل جعلنا عقوبة قرية أصحاب السبت عبرة لمن بين يديها من القرى التى كانت عامرة فى الحال وما خلفها أى ما يحدث بعدها من القرى ليتعظوا بذلك وهو قوله عز وجل (وموعظة للمتقين) أى المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم لئلا يفعلوا مثل فعلهم ۞ قوله عز وجل (واذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) البقرة واحدة البقر وهى الانثى وأصلها البقر وهو الشق سميت بذلك لانها تشق الارض للحراثة

﴿ذكر الاشارة الى القصة فى ذلك﴾

قال علماء السير والاخبار انه كان فى زمن بنى اسرائيل رجل غنى وله ابن عم فقير لا وارث له سواه فلما طال عليه موته قتله ليرثه وحمله الى قرية أخرى وألقاه على بابها ثم أصبح يطلب ثاره وجاء بناس الى موسى يدعى عليهم بالقتل فجحدوا واشتبه أمر القتيل على موسى عليه الصلاة والسلام فسألوا موسى أن يدعو الله ليبين لهم ما أشكل عليهم فسأل موسى ربه فى ذلك فأمره بذبح بقرة وأمره أن يضربه ببعضها فقال لهم ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة (قالوا أتتخذنا هزوا) أى نحن نسألك أمر القتيل وأنت تستهزئ بنا وتأمرنا بذبح بقرة وانما قالوا ذلك لبعد ما بين الامرين فى الظاهر ولم يعلموا ما وجه الحكمة فيه (قال) يعنى موسى (أعوذ بالله) أى أمتنع بالله (أن أكون من الجاهلين) أى المستهزئين بالمؤمنين وقيل من الجاهلين بالجواب لا على وفق السؤال فلما علموا ان ذبح البقرة عزم من الله تعالى استوصفوه اياها ولو انهم عمدوا الى أى بقرة كانت فذبحوها لاجزأت عنهم ولكن شددوا فشدد عليهم وكان فى ذلك حكمة لله عز وجل وذلك انه كان رجل

صالح

(قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى) سؤال عن حالها وصفتها لانهم كانوا عالمين بماهيتها لأن ما وان كانت سؤالا عن الجنس وكيف عن الوصف ولكن قد تقع ماموقع كيف وذلك انهم تعجبوا من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيا فسألوا عن صفة تلك البقرة العجيبة الشان وماهى خبر ومبتدا (قال انه يقول انها بقرة لا فارض) مسنة وسميت فارضا لانها فرضت سنها أى قطعتها وبلغت آخرها وارتفع فارض لانه صفة لبقرة وقوله (ولا بكر) فتية عطف عليه (عوان) نصف (بين ذلك) بين الفارض (٦١) والبكر ولم يقل بين ذينك مع ان بين يقتضى شيئين فصاعدا لانه أراد بين هذا المذكور وقد يجرى الضمير مجرى اسم الاشارة فى هذا قال أبو عبيدة قلت لرؤبة فى قوله * فيها خطوط من سواد وبلق * كانه فى الجلد توليع البهق * ان أردت الخطوط فقل كانها وان أردت السواد والبلق فقل كانهما فقال أردت كان ذاك (فافعلوا ماتؤمرون) أى تؤمرونه بمعنى تؤمرون به أو أمركم بمعنى مأموركم تسمية للمفعول بالمصدر كضرب الامير (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا مالونها) موضع ما رفع لان معناه الاستفهام تقديره ادع لنا ربك يبين لنا أى شئ لونها (قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها) الفقوع أشد ما يكون من الصفرة وأنصعه يقال فى التوكيد أصفر فاقع وهو توكيد لصفراء وليس خبرا عن اللون الا انه ارتفع اللون به ارتفاع الفاعل ولا فرق بين قولك صفراء فاقعة وصفراء فاقع لونها وفى ذكر اللون فائدة التوكيد لان اللون اسم للهيئة وهى الصفرة فكأنه قيل شديدة الصفرة صفرتها فهو من قولك جد جده (تسر الناظرين) لحسنها والسرور لذة فى القلب عند حصول نفع أو توقعه عن على رضى الله عنه من لبس نعلا صفراء قل همه لقوله تعالى تسر الناظرين (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى) تكرير للسؤال عن حالها وصفتها واستكشاف زائد ليزدادوا بيانا لوصفها وعن النبى عليه السلام لو اعترضوا أدنى بقرة فذبحوها لكفتهم ولكن شددوا فشدد الله عليهم والاستقصاء شؤم (ان البقر تشابه علينا) ان البقر الموصوف بالتعوين والصفرة كثير فاشتبه علينا (وانا ان شاء الله لمهتدون) الى البقرة المراد ذبحها أو الى ما خفى علينا من أمر القاتل وان شاء الله اعتراض بين اسم ان وخبرها وفى الحديث

صالح فى بنى اسرائيل وله ابن طفل وله عجلة فاتى بها غيضة وقال اللهم انى استودعتك هذه العجلة لابنى حتى يكبر ومات ذلك الرجل وصارت العجلة فى الغيضة عوانا وكانت تهرب من الناس فلما كبر ذلك الطفل وكان بارا بامه وكان يقسم ليله ثلاثة أجزاء يصلى ثلثا وينام ثلثا ويجلس عند رأس أمه ثلثا فاذا أصبح انطلق فيحتطب ويأتى به السوق فيبيعه بما شاء الله فيتصدق بثلثه ويأكل ثلثه ويعطى أمه ثلثه فقالت له أمه يوما يابنى ان أباك ورثك عجلة استودعها الله فى غيضة كذا فانطلق وادع اله ابراهيم واسمعيل واسحق أن يردها عليك وعلامتها أنك اذا نظرت اليها يخيل اليك ان شعاع الشمس يخرج من جلدها وكانت تسمى المذهبة لحسنها وصفرتها فاتى الفتى الغيضة فرآها ترعى فصاح بها وقال أعزم عليك باله ابراهيم واسمعيل واسحق فاقبلت البقرة حتى وقفت بين يديه فقبض على قرنها يقودها فتكلمت البقرة باذن الله تعالى وقالت أيها الفتى البار بامه اركبنى فانه أهون عليك فقال الفتى ان أمى لم تأمرنى بذلك فقالت البقرة والله لو ركبتنى ما كنت تقدر على أبدا فانطلق فانك لو أمرت الجبل أن ينقلع من أصله لانقلع لبرك بامك فسار الفتى بها الى أمه فقالت له أمه انك رجل فقير ولا مال لك ويشق عليك الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل فانطلق فبع البقرة فقال بكم أبيعها قالت بثلاثة دنانير ولا تبع بغير مشورتى وكان ثمن البقرة ثلاثة دنانير فانطلق بها الفتى الى السوق وبعث الله ملكا ليرى خلقه قدرته وليختبر الفتى كيف بره بامه وهو أعلم فقال له الملك بكم هذه البقرة قال بثلاثة دنانير وأشترط عليك رضا أمى فقال له الملك لك ستة دنانير ولا تستأمر أمك فقال له الفتى لو أعطيتنى وزنها ذهبا لم آخذه الا برضا أمى ورجع الفتى الى أمه فاخبرها بالثمن فقالت له ارجع فبعها بستة دنانير ولا تبعها الا برضاى فرجع بها الى السوق وأتى الملك فقال له استأمرت أمك فقال الفتى نعم انها أمرتنى أن لا أنقصها عن ستة على رضاها فقال الملك انى أعطيتك اثنى عشر دينارا ولا تستأمرها فابى الفتى ورجع الى أمه فاخبرها بذلك فقالت له أمه ان الذى يأتيك ملك فى صورة آدمى ليجربك فاذا أتاك فقل له أتأمرنا أن نبيع هذه البقرة أم لا ففعل فقال له الملك اذهب الى أمك فقل لها أمسكى هذه البقرة فان موسى ابن عمران يشتريها منك لقتيل يقتل فى بنى اسرائيل فلا تبيعها الا بملء مسكها ذهبا والمسك الجلد فامسكتها وقدر الله على بنى اسرائيل ذبح البقرة بعينها فمازالوا يستوصفون البقرة حتى وصفت لهم تلك البقرة بعينها مكافأة لذلك الفتى على بره بامه فضلا من الله تعالى ورحمة فذلك قوله تعالى (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى) أى ما سنها (قال) يعنى موسى (انه يقول) يعنى الله عز وجل (انها بقرة لا فارض ولا بكر) أى لا كبيرة ولا صغيرة والفارض المسنة التى لم تلد والبكر الفتية التى لم تلد (عوان) أى نصف (بين ذلك) أى بين السنين (فافعلوا ما تؤمرون) أى من ذبح البقرة ولا تكثروا السؤال (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا مالونها قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها) قال ابن عباس شديدة الصفرة وقيل لونها صاف وقيل الصفراء السوداء والاول أصح لانه يقال أصفر فاقع وأسود حالك (تسر الناظرين) أى يعجبهم حسنها وصفاء لونها (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى) أى سائمة أو عاملة (ان البقر تشابه علينا) أى التبس واشتبه أمرها علينا (وانا ان شاء الله لمهتدون)

لولم يستثنوا لما بينت لهم آخر الابد أي لولم يقولوا ان شاء الله (قال انه يقول انها بقرة لا ذلول تثير الارض) لا ذلول صفة لبقرة بمعنى بقرة غير ذلول يعني لم تذلل للكراب واثارة الارض (ولا تسقي الحرث) ولا هي من النواضح التي يسنى عليها لسقي الحروث ولا الاولى نافية والثانية مزيدة لتوكيد الاولى لان المعنى لا ذلول تثير الارض أي تقلبها للزراعة وتسقي الحرث على ان الفعلين صفتان لذلول كانه قيل لا ذلول مثيرة وساقية (مسلمة) عن العيوب وآثار العمل (لاشية فيها) لا لمعة في نقبتها من لون آخر سوى الصفرة فهي صفراء كلها حتى قرنها وظلفها وهي في الاصل مصدر وشاه وشيا وشية اذا خلط بلونه لونا آخر (قالوا الآن جئت بالحق) أي بحقيقة وصف البقرة وما بقي اشكال في أمرها جئت و بابه بغير همز أبو عمرو (فذبحوها) فحصلوا البقرة الجامعة لهذه الاوصاف كلها فذبحوها (وما كادوا يفعلون) لغلاء ثمنها أو خوف الفضيحة في ظهور القاتل روي أنه كان في بني اسرائيل شيخ صالح له عجلة فأتى بها الغيضة وقال اللهم اني استودعتكها لابني حتى يكبر وكان برا بوالديه فشبت البقرة وكانت من أحسن البقر وأسمنه

فساوموها اليتيم وأمه حتى اشتروها بملء مسكها ذهبا وكانت البقرة اذذاك بثلاثة دنانير وكانوا طلبوا البقرة الموصوفة أربعين سنة وهذا البيان من قبيل تقييد المطلق فكان نسخا والنسخ قبل الفعل جائز وكذا قبل التمكن منه عندنا خلافا للمعتزلة (واذ قتلتم نفسا) بتقدير واذكروا خوطبت الجماعة لوجود القتل فيهم (فادارأتم فيها) فاختلفتم واختصمتم في شأنها لان المتخاصمين يدرأ بعضهم بعضا أي يدفع أو تدافعتم بمعنى طرح قتلها بعضكم على بعض فيدفع المطروح عليه الطارح أو لان الطارح في نفسه دفع وأصله تدارأتم ثم أرادوا التخفيف فقلبوا التاء دالا لتصير من جنس الدال التي هي فاء الكلمة ليمكن الادغام ثم سكنوا الدال اذ شرط الادغام أن يكون الاول ساكنا وزيدت همزة الوصل لانه لا يمكن الابتداء بالساكن فادارأتم بغير همز أبو عمرو (والله مخرج ما كنتم تكتمون) مظهر لا محالة ما كتمتم من أمر القتل لا يتركه مكتوما وأعمل مخرج على حكاية ما كان مستقبلا في وقت التدارئ وهذه الجملة اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه وهما ادارأتم و (فقلنا) والضمير في (اضربوه) يرجع الى النفس والتذكير بتأويل الشخص والانسان أو الى القتيل لما دل عليه ما كنتم تكتمون (ببعضها) ببعض البقرة وهو لسانها أو فخذها اليمنى أو عجبها والمعنى فضربوه فحيي فحذف ذلك لدلالة (كذلك يحيي الله الموتى) عليه روي انهم لما ضربوه قام باذن الله تعالى وقال قتلني فلان وفلان لابني عمه ثم سقط ميتا فاخذا وقتلا ولم يورث قاتل بعد ذلك وقوله كذلك يحيي الله الموتى اما أن يكون خطابا للمنكرين في زمن النبي عليه السلام واما أن يكون خطابا للذين حضروا حياة القتيل بمعنى وقلنا لهم كذلك يحيي الموتى يوم القيامة (ويريكم آياته) دلائله على انه قادر على كل شيء (لعلكم تعقلون) فتعملون على قضية عقولكم وهي أن من قدر على احياء نفس واحدة قدر

أي الى وصفها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأيم الله لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الدهر (قال انه يقول انها بقرة لا ذلول) أي ليست مذللة بالعمل (تثير الارض) أي تقلبها للزراعة (ولا تسقي الحرث) أي ليست بسانية والسانية هي التي تستقي الماء من البئر لسقي الارض (مسلمة) أي بريئة من العيوب (لاشية فيها) أي لا لون فيها غير لونها (قالوا الآن جئت بالحق) أي بالبيان التام الذي لا اشكال فيه فطلبوها فلم يجدوا بقرة بكمال وصفها الا بقرة ذلك الفتى فاشتروها منه بملء مسكها ذهبا (فذبحوها وما كادوا يفعلون) أي وما قاربوا أن يفعلوا ما أمروا به قيل لغلاء ثمنها وقيل لخوف الفضيحة وقيل لعزة وجودها بهذه الاوصاف جميعا ۞ قوله عز وجل (واذ قتلتم نفسا) خوطبت الجماعة بذلك لوجود القتل فيهم (فادارأتم فيها) قال ابن عباس أي اختلفتم واختصمتم من الدرء وهو الدفع لان المتخاصمين يدفع بعضهم بعضا (والله مخرج ما كنتم تكتمون) أي مظهر ما كتمتم من أمر القتيل لا محالة ولا يتركه مكتوما (فقلنا اضربوه) يعني القتيل (ببعضها) أي ببعض البقرة قال ابن عباس ضربوه بالعظم الذي يلي الغضروف وهو أصل الاذن وقيل ضربوه بلسانها وقيل بعجب الذنب وقيل بفخذها اليمين والاقرب انهم كانوا مخيرين في ذلك البعض وانهم اذا ضربوه بأي جزء منها أجزأ وحصل المقصود وانه ليس في القرآن ما يدل على ذلك البعض ما هو وذلك يقتضي التخيير وفي الآية اضمار تقديره فضربوه فحيي وقام باذن الله تعالى وأوداجه تشخب دما وقال قتلني فلان يعني ابن عمه ثم سقط ميتا مكانه فحرم قاتله الميراث وفي الخبر ما ورث قاتل بعد صاحب البقرة (كذلك) أي كما أحيا الله عاميل صاحب البقرة (يحيي الله الموتى) يعني يوم القيامة (ويريكم آياته لعلكم تعقلون) أي تمنعون أنفسكم عن المعاصي فان قلت كان حق هذه القصة أن يقدم ذكر القتيل أولا ثم ذكر ذبح البقرة بعد ذلك فما وجه ترتيب هذه القصة على هذا الترتيب قلت وجهه ان الله لما ذكر من قصص بني اسرائيل وما وجد من خياناتهم تقريعا لهم على ذلك وما وجد فيهم من الآيات العظيمة وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع وان كانتا متصلتين متحدتين في نفس الامر فالاولى لتقريعهم على ترك المسارعة الى امتثال الامر وما يتبعه والثانية لتقريعهم على قتل النفس المحرمة فلو قدم قصة القتيل على قصة الذبح لكانت قصة واحدة ولذهب الغرض من تثنية التقريع فلهذا قدم ذكر الذبح أولا ثم عقبه

بذكر

على احياء جميعها العدم الاختصاص والحكمة فى ذبح البقرة وضربه ببعضها وان قدر على احيائه بلا واسطة التقرب به والاشعار بحسن تقديم القربة على الطلب والتعليم لعباده ترك التشديد فى الامور والمسارعة الى امتثال أوامر الله من غير تفتيش وتكثير سؤال وغير ذلك وقيل انما أمروا بذبح البقرة دون غيرها من

البهائم لانها أفضل قرابينهم ولعبادتهم

ذكر القتل فان قلت ما فائدة ضرب القتيل ببعض البقرة والله تعالى قادر على أن يحييه ابتداء من غير ضرب بشئ قلت الفائدة فيه أن تكون الحجة أوكد وعن الحيلة أبعد لاحتمال أن يتوهم متوهم أن موسى عليه السلام انما أحياه بضرب من السحر والحيلة فاذا أحيي القتيل عند ما ضرب ببعض البقرة انتفت الشبهة وعلم ان ذلك من عند الله تعالى وبامره كان ذلك فان قلت هلا أمر واذبح غير البقرة قلت الكلام فى غير البقرة لو أمروا به كالكلام فى البقرة ثم فى ذبح البقرة فوائد منها التقرب بالقربان على ما كانت العادة جارية عندهم ومنها ان هذا القربان كان عندهم من أعظم القرابين ومنها تحمل المشقة العظيمة فى تحصيلها بتلك الصفة ومنها حصول ذلك المال العظيم الذى أخذه صاحبها من ثمنها ﴿فصل فى حكم هذه المسئلة فى شريعة الاسلام اذا وقعت﴾ وذلك أنه اذا وجد قتيل فى موضع ولا يعرف قاتله فان كان ثم لوث على انسان ادعى به واللوث أن يغلب على الظن صدق المدعى بأن اجتمع جماعة فى بيت أو صحراء ثم تفرقوا عن قتيل فيغلب على الظن ان القاتل فيهم أو وجد قتيل فى محلة أو قرية وكلهم أعداء القتيل لا يخالطهم غيرهم فيغلب على الظن أنهم قتلوه فان ادعى الولى على بعضهم حلف خمسين يمينا على من يدعى عليه وان كان الاولياء جماعة توزع الايمان عليهم فاذا حلفوا أخذوا الدية من عاقلة المدعى عليه ان ادعوا قتل خطأ وان ادعوا قتل عمد فمن مال المدعى عليه ولا قود عليه فى قول الاكثرين وذهب عمر بن عبد العزيز الى وجوب القود به قال مالك وأحمد فان لم يكن ثم لوث فالقول قول المدعى عليه لان الاصل براءة ذمته من القتل وهل يحلف يمينا واحدة أم خمسين يمينا فيه قولان أحدهما أنه يحلف يمينا واحدة كما فى سائر الدعاوى والثانى أنه يحلف خمسين يمينا تغليظا لامر القتيل وعند أبى حنيفة لا حكم للوث ولا يبدأ بيمين المدعى بل اذا وجد قتيل فى محلة يختار الامام خمسين رجلا من صلحاء أهلها فيحلفهم انهم ما قتلوه ولا يعرفون له قاتلا فان حلفوا أخذ الدية من سكانها والدليل على أن البداءة بيمين المدعى عند وجود اللوث ما روى عن سهل بن أبى خيثمة قال انطلق عبد الله بن سهل ومحيصة بن مسعود الى خيبر وهى يومئذ صلح فتفرقا فأتى محيصة الى عبد الله بن سهل وهو يتشحط فى دمه قتيلا فدفنه ثم قدم المدينة فانطلق عبد الرحمن بن سهل ومحيصة وحويصة ابنا مسعود الى النبى صلى الله عليه وسلم فذهب عبد الرحمن يتكلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كبر كبر وهو أحدث القوم سنا فسكت فتكلما فقال أتحلفون وتستحقون قاتلكم أو قال صاحبكم قالوا كيف نحلف ولم نشهد ولم نر قال فتبرئكم يهود بايمان خمسين منهم قالوا كيف نأخذ بايمان قوم كفار فعقله النبى صلى الله عليه وسلم من عنده وفى رواية يقسم خمسون منكم على رجل منهم فيدفع برمته وذكر نحوه وزاد فى رواية فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبطل دمه فوداه بمائة من ابل الصدقة أخرجاه فى الصحيحين ووجه الدليل من هذا الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم بدأ بايمان المدعين لتقوى جانبهم باللوث لان اليمين أبدا تكون لمن يقوى جانبه وعند عدم اللوث تكون من جانب المدعى عليه من حيث ان الاصل براءة ذمته فكان القول قوله مع يمينه والله أعلم ۞ قوله عز وجل (ثم قست قلوبكم) أى يبست وجفت وقساوة القلب انتزاع الرحمة منه وقيل معناه غلظت واسودت (من بعد ذلك) أى من بعد ظهور الدلالات التى جاء بها موسى وقيل هى اشارة الى احياء القتيل بعد ضربه

العجل فأراد الله تعالى أن يهون معبودهم عندهم وكان ينبغى أن يقدم ذكر القتيل والضرب ببعض البقرة على الامر بذبحها وأن يقال واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها ولكنه تعالى انما قص قصص بنى اسرائيل تعديدا لما وجد منهم من الجنايات وتقريعا لهم عليها وهاتان القصتان وان كانتا متصلتين فتستقل كل واحدة منهما بنوع من التقريع فالاولى التقريع على الاستهزاء وترك المسارعة الى الامتثال وما يتبع ذلك والثانية للتقريع على قتل النفس المحرمة وما تبعه من الآية العظيمة وانما قدمت قصة الامر بذبح البقرة على ذكر القتيل لانه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة ولذهب المراد فى تثنية التقريع ولقد روعيت نكتته بعد ما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها ان وصلت بالاولى بضمير البقرة لا باسمها الصريح فى قوله اضربوه ببعضها ليعلم انهما قصتان فيما يرجع الى التقريع وقصة واحدة بالضمير الراجع الى البقرة وقيل هذه القصة تشير الى أن من أراد احياء قلبه بالمشاهدات فليمت نفسه بأنواع المجاهدات ومعنى (ثم قست قلوبكم) استبعاد القسوة (من بعد) ما ذكر مما يوجب لين القلوب ورقتها وصفة القلوب بالقسوة مثل لنبوها عن الاعتبار والاتعاظ من بعد (ذلك)

بعض البقرة (فهي) يعني القلوب في الغلظ والشدة (كالحجارة) أي كالشيء الصلب الذي لا تخلخل فيه (أو) قيل أو بمعنى بل وقيل بمعنى الواو أي و(أشد قسوة) فان قلت لم شبه قلوبهم بالحجارة ولم يشبهها بالحديد وهو أشد من الحجارة وأصلب قلت لان الحديد قابل للين بالنار وقد لان لداود عليه الصلاة والسلام والحجارة ليست قابلة للين فلا تلين قط ثم فضل الحجارة على القلب القاسي فقال (وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار) قيل أراد به جميع الحجارة وقيل أراد به الحجر الذي كان يضرب عليه موسى ليسقي الاسباط والتفجير التفتح بالسعة والكثرة (وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء) يعني العيون الصغار التي هي دون الانهار (وان منها لما يهبط من خشية الله) أي ينزل من أعلى الجبل الى أسفله وخشيتها عبارة عن انقيادها لامر الله وانها لا تمتنع عما يراد منها وقلوبكم يا معشر اليهود لا تلين ولا تخشع فان قلت الحجر جماد لا يعقل ولا يفهم فكيف يخشى قلت ان الله تعالى قادر على افهام الحجر والجمادات فتعقل وتخشى بالهامه لها ومذهب أهل السنة ان الله تعالى أودع في الجمادات والحيوانات علما وحكمة لا يقف عليها غيره فلها صلاة وتسبيح وخشية يدل عليه قوله وان من شيء الا يسبح بحمده وقال تعالى والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه فيجب على المرء الايمان به ويكل علمه الى الله تعالى (م) عن جابر بن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اني لاعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث واني لاعرفه الآن عن علي قال كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فخرجنا الى بعض نواحيها فما استقبله شجر ولا جبل الا وهو يقول السلام عليك يا رسول الله أخرجه الترمذي وقال حديث غريب (خ) عن جابر بن عبد الله قال كان في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم جذع في قبلته يقوم اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبته فلما وضع المنبر سمعنا للجذع حنينا مثل صوت العشار حتى نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليه وفي رواية صاحت النخلة صياح الصبي فنزل صلى الله عليه وسلم حتى أخذها فضمها اليه فجعلت تئن أنين الصبي الذي لا يسكت حتى استقرت قال بكت على ما كانت تسمع من الذكر قال مجاهد ما ينزل حجر من أعلى الى أسفل الا من خشية الله وذلك يشهد لما قلنا (وما الله بغافل عما تعملون) فيه وعيد وتهديد والمعنى ان الله بالمرصاد لهؤلاء القاسية قلوبهم وحافظ لاعمالهم حتى يجازيهم بها في الآخرة ﴿قوله عز وجل﴾ (أفتطمعون) خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم لانه هو الداعي الى الايمان وانما ذكره بلفظ الجمع تعظيما له وقيل هو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لانهم كانوا يدعونهم الى الايمان أيضا ومعنى أفتطمعون أفترجون (أن يؤمنوا لكم) أي يصدقكم اليهود بما تخبرونهم وقيل معناه أفتطمعون أن يؤمنوا لكم مع انهم لم يؤمنوا بموسى عليه الصلاة والسلام وكان هو السبب في خلاصهم من الذل وظهور المعجزات على يده (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله) قيل المراد بالفريق هم الذين كانوا مع موسى يوم الميقات وهم الذين سمعوا كلام الله تعالى وقيل المراد بهم الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وهو الاقرب لان الضمير راجع اليهم في أفتطمعون أن يؤمنوا لكم فعلى هذا يكون معنى يسمعون كلام الله يعني التوراة لانه يصح أن يقال لمن يسمع التوراة يسمع كلام الله (ثم يحرفونه) أي يغيرون كلام الله ويبدلونه فمن فسر الفريق الذين يسمعون كلام الله بالفريق الذين كانوا مع موسى عليه السلام استدل بقول ابن عباس رضي الله عنهما انها نزلت في السبعين الذين اختارهم موسى لميقات

اشارة الى احياء القتيل أو الى جميع ما تقدم من الآيات المعدودة (فهي كالحجارة) فهي في قسوتها مثل الحجارة (أو أشد قسوة) منها وأشد معطوف على الكاف تقديره أو مثل أشد قسوة فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه أو هي في أنفسها أشد قسوة يعني ان من عرف حالها شبهها بالحجارة أو بجوهر أقسى منها وهو الحديد مثلا أو من عرفها شبهها بالحجارة أو قال هي أقسى من الحجارة وانما لم يقل أقسى لكونه أبين وأدل على فرط القسوة وترك ضمير المفضل عليه لعدم الالباس كقولك زيد كريم وعمرو أكرم (وان من الحجارة) بيان لزيادة قسوة قلوبهم على الحجارة (لما يتفجر منه الانهار) ما بمعنى الذي في موضع النصب وهو اسم ان واللام للتوكيد والتفجر التفتح بالسعة والكثرة (وان منها لما يشقق) أصله يتشقق وبه قرأ الاعمش فقلبت التاء شينا وأدغمت (فيخرج منه الماء) يعني ان من الحجارة ما فيه خروق واسعة يتدفق منها الماء الكثير ومنها ما ينشق انشقاقا بالطول أو بالعرض فينبع منه الماء أيضا وقلوبهم لا تندى (وان منها لما يهبط) يتردى من أعلى الجبل (من خشية الله) قيل هو مجاز عن انقيادها لامر الله وانها لا تمتنع على ما يريد فيها وقلوب هؤلاء لا تنقاد ولا تفعل ما أمرت به وقيل المراد به حقيقة الخشية على معنى انه يخلق فيها الحياة والتمييز وليس شرط خلق الحياة والتمييز في الجسم أن يكون على بنية مخصوصة عند أهل السنة وعلى هذا قوله لو أنزلنا هذا القرآن على جبل الآية يعني وقلوبهم لا تخشى (وما الله بغافل عما تعملون) وبالياء مكي وهو وعيد (أفتطمعون) الخطاب لرسول الله والمؤمنين (أن يؤمنوا لكم) أن يؤمنوا لاجل دعوتكم ويستجيبوا لكم كقوله تعالى فآمن له لوط يعني اليهود (وقد كان فريق منهم) طائفة فيمن سلف منهم (يسمعون كلام الله) أي التوراة (ثم يحرفونه) كما حرفوا صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وآية الرجم

(من بعد ماعقلوه) من بعد مافهموه وضبطوه بعقولهم (وهم يعلمون) انهم كاذبون مفترون والمعنى ان كفر هؤلاء وحرفوا فلهم سابقة فى ذلك (واذا لقوا) أى المنافقون أو اليهود (الذين آمنوا) أى المخلصين من أصحاب محمد عليه السلام (قالوا) أى المنافقون (آمنا) بأنكم على الحق وأن محمدا هو الرسول المبشر به (واذا خلا بعضهم) الذين لم ينافقوا (الى بعض) الى الذين نافقوا (قالوا) عاتبين عليهم (أتحدثونهم) أتخبرون أصحاب محمد عليه السلام (بما فتح الله عليكم) بما بين الله لكم فى التوراة (٦٥) من صفة محمد عليه السلام (ليحاجوكم

ليقات ربه وذلك لانهم لما رجعوا الى قومهم بعد ما سمعوا كلام الله أما الصادقون منهم فانهم أدوا كما سمعوا وقالت طائفة منهم سمعنا الله يقول فى آخر كلامه ان استطعتم أن تفعلوا فافعلوا وان شئتم فلا تفعلوا فكان هذا تحريفهم ومن فسر الفريق الذين كانوا يسمعون كلام الله بالذين كانوا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم قال كان تحريفهم تبديلهم صفة النبى صلى الله عليه وسلم وآية الرجم فى التوراة (من بعد ما عقلوه) أى علموا صحة كلام الله ومراده فيه ثم مع ذلك خالفوه (وهم يعلمون) أى فساد مخالفته ويعلمون أيضا انهم كاذبون قوله عز وجل (واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا) نزلت هذه الآية فى اليهود الذين كانوا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس رضى الله عنهما ان منافقى اليهود كانوا اذا لقوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا لهم آمنا بالذى آمنتم به وان صاحبكم صادق وقوله حق وانا نجد نعته وصفته فى كتابنا (واذا خلا بعضهم الى بعض) يعنى كعب بن الاشرف وكعب بن أسد ووهب بن يهودا ورؤساء اليهود لاموا منافقى اليهود على ذلك و(قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) يعنى قص الله عليكم فى كتابكم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم وانه حق وقوله صدق (ليحاجوكم به) أى ليخاصمكم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ويحتجوا عليكم لقولكم فيقولون لكم قد أقررتم انه نبى حق فى كتابكم ثم لا تتبعونه وذلك ان اليهود قالوا لاهل المدينة حين شاوروهم فى اتباع محمد صلى الله عليه وسلم آمنوا به فانه نبى حق ثم لام بعضهم بعضا وقالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم لتكون لهم الحجة عليكم (عند ربكم) أى فى الدنيا والآخرة وقيل هو قول يهود بنى قريظة بعضهم لبعض حين قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم يا اخوان القردة والخنازير قالوا من أخبر محمدا بهذا ما خرج هذا الا منكم وقيل ان اليهود أخبروا المؤمنين بما عذبهم الله به من الجنايات فقال بعضهم لبعض أتحدثونهم بما قضى الله عليكم من العذاب ليروا الكرامة لانفسهم عليكم عند الله (أفلا تعقلون) أى ان ذلك لا يليق بما أنتم عليه (أولا يعلمون) يعنى اليهود (أن الله يعلم ما يسرون) أى ما يخفون (وما يعلنون) أى ما يبدون وما يظهرون قوله عز وجل (ومنهم) أى من اليهود (أميون) أى لا يحسنون الكتابة ولا القراءة جمع أمى وهو المنسوب الى أمه كأنه باق على ما انفصل من الام لم يتعلم كتابة ولا قراءة (لا يعلمون الكتاب الا أمانى) جمع أمنية وهى التلاوة ومنه قول الشاعر

تمنى كتاب الله أول ليلة * تمنى داود الزبور على رسل

أى تلا كتاب الله وقال ابن عباس رضى الله عنهما معناه غير عارفين بمعانى كتاب الله تعالى وقيل الامانى الاحاديث الكاذبة المختلقة وهى الاشياء التى كتبها علماؤهم من عند أنفسهم وأضافوها الى الله تعالى وذلك من تغيير نعت النبى صلى الله عليه وسلم وصفته وغير ذلك وقيل هو من التمنى وهو قولهم لن تمسنا النار الا أياما معدودة وغير ذلك مما تمنوه فعلى هذا يكون المعنى لا يعلمون الكتاب لكن يتمنون أشياء لا تحصل لهم (وان هم الا يظنون) أى ليسوا على يقين (فويل) الويل كلمة تقولها العرب لكل من وقع فى هلكة وأصلها فى اللغة العذاب والهلاك وقال ابن عباس الويل شدة العذاب وعن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الويل واد فى جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره أخرجه الترمذى وقال حديث غريب الخريف سنة (للذين يكتبون الكتاب بأيديهم) تأكيد للكتابة

به عند ربكم) ليحتجوا عليكم بما أنزل ربكم فى كتابه جعلوا محاجتهم به وقولهم هو فى كتابكم هكذا محاجة عند الله ألا تراك تقول هو فى كتاب الله تعالى هكذا وهو عند الله هكذا بمعنى واحد وقيل هذا على اضمار المضاف أى عند كتاب ربكم وقيل ليجادلوكم ويخاصموكم به بما قلتم لهم عند ربكم فى الآخرة يقولون كفرتم به بعد ان وقفتم على صدقه (أفلا تعقلون) ان هذه حجة عليكم حيث تعترفون به ثم لا تتابعونه (أو لا يعلمون أن الله يعلم) جميع (ما يسرون وما يعلنون) ومن ذلك اسرارهم الكفر واعلانهم الايمان (ومنهم) ومن اليهود (أميون) لا يحسنون الكتب فيطالعوا التوراة ويتحققوا ما فيها (لا يعلمون الكتاب) التوراة (الا أمانى) الا ما هم عليه من أمانيهم وان الله يعفو عنهم ويرحمهم ولا تمسهم النار الا أياما معدودة والا أكاذيب

مختلقة سمعوها من علمائهم فتقبلوها على التقليد ومنه قول عثمان رضى الله عنه ما تمنيت منذ أسلمت أو الا مايقرؤن من قوله * تمنى كتاب الله أول ليلة * وآخرها لاقى حمام المقادر أى لا يعلمون هؤلاء حقيقة المنزل وانما يقرؤن أشياء أخذوها من أحبارهم والاستثناء منقطع (وان هم) وما هم (الا يظنون) لا يدرون ما فيه فيجحدون نبوتك بالظن ذكر العلماء الذين عاندوا بالتحريف مع العلم ثم العوام الذين قلدوهم (فويل) فى الحديث ويل واد فى جهنم (للذين يكتبون الكتاب) المحرف (بأيديهم) من تلقاء أنفسهم من غير أن يكون منزلا

وذكر الابدى للتأكيد وهو من مجاز التأكيد (ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا) عوضا يسيرا (فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) من الرشا (وقالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودة) أربعين يوما عدد أيام عبادة العجل وعن مجاهد رضى الله عنه كانوا يقولون مدة الدنيا سبعة

آلاف سنة وانما نعذب مكان كل ألف سنة يوما (قل أتخذتم عند الله عهدا) أى عهد اليكم أنه لا يعذبكم الا هذا المقدار (فلن يخلف الله عهده) متعلق بمحذوف تقديره ان اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده (أم تقولون على الله مالا تعلمون) أم اما أن تكون معادلة أى أتقولون على الله ما تعلمون أم تقولون عليه مالا تعلمون أو منقطعة أى بل أتقولون على الله مالا تعلمون (بلى) اثبات لما بعد النفى وهو لن تمسنا النار أى بلى تمسكم أبدا بدليل قوله هم فيها خالدون (من كسب سيئة) شركا عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما رضى الله عنهم (وأحاطت به خطيئته) وسدت عليه مسالك النجاة بان مات على شركه فأما اذا مات مؤمنا فأعظم الطاعات وهو الايمان معه فلا يكون الذنب محيطا به فلا يتناوله النص وبهذا التأويل يبطل تشبث المعتزلة والخوارج وقيل استولت عليه كما يحيط العدو ولم ينقص عنها بالتوبة خطياته مدنى (فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب بعد

الجنة هم فيها خالدون واذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل) الميثاق العهد المؤكد غاية التأكيد (لا تعبدون الا الله) اخبار فى معنى النهى كما تقول تذهب الى فلان تقول له كذا تريد الامر وهو أبلغ من صريح الامر والنهى لانه كأنه سورع الى الامتثال والانتهاء وهو يخبر عنه وتنصره قراءة أبى لا تعبدوا وهو قولهم وقولوا والقول مضمر لا يعبدون مكى وحمزة وعلى لان بنى اسرائيل اسم ظاهر والاسماء الظاهرة كلها غيب ومعناه

لانه يحتمل أن يأمر غيره بان يكتب فقال بأيديهم لنفى هذه الشبهة والمراد بالذين يكتبون الكتاب اليهود وذلك ان رؤساء اليهود خافوا ذهاب مآكلهم وزوال رياستهم حين قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فاحتالوا فى تعويق سفلتهم عن الايمان به فعمدوا الى صفته فى التوراة فغيروها وكانت صفته فيها حسن الوجه حسن الشعر أكحل العينين ربعة فغيروا ذلك وكتبوا مكانه طوال أزرق العينين سبط الشعر فكانوا اذا سألهم سفلتهم عن ذلك قرؤا عليهم ما كتبوا (ثم يقولون هذا من عند الله) يعنى هذه الصفة التى كتبوها فاذا نظروا الى النبى صلى الله عليه وسلم والى تلك الصفة وجدوه مخالفا لها فيكذبونه ويقولون انه ليس به (ليشتروا به) أى بما كتبوا (ثمنا قليلا) أى المآكل والرشا التى كانوا يأخذونها من سفلتهم قال الله تعالى (فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) ﴿قوله عز وجل (وقالوا) أى اليهود (لن تمسنا) أى لن تصيبنا (النار الا أياما معدودة) أى قدرا مقدرا ثم يزول عنا العذاب قال ابن عباس قالت اليهود مدة الدنيا سبعة آلاف سنة وانا نعذب بكل ألف سنة يوما ثم ينقطع عنا العذاب بعد سبعة أيام وقيل انهم عنوا بالايام الاربعين يوما التى عبدوا فيها العجل وقيل ان اليهود زعموا ان الله تعالى عتب عليهم فى أمر فأقسم ليعذبنهم أربعين يوما تحلة القسم فقال الله ردا عليهم وتكذيبا لهم (قل) أى يا محمد لليهود (أتخذتم عند الله عهدا) أى موثقا أن لا يعذبكم الا هذه المدة (فلن يخلف الله عهده) أى وعده (أم تقولون على الله مالا تعلمون بلى) اثبات لما بعد حرف النفى وهو قوله لن تمسنا النار والمعنى بلى تمسكم النار أبدا (من كسب سيئة) السيئة اسم يتناول جميع المعاصى كبيرة كانت أو صغيرة والسيئة هنا الشرك فى قول ابن عباس (وأحاطت به خطيئته) أى أحدقت به من جميع جوانبه قال ابن عباس هى الشرك يموت عليه صاحبه وقيل أحاطت به أى أهلكته خطيئته وأحبطت ثواب طاعته فعلى مذهب أهل السنة يتعين تفسير السيئة والخطيئة فى هذه الآية بالكفر والشرك لقوله تعالى (فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) فان الخلود فى النار هو للكفار والمشركين (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) فان قلت العمل الصالح خارج عن اسم الايمان لانه تعالى قال والذين آمنوا وعملوا الصالحات فلو دل الايمان على العمل الصالح لكان ذكر العمل الصالح بعد الايمان تكرارا قلت أجاب بعضهم بان الايمان وان كان يدخل فيه جميع الاعمال الصالحة الا أن قوله آمن لا يفيد الا انه فعل فعلا واحدا من أفعال الايمان فلهذا حسن أن يقول والذين آمنوا وعملوا الصالحات وقيل ان قوله آمنوا يفيد الماضى وعملوا الصالحات يفيد المستقبل فكأنه تعالى قال آمنوا أولا ثم داوموا عليه آخرا ويدخل فيه جميع الاعمال الصالحات (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) ﴿قوله عز وجل (واذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل) يعنى فى التوراة والميثاق العهد الشديد (لا تعبدون الا الله) أى أمر الله تعالى بعبادته فيدخل تحته النهى عن عبادة غيره لان الله تعالى هو المستحق للعبادة لا غيره (وبالوالدين احسانا) أى برا بهما ورحمة لهما ونزولا عند أمرهما فيما لا يخالف أمر الله تعالى ويوصل اليهما ما يحتاجان اليه ولا يؤذيهما ألبتة وان كانا كافرين بل يجب عليه الاحسان اليهما ومن الاحسان اليهما أن يدعوهما الى الايمان بالرفق واللين وكذا ان كانا فاسقين يأمرهما بالمعروف بالرفق واللين من غير عنف وانما عطف بر الوالدين على الامر بعبادته لان شكر المنعم واجب ولله على عبده أعظم النعم لانه هو الذى خلقه وأوجده

أن لايعبدوا فلما حذفت ان رفع (و بالوالدين احسانا) أى وأحسنوا واليانتم عطف الامر وهو قوله وقولوا عليه (وذى القربى) القرابة (واليتامى) جمع يتيم وهو الذى فقد أباه قبل الحلم الى الحلم لقوله عليه السلام لايتم بعد البلوغ (والمساكين) جمع مسكين وهو الذى أسكنته الحاجة (وقولوا للناس حسنا) قولا هو حسن فى نفسه لافراط حسنه حسنا حمزة وعلى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم) عن الميثاق ورفضتموه (الا قليلا منكم) قيل هم الذين أسلموا منهم (وأنتم معرضون) وأنتم قوم عادتكم الاعراض والتولية عن المواثيق (واذ أخذنا ميثاقكم لاتسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم) أى لايفعل ذلك بعضكم ببعض جعل غير الرجل نفسه اذا اتصل به أصلا أو دينا وقيل اذا قتل غيره فكأنما قتل نفسه لانه يقتص منه (ثم أقررتم) بالميثاق واعترفتم على أنفسكم بلزومه (وأنتم تشهدون) عليها كما تقول فلان مقر على نفسه بكذا شاهد عليها أو وأنتم تشهدون اليوم يامعشر اليهود على اقرار أسلافكم بهذا الميثاق (ثم أنتم هؤلاء) استبعاد لما اسند اليهم من القتل والاجلاء والعدوان بعد أخذ الميثاق منهم واقرارهم وشهادتهم أنتم مبتدأ وهؤلاء بمعنى الذين (تقتلون أنفسكم) صلة هؤلاء وهؤلاء مع صلته خبر أنتم (وتخرجون فريقا منكم من ديارهم) غير مراقبين ميثاق الله (تظاهرون عليهم) بالتخفيف كوفى أى تتعاونون وبالتشديد غيرهم فمن خفف فقد حذف احدى التاءين ثم قيل هى الثانية لان الثقل بها وقيل الاولى ومن شدد قلب التاء الثانية ظاء وأدغم (بالاثم والعدوان) بالمعصية والظلم (وان يأتوكم أسارى تفادوهم) تفدوهم أبو عمرو وأسرى تفدوهم مكى وشامى أسرى تفدوهم حمزة أسارى تفادوهم على فدى وفادى بمعنى وأسارى حال وهو جمع أسير وكذلك أسرى والضمير فى

بعد العدم فيجب تقديم شكره على شكر غيره ثم ان للوالدين على الولد نعمة عظيمة لانهما السبب فى كون الولد ووجوده ثم ان لهما عليه حق التربية أيضا فيجب شكرهما ثانيا (وذى القربى) أى القرابة لان حق القرابة تابع لحق الوالدين والاحسان اليهم انما هو بواسطة الوالدين فلهذا حسن عطف القرابة على الوالدين (واليتامى) جمع يتيم وهو الذى مات أبوه وهو طفل صغير فاذا بلغ الحلم زال عنه اليتم وتجب رعاية حقوق اليتيم لثلاثة أمور لصغره ويتمه وخلوه عمن يقوم بمصلحته اذ لايقدر هو أن ينتفع بنفسه ولايقوم بحوائجه (والمساكين) جمع مسكين وسيأتى بيانه ان شاء الله تعالى وانما تأخرت درجة المساكين عن اليتامى لانه قد يمكن أن ينتفع بنفسه وينفع غيره بالخدمة (وقولوا للناس حسنا) فيه وجهان أحدهما أنه خطاب للحاضرين من اليهود فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم فلهذا اعدل من الغيبة الى الحضور والمعنى قولوا حقا وصدقا فى شأن محمد صلى الله عليه وسلم فمن سألكم عنه فاصدقوه وبينوا صفته ولاتكتموها قاله ابن عباس والوجه الثانى أن المخاطبين به هم الذين كانوا فى زمن موسى عليه السلام وأخذ عليهم الميثاق وانما عدل من الغيبة الى الحضور على طريق الالتفات كقوله حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم وقيل فيه حذف تقديره وقلنا لهم فى الميثاق وقولوا للناس حسنا ومعناه مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر وقيل هو اللين فى القول والعشرة وحسن الخلق (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) ولما أمرهم الله تعالى بهذه التكاليف الثمانية لتكون لهم المنزلة عنده بما التزموا به أخبر عنهم أنهم ما وفوا بذلك بقوله تعالى (ثم توليتم) أى أعرضتم عن العهد (الا قليلا منكم) يعنى من الذين آمنوا منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه فانهم وفوا بالعهد (وأنتم معرضون) أى كاعراض آبائكم ﴿قوله عز وجل (واذ أخذنا ميثاقكم) قيل هو خطاب لمن كان فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم من اليهود وقيل هو خطاب لآبائهم وفيه تقريع لهم (لاتسفكون) أى لاتريقون (دماءكم) أى لايسفك بعضكم دم بعض وقيل معناه لاتسفكوا دماء غيركم فيسفك دماءكم فكأنكم أنتم سفكتم دماء أنفسكم (ولاتخرجون أنفسكم من دياركم) أى لايخرج بعضكم بعضا من داره وقيل لاتفعلوا شيأ فتخرجوا بسببه من دياركم (ثم أقررتم) أى بهذا العهد انه حق (وأنتم تشهدون) يعنى أنتم يامعشر اليهود اليوم تشهدون على ذلك (ثم أنتم هؤلاء) يعنى ياهؤلاء اليهود (تقتلون أنفسكم) أى يقتل بعضكم بعضا (وتخرجون فريقا منكم من ديارهم) أى يخرج بعضكم بعضا من ديارهم (تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان) أى تتعاونون عليهم بالمعصية والظلم (وان يأتوكم أسارى) جمع أسير (تفدوهم) أى بالمال وهو استنقاذهم بالشراء وقرئ تفادوهم أى تبادلوهم وهو مفاداة الاسير بالاسير ومعنى الآية ان الله تعالى أخذ على بنى اسرائيل فى التوراة أن لايقتل بعضهم بعضا ولايخرج بعضهم بعضا من ديارهم وأيما عبد أو أمة من بنى اسرائيل وجدتموه فاشتروه بما قام من ثمنه وأعتقوه وكانت قريظة حلفاء الاوس والنضير حلفاء الخزرج وكان بين الاوس والخزرج حروب فكانت بنو النضير تقاتل مع حلفائهم وبنو قريظة تقاتل مع حلفائهم فاذا غلب أحد الفريقين أخرجوهم من ديارهم وخربوها وكان اذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له مالا يفدونه به فعيرتهم العرب وقالوا كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم فقالوا انا أمرنا أن نفديهم فقالوا كيف تقاتلونهم فقالوا انا نستحى أن تزل حلفاؤنا فعيرهم الله تعالى فقال ثم أنتم هؤلاء تقتلون

(وهو محرم عليكم) للشان أو هو ضمير مبهم تفسيره (اخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب) بفداء الاسرى (وتكفرون ببعض) بالقتال والاجلاء قال السدي أخذ الله عليهم أربعة عهود ترك القتل وترك الاخراج وترك المظاهرة وفداء الاسير فاعرضوا عن كل ما أمروا به الا الفداء (فما جزاء من يفعل ذلك) هو اشارة الى الايمان ببعض والكفر ببعض (منكم الا خزى) فضيحة وهوان (في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب) وهو الذي لا روح فيه ولا فرج أو الى أشد من عذاب الدنيا (وما

أنفسكم وفي الآية تقديم وتأخير تقديره وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان (وهو محرم عليكم اخراجهم) وان يأتوكم أسارى تفدوهم فكان الله تعالى أخذ عليهم أربعة عهود ترك القتل وترك الاخراج وترك المظاهرة من أعدائهم وفك أسراهم فاعرضوا عن الكل الا الفداء قال الله عز وجل (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) معناه ان وجدتموهم في يد غيركم فديتموهم وأنتم تقتلونهم بايديكم فكان ايمانهم الفداء وكفرهم قتل بعضهم بعضا فذمهم على مناقضة أفعالهم لا على الفداء لانهم أتوا ببعض ما وجب عليهم وتركوا البعض (فما جزاء من يفعل ذلك منكم) يعني يا معشر اليهود (الا خزي في الحياة الدنيا) أي عذاب وهوان فكان خزي بني قريظة القتل والسبي وخزي بني النضير الاجلاء والنفي من منازلهم الى أريحاء وأذرعات من أرض الشام (ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب) يعني عذاب النار (وما الله بغافل عما تعملون) فيه وعيد وتهديد عظيم (أولئك الذين اشتروا) أي استبدلوا (الحياة الدنيا بالآخرة) لان الجمع بين لذات الدنيا والآخرة غير ممكن فمن اشتغل بتحصيل لذات الدنيا فاتته لذات الآخرة (فلا يخفف عنهم العذاب) أي فلا يهون عليهم (ولا هم ينصرون) أي ولا يمنعون من عذاب الله تعالى ۞ قوله عز وجل (ولقد آتينا) أي أعطينا (موسى الكتاب) يعني التوراة جملة واحدة (وقفينا) أي وأتبعنا من التقفية وهو أن يقفو أثر الآخر (من بعده بالرسل) يعني رسولا بعد رسول وكانت الرسل من بعد موسى الى زمن عيسى عليهم السلام متواترة يظهر بعضهم في أثر بعض والشريعة واحدة قيل ان الرسل بعد موسى يوشع بن نون واشمويل وداود وسليمان وأرمياء وحزقيل والياس ويونس وزكريا ويحيى وغيرهم وكانوا يحكمون بشريعة موسى الى أن بعث الله تعالى عيسى عليه السلام فجاءهم بشريعة جديدة وغير بعض أحكام التوراة فذلك قوله تعالى (وآتينا عيسى ابن مريم البينات) أي الدلالات الواضحات وهي المعجزات من احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص وقيل هي الانجيل واسم عيسى بالسريانية ايشوع ومريم بمعنى الخادم وقيل هو اسم علم لها كزيد من الرجال (وأيدناه) أي وقويناه (بروح القدس) قيل أراد بالروح الذي نفخ فيه والقدس هو الله تعالى وأضاف روح عيسى اليه تشريفا وتكريما وتخصيصا له كما تقول عبد الله وأمة الله وبيت الله وناقة الله وقال ابن عباس هو اسم الله الاعظم الذي كان عيسى يحيي به الموتى وقيل هو الانجيل لانه حياة القلوب سماه روحا كما سمي القرآن روحا وقيل هو جبريل ووصف بالقدس وهو الطهارة لانه لم يقترف ذنبا قط وقيل القدس هو الله تعالى والروح جبريل كما تقول عبد الله سمي جبريل روحا للطافته لانه روحاني خلق من النور وقيل سمي روحا لمكانه من الوحي الذي هو سبب حياة القلوب وحمل روح القدس هنا على جبريل أولى لانه تعالى قال وأيدناه أي قويناه بجبريل وذلك أنه أمر أن يكون مع عيسى ويسير معه حيث سار فلم يفارقه حتى صعد به الى السماء فلما سمعت اليهود بذكر عيسى قالوا يا محمد لا مثل عيسى كما تزعم عملت ولا كما تقص علينا من أخبار الانبياء فعلت فائتنا بما أتى به عيسى ان كنت صادقا قال الله تعالى (أفكلما جاءكم) يعني يا معشر اليهود (رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم) أي تعاظمتم عن الايمان به (ففريقا كذبتم) يعني مثل عيسى ومحمد صلى

الله بغافل عما تعملون) بالياء مكي ونافع وأبو بكر (أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة) اختاروها على الآخرة اختيار المشتري (فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون) ولا ينصرهم أحد بالدفع عنهم (ولقد آتينا موسى الكتاب) التوراة آتاه جملة (وقفينا من بعده بالرسل) يقال قفاه اذا اتبعه من القفا نحو ذنبه من الذنب وقفاه به اذا أتبعه اياه يعني وأرسلنا على اثره الكثير من الرسل وهم يوشع واشمويل وشمعون وداود وسليمان وشعياء وأرمياء وعزير وحزقيل والياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى وغيرهم (وآتينا عيسى ابن مريم البينات) هي بمعنى الخادم ووزن مريم عند النحويين مفعل لان فعيلا لم يثبت في الابنية البينات المعجزات الواضحات كاحياء الموتى وابراء الاكمه والابرص والاخبار بالمغيبات (وأيدناه بروح القدس) أي الطهارة وبالسكون حيث كان مكي أي بالروح المقدسة كما يقال الله حاتم الجود ووصفها بالقدس للاختصاص والتقريب أو بجبريل عليه السلام لانه يأتي بما فيه حياة القلوب وذلك لانه رفعه الى السماء حين قصد اليهود قتله أو بالانجيل كما قال في القرآن روحا من أمرنا أو باسم الله الاعظم الذي كان يحيي الموتى بذكره (أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى) تحب (أنفسكم استكبرتم) تعظمتم عن قبوله (ففريقا كذبتم) كعيسى ومحمد عليهما السلام

(وفريقا تقتلون) كزكريا ويحيى عليهما السلام ولم يقل قتلتم لوفاق الفواصل ولان المراد وفريقا تقتلونه بعد لانكم تحومون حول قتل محمد عليه السلام لولا أنى أعصمه منكم ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة والمعنى ولقد آتينا بنى اسرائيل أنبياءكم آتيناهم فكلما جاءكم رسول منهم بالحق استكبرتم عن الايمان به فوسط بين الفاء وما تعلقت به همزة التوبيخ والتعجب من شأنهم (وقالوا قلوبنا غلف) جمع أغلف أى هى خلقة مغشاة بأغطية لا يتوصل اليها ما جاء به محمد عليه السلام ولا نفقهه مستعار من الاغلف الذى لم يختن (بل لعنهم الله بكفرهم) فرد الله أن تكون قلوبهم مخلوقة كذلك لانها خلقت على الفطرة والتمكن من قبول الحق وانما طردهم بكفرهم وزيغهم (فقليلا ما يؤمنون) فقليلا صفة مصدر محذوف أى فايمانا قليلا يؤمنون وما مزيدة وهو ايمانهم ببعض الكتاب وقيل القلة بمعنى العدم وقيل غلف تخفيف غلف وقرئ به جمع غلاف أى قلوبنا أوعية للعلوم فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره أو أوعية للعلوم فلو كان ما جئت به حقا لقبلنا (ولما جاءهم) أى اليهود (كتاب من عند الله) أى القرآن (مصدق لما معهم) من كتابهم لا يخالفه (وكانوا من قبل) يعنى القرآن (يستفتحون على الذين كفروا) يستنصرون على المشركين اذا قاتلوهم قالوا اللهم انصرنا بالنبى المبعوث فى آخر الزمان الذى نجد نعته فى التوراة ويقولون لاعدائهم المشركين قد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وارم (فلما جاءهم ما عرفوا) ما موصولة أى ما عرفوه وهو فاعل جاء (كفروا) بغيا وحسدا وحرصا على الرياسة (فلعنة الله على الكافرين) أى عليهم وضعا للظاهر موضع المضمر للدلالة على أن اللعنة لحقتهم لكفرهم واللام للعهد أو للجنس ودخلوا فيه دخولا أوليا أو جواب لما الاولى مضمر وهو نحو كذبوا به أو أنكروه أو كفروا جواب الاولى والثانية لان مقتضاهما واحد وما فى (بئسما) نكرة موصوفة مفسرة لفاعل بئس أى بئس شئ (اشتروا به أنفسهم) أى باعوه والمخصوص بالذم (أن يكفروا بما أنزل الله) يعنى القرآن (بغيا) مفعول له أى حسدا وطلبا لما ليس لهم وهو علة اشتروا (أن ينزل الله) لان ينزل أو على أن ينزل أى حسدوه على ان ينزل الله (من فضله) الذى هو الوحى (على من يشاء من عباده) وهو محمد عليه السلام (فباؤا بغضب على غضب) فصاروا أحقاء بغضب مترادف لانهم كفروا بنبى الحق وبغوا عليه أو كفروا بمحمد بعد عيسى عليهما السلام أو بعد قولهم عزير ابن الله وقولهم يد الله مغلولة وغير ذلك (وللكافرين عذاب مهين) مذل يسماو بابه غير مهموز أبو عمرو وينزل بالتخفيف مكى وبصرى (واذا قيل لهم) لهؤلاء اليهود (آمنوا بما أنزل الله) يعنى القرآن أو هو مطلق يتناول كل كتاب (قالوا

الله عليهما وسلم (وفريقا تقتلون) يعنى مثل زكرياء ويحيى وسائر من قتلوه وذلك ان اليهود كانوا اذا جاءهم رسول بما لا يهوون كذبوه فان تهيأ لهم قتله قتلوه وانما كانوا كذلك لارادتهم الدنيا وطلب الرياسة (وقالوا) يعنى اليهود (قلوبنا غلف) جمع أغلف وهو الذى عليه غشاوة فلا يعى ولا يفقه قال ابن عباس غلف بضم اللام جمع غلاف والمعنى أن قلوبنا أوعية للعلم فلا تحتاج الى علمك وقيل أوعية من الوعى لا تسمع حديثا الا وعته الا حديثك فانها لا تعيه ولا تعقله ولو كان خيرا لفهمته ووعته قال الله تعالى (بل لعنهم الله بكفرهم) أى طردهم وأبعدهم من كل خير وسبب كفرهم انهم اعترفوا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ثم انهم أنكروه وجحدوه فلهذا لعنهم الله تعالى (فقليلا ما يؤمنون) أى لم يؤمن منهم الا قليل لان من آمن من المشركين كان أكثر منهم ﴿قوله عز وجل (ولما جاءهم كتاب من عند الله) يعنى القرآن (مصدق لما معهم) يعنى التوراة وهذا التصديق فى صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لان نبوته وصفته ثابتة فى التوراة (وكانوا) يعنى اليهود (من قبل) أى من قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم (يستفتحون) أى يستنصرون به (على الذين كفروا) يعنى مشركى العرب وذلك انهم كانوا اذا أحزنهم أمر ودهمهم عدو يقولون اللهم انصرنا بالنبى المبعوث فى آخر الزمان الذى نجد صفته فى التوراة فكانوا ينصرون وكانوا يقولون لاعدائهم من المشركين قد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وارم (فلما جاءهم ما عرفوا) أى الذى عرفوه يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم عرفوا نعته وصفته وانه من غير بنى اسرائيل (كفروا به) أى جحدوه وأنكروه بغيا وحسدا (فلعنة الله على الكافرين بئسما اشتروا به أنفسهم) أى بئس شئ اشتروا به أنفسهم حين استبدلوا الباطل بالحق واشتروا بمعنى باعوا والمعنى بئس ما باعوا به حظ أنفسهم (أن يكفروا بما أنزل الله) يعنى القرآن (بغيا) أى حسدا (أن ينزل الله من فضله) يعنى الكتاب والنبوة (على من يشاء من عباده) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (فباؤا) أى فرجعوا (بغضب على غضب) أى مع غضب قال ابن عباس الغضب الاول بتضييعهم التوراة وتبديلها والثانى بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل الاول بكفرهم بعيسى والانجيل والثانى بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وقيل الاول بعبادتهم العجل والثانى بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم (وللكافرين) يعنى الجاحدين نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من الناس كلهم (عذاب مهين) أى يهانون فيه (واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله) يعنى بالقرآن وقيل بكل ما أنزل الله (قالوا

نؤمن بما أنزل علينا) أي التوراة (ويكفرون بما وراءه) أي قالوا ذلك والحال أنهم يكفرون بما وراء التوراة (وهو الحق مصدقاً لما معهم) غير مخالف له وفيه رد لمقالتهم لانهم اذا كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها ومصدقاً حال مؤكدة (قل فلم تقتلون أنبياء الله) أي فلم قتلتم فوضع المستقبل موضع الماضي ويدل عليه قوله (من قبل ان كنتم مؤمنين) أي من قبل محمد عليه السلام اعتراض عليهم بقتلهم الانبياء مع ادعائهم الايمان بالتوراة والتوراة لاتسوغ قتل الانبياء قيل قتلوا في يوم واحد ثلثمائة نبي في بيت المقدس (ولقد جاءكم موسى بالبينات) بالآيات التسع وأدغم الدال في الجيم حيث كان أبو عمرو وحمزة وعلي (ثم اتخذتم العجل) الها (من بعده) من بعد خروج موسى عليه السلام الى الطور (وأنتم ظالمون) هو حال أي عبدتم العجل وأنتم واضعون العبادة غير موضعها أو اعتراض أي وأنتم قوم عادتكم الظلم (واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم

بقوة) كرر ذكر رفع الطور لما نيط به من زيادة ليست مع الاولى (واسمعوا) ما أمرتم به في التوراة (قالوا سمعنا) قولك (وعصينا) أمرك وطابق قوله جوابهم من حيث انه قال لهم اسمعوا وليكن سماعكم سماع تقبل وطاعة فقالوا سمعنا ولكن لا سماع طاعة (وأشربوا في قلوبهم العجل) أي تداخلهم حبه والحرص على عبادته كما يتداخل الصبغ الثوب وقوله في قلوبهم بيان لمكان الاشراب والمضاف وهو الحب محذوف (بكفرهم) بسبب كفرهم واعتقادهم التشبيه (قل بئسما يأمركم به ايمانكم) بالتوراة لانه ليس في التوراة عبادة العجل واضافة الامر الى ايمانهم تهكم وكذا اضافة الايمان اليهم (ان كنتم مؤمنين) تشكيك في ايمانهم وقدح في صحة دعواهم له (قل ان كانت لكم الدار الآخرة) أي الجنة (عند الله) ظرف ولكم خبر كان (خالصة) حال من الدار الآخرة أي سالمة لكم ليس لاحد سواكم فيها حق يعني ان صح قولكم لن يدخل الجنة الا من كان هودا (من دون الناس) هو للجنس (فتمنوا الموت ان كنتم صادقين) فيما تقولون لان من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق اليها تخلصاً من الدار ذات الشوائب كما نقل عن العشرة المبشرين بالجنة ان كل واحد منهم يحب الموت ويحن اليه (ولن يتمنوه أبدا) هو نصب على الظرف أي لن يتمنوه ما عاشوا (بما قدمت أيديهم) بما أسلفوا من الكفر بمحمد عليه السلام وتحريف كتاب الله وغير ذلك وهو من المعجزات لانه اخبار بالغيب وكان كما أخبر به كقوله ولن تفعلوا ولو تمنوه لنقل ذلك كما نقل سائر الحوادث (والله عليم بالظالمين) تهديد لهم (ولتجدنهم

لتجدنهم

نؤمن بما أنزل علينا) يعني التوراة وما أنزل على أنبيائهم (ويكفرون بما وراءه) أي بما سواه من الكتب وقيل بما بعده يعني الانجيل والقرآن (وهو الحق) يعني القرآن (مصدقاً لما معهم) يعني التوراة (قل) يا محمد (فلم تقتلون أنبياء الله من قبل) انما أضاف القتل للمخاطبين من اليهود وان كان سلفهم قتلوا لانهم رضوا بفعلهم قيل اذا عملت المعصية في الارض فمن كرهها وأنكرها برئ منها ومن رضيها كان من أهلها (ان كنتم مؤمنين) أي بالتوراة وقد نهيتم فيها عن قتل الانبياء ﴿قوله عز وجل (ولقد جاءكم موسى بالبينات) أي بالدلالات الواضحة والمعجزات الباهرة (ثم اتخذتم العجل من بعده) أي من بعد موسى لما ذهب الى الميقات (وأنتم ظالمون) انما كرره تبكيتاً لهم وتأكيداً للحجة عليهم (واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا) أي استجيبوا وأطيعوا أي فيما أمرتم به (قالوا سمعنا) يعني قولك (وعصينا) يعني أمرك وقيل انهم لم يقولوا بألسنتهم ولكن لما سمعوه وتلقوه تلقوه بالعصيان فنسب ذلك اليهم (وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم) أي تداخل حبه في قلوبهم والحرص على عبادته كما يتداخل الصبغ في الثوب وقيل ان موسى أمر أن يبرد العجل ويذرى في النهر وأمرهم أن يشربوا منه فمن بقي في قلبه شئ من حب العجل ظهر سحالة الذهب على شاربه (قل بئسما يأمركم به ايمانكم) أي بان تعبدوا العجل والمعنى بئس الايمان ايمان يأمر بعبادة العجل (ان كنتم مؤمنين) أي بزعمكم وذلك انهم قالوا نؤمن بما أنزل علينا فكذبهم الله تعالى بذلك في قوله تعالى (قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس) وذلك أن اليهود ادعوا دعاوى باطلة منها قولهم لن يدخل الجنة الا من كان هودا وقولهم نحن أبناء الله وأحباؤه فكذبهم الله وألزمهم الحجة فقال قل يا محمد لليهود ان كانت لكم الدار الآخرة يعني الجنة خالصة لكم دون الناس (فتمنوا الموت) أي فاطلبوه واسألوه لان من علم أن الجنة مأواه وأنه له حن اليها ولا سبيل الى دخولها الا بعد الموت فاستعجلوا بالتمني (ان كنتم صادقين) أي في قولكم ودعواكم روى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لو تمنوا الموت لغص كل انسان بريقه وما بقي على وجه الارض يهودي الامات قال الله تعالى (ولن يتمنوه أبدا) أي لعلمهم انهم في دعواهم كاذبون (بما قدمت أيديهم) يعني من الاعمال السيئة وانما أضاف العمل الى اليد لان أكثر جنايات الانسان تكون من يده (والله عليم بالظالمين) فيه تخويف وتهديد لهم وانما خصهم بالظلم لانه أعم من الكفر لان كل كافر ظالم وليس كل ظالم كافراً فلهذا كان أعم وكانوا أولى به (ولتجدنهم) اللام للقسم والنون للتوكيد تقديره والله

أحرص الناس) مفعولا وجدهم وأحرص (على حياة) التنكير يدل على أن المراد حياة مخصوصة وهي الحياة المتطاولة ولذا كانت القراءة بها أوقع من قراءة أبي على الحياة (ومن الذين أشركوا) هو محمول على المعنى لان معنى أحرص الناس أحرص من الناس نعم قد دخل الذين أشركوا تحت الناس ولكنهم أفردوا بالذكر لان حرصهم شديد كما ان جبريل وميكائيل خصا بالذكر وان دخلا تحت الملائكة أو أريد وأحرص من الذين أشركوا فحذف لدلالة أحرص الناس عليه وفيه توبيخ عظيم لان الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة ولا يعرفون الا الحياة الدنيا فحرصهم عليها لا يستبعد لانها جنتهم فاذا زاد في الحرص من له كتاب وهو مقر بالجزاء كان حقيقا باعظم التوبيخ وانما زاد حرصهم على الذين أشركوا لانهم علموا انهم صائرون الى النار لعلمهم بحالهم والمشركون لا يعلمون ذلك وقوله (يود أحدهم لو يعمر ألف سنة) بيان لزيادة حرصهم على طريق الاستئناف وقيل أراد بالذين أشركوا المجوس لانهم كانوا يقولون لملوكهم عش ألف نيروز وعن ابن عباس رضي الله عنهما هو قول الاعاجم زه هزار سال وقيل ومن الذين أشركوا كلام مبتدأ أي ومنهم ناس يود أحدهم على حذف الموصوف والذين أشركوا على هذا مشار به الى اليهود لانهم قالوا عزير ابن الله والضمير في (وما هو بمزحزحه من العذاب) لاحدهم وقوله (أن يعمر) فاعل بمزحزحه أي وما أحدهم بمن يزحزحه من النار تعميره ويجوز أن يكون هو مبهما وان يعمر موضحه والزحزحة التبعيد والانحاء قال في جامع العلوم وغيره لو يعمر بمعنى أن يعمر فلو هنا نائبة عن ان وان مع الفعل في تأويل المصدر وهو مفعول يود أي يود أحدهم تعمير ألف سنة (والله بصير بما يعملون) أي بعمل هؤلاء الكفار فيجازيهم عليه وبالتاء يعقوب (قل من كان عدوا لجبريل) بفتح الجيم وكسر الراء بلا همز مكي و بفتح الراء والجيم والهمز مشبعا كوفي غير حفص و بكسر الراء والجيم بلا همز غيرهم ومنع الصرف للتعريف والعجمة ومعناه عبد الله لان جبر هو العبد بالسريانية وايل اسم الله روي ان ابن صوريا من أحبار اليهود حاج النبي صلى الله عليه وسلم وسأله عمن يهبط عليه بالوحي فقال جبريل فقال ذاك عدونا ولو كان غيره لآمنا بك وقد عادانا مرارا وأشدها انه أنزل على نبينا ان بيت المقدس سيخربه بختنصر فبعثنا من يقتله فلقيه

لتجدنهم يا محمد يعني اليهود (أحرص الناس على حياة) أي حياة متطاولة والحرص أشد الطلب (ومن الذين أشركوا) قيل هو متصل بما قبله ومعطوف عليه والمعنى وأحرص من الذين أشركوا فان قلت الذين أشركوا قد دخلوا تحت الناس في قوله أحرص الناس فلم أفردهم بالذكر قلت أفردهم بالذكر لشدة حرصهم وفيه توبيخ عظيم لليهود لان الذين لا يؤمنون بالمعاد ولا يعرفون الا الحياة الدنيا لا يستبعد حرصهم عليها فاذا زاد عليهم في الحرص من له كتاب وهو مقر بالبعث والجزاء كان حقيقا بالتوبيخ العظيم وقيل ان الواو واو استئناف تقديره ومن الذين أشركوا أناس (يود أحدهم) وهم المجوس سموا بذلك لانهم يقولون بالنور والظلمة يود أي يتمنى أحدهم (لو يعمر ألف سنة) أي تعمير ألف سنة وانما خص الالف لانها نهاية العقود ولانها تحية المجوس فيما بينهم يقولون زه هزار سال أي عش ألف سنة وألف نيروز وألف مهرجان فهذه تحيتهم والمعنى أن اليهود أحرص من المجوس الذين يقولون ذلك (وما هو بمزحزحه) أي بمباعده (من العذاب) أي النار (أن يعمر) أي لو عمر طول عمره لا ينقذه من العذاب (والله بصير بما يعملون) أي لا يخفى عليه خافية من أحوالهم ۞ قوله عز وجل (قل من كان عدوا لجبريل) قال ابن عباس سبب نزول هذه الآية ان عبد الله بن صوريا حبر من أحبار اليهود قال للنبي صلى الله عليه وسلم أي ملك يأتيك من السماء قال جبريل قال ذلك عدونا ولو كان ميكائيل لآمنا بك ان جبريل ينزل بالعذاب والشدة والخسف وانه عادانا مرارا وأشد ذلك علينا ان الله أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخرب على يد رجل يقال له بختنصر فلما كان زمنه بعثنا من يقتله فلقيه ببابل غلاما مسكينا فأخذه ليقتله فدفع عنه جبريل وقال ان كان الله أمره بهلاككم فلن تسلط عليه وان لم يكن هو فعلى أي حق تقتله فلما كبر ذلك الغلام وقوي غزانا وخرب بيت المقدس فلهذا نتخذه عدوا فأنزل الله هذه الآية وقيل قالوا ان الله أمره أن يجعل النبوة فينا فجعلها في غيرنا فاتخذناه عدوا وقيل ان عمر بن الخطاب كان له أرض بأعلى المدينة وكان ممره اليها على مدرس اليهود فكان يجلس اليهم ويسمع كلامهم فقالوا يوما ما في أصحاب محمد أحب الينا منك وانا لنطمع فيك فقال عمر والله ما آتيكم لحبكم ولا أسألكم لاني شاك في ديني وانما أدخل عليكم لازداد بصيرة في أمر محمد صلى الله عليه وسلم وأرى آثاره في كتابكم فقالوا من صاحب محمد الذي يأتيه من الملائكة قال جبريل قالوا ذلك عدونا يطلع محمدا على سرنا وهو صاحب كل عذاب وخسف وشدة وان ميكائيل يجيء بالخصب والسلامة فقال لهم تعرفون جبريل وتنكرون محمدا صلى الله عليه وسلم قالوا نعم قال فأخبروني عن منزلة جبريل وميكائيل من الله تعالى قالوا جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره وميكائيل عدو لجبريل فقال عمر أشهد ان من كان عدوا لاحدهما كان عدوا للآخر ومن كان عدوا لهما كان عدو الله ثم رجع عمر الى النبي صلى الله عليه وسلم فوجد جبريل قد سبقه بالوحي فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآيات وقال لقد وافقك ربك يا عمر فقال عمر والله لقد رأيتني بعد ذلك في ديني أصلب من الحجر والاقرب ان سبب

ببابل غلاما مسكينا فدفع عنه جبريل وقال ان كان ربكم أمره بهلاككم فانه لا يسلطكم عليه وان لم يكن اياه فعلى أى ذنب تقتلونه **(فانه نزله)** فان جبريل نزل القرآن ونحو هذا الاضمار أعنى اضمار مالم يسبق ذكره فيه فخامة حيث يجعل لفرط شهرته كانه يدل على نفسه ويكتفى عن اسمه الصريح بذكر شئ من صفاته (على قلبك) أى حفظه اياك وخص القلب لانه محل الحفظ كقوله نزل به الروح الامين على قلبك وكان حق الكلام أن يقال على قلبى ولكن جاء على حكاية كلام الله كما تكلم به وانما استقام أن يقع فانه نزله جزاء للشرط لان تقديره ان عادى جبريل أحد من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته حيث نزل كتابا مصدقا للكتب بين يديه فلو انصفوا لاحبوه وشكروا له صنيعه فى انزاله ما ينفعهم ويصحح المنزل عليهم وقيل جواب الشرط محذوف تقديره من كان عدوا لجبريل فليمت غيظا فانه نزل الوحى على قلبك (باذن الله) بامره (مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين) رد على اليهود حين قالوا ان جبريل ينزل بالحرب والشدة فقيل فانه ينزل بالهدى والبشرى أيضا (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال) بصرى وحفص وميكائل باختلاس الهمزة كميكاعل مدنى وميكائيل بالمد وكسر الهمزة مشبعة غيرهم وخص الملكان بالذكر لفضلهما كانهما من جنس آخر اذ التغاير فى الوصف ينزل منزلة التغاير فى الذات (فان الله عدو للكافرين) أى لهم فجاء بالظاهر ليدل على ان الله انما عاداهم لكفرهم وان عداوة الملائكة كفر كعداوة الانبياء ومن عاداهم عاداه الله (ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها الا الفاسقون) المتمردون من الكفرة واللام للجنس والاحسن أن تكون اشارة الى أهل الكتاب وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال ابن صوريا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ماجئتنا بشئ نعرفه وما أنزل عليك من آية فنتبعك بها فنزلت الواو فى (أوكلما) للعطف على محذوف تقديره اكفروا بالآيات البينات وكلما (عاهدوا عهدا نبذه) نقضه ورفضه وقال (فريق منهم) لان منهم من لم ينقض (بل أكثرهم لا يؤمنون) بالتوراة وليسوا من الدين فى شئ فلا يعدون نقض المواثيق ذنبا ولا يبالون به (ولما جاءهم رسول من عند الله) محمد صلى الله عليه وسلم (مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب

هذه العداوة كون جبريل كان ينزل على النبى صلى الله عليه وسلم بالوحى لان قوله فانه نزله على قلبك مشعر بذلك وقوله **(فانه نزله)** يعنى جبريل نزل بالقرآن كناية عن غير مذكور **(على قلبك)** يا محمد وانما خص القلب بالذكر لانه محل الحفظ **(باذن الله)** أى بامره **(مصدقا)** أى موافقا **(لما بين يديه)** أى لما قبله من الكتب **(وهدى وبشرى للمؤمنين)** أى فى القرآن هداية للمؤمنين الى الاعمال الصالحة التى يترتب عليها الثواب وبشرى لهم بثوابها اذا أتوا بها **(من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال)** لما بين فى الآية الاولى ان من كان عدوا لجبريل لاجل انه نزل بالقرآن على قلب محمد صلى الله عليه وسلم وجب أن يكون عدوا لله لان الله تعالى هو الذى نزله على محمد بين فى هذه الآية ان كل من كان عدوا لاحد هؤلاء فانه عدو لجميعهم وبين ان الله عدوه بقوله **(فان الله عدو للكافرين)** فاما عداوتهم لله فانها لا تضره ولا تؤثر وعداوته لهم تؤديهم الى العذاب الدائم الذى لا ضرر أعظم منه وقيل المراد من عداوتهم لله عداوتهم لاوليائه وأهل طاعته فهو كقوله انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله أى يحاربون أولياء الله وأهل طاعته وقوله وملائكته ورسله يعنى ان من عادى واحدا منهم فقد عادى جميعهم ومن كفر بواحد منهم فقد كفر بجميعهم وجبريل وميكائيل انما خصهما بالذكر وان كانا داخلين فى الملائكة لبيان شرفهما وفضلهما وعلو منزلتهما وقدم جبريل على ميكائيل لفضله عليه لان جبريل ينزل بالوحى الذى هو غذاء الارواح وميكائيل ينزل بالمطر الذى هو سبب غذاء الابدان وجبريل وميكائيل اسمان أعجميان ومعناهما عبد الله وعبد الله لان جبر وميك بالسريانية هو العبد وايل هو الله **(ولقد أنزلنا اليك آيات بينات)** قال ابن عباس هذا جواب ابن صوريا حيث قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا محمد ماجئتنا بشئ نعرفه وما أنزل عليك من آية بينة فنتبعك بها فانزل الله هذه الآيات ومعنى بينات واضحات مفصلات بالحلال والحرام والحدود والاحكام **(وما يكفر بها)** أى وما يجحد بهذه الآيات **(الا الفاسقون)** أى الخارجون عن طاعتنا وما أمروا به **(أوكلما عاهدوا عهدا)** قال ابن عباس لما ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أخذ عليهم من العهود فى محمد صلى الله عليه وسلم وان يؤمنوا به قال مالك بن الصيف والله ما عهد الينا فى محمد عهد فانزل الله هذه الآية أوكلما استفهام انكار عاهدوا عهدا هو قولهم انه قد أظل زمان نبى مبعوث وانه فى كتابنا وقيل انهم عاهدوا الله عهودا كثيرة ثم نقضوها **(نبذه)** أى طرح العهد ونقضه **(فريق منهم)** يعنى اليهود **(بل أكثرهم لا يؤمنون)** يعنى كفر فريق منهم بنقض العهد وكفر فريق منهم بالجحد للحق **(ولما جاءهم رسول من عند الله)** يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم **(مصدق لما معهم)** يعنى مصدق بصحة التوراة ونبوة موسى عليه الصلاة والسلام وقيل ان التوراة بشرت بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم كان مجرد مبعثه مصدقا للتوراة **(نبذ فريق من الذين أوتوا**

الـكتاب كتاب الله وراء ظهورهم) قيل أراد بالكتاب القرآن وقيل التوراة وهو الاقرب لان النبذ لا يكون الا بعد التمسك ولم يتمسكوا بالقرآن أما نبذهم التوراة فانهم كانوا يقرؤنها ولا يعملون بها وقيل انهم أدرجوها في الحرير وحلوها بالذهب ولم يعملوا بما فيها (كأنهم لا يعلمون) يعني انهم نبذوا كتاب الله ورفضوه عن علم به ومعرفة وانما حملهم على ذلك عداوة النبي صلى الله عليه وسلم وهم علماء اليهود الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وكتموا أمره وكان أولئك النفر قليلا * قوله عز وجل (واتبعوا ما تتلو الشياطين) يعني اليهود نبذوا كتاب الله واتبعوا ما تتلو الشياطين ومعنى تتلو تقرأ من التلاوة وقيل معناه تفتري وتكذب (على ملك سليمان) وهو قولهم ان سليمان ملك الناس بالسحر وقيل على ملك سليمان أي على عهده وزمانه * وقصة ذلك ان الشياطين كتبوا السحر والنيرنجيات على لسان آصف هذا ما علم آصف بن برخيا سليمان الملك وكتبوه ودفنوه تحت كرسيه وذلك حين نزع الله عنه الملك ولم يشعر بذلك وقيل ان بني اسرائيل اشتغلوا بتعلم السحر في زمانه فمنعهم سليمان من ذلك وأخذ كتبهم ودفنها تحت سريره فلما مات استخرجها الشياطين وقالوا للناس انما ملككم سليمان بهذا فتعلموه فأما صلحاء بني اسرائيل وعلماؤهم فانكروا ذلك وقالوا معاذ الله أن يكون هذا العلم من علم سليمان وأما السفلة منهم فقالوا هذا هو علم سليمان وأقبلوا على تعليمه وتركوا كتب أنبيائهم وفشت الملامة لسليمان فلم تزل هذه حالهم الى ان بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه براءة سليمان عليه السلام فقال تعالى واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان (وما كفر سليمان) يعني بالسحر ولم يعمل به وفيه تنزيه سليمان عن السحر وذلك ان اليهود أنكروا نبوة سليمان وقالوا انما حصل له هذا الملك وسخرت الجن والانس له بسبب السحر وقيل ان السحرة من اليهود زعموا أنهم أخذوا السحر عن سليمان فبرأه الله من ذلك وقيل ان بعض أحبار اليهود قال ألا تعجبون من محمد يزعم أن سليمان كان نبيا وما كان الا ساحرا فانزل الله تعالى وما كفر سليمان يعني أن سليمان كونه نبيا ينافي كونه ساحرا كافرا ثم بين الله تعالى ان الذي برأه منه لاحق بغيره فقال (ولكن الشياطين كفروا) يعني ان الذين اتخذوا السحر لانفسهم هم الذين كفروا ثم بين سبب كفرهم فقال تعالى (يعلمون الناس السحر) يعني ما كتبت لهم الشياطين من كتب السحر وقيل يحتمل أن يكون يعلمون يعني اليهود الذين عنوا بقوله واتبعوا وسمي السحر سحرا لخفاء سببه فلا يفعل الا في خفية وقيل معنى السحر الازالة وصرف الشيء عن وجهه تقول العرب ما سحرك عن كذا أي ما صرفك عنه فكان الساحر لما أرى الباطل في صورة الحق فقد سحر الشيء عن وجهه أي صرفه هذا أصله من حيث اللغة وأما حقيقته فقد قيل انه عبارة عن التمويه والتخييل ومذهب أهل السنة ان له وجودا وحقيقة والعمل به كفر وذلك اذا اعتقد ان الكواكب هي المؤثرة في قلب الاعيان وروي عن الشافعي أنه قال السحر يخيل ويمرض وقد يقتل حتى أوجب القصاص على من قتل به وقيل ان السحر يؤثر في قلب الاعيان فيجعل الانسان على صورة الحمار والحمار على صورة الكلب وقد يطير الساحر في الهواء وهذا القول ضعيف عند أهل السنة لانهم قالوا ان الله تعالى هو الخالق الفاعل لهذه الاشياء عند عمل الساحر لذلك لأن الساحر هو الفاعل لها المؤثر فيها والاصح ان السحر يخيل ويؤثر في الابدان بالامراض والجنون والموت ويدل على ذلك ان للكلام تأثيرا في الطباع فقد يسمع الانسان ما يكره فيحم وقد مات قوم بكلام سمعوه فالسحر بمنزلة العلل في الابدان وأما حكمه فانه من الكبائر التي نهي عنها ويحرم تعلمه لما روي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اجتنبوا السبع الموبقات قيل يا رسول الله وما هن قال الاشراك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله الا بالحق وأكل مال اليتيم والزنا والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات أخرجاه في الصحيحين فعد رسول الله صلى الله عليه وسلم السحر من الكبائر وثناه بالشرك وأمرنا باجتنابه وقوله الموبقات يعني المهلكات والسحر على قسمين

الـكتاب) أي التوراة والذين أوتوا الكتاب اليهود (كتاب الله) يعني التوراة لانهم بكفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم المصدق لما معهم كافرون بها نابذون لها أو كتاب الله القرآن نبذوه بعد ما لزمهم تلقيه بالقبول (وراء ظهورهم) مثل لتركهم واعراضهم عنه مثل بما يرمى به وراء الظهور استغناء عنه وقلة التفات اليه (كأنهم لا يعلمون) انه كتاب الله (واتبعوا ما تتلو الشياطين) أي نبذ اليهود كتاب الله واتبعوا كتب السحر والشعوذة التي كانت تقرؤها (على ملك سليمان) أي على عهد ملكه وفي زمانه وذلك ان الشياطين كانوا يسترقون السمع ثم يضمون الى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها ويلقونها الى الكهنة وقد دونوها في كتب يقرؤنها ويعلمونها الناس وفشا ذلك في زمن سليمان عليه السلام حتى قالوا ان الجن تعلم الغيب وكانوا يقولون هذا علم سليمان وما تم لسليمان ملكه الا بهذا العلم وبه سخر الجن والانس والريح (وما كفر سليمان) تكذيب للشياطين ودفع لما بهتت به سليمان من اعتقاد السحر والعمل به (ولكن الشياطين) هم الذين (كفروا) باستعمال السحر وتدوينه ولكن بالتخفيف الشياطين بالرفع شامي وحمزة وعلي (يعلمون الناس السحر) في موضع الحال أي كفروا معلمين الناس السحر قاصدين به اغواءهم واضلالهم

أحدهما يكفر به صاحبه وهو أن يعتقد أن القدرة لنفسه في ذلك وهو المؤثر أو يعتقد ان الكواكب هي المؤثرة الفعالة فاذا انتهى به السحر الى هذه الغاية صار كافرا بالله تعالى و يجب قتله لما روي عن جندب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حد الساحر ضربه بالسيف أخرجه الترمذي والقسم الثاني من السحر وهو التخييل الذي يشاكل البرنجيات والشعبذة ولا يعتقد صاحبه لنفسه فيه قدرة ولا أن الكواكب هي المؤثرة و يعتقد أن القدرة لله تعالى وانه هو المؤثر فهذا القدر لا يكفر به صاحبه ولكنه معصية وهو من الكبائر و يحرم فعله فان قتل بسحره قتل قصاصا لما روي عن مالك انه بلغه ان حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قتلت جارية لها سحرتها وقد كانت دبرتها فامرت بها فقتلت أخرجه في الموطأ ۞ قوله عز وجل (وما انزل على الملكين) أي و يعلمون الذي أنزل على الملكين والانزال هنا بمعنى الالهام والتعليم أي ما ألهما وعلما وقرئ في الشاذ الملكين بكسر اللام قال هما رجلان ساحران كانا ببابل وقيل علجان ووجهه أن الملائكة لا يعلمون السحر والقراءة المشهورة بفتح اللام فان قلت كيف يجوز أن يضاف الى الله تعالى انزال ذلك على الملائكة وكيف يجوز للملائكة تعليم السحر قلت قال ابن جرير الطبري ان الله تعالى عرف عباده جميع ما أمرهم به وجميع ما نهاهم عنه ثم أمرهم ونهاهم بعد العلم منهم بما يؤمرون به و ينهون عنه ولو كان الامر على غير ذلك لما كان للامر والنهي معنى مفهوم والسحر مما نهى عباده من بني آدم عنه فغير منكر أن يكون الله تعالى علمه الملكين اللذين سماهما في تنزيله وجعلهما فتنة لعباده من بني آدم كما أخبر عنهما أنهما يقولان لمن جاء يتعلم ذلك منهما انما نحن فتنة فلا تكفر ليختبر بهما عباده الذين نهاهم عن السحر وعن التفريق بين المرء وزوجه فيتمحض المؤمن بتركه التعليم منهما و يخزي الكافر بتعلمه الكفر والسحر منهما و يكون الملكان في تعليمهما ما علما من ذلك مطيعين لله تعالى اذ كان عن اذن الله تعالى لهما بتعليم ذلك وغير ضارهما سحر من سحر ممن تعلم ذلك منهما بعد نهيهما اياه عنه بقولهما انما نحن فتنة فلا تكفر اذ كانا قد أديا ما أمرا به وقال غيره انهما لا يتعمدان ذلك بل يصفان السحر و يذكران بطلانه و يأمران باجتنابه فالشقي من ترك نصحهما وتعلم السحر من وصفهما والسعيد من قبل نصحهما وترك تعلم السحر منهما وقيل ان الله تعالى امتحن الناس بهما في ذلك الزمان فالشقي من تعلم السحر منهما فيكفر به والسعيد من تركه فيبقى على ايمانه ولله تعالى أن يمتحن عباده بما شاء كما امتحن بني اسرائيل بنهر طالوت بقوله فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني (ببابل) قيل هي بابل العراق بارض الكوفة سميت بذلك لتبلبل الالسنة بها عند سقوط صرح نمرود وقيل انها بابل نهاوند والاول أصح وأشهر (هاروت وماروت) اسمان سريانيان ۞ وقصة الآية على ما ذكره ابن عباس وغيره قالوا ان الملائكة لما رأوا ما يصعد الى السماء من أعمال بني آدم الخبيثة في زمن ادريس عليه السلام عيروهم وقالوا هؤلاء الذين جعلتهم في الارض واخترتهم وهم يعصونك فقال تعالى لو أنزلتكم الى الارض وركبت فيكم ما ركبت فيهم لركبتم مثل ما ركبوا قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا ان نعصيك قال الله تعالى فاختاروا ملكين من خياركم اهبطهما الى الارض فاختاروا هاروت وماروت وكانا من أصلح الملائكة وأعبدهم وكان اسم هاروت عزا وماروت عزايا فغير اسمهما لما قارفا الذنب وركب الله فيهما الشهوة وأهبطهما الى الارض وأمرهما أن يحكما بين الناس بالحق ونهاهما عن الشرك والقتل بغير الحق والزنا وشرب الخمر فكانا يقضيان بين الناس يومهما فاذا أمسيا ذكرا اسم الله الاعظم وصعدا الى السماء فما مر عليهما شهر حتى افتتنا وقيل بل افتتنا في أول يوم وذلك انه اختصم اليهما امرأة يقال لها الزهرة وكانت من أجمل أهل فارس وقيل كانت ملكة فلما رأياها أخذت بقلوبهما فقال أحدهما لصاحبه هل سقط في نفسك مثل الذي سقط في نفسي قال نعم فراوداها عن نفسها فابت وانصرفت ثم عادت في اليوم الثاني ففعلا مثل ذلك فابت وقالت لا الا ان تعبدا هذا الصنم وتقتلا النفس وتشربا الخمر فقالا لا سبيل الى هذه الاشياء فان

(وما أنزل على الملكين) الجمهور على ان ما بمعنى الذي وهو نصب عطف على السحر أي و يعلمونهم ما أنزل على الملكين أو على ما تتلوا أي واتبعوا ما أنزل على الملكين (ببابل هاروت وماروت) علمان لهما وهما عطف بيان للملكين والذي أنزل عليهما هو علم السحر ابتلاء من الله للناس من تعلمه منهم وعمل به كان كافرا ان كان فيه رد ما لزم في شرط الايمان ومن تجنبه أو تعلمه لا ليعمل به ولكن ليتوقاه لئلا يغتر به كان مؤمنا قال الشيخ أبو منصور الماتريدي رحمه الله القول بان السحر على الاطلاق كفر خطأ بل يجب البحث عن حقيقته فان كان في ذلك رد ما لزم في شرط الايمان فهو كفر والا فلا ثم السحر الذي هو كفر يقتل عليه الذكور لا الاناث وما ليس بكفر وفيه اهلاك النفس ففيه حكم قطاع الطريق و يستوي فيه المذكر والمؤنث وتقبل توبته اذا تاب ومن قال لا تقبل فقد غلط فان سحرة فرعون قبلت توبتهم وقيل أنزل أي قذف في قلوبهما مع النهي عن العمل قيل انهما ملكان اختارتهما الملائكة لتركب فيهما الشهوة حين عيرت بني آدم فكانا يحكمان في الارض و يصعدان بالليل فهويا زهرة فحملتهما على شرب الخمر فزنيا فرآهما انسان فقتلاه فاختارا عذاب الدنيا على عذاب الآخرة فهما يعذبان منكوسين في جب ببابل وسميت ببابل لتبلبل الالسن بها

الله

الله تعالى قد نهانا عنها فانصرفت ثم عادت في اليوم الثالث ومعها قدح خمر وفي أنفسهما من الميل اليها مافيها فراوداها عن نفسها فعرضت عليهما ماقالت بالامس فقالا الصلاة لغير الله عظيم وقتل النفس عظيم وأهون الثلاثة شرب الخمر فشربا فلما انتشيا وقعا بالمرأة فزنيابها فرآهما انسان فقتلاه خوف الفضيحة وقيل انهما سجدا للصنم وقيل جاءتهما امرأة من أحسن الناس تخاصم زوجها فقال أحدهما للآخر هل سقط في نفسك مثل الذي سقط في نفسي قال نعم قال هل لك أن تقضي لها على زوجها فقال له صاحبه أما تعلم ماعند الله من العقوبة والعذاب فقال له صاحبه أما تعلم ماعند الله من العفو والرحمة فسالاها نفسها فقالت لا الا أن تقضيا لي على زوجي فقضيا ثم سالاها نفسها فقالت لا الا ان تقتلاه فقال أحدهما لصاحبه أما تعلم ماعند الله من العقوبة والعذاب فقال له صاحبه أما تعلم ماعند الله من العفو والرحمة فقتلاه ثم سالاها نفسها فقالت لا الا ان لي صنما أعبده ان أنتما صليتما معي عنده فعلت فقال أحدهما لصاحبه مثل القول الاول فرد عليه مثله فصليا معها عنده فمسخت شهابا وقال على ابن أبي طالب رضي الله عنه قالت لهما لن تدركاني حتى تخبراني بالذي تصعدان به الى السماء فقالا اسم الله الاكبر قالت فما أنتما بمدركي حتى تعلماني اياه فقال أحدهما للآخر علمها فقال اني أخاف الله فقال الآخر فاين رحمة الله فعلمها ذلك فتكلمت به وصعدت الى السماء فمسخها الله كوكبا فذهب بعضهم الى انها هي الزهرة بعينها وأنكر آخرون ذلك وقالوا ان الزهرة من الكواكب السيارة السبعة التي أقسم الله بها فقال فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس والتي فتنت هاروت وماروت كانت امرأة تسمى الزهرة لجمالها وحسنها فلما بغت مسخها الله تعالى شهابا قالوا فلما أمسى هاروت وماروت بعد ماقارفا الذنب هما بالصعود الى السماء فلم تطاوعهما أجنحتهما فعلما ماحل بهما فقصدا ادريس النبي عليه السلام وأخبراه بامرهما وسألاه أن يشفع لهما الى الله عز وجل وقالا له رأينا يصعد لك من العبادة مثل مايصعد لجميع أهل الارض فاشفع لنا الى ربك ففعل ذلك ادريس فخيرهما الله بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا اذ علما انه ينقطع فهما ببابل يعذبان قيل انهما معلقان بشعورهما الى قيام الساعة وقيل انهما منكوسان يضربان بسياط الحديد وقيل ان رجلا قصدهما ليتعلم السحر فوجدهما معلقين بارجلهما مزرقة عيونهما مسودة جلودهما ليس بين ألسنتهما و بين الماء الا قدر أربع اصابع وهما يعذبان بالعطش فلما رأى ذلك هاله فقال لا اله الا الله فلما سمعا كلامه قالا لا اله الا الله من أنت قال رجل من الناس فقالا من أي أمة أنت قال من أمة محمد صلى الله عليه وسلم قالا أوقد بعث محمد صلى الله عليه وسلم قال نعم فقالا الحمد لله وأظهرا الاستبشار فقال الرجل مم استبشاركما قالا انه نبي الساعة وقد دنا انقضاء عذابنا

﴿فصل في القول بعصمة الملائكة﴾ أجمع المسلمون على ان الملائكة معصومون فضلاء واتفق أئمة المسلمين على ان حكم الرسل من الملائكة حكم النبيين سواء في العصمة في باب البلاغ عن الله عز وجل وفي كل شئ ثبتت فيه عصمة الانبياء فكذلك الملائكة وانهم مع الانبياء في التبليغ اليهم كالانبياء مع أممهم ثم اختلفوا في غير المرسلين من الملائكة فذهب طائفة من المحققين وجميع المعتزلة الى عصمة جميع الملائكة عن جميع الذنوب والمعاصي واحتجوا على ذلك بوجوه سمعية وعقلية وذهب طائفة الى ان غير المرسلين من الملائكة غير معصومين واحتجوا على ذلك بوجوه سمعية وعقلية منها قصة هاروت وماروت عن علي وما نقله أهل الاخبار والسير ونقله ابن جرير الطبري في تفسيره عن جماعة من الصحابة والتابعين فنقل قصة هاروت وماروت بالفاظ متقاربة عن علي بن أبي طالب وابن مسعود وكعب الاحبار والسدي والربيع ومجاهد وأجاب من ذهب الى عصمة جميع الملائكة عن قصة هاروت وماروت بان مانقله المفسرون وأهل الاخبار في ذلك لم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شئ وهذه الاخبار انما أخذت من اليهود وقد علم افتراؤهم

على الملائكة والأنبياء وقد ذكر الله عز وجل في هذه الآيات افتراء اليهود على سليمان أولا ثم عطف على ذلك قصة هاروت وماروت ثانيا ومعنى الآية وما كفر سليمان يعني بالسحر الذي افتعله عليه الشياطين واتبعتهم في ذلك اليهود فأخبر عن افترائهم وكذبهم وذكروا أيضا في الجواب عن هذه القصة وأنها باطلة وجوها الأول أن في القصة أن الله تعالى قال للملائكة لو ابتليتم بما ابتليت به بنو آدم لعصيتموني قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نعصيك وفيه رد على الله تعالى وذلك كفر وقد ثبت أنهم كانوا معصومين قبل ذلك فلا يقع هذا منهم الوجه الثاني أنهما خيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة وذلك فاسد لأن الله تعالى لا يخير من أشرك وإن كان قد صح توبتهما فلا عقوبة عليهما الوجه الثالث أن المرأة لما فجرت فكيف يعقل أنها صعدت الى السماء وصارت كوكبا وعظم الله قدرها بحيث أقسم بها في قوله فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس فبان بهذه الوجوه ركة هذه القصة والله أعلم بصحة ذلك وسقمه والأولى تنزيه الملائكة عن كل ما لا يليق بمنصبهم وقوله تعالى (وما يعلمان من أحد حتى يقولا) يعني وما يعلمان أحدا حتى ينصحاه أولا ويقولا (إنما نحن فتنة) أي ابتلاء ومحنة (فلا تكفر) أي لا تتعلم السحر فتعمل به فتكفر قيل يقولان إنما نحن فتنة فلا تكفر سبع مرات فإن أبى قبول نصحهما وصمم على التعليم يقولان له ائت هذا الرماد فبل عليه فإذا فعل ذلك خرج منه نور ساطع في السماء فذلك الإيمان والمعرفة وينزل شيء أسود مثل الدخان حتى يدخل مسامعه وذلك غضب الله تعالى (فيتعلمون منهما) يعني من الملكين (ما يفرقون به بين المرء وزوجه) أي علم السحر الذي يكون سببا في التفريق بين الزوجين كالتمويه والتخييل والنفث في العقد ونحو ذلك مما يحدث الله عنده البغضاء والنشوز والخلاف بين الزوجين ابتلاء من الله تعالى لأن السحر له تأثير في نفسه بدليل قوله (وما هم) يعني السحرة (بضارين به) أي بالسحر (من أحد) أي أحدا (إلا بإذن الله) أي بعلمه وقضائه وتكوينه فالساحر يسحر والله تعالى يقدر ويكون ذلك بقضائه تعالى وقدرته ومشيئته (ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم) يعني السحر لأنهم يقصدون به الشر (ولقد علموا) يعني اليهود (لمن اشتراه) أي اختار السحر (ماله في الآخرة من خلاق) يعني ماله نصيب في الجنة (ولبئس ما شروا به أنفسهم) أي باعوا حظ أنفسهم حيث اختاروا السحر والكفر على الدين والحق (لو كانوا يعلمون) فإن قلت كيف أثبت الله لهم العلم أولا في قوله ولقد علموا على التوكيد القسمي ثم نفاه عنهم آخرا في قوله لو كانوا يعلمون قلت قد علموا أن من اشترى السحر ماله في الآخرة من خلاق ثم مع هذا العلم خالفوا واشتغلوا بالسحر وتركوا العمل بكتاب الله تعالى وما جاءت به الرسل عنادا منهم وبغيا وذلك على معرفة منهم بما لمن فعل ذلك منهم من العقاب فكأنهم حين لم يعملوا بعلمهم كانوا منسلخين منه (ولو أنهم) يعني اليهود (آمنوا) بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (واتقوا) يعني اليهودية والسحر ومآثمهم (لمثوبة من عند الله) أي لكان ثواب الله إياهم (خير) لهم يعني هذا الثواب (لو كانوا يعلمون) يعني ذلك ۞ قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا) سبب نزول هذه الآية أن المسلمين كانوا يقولون راعنا يا رسول الله من المراعاة أي ارعنا سمعك وفرغه لكلامنا وكانت هذه اللفظة سبا قبيحا بلغة اليهود ومعناها عندهم اسمع لا سمعت وقيل من الرعونة إذا أرادوا أن يحمقوا إنسانا قالوا راعنا يعني أحمق فلما سمعت اليهود هذه الكلمة من المسلمين قالوا فيما بينهم كنا نسب محمدا سرا فاعلنوا به الآن فكانوا يأتونه ويقولون راعنا يا محمد ويضحكون فيما بينهم فسمعها سعد بن معاذ رضي الله

تعالى

(وما يعلمان من أحد) وما يعلم الملكان أحدا (حتى يقولا) حتى ينبهاه وينصحاه ويقولا له (إنما نحن فتنة) ابتلاء واختبار من الله (فلا تكفر) بتعلمه والعمل به على وجه يكون كفرا (فيتعلمون منهما) الفاء عطف على قوله يعلمون الناس السحر أي يعلمونهم فيتعلمون من السحر والكفر اللذين دل عليهما قوله كفروا ويعلمون الناس السحر أو على مضمر والتقدير فيأتون فيتعلمون والضمير لما دل عليه من أحد أي فيتعلم الناس من الملكين (ما يفرقون به بين المرء وزوجه) أي علم السحر الذي يكون سببا في التفريق بين الزوجين بأن يحدث الله عنده النشوز والخلاف ابتلاء منه وللسحر حقيقة عند أهل السنة كثرهم الله وعند المعتزلة هو تخييل وتمويه (وما هم بضارين به) بالسحر (من أحد إلا بإذن الله) بعلمه ومشيئته (ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم) في الآخرة وفيه دليل على أنه واجب الاجتناب كتعلم الفلسفة التي تجر الى الغواية (ولقد علموا) أي اليهود (لمن اشتراه) أي استبدل ما تتلو الشياطين على كتاب الله (ماله في الآخرة من خلاق) من نصيب (ولبئس ما شروا به أنفسهم) باعوها وإنما نفى العلم عنهم بقوله (لو كانوا يعلمون) مع إثباته لهم بقوله ولقد علموا على سبيل التوكيد القسمي لأن معناه لو كانوا يعملون بعلمهم جعلهم حين لم يعملوا به كأنهم لا يعلمون (ولو أنهم آمنوا) برسول الله والقرآن (واتقوا) الله فتركوا ما هم عليه من نبذ كتاب الله واتباع كتب الشياطين (لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون) أن ثواب الله خير مما هم فيه وقد علموا لكنه جهلهم لما تركوا العمل بالعلم والمعنى لأثيبوا من عند الله ما هو خير وأوثرت الجملة الاسمية على الفعلية في جواب لو لما فيها من الدلالة على ثبات المثوبة واستقرارها ولم يقل لمثوبة الله خير لأن المعنى لشيء من الثواب خير لهم وقيل لو بمعنى التمني كأنه قيل وليتهم آمنوا ثم ابتدأ لمثوبة من عند الله خير (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا

وقولوا انظرنا) كان المسلمون يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم اذا ألقى عليهم شيأ من العلم راعنا يارسول الله أي راقبنا وانتظرنا حتى نفهمه ونحفظه وكانت لليهود كلمة يتسابون بها عبرانية أو سريانية وهي راعنا فلما سمعوا بقول المؤمنين راعنا افترصوه وخاطبوا به الرسول وهم يعنون به تلك المسبة فنهي المؤمنون عنها وأمروا بما هو في معناها وهو انظرنا من نظره اذا انتظره (واسمعوا) وأحسنوا سماع ما يكلمكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويلقي عليكم من المسائل بآذان

واعية وأذهان حاضرة حتى لاتحتاجوا الى الاستعادة وطلب المراعاة أو واسمعوا اسماع قبول وطاعة ولا يكون سماعكم كسماع اليهود حيث قالوا سمعنا وعصينا (وللكافرين) ولليهود الذين سبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم (عذاب أليم) مؤلم (مايود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم) وبالتخفيف مكي وأبو عمرو (من خير من ربكم) من الاولى للبيان لان الذين كفروا جنس تحته نوعان أهل الكتاب والمشركون والثانية مزيدة لاستغراق الخير والثالثة لابتداء الغاية والخير الوحي وكذلك الرحمة (والله يختص برحمته من يشاء) يعني أنهم يرون أنفسهم أحق بان يوحى اليهم فيحسدونكم وما يحبون أن ينزل عليكم شيء من الوحي والله يختص بالنبوة من يشاء (والله ذو الفضل العظيم) فيه اشعار بان ايتاء النبوة من الفضل العظيم ولما طعنوا في النسخ فقالوا ألا ترون الى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ويقول اليوم قولا ويرجع عنه غدا نزل (ما ننسخ من آية أو ننسها) تفسير النسخ لغة التبديل وشريعة بيان انتهاء الحكم الشرعي المطلق الذي تقرر في أوهامنا استمراره بطريق التراخي فكان تبديلا في حقنا بيانا محضا في حق صاحب الشرع وفيه جواب عن البداء الذي يدعيه منكروه أعني اليهود ومحله حكم يحتمل الوجود والعدم في نفسه لم يلحق به ماينافي النسخ من توقيت أو تأبيد ثبت نصا أو دلالة وشرطه التمكن من عقد القلب عنده دون التمكن من

تعالى عنه ففطن لها وكان يعرف لغتهم فقال لليهود لئن سمعتها من أحد منكم يقولها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأضربن عنقه فقالوا أولستم تقولونها فأنزل الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا أي لكي لايجد اليهود بذلك سبيلا الى شتم رسول الله صلى الله عليه وسلم (وقولوا انظرنا) أي انظر الينا وقيل معناه انتظرنا وتأن بنا وافهمنا (واسمعوا) أي ماتؤمرون به وأطيعوا ونهى الله عباده المؤمنين أن يقولوا لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم راعنا لئلا يتطرق أحد الى شتمه وأمرهم بتوقيره وتعظيمه وأن يتخيروا لخطابه صلى الله عليه وسلم من الالفاظ أحسنها ومن المعاني أدقها وان سألوه يسألوه بتبجيل وتعظيم ولين ولا يخاطبوه بما يسر اليهود (وللكافرين) يعني اليهود (عذاب أليم) أي مؤلم (مايود) أي أي مايحب (الذين كفروا من أهل الكتاب) يعني اليهود (ولا المشركين) يعني عبدة الاوثان لان الكفر اسم جنس تحته نوعان أهل كتاب وهم الذين بدلوا كتابهم وكذبوا الرسل وعبدة الاوثان وهم من عبدوا غير الله (أن ينزل عليكم من خير من ربكم) يعني ما أنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم من الوحي والنبوة وانما كرهت اليهود وأتباعهم من المشركين ذلك حسدا وبغيا منهم على المؤمنين وذلك أن المسلمين قالوا لحلفائهم من اليهود آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم قالوا ما هذا الذي تدعونا اليه بخير مما نحن فيه ولوددنا لو كان خيرا فأنزل الله تعالى هذه الآية تكذيبا لهم (والله يختص برحمته من يشاء) يعني أنه تعالى يختص بنبوته ورسالته من يشاء من عباده ويتفضل بالايمان والهداية على من أحب من خلقه رحمة منه لهم (والله ذو الفضل العظيم) يعني أن كل خير ناله عباده في دينهم ودنياهم فانه منه ابتداء وتفضلا عليهم من غير استحقاق أحد منهم لذلك بل له الفضل والمنة على خلقه ۞ قوله عز وجل (ما ننسخ من آية أو ننسها) الآية وسبب نزولها أن المشركين قالوا ان محمدا يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ويقول اليوم قولا ويرجع عنه غدا ما يقول الا من تلقاء نفسه كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر فأنزل ما ننسخ من آية فبين بهذه الآية وجه الحكمة في النسخ وأنه من عنده لا من عند محمد صلى الله عليه وسلم وأصل النسخ في اللغة يكون بمعنى النقل والتحويل ومنه نسخ الكتاب وهو أن ينقل من كتاب الى كتاب آخر وذلك لايقتضي ازالة الصورة الاولى بل يقتضي اثبات مثله في كتاب آخر فعلى هذا المعنى يكون القرآن كله منسوخا وذلك أنه نسخ من اللوح المحفوظ ونزل جملة واحدة الى سماء الدنيا وقد يكون النسخ بمعنى الرفع والازالة وهو ازالة شيء بشيء يعقبه كنسخ الشمس الظل والشيب الشباب فعلى هذا المعنى يكون بعض القرآن منسوخا وبعضه ناسخا وهو المراد من حكم هذه الآية وهو ازالة الحكم بحكم يعقبه

﴿فصل في حكم النسخ﴾ هو في اصطلاح العلماء عبارة عن رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر عنه والنسخ جائز عقلا وواقع سمعا خلافا لليهود فان منهم من لا ينكره عقلا لكنه منعه سمعا وشذت طائفة قليلة من المسلمين فأنكرت النسخ احتج الجمهور من المسلمين على جواز النسخ ووقوعه بان الدلائل قد دلت على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته لاتصح الا مع القول بالنسخ وهو نسخ شرع من قبله فوجب القطع بالنسخ ولنا على اليهود الزامات منها أن الله تعالى حرم عليهم العمل في يوم السبت ولم يحرمه على من كان قبلهم

ومنها أنه قد جاء في التوراة أن الله تعالى قال لنوح عليه الصلاة والسلام عند خروجه من الفلك اني جعلت كل دابة مأكولا لك ولذريتك وأطلقت ذلك لكم ثم انه تعالى حرم على موسى عليه الصلاة والسلام وعلى بني اسرائيل كثيرا من الحيوانات ومنها أن آدم عليه الصلاة والسلام كان يزوج الاخ للاخت وقد حرمه على من بعده وعلى موسى عليه الصلاة والسلام فثبت بهذا جواز النسخ وحيث ثبت جواز النسخ فقد اختلفوا فيه على وجوه أحدها أن القرآن نسخ جميع الشرائع والكتب القديمة كالتوراة والانجيل وغيرهما الوجه الثاني المراد من النسخ هو نسخ القرآن ونقله من اللوح المحفوظ الى سماء الدنيا الوجه الثالث وهو الصحيح الذي عليه جمهور العلماء أن المراد من النسخ هو رفع حكم بعض الآيات بدليل آخر يأتي بعده وهو المراد بقوله تعالى ما ننسخ من آية أو ننساها نأت بخير منها أو مثلها لان الآية اذا أطلقت فالمراد بها آيات القرآن لانه هو المعهود عندنا ﴿مسئلة﴾ قال الشافعي رضي الله عنه الكتاب لا ينسخ بالسنة المتواترة واستدل بهذه الآية وهو أنه تعالى قال ما ننسخ من آية أو ننساها نأت بخير منها أو مثلها وذلك يفيد أنه تعالى هو الآتي والمأتي به هو من جنس القرآن وما كان من جنس القرآن فهو قرآن وقوله نأت بخير منها يفيد أنه هو المنفرد بالاتيان بذلك الخير وهو القرآن الذي هو كلام الله دون السنة ولان السنة لا تكون خيرا من القرآن ولا مثله واحتج الجمهور على جواز نسخ الكتاب بالسنة بان آية الوصية للاقربين منسوخة بقوله صلى الله عليه وسلم لا وصية لوارث أجاب الشافعي رضي الله تعالى عنه بان هذا ضعيف لان كون الميراث حقا للوارث يمنع من صرفه الى الوصية فثبت أن آية الميراث مانعة من الوصية وتقرير هذا وبسطه معروف في أصول الفقه ثم النسخ في القرآن على وجوه أحدها ما رفع حكمه وتلاوته كما روي عن أبي أمامة بن سهل أن قوما من الصحابة قاموا ليلة ليقرؤا سورة فلم يذكروا منها الا بسم الله الرحمن الرحيم فغدوا الى النبي صلى الله عليه وسلم فاخبروه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك السورة رفعت بتلاوتها وحكمها أخرجه البغوي بغير سند وقيل ان سورة الاحزاب كانت مثل سورة البقرة فرفع بعضها تلاوة وحكما الوجه الثاني ما رفع تلاوته وبقي حكمه مثل آية الرجم روي عن ابن عباس قال قال عمر بن الخطاب وهو جالس على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله بعث محمدا بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعيناها وعقلناها ورجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده فاخشى ان طال بالناس زمان أن يقول قائل ما نجد الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله وان الرجم في كتاب الله حق على من زنى اذا أحصن من الرجال والنساء اذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف أخرجه مسلم وللبخاري نحوه الوجه الثالث ما رفع حكمه وثبت خطه وتلاوته وهو كثير في القرآن مثل آية الوصية للاقربين ونسخت بآية الميراث عند الشافعي وبالسنة عند غيره وآية عدة الوفاة بالحول نسخت بآية أربعة أشهر وعشرا وآية القتال وهي قوله ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين الآية نسخت بقوله الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا الآية ومثل هذا كثير في القرآن وأما معنى الآية فقوله ما ننسخ من آية أي نرفعها أو نرفع حكمها أو ننسها قرئ بضم النون وكسر السين ومعناه انثبتها على قلبك وقال ابن عباس نتركها لا ننسخها وقيل معناه نامر بتركها فعلى هذا يكون النسخ الاول رفع الحكم واقامة غيره مقامه والانساء نسخ من غير اقامة غيره مقامه وقرئ ننسأها بفتح النون والسين وبالهمزة ومعناها نؤخرها فلا ننزلها أو نرفع تلاوتها ونؤخر حكمها كآية الرجم فعلى هذا يكون النسخ الاول بمعنى رفع التلاوة والحكم قال سعيد بن المسيب وعطاء ما ننسخ من آية فهو ما نزل من القرآن جعلاه من نسخت الكتاب اذا نقلته الى كتاب آخر وننساها أي نؤخرها ونتركها في اللوح المحفوظ فلا ننزلها (نأت بخير منها) أي بما هو أنفع لكم وأسهل عليكم وأكثر لاجوركم وليس معناه أن آية خير من آية لان كلام الله تعالى كله واحد (أومثلها) أي في المنفعة والثواب

الفعل خلافا للمعتزلة وانما يجوز النسخ بالكتاب والسنة متفقا ومختلفا ويجوز نسخ التلاوة والحكم والحكم دون التلاوة والتلاوة دون الحكم ونسخ وصف بالحكم مثل الزيادة على النص فانه نسخ عندنا خلافا للشافعي رحمه الله والانساء أن يذهب بحفظها عن القلوب أو ننسأها مكي وأبو عمرو أي نؤخرها من نسأت أي أخرت (نأت بخير منها) أي نأت بآية خير منها للعباد أي بآية العمل بها أكثر للثواب (أومثلها) في ذلك اذ لا فضيلة لبعض الآيات على البعض

فيما

فما نسخ الى الايسر كان أسهل فى العمل كالذى كان على المؤمنين من فرض قيام الليل ثم نسخ ذلك فكان خيرا لهم فى عاجلهم لسقوط التعب والمشقة عليهم وما نسخ الى الاشق كان أكمل فى الثواب كالذى كان عليهم من صيام أيام معدودات فى السنة فنسخ ذلك وفرض صيام شهر رمضان فكان صوم شهر كامل فى كل سنة أثقل على الابدان وأشق من صيام أيام معدودات فكان ثوابه أكمل وأكثر وأما المثل فكنسخ التوجه الى بيت المقدس وصرفه الى المسجد الحرام واستواء الاجر فى ذلك لان على المصلى التوجه الى حيث أمره الله تعالى (ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير) أى على النسخ والتبديل والمعنى ألم تعلم يا محمد أنى قادر على تعويضك مما نسخت من أحكامى وغيرته من فرائضى التى كنت افترضتها عليك ما أشاء مما هو خير لك ولعبادى المؤمنين وأنفع لك ولهم عاجلا وآجلا (ألم تعلم أن الله له ملك السموات والارض) يعنى أنه تعالى هو المتصرف فى السموات والارض وله سلطانهما دون غيره يحكم فيهما وفيما فيهما بما يشاء من أمر ونهى ونسخ وتبديل وهذا الخبر وان كان خطابا للنبى صلى الله عليه وسلم لكن فيه تكذيب لليهود الذين أنكروا النسخ وجحدوا نبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام فاخبرهم الله أن له ملك السموات والارض وان الخلق كلهم عبيده وتحت تصرفه يحكم فيها بما يشاء وعليهم السمع والطاعة (وما لكم) يعنى يا معشر الكفار عند نزول العذاب (من دون الله) أى مما سوى الله (من ولى) أى قريب وصديق وقيل من وال وهو القيم بالامور (ولا نصير) أى ناصر يمنعكم من العذاب وقيل فى معنى الآية وليس لكم أيها المؤمنون بعد الله من قيم بأمركم ولا نصير يؤيدكم ويقويكم على أعدائكم ۞ قوله عز وجل (أم تريدون أن تسألوا رسولكم) نزلت فى اليهود وذلك أنهم قالوا يا محمد ائتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى موسى بالتوراة وقيل انهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ان نؤمن لك حتى تأتى بالله والملائكة قبيلا كما سأل قوم موسى موسى فقالوا أرنا الله جهرة فانزل الله تعالى هذه الآية والمعنى أتريدون وقيل بل تريدون أن تسألوا رسولكم يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (كما سئل موسى من قبل) وذلك ان موسى سأله قومه فقالوا أرنا الله جهرة ففى الآية منعهم ونهيهم عن السؤالات المقترحة بعد ظهور الدلالات والمعجزات وثبوت الحجج والبراهين على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (ومن يتبدل) أى يستبدل (الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل) أى أخطأ قصد الطريق وقيل ان قوله ومن يتبدل الكفر بالايمان خطاب للمؤمنين أعلمهم أن اليهود أهل غش وحسد وانهم يتمنون للمؤمنين المكاره فنهاهم الله تعالى أن يقبلوا من اليهود شيأ ينصحونهم به فى الظاهر وأخبرهم أن من ارتد عن دينه فقد أخطأ قصد السبيل ۞ قوله عز وجل (ود كثير من أهل الكتاب) نزلت هذه الآية فى نفر من اليهود وذلك أنهم قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد لو كنتم على الحق ما هزمتم فارجعا الى ديننا فنحن أهدى سبيلا منكم فقال عمار بن ياسر كيف نقض العهد فيكم قالوا شديد قال انى عاهدت ان لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ما عشت قالت اليهود اما هذا فقد صبا وقال حذيفة أما أنا فقد رضيت بالله ربا وبمحمد رسولا وبالاسلام دينا وبالقرآن اماما وبالكعبة قبلة وبالمؤمنين اخوانا ثم انهما أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبراه بذلك فقال اصبتما الخير وافلحتما فانزل الله تعالى ود أى تمنى كثير من أهل الكتاب يعنى اليهود (لو يردونكم) أى يا معشر المؤمنين (من بعد ايمانكم كفارا) ٢ أى ترجعون الى ما كنتم عليه من الكفر (حسدا) أى يحسدونكم حسدا وأصل الحسد تمنى زوال النعمة عمن يستحقها وربما يكون مع ذلك سعى فى ازالتها والحسد مذموم لما روى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال اياكم والحسد فان الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو قال العشب أخرجه أبو داود وقال اذا أنعم الله على عبده نعمة فتمنى آخر زوالها عنه فهذا هو الحسد وهو حرام فان استعان بتلك النعمة على الكفر والمعاصى فتمنى آخر زوالها عنه فليس

فهو يملك أموركم ويدبرها وهو أعلم بما يتعبدكم به من ناسخ أو منسوخ (وما لكم من دون الله من ولى) يلى أمركم (ولا نصير) ناصر يمنعكم من العذاب (أم تريدون) أم منقطعة وتقديره بل أتريدون (أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل) روى أن قريشا قالوا يا محمد اجعل لنا الصفا ذهبا ووسع لنا أرض مكة فنهوا أن يقترحوا عليه الآيات كما اقترح قوم موسى عليه حين قالوا اجعل لنا الها (ومن يتبدل الكفر بالايمان) ومن ترك الثقة بالآيات المنزلة وشك فيها واقترح غيرها (فقد ضل سواء السبيل) قصده ووسطه (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم) أن يردوكم (من بعد ايمانكم كفارا) حال من كم أى يردونكم عن دينكم كافرين نزلت حين قالت اليهود للمسلمين بعد وقعة أحد ألم تروا الى ما أصابكم ولو كنتم على الحق لما هزمتم فارجعوا الى ديننا فهو خير لكم (حسدا) مفعول له أى لاجل الحسد وهو الاسف على الخير عند الغير

٢ قوله أى ترجعون لا يخفى عدم ملاءمته للنظم الشريف اه مصححه

(من عند أنفسهم) يتعلق بود أى ودوا من عند أنفسهم ومن قبل شهوتهم لا من قبل التدين والميل مع الحق لانهم ودوا ذلك (من بعد ما تبين لهم الحق) أى من بعد علمهم بانكم على الحق أو بحسدا أى حسدا متبالغا منبعثا من أصل نفوسهم (فاعفوا واصفحوا) فاسلكوا معهم سبيل العفو والصفح عما يكون منهم من الجهل والعداوة (حتى يأتى الله بامره) بالقتال (ان الله على كل شئ قدير) فهو يقدر على الانتقام منهم (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لانفسكم من خير) من حسنة صلاة أو صدقة أو غيرهما (تجدوه عند الله) تجدوا ثوابه عنده (ان الله بما تعملون بصير) فلا يضيع عنده عمل عامل والضمير في (وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا

بحسد ولا يحرم ذلك لانه لم يحسده على تلك النعمة من حيث انها نعمة بل من حيث انه يتوصل بتلك النعمة الى الشر والفساد ﴿ وقوله (من عند أنفسهم) أى من تلقاء أنفسهم لم يأمرهم الله بذلك (من بعد ما تبين لهم الحق) يعنى فى التوراة ان قول محمد صلى الله عليه وسلم ودينه حق لا يشكون فيه فكفروا به حسدا وبغيا (فاعفوا واصفحوا) أى فتجاوزوا عما كان منهم من اساءة وحسد وكان هذا الامر بالعفو والصفح قبل أن يؤمر بالقتال (حتى يأتى الله بامره) أى بعذابه وهو القتل والسبى لبنى قريظة والاجلاء والنفى لبنى النضير قال ابن عباس هو أمر الله له بقتالهم فى قوله قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر الآية (ان الله على كل شئ قدير) فيه وعيد وتهديد لهم (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) لما أمر الله المؤمنين بالعفو والصفح عن اليهود أمرهم بما فيه صلاح أنفسهم من اقام الصلاة وايتاء الزكاة الواجبتين ونبه بذلك على سائر الواجبات ثم قال تعالى (وما تقدموا لانفسكم من خير) أى من طاعة وعمل صالح وقيل أراد بالخير المال يعنى صدقة التطوع لان الزكاة تقدم ذكرها (تجدوه عند الله) يعنى ثوابه وأجره حتى التمرة واللقمة مثل أحد (ان الله بما تعملون بصير) أى لا يخفى عليه شئ من قليل الاعمال وكثيرها ففيه ترغيب فى الطاعات وأعمال البر وزجر عن المعاصى ﴿ قوله عز وجل (وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا) يعنى يهوديا وقيل هو جمع هائد (أو نصارى) وذلك أن اليهود قالوا لن يدخل الجنة الا من كان يهوديا ولا دين الا دين اليهودية وقالت النصارى لن يدخل الجنة الا من كان نصرانيا ولا دين الا دين النصرانية قيل نزلت فى وفد نجران وكانوا نصارى اجتمعوا مع اليهود فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فكذب بعضهم بعضا فى دعواه قال الله (تلك أمانيهم) أى شهواتهم الباطلة التى تمنوها على الله بغير حق (قل) يعنى يا محمد (هاتوا برهانكم) أى حجتكم على دعواكم ان الجنة لا يدخلها الا من كان يهوديا أو نصرانيا دون غيرهم (ان كنتم صادقين) يعنى فيما تدعون ﴿ ثم قال تعالى ردا عليهم (بلى) أى ليس الامر كما تزعمون ولكن (من أسلم وجهه لله وهو محسن) فانه الذى يدخل الجنة وينعم فيها ومعنى أسلم وجهه لله أخلص فى دينه لله وقيل أخلص عبادته لله وقيل خضع وتواضع لله لان أصل الاسلام الاستسلام وهو الخضوع وانما خص الوجه بالذكر لانه أشرف الاعضاء واذا جاد الانسان بوضع وجهه على الارض فى السجود فقد جاد بجميع أعضائه قال عمرو بن نفيل

وأسلمت وجهى لمن أسلمت * له الارض تحمل صخرا ثقالا
وأسلمت وجهى لمن أسلمت * له المزن تحمل عذبا زلالا

يعنى بذلك استسلمت لطاعة من استسلم لطاعته الارض والمزن وهو محسن أى فى عمله لله (فله أجره عند ربه) أى ثواب عمله (ولا خوف عليهم) أى فى الآخرة (ولا هم يحزنون) أى على ما فاتهم من الدنيا ﴿ قوله عز وجل (وقالت اليهود ليست النصارى على شئ وقالت النصارى ليست اليهود على شئ) نزلت فى يهود المدينة

أو نصارى) لاهل الكتاب من اليهود والنصارى أى وقالت اليهود لن يدخل الجنة الا من كان هودا وقالت النصارى لن يدخل الجنة الا من كان نصارى فلف بين القولين ثقة بان السامع يرد الى كل فريق قوله وأمنا من الالباس لما علم من التعادى بين الفريقين وتضليل كل واحد منهما صاحبه ألا ترى الى قوله تعالى وقالت اليهود ليست النصارى على شئ وقالت النصارى ليست اليهود على شئ وهود جمع هائد كعائد وعود ووحد اسم كان للفظ من وجمع الخبر لمعناه (تلك أمانيهم) أشير بها الى الامانى المذكورة وهى أمنيتهم أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم وأمنيتهم أن يردوهم كفارا وأمنيتهم أن لا يدخل الجنة غيرهم أى تلك الامانى الباطلة أمانيهم والامنية أفعولة من التمنى مثل الاضحوكة (قل هاتوا برهانكم) هلموا حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة وهات بمنزلة هاء بمعنى احضر وهو متصل بقولهم لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى وتلك أمانيهم اعتراض (ان كنتم صادقين) فى دعواكم (بلى) اثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة (من أسلم وجهه لله) من أخلص نفسه له لا يشرك به غيره (وهو محسن) مصدق بالقرآن (فله أجره) جواب من أسلم وهو كلام مبتدأ متضمن لمعنى الشرط و بلى رد لقولهم (عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون وقالت اليهود ليست النصارى على شئ وقالت النصارى ليست اليهود على شئ) أى على شئ يصح و يعتد به والواوفى

(وهم يتلون الكتاب) للحال والكتاب للجنس أي قالوا ذلك وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب وحق من حمل التوراة والانجيل وآمن به ان لا يكفر بالباقي لان كل واحد من الكتابين مصدق للآخر (كذلك) مثل ذلك القول الذي سمعت به (قال الذين لا يعلمون مثل قولهم) أي الجهلة الذين لا علم عندهم ولا كتاب كعبدة الاصنام والمعطلة قالوا لاهل كل دين ليسوا على شئ وهذا توبيخ عظيم لهم حيث نظموا أنفسهم مع علمهم في سلك من لا يعلم (فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) أي بين اليهود والنصارى بما يقسم لكل فريق منهم من العقاب اللائق به (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) موضع من رفع على الابتداء وهو استفهام وأظلم خبره والمعنى أي أحد أظلم وان يذكر ثاني مفعولي منع لانك تقول منعته كذا ومثله وما منعنا أن نرسل بالآيات وما منع الناس أن يؤمنوا ويجوز أن يحذف حرف الجر مع ان أي من أن يذكر وان تنصبه مفعولا له بمعنى منعها كراهة أن يذكر وهو حكم عام لجنس مساجد الله وان مانعها من ذكر الله مفرط في الظلم والسبب فيه طرح النصارى في بيت المقدس الاذى ومنعهم الناس أن يصلوا فيه أو منع المشركين رسول الله أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية وانما قيل مساجد الله وكان المنع على مسجد واحد وهو بيت المقدس أو المسجد الحرام لان الحكم ورد عاما وان كان السبب خاصا كقوله تعالى ويل لكل همزة والمنزول فيه الاخنس بن شريق (وسعى في خرابها) بانقطاع الذكر والمراد من العموم كما أريد العموم بمساجد الله (اولئك) المانعون (ما كان لهم أن يدخلوها) أي ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله (الا خائفين) حال من الضمير في يدخلوها أي على حال التهيب وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا بهم فضلا أن يستولوا عليها ويلوها ويمنعوا المؤمنين منها والمعنى ما كان الحق الا ذلك لولا ظلم الكفرة وعتوهم روى أنه لا يدخل بيت المقدس أحد من النصارى الا متنكرا خيفة أن يقتل وقال قتادة لا يوجد نصراني في بيت المقدس الا بولغ ضربا ونادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا لا يحجن بعد هذا العام مشرك وقيل معناه النهي عن تمكينهم من الدخول والتخلية بينهم وبينه كقوله تعالى وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله (لهم في الدنيا خزي) قتل وسبي للحربي وذلة بضرب الجزية للذمي (ولهم في الآخرة عذاب عظيم) أي النار

المدينة ونصارى نجران وذلك أن وفد نجران لما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم أتاهم أحبار اليهود وتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم فقالت اليهود للنصارى ما أنتم على شئ من الدين وكفروا بعيسى والانجيل وقالت النصارى لليهود ما أنتم على شئ من الدين وكفروا بموسى والتوراة فأنزل الله تعالى (وقالت اليهود ليست النصارى على شئ وقالت النصارى ليست اليهود على شئ وهم يتلون الكتاب) يعني وكلا الفريقين يقرؤن الكتاب وليس في كتابهم هذا الاختلاف فدلت تلاوتهم الكتاب ومخالفتهم لما فيه على كفرهم وكونهم على الباطل وقيل ان الانجيل الذي تدين بصحته النصارى يحقق ما في التوراة من نبوة موسى وما فرض الله فيها على بني اسرائيل من الفرائض وان التوراة التي تدين بصحتها اليهود تحقق نبوة عيسى وما جاء به من عند ربه من الاحكام ثم كلا الفريقين قالوا ما أخبر الله عنهم بقوله وقالت اليهود ليست النصارى على شئ وقالت النصارى ليست اليهود على شئ مع علم كل واحد من الفريقين ببطلان ما قاله (كذلك قال الذين لا يعلمون) يعني مشركي العرب قالوا في نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه انهم ليسوا على شئ (مثل قولهم) يعني مثل قول اليهود للنصارى والنصارى لليهود وقيل أمم كانت قبل اليهود والنصارى مثل قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب قالوا في أنبيائهم ليسوا على شئ (فالله يحكم) أي يقضي (بينهم يوم القيامة) يعني بين المحق والمبطل (فيما كانوا فيه يختلفون) يعني من أمر الدين ۞ قوله عز وجل (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) نزلت في خراب بيت المقدس وذلك أن ططوس الرومي غزا بني اسرائيل فقتل مقاتلهم وسبى ذراريهم وحرق التوراة وخرب بيت المقدس فلم يزل خرابا حتى بناه المسلمون في زمن عمر بن الخطاب فأنزل الله تعالى ومن أظلم أي ومن أكفر وأبغى ممن منع مساجد الله يعني بيت المقدس ومحاريبه أن يذكر فيها اسمه أي يعبد ويصلى له فيها (وسعى في خرابها) وقيل ان بختنصر المجوسي من أهل بابل هو الذي غزا بني اسرائيل وخرب بيت المقدس وأعانه على ذلك النصارى من أجل ان قتلوا يحيى بن زكريا اليهود (أولئك ما كان لهم أن يدخلوها الا خائفين) وذلك أن بيت المقدس موضع حج النصارى وزيارتهم قال ابن عباس لم يدخلها بعد عمارتها رومي أو نصراني الا خائفا ان علم به قتل وقيل أخيفوا بالجزية والقتل فالجزية على الذمي والقتل على الحربي وقيل خوفهم هو فتح مدائنهم الثلاث قسطنطينية ورومية وعمورية (لهم في الدنيا خزي) يعني الصغار والذل والقتل والسبي (ولهم في الآخرة عذاب عظيم) يعني النار وقيل ان الآية نزلت في مشركي مكة وأراد بالمساجد المسجد الحرام وذلك انهم منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن يصلوا فيه في ابتداء الاسلام ومنعوهم من حجه والصلاة فيه عام الحديبية واذا منعوا من يعمره بذكر الله تعالى وصلواته فيه فقد سعوا في خرابه أولئك ما كان لهم ان يدخلوها الا خائفين يعني مشركي مكة يقول الله تعالى أفتحها عليكم أيها المسلمون حتى تدخلوها وتكونوا أولى بها منهم

ففتحها عليهم وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن ينادي بالموسم لما نزلت سورة براءة ألا لا يحجن البيت بعد هذا العام مشرك فكان هذا خوفهم. وثبت في الشرع أن لا يمكن مشرك من دخول الحرم فان قلت كيف قيل مساجد الله وانما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد وهو اما بيت المقدس أو المسجد الحرام قلت يجوز أن يجيء الحكم عاما وان كان السبب خاصا كما تقول لمن آذى صالحا واحدا ومن أظلم ممن آذى الصالحين فان قلت أي القولين أرجح قلت رجح الطبري القول الاول وقال ان النصارى هم الذين سعوا في خراب بيت المقدس بدليل ان مشركي مكة لم يسعوا في خراب المسجد الحرام وان كانوا قد منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الاوقات من الصلاة فيه وأيضا فان الآية التي قبل هذه والتي بعدها في ذم أهل الكتاب ولم يجر لمشركي مكة ذكر ولا للمسجد الحرام فتعين أن يكون المراد بهذه بيت المقدس ورجح غيره القول الثاني بدليل ان النصارى يعظمون بيت المقدس أكثر من اليهود فكيف يسعون في خرابه وهو موضع حجهم وذكر ابن العربي في أحكام القرآن قولا ثالثا وهو أنه كل مسجد قال وهو الصحيح لان اللفظ عام ورد بصيغة الجمع فتخصيصه ببعض المساجد أو ببعض الازمنة محال ۞ قوله عز وجل (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) سبب نزول هذه الآية قال ابن عباس خرج نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر قبل تحويل القبلة الى الكعبة فاصابهم الضباب وحضرت الصلاة فتحروا القبلة وصلوا فلما ذهب الضباب استبان لهم أنهم لم يصيبوا فلما قدموا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فنزلت هذه الآية وعن عامر بن ربيعة عن أبيه قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر في ليلة مظلمة فلم ندر أين القبلة فصلى كل رجل منا على حياله فلما أصبحنا ذكرنا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت فأينما تولوا فثم وجه الله أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وقال ابن عمر نزلت في المسافر يصلي التطوع حيثما توجهت به راحلته (ق) عن ابن عمر قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسبح على ظهر راحلته حيث كان وجهه يومئ وكان ابن عمر يفعله وفي رواية لمسلم كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي على دابته وهو مقبل من مكة الى المدينة حيثما توجهت وفيه نزلت فأينما تولوا فثم وجه الله الآية وقيل نزلت في تحويل القبلة الى الكعبة وذلك أن اليهود عيرت المؤمنين وقالوا ليس لهم قبلة معلومة فتارة يستقبلون هكذا وتارة يستقبلون هكذا فانزل الله هذه الآية وقيل انها نزلت في تخيير النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ليصلوا حيث شاؤا من النواحي ثم انها نسخت بقوله تعالى فول وجهك شطر المسجد الحرام ومعنى الآية أن لله المشرق والمغرب وما بينهما خلقا وملكا وانما خص المشرق والمغرب اكتفاء عن جميع الجهات لان له كلها وما بينهما خلقه وعبيده وان على جميعهم طاعته فيما أمرهم به ونهاهم عنه فما أمرهم باستقباله فهو القبلة فان القبلة ليست قبلة لذاتها بل لان الله تعالى جعلها قبلة وأمر بالتوجه اليها فأينما تولوا فثم وجه الله أي فهنالك قبلة الله التي وجهكم اليها وقيل معناه فثم وجه الله تعالى بعلمه وقدرته والوجه صفة ثابتة لله تعالى لا من حيث الصورة وقيل فثم رضا الله أي يريدون بالتوجه اليه رضاه (ان الله واسع) من السعة وهو الغنى أي يسع خلقه كلهم بالكفاية والافضال والجود والتدبير وقيل واسع المغفرة (عليم) أي بأعمالكم ونياتكم حيثما تصلوا وتدعوا لا يغيب عنه منها شيء ﴿مسئلة تتعلق بحكم الآية﴾ وهي أن المسافر اذا كان في مفازة أو بلاد الشرك واشتبهت عليه القبلة فانه يجتهد في طلبها بنوع من الدلائل ويصلي الى الجهة التي أدى اليها اجتهاده ولا اعادة عليه وان لم يصادف القبلة فان جهة الاجتهاد قبلته وكذا الغريق في البحر اذا بقي على اللوح فانه يصلي على حسب حاله وتصح صلاته وكذلك المشدود على جذع بحيث لا يمكنه الاستقبال ۞ قوله عز وجل (وقالوا اتخذ الله ولدا) نزلت في يهود

(ولله المشرق والمغرب) أي بلاد المشرق والمغرب كلها له وهو مالكها ومتوليها (فأينما) شرط (تولوا) مجزوم به أي في أي مكان فعلتم التولية يعني تولية وجوهكم شطر القبلة بدليل قوله تعالى فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره والجواب (فثم وجه الله) أي جهته التي أمر بها ورضيها والمعنى انكم اذا منعتم أن تصلوا في المسجد الحرام أو في بيت المقدس فقد جعلت لكم الارض مسجدا فصلوا في أي بقعة شئتم من بقاعها وافعلوا التولية فيها فان التولية ممكنة في كل مكان (ان الله واسع عليم) أي هو واسع الرحمة يريد التوسعة على عباده وهو عليم بمصالحهم وعن ابن عمر رضي الله عنهما نزلت في صلاة المسافر على الراحلة أينما توجهت وقيل عميت القبلة على قوم فصلوا الى انحاء مختلفة فلما أصبحوا تبينوا خطأهم فعذروا وهو حجة على الشافعي رحمه الله فيما اذا استدبر وقيل فأينما تولوا للدعاء والذكر (وقالوا اتخذ الله ولدا) يريد الذين قالوا المسيح

ابن الله وعزير ابن الله قالوا شامى فاثبات الواو باعتبار أنه قصة معطوفة على ماقبلها وحذفه باعتبار أنه استئناف قصة أخرى (سبحانه) تنزيه له عن ذلك وتبعيد (بل له ما فى السموات والارض) أى هو خالقه ومالكه ومن جملته المسيح وعزير والولادة تنافى الملك (كل له قانتون) منقادون لايمتنع شئ منهم على تكوينه وتقديره والتنوين فى كل عوض عن المضاف اليه أى كل ما فى السموات والارض أو كل من جعلوه لله ولدا له قانتون مطيعون عابدون مقرون بالربوبية منكرون لما أضافوا اليهم وجاء بما الذى لغير أولى العلم مع قوله قانتون كقوله سبحان ما سخركن لنا (بديع السموات والارض) (٨٣) أى مخترعهما ومبدعهما لا على مثال سبق وكل من فعل مالم يسبق اليه يقال له أبدعت ولهذا قيل لمن خالف السنة والجماعة مبتدع لانه يأتى فى دين الاسلام مالم يسبقه اليه الصحابة والتابعون رضى الله عنهم (واذا قضى أمرا) أى حكم أو قدر (فانما يقول له كن فيكون) هو من كان التامة أى أحدث فيحدث وهذا مجاز عن سرعة التكوين وتمثيل ولاقول ثم وانما المعنى ان ما قضاه من الامور وأراد كونه فانما يتكون ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف ٣ كما ان المأمور المطيع الذى يؤمر فيمتثل ولا يكون منه اباء أو كد بهذا استبعاد الولادة لان من كان بهذه الصفة من القدرة كانت صفاته مباينة لصفات الاجسام فانى يتصور التوالد ثم والوجه الرفع فى فيكون وهو قراءة العامة على الاستئناف أى فهو يكون أو على العطف على يقول ونصبه ابن عامر على لفظ كن لانه أمر وجواب الامر بالفاء نصب وقلنا ان كن ليس بأمر حقيقة اذ لا فرق بين أن يقال واذا قضى أمرا فانما يكونه فيكون وبين أن يقال فانما يقول له كن فيكون واذا كان كذلك فلا معنى للنصب وهذا لانه لو كان أمرا فاما أن يخاطب به الموجود والموجود لا يخاطب بكن أو المعدوم والمعدوم لا يخاطب (وقال الذين لا يعلمون) من المشركين أو من أهل الكتاب ونفى عنهم العلم لانهم لم يعملوا به

المدينة حيث قالوا عزير ابن الله وفى نصارى نجران حيث قالوا المسيح ابن الله وفى مشركى العرب حيث قالوا الملائكة بنات الله (سبحانه) أى تنزيها لله فنزه الله نفسه عن اتخاذ الولد وعن قولهم وافترائهم عليه (خ) عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال قال الله عز وجل كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك فاما تكذيبه اياى فزعم أنى لا أقدر أن أعيده كما كان وأما شتمه اياى فقوله لى ولد فسبحانى ان أتخذ صاحبة أو ولدا (بل له ما فى السموات والارض) يعنى عبيدا وملكا فكيف ينسب اليه الولد وهو داخل فيهما وقيل ان الولد لابد وأن يكون من جنس الوالد والله تعالى منزه عن الشبيه والنظير وقيل ان الولد انما يتخذ للحاجة اليه والانتفاع به عند عجز الوالد وكبره والله تعالى منزه عن ذلك كله فاضافة الولد اليه محال (كل له قانتون) يعنى ان أهل السموات والارض مطيعون لله ومقرون له بالعبودية وأصل القنوت لزوم الطاعة مع الخضوع وقيل أصله القيام ومنه قوله صلى الله عليه وسلم أفضل الصلاة طول القنوت فعلى هذا يكون معنى الآية كل له قائمون بالشهادة ومقرون له بالوحدانية وقيل قانتون أى مذللون مسخرون لما خلقوا له واختلف العلماء فى حكم الآية فقال بعضهم هو خاص ثم سلكوا فى تخصيصه طريقين أحدهما قالوا هو راجع الى عزير والمسيح والملائكة الثانى قال ابن عباس رضى الله عنهما هو راجع الى أهل طاعته دون سائر الكفار وذهب جماعة الى أن حكم الآية عام لان لفظة كل تقتضى الشمول والاحاطة ثم سلكوا فى الكفار طريقين أحدهما ان ظلالهم تسجد لله وتطيعه والثانى ان هذه الطاعة تكون فى يوم القيامة ومن ذهب الى تخصيص حكم الآية أجاب عن لفظة كل بانها لا تقتضى الشمول والاحاطة بدليل قوله تعالى وأوتيت من كل شئ ولم تؤت ملك سليمان فدل على أن لفظة كل لا تقتضى ذلك ۞ قوله عز وجل (بديع السموات والارض) أى خالقها ومبدعها ومنشئها على غير مثال سبق وقيل البديع الذى يبدع الاشياء أى يحدثها على ما لم يكن (واذا قضى أمرا) أى قدره وأراد خلقه وقيل اذا أحكم أمرا وحتمه وأتقنه وأصل القضاء الحكم والفراغ والقضاء فى اللغة على وجوه كلها ترجع الى انقطاع الشئ وتمامه والفراغ منه (فانما يقول له كن فيكون) أى اذا أحكم أمرا وحتمه فانما يقول له كن فيكون ذلك الامر على ما أراد الله تعالى وجوده فان قلت المعدوم لا يخاطب فكيف قال فانما يقول له كن فيكون قلت ان الله تعالى عالم بكل ما هو كائن قبل تكوينه واذا كان كذلك كانت الاشياء التى لم تكن كأنها كائنة بعلمه بها فجاز أن يقول لها كونى ويأمرها بالخروج من حال العدم الى حال الوجود وقيل اللام فى قوله لام أجل فيكون المعنى اذا قضى أمرا فانما يقول لاجل تكوينه وارادته له كن فيكون فعلى هذا يذهب معنى الخطاب ۞ قوله عز وجل (وقال الذين لا يعلمون)

---

٣ قوله كما أن المأمور الخ عبارة الكشاف والخطيب كما ان المأمور المطيع الذى يؤمر فيمتثل لا يتوقف ولا يمتنع ولا يكون منه اباء الخ وهى ظاهرة اهـ

(لولا يكلمنا الله) هلا يكلمنا كما يكلم الملائكة وكلم موسى استكبارا منهم وعتوا (أو تأتينا آية) جحودا لان يكون ما أتاهم من آيات الله آيات واستهانة بها (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم) أى قلوب هؤلاء ومن قبلهم فى العمى (قد بينا الآيات لقوم يوقنون) أى لقوم ينصفون فيوقنون انها آيات يجب الاعتراف بها والاذعان لها والاكتفاء بها عن غيرها (انا أرسلناك بالحق بشيرا) للمؤمنين بالثواب (ونذيرا) للكافرين بالعقاب (ولا تسئل عن أصحاب الجحيم) ولا نسألك عنهم ما لهم لم يؤمنوا بعد ان بلغت و بلغت جهدك فى دعوتهم وهو حال كنذيرا و بشيرا و بالحق أى وغير مسؤل أو مستأنف قراءة نافع ولا تسأل على النهى ومعناه تعظيم ما وقع فيه الكفار من العذاب كما تقول كيف فلان سائلا عن الواقع فى بلية فيقال لك لا تسأل عنه وقيل نهى الله نبيه عن السؤال عن أحوال الكفرة حين قال ليت شعرى ما فعل أبواى (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) كأنهم قالوا لن نرضى عنك وان أبلغت فى طلب رضانا حتى تتبع ملتنا اقناطا منهم لرسول الله عن دخولهم فى الاسلام فذكر الله عزوجل كلامهم (قل ان هدى الله) الذى رضى لعباده (هو الهدى) أى الاسلام وهو الهدى كله ليس وراءه هدى والذى تدعون الى اتباعه ما هو هدى انما هو هوى ألا ترى الى قوله (ولئن اتبعت أهواءهم) أى أقوالهم التى هى أهواء و بدع (بعد الذى جاءك من العلم) بان دين الله هو الاسلام أو من الدين المعلوم صحته بالبراهين الواضحة والحجج اللائحة (مالك من الله) من عذاب الله (من ولى ولا نصير) ناصر (الذين) مبتدأ (آتيناهم الكتاب) صلته وهم مؤمنو أهل الكتاب وهو التوراة والانجيل أو أصحاب النبى عليه السلام والكتاب القرآن

قال ابن عباس هم اليهود الذين كانوا فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل هم النصارى وقيل هم مشركو العرب (لولا) أى هلا (يكلمنا الله) أى عيانا بانك رسوله (أو تأتينا آية) أى دلالة وعلامة على صدقك (كذلك قال الذين من قبلهم) أى كفار الامم الخالية (مثل قولهم) وذلك ان اليهود سألوا موسى أن يريهم الله جهرة وان يسمعهم كلام الله وسألوه من الآيات ما ليس لهم مسئلته فاخبر الله عن الذين كانوا فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم انهم قالوا مثل ما قال من كان قبلهم (تشابهت قلوبهم) يعنى ان المكذبين للرسل تشابهت أقوالهم وأفعالهم وقيل تشابهت فى الكفر والقسوة والتكذيب وطلب المحال (قد بينا الآيات) أى الدلالات على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (لقوم يوقنون) يعنى ان آيات القرآن وما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من المعجزات الباهرات كافية لمن كان طالبا لليقين وانما خص أهل الايقان بالذكر لانهم هم أهل التثبت فى الامور ومعرفة الاشياء على يقين ۞ قوله عزوجل (انا أرسلناك بالحق) أى بالصدق وقال ابن عباس بالقرآن وقيل بالاسلام وقيل معناه انا لم نرسلك عبثا بل أرسلناك بالحق (بشيرا) أى مبشرا لاوليائى وأهل طاعتى بالثواب العظيم (ونذيرا) أى منذرا ومخوفا لاعدائى وأهل معصيتى بالعذاب الاليم (ولا تسأل) قرئ بفتح التاء على النهى قال ابن عباس وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم ليت شعرى ما فعل أبواى فنزلت هذه الآية والمعنى انا أرسلناك لتبليغ ما أرسلت به ولا تسأل عن أصحاب الجحيم وقرئ ولا تسئل بضم التاء ورفع اللام على الخبر وقيل على النفى والمعنى انا أرسلناك بالحق لتبليغ ما أرسلت به فانما عليك البلاغ ولست مسؤلا عمن كفر (عن أصحاب الجحيم) أى عن أهل النار سميت النار جحيما لشدة تأججها وقيل الجحيم معظم النار ۞ قوله عزوجل (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) وذلك انهم كانوا يسألون النبى صلى الله عليه وسلم الهدنة و يطمعونه انه ان أمهلهم تبعوه فانزل الله هذه الآية والمعنى انك وان هادنتهم فلا يرضون بها وانما يطلبون ذلك تعللا ولا يرضون منك الا باتباع ملتهم وقال ابن عباس هذا فى أمر القبلة وذلك ان يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون النبى صلى الله عليه وسلم حين كان يصلى الى بيت المقدس فلما صرف الله القبلة الى الكعبة أيسوا منه أن يوافقهم على دينهم فانزل الله تعالى ولن ترضى عنك اليهود يعنى الا باليهودية ولا النصارى يعنى الا بالنصرانية وهذا شئ لا يتصور اذ لا يجتمع فى رجل واحد شيآن فى وقت واحد وهو قوله حتى تتبع ملتهم يعنى دينهم وطريقتهم (قل) أى يا محمد (ان هدى الله) يعنى دين الله الذى هو الاسلام (هو الهدى) أى يصح ان يسمى هدى (ولئن اتبعت) يا محمد (أهواءهم) يعنى أهواء اليهود والنصارى فيما يرضيهم عنك وقيل أهواءهم أقوالهم التى هى أهواء و بدع (بعد الذى جاءك من العلم) أى البيان بان دين الله هو الاسلام وان القبلة هى قبلة ابراهيم عليه السلام وهى الكعبة (مالك من الله من ولى) يعنى يلى أمرك و يقوم بك (ولا نصير) أى ينصرك و يمنعك من عقابه وقيل فى قوله ولئن اتبعت أهواءهم انه خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته والمعنى اياكم أخاطب ولكم أؤدب وأنهى فقد علمتم ان محمدا صلى الله عليه وسلم قد جاءكم بالحق والصدق وقد عصمته فلا تتبعوا أنتم أهواء الكافرين ولئن اتبعتم أهواءهم بعد الذى جاءكم من العلم والبينات ما لكم من الله من ولى ولا نصير ۞ قوله عزوجل (الذين آتيناهم الكتاب) قال ابن عباس نزلت فى أهل السفينة الذين قدموا مع

جعفر

(يتلونه) حال مقدرة من هم لانهم لم يكونوا تالين له وقت ايتائه ونصب على المصدر (حق تلاوته) أي يقرؤنه حق قراءته في الترتيل وأداء الحروف والتدبر والتفكر أو يعملون به و يؤمنون بما في مضمونه ولا يغيرون ما فيه من نعت النبي صلى الله عليه وسلم (أولئك) مبتدأ خبره (يؤمنون به) والجملة خبر الذين و يجوز أن يكون يتلونه خبرا والجملة خبرا آخر (ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون) حيث اشتروا الضلالة بالهدى (يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) أي أنعمتها عليكم (وأني فضلتكم على العالمين) وتفضيلي اياكم

على عالمي زمانكم (واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيأ ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون) هم رفع بالابتداء والخبر ينصرون والجمل الاربع وصف ليوما أي واتقوا يوما لاتجزى فيه ولا يقبل فيه ولا تنفعها فيه ولا هم ينصرون فيه وتكرير هاتين الآيتين لتكرار المعاصي منهم وختم قصة بني اسرائيل بما بدأ به (واذ) أي واذكر اذ (ابتلى ابراهيم ربه بكلمات) اختبره باوامر ونواه والاختبار منا لظهور مالم نعلم ومن الله لاظهار ما قد علم وعاقبة الابتلاء ظهور الامر الخفي في الشاهد والغائب جميعا فلذا تجوز اضافته الى الله تعالى وقيل اختبار الله عبده مجاز عن تمكينه من اختيار أحد الامرين ما يريد الله تعالى وما يشتهيه العبد كأنه يمتحنه ما يكون منه حتى يجازيه على حسب ذلك وقرأ ابو حنيفة رضي الله عنه ابراهيم ربه برفع ابراهيم وهي قراءة ابن عباس رضي الله عنهما أي دعاه بكلمات من الدعاء فعل المختبر هل يجيبه اليهن أم لا (فأتمهن) أي قام بهن حق القيام وأداهن أحسن التأدية من غير تفريط وتوان ونحوه وابراهيم الذي وفى ومعناه في قراءة أبي حنيفة رحمه الله فأعطاه ما طلبه لم ينقص منه شيأ والكلمات على هذا ما سأل ابراهيم ربه في قوله رب اجعل هذا بلدا آمنا واجعلنا مسلمين لك وابعث فيهم رسولا منهم ربنا تقبل منا والكلمات على القراءة المشهورة خمس في الرأس الفرق وقص الشارب والسواك والمضمضة والاستنشاق وخمس في الجسد الختان وتقليم الاظفار ونتف الابط وحلق العانة والاستنجاء وعن ابن عباس

جعفر بن أبي طالب وكانوا أربعين رجلا اثنان وثلاثون رجلا من الحبشة وثمانية من رهبان الشام منهم بحيرا الراهب وقيل هم مؤمنو أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وأصحابه وقيل هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة وقيل هم المؤمنون عامة (يتلونه حق تلاوته) أي يقرؤنه كما أنزل لا يغيرونه ولا يحرفونه ولا يبدلون ما فيه من نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل معناه يتبعونه حق اتباعه فيحلون حلاله و يحرمون حرامه ويعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه ويقفون عنده ويكلون علمه الى الله تعالى وقيل معناه تدبروه حق تدبره وتفكروا في معانيه وحقائقه وأسراره (أولئك) يعني الذين يتلونه حق تلاوته (يؤمنون به) أي يصدقون به فان قلنا ان الآية في أهل الكتاب فيكون المعنى ان المؤمن بالتوراة الذي يتلوها حق تلاوتها هو المؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم لان في التوراة نعته وصفته وان قلنا انها نزلت في المؤمنين عامة فظاهر (ومن يكفر به) أي يجحد ما فيه من فرائض الله ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم (فأولئك هم الخاسرون) أي خسروا أنفسهم حيث استبدلوا الكفر بالايمان ۞ قوله عز وجل (يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) أي أيادي لديكم وصنعي بكم واستنقاذي اياكم من أيدي عدوكم في نعم كثيرة أنعمت بها عليكم (واني فضلتكم على العالمين) أي واذكروا تفضيلي اياكم على عالمي زمانكم وفي هذه الآية عظة لليهود الذين كانوا في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكررها في أول السورة وهنا للتوكيد وتذكير النعم (واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيأ) وفي هذه الآية ترهيب لهم والمعنى يامعشر بني اسرائيل المبدلين كتابي المحرفين له خافوا عذاب يوم لاتجزى فيه نفس عن نفس شيأ (ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة) أي لا يقبل منها فدية ولا يشفع لها شافع وهذا من العام الذي يراد به الخاص كقوله تعالى ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له ومعنى الآية ولا تنفعها شفاعة اذا وجب عليها العذاب ولم يستحق سواه وقيل انه رد على اليهود في قولهم ان آباءنا يشفعون لنا (ولا هم ينصرون) أي ولا ناصر لهم ينصرهم من الله اذا انتقم منهم ۞ قوله عز وجل (واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن) ابراهيم اسم أعجمي ومعناه أب رحيم وهو ابراهيم بن تارخ وهو آزر بن ناخور بن شاروغ بن ارغو بن فالغ بن عابر ابن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح عليه السلام وكان مولد ابراهيم بالسوس من أرض الاهواز وقيل ببابل وقيل بكوثى وهي قرية من سواد الكوفة وقيل بحران ولكن أباه نقله الى أرض بابل وهي أرض نمروذ الجبار وابراهيم عليه السلام تعترف بفضله جميع الطوائف قديما وحديثا فاما اليهود والنصارى فانهم مقرون بفضله و يتشرفون بالنسبة اليه وانهم من أولاده وأما العرب في الجاهلية فانهم أيضا يعترفون بفضله و يتشرفون على غيرهم به لانهم من أولاده ومن ساكني حرمه وخدام بيته ولما جاء الاسلام زاده الله شرفا وفضلا فحكى الله تعالى عن ابراهيم أمورا توجب على المشركين والنصارى واليهود قبول قول محمد صلى الله عليه وسلم والاعتراف بدينه والانقياد لشرعه لان ما أوجبه الله على ابراهيم عليه السلام هو من خصائص دين محمد صلى الله عليه وسلم وفي ذلك حجة على اليهود والنصارى ومشركي العرب في وجوب الانقياد لمحمد صلى الله عليه وسلم والايمان به وتصديقه وأصل الابتلاء الامتحان والاختبار ليعرف حال الانسان وسمي التكاليف بلاء لانه

يشق على الابدان وقيل ليختبر به حال الانسان فاذا قيل ابتلى فلان بكذا يتضمن أمرين أحدهما تعرف حاله والوقوف على ما يجهل من أمره والثانى ظهور جودته ورداءته وابتلاء الله العباد ليس ليعلم أحوالهم والوقوف على ما يجهل منها لانه عالم بجميع المعلومات التى لا نهاية لها على سبيل التفصيل من الازل الى الابد ولكن ليعلم العباد أحوالهم من ظهور جودة ورداءة وعلى هذا ينزل قوله تعالى واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات واختلفوا فى تلك الكلمات التى ابتلى الله بها ابراهيم عليه السلام قال ابن عباس هى ثلاثون سهما هن شرائع الاسلام لم يبتل بها أحد فاقامها كلها الا ابراهيم فكتب الله له البراءة فقال وابراهيم الذى وفى ومعنى هذا الكلام أنه لم يبتل أحد قبل ابراهيم فاما بعده فقد أتى الانبياء بجميع ما أمر به من الدين خصوصا نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم فقد أتى بجميع ما أمر به وهى عشرة مذكورة فى سورة براءة فى قوله التائبون العابدون الآية وعشرة فى سورة الاحزاب فى قوله ان المسلمين والمسلمات الآية وعشرة فى سورة المؤمنين فى قوله قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون الآيات وهى مذكورة أيضا فى سورة سأل سائل وعن ابن عباس أيضا قال ابتلاه الله بعشرة أشياء هن الفطرة خمس فى الرأس قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس وخمس فى الجسد تقليم الاظافر ونتف الابط وحلق العانة والختان والاستنجاء بالماء (ق) عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الفطرة خمس وفى رواية خمس من الفطرة الختان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الاظافر ونتف الابط (م) عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر من الفطرة قص الشارب واعفاء اللحية والسواك والاستنشاق بالماء وقص الاظفار وغسل البراجم ونتف الابط وحلق العانة وانتقاص الماء يعنى الاستنجاء قال مصعب ونسيت العاشرة الا أن تكون المضمضة قال وكيع انتقاص الماء يعنى الاستنجاء قال العلماء الفطرة السنة وقيل الملة وقيل الطريقة وهذه الاشياء المذكورة فى الحديث وانها من الفطرة قيل كانت على ابراهيم عليه السلام فرضا وهى لنا سنة واتفقت العلماء على انها من الملة وأما معانيها فقد قيل أما قص الشارب واعفاء اللحية فمخالفة للاعاجم فانهم كانوا يقصون لحاهم ويوفرون شواربهم أو يوفرونهما معا وذلك عكس الجمال والنظافة وأما السواك والمضمضة والاستنشاق فلتنظيف الفم والانف من الطعام والقلح والوسخ وأما قص الاظفار فللجمال والزينة فانها اذا طالت قبح منظرها واحتوى الوسخ فيها وأما غسل البراجم وهى العقد التى فى ظهور الاصبع فانه يجتمع فيها الوسخ ويشين المنظر وأما حلق العانة ونتف الابط فللتنظف عما يجمع من الوسخ فى الشعر وأما الاستنجاء فلتنظيف ذلك المحل عن الاذى وأما الختان فلتنظيف القلفة عما يجتمع فيها من البول واختلف العلماء فى وجوبه فذهب الشافعى الى أن الختان واجب لانه تنكشف له العورة ولا يباح ذلك الا فى الواجب وذهب غيره الى أنه سنة وأول من اختتن ابراهيم عليه السلام ولم يختتن أحد قبله (ق) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اختتن ابراهيم بالقدوم يروى القدوم بالتخفيف والتشديد فمن خفف ذهب الى أنه اسم للآلة التى يقطع بها ومن شدد قال انه اسم موضع عن يحيى بن سعيد انه سمع سعيد بن المسيب يقول كان ابراهيم خليل الرحمن أول الناس ضيف الضيف وأول الناس قص شاربه وأول الناس رأى الشيب قال رب ما هذا قال الرب تبارك وتعالى وقار يا ابراهيم قال يارب زدنى وقارا أخرجه مالك فى الموطأ وقيل فى الكلمات انها مناسك الحج وقيل ابتلاه الله بسبعة أشياء بالكوكب والقمر والشمس فاحسن النظر فيهن وبالنار والهجرة وذبح ولده والختان فصبر عليها وقيل ان الله اختبر ابراهيم بكلمات أوحاها اليه وأمره أن يعمل بهن فاتمهن أى أداهن حق التأدية وقام بموجبهن حق القيام وعمل بهن من غير تفريط وتوان ولم ينتقص منهن شيأ واختلفوا هل كان هذا الابتلاء قبل النبوة أو بعدها فقيل كان قبل النبوة بدليل قوله فى سياق الآية انى جاعلك للناس اماما والسبب يتقدم على المسبب وقيل بل كان هذا

الابتلاء بعد النبوة لان التكليف لايعلم الامن جهة الوحى الالهى وذلك بعد النبوة والصواب أنه ان فسر الابتلاء بالكوكب والقمر والشمس كان ذلك قبل النبوة وان فسر بما وجب عليه من شرائع الدين كان ذلك بعد النبوة ﴿ وقوله تعالى (قال انى جاعلك للناس اماما) أى يقتدى بك فى الخير ويأتمون بسنتك وهديك والامام هو الذى يؤتم به (قال ومن ذريتى) أى قال ابراهيم واجعل من ذريتى وأولادى أئمة يقتدى بهم (قال) الله (لاينال) أى لايصيب (عهدى) أى نبوتى وقيل الامامة (الظالمين) يعنى من ذريتك والمعنى لاينال ماعاهدت اليك من النبوة والامامة من كان ظالما من ذريتك وولدك ﴿ قوله عزوجل (واذجعلنا البيت) يعنى البيت الحرام وهو الكعبة ويدخل فيه الحرم فان الله تعالى وصفه بكونه آمنا وهذه صفة جميع الحرم (مثابة للناس) أى مرجعا من ثاب يثوب اذا رجع والمعنى يثوبون اليه من كل جانب يحجونه (وأمنا) أى موضعا ذا أمن يأمنون فيه من أذى المشركين فانهم كانوا لايتعرضون لاهل مكة ويقولون هم أهل الله وقال ابن عباس معاذا وملجا (ق) عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة ان هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والارض فهو حرام بحرمة الله تعالى الى يوم القيامة وانه لم يحل القتال فيه لاحد قبلى ولم يحل لى الاساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة لايعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته الامن عرفها ولايختلى خلاه فقال العباس يارسول الله الا الاذخر فانه لقينهم و بيوتهم فقال الا الاذخر معنى الحديث انه لايحل لاحد أن ينصب القتال والحرب فى الحرم وانما أحل ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة فقط ولايحل لاحد بعده قوله لايعضد شوكه أى لايقطع شوك الحرم وأراد به مالايؤذى منه أما مايؤذى منه كالعوسج فلا بأس بقطعه قوله ولاينفر صيده أى لايتعرض له بالاصطياد ولايهاج قوله ولايلتقط لقطته الامن عرفها أى ينشدها والنشد رفع الصوت بالتعريف واللقطة فى جميع الارض لاتحل الالمن يعرفها حولا فان جاء صاحبها أخذها والا انتفع بها الملتقط بشرط الضمان وحكم مكة فى اللقطة ان يعرفها على الدوام بخلاف غيرها من البلاد فانه محدود بسنة قوله ولايختلى خلاه الخلا مقصور الرطب من النبات الذى يرعى وقيل هو اليابس من الحشيش وخلاه قطعه وقوله لقينهم القين الحداد ﴿ وقوله تعالى (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) قيل الحرم كله مقام ابراهيم وقيل أراد بمقام ابراهيم جميع مشاهد الحج مثل عرفة والمزدلفة والرمى وسائر المشاهد والصحيح أن مقام ابراهيم هو الحجر الذى يصلى عنده الائمة وذلك الحجر هو الذى قام ابراهيم عليه عند بناء البيت وقيل كان أثر أصابع رجلى ابراهيم عليه السلام فيه فاندرست بكثرة المسح بالايدى وقيل انما أمروا بالصلاة عنده ولم يؤمروا بمسحه وتقبيله (ق) عن أنس بن مالك قال قال عمر وافقت ربى فى ثلاث قلت يارسول الله لو اتخذت من مقام ابراهيم مصلى فنزلت واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى الحديث وكان بدو قصة المقام على مارواه البخارى فى صحيحه عن ابن عباس قال أول ما اتخذت النساء المنطق من قبل أم اسمعيل اتخذت منطقا لتعفى أثرها على سارة ثم جاء بها ابراهيم و بابنها اسمعيل وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم من أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء

رضى الله عنه ماهى ثلاثون سهما من الشرائع عشر فى براءة التائبون الآية وعشر فى الاحزاب ان المسلمين والمسلمات الآية وعشر فى المؤمنين والمعارج الى قوله يحافظون وقيل هى مناسك الحج (قال انى جاعلك للناس اماما) هو اسم من يؤتم به أى يأتمون بك فى دينهم (قال ومن ذريتى) أى واجعل من ذريتى اماما يقتدى به ذرية الرجل أولاده ذكورهم واناثهم فيه سواء فعيلة من الذرء أى الخلق فابدلت الهمزة ياء (قال لاينال عهدى الظالمين) بسكون الياء حمزة وحفص أى لاتصيب الامامة أهل الظلم من ولدك أى أهل الكفر أخبر أن امامة المسلمين لاتثبت لاهل الكفر وان من أولاده المسلمين والكافرين قال الله تعالى وباركنا عليه وعلى اسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين والمحسن المؤمن والظالم الكافر قالت المعتزلة هذا دليل على ان الفاسق ليس باهل للامامة قالوا وكيف يجوز نصب الظالم للامامة والامام انما هو لكف الظلمة فاذا نصب من كان ظالما فى نفسه فقد جاء المثل السائر من استرعى الذئب ظلم ولكنا نقول المراد بالظالم الكافر هنا اذ هو الظالم المطلق وقيل انه سأل أن يكون ولده نبيا كما كان هو فاخبر أن الظالم لايكون نبيا (واذ جعلنا البيت) أى الكعبة وهو اسم غالب لها كالنجم للثريا (مثابة للناس) مباءة ومرجعا للحجاج والعمار يتفرقون عنه ثم يثوبون اليه (وأمنا) وموضع أمن فان الجانى يأوى اليه فلا يتعرض له حتى يخرج وهو دليل لنا فى الملتجئ الى الحرم (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) وقلنا اتخذوا منه موضع صلاة تصلون فيه وعنه عليه السلام انه أخذ بيد عمر فقال هذا مقام ابراهيم فقال عمر أفلا نتخذه مصلى فقال عليه السلام لم أومر بذلك فلم تغب الشمس حتى نزلت وقيل مصلى مدعى ومقام ابراهيم الحجر الذى فيه أثر قدميه وقيل الحرم كله مقام ابراهيم واتخذوا شامى ونافع بلفظ الماضى عطفا على جعلنا أى واتخذ الناس من مكان ابراهيم الذى وسم به لاهتمامه به واسكان ذريته عنده قبلة يصلون اليها

ووضعهما هناك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفى ابراهيم منطلقا فتبعته أم اسمعيل فقالت
يا ابراهيم الى أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء فقالت له ذلك مرارا وجعل
لا يلتفت اليها فقالت له آلله أمرك بهذا قال نعم قالت اذا لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق ابراهيم حتى اذا كان عند
الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات فرفع يديه وقال رب انى أسكنت من
ذريتي بواد غير ذي زرع حتى بلغ يشكرون وجعلت أم اسمعيل ترضع اسمعيل وتشرب من ذلك الماء
حتى اذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر اليه يتلوى أو قال يتلبط فانطلقت كراهية ان تنظر
اليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الارض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا فلم
تر أحدا فهبطت من الصفا حتى بلغت الوادي ورفعت طرف درعها وسعت سعي الانسان المجهود حتى جاوزت
الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس
قال النبي صلى الله عليه وسلم فلذلك سعي الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت صه تريد
نفسها ثم تسمعت فسمعت أيضا فقالت قد أسمعت ان كان عندك غواث فاذا هي بالملك عند موضع
زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء
في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم يرحم الله أم اسمعيل لو تركت
زمزم أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا قال فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك
لا تخافي الضيعة فان ههنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه وان الله لا يضيع أهله وكان البيت مرتفعا من الارض
كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل
بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا فقالوا ان هذا الطائر ليدور على
ماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء فأرسلوا جريا أو جريين فاذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم فأقبلوا وأم
اسمعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك قالت نعم ولكن لا حق لكم في الماء قالوا نعم قال ابن
عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم فألفى ذلك أم اسمعيل وهي تحب الانس فأرسلوا الى أهليهم فنزلوا معهم حتى
اذا كانوا بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه
امرأة منهم وماتت أم اسمعيل فجاء ابراهيم بعد ما تزوج اسمعيل يطالع تركته فلم يجد اسمعيل فسأل امرأته
عنه فقالت خرج يبتغي لنا وفي رواية ذهب يصيد لنا ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بشر نحن في
ضيق وشدة وشكت اليه فقال اذا جاء زوجك اقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه فلما جاء اسمعيل كأنه
آنس شيأ فقال هل جاءكم من أحد قالت نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته فسألني كيف عيشنا
فأخبرته أنا في جهد وشدة فقال هل أوصاك بشيء قالت نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول لك غير عتبة
بابك قال ذلك أبي وقد أمرني أن أفارقك الحقي بأهلك فطلقها وتزوج منهم أخرى فلبث عنهم ابراهيم ما شاء
الله أن يلبث ثم أتاهم بعد فلم يجده فدخل على امرأته فسأل عنه فقالت خرج يبتغي لنا قال كيف أنتم وسألها
عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بخير وسعة وأثنت على الله عز وجل فقال وما طعامكم قالت اللحم قال وما
شرابكم قالت الماء قال اللهم بارك لهم في اللحم والماء قال النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن لهم يومئذ حب ولو
كان لهم حب دعا لهم فيه قال فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة الا لم يوافقاه وفي رواية فجاء فقال أين اسمعيل
فقالت امرأته قد ذهب يصيد فقالت امرأته ألا تنزل عندنا فتطعم وتشرب قال وما طعامكم وشرابكم قالت
طعامنا اللحم وشرابنا الماء قال اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم قال فقال أبو القاسم بركة دعوة ابراهيم
قال فاذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه أن يثبت عتبة بابه فلما جاء اسمعيل قال هل أتاكم من أحد
قالت نعم أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرته فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير قال

فأوصاك

فلو صاك بشئ قالت نعم يقرأ عليك السلام و يأمرك أن تثبت عتبة بابك فقال ذاك أبى وأنت العتبة أمرنى أن أمسكك ثم لبث عنهم ماشاء الله ثم جاء بعد ذلك واسمعيل يبرى نبلاله تحت دوحة قريبا من زمزم فلما رآه قام اليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ثم قال يا اسمعيل ان الله أمرنى بأمر قال فاسمع ما أمرك ربك قال وتعينى قال وأعينك قال فان الله أمرنى أن أبنى بيتا ههنا وأشار الى أكمة مرتفعة على ما حولها فعند ذلك رفع القواعد من البيت فجعل اسمعيل يأتى بالحجارة وابراهيم يبنى حتى اذا ارتفع البناء جاء ابراهيم بهذا الحجر فوضعه له فقام ابراهيم وهو يبنى واسمعيل يناوله الحجارة وهما يقولان ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم وفى رواية حتى اذا ارتفع البناء وضعف الشيخ عن نقل الحجارة فقام على حجر المقام فجعل يناوله الحجارة ويقولان ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم وقيل ان امرأة اسمعيل قالت لابراهيم انزل اغسل رأسك فلم ينزل فجاءته بالمقام فوضعته عن شقه الايمن فوضع قدمه عليه فغسلت شق رأسه الايمن ثم حولته الى شقه الايسر فغسلت شق رأسه الايسر فبقى أثر قدميه عليه ✽ عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما ولولم يطمس نورهما لاضاء ما بين المشرق والمغرب أخرجه الترمذى وقال هذا يروى عن ابن عمر موقوفا واختلفوا فى قوله مصلى فمن فسر المقام بمشاهد الحج ومشاعره قال مصلى مدعى من الصلاة التى هى الدعاء ومن فسر المقام بالحجر قال معناه واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى قبلة أمروا بالصلاة عنده وهذا القول هو الصحيح لان لفظ الصلاة اذا أطلق لايعقل منه الا الصلاة المعهودة ذات الركوع والسجود ولان مصلى الرجل هو الموضع الذى يصلى فيه (وعهدنا الى ابراهيم واسمعيل) أى أمرناهما وألزمناهما وأوجبنا عليهما قيل انما سمى اسمعيل لان ابراهيم كان يدعو الله أن يرزقه ولدا و يقول فى دعائه اسمع يا ايل وايل بلسان السريانية هو الله فلما رزق الولد سماه به (أن طهرا بيتى) يعنى الكعبة أضافه اليه تشريفا وتفضيلا وتخصيصا أى ابنياه على الطهارة والتوحيد وقيل طهراه من سائر الاقذار والانجاس وقيل طهراه من الشرك والاوثان وقول الزور (للطائفين) يعنى الدائرين حوله (والعاكفين) يعنى المقيمين به والمجاورين له (والركع السجود) جمع راكع وساجد وهم المصلون وقيل الطائفين يعنى الغرباء الواردين الى مكة والعاكفين يعنى أهل مكة المقيمين بها قيل ان الطواف للغرباء أفضل والصلاة لاهل مكة بمكة أفضل ۞ قوله عز وجل (واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا) اشارة الى مكة وقيل الى الحرم (بلدا آمنا) أى ذا أمن يأمن فيه أهله وانما دعا ابراهيم له بالامن لانه بلد ليس فيه زرع ولا ثمر فاذا لم يكن آمنا لم يجلب اليه شئ من النواحى فيتعذر المقام به فاجاب الله تعالى دعاء ابراهيم وجعله بلدا آمنا فما قصده جبار الا قصمه الله تعالى كما فعل باصحاب الفيل وغيرهم من الجبابرة فان قلت قد غزا مكة الحجاج وخرب الكعبة قلت لم يكن قصده بذلك مكة ولا أهلها ولا خراب الكعبة وانما كان قصده خلع ابن الزبير من الخلافة ولم يتمكن من ذلك الا بذلك فلما حصل قصده أعاد بناء الكعبة فبناها وشيدها وعظم حرمتها وأحسن الى أهلها واختلفوا هل كانت مكة محرمة قبل دعوة ابراهيم عليه السلام أو حرمت بدعوته على قولين أحدهما انها كانت محرمة قبل دعوته بدليل قوله صلى الله عليه وسلم ان الله حرم مكة يوم خلق السموات والارض وقول ابراهيم عليه السلام انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم فهذا يقتضى أن مكة كانت محرمة قبل دعوة ابراهيم القول الثانى انها انما حرمت بدعوة ابراهيم بدليل قوله صلى الله عليه وسلم ان ابراهيم حرم مكة وانى حرمت المدينة وهذا يقتضى ان مكة كانت قبل دعوة ابراهيم حلالا كغيرها من البلاد وانما حرمت بدعوة ابراهيم ووجه الجمع بين القولين وهو الصواب أن الله تعالى حرم مكة يوم خلقها كما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله ان الله حرم مكة يوم خلق السموات والارض ولكن لم يظهر ذلك التحريم على لسان أحد من أنبيائه ورسله وانما كان تعالى يمنعها

(وعهدنا الى ابراهيم واسمعيل) أمرناهما (أن طهرا بيتى) بفتح الياء مدنى وحفص أى بان طهرا أو أى طهرا والمعنى طهراه من الاوثان والخبائث والانجاس كلها (للطائفين) للدائرين حوله (والعاكفين) المجاورين الذين عكفوا عنده أى أقاموا لايبرحون أو المعتكفين وقيل للطائفين للنزاع اليه من البلاد والعاكفين والمقيمين من أهل مكة (والركع السجود) والمصلين جمع راكع وساجد (واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا) أى اجعل هذا البلد أو هذا المكان (بلدا آمنا) ذا أمن كعيشة راضية أو آمنا من فيه كقولك ليل نائم فهذا مفعول أول و بلدا مفعول ثان وآمنا صفته

ممن أرادها بسوء ويدفع عنها وعن أهلها الآفات والعقوبات فلم يزل ذلك من أمرها حتى بوّأها الله تعالى ابراهيم وأسكن بها أهله فحينئذ سأل ابراهيم ربه عز وجل ان يظهر تحريم مكة لعباده على لسانه فاجاب الله تعالى دعوته وألزم عباده تحريم مكة فصارت مكة حراما بدعوة ابراهيم وفرض على الخلق تحريمها والامتناع من استحلالها واستحلال صيدها وشجرها فهذا وجه الجمع بين القولين وهو الصواب والله أعلم (وارزق أهله من الثمرات) انما سأل ابراهيم ذلك لان مكة لم يكن بها زرع ولا ثمر فاستجاب الله تعالى له وجعل مكة حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شئ (من آمن منهم بالله واليوم الآخر) يعنى ارزق المؤمنين من أهله خاصة وسبب هذا التخصيص أن ابراهيم عليه السلام لما سأل ربه عز وجل أن يجعل النبوة والامامة فى ذريته فاجابه الله بقوله لا ينال عهدى الظالمين صار ذلك تأديبا له فى المسئلة فلا جرم خص ههنا بدعائه المؤمنين دون الكافرين ثم أعلمه أن الرزق فى الدنيا يستوى فيه المؤمن والكافر بقوله (قال ومن كفر فامتعه) أى سأرزق الكافر أيضا (قليلا) أى فى الدنيا الى منتهى أجله وذلك قليل لانه ينقطع (ثم أضطره الى عذاب النار) أى ألجئه وأكرهه وأدفعه الى عذاب النار والمضطر هو الذى لا يملك لنفسه الامتناع مما اضطر اليه (وبئس المصير) أى وبئس المكان الذى يصير اليه الكافر وهو العذاب ﴿ قوله تعالى (واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل) وكانت قصة بناء البيت على ما ذكره العلماء وأصحاب السير ان الله تعالى خلق موضع البيت قبل أن يخلق الارض بالفى عام فكانت زبدة بيضاء على وجه الماء فدحيت الارض من تحتها فلما أهبط الله آدم الى الارض استوحش فشكا الى الله تعالى فانزل البيت المعمور وهو من ياقوتة من يواقيت الجنة له بابان من زمرد أخضر باب شرقى وباب غربى فوضعه على موضع البيت وقال يا آدم انى أهبطت لك بيتا تطوف به كما يطاف حول عرشى وتصلى عنده كما يصلى عند عرشى وأنزل الله عليه الحجر الاسود وكان أبيض فاسود من مس الحيض فى الجاهلية فتوجه آدم من الهند ماشيا الى مكة وأرسل الله اليه ملكا يدله على البيت فحج آدم البيت وأقام المناسك فلما فرغ تلقته الملائكة وقالوا له بر حجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بالفى عام قال ابن عباس حج آدم أربعين حجة من الهند الى مكة على رجليه فكان على ذلك الى أيام الطوفان فرفعه الله الى السماء الرابعة وهو البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون اليه وبعث الله جبريل حتى خبأ الحجر الاسود فى جبل أبى قبيس صيانة له من الغرق فكان موضع البيت خاليا الى زمن ابراهيم عليه السلام ثم ان الله تعالى أمر ابراهيم بعد ما ولد له اسمعيل واسحق ببناء بيت يذكر فيه ويعبد فسأل الله ان يبين له موضعه فبعث الله السكينة لتدله على موضع البيت وهى ريح خجوج لها راسان تشبه الحية والخجوج من الرياح هى الشديدة السريعة الهبوب وقيل هى المتلوية فى هبوبها وأمر ابراهيم أن يبنى حيث تستقر السكينة فتبعها ابراهيم حتى أتت موضع البيت فتطوقت عليه كتطويق الحجفة وقال ابن عباس بعث الله سبحانه وتعالى سحابة على قدر الكعبة فجعلت تسير وابراهيم يمشى فى ظلها الى أن وقفت على موضع البيت ونودى منها يا ابراهيم ابن على قدر ظلها لا تزد ولا تنقص وقيل ان الريح كنست له ما حول الكعبة حتى ظهر له أساس البيت الاول فذلك قوله تعالى واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت فبنى ابراهيم واسمعيل البيت فكان ابراهيم يبنيه واسمعيل يناوله الحجارة فذلك قوله تعالى واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت جمع قاعدة وهى أس البيت وقيل جدره من البيت قال ابن عباس بنى ابراهيم البيت من خمسة أجبل من طور سيناء وطور زيتاء ولبنان جبل بالشام والجودى جبل بالجزيرة وبنى قواعده من حراء جبل بمكة فلما انتهى ابراهيم الى موضع الحجر الاسود قال لاسمعيل ائتنى بحجر حسن يكون للناس علما فاتاه بحجر فقال ائتنى باحسن منه فمضى اسمعيل ليطلب حجرا أحسن منه فصاح أبو قبيس يا ابراهيم ان لك عندى وديعة فخذها فقذف بالحجر الاسود فاخذه ابراهيم فوضعه مكانه وقيل ان الله تعالى أمد ابراهيم واسمعيل

(وارزق أهله من الثمرات) لانه لم يكن لهم ثمرة ثم أبدل (من آمن منهم بالله واليوم الآخر) من أهله بدل البعض من الكل أى وارزق المؤمنين من أهله خاصة قاس الرزق على الامامة نخص المؤمنين به قال الله تعالى جوابا له (قال ومن كفر) أى وارزق من كفر (فامتعه قليلا) تمتيعا قليلا أو زمانا قليلا الى حين أجله فامتعه شامى (ثم أضطره) ألجئه (الى عذاب النار وبئس المصير) المرجع الذى يصير اليه النار فالمخصوص بالذم محذوف (واذ يرفع) حكاية حال ماضية (ابراهيم القواعد) هى جمع قاعدة وهى الاساس والاصل لما فوقه وهى صفة غالبة ومعناها الثابتة ورفع الاساس البناء عليها لانها اذا بنى عليها نقلت عن هيئة الانخفاض الى هيئة الارتفاع وتطاولت بعد التقاصر (من البيت) بيت الله وهو الكعبة (واسمعيل) هو عطف على ابراهيم وكان ابراهيم يبنى واسمعيل يناوله الحجارة

(ربنا) أي يقولان ربنا وهذا الفعل في محل النصب على الحال وقد أظهره عبد الله في قراءته ومعناه يرفعانها قائلين

بسبعة أملاك يعينونهما في بناء البيت فلما فرغا من بنائه قالا (ربنا تقبل منا) وفي الآية اضمار تقديره ويقولان ربنا تقبل منا أي ما عملنا لك وتقبل طاعتنا إياك وعبادتنا لك (انك أنت السميع) أي لدعائنا (العليم) يعني بنياتنا ﴿ قوله عز وجل (ربنا واجعلنا مسلمين لك) يعني موحدين مخلصين مطيعين خاضعين لك فان قلت الاسلام اما أن يكون المراد منه الدين والاعتقاد أو الاستسلام والانقياد وقد كانا كذلك حالة هذا الدعاء فما فائدة هذا الطلب قلت فيه وجهان أحدهما أن الاسلام عرض قائم بالقلب وقد لا يبقى فقوله واجعلنا مسلمين لك يعني في المستقبل وذلك لا ينافي حصوله في الحال الوجه الثاني يحتمل ان يكون المراد منه طلب الزيادة في الايمان فكأنهما طلبا زيادة اليقين والتصديق وذلك لا ينافي حصوله في الحال (ومن ذريتنا) أي من أولادنا (أمة) أي جماعة (مسلمة) أي خاضعة منقادة (لك) وانما أدخل من التي هي للتبعيض لان الله تعالى أعلمهما بقوله لا ينال عهدي الظالمين ان في ذريتهما الظالم فلهذا خص بعض الذرية بالدعاء فان قلت لم خص ذريتهما بالدعاء قلت لانهم أحق بالشفقة والنصيحة قال الله تعالى قوا أنفسكم وأهليكم نارا ولان أولاد الانبياء اذا صلحوا صلح بهم غيرهم ألا ترى ان المتقدمين من العلماء والكبراء اذا كانوا على السداد كيف يتسببون لسداد من وراءهم وقيل أراد بالامة أمة محمد صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى وابعث فيهم رسولا منهم (وأرنا) أي علمنا وبصرنا (مناسكنا) أي شرائع ديننا وأعلام حجنا وقيل مناسكنا يعني مذابحنا والنسك الذبيحة وقيل متعبداتنا وأصل النسك العبادة والناسك العابد فأجاب الله دعاءهما وبعث جبريل فأراهما المناسك في يوم عرفة فلما بلغ عرفات قال عرفت يا ابراهيم قال نعم فسمي ذلك الوقت عرفة والموضع عرفات (وتب علينا) أي تجاوز عنا (انك أنت التواب) أي المتجاوز عن عباده (الرحيم) بهم واحتج بقوله وتب علينا من جوز الذنوب على الانبياء ووجهه ان التوبة لا تطلب من الله الا بعد تقدم الذنب فلولا تقدم الذنب لم يكن لطلب التوبة وجه وأجيب عنه بان العبد وان اجتهد في طاعة ربه عز وجل فانه لا ينفك عن تقصير في بعض الاوقات اما على سبيل السهو أو ترك الاولى والافضل وكان هذا الدعاء لاجل ذلك وقيل يحتمل ان الله تعالى أعلم ابراهيم ان في ذريته من هو ظالم فلا جرم سأل ربه التوبة لاولئك الظلمة والمعنى وتب على الظلمة من أولادنا حتى يرجعوا الى طاعتك فيكون ظاهر الكلام الدعاء لانفسهما والمراد به ذريتهما وقيل يحتمل انهما لما رفعا قواعد البيت وكان ذلك المكان أحرى الاماكن بالاجابة دعوا الله بذلك الدعاء ليجعلا ذلك سنة وليقتدي من بعدهما بهما في ذلك الدعاء لان ذلك المكان هو موضع التنصل من الذنوب وسؤال التوبة والمغفرة من الله تعالى ﴿ قوله عز وجل (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) يعني وابعث في الامة المسلمة أو الذرية وهم العرب من ولد اسمعيل بن ابراهيم عليهما السلام وقوله رسولا منهم يعني ليدعوهم الى الاسلام ويكمل الدين والشرع واذا كان الرسول منهم يعرفون نسبه ومولده ومنشأه كان أقرب لقبول قوله ويكون هو أشفق عليهم من غيره وأجمع المفسرون على ان المراد بقوله رسولا منهم هو محمد صلى الله عليه وسلم لان ابراهيم عليه السلام انما دعا لذريته وهو بمكة ولم يبعث من ذريته بمكة غير محمد صلى الله عليه وسلم فدل على ان المراد به محمد صلى الله عليه وسلم وروى البغوي باسناده عن العرباض بن سارية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اني عند الله مكتوب خاتم النبيين وان آدم لمنجدل في طينته وسأخبركم بأول أمري انا دعوة ابراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني وقد خرج لها نور ساطع أضاءت لها منه قصور الشام وقوله لمنجدل في طينته معناه انه مطروح على وجه الارض صورة من طين لم تجر فيه الروح وأراد بدعوة ابراهيم قوله ربنا وابعث فيهم رسولا منهم فاستجاب الله دعاء ابراهيم وبعث محمدا صلى الله عليه وسلم في آخر الزمان وأنقذهم به من الكفر والظلم

ربنا (تقبل منا) تقربنا اليك ببناء هذا البيت (انك أنت السميع) لدعائنا (العليم) بضمائرنا ونياتنا وفي ابهام القواعد وتبيينها بعد الابهام تفخيم لشأن المبين (ربنا واجعلنا مسلمين لك) مخلصين لك أوجهنا من قوله أسلم وجهه لله أو مستسلمين يقال أسلم له واستسلم اذا خضع وأذعن والمعنى زدنا اخلاصا واذعانا لك (ومن ذريتنا) واجعل من ذريتنا (أمة مسلمة لك) ومن للتبعيض أو للتبيين وقيل أراد بالامة أمة محمد عليه السلام وانما خصا بالدعاء ذريتهما لانهم أولى بالشفقة لقوله تعالى قوا أنفسكم وأهليكم نارا (وأرنا مناسكنا) منقول من رأى بمعنى أبصر أو عرف ولذا لم يتجاوز مفعولين أي وبصرنا متعبداتنا في الحج أو عرفناها وواحد المناسك منسك بفتح السين وكسرها وهو المتعبد ولهذا قيل للعابد ناسك وأرنا مكي قاسه على فخذ في فخذ وأبو عمرو يشم الكسرة (وتب علينا) ما فرط منا من التقصير أو استتابا لذريتهما (انك أنت التواب الرحيم ربنا وابعث فيهم) في الامة المسلمة (رسولا منهم) من أنفسهم فبعث الله فيهم محمدا عليه السلام قال عليه السلام أنا دعوة أبي ابراهيم وبشرى عيسى ورؤيا أمي

وأراد ببشارة عيسى عليه السلام قوله في سورة الصف ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد (يتلو عليهم) أي يقرأ عليهم (آياتك) يعني ما توحيه اليه وهو القرآن الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم لان الذي كان يتلوه عليهم هو القرآن فوجب حمله عليه (ويعلمهم الكتاب) يعني معاني الكتاب وحقائقه لان المقصود الاعظم تعليم ما في القرآن من دلائل التوحيد والنبوة والاحكام الشرعية فلما ذكر الله تعالى أولا أمر التلاوة وهي حفظ القرآن ودراسته ليبقى مصونا عن التحريف والتبديل ذكر بعده تعليم حقائقه وأسراره (والحكمة) أي ويعلمهم الحكمة وهي الاصابة في القول والعمل ولا يسمى الرجل حكيما الا اذا اجتمع فيه الامران وقيل الحكمة هي التي ترد عن الجهل والخطا وذلك انما يكون بما ذكرناه من الاصابة في القول والعمل ووضع كل شئ موضعه وقيل الحكمة معرفة الاشياء بحقائقها واختلف المفسرون في المراد بالحكمة ههنا فروى ابن وهب قال قلت لمالك ما الحكمة قال المعرفة بالدين والفقه فيه والاتباع له وقال قتادة الحكمة هي السنة وذلك لان الله تعالى ذكر تلاوة الكتاب وتعليمه ثم عطف عليه الحكمة فوجب أن يكون المراد بها شيأ آخر وليس ذلك الا السنة وقيل الحكمة هي العلم بأحكام الله تعالى التي لا يدرك علمها الا ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم والمعرفة بها منه وقيل الحكمة هي الفصل بين الحق والباطل وقيل هي معرفة الاحكام والقضاء وقيل هي فهم القرآن والمعنى ويعلمهم ما في القرآن من الاحكام والحكمة وهي ما فيه من المصالح الدينية والاحكام الشرعية وقيل كل كلمة وعظتك أودعتك الى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة (ويزكيهم) أي ويطهرهم من الشرك وعبادة الاوثان وسائر الارجاس والرذائل والنقائص وقيل يزكيهم من التزكية أي يشهد لهم يوم القيامة بالعدالة اذا شهدوا للانبياء بالبلاغ ثم ختم ابراهيم الدعاء بالثناء على الله تعالى فقال (انك أنت العزيز) قال ابن عباس العزيز الذي لا يوجد مثله وقيل هو الذي يقهر ولا يقهر وقيل هو المنيع الذي لا تناله الايدي وقيل العزيز القوي والعزة القوة من قولهم أرض عزاز أي صلبة قوية (الحكيم) أي العالم الذي لا تخفى عليه خافية وقيل هو العالم بالاشياء وايجادها على غاية الاحكام ۞ قوله عز وجل (ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه) سبب نزول هذه الآية ان عبد الله بن سلام دعا ابني أخيه الى الاسلام مهاجرا وسلمة وقال لهما قد علمتما ان الله تعالى قال في التوراة اني باعث من ولد اسمعيل نبيا اسمه أحمد فمن آمن به فقد اهتدى ومن لم يؤمن به فهو ملعون فاسلم سلمة وأبى مهاجر أن يسلم فانزل الله تعالى ومن يرغب عن ملة ابراهيم أي يترك دينه وشريعته وفيه تعريض باليهود والنصارى ومشركي العرب لان اليهود والنصارى يفتخرون بالانتساب الى ابراهيم والوصلة اليه لانهم من بني اسرائيل وهو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم والعرب يفتخرون به لانهم من ولد اسمعيل بن ابراهيم واذا كان كذلك كان ابراهيم هو الذي طلب بعثة هذا الرسول في آخر الزمان فمن رغب عن الايمان بهذا الرسول الذي هو دعوة ابراهيم فقد رغب عن ملة ابراهيم ومعنى يرغب عن ملة ابراهيم أي يترك دينه وشريعته يقال رغب في الشئ اذا أراده ورغب عنه اذا تركه الا من سفه نفسه قال ابن عباس خسر نفسه وقيل أهلك نفسه وقيل امتهنها واستخف بها وأصل السفه الخفة وقيل الجهل وضعف الرأي فكل سفيه جاهل لان من عبد غير الله فقد جهل نفسه لانه لم يعترف بان الله خالقها وقد جاء من عرف نفسه فقد عرف ربه ومعناه ان يعرف نفسه بالذل والعجز والضعف والفناء ويعرف ربه بالعز والقدرة والقوة والبقاء ويدل على هذا ان الله تعالى أوحى الى داود عليه السلام اعرف نفسك واعرفني قال يارب وكيف اعرف نفسي وكيف أعرفك قال اعرف نفسك بالعجز والضعف والفناء واعرفني بالقوة والقدرة والبقاء (ولقد اصطفيناه) أي اخترناه (في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين) يعني الفائزين وقيل مع الانبياء في الجنة

الكتاب) القرآن (والحكمة) السنة وفهم القرآن (ويزكيهم) ويطهرهم من الشرك وسائر الارجاس (انك أنت العزيز) الغالب الذي لا يغلب (الحكيم) فيما أوليت (ومن يرغب عن ملة ابراهيم) استفهام بمعنى الجحد وانكار أن يكون في العقلاء من يرغب عن الحق الواضح الذي هو ملة ابراهيم والملة السنة والطريقة كذا عن الزجاج (الامن) في محل الرفع على البدل من الضمير في يرغب وصح البدل لان من يرغب غير موجب كقولك هل جاءك أحد الازيد والمعنى وما يرغب عن ملة ابراهيم الا من (سفه نفسه) أي جهل نفسه أي لم يفكر في نفسه فوضع سفه موضع جهل وعدى كما عدى أو معناه سفه في نفسه فحذف في كما حذف من في قوله واختار موسى قومه أي من قومه وعلى في قوله ولا تعزموا عقدة النكاح أي على عقدة النكاح والوجهان عن الزجاج وقال الفراء هو منصوب على التمييز وهو ضعيف لكونه معرفة (ولقد اصطفيناه في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين) بيان لخطأ رأي من يرغب عن ملته لان من جمع كرامة الدارين لم يكن أحد أولى بالرغبة في طريقته منه

(اذ

(اذقال) ظرف لاصطفيناه وانتصب باضمار اذكر كأنه قيل اذكر ذلك الوقت لتعلم أنه المصطفى الصالح الذى لا يرغب عن ملة مثله (له ربه أسلم) أذعن أو أطع أو أخلص دينك لله (قال أسلمت لرب العالمين) أى أخلصت أو انقدت (ووصى) وأوصى مدنى وشامى (بها) بالملة أو بالكلمة وهى أسلمت لرب العالمين (ابراهيم بنيه ويعقوب) هو معطوف على ابراهيم داخل فى حكمه والمعنى ووصى بها يعقوب بنيه أيضا (يابنى) على اضمار القول (ان الله اصطفى لكم الدين) أى أعطاكم الدين الذى هو صفوة الاديان وهو دين الاسلام ووفقكم للاخذ به (فلا تموتن الا وأنتم مسلمون) فلا يكن موتكم الا على حال كونكم ثابتين على الاسلام فالنهى فى الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الاسلام اذا ماتوا كقولك لا تصل الا وأنت خاشع فلا تنهاه عن الصلاة ولكن عن ترك الخشوع فى صلاته (أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت) أم منقطعة ومعنى الهمزة فيها الانكار والشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر أى ما كنتم حاضرين يعقوب عليه السلام اذ حضره الموت أى حين احتضر والخطاب للمؤمنين بمعنى ما شهدتم ذلك وانما حصل لكم العلم به من طريق الوحى أو متصلة ويقدر قبلها محذوف والخطاب لليهود لانهم كانوا يقولون ما مات نبى الا على اليهودية كأنه قيل أتدعون على الانبياء اليهودية أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت (اذ قال) بدل من اذ الاولى والعامل فيهما شهداء أو ظرف لحضر (لبنيه ما تعبدون) ما استفهام فى محل النصب بتعبدون أى أى شئ تعبدون وما عام فى كل شئ أو هو سؤال عن صفة المعبود كما تقول ما زيد تريد أفقيه أم طبيب (من بعدى) من بعد موتى

(اذ قال له ربه أسلم) أى استقم على الاسلام واثبت عليه لانه كان مسلما لان الانبياء انما نشؤا على الاسلام والتوحيد قال ابن عباس رضى الله عنهما قال له ذلك حين خرج من السرب وذلك عند استدلاله بالكواكب والشمس والقمر واطلاعه على أمارات الحدوث فيها وافتقارها الى محدث مدبر فلما عرف ذلك قال له ربه أسلم (قال أسلمت لرب العالمين) أى قال ابراهيم خضعت بالطاعة وأخلصت العبادة لمالك الخلائق ومدبرها ومحدثها وقيل معنى أسلم أخلص دينك وعبادتك لله واجعلها سليمة وقيل الايمان من صفات القلب والاسلام من صفات الجوارح وان ابراهيم كان مؤمنا بقلبه عارفا بالله فأمره الله أن يعمل بجوارحه وقيل معناه أسلم نفسك الى الله تعالى وفوض أمرك اليه قال أسلمت أى فوضت أمرى لرب العالمين قال ابن عباس رضى الله عنهما وقد حقق ذلك حيث لم يستعن بأحد من الملائكة حين ألقى فى النار ۞ قوله عز وجل (ووصى بها ابراهيم بنيه) يعنى بكلمة الاخلاص وهى لا اله الا الله وقيل هى الملة الحنيفية وكان لابراهيم ثمانية أولاد اسمعيل وأمه هاجر القبطية واسحق وأمه سارة ومدين ومدان ويقشان وزمران وشبق وشوخ وأمهم قطورا بنت يقطن الكنعانية تزوجها ابراهيم حين وفاة سارة فان قلت لم قال وصى بها ابراهيم بنيه ولم يقل أمرهم قلت لان لفظ الوصية أوكد من لفظ الامر لان الوصية انما تكون عند الخوف من الموت وفى ذلك الوقت يكون احتياط الانسان لولده له أشد وأعظم وكانوا اهم الى قبول وصيته أقرب وانما خص بنيه بهذه الوصية لان شفقة الرجل على بنيه أكثر من شفقته على غيرهم وقيل لانهم كانوا أئمة يقتدى بهم فكان صلاحهم صلاحا لغيرهم (ويعقوب) أى ووصى يعقوب بمثل ما وصى به ابراهيم وسمى يعقوب لانه هو والعيص كانا توأمين فى بطن واحد فتقدم العيص وقت الولادة فى الخروج من بطن أمه وخرج يعقوب على أثره آخذا بعقبه قاله ابن عباس وقيل سمى يعقوب لكثرة عقبه وكان له من الولد اثنا عشر وهم روبيل وشمعون ولاوى ويهوذا وربالون ويشجر ودان ونفتالى وجاد وآشر ويوسف وبنيامين ثم خاطب يعقوب بنيه فقال (يابنى ان الله اصطفى لكم الدين) أى اختار لكم دين الاسلام (فلا تموتن الا وأنتم مسلمون) أى مؤمنون مخلصون فالمعنى دوموا على اسلامكم حتى يأتيكم الموت وأنتم مسلمون لانه لا يعلم فى أى وقت يأتى الموت على الانسان وقيل فى معنى وأنتم مسلمون أى محسنون الظن بالله عز وجل يدل عليه ما روى عن جابر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل موته بثلاثة أيام يقول لا يموتن أحدكم الا وهو يحسن الظن بربه أخرجاه فى الصحيحين ۞ قوله عز وجل (أم كنتم شهداء) جمع شهيد بمعنى الحاضر أى ما كنتم حاضرين (اذ حضر يعقوب الموت) أى حين احتضر وقرب من الموت نزلت فى اليهود وذلك لانهم قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم ان يعقوب يوم مات أوصى بنيه باليهودية فأنزل الله تعالى هذه الآية تكذيبا لهم والمعنى أم كنتم يامعشر اليهود شهودا على يعقوب اذ حضره الموت أى انكم لم تحضروا ذلك فلا تدعوا على أنبيائى ورسلى الاباطيل وتنسبوهم الى اليهودية فانى ما ابتعثت خليلى ابراهيم وولده وأولادهم الا بدين الاسلام وبذلك وصوا أولادهم وبه عهدوا اليهم ثم بين ما قال يعقوب لبنيه فقال تعالى (اذ قال) يعنى يعقوب (لبنيه) يعنى لاولاده الاثنى عشر (ما تعبدون) أى أى شئ تعبدون (من بعدى) قيل ان الله تعالى لم يقبض نبيا حتى يخيره بين الحياة والموت فلما خير يعقوب وكان قد رأى أهل مصر يعبدون الاوثان والنيران فقال أنظرنى حتى أسأل ولدى وأوصيهم فأمهله فجمع ولده وولد ولده وقال لهم قد حضر

(قالوا نعبد الهك واله آبائك) اعيد ذكر الاله لئلا يعطف على الضمير المجرور بدون اعادة الجار (ابراهيم واسمعيل واسحق) عطف بيان لآبائك وجعل اسمعيل من جملة آبائه وهو عمه لان العم أب قال عليه السلام فى العباس هذا بقية آبائى (الها واحدا) بدل من اله آبائك كقوله بالناصية ناصية كاذبة أو نصب على الاختصاص أى نريد باله آبائك الها واحدا (ونحن له مسلمون) حال من فاعل نعبد أو جملة معطوفة على نعبد أو جملة اعتراضية مؤكدة (تلك) اشارة الى الامة المذكورة التى هى ابراهيم ويعقوب وبنوهما الموحدون (أمة قد خلت) مضت (لها ما كسبت ولكم ما كسبتم) أى ان أحدا لا ينفعه كسب غيره متقدما كان أو متأخرا فكما أن أولئك لا ينفعهم الا ما اكتسبوا فكذلك أنتم لا ينفعكم الا ما اكتسبتم وذلك لافتخارهم بآبائهم (ولا تسئلون عما كانوا يعملون) ولا تؤاخذون بسيآتهم (وقالوا كونوا هودا أو نصارى) أى قالت اليهود كونوا هودا وقالت النصارى كونوا نصارى وجزم (تهتدوا) لانه جواب الامر (قل بل ملة ابراهيم) بل نتبع ملة ابراهيم (حنيفا) حال من المضاف اليه نحو رأيت وجه هند قائمة والحنيف المائل عن كل دين باطل الى دين الحق (وما كان من المشركين) تعريض بأهل الكتاب وغيرهم لان كلا منهم يدعى اتباع ملة ابراهيم وهو على الشرك (قولوا) هذا خطاب للمؤمنين أو للكافرين أى قولوا لتكونوا على الحق والا فانتم على الباطل (آمنا بالله وما أنزل الينا) أى القرآن واقرت (وما أنزل الى ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط) السبط الحافد وكان الحسن والحسين سبطى رسول الله صلى الله عليه وسلم والاسباط حفدة يعقوب ذرارى أبنائه الاثنى عشر ويعدى أنزل بالى وعلى فلذا ورد هنا بالى وفى آل عمران بعلى (وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم) أى لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى واحد فى معنى الجماعة ولذا صح دخول بين عليه

الى ما تعبدون من بعدى (قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق) انما قدم اسمعيل لانه كان أكبر من اسحق وأدخله فى جملة الآباء وان كان عما لهم لان العرب تسمى العم أبا والخالة أما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عم الرجل صنو أبيه وقال فى عمه العباس ردوا على أبى (الها واحدا ونحن له مسلمون) أى مخلصون العبودية (تلك) اشارة الى الامة المذكورة يعنى ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب وولدهم (أمة قد خلت) أى مضت لسبيلها والمعنى يا معشر اليهود والنصارى دعوا ذكر ابراهيم واسمعيل واسحق والمسلمين من أولادهم ولا تقولوا عليهم ما ليس فيهم (لها ما كسبت) يعنى من العمل (ولكم) يعنى يا معشر اليهود والنصارى (ما كسبتم) أى من العمل (ولا تسئلون عما كانوا يعملون) يعنى كل فريق يسئل عن عمله لا عن عمل غيره ۞ قوله عز وجل (وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا) قال ابن عباس نزلت فى رؤساء اليهود كعب بن الاشرف ومالك بن الصيف ووهب بن يهودا وأبى ياسر بن أخطب وفى نصارى نجران السيد والعاقب وأصحابهما وذلك انهم خاصموا المؤمنين فى الدين فكل فريق منهم يزعم انه أحق بدين الله فقالت اليهود نبينا موسى أفضل الانبياء وكتابنا التوراة أفضل الكتب وديننا أفضل الاديان وكفروا بعيسى والانجيل ومحمد والقرآن وقالت النصارى كذلك وقال كل واحد من الفريقين للمؤمنين كونوا على ديننا فلا دين الا ذلك فانزل الله عز وجل (قل) يعنى يا محمد (بل ملة ابراهيم) يعنى اذا كان لا بد من الاتباع فنتبع ملة ابراهيم لانه مجمع على فضله (حنيفا) أصله من الحنف وهو ميل واعوجاج يكون فى القدم قال ابن عباس الحنيف المائل عن الاديان كلها الى دين الاسلام قال الشاعر

ولكنا خلقنا اذ خلقنا ۞ حنيفا ديننا عن كل دين

والعرب تسمى كل من حج أو اختتن حنيفا تنبيها على أنه على دين ابراهيم وقيل الحنيفية الختان واقامة المناسك مسلما يعنى ان الحنيفية هى دين الاسلام وهو دين ابراهيم عليه السلام (وما كان من المشركين) يعنى ابراهيم وفيه تعريض باليهود والنصارى وغيرهم ممن يدعى اتباع ملة ابراهيم وهو على الشرك ثم علم المؤمنين طرائق الايمان فقال تعالى (قولوا آمنا بالله) يعنى قولوا أيها المؤمنون لهؤلاء اليهود والنصارى الذين قالوا لكم كونوا هودا أو نصارى تهتدوا آمنا بالله أى صدقنا بالله (وما أنزل الينا) يعنى القرآن (وما أنزل الى ابراهيم) يعنى وآمنا بما أنزل الى ابراهيم وهو عشر صحائف (واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط) وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر واحدهم سبط وكانوا أنبياء وقيل السبط هو ولد الولد وهو الحافد ومنه قيل للحسن والحسين سبطا رسول الله صلى الله عليه وسلم والاسباط فى بنى اسرائيل كالقبائل فى العرب من بنى اسمعيل وكان فى الاسباط أنبياء (وما أوتى موسى) يعنى التوراة (وعيسى) يعنى الانجيل (وما أوتى النبيون من ربهم) والمعنى آمنا أيضا بالتوراة والانجيل والكتب التى أوتى جميع النبيين وصدقنا ان ذلك كله حق وهدى ونور وأن الجميع من عند الله وان جميع ما ذكر الله من أنبيائه كانوا على هدى وحق (لا نفرق بين أحد منهم) أى لا نؤمن ببعض الانبياء ونكفر ببعض كما تبرأت اليهود من عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم

(ونحن له مسلمون) لله مخلصون (فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا) ظاهر الآية مشكل لانه يوجب ان يكون لله تعالى مثل وتعالى الله عن ذلك فقيل الباء زائدة ومثل صفة مصدر محذوف تقديره فان آمنوا ايمانا مثل ايمانكم والهاء يعود الى الله عز وجل وزيادة الباء غير عزيز قال الله تعالى والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها والتقدير جزاء سيئة مثلها كقوله في الآية الاخرى وجزاء سيئة سيئة مثلها وقيل المثل زيادة أي فان آمنوا بما آمنتم به يؤيده قراءة ابن مسعود رضي الله عنه بما آمنتم به وما بمعنى الذي بدليل قراءة أبي بالذي آمنتم به وقيل الباء للاستعانة كقولك كتبت بالقلم أي فان دخلوا في الايمان بشهادة مثل شهادتكم التي آمنتم بها (وان تولوا) عما تقولون لهم ولم ينصفوا أو ان تولوا عن الشهادة والدخول في الايمان بها (فانما هم في شقاق) أي فما هم الا في خلاف وعداوة وليسوا من طلب الحق في شيء (فسيكفيكهم الله) ضمان من الله لاظهار رسوله عليهم وقد أنجز وعده بقتل بعضهم واجلاء بعضهم ومعنى السين ان ذلك كائن لا محالة

وان تاخر الى حين (وهو السميع) لما ينطقون به (العليم) بما يضمرون من الحسد والغل وهو معاقبهم عليه فهو وعيد لهم أو وعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي يسمع ما تدعو به ويعلم نيتك وما تريده من اظهار دين الحق وهو مستجيب لك وموصلك الى مرادك (صبغة الله) دين الله وهو مصدر مؤكد منتصب عن قوله آمنا بالله وهي فعلة من صبغ كالجلسة من جلس وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ والمعنى تطهير الله لان الايمان يطهر النفوس والاصل فيه ان النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية ويقولون هو تطهير لهم فاذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قال الآن صار نصرانيا حقا فامر المسلمون بان يقولوا لهم قولوا آمنا بالله وصبغنا الله بالايمان صبغته ولم نصبغ صبغتكم وجيء بلفظ الصبغة للمشاكلة كقولك لمن يغرس الاشجار اغرس كما يغرس فلان تريد رجلا يصطنع الكرام (ومن أحسن من الله صبغة) تمييز أي لا صبغة أحسن من صبغته يريد الدين أو التطهير (ونحن له عابدون) عطف على آمنا بالله وهذا العطف يدل على ان قوله صبغة الله داخل في مفعول قولوا آمنا أي قولوا هذا وهذا ونحن له عابدون ويرد قول من زعم أن صبغة الله بدل من ملة ابراهيم أو نصب على الاغراء بمعنى عليكم صبغة الله لما فيه من فك النظم واخراج الكلام عن التئامه وانتصابها على انها مصدر مؤكد هو الذي ذكره سيبويه والقول ما قالت حذام (قل أتحاجوننا في الله) أي أتجادلوننا في شان الله واصطفائه النبي من العرب دونكم وتقولون لو أنزل الله على أحد لانزل علينا وترونكم أحق بالنبوة منا

وأقرت ببعض الانبياء وكما تبرأت النصارى من محمد صلى الله عليه وسلم وأقرت ببعض الانبياء بل نؤمن بكل الانبياء ومن جميعهم كانوا على حق وهدى (ونحن له مسلمون) أي ونحن لله تعالى خاضعون بالطاعة مذعنون له بالعبودية (خ) عن أبي هريرة قال كان أهل الكتاب يقرؤن التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لاهل الاسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل الينا الآية ۞ قوله عز وجل (فان آمنوا) يعني اليهود والنصارى (بمثل ما آمنتم به) أي بما آمنتم به ومثل صلة فهو كقوله ليس كمثله شيء أي ليس مثله شيء وقيل فان أتوا بايمان كايمانكم وتوحيد كتوحيدكم (فقد اهتدوا) والمعنى ان حصلوا دينا آخر يساوي هذا الدين في الصحة والسداد فقد اهتدوا ولكن لما استحال أن يوجد دين آخر يساوي هذا الدين في الصحة والسداد استحال الاهتداء بغيره لان هذا الدين مبناه على التوحيد والاقرار بكل الانبياء وما أنزل اليهم وقيل معناه فان آمنوا بكتابكم كما آمنتم بكتابهم فقد اهتدوا (وان تولوا) أي أعرضوا (فانما هم في شقاق) أي في خلاف ومنازعة وقيل في عداوة ومحاربة وقيل في ضلال وأصله من الشق كأنه صار في شق غير شق صاحبه بسبب عداوته وقيل هو من المشقة لان كل واحد منهما يحرص على ما يشق على صاحبه ويؤذيه (فسيكفيكهم الله) أي يكفيك الله يا محمد شر اليهود والنصارى وهو ضمان من الله تعالى لاظهار رسول الله صلى الله عليه وسلم لانه اذا تكفل بشيء أنجزه وهو اخبار بغيب ففيه معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم وقد أنجز الله وعده بقتل بني قريظة وسبيهم واجلاء بني النضير وضرب الجزية على اليهود والنصارى (وهو السميع) لاقوالهم (العليم) باحوالهم يسمع جميع ما ينطقون به ويعلم جميع ما يضمرون من الحسد والغل وهو مجازيهم ومعاقبهم عليه ۞ قوله عز وجل (صبغة الله) قال ابن عباس دين الله وانما سماه الله صبغة لان أثر الدين يظهر على المتدين كما يظهر أثر الصبغ على الثوب وقيل فطرة الله وقيل سنة الله وقيل أراد به الختان لانه يصبغ المختتن بالدم قال ابن عباس ان النصارى اذا ولد لاحدهم مولود وأتى عليه سبعة أيام غمسوه في ماء لهم أصفر يسمونه ماء المعمودية وصبغوه به ليطهروه به مكان الختان فاذا فعلوا ذلك به قالوا الآن صار نصرانيا حقا فاخبر الله أن دينه الاسلام لا ما تفعله النصارى (ومن أحسن من الله صبغة) أي ديننا وقيل تطهيرا لانه يطهر من أوساخ الكفر (ونحن له عابدون) أي مطيعون (قل) يعني يا محمد لليهود والنصارى الذين قالوا ان دينهم خير من دينكم وأمركم باتباعهم (أتحاجوننا في الله) أي أتخاصموننا وتجادلوننا في دين الله الذي أمرنا أن نتدين به والمحاجة

(وهو ربنا وربكم) نشترك جميعا في أننا عباده وهو ربنا وهو يصيب برحمته وكرامته من يشاء من عباده (ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم) يعني ان العمل هو أساس الامر وكما ان لكم أعمالا فلنا كذلك (ونحن له مخلصون) أي نحن له موحدون نخلصه بالايمان وأنتم به مشركون والمخلص أحرى بالكرامة وأولى بالنبوة من غيره (أم تقولون) بالتاء شامي وكوفي غير أبي بكر وأم على هذا معادلة للهمزة في أتحاجوننا يعني أي الامرين تأتون المحاجة في حكم الله أم ادعاء اليهودية والنصرانية على الانبياء أو منقطعة أي بل يقولون غيرهم بالياء وعلى هذا لا تكون الهمزة الا منقطعة (ان ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط كانوا هودا أو نصارى) ثم أمر نبيه عليه السلام ان يقول مستفهما رادا عليهم بقوله (قل أأنتم أعلم أم الله) يعني ان الله شهد لهم بملة الاسلام في قوله ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما (ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله) أي كتم شهادة الله التي عنده أنه شهد بها وهي شهادة الله لابراهيم بالحنيفية والمعنى ان أهل الكتاب لا أحد أظلم منهم لانهم كتموا هذه الشهادة وهم عالمون بها أو أنا لو كتمنا هذه الشهادة لم يكن أحد أظلم منا فلا نكتمها وفيه تعريض بكتمانهم شهادة الله لمحمد عليه السلام بالنبوة في كتبهم وسائر شهاداته ومن في قوله من الله مثلها في قولك هذه شهادة مني لفلان اذا شهدت له في أنها صفة لها

(وما الله بغافل عما تعملون) من تكذيب الرسل وكتمان الشهادة (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم والقبلة ولا تسئلون عما كانوا يعملون) كررت للتأكيد ولان المراد بالاول الانبياء عليهم السلام وبالثاني أسلاف اليهود والنصارى (سيقول السفهاء من الناس) الخفاف الاحلام فاصل السفه الخفة وهم اليهود لكراهتهم التوجه الى الكعبة وانهم لا يرون النسخ أو المنافقون لحرصهم على الطعن والاستهزاء أو المشركون لقولهم رغب عن قبلة آبائه ثم رجع اليها والله ليرجعن الى دينهم وفائدة الاخبار بقولهم قبل وقوعه توطين النفس اذ المفاجأة بالمكروه أشد واعداد الجواب قبل الحاجة اليه أقطع للخصم فقبل الرمي يراش السهم

المجادلة لاظهار الحجة وذلك انهم قالوا ان ديننا أقدم من دينكم وان الانبياء منا وعلى ديننا فنحن أولى بالله منكم فأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا لهم أتحاجوننا في الله (وهو ربنا وربكم) أي ونحن وأنتم في الله سواء فانه ربنا وربكم (ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم) يعني ان لكل أحد جزاء عمله (ونحن له مخلصون) أي مخلصو الطاعة والعبادة له وفيه توبيخ لليهود والنصارى والمعنى وأنتم به مشركون والاخلاص أن يخلص العبد دينه وعمله لله تعالى فلا يشرك في دينه ولا يرائي بعمله قال الفضيل بن عياض ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك والاخلاص أن يعافيك الله منهما وهذه الآية منسوخة بآية السيف ۞ قوله عز وجل (أم تقولون) يعني اليهود والنصارى وهو استفهام ومعناه التوبيخ (ان ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط كانوا هودا أو نصارى) يعني أتزعمون ان ابراهيم وبنيه كانوا على دينكم وملتكم وانما حدثت اليهودية والنصرانية بعدهم فثبت كذبكم يا معشر اليهود والنصارى على ابراهيم وبنيه (قل) يا محمد (أأنتم أعلم) يعني بدينهم (أم الله) أي الله أعلم بذلك وقد أخبر ان ابراهيم وبنيه لم يكونوا على اليهودية والنصرانية ولكن كانوا مسلمين حنفاء (ومن أظلم ممن كتم) يعني أخفى (شهادة عنده من الله) وهي علمهم بان ابراهيم وبنيه كانوا مسلمين وان محمدا حق بنعته وصفته وجدوا ذلك في كتبهم وكتموه وجحدوه والمعنى ومن أظلم ممن كتم شهادة جاءته من عند الله فكتمها وأخفاها (وما الله بغافل عما تعملون) يعني من كتمانكم الحق فيما ألزمكم به في كتابه من ان ابراهيم وبنيه كانوا مسلمين حنفاء وان الدين هو الاسلام لا اليهودية والنصرانية والمعنى وما الله بغافل عن عملكم بل هو محصيه عليكم ثم يعاقبكم عليه في الآخرة (تلك أمة قد خلت) يعني ابراهيم وبنيه (لها ما كسبت) أي جزاء ما كسبت (ولكم ما كسبتم) أي جزاء ما كسبتم (ولا تسئلون عما كانوا يعملون) يعني أن كل انسان انما يسئل يوم القيامة عن كسبه وعمله لا عن كسب غيره وعمله وفيه وعظ وزجر لليهود ولمن يتكل على فضل الآباء وشرفهم أي لا تتكلوا على فضل الآباء فكل يؤخذ بعمله وانما كررت هذه الآية لانه اذا اختلف مواطن الحجاج والمجادلة حسن تكريره للتذكير به وتأكيده وقيل انما كرره تنبيها لليهود لئلا يغتروا بشرف آبائهم ۞ قوله عز وجل (سيقول السفهاء من الناس) أي الجهال من الناس والسفه خفة في النفس لنقصان العقل في الامور الدينية والدنيوية ولا شك ان ذلك في باب الدين أعظم لان العادل عن الامر الواضح في أمر دنياه يعد سفيها فمن كان كذلك في أمر دينه كان أولى بهذا الاسم فلا كافر الا وهو سفيه ولهذا أمكن حمل هذا اللفظ على اليهود والمشركين والمنافقين فقيل نزلت هذه الآية في اليهود وذلك أنهم طعنوا في تحويل القبلة عن بيت المقدس الى الكعبة لانهم لا يرون النسخ وقيل نزلت في مشركي مكة وذلك انهم قالوا قد تردد على محمد أمره واشتاق مولده وقد توجه الى نحو بلدكم فلعله يرجع الى دينكم وقيل نزلت في المنافقين وانما قالوا ذلك استهزاء بالاسلام وقيل يحتمل أن لفظ السفهاء للعموم فيدخل فيه جميع الكفار والمنافقين واليهود ويحتمل وقوع هذا الكلام من كلهم اذ لا فائدة في التخصيص ولان الاعداء يبالغون في الطعن والقدح فاذا وجدوا مقالا قالوا أو مجالا جالوا (ما ولاهم) يعني أي شيء صرفهم (عن قبلتهم التي كانوا عليها) يعني بيت المقدس

(ماولاهم) ماصرفهم (عن قبلتهم التي كانوا عليها) يعنون بيت المقدس والقبلة الجهة التي يستقبلها الانسان في الصلاة لان المصلي يقابلها (قل لله المشرق والمغرب) أي بلاد المشرق والمغرب والارض كلها له (يهدي من يشاء) من أهلها (الى صراط مستقيم) طريق مستو أي يرشد من يشاء الى قبلة الحق وهي الكعبة التي أمرنا بالتوجه اليها أو الاماكن كلها لله فيأمر بالتوجه الى حيث شاء فتارة الى الكعبة وطورا الى البيت المقدس لا اعتراض عليه لانه المالك وحده (وكذلك جعلناكم) ومثل ذلك الجعل العجيب جعلناكم فالكاف للتشبيه وذا جر بالكاف واللام للفرق بين الاشارة الى القريب والاشارة الى البعيد والكاف للخطاب لا محل لها من الاعراب (أمة وسطا) خيارا وقيل للخيار وسط لان الاطراف يتسارع اليها الخلل والاوساط محمية أي كما جعلت قبلتكم خير القبل جعلتكم خير الامم أو عدولا لان الوسط عدل بين الاطراف ليس الى بعضها أقرب من بعض أي كما جعلنا قبلتكم متوسطة بين المشرق والمغرب جعلناكم أمة وسطا بين الغلو والتقصير فانكم لم تغلوا غلو النصارى حيث وصفوا المسيح بالالوهية ولم تقصروا تقصير اليهود حيث وصفوا مريم بالزنا وعيسى بانه ولد الزنا (لتكونوا شهداء) غير منصرف لمكان ألف التأنيث (على الناس) صلة شهداء (ويكون الرسول عليكم شهيدا) عطف على لتكونوا روى ان الامم يوم القيامة يجحدون تبليغ الانبياء فيطالب الله الانبياء بالبينة على انهم قد بلغوا وهو أعلم فيؤتى بامة محمد عليه السلام فيشهدون فيقول الامم من أين عرفتم فيقولون علمنا ذلك باخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق فيؤتى بمحمد عليه السلام فيسئل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بعدالتهم والشهادة قد تكون بلا مشاهدة كالشهادة بالتسامع في الاشياء المعروفة ولما كان الشهيد كالرقيب جيء بكلمة الاستعلاء كقوله تعالى كنت أنت الرقيب عليهم وقيل لتكونوا شهداء على الناس في الدنيا فيما لا يصح الا بشهادة العدول الاخيار ويكون الرسول عليكم شهيدا يزكيكم ويعلم بعدالتكم واستدل الشيخ أبو منصور رحمه الله بالآية على ان الاجماع حجة لان الله تعالى وصف هذه الامة بالعدالة والعدل هو المستحق للشهادة وقبولها فاذا اجتمعوا على شيء وشهدوا به لزم قبوله وأخرت صلة الشهادة

والقبلة هي الجهة التي يستقبلها الانسان وانما سميت قبلة لان المصلي يقابلها وتقابله ولما قال السفهاء ذلك رد الله تعالى عليهم بقوله (قل) يا محمد (لله المشرق والمغرب) يعني ان له قطري المشرق والمغرب وما بينهما ملكا فلا يستحق شيء أن يكون لذاته قبلة لان الجهات كلها شيء واحد وانما تصير قبلة لان الله تعالى هو الذي جعلها قبلة فلا اعتراض عليه وهو قوله (يهدي من يشاء) يعني من عباده (الى صراط مستقيم) يعني الى جهة الكعبة وهي قبلة ابراهيم عليه السلام * قوله عز وجل (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) الكاف في قوله وكذلك كاف التشبيه جاء للمشبه به وفيه وجوه أحدها انه معطوف على ما تقدم من قوله في حق ابراهيم ولقد اصطفيناه في الدنيا وكذلك جعلناكم أمة وسطا الثاني انه معطوف على قوله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم وكذلك هديناكم وجعلناكم أمة وسطا الثالث قيل معناه كما جعلنا قبلتكم وسطا بين المشرق والمغرب كذلك جعلناكم أمة وسطا يعني عدولا خيارا وخير الامور أوسطها قال زهير

هم وسط يرضى الانام بحكمهم * اذا نزلت احدى الليالي بمعظم

وقيل متوسطة والمعنى أهل دين وسط بين الغلو والتقصير لانهما مذمومان في أمر الدين لا كغلو النصارى في عيسى ولا كتقصير اليهود في الدين وهو تحريفهم وتبديلهم وسبب نزول هذه الآية أن رؤساء اليهود قالوا لمعاذ بن جبل ما ترك محمد قبلتنا الا حسدا وان قبلتنا قبلة الانبياء ولقد علم محمد انا أعدل الناس فقال معاذ انا على حق وعدل فانزل الله تعالى هذه الآية وروى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ألا وان هذه الامة توفي سبعين أمة هي آخرها وخيرها وأكرمها على الله تعالى * وقوله تعالى (لتكونوا شهداء على الناس) يعني يوم القيامة أن الرسل قد بلغتهم رسالات ربهم وقيل ان أمة محمد صلى الله عليه وسلم شهداء على من ترك الحق من الناس أجمعين (ويكون الرسول) يعني محمدا صلى الله عليه وسلم (عليكم شهيدا) يعني عدلا مزكيا لكم وذلك ان الله تعالى يجمع الاولين والآخرين في صعيد واحد ثم يقول لكفار الامم ألم يأتكم نذير فينكرون ويقولون ما جاءنا من نذير فيسأل الله الانبياء عن ذلك فيقولون كذبوا قد بلغناهم فيسألهم البينة وهو أعلم بهم اقامة للحجة فيقولون أمة محمد تشهد لنا فيؤتى بامة محمد عليه الصلاة والسلام فيشهدون لهم بانهم قد بلغوا فتقول الامم الماضية من أين علموا وانما أتوا بعدنا فيسأل هذه الامة فيقولون أرسلت الينا رسولا وأنزلت عليه كتابا أخبرتنا فيه بتبليغ الرسل وأنت صادق فيما أخبرت ثم يؤتى بمحمد صلى الله عليه وسلم فيسأله عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بصدقهم (خ) عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاء بنوح وأمته يوم القيامة فيقال له هل بلغت فيقول نعم أي رب فيسأل أمته هل بلغكم فيقولون ما جاءنا من نذير فيقال لنوح من يشهد لك فيقول محمد وأمته فيجاء بكم فتشهدون ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا زاد

أولا وقدمت آخرا لان المراد في الاول اثبات شهادتهم على الامم وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها) أي وما جعلنا القبلة الجهة التي كنت عليها وهي الكعبة فالتي كنت عليها ليست بصفة للقبلة بل هي ثاني مفعولي جعل روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي بمكة الى الكعبة ثم أمر بالصلاة الى صخرة بيت المقدس بعد الهجرة تاليفا لليهود ثم حول الى الكعبة (الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه) أي وما جعلنا القبلة التي تحب أن تستقبلها الجهة التي كنت عليها أولا بمكة الا امتحانا للناس وابتلاء لنعلم الثابت على الاسلام الصادق (٩٨) فيه ممن هو على حرف ينكص على عقبيه لقلقه يرجع فيرتد عن الاسلام عند تحويل القبلة قال الشيخ أبو منصور رحمه الله معنى قوله لنعلم أي لنعلم كائنا أو موجودا ما قد علمناه أنه يكون و يوجد فالله تعالى عالم في الازل بكل ما أراد وجوده انه يوجد في الوقت الذي شاء وجوده فيه ولا يوصف بانه عالم في الازل انه موجود كائن لانه ليس بموجود في الازل فكيف يعلمه موجودا فاذا صار موجودا يدخل تحت علمه الازلي فيصير معلوما له موجودا كائنا والتغير على المعلوم لا على العلم أو لنميز التابع من الناكص كما قال تعالى ليميز الله الخبيث من الطيب فوضع العلم موضع التمييز لان بالعلم به يقع التمييز أو ليعلم رسول الله عليه الصلاة والسلام والمؤمنون وانما أسند علمهم الى ذاته لانهم خواصه أو هو على ملاطفة الخطاب لمن لا يعلم كقولك لمن ينكر ذوب الذهب فايلقه في النار لنعلم أيذوب (وان كانت) أي التحويلة أو الجعلة أو القبلة وان هي المخففة واللام في (لكبيرة) أي ثقيلة شاقة سبب وهي خبر كان فارقة (الا على الذين هدى الله) أي هداهم الله فحذف العائد أي الا على الثابتين الصادقين في اتباع الرسول (وما كان الله ليضيع ايمانكم) أي صلاتكم الى بيت المقدس سمى الصلاة ايمانا لان وجوبها على أهل الايمان وقبولها من أهل الايمان وأداؤها في الجماعة دليل الايمان ولما توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الكعبة قالوا كيف بمن مات قبل التحويل من اخواننا فنزلت ثم علل ذلك فقال (ان الله بالناس لرؤف) مهموز مشبع حجازي وشامي وحفص رؤف غيرهم بوزن فعل وهما للمبالغة (رحيم) لا يضيع أجورهم والرأفة أشد من الرحمة وجمع بينهما كما في الرحمن الرحيم (قد نرى تقلب وجهك في السماء) تردد وجهك وتصرف نظرك في جهة في السماء وكان رسول

الترمذي وسطا عدولا ۞ قوله عز وجل (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها) أي وما جعلنا صرفك عن القبلة التي كنت عليها وهي بيت المقدس وانما حذف ذكر الصرف اكتفاء بدلالة اللفظ عليه وقيل معناه وما جعلنا القبلة التي كنت عليها منسوخة وقيل معناه وما جعلنا القبلة التي كنت عليها وهي الكعبة (الا لنعلم من يتبع الرسول) فان قلت ما معنى قوله الا لنعلم وهو عالم بالاشياء كلها قبل كونها قلت أراد به العلم الذي يتعلق به الثواب والعقاب فانه لا يتعلق بما هو عالم به في الغيب انما يتعلق بما يوجد والمعنى لنعلم العلم الذي يستحق العامل عليه الثواب والعقاب وقيل العلم هنا بمعنى الرؤية أي لنرى ونميز من يتبع الرسول في القبلة ممن ينقلب على عقبيه وقيل معناه الا لتعلم رسلي وحزبي وأوليائي من المؤمنين من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وكان من شأن العرب اضافة ما فعله الاتباع الى الكبير كقولهم فتح عمر العراق وجبى خراجها وانما فعل ذلك اتباعه عن أمره وقيل انما قال الا لنعلم وهو بذلك عالم قبل كونه على وجه الرفق بعباده ومعناه الا لتعلموا أنتم اذ كنتم جهالا به قبل كونه فاضاف العلم الى نفسه رفقا بعباده المخاطبين وقيل معناه لعلمنا لانه تعالى سبق في علمه ان تحويل القبلة سبب لهداية قوم وضلالة آخرين ومعنى من يتبع الرسول أي يطيعه في أمر القبلة وتحويلها (ممن ينقلب على عقبيه) أي يرجع الى ما كان عليه من الكفر فيرتد وفي الحديث انه لما تحولت القبلة الى الكعبة ارتد قوم الى اليهودية وقالوا رجع محمد الى دين آبائه (وان كانت) أي وقد كانت (لكبيرة) يعني تولية القبلة ثقيلة شاقة وقيل هي التولية من بيت المقدس الى الكعبة وقيل الكبيرة هي القبلة التي وجهه اليها قبل التحويل وهي بيت المقدس وأنث الكبيرة لتأنيث القبلة وقيل لتأنيث التولية (الا على الذين هدى الله) يعني الصادقين في اتباع الرسول (وما كان الله ليضيع ايمانكم) يعني صلاتكم الى بيت المقدس وذلك ان حيي بن أخطب وأصحابه من اليهود قالوا للمسلمين أخبرونا عن صلاتكم الى بيت المقدس ان كانت على هدى فقد تحولتم عنه وان كانت على ضلالة فقد دنتم الله بها مدة ومن مات عليها فقد مات على ضلالة فقال المسلمون انما الهدى فيما أمر الله به والضلالة فيما نهى الله عنه قالوا فما شهادتكم على من مات منكم على قبلتنا وكان قد مات قبل أن تحول القبلة الى الكعبة أسعد بن زرارة من بني النجار والبراء بن معرور من بني سلمة وكانا من النقباء ورجال آخرون فانطلق عشائرهم الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله قد صرفك الله الى قبلة ابراهيم فكيف باخواننا الذين ماتوا وهم يصلون الى بيت المقدس فانزل الله تعالى وما كان الله ليضيع ايمانكم يعني صلاتكم الى بيت المقدس (ان الله بالناس لرؤف رحيم) يعني لا يضيع أجورهم والرأفة أخص من الرحمة وأرق وقيل الرأفة أشد من الرحمة وقيل الرأفة الرحمة وقيل في الفرق بين الرأفة والرحمة ان الرحمة مبالغة في رحمة خاصة وهي دفع المكروه وازالة الضرر وأما الرحمة فانها اسم جامع يدخل فيه ذلك المعنى و يدخل فيه أيضا جميع الافضال والانعام فذكر الله الرأفة أولا بمعنى أنه لا يضيع أعمالهم ثم ذكر الرحمة ثانيا لانها أعم وأشمل ۞ قوله عز وجل (قد نرى تقلب وجهك في السماء)

سبب نزول هذه الآية ان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يصلون بمكة الى الكعبة فلما هاجر الى المدينة أحب أن يستقبل بيت المقدس يتألف بذلك اليهود وقيل ان الله تعالى أمره بذلك ليكون أقرب الى تصديق اليهود اياه اذا صلى الى قبلتهم مع ما يجدون من نعته وصفته في التوراة فصلى الى بيت المقدس بعد الهجرة ستة عشر أو سبعة عشر شهرا وكان يحب أن يتوجه الى الكعبة لانها قبلة أبيه ابراهيم وقيل كان يحب ذلك من أجل أن اليهود قالوا يخالفنا محمد في ديننا ويتبع قبلتنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل وددت لو حولني الله الى الكعبة فانها قبلة أبي ابراهيم فقال جبريل صلى الله عليه وسلم انما أنا عبد مثلك وأنت كريم على ربك فسل أنت ربك فانك عند الله بمكان ثم عرج جبريل وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يديم النظر الى السماء رجاء أن ينزل جبريل بما يحب من أمر القبلة فانزل الله عز وجل قد نرى تقلب وجهك في السماء يعني تردد وجهك وتصرف نظرك في السماء أي الى جهة السماء وهذه الآية وان كانت متأخرة في التلاوة فهي متقدمة في المعنى لانها رأس القصة وأول ما نسخ من أحكام الشرع أمر القبلة (فلنولينك) أي فلنحولنك ولنصرفنك (قبلة) أي ولنصرفنك عن بيت المقدس الى قبلة (ترضاها) أي تحبها وتميل اليها (فول وجهك شطر المسجد الحرام) أي نحوه وتلقاءه وأراد به الكعبة (ق) عن ابن عباس قال لما دخل النبي صلى الله عليه وسلم البيت دعا في نواحيه كلها ولم يصل حتى خرج منه ولما خرج ركع ركعتين قبل الكعبة وقال هذه القبلة يعني ان أمر القبلة قد استقر على هذا البيت فلا ينسخ بعد اليوم فصلوا الى الكعبة أبدا فهي قبلتكم (ق) عن البراء بن عازب ان النبي صلى الله عليه وسلم كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده أو قال أخواله من الانصار وانه صلى قبل بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت وانه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن صلى معه فمر على أهل مسجد قباء وهم راكعون فقال اشهد بالله لقد صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الكعبة فداروا كما هم قبل البيت وكانت اليهود قد أعجبهم اذ ذاك انه يصلي قبل بيت المقدس وهي قبلة أهل الكتاب فلما ولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك قال البراء في حديثه هذا وانه مات على القبلة قبل أن تحول رجال وقتلوا فلم ندر ما نقول فيهم فانزل الله تعالى وما كان الله ليضيع ايمانكم واختلف العلماء في وقت تحويل القبلة فقال الاكثرون كان في يوم الاثنين بعد الزوال للنصف من رجب على رأس سبعة عشر شهرا من مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وقيل كان يوم الثلاثاء لثمانية عشر شهرا وقيل كان لستة عشر شهرا وقيل لثلاثة عشر شهرا وقيل نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم في مسجد بني سلمة وقد صلى باصحابه ركعتين من صلاة الظهر فتحول في الصلاة واستقبل الميزاب وحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال فسمي ذلك المسجد مسجد القبلتين ووصل الخبر الى أهل قباء في صلاة الصبح (ق) عن ابن عمر قال بينما الناس بقباء في صلاة الصبح اذ جاءهم آت فقال ان النبي صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل القبلة فاستقبلوها وكانت وجوههم الى الشام فاستداروا الى الكعبة ۞ وقوله تعالى (وحيثما كنتم) أي من بر أو بحر مشرق أو مغرب (فولوا وجوهكم شطره) أي نحو البيت وتلقاءه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما بين المشرق والمغرب قبلة أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح قيل أراد بالمشرق مشرق الشتاء في أقصر يوم من السنة وبالمغرب مغرب الصيف في أطول يوم من السنة فمن جعل مغرب الصيف في هذا الوقت عن يمينه ومشرق الشتاء عن يساره كان مستقبلا للقبلة وهذا في حق أهل المشرق لان المشرق الشتوي جنوبي متباعد عن خط الاستواء بمقدار الميل والمغرب الصيفي شمالي متباعد عن خط الاستواء والذي بينهما فهو سمت مكة والفرض لمن بمكة في القبلة اصابة عين الكعبة ولمن بعد من مكة اصابة الجهة ويعرف ذلك بدلائل القبلة وليس هذا موضع ذكرها ولما تحولت القبلة الى الكعبة قالت اليهود يا محمد ما هو الا شيء ابتدعته من تلقاء نفسك فتارة تصلي الى بيت المقدس وتارة الى الكعبة ولو ثبت على قبلتنا

الله صلى الله عليه وسلم يتوقع من ربه أن يحوله الى الكعبة موافقة لابراهيم ومخالفة لليهود ولانها أدعى للعرب الى الايمان لانها مفخرتهم ومزارهم ومطافهم (فلنولينك) فلنعطينك ولنمكننك من استقبالها من قولك وليته كذا اذا جعلته واليا له أو فلنجعلنك تلي سمتها دون سمت بيت المقدس (قبلة ترضاها) تحبها وتميل اليها لاغراضك الصحيحة التي أضمرتها ووافقت مشيئة الله وحكمته (فول وجهك شطر المسجد الحرام) أي نحوه وشطر نصب على الظرف أي اجعل تولية الوجه تلقاء المسجد أي في جهته وسمته لان استقبال عين القبلة متعسر على النائي وذكر المسجد الحرام دون الكعبة دليل على أن الواجب مراعاة الجهة دون العين روي انه عليه السلام قدم المدينة فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا ثم وجه الى الكعبة (وحيثما كنتم) من الارض وأردتم الصلاة (فولوا وجوهكم شطره)

وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون انه الحق) أي التحويل الى الكعبة هو الحق لانه كان في بشارة أنبيائهم برسول الله صلى الله عليه وسلم انه يصلي الى القبلتين (من ربهم وما الله بغافل عما يعملون) بالياء مكي وأبو عمرو ونافع وعاصم وبالتاء غيرهم فالاول وعيد للكافرين بالعقاب على الجحود والاباء والثاني وعد للمؤمنين بالثواب على القبول والاداء (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب) أراد ذوي العناد منهم (بكل آية) برهان قاطع ان التوجه الى الكعبة هو الحق (ما تبعوا قبلتك) لان تركهم اتباعك ليس عن شبهة تزيلها بايراد الحجة انما هو عن مكابرة وعناد مع علمهم بما في كتبهم من نعتك انك على الحق وجواب القسم المحذوف سد مسد جواب الشرط (وما أنت بتابع قبلتهم) حسم لاطماعهم اذ كانوا اضطربوا في ذلك وقالوا لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن يكون صاحبنا الذي ننتظره وطمعوا في رجوعه الى قبلتهم ووحدت القبلة وان كان لهم قبلتان فلليهود قبلة وللنصارى قبلة لاتحادهم في البطلان (وما بعضهم بتابع قبلة بعض) يعني انهم مع اتفاقهم على مخالفتك مختلفون في شأن القبلة لا يرجى اتفاقهم كما لا ترجى موافقتهم لك فاليهود تستقبل بيت المقدس والنصارى مطلع الشمس (ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم) أي من بعد وضوح البرهان والاحاطة بان القبلة هي الكعبة وان دين الله هو الاسلام (انك اذا لمن الظالمين) لمن المرتكبين الظلم الفاحش وفي ذلك لطف للسامعين وتهييج للثبات على الحق وتحذير لمن يترك الدليل بعد انارته ويتبع الهوى وقيل الخطاب في الظاهر للنبي عليه السلام والمراد أمته ولزم الوقف على الظالمين اذ لو وصل لصار (الذين آتيناهم الكتاب) صفة للظالمين وهو مبتدأ والخبر (يعرفونه) أي محمدا عليه السلام أو القرآن أو تحويل القبلة والاول أظهر لقوله (كما يعرفون أبناءهم) قال عبد الله بن سلام أنا أعلم به مني بابني فقال عمر ولم قال لاني لست أشك في محمد انه نبي فاما ولدي فلعل والدته خانت فقبل عمر رأسه (وان فريقا منهم) أي الذين لم يسلموا (ليكتمون الحق) حسدا وعنادا (وهم يعلمون) ان الله تعالى بينه في كتابهم (الحق) مبتدأ خبره (من ربك) واللام للجنس أي الحق من الله لا من غيره يعني ان الحق ما ثبت انه من الله كالذي أنت عليه وما لم يثبت انه من الله كالذي عليه أهل الكتاب فهو الباطل أو للعهد والاشارة الى الحق الذي عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أو خبر مبتدأ محذوف أي هو الحق ومن ربك خبر بعد خبر أو حال (فلا تكونن من

لكنا نرجو أن يكون صاحبنا الذي ننتظره فأنزل الله تعالى (وان الذين أوتوا الكتاب) يعني اليهود والنصارى (ليعلمون أنه الحق من ربهم) يعني أمر القبلة وتحويلها الى الكعبة ثم هددهم فقال تعالى (وما الله بغافل عما يعملون) يعني وما أنا بساه عما فعل هؤلاء اليهود فانا أجازيهم عليه في الدنيا والآخرة وقرئ تعملون بالتاء قال ابن عباس يريد انكم يا معشر المؤمنين تطلبون مرضاتي وما أنا بغافل عن ثوابكم وجزائكم فانا أثيبكم على طاعتكم أفضل الثواب وأجزيكم أحسن الجزاء ۞ قوله عز وجل (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب) يعني اليهود والنصارى (بكل آية) أي بكل معجزة وقيل بكل حجة وبرهان وذلك بانهم قالوا ائتنا بآية على ما تقول فأنزل الله تعالى هذه الآية (ما تبعوا قبلتك) يعني الكعبة (وما أنت بتابع قبلتهم) يعني أن اليهود تصلي الى بيت المقدس والنصارى الى المشرق وأنت يا محمد تصلي الى الكعبة فكيف يكون سبيل الى اتباع قبلة أحد هؤلاء مع اختلاف جهاتها فالزم أنت قبلتك التي أمرت بالصلاة اليها (وما بعضهم بتابع قبلة بعض) يعني وما اليهود بتابعة قبلة النصارى ولا النصارى بتابعة قبلة اليهود لان اليهود والنصارى لا يجتمعون على قبلة واحدة (ولئن اتبعت أهواءهم) يعني مرادهم ورضاهم لو رجعت الى قبلتهم (من بعد ما جاءك من العلم) أي في أمر القبلة وقيل معناه من بعد ما وصل اليك من العلم بان اليهود والنصارى مقيمون على باطل وعناد للحق (انك اذا لمن الظالمين) يعني انك ان فعلت ذلك كنت بمنزلة من ظلم نفسه وضرها قيل هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به الامة لانه صلى الله عليه وسلم لا يتبع أهواءهم أبدا وقيل هو خطاب له خاصة فيكون ذلك على سبيل التذكير والتنبيه ۞ قوله عز وجل (الذين آتيناهم الكتاب) يعني علماء اليهود والنصارى وقيل أراد به مؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه (يعرفونه) أي يعرفون محمدا صلى الله عليه وسلم معرفة جلية بالوصف المعين الذي يجدونه عندهم (كما يعرفون أبناءهم) أي لا يشكون فيه ولا يشتبه عليهم كما لا تشتبه عليهم أبناؤهم من أبناء غيرهم روي ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لعبد الله بن سلام ان الله أنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم فكيف هذه المعرفة فقال عبد الله يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني ومعرفتي بمحمد صلى الله عليه وسلم أشد من معرفتي بابني فقال عمر وكيف ذلك فقال أشهد انه رسول الله حق من الله وقد نعته الله في كتابنا ولا أدري ما تصنع النساء فقبل عمر رأس عبد الله وقال وفقك الله يا ابن سلام فقد صدقت وقيل الضمير في يعرفونه يعود الى أمر القبلة والمعنى ان علماء اليهود والنصارى يعرفون ان القبلة التي صرفتك اليها هي قبلة ابراهيم وقبلة الانبياء قبلك كما يعرفون أبناءهم لا يشكون في ذلك (وان فريقا منهم) أي من علماء أهل الكتاب (ليكتمون الحق) يعني صفة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل أمر القبلة (وهم يعلمون) يعني ان كتمان الحق معصية وقيل يعلمون أن صفة محمد صلى الله عليه وسلم مكتوبة عندهم في التوراة والانجيل وهم مع ذلك يكتمونه (الحق) أي الذي يكتمونه هو الحق (من ربك فلا تكونن من

الممترين) أي من الشاكين في ان الذين تقدم ذكرهم علموا صحة نبوتك وقيل يرجع الى أمر القبلة والمعنى أن بعضهم عاندوا وكتم الحق فلا تشك في ذلك فان قلت النبي صلى الله عليه وسلم لم يمتر ولم يشك فما معنى هذا النهي قلت هذا الخطاب وان كان للنبي صلى الله عليه وسلم ولكن المراد غيره والمعنى فلا تشكوا أنتم أيها المؤمنون وقد تقدم نظير هذا ۞ قوله عز وجل (ولكل وجهة) أي ولكل أهل ملة قبلة والوجهة اسم للمتوجه اليه وقيل الوجهة الهيئة والحالة في التوجه الى القبلة وقيل في قوله ولكل وجهة ان المراد به جميع المؤمنين أي ولكل أهل جهة من الآفاق وجهة من الكعبة يصلون اليها وقيل المراد بالوجهة المنهاج والشرع والمعنى ولكل قوم شريعة وطريقة لان الشرائع مصالح للعباد فلهذا اختلفت الشرائع بحسب اختلاف الزمان والاشخاص (هو موليها) أي مستقبلها والمعنى ان لكل أهل ملة وجهة هو مول وجهه اليها وقيل متوليها أي مختارها وقيل ان هو عائد على اسم الله تعالى والمعنى ان الله موليها اياه وقرئ ولاها أي مصروف اليها (فاستبقوا الخيرات) أي بادروا بالطاعة وقبول الاوامر وفيه حث على المبادرة الى الاولوية والافضلية فعلى هذا تكون الآية دليلا لمذهب الشافعي في ان الصلاة في أول الوقت أفضل لقوله فاستبقوا الخيرات لان ظاهر الامر للوجوب فاذا لم يتحقق الوجوب فلا أقل من الندب (أينما تكونوا) يعني أنتم وأهل الكتاب (يأت بكم الله جميعا) يعني يوم القيامة فهو وعد لاهل الطاعة بالثواب ووعيد لاهل المعصية بالعقاب (ان الله على كل شئ قدير) أي على الاعادة بعد الموت والاثابة لاهل الطاعة والعقاب لمستحق العقوبة ۞ قوله عز وجل (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام) أي من أي موضع خرجت في سفر وغيره فول وجهك يا محمد قبل المسجد الحرام ونحوه (وانه) يعني التوجه اليه (للحق من ربك) أي الحق الذي لا شك فيه حافظا عليه (وما الله بغافل عما تعملون) أي ليس هو بساه عن أعمالكم ولكنه محصيها لكم وعليكم فيجازيكم بها يوم القيامة (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) فان قلت هل في هذا التكرار فائدة قلت فيه فائدة عظيمة جليلة وهي أن هذه الواقعة أول الوقائع التي ظهر النسخ فيها في شرعنا فدعت الحاجة الى التكرار لاجل التأكيد والتقرير وازالة الشبهة وايضاح البيان فحسن التكرار فيه لنقلهم من جهة الى جهة (لئلا يكون للناس عليكم حجة) قيل أراد بالناس أهل الكتاب وقيل هو على العموم وقيل هم قريش واليهود فاما قريش فقالوا رجع محمد الى الكعبة لانه علم انها الحق وانها قبلة أبيه وسيرجع الى ديننا كما رجع الى قبلتنا وقالت اليهود لم ينصرف محمد عن بيت المقدس مع علمه انه حق الا انه يعمل برأيه فعلى هذا يكون الاستثناء في قوله الا الذين ظلموا منهم متصلا صحيحا والمعنى لا حجة لاحد عليكم الا مشركو قريش واليهود فانهم يجادلونك بالباطل والظلم وانما سمي الاحتجاج بالباطل حجة لان اشتقاقها من حجه اذا غلبه فكما تكون صحيحة فكذلك تسمى حجة وتكون باطلة قال الله تعالى حجتهم داحضة عند ربهم وقيل هذا الاستثناء منقطع عن الكلام الاول ومعناه لكن الذين ظلموا منهم يجادلونكم بالباطل كما قال النابغة

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ۞ بهن فلول من قراع الكتائب

أي لكن سيوفهم بهن فلول وليس بعيب وقيل في معنى الآية ان اليهود عرفوا ان الكعبة قبلة ابراهيم ووجدوا في التوراة أن محمدا سيحول اليها فتكون حجتهم انهم يقولون ان النبي الذي نجده في كتابنا سيحول الى الكعبة ولم تحول أنت فلما حول الى الكعبة ذهبت حجتهم (الا الذين ظلموا منهم) أي الا ان يظلموا

الممترين) الشاكين في انه من ربك (ولكل) من أهل الاديان المختلفة (وجهة) وقبلة وقرئ بها والضمير في (هو) لكل وفي (موليها) للوجهة أي هو موليها وجهه فحذف أحد المفعولين أو هو لله تعالى أي الله موليها اياه هو. ولاها شامي أي هو مولى تلك الجهة قد وليها والمعنى ولكل أمة قبلة يتوجه اليها منكم ومن غيركم (فاستبقوا) أنتم (الخيرات) فاستبقوا اليها غيركم من أمر القبلة وغيره (أينما تكونوا) أنتم وأعداؤكم (يأت بكم الله جميعا) يوم القيامة فيفصل بين المحق والمبطل أو ولكل منكم يا أمة محمد وجهة جهة يصلي اليها جنوبية أو شمالية أو شرقية أو غربية فاستبقوا الفاضلات من الجهات وهي الجهة المسامتة للكعبة وان اختلفت أينما تكونوا من الجهات المختلفة يأت بكم الله جميعا ويجمعكم ويجعل صلاتكم كأنها الى جهة واحدة وكأنكم تصلون حاضري المسجد الحرام (ان الله على كل شئ قدير ومن حيث خرجت) ومن أي بلد خرجت للسفر (فول وجهك شطر المسجد الحرام) اذا صليت (وانه) وان هذا المأمور به (للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون) وبالياء أبو عمرو (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) وهذا التكرير لتأكيد أمر القبلة وتشديده لان النسخ من مظان الفتنة والشبهة فكرر عليهم ليثبتوا على انه نيط بكل واحد ما لم ينط بالآخر فاختلفت فوائدها (لئلا يكون للناس عليكم حجة) أي قد عرفكم الله جل ذكره أمر الاحتجاج في القبلة بما قد بين في قوله ولكل وجهة هو موليها لئلا يكون للناس لليهود عليكم حجة في خلاف ما في التوراة من تحويل القبلة وأطلق اسم الحجة على قول المعاندين لانهم يسوقونه سياق الحجة (الا الذين ظلموا منهم) استثناء من الناس أي لئلا يكون حجة لاحد من اليهود

فيكتموا ماعرفوا من الحق (فلا تخشوهم) أى فلا تخافوهم فى انصرافكم الى الكعبة فى تظاهرهم عليكم بالمجادلة الباطلة فانى وليكم وناصركم أظهركم عليهم بالحجة والنصرة (واخشونى) أى احذروا عقابى ان أنتم عدلتم عما ألزمتكم به وفرضته عليكم (ولأتم نعمتى عليكم) أى ولكى أتم نعمتى عليكم بهدايتى اياكم الى قبلة ابراهيم لتتم لكم الملة الحنيفية وقيل تمام النعمة الموت على الاسلام ثم دخول الجنة ثم رؤية الله تعالى (ولعلكم تهتدون) أى لكى تهتدوا من الضلالة ولعل وعسى من الله واجب ۞ قوله عز وجل (كما أرسلنا فيكم) كاف التشبيه تحتاج الى شئ ترجع اليه فقيل ترجع الى ماقبلها ومعناه ولأتم نعمتى عليكم كما أرسلنا فيكم وقيل ان ابراهيم قال ربنا وابعث فيهم رسولا منهم وقال ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك فبعث الله فيهم رسولا منهم وهو محمد صلى الله عليه وسلم ووعده اجابة الدعوة الثانية بان يجعل فى ذريته أمة مسلمة والمعنى كما أجبت دعوته ببعثة الرسول كذلك أجبت دعوته بان أهديكم لدينه وأجعلكم مسلمين وأتم نعمتى عليكم ببيان شرائع الملة الحنيفية وقيل ان الكاف متعلقة بما بعدها وهو قوله فاذكرونى أذكركم والمعنى كما أرسلنا فيكم رسولا منكم فاذكرونى ووجه التشبيه ان النعمة بالذكر جارية مجرى النعمة بارسال الرسول وان قلنا انها متعلقة بما قبلها كان وجه التشبيه ان النعمة فى أمر القبلة كالنعمة بالرسالة وفيكم خطاب لاهل مكة والعرب وكذا قوله منكم وفى ارساله رسولا منهم نعمة عظيمة عليهم لما فيه من الشرف لهم ولان المعروف من حال العرب الانفة الشديدة من الانقياد للغير فكان بعثة الرسول منهم وفيهم أقرب الى قبول قوله والانقياد له والمعنى كما أرسلنا فيكم يامعشر العرب (رسولا منكم) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (يتلوا عليكم آياتنا) يعنى القرآن وذلك من أعظم النعم لانه معجزة باقية على الدهر (ويزكيكم) أى يطهركم من دنس الشرك والذنوب وقيل يعلمكم ما اذا فعلتموه صرتم أزكياء مثل محاسن الاخلاق ومكارم الافعال (ويعلمكم الكتاب) يعنى أحكام الكتاب وهو القرآن وقيل ان التعليم غير التلاوة فليس بتكرار (والحكمة) يعنى السنة والفقه فى الدين (ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون) يعنى يعلمكم من أخبار الامم الماضية والقرون الخالية وقصص الانبياء والخبر عن الحوادث المستقبلة مما لم تكونوا تعلمون وذلك قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم (فاذكرونى) قيل الذكر يكون باللسان وهو أن يسبحه ويحمده ويمجده ونحو ذلك من الاذكار ويكون بالقلب وهو أن يتفكر فى عظمة الله تعالى وفى الدلائل الدالة على وحدانيته ويكون بالجوارح وهو ان تكون مستغرقة فى الاعمال التى أمروا بها مثل الصلاة وسائر الطاعات التى للجوارح فيها فعل (أذكركم) أى بالثواب والرضا عنكم قال ابن عباس أذكرونى بطاعتى أذكركم بمعونتى وقيل اذكرونى فى النعمة والرخاء أذكركم فى الشدة والبلاء وقال أهل المعانى اذكرونى بالتوحيد والايمان أذكركم بالجنان والرضوان وقيل اذكرونى بالاخلاص أذكركم بالخلاص اذكرونى بالقلوب أذكركم بغفران الذنوب اذكرونى بالدعاء أذكركم بالعطاء (ق) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه اذا ذكرنى فان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وان ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه وان تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا وان تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا وان أتانى يمشى أتيته هرولة قوله عز وجل أنا عند ظن عبدى بى قيل معناه بالغفران اذا استغفر وبالقبول والاجابة اذا دعا وبالكفاية اذا طلب الكفاية وقيل المراد منه تحقيق الرجاء وتأميل العفو وهذا أصح قوله وأنا معه اذا ذكرنى يعنى بالرحمة والتوفيق والهداية والاعانة وقوله فان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى النفس فى اللغة لها معان منها ذات الشئ والله تعالى له ذات حقيقة ومنها الغيب فعلى هذا يكون المعنى فان ذكرنى خاليا ذكرته بالاثابة والمجازاة مما لايطلع عليه أحد قوله وان ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه الملأ أشراف الناس وعظماؤهم الذين يرجع الى رأيهم

الانبياء عليهم السلام أو معناه لئلا يكون للعرب عليكم حجة واعتراض فى تركـكم التوجه الى الكعبة التى هى قبلة ابراهيم واسمعيل أبى العرب الا الذين ظلموا منهم وهم أهل مكة حين يقولون بداله فرجع الى قبلة آبائه ويوشك أن يرجع الى دينهم ثم استأنف منبها بقوله (فلا تخشوهم) فلا تخافوا مطاعنهم فى قبلتكم فانهم لايضرونكم (واخشونى) فلا تخالفوا أمرى (ولأتم نعمتى عليكم) أى عرفتكم لئلا يكون عليكم حجة ولأتم نعمتى عليكم بهدايتى اياكم الى الكعبة (ولعلكم تهتدون) ولكى تهتدوا الى قبلة ابراهيم الكاف فى (كما أرسلنا فيكم) اما أن يتعلق بما قبله أى ولأتم نعمتى عليكم فى الآخرة بالثواب كما أتممتها عليكم فى الدنيا بارسال الرسول أو بما بعده أى كما ذكرتكم بارسال الرسول فاذكرونى بالطاعة أذكركم بالثواب فعلى هذا يوقف على تهتدون وعلى الاول لا (رسولا منكم) من العرب (يتلوا عليكم) يقرأ عليكم (آياتنا) القرآن (ويزكيكم ويعلمكم الكتاب) القرآن (والحكمة) السنة والفقه (ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون) مما لاسبيل الى معرفته الا بالوحى (فاذكرونى) بالمغفرة (أذكركم) وهذا

وهذا مما استدلت به المعتزلة ومن وافقهم على تفضيل الملائكة على الانبياء وأجيب عنه بان الذكر غالبا يكون فى جماعة لانبى فيهم قوله وان تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا الخ وهذا من أحاديث الصفات و يستحيل ارادة ظاهره فلابد من التأويل فعلى هذا يكون ذكر الشبر والذراع والباع والمشى والهرولة استعارة ومجازا فيكون المراد بقرب العبد من الله تعالى القرب بالذكر والطاعة والعمل الصالح والمراد بقرب الله من العبد قرب نعمه والطافه وبره وكرمه واحسانه اليه وفيض مواهبه ورحمته عليه والمعنى كلما زاد بالطاعة والذكر زدت بالبر والاحسان وان أتانى يمشى فى طاعتى أتيته هرولة أى صببت عليه الرحمة صبا وسبقته بها (ق) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل أنا مع عبدى ماذكرنى وتحركت بى شفتاه (ق) عن أبى موسى الاشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل الذى يذكر ربه والذى لايذكر ربه كمثل الحى والميت (م) عن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سبق المفردون قالوا وما المفردون يارسول الله قال الذاكرون الله كثيرا والذاكرات المفردون الذين ذهب القرن الذى كانوا فيه وبقوا وهم يذكرون الله تعالى و يقال تفرد الرجل اذا تفقه واعتزل وقوله تعالى (واشكروا لى) يعنى بالطاعة (ولا تكفرون) أى بالمعصية فمن أطاع الله فقد شكره ومن عصاه فقد كفره ۞ قوله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة) انما خصهما بذلك لما فيهما من المعونة على العبادات أما الصبر فهو حبس النفس على احتمال المكاره فى ذات الله وتوطينها على تحمل المشاق فى العبادات وسائر الطاعات وتجنب الجزع وتجنب المحظورات ومن الناس من حمل الصبر على الصوم وفسره به ومنهم من حمله على الجهاد وأما الاستعانة بالصلاة فلانها تجب أن تفعل على طريق الخضوع والتذلل للمعبود والاخلاص له وقيل استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض وبالصلوات الخمس فى مواقيتها على تمحيص الذنوب (ان الله مع الصابرين) أى بالعون والنصر (ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات) نزلت فيمن قتل ببدر من المسلمين وكانوا أربعة عشر رجلا ستة من المهاجرين وهم عبيدة بن الحرث بن عبد المطلب وعمير بن أبى وقاص بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة الزهرى أخو سعد بن أبى وقاص وذو الشمالين واسمه عمير بن عبد عمرو بن العاص بن نضلة بن عمرو بن خزاعة ثم بنى غبشان وعاقل بن البكير من بنى سعد بن ليث بن كنانة ومهجع مولى لعمر بن الخطاب وصفوان بن بيضاء من بنى الحرث بن فهر ومن الانصار ثمانية وهم سعد بن خيثمة ومبشر بن عبد بن المنذر و يزيد بن الحرث بن قيس بن فسحم وعمير بن الحمام ورافع بن المعلى وحارثة بن سراقة وعوف ومعوذ ابنا الحرث بن رفاعة بن سواد وهما ابنا عفراء وهى أمهما كان الناس يقولون لمن قتل فى سبيل الله مات فلان وذهب عنه نعيم الدنيا ولذاتها فانزل الله تعالى هذه الآية وقيل ان الكفار والمنافقين قالوا ان الناس يقتلون أنفسهم طلبا لمرضاة محمد من غير فائدة فنزلت هذه الآية وأخبر أن من قتل فى سبيل الله فانه حى بقوله تعالى (بل أحياء) وانما أحياهم الله عز وجل فى الوقت لايصال الثواب اليهم وعن الحسن ان الشهداء أحياء عند الله تعالى تعرض أرزاقهم على أرواحهم و يصل اليهم الروح والريحان والفرح كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدوة وعشيا فيصل اليهم الالم والوجع ففيه دليل على أن المطيعين لله يصل اليهم ثوابهم وهم فى قبورهم فى البرزخ وكذا العصاة يعذبون فى قبورهم فان قلت نحن نراهم موتى فما معنى قوله بل أحياء وما وجه النهى فى قوله ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات قلت معناه لاتقولوا أموات بمنزلة غيرهم من الاموات بل هم أحياء تصل أرواحهم الى الجنان كما ورد ان أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة فهم أحياء من هذه الجهة وان كانوا أمواتا من جهة خروج الروح من أجسادهم وجواب آخر وهو انهم أحياء عند الله تعالى فى عالم الغيب لانهم صاروا الى الآخرة فنحن لانشاهدهم كذلك

بالمغفرة أو بالثناء والعطاء أو بالسؤال والنوال أو بالتوبة وعفو الحوبة أو بالاخلاص والخلاص أو بالمناجاة والنجاة (واشكروا لى) ما أنعمت به عليكم (ولا تكفرون) ولا تجحدوا نعمائى (ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر) فبه تنال كل فضيلة (والصلاة) فانها تنهى عن كل رذيلة (ان الله مع الصابرين) بالنصر والمعونة (ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله) نزلت فى شهداء بدر وكانوا أربعة عشر رجلا (أموات) أى هم أموات (بل أحياء) أى هم أحياء

(ولكن لاتشعرون) لاتعلمون ذلك لان حياة الشهيد لاتعلم حسا عن الحسن رضى الله عنه أن الشهداء أحياء عند الله تعرض أرزاقهم على أرواحهم فيصل اليهم الروح والفرح كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدوا وعشيا فيصل اليهم الوجع وعن مجاهد يرزقون ثمر الجنة ويجدون ريحها وليسوا فيها (ولنبلونكم) ولنصيبنكم بذلك اصابة تشبه فعل المختبر لاحوالكم هل تصبرون على

ما أنتم عليه من الطاعة أم لا (بشئ) بقليل من كل واحدة من هذه البلايا وطرف منه وقلل ليؤذن أن كل بلاء أصاب الانسان وان جل ففوقه ما يقل اليهم ويريهم أن رحمته معهم فى كل حال وأعلمهم بوقوع البلواء قبل وقوعها ليوطنوا نفوسهم عليها (من الخوف) خوف الله والعدو (والجوع) أى القحط أو صوم شهر رمضان (ونقص من الاموال) بموت المواشى أو الزكاة وهو عطف على شئ أو على الخوف أى وشئ من نقص الاموال (والانفس) بالقتل والموت أو بالمرض والشيب (والثمرات) ثمرات الحرث أو موت الاولاد لان الولد ثمرة الفؤاد (وبشر الصابرين) على هذه البلايا أو المسترجعين عند البلايا لان الاسترجاع تسليم واذعان وفى الحديث من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن عقباه وجعل له خلفا صالحا يرضاه وطفئ سراج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال انا لله وانا اليه راجعون فقيل أمصيبة هى قال نعم كل شئ يؤذى المؤمن فهو مصيبة والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل من يتأتى منه البشارة (الذين) نصب صفة للصابرين ولا وقف عليه بل يوقف على راجعون ومن ابتدأ بالذين وجعل الخبر أولئك يقف على الصابرين لا على راجعون والاول الوجه لان الذين وما بعده بيان للصابرين (اذا أصابتهم مصيبة) مكروه اسم فاعل من أصابته شدة أى لحقته ولا وقف على مصيبة لان (قالوا) جواب اذا واذا وجوابها صلة الذين (انا لله) اقرار له بالملك (وانا اليه راجعون) الى

ويدل على ذلك قوله تعالى (ولكن لاتشعرون) أى لاترونهم أحياء فتعلموا ذلك حقيقة وانما تعلمون ذلك باخبارى اياكم به فان قلت أليس سائر المطيعين من المسلمين يصل اليهم من نعيم الجنة فى قبورهم فلم خصص الشهداء بالذكر قلت انما خصهم لان الشهداء فضلوا على غيرهم بمزيد النعيم وهو انهم يرزقون من مطاعم الجنة ومآكلها وغيرهم يتنعمون بما دون ذلك وجواب آخر وهو انه رد لقول من قال ان من قتل فى سبيل الله قد مات وذهب عنه نعيم الدنيا ولذاتها فاخبر الله تعالى بقوله بل أحياء بانهم فى نعيم دائم ۞ قوله عزوجل (ولنبلونكم) أى ولنختبرنكم يا أمة محمد واللام جواب القسم تقديره والله لنبلونكم والابتلاء اظهار الطائع من العاصى لا ليعلم شيأ لم يكن عالما به فانه سبحانه وتعالى عالم بجميع الاشياء قبل كونها وحدوثها (بشئ) انما قال بشئ ولم يقل باشياء لئلا يوهم أن أشياء تدل على ضروب من الخوف وكذا الباقى فلما قال بشئ كان التقدير بشئ من الخوف وبشئ من الجوع وقيل معناه بشئ قليل من هذه الاشياء (من الخوف) قال ابن عباس يعنى خوف العدو والخوف توقع مكروه يحصل منه ألم فى القلب (والجوع) يعنى القحط وتعذر حصول القوت (ونقص من الاموال) يعنى بالهلاك والخسران (والانفس) أى ونقص من الانفس بالموت أو القتل (والثمرات) يعنى الجوائح فى الثمار وقيل قد يكون بالجدب أيضا وبترك العمل والعمارة فى الاشجار وحكى عن الشافعى رضى الله عنه فى تفسير هذه الآية قال الخوف خوف الله تعالى والجوع صيام شهر رمضان ونقص من الاموال يعنى اخراج الزكاة والصدقات والانفس يعنى بالامراض والثمرات يعنى موت الاولاد لان الولد ثمرة القلب عن أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة أقبضتم ولد عبدى قالوا نعم قال أقبضتم ثمرة فؤاده قالوا نعم قال فماذا قال قالوا حمدك واسترجع قال ابنوا له بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد أخرجه الترمذى وقال حديث حسن فان قلت ما الحكمة فى تقديم تعريف هذا الابتلاء فى قوله ولنبلونكم قلت فيه حكم منها ان العبد اذا علم أنه مبتلى بشئ وطن نفسه على الصبر فاذا نزل به ذلك البلاء لم يجزع ومنها أن الكفار اذا شاهدوا المؤمنين مقيمين على دينهم ثابتين عند نزول البلاء صابرين له علموا بذلك صحة الدين فيدعوهم ذلك الى متابعته والدخول فيه ومنها ان الله تعالى أخبر بهذا الابتلاء قبل وقوعه فاذا وقع كان ذلك اخبارا عن غيب فيكون معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم ومنها ان المنافقين انما أظهروا الايمان طمعا فى المال وسعة الرزق من الغنائم فلما أخبر الله أنه مبتلى عباده فعند ذلك تميز المؤمن من المنافق والصادق من الكاذب ومنها أن الانسان فى حال الابتلاء أشد اخلاصا لله منه فى حال الرخاء فاذا علم أنه مبتلى دام على التضرع والابتهال الى الله تعالى لينجيه مما عسى أن ينزل به من البلاء ثم قال تعالى (وبشر الصابرين) يعنى عند نزول البلاء والمعنى وبشر يا محمد الصابرين على امتحانى بما أمتحنهم به من الشدائد والمكاره ثم وصفهم بقوله تعالى (الذين اذا أصابتهم مصيبة) أى نائبة وابتلاء (قالوا انا لله) أى عبيد أو ملك (وانا اليه راجعون) يعنى فى الآخرة (م) عن أم سلمة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول انا لله وانا اليه راجعون اللهم اجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيرا منها الا أجره الله فى مصيبته وأخلف له خيرا منها قيل ما أعطى أحد ما أعطيت هذه الامة يعنى الاسترجاع عند المصيبة ولو أعطيها أحد لاعطى يعقوب عليه السلام ألا تسمع

الى قوله عند فقد يوسف يا أسفا على يوسف وقيل فى قول العبد انا لله وانا اليه راجعون تفويض منه الى الله وانه راض بكل مانزل به من المصائب (أولئك) يعنى من هذه صفتهم (عليهم صلوات من ربهم) قال ابن عباس أى مغفرة من ربهم ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اللهم صل على آل أبى أوفى أى اغفر لهم وارحمهم وانما جمع الصلوات لانه عنى مغفرة بعد مغفرة ورحمة بعد رحمة (ورحمة) قال ابن عباس ونعمة والرحمة من الله انعامه وافضاله واحسانه ومن الآدميين رقة وتعطف وقيل انما ذكر الرحمة بعد الصلوات لان الصلاة من الله الرحمة لاتساع المعنى واتساع اللفظ وتفعل ذلك العرب كثيرا اذا اختلف اللفظ واتفق المعنى وقيل كررهما للتأكيد أى عليهم رحمة بعد رحمة (وأولئك هم المهتدون) يعنى الى الاسترجاع وقيل الى الجنة الفائزون بالثواب وقيل المهتدون الى الحق والصواب وقال عمر بن الخطاب نعم العدلان ونعمت العلاوة فالعدلان الصلاة والرحمة والعلاوة الهداية

﴿فصل﴾ فى ذكر أحاديث وردت فى ثواب أهل البلاء وأجر الصابرين (خ) عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يرد الله به خيرا يصب منه يعنى يبتليه بالمصائب حتى يأجره على ذلك (ق) عن أبى سعيد وأبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال مايصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله عنه بها خطاياه النصب التعب والاعياء والوصب المرض (ق) عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامن مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه الا حط الله به عنه من سيئاته كما تحط الشجرة ورقها (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل المؤمن كمثل الزرع لاتزال الريح تفيئه ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء ومثل المنافق كمثل شجرة الارزة لاتهتز حتى تحصد الارزة شجر معروف بالشام ويعرف فى العراق ومصر بالصنوبر والصنوبر ثمرة الارزة وقيل الارزة النابتة فى الارض عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا أراد الله بعبده خيرا عجل له العقوبة فى الدنيا واذا أراد الله بعبده شرا أمسك عنه حتى يوافى يوم القيامة وبهذا الاسناد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان عظم الجزاء مع عظم البلاء وان الله اذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط أخرجه الترمذى وله عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت فى الدنيا بالمقاريض وله عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مايزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وولده حتى يلقى الله وماعليه خطيئة وقال حديث حسن صحيح (ح) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى مالعبدى المؤمن عندى جزاء اذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه الا الجنة عن سعد بن أبى وقاص قال قلت يارسول الله أى الناس أشد بلاء قال الانبياء ثم الامثل فالامثل يبتلى الرجل على حسب دينه فان كان فى دينه صلبا اشتد بلاؤه وان كان فى دينه رقة هون عليه فمايبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الارض وماعليه خطيئة أخرجه الترمذى وقال حديث حسن ۞ قوله عز وجل (ان الصفا والمروة من شعائر الله) الصفا جمع صفاة وهى الصخرة الصلبة الملساء وقيل هى الحجارة الصافية والمروة الحجر الرخو وجمعها مرو ومروات وهذان أصلهما فى اللغة وانما عنى الله بهما الجبلين المعروفين بمكة فى طرفى المسعى ولذلك أدخل فيهما الالف واللام وشعائر الله أعلام دينه وأصلها من الاشعار وهو الاعلام واحدتها شعيرة وكل ما كان معلما للقربان يتقرب به الى الله تعالى من صلاة ودعاء وذبيحة فهو شعيرة من شعائر الله ومشاعر الحج معالمه الظاهرة للحواس ويقال شعائر الحج فالمطاف والموقف والمنحر كلها شعائر والمراد بالشعائر هنا المناسك التى جعلها الله أعلاما لطاعته فالصفا والمروة منها حيث يسعى بينهما (فمن حج البيت) أى قصد البيت هذا أصله فى اللغة وفى الشرع عبارة عن أفعال مخصوصة لاقامة المناسك (أواعتمر) أى زار البيت والعمرة الزيارة فى الحج والعمرة المشروعين

اقرار على نفوسنا بالهلك (اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) الصلاة الحنو والتعطف فوضعت موضع الرأفة وجمع بينها وبين الرحمة كقوله رأفة ورحمة رؤف رحيم والمعنى عليهم رأفة بعد رأفة ورحمة بعد رحمة (وأولئك هم المهتدون) لطريق الصواب حيث استرجعوا وأذعنوا لامر الله قال عمر رضى الله عنه نعم العدلان ونعم العلاوة أى الصلاة والرحمة والاهتداء (ان الصفا والمروة) هما علمان للجبلين (من شعائر الله) من أعلام مناسكه ومتعبداته جمع شعيرة وهى العلامة (فمن حج البيت) قصد الكعبة (أواعتمر) زار الكعبة فالحج القصد والاعتمار الزيارة ثم غلبا على قصد البيت وزيارته للنسكين المعروفين وهما فى المعانى كالنجم والبيت فى الاعيان

قصد وزيارة (فلاجناح عليه) أى فلا اثم عليه وأصله من جنح اذا مال عن القصد المستقيم (أن يطوف بهما) أى يدور بهما و يسعى بينهما * وسبب نزول هذه الآية أنه كان على الصفا والمروة صنمان يقال لهما اساف ونائلة فكان اساف على الصفا ونائلة على المروة وكان أهل الجاهلية يطوفون بين الصفا والمروة تعظيما للصنمين فلما جاء الاسلام وكسرت الاصنام تحرج المسلمون عن السعى بين الصفا والمروة فأنزل الله هذه الآية وأذن فى السعى بينهما وأخبر أنه من شعائر الله (ق) عن عاصم بن سليمان الاحول قال قلت لانس أكنتم تكرهون السعى بين الصفا والمروة فقال نعم لانها كانت من شعائر الجاهلية حتى أنزل الله ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلاجناح عليه أن يطوف بهما وفى رواية قال كانت الانصار يكرهون أن يطوفوا بين الصفا والمروة حتى نزلت ان الصفا والمروة من شعائر الله ﴿فصل﴾ اختلف العلماء فى حكم السعى بين الصفا والمروة فى الحج والعمرة فذهب جماعة الى وجوبه وهو قول ابن عمر وجابر وعائشة وبه قال الحسن واليه ذهب مالك والشافعى وذهب قوم الى أنه تطوع وهو قول ابن عباس وبه قال ابن سيرين وذهب الثورى وأبو حنيفة الى أنه ليس بركن وعلى من تركه دم وروى عن ابن الزبير ومجاهد وعطاء أن من تركه فلا شئ عليه واختلفت الرواية عن أحمد فى ذلك فروى عنه ان من ترك السعى بين الصفا والمروة لم يجزه حجه وروى عنه أنه لا شئ فى تركه عمدا ولا سهوا ولا ينبغى أن يتركه ونقل الجمهور عنه أنه تطوع وسبب هذا الاختلاف أن قوله تعالى فلاجناح عليه يصدق عليه أنه لا اثم عليه فى فعله فدخل تحته الواجب والمندوب والمباح فظاهر هذه الآية لا يدل على أن السعى بين الصفا والمروة واجب أو ليس بواجب لان اللفظ الدال على القدر المشترك بين الاقسام الثلاثة لا دلالة فيه على خصوصية أحدهما فاذا لا بد من دليل خارج يدل على أن السعى واجب أو غير واجب فحجة الشافعى ومن وافقه فى أن السعى بين الصفا والمروة ركن من أركان الحج والعمرة ما روى الشافعى بسنده عن صفية بنت شيبة قالت أخبرتنى بنت أبى تجزاة واسمها حبيبة احدى نساء بنى عبد الدار قالت دخلت مع نسوة من قريش دار آل أبى حسين ننظر الى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يسعى بين الصفا والمروة فرأيته يسعى وان مئزره ليدور من شدة السعى حتى لاقول انى لارى ركبتيه وسمعته يقول اسعوا فان الله كتب عليكم السعى وصححه الدارقطنى (ق) عن عروة بن الزبير قال قلت لعائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم أرأيت قول الله ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلاجناح عليه أن يطوف بهما فما أرى على أحد شيأ أن لا يطوف بهما فقالت عائشة كلا لو كان كما تقول كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما انما نزلت هذه الآية فى الانصار كانوا يهلون لمناة وكانت مناة حذو قديد وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة فلما جاء الاسلام سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى ان الصفا والمروة من شعائر الله الآية (م) عن جابر فى حديثه الطويل فى صفة حجة الوداع قال ثم خرج من الباب الى الصفا فلما دنا من الصفا قرأ ان الصفا والمروة من شعائر الله ابدأ بما بدأ الله به فبدأ بالصفا الحديث فاذا ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم سعى وجب علينا السعى لقوله تعالى فاتبعوه ولقوله صلى الله عليه وسلم خذوا عنى مناسككم والامر للوجوب ومن القياس أن السعى أشواط شرعت فى بقعة من بقاع الحرم و يؤتى به فى احرام كامل فكان ركنا كطواف الزيارة واحتج أبو حنيفة ومن لا يرى وجوب السعى بقوله فلاجناح عليه أن يطوف بهما وهذا لا يقال فى الواجبات ثم انه تعالى أكد ذلك بقوله (ومن تطوع خيرا) فبين أنه تطوع وليس بواجب وأجيب عن الاول بأن قوله تعالى فلاجناح عليه ليس فيه الا أنه لا اثم على فعله وهذا القدر مشترك بين الواجب وغيره كما تقدم بيانه فلا يكون فيه دلالة على نفى الوجوب وعن الثانى وهو التمسك بقوله تعالى ومن تطوع خيرا فضعيف لان هذا لا يقتضى أن يكون المراد من هذا التطوع هو الطواف المذكور أولا بل يجوز أن يكون المقصود منه شيأ آخر بدل

(فلاجناح عليه) فلا اثم عليه (أن يطوف بهما) أى يتطوف فادغم التاء فى الطاء وأصل الطوف المشى حول الشئ والمراد ههنا السعى بينهما قيل كان على الصفا أساف وعلى المروة نائلة وهما صنمان يروى أنهما كانا رجلا وامرأة زنيا فى الكعبة فمسخا حجرين فوضعا عليهما ليعتبر بهما فلما طالت المدة عبدا من دون الله وكان أهل الجاهلية اذا سعوا مسحوهما فلما جاء الاسلام وكسرت الاوثان كره المسلمون الطواف بينهما لاجل فعل الجاهلية فرفع عنهم الجناح بقوله فلاجناح وهو دليل على أنه ليس بركن كما قال مالك والشافعى رحمهما الله تعالى وكذا قوله (ومن تطوع خيرا) أى الطواف بهما مشعر بأنه ليس بركن ومن يطوع حمزة وعلى أى يتطوع فادغم التاء فى الطاء

على ذلك قول الحسن ان المراد بقوله ومن تطوع خيرا جميع الطاعات في الدين يعني فعل فعلا زائدا على ماافترض عليه من صلاة وصدقة وصيام وحج وعمرة وطواف وغير ذلك من أنواع الطاعات وقال مجاهد ومن تطوع خيرا بالطواف بهما وهذا على قول من لا يرى الطواف بهما فرضا وقيل معناه ومن تطوع خيرا فزاد في الطواف بعد الواجب والقول الاول أولى للعموم (فان الله شاكر) أي مجاز على الطاعة (عليم) أي بنيته وحقيقة الشاكر في اللغة هو المظهر للانعام عليه والشكر هو تصور النعمة واظهارها والله تعالى لا يوصف بذلك لانه لا يلحقه المنافع والمضار فالشاكر في صفة الله تعالى مجاز فاذا وصف به أريد به أنه المجازي على الطاعة بالثواب الا أن اللفظ خرج مخرج التلطف للعباد مظاهرة في الاحسان اليهم ﴿ قوله عز وجل (ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى) نزلت في علماء اليهود الذين كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم وآية الرجم وغيرها من الاحكام التي كانت في التوراة وقيل ان الآية على العموم فيمن كتم شيأ من أمر الدين لان اللفظ عام والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ومن قال بالقول الاول وانها في اليهود قال ان الكتم لا يصح الا منهم لانهم كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم ومعنى الكتمان ترك اظهار الشئ مع الحاجه الى بيانه واظهاره فمن كتم شيأ من أمر الدين فقد عظمت مصيبته (ق) عن أبي هريرة قال لولا آيتان أنزلهما الله في كتابه ماحدثت شيأ أبدا ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى وقوله واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه الى آخر الآيتين وهل اظهار علوم الدين فرض كفاية أو فرض عين فيه خلاف والاصح انه اذا أظهر للبعض بحيث يتمكن كل واحد من الوصول اليه لم يبق مكتوما وقيل متى سئل العالم عن شئ يعلمه من أمر الدين يجب عليه اظهاره والا فلا (من بعد ما بيناه للناس في الكتاب) يعني في التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وسلم فعلى هذا يكون المراد بالناس علماء بني اسرائيل ومن قال ان المراد بالكتاب جميع ما أنزل الله على أنبيائه من الاحكام قال المراد بالناس العلماء كافة (أولئك) يعني الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى (يلعنهم الله) أي يبعدهم من رحمته وأصل اللعن في اللغة الطرد والابعاد (ويلعنهم اللاعنون) قال ابن عباس جميع الخلائق الا الجن والانس وذلك ان البهائم تقول انما منعنا القطر بمعاصي بني آدم وقيل اللاعنون هم الجن والانس لانه وصفهم بوصف من يعقل وقيل ما تلاعن اثنان من المسلمين الارجعت الى اليهود والنصارى الذين كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم ثم استثنى فقال تعالى (الا الذين تابوا) أي ندموا على مافعلوا فرجعوا عن الكفر الى الاسلام (وأصلحوا) يعني الاعمال فيما بينهم وبين الله تعالى (وبينوا) يعني ما كتموا من العلم (فاولئك أتوب عليهم) أي أتجاوز عنهم وأقبل توبتهم (وأنا التواب) أي المتجاوز عن عبادي الرجاع بقلوبهم المنصرفة عني الي (الرحيم) يعني بهم بعد اقبالهم علي ﴿ قوله عز وجل (ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) قيل هذا اللعن يكون يوم القيامة يؤتى بالكافر فيوقف فيلعنه الله ثم تلعنه الملائكة ثم يلعنه الناس أجمعون فان قلت الكافر لا يلعن نفسه ولا يلعنه أهل دينه وملته فما معنى قوله والناس أجمعين قلت فيه أوجه أحدها انه أراد بالناس من يعتد بلعنه وهم المؤمنون الثاني ان الكفار يلعن بعضهم بعضا يوم القيامة الثالث انهم يلعنون الظالمين والكفار من الظالمين فيكون قد لعن نفسه (خالدين فيها) أي مقيمين في اللعنة وقيل في النار وانما أضمرت لعظم شأنها (لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) أي لا يمهلون ولا يؤجلون وقيل لا ينظرون ليعتذروا وقيل لا ينظر اليهم نظر رحمة

﴿فصل فيما يتعلق بهذه الآية من الحكم﴾ قال العلماء لا يجوز لعن كافر معين لان حاله عند الوفاة لا يعلم فلعله يموت على الاسلام وقد شرط الله في هذه الآية اطلاق اللعنة على من مات على الكفر ويجوز لعن الكفار

(فان الله شاكر) مجاز على القليل كثيرا (عليم) بالاشياء صغيرا أو كبيرا (ان الذين يكتمون) من أحبار اليهود (ما أنزلنا) في التوراة (من البينات) من الايات الشاهدة على أمر محمد عليه السلام (والهدى) الهداية الى الاسلام بوصفه عليه السلام (من بعد ما بيناه) أوضحناه (للناس في الكتاب) في التوراة لم ندع فيه موضع اشكال فعمدوا الى ذلك المبين فكتموه (أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) الذين يتأتى منهم اللعن وهم الملائكة والمؤمنون من الثقلين (الا الذين تابوا) عن الكتمان وترك الايمان (وأصلحوا) ما أفسدوا من أحوالهم وتداركوا مافرط منهم (وبينوا) وأظهروا ما كتموا (فاولئك أتوب عليهم) أقبل توبتهم (وأنا التواب الرحيم ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار) يعني الذين ماتوا من هؤلاء الكاتمين ولم يتوبوا (أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) ذكر لعنتهم أحياء ثم لعنتهم أمواتا والمراد بالناس المؤمنون أو المؤمنون والكافرون اذ بعضهم يلعن بعضا يوم القيامة قال الله تعالى كلما دخلت أمة لعنت أختها (خالدين) حال من هم في عليهم (فيها) في اللعنة أو في النار الا أنه أضمرت تفخيما لشأنها وتهويلا (لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) من الانظار أي لا يمهلون أو لا ينتظرون ليعتذروا أو لا ينظر اليهم نظر رحمة

يدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها وذهب بعضهم الى جواز لعن انسان معين من الكفار بدليل جواز قتاله وأما العصاة من المؤمنين فلا يجوز لعنة أحد منهم على التعيين وأما على الاطلاق فيجوز لما روى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لعن الله السارق يسرق البيضة والحبل فتقطع يده ولعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الواشمة والمستوشمة وآكل الربا وموكله ولعن من غير منار الارض ومن انتسب لغير أبيه وكل هذه فى الصحيح ﴿ قوله عز وجل (والهكم اله واحد) سبب نزول هذه الآية ان كفار قريش قالوا يا محمد صف لنا ربك وانسبه فانزل الله هذه الآية وسورة الاخلاص ومعنى الوحدة الانفراد وحقيقة الواحد هو الشئ الذى لا يتبعض ولا ينقسم والواحد فى صفة الله انه واحد لا نظير له وليس كمثله شئ وقيل واحد فى الوهيته وربوبيته ليس له شريك لان المشركين أشركوا معه الآلهة فكذبهم الله تعالى بقوله والهكم اله واحد يعنى لا شريك له فى ألوهيته ولا نظير له فى الربوبية والتوحيد هو نفى الشريك والقسيم والشبيه فالله تعالى واحد فى أفعاله لا شريك له يشاركه فى مصنوعاته وواحد فى ذاته لا قسيم له وواحد فى صفاته لا يشبهه شئ من خلقه (لا اله الا هو) تقرير للوحدانية بنفى غيره من الالوهية واثباتها له سبحانه وتعالى (الرحمن الرحيم) يعنى انه المولى لجميع النعم أصولها وفروعها فلا شئ سواه بهذه الصفة لان كل ما سواه اما نعمة واما منعم عليه وهو المنعم على خلقه الرحيم بهم عن أسماء بنت يزيد قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اسم الله الاعظم فى هاتين الآيتين والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم وفاتحة آل عمران الم الله لا اله الا هو الحى القيوم أخرجه أبو داود والترمذى وقال حديث صحيح وقيل لما نزلت هذه الآية قال المشركون ان محمدا يقول الهكم اله واحد فليأتنا بآية ان كان صادقا فانزل الله تعالى (ان فى خلق السموات والارض) وعلمه كيفية الاستدلال على وحدانية الصانع وردهم الى التفكر فى آياته والنظر فى عجائب مصنوعاته واتقان أفعاله ففى ذلك دليل على وحدانيته اذ لو كان فى الوجود صانعان لهذه الافعال لاستحال اتفاقهما على أمر واحد ولامتنع فى أفعالهما التساوى فى صفة الكمال فثبت بذلك ان خالق هذا العالم والمدبر له واحد قادر مختار فبين سبحانه وتعالى من عجائب مخلوقاته ثمانية أنواع ﴿ أولها قوله ان فى خلق السموات والارض وانما جمع السموات لانها أجناس مختلفة كل سماء من جنس غير جنس الاخرى ووحد الارض لانها جنس واحد وهو التراب والآية فى السماء هى سمكها وارتفاعها بغير عمد ولا علاقة وما يرى فيها من الشمس والقمر والنجوم والآية فى الارض مدها وبسطها على الماء وما يرى فيها من الجبال والبحار والمعادن والجواهر والانهار والاشجار والثمار والنبات ﴿ النوع الثانى قوله تعالى (واختلاف الليل والنهار) أى تعاقبهما فى المجئ والذهاب وقيل اختلافهما فى الطول والقصر والزيادة والنقصان والنور والظلمة وانما قدم الليل على النهار لان الظلمة أقدم والآية فى الليل والنهار ان انتظام أحوال العباد بسبب طلب الكسب والمعيشة يكون فى النهار وطلب النوم والراحة يكون فى الليل فاختلاف الليل والنهار انما هو لتحصيل مصالح العباد ﴿ النوع الثالث قوله تعالى (والفلك التى تجرى فى البحر) أى السفن واحده وجمعه سواء وسمى البحر بحرا لاتساعه وانبساطه والآية فى الفلك تسخيرها وجريانها على وجه الماء وهى موقرة بالاثقال والرجال فلا ترسب وجريانها بالريح مقبلة ومدبرة وتسخير البحر لحمل الفلك مع قوة سلطان الماء وهيجان البحر فلا ينجى منه الا الله تعالى ﴿ النوع الرابع قوله تعالى (بما ينفع الناس) يعنى ركوبها والحمل عليها فى التجارات لطلب الارباح والآية فى ذلك ان الله تعالى لو لم يقو قلب من يركب هذه السفن لما تم الغرض فى تجاراتهم ومنافعهم وأيضا فان الله تعالى خص كل قطر من أقطار العالم بشئ معين وأحوج الكل الى الكل فصار ذلك سببا يدعوهم الى اقتحام الاخطار فى الاسفار

(والهكم اله واحد) فرد فى ألوهيته لا شريك له فيها ولا يصح أن يسمى غيره الها (لا اله الا هو) تقرير للوحدانية بنفى غيره واثباته وموضع هو رفع لانه بدل من موضع لا اله ولا يجوز النصب هنا لان البدل يدل على أن الاعتماد على الثانى والمعنى فى الآية على ذلك والنصب يدل على أن الاعتماد على الاول ورفع (الرحمن الرحيم) أى المولى لجميع النعم أصولها وفروعها ولا شئ سواه بهذه الصفة فما سواه اما نعمة واما منعم عليه على أنه خبر مبتدأ أو على البدل من هو لا على الوصف لان المضمر لا يوصف ولما عجب المشركون من اله واحد وطلبوا آية على ذلك نزل (ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار) فى اللون والطول والقصر وتعاقبهما فى الذهاب والمجئ (والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس) بالذى ينفعهم مما يحمل فيها أو بنفع الناس ومن فى

من

من ركوب السفن وخوض البحر وغير ذلك فالحامل ينتفع لانه يربح والمحمول اليه ينتفع بما حمل اليه ﴿النوع الخامس قوله تعالى (وما أنزل الله من السماء من ماء) يعني المطر قيل أراد بالسماء السحاب سمي سماء لان كل ما علاك فاظلك فهو سماء خلق الله الماء في السحاب ومنه ينزل الى الارض وقيل أراد السماء بعينها خلق الله الماء في السماء ومنه ينزل الى السحاب ثم منه الى الارض (فأحيا به) أي بالماء (الارض بعد موتها) أي يبسها وجدبها سماه موتا مجازا لانها اذا لم تنبت شيأ ولم يصبها المطر فهي كالميتة والآية في انزال المطر واحياء الارض به ان الله تعالى جعله سببا لاحياء الجميع من حيوان ونبات ونزوله عند وقت الحاجة اليه بمقدار المنفعة وعند الاستسقاء والدعاء وانزاله بمكان دون مكان ﴿النوع السادس قوله تعالى (وبث) أي فرق (فيها) أي في الارض (من كل دابة) قال ابن عباس يريد كل ما دب على وجه الارض من جميع الخلق من الناس وغيرهم والآية في ذلك ان جنس الانسان يرجع الى أصل واحد وهو آدم ثم ما فيهم من الاختلاف في الصور والاشكال والالوان والالسنة والطبائع والاخلاق والاوصاف الى غير ذلك ثم يقاس على بني آدم سائر الحيوان ﴿النوع السابع قوله تعالى (وتصريف الرياح) يعني في مهابها قبولا ودبورا وشمالا وجنوبا ونكباء وهي الريح التي تأتي من غير مهب صحيح فكل ريح تختلف مهابها تسمى نكباء وقيل تصريفها في أحوال مهابها لينة وعاصفة وحارة وباردة وسميت ريحا لانها تريح قال ابن عباس أعظم جنود الله الريح وقيل ما هبت ريح الا لشفاء سقيم أو ضده وقيل البشارة في ثلاث رياح الصبا والشمال والجنوب والدبور وهي الريح العقيم التي أهلكت بها عاد فلا بشارة فيها والآية في الريح انها جسم لطيف لا يمسك ولا يرى وهي مع ذلك في غاية القوة تقلع الشجر والصخر وتخرب البنيان العظيم وهي مع ذلك حياة الوجود فلو أمسكت طرفة عين لمات كل ذي روح وأنتن ما على وجه الارض ﴿النوع الثامن قوله تعالى (والسحاب المسخر بين السماء والارض) أي الغيم المذلل سمي سحابا لسرعة سيره كأنه يسحب والآية في ذلك ان السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التي تسيل منها الاودية العظيمة يبقى معلقا بين السماء والارض ففي هذه الانواع الثمانية المذكورة في هذه الآية دلالة عظيمة على وجود الصانع القادر المختار وانه الواحد في ملكه فلا شريك له ولا نظير وهو المراد من قوله وإلهكم إله واحد لا إله الا هو وقوله (لآيات) أي فيما ذكر من دلائل مصنوعاته الدالة على وحدانيته قيل انما جمع آيات لان في كل واحد مما ذكر من هذه الانواع آيات كثيرة تدل على ان لها خالقا مدبرا مختارا (لقوم يعقلون) أي ينظرون بصفاء عقولهم ويتفكرون بقلوبهم فيعلمون ان لهذه الاشياء خالقا ومدبرا مختارا وصانعا قادرا على ما يريد ﴿قوله عز وجل (ومن الناس) يعني المشركين (من يتخذ من دون الله أندادا) يعني أصناما يعبدونها والند المثل المنازع فعلى هذا الاصنام أنداد بعضها لبعض وليست أندادا لله تعالى وتعالى الله أن يكون له ند أو له مثل منازع وقيل الانداد الاكفاء من الرجال وهم رؤساؤهم وكبراؤهم الذين يطيعونهم في معصية الله تعالى (يحبونهم) أي يودونهم ويميلون اليهم والحب نقيض البغض وأحببت فلانا أي جعلته معرضا بأن تحبه والمحبة الارادة (كحب الله) أي كحب المؤمنين الله والمعنى يحبون الاصنام كما يحب المؤمنون ربهم عز وجل وقيل معناه يحبونهم كحب الله فيكون المعنى أنهم يسوون بين الاصنام وبين الله في المحبة فمن قال بالقول الاول لم يثبت للكفار محبة لله تعالى ومن قال بالقول الثاني أثبت للكفار محبة الله تعالى لكن جعلوا الاصنام شركاء له في الحب (والذين آمنوا أشد حبا لله) أي أثبت وأدوم على محبته لانهم لا يختارون مع الله سواه والمشركون اذا اتخذوا صنما ثم رأوا آخر أحسن منه طرحوا الاول واختاروا الثاني وقيل ان الكفار يعدلون عن أصنامهم في الشدائد ويقبلون الى الله تعالى كما أخبر عنهم فاذا

ثم عطف على انزل (فأحيا به) بالماء (الارض بعد موتها) بيبسها ثم عطف على فأحيا (وبث) وفرق (فيها) في الارض (من كل دابة) هي كل ما يدب (وتصريف الرياح) الريح حمزة وعلي أي وتقليبها في مهابها قبولا ودبورا وجنوبا وشمالا وفي أحوالها حارة وباردة وعاصفة ولينة وعقما ولواقح وقيل تارة بالرحمة وطورا بالعذاب (والسحاب المسخر) المذلل المنقاد لمشيئة الله تعالى فيمطر حيث شاء (بين السماء والارض) في الهواء (لآيات لقوم يعقلون) ينظرون بعيون عقولهم ويعتبرون فيستدلون بهذه الاشياء على قدرة موجدها وحكمة مبدعها ووحدانية منشئها وفي الحديث ويل لمن قرأ هذه الآية فمج بها أي لم يتفكر فيها ولم يعتبر بها (ومن الناس) أي ومع هذا البرهان النير من الناس (من يتخذ من دون الله أندادا) أمثالا من الاصنام (يحبونهم) يعظمونهم ويخضعون لهم تعظيم المحبوب (كحب الله) كتعظيم الله والخضوع له أي يحبون الاصنام كما يحبون الله يعني يسوون بينهم وبينه في محبتهم لانهم كانوا يقرون بالله ويتقربون اليه وقيل يحبونهم كحب المؤمنين الله (والذين آمنوا أشد حبا لله) من المشركين لآلهتهم لانهم لا يعدلون عنه الى غيره بحال والمشركون يعدلون عن أندادهم الى الله عند الشدائد فيفزعون اليه ويخضعون له

(ولو يرى) ترى نافع وشامي على خطاب الرسول أو كل مخاطب أي ولو ترى ذلك لرأيت أمراً عظيماً (الذين ظلموا) اشارة الى متخذي الانداد (اذ يرون) يرون شامي (العذاب أن القوة لله جميعا) حال (وأن الله شديد العذاب) شديد عذابه أي ولو يعلم هؤلاء الذين ارتكبوا الظلم العظيم شركهم ان القدرة كلها لله تعالى على كل شيء من الثواب والعقاب دون أندادهم و يعلمون شدة عقابه للظالمين اذا عاينوا العذاب يوم القيامة لكان منهم ما لا يدخل تحت الوصف من الندم والحسرة فحذف الجواب لان لو اذا جاء فيما يشوق اليه أو يخوف منه قلما يوصل بجواب ليذهب القلب فيه كل مذهب ولو يليها الماضي وكذا اذ ووضعهما لتدل على الماضي وانما دخلتا على المستقبل هنا لان أخبار الله تعالى عن المستقبل باعتبار صدقه كالماضي (اذ تبرأ) مدغمة الذال في التاء حيث وقعت عراقي غير عاصم وهو بدل من اذ يرون العذاب (الذين اتبعوا) أي المتبوعون وهم الرؤساء (من الذين اتبعوا) من الاتباع (ورأوا العذاب) الواو فيه للحال أي تبرؤا في حال رؤيتهم العذاب (وتقطعت) عطف على تبرأ (بهم الاسباب) الوصل التي كانت بينهم من الاتفاق على دين واحد ومن الانساب والمحاب (وقال الذين اتبعوا) أي الاتباع (لو أن لنا كرة) رجعة الى الدنيا (فنتبرأ) نصب على جواب التمني لان لو في معنى التمني والمعنى ليت لنا كرة فنتبرأ (منهم كما تبرؤا منا) الآن (كذلك) مثل ذلك الاراء الفظيع (يريهم الله أعمالهم) أي عبادتهم الاوثان (حسرات عليهم) ندامات وهي مفعول ثالث ليريهم ومعناه ان أعمالهم تنقلب عليهم حسرات فلا يرون الا حسرات مكان أعمالهم (وما هم بخارجين من النار) بل هم فيها دائمون ونزل فيمن حرموا على أنفسهم البحائر ونحوها (يا أيها الناس كلوا) أمر اباحة (مما في الارض) من للتبعيض لان كل ما في الارض ليس بمأكول (حلالا) مفعول كلوا أو حال مما في الارض (طيبا) طاهراً من كل شبهة (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) طرقه التي يدعوكم اليها بسكون الطاء أبو عمرو وغيره عباس ونافع وحمزة وأبو بكر والخطوة في الاصل ما بين قدمي الخاطي يقال اتبع خطواته اذا اقتدى به واستن بسنته

ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين والمؤمنون لا يعدلون عن الله تعالى في السراء ولا في الضراء ولا في الشدة ولا في الرخاء وقيل ان المؤمنين يوحدون ربهم والكفار يعبدون أصناما كثيرة فتنقص المحبة لصنم واحد وقيل انما قال والذين آمنوا أشد حبا لله لان الله أحبهم أولا فأحبوه ومن شهد له المعبود بالمحبة كانت محبته أتم وسيأتي بسط الكلام في معنى المحبة عند قوله يحبهم ويحبونه (ولو يرى الذين ظلموا) قرئ بالتاء والمعنى ولو ترى يا محمد الذين ظلموا يعني أشركوا في شدة العذاب لرأيت أمرا عظيما وقرئ بالياء ومعناه ولو يرى الذين ظلموا أنفسهم عند رؤية العذاب حين يقذف بهم في النار لرأوا مضرة الكفر وان ما اتخذوه من الاصنام لا ينفعهم (اذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا) معناه لو رأى الذين كانوا يشركون في الدنيا عذاب الآخرة لعلموا حين يرون العذاب أن القوة ثابتة لله جميعا والمعنى انهم شاهدوا من قدرة الله تعالى ما تيقنوا معه أن القوة لله جميعا وان الامر ليس على ما كانوا عليه من الشرك والجحود (وأن الله شديد العذاب) قوله عز وجل (اذ تبرأ) أي تنزه وتباعد (الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب) أي القادة من مشركي الانس من الاتباع وذلك يوم القيامة حين يجمع القادة والاتباع فيتبرأ بعضهم من بعض عند نزول العذاب بهم وعجزهم عن دفعه عن أنفسهم فكيف عن غيرهم وقيل هم الشياطين يتبرؤن من الانس والقول هو الاول (وتقطعت بهم الاسباب) يعني الوصلات التي كانت بينهم في الدنيا يتوصلون بها من قرابة وصداقة وقيل الاعمال التي كانت بينهم يعملونها في الدنيا وقيل العهود والحلف التي كانت بينهم يتوادون عليها وأصل السبب في اللغة الحبل الذي يصعد به النخل وسمي كل ما يتوصل به الى شيء من ذريعة أو قرابة أو مودة سببا تشبيها بالحبل الذي يصعد به (وقال الذين اتبعوا) يعني الاتباع (لو أن لنا كرة) أي رجعة الى الدنيا (فنتبرأ منهم) أي من المتبوعين (كما تبرؤا منا) اليوم (كذلك يريهم الله) أي كما أراهم العذاب يريهم الله (أعمالهم حسرات عليهم) لانهم أيقنوا بالهلاك والحسرة الغم على ما فاته وشدة الندم عليه كأنه انحسر عنه الجهل الذي حمله على ما ارتكبه والمعنى ان الله تعالى يريهم السيآت التي عملوها وارتكبوها في الدنيا فيتحسرون لم عملوها وقيل يريهم ما تركوا من الحسنات فيندمون على تضييعها وقيل يرفع لهم منازلهم في الجنة فيقال لهم تلك مساكنكم لو أطعتم الله ثم تقسم بين المؤمنين فذلك حين يتحسرون ويندمون على ما فاتهم ولا ينفعهم الندم (وما هم بخارجين من النار) ۞ قوله عز وجل (يا أيها الناس كلوا مما في الارض حلالا طيبا) نزلت في ثقيف وخزاعة وعامر بن صعصعة وبني مدلج فيما حرموا على أنفسهم من الحرث والانعام والبحيرة والسائبة والوصيلة والحام والحلال المباح الذي أحله الشرع وانحلت عقدة الحظر عنه وأصله من الحل الذي هو نقيض العقد والطيب ما يستلذ والمسلم لا يستطيب الا الحلال و يعاف الحرام وقيل الطيب هو الطاهر لان النجس تكرهه النفس وتعافه (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) أي لا تسلكوا سبيله وقيل معناه

(انه لكم عدو مبين) ظاهر العداوة لاخفاء به وأبان متعد ولازم ولا يناقض هذه الآية قوله تعالى والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت أى الشيطان لانه عدو للناس حقيقة ووليهم ظاهرا فانه يريهم فى الظاهر الموالاة ويزين لهم أعمالهم ويريد بذلك هلاكهم فى الباطن (انما يأمركم) بيان لوجوب الانتهاء عن اتباعه وظهور عداوته أى لا يأمركم بخير قط انما يأمركم (بالسوء) بالقبيح (والفحشاء) وما يتجاوز الحد فى القبح من العظائم وقيل السوء ما لا حد فيه والفحشاء ما فيه حد (وأن تقولوا) فى موضع الجر بالعطف على بالسوء أى وبأن تقولوا (على الله ما لا تعلمون) هو قولكم هذا حلال وهذا حرام بغير علم ويدخل فيه كل ما يضاف الى الله تعالى مما لا يجوز عليه (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله) الضمير للناس وعدل بالخطاب عنهم على طريق الالتفات قيل هم المشركون وقيل طائفة من اليهود لما دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الايمان واتباع القرآن (قالوا بل نتبع ما ألفينا) وجدنا (عليه آباءنا) فانهم كانوا خيرا منا وأعلم فرد الله عليهم بقوله (أولو كان آباؤهم) الواو للحال والهمزة بمعنى الرد والتعجب معناه أيتبعونهم ولو كان آباؤهم (لا يعقلون شيأ) من الدين (ولا يهتدون) للصواب ثم ضرب لهم مثلا فقال (ومثل الذين كفروا) المضاف محذوف أى ومثل داعى الذين كفروا (كمثل الذى ينعق) يصيح والمراد (بما لا يسمع الا دعاء ونداء) البهائم والمعنى ومثل داعيهم الى الايمان فى أنهم لا يسمعون من الدعاء الا جرس النغمة ودوى الصوت من غير القاء أذهان ولا استبصار كمثل الناعق بالبهائم التى لا تسمع الا دعاء الناعق ونداءه الذى هو تصويت بها وزجرها ولا تفقه شيأ آخر كما تفهم العقلاء والنعيق التصويت يقال نعق المؤذن ونعق الراعى بالضأن والنداء ما يسمع والدعاء قد يسمع وقد لا يسمع (صم) خبر مبتدأ مضمر أى هم صم (بكم) خبر ثان (عمى) خبر

لا تأتمروا به ولا تتبعوا آثاره وزلاته والمعنى احذروا أن تتعدوا ما أحل الله لكم الى ما يدعوكم اليه الشيطان قيل هى النذور فى المعاصى وقيل هى المحقرات من الذنوب ثم بين علة هذا التحذير بقوله تعالى (انه لكم عدو مبين) أى ظاهر العداوة وقد أظهر الله تعالى عداوته بآية السجود لآدم ثم بين عداوته ما هى فقال تعالى (انما يأمركم بالسوء) يعنى بالاثم والسوء ما يسوء صاحبه ويحزنه (والفحشاء) يعنى بها المعاصى وما قبح من قول أو فعل قال ابن عباس السوء ما لا حد فيه والفحشاء ما يجب فيه الحد وقيل الفحشاء الزنا وقيل هو البخل (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) يعنى من تحريم الحرث والانعام ويتناول ذلك جميع المذاهب الفاسدة التى لم يأذن فيها الله ولم ترد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم واعلم ان أمر الشيطان ووسوسته عبارة عن هذه الخواطر التى يجدها الانسان فى قلبه وماهية هذه الخواطر حروف وأصوات منتظمة خفية تشبه الكلام فى الخارج ثم ان فاعل هذه الخواطر هو الله تعالى وهو المحدث لها فى باطن الانسان وانما الشيطان كالعرض والله هو المقدر له على ذلك وقد ورد فى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم وانما أقدر على ذلك لايصال هذه الخواطر الى باطن الانسان ۞ قوله عز وجل (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله) هذه قصة مستأنفة والضمير فى لهم يعود الى غير مذكور قال ابن عباس دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود الى الاسلام فقال رافع بن خارجة ومالك بن عوف بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا فهم كانوا خيرا منا وأعلم منا فأنزل الله هذه الآية وقيل ان الآية متصلة بما قبلها والضمير فى لهم يعود الى قوله ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا وهم مشركو العرب قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا يعنى من عبادة الاصنام وقيل بل الضمير فى لهم يعود على قوله يا أيها الناس كلوا مما فى الارض والمعنى واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله يعنى فى تحليل ما حرموا على أنفسهم (قالوا بل نتبع ما ألفينا) يعنى وجدنا (عليه آباءنا) من التحريم والتحليل قال الله تعالى (أولو كان آباؤهم) يعنى الذين يتبعونهم (لا يعقلون شيأ) يعنى لا يعلمون شيأ من أمر الدين لفظه عام ومعناه خاص وذلك انهم كانوا يعقلون أمر الدنيا (ولا يهتدون) أى الى الصواب ثم ضرب لهم مثلا فقال تعالى (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء) النعيق صوت الراعى بالغنم ولا يقال نعق الا للراعى بالغنم وحدها ومعنى الآية ومثلك يا محمد ومثل الكفار فى وعظهم ودعائهم الى الله كمثل الراعى الذى ينعق بالغنم وهى لا تسمع الا الصوت فصار الداعى الى الله وهو الرسول صلى الله عليه وسلم بمنزلة الراعى وصار الكفار بمنزلة الغنم المنعوق بها ووجه المثل أن الغنم تسمع الصوت ولا تفطن للمراد وكذلك الكفار يسمعون صوت الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن لا ينتفعون به وقيل معناه ومثل الذين كفروا فى قلة عقلهم وفهمهم عن الله ورسوله كمثل المنعوق به من البهائم التى لا تفهم من الامر والنهى الا الصوت فيكون المعنى بالمثل المنعوق به خارج عن الناعق وقيل معناه ومثل الذين كفروا فى دعائهم الاصنام التى لا تفقه ولا تعقل كمثل الناعق بالغنم فهو لا ينتفع من نعيقه بشئ غير أنه عنى من الدعاء والنداء فكذلك الكافر ليس له من دعاء الاصنام وعبادتها الا العناء والبلاء والفرق بين هذا القول والقول الذى قبله ان المحذوف هنا هو المدعو وهى الاصنام وفى القول الاول المحذوف هو الداعى وهو الرسول صلى الله عليه وسلم (صم بكم عمى) لما شبههم بالبهائم زاد فى تبكيتهم فقال صم لانهم اذا سمعوا الحق ودعاء الرسول ولم ينتفعوا به

الحق خبر ثالث (فهم لا يعقلون) الموعظ. ثم بين ان ما حرمه المشركون حلال بقوله (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) من مستلذاته
أو من حلالاته (واشكروا الله) (١١٢) الذي رزقكموها (ان كنتم اياه تعبدون) ان صح انكم تخصونه بالعبادة وتقرون أنه معطى النعم

ثم بين المحرم فقال (انما حرم عليكم الميتة) وهي كل ما فارقه الروح من غير ذكاة مما يذبح وانما لاثبات المذكور ونفي ما عداه أي ما حرم عليكم الا الميتة (والدم) يعني السائل لقوله في موضع آخر أو دما مسفوحا وقد حلت الميتتان والدمان بالحديث أحلت لنا ميتتان ودمان السمك والجراد والكبد والطحال (ولحم الخنزير) يعني الخنزير بجميع اجزائه وخص اللحم لانه المقصود بالاكل (وما أهل به لغير الله) أي ذبح للاصنام فذكر عليه غير اسم الله وأصل الاهلال رفع الصوت أي رفع به الصوت للصنم وذلك قول أهل الجاهلية باسم اللات والعزى (فمن اضطر) أي ألجئ بكسر النون بصري وحمزة وعاصم لالتقاء الساكنين أعني النون والضاد وبضمها غيرهم لضمة الطاء (غير) حال أي فأكل غير (باغ) للذة وشهوة (ولا عاد) متعد مقدار الحاجة وقول من قال غير باغ على الامام ولا عاد في سفر حرام ضعيف لان سفر الطاعة لا يبيح بلا ضرورة والحبس بالحضر
يبيح بلا سفر ولان بغيه لا يخرج عن الايمان فلا يستحق الحرمان والمضطر يباح له قدر ما يقع به القوام وتبقى معه الحياة دون ما فيه حصول الشبع لان الاباحة للاضطرار فيقدر بقدر ما تندفع الضرورة (فلا اثم عليه) في الاكل (ان الله غفور) للذنوب الكبائر فأنى يؤاخذ بتناول الميتة عند الاضطرار (رحيم) حيث رخص ونزل في رؤساء اليهود وتغييرهم نعت النبي عليه السلام وأخذهم على ذلك الرشا

صار بمنزلة الاصم الذي لا يسمع يقال لمن لا يسمع ولا يعقل كأنه أصم (بكم) أي عن النطق بالحق (عمي) أي عن طريق الهدى (فهم لا يعقلون) قيل المراد به العقل الكسبي لان العقل الطبيعي كان حاصلا فيهم ﴿ قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) قيل ان الامر في قوله كلوا قد يكون للوجوب كالأكل لحفظ النفس ودفع الضرر عنها وقد يكون للندب كالأكل مع الضيف وقد يكون للاباحة اذا خلا من هذه العوارض والطيب هو الحلال (م) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله طيب ولا يقبل الا الطيب وان الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا وقال يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده الى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك قوله أشعث أغبر هو البعيد العهد بالدهن والغسل والنظافة وقيل الطيب المستلذ من الطعام فلعل قوما تنزهوا عن أكل المستلذ من الطعام فأباح الله تعالى لهم ذلك (واشكروا الله) يعني على نعمه (ان كنتم اياه تعبدون) أي اشكروا الله الذي رزقكم هذه النعم ان كنتم تخصونه بالعبادة وتقرون أنه المكرم لا غيره وقيل ان كنتم عارفين بالله وبنعمه فاشكروه عليها ﴿ قوله عز وجل (انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير) لما أمر الله تعالى في الآية التي تقدمت بأكل الطيبات التي هي الحلالات بين في هذه الآية أنواعا من المحرمات أما الميتة فكل ما فارقته روحه من غير ذكاة مما يذبح وأما الدم فهو الجاري وكانت العرب تجعل الدم في المصارين ثم تشويه وتأكله فحرم الله الدم وأما الخنزير فانه أراد بلحمه جميع أجزائه وانما خص اللحم بالذكر لانه المقصود لذاته بالاكل (وما أهل به لغير الله) يعني وما ذبح للاصنام والطواغيت وأصل الاهلال رفع الصوت وذلك أنهم كانوا يرفعون أصواتهم بذكر آلهتهم اذا ذبحوا لها فجرى ذلك مجرى أمرهم وحالهم حتى قيل لكل ذابح مهل وان لم يجهر بالتسمية (فمن اضطر) يعني الى أكل الميتة وأحوج اليها (غير باغ) أصل البغي الفساد (ولا عاد) أصله من العدوان وهو الظلم ومجاوزة الحد (فلا اثم عليه) أي فأكل فلا اثم عليه أي فلا حرج في أكلها (ان الله غفور) أي لمن أكله في حال الضرورة (رحيم) يعني حيث رخص لعباده في ذلك

﴿فصل في حكم هذه الآية وفيه مسائل﴾ (الاولى في حكم الميتة) أجمعت الامة على تحريم أكل الميتة وأنها نجسة واستثنى الشرع منها السمك والجراد أما السمك فلقوله صلى الله عليه وسلم في البحر هو الطهور ماؤه الحل ميتته أخرجه الجماعة غير البخاري ومسلم قال الترمذي فيه حديث حسن صحيح وأما الجراد فلما روي عن ابن أبي أوفى قال غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات أو ستا وكنا نأكل الجراد ونحن معه أخرجاه في الصحيحين واختلف في السمك الميت الطافي على الماء فقال مالك والشافعي لا بأس به وقال أبو حنيفة وأصحابه والحسن بن صالح بن حي انه مكروه وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال ما طفا من صيد البحر فلا تأكله وعن ابن عباس وجابر بن عبد الله مثله وروي عن أبي بكر الصديق وأبي أيوب اباحته واختلف في الجراد فقال الشافعي وأبو حنيفة لا بأس بأكل الجراد كله ما أخذته وما وجدته ميتا وروى مالك ان ما وجد ميتا فلا يحل وما أخذ حيا فذكاته بأن يقطع رأسه ويشوى فان غفل عنه حتى يموت فلا يحل ﴿المسئلة الثانية في حكم الدم﴾ اتفق العلماء على ان الدم حرام نجس لا يؤكل ولا ينتفع به قال الشافعي تحرم جميع الدماء سواء كان مسفوحا أو غير مسفوح وقال أبو حنيفة دم السمك ليس بحرام قال لانه اذا يبس ابيض واستثنى الشارع من الدم الكبد والطحال روى الدارقطني عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه

عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أحل لنا من الدم دمان ومن الميتة ميتتان الحوت والجراد ومن الدم الكبد والطحال وفي لفظ آخر أحلت لنا ميتتان ودمان فاما الميتتان فالجراد والحوت وأما الدمان فالطحال والكبد أخرجه ابن ماجه وأحمد بن حنبل قال أحمد وعلى بن المديني عبد الرحمن بن زيد ضعيف وأخوه عبد الله بن زيد قوي ثقة وقد أخرج الدارقطني هذا الحديث من رواية عبد الله بن زيد عن أبيه عن ابن عمر مرفوعا ضعف أبو بكر بن العربي هذا الحديث وقال يروى عن عمر بما لا يصح سنده وقال البيهقي يروى هذا الحديث عن ابن عمر موقوفا ومرفوعا والصحيح الموقوف واختلف في تخصيص هذا العموم في الكبد والطحال فقال مالك لا تخصيص لان الكبد والطحال لحم ويشهد لذلك العيان الذي لا يفتقر الى برهان وقال الشافعي هما دمان ويشهد له الحديث فهو تخصيص من العموم ﴿المسئلة الثالثة في الخنزير﴾ أجمعت الامة على أن الخنزير بجميع أجزائه محرم وانما ذكر الله تعالى لحمه لان معظم الانتفاع متعلق به ثم اختلفوا في نجاسته فقال جمهور العلماء انه نجس وقال مالك انه طاهر وكذا كل حيوان عنده لان علة الطهارة هي الحياة وللشافعي قولان في ولوغ الخنزير الجديد أنه كالكلب والقديم يكفي في ولوغه غسلة واحدة والفرق بينهما أن التغليظ في الكلب لان العرب كانت تألفه بخلاف الخنزير وقيل ان التغليظ في الكلب تعبدي لا يعقل معناه فلا يتعدى الى غيره ﴿المسئلة الرابعة في حكم قوله وما أهل به لغير الله﴾ من الناس من زعم ان المراد بذلك ذبائح عبدة الاوثان التي كانوا يذبحونها لاصنامهم وأجاز ذبيحة النصارى اذا سمى عليها باسم المسيح وهو مذهب عطاء ومكحول والحسن والشعبي وسعيد بن المسيب لعموم قوله وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وقال مالك والشافعي وأبو حنيفة لا يحل ذلك والحجة فيه أنهم اذا ذبحوا على اسم المسيح فقد أهلوا به لغير الله فوجب أن يحرم وروى عن علي بن أبي طالب أنه قال اذا سمعتم اليهود والنصارى يهلون لغير الله فلا تأكلوا واذا لم تسمعوهم فكلوا فان الله قد أحل ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون ﴿المسئلة الخامسة في حكم المضطر﴾ المضطر هو المكلف بالشئ الملجأ اليه المكره عليه والمراد بالمضطر في قوله فمن اضطر أي خاف التلف حتى قيل من اضطر الى أكل الميتة فلم يأكل منها حتى مات دخل النار والمضطر على ثلاثة أقسام اما باكراه أو بجوع في مخمصة أو بفقر لا يجد شيأ البتة فان التحريم يرتفع مع وجود هذه الاقسام بحكم الاستثناء في قوله فلا اثم عليه وتباح له الميتة فاما الاكراه فيبيح ذلك الى زوال الاكراه وأما المخمصة فلا يخلو ان كانت دائمة فلا خلاف في جواز الشبع منها وان كانت نادرة فاختلف العلماء فيه وللشافعي قولان أحدهما أنه يأكل ما يسد به الرمق وبه قال أبو حنيفة والثاني يأكل قدر الشبع وبه قال مالك ﴿المسئلة السادسة في قوله غير باغ ولا عاد﴾ قال ابن عباس معنى غير باغ غير خارج على السلطان ولا عاد أي معتد يعني العاصي بسفره بان يخرج لقطع الطريق أو أبق من مولاه فلا يجوز للعاصي بسفره أن يأكل من الميتة اذا اضطر اليها ولا يترخص برخص المسافر حتى يتوب وبه قال الشافعي لان اباحة الميتة له اعانة له على فساده وذهب قوم الى أن البغي والعدوان يرجعان الى الاكل وبه قال أبو حنيفة وأباح أكل الميتة للمضطر وان كان عاصيا وقيل في معنى قوله غير باغ أي غير طالب الميتة وهو يجد غيرها ولا عاد أي غير متعد ما حد له وقيل غير مستحل لها ولا متزود منها ﴿قوله عز وجل (ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب)﴾ نزلت في رؤساء اليهود وعلمائهم وذلك أنهم كانوا يصيبون من سفلتهم الهدايا والمآكل وكانوا يرجون أن يكون النبي المبعوث منهم فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم وهو من غيرهم خافوا على ذهاب مآكلهم وزوال رياستهم فعمدوا الى صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتموها فانزل الله ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب أي في الكتاب من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونعته ووقت نبوته هذا قول المفسرين قال الامام فخر الدين الرازي وعند المتكلمين هذا ممتنع لان التوراة والانجيل قد بلغا من الشهرة والتواتر الى حيث تعذر ذلك فيهما بل كانوا يكتمون التأويل لانه قد كان منهم من يعرف الآيات الدالة على نبوة

(ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب) في صفة محمد عليه السلام

(و يشترون به ثمنا قليلا) أى عوضا أوذا ثمن (أولئك ما يأكلون فى بطونهم) ملء بطونهم تقول أكل فلان فى بطنه وأكل فى بعض بطنه (الا النار) لانه اذا أكل ما يتلبس بالنار لكونها عقوبة عليه فكأنه أكل النار ومنه قولهم أكل فلان الدم اذا أكل الدية التى هى بدل منه قال ٭ يأكلن كل ليلة اكافا ٭ أى ثمن اكاف فسماه اكافا لتلبسه به لكونه ثمناله (ولا يكلمهم الله يوم القيامة) كلام ما يسرهم ولكن بنحو قوله اخسؤا فيها ولا تكلمون (ولا يزكيهم) ولا يطهرهم من دنس ذنوبهم أو لا يثنى عليهم (ولهم عذاب أليم) مؤلم لحرف النفى مع الفعل خبر أولئك والجمل الثلاث معطوفة على خبر ان فقد صار لان أربعة أخبار من الجمل (أولئك الذين وأولئك مع خبره خبر ان اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة) بكتمان نعت محمد عليه السلام (فما أصبرهم على النار) فأى شئ أصبرهم على عمل يؤدى الى النار وهذا استفهام معناه التوبيخ (ذلك بان الله نزل الكتاب بالحق) أى ذلك العذاب بسبب ان الله نزل ما نزل من الكتب بالحق (وان الذين اختلفوا) أى أهل الكتاب (فى الكتاب) هو للجنس أى فى كتب الله فقالوا فى بعضها حق وفى بعضها باطل (لفى شقاق) خلاف (بعيد) عن الحق أو كفرهم ذلك بسبب ان الله نزل القرآن بالحق كما يعلمون وان الذين اختلفوا فيه لفى شقاق بعيد عن الهدى (ليس البر أن تولوا) أى ليس البر توليتكم (وجوهكم قبل المشرق والمغرب) والخطاب لاهل الكتاب لان قبلة النصارى مشرق بيت المقدس وقبلة اليهود مغربه وكل واحد من الفريقين يزعم ان البر التوجه الى قبلته فرد عليهم بان البر ليس فيما أنتم عليه فانه منسوخ (ولكن البر) بر (من آمن بالله) قيل أو ذا البر من آمن والقولان على حذف المضاف والاول أجود والبر اسم للخير ولكل فعل مرضى وقيل كثر خوض المسلمين وأهل الكتاب فى أمر القبلة فقيل ليس البر العظيم الذى يجب أن تذهلوا بشأنه عن سائر صنوف البر أمر القبلة ولكن البر الذى يجب الاهتمام به بر من آمن وقام بهذه الاعمال ليس البر بالنصب على أنه خبر ليس واسمه أن تولوا حمزة وحفص ولكن البر نافع وشامى وعن المبرد لو كنت ممن يقرأ القرآن لقرأت ولكن البر بفتح الباء (والملائكة والكتاب) أى يوم البعث (واليوم الآخر) أى جنس كتب الله أو القرآن

محمد صلى الله عليه وسلم فكانوا يذكرون لها تأويلات باطلة ويصرفونها عن محاملها الصحيحة الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فهذا هو المراد بالكتمان فيصير المعنى ان الذين يكتمون معانى ما أنزل الله من الكتاب (و يشترون به) أى بالكتمان وقيل يعود الضمير الى ما أنزل الله من الكتاب (ثمنا قليلا) أى عوضا يسيرا وهى المآكل التى كانوا يأخذونها من سفلتهم (أولئك ما يأكلون فى بطونهم الا النار) يعنى ما يؤديهم الى النار وهو الرشا والحرام فلما كان يفضى بهم ذلك الى النار فكأنهم أكلوها (ولا يكلمهم الله يوم القيامة) أى كلام رحمة وما يسرهم بل يكلمهم بالتوبيخ وهو قوله اخسؤا فيها وقيل أراد به الغضب يقال فلان لا يكلم فلانا اذا غضب عليه (ولا يزكيهم) أى ولا يطهرهم من دنس الذنوب (ولهم عذاب أليم) أى وجيع يصل ألمه الى قلوبهم (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة) معناه انهم اختاروا الضلالة على الهدى واختاروا العذاب على المغفرة لانهم كانوا عالمين بالحق ولكن كتموه وأخفوه وكان فى اظهاره الهدى والمغفرة وفى كتمانه الضلالة والعذاب فلما أقدموا على اخفاء الحق وكتمانه كانوا بائعين الهدى بالضلالة والمغفرة بالعذاب (فما أصبرهم على النار) أى ما الذى صبرهم وأى شئ جسرهم على النار حتى تركوا الحق واتبعوا الباطل فهو استفهام بمعنى التوبيخ وقيل انه بمعنى التعجب من حالهم فى التباسهم بموجبات النار من غير مبالاة منهم فلما أقدموا على ما يوجب النار مع علمهم بذلك صاروا كالراضين بالعذاب والصابرين عليه تعجب من حالهم بقوله فما أصبرهم على النار (ذلك بان الله نزل الكتاب) يعنى ذلك العذاب بسبب أن الله نزل الكتاب (بالحق) فكفروا به وأنكروه وقيل معناه فعلنا بهم ذلك لان الله أنزل الكتاب بالحق فحرفوه فعلى هذا يكون المراد بالكتاب التوراة (وان الذين اختلفوا فى الكتاب) يعنى اختلفوا فى معانيه وتأويله فحرفوها و بدلوها وقيل آمنوا ببعض وكفروا ببعض (لفى شقاق) أى خلاف ومنازعة (بعيد) يعنى عن الحق ۞ قوله عز وجل (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) هذا خطاب لاهل الكتاب لان النصارى تصلى قبل المشرق واليهود قبل المغرب الى بيت المقدس وزعم كل طائفة منهم ان البر فى ذلك فاخبر الله تعالى ان البر ليس فيما زعموا ولكن فيما بيناه فى هذه الآية وقال ابن عباس هو خطاب للمؤمنين وذلك ان الرجل كان فى ابتداء الاسلام اذا أتى بالشهادتين وصلى الى أى جهة كانت ثم مات على ذلك وجبت له الجنة فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلت الفرائض وصرفت القبلة الى الكعبة أنزل الله هذه الآية فقال تعالى ليس البر أن تولوا وجوهكم أى فى صلاتكم قبل المشرق والمغرب ولا تعملوا ذلك (ولكن البر) يعنى ما بينته لكم والبر اسم جامع لكل الطاعات وأعمال الخير المقربة الى الله الموجبة للثواب والمؤدية الى الجنة ثم بين خصال البر فقال تعالى (من آمن بالله) أى ولكن من البر من آمن بالله فالمراد بالبر هنا الايمان بالله والتقوى من الله (واليوم الآخر) وانما ذكر الايمان باليوم الآخر لان عبدة الاوثان كانوا ينكرون البعث بعد الموت (والملائكة) أى ومن البر الايمان بالملائكة كلهم لان اليهود قالوا ان جبريل عدونا (والكتاب)

(والنبيين وآتى المال على حبه) أى على حب الله أو حب المال أو حب الايتاء يريد ان يعطيه وهو طيب النفس باعطائه (ذوى القربى)
اى القرابة وقدمهم لانهم أحق قال عليه الصلاة والسلام صدقتك على المسكين صدقة وعلى ذوى رحمك صدقة وصلة

قيل أراد به القرآن وقيل جميع الكتب المنزلة لسياق مابعده وهو قوله (والنبيين) يعنى أجمع وانما خص الايمان بهذه الامور الخمسة لانه يدخل تحت كل واحد منها أشياء كثيرة مما يلزم المؤمن أن يصدق بها (وآتى المال على حبه) يعنى من أعمال البر ايتاء المال على حبه قيل ان الضمير راجع الى المال فالتقدير على هذا وآتى المال على حب المال (ق) عن أبى هريرة قال جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله أى الصدقة أعظم أجرا قال أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى اذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان قوله حتى اذا بلغت الحلقوم يعنى الروح وان لم يتقدم لها ذكر وقوله لفلان كذا هو كناية عن الموصى له وقوله وقد كان لفلان كناية عن الوارث وقيل الضمير فى حبه راجع الى الله تعالى أى وآتى المال على حب الله وطلب مرضاته (ذوى القربى) يعنى أهل قرابة المعطى وانما قدمهم لانهم أحق بالاعطاء * عن سلمان بن عامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذوى الرحم ثنتان صدقة وصلة أخرجه النسائى (ق) ان ميمونة رضى الله عنها أعتقت وليدة ولم تستأذن النبى صلى الله عليه وسلم فلما كان يومها الذى يدور عليها فيه قالت أشعرت يارسول الله انى أعتقت وليدتى قال أوقد فعلت قالت نعم قال أما انك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لاجرك الوليدة الجارية (واليتامى) اليتيم هو الذى لا أب له مع الصغر وقيل يقع على الصغير والبالغ أى وآتى الفقراء من اليتامى (والمساكين) جمع مسكين سمى بذلك لانه دائم السكون الى الناس لانه لا شئ له (وابن السبيل) يعنى المسافر المنقطع عن أهله سمى المسافر ابن السبيل لملازمته الطريق وقيل هو الضيف ينزل بالرجل لانه انما وصل اليه من السبيل وهو الطريق والاول أشبه لان ابن السبيل اسم جامع جعل للمسافر (والسائلين) يعنى الطالبين المستطعمين * عن على بن أبى طالب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للسائل حق ولو جاء على فرس أخرجه أبو داود عن زيد بن أسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أعطوا السائل ولو جاء على فرس أخرجه مالك فى الموطأ عن أم بجيد قالت قلت يارسول الله ان المسكين ليقوم على بابى فلم أجد شيأ أعطيه اياه قال ان لم تجدى الا ظلفا محرقا فادفعيه اليه فى يده أخرجه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن صحيح وفى رواية مالك فى الموطأ عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ردوا المسكين ولو بظلف محرق قوله ردوا المسكين لم يرد به رد الحرمان وانما أراد به ردوه بشئ تعطونه اياه ولو كان ظلفا وهو خف الشاة وفى كونه محرقا مبالغة فى قلة مايعطى (وفى الرقاب) يعنى المكاتبين وقيل هو فك النسمة وعتق الرقبة وفداء الاسارى (وأقام الصلوة) يعنى المفروضة فى أوقاتها (وآتى الزكوة) يعنى الواجبة (والموفون بعهدهم) يعنى ما أخذه الله من العهود على عباده بالقيام بحدوده والعمل بطاعته وقيل أراد بالعهد ما يجعله الانسان على نفسه ابتداء من نذر وغيره وقيل العهد الذى كان بينه و بين الناس مثل الوفاء بالمواعيد وأداء الامانات (اذا عاهدوا) يعنى اذا وعدوا أنجزوا واذا نذروا أوفوا واذا حلفوا بروا فى ايمانهم واذا قالوا صدقوا فى أقوالهم واذا ائتمنوا أدوا (والصابرين فى البأساء) أى فى الشدة والفقر والفاقة (والضراء) يعنى المرض والزمانة (وحين البأس) يعنى القتال والحرب فى سبيل الله وسمى الحرب بأسا لما فيه من الشدة (ق) عن البراء قال كنا والله اذا احمر البأس نتقى به وان الشجاع منا الذى يحاذى به يعنى النبى صلى الله عليه وسلم قوله احمر البأس أى اشتد الحرب ونتقى به أى نجعله وقاية لنا من العدو (أولئك الذين صدقوا) أى أهل هذه الاوصاف هم الذين صدقوا فى ايمانهم (وأولئك هم المتقون) ۞ قوله عز وجل

(واليتامى) والمراد الفقراء من ذوى القربى واليتامى وانما أطلق لعدم الالباس (والمساكين) المسكين الدائم السكون الى الناس لانه لا شئ له كالمسكير للدائم السكر (وابن السبيل) المسافر المنقطع وهو جنس وان كان مفردا لفظا وجعل ابنا للسبيل لملازمته له أو الضيف (والسائلين) المستطعمين (وفى الرقاب) وفى معاونة المكاتبين حتى يفكوا رقابهم أو فى فك الاسارى (وأقام الصلاة) المكتوبة (وآتى الزكاة) المفروضة قيل هو تأكيد للاول وقيل المراد بالاول نوافل الصدقات والمبار (والموفون) عطف على من آمن (بعهدهم اذا عاهدوا) الله أو الناس (والصابرين) نصب على المدح والاختصاص اظهارا لفضل الصبر فى الشدائد ومواطن القتال على سائر الاعمال (فى البأساء) الفقر والشدة (والضراء) المرض والزمانة (وحين البأس) وقت القتال (أولئك الذين صدقوا) أى أهل هذه الصفة هم

الذين صدقوا فى الدين (وأولئك هم المتقون) روى انه كان بين حيين من أحياء العرب دماء فى الجاهلية وكان لاحدهما طول على الآخر فاقسموا لنقتلن الحر منكم بالعبد والذكر بالانثى والاثنين فتحاكموا [illegible] الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جاء الله بالاسلام فنزل

(يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى) نزلت فى حيين من أحياء العرب اقتتلوا فى الجاهلية بسبب قتيل فكانت بينهم قتلى وحروب وجراحات كثيرة ولم يأخذ بعضهم من بعض حتى جاء الاسلام وقيل نزلت فى الاوس والخزرج وكان لاحد الحيين طول على الآخر فى الكثرة والشرف وكانوا ينكحون نساءهم بغير مهر وأقسموا لنقتلن بالعبد منا الحر منهم و بالمرأة منا الرجل منهم و بالرجل منا الرجلين وجعلوا جراحاتهم ضعفى جراحات أولئك فرفعوا أمرهم الى النبى صلى الله عليه وسلم فانزل الله هذه الآية وأمره بالمساواة فرضوا وسلموا وقيل انما نزلت هذه الآية لازالة الاحكام التى كانت قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم وذلك أن اليهود كانوا يوجبون القتل فقط بلا عفو والنصارى يوجبون العفو بلا قتل والعرب فى الجاهلية كانوا يوجبون القتل تارة و يوجبون أخذ الدية تارة وكانوا يتعدون فى الحكمين فان وقع القتل على شريف قتلوا به عددا و يأخذون دية الشريف أضعاف دية الخسيس فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم أوجب الله رعاية العدل وسوى بين عباده فى حكم القصاص فانزل الله تعالى يأيها الذين آمنوا كتب عليكم أى فرض عليكم القصاص فى القتلى فان قلت كيف يكون القصاص فرضا والولى مخير فيه بين العفو والقصاص وأخذ الدية قلت ان القصاص فرض على القاتل للولى لا على الولى وقيل اذا أريد تم القصاص فقد فرض عليكم والقصاص المساواة والمماثلة فى القتل والدية والجراح من قص الاثر اذا اتبعه فالمفعول به يتبع ما فعل فيفعل به مثل ذلك فلو قتل رجل رجلا بعصا أو خنقه أو شدخ رأسه بحجر فانه يقتل القاتل بمثل الذى قتل به وهو قول مالك والشافعى واحدى الروايتين عن أحمد وقيل يقتل بالسيف وهو قول أبى حنيفة والرواية الثانية عن أحمد (الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى) ومعناه انه اذا تكافأ الدمان من الاحرار المسلمين أو العبيد من المسلمين أو الاحرار من المعاهدين أو العبيد منهم فيقتل كل صنف اذا قتل بمثله الذكر بالذكر والانثى بالانثى و بالذكر ولا يقتل مؤمن بكافر ولا حر بعبد ولا والد بولد و يقتل الذمى بالمسلم والعبد بالحر والولد بالوالد هذا مذهب مالك والشافعى وأحمد و يدل عليه ما روى البخارى فى صحيحه عن أبى جحيفة قال سألت عليا هل عندكم من النبى صلى الله عليه وسلم شئ سوى القرآن قال لا والذى فلق الحبة و برأ النسمة الا أن يؤتى الله عبدا فهما فى القرآن وما فى هذه الصحيفة قلت وما فى هذه الصحيفة قال العقل وفك الاسير وأن لا يقتل مؤمن بكافر وقد أخرج مسلم عن على نحو هذا من غير رواية أبى جحيفة العقل هنا هو الدية والعاقلة الجماعة من أولياء القاتل الذين يعقلون عن ابن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا تقام الحدود فى المساجد ولا يقتل الوالد بالولد أخرجه الترمذى وذهب أصحاب الرأى الى ان المسلم يقتل بالذمى والحر بالعبد وهذه الآية مع الاحاديث حجة لمذهب الشافعى ومن وافقه و يقولون هى مفسرة لما أبهم فى قوله النفس بالنفس وان تلك واردة لحكاية ما كتب على بنى اسرائيل فى التوراة وهذه الآية خطاب للمسلمين بما كتب عليهم وذهب أصحاب الرأى الى أن هذه منسوخة بقوله النفس بالنفس وتقتل الجماعة بالواحد يدل عليه ما روى البخارى فى صحيحه عن ابن عمر ان غلاما قتل غيلة فقال عمر لو اشترك فيه أهل صنعاء لقتلتهم به قال البخارى وقال مغيرة بن حكيم عن أبيه ان أربعة قتلوا صبيا فقال عمر مثله و روى مالك فى الموطأ عن ابن المسيب ان عمر قتل نفرا خمسة وسبعة برجل واحد قتلوه غيلة وقال لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم جميعا الغيلة ان يقتل الرجل خديعة ومكرا من غير أن يعلم ما يراد به وقوله لو تمالأ أى تعاونوا واجتمعوا عليه ۞ وقوله تعالى (فمن عفى له من أخيه شئ) أى ترك له وصفح عنه من الواجب عليه وهو القصاص فى قتل العمد و رضى بالدية أو العفو عنها أو قبول الدية فى قتل العمد من أخيه أى من دم أخيه وأراد بالاخ ولى المقتول وانما قيل له أخ لانه لابسه من قبل انه ولى الدم والمطالب به وقيل انما ذكره بلفظ الاخوة ليعطف أحدهما على صاحبه بما هو ثابت بينهما من الجنسية

(يأيها الذين آمنوا كتب) أى فرض (عليكم القصاص) وهو عبارة عن المساواة وأصله من قص أثره واقتصه اذا اتبعه ومنه القاص لانه يتبع الآثار والاخبار (فى القتلى) جمع قتيل والمعنى فرض عليكم اعتبار المماثلة والمساواة بين القتلى (الحر بالحر) مبتدأ وخبر أى الحر مأخوذ أو مقتول بالحر (والعبد بالعبد والانثى بالانثى) وقال الشافعى رحمه الله لا يقتل الحر بالعبد لهذا النص وعندنا يجرى القصاص بين الحر والعبد بقوله تعالى ان النفس بالنفس كما بين الذكر والانثى و بقوله عليه السلام المسلمون تتكافأ دماؤهم و بان التفاضل غير معتبر فى الانفس بدليل ان جماعة لو قتلوا واحدا قتلوا به و بان تخصيص الحكم بنوع لا ينفيه عن نوع آخر بل يبقى الحكم فيه موقوفا على ورود دليل آخر وقد ورد كما بينا (فمن عفى له من أخيه شئ

(فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان) قالوا العفو ضد العقوبة يقال عفوت عن فلان اذا صفحت عنه وأعرضت عن أن تعاقبه وهو يتعدى بعن الى الجانى والى الجناية ثم عفونا عنكم و يعفوعن السيئات واذا اجتمعا عدى الى الاول باللام فتقول عفوت له عن ذنبه ومنه الحديث عفوت لكم عن صدقة الخيل والرقيق وقال الزجاج من عفى له أى من ترك له القتل بالدية وقال الازهرى العفو فى اللغة الفضل ومنه يسألونك ماذا ينفقون قل العفو ويقال عفوت لفلان بمال اذا أفضلت له وأعطيته وعفوت له عن مالى عليه اذا تركته ومعنى الآية عند الجمهور فمن عفى له من جهة أخيه شئ من العفو على أن الفعل مسند الى المصدر كمافى سير بزيد بعض السير والاخ ولى المقتول وذكر بلفظ الاخوة بعثاله على العطف لما بينهما من الجنسية والاسلام ومن هو القاتل المعفو له عما جنى وترك المفعول الآخر استغناء عنه وقيل أقيم له مقام عنه والضمير فى له وأخيه لمن وفى اليه للاخ أو للتبع الدال عليه فاتباع لان المعنى فليتبع الطالب القاتل بالمعروف بان يطالبه مطالبة جميلة وليؤد اليه المطلوب أى القاتل بدل الدم أداء باحسان بان لا يمطله ولا يبخسه وانما قيل شئ من العفو ليعلم أنه اذا عفا عن بعض الدم أو عفا عنه بعض الورثة تم العفو وسقط القصاص ومن فسر عفى بترك جعل شئ مفعولا به وكذا من فسره باعطى يعنى أن الولى اذا أعطى له شئ من مال أخيه يعنى القاتل بطريق الصلح فليأخذه بمعروف من غير تعنيف وليؤده القاتل اليه بلا تسويف وارتفاع اتباع بانه خبر مبتدأ مضمر أى فالواجب اتباع (ذلك) الحكم المذكور من العفو وأخذ الدية (تخفيف من ربكم ورحمة) فانه كان فى التوراة القتل لاغير وفى الانجيل العفو بغير بدل لاغير وأبيح لنا القصاص والعفو وأخذ المال بطريق الصلح توسعة وتيسيرا والآية تدل على أن صاحب الكبيرة مؤمن للوصف بالايمان بعد وجود القتل ولبقاء الاخوة الثابتة بالايمان ولاستحقاق التخفيف والرحمة (فمن اعتدى بعد ذلك) التخفيف فتجاوز ما شرع له من قتل غير القاتل أو القتل بعد أخذ الدية (فله عذاب أليم) نوع من العذاب شديد الالم فى الآخرة (ولكم فى القصاص حياة) كلام فصيح لما فيه من الغرابة اذ القصاص قتل وتفويت للحياة وقد جعل ظرفا للحياة وفى تعريف القصاص وتنكير الحياة بلاغة بينة لان المعنى ولكم فى هذا الجنس من الحكم الذى هو القصاص حياة عظيمة لمنعه عما كانوا عليه من قتل الجماعة بواحد متى اقتدروا فكان القصاص حياة وأى حياة أو نوع من الحياة وهى الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل لوقوع العلم بالقصاص من القاتل لانه اذا هم بالقتل فتذكر الاقتصاص ارتدع فسلم صاحبه من القتل وهو من القود فكان شرع القصاص سبب حياة نفسين (ياأولى الالباب) ياذوى العقول

وأخوة الاسلام وفى قوله شئ دليل على ان بعض الاولياء اذا عفا سقط القود وثبتت الدية لان شيأ من الدم قد بطل (فاتباع بالمعروف) اى فليتبع الولى القاتل بالمعروف فلا يأخذ أكثر من حقه ولا يعنفه (وأداء اليه باحسان) أى على القاتل أداء الدية الى ولى الدم من غير مماطلة أمر كل واحد منهما بالاحسان فيما له وعليه وقيل فى تقدير الآية واذا عفا ولى الدم عن شئ يتعلق بالقاتل وهو وجوب القصاص فليتبع القاتل ذلك العفو بمعروف وليؤد ما وجب عليه من الدية الى ولى الدم باحسان من غير مطل ولا مدافعة وفى الآية دليل على أن القاتل لا يصير كافرا وان الفاسق مؤمن ووجه ذلك من وجوه الاول أن الله تعالى خاطبه بعد القتل بالايمان وسماه مؤمنا بقوله ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فسماه مؤمنا حال ما وجب عليه من القصاص وانما وجب عليه بعد صدور القتل منه وقتل العمد والعدوان من الكبائر بالاجماع فدل على أن صاحب الكبيرة مؤمن الوجه الثانى أنه تعالى أثبت الاخوة بين القاتل وولى الدم بقوله فمن عفى له من أخيه شئ وأراد بالاخوة أخوة الايمان فلولا أن الايمان باق على القاتل لم تثبت له الاخوة الوجه الثالث أنه تعالى ندب الى العفو عن القاتل والعفو لا يليق الا عن المؤمن لا عن الكافر ۞ وقوله تعالى (ذلك تخفيف من ربكم ورحمة) يعنى الذى ذكر من الحكم بشرع القصاص والعفو عن القصاص وأخذ الدية تخفيف من ربكم يعنى فى حقكم ورحمة وذلك لان العفو وأخذ الدية كان حراما على اليهود وكان القصاص حتما فى التوراة وكان فى شرع النصارى أخذ الدية ولم يكتب عليهم القصاص وقيل كان عليهم العفو دون القصاص وأخذ الدية فخير الله هذه الامة بين القصاص أو العفو وأخذ الدية توسعة عليهم وتيسيرا وتفضيلا لهم على غيرهم (فمن اعتدى بعد ذلك) يعنى بعد هذا التخفيف فقتل الجانى بعد العفو أو قبول الدية (فله عذاب أليم) وهو أن يقتل قصاصا ولا تقبل منه دية ولا يعفى عنه وقيل المراد بالعذاب الاليم عذاب الآخرة ۞ قوله عز وجل (ولكم فى القصاص حياة) أى بقاء وذلك ان القاصد للقتل اذا علم انه اذا قتل قتل ترك القتل وامتنع عنه فيكون فيه بقاؤه وبقاء من هم بقتله وقيل ان نفس القصاص سبب للحياة وذلك ان القاتل اذا اقتص منه ارتدع غيره ممن كان يهم بالقتل واعلم ان هذا الحكم ليس مختصا بالقصاص الذى هو القتل بل يدخل فيه جميع الجراح والشجاج وغير ذلك وذلك لان الجارح اذا علم انه اذا جرح جرح لم يجرح فيصير ذلك سببا لبقاء الجارح والمجروح وربما أفضت الجراحة الى الموت فيقتص من الجارح وقيل فى معنى الآية ان الحياة سلامته من قصاص الآخرة فانه اذا اقتص منه فى الدنيا لم يقتص منه فى الآخرة وفى ذلك حياته واذا لم يقتص منه فى الدنيا اقتص منه فى الآخرة (ياأولى الالباب) أى ياذوى العقول الذين يعرفون الصواب

لان العاقل لا يريد اتلاف نفسه باتلاف غيره (لعلكم تتقون) يعني لعلكم تنتهون عن القتل خوف القصاص ۞ قوله عز وجل (كتب) أي فرض وأوجب (عليكم اذا حضر أحدكم الموت) أي قرب ودنا منه وظهرت آثاره علية من العلل والامراض المخوفة وليس المراد منه معاينة الموت لانه في ذلك الوقت يعجز عن الايصاء (ان ترك خيرا) يعني مالا قيل يطلق على القليل والكثير وهو قول الزهري فتجب الوصية في الكل وقيل ان لفظة الخير لا تطلق الا على المال الكثير وهو قول الاكثرين واختلفوا في مقدار الكثير الذي تقع فيه الوصية فقيل ألف درهم فما زاد عليها وقيل سبعمائة فما فوقها وقيل ستون دينارا فما فوقها وقيل انه من خمسمائة الى ألف وقيل انه المال الكثير الفاضل عن العيال وروى أن رجلا قال لعائشة اني أريد أن أوصي فقالت كم مالك قال ثلاثة آلاف درهم قالت كم عيالك قال أربعة قالت انما قال الله ان ترك خيرا وهذا شيء يسير فاتركه لعيالك (الوصية) أي الايصاء والوصية التقدم الى الغير بما يعمل به وقيل هي القول المبين لما يستأنف من العمل والقيام به بعد الموت (للوالدين والاقربين) كانت الوصية في ابتداء الاسلام فريضة للوالدين والاقربين على من مات وله مال وسبب ذلك ان أهل الجاهلية كانوا يوصون للأبعدين طلبا للفخر والشرف والرياء ويتركون الاقربين فقراء فأوجب الله تعالى الوصية للاقربين ثم نسخت هذه الآية بآية المواريث وبما روى عن عمرو بن خارجة قال كنت آخذا بزمام ناقة النبي صلى الله عليه وسلم وهو يخطب فسمعته يقول ان الله أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث أخرجه النسائي والترمذي نحوه وذهب ابن عباس الى ان وجوبها صار منسوخا في حق من يرث وبقي وجوبها في حق من لا يرث من الوالدين والاقربين وهو قول الحسن ومسروق وطاوس والضحاك ومسلم بن يسار وحجة هؤلاء ان الآية دالة على وجوب الوصية للوالدين والاقربين ثم نسخ ذلك الوجوب في حق من يرث بآية الميراث وبالحديث المذكور فوجب أن تبقى الآية دالة على وجوب الوصية للقريب الذي لا يرث فعلى قول هؤلاء النسخ يتناول بعض أحكام الآية وذهب الاكثرون من المفسرين والعلماء وفقهاء الحجاز والعراق الى ان وجوبها صار منسوخا في حق الكافة وهي مستحبة في حق من لا يرث ويدل على استحباب الوصية والحث عليها ما روى عن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه وفي رواية له شيء يريد أن يوصي به أن يبيت ليلتين وفي رواية ثلاث ليال الا ووصيته مكتوبة عنده قال نافع سمعت عبد الله بن عمر يقول ما مرت علي ليلة منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك الا ووصيتي مكتوبة عندي أخرجه الجماعة قوله ما حق امرئ الحق يشتمل معناه على الوجوب والندب والحث فيحمل هنا على الحث في الوصية لانه لا يدري متى يأتيه الموت فربما أتاه بغتة فيمنعه عن الوصية وقوله تعالى (بالمعروف) أي بالعدل الذي لا وكس فيه ولا شطط فلا يزيد على الثلث ولا يوصي للغني ويدع الفقير (ق) عن سعد بن أبي وقاص قال جاءني رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودني عام حجة الوداع من وجع اشتد بي فقلت يارسول الله اني قد بلغ بي من الوجع ما ترى وأنا ذو مال ولا يرثني الا ابنة لي أفأتصدق بثلثي مالي قال لا قلت فالشطر يارسول الله قال لا قلت فالثلث قال الثلث والثلث كثير أو قال والثلث كبير انك ان تذر ذريتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس العالة الفقراء وقوله يتكففون الناس التكفف المسئلة من الناس كأنه من الطلب بالاكف (ق) عن ابن عباس قال في الوصية لو ان الناس غضوا من الثلث الى الربع فان النبي صلى الله عليه وسلم قال لسعد والثلث كثير وقال علي بن أبي طالب لان أوصي بالخمس أحب الي من أن أوصي بالربع ولان أوصي بالربع أحب الي من أن أوصي بالثلث فمن أوصى بالثلث فلم يترك وقيل يوصي بالسدس أو بالخمس أو الربع (حقا) أي ثابتا ثبوت ندب لا ثبوت فرض ووجوب (على المتقين) أي على المؤمنين الذين يتقون الشرك (فمن بدله) أي غير الوصية من الاولياء والاوصياء وذلك التغيير يكون اما في الكتابة أو في قسمة

الحقوق

(لعلكم تتقون) القتل حذرا من القصاص (كتب) فرض (عليكم اذا حضر أحدكم الموت) أي اذا دنا منه فظهرت أماراته (ان ترك خيرا) مالا كثيرا لما روي عن علي رضي الله عنه ان مولى له أراد أن يوصي وله سبعمائة فمنعه وقال قال الله تعالى ان ترك خيرا والخير هو المال الكثير وليس لك مال وفاعل كتب (الوصية للوالدين والاقربين) وكانت الوصية للوارث في بدء الاسلام فنسخت بآية المواريث كما بيناه في شرح المنار وقيل هي غير منسوخة لانها نزلت في حق من ليس بوارث بسبب الكفر لانهم كانوا حديثي عهد بالاسلام يسلم الرجل ولا يسلم أبواه وقرابته والاسلام قطع الارث فشرعت الوصية فيما بينهم قضاء لحق القرابة ندبا وعلى هذا الايراد بكتب فرض (بالمعروف) بالعدل وهو أن لا يوصي للغني ويدع الفقير ولا يتجاوز الثلث (حقا) مصدر مؤكد أي حق ذلك حقا (على المتقين) على الذين يتقون الشرك (فمن بدله) فمن غير الايصاء عن وجهه ان كان موافقا للشرع من الاوصياء والشهود

الحقوق أو الشهود بان يكتموا الشهادة أو يغيروها وانما ذكر الكناية فى بدله مع ان الوصية مؤنثة لان الوصية بمعنى الايصاء كقوله فمن جاءه موعظة أى وعظ والتقدير فمن بدل قول الميت أو ما أوصى به (بعد ماسمعه) أى من الموصى وتحققه (فانما اثمه على الذين يبدلونه) أى ان اثم ذلك التبديل لا يعود الا على المبدل والموصى والموصى له بريئان منه (ان الله سميع) يعنى لما أوصى به الموصى (عليم) يعنى بتبديل المبدل (فمن خاف) أى علم وهو خطاب عام لجميع المسلمين (من موص جنفا) يعنى جورا فى الوصية وعدولا عن الحق والجنف الميل (أو اثما) أى ظلما (فاصلح بينهم) وقيل الجنف الخطا فى الوصية والاثم العمد وقيل فى معنى الآية انه اذا حضر رجل مريضا وهو يوصى فرآه يميل فى وصيته اما بتقصير أو اسراف أو وضع الوصية فى غير موضعها فلا حرج عليه ان يامره بالعدل فى وصيته وينهاه عن الجنف والميل وقيل انه أراد به اذا أخطأ الميت فى وصيته أو حاف متعمدا فلا حرج على وليه أو وصيه أو ولى أمور المسلمين ان يصلح بعد موته بين ورثته وبين الموصى لهم ويرد الوصية الى العدل والحق (فلا اثم عليه) أى فلا حرج عليه فى الصلح (ان الله غفور رحيم) أى لمن أصلح وصيته بعد الجنف والميل (خ) عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الرجل والمرأة ليعملان بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرهما الموت فيضاران فى الوصية فتجب لهما النار ثم قرأ أبو هريرة من بعد وصية يوصى بها أو دين الى قوله ذلك الفوز العظيم أخرجه أبو داود والترمذى قوله فيضاران المضارة ايصال الضرر الى شخص ومعنى المضارة فى الوصية أن لا تمضى أو ينقص بعضها أو يوصى لغير أهلها أو يحيف فى الوصية ونحو ذلك ۞ قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا كتب) أى فرض (عليكم الصيام) والصوم فى اللغة الامساك يقال صام النهار اذا اعتدل وقام قائم الظهيرة ومنه قوله تعالى انى نذرت للرحمن صوما أى صمتا لانه امساك عن الكلام والصوم فى الشرع عبارة عن الامساك عن الاكل والشرب والجماع فى وقت مخصوص وهو من طلوع الفجر الى غروب الشمس مع النية (كما كتب على الذين من قبلكم) يعنى من الانبياء والامم من لدن آدم الى عهدكم والمعنى ان الصوم عبادة قديمة أى فى الزمن الاول ما أخلى الله أمة لم يفرضه عليهم كما فرضه عليكم وذلك لان الصوم عبادة شاقة والشئ الشاق اذا عم سهل عمله وقيل ان صيام شهر رمضان كان واجبا على النصارى كما فرض علينا فصاموا رمضان زمانا فربما وقع فى الحر الشديد والبرد الشديد وكان يشق ذلك عليهم فى أسفارهم ويضرهم فى معايشهم فاجتمع رأى علمائهم ورؤسائهم أن يجعلوه فى فصل من السنة معتدل بين الصيف والشتاء فجعلوه فى فصل الربيع ثم زادوا فيه عشرة أيام كفارة لما صنعوا فصاموا أربعين يوما ثم بعد زمان اشتكى ملكهم فمه فجعل لله عليه ان هو برأ من وجعه ان يزيد فى صومهم أسبوعا فبرأ فزاد فيه أسبوعا ثم مات ذلك الملك بعد زمان ووليهم ملك آخر فقال ماشأن هذه الثلاثة أيام أتموه خمسين يوما فاتموه وقيل أصابهم موتان فقالوا زيدوا فى صيامكم فزادوا عشرا قبله وعشرا بعده وقيل ان النصارى فرض الله عليهم صوم رمضان فصاموا قبله يوما وبعده يوما ثم لم يزالوا يزيدونه يوما بعد يوم حتى بلغ خمسين فلذلك نهى عن صوم يوم الشك (لعلكم تتقون) يعنى ما حرم عليكم فى صيامكم لان الصوم وصلة الى التقوى لما فيه من كسر النفس وترك الشهوات من الاكل والجماع وغيرهما وقيل معناه لعلكم تتقون ما فعله النصارى من تغيير الصوم وقيل لعلكم تنتظمون فى زمرة المتقين لان الصوم من شعارهم (أياما معدودات) أى مقدرات وقيل قليلات قيل انه كان فى ابتداء الاسلام صوم ثلاثة أيام من كل شهر واجبا وصوم يوم عاشوراء ثم نسخ ذلك بفريضة صوم شهر رمضان قال ابن عباس أول ما نسخ بعد الهجرة أمر القبلة ثم الصوم (ق) عن عائشة قالت كان يوم عاشوراء تصومه قريش فى الجاهلية وكان رسول الله صلى الله

(بعد ماسمعه) أى الايصاء (فانما اثمه على الذين يبدلونه) فما اثم التبديل الا على مبدليه دون غيرهم من الموصى والموصى له لانهما بريئان من الحيف (ان الله سميع) لقول الموصى (عليم) بجور المبدل (فمن خاف) علم وهذا شائع فى كلامهم يقولون أخاف ان لا ترسل السماء ويريدون الظن الغالب الجارى مجرى العلم (من موص) موصٍّ كوفى غير حفص (جنفا) ميلا عن الحق بالخطأ فى الوصية (أو اثما) تعمدا للحيف (فاصلح بينهم) بين الموصى لهم وهم الوالدان والاقربون باجرائهم على طريق الشرع (فلا اثم عليه) حينئذ لان تبديله تبديل باطل الى حق ذكر من يبدل بالباطل ثم من يبدل بالحق ليعلم ان كل تبديل لا يؤثم وقيل هذا فى حال حياة الموصى أى فمن حضر وصيته فرآه على خلاف الشرع فنهاه عن ذلك وحمله على الصلاح فلا اثم على هذا الموصى بما قال أولا (ان الله غفور رحيم يا أيها الذين آمنوا كتب) أى فرض (عليكم الصيام) هو مصدر صام والمراد صيام شهر رمضان (كما كتب) أى كتابة مثل ما كتب فهو صفة مصدر محذوف (على الذين من قبلكم) على الانبياء والامم من لدن آدم عليه السلام الى عهدكم فهو عبادة قديمة والتشبيه باعتبار ان كل أحد له صوم أيام أى أنتم متعبدون بالصيام فى أيام كما تعبد من كان قبلكم (لعلكم تتقون) المعاصى بالصيام لان الصيام أظلف لنفسه وأردع لها من مواقعة السوء أو لعلكم تنتظمون فى زمرة المتقين اذ الصوم شعارهم وانتصاب (أياما) بالصيام أى كتب عليكم أن تصوموا أياما (معدودات) موقتات بعدد معلوم أى قلائل

وأصله ان المال القليل يقدر بالعدد لا الكثير (فمن كان منكم مريضا) يخاف من الصوم زيادة المرض (أو على سفر) أو راكب سفر (فعدة) فعليه عدة أي فافطر فعليه صيام عدد أيام فطره والعدة بمعنى المعدود أي أمر أن يصوم أياما معدودة مكانها (من أيام أخر) سوى أيام مرضه وسفره وأخر لا ينصرف للوصف والعدل عن الالف واللام لان الاصل في فعلى صفة ان تستعمل في الجمع بالالف واللام كالكبرى والكبر والصغرى والصغر (وعلى الذين يطيقونه) وعلى المطيقين للصيام الذين لا عذر لهم ان أفطروا (فدية طعام مسكين) نصف صاع من بر أو صاع من غيره فطعام بدل من فدية فدية طعام مساكين مدني وابن ذكوان وكان ذلك في بدء الاسلام فرض عليهم الصوم ولم يتعودوه فاشتد عليهم فرخص لهم في الافطار والفدية ثم نسخ التخيير بقوله فمن شهد منكم الشهر فليصمه وهذا كرر قوله فمن كان منكم مريضا أو على سفر لانه لما كان مذكورا مع المنسوخ ذكر مع الناسخ ليدل على بقاء هذا الحكم وقيل معناه لا يطيقونه فأضمر لا لقراءة حفصة كذلك وعلى هذا لا يكون منسوخا (فمن تطوع خيرا) فزاد على مقدار الفدية (فهو خير له) فالتطوع أو الخير خير له يطوع بمعنى يتطوع حمزة وعلى (وأن تصوموا) أيها المطيقون (خير لكم) من الفدية وتطوع الخير وهذا في الابتداء وقيل وأن تصوموا في السفر والمرض خير لكم لانه أشق عليكم (ان كنتم تعلمون) شرط محذوف الجواب

قوله

عليه وسلم يصومه في الجاهلية فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة صامه وأمر بصيامه فلما فرض رمضان ترك عاشوراء فمن شاء صامه ومن شاء تركه وقيل ان المراد من قوله أياما معدودات أيام شهر رمضان ووجهه ان الله تعالى قال أولا كتب عليكم الصيام وهذا يحتمل صوم يوم أو يومين ثم بينه بقوله معدودات على انه أكثر من ذلك لكنها غير منحصرة بعدد ثم بين حصرها بقوله شهر رمضان فاذا أمكن ذلك فلا وجه لحمل الايام المعدودات على غير رمضان فتكون الآية غير منسوخة يقال ان فريضة رمضان نزلت في السنة الثانية من الهجرة وذلك قبل غزوة بدر بشهر وأيام وكانت غزوة بدر يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من رمضان على رأس ثمانية عشر شهرا من الهجرة (فمن كان منكم مريضا أو على سفر) أي فافطر (ف) عليه (عدة من أيام أخر) يعني غير أيام مرضه وسفره (وعلى الذين يطيقونه) أي يطيقون الصوم واختلف العلماء في حكم هذه الآية فذهب أكثرهم الى انها منسوخة وهو قول عمر بن الخطاب وسلمة بن الاكوع وغيرهما وذلك انهم كانوا في ابتداء الاسلام مخيرين بين أن يصوموا وبين أن يفطروا ويفدوا وانما خيرهم الله تعالى لئلا يشق عليهم لانهم كانوا لم يتعودوا الصوم ثم نسخ التخيير ونزلت العزيمة بقوله تعالى فمن شهد منكم الشهر فليصمه فصارت هذه الآية ناسخة للتخيير (ق) عن سلمة بن الاكوع قال لما نزلت هذه الآية وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين كان من أراد أن يفطر ويفتدي فعل حتى نزلت هذه الآية التي بعدها فنسختها وفي رواية حتى نزلت هذه الآية فمن شهد منكم الشهر فليصمه وقال قتادة هي خاصة في حق الشيخ الكبير الذي لا يطيق الصوم ولكن يشق عليه رخص له أن يفطر ويفتدي ثم نسخ ذلك وقال الحسن هذا في المريض الذي يقع عليه اسم المرض وهو يستطيع الصوم خير بين الصيام وبين أن يفطر ويفتدي ثم نسخ وذهب جماعة منهم ابن عباس الى أن الآية محكمة غير منسوخة ومعناها وعلى الذين كانوا يطيقونه في حال الشباب ثم عجزوا عنه عند الكبر فعليهم الفدية بدل الصوم وقرأ ابن عباس وعلى الذين يطوقونه بضم الياء وفتح الطاء والواو المشددة المفتوحة عوض الياء ومعناه يكلفون الصوم (خ) عن عطاء انه سمع ابن عباس يقرأ وعلى الذين يطوقونه فدية طعام مسكين قال ابن عباس ليست بمنسوخة هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكينا (فدية طعام مسكين) الفدية الجزاء وهو القدر الذي يبذله الانسان يقي به نفسه من تقصير وقع منه في عبادة ونحوها ويجب على من أفطر في رمضان ولم يقدر على القضاء لكبر أن يطعم مكان كل يوم مسكينا مدا من غالب قوت البلد وهذا قول فقهاء الحجاز وقال بعض فقهاء العراق عليه لكل مسكين نصف صاع عن كل يوم وقال بعضهم نصف صاع من البر وصاع من غيره وقال ابن عباس يعطي كل مسكين عشاءه وسحوره (فمن تطوع خيرا فهو خير له) يعني زاد على مسكين واحد فاطعم عن كل يوم مسكينين فأكثر وقيل فمن زاد على قدر الواجب عليه فاطعم صاعا وعليه مد فهو خير له (وأن تصوموا خير لكم) قيل هو خطاب مع الذين يطيقونه فيكون المعنى وأن تصوموا أيها المطيقون تحملوا المشقة فهو خير لكم من الافطار والفدية وقيل هو خطاب مع الكافة وهو الاصح لان اللفظ عام فرجوعه الى الكل أولى (ان كنتم تعلمون) يعني ان الصوم خير لكم وقيل معناه اذا صمتم علمتم ما في العلوم من المعاني المورثة للخير والتقوى واعلم انه لا رخصة لاحد من المسلمين المكلفين في أفطار رمضان بغير عذر والاعذار المبيحة للفطر ثلاثة أحدها السفر والمرض والحيض والنفاس فهؤلاء اذا أفطروا فعليهم القضاء دون الكفارة الثاني الحامل والمرضع اذا خافتا على ولديهما أفطرتا وعليهما القضاء والكفارة واليه ذهب الشافعي وذهب أهل الرأي الى انه لا فدية عليهما الثالث الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة والمريض الذي لا يرجى برؤه فعليهم الكفارة دون القضاء

قوله عز وجل (شهر رمضان) يعنى وقت صيامكم شهر رمضان سمى الشهر شهرا لشهرته يقال للمرء اذا أظهره شهره وسمى الهلال شهرا لشهرته وبيانه وقيل سمى بالشهر باسم الهلال وأما رمضان فاشتقاقه من الرمضاء وهى الحجارة المحماة فى الشمس وقيل انهم لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالازمنة التى وقعت فيها فوافق هذا الشهر أيام رمض الحر فسموه به وقيل ان رمضان اسم من أسماء الله تعالى فيكون معناه شهر الله والاصح ان رمضان اسم لهذا الشهر كشهر رجب وشهر شعبان وشهر رمضان (الذى أنزل فيه القرآن) لما خص الله شهر رمضان بهذه العبادة العظيمة بين سبب تخصيصه بانزال أعظم كتبه فيه والقرآن اسم لهذا الكتاب المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم روى عن الشافعى انه كان يقول القرآن اسم وليس بمهموز وليس هو من القراءة ولكنه اسم لهذا الكتاب كالتوراة والانجيل فعلى هذا القول انه ليس بمشتق وذهب الاكثرون الى انه مشتق من القرء وهو الجمع فسمى قرآنا لانه يجمع السور والآيات بعضها الى بعض و يجمع الاحكام والقصص والامثال والآيات الدالة على وحدانية الله تعالى قال ابن عباس أنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ فى ليلة القدر من شهر رمضان فوضع فى بيت العزة فى سماء الدنيا ثم نزل به جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم نجوما فى ثلاث وعشرين سنة فذلك قوله فلا أقسم بمواقع النجوم وروى أبو داود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أنزلت صحف ابراهيم فى ثلاث ليال مضين من رمضان وفى رواية فى أول ليلة من رمضان وأنزلت توراة موسى فى ست ليال مضين من رمضان وأنزل انجيل عيسى فى ثلاث عشرة ليلة مضت من رمضان وأنزل زبور داود فى ثمان عشرة ليلة مضت من رمضان وأنزل الفرقان على محمد صلى الله عليه وسلم فى الرابعة والعشرين لست بقين بعدها فعلى هذا يكون ابتداء نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم فى شهر رمضان وهو قول ابن اسحق وأبى سليمان الدمشقى وقيل فى معنى الآية شهر رمضان الذى نزل بفرض صيامه القرآن كما تقول نزلت هذه الآية فى الصلاة والزكاة ونحو ذلك من الفرائض يروى ذلك عن مجاهد والضحاك وهو اختيار الحسين بن الفضل (هدى للناس) يعنى من الضلال (و بينات من الهدى والفرقان) فان قلت هذا فيه اشكال وهو انه يقال مامعنى قوله و بينات من الهدى بعد قوله هدى للناس قلت انه تعالى ذكر أولا انه هدى ثم الهدى على قسمين تارة يكون هدى جليا وتارة لا يكون كذلك فكأنه قال هو هدى فى نفسه ثم قال هو المبين من الهدى الفارق بين الحق والباطل وقيل ان القرآن هدى فى نفسه فكأنه قال ان القرآن هدى للناس على الاجمال و بينات من الهدى والفرقان على التفصيل لان البينات هى الدلالات الواضحات التى تبين الحلال والحرام والحدود والاحكام ومعنى الفرقان الفارق بين الحق والباطل

قوله عز وجل (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) أى فمن كان حاضرا مقيما غير مسافر فأدركه الشهر فليصمه والشهود الحضور وقيل هو محمول على العادة بمشاهدة الشهر وهى رؤية الهلال ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته أخرجاه فى الصحيحين ولا خلاف انه يصوم رمضان من رأى الهلال ومن أخبر به واختلف العلماء فى وجه الخبر عنه منهم من قال يجزئ فيه خبر الواحد قاله أبو ثور ومنهم من أجراه مجرى الشهادة فى سائر الحقوق قاله مالك ومنهم من أجرى أوله مجرى الاخبار فقبل فيه خبر الواحد وأجرى آخره مجرى الشهادة فلا يقبل فى آخره أقل من اثنين قاله الشافعى وهذا للاحتياط فى أمر العبادة لدخولها وخروجها (ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر) انما كرره لان الله تعالى ذكر فى الآية الاولى تخيير المريض والمسافر والمقيم الصحيح ثم نسخ تخيير المقيم الصحيح بقوله

(شهر رمضان) مبتدأ خبره (الذى أنزل فيه القرآن) أى ابتدئ فيه انزاله وكان ذلك فى ليلة القدر أو أنزل فى شأنه القرآن وهو قوله تعالى كتب عليكم الصيام وهو بدل من الصيام أو خبر مبتدأ محذوف أى هو شهر والرمضان مصدر رمض اذا احترق من الرمضاء فأضيف اليه الشهر وجعل علما ومنع الصرف للتعريف والالف والنون وسموه بذلك لارتماضهم فيه من حر الجوع ومقاساة شدته ولانهم سموا الشهور بالازمنة التى وقعت فيها فوافق هذا الشهر أيام رمض الحر فان قلت ماوجه ماجاء فى الحديث من صام رمضان ايمانا واحتسابا مع أن التسمية واقعة مع المضاف والمضاف اليه جميعا قلت هو من باب الحذف لامن الالباس والقران حيث كان غير مهموز مكى وانتصب (هدى للناس و بينات من الهدى والفرقان) على الحال أى أنزل وهو هداية للناس الى الحق وهو آيات واضحات مكشوفات مما يهدى الى الحق و يفرق بين الحق والباطل ذكر أولا أنه هدى ثم ذكر أنه بينات من جملة ماهدى به الله وفرق بين الحق والباطل من وحيه وكتبه السماوية الهادية الفارقة بين الهدى والضلال (فمن شهد منكم الشهر

فليصمه) فمن كان شاهدا أى حاضرا مقيما غير مسافر فى الشهر فليصم فيه ولا يفطر والشهر منصوب على الظرف وكذا الهاء فى ليصمه ولا يكون مفعولا به لان المقيم والمسافر كلاهما شاهدان للشهر (ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر) فعدة مبتدأ والخبر محذوف أى فعليه عدة أى صوم عدة

فمن شهد منكم الشهر فليصمه فلو اقتصر على هذا لاحتمل أن يشمل النسخ الجميع فأعاد بعد ذكر الناسخ الرخصة للمريض والمسافر ليعلم ان الحكم باق على ما كان عليه

﴿فصل في حكم الآية﴾ وفيه مسائل ﴿الاولى﴾ اختلفوا في المرض المبيح للفطر على ثلاثة أقوال أحدها وهو قول أهل الظاهر أي مرض كان وهو ما يطلق عليه اسم المرض فله أن يفطر تنزيلا للفظ المطلق على أقل أحواله واليه ذهب الحسن وابن سيرين القول الثاني وهو قول الاصم ان هذه الرخصة مختصة بالمريض الذي لو صام لوقع في مشقة عظيمة تنزيلا للفظ المطلق على أكمل أحواله القول الثالث وهو قول أكثر الفقهاء ان المرض المبيح للفطر هو الذي يؤدي الى ضرر في النفس أو زيادة علة غير محتملة كالمحموم اذا خاف انه لو صام اشتدت حماه وصاحب وجع العين يخاف لو صام أن يشتد وجع عينه فالمراد بالمرض ما يؤثر في تقويته قال الشافعي اذا أجهده الصوم أفطر والا فهو كالصحيح ﴿المسئلة الثانية﴾ الفطر في السفر مباح والصوم جائز وبه قال عامة العلماء وقال ابن عباس وأبو هريرة وبعض أهل الظاهر لا يجوز الصوم في السفر ومن صام فعليه القضاء واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم ليس من البر الصيام في السفر وحمله عامة العلماء على من جهده الصوم في السفر فالاولى له الفطر ويدل على ذلك ما روى عن جابر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فرأى زحاما ورجلا قد ظلل عليه فقال ما هذا قالوا صائم قال ليس من البر الصيام في السفر أخرجه البخاري ومسلم وحجة الجمهور على جواز الصوم والفطر في السفر ما روى عن أنس قال سافرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم أخرجاه في الصحيحين ﴿المسئلة الثالثة﴾ اختلف العلماء في قدر السفر المبيح للفطر فقال داود الظاهري أي سفر كان ولو كان فرسخا وقال الاوزاعي السفر المبيح للفطر مسيرة يوم واحد وقال الشافعي وأحمد ومالك أقله مسيرة ستة عشر فرسخا بريدان وقال أبو حنيفة وأصحابه أقله مسيرة ثلاثة أيام ﴿المسئلة الرابعة﴾ اذا استهل الشهر وهو مقيم ثم أنشأ السفر في أثنائه جاز له أن يفطر حالة السفر ويجوز له أن يصوم في بعض السفر وان يفطر في بعضه ان أحب يدل عليه ما روى عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج الى مكة عام الفتح في رمضان فصام حتى بلغ الكديد ثم أفطر وأفطر الناس معه وكانوا يأخذون بالاحدث فالاحدث من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجاه في الصحيحين الكديد اسم موضع وهو على ثمانية وأربعين ميلا من مكة ﴿المسئلة الخامسة﴾ اختلفوا في الافضل فذهب الشافعي الى ان الصوم أفضل من الفطر في السفر وبه قال مالك وأبو حنيفة وقال أحمد الفطر أفضل من الصوم في السفر وقالت طائفة من العلماء هما سواء وأفضل الامرين أيسرهما لقوله تعالى يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴿المسئلة السادسة﴾ يبيح الفطر كل سفر مباح ليس سفر معصية ولا يجوز للعاصي بسفره ان يترخص برخص الشرع وقوله تعالى فعدة من أيام أخر معناه فأفطر فعليه عدة من أيام أخر فظاهر هذا أنه يجوز قضاء الصوم متفرقا وان كان التتابع أولى وفيه أيضا وجوب القضاء غير تعيين لزمن القضاء فيدل على جواز التراخي في القضاء ويدل عليه أيضا ما روى عن عائشة قالت كان يكون على الصوم من رمضان فما أستطيع أن أقضي الا في شعبان ذلك من الشغل بالنبي صلى الله عليه وسلم أخرجاه في الصحيحين ﴿يريد الله بكم اليسر﴾ أي التسهيل في هذه العبادة وهي اباحة الفطر للمسافر والمريض ﴿ولا يريد بكم العسر﴾ أي وقد نفى عنكم الحرج في أمر الدين قيل ما خير رجل بين أمرين فاختار أيسرهما الا كان ذلك أحب الى الله تعالى ﴿ولتكملوا العدة﴾ أي عدد الايام التي أفطرتم فيها بعذر السفر والمرض والحيض لتقضوا بعدد ها وقيل أراد عدد أيام الشهر (ق) عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الشهر تسع وعشرون ليلة فلا تصوموا حتى تروا الهلال ولا تفطروا حتى تروه فان غم عليكم فاقدروا له وفي رواية فأكملوا العدة ثلاثين ﴿ولتكبروا الله﴾ فيه قولان

﴿يريد الله بكم اليسر﴾ حيث أباح الفطر بالسفر والمرض ﴿ولا يريد بكم العسر﴾ ومن فرض الفطر على المريض والمسافر حتى لو صاما تجب عليهما الاعادة فقد عدل عن موجب هذا ﴿ولتكملوا العدة﴾ عدة ما أفطرتم بالقضاء اذا زال المرض والسفر والفعل المعلل محذوف مدلول عليه بما سبق تقديره لتعلموا ولتكملوا العدة ﴿ولتكبروا الله﴾

أحدهما انه تكبير ليلة العيد قال ابن عباس حق على المسلمين اذا رأوا هلال شوال أن يكبروا وقال الشافعي واجب اظهار التكبير في العيدين وبه قال مالك وأحمد وأبو يوسف ومحمد وقال أبو حنيفة لا يكبر في عيد الفطر ويكبر في عيد الاضحى حجة الشافعي ومن وافقه قوله تعالى ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ماهداكم قالوا معناه ولتكملوا عدة صوم رمضان ولتكبروا الله على ماهداكم الى آخر هذه العبادة القول الثاني في معنى قوله ولتكبروا الله أي ولتعظموا الله شكرا على ما أمر به عليكم ووفقكم للقيام بهذه العبادة (على ماهداكم) أي أرشدكم الى طاعته والى ما يرضى به عنكم (ولعلكم تشكرون) الله على نعمه

﴿فصل في فضل شهر رمضان وفضل صيامه﴾ ق عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا دخل شهر رمضان صفدت الشياطين وفتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار الصفد الغل أي شدت بالاغلال (ق) عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه ومن قام ليلة القدر ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه قوله ايمانا واحتسابا أي طلبا لوجه الله تعالى وثوابه وقيل ايمانا بانه فرض عليه واحتسابا ثوابه عند الله وقيل معناه نية وعزيمة وهو أن يصوم على التصديق به والرغبة في ثوابه طيبة بها نفسه غير كارهة (ق) عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال كل عمل ابن آدم له يضاعف الحسنة عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف قال الله تعالى الا الصوم فانه لي وأنا أجزي به يدع شهوته وطعامه من أجلي للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه ولخلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك زاد في رواية والصيام جنة فاذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث يومئذ ولا يصخب فان شتمه أحد أو قاتله فليقل اني صائم قوله كل عمل ابن آدم له معناه ان له فيه حظا لاطلاع الخلق عليه الا الصوم فانه لا يطلع عليه أحد وانما خص الصوم بقوله تعالى لي وان كانت جميع الاعمال الصالحة له وهو يجزي عليها لان الصوم لا يظهر من ابن آدم بقول ولا فعل حتى تكتبه الحفظة وانما هو من أعمال القلوب بالنية ولا يطلع عليه الا الله تعالى لقول الله تعالى انما أتولى جزاءه على ما أحب لا على حساب ولا كتاب له وقوله وللصائم فرحتان فرحة عند فطره أي بالطعام لما بلغ به من الجوع لتأخذ النفس حاجتها منه وقيل فرحة بما وفق له من اتمام الصوم الموعود عليه بالثواب وهو قوله وفرحة عند لقاء ربه لما يرى من جزيل ثوابه وقوله ولخلوف بضم الخاء وفتحها لغتان وهو تغير طعم الفم وريحه لتأخير الطعام ومعنى كونه أطيب عند الله من ريح المسك هو الثناء على الصائم والرضا بفعله لئلا يمتنع من المواظبة على الصوم الجالب للخلوف والمعنى ان خلوف فم الصائم أبلغ عند الله في القبول من ريح المسك عند أحدكم قوله الصيام جنة أي حصن من المعاصي لان الصوم يكسر الشهوة فلا يواقع المعاصي قوله فلا يرفث كلمة جامعة لكل ما يريده الانسان من المرأة وقيل هو التصريح بذكر الجماع والصخب الضجر والجلبة والصياح (ق) عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان في الجنة بابا يقال له باب الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة يقال أين الصائمون فيقومون لا يدخل منه أحد غيرهم فاذا دخلوا أغلق فلا يدخل منه أحد وفي رواية ان في الجنة ثمانية أبواب منها باب يسمى الريان لا يدخله الا الصائمون عن أبي أمامة قال أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله مرني بأمر ينفعني الله به قال عليك بالصوم فانه لا مثل له وفي رواية أي العمل أفضل فقال عليك بالصوم فانه لا عدل له أخرجه النسائي ۞ قوله عز وجل (واذا سألك عبادي عني فاني قريب) قال ابن عباس قال يهود المدينة يا محمد كيف يسمع ربنا دعاءنا وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء خمسمائة عام وأن غلظ كل سماء مثل ذلك فنزلت هذه الآية وقيل سأل بعض الصحابة النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه وقيل انهم سألوه في أي ساعة ندعو ربنا فنزلت وقيل انهم قالوا أين ربنا فنزلت هذه الآية وهذا السؤال لا يخلو اما أن يكون عن ذات الله أو عن صفاته أو عن أفعاله أما السؤال عن ذات الله فهو سؤال عن القرب والبعد بحسب

على ماهداكم ولعلكم تشكرون) شرع ذلك يعني جملة ماذكر من أمر الشاهد بصوم الشهر وأمر المرخص له بمراعاة عدة ما أفطر فيه ومن الترخيص في اباحة الفطر فقوله لتكملوا علة الامر بمراعاة العدة ولتكبروا علة ما علم من كيفية القضاء والخروج من عهدة الفطر ولعلكم تشكرون علة الترخيص وهذا نوع من اللف اللطيف المسلك وعدى التكبير بعلى لتضمنه معنى الحمد كانه قيل لتكبروا الله أي لتعظموه حامدين على ماهداكم اليه ولتكملوا بالتشديد أبو بكر ولما قال اعرابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه نزل (واذا سألك عبادي عني فاني قريب) علما واجابة لتعاليه عن القرب

الذات وأما السؤال عن صفاته تعالى فهو أن يكون السائل سأل هل يسمع ربنا دعاءنا وأما السؤال عن أفعاله تعالى فهو أن يكون السائل سأل هل يجيب ربنا اذا دعوناه فقوله تعالى واذا سألك عبادي عني فيحتمل هذه الوجوه كلها وقوله تعالى فاني قريب معناه قريب بالعلم والحفظ لا يخفى على شيء وفيه اشارة الى سهولة اجابته لمن دعاه وانجاح حاجة من سأله (ق) عن أبي موسى الاشعري قال لما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر أو قال توجه الى خيبر أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير الله أكبر لا اله الا الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيها الناس اربعوا على أنفسكم فانكم لا تدعون اصم ولا غائبا انكم تدعون سميعا بصيرا قريبا وهو معكم قوله اربعوا على أنفسكم أي ارفقوا بها وقيل معناه أمسكوا عن الجهر فانه قريب يسمع دعاءكم ۞ وقوله تعالى (أجيب دعوة الداع اذا دعان) أي أسمع دعاء عبدي الداعي اذا دعاني وقيل الدعاء عبارة عن التوحيد والثناء على الله تعالى كقول العبد يا الله لا اله الا أنت فقولك يا الله فيه دعاء وقولك لا اله الا أنت فيه توحيد وثناء على الله تعالى فسمي هذا دعاء بهذا الاعتبار وسمي قبوله اجابة لتجانس اللفظ وفيه اشارة الى أن العبد يعلم ان له ربا مدبرا يسمع دعاءه اذا دعاه ولا يخيب رجاء من رجاه وذلك ظاهر فان العبد اذا دعا وهو يعلم ان له ربا باخلاص وتضرع أجاب الله دعوته فان قلت انا نرى الداعي يبالغ في الدعاء والتضرع فلا يجاب له فما وجه قوله أجيب دعوة الداع وقوله تعالى ادعوني أستجب لكم قلت ذكر العلماء فيه أجوبة أحدها أن هذه الآية مطلقة وقد وردت آية أخرى مقيدة وهي قوله بل اياه تدعون فيكشف ما تدعون اليه ان شاء والمطلق يحمل على المقيد وثانيها أن معنى الدعاء هنا هو الطاعة ومعنى الاجابة هو الثواب وذلك في الآخرة وثالثها أن معنى الآيتين خاص وان كان لفظهما عاما فيكون معناه أجيب دعوة الداعي اذا وافق القضاء أو أجيبه ان كانت الاجابة خيرا له أو أجيبه اذا لم يسأل اثما أو محالا ورابعها أن معناها عام أي أسمع وهو معنى الاجابة المذكورة في الآية وأما اعطاء الامنية فليس بمذكور فالاجابة حاصلة عند وجود الدعوة وقد يجيب السيد عبده ولا يعطيه سؤله وخامسها أن للدعاء آدابا وشرائط وهي أسباب الاجابة فمن استكملها وأتى بها كان من أهل الاجابة ومن أخطأها كان من أهل الاعتداء في الدعاء فلا يستحق الجواب والله أعلم ۞ وقوله تعالى (فليستجيبوا لي) يعني اذا دعوتهم الى الايمان والطاعة كما أني أجيبهم اذا دعوني لحوائجهم والاجابة في اللغة الطاعة فالاجابة من العبد الطاعة ومن الله الاثابة والعطاء (وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون) أي لكي يهتدوا الى مصالح دينهم ودنياهم

﴿فصل في فضل الدعاء وآدابه﴾ (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ينزل ربنا كل ليلة الى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الاخير فيقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له هذا الحديث من أحاديث الصفات وفيه مذهبان مشهوران للعلماء أحدهما وهو مذهب جمهور السلف وبعض المتكلمين أنه يجب الايمان به وبانه حق على ما يليق به ونكل علمه الى الله تعالى ورسوله وان ظاهره المتعارف في حقنا غير مراد ولا نتكلم في تأويله مع اعتقادنا تنزيه الله تعالى عن صفات المخلوقين وعن الانتقال والحركات والمذهب الثاني مذهب أكثر المتكلمين وجماعة من السلف أنها تؤول على ما يليق فعلى هذا نقل عن مالك وغيره أن معناه تنزل رحمته وأمره وملائكته وقيل انه على الاستعارة ومعناه الاقبال على الداعين بالاجابة واللطف وفي الحديث الحث على الدعاء والترغيب فيه عن سلمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ربكم حيي كريم يستحي من عبده اذا رفع اليه يديه أن يردهما صفرا خائبتين أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن غريب الصفر الخالي يقال بيت صفر ليس فيه متاع عن عبادة بن الصامت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما على الارض مسلم يدعو الله بدعوة الا آتاه الله اياها أو صرف عنه من الشر مثلها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم فقال رجل من القوم اذا نكثر قال الله أكثر

مكانا (أجيب دعوة الداع اذا دعان) الداعي دعاني في الحالين سهل ويعقوب ووافقهما أبو عمرو ونافع غير قالون في الوصل غيرهم بغير ياء في الحالين ثم اجابة الدعاء وعد صدق من الله لا خلف فيه غير ان اجابة الدعوة تخالف قضاء الحاجة فاجابة الدعوة أن يقول العبد يارب فيقول الله لبيك عبدي وهذا أمر موعود موجود لكل مؤمن وقضاء الحاجة اعطاء المراد وذا قد يكون ناجزا وقد يكون بعد مدة وقد يكون في الآخرة وقد تكون الخيرة له في غيره (فليستجيبوا لي) اذا دعوتهم للايمان والطاعة كما أني أجيبهم اذا دعوني لحوائجهم (وليؤمنوا بي) واللام فيهما للامر (لعلهم يرشدون) ليكونوا على رجاء من اصابة الرشد وهو ضد الغي كان الرجل اذا أمسى حل له الاكل والشرب والجماع الى أن يصلي العشاء الآخرة أو يرقد فاذا صلاها أو رقد ولم يفطر حرم عليه الطعام والشراب والنساء الى القابلة ثم ان عمر رضي الله عنه واقع أهله بعد صلاة العشاء الآخرة فلما اغتسل أخذ يبكي ويلوم نفسه فأتى النبي عليه السلام وأخبره بما فعل فقال عليه السلام ما كنت جديرا بذلك فنزل

أخرجه الترمذي قوله الله أكثر معناه الله أكثر إجابة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه أخرجه الترمذي وقال حديث غريب عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليس شيء أكرم على الله من الدعاء أخرجه الترمذي وله عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الدعاء مخ العبادة وله عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من فتح له باب من الدعاء فتحت له أبواب الرحمة وما سئل الله شيئا أحب إليه من أن يسئل العافية وأن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل وله عن سلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر وله عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من لم يسأل الله يغضب عليه (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يستجاب لأحدكم ما لم يعجل بقوله قد دعوت فلم يستجب لي ولمسلم قال لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل قيل يا رسول الله ما الاستعجال قال يقول قد دعوت وقد دعوت فلم يستجب لي فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء قوله يستحسر أي يستنكف عن السؤال وأصله من حسر الطرف إذا كل وضعف (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إذا دعا أحدكم فلا يقل اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت ولكن ليعزم المسئلة فإن الله لا مكره له زاد البخاري ارزقني إن شئت ليعزم مسئلته فإنه يفعل ما يشاء لا مكره له قوله ليعزم المسئلة أي لا تكن في دعائك ربك مترددا بل اعزم وجد في المسئلة عن فضالة بن عبيد قال سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يدعو في صلاته فلم يصل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم عجل هذا ثم دعاه فقال له أو لغيره إذا صلى أحدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه ثم ليصل على النبي صلى الله عليه وسلم ثم ليدع بما شاء أخرجه الترمذي وقال حديث صحيح ۞ قوله عز وجل (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) سبب نزول هذه الآية أنه كان في ابتداء الأمر بالصوم إذا أفطر الرجل حل له الطعام والشراب والجماع إلى أن يصلي العشاء الأخيرة أو يرقد قبلها فإذا صلى أو رقد حرم عليه ذلك كله إلى الليلة القابلة ثم إن عمر بن الخطاب واقع أهله بعد ما صلى العشاء فلما اغتسل أخذ يبكي ويلوم نفسه ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أعتذر إلى الله وإليك من هذه الخطيئة إني رجعت إلى أهلي بعد ما صليت العشاء فوجدت رائحة طيبة فسولت لي نفسي فجامعت أهلي فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما كنت بذلك جديرا يا عمر فقام رجال فاعترفوا بمثل ذلك فنزلت في عمر وأصحابه أحل لكم أي أبيح لكم ليلة أراد بالليلة ليالي الصيام الرفث إلى نسائكم الرفث كلام يستقبح لفظه من ذكر الجماع ودواعيه وهو هنا كناية عن الجماع قال ابن عباس إن الله تعالى حيي كريم يكني فما ذكر من المباشرة والملامسة وغير ذلك إنما هو الجماع (هن لباس لكم) أي سكن لكم (وأنتم لباس لهن) أي سكن لهن قيل لا يسكن شيء إلى شيء كسكون أحد الزوجين إلى الآخر وسمي كل واحد من الزوجين لباسا لتجردهما عند النوم واجتماعهما في ثوب واحد وقيل اللباس اسم لما يواري فيكون كل واحد منهما سترا لصاحبه عما لا يحل كما جاء في الحديث من تزوج فقد أحرز ثلثي دينه (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم) قال ابن عباس يريد فيما ائتمنكم عليه وخيانتهم أنهم كانوا يباشرون في ليالي الصوم والمعنى يظلمونها بالمجامعة بعد العشاء وهو من الخيانة وأصل الخيانة أن يؤتمن الرجل على شيء فلا يؤدي فيه الأمانة ويقال للعاصي خائن لأنه مؤتمن على دينه (فتاب عليكم) أي فتبتم فتاب عليكم وتجاوز عنكم (وعفا عنكم) أي محا ذنوبكم (خ) عن البراء قال لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله فكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم الآية قال ابن عباس فكان ذلك مما نفع الله به الناس ورخص لهم ويسر (فالآن باشروهن) أي جامعوهن فهو حلال لكم في ليالي الصوم وسميت المجامعة مباشرة لتلاصق بشرة كل واحد بصاحبه (وابتغوا ما كتب

(أحل لكم ليلة الصيام الرفث) أي الجماع (إلى نسائكم) عدى بإلى لتضمنه معنى الإفضاء وإنما كنى عنه بلفظ الرفث الدال على معنى القبح ولم يقل الإفضاء إلى نسائكم استقباحا لما وجد منهم قبل الإباحة كما سماه اختيانا لأنفسهم ولما كان الرجل والمرأة يعتنقان ويشتمل كل واحد منهما على صاحبه في عناقه شبه باللباس المشتمل عليه بقوله تعالى (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) وقيل لباس أي ستر عن الحرام وهن لباس لكم استئناف كالبيان لسبب الإحلال وهو أنه إذا كانت بينكم وبينهن مثل هذه المخالطة والملابسة قل صبركم عنهن وصعب عليكم اجتنابهن فلذا رخص لكم في مباشرتهن (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم) تظلمونها بالجماع وتنقصونها حظها من الخير والاختيان من الخيانة كالاكتساب من الكسب فيه زيادة وشدة (فتاب عليكم) حين تبتم مما ارتكبتم من المحظور (وعفا عنكم) ما فعلتم قبل الرخصة (فالآن باشروهن) جامعوهن في ليالي الصوم وهو أمر إباحة وسميت المجامعة مباشرة لالتصاق بشرتيهما (وابتغوا ما كتب

الله لكم) أي ما قضى لكم في اللوح المحفوظ يعني الولد وقيل وابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم باباحة الاكل والشرب والجماع في اللوح المحفوظ وقيل اطلبوا ليلة القدر (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود) نزلت في صرمة بن قيس بن صرمة الانصاري ويقال قيس بن صرمة وذلك أنه ظل يعمل في أرض له وهو صائم فلما أمسى رجع الى أهله بتمر وقال لاهله قدمي الطعام فارادت المرأة أن تطعمه شيأ سخنا فاخذت تعمل له ذلك فلما فرغ فاذا هو قد نام وكان قد أعيا من التعب فايقظته فكره أن يعصي الله ورسوله وأبى ان يأكل وأصبح صائما مجهودا فلم ينتصف النهار حتى غشي عليه فلما أفاق أتى النبي صلى الله عليه وسلم فلما رآه قال يا أبا قيس مالك أمسيت طليحا فذكر له حاله فاغتم لذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله هذه الآية وقوله طليحا أي مهزولا مجهودا (خ) عن البراء قال كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم اذا كان الرجل صائما فحضر الافطار فنام قبل ان يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي وان قيس بن صرمة الانصاري كان صائما فلما حضر الافطار أتى امرأته فقال أعندك طعام قالت لا ولكن انطلق فاطلب لك وكان يومه يعمل فغلبته عيناه فجاءته امرأته فلما رأته قالت خيبة لك فلما انتصف النهار غشي عليه فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم ففرحوا بها فرحا شديدا ونزلت وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر ومعنى الآية وكلوا واشربوا في ليالي الصوم حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود بياض النهار من سواد الليل وسميا خيطين لان كل واحد منهما يبدو في الافق ممتدا كالخيط قال الشاعر

فلما أضاءت لنا سدفة ❁ ولاح من الصبح خيط أنارا

السدف اختلاط الظلام وأسدف الفجر أضاء (ق) عن سهل بن سعد قال لما نزلت وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود ولم ينزل من الفجر فكان رجال اذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الابيض والخيط الاسود ولا يزال يأكل حتى تتبين له رؤيتهما فانزل الله عز وجل بعده (من الفجر) فعلموا انه انما يعني الليل والنهار (ق) عن عدي بن حاتم لما نزلت حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود عمدت الى عقال أسود وعقال أبيض فجعلتهما تحت وسادتي وجعلت أنظر في الليل فلا يتبين لي فغدوت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت له ذلك فقال انما ذلك سواد الليل وبياض النهار (ق) عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان بلالا يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم قال وكان ابن أم مكتوم رجلا أعمى لا ينادي حتى يقال له أصبحت أصبحت واعلم أن الفجر الذي يحرم به على الصائم الطعام والشراب والجماع هو الفجر الصادق المستطير المنتشر في الافق سريعا لا الفجر الكاذب المستطيل فان قلت كيف شبه الصبح الصادق بالخيط والخيط مستطيل والصبح الصادق ليس بمستطيل قلت ان القدر الذي يبدو من البياض وهو أول الصبح يكون رقيقا صغيرا ثم ينتشر فلهذا اشبه بالخيط والفرق بين الفجر الصادق والفجر الكاذب ان الفجر الكاذب يبدو في الافق فيرتفع مستطيلا ثم يضمحل ويذهب ثم يبدو الفجر الصادق بعده منتشرا في الافق مستطيرا (م) عن سمرة بن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يغرنكم من سحوركم أذان بلال ولا بياض الافق المستطيل هكذا حتى يستطير هكذا وحكاه حماد بيديه قال يعني معترضا وفي رواية الترمذي لا يمنعكم من سحوركم أذان بلال ولا الفجر المستطيل ولكن الفجر المستطير في الافق فاذا تحقق طلوع الفجر الثاني وهو الصادق حرم على الصائم الطعام والشراب والجماع الى غروب الشمس وهو قوله تعالى ثم أتموا الصيام الى الليل يعني منتهى الصوم الى الليل فاذا دخل الليل حصل الفطر (ق) عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أقبل الليل من

وحدها ولكن لابتغاء ما وضع الله له النكاح من التناسل أو وابتغوا المحل الذي كتبه الله لكم وحلله دون مالم يكتب لكم من المحل المحرم (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض) هو أول ما يبدو من الفجر المعترض في الافق كالخيط الممدود (من الخيط الاسود) وهو ما يمتد من سواد الليل شبها بخيطين أبيض وأسود لامتدادهما (من الفجر) بيان ان الخيط الابيض من الفجر لا من غيره واكتفى به عن بيان الخيط الاسود لان بيان أحدهما بيان للآخر أو من للتبعيض لانه بعض الفجر وأوله وقوله من الفجر أخرجه من باب الاستعارة وصيره تشبيها بليغا كأن قولك رأيت أسدا مجاز فاذا زدت من فلان رجع تشبيها وعن عدي بن حاتم قال عمدت الى عقالين أبيض واسود فجعلتهما تحت وسادتي فنظرت اليهما فلم يتبين لي الابيض من الاسود فاخبرت النبي عليه السلام بذلك فقال انك لعريض القفا أي سليم القلب لانه مما يستدل به على بلاهة الرجل وقلة فطنته

ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم وهل يلزم الصائم أن يتناول عند تحقق غروب الشمس شيأ فيه وجهان أحدهما نعم يلزم ذلك لنهيه صلى الله عليه وسلم عن الوصال والثاني لا لانه قد حصل الفطر بمجرد دخول الليل سواء أكل أولم يأكل وتمسكت الحنفية بهذه الآية في أن الصوم النفل يجب اتمامه وقالوا لان قوله تعالى (ثم أتموا الصيام الى الليل) أمر وهو للوجوب وهو يتناول كل الصيام أجاب أصحاب الشافعي عنه بان هذا انما ورد في بيان أحكام صوم الفرض فكان المراد منه صوم الفرض ويدل على اباحة الفطر من النفل ماروى عن عائشة قالت دخل النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال هل عندكم شئ قلنا لا قال فاني اذا صائم ثم أتانا يوما آخر فقلت يارسول الله اهدى لنا حيس قال أرنيه فلقد أصبحت صائما فأكل أخرجه مسلم الحيس هو خلط الاقط والتمر والسمن وقد يجعل عوض الأقط دقيق أو فتيت وقيل هو التمر ينزع نواه ويخلط بالسويق والاول أعرف ﴿ قوله عز وجل (ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد) الاعتكاف هو الاقبال على الشئ والملازمة له على سبيل التعظيم وهو في الشرع عبارة عن الاقامة في المسجد على عبادة الله تعالى وسبب نزول هذه الآية أن نفرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يعتكفون في المسجد فاذا عرض لرجل منهم حاجة الى أهله خرج اليها وخلا بها ثم اغتسل ورجع الى المسجد فنهوا عن ذلك حتى يفرغوا من اعتكافهم واعلم أن الله تعالى بين أن الجماع يحرم على الصائم بالنهار ويباح له في الليل فكان يحتمل أن يكون حكم الاعتكاف كحكم الصوم فبين الله تعالى في هذه الآية أن الجماع يحرم على المعتكف في النهار والليل حتى يخرج من اعتكافه

﴿فصل في حكم الاعتكاف﴾ الاعتكاف سنة ولا يجوز في غير المسجد وذلك لان المسجد يتميز عن سائر البقاع بالفضل لانه بنى لاقامة الطاعات والعبادات فيه ثم اختلفوا فنقل عن على أنه لا يجوز الا في المسجد الحرام لقوله وطهر بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود فخصه به وقال عطاء لا يجوز الا في المسجد الحرام ومسجد المدينة وقال حذيفة يجوز في هذين المسجدين ومسجد بيت المقدس وقال الزهري لا يصح الا في الجامع وقال أبو حنيفة لا يجوز الا في مسجد له امام ومؤذن وقال الشافعي ومالك وأحمد يجوز في سائر المساجد لعموم قوله وأنتم عاكفون في المساجد الا أن المسجد الجامع أفضل حتى لا يحتاج الى الخروج من معتكفه لصلاة الجمعة (ق) عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعتكف العشر الاواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل ثم اعتكف أزواجه بعده (ق) عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعتكف العشر الاواخر من رمضان ﴿فروع﴾ الاول يجوز الاعتكاف بغير صوم والافضل أن يصوم معه وقال أبو حنيفة الصوم شرط في الاعتكاف ولا يصح الا به وحجة الشافعي ماروى عن عمر قال يارسول الله اني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام قال فاوف بنذرك أخرجاه في الصحيحين ومعلوم أنه لا يصح الصوم في الليل ﴿الفرع الثاني﴾ لا يقدر للاعتكاف زمان عند الشافعي وأقله لحظة ولا حد لاكثره فلو نذر اعتكاف ساعة صح نذره ولو نذر أن يعتكف مطلقا يخرج من نذره باعتكاف ساعة قال الشافعي وأحب أن يعتكف يوما وانما قال ذلك للخروج من الخلاف فان أقل زمن الاعتكاف عند مالك وأبي حنيفة يوم بشرط أن يدخل فيه قبل طلوع الفجر ويخرج منه بعد غروب الشمس ﴿الفرع الثالث﴾ الجماع حرام في حال الاعتكاف ويفسد به وأما مادون الجماع كالقبلة ونحوها فمكروه ولا يفسد به عند أكثر العلماء وهو اظهر قولي الشافعي والثاني يبطل به وهو قول مالك وقيل ان أنزل بطل اعتكافه وان لم ينزل فلا وهو قول أبي حنيفة وأما الملامسة بغير شهوة فجائز ولا يفسد به الاعتكاف لما روى عن عائشة انها كانت ترجل النبي صلى الله عليه وسلم وهي حائض وهو معتكف في المسجد وهي في حجرتها يناولها رأسه زاد في رواية وكان لا يدخل البيت الا لحاجة اذا كان معتكفا وفي رواية وكان لا يدخل البيت الا لحاجة الانسان أخرجاه في الصحيحين الترجيل تسريح الشعر وقولها الا لحاجة حوائج الانسان

(ثم أتموا الصيام الى الليل) أي الكف عن هذه الاشياء دليل على جواز النية بالنهار في صوم رمضان وعلى جواز تأخير الغسل الى الفجر وعلى نفي الوصال وعلى وجوب الكفارة في الاكل والشرب وعلى ان الجنابة لا تنافي الصوم (ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد) معتكفون فيها بين ان الجماع يحل في ليالي رمضان لكن لغير المعتكف والجملة في موضع الحال وفيه دليل على ان الاعتكاف لا يكون الا في المسجد وانه لا يختص به مسجد دون مسجد

كثيرة والمراد منها ههنا كل ما يضطر الانسان اليه مما لا يجوز له فعله فى المسجد وموضع معتكفه ﴿ قوله تعالى (تلك حدود الله) يعنى تلك الاحكام التى ذكرت فى الصيام والاعتكاف من تحريم الاكل والشرب والجماع حدود الله وقيل حدود الله فرائض الله وأصل الحد فى اللغة المنع والحد الحاجز بين الشيئين الذى يمنع اختلاط أحدهما بالآخر وحد الشئ الوصف المحيط بمعناه المميز له عن غيره وقيل معنى حدود الله المقادير التى قدرها ومنع من مخالفتها (فلا تقربوها) أى فلا تأتوها ولا تغشوها فان قلت فى الآية اشكالان أما الاول فهو أنه قال تلك حدود الله وهو اشارة الى ما تقدم من الاحكام وبعضها فيه اباحة وبعضها فيه حظر فكيف قال فى الجمع فلا تقربوها الاشكال الثانى هو انه تعالى قال فى هذه الآية تلك حدود الله فلا تقربوها وقال فى آية أخرى تلك حدود الله فلا تعتدوها وقال فى آية أخرى ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده فكيف الجمع بين هذه الآيات قلت الجواب عن السؤالين من وجهين أما الاشكال الاول فجوابه ان الاحكام التى تقدمت فيما قبل وان كانت كثيرة الا أن أقربها الى هذه الآية قوله تعالى ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد وذلك يوجب تحريم الجماع فى حال الاعتكاف وقال قبله ثم أتموا الصيام الى الليل وذلك يوجب تحريم الاكل والشرب فى النهار فلما كان الاقرب الى هذه الآية جانب التحريم قال تلك حدود الله فلا تقربوها والجواب عن الاشكال الثانى ان من كان فى طاعة الله تعالى والعمل بفرائضه فهو منصرف فى حيز الحق فنهى أن يتعداه فيقع فى حيز الباطل ثم بولغ فى ذلك فنهى أن يقرب الحد الذى هو الحاجز بين حيزى الحق والباطل لئلا يدانى الباطل فيقع فيه فهو كقوله صلى الله عليه وسلم كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه وقيل أراد بحدود ههنا محارمه ومناهيه لقوله ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد ونحوها من التحريم فهى حدود لا تقرب (كذلك) أى كما بين لكم ما أمركم به ونهاكم عنه كذلك (يبين الله آياته) أى معالم دينه وأحكام شريعته (للناس) مثل هذا البيان الشافى الوافى (لعلهم يتقون) أى لكى يتقوا ما حرم عليهم فينجوا من العذاب ﴿ قوله عز وجل (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) نزلت فى امرئ القيس ابن عابس الكندى ادعى عليه ربيعة بن عبدان الحضرمى عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أرض فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للحضرمى ألك بينة قال لا قال فلك يمينه فانطلق ليحلف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اما ان حلف على ماله ليأكله ظلما ليلقين الله وهو عنه معرض فانزل الله هذه الآية والمعنى لا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل أى من غير الوجه الذى أباحه الله له وأصل الباطل الشئ الذاهب

﴿فصل﴾ أما حكم الآية فأكل المال بالباطل على وجوه الاول أن يأكله بطريق التعدى والنهب والغصب الثانى أن يأكله بطريق اللهو كالقمار وأجرة المغنى وثمن الخمر والملاهى ونحو ذلك الثالث أن يأكله بطريق الرشوة فى الحكم وشهادة الزور الرابع الخيانة وذلك فى الوديعة والامانة ونحو ذلك وانما عبر عن أخذ المال بالأكل لانه المقصود الاعظم ولهذا وقع فى التعارف فلان يأكل أموال الناس بمعنى يأخذها بغير حلها (وتدلوا بها الى الحكام) أى وتلقوا أمور تلك الاموال التى فيها الحكومة الى الحكام قال ابن عباس هذا فى الرجل يكون عليه المال وليس عليه بينة فيجحد ويخاصم الى الحكام وهو يعلم أن الحق عليه وهو آثم بمنعه وقيل هو أن يقيم شهادة الزور عند الحاكم وهو يعلم ذلك وقيل معناه ولا تأكلوا المال بالباطل وتنسبوه الى الحكام وقيل لا تدل بمال أخيك الى الحاكم وأنت تعلم أنك ظالم فان قضاءه لا يحل حراما وكان شريح القاضى يقول انى لاقضى لك وانى لاظنك ظالما ولكنى لا يسعنى الا أن أقضى بما يحضرنى من البينة وان قضائى لا يحل لك حراما (ق) عن أم سلمة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع جلبة خصم بباب حجرته فخرج اليهم فقال انما أنا بشر وانه يأتينى الخصم فلعل بعضهم أن يكون أبلغ من بعض وفى رواية ألحن بحجته من بعض فاحسب انه صادق فاقضى له فمن قضيت له بحق مسلم فانما هى قطعة من النار فليحملها أو يذرها

(تلك) الاحكام التى ذكرت (حدود الله) أحكامه المحدودة (فلا تقربوها) بالمخالفة والتغيير (كذلك يبين الله آياته) شرائعه (للناس لعلهم يتقون) المحارم (ولا تأكلوا أموالكم بينكم) أى لا يأكل بعضكم مال بعض (بالباطل) بالوجه الذى لم يبحه الله ولم يشرعه (وتدلوا بها الى الحكام) ولا تدلوا بها فهو مجزوم داخل فى حكم النهى يعنى ولا تلقوا أمرها والحكومة فيها الى الحكام

قولها سمع جلبة خصم يعنى أصوات خصم قوله ألحن بحجته يقال فلان ألحن بحجته من فلان أى أقوم بها منه وأقدر عليها من اللحن بفتح الحاء وهو الفطنة (لتأكلوا فريقا) أى طائفة وقطعة (من أموال الناس بالاثم) يعنى بالظلم وقال ابن عباس باليمين الكاذبة وقيل بشهادة الزور (وأنتم تعلمون) يعنى انكم على الباطل ۞ قوله عز وجل (يسئلونك) أى يامحمد (عن الاهلة) نزلت فى معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم الانصاريين قالا يارسول الله مابال الهلال يبدو دقيقا ثم يزيد حتى يمتلئ نورا ثم لايزال ينقص حتى يعود دقيقا كما بدا ولا يكون على حال واحدة فأنزل الله يسئلونك عن الاهلة وكان هذا سؤالا منهم على وجه الفائدة عن وجه الحكمة فى تبيين حال الهلال فى الزيادة والنقصان والاهلة جمع هلال وهو أول حال القمر حين يراه الناس أول ليلة من الشهر (قل هى مواقيت للناس) جمع ميقات والمعنى انا فعلنا ذلك لمصالح دينية ودنيوية ليعلم الناس أوقات حجهم وصومهم وافطارهم ومحل ديونهم وأجائرهم وعدد النساء وأوقات الحيض وغير ذلك من الاحكام المتعلقة بالاهلة ولهذا خالف بينه وبين الشمس التى هى دائمة على حالة واحدة (والحج) أى وللحج وانما أفرد الحج بالذكر وان كان داخلا فى جملة العبادات لفائدة عظيمة وهى ان العرب فى الجاهلية كانت تحج بالعدد وتبدل الشهور فأبطل الله ذلك من فعلهم وأخبر أن الحج مقصور على الاشهر التى عينها الله فرض الحج بالاهلة وانه لايجوز نقل الحج عن تلك الاشهر التى عينها الله تعالى له كما كانت العرب تفعل بالنسئ (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها) ق عن البراء قال نزلت هذه الآية فينا فكانت الانصار اذا حجوا فجاؤا لم يدخلوا من قبل أبواب البيوت فجاء رجل من الانصار فدخل من قبل بابه فكأنه عير بذلك فنزلت وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها وفى رواية كانوا اذا أحرموا فى الجاهلية أتوا البيوت من ظهورها فأنزل الله هذه الآية وقيل كان الناس فى الجاهلية وفى أول الاسلام اذا أحرم الرجل منهم لم يدخل حائطا ولا دارا ولا فسطاطا من بابه فان كان من أهل المدر نقب نقبا فى ظهر بيته منه يدخل ويخرج أو يتخذ سلما يصعد منه وان كان من أهل الوبر دخل وخرج من خلف الخباء ولا يدخل ولا يخرج من الباب ويرون ذلك برا وكانت الحمس وهم قريش وكنانة وخزاعة ومن دان بدينهم سموا حمسا لتشددهم فى دينهم والحماسة الشدة كانوا اذا أحرموا لم يدخلوا بيتا البتة ولم يستظلوا بظل ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل حائطا فدخل رجل من الانصار معه وقيل كانت الحمس لايبالون بذلك ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل ذات يوم بيتا فدخل على أثره رجل من الانصار يقال له رفاعة بن التابوت من الباب وهو محرم فانكروا عليه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم دخلت من الباب وأنت محرم فقال رأيتك دخلت فدخلت على أثرك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى أحمسى فقال الرجل ان كنت أحمسيا فانا أحمسى رضيت بهديك وسمتك ودينك فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال الزهرى كان ناس من الانصار اذا أهلوا بالعمرة لم يجعلوا بينهم وبين السماء شيأ وكان الرجل يخرج مهلا بالعمرة فتبدو له الحاجة بعد ما خرج من بيته فيرجع ولا يدخل من باب الحجرة من أجل سقف الباب ان يحول بينه وبين السماء فيفتح الجدار من ورائه ثم يقوم فى حجرته فيأمر بحاجته ثم بلغنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل زمن الحديبية بالعمرة فدخل حجرة فدخل رجل من الانصار من بنى سلمة على أثره فقال النبى صلى الله عليه وسلم لم فعلت ذلك قال لانى رأيتك دخلت فقال عليه الصلاة والسلام انى أحمسى فقال الانصارى وأنا أحمسى يقول أنا على دينك فأنزل الله تعالى وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها

(لتأكلوا) بالتحاكم (فريقا) طائفة (من أموال الناس بالاثم) بشهادة الزور أو بالايمان الكاذبة أو بالصلح مع العلم بان المقضى له ظالم وقال عليه السلام للخصمين انما أنا بشر وأنتم تختصمون الى ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض فاقضى له على نحو ما أسمع منه فمن قضيت له بشئ من حق أخيه فلا يأخذن منه شيأ فان ما أقضى له قطعة من نار فبكيا وقال كل واحد منهما حقى لصاحبي وقيل وتدلوا بها وتلقوا بعضها الى حكام السوء على وجه الرشوة يقال أدلى دلوه أى ألقاه فى البئر للاستسقاء (وأنتم تعلمون) أنكم على الباطل وارتكاب المعصية مع العلم بقبحها أقبح وصاحبه بالتوبيخ أحق قال معاذ ابن جبل يارسول الله مابال الهلال يبدو دقيقا مثل الخيط ثم يزيد حتى يمتلئ ويستوى ثم لايزال ينقص حتى يعود كما بدا لايكون على حالة واحدة كالشمس فنزل (يسئلونك عن الاهلة) جمع هلال سمى به لرفع الناس أصواتهم عند رؤيته (قل هي مواقيت للناس والحج) أى معالم يوقت بها الناس مزارعهم ومتاجرهم ومحال ديونهم وصومهم وفطرهم وعدة نسائهم وأيام حيضهن ومدة حملهن وغير ذلك ومعالم للحج يعرف بها وقته كان ناس من الانصار اذا أحرموا لم يدخل أحد منهم حائطا ولا دارا ولا فسطاطا من باب فان كان من أهل المدر نقب نقبا فى ظهر بيته منه يدخل ويخرج وان كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء فنزل (وليس البر بان تأتوا البيوت من ظهورها) أى ليس البر بتحرجكم من دخول الباب ولا خلاف فى رفع البر هنا لان الآية ثمة تحتمل الوجهين كما بينا فجاز الرفع والنصب ثمة وهنا لاتحتمل الا وجها واحدا وهو الرفع اذ الباء لاتدخل الا على خبر ليس

(ولكن البر) بر (من اتقى) ما حرم الله البيوت و بابه مدني و بصري وحفص وهو الاصل مثل كعب وكعوب ومن كسر الباء فلمكان الياء بعدها ولكن هي توجب الخروج من كسر الى ضم وكانه قيل لهم عند سؤالهم عن الاهلة وعن الحكمة في نقصانها وتمامها معلوم ان كل ما يفعله الله تعالى لا يكون الا حكمة فدعوا السؤال عنه وانظروا في خصلة واحدة تفعلونها مما ليس من البر في شيء وأنتم تحسبونها برا فهذا وجه اتصاله بما قبله و يحتمل أن يكون على طريق الاستطراد لما ذكر انها مواقيت الحج لانه كان ذلك من أفعالهم في الحج ويحتمل أن يكون هذا تمثيلا لتعكيسهم في سؤالهم وان مثلهم فيه كمثل من يترك باب البيت و يدخل من ظهره والمعنى ليس البر وما ينبغي أن تكونوا عليه بان تعكسوا في مسائلكم ولكن

البر بر من اتقى ذلك وتجنبه ولم يجسر على مثله (وأتوا البيوت من أبوابها) و باشروا الامور من وجوهها التي يجب ان تباشر عليها ولا تعكسوا أو المراد وجوب الاعتقاد بان جميع أفعاله تعالى حكمة وصواب من غير اختلاج شبهة ولا اعتراض شك في ذلك حتى لا يسئل عنه لما في السؤال من الاتهام بمقارنة الشك لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون (واتقوا الله) فيما أمركم به ونهاكم عنه (لعلكم تفلحون) لتفوزوا بالنعيم السرمدي (وقاتلوا في سبيل الله) المقاتلة في سبيل الله الجهاد لاعلاء كلمة الله واعزاز الدين (الذين يقاتلونكم) يناجزونكم القتال دون المحاجزين وعلى هذا يكون منسوخا بقوله تعالى وقاتلوا المشركين كافة وقيل هو أول آية نزلت في القتال فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقاتل من قاتل و يكف عمن كف أو الذين يناصبونكم القتال دون من ليس من أهل المناصبة من الشيوخ والصبيان والرهبان والنساء أو الكفرة كلهم لانهم قاصدون لمقاتلة المسلمين فهم في حكم المقاتلة (ولا تعتدوا) في ابتداء القتال أو بقتال من نهيتم عنه من النساء والشيوخ ونحوهم أو بالمثلة (ان الله لا يحب المعتدين واقتلوهم حيث ثقفتموهم) وجدتموهم والثقف الوجود على وجه الاخذ والغلبة (وأخرجوهم من حيث أخرجوكم) أي من مكة وعدهم الله تعالى فتح مكة بهذه الآية وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن لم يسلم منهم يوم الفتح (والفتنة أشد من القتل) أي شركهم بالله أعظم من القتل الذي يحل بهم منكم وقيل الفتنة عذاب الآخرة وقيل المحنة والبلاء الذي ينزل بالانسان فيعذب به أشد عليه من القتل وقيل لحكيم ما أشد من الموت قال الذي يتمنى فيه الموت فقد جعل الاخراج من الوطن من الفتن التي يتمنى عندها الموت

(ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها) يعني في حال الاحرام وغيره (واتقوا الله لعلكم تفلحون) ۞ قوله عز وجل (وقاتلوا في سبيل الله) أي في طاعة الله وطلب رضوانه (ق) عن أبي موسى الاشعري قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة و يقاتل حمية و يقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله (الذين يقاتلونكم) كان في ابتداء الاسلام أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالكف عن قتال المشركين ثم لما هاجر الى المدينة أمر بقتال من قاتله منهم بهذه الآية قال الربيع بن أنس هذه أول آية نزلت في القتال ثم أمر الله بقتال المشركين كافة قاتلوا أو لم يقاتلوا بقوله تعالى وقاتلوا المشركين كافة و بقوله اقتلوهم حيث ثقفتموهم فصارت آية السيف ناسخة لهذه الآية وقيل انها محكمة ومعناها على هذا القول وقاتلوا في سبيل الله الذين أعدوا أنفسهم للقتال فأما من لم يعد نفسه للقتال كالرهبان والشيوخ والزمنى والمكافيف والمجانين فلا تقاتلوهم لانهم لم يقاتلوكم ۞ وهو قوله تعالى (ولا تعتدوا) وقال ابن عباس ولا تقتلوا النساء والصبيان والشيوخ والرهبان ولا من ألقى اليكم السلام (م) عن بريدة قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال اغزوا بالله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تعتدوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا قوله ولا تغلوا الغلول الخيانة وهو ما يخفيه أحد الغزاة من الغنيمة وقوله ولا تعتدوا أي ولا تنقضوا العهد وقيل في معنى الآية لا تعتدوا أي لا تبدؤهم بالقتال فعلى هذا القول تكون الآية منسوخة بآية القتال قال ابن عباس لما صد المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية وصالحوه على أن يرجع من قابل فيخلوا له مكة ثلاثة أيام يطوف بالبيت فلما تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لعمرة القضاء خافوا أن لا تفي قريش بما قالوا و يصدوهم عن البيت وكره المسلمون قتالهم في الشهر الحرام وفي الحرم فأنزل الله وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم فأطلق لهم قتال الذين يقاتلونهم في الشهر الحرام وفي الحرم ورفع عنهم الحرج والجناح في ذلك وقال ولا تعتدوا بابتداء القتال (ان الله لا يحب المعتدين) ۞ قوله عز وجل (واقتلوهم حيث ثقفتموهم) أي حيث وجدتموهم وأدركتموهم في الحل والحرم وتحقيق القول فيه ان الله تعالى أمر بالجهاد في الآية الاولى بشرط اقدام الكفار على القتال وفي هذه الآية أمرهم بالجهاد معهم سواء قاتلوا أو لم يقاتلوا واستثنى منه المقاتلة عند المسجد الحرام (وأخرجوهم من حيث أخرجوكم) أي وأخرجوهم من ديارهم كما أخرجوكم من دياركم (والفتنة أشد من القتل) يعني ان شركهم بالله أشد وأعظم من قتلكم اياهم في الحرم والاحرام

والاحرام وانما سمى الشرك بالله فتنة لانه فساد فى الارض يؤدى الى الظلم وانما جعل أعظم من القتل لان الشرك بالله ذنب يستحق صاحبه الخلود فى النار وليس القتل كذلك والكفر يخرج صاحبه من الامة وليس القتل كذلك فثبت ان الفتنة أشد من القتل (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه) اختلف العلماء فى هذه الآية فذهب مجاهد فى جماعة من العلماء الى انها محكمة وانه لا يحل أن يقاتل فى المسجد الحرام الا من قاتل فيه وهو قوله (فان قاتلوكم فاقتلوهم) أى فقاتلوهم وثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان مكة لا تحل لاحد قبلى ولا تحل لاحد بعدى وانما أحلت لى ساعة من نهار ثم عادت حراما الى يوم القيامة فثبت بهذا تحريم القتال فى الحرم الا أن يقاتلوا فيقاتلوا ويكون دفعا لهم وذهب قتادة الى أن هذه الآية منسوخة بقوله اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم فأمر بقتالهم فى الحل والحرم وقيل انها منسوخة بقوله وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة (كذلك جزاء الكافرين فان انتهوا) يعنى عن القتال وقيل عن الشرك والكفر (فان الله غفور) يعنى لما سلف (رحيم) يعنى بعباده حيث لم يعاجلهم بالعقوبة (وقاتلوهم) أى وقاتلوا المشركين (حتى لا تكون فتنة) أى شرك والمعنى وقاتلوهم حتى يسلموا ولا يقبل من الوثنى الا الاسلام أو القتل بخلاف الكتابى والفرق بينهما ان أهل الكتاب معهم كتب منزلة فيها شرائع وأحكام يرجعون اليها وان كانوا قد حرفوا وبدلوا فأمهلهم الله تعالى بحرمة تلك الكتب من القتل وأمر باصغارهم وأخذ الجزية منهم لينظروا فى كتبهم ويتدبروها فيقفوا على الحق منها فيتبعوه كفعل مؤمنى أهل الكتاب الذين عرفوا الحق فأسلموا وأما عبدة الاصنام فلم يكن لهم كتاب يرجعون اليه ويرشدهم الى الحق فكان امهالهم زيادة فى شركهم وكفرهم فأبى الله عز وجل أن يرضى منهم الا بالاسلام أو القتل (ويكون الدين لله) أى الطاعة والعبادة لله وحده فلا يعبد من دونه شئ (فان انتهوا) يعنى عن القتال وقيل عن الشرك والكفر (فلا عدوان) أى فلا سبيل (الا على الظالمين) قاله ابن عباس على القول الاول تكون الآية منسوخة بآية السيف وعلى القول الآخر الآية محكمة وقيل معناه فلا تظلموا الا الظالمين سمى جزاء الظالمين ظلما على سبيل المشاكلة وسمى الكافر ظالما لوضعه العبادة فى غير موضعها ۞ قوله عز وجل (الشهر الحرام بالشهر الحرام) نزلت فى عمرة القضاء وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم خرج معتمرا فى ذى القعدة سنة ست من الهجرة فصده المشركون عن البيت بالحديبية فصالح أهل مكة على أن ينصرف عامه ذلك ويرجع من قابل فيقضى عمرته فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رجع فى ذى القعدة سنة سبع فقضى عمرته وذلك قوله تعالى الشهر الحرام يعنى ذا القعدة الذى دخلتم فيه مكة وقضيتم عمرتكم بالشهر الحرام الذى صددتم فيه عن البيت (والحرمات) جمع حرمة وانما جمعت لانه أراد حرمة الشهر وحرمة البلد وحرمة الاحرام (قصاص) القصاص المساواة والمماثلة وهو ان يفعل بالفاعل مثل ما فعل والمعنى أنهم لما منعوكم عن العمرة وأضاعوا هذه الحرمات فى سنة ست فقد وفقتم حتى قضيتموها على رغمهم فى سنة سبع وقيل هذا فى القتال ومعناه فان بدؤكم بالقتال فى الشهر الحرام فاقتلوهم فيه فانه قصاص (فمن اعتدى عليكم) أى بالقتال (فاعتدوا عليه) أى فقاتلوه (بمثل ما اعتدى عليكم) سمى الجزاء بالاعتداء على سبيل المشاكلة (واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين) ۞ قوله عز وجل (وأنفقوا فى سبيل

(ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه) أى ولا تبدؤا بقتالهم فى الحرم حتى يبدؤا فعندنا المسجد الحرام يقع على الحرم كله (فان قاتلوكم فاقتلوهم) فى الحرم فعندنا يقتلون فى الاشهر الحرم لا فى الحرم الا أن يبدؤا بالقتال معنا فحينئذ نقتلهم وان كان ظاهر قوله واقتلوهم حيث ثقفتموهم يبيح القتل فى الامكنة كلها لكن لقوله ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه خص الحرم الا عند البداءة منهم كذا فى شرح التأويلات (كذلك جزاء الكافرين) مبتدأ وخبر ولا تقاتلوهم حتى يقتلوكم فان قتلوكم حمزة وعلى (فان انتهوا) عن الشرك والقتال (فان الله غفور) لما سلف من طغيانهم (رحيم) بقبول توبتهم وايمانهم (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) شرك وكان تامة وحتى بمعنى كى أو الى أن (ويكون الدين لله) خالصا ليس للشيطان فيه نصيب أى لا يعبدون دونه شئ (فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين) فان امتنعوا عن الكفر فلا تقاتلوهم فانه لا عدوان الا على الظالمين ولم يبقوا ظالمين أو فلا تظلموا الا الظالمين غير المنتهين سمى جزاء الظالمين ظلما للمشاكلة كقوله فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه قاتلهم المشركون عام الحديبية فى الشهر الحرام وهو ذوا القعدة فقيل لهم عند خروجهم لعمرة القضاء وكراهتهم القتال وذلك فى ذى القعدة (الشهر الحرام) مبتدأ خبره (بالشهر الحرام) أى هذا الشهر بذلك الشهر وهتكه بهتكه يعنى تهتكون حرمته عليهم كما هتكوا حرمته عليكم (والحرمات قصاص) أى وكل حرمة يجرى فيها القصاص من هتك حرمة أى حرمة كانت اقتص منه بان تهتك له حرمة فحين هتكوا حرمة شهركم فافعلوا بهم نحو ذلك ولا تبالوا وأكد ذلك بقوله (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) من شرطية والباء غير زائدة والتقدير بعقوبة مماثلة لعدوانهم أو زائدة وتقديره عدوانا مثل عدوانهم (واتقوا الله) فى حال كونكم منتصرين ممن اعتدى عليكم فلا تعتدوا الى ما لا يحل لكم (واعلموا أن الله مع المتقين) بالنصر (وأنفقوا فى سبيل

الله) يعني به الجهاد وذلك ان الله تعالى لما أمر بالجهاد والاشتغال به يحتاج الى الانفاق فأمر به والانفاق هو صرف المال في وجوه المصالح الدينية كالانفاق في الحج والعمرة وصلة الرحم والصدقة وفي الجهاد وتجهيز الغزاة وعلى النفس والعيال وغير ذلك مما فيه قربة لله تعالى لان كل ذلك مما هو في سبيل الله لكن اطلاق هذه اللفظة ينصرف الى الجهاد (خ) عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من احتبس فرسا في سبيل الله ايمانا واحتسابا بالله وتصديقا بوعده فان شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة يعني حسنات عن خريم بن فاتك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنفق نفقة في سبيل الله كتب الله له سبعمائة ضعف أخرجه الترمذي والنسائي (ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة) قيل الباء زائدة ومعناه لا تلقوا أيديكم الى التهلكة والمراد بالايدي الانفس والمعنى ولا تلقوا أنفسكم الى التهلكة عبر بالايدي عن الانفس وقيل الباء على أصلها وفي الكلام حذف تقديره ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم الى التهلكة كما يقال أهلك فلان نفسه بيده اذا تسبب في هلاكها وقيل التهلكة كل شئ تصير عاقبته الى الهلاك وقيل التهلكة ما يمكن الاحتراز عنه والهلاك ما لا يمكن الاحتراز عنه ومعنى الآية النهي عن ترك الانفاق في سبيل الله لانه سبب الاهلاك قال ابن عباس انفق في سبيل الله وان لم يكن لك الا سهم أو مشقص ولا يقول أحدكم لا أجد شيأ السهم هنا هو ما يرمى به والمشقص سهم فيه نصل عريض وقيل كان رجال يخرجون في البعوث بغير نفقة فاما ان ينقطع بهم واما أن يكونوا عالة فأمرهم الله تعالى بالانفاق على أنفسهم في سبيل الله ومن لم يكن عنده شئ ينفق عليه في الغزو فلا يخرج لئلا يلقي نفسه في التهلكة وهو أن يهلك من الجوع والعطش والمشي وقيل نزلت الآية في ترك الجهاد (ت) عن أبي عمران واسمه أسلم قال كنا بمدينة الروم فأخرجوا الينا صفا عظيما من الروم فخرج اليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر وعلى أهل مصر عقبة بن عامر وعلى الجماعة فضالة بن عبيد فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم فصاح الناس سبحان الله يلقي بيديه الى التهلكة فقام أبو أيوب الانصاري فقال أيها الناس انكم لتؤولون هذه الآية هذا التأويل وانما نزلت هذه الآية فينا معشر الانصار لما أعز الله الاسلام وكثر ناصروه فقال بعضنا لبعض سرا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أموالنا قد ضاعت وان الله قد أعز الاسلام وكثر ناصروه فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها فأنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم يرد علينا ما قلنا وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة فكانت التهلكة الاقامة على الاموال واصلاحها وتركنا الغزو فما زال أبو أيوب شاخصا في سبيل الله حتى دفن بارض الروم وقال حديث غريب صحيح مات أبو أيوب في آخر غزوة غزاها بارض قسطنطينية ودفن في أصل سورها فهم يتبركون بقبره ويستسقون به (م) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه مات على شعبة من النفاق قال ابن المبارك فنرى ان ذلك كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وقيل الالقاء الى التهلكة هو ان يقنط من رحمة الله وهو ان الرجل يصيب الذنب فيقول قد هلكت ليس لي توبة فييأس من رحمة الله وينهمك على المعاصي فهو القنوط فنهى الله عن ذلك وقيل في معنى الآية أنفقوا في سبيل الله ولا تقولوا انا نخاف الفقر ان أنفقنا فنهلك فنهوا ان يجعلوا أنفسهم هالكين بالانفاق (خ) عن حذيفة قال وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة قال نزلت في النفقة (وأحسنوا) أي بالانفاق على من تلزمكم مؤنته ونفقته وقيل أحسنوا في الانفاق ولا تسرفوا ولا تقتروا انهوا عن الاسراف والاقتار في الانفاق وقيل معناه وأحسنوا في اداء فرائض الله تعالى (ان الله يحب المحسنين) أي يثيبهم على احسانهم ۞ قوله عز وجل (وأتموا الحج والعمرة لله) قال ابن عباس هو أن يتمهما بمناسكهما وحدودهما وسننهما وقيل اتمامهما أن تحرم بهما من دويرة أهلك وقيل هو أن تفرد لكل واحد منهما سفرا وقيل اتمامهما أن تكون النفقة حلالا وتنتهي عما نهى الله عنه وقيل اتمامهما أن تخرج من أهلك

الله) تصدقوا في رضا الله وهو عام في الجهاد وغيره (ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة) أي أنفسكم والباء زائدة أو لا تقتلوا أنفسكم بأيديكم كما يقال أهلك فلان نفسه بيده اذا تسبب لهلاكها والمعنى النهي عن ترك الانفاق في سبيل الله لانه سبب الهلاك أو عن الاسراف في النفقة حتى يفقر نفسه ويضيع عياله أو عن الاخطار بالنفس أو عن ترك الغزو الذي هو تقوية للعدو والتهلكة والهلاك والهلك واحد (وأحسنوا) الظن بالله في الاخلاف (ان الله يحب المحسنين) الى المحتاجين (وأتموا الحج والعمرة لله) وأدوهما تامين بشرائطهما وفرائضهما لوجه الله تعالى بلا توان ولا نقصان وقيل الاتمام يكون بعد الشروع فهو دليل على ان من شرع فيهما لزمه اتمامهما وبه نقول ان العمرة تلزم بالشروع ولا تمسك للشافعي رحمه الله بالآية على لزوم العمرة لانه أمر باتمامها وقد يؤمر باتمام الواجب والتطوع أو اتمامهما ان تحرم بهما من دويرة أهلك أو أن تفرد لكل واحد منهما سفرا أو أن تنفق فيهما حلالا أو أن لا تتجر معهما

لهما الالتجارة ولا لحاجة وقيل اذا شرع فيهما وجب عليه الاتمام

﴿فصل واتفقت الامة على وجوب الحج على من استطاع اليه سبيلا﴾ م عن أبي هريرة قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا فقال رجل أفي كل عام يارسول الله فسكت حتى قالها ثلاثا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو قلت نعم لوجب ولما استطعتم وفي وجوب العمرة قولان للشافعي أصحهما أنها واجبة وهو قول علي وابن عمر وابن عباس والحسن وابن سيرين وعطاء وطاوس وسعيد بن جبير ومجاهد واليه ذهب أحمد بن حنبل والقول الثاني أنها سنة ويروى ذلك عن ابن مسعود وجابر وابراهيم والشعبي واليه ذهب مالك وأبو حنيفة حجة من أوجب العمرة ماروى في حديث الصبي بن معبد أنه قال لعمر بن الخطاب اني وجدت الحج والعمرة مكتوبين علي واني أهللت بهما فقال هديت لسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم أخرجه أبو داود والنسائي باطول من هذا وجه الدليل أنه أخبر عن وجوبهما عليه وصوبه عمر وبين أنه مهتد بما رآه في وجوبهما عليه لسنة النبي صلى الله عليه وسلم وروى عن ابن عباس أنها كقرينها في كتاب الله وأتموا الحج والعمرة لله وعن ابن عمر قال الحج والعمرة فريضتان وعنه ليس أحد من خلق الله الا وعليه حجة وعمرة واجبتان من استطاع الى ذلك سبيلا وعن ابن عباس قال العمرة واجبة كوجوب الحج وعن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تابعوا بين الحج والعمرة فانهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة وليس لحجة مبرورة ثواب الا الجنة أخرجه النسائي والترمذي وزاد ومامن مؤمن يظل يومه محرما الا غابت الشمس بذنوبه وقال حديث حسن صحيح وجه الدليل أنه أمر بالمتابعة بين الحج والعمرة والامر للوجوب ولانها قد نظمت مع الحج في الامر بالاتمام فكانت واجبة كالحج وحجة من قال بانها سنة ماروى عن جابر قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العمرة أواجبة هي قال لا وأن تعتمروا خير لكم أخرجه الترمذي وأجيب عنه بان هذا الحديث يرويه حجاج بن أرطاة وحجاج ليس ممن يقبل منه ماتفرد به لسوء حفظه وقلة مراعاته لما يحدث به واجتمعت الامة على جواز أداء الحج والعمرة على ثلاثة أنواع افراد وتمتع وقران فصورة الافراد أن يحج ثم بعد فراغه منه يعتمر من أدنى الحل أو يعتمر قبل أشهر الحج ثم يحج في تلك السنة وصورة التمتع أن يحرم بالعمرة في أشهر الحج ويأتي باعمالها فاذا فرغ من أعمالها أحرم بالحج من مكة في تلك السنة وانما سمي تمتعا لانه يستمتع بمحظورات الاحرام بعد التحلل من العمرة الى أن يحرم بالحج وصورة القران أن يحرم بالحج والعمرة معا في أشهر الحج فينويهما بقلبه وكذلك لو أحرم بالعمرة في أشهر الحج ثم ادخل عليها الحج قبل أن يفتتح الطواف فيصير قارنا واختلفوا في الافضل فذهب مالك والشافعي الى أن الافراد أفضل ثم التمتع ثم القران يدل عليه ماروى عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرد الحج أخرجه مسلم وله عن ابن عمر قال أهللنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحج مفردا وفي رواية ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل بالحج مفردا وله عن جابر قال قدمنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نصرخ بالحج صراخا وعن ابن عمر قال افصلوا بين حجكم وعمرتكم فان ذلك أتم لحج أحدكم وأتم لعمرته أن يعتمر في غير أشهر الحج أخرجه مالك في الموطأ وذهب الثوري وأبو حنيفة الى أن القران أفضل يدل عليه ماروى عن أنس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبي بالحج والعمرة جميعا وفي رواية سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لبيك عمرة وحجا أخرجاه في الصحيحين وذهب أحمد بن حنبل واسحق بن راهويه الى أن التمتع أفضل يدل عليه ماروى عن ابن عباس قال تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان فاول من نهى عنهما معاوية أخرجه الترمذي (ق) عن ابن عمر قال تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع بالعمرة الى الحج وأهدى فساق معه الهدي من ذي الحليفة وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فاهل بالعمرة ثم أهل بالحج وتمتع الناس مع رسول الله صلى الله

عليه وسلم بالعمرة الى الحج وكان من الناس من أهدى ومنهم من لم يهد فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة قال للناس من كان منكم أهدى فانه لا يحل من شئ حرم منه حتى يقضى حجه ومن لم يكن منكم أهدى فليطف بالبيت والصفا والمروة وليقصر وليتحلل ثم ليهل بالحج وليهد فمن لم يجد هديا فليصم ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجع الى أهله وطاف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم مكة فاستلم الركن أول شئ ثم خب ثلاثة أطواف من السبع ومشى أربعة أطواف ثم ركع حين قضى طوافه بالبيت عند المقام ركعتين ثم سلم فانصرف فأتى الصفا فطاف بالصفا والمروة سبعة أشواط ثم لم يحل من شئ حرم منه حتى قضى حجه ونحر هديه يوم النحر وأفاض وطاف بالبيت ثم حل من كل شئ حرم منه وفعل مثل ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهدى فساق الهدى من الناس * اختلفت الروايات فى حجة النبى صلى الله عليه وسلم هل كان مفردا أو متمتعا أو قارنا وهى ثلاثة أقوال للعلماء بحسب مذاهبهم السابقة ورجحت كل طائفة نوعا وادعت أن حجة النبى صلى الله عليه وسلم كذلك وطريق الجمع بين روايات الصحابة واختلافهم فى حجته صلى الله عليه وسلم انه كان أولا مفردا ثم انه صلى الله عليه وسلم أحرم بالعمرة بعد ذلك وأدخلها على الحج فصار قارنا فمن روى أنه كان مفردا فهو الاصل ومن روى القران اعتمد آخر الامر ومن روى التمتع أراد التمتع اللغوى وهو الانتفاع والارتفاق وقد ارتفق بالقران كارتفاق التمتع وزيادة وهو الاقتصار على فعل واحد وبهذا أمكن الجمع بين الاحاديث المختلفة فى صفة حجة الوداع وهو الصحيح وذكر الشافعى فى كتاب اختلاف الحديث كلاما موجزا فى ذلك فقال ان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان منهم المفرد والقارن والمتمتع وكل كان يأخذ منه أمر نسكه ويصدر عن تعليمه فأضيف الكل اليه على معنى انه أمر به وأذن فيه ويجوز فى لغة العرب اضافة الفعل الى الآمر به كما تجوز اضافته الى فاعله كما يقال بنى فلان داره وأريد به أنه أمر ببنائها وكما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم رجم ماعزا وانما أمر برجمه واختار الشافعى الافراد واحتج فى ترجيحه بانه صح ذلك من رواية جابر وابن عمر وابن عباس وعائشة وهؤلاء لهم مزية فى حجة الوداع على غيرهم فاما جابر فهو أحسن الصحابة سياقة لرواية حديث حجة الوداع فانه ذكرها من حين خرج النبى صلى الله عليه وسلم من المدينة الى آخرها فهو أضبط لها من غيره وأما ابن عمر فصح عنه أنه كان آخذا بخطام ناقة النبى صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع وانما سمعه يلبى بالحج وأما ابن عباس فمحله من العلم والفقه والدين معروف مع كثرة بحثه عن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما عائشة فقربها من رسول الله صلى الله عليه وسلم معروف واطلاعها على باطن أمره وظاهره مع كثرة فقهها وعلمها ومن دلائل ترجيح الافراد أن الخلفاء الراشدين أفردوا الحج بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وواظبوا عليه وأركان الحج خمسة الاحرام والوقوف بعرفة والطواف والسعى بين الصفا والمروة وحلق الرأس أو التقصير فى أصح القولين وأركان العمرة أربعة الاحرام والطواف والسعى والحلق أو التقصير وبهذه الاركان تمام الحج والعمرة * قوله تعالى (فان أحصرتم) أصل الحصر فى اللغة الحبس والتضييق ثم اختلف أهل اللغة فى الحصر والاحصار فقيل اذا رد الرجل عن وجه يريده فقد أحصر واذا حبس فقد حصر وقال ابن السكيت أحصره المرض اذا منعه من السفر أو حاجة يريدها وحصره العدو اذا ضيق عليه وقال الزجاج الرواية عن أهل اللغة يقال للذى يمنعه الخوف أو المرض أحصر والمحبوس حصر وقال ابن قتيبة فى قوله فان أحصرتم هو أن يعرض للرجل ما يحول بينه وبين الحج من مرض أو كسر أو عدو ويقال أحصر فهو محصر فان حبس فى دار أو سجن قيل حصر فهو محصور وذهب قوم الى انهما بمعنى واحد قال الزجاج يقال للرجل من حصرك هنا ومن أحصرك وقال أحمد بن يحيى أصل الحصر والاحصار الحبس وحصر فى الحبس أقوى من أحصر وقيل الاحصار يقال فى المنع الظاهر كالعدو والمنع الباطن كالمرض والحصر لا يقال الا فى المنع الباطن وأما قوله فان أحصرتم فمحمول على الامرين وبحسب اختلاف أهل

(فان أحصرتم) يقال أحصر فلان اذا منعه أمر من خوف أو مرض أو عجز وحصر اذا حبسه عدو عن المضى وعندنا الاحصار يثبت بكل منع من عدو أو مرض أو غيرهما لظاهر النص وقد جاء فى الحديث من كسر أو عرج فقد حل أى جاز له أن يحل وعليه الحج من قابل وعند الشافعى رحمه الله الاحصار بالعدو وحده وظاهر النص يدل على ان الاحصار يتحقق فى العمرة أيضا لانه ذكر عقيبهما

الثالثة في معناها اختلاف الفقهاء في حكمها فذهب قوم الى أن كل مانع من عدو أو مرض أو ذهاب نفقة فانه يبيح له التحلل من احرامه وهو قول عطاء ومجاهد وقتادة وهو مذهب أبي حنيفة و يدل عليه ماروى عن عكرمة قال حدثني الحجاج بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كسر أو عرج فقد حل وعليه حجة أخرى قال عكرمة فذكرت ذلك لابي هريرة وابن عباس فقالا صدق أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وقال حديث حسن وذهب قوم الى أنه لايباح له التحلل الا بحبس العدو وهو قول ابن عمر وابن عباس وأنس وبه قال مالك والليث والشافعي وأحمد وقالوا الحصر والاحصار بمعنى واحد واحتجوا بان نزول الآية كان في قصة الحديبية في سنة ست وكان ذلك حبسا من جهة العدو لان كفار مكة منعوا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من الطواف بالبيت فنزلت هذه الآية فحل النبي صلى الله عليه وسلم من عمرته ونحر هديه وقضاها من قابل و يدل عليه أيضا سياق الآية وهو قوله فاذا أمنتم والامن لا يكون الا من خوف وثبت عن ابن عباس أنه قال لاحصر الاحصر العدو فثبت بذلك ان المراد من الاحصار هو حصر العدو دون المرض وغيره وأجيب عن حديث الحجاج بن عمرو بانه محمول على من شرط التحلل بالمرض ونحوه حال احرامه و يدل على جواز الاشتراط في الاحرام ماروى عن ابن عباس ان ضباعة بنت الزبير أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله اني أريد الحج أفاشترط قال نعم قالت كيف أقول قال قولي لبيك اللهم لبيك محلي من الارض حيث تحبسني أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح ولغيره ان ضباعة بنت الزبير كانت وجعة فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم حجي واشترطي وقولي اللهم محلي حيث حبستني فذهب الشافعي وأحمد واسحق اذا اشترط في الحج فعرض له مرض أو عذر أن يتحلل و يخرج من احرامه ثم المحصر يتحلل بذبح الهدي وحلق الرأس وهو المراد من قوله تعالى (فما استيسر من الهدي) ومعنى الآية فان احصرتم دون تمام الحج أو العمرة فحللتم فعليكم ما استيسر من الهدي والهدي مايهدى الى البيت وأعلاه بدنة وأوسطه بقرة وأدناه شاة قال ابن عباس شاة لانه أقرب الى اليسر ومحل ذبح هدي المحصر حيث أحصر واليه ذهب الشافعي لان النبي صلى الله عليه وسلم ذبح الهدي عام الحديبية بها وذهب أبو حنيفة الى أنه يقيم على احرامه و يبعث بهديه الى الحرم و يواعد من يذبحه هناك ثم يحل في ذلك الوقت (ولا تحلقوا رؤسكم حتى يبلغ الهدي محله) أي مكانه الذي يجب أن يذبح فيه وفيه قولان أحدهما انه الحرم فان كان حاجا فمحله يوم النحر وان كان معتمرا فمحله يوم يبلغ هديه الى الحرم وهو قول أبي حنيفة والقول الثاني محل ذبحه حيث أحصر سواء كان في الحل أو في الحرم ومعنى محله يعني حيث يحل ذبحه وأكله وهو قول مالك والشافعي وأحمد و يدل عليه ماروى عن ابن عمر قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم معتمرين فحال كفار قريش دون البيت فنحر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحلق رأسه أخرجه البخاري ۞ قوله عز وجل (فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه) معناه ولا تحلقوا رؤسكم في حال الاحرام الا أن تضطروا الى حلقه لمرض أو أذى وهو القمل أو الصداع (ففدية) فيه اضمار تقديره فحلق رأسه فعليه فدية نزلت هذه الآية في كعب بن عجرة (ق) عن كعب بن عجرة قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أوقد تحت قدر لي والقمل يتناثر على وجهي فقال أيؤذيك هوام رأسك قال قلت نعم قال فاحلق وصم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين أو انسك نسيكة لاأدري بأي ذلك بدأ وفي رواية قال في نزلت هذه الآية فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك وذكر نحوه وفي أخرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مر به وهو بالحديبية قبل أن يدخل مكة وهو محرم وذكره وفي أخرى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له ما كنت أرى ان الوجع بلغ منك ماأرى أو ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك ماأرى أتجد شاة قلت لا قال فصم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع قال كعب فنزلت في خاصة وهي لكم عامة ومعنى قوله تعالى ففدية (من صيام) أي صوم ثلاثة أيام (أو صدقة) يعني اطعام ثلاثة

(فما استيسر من الهدي) فما تيسر منه يقال يسر الامر واستيسر كما يقال صعب واستصعب والهدي جمع هدية يعني فان منعتم من المضي الى البيت وأنتم محرمون بحج أو عمرة فعليكم اذا أردتم التحلل ما استيسر من الهدي من بعير أو بقرة أو شاة فارفع بالابتداء أي فعليكم ما استيسر أو نصب أي فاهدوا له ما استيسر (ولا تحلقوا رؤسكم حتى يبلغ الهدي محله) الخطاب للمحصرين أي لاتحلوا بحلق الرأس حتى تعلموا ان الهدي الذي بعثتموه الى الحرم بلغ محله أي مكانه الذي يجب نحره فيه وهو الحرم وهو حجة لنا في أن دم الاحصار لايذبح الا في الحرم على الشافعي رحمه الله اذ عنده يجوز في غير الحرم (فمن كان منكم مريضا) فمن كان منكم به مرض يحوجه الى الحلق (أو به أذى من رأسه) وهو القمل أو الجراحة (ففدية) فعليه اذا حلق فدية (من صيام) ثلاثة أيام (أو صدقة) على ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من بر

وسعة (فمن تمتع) استمتع (بالعمرة الى الحج) واستمتاعه بالعمرة الى وقت الحج انتفاعه بالتقرب بها الى الله قبل انتفاعه بالتقرب بالحج وقيل اذا حل من عمرته انتفع باستباحة ما كان محرما عليه الى أن يحرم بالحج (فما استيسر من الهدى) هو هدى المتعة وهو نسك يؤكل منه ويذبح يوم النحر (فمن لم يجد) الهدى (فصيام ثلاثة أيام فى الحج) فعليه صيام ثلاثة أيام فى وقت الحج وهو أشهره ما بين الاحرامين احرام العمرة واحرام الحج (وسبعة اذا رجعتم) اذا نفرتم وفرغتم من أفعال الحج (تلك عشرة كاملة) فى وقوعها بدلا عن الهدى أو فى الثواب أو المراد رفع الابهام فلا يتوهم فى الواو أنها بمعنى الاباحة كما فى جالس الحسن وابن سيرين ألا ترى انه لو جالسهما أو أحدا منهما كان ممتثلا (ذلك) اشارة الى التمتع اذ لا تمتع ولا قران لحاضرى المسجد الحرام عندنا وعند الشافعى رحمه الله الى الحكم الذى هو وجوب الهدى أو الصيام ولم يوجب عليهم شيأ (لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام) هم أهل المواقيت فمن دونها الى مكة

أصوع ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع (أو نسك) واحدتها نسيكة أى ذبيحة وأعلاها بدنة وأوسطها بقرة وأدناها شاة وهذه الفدية على التخيير ان شاء ذبح أو صام أو تصدق وكل هدى أو طعام يلزم المحرم فانه لمساكين الحرم الا هدى المحصر فانه يذبحه حيث أحصر وأما الصوم فله أن يصوم حيث شاء ۞ قوله تعالى (فاذا أمنتم) يعنى من خوفكم وبرأتم من مرضكم وقيل اذا أمنتم من الاحصار (فمن تمتع بالعمرة الى الحج) قال ابن الزبير معناه فمن أحصر حتى فاته الحج ولم يتحلل فقدم مكة فخرج من احرامه بعمل عمرة فاستمتع باحلاله ذلك بتلك العمرة الى السنة المستقبلة ثم حج فيكون متمتعا بذلك الاحلال الى احرامه الثانى فى العام المقبل وقيل معناه فاذا أمنتم وقد أحللتم من احرامكم بعد الاحصار ولم تعتمروا فى تلك السنة ثم اعتمرتم فى السنة القابلة فى أشهر الحج ثم أحللتم فاستمتعتم باحلالكم الى الحج ثم أحرمتم بالحج فعليكم ما استيسر من الهدى وقال ابن عباس هو الرجل يقدم معتمرا من أفق من الآفاق فى أشهر الحج فقضى عمرته وأقام بمكة حلالا حتى أنشأ منها الحج فحج من عامه ذلك فيكون مستمتعا بالاحلال من العمرة الى احرامه بالحج ومعنى التمتع فى اللغة هو الاستمتاع بعد الخروج من العمرة والتلذذ بما كان محظورا عليه فى حال الاحرام الى احرامه بالحج (فما استيسر من الهدى) يعنى فعليه ما استيسر من الهدى وهو شاة يذبحها يوم النحر فلو ذبح قبله بعد ما أحرم بالحج أجزأه عند الشافعى كدم الجبرانات ولا يجزئه ذبحه عند أبى حنيفة قبل يوم النحر كدم الاضحية ولوجوب دم التمتع خمس شرائط أحدها أن يقدم العمرة على الحج الثانى أن يحرم بالعمرة فى أشهر الحج الثالث أن يحج بعد الفراغ من العمرة فى هذه السنة الرابع أن يحرم بالحج من مكة ولا يعود الى ميقات بلده فان رجع الى الميقات وأحرم منه لم يكن متمتعا الخامس أن لا يكون من حاضرى المسجد الحرام فهذه الشروط معتبرة فى وجوب دم التمتع ومتى فقد شئ منها لم يكن متمتعا ودم التمتع دم جبران عند الشافعى فلا يجوز أن يأكل منه وقال أبو حنيفة هو دم نسك فيجوز أن يأكل منه وقوله (فمن لم يجد) يعنى الهدى (فصيام ثلاثة أيام فى الحج) أى فعليه صيام ثلاثة أيام فى وقت اشتغاله بالحج قيل يصوم يوما قبل يوم التروية ويوم التروية ويوم عرفة وقيل بل المستحب أن يصوم فى أيام الحج بحيث يكون يوم عرفة مفطرا فان لم يصم قبل يوم النحر فقيل يصوم أيام التشريق وبه قال مالك وأحمد وهو أحد قولى الشافعى وقيل بل يصوم بعد أيام التشريق وهو رواية عن أحمد والقول الآخر للشافعى (وسبعة اذا رجعتم) يعنى وصوموا سبعة أيام اذا رجعتم الى أوطانكم وأهليكم قاله ابن عباس وبه قال الشافعى فلو صام قبل الرجوع الى أهله لم يجزه عنده وقيل المراد من الرجوع هو الفراغ من أعمال الحج والاخذ فى الرجوع فعلى هذا يجزئه أن يصوم السبعة أيام بعد الفراغ من أعمال الحج وقبل الرجوع الى أهله وبه قال أبو حنيفة (تلك عشرة كاملة) يعنى فى الثواب والاجر وقيل كاملة فى قيامها مقام الهدى لانه قد يحتمل أن يظن ظان ان الثلاثة قد قامت مقام الهدى فاعلم الله أن العشرة بكمالها هى القائمة مقام الهدى وقيل فائدة التكرار التوكيد كقول الفرزدق

ثلاث واثنتان فهن خمس ۞ وسادسة تميل الى سهام

ولان القرآن أنزل بلغة العرب والعرب تكرر الشئ تريد به التوكيد وقيل فائدة ذلك الفذلكة فى علم الحساب وهو أن يعلم العدد مفصلا ثم يعلمه جملة ليحتاط به من جهتين فكذلك قوله تعالى فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة وقيل ان العرب لما كانوا لا يعلمون الحساب وكانوا يحتاجون الى زيادة بيان وايضاح فلذلك قال تلك عشرة كاملة وقيل لفظه خبر ومعناه أمر أى أكملوها ولا تنقصوها (ذلك) أى هذا الحكم الذى تقدم (لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام) قيل حاضرو المسجد الحرام هم أهل مكة وهو قول مالك وقيل هم أهل الحرم وبه قال طاوس وقال ابن جريج هم أهل عرفة والرجيع وضجنان ونخلة وقال الشافعى كل من كان وطنه من مكة على أقل من مسافة القصر فهو من حاضرى المسجد الحرام

الحرام وقيل هم من دون الميقات وقال أبو حنيفة حاضر والمسجد الحرام أهل الميقات والمواقيت ذو الحليفة والجحفة وقرن ويلملم وذات عرق فمن كان من أهل هذه المواضع فما دونها الى مكة فهو من حاضرى المسجد الحرام وقيل حاضر والمسجد الحرام من تلزمه الجمعة فيه ومعنى الآية ان المشار اليه فى قوله ذلك يرجع الى أقرب مذكور وهو لزوم الهدى أو بدله على المتمتع وهو الآفاقى فاما المكى اذا تمتع أو قرن فلا هدى عليه ولا بدله لانه لا يجب عليه أن يحرم من الميقات فاقدامه على التمتع لا يوجب خللا فى حجه فلا يجب عليه الهدى ويدل على ذلك ما أخرجه البخارى تعليقا من حديث عكرمة قال سئل ابن عباس عن متعة الحج فقال أهل المهاجرون والانصار وأزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع وأهللنا فلما قدمنا مكة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اجعلوا اهلالكم بالحج عمرة الا من قلد الهدى فطفنا بالبيت وبالصفا والمروة وأتينا النساء ولبسنا الثياب وقال من قلد الهدى فانه لا يحل من شئ حتى يبلغ الهدى محله ثم أمرنا عشية التروية أن نهل بالحج فاذا فرغنا من المناسك جئنا فطفنا بالبيت وبالصفا والمروة وقد تم حجنا وعلينا الهدى كما قال تعالى فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجعتم الى أمصاركم والشاة تجزئ فجمعوا بين النسكين فى عام بين الحج والعمرة فان الله أنزله فى كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وأباحه للناس من غير أهل مكة قال الله تعالى ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام وفى الحديث زيادة قال الحميدى قال أبو مسعود الدمشقى هذا حديث غريب ولم أجده الا عند مسلم بن الحجاج ولم يخرجه فى صحيحه من أجل عكرمة فانه لم يرو عنه فى صحيحه وعندى ان البخارى انما أخذه من مسلم وقوله تعالى (واتقوا الله) أى فيما فرضه عليكم ونهاكم عنه فى الحج وفى غيره (واعلموا أن الله شديد العقاب) يعنى لمن خالف أمره وتهاون بحدوده وارتكب مناهيه ۞ قوله عز وجل (الحج أشهر معلومات) يعنى أشهر الحج أشهر معلومات وقيل وقت الحج أشهر معلومات وهى شوال وذو القعدة وعشر ليال من ذى الحجة الى طلوع الفجر من يوم النحر وبه قال عبد الله بن مسعود وجابر بن عبد الله وعبد الله بن الزبير ومن التابعين الحسن وابن سيرين والشعبى وهو قول الشافعى والثورى وأبى ثور وحجة الشافعى ومن وافقه ان الحج يفوت بطلوع الفجر الثانى من يوم النحر والعبادة لا تفوت مع بقاء وقتها فدل على ان يوم النحر ليس من أشهر الحج وأيضا فان الاحرام بالحج فيه لا يجوز فدل على انه وما بعده ليس من أشهر الحج وقال ابن عباس أشهر الحج شوال وذو القعدة وعشرة أيام من ذى الحجة آخرها يوم النحر وبه قال ابن عمر وعروة بن الزبير وطاوس وعطاء والنخعى وقتادة ومكحول والضحاك والسدى وأبو حنيفة وأحمد بن حنبل وهى احدى الروايتين عن مالك وحجة هذا القول ان يوم النحر هو يوم الحج الاكبر ولان فيه يقع طواف الافاضة وهو تمام أركان الحج وقيل ان أشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة بكماله وهو رواية عن ابن عمر وبه قال الزهرى وهى الرواية الاخرى عن مالك وحجة هذا القول أن الله تعالى ذكر أشهر الحج بلفظ الجمع وأقل الجمع المطلق ثلاث ولان كل شهر كان أوله من أشهر الحج كان آخره كذلك فان قلت هنا اشكال وهو ان الله تعالى قال قبل هذه الآية يسألونك عن الاهلة قل هى مواقيت للناس والحج فجعل الاهلة كلها مواقيت للحج قلت قوله هى مواقيت للناس والحج عام وهذه الآية وهى قوله تعالى الحج أشهر معلومات خاص والخاص مقدم على العام وقيل ان الآية الاولى مجملة وهذه الآية مفسرة لها فان قلت انما قال الحج أشهر بلفظ الجمع وعند الشافعى أشهر الحج شهران وعشر ليال وعند أبى حنيفة وعشرة أيام فما وجه هذا قلت ان لفظ الجمع يشترك فيه ما وراء الواحد بدليل قوله تعالى فقد صغت قلوبكما وقيل انه نزل بعض الشهر منزلة كله كما يقال رأيتك سنة كذا وانما رآه فى ساعة منها ولا اشكال فيه على القول الثالث وهو قول من قال ان أشهر الحج ثلاث شوال وذو القعدة وذو الحجة بكماله (فمن فرض فيهن الحج) يعنى فمن ألزم نفسه وأوجب عليها فيهن الحج والمراد بهذا الفرض ما به

(واتقوا الله) فيما أمركم به ونهاكم عنه فى الحج وغيره (واعلموا أن الله شديد العقاب) لمن لم يتقه (الحج) أى وقت الحج كقولك البرد شهران (أشهر معلومات) معروفات عند الناس لا يشكلن عليهم وهى شوال وذو القعدة وعشر ذى الحجة وفائدة توقيت الحج بهذه الاشهر ان شيأ من أفعال الحج لا يصح الا فيها وكذا الاحرام عند الشافعى رحمه الله وعندنا وان انعقد لكنه مكروه وجمعت أى الاشهر لبعض الثالث أو لان اسم الجمع يشترك فيه ما وراء الواحد بدليل قوله تعالى فقد صغت قلوبكما (فمن فرض) الزم على نفسه بالاحرام (فيهن الحج) فى هذه الاشهر

يصير محرما بأن ينوي ويلبي ثم اختلفوا في ذلك الفعل فقال الشافعي ينعقد الاحرام بمجرد النية من غير حاجة الى التلبية ووجهه أن فرض الحج عبارة عن النية فوجب أن تكون النية كافية في انعقاد الحج وقال أبو حنيفة لا يصح الشروع في الاحرام بمجرد النية حتى تنضم اليه التلبية أو سوق الهدي ووجهه أن الحج عبادة لها تحليل وتحريم فلا بد من انضمام شيء الى النية كتكبيرة الاحرام مع النية في الصلاة وفي الآية دليل على ان الاحرام بالحج لا ينعقد الا في أشهره وهو قول ابن عباس واليه ذهب الشافعي وأحمد واسحق لان الله تعالى خصص هذه الاشهر بفرض الحج فيها فلو انعقد في غيرها لم يكن لهذا التخصيص وجه ولا فائدة وقال مالك والثوري وأبو حنيفة ينعقد احرامه بالحج في جميع شهور السنة ووجهه ان الاحرام لزام الحج فجازت تقديمه على الوقت كالنذر لان الله تعالى جعل الاهلة كلها مواقيت الحج بقوله هي مواقيت للناس والحج وقد تقدم الجواب عنه وقوله تعالى (فلا رفث) قال ابن عباس الرفث الجماع وفي رواية عنه ان الرفث غشيان النساء والتقبيل والغمز وأن يعرض لهن بالفحش من الكلام فعلى هذا القول التلفظ به في غيبة النساء لا يكون رفثا قال حصين بن قيس أخذ ابن عباس بذنب بعيره يلويه وهو يحدو ويقول

وهن يمشين بنا هميسا * ان يصدق الطير ننك لميسا

فقلت أترفث وأنت محرم فقال ان الرفث ما قيل عند النساء وقوله لميسا هو اسم امرأة وقيل الرفث كلام متضمن لما يستقبح ذكره من ذكر الجماع ودواعيه وقوله فلا رفث يحتمل ان يكون نهيا عن تعاطي الجماع وان يكون نهيا عن الحديث في ذلك لانه من دواعيه وقيل الرفث هو الفحش والخنا والقول القبيح وقيل الرفث اللغو من الكلام ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث يومئذ ولا يصخب (ولا فسوق) أصله الخروج عن الطاعة قال ابن عباس هي المعاصي كلها وهو قول طاوس والحسن وسعيد بن جبير وقتادة والزهري والربيع والقرظي وقال ابن عمر هو ما نهي عنه المحرم في حال الاحرام من قتل الصيد وتقليم الاظفار وأخذ الشعر وما أشبه ذلك وقيل هو السباب والتنابز بالالقاب (ق) عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه (ولا جدال في الحج) قال ابن عباس الجدال هو المراء وهو ان يماري الرجل صاحبه ويخاصمه حتى يغضبه وقيل هو قول الرجل الحج اليوم ويقول آخر الحج غدا وقيل هو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حجة الوداع وقد أحرموا بالحج اجعلوا اهلالكم بالحج عمرة الا من قلد الهدي قالوا كيف نجعلها عمرة وقد سمينا الحج فهذا كان جدالهم وقيل هو ما كان عليه أهل الجاهلية كان بعضهم يقف بعرفة وبعضهم بمزدلفة وكان بعضهم يحج في ذي القعدة وبعضهم في ذي الحجة وكل يقول الصواب فيما فعلته فانزل الله ولا جدال في الحج فاخبر ان أمر الحج قد استقر على ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا خلاف فيه بعده وذلك معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم ألا ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والارض وقيل معناه لا شك في الحج انه في ذي الحجة فابطل النسيء وقيل ظاهر الآية خبر ومعناه نهي أي لا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا في الحج وانما نهى عن ذلك وأمر باجتنابه في الحج وان كان اجتناب ذلك في كل الاحوال والازمان واجبا لان الرفث والفسوق والجدال في الحج أسمج وأقطع منه في غيره (وما تفعلوا من خير يعلمه الله) أي لا يخفى عليه شيء من أعمالكم وهو الذي يجازيكم عليها حث الله على فعل الخير عقيب النهي عن الشر وهو أن يستعملوا مكان الرفث الكلام الحسن ومكان الفسوق البر والتقوى ومكان الجدال الوفاق والاخلاق الجميلة وقيل جعل فعل الخير عبارة عن ربط الانفس عن الشر حتى لا يوجد منهم ما نهوا عنه وقيل انما ذكر الخير وان كان عالما بجميع أفعال العباد من الخير والشر لفائدة وهي أنه تعالى اذا علم من العبد الخير ذكره وشهره واذا علم منه الشر ستره وأخفاه فاذا كان هذا فعله مع عبده في الدنيا فكيف يكون في العقبى وهو أرحم الراحمين وأكرم الاكرمين

(فلا رفث) هو الجماع أو ذكره عند النساء أو الكلام الفاحش (ولا فسوق) هو المعاصي أو السباب لقوله عليه السلام سباب المؤمن فسوق أو التنابز بالالقاب لقوله تعالى بئس الاسم الفسوق (ولا جدال في الحج) ولا مراء مع الرفقاء والخدم والمكارين وانما أمر باجتناب ذلك وهو واجب الاجتناب في كل حال لانه مع الحج أسمج كلبس الحرير في الصلاة والتطريب في قراءة القرآن والمراد بالنفي وجوب انتفائها وانها حقيقة بان لا تكون وقرأ أبو عمرو ومكي الاولين بالرفع فحملاهما على معنى النهي كأنه قيل فلا يكونن رفث ولا فسوق والثالث بالنصب على معنى الاخبار بانتفاء الجدال كأنه قيل ولا شك ولا خلاف في الحج ثم حث على الخير عقيب النهي عن الشر وأن يستعملوا مكان القبيح من الكلام الحسن ومكان الفسوق البر والتقوى ومكان الجدال الوفاق والاخلاق الجميلة بقوله تعالى (وما تفعلوا من خير يعلمه الله) اعلم بانه عالم به يجازيكم عليه ورد قول من نفى علمه بالجزئيات كان أهل اليمن لا يتزودون ويقولون نحن متوكلون فيكونون كلا على الناس فنزل فيهم

(وتزودوا فان خير الزاد التقوى) نزلت في أناس من أهل اليمن كانوا يخرجون للحج من غير زاد ويقولون نحن متوكلون ويقولون نحج بيت ربنا أفلا يطعمنا فاذا قدموا مكة سألوا الناس وربما أفضى بهم الحال الى النهب والغصب فانزل الله وتزودوا أي ماتتبلغون به وتكفون به وجوهكم عن الناس واتقوا ابرامهم والتثقيل عليهم فان خير الزاد التقوى وقيل في معنى الآية وتزودوا من التقوى فان الانسان لابد له من سفر في الدنيا ولابد فيه من زاد ويحتاج فيه الى الطعام والشراب والمركب وسفر من الدنيا الى الآخرة ولابد فيه من زاد أيضا وهو تقوى الله والعمل بطاعته وهذا الزاد أفضل من الزاد الاول فان زاد الدنيا يوصل الى مراد النفس وشهواتها وزاد الآخرة يوصل الى النعيم المقيم في الآخرة وفي هذا المعنى قال الاعشى

اذا أنت لم ترحل بزاد من التقى * ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لاتكون كمثله * وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

(واتقون) أي وخافوا عقابي وقيل معناه واشتغلوا بتقواي وفيه تنبيه على كمال عظمة الله جل جلاله (ياأولي الالباب) ياذوي العقول الذين يعلمون حقائق الامور ۞ قوله عز وجل (ليس عليكم جناح) أي حرج (أن تبتغوا فضلا من ربكم) يعني رزقا ونفعا وهو الربح في التجارة (خ) عن ابن عباس قال كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقا في الجاهلية فلما كان الاسلام فكأنهم تأثموا أن يتجروا في المواسم فنزلت ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم في مواسم الحج وقرأها ابن عباس هكذا وفي رواية أن تبتغوا في مواسم الحج فضلا من ربكم وعكاظ سوق معروف بقرب مكة ومجنة بفتح الميم وكسرها سوق بقرب مكة أيضا قال الازرقي هي باسفل مكة على بريد منها وذو المجاز سوق عند عرفة كانت العرب في الجاهلية يتجرون في هذه الاسواق ولها مواسم فكانوا يقيمون بعكاظ عشرين يوما من ذي القعدة ثم ينتقلون الى مجنة فيقيمون بها ثمانية عشر يوما عشرة أيام من آخر ذي القعدة وثمانية أيام من أول ذي الحجة ثم يخرجون الى عرفة في يوم التروية وقال الداودي مجنة عند عرفة وعن أبي أمامة التيمي قال كنت رجلا أكري في هذا الوجه وكان الناس يقولون لي انه ليس لك حج فلقيت ابن عمر فقلت له ياأبا عبد الرحمن اني رجل أكري في هذا الوجه وان أناسا يقولون انه ليس لك حج فقال ابن عمر أليس تحرم وتلبي وتطوف بالبيت وتفيض من عرفات وترمي الجمار فقلت بلى قال فان لك حجا جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن مثل ماسألتني عنه فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبه حتى نزلت هذه الآية ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فارسل اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأها عليه وقال لك حج أخرجه أبو داود والترمذي وقال بعض العلماء ان التجارة ان أوقعت نقصا في أعمال الحج لم تكن مباحة وان لم توقع نقصا فيه كانت من المباحات التي الاولى تركها لتجريد العبادة عن غيرها لان الحج بدون التجارة أفضل وأكمل ۞ وقوله تعالى (فاذا أفضتم) أي دفعتم والافاضة دفع بكثرة (من عرفات) جمع عرفة سميت بذلك وان كانت بقعة واحدة لان كل موضع من تلك المواضع عرفة فسمي مجموع تلك المواضع عرفات وقيل ان اسم الموضع عرفات واسم اليوم عرفة قال عطاء كان جبريل يري ابراهيم المناسك ويقول له عرفت فيقول عرفت فسمي ذلك المكان عرفات واليوم عرفة وقال الضحاك ان آدم لما أهبط وقع بالهند وحواء بجدة فجعل كل واحد منهما يطلب صاحبه فاجتمعا بعرفات في يوم عرفة فتعارفا فسمي اليوم عرفة والموضع عرفات وقال السدي ان ابراهيم لما أذن في الناس بالحج وأجابوه بالتلبية وأتى من أتى أمره الله تعالى أن يخرج الى عرفات ونعتها له فخرج فلما بلغ الشجرة استقبله الشيطان يرده فرماه بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة فطار فوقع على الجمرة الثانية فرماه وكبر فطار فوقع على الجمرة الثالثة فرماه وكبر فطار فلما رأى الشيطان انه لايطيعه ذهب فانطلق ابراهيم حتى أتى ذا المجاز فنظر اليه فلم يعرفه فجازه فسمي ذا المجاز ثم انطلق ابراهيم حتى وقع بعرفات فعرفها بالنعت فسمي الوقت عرفة والموضع عرفات حتى اذا

(وتزودوا) أي تزودوا واتقوا الاستطعام وابرام الناس والتثقيل عليهم (فان خير الزاد التقوى) أي الاتقاء عن الابرام والتثقيل عليهم أو تزودوا للمعاد باتقاء المحظورات فان خير الزاد اتقاؤها (واتقون) وخافوا عقابي وهو مثل دعان (ياأولي الالباب) ياذوي العقول يعني ان قضية اللب تقوى الله ومن لم يتقه من الالباء فكأنه لالب له ونزل في قوم زعموا ان لاحج لجمال وتاجر وقالوا هؤلاء الداج وليسوا بالحاج (ليس عليكم جناح أن تبتغوا) في أن تبتغوا في مواسم الحج (فضلا من ربكم) عطاء وتفضلا وهو النفع والربح بالتجارة والكراء (فاذا أفضتم) دفعتم بكثرة من افاضة الماء وهو صبه بكثرة وأصله أفضتم أنفسكم فترك ذكر المفعول (من عرفات) هي علم للموقف سمي بجمع كأذرعات وانما صرفت لان التاء فيها ليست للتأنيث بل هي مع الالف قبلها علامة جمع المؤنث وسميت بذلك لانها وصفت لابراهيم عليه السلام فلما رآها عرفها وقيل التقى فيها آدم وحواء فتعارفا وفيه دليل على وجوب الوقوف بعرفة لان الافاضة لاتكون الا بعده

أمسى ازدلف الى جمع فسمى ذلك الموضع المزدلفة وفي رواية عن ابن عباس ان ابراهيم رأى ليلة التروية في منامه أنه يؤمر بذبح ولده فلما أصبح تروى يومه أجمع أي تفكر هل هذه الرؤيا من الله تعالى أم من الشيطان فسمي يوم التروية ثم رأى ذلك في ليلة عرفة ثانيا فلما أصبح عرف ان ذلك من الله فسمي اليوم عرفة وقيل سمي بذلك لان الناس يعترفون في ذلك اليوم بذنوبهم وقيل سمي عرفة من العرف وهو الطيب وسميت منى لما يمنى فيها من الدماء أي يصب فيكون فيه الفروث والدماء فلا يكون الموضع طيبا وعرفات طاهرة عن مثل هذا فتكون طيبة واعلم ان الوقوف بعرفة ركن من أركان الحج ولا يتم الحج الا به ومن فاته الوقوف في وقته فقد فاته الحج ويدخل وقت الوقوف بعرفة بزوال الشمس من يوم عرفة ويمتد الى طلوع الفجر الثاني من يوم النحر وذلك نصف يوم وليلة كاملة فمن وقف بعرفات في هذا الوقت ولو لحظة واحدة من ليل أو نهار فقد حصل له الوقوف ويتم حجه وقال أحمد وقت الوقوف من طلوع الفجر يوم عرفة الى طلوعه من يوم النحر ووقت الافاضة من عرفات بعد غروب الشمس فاذا غربت الشمس دفع من عرفات وأخر صلاة المغرب حتى يجمع بينها وبين العشاء بمزدلفة (ق) عن اسامة بن زيد قال دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم من عرفة حتى اذا كان بالشعب نزل فبال ثم توضا ولم يسبغ الوضوء فقلت الصلاة يا رسول الله فقال الصلاة امامك ثم ركب فلما جاء المزدلفة نزل فتوضأ فاسبغ الوضوء ثم أقيمت الصلاة فصلى المغرب ثم أناخ كل انسان بعيره في منزله ثم أقيمت العشاء فصلى ولم يصل بينهما شيأ * وقوله تعالى (فاذكروا الله عند المشعر الحرام) سمي مشعرا من الشعار وهي العلامة لانه من معالم الحج وأصل الحرام المنع فهو ممنوع من ان يفعل فيه ما لم يؤذن فيه والمشعر الحرام هو ما بين جبلي المزدلفة من مازمي عرفة الى وادي محسر وليس المازمان ولا وادي محسر من المشعر الحرام وقيل المشعر الحرام هو المزدلفة وسماه الله بذلك لان الصلاة والمبيت به والدعاء عنده من معالم الحج وقيل المشعر الحرام هو قزح وهو آخر حد المزدلفة والاول أصح وسميت المزدلفة من الازدلاف وهو الاقتراب لانها منزلة من الله تعالى وقربة وقيل لنزول الناس بها زلف الليل وقيل لاجتماع الناس بها وتسمى المزدلفة جمعا لانه يجمع فيها بين المغرب والعشاء قيل المراد بالذكر عند المشعر الحرام هو الجمع بين صلاتي المغرب والعشاء هناك ويدل عليه أن قوله فاذكروا الله أمر وهو للوجوب ولا يجب هناك الا الصلاة والذي عليه جمهور العلماء أن المراد بالذكر هو الدعاء والتلبية والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير (ق) عن ابن عباس أن أسامة بن زيد كان رديف النبي صلى الله عليه وسلم من عرفة الى المزدلفة ثم أردف الفضل من المزدلفة الى منى فكلاهما قال لم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يلبي حتى رمى جمرة العقبة عن جابر قال دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء باذان واحد واقامتين ولم يسبح بينهما شيأ ثم اضطجع حتى طلع الفجر فصلى الفجر حين تبين له الصبح باذان واقامة ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعاه وكبره وهلله ووحده ولم يزل واقفا حتى أسفر جدا ودفع قبل أن تطلع الشمس هذا الحديث ذكره البغوي بغير سند ولم أجده في الاصول قال طاوس كانوا في الجاهلية يدفعون من عرفة قبل أن تغيب الشمس ومن المزدلفة بعد طلوعها وكانوا يقولون أشرق ثبير كيما نغير فنسخ الله تعالى أحكام الجاهلية فاخر الافاضة من عرفة الى ما بعد غروب الشمس وقدم الافاضة من المزدلفة الى ما قبل طلوعها وثبير جبل بمكة ومعنى قولهم أشرق ثبير ادخل أيها الجبل في الشروق وهو نور الشمس وقولهم كيما نغير أي ندفع للنحر يقال أغار اذا أسرع ودفع في عدوه (خ) عن عمرو بن ميمون قال قال عمر كان أهل الجاهلية لا يفيضون من جمع حتى تطلع الشمس وكانوا يقولون أشرق ثبير فخالفهم النبي صلى الله عليه وسلم فافاض قبل طلوع الشمس * وقوله تعالى (واذكروه كما هداكم) أي اذكروه بالتوحيد والتعظيم كما ذكركم

(فاذكروا الله) بالتلبية والتهليل والتكبير والثناء والدعوات أو بصلاة المغرب والعشاء (عند المشعر الحرام) هو قزح وهو الجبل الذي يقف عليه الامام وعليه الميقدة والمشعر المعلم لانه معلم العبادة ووصف بالحرام لحرمته وسميت المزدلفة جمعا لان آدم عليه السلام اجتمع فيها مع حواء وازدلف اليها أي دنا منها أو لانه يجمع فيها بين الصلاتين أو لان الناس يزدلفون الى الله تعالى أي يتقربون بالوقوف فيها (واذكروه كما هداكم) ما مصدرية أو كافة أي اذكروه ذكرا حسنا كما هداكم هداية حسنة أو اذكروه كما علمكم كيف تذكرونه ولا تعدلوا عنه

بالهداية فهداكم لدينه ومناسك حجه (وان كنتم من قبله لمن الضالين) أى لا تعرفون كيف تذكرونه وتعبدونه والهاء فى من قبله راجعة الى الهدى وقيل الى الرسول أى من قبل ارسال الرسول لمن الضالين وهو كناية عن غير مذكور وقيل يرجع الى القرآن والمعنى واذكروه كما هداكم بكتابه الذى أنزله عليكم وان كنتم من قبل انزاله لمن الضالين ۞ قوله عز وجل (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) أى لتكن افاضتكم من حيث أفاض الناس وفى المخاطبين بهذا قولان أحدهما انه خطاب لقريش قال أهل التفسير كانت قريش ومن دان بدينها وهم الحمس يقفون بالمزدلفة و يقولون نحن أهل الله وقطان حرمه فلا نخلف الحرم ولا نخرج منه و يتعاظمون أن يقفوا مع سائر الناس بعرفات وكان سائر الناس يقفون بعرفات فاذا أفاض الناس من عرفات أفاض الحمس من المزدلفة فامرهم الله أن يقفوا بعرفات مع سائر الناس ثم يفيضوا منها الى جمع وأخبرهم أنه سنة ابراهيم واسمعيل عليهما السلام (ق) عن عائشة رضى الله عنها قالت كان قريش ومن دان بدينها يقفون بالمزدلفة وكانوا يسمون الحمس وكانت سائر العرب يقفون بعرفة فلما جاء الاسلام أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ان يأتى عرفات فيقف بها ثم يفيض منها فذلك قوله تعالى ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس قولها كانوا يسمون الحمس هو جمع أحمس وأصله من الشدة والشجاعة وانما سميت قريش وكنانة حمسا لتشددهم فى دينهم فعلى هذا القول الناس معناهم جميع العرب سوى الحمس والقول الثانى انه خطاب لسائر المسلمين أمرهم الله أن يفيضوا من حيث أفاض ابراهيم وهو المراد بقوله من حيث أفاض الناس وقيل الناس هنا آدم وحده بدليل قراءة سعيد بن جبير ثم أفيضوا من حيث أفاض الناسى بالياء وقال هو آدم عهد اليه فنسى ووجه هذا ان الوقوف بعرفات والافاضة منها شرع قديم وما سواه مبتدع محدث وقيل المراد من هذه الآية ان الافاضة من المزدلفة الى منى يوم النحر قبل طلوع الشمس للرمى والنحر وأراد بالناس ابراهيم واسمعيل واتباعهما لانه كانت افاضتهم من المزدلفة قبل طلوع الشمس ووجه هذا القول ان الافاضة من عرفات قد تقدم ذكرها فى قوله فاذا أفضتم من عرفات ثم قال بعد ذلك ثم افيضوا من حيث أفاض الناس فدل على أن هذه الافاضة من المزدلفة الى منى لكن القول الاول هو الاصح الذى عليه جمهور المفسرين فان قلت على القول الاول الذى هو قول جمهور المفسرين اشكال وهو أن ظاهر الكلام لا يقتضى ذلك لان قوله فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله والافاضة من عرفات قبل الافاضة من جمع فكيف قال ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس فكأنه قال فاذا أفضتم من عرفات فافيضوا من عرفات وذلك غير جائز قلت أجيب عن هذا الاشكال بان فيه تقديما وتأخيرا وتقديره ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله ان الله غفور رحيم ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله فعلى هذا الترتيب يصح أن تكون هذه الافاضة تلك الافاضة بعينها وقيل ان ثم فى قوله ثم افيضوا بمعنى الواو أى وأفيضوا كقوله ثم كان من الذين آمنوا والافاضة الدفع (ق) عن هشام بن عروة عن أبيه قال سئل اسامة ابن زيد وأنا جالس كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير فى حجة الوداع قال كان يسير العنق فاذا وجد فجوة نص قال هشام والنص فوق العنق العنق بفتح العين ضرب من السير سريع وهو أشد من المشى والفجوة الفرجة وهى المتسع من الارض والنص السير المريع حتى يستخرج من الناقة أقصى وسعها (خ) عن ابن عباس انه دفع مع النبى صلى الله عليه وسلم يوم عرفة فسمع النبى صلى الله عليه وسلم وراءه زجرا شديدا وضربا للابل فاشار بسوطه اليهم وقال يا أيها الناس عليكم بالسكينة فان البر ليس بالايضاع الايضاع السير السريع الشديد وقوله تعالى (واستغفروا الله) أى من مخالفتكم فى الموقف ولجميع ذنوبكم (ان الله غفور رحيم) يعنى ان الله هو الساتر لذنوب عباده برحمته والغفور يفيد المبالغة فى الغفر وكذا الرحيم وفيه دليل على أنه تعالى يقبل التوبة من عباده التائبين و يغفر لهم لانه تعالى أمر المذنب بالاستغفار ثم وصف

(وان كنتم من قبله) من قبل الهدى (لمن الضالين) الجاهلين لا تعرفون كيف تذكرونه وتعبدونه وان مخففة من الثقيلة واللام فارقة (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) ثم لتكن افاضتكم من حيث أفاض الناس ولا تكن من المزدلفة قالوا هذا أمر لقريش بالافاضة من عرفات الى جمع وكانوا يقفون بجمع وسائر الناس بعرفات و يقولون نحن قطان حرمه فلا نخرج منه وقيل الافاضة من عرفات مذكورة فهى الافاضة من جمع الى منى والمراد بالناس على هذا الحمس و يكون الخطاب للمؤمنين (واستغفروا الله) من مخالفتكم فى الموقف ونحو ذلك من جاهليتكم أو من تقصيركم فى أعمال الحج (ان الله غفور رحيم) بكم

(فاذاقضيتم مناسككم) فاذافرغتم من عباداتكم التى أمرتم بها فى الحج ونفرتم (فاذكروا الله كذكركم آباءكم) أى فاذكروا الله ذكرا مثل ذكركم آباءكم والمعنى فاكثروا من ذكر الله وبالغوا فيه كما تفعلون فى ذكر آبائكم ومفاخرهم

وأيامهم وكانوا اذاقضوا مناسكهم وقفوا بين المسجد بمنى و بين الجبل فيعددون فضائل آبائهم و يذكرون محاسن أيامهم (أوأشد ذكرا) أى أكثروه وفى موضع جر عطف على ماأضيف اليه الذكر فى قوله كذكركم كما تقول كذكر قريش آباءهم أوقوم أشد منهم ذكرا وذكرا تمييز (فمن الناس من يقول) فمن الذين يشهدون الحج من يسأل الله حظوظ الدنيا فيقول (ربنا آتنا فى الدنيا) اجعل ايتاءنا أى اعطاءنا فى الدنيا خاصة يعنى الجاه والغنى (وماله فى الآخرة من خلاق) نصيب لان همه مقصور على الدنيا لكفره بالآخرة والمعنى أكثروا ذكر الله ودعاءه لان الناس من بين مقل لايطلب بذكر الله الاأغراض الدنيا ومكثر يطلب خير الدارين فكونوا من المكثرين أى من الذين قيل فيهم (ومنهم) ومن الذين يشهدون الحج (من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة) نعمة وعافية أوعلما وعبادة (وفى الآخرة حسنة) عفوا ومغفرة أوالمال والجنة أوثناء الخلق ورضا الحق أوالايمان والامان أوالاخلاص والخلاص أوالسنة والجنة أوالقناعة والشفاعة أوالمرأة الصالحة والحور العين أوالعيش على سعادة والبعث من القبور على بشارة (وقنا عذاب النار) احفظنا من عذاب جهنم أوعذاب النار امرأة السوء

نفسه تعالى بانه كثير الغفران كثير الرحمة فدل ذلك على أنه تعالى يغفر للمستغفرين و يرحم المذنبين بمنه وكرمه ۞ قوله عزوجل (فاذا قضيتم مناسككم) أى فرغتم من حجكم وعباداتكم وذبحتم نسائككم أى ذبائحكم وذلك بعد رمى جمرة العقبة والاستقرار بمنى (فاذكروا الله) يعنى بالتحميد والتمجيد والتهليل والتكبير والثناء عليه (كذكركم آباءكم) قال أهل التفسير كانت العرب فى الجاهلية اذافرغوا من حجهم وقفوا بين المسجد بمنى و بين الجبل وقيل عند البيت فيذكرون مفاخر آبائهم وما ثرهم وفضائلهم ومحاسنهم ومناقبهم فيقول أحدهم كان أبى كبير الجفنة رحب الفناء يقرى الضيف وكان كذا وكذا يعدد مفاخره ومناقبه و يتناشدون الاشعار فى ذلك و يتكلمون بالمنثور والمنظوم من الكلام الفصيح وغرضهم الشهرة والسمعة والرفعة بذكر مناقب سلفهم وآبائهم فلما من الله عليهم بالاسلام أمرهم أن يكون ذكرهم لله لا لآبائهم وقال اذكرونى فانا الذى فعلت بكم و بهم وأحسنت اليكم واليهم قال ابن عباس معناه فاذكروا الله كذكر الصبيان الصغار الآباء وذلك ان الصبى أول مايفصح بالكلام يقول أبه أمه لايعرف غير ذلك فامرهم أن يذكروه كذكر الصبيان الصغار الآباء (أوأشد ذكرا) أى بل أشد ذكرا وقيل أو بمعنى الواو أى وأشد ذكرا أى وأكثر ذكرا للآباء لانه هو المنعم عليهم وعلى الآباء فهو المستحق للذكر والحمد مطلقا وسئل ابن عباس عن هذه الآية قيل له قد يأتى على الرجل اليوم ولايذكر فيه أباه فقال ليس كذلك ولكن أن تغضب لله عزوجل اذاعصى أشد من غضبك لوالديك اذاشتما (فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا) يعنى أن المشركين كانوا يسألون الله فى حجهم الدنيا ونعيمها كانوا يقولون اللهم اعطنا ابلا وغنما و بقرا وعبيدا واماء وكان أحدهم يقوم فيقول اللهم ان أبى كان عظيم القبة كبير الجفنة كثير المال فاعطنى مثل ما أعطيته قال قتادة هذا عبد نيته الدنيا لها أنفق ولها عمل ونصب (خ) عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة ان أعطى رضى وان لم يعط سخط تعس وانتكس واذاشيك فلاانتقش قوله تعس عبد الدينار هذا دعاء عليه بالهلاك وهو الوقوع على الوجه من العثار والخميصة ثوب من خز أوصوف معلم قوله وانتكس هذا دعاء عليه أيضا لان من انتكس على رأسه أوفى أمره فقد خاب وخسر قوله واذاشيك هذا فعل مالم يسم فاعله تقول شاكته الشوكة اذادخلت فى جسمه والانتقاش اخراج الشوكة من الجسم وانما كان سؤال المشركين للدنيا ولم يطلبوا التوبة والمغفرة ونعيم الآخرة لانهم كانوا ينكرون البعث (وماله فى الآخرة من خلاق) أى وماله فى الآخرة من حظ ولانصيب (ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) يعنى المؤمنين واعلم أن الله تعالى قسم الداعين فريقين فريق اقتصروا فى الدعاء على طلب الدنيا وهم الكفار لانهم كانوا لايعتقدون البعث والآخرة والفريق الثانى هم المؤمنون الذين جمعوا فى الدعاء بين طلب الدنيا والآخرة وذلك لان الانسان خلق ضعيفا محتاجا لاطاقة له بالآم الدنيا ومتاعبها فالاولى له أن يستعيذ بالله من شرها وآلامها لانه لواضطرب على الانسان عرق من عروقه لشوش عليه حياته فى الدنيا وتعطل عن الاشتغال بطاعة الله تعالى فثبت بذلك أن طلب الدنيا فى الدعاء من أمر الدين فلذلك قال الله تعالى اخبارا عن المؤمنين ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة قيل ان الحسنة فى الدنيا عبارة عن الصحة والامن والكفاية والتوفيق الى الخير والنصر على الاعداء والولد الصالح والزوجة الصالحة (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبى صلى الله عليه وسلم قال الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة وقيل الحسنة فى الدنيا العلم والعبادة وفى الآخرة الجنة وقيل الحسنة فى الدنيا الرزق الحلال والعمل الصالح وفى الآخرة المغفرة والثواب وقيل من آتاه الله الاسلام والقرآن وأهلا ومالا فقد أوتى فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة يعنى فى الدنيا عافية وفى الآخرة عافية (م) عن أنس أن رسول الله

الله صلى الله عليه وسلم عاد رجلا من المسلمين قد خف فصار مثل الفرخ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم هل كنت تدعو الله بشيء أو تسأله اياه قال نعم كنت أقول اللهم ما كنت معاقبني به في الآخرة فعجله لي في الدنيا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان الله لا تطيقه ولا تستطيعه أفلا قلت اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار قال فدعا الله به فشفاه (ق) عن أنس بن مالك قال كان أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار عن عبد الله بن السائب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بين الركنين ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار أخرجه أبو داود (أولئك) اشارة الى المؤمنين الداعين بالحسنتين ووجه هذا القول ان الله ذكر حكم الفريق بكماله فقال وماله في الآخرة من خلاق وقيل يرجع الى الفريقين (لهم) جميعا أي لكل فريق من هؤلاء (نصيب) أي حظ (مما كسبوا) يعني من الخير والدعاء بالثواب والجزاء على الدعاء بالدنيا من جنس ما كسب ودعا (والله سريع الحساب) ذكروا في معنى الحساب ان الله تعالى يعلم العباد بما لهم وعليهم بمعنى ان الله تعالى يخلق العلوم الضرورية في قلوبهم بمقادير أعمالهم وكمياتها وكيفياتها وبمقادير مالهم من الثواب وعليهم من العقاب وقيل ان المحاسبة عبارة عن المجازاة ويدل عليه قوله تعالى وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وقيل ان الله تعالى يكلم عباده يوم القيامة ويعرفهم أحوال أعمالهم وما لهم من الثواب والعقاب وقيل انه تعالى اذا حاسب عباده فحسابه سريع لانه تعالى لا يحتاج الى عقد يد ولا روية فكر وصف الله نفسه تعالى بسرعة الحساب مع كثرة الخلائق وكثرة أعمالهم ليدل بذلك على كمال قدرته لانه تعالى لا يشغله شأن عن شأن ولا يحتاج الى آلة ولا مادة ولا مساعد فلا جرم كان قادرا على أن يحاسب جميع الخلائق في أقل من لمحة البصر وروي انه تعالى يحاسب الخلائق في قدر حلب شاة أو ناقة وقيل في معنى كونه تعالى سريع الحساب أي سريع القبول لدعاء عباده والاجابة لهم وذلك انه تعالى يسأله السائلون في الوقت الواحد كل واحد منهم أشياء مختلفة من أمور الدنيا والآخرة فيعطي كل واحد مطلوبه من غير أن يشتبه عليه شيء من ذلك لانه تعالى عالم بجميع أحوال عباده وأعمالهم وقيل في معنى الاية ان اتيان القيامة قريب لان كل ما هو كائن وآت قريب لا محالة وفيه اشارة الى المبادرة بالدعاء والذكر وسائر الطاعات وطلب الآخرة ۞ قوله عز وجل (واذكروا الله) يعني بالتوحيد والتعظيم والتكبير في أدبار الصلوات وعند رمي الجمرات وذلك انه يكبر مع كل حصاة من حصى الجمار فقد ورد في الصحيح ان النبي صلى الله عليه وسلم كبر مع كل حصاة (في أيام معدودات) يعني أيام التشريق وهي أيام منى ورمي الجمار سميت معدودات لقلتهن وهي ثلاثة أيام بعد يوم النحر أولها اليوم الحادي عشر من ذي الحجة وهو قول ابن عمر وابن عباس والحسن وعطاء ومجاهد وقتادة وهو مذهب الشافعي وقيل ان الايام المعدودات يوم النحر ويومان بعده وهو قول علي بن أبي طالب ويروى عن ابن عمر أيضا وهو مذهب أبي حنيفة (م) عن نبيشة الهذلي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله ومن الذكر في هذه الايام التكبير (خ) عن ابن عمر انه كان يكبر بمنى تلك الايام وخلف الصلوات وعلى فراشه وفي فسطاطه وفي مجلسه وفي ممشاه في تلك الايام جميعا وفي رواية انه كان يكبر في قبته فيسمعه أهل المسجد فيكبرون ويكبر أهل الاسواق حتى ترتج منى أخرجه البخاري بغير اسناد وأجمع العلماء على ان المراد بهذا هو التكبير عند رمي الجمار وهو ان يكبر مع كل حصاة يرمي بها في جميع أيام التشريق وأجمعوا أيضا على ان التكبير في عيد الاضحى وفي هذه الايام في أدبار الصلوات سنة واختلفوا في وقت التكبير فقيل يبتدأ به من صلاة الظهر يوم النحر الى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق فيكون التكبير على هذا القول في خمسة عشر صلاة وهو قول ابن عباس وابن عمر وبه قال الشافعي في أصح أقواله قال الشافعي لان الناس فيه

(أولئك) أي الداعون بالحسنتين (لهم نصيب مما كسبوا) من جنس ما كسبوا من الاعمال الحسنة وهو الثواب الذي هو المنافع الحسنة أو من أجل ما كسبوا وسمى الدعاء كسبا لانه من الاعمال والاعمال موصوفة بالكسب ويجوز أن يكون أولئك للفريقين أوان لكل فريق نصيبا من جنس ما كسبوا (والله سريع الحساب) يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب العباد فبادروا اكثار الذكر وطلب الآخرة أووصف نفسه بسرعة حساب الخلائق على كثرة عددهم وكثرة أعمالهم ليدل على كمال قدرته ووجوب الحذر من نقمته وروى انه يحاسب الخلق في قدر حلب شاة وروى في مقدار لمحة (واذكروا الله في أيام معدودات) هي أيام التشريق وذكر الله فيها التكبير في أدبار الصلوات وعند الجمار

تم للحاج وذكر الحاج قبل هذا الوقت هو التلبية ويأخذون في التكبير يوم النحر من صلاة الظهر وقيل انه يبتدأ به من صلاة المغرب ليلة النحر ويختم بصلاة الصبح من آخر أيام التشريق وهو القول الثاني للشافعي فيكون التكبير على هذا القول في ثمانية عشر صلاة والقول الثالث للشافعي انه يبتدأ بالتكبير من صلاة الصبح يوم عرفة ويختم به بعد صلاة العصر من آخر أيام التشريق فيكون التكبير على هذا القول في ثلاث وعشرين صلاة وهو قول علي بن أبي طالب ومكحول وبه قال أبو يوسف ومحمد وقال ابن مسعود يبتدأ به من صبح يوم عرفة ويختم بصلاة العصر من يوم النحر فعلى هذا القول يكون التكبير في ثمان صلوات وبه قال أبو حنيفة وقال أحمد بن حنبل اذا كان حلالا كبر عقيب ثلاث وعشرين صلاة أولها الصبح من يوم عرفة وآخرها صلاة العصر من آخر أيام التشريق وان كان محرما كبر عقيب سبع عشرة صلاة أولها الظهر من يوم النحر وآخرها عصر آخر أيام التشريق ولفظ التكبير عند الشافعي ثلاثا نسقا الله أكبر الله أكبر الله أكبر وهو قول سعيد بن جبير والحسن وهو قول أهل المدينة قال الشافعي وما زاد من ذكر الله فحسن ويروى عن ابن مسعود انه يكبر مرتين فيقول الله أكبر الله أكبر وهو قول أهل العراق ۞ وقوله تعالى (فمن تعجل في يومين) أي فمن تعجل النفر الاول وهو في الثاني من أيام التشريق (فلا اثم عليه) أي فلا حرج عليه وذلك انه يجب على الحاج المبيت بمنى الليلة الاولى والثانية من ليالي أيام التشريق ليرمي كل يوم بعد الزوال احدى وعشرين حصاة يرمي عند كل جمرة سبع حصيات ثم من رمى في اليوم الثاني وأراد أن ينفر ويدع البيتوتة الليلة الثالثة ورمي يومها فذلك واسع له لقوله تعالى فمن تعجل في يومين فلا اثم عليه يعني فلا اثم على من تعجل فنفر في اليوم الثاني في تعجيله (ومن تأخر فلا اثم عليه) يعني ومن تأخر الى النفر الثاني وهو اليوم الثالث من أيام التشريق فلا اثم عليه في تأخره واعلم أنه انما يجوز التعجيل لمن نفر بعد الزوال من اليوم الثاني من أيام التشريق وقبل غروب الشمس من ليلة ذلك اليوم وان غربت عليه الشمس وهو بمنى لزمه المبيت بها والرمي اليوم الثالث هذا مذهب الشافعي وأكثر الفقهاء وقال أبو حنيفة يجوز له أن ينفر ما لم يطلع الفجر لانه لم يدخل وقت الرمي بعد ورخص لرعاة الابل وأهل سقاة الحاج ترك المبيت بمنى ليالي منى فان قلت قوله ومن تأخر فلا اثم عليه فيه اشكال وهو ان الذي أتى بأفعال الحج كاملة تامة فقد أتى بما يلزمه فما معنى قوله فلا اثم عليه انما يخاف من الاثم من قصر فيما يلزمه قلت فيه أجوبة أحدها انه تعالى لما أذن في التعجيل على سبيل الرخصة احتمل ان يخطر ببال قوم أن من لم يجر على موجب هذه الرخصة فانه يأثم فأزال الله تعالى هذه الشبهة وبين انه لا اثم عليه في الامرين فان شاء عجل وان شاء أخر الجواب الثاني ان من الناس من كان يتعجل ومنهم من كان يتأخر وكل فريق يصوب فعله على فعل الفريق الآخر فبين الله تعالى ان كل واحد من الفريقين مصيب في فعله وانه لا اثم عليه الجواب الثالث انما قال ومن تأخر فلا اثم عليه لمشاكلة اللفظة الاولى فهو كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها ومعلوم ان جزاء السيئة ليس بسيئة الجواب الرابع ان فيه دلالة على جواز الامرين فكأنه تعالى قال فتعجلوا أو تأخروا فلا اثم في التعجيل ولا في التأخير (لمن اتقى) أي ذلك التخيير ونفي الاثم للحاج المتقي وقيل لمن اتقى ان يصيب في حجه شيأ مما نهاه الله عنه من قتل صيد وغيره مما هو محظور في الحج وقيل معناه انه ذهب اثمه ان اتقى فيما بقي من عمره وذلك أن الحاج يرجع مغفورا له بشرط ان لا يرتكب ما نهي عنه فيما بقي من عمره وهو قوله (واتقوا الله) أي في المستقبل والتقوى عبارة عن فعل الواجبات وترك المحظورات (واعلموا انكم اليه تحشرون) أي فيجازيكم بأعمالكم وفيه حث على التقوى ۞ قوله عز وجل (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا) نزلت في الاخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة واسمه أبي وانما سمي الاخنس لانه خنس يوم بدر بثلثمائة رجل من بني زهرة عن قتال رسول الله صلى

(فمن تعجل) فمن عجل في النفر أو استعجل النفر وتعجل واستعجل يجيئان مطاوعين بمعنى عجل يقال تعجل في الامر واستعجل ومتعديين يقال تعجل الذهاب واستعجله والمطاوعة أوفق بقوله ومن تأخر (في يومين) من هذه الايام الثلاثة فلم يمكث حتى يرمي في اليوم الثالث واكتفى برمي الجمار في يومين من هذه الايام الثلاثة (فلا اثم عليه) فلا يأثم بهذا التعجيل (ومن تأخر) حتى رمى في اليوم الثالث (فلا اثم عليه لمن اتقى) الصيد أو الرفث والفسوق أو هو مخير في التعجيل والتأخر وان كان التأخر أفضل فقد يقع التخيير بين الفاضل والافضل كما خير المسافر بين الصوم والافطار وان كان الصوم أفضل وقيل كان أهل الجاهلية فريقين منهم من جعل المتعجل آثما ومنهم من جعل المتأخر آثما فورد القرآن بنفي المأثم عنهما (واتقوا الله) في جميع الامور (واعلموا انكم اليه تحشرون) حين يبعثكم من القبور كان الاخنس ابن شريق حلو المنطق اذا لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ألان له القول وادعى انه يحبه وانه مسلم وقال يعلم الله اني صادق فنزل فيه (ومن الناس من يعجبك قوله) يروقك ويعظم في قلبك ومنه الشيء العجيب الذي يعظم في النفس (في الحياة الدنيا) في يتعلق بالقول أن يعجبك ما يقوله في معنى الدنيا لانه يطلب بادعاء المحبة حظ الدنيا ولا يريد به الآخرة أو بيعجبك أي يعجبك حلو كلامه في الدنيا لا في الآخرة لما يرهقه في الموقف من الحبسة واللكنة

الله عليه وسلم وذلك انه أشار على بني زهرة بالرجوع يوم بدر وقال لهم ان محمدا ابن أختكم فان يك كاذبا كفاكموه الناس وان يك صادقا كنتم أسعد الناس به قالوا نعم ما رأيت قال اني سأخنس بكم فاتبعوني فخنس فسمي الاخنس بذلك وكان الاخنس حلو الكلام حلو المنظر وكان يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويجالسه ويظهر الاسلام ويقول اني لاحبك ويحلف بالله على ذلك وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدني مجلسه وكان الاخنس منافقا فانزل فيه ومن الناس من يعجبك قوله أي يروقك وتستحسنه ويعظم في قلبك في الحياة الدنيا يعني أن حلاوة كلامه فيما يتعلق بأمر الدنيا (ويشهد الله على ما في قلبه) يعني قوله والله اني بك مؤمن ولك محب (وهو ألد الخصام) أي شديد الجدال في الباطل وقيل هو كاذب القول وقيل هو شديد القسوة في المعصية جدل بالباطل يتكلم بالحكمة ويعمل بالخطيئة (ق) عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان أبغض الرجال الى الله الالد الخصم يعني الشديد في الخصومة (واذا تولى) أي أدبر وأعرض عنك بعد الانة القول وحلاوة المنطق (سعى في الارض) أي سار ومشى في الارض (ليفسد فيها) يعني بقطع الارحام وسفك دماء المسلمين (ويهلك الحرث والنسل) وذلك ان الاخنس بن شريق كان بينه وبين ثقيف خصومة فبيتهم ليلا فاحرق زروعهم وأهلك مواشيهم وقيل خرج الى الطائف مقتضيا دينا كان له على غريم فاحرق له كدسا وعقر له أتانا وقيل معناه اذا تولى أي صار واليا وملك الامر سعى في الارض ليفسد فيها يعني بالظلم والعدوان كما يفعله ولاة السوء والظلمة وقيل يظهر ظلمه حتى يمنع الله بشؤم ظلمه القطر فيهلك الحرث والنسل بسبب منع المطر وقيل ان الآية عامة في حق كل من كان موصوفا بهذه الصفات المذكورة ولا يمتنع ان تنزل في رجل واحد ثم تكون عامة في حق كل من كان موصوفا بهذه الصفات (والله لا يحب الفساد) قال ابن عباس لا يرضى بالمعاصي واحتجت المعتزلة بهذه الآية على ان المحبة عبارة عن الارادة وأجيب عنه بان الارادة معنى غير المحبة فان الانسان قد يريد شيأ ولا يحبه وذلك لانه قد يتناول الدواء المر ولا يحبه فبان الفرق بين الارادة والمحبة وقيل ان المحبة مدح الشيء وتعظيمه والارادة بخلاف ذلك (واذا قيل له اتق الله) أي خف الله في سرك وعلانيتك (أخذته العزة بالاثم) أي حملته العزة وحمية الجاهلية على فعل الاثم وقيل بان يعمل الاثم وهو الظلم وترك الالتفات الى الوعظ وعدم الاصغاء اليه وأصل العزة المنعة والتكبر (فحسبه جهنم) أي كافية له جهنم جزاء وعذابا وجهنم اسم من أسماء النار التي يعذب بها الكفار في الآخرة وقيل هو اسم أعجمي وقيل بل هو عربي سميت النار بذلك لبعد قعرها (ولبئس المهاد) أي الفراش والمهاد التوطئة أيضا والمعنى ان العذاب بالنار يجعل تحته وفوقه قال ابن مسعود ان من أكبر الذنوب عند الله ان يقال للعبد اتق الله فيقول عليك بنفسك وروي انه قيل لعمر اتق الله فوضع خده على الارض تواضعا لله تعالى ۞ قوله عز وجل (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله) قال ابن عباس نزلت هذه الآية في سرية الرجيع وكانت بعد أحد (خ) عن أبي هريرة قال بعث النبي صلى الله عليه وسلم سرية عينا وأمر عليهم عاصم بن ثابت وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب فانطلقوا حتى اذا كانوا بين عسفان ومكة ذكروا الحي من هذيل يقال لهم بنو لحيان فتبعوهم بقريب من مائة رام فاقتفوا آثارهم حتى أتوا منزلا نزلوه فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة فقالوا هذا تمر يثرب فتبعوا أثرهم حتى لحقوهم فلما أحس بهم عاصم وأصحابه لجؤا الى فدفد وجاء القوم فاحاطوا بهم فقالوا لكم العهد والميثاق ان نزلتم الينا أن لا نقتل منكم رجلا فقال عاصم أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر اللهم أخبر عنا رسولك فقاتلوهم فرموهم حتى قتلوا عاصما في سبعة نفر

(ويشهد الله على ما في قلبه) أي يحلف ويقول الله شاهد على ما في قلبي من محبتك ومن الاسلام (وهو ألد الخصام) شديد الجدال والعداوة للمسلمين والخصام المخاصمة والاضافة بمعنى في لان أفعل يضاف الى ما هو بعضه تقول زيد أفضل القوم ولا يكون الشخص بعض الحدث فتقديره ألد في الخصومة أو الخصام جمع خصم كصعب وصعاب والتقدير وهو أشد الخصوم خصومة (واذا تولى) عنك وذهب بعد الانة القول واحلاء المنطق (سعى في الارض ليفسد فيها) كما فعل بثقيف فانه كان بينه وبينهم خصومة فبيتهم ليلا وأهلك مواشيهم وأحرق زروعهم (ويهلك الحرث والنسل) أي الزرع والحيوان أو اذا كان واليا فعل ما يفعله ولاة السوء من الفساد في الارض باهلاك الحرث والنسل وقيل يظهر الظلم حتى يمنع الله بشؤم ظلمه القطر فيهلك الحرث والنسل (والله لا يحب الفساد واذا قيل له) للاخنس (اتق الله) في الافساد والاهلاك (أخذته العزة بالاثم) حملته النخوة وحمية الجاهلية على الاثم الذي ينهى عنه وألزمته ارتكابه أو الباء للسبب أي أخذته العزة من أجل الاثم الذي في قلبه وهو الكفر (فحسبه جهنم) أي كافيه (ولبئس المهاد) اي الفراش جهنم ونزل في صهيب حين أراده المشركون على ترك الاسلام وقتلوا نفرا كانوا معه فاشترى نفسه بماله منهم وأتى المدينة أو فيمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى يقتل (ومن الناس من يشري) يبيعها (نفسه ابتغاء) لابتغاء (مرضات الله

بالجبل وبقي خبيب وزيد ورجل آخر فأعطوهم العهد والميثاق فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا اليهم فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها فقال الرجل الثالث الذي معهم هذا أول الغدر فأبى أن يصحبهم فجروه وعالجوه على ان يصحبهم فلم يفعل فقتلوه وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة فاشترى خبيبا بنوا الحرث بن عامر بن نوفل وكان خبيب هو الذي قتل الحرث يوم بدر فمكث عندهم أسيرا حتى اذا اجمعوا على قتله استعار موسى من بعض بنات الحرث ليستحد بها فأعارته قالت فغفلت عن صبي لي فدرج اليه حتى أتاه فوضعه على فخذه فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذلك مني وفي يده الموسى فقال أتخشين مني أن أقتله ما كنت لافعل ذلك ان شاء الله تعالى وكانت تقول ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ ثمرة وانه لموثق في الحديد وما كان الا رزقا رزقه الله خبيبا فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه قال دعوني أصلي ركعتين فصلى ركعتين ثم انصرف فقال لولا ترون أن ما بي جزع من الموت لزدت فكان أول من سن ركعتين عند القتل وقال اللهم أحصهم عددا وقال

فلست أبالي حين أقتل مسلما ❊ على أي جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الاله وان يشأ ❊ يبارك على أوصال شلو ممزع

ثم قام اليه عقبة بن الحرث فقتله وبعثت قريش الى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده بعد موته وكان قتل عظيما من عظمائهم يوم بدر فبعث الله عليه مثل الظلة من الدبر فحمته من رسلهم فلم يقدروا منه على شيء زاد في رواية وأخبر يعني النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه يوم أصيبوا خبرهم بعد قوله الموضع الذي فيه غلظ وارتفاع وقوله عالجوه أي مارسوه وأراد به انهم خدعوه ليتبعهم فأبى وقوله ليستحد الاستحداد حلق العانة والقطف العنقود من العنب قوله على أوصال شلو الشلو العضو من أعضاء الانسان والممزع المفرق والظلة الشيء الذي يظل من فوق الانسان والدبر جماعة النحل والزنابير وقال أهل التفسير ان كفار قريش بعثوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالمدينة انا قد أسلمنا فابعث الينا نفرا من علماء أصحابك يعلمونا دينك وكان ذلك مكرا منهم فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خبيب بن عدي الانصاري ومرثد بن أبي مرثد الغنوي وخالد بن بكر وعبد الله بن طارق بن شهاب البلوي وزيد بن الدثنة وأمر عليهم عاصم بن ثابت بن أبي أفلح الانصاري وذكر نحو حديث البخاري وزاد عليه فقالوا نصلب خبيبا حيا فقال اللهم انك تعلم انه ليس لي أحد حولي يبلغ سلامي رسولك فأبلغه سلامي فقام اليه أبو سروعة عقبة بن الحرث فقتله ويقال كان رجل من المشركين يقال له أبو ميسرة سلامان معه رمح فوضعه بين ثديي خبيب فقال له خبيب اتق الله فما زاده ذلك الاعتوا فطعنه فأنفذه فذلك قوله تعالى واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم يعني سلامان وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف فبعثه مع مولى له يسمى نسطاس الى التنعيم ليقتله في الحل واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل أنشدك الله يا زيد أتحب محمدا عندنا الآن مكانك يضرب عنقه وانك في أهلك فقال زيد والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي فقال أبو سفيان ما رأيت أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا ثم قتله نسطاس فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم هذا الخبر قال لاصحابه أيكم ينزل خبيبا عن خشبته وله الجنة فقال الزبير أنا يا رسول الله وصاحبي المقداد بن الاسود فخرجا يمشيان الليل ويكمنان النهار حتى أتيا التنعيم ليلا فاذا حول الخشبة أربعون من المشركين نشاوى وهم نيام فأنزلاه عن خشبته فاذا هو رطب يتثنى ولم يتغير منه شيء بعد أربعين يوما ويده على جراحته وهي تبض دما اللون لون الدم والريح ريح المسك فحمله الزبير على فرسه وسار فانتبه الكفار وقد فقدوا خبيبا فأخبروا قريشا فركب معهم سبعون فارسا فلما لحقوهم قذف الزبير خبيبا فابتلعته الارض فسمي بليع الارض وقال الزبير ما أجرأكم

عليّ يا معشر قريش ثم رفع العمامة عن رأسه وقال أنا الزبير بن العوام وأمي صفية بنت عبد المطلب وصاحبي المقداد بن الاسود أسدان ضاريان يدفعان عن اشبالهما فان شئتم ناضلتكم وان شئتم نازلتكم وان شئتم انصرفتم فانصرفوا الى مكة وقدم الزبير وصاحبه المقداد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبريل عنده فقال يا محمد ان الملائكة لتباهي بهذين من أصحابك ونزل في الزبير والمقداد ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله حين شريا أنفسهما بانزال خبيب عن خشبته وقال أكثر المفسرين نزلت في صهيب ابن سنان الرومي وانما نسب الى الروم لان منازلهم كانت بأرض الموصل فاغارت الروم على تلك الناحية فسبوه وهو غلام صغير فنشأ بالروم وانما كان من العرب ابن النمر بن قاسط قال سعيد بن المسيب وعطاء أقبل صهيب مهاجرا الى النبي صلى الله عليه وسلم فاتبعه نفر من مشركي قريش فنزل عن راحلته ونثل ما كان في كنانته وقال والله لا تصلوا الي أو أرمي بكل سهم معي ثم اضرب بسيفي ما بقي في يدي وان شئتم دللتكم على مال دفنته بمكة وخليتم سبيلي فقالوا نعم ففعل فلما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلت ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ربح البيع أبا يحيى وتلا عليه هذه الآية وقال الحسن أتدرون فيما نزلت هذه الآية نزلت في المسلم يلقى الكافر فيقول له قل لا اله الا الله فيأبى أن يقولها فيقول المسلم والله لاشرين نفسي لله فتقدم فقاتل وحده حتى قتل وقيل نزلت هذه الآية في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر قال ابن عباس رضي الله عنهما أرى من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله يقوم فيأمر هذا بتقوى الله فاذا لم يقبل وأخذته العزة بالاثم قال وأنا أشري نفسي لله فقاتله وكان علي كرم الله وجهه اذا قرأ هذه الآية يقول اقتتلا ورب الكعبة وسمع عمر رجلا يقرأ هذه الآية ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله فقال عمر انا لله وانا اليه راجعون قام رجل فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر فقتل عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وأما تفسير الآية فذكر المفسرون ان المراد بهذا الشراء البيع ومنه قوله وشروه بثمن أي باعوه والمعنى ان المسلم باع نفسه بثواب الله تعالى في الدار الآخرة وهذا البيع هو ان يبذل نفسه في طاعة الله من صلاة وصيام وحج وجهاد وأمر بمعروف ونهي عن منكر فكان ما يبذله من نفسه كالسلعة فصار كالبائع والله تعالى المشتري والثمن هو ثواب الله تعالى في الآخرة ابتغاء مرضات الله أي طلب رضا الله (والله رؤف بالعباد) أي من رأفة الله بعباده ان جعل النعيم الدائم في الجنة جزاء على العمل القليل المنقطع ومن رأفته أنه يقبل توبة عبده ومن رأفته ان نفس العباد وأموالهم له ثم انه تعالى يشتري ملكه بملكه فضلا منه ورحمة واحسانا ۞ قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة) نزلت في مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه وذلك لما أسلموا أقاموا على تعظيم شرائع موسى فعظموا السبت وكرهوا لحوم الابل وألبانها وقالوا ان ترك هذه الاشياء مباح في الاسلام وواجب في التوراة وقالوا أيضا يا رسول الله ان التوراة كتاب الله دعنا فلنقم به في صلاتنا بالليل فأنزل الله هذه الآية وأمرهم أن يدخلوا في السلم أي في شرائع الاسلام ولا يتمسكوا بالتوراة فانها منسوخة والمعنى استسلموا لله وأطيعوه فيما أمر به وقيل هو خطاب لمن لم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب والمعنى يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى ادخلوا في السلم كافة أي في الاسلام وروى جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم حين أتاه عمر فقال انا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا فترى ان نكتب بعضها فقال صلى الله عليه وسلم أمتهوكون كما تهوكت اليهود والنصارى لقد جئتكم بها بيضاء نقية ولو أن موسى حي ما وسعه الا اتباعي قوله أمتهوكون أي تتحيرون أنتم في دينكم حتى تأخذوه من اليهود والنصارى وقوله لقد جئتكم بها يعني بالملة الحنيفية بيضاء نقية أي لا تحتاج الى شيء وقيل يحتمل أن يكون خطابا للمنافقين من المؤمنين والمعنى يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم

والله رؤف بالعباد) حيث أثابهم على ذلك (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم) وبفتح السين حجازي وعلي وهو الاستسلام والطاعة أي استسلموا لله وأطيعوه أو الاسلام والخطاب لاهل الكتاب لانهم آمنوا بنبيهم وكتابهم أو للمنافقين لانهم آمنوا بألسنتهم (كافة) لا يخرج أحد منكم يده عن طاعته حال من الضمير في ادخلوا أي جميعا أو من السلم لانها تؤنث كأنهم أمروا أن يدخلوا في الطاعات كلها أو في شعب الاسلام وشرائعه كلها وكافة من الكف كأنهم كفوا أن يخرج منهم أحد باجتماعهم

ادخلوا فى السلم أى الانقياد والطاعة لان أصل السلم الاستسلام وهو الانقياد كافة أى باجمعكم ولا تتفرقوا وقيل يحتمل أن يرجع الى الاسلام والمعنى ادخلوا فى أحكام الاسلام وشرائعه كافة وهذا المعنى أليق بظاهر التفسير لانهم أمروا بالقيام بها كلها قال حذيفة بن اليمان فى هذه الآية للاسلام ثمانية أسهم فعل الصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة والجهاد والامر بالمعروف والنهى عن المنكر قال وقد خاب من لا سهم له (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) يعنى آثاره فيما زين لكم من تحريم السبت ولحوم الابل وغير ذلك وقيل ولا تلتفتوا الى الشبهات التى يلقيها اليكم أصحاب الضلالة والغواية والاهواء المضلة لان من اتبع سنة انسان فقد تبع أثره (انه لكم عدو مبين) يعنى الشيطان فان قلت عداوته بايصال الضرر والقاء الوسوسة فكيف يصح ذلك مع الاعتقاد بان الله هو الفاعل لجميع الاشياء قلت انه يحاول ايصال الضرر والبلاء الينا ولكن الله منعه عن ذلك وأما معنى الوسوسة فمعلوم انه يزين المعاصى والقاء الشبهات وكل سبب لوقوع الانسان فى مخالفة الله تعالى فيصده بذلك عن الثواب فهذا من أعظم جهات العداوة فان قلت كيف يصح وصف الشيطان بانه مبين مع انا لا نراه قلت ان الله تعالى بين عداوته لنا فكانه بين وان لم يشاهد (فان زللتم) أى ملتم وضللتم وقال ابن عباس أشركتم (من بعد ما جاءتكم البينات) أى الدلالات الواضحات (فاعلموا ان الله عزيز) أى فى نقمته ممن خالفه غالب لا يعجزه شئ (حكيم) يعنى انه لا ينتقم الا بحق والحكيم ذو الاصابة فى الامور كلها وفى الآية وعيد وتهديد لمن فى قلبه شك ونفاق أو عنده شبهة فى الدين ۞ قوله عز وجل (هل ينظرون) أى ينتظرون التاركون الدخول فى السلم والمتبعون خطوات الشيطان (الا أن يأتيهم الله فى ظلل) جمع ظلة (من الغمام) يعنى السحاب الابيض الرقيق سمى غماما لانه يغم أى يستر وقيل هو شئ غير السحاب ولم يكن الا لبنى اسرائيل فى تيههم وهو كهيئة الضباب الابيض (والملائكة) أى وتأتيهم الملائكة وروى الطبرى فى تفسيره بسند متصل عن عكرمة عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال من الغمام طاقات يأتى الله عز وجل فيها محفوفا وذلك قوله تعالى هل ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة وقضى الامر قال عكرمة والملائكة حوله وقيل معناه حول الغمام وقيل حول الرب تبارك وتعالى واعلم ان هذه الآية من آيات الصفات وللعلماء فى آيات الصفات وأحاديث الصفات مذهبان أحدهما وهو مذهب سلف هذه الامة واعلام أهل السنة الايمان والتسليم لما جاء فى آيات الصفات وأحاديث الصفات وانه يجب علينا الايمان بظاهرها ونؤمن بها كما جاءت ونكل علمها الى الله تعالى والى رسوله صلى الله عليه وسلم مع الايمان والاعتقاد بان الله تعالى منزه عن سمات الحدوث وعن الحركة والسكون قال الكلبى هذا من الذى لا يفسر وقال سفيان بن عيينة كل ما وصف الله به نفسه فى كتابه فتفسيره قراءته والسكوت عليه ليس لاحد أن يفسره الا الله ورسوله وكان الزهرى والاوزاعى ومالك وابن المبارك وسفيان الثورى والليث بن سعد وأحمد بن حنبل واسحق بن راهويه يقولون فى هذه الآية وأمثالها اقرؤها كما جاءت بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل هذا مذهب أهل السنة ومعتقد سلف الامة وأنشد بعضهم فى المعنى

عقيدتنا ان ليس مثل صفاته * ولا ذاته شئ عقيدة صائب
نسلم آيات الصفات بامرها * وأخبارها للظاهر المتقارب
ونؤيس عنها كنه فهم عقولنا * وتأويلنا فعل اللبيب المغالب
ونركب للتسليم سفنا فانها * لتسليم دين المرء خير المراكب

المذهب الثانى وهو قول جمهور علماء المتكلمين وذلك انه أجمع جميع المتكلمين من العقلاء والمعتبرين من أصحاب النظر على انه تعالى منزه عن المجئ والذهاب ويدل على ذلك ان كل ما يصح عليه المجئ والذهاب لا ينفك عن الحركة والسكون وهما محدثان وما لا ينفك عن المحدث فهو محدث والله تعالى منزه عن ذلك

(ولا تتبعوا خطوات الشيطان) وساوسه (انه لكم عدو مبين) ظاهر العداوة (فان زللتم) ملتم عن الدخول فى السلم (من بعد ما جاءتكم البينات) أى الحجج الواضحة والشواهد اللائحة على ان ما دعيتم الى الدخول فيه هو الحق (فاعلموا ان الله عزيز) غالب لا يعجزه شئ من عذابكم (حكيم) لا يعذب الا بحق وروى ان قارئا قرأ غفور رحيم فسمعه اعرابى لم يقرأ القرآن فأنكره وقال ليس هذا من كلام الله اذ الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل والعصيان لانه اغراء عليه (هل ينظرون) ما ينتظرون (الا أن يأتيهم الله) أى أمر الله وبأسه كقوله أو يأتى أمر ربك فجاءها بأسنا والمأتى به محذوف بمعنى أن يأتيهم الله ببأسه للدلالة عليه بقوله ان الله عزيز (فى ظلل) جمع ظلة وهى ما أظلك (من الغمام) السحاب وهو للتهويل اذ الغمام مظنة الرحمة فاذا أنزل منه العذاب كان الامر أفظع وأهول (والملائكة) أى وتأتى الملائكة الذين وكلوا بتعذيبهم أو المراد حضورهم يوم القيامة

فيستحيل ذلك في حقه تعالى فثبت بذلك ان ظاهر الآية ليس مرادا فلا بد من التأويل على سبيل التفصيل فعلى هذا قيل في معنى الآية هل ينظرون الا ان يأتيهم الله بالآيات فيكون مجيء الآيات مجيئا لله تعالى على سبيل التفخيم لشأن الآيات وقيل معناه الا ان يأتيهم أمر الله ووجه هذا التأويل ان الله تعالى فسره في آية أخرى فقال هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك فصار هذا المحكم مفسرا لهذا المجمل في هذه الآية وقيل معناه يأتيهم الله بما أوعد من الحساب والعقاب فحذف ما يأتي به تهويلا عليهم اذ لو ذكر ما يأتي به كان أسهل عليهم في باب الوعيد واذا لم يذكر كان أبلغ وقيل يحتمل أن تكون الفاء بمعنى الباء لان بعض الحروف يقوم مقام بعض فيكون المعنى هل ينظرون الا أن يأتيهم الله بظلل من الغمام والملائكة والمراد العذاب الذي يأتي من الغمام مع الملائكة وقيل معناه ما ينظرون الا أن يأتيهم قهر الله وعذابه في ظلل من الغمام فان قلت لم كان اتيان العذاب في الغمام قلت لان الغمام مظنة الرحمة ومنه ينزل المطر فاذا نزل منه العذاب كان أعظم وأفظع وقيل ان نزول الغمام علامة لظهور القيامة وأهوالها (وقضى الامر) أي وجب العذاب وفرغ من الحساب وذلك فصل الله القضاء بين العباد يوم القيامة (والى الله ترجع الامور) أي الى الله تصير أمور العباد في الآخرة فان قلت هل كانت ترجع الى غيره قلت ان أمور جميع العباد ترجع اليه في الدنيا والآخرة ولكن المراد من هذا اعلام الخلق انه المجازي على الاعمال بالثواب والعقاب وجواب آخر وهو انه لما عبد قوم غيره في الدنيا أضافوا أفعاله الى سواه ثم فاذا كان يوم القيامة وانكشف الغطاء ردوا الى الله ما أضافوه الى غيره في الدنيا ۞ قوله عز وجل (سل بني اسرائيل) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أمره ان يسأل يهود المدينة وليس المراد بهذا السؤال العلم بالآيات لانه كان صلى الله عليه وسلم قد علمها باعلام الله اياه ولكن المراد بهذا السؤال التقريع والتوبيخ والمبالغة في الزجر عن الاعراض عن دلائل الله وترك الشكر وقيل المراد بهذا السؤال التقرير وتذكير النعم التي أنعم بها على سلفهم (كم آتيناهم من آية بينة) أي من دلالة واضحة على نبوة موسى عليه السلام مثل العصا واليد البيضاء وفلق البحر وانزال المن والسلوى (ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته) يعني يغير الآيات التي جاءته من الله لانها هي سبب الهدى والنجاة من الضلالة وقيل هي حجج الله الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وذلك أنهم أنكروها وبدلوها وقيل المراد بنعم الله عهده الذي عهد اليهم فلم يفوا به (فان الله شديد العقاب) يعني لمن بدل نعمة الله ۞ قوله عز وجل (زين للذين كفروا الحياة الدنيا) نزلت في مشركي العرب أبي جهل وأصحابه لانهم كانوا يتنعمون بما بسط لهم في الدنيا من المال ويكذبون بالمعاد وقيل نزلت في المنافقين عبد الله بن أبي وأصحابه وقيل نزلت في رؤساء اليهود ويحتمل انها نزلت في الكل والمزين هو الله تعالى بدليل قراءة من قرأ زين بفتح الزاي وذلك انه لا يمتنع أن يكون الله تعالى هو المزين لهم بما أظهره في الدنيا من الزهرة والنضارة والطيب واللذة وخلق الاشياء العجيبة والمناظر الحسنة وانما فعل ذلك ابتلاء لعباده وذلك انه جعل دار الدنيا دار ابتلاء وامتحان وركب في الطباع الميل الى اللذات وحب الشهوات لا على سبيل الالجاء والقسر الذي لا يمكن تركه بل على سبيل التحبب الذي تميل النفس اليه مع امكان ردها عنه فنظر الخلق الى الدنيا أكثر من قدرها فأعجبهم حسنها وزهرتها وزينتها فأحبوها وفتنوا بها وقيل ان المراد من التزيين انه تعالى أمهلهم في الدنيا حتى أقبلوا عليها وأحبوها فكان هذا الامهال هو التزيين وقيل ان المزين هو الشيطان وغواة الجن والانس وذلك انهم زينوا للكفار الحرص على الدنيا وطلبها وقبحوا لهم أمر الآخرة وقيل أوهموهم أن لا آخرة ليقبلوا على لذات الدنيا وطلب الحرص عليها وهذا التأويل ضعيف لان قوله تعالى زين للذين كفروا يتناول جميع الكفار فيدخل فيه الشيطان وغواة الجن والانس وان كلهم مزين لهم وهذا المزين لا بد وأن يكون مغايرا لهم فثبت بهذا ضعف قول المعتزلة

يوم النشور ترجع الامور حيث كان شامي وحمزة وعلي (سل) أصله اسأل فنقلت فتحة الهمزة الى السين بعد حذفها واستغنى عن همزة الوصل فصار سل وهو أمر للرسول أو لكل أحد وهو سؤال تقريع كما يسئل الكفرة يوم القيامة (بني اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة) على أيدي أنبيائهم وهي معجزاتهم أو من آية في الكتب شاهدة على صحة دين الاسلام وكم استفهامية أو خبرية (ومن يبدل نعمة الله) هي آياته وهي أجل نعمة من الله لانها أسباب الهدى والنجاة من الضلالة وتبديلهم اياها أن الله أظهرها لتكون أسباب هداهم فجعلوها أسباب ضلالتهم كقوله فزادتهم رجسا الى رجسهم أي وحرفوا آيات الكتب الدالة على دين محمد عليه السلام (من بعد ما جاءته) من بعد ما عرفها وصحت عنده لانه اذا لم يعرفها فكأنها غائبة عنه (فان الله شديد العقاب) لمن استحقه (زين للذين كفروا الحيوة الدنيا) المزين هو الشيطان زين لهم الدنيا وحسنها في أعينهم بوساوسه وحببها اليهم فلا يريدون غيرها أو الله تعالى بخلق الشهوات فيهم ولان جميع الكائنات منه ويدل عليه قراءة من قرأ زين للذين كفروا الحيوة الدنيا

(ويسخرون من الذين آمنوا) يعني ان الكفار يستهزؤن بفقراء المؤمنين قال ابن عباس مثل عبد الله ابن مسعود وعمار بن ياسر وصهيب وبلال ونظرائهم وقيل كانوا يقولون انظروا الى هؤلاء الذين يزعم محمد انه يغلب بهم (والذين اتقوا) يعني الفقراء من المؤمنين (فوقهم) أي فوق الكفار (يوم القيامة) لان الفقراء في عليين والكفار والمنافقين في أسفل السافلين (ق) عن حارثة بن وهب انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لابره ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ جعظري مستكبر العتل الفظ الغليظ الشديد في الخصومة الذي لا ينقاد لخير والجواظ الفاجر المختال في مشيته وقيل هو القصير البطين والجعظري الفظ الغليظ وقيل هو الذي يتمدح بما ليس فيه أو عنده (ق) عن اسامة بن زيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين وأصحاب الجد محبوسون غير ان أصحاب النار قد أمر بهم الى النار وقمت على باب النار فاذا عامة من دخلها النساء الجد بفتح الجيم هو الحظ والغنى وكثرة المال (والله يرزق من يشاء بغير حساب) قال ابن عباس يعطى كثيرا بغير مقدار لان كل ما يدخل عليه الحساب فهو قليل والمعنى انه يوسع لمن يشاء من عباده وقيل يرزقه في الدنيا ولا يحاسبه في الآخرة وقيل معناه انه يرزق من يشاء من حيث لا يحتسب وقيل معناه انه يرزقه بغير استحقاق وقيل معناه انه تعالى لا يخاف نفاد ما في خزائنه حتى يحتاج الى حساب لما يخرج منها لان الحساب انما يكون ليعلم قدر ما يعطى والله غني عالم بما يعطي ولا يخاف نفاد خزائنه لانها بين الكاف والنون وقيل معناه ان الله يقتر الرزق على من يشاء ويبسط الرزق لمن يشاء ولا يعطي كل واحد على قدر حاجته بل يعطي الكثير لمن لا يحتاج اليه ولا معارض له في حكمه ويحاسب فيما رزق ولا يقال له لم أعطيت هذا وحرمت هذا ولا لم أعطيت هذا أكثر من ذاك لانه تعالى لا شريك له في ملكه ينازعه ولا يسئل عما يفعل وقيل يحتمل أن يكون المراد منه ما يعطي الله المتقين في الآخرة من الثواب والكرامة بغير محاسبة منه لهم على ما من به عليهم وذلك ان نعيم الجنة لا نفاد له ولا انقطاع وقيل انه تعالى يعطي أهل الجنة الثواب والاجر بقدر أعمالهم ثم يتفضل عليهم فذلك الفضل منه اليهم بغير حساب ۞ قوله عز وجل (كان الناس أمة واحدة) أي على دين واحد قيل هو آدم وذريته كانوا مسلمين على دين واحد الى أن قتل قابيل هابيل فاختلفوا وقيل كان الناس على شريعة واحدة من الحق والهدى من وقت آدم الى مبعث نوح ثم اختلفوا فبعث الله نوحا وهو أول رسول بعث ثم بعث بعده الرسل وقيل هم أهل السفينة الذين كانوا مع نوح وكانوا مؤمنين ثم اختلفوا بعد وفاته وقيل ان العرب كانت على دين ابراهيم عليه السلام الى أن غيره عمرو بن لحي وقيل كان الناس أمة واحدة حين أخرجوا من ظهر آدم لاخذ الميثاق فقال ألست بربكم قالوا بلى فاعترفوا بالعبودية ولم يكونوا أمة واحدة غير ذلك اليوم ثم لما ظهروا الى الوجود اختلفوا بسبب البغي والحسد وقيل ان آدم وحده كان أمة واحدة يعني اماما وقدوة يقتدى به وانما ظهر الاختلاف بعده وقيل كان الناس أمة واحدة على الكفر والباطل بدليل قوله فبعث الله النبيين فان قيل أليس قد كان فيهم من هو مسلم نحو هابيل وشيث وادريس ونحوهم فالجواب ان الغالب في ذلك الزمان كان الكفر والحكم للغالب وقيل ان الآية دلت على ان الناس كانوا أمة واحدة وليس فيها ما يدل على انهم كانوا على ايمان أو كفر فهو موقوف على دليل من خارج (فبعث الله النبيين) وجملتهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا الرسل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر المذكورون منهم في القرآن باسماء الاعلام ثمانية وعشرون نبيا (مبشرين) يعني بالثواب لمن آمن وأطاع (ومنذرين) يعني مخوفين بالعقاب لمن كفر وعصى وانما قدم البشارة على الانذار لان البشارة تجري مجرى حفظ الصحة للابدان والانذار يجري مجرى ازالة المرض ولا شك ان المقدم هو الاول فكان أولى بالتقديم (وأنزل معهم الكتاب) أي الكتب أو يكون التقدير وأنزل مع كل واحد الكتاب (بالحق) أي بالعدل والصدق وجملة الكتب

(ويسخرون من الذين آمنوا) كانوا يسخرون من فقراء المؤمنين ابن مسعود وعمار وصهيب ونحوهم أي لا يريدون غير الدنيا وهم يسخرون ممن لا حظ له فيها أو ممن يطلب غيرها (والذين اتقوا) عن الشرك وهم هؤلاء الفقراء (فوقهم يوم القيامة) لانهم في جنة عالية وهم في نار هاوية (والله يرزق من يشاء بغير حساب) بغير تقتير يعني انه يوسع على من أراد التوسعة عليه كما وسع على قارون وغيره وهذه التوسعة عليكم من الله لحكمة وهي استدراجكم بالنعمة ولو كانت كرامة لكان المؤمنون أحق بها منكم (كان الناس أمة واحدة) متفقين على دين الاسلام من آدم الى نوح عليهما السلام أو هم نوح ومن كان معه في السفينة فاختلفوا (فبعث الله النبيين) ويدل على حذفه قوله تعالى ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وقراءة عبد الله كان الناس أمة واحدة فاختلفوا وقوله تعالى وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا أو كان الناس أمة واحدة كفارا فبعث الله النبيين فاختلفوا عليهم والاول الاوجه (مبشرين) بالثواب للمؤمنين (ومنذرين) بالعقاب للكافرين وهما حالان (وأنزل معهم الكتاب) أي مع كل واحد منهم كتابه (بالحق) بتبيان الحق

المنزلة من السماء مائة وأربعة كتب أنزل على آدم عشر صحائف وعلى شيث ثلاثون وعلى ادريس خمسون وعلى موسى عشر صحائف والتوراة وعلى داود الزبور وعلى عيسى الانجيل وعلى محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم القرآن (ليحكم بين الناس) يعني الكتاب وانما أضيف الحكم الى الكتاب وان كان الحاكم هو الله تعالى لانه أنزله والمعنى ليحكم الله بالكتاب الذي أنزله وقيل معناه ليحكم بين الناس كل نبي بكتابه المنزل عليه فاسناد الحكم الى الكتاب أو النبي مجاز والله هو الحاكم في الحقيقة (فيما اختلفوا فيه) أي في الحق الذي اختلفوا فيه من بعد ما كانوا متفقين عليه (وما اختلف فيه) أي في الحق (الا الذين أوتوه) أي أعطوا الكتاب والمراد به التوراة والانجيل والذين أوتوه اليهود والنصارى واختلافهم هو تكفير بعضهم بعضا بغيا وحسدا وقيل اختلافهم هو تحريفهم وتبديلهم وقيل الكناية فيه راجعة الى محمد صلى الله عليه وسلم والمعنى وما اختلف في أمر محمد صلى الله عليه وسلم بعد وضوح الدلالات على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم الا اليهود الذين أوتوا الكتاب بغيا منهم وحسدا (من بعد ما جاءتهم البينات) أي الدلالات الواضحات على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (بغيا بينهم) أي انهم لم يبق لهم عذر في العدول عنه وترك ما جاء به وانما تركوا اتباعه بغيا وحسدا وهو طلب الدنيا وطلب الرياسة (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه) أي الى ما اختلفوا فيه (من الحق) والمعنى فهدى الله الذين آمنوا المعرفة ما اختلفوا فيه من الحق وقيل هو من المقلوب والمعنى فهدى الله الذين آمنوا للحق الذي اختلفوا فيه وكان اختلافهم الذي اختلفوا فيه الجمعة فهدى الله تعالى هذه الامة الاسلامية اليها (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن الآخرون السابقون يوم القيامة أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله فغدا لليهود وبعد غد للنصارى وفي رواية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول نحن الآخرون السابقون بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له زاد النسائي يعني يوم الجمعة ثم اتفقا فالناس لنا تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد (م) عن حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أضل الله عن يوم الجمعة من كان قبلنا فكان لليهود يوم السبت وللنصارى يوم الاحد فجاء الله بنا فهدانا اليوم الجمعة فجعل الله الجمعة والسبت والاحد وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة نحن الآخرون من أهل الدنيا الاولون يوم القيامة المقضي لهم يوم القيامة قبل الخلائق وقيل اختلفوا في شأن القبلة فصلت اليهود نحو المغرب الى بيت المقدس وصلت النصارى الى المشرق وهدانا الله الى الكعبة وقيل اختلفوا في الصيام فهدانا الله لشهر رمضان واختلفوا في ابراهيم فقالت اليهود كان يهوديا وقالت النصارى كان نصرانيا فهدانا الله الى الحق فقلنا كان حنيفا مسلما واختلفوا في عيسى بن مريم فاليهود فرطوا فيه والنصارى أفرطوا فيه فهدانا الله في ذلك كله للحق والمعنى فهدى الله الذين آمنوا الى الحق الذي اختلف فيه من اختلف (باذنه) يعني بعلمه وأمره وارادته (والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم)

قوله عز وجل (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة) نزلت في غزوة الاحزاب وهي غزوة الخندق وذلك ان المسلمين أصابهم ما أصابهم من الجهد والشدة والخوف والبرد وضيق العيش الذي كانوا فيه يومئذ وقيل نزلت في غزوة أحد وقيل لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة في أول الهجرة اشتد عليهم الضر لانهم خرجوا بلا مال وتركوا أموالهم وديارهم بايدي المشركين وآثروا رضا الله ورسوله وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأسر قوم النفاق فانزل الله هذه الآية تطييبا لقلوبهم ومعنى الآية أحسبتم والميم صلة وقيل هل حسبتم والمعنى أظننتم أيها المؤمنون أن تدخلوا الجنة بمجرد الايمان ولم يصبكم مثل ما أصاب من كان قبلكم من أتباع الانبياء والرسل من الشدائد والمحن

فيه بعد الاتفاق (وما اختلف فيه) في الحق (الا الذين أوتوه) أي الكتاب المنزل لازالة الاختلاف أي ازدادوا في الاختلاف لما أنزل عليهم الكتاب (من بعد ما جاءتهم البينات) على صدقه (بغيا بينهم) مفعول له أي حسدا بينهم وظلما لحرصهم على الدنيا وقلة انصاف منهم (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه) أي هدى الله الذين آمنوا للحق الذي اختلف فيه من اختلف فيه (من الحق) بيان لما اختلفوا فيه (باذنه) بعلمه (والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم أم حسبتم) أم منقطعة لا متصلة لان شرطها أن يكون قبلها همزة الاستفهام كقولك أعندك زيد أم عمرو أي أيهما عندك وجوابه زيد ان كان عنده زيد أو عمرو ان كان عنده عمرو وأما أم المنقطعة فتقع بعد الاستفهام وبعد الخبر وتكون بمعنى بل والهمزة والتقدير بل أحسبتم ومعنى الهمزة فيها للتقرير وانكار الحسبان واستبعاده لما ذكر ما كانت عليه الامم من الاختلاف على النبيين بعد مجيء البينات تشجيعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على الثبات والصبر مع الذين اختلفوا عليه من المشركين وأهل الكتاب وانكارهم لآياته وعداوتهم له قال لهم على طريق الالتفات التي هي أبلغ (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة

والابتلاء والاختبار وهو قوله (ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم) أي شبه الذين مضوا قبلكم من النبيين وأتباعهم من المؤمنين ومثل محنتهم (مستهم البأساء) أي أصابهم الفقر أو الشدة والمسكنة وهو اسم من البؤس (والضراء) يعني المرض والزمانة وضروب الخوف (وزلزلوا) أي وحركوا بانواع البلايا والرزايا وأصل الزلزلة الحركة وذلك لان الخائف لا يستقر بل لا يزال يضطرب و يتحرك اقلقه (حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) وذلك لان الرسل أثبت من غيرهم وأصبر وأضبط للنفس عند نزول البلاء وكذا أتباعهم من المؤمنين والمعنى انه بلغ بهم الجهد والشدة والبلاء ولم يبق لهم صبر وذلك هو الغاية القصوى في الشدة فلما بلغ بهم الحال في الشدة الى هذه الغاية واستبطؤا النصر قيل لهم (ألا ان نصر الله قريب) اجابة لهم في طلبهم والمعنى هكذا كان حالهم لم يغيرهم طول البلاء والشدة عن دينهم الى ان يأتيهم نصر الله فكونوا يا معشر المؤمنين كذلك وتحملوا الاذى والشدة والمشقة في طلب الحق فان نصر الله قريب (خ) عن خباب بن الارت قال شكونا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا ألا تنتصر لنا ألا تدعو لنا فقال قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الارض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين و يمشط بامشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن الله هذا الامر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخاف الا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون ۞ قوله عز وجل (يسألونك ماذا ينفقون) نزلت في عمرو بن الجموح وكان شيخا كبيرا ذا مال فقال يا رسول الله بماذا نتصدق وعلى من ننفق فانزل الله تعالى يسألونك ماذا ينفقون (قل ما أنفقتم من خير) أي مال والمعنى وما تفعلوا من انفاق شيء من المال قل أو كثر (فللوالدين) وانما قدم الانفاق على الوالدين لوجوب حقهما على الولد لانهما كانا السبب في اخراجه من العدم الى الوجود (والاقربين) وانما ذكر بعد الوالدين الاقربين لان الانسان لا يقدر أن يقوم بمصالح جميع الفقراء فتقديم القرابة أولى من غيرهم (واليتامى) وانما ذكر بعد الاقربين اليتامى لصغرهم ولانهم لا يقدرون على الاكتساب ولا لهم أحد ينفق عليهم (والمساكين) وانما أخرهم لان حاجتهم أقل من حاجة غيرهم (وابن السبيل) يعني المسافر فانه بسبب انقطاعه عن بلده قد يقع في الحاجة والفقر فانظر الى هذا الترتيب الحسن العجيب في كيفية الانفاق ثم لما فصل الله هذا التفصيل الحسن الكامل أتبعه بالاجمال فقال تعالى (وما تفعلوا من خير فان الله به عليم) وما تفعلوا من خير مع هؤلاء أو غيرهم طلبا لوجه الله تعالى ورضوانه فان الله به عليم فيجازيكم عليه وذكر علماء التفسير ان هذه الآية منسوخة قال ابن مسعود نسختها آية الزكاة وقال الحسن انها محكمة ووجه احكامها ان الله ذكر فيها من تجب النفقة عليه مع فقره وهما الوالدان وقال ابن زيد هذا في النفل وهو ظاهر الآية فمن أحب التقرب الى الله تعالى بالانفاق فالاولى به ان ينفق في الوجوه المذكورة في الآية فيقدم الاول فالاول ﴿بقي في الآية سؤال﴾ وهو انه كيف طابق السؤال الجواب وهو انهم سألوا عن بيان ما ينفق فاجيبوا ببيان المصرف وأجيب عن هذا السؤال بانه قد تضمن قوله ما أنفقتم من خير بيان ما ينفقونه وهو المال ثم ضم الى جواب السؤال ما يكمل به المقصود وهو بيان المصرف لان النفقة لا تعد نفقة الا أن تقع موقعها قال الشاعر

ان الصنيعة لا تعد صنيعة * حتى يصاب بها طريق المصنع

۞ قوله عز وجل (كتب عليكم القتال) أي فرض عليكم الجهاد واختلف العلماء في حكم الآية فقال عطاء الجهاد تطوع والمراد من الآية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم دون غيرهم واليه ذهب الثوري

ولما يأتيكم) أي ولم يأتكم وفي لما معنى التوقع يعني أن اتيان ذلك متوقع منتظر (مثل الذين خلوا) مضوا أي حالهم التي هي مثل في الشدة (من قبلكم) من النبيين والمؤمنين (مستهم) بيان للمثل وهو استئناف كأن قائلا قال كيف كان ذلك المثل فقيل مستهم (البأساء) أي البؤس (والضراء) المرض والجوع (وزلزلوا) وحركوا بانواع البلايا وازعجوا ازعاجا شديدا شبيها بالزلزلة (حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه) الى الغاية التي قال الرسول ومن معه من المؤمنين (متى نصر الله) أي بلغ بهم الضجر ولم يبق لهم صبر حتى قالوا ذلك معناه طلب النصر وتمنيه واستطالة زمان الشدة فقيل لهم (ألا ان نصر الله قريب) اجابة لهم الى طلبهم من عاجل النصر يقول بالرفع نافع على حكاية حال ماضية نحو شربت الابل حتى يجيء البعير يجر بطنه وغيره بالنصب على اضمار أن ومعنى الاستقبال لان أن علم له * ولما قال عمرو بن الجموح وهو شيخ كبير وله مال عظيم ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها نزل (يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والاقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل) فقد تضمن قوله ما أنفقتم من خير بيان ما ينفقونه وهو كل خير وبنى الكلام على ما هو أهم وهو بيان المصرف لان النفقة لا يعتد بها الا أن تقع موقعها عن الحسن وحكى هي في التطوع (وما تفعلوا من خير فان الله به عليم) فيجزي عليه (كتب عليكم القتال) فرض عليكم جهاد الكفار

وحكي عن الاوزاعي نحوه ووجه هذا القول ان قوله كتب يقتضي الايجاب ويكفي العمل به مرة واحدة وحجة من أوجبه على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ان قوله عليكم يقتضي تخصيص هذا الخطاب بالموجودين في ذلك الوقت وقيل بل الآية على ظاهرها والجهاد فرض على كل مسلم ويدل على ذلك ما روى عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الجهاد واجب عليكم مع كل أمير برا كان أو فاجرا أخرجه أبو داود بزيادة فيه (ق) عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية واذا استنفرتم فانفروا وقيل ان الجهاد فرض على الكفاية اذا قام به البعض سقط الفرض عن الباقين بهذا القول هو المختار الذي عليه جمهور العلماء قال الزهري كتب الله القتال على الناس جاهدوا أو لم يجاهدوا فمن غزا فيها ونعمت ومن قعد فهو عدة ان استعين به أعان وان استنفر نفر وان استغني عنه قعد قال الله تعالى فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى ولو كان القاعد تاركا فرضا لم يعده بالحسنى واختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية على ثلاثة أقوال أحدها انها محكمة ناسخة للعفو عن المشركين القول الثاني انها منسوخة لان فيها وجوب الجهاد على الكافة ثم نسخ بقوله تعالى وما كان المؤمنون لينفروا كافة القول الثالث انها ناسخة من وجه ومنسوخة من وجه فالناسخ منها ايجاب الجهاد مع المشركين بعد المنع منه والمنسوخ ايجاب الجهاد على الكافة ۞ وقوله تعالى (وهو كره لكم) أي القتال شاق عليكم وهذا الكره انما حصل من حيث نفور الطبع عن القتال لما فيه من مؤنة المال ومشقة النفس وخطر الروح والخوف لا أنهم كرهوا أمر الله وقيل نسخ هذا الكره بقوله تعالى اخبارا عنهم وقالوا سمعنا وأطعنا وقيل انما كان كراهتهم القتال قبل أن يفرض عليهم لما فيه من الخوف والشدة وكثرة الاعداء فبين الله تعالى ان الذي تكرهون من القتال هو خير لكم من تركه لئلا يكرهوه بعد ان فرض عليهم (وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم) لفظة عسى توهم الشك مثل لعل وهي من الله يقين وقيل انها كلمة مطمعة فهي لا تدل على حصول الشك للقائل وتدل على حصول الشك للمستمع والمعنى ان الغزو فيه احدى الحسنيين اما الظفر والغنيمة واما الشهادة والجنة وقيل ربما كان الشيء شاقا في الحال وهو سبب المنافع الجليلة في المستقبل ومثله شرب الدواء المر فانه ينفر منه الطبع في الحال ويكرهه لكن يتحمل هذه الكراهة والمشقة لتوقع حصول الصحة في المستقبل (وعسى أن تحبوا شيأ) يعني القعود عن الغزو (وهو شر لكم) يعني لما فيه من فوت الغنيمة والاجر وطمع العدو فيكم لانه اذا علم ميلكم الى الراحة والدعة والسكون قصد بلادكم وحاول قتالكم واذا علم أن فيكم شهامة وجلادة على القتال كف عنكم (والله يعلم) يعني ما في الجهاد من الغنيمة والاجر والخير (وأنتم لا تعلمون) يعني ذلك والمعنى ان العبد اذا علم قصور علمه وكمال علم الله ثم ان الله تعالى أمره بأمر كان ذلك الامر فيه مصلحة عظيمة فيجب على العبد امتثال أمر الله تعالى وان كان يشق على النفس في الحال ۞ قوله عز وجل (يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه) سبب نزول هذه الآية ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عبد الله بن جحش وهو ابن عمته في سرية في جمادى الآخرة قبل قتال بدر بشهرين وأمره على السرية وكتب له كتابا وقال سر على اسم الله ولا تنظر في الكتاب حتى تسير يومين فاذا نزلت فافتح الكتاب فاقرأه على أصحابك ثم امض لما أمرتك به ولا تستكرهن أحدا منهم على السير معك فسار عبد الله يومين ثم نزل وفتح الكتاب فاذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فسر على بركة الله تعالى بمن معك من أصحابك حتى تنزل بطن نخلة فارصد بها عير قريش لعلك تأتينا منها بخير فقال سمعاً وطاعة ثم قال لاصحابه ذلك وقال انه نهاني أن أستكره أحدا منكم فمن كان يريد الشهادة فلينطلق ومن كان يكره فليرجع ثم مضى ومضى أصحابه معه وكانوا ثمانية رهط ولم يتخلف عنه أحد منهم حتى اذا كان بمعدن فوق الفرع بموضع من الحجاز يقال له بحران أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان

(وهو كره لكم) من الكراهة فوضع المصدر موضع الوصف مبالغة كقولها

* فانما هي اقبال وادبار *

كأنه في نفسه كراهة لفرط كراهتهم له أو هو فعل بمعنى مفعول كالخبز بمعنى المخبوز أي وهو مكروه لكم (وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم) فانتم تكرهون الغزو وفيه احدى الحسنيين اما الظفر والغنيمة واما الشهادة والجنة (وعسى أن تحبوا شيا) وهو القعود عن الغزو (وهو شر لكم) لما فيه من الذل والفقر وحرمان الغنيمة والاجر (والله يعلم) ما هو خير لكم (وأنتم لا تعلمون) ذلك فبادروا الى ما يأمركم به وان شق عليكم ونزل في سرية بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتلوا المشركين وقد أهل هلال رجب وهم لا يعلمون ذلك فقالت قريش قد استحل محمد عليه السلام الشهر الحرام شهرا يأمن فيه الخائف (يسئلونك عن الشهر الحرام) أي يسألك الكفار أو المسلمون عن القتال في الشهر الحرام (قتال فيه) بدل الاشتمال من الشهر وقرئ عن قتال فيه على تكرير العامل كقوله للذين استضعفوا لمن آمن منهم

بعيرا لهما كانا يعتقبانه فتخلفا فى طلبه ومضى عبد الله ببقية أصحابه حتى نزل فى بطن نخلة بين مكة والطائف فبيناهم كذلك اذ مرت بهم عير لقريش تحمل زبيبا وأدما وتجارة من تجارة الطائف وفى العير عمرو بن الحضرمى والحكم بن كيسان وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ونوفل بن عبد الله المخزوميان فلما رأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هابوهم وقد نزلوا قريبا منهم فقال عبد الله بن جحش ان القوم قد ذعروا منكم فاحلقوا رأس رجل منكم وليتعرض لهم فاذا رأوه محلوقا أمنوا فحلقوا رأس عكاشة بن محصن ثم أشرف عليهم فلما رأوه أمنوا وقالوا قوم عمار فلا بأس علينا وكان ذلك فى آخر يوم من جمادى الآخرة وكانوا يرون انه من رجب فتشاور القوم فيهم وقالوا متى تركتموهم هذه الليلة ليدخلن الحرم وليمتنعن منكم فاجمعوا أمرهم فى مواقعة القوم فرمى واقد بن عبد الله السهمى عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله فكان أول قتيل من المشركين وأسر الحكم بن كيسان وعثمان وكانا أول أسيرين فى الاسلام وأفلت نوفل فاعجزهم واستاق المسلمون العير والاسيرين حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت قريش قد استحل محمد الشهر الحرام وسفك الدماء وأخذ الحرائب يعنى المال وعير بذلك أهل مكة من كان بها من المسلمين وقالوا يا معشر الصباة استحللتم الشهر الحرام وقاتلتم فيه فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لعبد الله بن جحش وأصحابه ما أمرتكم بالقتال فى الشهر الحرام ووقف العير والاسيرين وأبى أن يأخذ شيأ من ذلك وعنف المسلمون أصحاب السرية فيما صنعوا وقالوا لم صنعتم ما لم تؤمروا به فعظم ذلك على أصحاب السرية وظنوا أنهم قد هلكوا وسقط فى أيديهم وقالوا يا رسول الله انا قتلنا ابن الحضرمى ثم أمسينا فنظرنا هلال رجب فلا ندرى أفى رجب أصبناه أم فى جمادى وأكثر الناس فى ذلك فانزل الله هذه الآية فاخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم العير فعزل منها الخمس وكان أول خمس فى الاسلام وأول غنيمة قسمت فقسم الباقى على أصحاب السرية وبعث أهل مكة فى فداء أسيريهم فقال بل نبقيهما حتى يقدم سعد وعتبة وان لم يقدما قتلناهما بهما فلما قدما فاداهما فاما الحكم بن كيسان فاسلم وأقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فقتل يوم بئر معونة شهيدا وأما عثمان بن عبد الله فرجع الى مكة فمات بها كافرا وأما نوفل فضرب بطن فرسه يوم الاحزاب ليدخل الخندق فوقع فى الخندق مع فرسه فتحطما جميعا وقتله الله فطلب المشركون جيفته بالثمن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خذوه فانه خبيث الجيفة خبيث الدية وأما تفسير الآية فقوله تعالى يسئلونك يعنى يا محمد عن الشهر الحرام يعنى رجبا وسمى بذلك لتحريم القتال فيه وفى السائلين رسول الله صلى الله عليه وسلم قولان أحدهما أنهم المسلمون سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم هل أخطؤا أم أصابوا وقيل ان المسلمين كانوا يعلمون أن القتال فى الحرم وفى الشهر الحرام لا يحل فلما كتب عليهم القتال سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القتال فى الشهر الحرام فنزلت هذه الآية والقول الثانى أن السائلين هم المشركون وانما سألوه على وجه العيب على المسلمين فنزلت هذه الآية يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه (قل) أى قل لهم يا محمد (قتال فيه كبير) أى عظيم مستنكر واختلف العلماء فى حكم هذه الآية على قولين أحدهما انها محكمة وانه لا يجوز الغزو فى الشهر الحرام الا أن يقاتلوا فيه فيقاتلوا على سبيل الدفع روى عن عطاء انه كان يحلف بالله ما يحل للناس أن يغزوا فى الشهر الحرام ولا أن يقاتلوا فيه وما نسخت والقول الثانى الذى عليه جمهور العلماء وهو الصحيح انها منسوخة قال سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار القتال جائز فى الشهر الحرام وهذه الآية منسوخة بقوله اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وبقوله وقاتلوا المشركين كافة يعنى فى الاشهر الحرم وغيرها (وصد عن سبيل الله) هذا ابتداء كلام والمعنى وصدكم المسلمين عن الحج أو وصدكم عن الاسلام من يريده (وكفر به) أى بالله (والمسجد الحرام) أى وصدكم عن المسجد الحرام (واخراج أهله منه) يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين حين آذوهم حتى هاجروا وتركوا مكة وانما جعلهم الله أهله لانهم كانوا هم

(قل قتال فيه كبير) أى اثم كبير قتال مبتدأ وكبير خبره وجاز الابتداء بالنكرة لانها قد وصفت بفيه وأكثر الاقاويل على أنها منسوخة بقوله تعالى فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم (وصد عن سبيل الله) أى منع المشركين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن البيت عام الحديبية وهو مبتدأ (وكفر به) أى بالله عطف عليه (والمسجد الحرام) عطف على سبيل الله أى وصد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام وزعم الفراء أنه معطوف على الهاء فى به أى كفر به وبالمسجد الحرام ولا يجوز عند البصريين العطف على الضمير المجرور الا باعادة الجار فلا تقول مررت به وزيد ولكن تقول وبزيد ولو كان معطوفا على الهاء هنا لقيل وكفر به وبالمسجد الحرام (واخراج أهله) أى أهل المسجد الحرام وهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون وهو عطف عليه أيضا (منه) من المسجد الحرام وخبر

الاسماء الثلاثة (أكبر عند الله) أى مما فعلته السرية من القتال فى الشهر الحرام على سبيل الخطأ والبناء على الظن (والفتنة) الاخراج أو الشرك (أكبر من القتل) فى الشهر الحرام أو تعذيب الكفار المسلمين أشد قبحا من قتل هؤلاء المسلمين فى الشهر الحرام (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم) أى الى الكفر وهو اخبار عن دوام عداوة الكفار للمسلمين وانهم لا ينفكون عنها حتى يردوهم عن دينهم وحتى معناها التعليل نحو فلان يعبد الله حتى يدخل الجنة أى يقاتلونكم كى يردوكم وقوله تعالى (ان استطاعوا) استبعاد لاستطاعتهم كقولك لعدوك ان ظفرت بى فلا تبق على وأنت واثق بانه لا يظفر بك (ومن يرتدد منكم عن دينه) ومن يرجع عن دينه الى دينهم (فيمت وهو كافر) أى يمت على الردة (فاولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة) لما يفوتهم بالردة مما للمسلمين فى الدنيا من ثمرات الاسلام وفى الآخرة من الثواب وحسن المآب (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وبها احتج الشافعى رحمه الله على أن الردة لا تحبط العمل حتى يموت عليها وقلنا قد علق الحبط بنفس الردة بقوله تعالى ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله والاصل عندنا أن المطلق لا يحمل على المقيد وعنده يحمل عليه فهو بناء على هذا ولما قالت السرية أيكون لنا أجر المجاهدين فى سبيل الله نزل (ان الذين آمنوا والذين هاجروا) تركوا مكة وعشائرهم (وجاهدوا فى سبيل الله) مع المشركين ولا وقف عليه لان (أولئك يرجون رحمت الله) خبر ان قيل من رجا طلب ومن خاف هرب (والله غفور رحيم) نزل فى الخمر أربع آيات نزل بمكة ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا فكان المسلمون يشربونها وهى لهم حلال ثم ان عمر ونفرا من الصحابة قالوا يارسول الله أفتنا فى الخمر فانها مذهبة للعقل مسلبة للمال فنزل (يسئلونك عن الخمر والميسر) فشربها قوم وتركها آخرون ثم دعا عبد الرحمن بن عوف جماعة فشربوا وسكروا وأم بعضهم فقرأ قل يأيها الكافرون أعبد ما تعبدون فنزل لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى فقل من يشرب بها ثم دعا عتبان بن مالك جماعة فلما سكروا منها تخاصموا وتضاربوا فقال عمر اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فنزل انما الخمر والميسر الى قوله فهل أنتم منتهون فقال عمر انتهينا

القائمين بحقوق المسجد الحرام دون المشركين (أكبر عند الله) أى أعظم وزرا عند الله من القتال فى الشهر الحرام (والفتنة) أى الشرك الذى أنتم عليه (أكبر من القتل) يعنى قتل ابن الحضرمى فى الشهر الحرام فلما نزلت هذه الآية كتب عبد الله بن أنيس وقيل عبد الله بن جحش الى مؤمنى مكة ان عيركم المشركون بالقتال فى الشهر الحرام فعيروهم أنتم بالكفر وباخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة والمسلمين ومنعهم اياهم من البيت (ولا يزالون) يعنى مشركى مكة (يقاتلونكم) يعنى يا معشر المؤمنين (حتى يردوكم عن دينكم) يعنى الى دينهم وهو الكفر (ان استطاعوا) يعنى ان قدروا على ذلك وفيه استبعاد لاستطاعتهم فهو كقول الرجل لعدوه ان ظفرت بى فلا تبق على وهو واثق انه لا يظفر به (ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر) يعنى ومن يطاوعهم منكم فيرجع الى دينهم فيمت على ردته قبل أن يتوب (فاولئك حبطت أعمالهم) أى بطلت أعمالهم (فى الدنيا والآخرة) وهو أن المرتد يقتل وتبين زوجته منه ولا يستحق الميراث من أقاربه المؤمنين ولا ينصر ان استنصر ولا يمدح ولا يثنى عليه ويكون ماله فيأ للمسلمين هذا فى الدنيا ولا يستحق الثواب على أعماله ويحبط أجرها فى الآخرة وظاهر الآية يقتضى أن الارتداد انما تتفرع عليه الاحكام اذا مات المرتد على الكفر أما اذا أسلم بعد الردة لم يثبت عليه شئ من أحكام الردة وفيه دليل للشافعى أن الردة لا تحبط الاعمال حتى يموت المرتد على ردته وعند أبى حنيفة ان الردة تحبط العمل وان أسلم (وأولئك أصحاب النار) يعنى الذين ماتوا على الردة والكفر هم أصحاب النار (هم فيها خالدون) أى لا يخرجون منها أبدا (ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله) نزلت فى عبد الله بن جحش وأصحابه وذلك أن أصحاب السرية قالوا يارسول الله هل نؤجر على وجهنا هذا ونطمع أن يكون لنا غزوا فانزل الله هذه الآية وعن جندب ابن عبد الله قال لما كان من أمر عبد الله بن جحش وأصحابه وأمر ابن الحضرمى ما كان قال بعض المسلمين ان لم يكونوا أصابوا فى سفرهم وزرا فليس لهم فيه أجر فانزل الله هذه الآية ان الذين آمنوا والذين هاجروا أى فارقوا مساكنهم وعشائرهم وأموالهم وفارقوا مساكنة المشركين فى أمصارهم ومجاورتهم فى ديارهم فتحولوا عن المشركين وعن بلادهم الى غيرها وجاهدوا يعنى المشركين فى سبيل الله أى فى طاعة الله فجعل الله لاصحاب هذه السرية جهادا (أولئك يرجون رحمة الله) أى يطمعون فى نيل رحمة الله أخبر أنهم على رجاء الرحمة وقيل المراد من الرجاء هنا القطع فى أصل الثواب وانما دخل الظن فى كميته ووقته قال قتادة أثنى الله تعالى على أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أحسن الثناء فقال ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله هؤلاء هم خيار الامة هذه ثم جعلهم الله أهل رجاء كما تسمعون وانه من رجا طلب ومن خاف هرب (والله غفور) أى لذنوب عباده (رحيم) بهم والمعنى أنه تعالى غفر لعبد الله ابن جحش وأصحابه ما لم يعلموا به ۞ قوله عز وجل (يسئلونك عن الخمر والميسر) الآية نزلت فى عمر بن الخطاب

يارب وعن على رضى الله عنه لو وقعت (١٥٦) قطرة فى بئر فبنيت مكانها منارة لم أؤذن عليها ولو وقعت فى بحر ثم جف ونبت فيه الكلأ لم

ومعاذ بن جبل وجماعة من الانصار أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يارسول الله أفتنا فى الخمر والميسر فانهما مذهبة للعقل مسلبة للمال فأنزل الله تعالى هذه الآية وأصل الخمر فى اللغة الستر والتغطية وسميت الخمر خمرا لانها تخامر العقل أى تخالطه وقيل لانها تستره وتغطيه وجملة القول فى تحريم الخمر ان الله عزوجل أنزل فى الخمر أربع آيات نزل بمكة ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا فكان المسلمون يشربونها فى أول الاسلام وهى لهم حلال ثم نزل بالمدينة فى جواب سؤال عمر ومعاذ يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير فتركها قوم لقوله اثم كبير وشربها قوم لقوله ومنافع للناس ثم ان عبد الرحمن بن عوف صنع طعاما ودعا اليه ناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطعمهم وسقاهم الخمر وحضرت صلاة المغرب فقدموا أحدهم ليصلى بهم فقرأ قل ياأيها الكافرون أعبد ما تعبدون بحذف حرف لا الى آخر السورة فأنزل الله عزوجل ياأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون فحرم الله السكر فى أوقات الصلوات فكان الرجل يشربها بعد صلاة العشاء فيصبح وقد زال سكره فيصلى الصبح ويشربها بعد صلاة الصبح فيصحو وقت صلاة الظهر ثم ان عتبان بن مالك اتخذ طعاما يعنى وليمة ودعا رجالا من المسلمين وفيهم سعد بن أبى وقاص وكان قد شوى لهم رأس بعير فأكلوا وشربوا الخمر حتى أخذت منهم فافتخروا عند ذلك وانتسبوا وتناشدوا الاشعار فانشد سعد قصيدة فيها فخر قومه وهجاء الانصار فأخذ رجل من الانصار لحى البعير فضرب به رأس سعد فشجه موضحة فانطلق سعد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا اليه الانصارى فقال عمر اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا وروى أن حمزة بن عبد المطلب شرب الخمر يوما وخرج فلقى رجلا من الانصار وبيده ناضح له والانصارى يتمثل ببيتين لكعب بن مالك يمدح قومه وهما

جمعنا مع الايواء نصرا وهجرة * فلم يرحى مثلنا فى المعاشر
فأحياؤنا من خير أحياء من مضى * وأمواتنا من خير أهل المقابر

فقال حمزة أولئك المهاجرون وقال الانصارى بل نحن الانصار فتنازعا فجرد حمزة سيفه وعدا على الانصارى فهرب الانصارى وترك ناضحه فقطعه حمزة فجاء الانصارى مستعديا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بفعل حمزة فغرم له رسول الله صلى الله عليه وسلم ناضحه فقال عمر اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فأنزل الله تعالى الآية التى فى المائدة الى قوله فهل أنتم منتهون فقال عمر انتهينا يارب وذلك بعد غزوة الاحزاب بأيام والحكمة فى وقوع التحريم على هذا الترتيب ان الله تعالى علم أن القوم كانوا قد ألفوا شرب الخمر وكان انتفاعهم بذلك كثيرا فعلم أنه لو منعهم من الخمر دفعة واحدة لشق ذلك عليهم فلاجرم استعمل هذا التدريج وهذا الرفق قال أنس حرمت الخمر ولم يكن يومئذ للعرب عيش أعجب منها وما حرم عليهم شئ أشد من الخمر (ق) عن أنس قال ما كان لنا خمر غير فضيخكم وانى لقائم أسقى أبا طلحة وأبا أيوب وفلانا وفلانا اذ جاء رجل فقال حرمت الخمر فقالوا أهرق هذه القلال يا أنس فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر هذا الرجل الفضيخ بالضاد والخاء المعجمتين شراب يتخذ من بسر مطبوخ والمفضوخ المشدوخ والمكسور والاهراق الصب والقلال جمع قلة وهى الجرة الكبيرة

﴿فصل فى تحريم الخمر ووعيد من شربها﴾ أجمعت الامة على تحريم الخمر وانه يحد شاربها ويفسق بذلك مع اعتقاد تحريمها فان استحلها كفر بذلك ويجب قتله (ق) عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كل مسكر خمر وكل مسكر حرام ومن شرب الخمر فى الدنيا ومات وهو يدمنها لم يتب منها لم يشربها فى الآخرة لفظ مسلم (م) عن جابر أن رجلا قدم من جيشان وجيشان من اليمن فسأل النبى صلى الله عليه وسلم عن شراب يشربونه بأرضهم من الذرة يقال له المزر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أومسكر هو قال نعم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل مسكر حرام وان على الله عهدا لمن يشرب المسكر أن يسقيه من

أرعه والخمر ما غلى واشتد وقذف بالزبد من عصير العنب وسميت بمصدر خمره خمرا اذا ستره لتغطيتها العقل والميسر القمار مصدر من يسر كالموعد من فعله يقال يسرته اذا قمرته واشتقاقه من اليسر لانه أخذ مال الرجل بيسر وسهولة بلا كد وتعب أو من اليسار كأنه سلب يساره وصفة الميسر أنه كانت لهم عشرة أقداح سبعة منها عليها خطوط وهو الفذ وله سهم والتوأم وله سهمان والرقيب وله ثلاثة والحلس وله أربعة والنافس وله خمسة والمسبل وله ستة والمعلى وله سبعة وثلاثة أغفال لا نصيب لها وهى المنيح والسفيح والوغد فيجعلون الاقداح فى خريطة ويضعونها على يد عدل ثم يجلجلها ويدخل يده ويخرج باسم رجل قدحا قدحا منها فمن خرج له قدح من ذوات الانصباء أخذ النصيب الموسوم به ذلك القدح ومن خرج له قدح مما لانصيب له لم يأخذ شيأ وغرم ثمن الجزور كله وكانوا يدفعون تلك الانصباء الى الفقراء ولا يأكلون منها ويفتخرون بذلك ويذمون من لم يدخل فيه وفى حكم الميسر أنواع القمار من النرد والشطرنج وغيرهما والمعنى يسئلونك عما فى تعاطيهما بدليل

طينة

طينة الخبال قالوا وما طينة الخبال يارسول الله قال عرق أهل النار أو عصارة أهل النار وعن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كل مسكر خمر وكل مسكر حرام ومن شرب مسكرا بخست صلاته أربعين صباحا فان تاب تاب الله عليه فان عاد الرابعة كان حقا على الله أن يسقيه من طينة الخبال قيل وما طينة الخبال يارسول الله قال صديد أهل النار أخرجه أبو داود ✻ عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من شرب الخمر فجعلها فى بطنه لم تقبل منه صلاة سبعا وان مات فيها مات كافرا فان أذهبت عقله عن شئ من الفرائض وفى رواية عن القرآن لم تقبل صلاته أربعين يوما وان مات فيها مات كافرا أخرجه النسائى ✻ عن عثمان بن عفان قال اجتنبوا الخمر فانها أم الخبائث فانها والله لا يجتمع الايمان وادمان الخمر الا يوشك أن يخرج أحدهما صاحبه أخرجه النسائى موقوفا عليه وفيه قصة عن أنس قال لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخمر عشرة عاصرها ومعتصرها وشاربها وساقيها وحاملها والمحمولة إليه وبائعها ومبتاعها وواهبها وآكل ثمنها أخرجه الترمذى

✻(فصل فى أحكام تتعلق بالخمر)✻ وفيه مسائل ✻(الاولى فى ماهيتها)✻ قال الشافعى الخمر عبارة عن عصير العنب النئ الشديد الذى قذف بالزبد وكذلك نقيع الزبيب والتمر والمتخذ من العسل والحنطة والشعير والارز والذرة وكل ما أسكر فهو خمر وقال أبو حنيفة الخمر من العنب والرطب ونقيع التمر والزبيب فان طبخ حتى ذهب ثلثاه حل شربه والمسكر منه حرام واحتج على ذلك بما روى عن عمر بن الخطاب أنه كتب الى بعض عماله أن ارزق المسلمين من الطلاء ما ذهب ثلثاه وبقى ثلثه وفى رواية أما بعد فاطبخوا شرابكم حتى يذهب منه نصيب الشيطان فان له اثنين ولكم واحد أخرجه النسائى الطلاء بكسر الطاء والمد الشراب المطبوخ من عصير العنب الذى ذهب ثلثاه وبقى ثلثه واحتج أيضا بما روى عن ابن عباس قال حرمت الخمر بعينها قليلها وكثيرها والسكر من كل شراب أخرجه النسائى واستدل أيضا على أن السكر حرام بما روى عن أبى الاحوص عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى بردة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال اشربوا ولا تسكروا وعن عائشة نحوه أخرجه النسائى وقال هذا حديث غير ثابت واستدل الشافعى على أن الخمر من عدة أشياء بما روى عن ابن عمر أن عمر قال على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أما بعد أيها الناس انه نزل تحريم الخمر وهى من خمسة العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير والخمر ما خامر العقل ثلاث وددت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عهد الينا فيهن عهدا ننتهى اليه الجد والكلالة وأبواب من أبواب الربا أخرجه البخارى ومسلم (ق) عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن البتع فقال كل شراب أسكر فهو حرام البتع شراب يتخذ من العسل كان أهل اليمن يشربونه ✻ عن النعمان بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان من العنب خمرا وان من البر خمرا وان من الشعير خمرا وان من التمر خمرا أخرجه أبو داود وزاد فى رواية والذرة وانى أنهاكم عن كل مسكر وللترمذى نحوه وزاد وان من العسل خمرا (خ) عن ابن عباس أنه سئل عن الباذق فقال سبق محمد الباذق فما أسكر فهو حرام عليك والشراب الحلال الطيب ليس بعد الحلال الطيب الا الحرام الخبيث قال صاحب المطالع الباذق بفتح الذال المعجمة هو الطلاء المطبوخ من عصير العنب كان أول من صنعه وسماه بنو أمية لينقلوه عن اسم الخمر وكل ما أسكر فهو خمر لان الاسم لا ينقله عن معناه الموجود فيه وقال ابن الاثير فى نهاية الباذق الخمر تعريب باذه وهو اسم للخمر بالفارسية أى لم يكن فى زمانه أو سبق قوله فيها وفى غيرها من جنسها وقيل معناه سبق حكم محمد صلى الله عليه وسلم ان ما أسكر فهو حرام ✻ عن أم سلمة قالت نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل مسكر ومفتر أخرجه أبو داود والمفتر كل شراب أحمى الجسد وصار فيه فتور وضعف وانكسار واستدل الشافعى على ما أسكر كثيره فقليله حرام بما روى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما أسكر كثيره فقليله

حرام أخرجه الترمذي وأبو داود * عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كل مسكر حرام وما أسكر منه الفرق فملء الكف منه حرام أخرجه أبو داود والنسائي وفي رواية له والحسوة منه حرام الفرق بالتحريك مكيال يسع ستة عشر رطلا بالبغدادي وأجيب عن حديث عمر في الطلاء بأنه معارض بما روي عن السائب ابن يزيد أن عمر قال وجدت من فلان ريح شراب وزعم أنه شرب الطلاء وأنا سائل عنه فان كان يسكر جلدته فسأل عنه فقيل له انه يسكر فجلده عمر الحد تاما أخرجه مالك في الموطأ وأما حديث ابن عباس فموقوف عليه ومعارض بما روي عنه في الباذق وقوله والسكر من كل شراب قد رواه الحفاظ السكر بفتح السين قال صاحب الغريبين السكر خمر الاعاجم ويقال لما يسكر السكر وروى هذا الحديث ابن حنبل وقال فيه والمسكر من كل شراب وقال موسى بن هرون وهو الصواب وأما حديث أبي الاحوص ففيه وهمان أحدهما في سنده حيث قال عن أبي بردة وانما يرويه سماك عن القاسم عن أبي بريدة عن أبيه والوهم الثاني في متنه حيث قال اشربوا ولا تسكروا وانما يرويه الناس ولا تشربوا مسكرا ويدل على صحة هذا ما روى مسلم في صحيحه عن محارب بن دثار عن ابن بريدة عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت نهيتكم عن الاشربة في ظروف الادم فاشربوا في كل وعاء غير أن لا تشربوا مسكرا وقال النسائي في حديث أبي الاحوص هذا حديث منكر غلط فيه أبو الاحوص سلام بن سليم لا نعلم ان أحدا تابعه عليه من أصحاب سماك وأما حديث عائشة فيه فهو غير ثابت كما تقدم في قول النسائي ﴿المسئلة الثانية في الحكم بنجاسة الخمر﴾ الخمر وما يلحق بها نجسة العين ويدل على نجاستها قوله تعالى انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه والرجس في اللغة النجس والشئ المستقذر وقوله تعالى فاجتنبوه فأمر باجتنابها فكانت نجسة العين ويدل على نجاستها أيضا أنها محرمة التناول لا للاحترام ولان الناس مشغوفون بها فينبغي أن يحكم بنجاستها تأكيدا للزجر عنها ﴿المسئلة الثالثة في تحريم بيعها والانتفاع بها﴾ أجمعت الامة على تحريم بيع الخمر والانتفاع بها وتحريم ثمنها ويدل على ذلك ما روي عن جابر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عام فتح مكة ان الله تعالى حرم بيع الخمر والانتفاع بها والميتة والخنزير والاصنام أخرجاه في الصحيحين مع زيادة اللفظ (ق) عن عائشة قالت خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال حرمت التجارة في الخمر (ق) عن ابن عباس قال بلغ عمر بن الخطاب ان فلانا باع خمرا فقال قاتل الله فلانا ألم يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها * عن المغيرة بن شعبة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من باع الخمر فليشقص الخنازير أخرجه أبو داود وقوله فليشقص الخنازير أي فليقطعها قطعا قطعا كما تقطع الشاة للبيع والمعنى من استحل بيع الخمر فليستحل بيع الخنازير فانهما في التحريم سواء * عن أبي طلحة قال يا نبي الله اني اشتريت خمرا لايتام في حجري فقال أهرق الخمر واكسر الدنان أخرجه الترمذي وقال وقد روي عن أنس ان أبا طلحة كان عنده خمر لايتام وهو أصح فان قلت فما وجه قوله تعالى ومنافع للناس قلت منافعها اللذة التي توجد عند شربها والفرح والطرب معها وما كانوا يصيبون من الربح في ثمنها وذلك قبل التحريم فلما حرمت الخمر حرم ذلك كله

﴿فصل﴾ وأما الميسر فهو القمار واشتقاقه من اليسر لانه أخذ مال بسهولة من غير تعب وكذا قال ابن عباس كان الرجل في الجاهلية يخاطر الرجل على أهله وماله فأيهما قمر صاحبه ذهب بأهله وماله فأنزل الله هذه الآية وأصل الميسر ان أهل الثروة من العرب في الجاهلية كانوا يشترون جزورا فينحرونها ويجزؤونها ثمانية وعشرين جزأ ثم يسهمون عليها بعشرة قداح يقال لها الازلام والاقلام وأسماؤها الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى والمنيح والسفيح والوغد وكانوا يسهمون لسبعة منها أنصباء فللفذ سهما وللتوأم سهمين وللرقيب ثلاثة أسهم وللحلس أربعة وللنافس خمسة وللمسبل ستة وللمعلى سبعة وثلاثة

(قل فيهما اثم كبير) بسبب التخاصم والتشاتم وقول الفحش والزور كثير حمزة وعلى (ومنافع للناس) بالتجارة فى الخمر والتلذذ بشربها وفى الميسر بارتفاق الفقراء أو نيل المال بلا كد (واثمهما) وعقاب الاثم فى تعاطيهما (أكبر من نفعهما) لان أصحاب الشرب والقمار يقترفون فيهما الآثام من وجوه كثيرة (ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو) أى الفضل

أى أنفقوا ما فضل عن قدر الحاجة وكان التصدق بالفضل فى أول الاسلام فرضاً فاذا كان الرجل صاحب زرع أمسك قوت سنة وتصدق بالفضل واذا كان صانعاً أمسك قوت يومه وتصدق بالفضل فنسخت بآية الزكاة العفو أبو عمرو فمن نصبه جعل ماذا اسما واحدا فى موضع النصب بينفقون والتقدير قل ينفقون العفو ومن رفعه جعل ما مبتدأ وخبره ذا مع صلته وذا بمعنى الذى وينفقون صلته أى ما الذى ينفقون فجاء الجواب العفو أى هو العفو فاعراب الجواب كاعراب السؤال ليطابق الجواب السؤال (كذلك) الكاف فى موضع نصب نعت لمصدر محذوف أى تبيينا مثل هذا التبيين (يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون فى الدنيا) أى فى أمر الدنيا (والآخرة) وفى يتعلق بتتفكرون أى تتفكرون فيما يتعلق بالدارين فتاخذون بما هو أصلح لكم أو تتفكرون فى الدارين فتؤثرون أبقاهما وأكثرهما منافع ويجوز أن يتعلق بيبين أى يبين لكم الآيات فى أمر الدارين وفيما يتعلق بهما لعلكم تتفكرون ولما نزل ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما اعتزلوا اليتامى وتركوا مخالطتهم والقيام بأموالهم وذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل

من القداح لا انصباء لها وهى المنيح والسفيح والوغد قال بعضهم

لى فى الدنيا سهام * ليس فيهن ربيح
انما سهمى وغد * ومنيح وسفيح

ثم يجعلون القداح فى خريطة يسمونها الربابة ويضعونها على يد رجل عدل عندهم يسمونه المجيل والمفيض فيجيلها فى الخريطة ويخرج منها قدحا باسم رجل منهم فايهم خرج اسمه أخذ نصيبه على قدر ما يخرج من القداح وان خرج له قدح من الثلاثة التى لا انصباء لها لم يأخذ شيأ وغرم ثمن الجزور كله وقيل لا يأخذ ولا يغرم ويسمون ذلك القدح لغوا ثم يدفعون ذلك الجزور الى الفقراء ولا يأكلون منه شيأ وكانوا يفتخرون بذلك ويذمون من لا يفعله ويسمونه البرم يعنى البخيل الذى لا يخرج شيأ بين الاصحاب لبخله وأما حكم الآية فالمراد به جميع أنواع القمار فكل شئ فيه قمار فهو من الميسر روى عن ابن سيرين ومجاهد وعطاء كل شئ فيه خطر يعنى الرهن فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز والكعاب وأما النرد فيحرم اللعب به سواء كان بخطر أم لا ويدل على تحريمه ما روى عن بريدة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده فى دم خنزير أخرجه مسلم وعن أبى موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لعب بنرد أو نردشير فقد عصى الله ورسوله أخرجه أبو داود وعن على بن أبى طالب قال النرد والشطرنج من الميسر واختلفوا فى الشطرنج فذهب أبى حنيفة انه يحرم اللعب به سواء كان برهن أو بغير رهن ومذهب الشافعى انه مباح بشروط ذكرها الشافعى فقال اذا خلا الشطرنج عن الرهان واللسان عن الطغيان ويروى عن الهذيان والصلاة عن النسيان لم يكن حراما وهو خارج عن الميسر لان الميسر ما يوجب دفع مال وأخذ مال وهذا ليس كذلك وقوله تعالى (قل فيهما) يعنى فى الخمر والميسر (اثم كبير) أى وزر عظيم وقيل ان الخمر عدو للعقل فاذا غلبت على عقل الانسان ارتكب كل قبيح ففى ذلك آثام كثيرة منها اقدامه على شرب المحرم ومنها فعل ما لا يحل فعله وأما الاثم الكبير فى الميسر فهو أكل المال الحرام بالباطل وما يجرى بينهما من الشتم والمخاصمة والمعاداة وكل ذلك فيه آثام كثيرة (ومنافع للناس) يعنى انهم كانوا يربحون فى بيع الخمر قبل تحريمها وأما منافع الميسر فهو أخذ مال بغير كد ولا تعب وقيل ربما أن الواحد منهم كان يقمر فى المجلس الواحد مائة بعير فيحصل له المال الكثير وربما كان يصرفه الى المحتاجين فيكسب بذلك الثناء والمدح وهو المنفعة (واثمهما أكبر من نفعهما) يعنى اثمهما بعد التحريم أكبر من نفعهما قبل التحريم وقيل اثمهما قوله تعالى انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون فهذه ذنوب يترتب عليها آثام كبيرة بسبب الخمر والميسر ۞ قوله تعالى (ويسئلونك ماذا ينفقون) وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حضهم على الصدقة فقالوا ماذا ننفق فقال الله تعالى (قل العفو) يعنى الفضل والعفو ما فضل عن قدر الحاجة وكانت الصحابة يكتسبون المال ويمسكون قدر النفقة ويتصدقون بالفاضل بحكم هذه الآية ثم نسخ ذلك بآية الزكاة وقيل هو التصدق عن ظهر غنى (ق) عن الزهرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول وقيل هو الوسط فى الانفاق من غير اسراف ولا اقتار وقيل هو فى صدقة التطوع اذ لو كان المراد بهذا الانفاق الواجب لبين الله قدره فلما لم يبينه دل ذلك على أن المراد به صدقة التطوع (كذلك يبين الله لكم الآيات) أى يبين لكم الامور التى سألتم عنها من وجوه الانفاق ومصارفه (لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة) يعنى فتأخذون ما يصلحكم فى الدنيا وتنفقون الباقى

وينفعكم في الآخرة وقيل لعلكم تتفكرون في زوال الدنيا فتزهدوا فيها وفي اقبال الآخرة وبقائها فترغبوا فيها ۞ قوله عز وجل (ويسئلونك عن اليتامى) قال ابن عباس لما نزلت ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما تحرج المسلمون من أموال اليتامى تحرجا شديدا حتى عزلوا أموالهم عن أموالهم وتركوا مخالطتهم وربما كان يصنع لليتيم الطعام فيفضل منه فيتركونه ولا يأكلونه فاشتد ذلك عليهم فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى ويسئلونك عن اليتامى (قل اصلاح لهم خير) أي اصلاح أموال اليتامى من غير أخذ أجرة ولا عوض خير لكم أي أعظم أجرا وقيل هو أن يوسع على اليتيم من طعام نفسه ولا يوسع من طعام اليتيم (وان تخالطوهم) يعني في الطعام والخدمة والسكنى وهذا فيه اباحة المخالطة أي شاركوهم في أموالهم واخلطوها بأموالكم ونفقاتكم ومساكنكم وخدمكم ودوابكم فتصيبوا من أموالهم عوضا من قيامكم بأمورهم أو تكافؤهم على ما تصيبون من أموالهم (فاخوانكم) أي فهم اخوانكم والاخوان يعين بعضهم بعضا ويصيب بعضهم من مال بعض على وجه الاصلاح والرضا (والله يعلم المفسد من المصلح) يعني المفسد لمال اليتيم والمصلح له ويعلم الذي يقصد بالمخالطة الخيانة وأكل مال اليتيم بغير حق والذي يقصد الاصلاح (ولو شاء الله لأعنتكم) أي لضيق عليكم وما أباح لكم مخالطتهم وأصل العنت الشدة والمشقة والمعنى لكلفكم في كل شئ ما يشق عليكم (ان الله عزيز حكيم) أي غالب يقدر أن يشق على عباده ويعنتهم ولكنه حكيم لا يكلف عباده الا ما تتسع فيه طاقتهم ۞ قوله عز وجل (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) نزلت في أبي مرثد بن أبي مرثد الغنوي واسم أبي مرثد يسار بن حصين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مكة ليخرج منها ناسا من المسلمين سرا فلما قدمها سمعت به امرأة مشركة يقال لها عناق وكانت خليلته في الجاهلية فأتته فقالت ألا تخلو فقال ويحك يا عناق ان الاسلام حال بيني وبين ذلك فقالت له هل لك أن تتزوج بي قال نعم ولكن أرجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أستأمره فقالت أبي تتبرم واستعانت عليه فضربوه ضربا شديدا ثم خلوا سبيله فلما قضى حاجته بمكة وانصرف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه بما كان من أمره وأمر عناق وما لقي بسببها وقال يا رسول الله أيحل لي أن أتزوجها فأنزل الله تعالى هذه الآية وأصل النكاح في اللغة الوطء ثم كثر حتى قيل للعقد نكاح ومعنى الآية ولا تنكحوا أيها المؤمنون المشركات حتى يؤمن أي يصدقن بالله ورسوله وهو الاقرار بالشهادتين والتزام أحكام المسلمين واختلف العلماء في حكم هذه الآية فقيل انها تدل على أن كل مشركة يحرم نكاحها على كل مسلم من أي أجناس الشرك كانت كالوثنية والمجوسية والنصرانية وغيرهن من أصناف المشركات ثم استثنى الله تعالى من ذلك نكاح الحرائر الكتابيات بقوله تعالى والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم فأباح الله تعالى نكاحهن بهذه الآية قال ابن عباس في قوله تعالى ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ثم استثنى نساء أهل الكتاب فقال والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وقيل ان حكم الآية نزلت في مشركات العرب الوثنيات خاصة ولم ينسخ منها شئ ولم يستثن وانما حكمها عام مخصوص قال قتادة ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن يعني مشركات العرب اللاتي ليس فيهن كتاب يقرأنه وبيان هذا في مسئلة وهي ان لفظ الشرك على من يطلق فقال أكثرون من العلماء وهو القول الصحيح المختار أن لفظ الشرك يندرج فيه أهل الكتاب من اليهود والنصارى وكذلك عبدة الاصنام والمجوس وغيرهم ويدل على أن اليهود والنصارى يطلق عليهم اسم الشرك قوله تعالى وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ثم قال تعالى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون فهذه الآية صريحة في شرك اليهود والنصارى وقيل كل من كفر بالنبي صلى الله عليه وسلم

(ويسئلونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير) أي مداخلتهم على وجه الاصلاح لهم ولأموالهم خير من مجانبتهم (وان تخالطوهم) وتعاشروهم ولم تجانبوهم (فاخوانكم) فهم اخوانكم في الدين ومن حق الاخ أن يخالط أخاه (والله يعلم المفسد) لأموالهم (من المصلح) لها فيجازيه على حسب مداخلته فاحذروه ولا تتحروا غير الاصلاح (ولو شاء الله لأعنتكم) لحملكم على العنت وهو المشقة وأحرجكم فلم يطلق لكم مداخلتهم (ان الله عزيز) غالب يقدر على أن يعنت عباده ويحرجهم (حكيم) لا يكلف الا وسعهم وطاقتهم ولما سأل مرثد النبي صلى الله عليه وسلم عن أن يتزوج عناق وكانت مشركة نزل (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) أي لا تتزوجوهن يقال نكح اذا تزوج وأنكح غيره زوجه

(ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم) ولو كان الحال ان المشركة تعجبكم وتحبونها (ولا تنكحوا المشركين) ولا تزوجوهم بمسلمة كذا قاله الزجاج وقال جامع العلوم حذف أحد المفعولين والتقدير ولا تنكحوهن المشركين (حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم) ثم بين علة ذلك فقال (أولئك) وهو اشارة الى المشركات والمشركين (يدعون الى النار) الى الكفر الذي هو عمل أهل النار فحقهم أن لا يوالوا ولا يصاهروا (والله يدعو الى الجنة والمغفرة) أي وأولياء الله وهم المؤمنون (١٦١) يدعون الى الجنة والمغفرة وما يوصل اليهما فهم الذين تجب والاتهم ومصاهرتهم (باذنه) بعلمه أو بامره (ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون) يتعظون كانت العرب لم يؤاكلوا الحائض ولم يشاربوها ولم يساكنوها كفعل اليهود والمجوس فسأل أبو الدحداح رسول الله عن ذلك وقال يا رسول الله كيف نصنع بالنساء اذا حضن فنزل (ويسئلونك عن المحيض) هو مصدر يقال حاضت محيضا كقولك جاء مجيئا (قل هو أذى) أي المحيض شئ يستقذر ويؤذي من يقربه (فاعتزلوا النساء في المحيض) فاجتنبوهن أي فاجتنبوا مجامعتهن وقيل ان النصارى كانوا يجامعونهن ولا يبالون بالحيض واليهود كانوا يعتزلونهن في كل شئ فامر الله بالاقتصاد بين الامرين ثم عند أبي حنيفة وأبي يوسف رحمهما الله يجتنب ما اشتمل عليه الازار ومحمد رحمه الله لا يوجب الاعتزال الفرج وقالت عائشة رضي الله عنها يجتنب شعار الدم وله ما سوى ذلك (ولا تقربوهن) مجامعين أو ولا تقربوا مجامعتهن (حتى يطهرن) بالتشديد كوفي غير حفص أي يغتسلن وأصله يتطهرن فادغم التاء في الطاء لقرب مخرجيهما غيرهم يطهرن أن ينقطع دمهن والقراءتان كآيتين فعملنا بهما وقلنا له ان يقربها في أكثر الحيض بعد انقطاع الدم وان لم تغتسل عملا بقراءة التخفيف وفي أقل منه لا يقربها حتى تغتسل أو يمضي عليها وقت الصلاة عملا بقراءة التشديد والحمل على هذا أولى من العكس لانه

وان زعم أن الله تعالى واحد فهو مشرك وذلك ان من كفر بالنبي صلى الله عليه وسلم مع صحة نبوته وظهور معجزاته فقد زعم ان ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم هو من عند غير الله فقد أشرك مع الله غيره فعلى هذا القول أيضا يدخل فيه اليهود والنصارى لانكارهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل ان اسم الشرك لا يتناول الا عبدة الاوثان فقط والاول أصح لما تقدم من الادلة فعلى قول من قال ان اسم الشرك لا يتناول الا الوثنيات تكون الآية محكمة وعلى قول الاكثرين ان اسم الشرك يتناول الوثنيات والكتابيات وغيرهن تكون الآية محكمة في حق الوثنيات منسوخة في حق الكتابيات ۞ وقوله تعالى (ولأمة مؤمنة خير) يعني أنفع وأصلح وأفضل (من مشركة) يعني حرة (ولو أعجبتكم) يعني بجمالها ومالها ونسبها فالامة المؤمنة خير وأفضل عند الله من الحرة المشركة نزلت في خنساء وليدة كانت لحذيفة بن اليمان فقال يا خنساء قد ذكرت في الملأ الاعلى على سوادك ودمامتك ثم أعتقها وتزوجها وقيل نزلت في عبد الله بن رواحة كانت عنده أمة سوداء فغضب عليها يوما فلطمها ثم فزع فاتى النبي صلى الله عليه وسلم فاخبره فقال وما هي يا عبد الله قال هي تشهد أن لا اله الا الله وأنك رسول الله وتصوم رمضان وتحسن الوضوء وتصلي فقال هذه أمة مؤمنة قال عبد الله فوالذي بعثك بالحق لاعتقنها ولأتزوجنها ففعل فطعن عليه ناس من المسلمين فقالوا أتنكح أمة وعرضوا عليه حرة مشركة فانزل الله هذه الآية (ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا) هذا خطاب لاولياء المرأة أي لا تزوجوا المسلمة من المشركين حرم على المؤمنات أن ينكحن مشركا من أي أصناف الشرك كان وانعقد الاجماع على أنه لا يجوز للمسلمة أن تتزوج بالمشرك (ولعبد مؤمن خير من مشرك) يعني حرا (ولو أعجبكم) بحسنه وماله وجماله (أولئك يدعون الى النار) يعني يدعون الى الشرك الذي يؤدي الى النار (والله يدعو الى الجنة والمغفرة) يعني انه تعالى بين هذه الاحكام وأباح بعضها وحرم بعضها فاعملوا بما أمركم به وانتهوا عما نهاكم عنه فانه من عمل بذلك استحق الجنة والمغفرة (باذنه) أي بتيسير الله وارادته وتوفيقه (ويبين آياته للناس) أي يوضح أدلته وحججه في أوامره ونواهيه وأحكامه (لعلهم يتذكرون) أي فيتعظون ۞ قوله عز وجل (ويسئلونك عن المحيض) (م) عن أنس ان اليهود كانوا اذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت فسأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم النبي صلى الله عليه وسلم فانزل الله عز وجل ويسئلونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض الى آخر الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اصنعوا كل شئ الا النكاح فبلغ ذلك اليهود فقالوا ما يريد هذا الرجل ان يدع من أمرنا شيأ الا خالفنا فيه فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا يا رسول الله ان اليهود تقول كذا وكذا أفلا نجامعهن فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننا أنه قد وجد عليهما فخرجا فاستقبلتهما هدية من لبن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فارسل في آثارهما فسقاهما فعرفنا أنه لم يجد عليهما الوجد الغضب وأصل الحيض السيلان والانفجار يقال حاض الوادي اذا سال وفاض ماؤه (قل هو أذى) أي هو شئ قذر والاذى في اللغة ما يكره من كل شئ (فاعتزلوا النساء في المحيض) أي فاجتنبوا مجامعتهن (ولا تقربوهن) يعني بالوطء والمجامعة فهو كالتوكيد قوله فاعتزلوا النساء في المحيض (حتى يطهرن) يعني من الحيض والمني ولا تقربوهن حتى يزول عنهن

الدم وقرئ يطهرن بتشديد الطاء ومعناه حتى يغتسلن (فاذا تطهرن) أي اغتسلن من حيضهن (فاتوهن من حيث أمركم الله) قال ابن عباس طؤوهن في الفرج ولا تعتدوا الى غيره فانه هو الذي أمر الله به ولا تاتوهن في غير المأتى وقيل فاتوهن من الوجه الذي أمركم الله به وهو الطهر وقيل معناه وأتوهن من حيث يحل لكم غشيانهن وذلك بان لا يكن صائمات ولا معتكفات ولا محرمات

﴿فصل في حكم هذه الآية وفيه مسائل﴾ ﴿المسئلة الاولى﴾ أجمع المسلمون على تحريم الجماع في زمن الحيض ومستحله كافر عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من أتى حائضا أو امرأة في دبرها أو كاهنا فقد كفر بما أنزل على محمد أخرجه الترمذي وقال انما معنى هذا عند أهل العلم على التغليظ ومن فعله وهو عالم بالتحريم عزره الامام وفي وجوب الكفارة قولان أحدهما انه يستغفر الله و يتوب اليه ولا كفارة عليه وهو قول أبي حنيفة والشافعي في الجديد والقول الثاني انه تجب عليه الكفارة وهو القول القديم للشافعي و به قال أحمد بن حنبل لما روى عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم في الرجل يقع على امرأته وهي حائض قال يتصدق بنصف دينار وفي رواية قال اذا كان دما أحمر فدينار وان كان دما أصفر فنصف دينار أخرجه الترمذي وقال رفعه بعضهم عن ابن عباس ووقفه بعضهم ﴿المسئلة الثانية﴾ أجمع العلماء على جواز الاستمتاع بالمرأة الحائض بما فوق السرة ودون الركبة وجواز مضاجعتها وملامستها ويدل على ذلك ما روى عن عائشة قالت كانت احدانا اذا كانت حائضا وارادرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يباشرها أمرها أن تاتزر بازار في فور حيضها ثم يباشرها وأيكم يملك اربه كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يملك اربه وفي رواية قالت كنت أغتسل أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم من اناء واحد وكلانا جنب وكان يأمرني فاتزر فيباشرني وأنا حائض أخرجاه في الصحيحين المراد بالمباشرة الاستمتاع بما دون الفرج وفور كل شئ أوله وابتداؤه وقولها يملك اربه يروى بسكون الراء وهو العضو بفتحها وهو الحاجة (م) عن عائشة قالت قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ناوليني الخمرة من المسجد فقلت أنا حائض قال ان حيضتك ليست في يدك الخمرة حصير صغير مضفور من سعف النخل أو غيره بقدر الكف وقولها من المسجد يعني ناداها من المسجد لانه صلى الله عليه وسلم كان معتكفا في المسجد وعائشة في حجرتها فطلب منها الخمرة وهي حائض ﴿المسئلة الثالثة﴾ يحرم على الحائض الصلاة والصوم ودخول المسجد وقراءة القرآن ومس المصحف وحمله فلو أمنت الحائض من التلويث في عبور المسجد جاز في أحد الوجهين قياسا على الجنب والثاني لا لان حدثها أغلظ ويجب على الحائض قضاء الصوم دون الصلاة لما روى عن معاذة العدوية قالت سألت عائشة فقلت ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة قالت أحرورية أنت قلت لست بحرورية ولكني أسأل قالت كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة أخرجاه في الصحيحين ﴿المسئلة الرابعة﴾ لا يرتفع شئ مما منعه الحيض بانقطاع الدم ما لم تغتسل أو تتيمم عند عدم الماء الا الصوم فانه اذا انقطع دمها بالليل ونوت الصوم فانه يصح وان اغتسلت في النهار وذهب أبو حنيفة الى أنه يجوز للزوج غشيانها اذا انقطع الدم لاكثر الحيض وهو عشرة أيام عنده قبل الغسل ومذهب الشافعي وغيره من العلماء انه لا يجوز للزوج غشيانها ما لم تغتسل من الحيض أو تتيمم عند عدم الماء لان الله تعالى علق جواز وطء الحائض بشرطين أحدهما انقطاع الدم والثاني الغسل فقال ولا تقربوهن حتى يطهرن يعني من الحيض فاذا تطهرن يعني اغتسلن فاتوهن من حيث أمركم الله فدل ذلك على ان الوطء لا يحل قبل الغسل ﴿وقوله تعالى (ان الله يحب التوابين) يعني من الذنوب والتواب الذي كلما أذنب جدد توبة وقيل التواب هو الذي لا يعود الى الذنب (ويحب المتطهرين) يعني من الاحداث وسائر النجاسات بالماء وقيل المتطهرين من الشرك وقيل هم الذين لم يصيبوا الذنوب ﴿قوله عز وجل (نساؤكم حرث لكم) الآية

حينئذ يجب ترك العمل باحدهما الماعرف وعند الشافعي رحمه الله لا يقربها حتى تطهر وتتطهر دليله قوله تعالى (فاذا تطهرن فاتوهن) فجامعوهن فجمع بينهما (من حيث أمركم الله) من المأتى الذي أمركم الله به وحلله لكم وهو القبل (ان الله يحب التوابين) من ارتكاب مانهوا عنه او العوادين الى الله تعالى وان زلوا فزلوا والمحبة لمعرفته بعظم عفو الله حيث لا ييأس (ويحب المتطهرين) بالماء أو المتنزهين من ادبار النساء أو من الجماع في الحيض ومن الفواحش كان اليهود يقولون اذا أتى الرجل أهله باركة أتى الولد أحول فنزل (نساؤكم حرث لكم) مواضع حرث لكم وهذا مجاز شبههن بالمحارث تشبيها لما يلقى في ارحامهن من النطف التي منها النسل بالبذور والولد بالنبات ووقع قوله نساؤكم حرث لكم بيانا وتوضيحا لقوله فاتوهن من حيث أمركم الله أي ان المأتى الذي أمركم الله به هو مكان الحرث لامكان الفرث تنبيها على ان المطلوب الاصلي في الاتيان هو طلب النسل لا قضاء الشهوة فلا تاتوهن الا من المأتى الذي نيط به هذا المطلوب

(ق) عن جابر قال كانت اليهود تقول اذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول فنزلت نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم انى شئتم وفي رواية للترمذي كانت اليهود تقول من أتى المرأة في قبلها من دبرها وذكر الحديث وعن ابن عباس قال جاء عمر الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله هلكت قال وما أهلكك قال حولت رحلي الليلة قال فلم يرد عليه شيأ فأوحى الله الى رسوله صلى الله عليه وسلم بهذه الآية نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم أقبل وأدبر واتق الدبر والحيضة أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح قوله حولت رحلي هو كناية عن الاتيان في غير المحل المعتاد هذا ظاهره ويجوز أن يريد به انه أتاها في المحل المعتاد لكن من جهة ظهرها وعن ابن عباس قال كان هذا الحي من الانصار وهم أهل وثن مع هذا الحي من يهود وهم أهل كتاب فكانوا يرون لهم فضلا عليهم في العلم فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم وكان من شأن أهل الكتاب أن لايأتوا النساء الا على حرف وذلك أستر ماتكون المرأة فكان هذا الحي من الانصار قد أخذوا بذلك من فعلهم وكان هذا الحي من قريش يشرحون النساء شرحا منكرا ويتلذذون بهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الانصار فذهب أن يصنع بها ذلك فانكرته عليه وقالت انا كنا نؤتى على حرف فاصنع ذلك والا فاجتنبني حتى سرى أمرهما فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله عز وجل نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم انى شئتم أي مقبلات ومدبرات ومستلقيات يعني بذلك موضع الولد أخرجه أبو داود والوثن الصنم وقيل الصورة لاجثة لها وقوله على حرف الحرف الجانب وحرف كل شئ جانبه وقوله يشرحون النساء يقال شرح فلان جاريته اذا وطئها على قفاها وأصل الشرح البسط وقوله سرى أمرهما أي ارتفع وعظم وتفاخم وأصله من سرى البرق اذا لج في اللمعان عن أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في قوله تعالى نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم في صمام واحد ويروى سمام بالسين أخرجه الترمذي وقال حديث حسن وقوله تعالى حرث لكم معناه مزرع لكم ومنبت للولد وهذا على سبيل التشبيه فجعل فرج المرأة كالارض والنطفة كالبزر والولد كالنبات الخارج (فأتوا حرثكم أنى شئتم) يعني كيف شئتم وحيث شئتم اذا كان في القبل والمعنى كيف شئتم مقبلة ومدبرة على كل حال اذا كان في الفرج وفي الآية دليل على تحريم اتيان النساء في أدبارهن لان محل الحرث والزرع هو القبل لا الدبر ويؤيد ذلك ماروى عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ملعون من أتى امرأة في دبرها أخرجه أبو داود وقال سعيد بن المسيب هذا في العزل يعني ان شئتم فاعزلوا وان شئتم لاتعزلوا وسئل ابن عباس عن العزل فقال حرثك ان شئت فعطش وان شئت فارو وروى عنه انه قال تستأمر الحرة في العزل ولا تستأمر الجارية وبه قال أحمد وكره جماعة العزل وقالوا هو الوأد الخفي وروى نافع قال كنت أمسك على ابن عمر المصحف فقرأ هذه الآية نساؤكم حرث لكم قال تدري فيم نزلت هذه الآية قلت لا قال نزلت في رجل أتى امرأته في دبرها فشق ذلك عليه فنزلت هذه الآية روى عبد الله بن الحسن انه لقي سالم بن عبد الله بن عمر فقال له ياعم ماحديث يحدثه نافع عن عبد الله انه لم يكن يرى باسا باتيان النساء في أدبارهن فقال كذب العبد وأخطأ انما قال عبد الله يؤتون في فروجهن من أدبارهن ويحكى عن مالك اباحة ذلك وأنكره أصحابه وأجمع جمهور العلماء على تحريم اتيان النساء في أدبارهن وقالوا لان الله حرم الفرج في حال الحيض لاجل النجاسة العارضة وهو الدم فاولى أن يحرم الدبر لاجل النجاسة اللازمة ولان الله تعالى نص على ذكر الحرث والحرث به يكون نبات الولد فلا يحل العدول عنه الى غيره ۞ وقوله تعالى (وقدموا لانفسكم) يعني الولد وقيل قدموا التسمية والدعاء عند الجماع (ق) عن ابن عباس قال قال النبي صلى الله عليه وسلم لو أن أحدكم اذا أراد أن يأتي أهله قال بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان مارزقتنا فانه ان يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبدا وقيل أراد به تقديم الافراط (ق) عن أبي هريرة قال

(فأتوا حرثكم انى شئتم) جامعوهن متى شئتم أو كيف شئتم باركة أو مستلقية أو مضطجعة بعد أن يكون المأتى واحدا وهو موضع الحرث وهو تمثيل أي فأتوهن كما تأتون أراضيكم التي تريدون أن تحرثوها من أي جهة شئتم لايحظر عليكم جهة دون جهة وقوله هو أذى فاعتزلوا النساء من حيث أمركم الله فأتوا حرثكم انى شئتم من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة فعلى كل مسلم ان يتأدب بها ويتكلف مثلها في المحاورات والمكاتبات (وقدموا لانفسكم) مايجب تقديمه من الاعمال الصالحة وماهو خلاف مانهيتم عنه أو هو طلب الولد أو التسمية على الوطء

(واتقوا الله) فلا تجترئوا على المناهي (واعلموا أنكم ملاقوه) صائرون اليه فاستعدوا للقائه (و بشر المؤمنين) بالثواب يا محمد وانما جاء يسئلونك ثلاث مرات بلا واو ثم مع الواو ثلاثا لان سؤالهم عن تلك الحوادث الاول كانه وقع فى أحوال متفرقه فلم يؤت بحرف العطف لان كل واحد من السؤالات سؤال مبتدأ وسألوا عن الحوادث الاخر فى وقت واحد فجيء بحرف الجمع لذلك (ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم) العرضة فعلة بمعنى مفعول كالقبضة وهى اسم ماتعرضه دون الشئ من عرض العود على الاناء فيتعرض دونه و يصير حاجزا ومانعا منه تقول فلان عرضة دون الخير وكان الرجل يحلف على بعض الخيرات من صلة رحم أو اصلاح ذات بين أو احسان الى أحد أو عبادة ثم يقول أخاف الله ان أحنث فى يمينى فيترك البر ارادة البر فى يمينه فقيل لهم ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم أى حاجزا لما حلفتم عليه وسمى المحلوف عليه يمينا لتلبسه باليمين كقوله عليه السلام من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفر عن يمينه وقوله (أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس) عطف بيان لايمانكم أى للامور المحلوف عليها التى هى البر والتقوى والاصلاح بين الناس واللام تتعلق بالفعل أى ولا تجعلوا الله لايمانكم برزخا و يجوز أن تكون اللام للتعليل و يتعلق أن تبروا بالفعل أو بالعرضة أى ولا تجعلوا الله لاجل أيمانكم به عرضة لان تبروا (والله سميع) لايمانكم (عليم) بنياتكم (لا يؤاخذكم لكن الله باللغو فى أيمانكم) اللغو الساقط الذى لا يعتد به من كلام وغيره ولغو اليمين الساقط الذى لا يعتد به فى الايمان وهو أن يحلف على شئ يظنه على ماحلف عليه والامر بخلافه والمعنى لا يعاقبكم بلغو اليمين الذى يحلفه أحدكم وعند الشافعى رحمه الله هو ما يجرى على لسانه من غير قصد للحلف نحو لا والله و بلى والله (ولكن يؤاخذكم) ولكن يعاقبكم (بما كسبت قلوبكم) بما اقترفته من اثم القصد الى

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يموت لاحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار الا تحلة القسم قوله الا تحلة القسم يعنى قدر ما يبر الله قسمه فيه وهو قوله تعالى وان منكم الا واردها فاذا وردها اجاوزها فقد أبر الله قسمه وقيل قدموا لانفسكم يعنى من الخير والعمل الصالح بدليل سياق الآية (واتقوا الله) أى احذروا ان تأتوا شيأ مما نهاكم الله عنه (واعلموا أنكم ملاقوه) أى صائرون اليه فى الآخرة فيجزيكم باعمالكم (و بشر المؤمنين) يعنى بالكرامة من الله تعالى ۞ قوله عز وجل (ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم) نزلت فى عبد الله بن رواحة كان بينه و بين ختنه بشير بن النعمان شئ فحلف عبد الله لا يدخل عليه ولا يكلمه ولا يصلح بينه و بين خصم له فكان اذا قيل له فيه يقول قد حلفت بالله ان لا أفعل فلا يحل لى الا أن تبر يمينى فانزل الله هذه الآية وقيل نزلت فى أبى بكر الصديق حين حلف ان لا ينفق على مسطح حين خاض فى حديث الافك والعرضة ما يجعل معرضة للشئ وقيل العرضة الشدة والقوة وكل ما يعترض فيمنع عن الشئ فهو عرضة والمعنى ولا تجعلوا الحلف بالله سببا مانعا لكم من البر والتقوى يدعى أحدكم الى بر أو صلة رحم فيقول قد حلفت بالله لا أفعله فيعتل بيمينه فى ترك البر والاصلاح (أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس) قيل معناه لا تحلفوا بالله أن لا تبروا ولا تتقوا ولا تصلحوا بين الناس (م) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأتها وليكفر عن يمينه وقيل معناه لا تكثروا الحلف بالله وان كنتم بارين متقين مصلحين فان كثرة الحلف بالله ضرب من الجراءة عليه (والله سميع) أى لحلفكم (عليم) يعنى بنياتكم ۞ قوله عز وجل (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) اللغو كل ساقط مطروح من الكلام وما لا يعتد به وهو الذى يورد لا عن روية وفكر واللغو فى اليمين هو الذى لا عقد معه كقول القائل لا والله بلى والله على سبق اللسان من غير قصد و نية و به قال الشافعى و يعضده ما روى عن عائشة قالت نزل قوله تعالى لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم فى قول الرجل لا والله و بلى والله أخرجه البخارى موقوفا ورفعه أبو داود قال قالت عائشة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو قول الرجل فى يمينه كلا والله و بلى والله ورواه عنها أيضا موقوفا وقيل فى معنى اللغو هو ان يحلف الرجل على شئ يرى انه صادق ثم يتبين له خلاف ذلك و به قال أبو حنيفة ولا كفارة فيه ولا اثم عليه عنده قال مالك فى الموطأ أحسن ما سمعت فى ذلك ان اللغو حلف الانسان على الشئ يتيقن انه كذا ثم يوجد بخلافه فلا كفارة فيه قال والذى يحلف على الشئ وهو يعلم انه فيه آثم كاذب ليرضى به أحدا أو يعتذر لمخلوق أو يقتطع به مالا فهذا أعظم من أن تكون فيه كفارة وانما الكفارة على من حلف أن لا يفعل الشئ المباح له فعله ثم يفعله أو أن يفعله ثم لا يفعله مثل أن يحلف لا يبيع ثوبه بعشرة دراهم ثم يبيعه بذلك أو يحلف ليضربن غلامه ثم لا يضربه وفائدة الخلاف الذى بين الشافعى وأبى حنيفة فى لغو اليمين ان الشافعى لا يوجب الكفارة فى قول الرجل لا والله و بلى والله و يوجبها فيما اذا حلف على شئ يعتقد انه كان ثم بان انه لم يكن وأبو حنيفة يحكم بضد ذلك ومذهب الشافعى هو قول عائشة والشعبى وعكرمة ومذهب أبى حنيفة هو قول ابن عباس والحسن ومجاهد والنخعى والزهرى وسليمان بن يسار وقتادة ومكحول وقيل فى معنى اللغو انه اليمين فى الغضب وقيل هو ما يقع سهوا من غير قصد ألبتة ومعنى لا يؤاخذكم أى لا يعاتبكم الله بلغو اليمين وقيل لا يؤاخذكم أى لا يلزمكم الكفارة بلغو اليمين (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) يعنى

لكن يؤاخذكم بما عزمتم عليه وقصدتم له وكسب القلب هو العقد والنية

﴿فصل في بيان حكم الآية﴾ وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ لا تنعقد اليمين الا بالله وباسمائه وصفاته فاما اليمين بالله فهو كقول الرجل والذى نفسى بيده والذى أعبده ونحو ذلك والحلف باسمائه كقوله والله والرحمن والرحيم والمهيمن ونحو ذلك والحلف بصفاته كقوله وعزة الله وقدرته وعظمته ونحوه فاذا حلف بشيء من ذلك ثم حنث فعليه الكفارة ﴿المسئلة الثانية﴾ لا يجوز الحلف بغير الله كقوله والكعبة والنبي وأبى ونحو ذلك فاذا حلف بشيء من ذلك لا تنعقد يمينه ولا كفارة عليه ويكره الحلف به لما روى عن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أدرك عمر وهو يسير فى ركب وهو يحلف بابيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت أخرجاه فى الصحيحين ﴿المسئلة الثالثة﴾ اذا حلف على أمر فى المستقبل فحنث فعليه الكفارة وان كان على أمر ماض ولم يكن أو على انه لم يكن فكان فان كان عالما به حال حلفه بان يقول والله مافعلت وقد فعل أو لقد فعلت ومافعل فهذه اليمين الغموس وهى من الكبائر سميت غموسا لانها تغمس صاحبها فى الاثم وتجب فيها الكفارة عند الشافعى سواء كان عالما أو جاهلا وذهب أبو حنيفة الى انه لا كفارة عليه فان كان عالما فهى كبيرة وان كان جاهلا فهى من لغو اليمين (والله غفور) يعنى لعباده فيما لغوا من أيمانهم التى أخبر انه لا يؤاخذهم عليها ولو شاء آخذهم وألزمهم الكفارة فى العاجل والعقوبة عليها فى الآجل (حليم) يعنى فى ترك معاجلة أهل العصيان بالعقوبة قال الحليمى فى معنى الحليم انه الذى لا يحبس انعامه وافضاله عن عباده لاجل ذنوبهم ولكنه يرزق العاصى كما يرزق المطيع ويبقيه وهو منهمك فى معاصيه كما يبقى البر المتقى وقد يقيه الآفات والبلايا وهو غافل لا يذكره فضلا عن أن يدعوه كما يقيها الناسك الذى يدعوه ويسأله وقال أبو سليمان الخطابى الحليم ذو الصفح والاناة الذى لا يستفزه غضب ولا يستخفه جهل جاهل ولا عصيان عاص ولا يستحق الصافح مع العجز اسم الحليم انما الحليم الصفوح مع القدرة على الانتقام المتأنى الذى لا يعجل بالعقوبة ۞ قوله عز وجل (للذين يؤلون من نسائهم) يؤلون أى يحلفون والالية اليمين قال كثير

قليل الألايا حافظ ليمينه * وان سبقت منه الالية برت

والايلاء فى عرف الشرع هو اليمين على ترك الوطء كما اذا قال والله لا أجامعك أو لا أباضعك أو لا أقربك قال ابن عباس كان أهل الجاهلية اذا طلب الرجل من امرأته شيأ فابت أن تعطيه حلف لا يقربها السنة والسنتين والثلاث فيدعها لا أيما ولا ذات بعل فلما كان الاسلام جعل الله ذلك للمسلمين أربعة أشهر وأنزل هذه الآية وقال سعيد بن المسيب كان الايلاء ضرار أهل الجاهلية فكان الرجل لا يريد امرأته ولا يحب أن يتزوجها غيره فيحلف أن لا يقربها أبدا فيتركها لا أيما ولا ذات بعل وكانوا عليه فى ابتداء الاسلام فجعل الله تعالى له الاجل الذى يعلم به ماعند الرجل فى المرأة أربعة أشهر وأنزل هذه الآية للذين يؤلون من نسائهم (تربص) أى انتظار (أربعة أشهر) والتربص التثبت والانتظار (فان فاؤا) أى رجعوا عن اليمين بالوطء والمعنى فان رجعوا عما حلفوا عليه من ترك جماعها (فان الله غفور رحيم) للزوج اذا تاب من اضراره بامرأته فانه غفور رحيم لكل التائبين ﴿فروع﴾ تتعلق بحكم الآية ﴿الفروع الاول﴾ اذا حلف انه لا يقرب زوجته أبدا أو مدة هى أكثر من أربعة أشهر فهو مول فاذا مضت أربعة أشهر يوقف الزوج ويؤمر بالفيء وهو الرجوع أو الطلاق وذلك بعد مطالبة الزوجة فان رجع عما قال بالوطء ان قدر عليه أو بالقول مع العجز عنه فان لم يفئ ولم يطلق طلق عليه الحاكم واحدة وهو قول عمر وعثمان وأبى الدرداء وابن عمر قال سليمان بن يسار أدركت بضعة عشر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يقول يوقف المولى وذهب اليه سعيد ابن جبير وسليمان بن يسار ومجاهد وبه قال مالك والشافعى وأحمد واسحاق وقال ابن عباس وابن مسعود

الكذب فى اليمين وهو أن يحلف على مايعلم انه خلاف مايقوله وهو اليمين الغموس وتعلق الشافعى بهذا النص على وجوب الكفارة فى الغموس لان كسب القلب العزم والقصد والمؤاخذة غير مبينة هنا وبينت فى المائدة فكان البيان ثمة بيانا هنا وقلنا المؤاخذة هنا مطلقة وهى فى دار الجزاء والمؤاخذة ثم مقيدة بدار الابتلاء فلا يصح حمل البعض على البعض (والله غفور حليم) حيث لم يؤاخذكم باللغو فى أيمانكم (للذين يؤلون) يقسمون وهى قراءة ابن عباس رضى الله عنه ومن فى (من نسائهم) يتعلق بالجار والمجرور أى للذين كما تقول لك منى نصرة ولك معونة أى للمؤلين من نسائهم (تربص أربعة أشهر) أى استقر للمؤلين ترقب أربعة أشهر لا بيؤلون لان آلى يعدى بعلى يقال آلى فلان على امرأته وقول القائل آلى فلان من امرأته وهم توهمه من هذه الآية ولك أن تقول عدى بمن لما فى هذا القسم من معنى البعد فكأنه قيل يبعدون من نسائهم مؤلين (فان فاؤا) فى الاشهر لقراءة عبد الله فان فاؤا فيهن أى رجعوا الى الوطء عن الاصرار بتركه (فان الله غفور رحيم) حيث شرع الكفارة

(وان عزموا الطلاق) بترك الفيء فتربصوا الى مضى المدة (فان الله سميع) لايلائه (عليم) بنيته وهو وعيد على اصرارهم وتركهم الفيئة وعند الشافعي رحمه الله معناه فان فاؤا وان عزموا بعد مضى المدة لان الفاء للتعقيب وقلنا قوله فان فاؤا وان عزموا تفصيل لقوله للذين يؤلون من نسائهم والتفصيل يعقب المفصل كما تقول أنا نزيلكم هذا الشهر فان أحمدتكم أقمت عندكم الى آخره والالم أقم الاريثما أتحول (والمطلقات) أراد المدخول بهن من ذوات الاقراء (يتربصن بانفسهن) خبر في معنى الامر وأصل الكلام وليتربص المطلقات واخراج الامر في صورة الخبر تأكيد للامر واشعار بانه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة الى امتثاله فكأنهن امتثلن الامر بالتربص فهو يخبر عنه موجودا ونحوه قولهم في الدعاء رحمك الله أخرج في صورة الخبر ثقة بالاستجابة كأنما وجدت الرحمة فهو يخبر عنها وبناؤه على المبتدا مما زاده أيضا فضل تأكيد لان الجملة الاسمية تدل على الدوام والثبات بخلاف الفعلية وفي ذكر الانفس تهييج لهن على التربص وزيادة بعث لان أنفس النساء طوامح الى الرجال فامرن أن يقمعن أنفسهن ويغلبنها على الطموح ويجبرنها على التربص (ثلاثة قروء) جمع قرء أو قرء وهو الحيض لقوله عليه السلام دعي الصلاة أيام أقرائك وقوله طلاق الامة تطليقتان وعدتها حيضتان ولم يقل طهران وقوله تعالى واللائي يئسن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر فاقام الاشهر مقام الحيض دون الاطهار ولان المطلوب من العدة استبراء الرحم والحيض هو الذي يستبرأ به الارحام دون الطهر ولذلك كان الاستبراء من الامة بالحيضة ولانه لو كان طهرا كما قال الشافعي لانقضت العدة بقرأين وبعض مورثة الثالث فانتقض العدد عن الثلاثة لانه اذا طلقها لآخر الطهر فذا محسوب من العدة عنده واذا طلقها في آخر الحيض فذا غير محسوب من العدة عندنا والثلاث اسم خاص لعدد مخصوص لايقع على مادونه ويقال أقرأت المرأة اذا حاضت وامرأة مقرئ وانتصاب ثلاثة على انه مفعول به أي يتربصن مضى ثلاثة قروء أو على الظرف أي يتربصن مدة ثلاثة قروء وجاء المميز على جمع الكثرة دون القلة التي هي الاقراء لاشتراكهما في الجمعية اتساعا ولعل القروء كانت أكثر استعمالا في جمع قرء من الاقراء فاوثر عليه تنزيلا للقليل الاستعمال منزلة المهمل

اذا مضت مدة أربعة أشهر يقع عليها طلقة بائنة وبه قال سفيان الثوري وأبو حنيفة وقال سعيد بن المسيب والزهري يقع عليها طلقة رجعية ﴿الفرع الثاني﴾ لو حلف أن لا يطأها أقل من أربعة أشهر فليس بمول بل هو حالف فان وطئها قبل مضى المدة لزمه كفارة يمين ﴿الفرع الثالث﴾ لو حلف أن لا يطأها أربعة أشهر فليس بمول بعد مضى المدة عند الشافعي لان بقاء المدة شرط للوقوف وثبوت المطالبة بالفيء أو الطلاق وقد مضت المدة وعند أبي حنيفة يكون موليا ويقع الطلاق بمضى المدة ﴿الفرع الرابع﴾ مدة الايلاء أربعة أشهر في حق الحر والعبد جميعا عند الشافعي لانها مدة ضربت لمعنى يرجع الى الطبع وهو قلة صبر المرأة عن الزوج فيستوي فيه الحر والعبد كمدة العنة وعن مالك وأبي حنيفة تتنصف مدة الايلاء بالرق غير أن عند أبي حنيفة تتنصف مدة الايلاء برق المرأة وعند مالك برق الزوج كما في الطلاق ﴿الفرع الخامس﴾ اذا وطئ خرج من الايلاء ويجب عليه كفارة يمين وهذا قول أكثر العلماء وقيل لا كفارة عليه لان الله تعالى وعده المغفرة فقال فان فاؤا فان الله غفور رحيم ومن قال بوجوب الكفارة عليه قال ذلك في اسقاط العقوبة عنه لا في الكفارة ۞ قوله تعالى (وان عزموا الطلاق) أي حققوه بالايقاع (فان الله سميع) يعني لاقوالهم (عليم) يعني بنياتهم وفيه دليل على أنها لا تطلق مالم يطلقها زوجها لانه تعالى شرط فيها العزم ۞ قوله عز وجل (والمطلقات) أي المخليات من حبال أزواجهن والمطلقة هي التي أوقع الزوج عليها الطلاق (يتربصن بانفسهن) أي ينتظرن فلا يتزوجن (ثلاثة قروء) جمع قرء والقرء اسم يقع على الحيض والطهر قال أبو عبيدة الاقراء من الاضداد كالشفق اسم للحمرة والبياض وقيل انه حقيقة في الحيض مجاز في الطهر وقيل بالعكس واختلفوا في أصله فقيل أصله الجمع من قرأ أي جمع لان في وقت الحيض يجتمع الدم في الرحم وفي وقت الطهر يجتمع في البدن وقيل أصله الوقت يقال رجع فلان لقرئه أي لوقته الذي كان فيه لان الحيض يأتي لوقت والطهر يأتي لوقت وبحسب اختلاف أهل اللغة في الاقراء اختلف الفقهاء على قولين أحدهما ان الاقراء هي الحيض روي ذلك عن عمر وعلي وابن مسعود وابن عباس وأبي موسى وعبادة بن الصامت وأبي الدرداء وبه قال عكرمة والضحاك والسدي والاوزاعي وسفيان الثوري وأبو حنيفة وأصحابه وقال أحمد بن حنبل كنت أقول ان الاقراء هي الاطهار وأنا اليوم أذهب الى انها الحيض القول الثاني انها الاطهار يروى ذلك عن زيد بن ثابت وابن عمر وعائشة وبه قال الزهري وأبان بن عثمان ومالك والشافعي وحجة من يقول ان الاقراء هي الحيض قوله صلى الله عليه وسلم للمستحاضة دعي الصلاة أيام أقرائك يعني أيام حيضك لان المرأة لا تدع الصلاة الا أيام حيضها وحجة من يقول انها الاطهار ان ابن عمر لما طلق امرأته وهي حائض قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر مره فليراجعها حتى تطهر ثم ان شاء أمسكها وان شاء طلق قبل أن يمس فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها فاخبر ان زمان العدة هو الطهر لا الحيض ويعضده من اللغة قول الاعشى

فني كل عام أنت جاشم غزوة ۞ تشد لاقصاها عزيم عزائكا

مورثة مالا وفى الحى رفعة * لما ضاع فيها من قروء نسائكا

أراد انه كان يخرج للغزو ولم يغش نساءه فتضيع اقراؤهن وانما يضيع بالسفر زمان الطهر لا زمان الحيض وفائدة الخلاف أن مدة العدة عند الشافعى أقصر وعند غيره أطول وذلك ان المعتدة اذا شرعت فى الحيضة الثالثة فقد انقضت عدتها وحلت للازواج ويحسب بقية الطهر الذى وقع فيه الطلاق قرأ على قول من يجعل الاقراء الاطهار قالت عائشة رضى الله عنها اذا دخلت المطلقة فى الحيضة الثالثة فقد بانت من زوجها وحلت للازواج وروى عنها انها قالت القرء الطهر ليس بالحيضة قال الشافعى والنساء بهذا أعلم لان هذا انما يبتلى به النساء وان طلقها فى حال الحيض فاذا شرعت فى الحيضة الرابعة انقضت عدتها وعلى قول من يجعل الاقراء حيضا وهو مذهب أبى حنيفة لا تنقضى عدتها مالم تطهر من الحيضة الثالثة ان كان وقع الطلاق فى حال الطهر أو من الحيضة الرابعة ان وقع فى حال الحيض فان قلت ما معنى الاخبار عنهن بالتربص فى قوله والمطلقات يتربصن بأنفسهن قلت هو خبر فى صورة الامر وأصل الكلام وليتربص المطلقات فاخراج الامر فى صورة الخبر تأكيد للامر واشعار بانه مما يجب ان يتلقى بالمسارعة الى امتثاله فكانهن امتثلن الامر بالتربص فهو يخبر عن موجود ونظيره قولهم فى الدعاء يرحمك الله أخرج فى صورة الخبر ثقة بالاجابة فكانه قال وجدت الرحمة فهو يخبر عنها

(فصل أحكام العدة) وفيه مسائل *(المسئلة الاولى)* عدة الحامل تنقضى بوضع الحمل سواء المطلقة والمتوفى عنها زوجها وسواء فى ذلك الحرة والامة *(المسئلة الثانية)* عدة المتوفى عنها سوى الحامل أربعة أشهر وعشرة أيام سواء مات عنها زوجها قبل الدخول أو بعده وسواء فى ذلك الحائض والامة والآيسة *(المسئلة الثالثة)* عدة المطلقة المدخول بها وهى ضربان أحدهما الحيض فعدتها بالاقراء وهى ثلاثة اقراء الضرب الثانى الآيسات من الحيض اما الكبر أو تكون لم تحض قط فعدتها ثلاثة أشهر وأما المطلقة قبل الدخول فلا عدة عليها *(المسئلة الرابعة)* عدة الاماء نصف عدة الحرائر فيماله نصف وفى الاقراء قرآن لانه لا يتنصف قال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ينكح العبد اثنتين و يطلق طلقتين وتعتد الامة بحيضتين ۞ وقوله تعالى (ولا يحل لهن ان يكتمن ماخلق الله فى أرحامهن) قال ابن عباس يعنى الولد وقيل الحيض والمعنى انه لا يحل للمرأة كتمان ما خلق الله فى رحمها من الحيض أو الحمل لتبطل بذلك الكتمان حق الزوج من الرجعة والولد (ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر) هذا وعيد شديد لتأكيد تحريم الكتمان وايجاب أداء الامانة فى الاخبار عما فى الرحم من الحيض أو الولد والمعنى ان هذا من فعل المؤمنات وان كانت المؤمنة والكافرة فيه سواء فهو كقولك أدحق ان كنت مؤمنا يعنى أن أداء الحقوق من أفعال المؤمنين وتقول للذى يظلم ان كنت مؤمنا فلا تظلمنى والمعنى ينبغى ان يمنعك ايمانك من الظلم وفى سبب وعيد النساء بهذا قولان أحدهما انه لاجل ما يستحقه الزوج من الرجعة قاله ابن عباس والثانى انه لاجل الحاق الولد بغير أبيه قاله قتادة وقيل كانت المرأة اذا رغبت فى زوجها تقول انى حائض وان كانت قد طهرت ليراجعها وان كانت زاهدة فيه كتمت حيضها وتقول قد طهرت لتفوته فنهاهن الله عن ذلك وأمرهن باداء الامانة (وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك) يعنى أزواجهن سمى الزوج بعلا لقيامه بامر زوجته وأصل البعل السيد والمالك والمعنى وأزواجهن أولى برجعتهن وردهن اليهم فى ذلك أى فى حال العدة فاذا انقضى وقت العدة فقد بطل حق الرد والرجعة (ان أرادوا اصلاحا) يعنى ان أراد الزوج بالرجعة الاصلاح وحسن العشرة لا الاضرار بهن وذلك ان أهل الجاهلية كانوا يراجعون ويرون بذلك الاضرار فنهى الله المؤمنين عن مثل ذلك وأمرهم بالاصلاح وحسن العشرة بعد الرجعة (ولهن) يعنى وللنساء على الازواج (مثل الذى عليهن) يعنى للازواج (بالمعروف) وذلك ان حق الزوجية لا يتم الا اذا كان كل واحد منهما يراعى حق

أو منهما وذلك اذا أرادت المرأة فراق زوجها فكتمت حملها لئلا ينتظر بطلاقها ان تضع ولئلا يشفق على الولد فيترك تسريحها أو كتمت حيضها وقالت وهى حائض قد طهرت استعجالا للطلاق ثم عظم فعلهن فقال (ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر) لان من آمن بالله وبعقابه لا يجترئ على مثله من العظائم (وبعولتهن) البعول جمع بعل والتاء لاحقة لتأنيث الجمع (أحق بردهن) أى أزواجهن أولى برجعتهن وفيه دليل على ان الطلاق الرجعى لا يحرم الوطء حيث سماه زوجا بعد الطلاق (فى ذلك) فى مدة ذلك التربص والمعنى ان الرجل ان أراد الرجعة وأبتها المرأة وجب ايثار قوله على قولها وكان هو أحق منها لا ان لها حقا فى الرجعة (ان أرادوا) بالرجعة (اصلاحا) لما بينهم وبينهن واحسانا اليهن ولم يريدوا مضارتهن (ولهن مثل الذى عليهن) ويجب لهن من الحق على الرجال من المهر والنفقة وحسن العشرة وترك المضارة مثل الذى يجب لهم عليهن من الامر والنهى (بالمعروف) بالوجه الذى لا ينكر فى الشرع وعادات الناس فلا يكلف أحد الزوجين صاحبه ماليس له والمراد بالمماثلة مماثلة الواجب فى كونه حسنة لا فى جنس الفعل فلا يجب عليه اذا غسلت ثيابه أو خبزت له أن يفعل نحو ذلك ولكن يقابله بما يليق بالرجال

الآخر فماله وعليه فيجب على الزوج أن يقوم بجميع حقها ومصالحها ويجب على الزوجة الانقياد والطاعة له قال ابن عباس في معنى الآية إني أحب أن أتزين لامرأتي كما أحب أن تتزين لي لأن الله تعالى قال ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف (م) عن جابر أنه ذكر خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع وقال فيها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانات الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف قوله فاتقوا الله في النساء فيه الحث على الوصية بهن ومراعاة حقوقهن ومعاشرتهن بالمعروف قوله فإنكم أخذتموهن بأمانات الله ويروى بأمانة الله وقوله واستحللتم فروجهن بكلمة الله معناه بإباحة الله والكلمة هي قوله فانكحوا ما طاب لكم من النساء وقيل الكلمة هي قوله فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان وقيل الكلمة هي كلمة التوحيد وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله إذ لا تحل مسلمة لغير مسلم وقوله لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه معناه ولا يأذن لأحد أن يتحدث إليهن وكان من عادة العرب أن يتحدث الرجال مع النساء ولا يرون ذلك عيبا ولا يعدونه ريبة إلى أن نزلت آية الحجاب فنهوا عن ذلك وليس المراد بوطء الفرش نفس الزنا فإن ذلك محرم على كل الوجوه فلا معنى لاشتراط الكراهة فيه ولو كان المراد ذلك لم يكن الضرب فيه ضربا غير مبرح إنما كان فيه الحد والضرب المبرح هو الشديد وقوله ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف يعني بالعدل وفيه وجوب نفقة الزوجة وكسوتها وذلك ثابت بالإجماع ۞ وقوله تعالى (وللرجال عليهن درجة) أي منزلة ورفعة قال ابن عباس بما ساق إليها من المهر وأنفق عليها من المال وقيل إن فضيلة الرجال على النساء بأمور منها العقل والشهادة والميراث والدية وصلاحية الإمامة والقضاء وللرجل أن يتزوج عليها ويتسرى وليس لها ذلك وبيد الرجل الطلاق فهو قادر على تطليقها وإذا طلقها رجعية فهو قادر على رجعتها وليس شيء من ذلك بيدها (والله عزيز) أي غالب لا يمتنع عليه شيء (حكيم) أي في جميع أفعاله وأحكامه روى البغوي بسنده عن أبي ظبيان أن معاذ بن جبل خرج في غزاة بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ثم رجع فرأى رجالا يسجد بعضهم لبعض فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ۞ قوله عز وجل (الطلاق مرتان) عن عروة بن الزبير قال كان الرجل إذا طلق زوجته ثم ارتجعها قبل أن تنقضي عدتها كان له ذلك وإن طلقها ألف مرة فعمد رجل إلى امرأته فطلقها حتى إذا شارفت انقضاء عدتها ارتجعها ثم قال والله لا آويك إلي ولا تحلين أبدا فأنزل الله تعالى الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان فاستقبل الناس الطلاق جديدا من ذلك اليوم من كان طلق أو لم يطلق أخرجه الترمذي وله عن عائشة قالت كان الناس والرجل يطلق امرأته ما شاء الله أن يطلقها وهي امرأته إذا ارتجعها وهي في العدة وإن طلقها مائة أو أكثر حتى قال رجل لامرأته والله لا أطلقك فتبيني مني ولا آويك أبدا قالت وكيف ذلك قال أطلقك فكلما همت عدتك أن تنقضي راجعتك فذهبت المرأة حتى دخلت على عائشة فأخبرتها فسكتت عائشة حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فسكت النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزل القرآن الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان قالت عائشة فاستأنف الناس الطلاق مستقبلا من كان قد طلق ومن لم يطلق ومعنى الآية أن الطلاق الرجعي مرتان ولا رجعة بعد الثالثة إلا أن تنكح زوجا آخر وهذا التفسير هو قول من جوز الجمع بين الطلاق الثلاث في دفعة واحدة وهو الشافعي وقيل في معنى الآية أن التطليق الشرعي يجب أن يكون تطليقة بعد تطليقة بعد تطليقة على التفريق دون الجمع والإرسال دفعة واحدة وهذا التفسير هو قول من قال إن الجمع بين الثلاثة حرام إلا أن أبا حنيفة قال يقع الثلاث وإن كان حراما وقيل إن الآية دالة على عدد الطلاق الذي يكون للرجل فيه الرجعة على زوجته والعدد الذي تبين به زوجته منه والمعنى أن عدد الطلاق

الذي

(وللرجال عليهن درجة) زيادة في الحق وفضيلة بالقيام بأمرها وإن اشتركا في اللذة والاستمتاع أو بالإنفاق وملك النكاح (والله عزيز) لا يعترض عليه في أموره (حكيم) لا يأمر إلا بما هو صواب وحسن (الطلاق مرتان) الطلاق بمعنى التطليق كالسلامة بمعنى التسليم أي التطليق الشرعي تطليقة بعد تطليقة على التفريق دون الجمع والإرسال دفعة واحدة ولم يرد بالمرتين التثنية ولكن التكرير كقوله ثم ارجع البصر كرتين أي كرة بعد كرة لا كرتين اثنتين وهو دليل لنا في أن الجمع بين الطلقتين والثلاثة بدعة في طهر واحد لأن الله تعالى أمرنا بالتفريق لأنه وإن كان ظاهره الخبر فمعناه الأمر ولا يؤدي إلى الخلف في خبر الله تعالى لأن الطلاق على وجه الجمع قد يوجد وقيل قالت أنصارية إن زوجي قال لا أزال أطلقك ثم أراجعك فنزلت الطلاق مرتان أي الطلاق الرجعي مرتان لأنه لا رجعة بعد الثالث

الذى لكم فيه رجعة على أزواجكم اذا كن مدخولا بهن تطليقتان وأنه لا رجعة له بعد التطليقتين ان يسرحها فطلقها الثالثة (فامساك بمعروف) يعنى بعد الرجعة وذلك أنه اذا راجعها بعد التطليقة الثانية فعليه أن يمسكها بالمعروف وهو كل ما عرف بالشرع من أداء حقوق النكاح وحسن الصحبة (أو تسريح باحسان) يعنى أنه يتركها بعد الطلاق حتى تنقضى عدتها بغير مضارة وقيل هو أنه اذا طلقها أدى اليها جميع حقوقها المالية ولا يذكرها بعد المفارقة بسوء ولا ينفر الناس عنها *(فروع)* تتعلق بأحكام الطلاق *(الفرع الاول)* صريح اللفظ الذى يقع به الطلاق من غير نية ثلاث الطلاق والفراق والسراح وعند أبى حنيفة الصريح هو لفظ الطلاق فقط *(الفرع الثانى)* الحر اذا طلق زوجته طلقة أو طلقتين بعد الدخول بها فله مراجعتها من غير رضاها مادامت فى العدة فاذا لم يراجعها حتى انقضت عدتها أو طلقها قبل الدخول بها أو خالعها فلا تحل له الا بنكاح جديد باذنها واذن وليها *(الفرع الثالث)* العبد يملك على زوجته الامة تطليقتين واختلف فيما اذا كان أحد الزوجين حرا فالحر يملك على زوجته الامة ثلاث تطليقات والعبد يملك على زوجته الحرة تطليقتين فالاعتبار بحال الزوج فى عدد الطلاق وبه قال الشافعى ومالك وأحمد وذهب أبو حنيفة الى أن الاعتبار بالمرأة فالعبد يملك على زوجته الحرة ثلاث تطليقات والحر يملك على زوجته الامة تطليقتين (ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن) يعنى أعطيتموهن (شيأ) يعنى من مهر أو غيره ثم استثنى الخلع فقال تعالى (الا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله) نزلت فى جميلة بنت عبد الله بن أبى ويقال حبيبة بنت سهل الانصارى كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس وكانت تبغضه وهو يحبها وكان بينهما كلام فأتت أباها تشكو اليه زوجها وقالت انه يسىء الى ويضربنى فقال ارجعى الى زوجك فانى أكره للمرأة أن لا تزال رافعة يديها تشكو زوجها قال فرجعت اليه الثالثة وبها أثر الضرب فقال لها ارجعى الى زوجك فلما رأت أن أباها لا يشكيها أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكت اليه زوجها وأرته آثارا بها من ضربه وقالت يا رسول الله لا أنا ولا هو فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ثابت فقال مالك ولاهلك فقال والذى بعثك بالحق نبيا ما على وجه الارض أحب الى منها غيرك فقال لها ما تقولين فكرهت أن تكذب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سألها فقالت صدق يا رسول الله ولكنى خشيت أن يهلكنى فاخرجنى منه وقالت يا رسول الله ما كنت أحدثك حديثا ينزل عليك خلافه هو أكرم الناس حبا لزوجته ولكنى أبغضه فلا أنا ولا هو قال ثابت أعطيتها حديقة نخل فقل لها فلتردها على وأخلى سبيلها فقال لها تردين عليه حديقته وتملكين أمرك قالت نعم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا ثابت خذ منها ما أعطيتها وخل سبيلها ففعل (خ) عن ابن عباس ان امرأة ثابت بن قيس أتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله ان ثابت بن قيس ما أعتب عليه فى خلق ولا مال ولكنى أكره الكفر فى الاسلام قال أبو عبد الله يعنى تبغضه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تردين عليه حديقته قالت نعم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم اقبل الحديقة وطلقها تطليقة قولها ما أعتب عليه يعنى ما أجد عليه والعتبى الموجدة والحديقة البستان من النخل اذا كان عليه الحائط ومعنى قوله تعالى الا أن يخافا أى يعلما الزوجان من أنفسهما أن لا يقيما حدود الله والمعنى تخاف المرأة أن تعصى الله فى أمور زوجها ويخاف الزوج انه اذا لم تطعه أن يعتدى عليها فنهى الله الرجل أن يأخذ من امرأته شيأ مما أعطاها الا أن يكون النشوز من قبلها وذلك ان تقول لا أطيع لك أمرا ولا أطأ لك مضجعا ونحو ذلك وقرئ يخافا بضم الياء ومعناه الا أن يعلم ذلك من حالهما يعنى يعلم القاضى والوالى (فان خفتم) يعنى فان خشيتم وأشفقتم وقيل معناه فان ظننتم (أن لا يقيما حدود الله) يعنى ما أوجب الله على كل واحد منهما من طاعته فيما أمره به من حسن الصحبة والمعاشرة بالمعروف وقيل هو يرجع الى المرأة وهو سوء خلقها واستخفافها بحق زوجها (فلا جناح عليهما فيما افتدت به) أى لا جناح على المرأة

فامساك بمعروف) برجعة والمعنى فالواجب عليكم امساك بمعروف (أو تسريح باحسان) بان لا يراجعها حتى تبين بالعدة وقيل بان لا يطلقها الثالثة فى الطهر الثالث ونزل فى جميلة وزوجها ثابت بن قيس بن شماس وكانت تبغضه وهو يحبها وقد أعطاها حديقة فاختلعت منه بها وهو أول خلع كان فى الاسلام (ولا يحل لكم) أيها الازواج أو الحكام لانهم الآمرون بالاخذ والايتاء عند الترافع اليهم فكانهم الآخذون والمؤتون (أن تأخذوا مما آتيتموهن شيأ) مما أعطيتموهن من المهور (الا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله) الا أن يعلم الزوجان ترك اقامة حدود الله فيما يلزمهما من مواجب الزوجية لما يحدث من نشوز المرأة وسوء خلقها (فان خفتم) أيها الولاة وجاز أن يكون أول الخطاب للازواج وآخره للحكام (ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما) فلا جناح على الرجل فيما أخذ ولا عليها فيما أعطت (فيما افتدت به) فيما افتدت به نفسها واختلعت به من بدل ما أوتيت من المهر الا أن يخافا حمزة على البناء للمفعول وابدال ألا يقيما من ألف الضمير وهو من بدل الاشتمال نحو خيف زيد تركه اقامة

فى النشوز اذا خشيت الهلاك والمعصية فيما افتدت به نفسها واعطت من المال لانها ممنوعة من اتلاف المال بغير حق ولا على الزوج فيما أخذ من المال اذا أعطته المرأة طائعة راضية

﴿فصل فى حكم الخلع وفيه مسائل﴾ ﴿الاولى﴾ قال الزهرى والنخعى وداود لا يباح الخلع الا عند الغضب والخوف من أن لا يقيما حدود الله فان وقع الخلع فى غير هذه الحالة فهو فاسد وحجة هذا القول ان الآية صريحة فى انه لا يجوز للزوج أن يأخذ من المرأة شيأ عند طلاقها ثم استثنى الله تعالى حالة مخصوصة فقال الا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله فكانت هذه صريحة فى انه لا يجوز الاخذ فى غير حالة الغضب والخوف من أن لا يقيما حدود الله وذهب جمهور العلماء الى انه يجوز الخلع من غير نشوز ولا غضب غير انه يكره لما فيه من قطع الوصلة بلا سبب عن ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة أخرجه أبو داود عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال أبغض الحلال الطلاق أخرجه أبو داود ودليل الجمهور على جواز الخلع من غير نشوز قوله تعالى فان طبن لكم عن شئ منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا فاذا جاز لها أن تهب مهرها من غير أن يحصل لها شئ فاذا بذلت كان ذلك فى الخلع الذى تصير بسببه مالكة أمر نفسها أولى وأجيب عن الاستثناء المذكور فى هذه الآية أنه محمول على الاستثناء المنقطع ﴿المسئلة الثانية﴾ الخلع جائز على أكثر مما أعطاها وبه قال أكثر العلماء وقال بعضهم لا يجوز أن يأخذ أكثر مما أعطاه وهو قول على وبه قال الزهرى والشعبى والحسن وعطاء وطاوس وقال سعيد بن المسيب بل يأخذ دون ما أعطاها حتى يكون الفضل فيه وحجة الجمهور أن الخلع عقد على معاوضة فوجب أن لا يتقيد بمقدار معين كما أن للمرأة أن لا ترضى عند عقد النكاح الا بالكثير فكذلك للزوج أن لا يرضى عند الخلع الا بالبذل الكثير لا سيما وقد أظهرت الاستخفاف بالزوج حيث أظهرت بغضه وكراهته ﴿المسئلة الثالثة﴾ اختلف العلماء فى الخلع هل هو فسخ أو طلاق فقال الشافعى فى القديم أنه فسخ وهو قول ابن عباس وطاوس وعكرمة وبه قال أحمد واسحق وأبو ثور وقال الشافعى فى الجديد انه طلاق وهو الاظهر وهو قول عثمان وعلى وابن مسعود والحسن والشعبى والنخعى وعطاء وابن المسيب ومجاهد ومكحول والزهرى وبه قال أبو حنيفة ومالك وسفيان الثورى وحجة القول القديم أن الله تعالى ذكر الطلاق مرتين ثم ذكر بعده الخلع ثم ذكر الطلقة الثالثة فقال فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره ولو كان الخلع طلاقا لكان الطلاق أربعا وحجة القول الجديد انه لو كان فسخا لما صح بالزيادة على المهر المسمى كالاقالة فى البيع وأيضا لو كان الخلع فسخا فاذا خالعها ولم يذكر مهرا وجب ان يجب المهر عليها كالاقالة فان الثمن يجب رده وان لم يذكره فثبت ان الخلع ليس بفسخ واذا بطل ذلك ثبت انه طلاق وأيضا فان الطلقة الثالثة قوله أو تسريح باحسان وفائدة الخلاف انا اذا جعلناه طلاقا ينتقص به عدد الطلاق فان تزوجها بعد ذلك كانت معه على طلقتين وان جعلناه فسخا بانت منه بثلاث ۞ قوله تعالى (تلك حدود الله) يعنى هذه أوامر الله ونواهيه وهو ما تقدم من أحكام الطلاق والرجعة والخلع وحدود الله ما منع من مجاوزتها وهو قوله (فلا تعتدوها) أى فلا تجاوزوها (ومن يتعد حدود الله) أى يجاوزها (فأولئك هم الظالمون) ۞ قوله عز وجل (فان طلقها) يعنى الطلقة الثالثة (فلا تحل له من بعد) أى لا تحل له رجعتها بعد الثلاث (حتى تنكح زوجا غيره) يعنى حتى تتزوج زوجا آخر غير المطلق فيجامعها والنكاح يتناول العقد والوطء جميعا والمراد هنا الوطء نزلت فى تميمة وقيل عائشة بنت عبد الرحمن بن عتيك القرظى وكانت تحت ابن عمها رفاعة بن وهب بن عتيك القرظى فطلقها ثلاثا (ق) عن عائشة قالت جاءت امرأة رفاعة القرظى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت انى كنت عند رفاعة فطلقنى فبت طلاقى فتزوجت بعده

حدود الله (تلك حدود الله) أى ما حد من النكاح واليمين والايلاء والطلاق والخلع وغير ذلك (فلا تعتدوها) فلا تجاوزوها بالمخالفة (ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون) الضارون أنفسهم (فان طلقها) مرة ثالثة بعد المرتين فان قلت الخلع طلاق عندنا وكذا عند الشافعى رحمه الله فى قول فكان هذه تطليقة رابعة قلت الخلع طلاق ببدل فيكون طلقة ثالثة وهذا بيان لتلك أى فان طلقها ثالثة ببدل فحكم التحليل كذا (فلا تحل له من بعد) من بعد التطليقة الثالثة (حتى تنكح زوجا غيره) حتى تتزوج غيره والنكاح يسند الى المرأة كما يسند الى الرجل كالتزوج وفيه دليل على ان النكاح ينعقد بعبارتها والاصابة شرطت بحديث العسيلة كما عرف فى أصول الفقه والفقه وفيه انه لما أقدم على فراق لم يبق للندم مخلص لم تحل له الا بدخول فحل عليها ليمتنع عن ارتكابه

عبد الرحمن بن الزبير وان ما معه مثل هدبة الثوب فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أتريدين ان ترجعي الى رفاعة لا حتى يذوق عسيلتك وتذوقي عسيلته قولها فأبت طلاقي أي قطعه والبت القطع وقولها مثل هدبة الثوب أي طرفه وهو كناية عن استرخاء الذكر قوله حتى يذوق عسيلتك بضم العين تصغير العسل شبه لذة الجماع بالعسل وهو كناية عنه وانما أنث العسل لان من العرب من يؤنثه وقيل أنثه حملا له على المعنى لان المراد منه النطفة وعبد الرحمن المذكور هو عبد الرحمن بن الزبير بفتح الزاي وكسر الباء مشددة ٢ وروى انها لبثت ما شاء الله ثم رجعت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ان زوجي قد مسني فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم كذبت بقولك الاول فان أصدقك في الآخر فلبثت حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتت أبا بكر فقالت يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أرجع الى زوجي الاول فان زوجي الآخر قد مسني وطلقني فقال لها أبو بكر قد شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أتيته وقال لك ما قال فلا ترجعي اليه فلما قبض أبو بكر أتت عمر وقالت له مثل ما قالت لابي بكر فقال لها لئن رجعت اليه لارجمنك ۞ قوله تعالى (فان طلقها) يعني الزوج الثاني بعد وطئها (فلا جناح عليهما) يعني على المرأة والزوج الاول (ان يتراجعا) يعني بنكاح جديد (ان ظنا) أي علما وأيقنا وقيل ان رجوا لان احدا لا يعلم ما هو كائن الا الله تعالى (ان يقيما حدود الله) يعني يقيما بينهما الصلاح وحسن العشرة والصحبة وقيل معناه ان علما ان نكاحهما على غير دلسة وأراد بالدلسة التحليل ❊(فرعان)❊ الاول مذهب جمهور العلماء ان المطلقة بالثلاث لا تحل للزوج المطلقة منه بالثلاث الا بشرائط وهي ان تعتد منه ثم تتزوج بزوج آخر ويطأها ثم يطلقها ثم تعتد منه فاذا حصلت هذه الشرائط فقد حلت للاول والا فلا وقال سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب تحل بمجرد العقد والمذهب الاول هو الاصح واختلف العلماء في اشتراط الوطء هل ثبت بالكتاب أو بالسنة على ثلاثة أقوال الثالث وهو المختار انه ثبت بهما ❊ الثاني اذا تزوج بالمطلقة ثلاثا ليحلها للاول فهذا انكاح باطل وعقد فاسد وبه قال مالك وأحمد لما روي عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لعن المحلل والمحلل له أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وروي أنه قال هو التيس المستعار ولو تزوجها ولم يشترط في النكاح انه يفارقها فالنكاح صحيح ويحصل به التحليل اذا طلقها وانقضت العدة غير انه يكره اذا كان في عزمهما ذلك وبه قال الشافعي وأبو حنيفة ودليل ذلك ان الآية دلت على ان الحرمة تنتهي بوطء مسبوق بعقد وقد وجد ذلك فوجب القول بانتهاء الحرمة وقال نافع أتى رجل الى ابن عمر فقال ان رجلا طلق امرأته ثلاثا فانطلق أخ له من غير مؤامرة فتزوجها ليحلها للاول فقال لا الا نكاح رغبة كنا نعد هذا سفاحا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ۞ وقوله تعالى (وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون) يعني يعلمون ما أمرهم به ونهاهم عنه وانما خص العلماء لانهم هم الذين ينتفعون بذلك البيان ۞ قوله عز وجل (واذا طلقتم النساء) نزلت في ثابت بن يسار رجل من الانصار طلق امرأته حتى اذا قرب انقضاء عدتها راجعها ثم طلقها يقصد بذلك مضارتها (فبلغن أجلهن) أي قاربن انقضاء عدتهن وشارفن منتهاها ولم يرد انقضاء العدة لانه لو انقضت عدتها لم يكن للزوج امساكها فالبلوغ هنا بلوغ مقاربة كما يقال بلغ فلان البلد اذا قاربه وشارفه فهذا من باب المجاز الذي يطلق اسم الكل فيه على الاكثر وقيل ان الاجل اسم للزمان فيحمل على الزمان الذي هو آخر زمان يمكن ايقاع الرجعة فيه بحيث اذا فات لا يبقى بعده مكنة الى الرجعة وعلى هذا التأويل فلا حاجة الى المجاز (فأمسكوهن) أي راجعوهن (بمعروف) وهو أن يشهد على رجعتها وأن يراجعها بالقول لا بالوطء (أو سرحوهن بمعروف) أي اتركوهن حتى تنقضي عدتهن فيملكن أنفسهن (ولا تمسكوهن ضرارا) أي لا تقصدوا بالرجعة المضارة بتطويل الحبس وقيل كانوا يضارونهن

بعد الوطء (فلا جناح عليهما) على الزوج الاول وعليها (أن يتراجعا) أن يرجع كل واحد منهما الى صاحبه بالزواج (ان ظنا أن يقيما حدود الله) ان كان في ظنهما انهما يقيمان حقوق الزوجية ولم يقل ان علما أنهما يقيمان لان اليقين مغيب عنهما لا يعلمه الا الله (وتلك حدود الله يبينها) وبالنون المفضل (لقوم يعلمون) يفهمون ما بين لهم (واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن) أي آخر عدتهن وشارفن منتهاها والاجل يقع على المدة كلها وعلى آخرها يقال لعمر الانسان أجل وللموت الذي ينتهي به أجل (فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف) أي فاما ان يراجعها من غير طلب ضرار بالمراجعة واما ان يخليها حتى تنقضي عدتها وتبين من غير ضرار (ولا تمسكوهن ضرارا) مفعول له أو حال أي مضارين وكان الرجل يطلق المرأة ويتركها حتى يقرب انقضاء عدتها ثم يراجعها لا عن حاجة ولكن ليطول العدة عليها فهو الامساك ضرارا (لتعتدوا) لتظلموهن أو لتلجئوهن الى الافتداء

٢ قوله مشددة كذا في معظم النسخ بايدينا والصواب سقوطها اه مصححه

لتفتدي المرأة منه بمالها (لتعتدوا) أي لتظلموهن بمجاوزتكم في أمورهن حدود الله التي بينها لكم وقيل معناه لا تضاروهن على قصد الاعتداء عليهن (ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه) أي ضر نفسه بمخالفة أمر الله وتعريضها لعذاب الله (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) يعني بذلك ما بين من حلاله وحرامه وأمره ونهيه في وحيه وتنزيله فلا تتخذوا ذلك استهزاء ولعبا فمن وجب عليه طاعة الله وطاعة رسوله ثم وصل اليه هذه الاحكام التي تقدم ذكرها في العدة والرجعة والخلع وترك المضارة فلا يتخذها هزوا ففيه تهديد عظيم ووعيد شديد وقيل هو راجع الى قوله فامساك بمعروف أو تسريح باحسان فكل من خالف أمرا من أمور الشرع فهو متخذ آيات الله هزوا وقيل كان الرجل يطلق و يعتق و يتزوج و يقول كنت لاعبا فنهوا عن ذلك عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ثلاث جدهن جد وهزلهن جد النكاح والطلاق والرجعة أخرجه أبو داود والترمذي ۞ وقوله تعالى (واذكروا نعمت الله عليكم) يعني بالايمان الذي أنعم به الله عليكم فهداكم له وسائر نعمه التي أنعم بها عليكم (وما أنزل عليكم) أي واذكروا نعمته فيما أنزله عليكم (من الكتاب) يعني القرآن (والحكمة) يعني السنة التي علمها رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنها لكم وقيل المراد بالحكمة مواعظ القرآن (يعظكم به) أي بالكتاب الذي أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم (واتقوا الله) يعني خافوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه (واعلموا أن الله بكل شيء عليم) يعني أن الله تعالى يعلم ما أخفيتم من طاعة ومعصية في سر وعلن لا يخفى عليه شيء من ذلك ۞ قوله عز وجل (واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن) نزلت في معقل بن يسار المزني عضل أخته جميلة وكانت تحت أبي القداح عاصم بن عدي فطلقها عن معقل بن يسار قال كانت لي أخت تخطب الي وأمنعها من الناس فأتاني ابن عم لي فأنكحتها اياه فاصطحبا ما شاء الله ثم طلقها طلاقا له رجعة ثم تركها حتى انقضت عدتها فلما خطبت الي أتاني يخطبها مع الخطاب فقلت له خطبت الي فمنعتها الناس وآثرتك بها فزوجتك ثم طلقتها طلاقا لك فيه رجعة ثم تركتها حتى انقضت عدتها فلما خطبت الي أتيتني تخطبها مع الخطاب والله لا أنكحتها لك أبدا ففي نزلت هذه الآية واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن الآية فكفرت عن يميني وأنكحتها اياه أخرجه البخاري وقيل ان جابر بن عبد الله كانت له ابنة عم فطلقها زوجها تطليقة فلما انقضت عدتها أراد أن يرتجعها فأبى جابر وقال طلقت ابنة عمنا ثم تريد أن تنكحها الثانية وكانت المرأة تريد زوجها قد رضيته فنزلت هذه الآية وأراد ببلوغ الاجل في قوله فبلغن أجلهن انقضاء العدة بخلاف الآية التي قبل هذه قال الشافعي دل اختلاف الكلامين على افتراق البلوغين (فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن) خطاب للاولياء والمعنى لا تضيقوا عليهن أيها الاولياء فتمنعوهن من مراجعة أزواجهن بنكاح جديد تبتغون بذلك مضارتهن فهو خطاب عام لجميع الاولياء وان كان سبب الآية خاصا وأصل العضل المنع والتضييق ومنه قول أوس بن حجر

وليس أخوك الدائم العهد بالذي ۞ يذمك ان ولى و يرضيك مقبلا
ولكنه النائي اذا كنت آمنا ۞ وصاحبك الادنى اذا الامر أعضلا

يعني اذا ضاق الامر وفي الآية دليل للشافعي ومن وافقه في ان المرأة لا تلي عقد النكاح ولا تأذن فيه اذ لو كانت تملك ذلك لم يكن عضل ولا لنهي الولي عن العضل معنى ۞ وقوله تعالى (اذا تراضوا بينهم بالمعروف)

وهازئ (واذكروا نعمت الله عليكم) بالاسلام و بنبوة محمد عليه السلام (وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة) من القرآن والسنة وذكرها مقابلتها بالشكر والقيام بحقها (يعظكم به) بما أنزل عليكم وهو حال (واتقوا الله) فيما امتحنكم به (واعلموا أن الله بكل شيء عليم) من الذكر والاتقاء والاتعاظ وغير ذلك وهو أبلغ وعد و وعيد (واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن) أي انقضت عدتهن فدل سياق الكلامين على افتراق البلوغين لان النكاح يعقبه هنا وذا يكون بعد العدة وفي الاولى الرجعة وذا يكون في العدة (فلا تعضلوهن) فلا تمنعوهن العضل المنع والتضييق (ان ينكحن) من أن ينكحن (أزواجهن) الذين يرغبن فيهم و يصلحون لهن وفيه اشارة الى انعقاد النكاح بعبارة النساء والخطاب للازواج الذين يعضلون نساءهم بعد انقضاء العدة ظلما ولا يتركونهن يتزوجن من شئن من الازواج سموا أزواجا باسم ما يؤول اليه أو للاولياء في عضلهن ان يرجعن الى أزواجهن الذين كانوا يعني أزواجا لهن سموا أزواجا باعتبار ما كان نزلت في معقل بن يسار حين عضل أخته ان ترجع الى الزوج الاول أو للناس أي لا يوجد فيما بينكم عضل لانه اذا وجد بينهم وهم راضون كانوا في حكم العاضلين (اذا تراضوا بينهم) اذا تراضى الخطاب والنساء (بالمعروف) بما يحسن في

الدين والمروءة من الشرائط أو بمهر المثل والكفء لان عند عدم أحدهما للاولياء ان يتعرضوا والخطاب فى (ذلك) للنبى صلى الله عليه وسلم أو لكل واحد (يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر) فالمواعظ انما تنجع فيهم (ذلكم) أى ترك العضل والضرار (أزكى لكم وأطهر) أى لكم من ادناس الآثام أو أزكى وأطهر أفضل وأطيب (والله يعلم) ما فى ذلك من الزكاء والطهر (وأنتم لا تعلمون) ذلك (والوالدات يرضعن أولادهن) خبر فى معنى الامر المؤكد كيتربصن وهذا الامر على وجه الندب أو على وجه الوجوب اذا لم يقبل الصبى الا ثدى أمه أو لم توجد له ظئر أو كان الاب عاجزا عن الاستئجار أو أراد الوالدات المطلقات ايجاب النفقة والكسوة لاجل الرضاع (حولين) ظرف (كاملين) تامين وهو تأكيد لانه مما يتسامح فيه فانك تقول أقمت عند فلان حولين ولم تستكملهما (لمن أراد أن يتم الرضاعة) بيان لمن توجه اليه الحكم أى هذا الحكم لمن أراد اتمام الرضاعة والحاصل ان الاب يجب عليه ارضاع ولده دون الام وعليه أن يتخذ له ظئرا الا اذا تطوعت الام بارضاعه وهى مندوبة الى ذلك ولا تجبر عليه ولا يجوز استئجار الام مادامت زوجة أو معتدة (وعلى المولود له) الهاء يعود الى اللام الذى بمعنى الذى والتقدير وعلى الذى يولد له وهو الوالد وله فى محل الرفع على الفاعلية كعليهم فى المغضوب عليهم وانما قيل على المولود له دون الوالد ليعلم ان الوالدات انما ولدن لهم اذ الاولاد للآباء والنسب اليهم لا اليهن فكان عليهم أن يرزقوهن ويكسوهن اذا أرضعن ولدهم كالاظآر ألا ترى انه ذكره باسم الوالد حيث لم يكن هذا المعنى وهو قوله واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيأ (رزقهن وكسوتهن

يعنى اذا تراضى الخطاب والنساء والمعروف هنا ما وافق الشرع من عقد حلال ومهر جائز وقيل هو ان يرضى كل واحد منهما بما التزمه لصاحبه بحق العقد حتى تحصل الصحبة الحسنة والعشرة الجميلة (ذلك) أى ذلك الذى ذكر من النهى (يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر) يعنى ان المؤمن هو الذى ينتفع بالوعظ دون غيره (ذلكم أزكى لكم وأطهر) يعنى انه خير لكم وأطهر لقلوبكم وأطيب عند الله (والله يعلم) يعنى ما فى ذلك من الزكاة والتطهير (وأنتم لا تعلمون) يعنى ذلك ۞ قوله عز وجل (والوالدات) يعنى المطلقات اللاتى لهن أولاد من أزواجهن وقيل المراد بهن جميع الوالدات سواء كن مطلقات أو متزوجات ويدل عليه ان اللفظ عام وما قام دليل التخصيص فوجب تركه على عمومه ولانه ظاهر اللفظ فوجب حمله عليه (يرضعن أولادهن) هذا خبر بمعنى الامر والتقدير والوالدات يرضعن أولادهن فى حكم الله الذى أوجبه وهذا الامر ليس أمر ايجاب وانما هو أمر ندب واستحباب لان تربية الطفل بلبن الام أصلح له من لبن غيرها ولكمال شفقتها عليه ويدل على أنه لا يجب على الوالدة رضاع الولد قوله فان أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ولو وجب عليها الرضاع لما استحقت الاجرة وقال تعالى وان تعاسرتم فسترضع له أخرى هذا نص صريح فى ذلك فان لم يوجد من يرضع الطفل أو لم يقبل غير لبن أمه وجب عليها ارضاعه كما يجب على كل أحد مواساة المضطر فان رغبت الام فى ارضاع ولدها فهى أولى به من غيرها (حولين كاملين) الحول السنة وأصله من حال يحول اذا انقلب وانما قال كاملين للتوكيد لانه مما يتسامح فيه تقول أقمت عند فلان حولا وان لم تستكمله فبين الله أنهما حولان كاملان أربعة وعشرون شهرا وهذا التحديد بالحولين ليس تحديد ايجاب ويدل على ذلك قوله بعده (لمن أراد أن يتم الرضاعة) فلما علق الاتمام بارادتنا علمنا أن هذا الاتمام غير واجب فثبت أن المقصود من هذا التحديد قطع النزاع بين الزوجين فى مقدار زمن الرضاعة فقدر الله تعالى ذلك بالحولين حتى يرجعا اليه عند التنازع قال ابن عباس فى رواية عكرمة اذا وضعت الولد لستة أشهر أرضعته حولين وان وضعته لسبعة أشهر أرضعته ثلاثا وعشرين شهرا وان وضعته لتسعة أشهر أرضعته أحدا وعشرين شهرا كل ذلك ثلاثون شهرا لقوله تعالى وحمله وفصاله ثلاثون شهرا وقال فى رواية الوالبى عنه هو حد لكل مولود فى أى وقت ولد لا ينقص رضاعه عن حولين الا باتفاق من الابوين فأيهما أراد فطام الولد قبل الحولين فليس له ذلك الا اذا اتفقا عليه يدل على ذلك قوله فان أرادا فصالا عن تراض منهما وقيل فرض الله على الوالدات ارضاع الولد حولين ثم أنزل التخفيف فقال لمن أراد أن يتم الرضاعة أى هذا منتهى الرضاع لمن أراد اتمام الرضاعة وليس فيما دون ذلك حد محدود وانما هو على مقدار اصلاح الطفل وما يعيش به (وعلى المولود له) يعنى الاب وانما عبر عنه بهذا لان الوالدات انما ولدن للآباء ولذلك ينسب الولد للاب دون الام قال بعضهم

وانما أمهات الناس أوعية ۞ مستودعات وللآباء أبناء

وقيل ان هذا تنبيه على ان الولد انما يلتحق بالوالد لكونه مولودا على فراشه فكأنه قال اذا ولدت المرأة الولد لاجل الرجل وعلى فراشه وجب عليه رعاية مصالحه (رزقهن) أى طعامهن (وكسوتهن) أى لباسهن

بالمعروف) بلا اسراف ولا تقتير وتفسيره ما يعقبه وهو أن لا يكلف واحد منهما ما ليس فى وسعه ولا يتضارا (لا تكلف نفس الا وسعها)
وجده أو قدر امكانها والتكليف الزام ما يؤثر فى الكلفة وانتصاب وسعها على انه مفعول ثان لتكلف لا على الاستثناء ودخلت الا بين
المفعولين (لا تضار) مكى و بصرى بالرفع على الاخبار ومعناه النهى وهو يحتمل البناء للفاعل والمفعول وان يكون الاصل تضارر بكسر
الراء أو تضارر بفتحها الباقون لا تضار على النهى والاصل تضارر أسكنت الراء الاولى وأدغمت فى الثانية فالتقى الساكنان ففتحت الثانية
لالتقاء الساكنين (والدة بولدها) أى لا تضار والدة زوجها بسبب ولدها وهو أن تعنف به وتطلب منه ما ليس بعدل من الرزق والكسوة
وان تشغل قلبه بالتفريط فى شأن الولد وان تقول بعد ما ألفها الصبى اطلب له ظئرا وما أشبه ذلك (ولا مولود له بولده) أى ولا يضار مولود له
امرأته بسبب ولده بان يمنعها شيأ مما وجب عليه من رزقها وكسوتها أو يأخذه منها وهى تريد ارضاعه واذا كان مبنيا للمفعول فهو
نهى عن أن يلحق بها الضرار من قبل الزوج وعن أن يلحق الضرار بالزوج من قبلها بسبب

الولد أو تضار بمعنى تضر
والباء من صلته أى لا تضر
والدة ولدها فلا تسىء
غذاءه وتعهده ولا تدفعه
الى الاب بعد ما ألفها ولا
يضر الوالد به بان ينتزعه
من يدها أو يقصر فى
حقها فتقصر هى فى حق
الولد وانما قيل بولدها
و بولده لانه لما نهيت المرأة
عن المضارة أضيف اليها
الولد استعطافا لها عليه
وكذلك الوالد (وعلى
الوارث) عطف على قوله
وعلى المولود له رزقهن
وكسوتهن وما بينهما
تفسير للمعروف معترض
بين المعطوف والمعطوف
عليه أى وعلى وارث الصبى
عند عدم الاب (مثل
ذلك) أى مثل الذى كان
على أبيه فى حياته من الرزق
والكسوة واختلف فيه فعند

(بالمعروف) أى على قدر الميسرة (لا تكلف نفس الا وسعها) يعنى طاقتها والمعنى ان أبا الولد لا يكلف فى الانفاق عليه وعلى أمه الا قدر ما تتسع به مقدرته ولا يبلغ اسراف القدرة (لا تضار والدة بولدها) يعنى لا ينزع الولد من أمه بعد ان رضيت بارضاعه ولا يدفع الى غيرها وقيل معناه لا تكره الام على ارضاع الولد اذا قبل الصبى لبن غيرها لان ذلك ليس بواجب عليها (ولا مولود له بولده) يعنى لا تلقى المرأة الولد الى أبيه وقد ألفها تضاره بذلك وقيل معناه لا يلزم الاب أن يعطى أم الولد أكثر مما يجب عليه لها اذا لم يرضع الولد من غير أمه فعلى هذا يرجع الضرار الى الوالدين فيكون المعنى لا يضار كل واحد منهما صاحبه بسبب الولد وقيل يحتمل أن يكون الضرر راجعا الى الولد والمعنى لا يضار كل واحد من الابوين الولد فلا ترضعه حتى يموت فيتضرر بذلك ولا ينفق عليه الاب أو ينزعه من أمه فيضر بذلك فعلى هذا تكون الباء صلة والمعنى لا تضار والدة ولدها ولا أب ولده (وعلى الوارث مثل ذلك) يعنى وعلى وارث أبى الولد اذا مات مثل ما كان يجب عليه من النفقة والكسوة فيلزم وارث الاب أن يقوم مقامه فى القيام بحق الولد وقيل المراد بالوارث وارث الصبى الذى لو مات الصبى ورثه فعلى هذا الوارث مثل ما كان على أبى الصبى فى حال حياته واختلف فى أى وارث هو فقيل هم عصبة الصبى كالجد والاخ والعم وابنه وقيل هو كل وارث له من الرجال والنساء وبه قال أحمد فيجبرون على نفقة الصبى كل على قدر سهمه منه وقيل هو من كان ذا رحم محرم منه وبه قال أبو حنيفة وقيل المراد بالوارث الصبى نفسه فعلى هذا تكون أجرة رضاع الصبى فى ماله فان لم يكن له مال فعلى الام ولا يجبر على نفقة الصبى غير الابوين وبه قال مالك والشافعى وقيل معناه وعلى الوارث ترك المضارة (فان أرادا) يعنى الوالدين (فصالا) يعنى فطام الولد قبل الحولين (عن تراض منهما) أى على اتفاق من الوالدين فى ذلك (وتشاور) أى يشاورون أهل العلم فى ذلك حتى يخبروا أن الفطام قبل الحولين لا يضر بالولد والمشاورة استخراج الرأى بما فيه مصلحة (فلا جناح عليهما) أى فلا حرج ولا اثم على الوالدين فى الفطام قبل الحولين اذا لم يضر بالولد (وان أردتم أن تسترضعوا أولادكم) أى لاولادكم مراضع غير أمهاتهم اذا أبت أمهاتهم ارضاعهم أو تعذر ذلك لعلة بهن من انقطاع لبن أو غير ذلك أو أردن التزويج (فلا جناح عليكم اذا سلمتم) يعنى الى المراضع (ما آتيتم) يعنى ما ضمنتم من أجرة الرضاع وقيل اذا سلمتم الى أمهاتهم من أجرة الرضاع بقدر ما أرضعن

ابن أبى ليلى كل من ورثه وعندنا من كان ذا رحم محرم منه لقراءة ابن مسعود رضى الله عنه وعلى
الوارث ذى الرحم المحرم مثل ذلك وعند الشافعى رحمه الله لا نفقة فيما عدا الولاد (فان أرادا) يعنى الابوين (فصالا) فطاما صادرا (عن
تراض منهما وتشاور) بينهما (فلا جناح عليهما) فى ذلك زادا على الحولين أو نقصا وهذه توسعة بعد التحديد والتشاور استخراج الرأى
من شرت العسل اذا استخرجته وذكره ليكون التراضى عن تفكر فلا يضر الرضيع فسبحان الذى أدب الكبير ولم يهمل الصغير واعتبر
اتفاقهما لما للاب النسبة والولاية وللام الشفقة والعناية (وان أردتم أن تسترضعوا أولادكم) أى لاولادكم عن الزجاج وقيل استرضع منقول
من أرضع يقال أرضعت المرأة الصبى واسترضعتها الصبى معدى الى مفعولين أى ان تسترضعوا المراضع أولادكم فحذف أحد المفعولين يعنى غير
الام عند ابائها أو عجزها (فلا جناح عليكم اذا سلمتم) الى المراضع (ما آتيتم) ما أردتم ايتاءه من الاجرة أتيتم مكى من أتى اليه احسانا اذا فعله ومنه
قوله كان وعده مأتيا أى مفعولا والتسليم ندب لا شرط للجواز (بالمعروف) متعلق بسلمتم أى سلمتم الاجرة الى المراضع بطيب نفس وسرور

(بالمعروف) أي بالاحسان والاجمل أو أن يكونوا عند تسليم الاجرة مستبشري الوجوه ناطقين بالقول الجميل مطيبين لانفس المراضع بما أمكن حتى يؤمن من تفريطهن بقطع معاذيرهن (واتقوا الله) يعني وخافوا الله فيما فرض عليكم من الحقوق وفيما أوجب عليكم لاولادكم (واعلموا أن الله بما تعملون بصير) يعني لا يخفى عليه خافية من جميع أعمالكم سرها وعلانيتها فانه تعالى يراها ويعلمها ﴿قوله عز وجل (والذين يتوفون) يعني يموتون (منكم) وأصل التوفي أخذ الشيء وافيا فمن مات فقد استوفى عمره كاملا ويقال توفي فلان يعني قبض وأخذ (ويذرون) أي ويتركون (أزواجا) والمراد بالازواج هنا النساء لان العرب تطلق اسم الزوج على الرجل والمرأة (يتربصن) أي ينتظرن (بانفسهن أربعة أشهر وعشرا) يعني قدر هذه المدة وانما قال عشرا بلفظ التأنيث لان العرب اذا أبهمت في العدد من الليالي والايام غلبوا الليالي حتى ان أحدهم ليقول صمت عشرا من الشهر لكثرة تغليبهم الليالي على الايام فاذا أظهروا الايام قالوا صمنا عشرة أيام وقيل ان هذه الايام أيام حزن ولبس احداد فشبهها بالليالي على سبيل الاستعارة ووجه الحكمة في ان الله تعالى حد العدة بهذا القدر لان الولد يركض في بطن أمه لنصف مدة الحمل يعني يتحرك وقيل ان الروح ينفخ في الولد في هذه العشرة أيام ويدل على ذلك ما روي عن ابن مسعود قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق ان خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله اليه ملكا يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح أخرجاه في الصحيحين بزيادة فدل هذا الحديث على ان خلق الولد يجتمع في مدة أربعة أشهر ويتكامل خلقه بنفخ الروح فيه في هذه الايام الزائدة

﴿فصل في حكم عدة المتوفى عنها زوجها والاحداد﴾ وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشر وعدة الامة على نصف عدة الحرة شهران وخمسة أيام وبه قال جمهور العلماء وقال أبو بكر الاصم عدة الامة كعدة الحرة وتمسك بظاهر هذه الآية وعدة الحامل بوضع الحمل سواء فيه الحرة والامة ولو وضعت بعد وفاة زوجها بلحظة حل لها أن تتزوج ويدل على هذا ما روي عن سبيعة الاسلمية انها كانت تحت سعد بن خولة وهو من بني عامر بن لؤي وكان ممن شهد بدرا فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل فلم تلبث ان وضعت حملها بعد وفاته فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك رجل من بني عبد الدار فقال مالي أراك تجملت للخطاب لعلك ترجين النكاح وانك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر قالت سبيعة فلما قال لي ذلك جمعت على ثيابي حين أمسيت وأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته عن ذلك فأفتاني باني قد حللت حين وضعت حملي وأمرني بالتزويج ان بدا لي أخرجاه في الصحيحين وفيه قال ابن شهاب ولا أرى بأسا ان تتزوج حين وضعت وان كانت في دمها غير انه لا يقربها حتى تطهر فعلى هذا حكم الآية عام في كل من توفي عنها زوجها بان تعتد أربعة أشهر وعشرا ثم خص من هذا العموم أولات الاحمال بهذا الحديث وبقوله تعالى وأولات الاحمال أجلهن أن يضعن حملهن (المسئلة الثانية) يجب على من توفي عنها زوجها الاحداد وهو ترك الزينة والطيب ودهن الرأس بكل دهن والكحل المطيب فان اضطرت الى كحل فيه زينة فيرخص لها وبه قال مالك وأبو حنيفة وقال الشافعي تكتحل به بالليل وتمسحه بالنهار عن أم سلمة قالت دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم حين توفي أبو سلمة وقد جعلت علي صبرا فقال ماهذا يا أم سلمة فقلت انما هو صبر يا رسول الله ليس فيه طيب فقال انه يشب الوجه فلا تجعليه الا بالليل وتنزعيه بالنهار ولا تمتشطي بالطيب ولا بالحناء فانه خضاب قالت بأي شيء أمتشط يا رسول الله قال بالسدر تغلفين به رأسك أخرجه أبو داود والنسائي نحوه قوله فانه يشب الوجه أي يوقده ويحسنه وينوره من

(واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير) لا تخفى عليه أعمالكم فهو يجازيكم عليها (والذين يتوفون منكم) تقول توفيت الشيء واستوفيته اذا أخذته وافيا تاما أي تستوفى أرواحهم (ويذرون) ويتركون (أزواجا يتربصن بانفسهن) أي وزوجات الذين يتوفون منكم يتربصن أي يعتددن أو معناه يتربصن بعدهم بانفسهن فحذف بعدهم للعلم به وانما احتيج الى تقديره لانه لابد من عائد يرجع الى المبتدا في الجملة التي وقعت خبرا يتوفون المفضل أي يستوفون آجالهم (أربعة أشهر وعشرا) أي وعشر ليال والايام داخلة معها ولا يستعمل التذكير فيه ذهابا الى الايام تقول صمت عشرا ولو ذكرت لخرجت من كلامهم

شب النار اذا أوقدها قوله تغلفين به رأسك أى تلطخين به رأسك والتغلف هو الغمرة على وجه المرأة وكذا رأسها اذا الطخته بشئ فأكثرت منه ولا يجوز لها لبس الديباج والحرير والحلى والمصبوغ للزينة كالاحمر والاصفر ويجوز لها لبس ماصبغ لغير الزينة كالاسود والازرق ويجوز لها أن تلبس البياض من الثياب والصوف والوبر (ق) عن زينب بنت أبى سلمة قالت دخلت على أم حبيبة زوج النبى صلى الله عليه وسلم حين توفى أبوها أبو سفيان بن حرب فدعت أم حبيبة بطيب فيه صفرة خلوق أو غيره فدهنت به جارية ثم مست بعارضيها ثم قالت والله مالى بالطيب من حاجة غير أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث الا على زوج أربعة أشهر وعشرا قالت زينب ثم دخلت على زينب بنت جحش حين توفى أخوها فدعت بطيب فمست منه ثم قالت والله مالى بالطيب من حاجة غير أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث الا على زوج أربعة أشهر وعشرا (م) عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث الا على زوجها أربعة أشهر وعشرا (ق) عن أم عطية قالت كنا ننهى أن نحد على ميت فوق ثلاث الا على زوج أربعة أشهر وعشرا ولا نكتحل ولا نتطيب ولا نلبس ثوبا مصبوغا الا ثوب عصب وقد رخص لنا عند الطهر اذا اغتسلت احدانا من حيضتها فى نبذة من كست أظفار قولها الا ثوب عصب العصب بالعين والصاد المهملتين من البرود الذى صبغ غزله قبل النسج قولها نبذة من كست النبذة الشئ اليسير والكست لغة فى القسط وهو شئ معروف يتبخر به عن أم سلمة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تلبس المتوفى عنها زوجها المعصفر من الثياب ولا الممشقة ولا الحلى ولا تختضب ولا تكتحل ولا تطيب أخرجه أبو داود قولها ولا الممشقة الثياب الممشقة هى المصبوغة بالمشق وهى المغرة عن نافع أن صفية بنت عبد الله اشتكت عينها وهى حاد على زوجها ابن عمر فلم تكتحل حتى كادت عيناها ترمضان أخرجه مالك فى الموطأ ﴿المسئلة الثالثة﴾ اختلفوا فى هذه المدة سببها الوفاة أو العلم بالوفاة فقال بعضهم مالم تعلم بوفاة زوجها لا تعتد بانقضاء الايام فى العدة واحتجوا على ذلك بان الله تعالى قال يتربصن بانفسهن وذلك لا يحل الا بالقصد الى التربص ولا يحصل ذلك الا مع العلم قال الجمهور السبب هو الموت فلوا نقضت المدة أو أكثرها أو بعضها ثم بلغها خبر موت الزوج وجب أن تعتد بما انقضى ويدل على ذلك أن الصغيرة التى لا علم لها يكفى فى انقضاء عدتها هذه المدة ﴿المسئلة الرابعة﴾ أجمع العلماء على ان هذه الآية ناسخة لما بعدها من الاعتداد بالحول وان كانت هذه الآية متقدمة فى التلاوة وسنذكر تمام الكلام عليه بعد فى موضعه ان شاء الله تعالى والله أعلم ۞ وقوله تعالى (فاذا بلغن أجلهن) أى انقضت عدتهن (فلا جناح عليكم) خطاب للاولياء لانهم هم الذين يتولون العقد (فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف) يعنى من التزين والتطيب والنقلة من المسكن الذى كانت معتدة فيه ونكاح من يجوز لها نكاحه وقيل انما عنى بذلك النكاح خاصة وقيل معنى قوله بالمعروف هو النكاح الحلال الطيب واحتج أصحاب أبى حنيفة على جواز النكاح بغير ولى بهذه الآية لان اضافة الفعل الى الفاعل محمول على المباشرة وأجاب أصحاب الشافعى أن قوله تعالى فلا جناح عليكم خطاب للاولياء ولو صح العقد بغير ولى لما كان مخاطبا وأجيب عن قوله فيما فعلن فى أنفسهن انما هو التزين والتطيب بعد انقضاء العدة لا انها تزوج نفسها (والله بما تعملون خبير) يعنى انه تعالى لا يخفى عليه خافية والخبير فى صفة الله تعالى هو العالم بكنه الشئ وحقيقته من غير شك والخبير فى صفة المخلوقين انما يستعمل فى نوع من العلم وهو الذى يتوصل اليه بالاجتهاد والفكر والله تعالى منزه عن ذلك كله ۞ قوله عز وجل (ولا جناح) أى لا حرج (عليكم فيما عرضتم به) أى لوحتم وأشرتم به والتعريض ضد التصريح

(فاذا بلغن أجلهن) فاذا انقضت عدتهن (فلا جناح عليكم) أيها الائمة والحكام (فيما فعلن فى أنفسهن) من التعرض للخطاب (بالمعروف) بالوجه الذى لا ينكره الشرع (والله بما تعملون خبير) عالم بالبواطن (ولا جناح عليكم فيما عرضتم به

ومعناه

من خطبة النساء) الخطبة الاستنكاح والتعريض أن تقول لها انك لجميلة أو صالحة ومن غرضى ان أتزوج ونحو ذلك من الكلام الموهم أنه يريد نكاحها حتى تحبس نفسها عليه ان رغبت فيه ولا يصرح بالنكاح فلا يقول انى أريد ان أتزوجك والفرق بين الكناية والتعريض ان الكناية ان تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له والتعريض ان تذكر شيأ تدل به على شيء لم تذكره كما يقول المحتاج للمحتاج اليه جئتك لاسلم عليك ولأنظر الى وجهك الكريم ولذلك قالوا وحسبك بالتسليم منى تقاضيا

فكأنه امالة الكلام الى غرض يدل على الغرض (أو أكننتم فى أنفسكم) أى سترتم وأضمرتم فى قلوبكم فلم تذكروه بالسنتكم لا معرضين ولا مصرحين (علم الله انكم ستذكرونهن) لا محالة ولا تنفكون عن النطق برغبتكم فيهن فاذكروهن (ولكن لا تواعدوهن سرا) جماعا لانه مما يسر أى لا تقولوا فى العدة انى قادر على هذا العمل (الا أن تقولوا قولا معروفا) وهو ان تعرضوا ولا تصرحوا والاستثناء بلا تواعدوهن أى لا تواعدوهن مواعدة قط الا مواعدة معروفة غير منكرة (ولا تعزموا عقدة النكاح) من عزم الامر وعزم عليه وذكر العزم مبالغة فى النهى عن عقدة النكاح لان العزم على الفعل يتقدمه فاذا نهى عنه كان عن الفعل أنهى ومعناه ولا تعزموا عقد عقدة النكاح أو ولا تقطعوا عقدة النكاح لان حقيقة العزم القطع ومنه الحديث لا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل وروى لمن لم يبيت الصيام أى ولا تعزموا على عقدة النكاح (حتى يبلغ الكتاب أجله) حتى تنقضى عدتها وسميت العدة كتابا لانها فرضت بالكتاب يعنى حتى يبلغ التربص المكتوب عليها أجله أى غايته (واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم) من العزم على ما لا يجوز (فاحذروه) ولا تعزموا عليه (واعلموا أن الله غفور حليم) لا يعاجلكم" به ونزل فيمن طلق امرأته ولم يكن سمى لها مهرا ولا جامعها

ومعناه ان يضمن كلامه ما يصلح للدلالة على مقصوده ويصلح للدلالة على غير مقصوده ولكن اشعاره بجانب المقصود أتم وأرجح وقيل هو الاشارة الى الشيء بما يفهم السامع مقصوده من غير تصريح به وقيل التعريض من الكلام ما له ظاهر وباطن (من خطبة النساء) يعنى المعتدات فى عدتهن والخطبة بالكسر طلب النكاح والتماسه وقيل هو ذكر النساء والخطبة بالضم كلام منظوم له أول وآخر ومعنى الآية فيما عرضتم به من ذكر النساء عندهن والتعريض بالخطبة فى العدة مباح وهو أن يقول انك لجميلة وانك لصالحة وان غرضى التزويج وانى فيك لراغب وعسى الله ان ييسر لى امرأة صالحة ونحو ذلك من الكلام الموهم من غير تصريح بان يقول انى أريد أن أنكحك أو أتزوجك ونحو ذلك ويدل على صحة هذا التأويل ما روى عن ابن عباس فى قوله تعالى فيما عرضتم به من خطبة النساء هو أن يقول انى أريد التزويج وان النساء لمن حاجتى ولوددت ان تيسر لى امرأة صالحة أخرجه البخارى وروى أن سكينة بنت حنظلة تأيمت فدخل عليها أبو جعفر محمد بن على الباقر فى عدتها فقال قد علمت قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وحق جدى على وقدمى فى الاسلام فقالت سكينة غفر الله لك أتخطبنى فى العدة وأنت يؤخذ عنك فقال انما أخبرتك بقرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أم سلمة وهى فى عدة زوجها أبى سلمة فذكر لها منزلته من الله عز وجل وهو متحامل على يده حتى أثر الحصير فى يده صلى الله عليه وسلم من شدة تحامله عليها فما كانت تلك خطبة (أو أكننتم) يعنى أضمرتم (فى أنفسكم) يعنى من نكاحهن وقيل هو أن يدخل ويسلم ويهدى ان شاء ولا يتكلم بشيء والمقصود انه لا حرج عليكم فى التعريض للمرأة فى عدة الوفاة ولا فيما يضمر الرجل فى نفسه من الرغبة فيها (علم الله أنكم ستذكرونهن) يعنى بقلوبكم لان شهوة النفس والتمنى لا يخلو منه احد فلما كان هذا الخاطر كالشيء الشاق أسقط عنه الحرج (ولكن لا تواعدوهن سرا) اختلفوا فى معنى هذا السر المنهى عنه فقيل هو الزنا كان الرجل يدخل على المرأة يعرض بالنكاح ومراده الزنا ويقول لها دعينى فاذا وفيت عدتك أظهرت نكاحك فنهوا عن ذلك وقيل هو قول الرجل للمرأة لا تفوتينى نفسك فانى ناكحك وقيل هو ان يأخذ عليها العهد والميثاق أن لا تتزوج غيره وقيل هو ان يخطبها فى العدة وقال الشافعى السر الجماع وهو رواية عن ابن عباس قال الكلبى لا تصفوا أنفسكم لهن بكثرة الجماع ويدل على أن لفظ السر كناية عن الجماع قول امرئ القيس

ألا زعمت بسباسة القوم اننى * كبرت وان لا يحسن السر أمثالى

بسباسة اسم امرأة وانما وقع الكناية عن الجماع بالسر لانه مما يسر والله تعالى حيى كريم فكنى به عن لفظ الجماع الصريح ومعنى الآية لا تواعدوهن مواعدة سرية أو لا تواعدوهن بالشيء الموصوف بالسر وقيل فى معنى الآية ان الله تعالى أذن فى أول الآية فى التعريض بالخطبة ومنع فى آخرها عن التصريح بالخطبة (الا أن تقولوا قولا معروفا) يعنى هو ما ذكر من التعريض بالخطبة وقيل هو اعلام ولى المرأة انه راغب فى نكاحها (ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله) أى لا تحققوا العزم على عقدة النكاح فى العدة حتى تنقضى وانما سماها الله كتابا لانها فرضت به (واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه) أى خافوه (واعلموا أن الله غفور حليم) لا يعجل بالعقوبة على من جاهره بالمعصية بل يستر عليه ۞ قوله عز وجل

(لاجناح عليكم) لا تبعة عليكم من ايجاب مهر (ان طلقتم النساء) شرط ويدل على جوابه لاجناح عليكم والتقدير ان طلقتم النساء فلاجناح عليكم (مالم تمسوهن) مالم تجامعوهن وما شرطية أي ان لم تمسوهن تماسوهن حمزة وعلى حيث وقع لان الفعل واقع بين اثنين (أو تفرضوا لهن فريضة) الا ان تفرضوا لهن فريضة أو حتى تفرضوا وفرض الفريضة تسمية المهر وذلك ان

المطلقة غير الموطوأة لها نصف المسمى ان سمى لها مهرا وان لم يسم لها مهر فليس لها نصف مهر المثل بل تجب المتعة والدليل على ان الجناح تبعة المهر قوله وان طلقتموهن الى فنصف ما فرضتم فقوله فنصف ما فرضتم اثبات للجناح المنفي ثمة (ومتعوهن) معطوف على فعل محذوف تقديره فطلقوهن ومتعوهن والمتعة درع وملحفة وخمار (على الموسع) الذي له سعة (قدره) مقداره الذي يطيقه قدره فيهما كوفي غير أبي بكر وهما لغتان (وعلى المقتر) الضيق الحال (قدره) ولا تجب المتعة عندنا الا لهذه وتستحب لسائر المطلقات (متاعا) تأكيد لمتعوهن أي تمتيعا (بالمعروف) بالوجه الذي يحسن في الشرع والمروءة (حقا) صفة لمتاعا أي متاعا واجبا عليهم أو حق ذلك حقا (على المحسنين) على المسلمين أو على الذين يحسنون الى المطلقات بالتمتيع وسماهم قبل الفعل محسنين كقوله عليه السلام من قتل قتيلا فله سلبه وليس هذا الاحسان هو التبرع بما ليس عليه اذ هذه المتعة واجبة ثم بين حكم التي سمى لها مهرا في الطلاق قبل المس فقال (وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) أن مع الفعل بتأويل المصدر في موضع الجر أي من قبل مسكم اياهن (وقد فرضتم) في موضع الحال (لهن فريضة) مهرا (فنصف ما فرضتم

(لاجناح عليكم ان طلقتم النساء مالم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة) أي ولم تمسوهن ولم تفرضوا لهن فريضة يعني ولم تعينوا لهن صداقا ولم توجبوه عليكم نزلت في رجل من الانصار تزوج امرأة من بني حنيفة ولم يسم لها صداقا ثم طلقها من قبل أن يمسها فنزلت هذه الآية فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أمتعها ولو بقلنسوتك فان قلت هل على من طلق امرأته جناح بعد المسيس حتى يوضع عنه الجناح قبل المسيس فما وجه نفي الحرج والجناح عنه قلت فيه سبب قطع الوصلة وما جاء في الحديث ان أبغض الحلال الى الله الطلاق فنفى الله الجناح عنه اذا كان الفراق أروح من الامساك وقيل معناه لاحرج عليكم في تطليقهن قبل المسيس في أي وقت شئتم حائضا كانت المرأة أو طاهرا لانه لاسنة في طلاقهن قبل الدخول (ومتعوهن) أي اعطوهن من مالكم ما يتمتعن به والمتعة والمتاع ما يتبلغ به من الزاد (على الموسع) أي الغني الذي يكون في سعة من غناه (قدره) أي قدر امكانه وطاقته (وعلى المقتر) أي الفقير الذي هو في ضيق من فقره (قدره) أي قدر امكانه وطاقته (متاعا بالمعروف) يعني متعوهن تمتيعا بالمعروف يعني من غير ظلم ولا حيف (حقا) أي ذلك التمتع حقا واجبا لازما (على المحسنين) يعني الى المطلقات بالتمتع وانما خص المحسنين بالذكر لانهم الذين ينتفعون بهذا البيان وقيل معناه من أراد أن يكون من المحسنين فهذا شأنه وطريقه والمحسن هو المؤمن ﴿فصل في بيان حكم الآية﴾ وفيه فروع ﴿الفرع الاول﴾ اذا تزوج امرأة ولم يفرض لها مهرا ثم طلقها قبل المسيس يجب لها عليه المتعة وبه قال الشافعي وأبو حنيفة وأحمد وقال مالك المتعة مستحبة ولو طلقها قبل الدخول وقد فرض لها مهرا وجب لها عليه نصف المهر المفروض ولا متعة لها عليه (الفرع الثاني) المطلقة المدخول بها فيها قولان قال في القديم لا متعة لها لانها تستحق المهر كاملا وبه قال أبو حنيفة وهو احدى الروايتين عن أحمد وقال في الجديد لها المتعة لقوله تعالى وللمطلقات متاع بالمعروف وهو الرواية الاخرى عن أحمد قال ابن عمر لكل مطلقة متعة الا التي فرض لها المهر ولم يدخل بها زوجها فحسبها نصف المهر ﴿الفرع الثالث في قدر المتعة﴾ قال ابن عباس أعلاها خادم وأوسطها ثلاثة أثواب درع وخمار وازار وأقلها دون ذلك وقاية أو مقنعة أو شيء من الورق وهو مذهب الشافعي لانه قال أعلاها على الموسع خادم وأوسطها ثوب وأقلها ماله ثمن وحسن ثلاثون درهما وروي ان عبد الرحمن بن عوف طلق امرأته وحممها يعني متعها جارية سوداء ومتع الحسن بن علي زوجته بعشرة آلاف درهم فقالت

* متاع قليل من حبيب مفارق * وقال أبو حنيفة مبلغها اذا اختلف الزوجان قدر نصف مهر مثلها لا يجاوز وقال أحمد في احدى الروايتين عنه تتقدر بما تجزي فيه الصلاة وقال في الرواية الاخرى تتقدر بتقدير الحاكم والآية تدل على ان المتعة تعتبر بحال الزوج في اليسر والعسر وانه مفوض الى الاجتهاد لانها كالنفقة التي أوجبها الله تعالى للزوجات وبين ان حال الموسر مخالف حال المعسر في ذلك ﴿الفرع الرابع﴾ ومن حكم الآية أن من تزوج امرأة بالغة برضاها على غير مهر صح النكاح ولها مطالبته بان يفرض لها صداقا فان دخل بها قبل الفرض فلها عليه مهر مثلها وان طلقها قبل الفرض والدخول فلها المتعة ۞ قوله عز وجل (وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) يعني تجامعوهن وهذا في المطلقة بعد تسمية المهر وقبل الدخول حكم الله لها بنصف المهر ولا عدة عليها وهو قوله تعالى (وقد فرضتم لهن فريضة) أي سميتم لهن مهرا (فنصف ما فرضتم) أي فلهن نصف المهر المسمى ومذهب الشافعي أن الخلوة من غير مسيس لا توجب الا نصف المهر المسمى

الا أن يعفون) يريد المطلقات وأن مع الفعل في موضع النصب على الاستثناء كأنه قيل فعليكم نصف ما فرضتم في جميع الاوقات الا وقت عفوهن عنكم من المهر والفرق بين الرجال يعفون والنساء يعفون ان الواو في الاول ضميرهم والنون علم الرفع والواو في الثاني لام الفعل والنون ضميرهن والفعل مبني لا أثر في لفظه للعامل (أو يعفو) عطف على محله (الذي بيده عقدة النكاح) هو الزوج كذا فسره علي رضي الله عنه وهو قول سعيد بن جبير وشريح ومجاهد وأبي حنيفة والشافعي على الجديد رضي الله عنهم وهذا لان الطلاق بيده فكان بقاء العقد بيده والمعنى ان الواجب شرعا هو النصف الا أن تسقط هي الكل أو يعطي هو الكل تفضلا وعند مالك والشافعي في القديم هو الولي قلنا هو لا يملك التبرع بحق الصغيرة فكيف يجوز حمله عليه (وان تعفوا) مبتدأ خبره (أقرب للتقوى) والخطاب للأزواج والزوجات على سبيل التغليب ذكره الزجاج أي عفو الزوج باعطاء كل المهر خير له وعفو المرأة باسقاطه كله خير لها أو للازواج (ولا تنسوا الفضل) التفضل (بينكم) أي ولا تنسوا أن يتفضل بعضكم على بعض (ان الله بما تعملون بصير) فيجازيكم على تفضلكم (حافظوا على الصلوات) داوموا عليها بمواقيتها وأركانها وشرائطها (والصلوة الوسطى) بين الصلوات أي الفضلى من قولهم للافضل الاوسط وانما أفردت وعطفت على الصلوات لانفرادها بالفضل وهي صلاة العصر عند أبي حنيفة رحمه الله وعليه الجمهور لقوله عليه السلام يوم الاحزاب شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله بيوتهم نارا وقال عليه السلام انها الصلاة التي شغل عنها سليمان حتى توارت بالحجاب وفي مصحف حفصة والصلاة الوسطى صلاة العصر ولانها بين صلاتي الليل وصلاتي النهار وفضلها لما في وقتها من اشتغال الناس بتجاراتهم ومعايشهم وقيل صلاة الظهر لانها في وسط النهار أو صلاة الفجر لانها بين صلاتي النهار وصلاتي الليل أو صلاة المغرب لانها بين الاربع والمثنى ولانها بين صلاتي مخافتة وصلاتي جهر أو صلاة العشاء لانها بين وترين أو هي غير معينة كليلة القدر ليحفظوا الكل

المسمى لان المسيس اما حقيقة في المس باليد أو جعل كناية عن الجماع وأيهما كان فقد وجد الطلاق قبله وقال أبو حنيفة الخلوة الصحيحة تقرر المهر ومعنى الخلوة الصحيحة أن يخلو بها وليس هناك مانع حسي ولا شرعي فالحسي نحو الرتق والقرن أو يكون معهما ثالث والشرعي نحو الحيض والنفاس وصوم الفرض وصلاة الفرض والاحرام سواء كان فرضا أو نفلا والآية حجة لمذهب الشافعي قال شريح لم أسمع الله ذكر في كتابه بابا ولا سترا ان زعم أنه لم يمسها فلها نصف الصداق وقال ابن عباس اذا خلا بها ولم يمسها فلها نصف المهر

(فرع) لو مات أحد الزوجين بعد التسمية وقبل المسيس فلها المهر كاملا وعليها العدة ان كان الزوج هو الميت ۞ وقوله تعالى (الا أن يعفون) يعني النساء المطلقات والمعنى الا أن تترك المرأة نصيبها من الصداق فتهبه للزوج فيعود جميع الصداق الى الزوج (أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح) فيه قولان أحدهما انه الولي وهو قول ابن عباس في رواية عنه والحسن وعلقمة وطاوس والشعبي والنخعي والزهري والسدي وبه قال الشافعي في القديم ومالك والقول الثاني انه الزوج وهو قول علي وابن عباس في الرواية الاخرى وجبير ابن مطعم وسعيد بن المسيب وابن جبير ومجاهد والربيع وقتادة ومقاتل والضحاك ومحمد بن كعب القرظي وهو قول أبي حنيفة والشافعي في الجديد وأحمد وجمهور الفقهاء فعلى القول الاول يكون معنى الآية الا أن تعفو المرأة اذا كانت ثيبا بالغة من أهل العفو عن نصيبها للزوج أو يعفو وليها اذا كانت المرأة بكرا صغيرة أو غير جائزة التصرف فيجوز عفو وليها فيترك نصيبها للزوج وانما يجوز عفو الولي بشروط وهي ان تكون بكرا صغيرة ويكون الولي أبا أو جدا لان غيرهما لا يزوج الصغيرة وعلى القول الثاني ان الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج وصحح هذا القول الطبري والواحدي فيكون معنى الآية أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح يعني الزوج فيعطي المرأة الصداق كاملا لان الله تعالى لما ذكر عفو المرأة عن النصف الواجب لها ذكر عفو الزوج عن النصف الساقط عنه فيحسن للمرأة أن تعفو ولا تطالب بشيء من الصداق وللرجل ان يعفو فيوفي لها المهر كاملا وروى ان جبير بن مطعم تزوج امرأة ثم طلقها قبل الدخول بها فأكمل لها الصداق وقال أنا أحق بالعفو ولان المهر حق المرأة فليس لوليها أن يهب من مالها شيأ فكذلك المهر لانه مال لها (وان تعفوا أقرب للتقوى) هذا خطاب للرجال والنساء جميعا وانما غلب جانب التذكير لان المذكور هي الاصل والتأنيث فرع عنها والمعنى وعفو بعضكم عن بعض أيها الرجال والنساء أقرب الى حصول التقوى وقيل هو خطاب للزوج والمعنى وليعف الزوج فيترك حقه الذي ساق من المهر اليها قبل الطلاق فهو أقرب للتقوى (ولا تنسوا الفضل بينكم) يعني ليتفضل بعضكم على بعض فيعطي الرجل الصداق كاملا أو تترك المرأة نصيبها من الصداق حثهما جميعا على الاحسان ومكارم الاخلاق (ان الله بما تعملون) يعني من عفو بعضكم لبعض عما وجب له عليه من حق (بصير) أي لا يخفى عليه شيء من ذلك ۞ قوله عز وجل (حافظوا) أي داوموا وواظبوا (على الصلوات) يعني الخمس المكتوبات أمر الله عز وجل عباده بالمحافظة على الصلوات الخمس المكتوبات بجميع شروطها وحدودها واتمام أركانها وفعلها في أوقاتها المختصة بها (والصلوة الوسطى) تأنيث الاوسط ووسط كل شيء

خيره وأعدله وقيل الوسطى بمعنى الفضلى من قولهم للأفضل أوسط وانما أفردت وعطفت على الصلوات لانفرادها بالفضل وقيل سميت الوسطى لانها أوسط الصلوات محلا

﴿فصل في ذكر اختلاف العلماء في الصلاة الوسطى﴾ قد اختلف العلماء من الصحابة فمن بعدهم في الصلاة الوسطى على مذاهب * الاول ان الصلاة الوسطى هي صلاة الفجر وهو قول عمر وابن عمر وابن عباس ومعاذ وجابر وعطاء وعكرمة ومجاهد والربيع بن أنس وبه قال مالك والشافعي ويدل على ذلك ان مالكا بلغه ان علي بن أبي طالب وابن عباس كانا يقولان الصلاة الوسطى صلاة الفجر أخرجه مالك في الموطأ وأخرجه الترمذي عن ابن عباس وابن عمر تعليقا ولانها بين صلاتي جمع فالظهر والعصر يجمعان وهما صلاتا نهار والمغرب والعشاء يجمعان وهما صلاتا ليل وصلاة الفجر لا تقصر ولا تجمع الى غيرها ولانها تأتي في وقت مشقة بسبب برد الشتاء وطيب النوم في الصيف وفتور الاعضاء وكثرة النعاس وغفلة الناس عنها فخصت بالمحافظة عليها لكونها معرضة للضياع ولان الله تعالى قال عقبها وقوموا لله قانتين والقنوت هو طول القيام وصلاة الفجر مخصوصة بطول القيام ولان الله تعالى خصها بالذكر في قوله وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا يعني تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار فهي مكتوبة في ديوان حفظة الليل وديوان حفظة النهار فدل ذلك على مزيد فضلها * المذهب الثاني انها صلاة الظهر وهو قول زيد بن ثابت وأسامة بن زيد وأبي سعيد الخدري ورواية عن عائشة وبه قال عبيد الله بن شداد وهو رواية عن أبي حنيفة ويدل على ذلك ما روي عن زيد بن ثابت وعائشة قالا الصلاة الوسطى صلاة الظهر أخرجه مالك في الموطأ عن زيد والترمذي عنهما تعليقا وأخرجه أبو داود عن زيد قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي الظهر بالهاجرة ولم يكن يصلي صلاة أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منها فنزلت حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقال ان قبلها صلاتين وبعدها صلاتين ولان صلاة الظهر تأتي وسط النهار وفي شدة الحر ولانها تأتي بين البردين يعني صلاة الفجر وصلاة العصر * المذهب الثالث انها صلاة العصر وهو قول علي وابن مسعود وأبي أيوب وأبي هريرة وابن عمر وابن عباس وأبي سعيد الخدري وعائشة وهو قول أبي عبيدة السلماني والحسن البصري وابراهيم النخعي وقتادة والضحاك والكلبي ومقاتل وبه قال أبو حنيفة وأحمد وداود وابن المنذر وقال الترمذي هو قول أكثر الصحابة فمن بعدهم وقال الماوردي من أصحابنا هذا مذهب الشافعي لصحة الاحاديث فيه قال وانما نص على انها الصبح لانه لم تبلغه الاحاديث الصحيحة في العصر ومذهبه اتباع الحديث ويدل على صحة هذا المذهب ما روي عن علي ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم الاحزاب وفي رواية يوم الخندق ملأ الله قلوبهم وبيوتهم نارا كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس وفي رواية شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر وذكر نحوه وزاد في أخرى ثم صلاها بين المغرب والعشاء أخرجاه في الصحيحين (م) عن ابن مسعود قال حبس المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة العصر حتى احمرت الشمس أو اصفرت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارا أو حشا الله أجوافهم وقبورهم نارا عن سمرة بن جندب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الصلاة الوسطى صلاة العصر أخرجه الترمذي وله عن ابن مسعود مثله وقال في كل واحد منهما حسن صحيح (م) عن أبي يونس مولى عائشة قال أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفا وقالت اذا بلغت هذه الآية فآذني حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى قال فلما بلغتها آذنتها فأملت علي حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين قالت عائشة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم وروي عن حفصة نحوه ولان صلاة العصر تأتي وقت اشتغال الناس بمعايشهم فكان الامر بالمحافظة عليها أولى ولانها تأتي بين صلاتي نهار وهما الفجر والظهر وصلاتي ليل وهما المغرب والعشاء وقد خصت بمزيد التأكيد والامر بالمحافظة

وا تغليظا ان ضيعها ويدل على ذلك ماروى عن أبى المليح قال كنا مع بريدة فى غزوة فقال فى يوم ذى غيم بكروا بصلاة العصر فان النبى صلى الله عليه وسلم قال من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله أخرجه البخارى قوله بكروا بصلاة العصر أى قدموها فى أول وقتها (ق) عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الذى تفوته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله قوله وتر أهله نقص وسلب أهله وماله فبقى فردا بلا أهل ولا مال ومعنى الحديث ليكن حذره من فوت صلاة العصر كحذره من ذهاب أهله وماله * المذهب الرابع انها صلاة المغرب قاله قبيصة بن ذؤيب وحجة هذا المذهب ان صلاة المغرب تأتى بين بياض النهار وسواد الليل ولانها أزيد من ركعتين كما فى الصبح وأقل من أربع ولا تقصر فى السفر وهى وتر النهار ولان صلاة الظهر تسمى الاولى لان ابتداء جبريل كان بها واذا كانت الظهر أولى الصلوات كانت المغرب هى الوسطى * المذهب الخامس أنها صلاة العشاء ولم ينقل عن أحد من السلف فيها شئ وانما ذكرها بعض المتأخرين وحجة هذا المذهب انها متوسطة بين صلاتين لا تقصران وهما المغرب والصبح ولانها أثقل صلاة على المنافقين * المذهب السادس ان الصلاة الوسطى هى احدى الصلوات الخمس لا بعينها لان الله تعالى أمر بالمحافظة على الصلوات الخمس ثم عطف عليها الصلاة الوسطى وليس فى الآية ذكر بيانها واذا كان كذلك أمكن أن يقال فى كل واحدة من الصلوات الخمس انها هى الوسطى أبهمها الله على عباده مع ما خصها به لمزيد التوكيد تحريضا لهم على المحافظة على أداء جميع الصلوات على صفة الكمال والتمام ولهذا السبب أخفى الله تعالى ليلة القدر فى شهر رمضان وأخفى ساعة الاجابة فى يوم الجمعة وأخفى اسمه الاعظم فى جميع أسمائه ليحافظوا على ذلك كله وهذا المذهب اختاره جمع من العلماء قال محمد بن سيرين ان رجلا سأل زيد بن ثابت عن الصلاة الوسطى فقال حافظ على الصلوات كلها تصبها وسئل الربيع بن خثيم عن الصلاة الوسطى فقال للسائل الوسطى واحدة منهن فحافظ على الكل تكن محافظا على الوسطى ثم قال أرأيت لو علمتها بعينها أكنت محافظا عليها ومضيعا سائرهن فقال السائل لا فقال الربيع انك ان حافظت عليهن فقد حافظت على الوسطى والصحيح من هذه الاقوال كلها قولان قول من قال انها الصبح وقول من قال انها العصر واصح الاقوال كلها انها العصر للاحاديث الصحيحة الواردة فيها والله تعالى أعلم ۞ وقوله تعالى (وقوموا لله قانتين) أى طائعين فهو عبارة عن اكمال الطاعة واتمامها والاحتراز عن ايقاع الخلل فى أركانها وسننها وقيل لكل أهل دين صلاة يقومون فيها عاصين فقوموا أنتم لله فى صلاتكم طائعين وقيل القنوت هو الدعاء والذكر بدليل أمن هو قانت ولما أمر بالمحافظة على الصلوات وجب أن يحمل هذا القنوت على ما فيها من الذكر والدعاء فمعنى الآية وقوموا لله داعين ذاكرين وقيل انما خص القنوت بصلاة الصبح والوتر لهذا المعنى وقيل القنوت هو السكوت عما لا يجوز التكلم به فى الصلاة ويدل على ذلك ماروى عن زيد بن أرقم قال كنا نتكلم فى الصلاة يكلم الرجل صاحبه وهو الى جنبه فى الصلاة حتى نزلت وقوموا لله قانتين فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام أخرجاه فى الصحيحين وقيل القنوت هو طول القيام فى الصلاة ويدل عليه ماروى عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل الصلاة طول القنوت أخرجه مسلم ومن القنوت أيضا طول الركوع والسجود وغض البصر والهدء فى الصلاة وخفض الجناح والخشوع فيها وكان العلماء اذا قام أحدهم يصلى يهاب الرحمن أن يلتفت أو يقلب الحصى أو يعبث بشئ أو يحدث نفسه بشئ من أمور الدنيا الا ناسيا ۞ قوله عز وجل (فان خفتم فرجالا) أى رجالة (أو ركبانا) يعنى على الدواب جمع راكب والمعنى ان لم يمكنكم أن تصلوا قانتين موفين حقوق الصلاة من اتمام الركوع والسجود والخضوع والخشوع لخوف عدو أو غيره فصلوا مشاة على أرجلكم أو ركبانا على دوابكم مستقبلى القبلة وغير مستقبليها وهذا فى حال المقاتلة والمسايفة فى وقت الحرب وصلاة الخوف قسمان أحدهما أن يكون فى حال القتال وهو المراد بهذه الآية وقسم فى غير حال القتال وهو المذكور فى سورة

(وقوموا لله) فى الصلاة (قانتين) حال أى مطيعين خاشعين أو ذاكرين الله فى قيامكم والقنوت أن تذكر الله قائما أو مطيلين القيام (فان خفتم) فان كان بكم خوف من عدو أو غيره (فرجالا) حال أى فصلوا راجلين وهو جمع راجل كقائم وقيام (أو ركبانا) وحدانا بايماء و يسقط عنه التوجه الى القبلة

النساء في قوله تعالى واذا كنت فيهم فاقمت لهم الصلاة وسيأتي الكلام عليها ان شاء الله تعالى في موضعه فاذا التحم القتال ولم يمكن تركه لاحد فذهب الشافعي انهم يصلون ركبانا على الدواب ومشاة على الارجل الى القبلة والى غير القبلة يومئون بالركوع والسجود ويكون السجود أخفض من الركوع ويحترزون عن الصياح فانه لا حاجة اليه وقال أبو حنيفة لا يصلي الماشي بل يؤخر الصلاة ويقضيها لان النبي صلى الله عليه وسلم أخر الصلاة يوم الخندق فصلى الظهر والعصر والمغرب بعد ما غربت الشمس فيجب علينا الاقتداء به في ذلك واحتج الشافعي لمذهبه بهذه الآية وأجيب عن تأخير النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة يوم الخندق بانه لم يكن نزل حكم صلاة الخوف وانما نزل بعد فلما نزلت صلاة الخوف لم يؤخر النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك صلاة قط أما الخوف الحاصل لا في القتال بل بسبب آخر كالهارب من العدو أو قصده سبع هائج أو غشيه سيل يخاف على نفسه الهلاك لو صلى صلاة آمن فله أن يصلي صلاة شدة الخوف بالايماء في حال العدو ولان قوله تعالى فان خفتم مطلق يتناول الكل فان قلت قوله تعالى فرجالا أو ركبانا يدل على أن المراد منه خوف العدو وحال القتال قلت هو كذلك الا انه هناك ثابت لدفع الضرر وهذا المعنى موجود هنا فوجب أن يكون الحكم كذلك ههنا وروى عن ابن عباس قال فرض الله الصلاة على لسان نبيكم صلى الله عليه وسلم في الحضر أربعا وفي السفر ركعتين وفي الخوف ركعة أخرجه مسلم وقد عمل بظاهر هذا جماعة من السلف منهم الحسن البصري وعطاء وطاوس ومجاهد وقتادة والضحاك وابراهيم واسحق بن راهويه قالوا يصلي في حال شدة الخوف ركعة وقال الشافعي ومالك وجمهور العلماء صلاة الخوف كصلاة الامن في عدد الركعات فان كان الخوف في الحضر وجب عليه أن يصلي أربع ركعات وان كان في السفر صلى ركعتين ولا يجوز الاقتصار على ركعة واحدة في حال من الاحوال وتأولوا حديث ابن عباس هذا على أن المراد به ركعة مع الامام وركعة أخرى يأتي بها منفردا كما جاءت الاحاديث الصحيحة في صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في صلاة الخوف وهذا التأويل لا بد منه للجمع بين الاحاديث ۞ وقوله تعالى (فاذا أمنتم) يعني من خوفكم (فاذكروا الله) أي فصلوا لله الصلوات الخمس تامة بأركانها وسننها (كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون) فيه اشارة الى انعام الله تعالى علينا بالعلم ولولا هدايته وتعليمه ايانا لم نعلم شيأ ولم نصل الى معرفة شيء فله الحمد على ذلك ۞ قوله عز وجل (والذين يتوفون منكم) يعني يا معشر الرجال (ويذرون أزواجا) يعني زوجات (وصية لازواجهم) قرئ بالنصب على معنى فليوصوا وصية وبالرفع على معنى كتب عليهم وصية (متاعا الى الحول) أي متعوهن متاعا وقيل جعل الله لهن ذلك متاعا والمتاع نفقة سنة لطعامها وكسوتها وما تحتاج اليه (غير اخراج) أي غير مخرجات من بيوتهن نزلت هذه الآية في رجل من أهل الطائف يقال له حكيم ابن الحرث هاجر الى المدينة ومعه أبواه وامرأته وله أولاد فمات فرفع ذلك الى النبي صلى الله عليه وسلم فانزل الله هذه الآية فاعطى النبي صلى الله عليه وسلم أبويه وأولاده ميراثه ولم يعط امرأته شيأ وأمرهم أن ينفقوا عليها من تركة زوجها حولا وكان الحكم في ابتداء الاسلام انه اذا مات الرجل اعتدت زوجته حولا وكان يحرم على الوارث اخراجها من البيت قبل تمام الحول وكانت نفقتها وسكناها واجبتين في مال زوجها تلك السنة وليس لها من الميراث شيء ولكنها تكون مخيرة فان شاءت اعتدت في بيت زوجها ولها النفقة والسكنى وان شاءت خرجت قبل تمام الحول وليس لها نفقة ولا سكنى وكان يجب على الرجل أن يوصي بذلك فدلت هذه الآية على مجموع أمرين أحدهما أن لها النفقة والسكنى من مال زوجها سنة الثاني أن عليها عدة سنة ثم ان الله تعالى نسخ هذين الحكمين أما الوصية بالنفقة والسكنى فنسخ بآية الميراث فجعل لها الربع أو الثمن عوضا عن النفقة والسكنى ونسخ عدة الحول بأربعة أشهر وعشرا فان قلت كيف نسخت الآية المتقدمة المتأخرة قلت قد تكون الآية المتقدمة متقدمة في التلاوة ومتأخرة في التنزيل كقوله تعالى سيقول

(فاذا أمنتم) فاذا زال خوفكم (فاذكروا الله) فصلوا صلاة الامن (كما علمكم) أي ذكرا مثل ما علمكم (ما لم تكونوا تعلمون) من صلاة الامن (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لازواجهم) بالنصب شامي وأبو عمرو وحمزة وحفص أي فليوصوا وصية عن الزجاج غيرهم بالرفع أي فعليهم وصية (متاعا) نصب بالوصية لانها مصدر أو تقديره متعوهن متاعا (الى الحول) صفة لمتاعا (غير اخراج) مصدر مؤكد كقولك هذا القول غير ما تقول أو بدل من متاعا والمعنى ان حق الذين يتوفون عن أزواجهم أن يوصوا قبل أن يحتضروا بان تمتع أزواجهم بعدهم حولا كاملا أي ينفق عليهن من تركته ولا يخرجن من مساكنهن وكان ذلك مشروعا في أول الاسلام ثم نسخ بقوله تعالى والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا الى قوله أربعة أشهر وعشرا والناسخ متقدم عليه تلاوة ومتأخر نزولا كقوله تعالى سيقول السفهاء من الناس مع قوله تعالى قد نرى تقلب وجهك في السماء

السفهاء من الناس .م قوله تعالى قد نرى تقلب وجهك فى السماء ﴿ وقوله تعالى (فان خرجن فلا جناح عليكم) يعنى يا معشر أولياء الميت (فيما فعلن فى أنفسهن من معروف) يعنى التزين للنكاح ولرفع الحرج عن الورثة وجهان أحدهما أنه لاجناح عليكم فى قطع النفقة عنهن اذا خرجن قبل انقضاء الحول والوجه الثانى لاجناح عليكم فى ترك منعهن من الخروج لان مقامها فى بيت زوجها حولا غير واجب عليها خيرها الله تعالى بين أن تقيم فى بيت زوجها حولا ولها النفقة والسكنى وبين أن تخرج ولا نفقة لها ولا سكنى ثم نسخ الله ذلك بأربعة أشهر وعشرا (والله عزيز) أى غالب قوى فى انتقامه ممن خالف أمره ونهيه وتعدى حدوده (حكيم) يعنى فيما شرع من الشرائع وبين من الاحكام ﴿ قوله عز وجل (وللمطلقات متاع بالمعروف) انما أعاد الله تعالى ذكر المتعة هنا لزيادة معنى وهو ان فى تلك الآية بيان حكم غير الممسوسة وفى هذه الآية بيان حكم جميع المطلقات فى المتعة وقيل لانه لما نزل قوله تعالى ومتعوهن على الموسع قدره الى قوله حقا على المحسنين قال رجل من المسلمين ان فعلت أحسنت وان لم أرد لم أفعل فانزل الله تعالى وللمطلقات متاع بالمعروف فجعل المتعة لهن بلام التمليك وقال تعالى (حقا على المتقين) يعنى المؤمنين الذين يتقون الشرك وقد تقدم أحكام المتعة ﴿ وقوله تعالى (كذلك يبين الله لكم آياته) يعنى يبين لكم ما يلزمكم ويلزم أزواجكم أيها المؤمنون وكما بينت لكم أحكامى والحق الذى يجب لبعضكم على بعض فى هذه الآيات كذلك أبين لكم سائر أحكامى فى آياتى التى أنزلتها على محمد صلى الله عليه وسلم فى هذا الكتاب (لعلكم تعقلون) أى لكى تعقلوا ما بينت لكم من الفرائض والاحكام وما فيه صلاحكم وصلاح دينكم اه ﴿ قوله عز وجل (ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم) قال أكثر المفسرين كانت قرية يقال لها داوردان وقع بها الطاعون فخرجت طائفة منها وبقيت طائفة فسلم الذين خرجوا وهلك أكثر من بقى بالقرية فلما ارتفع الطاعون رجع الذين خرجوا سالمين فقال الذين بقوا كان أصحابنا أحزم منا لو صنعنا كما صنعوا لبقينا كما بقوا ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجن الى أرض لا وباء فيها فرجع الطاعون من قابل فهرب عامة أهلها فخرجوا حتى نزلوا واديا أفيح فلما نزلوا المكان الذى يبتغون فيه النجاة ناداهم ملك من أسفل الوادى وملك آخر من أعلاه أن موتوا فماتوا جميعا (ق) عن عمر أنه خرج الى الشأم فلما جاء سرغ بلغه ان الوباء قد وقع بها فأخبره عبد الرحمن ابن عوف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه واذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها فرارا منه فحمد الله عمر ثم انصرف وقيل انما فروا من الجهاد وذلك أن ملكا من ملوك بنى اسرائيل أمرهم أن يخرجوا الى قتال عدوهم فعسكروا ثم جبنوا وكرهوا الموت فاعتلوا وقالوا لملكهم ان الارض التى تأتيها بها وباء فلا نخرج حتى ينقطع منها الوباء فارسل الله عليهم الموت فخرجوا فرارا منه فلما رأى الملك ذلك قال اللهم رب يعقوب واله موسى قد ترى معصية عبادك فأرهم آية فى أنفسهم حتى يعلموا أنهم لا يستطيعون الفرار منك فلما خرجوا قال الله لهم موتوا عقوبة لهم فماتوا وماتت دوابهم كموت رجل واحد فأتى عليهم ثمانية أيام حتى انتفخوا وأروحت أجسادهم فخرج الناس اليهم فعجزوا عن دفنهم فحظروا حظيرة دون السباع فذلك قوله تعالى ألم تر أى ألم تعلم يا محمد باعلامى اياك وهو من رؤية القلب قال أهل المعانى هو تعجيب له يقول هل رأيت مثل هؤلاء كما تقول ألم تر الى صنيع فلان وكل ما فى القرآن من قوله ألم تر ولم يعاينه النبى صلى الله عليه وسلم فهذا معناه ﴿ قوله تعالى (وهم ألوف) قيل هو من العدد واختلفوا فى مبلغ عددهم فقيل ثلاثة آلاف وقيل عشرة آلاف وقيل بضع وثلاثون ألفا وقيل أربعون ألفا وقيل سبعون ألفا وأصح الاقوال قول من قال انهم كانوا زيادة على عشرة آلاف لان الله تعالى قال وهم ألوف والالوف جمع الكثير وجمع القليل آلاف وقيل معنى وهم ألوف مؤتلفون جمع ألف والاول أصح قالوا فمر عليهم مدة فبليت أجسادهم وعريت عظامهم فمر عليهم حزقيل بن بوذى وهو ثالث خلفاء بنى اسرائيل بعد

(فان خرجن) بعد الحول (فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن) من التزين والتعرض للخطاب (من معروف) مما ليس بمنكر شرعا (والله عزيز حكيم) فيما حكم (وللمطلقات متاع) أى نفقة العدة (بالمعروف حقا) نصب على المصدر (على المتقين كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون) هو فى موضع الرفع لانه خبر لعل وان أريد به المتعة فالمراد غير المطلقة المذكورة وهى على سبيل الندب (ألم تر) تقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب واخبار الاولين وتعجيب من شأنهم ويجوز أن يخاطب به من لم يرو لم يسمع لان هذا الكلام جرى مجرى المثل فى معنى التعجيب (الى الذين خرجوا من ديارهم) من قرية قيل واسط وقع فيهم الطاعون فخرجوا هاربين فاماتهم الله ثم أحياهم بدعاء حزقيل عليه السلام وقيل هم قوم من بنى اسرائيل دعاهم ملكهم الى الجهاد فهربوا حذرا من الموت فاماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم (وهم ألوف) فى موضع نصب على الحال وفيه دليل على الالوف الكثيرة لانها جمع كثرة وهى جمع ألف لا آلاف

(حذر الموت) مفعول له (فقال لهم الله موتوا) أي فأماتهم الله وانما جيء به على هذه العبارة للدلالة على انهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيئته وتلك ميتة خارجة عن العادة وفيه تشجيع للمسلمين على الجهاد وان الموت اذا لم يكن منه بد ولم ينفع منه مفر فأولى أن يكون في سبيل الله (ثم أحياهم) ليعتبروا ويعلموا

أنه لا مفر من حكم الله وقضائه وهو معطوف على فعل محذوف تقديره فماتوا ثم أحياهم أولما كان معنى قوله فقال لهم الله موتوا فأماتهم كان عطفا عليه معنى (ان الله لذو فضل على الناس) حيث يبصرهم ما يعتبرون به كما بصر أولئك وكما بصركم باقتصاص خبرهم أوله لذو فضل على الناس حيث أحيا أولئك ليعتبروا فيفوزوا ولو شاء لتركهم موتى الى يوم النشور (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) ذلك والدليل على أنه ساق هذه القصة بعثا على الجهاد ما أتبعه من الأمر بالقتال في سبيل الله وهو قوله (وقاتلوا في سبيل الله) فحرض على الجهاد بعد الاعلام لان الفرار من الموت لا يغني وهذا الخطاب لأمة محمد عليه السلام أولمن أحياهم (واعلموا أن الله سميع) يسمع ما يقوله المتخلفون والسابقون (عليم) بما يضمرونه (من) استفهام في موضع رفع بالابتداء (ذا) خبره (الذي) نعت لذا أو بدل منه (يقرض الله) صلة الذي سمى ما ينفق في سبيل الله قرضا لان القرض ما يقبض ببدل مثله من بعد سمى به لان المقرض يقطعه من ماله فيدفعه اليه والقرض القطع ومنه المقراض وقرض الفأر والانقراض واصل فنبههم بذلك على أنه لا يضيع عنده وانه يجزيهم عليه لا محالة (قرضا حسنا) بطيبة النفس من المال الطيب والمراد النفقة في الجهاد لانه لما أمر بالقتال في سبيل الله وتحتاج فيه الى المال حث على الصدقة ليتهيأ أسباب الجهاد

موسى وذلك ان القيم بأمر بني اسرائيل بعد موسى كان يوشع بن نون ثم كان من بعده كالب بن يوفنا ثم قام من بعده حزقيل وكان يقال له ابن العجوز لان أمه كانت عجوزا فسألت الله تعالى الولد بعدما كبرت وعقمت فوهب الله لها حزقيل ويقال له ذو الكفل سمي به لانه تكفل سبعين نبيا وأنجاهم من القتل فلما مر حزقيل على هؤلاء الموتى وقف عليهم وجعل يفكر فيهم فأوحى الله تعالى اليه أتريد أن أريك آية قال نعم يارب فأحياهم الله تعالى وقيل دعا ربه حزقيل ان يحييهم فأحياهم الله تعالى وقيل انهم كانوا قومه أحياهم الله تعالى بعد ثمانية أيام وذلك انه لما أصابهم ذلك خرج في طلبهم فوجدهم موتى فبكى وقال يارب كنت في قوم يعبدونك ويذكرونك فبقيت وحيدا لا قوم لي فأوحى الله اليه اني قد جعلت حياتهم اليك فقال حزقيل احيوا باذن الله فعاشوا وقيل انهم قالوا حين أحيوا سبحانك ربنا وبحمدك لا اله الا أنت ثم رجعوا الى قومهم وعاشوا دهرا طويلا وسحنة الموت على وجوههم لا يلبسون ثوبا الا عاد دنسا مثل الكفن حتى ماتوا لآجالهم التي كتبت لهم قال ابن عباس وانها لتوجد اليوم تلك الريح في ذلك السبط من اليهود قال قتادة مقتهم الله على فرارهم من الموت فأماتهم عقوبة لهم ثم بعثهم الله ليستوفوا بقية آجالهم ولو جاءت آجالهم لما بعثوا فان قلت كيف أميت هؤلاء مرتين في الدنيا وقد قال الله تعالى لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى قلت ان موتهم كان عقوبة لهم كما قال قتادة وقيل ان موتهم واحياءهم كان معجزة من معجزات ذلك النبي ومعجزات الانبياء خوارق للعادات ونوادر فلا يقاس عليها فيكون قوله الا الموتة الاولى عاما مخصوصا بمعجزات الانبياء أي الا الموتة الاولى التي ليست من معجزات الانبياء ولا من خوارق العادات وفي هذه الآية احتجاج على اليهود ومعجزة عظيمة لنبينا صلى الله عليه وسلم حيث أخبرهم بأمر لم يشاهده وهم يعلمون صحة ذلك وفيه احتجاج على منكري البعث أيضا اذ قد أخبر الله تعالى وهو الصادق في خبره أنه أماتهم ثم أحياهم في الدنيا فهو تعالى قادر على أن يحييهم يوم القيامة ۞ وقوله تعالى (حذر الموت) أي مخافة الطاعون وكان قد نزل بهم وقيل انهم أمروا بالجهاد ففروا منه حذر الموت (فقال لهم الله موتوا) يحتمل انهم ماتوا عند قوله تعالى موتوا ويحتمل أن يكون ذلك أمر تحويل فهو كقوله كونوا قردة خاسئين (ثم أحياهم) يعني بعد موتهم (ان الله لذو فضل على الناس) يعني ان الله تعالى تفضل على أولئك الذين أماتهم باحيائهم لانهم ماتوا على معصيته فتفضل عليهم باعادتهم الى الدنيا ليتوبوا وقيل هو على العموم فهو تعالى متفضل على كافة الخلق في الدنيا ويخص المؤمنين بفضله يوم القيامة (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) يعني ان أكثر من أنعم الله عليه لا يشكره أما الكافر فانه لم يشكره أصلا وأما المؤمنون فلم يبلغوا غاية شكره ۞ قوله عز وجل (وقاتلوا في سبيل الله) قيل هو خطاب للذين أحيوا أحياهم الله ثم أمرهم بالجهاد فعلى هذا القول فيه اضمار تقديره وقيل لهم قاتلوا في سبيل الله وقيل هو خطاب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ومعناه لا تهربوا من الموت كما هرب هؤلاء فلم ينفعهم ذلك ففيه تحريض للمؤمنين على الجهاد (واعلموا أن الله سميع) يعني لما يقوله المتعلل عن القتال (عليم) بما يضمره ۞ قوله عز وجل (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا) القرض اسم لكل ما يعطيه الانسان ليجازى عليه فسمى الله تعالى عمل المؤمنين له قرضا على رجاء ما وعدهم به من الثواب لانهم يعملون لطلب الثواب وقيل القرض ما أسلفت من عمل صالح أو سيء قال أمية بن أبي الصلت

كل امرئ سوف يجزى قرضه حسنا ۞ أو سيئا أو مدينا كالذي دانا

وأصل القرض في اللغة القطع سمي به لان المقرض يقطع من ماله شيأ فيعطيه ليرجع اليه مثله ومعنى الآية من ذا الذي يقدم لنفسه الى الله ما يرجو ثوابه عنده وهذا تلطف من الله تعالى في استدعاء عباده الى أعمال البر والطاعة وقيل في الآية اختصار تقديره من ذا الذي يقرض عباد الله والمحتاجين من خلقه فهو كقوله ان الذين يؤذون الله أي يؤذون عباد الله وكما جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني قال يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين قال استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه أما علمت انك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي الحديث واختلفوا في المراد بهذا القرض فقيل هو الانفاق في سبيل الله وقيل هو الصدقة الواجبة وقيل صدقة التطوع لان الله تعالى سماه قرضا والقرض لا يكون الا تبرعا ولما روى الطبري بسنده عن ابن مسعود قال لما نزلت من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا قال أبو الدحداح وان الله ير يد منا القرض قال النبي صلى الله عليه وسلم نعم يا أبا الدحداح قال ناولني يدك فناوله يده قال فاني قد أقرضت ربي حائطي حائطا فيه ستمائة نخلة ثم جاء يمشي حتى أتى الحائط وأم الدحداح فيه في عيالها فناداها يا أم الدحداح قالت لبيك قال اخرجي من الحائط فاني قد أقرضته ربي زاد غيره فقال النبي صلى الله عليه وسلم كم من عذق رداح لابي الدحداح وقيل في معنى يقرض الله أي ينفق في طاعته فيدخل فيه الواجب والتطوع وهو الاقرب حسنا يعني محتسبا طيبة به نفسه وقيل هو الانفاق من المال الحلال في وجوه البر وقيل هو أن لا يمن بالقرض ولا يؤذي وقيل هو الخالص لله تعالى ولا يكون فيه رياء ولا سمعة (فيضاعفه له) يعني ثواب ما أنفق (أضعافا كثيرة) قيل هو يضاعفه الى سبعمائة ضعف وقال السدي هذا التضعيف لا يعلمه الا الله تعالى وهذا هو الاصح وانما أبهم الله ذلك لان ذكر المبهم في باب الترغيب أقوى من ذكر المحدود (والله يقبض ويبسط) قيل يقبض بامساك الرزق والتقتير على من يشاء ويبسط يعني يوسع على من يشاء وقيل يقبض بقبول الصدقة ويبسط بالخلف والثواب وقيل انه تعالى لما أمرهم بالصدقة وحثهم على الانفاق أخبر أنه لا يمكنهم ذلك الا بتوفيقه وارادته واعانته والمعنى والله يقبض بعض القلوب حتى لا تقدر على الانفاق في الطاعة وعمل الخير ويبسط بعض القلوب حتى تقدر على فعل الطاعات والانفاق في البر كما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان قلوب بني آدم بين اصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث شاء ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم مصرف القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك أخرجه مسلم وهذا الحديث من أحاديث الصفات التي يجب الايمان بها والسكوت عنها وامرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا اثبات جارحة هذا مذهب أهل السنة وسلف هذه الامة (واليه ترجعون) يعني في الآخرة فيجزيكم باعمالكم ۞ قوله عز وجل (ألم تر الى الملأ من بني اسرائيل) الملأ أشراف القوم ووجوههم وأصله الجماعة من الناس لا واحد له من لفظه كالقوم والرهط (من بعد موسى) أي من بعد موت موسى أو من بعد زمنه (اذ قالوا) يعني أولئك الملأ (لنبي لهم) اختلفوا في ذلك النبي فقيل هو يوشع بن نون ابن افرايم بن يوسف بن يعقوب وقيل هو شمعون بن صفية بن علقمة من ولد لاوي بن يعقوب وانما سمي شمعون لان أمه دعت الله أن يرزقها غلاما فاستجاب الله لها فولدت غلاما فسمته شمعون ومعناه سمع الله دعائي وتبدل السين بالعبرانية شينا وقال أكثر المفسرين هو أشمويل بن بال وقيل هو ابن هلقاني قيل انه من ولد هرون ومعرفة حقيقة ذلك النبي بعينه ليست مرادة القصة انما المراد منها الترغيب في الجهاد وذلك حاصل

﴿ذكر الاشارة الى القصة﴾

كان سبب مسئلة أولئك الملأ لذلك النبي أنه لما مات موسى عليه السلام خلف من بعده في بني اسرائيل يوشع ابن نون يقيم فيهم أمر الله تعالى ويحكم بالتوراة حتى قبضه الله تعالى ثم خلف من بعده كالب بن يوقنا كذلك

(فيضاعفه له) بالنصب عاصم على جواب الاستفهام وبالرفع أبو عمرو ونافع وحمزة وعلي عطفا على يقرض أو هو مستأنف أي فهو يضاعفه فيضعفه شامي فيضعفه مكي (أضعافا) في موضع المصدر (كثيرة) لا يعلم كنهها الا الله وقيل الواحد بسبعمائة (والله يقبض ويبسط) يقتر الرزق على عباده ويوسعه عليهم فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم لا يبدلكم الضيق بالسعة ويبسط حجازي وعاصم وعلي (واليه ترجعون) فيجازيكم على ما قدمتم (ألم تر الى الملا) الاشراف لانهم يملؤن القلوب جلالة والعيون مهابة (من بني اسرائيل) من للتبعيض (من بعد موسى) من بعد موته ومن لابتداء الغاية (اذ قالوا) حين قالوا (لنبي لهم) هو شمعون أو يوشع أو اشمويل

(ابعث لنا ملكا) انهض للقتال معنا أميرا نصدر فى تدبير الحرب عن رأيه وننتهى الى أمره (نقاتل) بالنون

ثم حزقيل كذلك حتى قبضه الله تعالى فعظمت الاحداث بعده فى بنى اسرائيل ونسوا عهد الله حتى عبدوا الاصنام فبعث الله اليهم الياس نبيا فدعاهم الى الله تعالى وكانت الانبياء من بنى اسرائيل من بعد موسى يبعثون اليهم ليجددوا ما نسوا من التوراة ويأمروهم بالعمل بأحكامها ثم خلف من بعد الياس اليسع فكان فيهم ما شاء الله تعالى ثم قبضه الله تعالى ثم خلف من بعده خلوف وعظمت فيهم الخطايا وظهر لهم عدو يقال له البلثانا وهم قوم جالوت وكانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين وهم العمالقة فظهروا على بنى اسرائيل وغلبوا على كثير من أرضهم وسبوا كثيرا من ذراريهم وأسروا من أبناء ملوكهم أربعمائة وأربعين غلاما فضربوا عليهم الجزية وأخذوا توراتهم ولقى بنو اسرائيل منهم بلاء وشدة ولم يكن لهم نبى يدبر أمرهم وكان سبط النبوة قد هلكوا كلهم الا امرأة حبلى فحبسوها فى بيت رهبة أن تلد جارية فتبدلها بغلام لما ترى من رغبة بنى اسرائيل فى ولدها وجعلت المرأة تدعو الله أن يرزقها غلاما فولدت غلاما فسمته اشمويل ومعناه بالعربية اسمعيل تقول سمع الله دعائى فلما كبر الغلام أسلمته لتعليم التوراة فى بيت المقدس وكفله شيخ من علمائهم وتبناه فلما بلغ الغلام أتاه جبريل عليه السلام وهو نائم الى جانب الشيخ وكان الشيخ لا يأمن عليه أحدا فدعاه جبريل بلحن الشيخ يا اشمويل فقام الغلام فزعا الى الشيخ وقال يا أبتاه رأيتك تدعونى فكره الشيخ أن يقول لا فيفزع الغلام فقال يا بنى ارجع فنم فنام ثم دعاه الثانية فقال الغلام دعوتنى فقال نم فان دعوتك فلا تجبنى فلما كانت الثالثة ظهر له جبريل عليه السلام وقال له اذهب الى قومك فبلغهم رسالة ربك فان الله قد بعثك فيهم نبيا فلما أتاهم كذبوه وقالوا استعجلت بالنبوة ولم تنلك وقالوا له ان كنت صادقا فابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله آية على نبوتك وانما كان قوام أمر بنى اسرائيل بالاجتماع على الملوك وطاعة الملوك أنبياءهم وكان الملك هو الذى يسير بالجموع والنبى هو الذى يقيم له أمره ويشير عليه ويرشده ويأتيه بالخبر من ربه قال وهب فبعث الله اشمويل نبيا فلبثوا أربعين سنة بأحسن حال ثم كان من أمر جالوت والعمالقة ما كان فذلك قوله تعالى اذ قالوا لنبى لهم (ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله) جزم على جواب الامر فلما قالوا له ذلك (قال) يعنى قال النبى صلى الله عليه وسلم (هل عسيتم) هذا استفهام شك يقول لعلكم (ان كتب) أى فرض (عليكم القتال) يعنى مع ذلك الملك (أن لا تقاتلوا) يعنى لا تفوا بما قلتم وتجبنوا عن القتال معه (قالوا ومالنا أن لا نقاتل فى سبيل الله) فان قلت ما وجه دخول أن والعرب لا تقول مالك أن لا تفعل كذا ولكن تقول مالك لا تفعل كذا قلت دخول أن وحذفها لغتان صحيحتان فالاثبات كقوله مالك أن لا تكون مع الساجدين والحذف كقوله مالكم لا تؤمنون وقيل معناه ومالنا فى أن لا نقاتل بحذف حرف الجر وقيل ان هنا زائدة ومعناه ومالنا لا نقاتل فى سبيل الله (وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) أى أخرج من غلب عليهم من ديارهم فظاهر الكلام العموم وباطنه الخصوص لان الذين قالوا لنبيهم ابعث لنا ملكا كانوا فى ديارهم وأبنائهم وانما أخرج من أسر منهم ومعنى الآية أنهم قالوا لنبيهم انا انما كنا تركنا الجهاد لانا كنا ممنوعين فى بلادنا لا يظهر علينا عدونا فاما اذا بلغ ذلك منا فنطيع ربنا فى جهاد عدونا ونمنع نساءنا وأولادنا ۞ قال الله تعالى (فلما كتب عليهم القتال) فى الكلام حذف وتقديره فسأل الله ذلك النبى فبعث لهم ملكا وكتب عليهم القتال فلما كتب عليهم القتال (تولوا) أى أعرضوا عن الجهاد وضيعوا أمر الله (الا قليلا منهم) يعنى لم يتولوا عن الجهاد وهم الذين عبروا النهر مع طالوت واقتصروا على الغرفة على ما سيأتى فى قصتهم ان شاء الله تعالى (والله عليم بالظالمين) يعنى هو عالم بمن ظلم نفسه حين خالف أمر ربه ولم يف بما قال ۞ قوله عز وجل (وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا) وذلك ان اشمويل سأل الله عز وجل ان يبعث لهم ملكا فاتى بعصا وقرن فيه دهن القدس

والجزم على الجواب (فى سبيل الله) صلة نقاتل (قال) النبى (هل عسيتم) عسيتم حيث كان نافع (ان كتب عليكم القتال) شرط فاصل بين اسم عسى وخبره وهو (أن لا تقاتلوا) والمعنى هل قاربتم أن لا تقاتلوا يعنى هل الامر كما أتوقعه أنكم لا تقاتلون وتجبنون فادخل هل مستفهما عما هو متوقع عنده وأراد بالاستفهام التقرير وتثبيت أن المتوقع كائن وأنه صائب فى توقعه (قالوا ومالنا أن لا نقاتل فى سبيل الله) وأى داع لنا الى ترك القتال وأى غرض لنا فيه (وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) الواو فى وقد للحال وذلك أن قوم جالوت كانوا يسكنون بين مصر وفلسطين فاسروا من أبناء ملوكهم أربعمائة وأربعين يعنون اذا بلغ الامر منا هذا المبلغ فلا بد من الجهاد (فلما كتب عليهم القتال) أى أجيبوا الى ملتمسهم (تولوا) أعرضوا عنه (الا قليلا منهم) وهم كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر على عدد أهل بدر (والله عليم بالظالمين) وعيد لهم على ظلمهم بترك الجهاد (وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت) هو اسم أعجمى كجالوت وداود ومنع من الصرف للتعريف والعجمة (ملكا) حال

وقيل

وقيل ان صاحبكم الذي يكون ملكا يكون طوله طول هذه العصا وانظر الى القرن الذي فيه الدهن فاذا دخل عليك رجل فنش الدهن في القرن فهو ملك بني اسرائيل فادهن رأسه بالدهن وملكه عليهم واسم طالوت بالعبرانية ساول بن قيس من سبط بنيامين بن يعقوب وانما سمي طالوت لطوله وكان أطول من جميع الناس برأسه ومنكبيه وكان طالوت رجلا دباغا يدبغ الاديم قاله وهب وقيل كان سقاء يستقي الماء على حمار فضل حماره فخرج يطلبه وقال وهب ضلت حمر لابي طالوت فأرسله أبوه ومعه غلام في طلبها فمرا على بيت اشمويل النبي فقال الغلام لطالوت لو دخلنا على هذا النبي فسألناه عن أمر الحمير ليرشدنا أو ليدعو لنا فدخلا عليه فبينما هما عنده يذكران له حاجتهما اذ نش الدهن في القرن فقام اشمويل فقاس طالوت بالعصا فكانت على طوله فقال لطالوت قرب رأسك فقربه اليه فدهنه بدهن القدس وقال له أنت ملك بني اسرائيل الذي أمرني الله تعالى ان أملكك عليهم فقال طالوت أوما علمت ان سبطي من أدنى أسباط بني اسرائيل قال بلى قال فبأي آية قال بآية انك ترجع وقد وجد أبوك حمره فكان كذلك ثم قال لبني اسرائيل ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا وقيل انه جلس عنده وقال يا أيها الناس ان الله ملك طالوت فأتت عظماء بني اسرائيل الى نبيهم أشمويل وقالوا له ماشأن طالوت تملك علينا وليس هو من بيت النبوة ولا المملكة وقد عرفت ان النبوة في سبط لاوي بن يعقوب والمملكة في سبط يهوذا بن يعقوب فقال لهم نبيهم اشمويل ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا (قالوا أنى يكون له الملك علينا) أي من أين يكون له الملك وكيف يستحقه (ونحن أحق بالملك منه) انما قالوا ذلك لانه كان من بني اسرائيل سبطان سبط نبوة وسبط مملكة فسبط النبوة سبط لاوي بن يعقوب ومنه كان موسى وهرون عليهما السلام وسبط المملكة سبط يهوذا بن يعقوب ومنه كان داود وسليمان عليهما السلام ولم يكن طالوت من أحدهما وانما كان من سبط بنيامين بن يعقوب فلهذا السبب أنكروا كونه ملكا لهم وزعموا أنهم أحق بالملك منه ثم أكدوا ذلك بقولهم (ولم يؤت سعة من المال) يعني أنه فقير والملك يحتاج الى المال (قال) يعني اشمويل النبي (ان الله اصطفاه عليكم) أي اختاره عليكم وخصه بالملك وفي هذه الآية دليل على بطلان قول من زعم من الشيعة أن الامامة موروثة وذلك لان بني اسرائيل أنكروا أن يكون ملكهم من لا يكون من بيت المملكة فرد الله عليهم وأعلمهم أن هذا شرط فاسد والمستحق للملك من خصه الله به (وزاده بسطة) أي فضيلة وسعة (في العلم) وذلك انه كان من أعلم بني اسرائيل وقيل انه أوحي اليه حين أوتي الملك وقيل هو العلم في الحرب (والجسم) يعني بالطول وذلك لانه كان أطول من الناس برأسه ومنكبيه وقيل بالجمال وكان طالوت من أجمل بني اسرائيل وقيل المراد به القوة لان العلم بالحروب والقوة على الاعداء مما فيه حفظ المملكة (والله يؤتي ملكه من يشاء) يعني أن الله تعالى لا اعتراض عليه لاحد في فعله فيخص بملكه من يشاء من عباده (والله واسع) يعني ان الله تعالى واسع الفضل والرزق والرحمة وسعت رحمته كل شيء ووسع فضله ورزقه كل خلقه والمعنى أنكم طعنتم في طالوت بكونه فقيرا والله واسع الفضل والرزق فاذا فوض اليه الملك فتح عليه أبواب الرزق والمال من فضله وسعته وقيل الواسع ذو السعة وهو الذي يعطي عن غنى (عليم) يعني أنه تعالى مع قدرته على اغناء الفقير عالم بما يحتاج اليه في تدبير نفسه وملكه والعليم هو العالم بما يكون وبما كان ﴿قوله عز وجل﴾ (وقال لهم نبيهم ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت) وذلك أنهم سألوا اشمويل النبي فقالوا ما آية ملكه فقال ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت

(قالوا أنى يكون له الملك علينا) أي كيف ومن أين وهو انكار لتملكه عليهم واستبعاد له (ونحن أحق بالملك منه) الواو للحال (ولم يؤت سعة من المال) أي كيف يتملك علينا والحال أنه لا يستحق التملك لوجود من هو أحق بالملك وانه فقير ولا بد للملك من مال يعتضد به وانما قالوا ذلك لان النبوة كانت في سبط لاوي بن يعقوب عليه السلام والملك في سبط يهوذا وهو كان من سبط بنيامين وكان رجلا سقاء أو دباغا فقيرا وروى ان نبيهم دعا الله حين طلبوا منه ملكا فاتي بعصا يقاس بها من يملك عليهم فلم يساوها الا طالوت (قال ان الله اصطفاه عليكم) الطاء في اصطفاه بدل من التاء لمكان الصاد الساكنة أي اختاره عليكم وهو اعلم بالمصالح منكم ولا اعتراض على حكمه ثم ذكر مصلحتين انفع مما ذكروا من النسب والمال وهما العلم المبسوط والجسامة فقال (وزاده بسطة) مفعول ثان (في العلم والجسم) قالوا كان أعلم بني اسرائيل بالحرب والديانات في وقته وأطول من كل انسان برأسه ومنكبه والبسطة السعة والامتداد والملك لا بد أن يكون من أهل العلم فان الجاهل ذليل مزدرى غير منتفع به وأن يكون جسيما لانه أعظم في النفوس وأهيب في القلوب (والله يؤتي ملكه من يشاء) أي الملك له غير منازع فيه وهو يؤتيه من يشاء ايتاءه وليس ذلك بالوراثة (والله واسع) أي واسع الفضل والعطاء يوسع على من ليس له سعة من المال ويغنيه بعد الفقر (عليم) بمن يصطفيه للملك فثمة طلبوا من نبيهم آية على اصطفاء الله طالوت (وقال لهم نبيهم ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت) أي صندوق التوراة وكان موسى عليه السلام اذا قاتل قدمه فكانت تسكن نفوس بني اسرائيل ولا يفرون

* وكانت قصة التابوت على ما ذكره علماء السير والاخبار أن الله تعالى أنزل على آدم عليه السلام تابوتا فيه صورة الانبياء عليهم السلام وكان التابوت من خشب الشمشاد طوله ثلاثة أذرع في عرض ذراعين فكان عند آدم ثم صار الى شيث ثم توارثه أولاد آدم الى أن بلغ ابراهيم عليه السلام ثم كان عند اسمعيل لانه كان أكبر أولاده ثم صار الى يعقوب ثم كان في بني اسرائيل الى أن وصل الى موسى عليه السلام فكان يضع فيه التوراة ومتاعا من متاعه ثم كان عنده الى أن مات ثم تداوله أنبياء بني اسرائيل الى وقت اشمويل وكان في التابوت ما ذكر الله تعالى وهو قوله (فيه سكينة من ربكم) واختلفوا في تلك السكينة ما هي فقال علي بن أبي طالب هي ريح خجوج هفافة لها رأسان ووجه كوجه الانسان وقال مجاهد هي شيء يشبه الهرة له رأس كرأس الهرة وذنب كذنب الهرة وله جناحان وقيل له عينان لهما شعاع وجناحان من زمرد وزبرجد وكانوا اذا سمعوا صوته تيقنوا النصر فكانوا اذا خرجوا وضعوا التابوت قدامهم فاذا سار ساروا واذا وقف وقفوا وقال ابن عباس هي طشت من ذهب من الجنة كان يغسل فيه قلوب الانبياء وقال وهب هي روح من الله تعالى تتكلم اذا اختلفوا في شيء فتخبرهم ببيان ما يريدون وقال عطاء بن أبي رباح هي ما يعرفون من الآيات التي يسكنون اليها وقال قتادة والكلبي هي فعيلة من السكون أي طمأنينة من ربكم ففي أي مكان كان التابوت اطمأنوا وسكنوا اليه وهذا القول أولى بالصحة فعلى هذا كل شيء كانوا يسكنون اليه فهو سكينة فيحمل على جميع ما قيل فيه لان كل شيء يسكن اليه القلب فهو سكينة ولم يرد فيه نص صريح فلا يجوز تصويب قول وتضعيف آخر ۞ وقوله تعالى (وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون) يعني موسى وهرون أنفسهما بدليل قوله صلى الله عليه وسلم لابي موسى الاشعري لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود فالمراد به داود نفسه واختلفوا في تلك البقية التي ترك آل موسى وآل هرون فقيل رضاض من الالواح وعصا موسى قاله ابن عباس وقيل عصا موسى وعصا هرون وشيء من ألواح التوراة وقيل كانت العلم والتوراة وقيل كان فيه عصا موسى ونعلاه وعصا هرون وعمامته وقفيز من المن الذي كان ينزل على بني اسرائيل فكان التابوت عند بني اسرائيل يتوارثونه قرنا بعد قرن وكانوا اذا اختلفوا في شيء تحاكموا اليه فيتكلم ويحكم بينهم وكانوا اذا حضروا القتال قدموه بين أيديهم يستفتحون به على عدوهم فينصرون فلما عصوا وأفسدوا سلط الله عز وجل عليهم العمالقة فغلبوهم على التابوت وأخذوه منهم وكان السبب في ذلك انه كان لعيلي وهو الشيخ الذي ربى اشمويل ابنان شابان وكان عيلي حبر بني اسرائيل وصاحب قربانهم في زمنه فاحدث ابناه في القربان شيئا لم يكن فيه وذلك انه كان منوط القربان الذي ينوطونه به كلابين فلما أخرجا كانا الكاهن الذي كان ينوطه فجعل ابناه كلاليب وكان النساء يصلين في بيت المقدس فيتشبثان بهن فأوحى الى اشمويل ان انطلق الى عيلي وقل له منعك حب الولد من ان تزجر ابنيك عن ان يحدثا في قرباني وقدسي شيأ وان يعصياني فلأنزعن الكهانة منك ومن ولدك ولاهلكنك واياهما فاخبره اشمويل بذلك ففزع وسار اليهم عدوهم من حولهم فأمر عيلي ابنيه ان يخرجا بالناس فيقاتلا ذلك العدو فخرجا وأخرجا معهما التابوت فلما تهيؤا للقتال جعل عيلي يتوقع الخبر فجاءه رجل فاخبره ان الناس قد انهزموا وقد قتل ابناه قال فما فعل في التابوت قال أخذه العدو وكان عيلي قاعدا على كرسيه فشهق ووقع على قفاه فمات فخرج أمر بني اسرائيل وتفرقوا الى أن بعث الله طالوت ملكا فسألوا اشمويل البينة على صحة ملك طالوت فقال لهم نبيهم يعني اشمويل ان آية ملكه يعني علامة ملكه التي تدل على صحته ان يأتيكم التابوت وكانت قصة رجوع التابوت على ما ذكره أصحاب الاخبار ان الذين أخذوا التابوت من بني اسرائيل أتوا به قرية من قرى فلسطين يقال لها ازدود فجعلوه في بيت أصنام لهم ووضعوه تحت الصنم الاعظم فاصبحوا من الغد والصنم تحته فأخذوه ووضعوه فوقه وسمروا قدمي الصنم على التابوت فاصبحوا وقد قطعت يد الصنم ورجلاه وأصبح

الصنم

(فيه سكينة من ربكم) سكون وطمأنينة (وبقية) هي رضاض الالواح وعصا موسى وثيابه وشيء من التوراة ونعلا موسى وعمامة هرون عليهما السلام (مما ترك آل موسى وآل هرون) أي مما تركه موسى وهرون والآل مقحم لتفخيم شأنهما

الصنم ملقى تحت التابوت وأصبحت أصنامهم منكسة فاخرجوا التابوت من بيت الاصنام ووضعوه في ناحية من مدينتهم فاخذ أهل تلك الناحية وجع في أعناقهم حتى هلك أكثرهم فقال بعضهم لبعض أليس قد علمتم ان اله بني اسرائيل لا يقوم له شيء فاخرجوه الى قرية أخرى فبعث الله على أهل تلك الناحية فأرا فكانت الفأرة تبيت مع الرجل فيصبح ميتا قد أكلت ما في جوفه فاخرجوه الى الصحراء ودفنوه في مخرأة لهم فكان كل من تبرز هناك أخذه الباسور والقولنج فتحيروا فيه فقالت لهم امرأة من بني اسرائيل كانت عندهم وهي من بنات الانبياء لا تزالون ترون ما تكرهون مادام هذا التابوت فيكم فاخرجوه عنكم فاتوا بعجلة باشارة تلك المرأة وحملوا عليها التابوت ثم علقوها في ثورين وضربوا جنوبهما فاقبل الثوران يسيران ووكل الله بالثورين أربعة أملاك يسوقونهما فاقبلا حتى وقفا على أرض بني اسرائيل فكسرا نيريهما وقطعا حبالهما ووضعا التابوت في أرض فيها حصاد لبني اسرائيل ورجعا الى أرضهما فلم يرع بني اسرائيل الا والتابوت عندهم فكبروا وحمدوا الله تعالى (تحمله الملائكة) أي تسوقه وقال ابن عباس جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والارض وهم ينظرون اليه حتى وضعته عند طالوت وقال الحسن كان التابوت مع الملائكة في السماء فلما ولي طالوت الملك حملته الملائكة ووضعته بينهم وقال قتادة بل كان التابوت في التيه خلفه موسى عند يوشع بن نون فبقي هناك فاقبلت الملائكة تحمله حتى وضعته في دار طالوت فاصبح في داره فاقروا بملكه (ان في ذلك لآية لكم) يعني قال لهم نبيهم شمويل ان في مجيء التابوت تحمله الملائكة لآية لكم يعني علامة ودلالة على صدقي فيما أخبرتكم به ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا (ان كنتم مؤمنين) يعني مصدقين بذلك قال المفسرون فلما جاءهم التابوت وأقروا بالملك لطالوت تأهب للخروج الى الجهاد فاسرعوا لطاعته وخرجوا معه وذلك قوله تعالى (فلما فصل طالوت بالجنود) أي خرج وأصل الفصل القطع يعني قطع مستقره شاخصا الى غيره فخرج طالوت من بيت المقدس بالجنود وهم سبعون ألف مقاتل وقيل ثمانون ألفا وقيل مائة وعشرون ألفا ولم يتخلف عنه الا كبير لكبره أو مريض لمرضه أو معذور لعذره وذلك انهم لما رأوا التابوت لم يشكوا في النصر فسارعوا الى الخروج في الجهاد وكان مسيرهم في حر شديد فشكوا الى طالوت قلة الماء بينهم وبين عدوهم وقالوا ان المياه لا تحملنا فادع الله أن يجري لنا نهرا (قال) طالوت (ان الله مبتليكم بنهر) أي مختبركم به لتبين طاعتكم وهو أعلم بذلك قال ابن عباس هو نهر فلسطين وقيل هو نهر عذب بين الاردن وفلسطين (فمن شرب منه فليس مني) أي فليس من أهل ديني وطاعتي (ومن لم يطعمه) أي لم يذقه يعني الماء (فانه مني) يعني من أهل طاعتي (الا من اغترف غُرفةً بيده) قرئ بفتح الغين وضمها لغتان وقيل الغرفة بالضم التي تحصل في الكف من الماء والغرفة بالفتح الاغتراف فالضم اسم والفتح مصدر (فشربوا منه) يعني من النهر (الا قليلا منهم) قيل هم أربعة آلاف لم يشربوا منه وقيل ثلثمائة وبضعة عشر رجلا وهو الصحيح ويدل على ذلك ما روي عن البراء بن عازب قال كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يتحدثون ان عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ولم يجاوزه معه الا مؤمن بضعة عشر وثلثمائة أخرجه البخاري قيل البضع هنا ثلاثة عشر فلما وصلوا الى النهر ألقي عليهم العطش فشرب منه الكل الا هذا العدد القليل وكان من اغترف منه غرفة كما أمره الله تعالى كفته لشربه وشرب دوابه وقوي قلبه وصح ايمانه وعبر النهر سالما والذين شربوا منه وخالفوا أمر الله تعالى اسودت شفاههم وغلبهم العطش فلم يرووا وجبنوا وبقوا على شط النهر ولم يجاوزوه وقيل جاوزوه كلهم ولكن الذين شربوا لم يحضروا القتال وانما قاتل أولئك القليل الذين لم يشربوا وهو قوله تعالى (فلما جاوزه هو) يعني جاوز النهر طالوت (والذين آمنوا معه) يعني أولئك القليل (قالوا) يعني الذين شربوا من النهر وخالفوا أمر الله تعالى وكانوا أهل شك ونفاق فعلى هذا يكون قد جاوز النهر مع طالوت المؤمن

(تحمله الملائكة) يعني التابوت وكان رفعه الله بعد موسى فنزلت به الملائكة تحمله وهم ينظرون اليه والجملة في موضع الحال وكذا فيه سكينة ومن ربكم نعت لسكينة ومما ترك نعت لبقية (ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين) ان في رجوع التابوت اليكم علامة أن الله قد ملك طالوت عليكم ان كنتم صادقين (فلما فصل طالوت) خرج (بالجنود) عن بلده الى جهاد العدو وبالجنود في موضع الحال أي مختلطا بالجنود وهم ثمانون ألفا وكان الوقت قيظا وسألوا أن يجري الله لهم نهرا (قال ان الله مبتليكم) مختبركم أي يعاملكم معاملة المختبر (بنهر) وهو نهر فلسطين ليتميز المحق في الجهاد من المعذر (فمن شرب منه) كرعا (فليس مني) فليس من أتباعي وأشياعي (ومن لم يطعمه) ومن لم يذقه من طعم الشيء اذا ذاقه (فانه مني) وبفتح الياء مدني وأبو عمرو واستثنى (الا من اغترف) من قوله فمن شرب منه فليس مني والجملة الثانية في حكم المتأخرة عن الاستثناء الا انها قدمت للعناية (غرفة بيده) غرفة حجازي وأبو عمرو بمعنى المصدر وبالضم بمعنى المغروف ومعناه الرخصة في اغتراف الغرفة باليد دون الكرع والدليل عليه (فشربوا منه) أي فكرعوا (الا قليلا منهم) وهم ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا (فلما جاوزه) أي النهر (هو) طالوت (والذين آمنوا معه)

والمنافق والطائع والعاصي فلما رأوا العدو وقال المنافقون (لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) فأجابهم المؤمنون بقولهم كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة وقيل لم يجاوز النهر مع طالوت الا المؤمنون خاصة لقوله تعالى فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه فان قلت فعلى هذا القول من القائل لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قلت يحتمل أن يكون أهل الايمان وهم الثلثمائة وبضعة عشر انقسموا الى قسمين قسم حين رأوا العدو وكثرته وقلة المؤمنين قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده فأجابهم القسم الآخر بقولهم كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ومعنى لا طاقة لنا لا قوة لنا اليوم بجالوت وجنوده (قال الذين يظنون) أي يستيقنون و يعلمون (أنهم ملاقوا الله) أي ملاقو ثواب الله ورضوانه في الدار الآخرة (كم من فئة قليلة) الفئة الجماعة لا واحد له من لفظه كالرهط (غلبت فئة كثيرة باذن الله) أي بقضاء الله وارادته (والله مع الصابرين) يعني بالنصر والمعونة ۞ قوله عز وجل (ولما برزوا) يعني طالوت وجنوده المؤمنين (لجالوت وجنوده) يعني الكافرين ومعنى برزوا صاروا بالبراز من الارض وهو ما ظهر واستوى منها (قالوا) يعني المؤمنين أصحاب طالوت (ربنا أفرغ) أي اصبب (علينا صبرا وثبت أقدامنا) أي قو قلوبنا لتثبت أقدامنا (وانصرنا على القوم الكافرين) وذلك ان جالوت وقومه كانوا يعبدون الاصنام فسأل المؤمنون الله ان ينصرهم على القوم الكافرين (فهزموهم باذن الله) يعني ان الله تعالى استجاب دعاء المؤمنين فأفرغ عليهم الصبر وثبت أقدامهم ونصرهم على القوم الكافرين حين التقوا فهزموهم باذن الله يعني بقضائه وارادته وأصل الهزم في اللغة الكسر أي كسروهم وردوهم (وقتل داود جالوت) وكانت قصة قتله على ما ذكره أهل التفسير وأصحاب الاخبار انه عبر النهر فيمن عبر مع طالوت ايشا أبو داود في ثلاثة عشر ابنا له وكان داود أصغرهم وكان يرمي بالقذافة فقال داود لابيه يوما يا أبتاه ما أرمي بقذافتي شيأ الا صرعته فقال له أبوه ابشر يا بني فان الله قد جعل رزقك في قذافتك ثم أتاه مرة أخرى فقال يا أبتاه لقد دخلت بين الجبال فوجدت أسدا رابضا فركبته وأخذت باذنه فلم يهجني فقال له أبوه ابشر يا بني فان هذا خير يريده الله بك ثم أتاه يوما آخر فقال له يا أبتاه اني لامشي بين الجبال فأسبح فلا يبقى جبل الا سبح معي فقال يا بني ابشر فان هذا خير أعطاكه الله تعالى قالوا فأرسل جالوت الجبار الى طالوت ملك بني اسرائيل أن ابرز الي أو ابرز الي من يقاتلني فان قتلني فلكم ملكي وان قتلته فلي ملككم فشق ذلك على طالوت ونادى في عسكره من قتل جالوت زوجته ابنتي وناصفته ملكي فهاب الناس جالوت فلم يجبه أحد فسأل طالوت نبيهم أن يدعو الله في ذلك فدعا الله فأتي بقرن فيه دهن القدس وتنور حديد وقيل له ان صاحبكم الذي يقتل جالوت هو الذي اذا وضع هذا القرن على رأسه سال على رأسه حتى يدهن منه رأسه ولا يسيل على وجهه بل يكون على رأسه كهيئة الاكليل و يدخل في هذا التنور فيملؤه ولا يتقلقل فيه فدعا طالوت بني اسرائيل وجربهم فلم يوافقه أحد منهم فأوحى الله الى نبيهم ان في ولد ايشا من يقتل جالوت فدعا طالوت ايشا وقال له اعرض علي بنيك فأخرج له اثني عشر رجلا أمثال السواري فجعل يعرض واحدا واحدا على القرن فلا يرى شيأ فقال يا ايشا هل بقي لك ولد غير هؤلاء فقال لا فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا رب انه قد زعم أنه لا ولد له غيرهم فقال له كذب فقال له النبي ان ربي قد كذبك فقال ايشا صدق ربي يا نبي الله ان لي ولدا صغيرا مسقاما اسمه داود استحييت أن يراه الناس لقصر قامته وحقارته فجعلته في الغنم يرعاها وهو في شعب كذا وكان داود عليه السلام رجلا قصيرا مسقاما أزرق أمعر مصفرا فدعا به طالوت ويقال انه خرج اليه فوجده في الوادي وقد سال الوادي ماء وهو يحمل شاتين شاتين يعبر بهما السيل الى الزريبة التي يريح فيها غنمه فلما رآه طالوت قال هذا هو الرجل المطلوب لا شك فيه فهذا يرحم البهائم فهو بالناس أرحم فدعاه طالوت ووضع القرن على رأسه ففنش وفاض فقال له طالوت هل لك أن تقتل جالوت وأزوجك ابنتي وأجري خاتمك في ملكي قال نعم فقال له هل آنست من نفسك

أي القليل قالوا (لا طاقة لنا اليوم) أي لا قوة لنا (بجالوت) هو جبار من العمالقة من أولاد عمليق ابن عاد وكان في بيضته ثلثمائة رطل من الحديد (وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله) يوقنون بالشهادة قيل الضمير في قالوا للكثير الذين انخذلوا والذين يظنون هم القليل الذين ثبتوا وروى ان الغرفة كانت تكفي الرجل لشربه وداوته والذين شربوا منه اسودت شفاههم وغلبهم العطش (كم من فئة قليلة) كم خبرية وموضعها رفع بالابتداء (غلبت) خبرها (فئة كثيرة باذن الله) بنصره (والله مع الصابرين) بالنصر (ولما برزوا لجالوت وجنوده) خرجوا لقتالهم (قالوا ربنا أفرغ) أصبب (علينا صبرا) على القتال (وثبت أقدامنا) بتقوية قلوبنا والقاء الرعب في صدور عدونا (وانصرنا على القوم الكافرين) أعنا عليهم (فهزموهم) أي طالوت والمؤمنون جالوت وجنوده (باذن الله) بقضائه (وقتل داود جالوت) كان ايشا أبو داود في عسكر طالوت مع ستة من بنيه وكان داود سابعهم وهو صغير يرعى الغنم فأوحى الله الى نبيهم ان داود هو الذي يقتل جالوت فطلبه من أبيه فجاء وقد مر في طريقه بثلاثة أحجار دعاه كل واحد منها ان يحمله وقالت له انك تقتل بنا جالوت

شيأ تتقوى به على قتله قال نعم أنا أرعى الغنم فيجيء الاسد أو النمر أو الذئب فيأخذ شاة من الغنم فاقوم فافتح لحييه عنها وأخرجها من قفاه فأخذ طالوت داود ورده الى العسكر فرداود عليه السلام فى طريقه بحجر فناداه ياداود أحملنى فانى حجر هرون فحمله ثم مر بحجر آخر فقال ياداود أحملنى فانى حجر موسى فحمله ثم مر بحجر آخر فقال له ياداود احملنى فانى حجرك الذى تقتل به جالوت فحمله فوضع الثلاثة فى مخلاته فلما رجع طالوت الى العسكر ومعه داود وتصافوا للقتال برز جالوت يطلب المبارزة فانتدب له داود عليه السلام فاعطى طالوت داود فرسا وسلاحا فلبس السلاح وركب الفرس وسار قريبا ثم رجع الى طالوت فقال من حوله جبن الغلام فجاء فوقف على طالوت فقال له ماشأنك فقال له داود عليه السلام ان لم ينصرنى ربى لم يغن هذا السلاح عنى شيأ وان نصرنى فلا حاجة لى به فدعنى أقاتل كما أريد قال نعم فأخذ داود مخلاته وتقلدها وأخذ المقلاع بيده ومضى نحو جالوت وكان جالوت من أشد الناس وأقواهم وكان يهزم الجيوش وحده وكان له بيضة حديد وزنها ثلثمائة رطل فلما نظر الى داود وهو بيده وقع الرعب فى قلبه فقال له جالوت وأنت تبرز لى قال نعم وكان جالوت على فرس أبلق عليه السلاح التام فقال أتيتنى بالمقلاع والحجر كما يؤتى الكلب فقال نعم وأنت شر من الكلب قال جالوت لاجرم لأقسمن لحمك بين سباع الارض وطير السماء فقال داود عليه السلام أو يقسم الله لحمك ثم قال داود باسم اله ابراهيم وأخرج حجرا ثم قال باسم اله اسحق وأخرج حجرا ثم قال باسم اله يعقوب وأخرج حجرا ووضعها فى مقلاعه فصارت الثلاثة حجرا واحدا وأدار داود المقلاع ورمى به جالوت فسخر الله له الريح فحملت الحجر حتى أصاب انف البيضة فخالط دماغ جالوت وخرج من قفاه وقتل من ورائه ثلاثين رجلا وخر جالوت صريعا قتيلا فاخذه داود بجره حتى ألقاه بين يدى طالوت ففرح بنواسرائيل بذلك فرحا شديدا وهزم الله الجيش فرجع طالوت بالناس الى المدينة سالمين غانمين وجعل الناس يذكرون داود فجاء داود الى طالوت وقال له انجز لى ماوعدتنى فقال له أتريد ابنة الملك بغير صداق فقال داود ماشرطت على صداقا وليس لى شئ فقال لا أكلفك الاماتطيق أنت رجل جرىء وفى حيالنا أعداء لنا غلف فان قتلت منهم مائتى رجل وجئتنى بغلفهم زوجتك ابنتى فأتاهم فجعل كلما قتل واحدا منهم نظم غلفته فى خيط حتى نظم مائتى غلفة فجاء بها الى طالوت وألقاها بين يديه وقال ادفع الى امرأتى فزوجه ابنته وأجرى خاتمه فى ملكه فمال الناس الى داود عليه السلام وأحبوه وأكثروا ذكره فحسده طالوت وأراد قتله فأخبر بذلك ابنة طالوت رجل يقال له ذو العينين فاخبرت بذلك داود وقالت له انك مقتول الليلة قال ومن يقتلنى قالت أبى قال وهل أجرمت جرما يوجب القتل قالت حدثنى بذلك من لا يكذب ولا عليك أن تغيب الليلة حتى تنظر مصداق ذلك فقال ان كان يريد ذلك فلا أستطيع خروجا ولكن ائتينى بزق خمر فأتته به فوضعه فى مضجعه على سريره وسجاه ودخل داود تحت السرير فدخل طالوت نصف الليل فقال لابنته أين بعلك قالت هو نائم على سريره فضربه بالسيف فسال الخمر فلما وجد ريح الخمر قال يرحم الله داود ما كان أكثر شربه للخمر وخرج فلما أصبح علم أنه لم يفعل شيأ فقال ان رجلا طلبت منه ماطلبت لحقيق أن لايدعنى حتى يدرك ثأره منى فاشتد حجابه وحراسته وأغلق دونه أبوابه ثم ان داود أتاه ليلة وقد هدأت العيون وأعمى الله عنه الحجاب ففتح الابواب ودخل عليه وهو نائم على فراشه فوضع سهما عند رأسه وسهما عند رجليه وسهما عن يمينه وسهما عن شماله وخرج فاستيقظ طالوت فبصر بالسهام فعرفها فقال يرحم الله داود هو خير منى ظفرت به فقصدت قتله وظفر بى فكف عنى ولوشاء لوضع هذا السهم فى حلقى وما أنا بالذى آمنه فلما كان من الليلة القابلة أتاه ثانيا فأعمى الله عنه الحجاب فدخل عليه وهو نائم فاخذ ابريق وضوئه وكوزه الذى يشرب منه وقطع شعرات من لحيته وشيأ من طرف ثوبه ثم خرج وتوارى فلما أصبح طالوت ورأى ذلك سلط على داود العيون وطلبه أشد الطلب فلم يقدر عليه ثم ان طالوت ركب يوما فوجد داود يمشى فى

البرية فقال اليوم أقتله وركض في أثره فاشتد داود في عدوه وكان اذا فزع لم يدرك فدخل غارا فأوحى الله تعالى الى العنكبوت فنسجت عليه فلما انتهى طالوت الى الغار ونظر الى بناء العنكبوت قال لو كان دخل هنا لتخرق هذا النسج وانطلق طالوت وتركه فخرج داود حتى أتى جبل المتعبدين فتعبد معهم وطعن العلماء والعباد على طالوت في شأن داود فجعل طالوت لا ينهاه أحد عن قتل داود الا قتله فقتل خلقا كثيرا من العباد والعلماء حتى أتى بامرأة تعلم الاسم الاعظم فأمر خبازه بقتلها فرحمها الخباز فلم يقتلها وقال لعلنا نحتاج الى عالم فترك فهاثم وقع في قلب طالوت التوبة والندم على مافعل وأقبل على البكاء حتى رحمه الناس وكان كل ليلة يخرج الى القبور ويبكي وينادي أنشد الله عبدا يعلم لي توبة الا أخبرني بها فلما كثر ذلك منه ناداه مناد من القبور ياطالوت أما ترضى أن قتلتنا حتى تؤذينا أمواتا فازداد حزنا وبكاء فتوجه الخباز الى طالوت لما رأى من حاله وقال مالك أيها الملك فأخبره وقال هل تعلم لي توبة أو تعلم في الارض عالما أسأله عن توبتي فقال له الخباز أيها الملك ان دللتك على عالم يوشك ان تقتله فقال لا فتوثق منه باليمين فاخبره ان تلك المرأة العالمة عنده فقال انطلق بي اليها لاسألها عن توبتي قال نعم فانطلق به فلما قرب من الباب قال له الخباز أيها الملك انها اذا رأتك فزعت ولكن ائت خلفي فلما دخلا عليها قال لها الخباز ياهذه ألست تعلمين حقي عليك قالت بلى قال فان لي اليك حاجة فتقضيها قالت نعم قال هذا طالوت قد جاءك يسال هل له من توبة فلما سمعت بذكر طالوت غشي عليها فلما أفاقت قالت والله ما أعلم له توبة ولكن دلوني على قبر نبي فانطلقوا بها الى قبر اشمويل فوقفت عليه ودعت وكانت تعلم الاسم الاعظم ثم قالت ياصاحب القبر فخرج ينفض التراب عن رأسه فلما نظر الى ثلاثتهم قال مالكم أقامت القيامة قالت لا ولكن هذا طالوت قد جاء يسالك هل له من توبة فقال اشمويل ياطالوت مافعلت بعدي قال لم أدع من الشر شيا الا فعلته وجئت أطلب التوبة فقال اشمويل ياطالوت كم لك من الولد قال عشرة رجال قال ما أعلم لك من توبة الا أن تتخلى من ملكك وتخرج أنت وولدك في سبيل الله ثم تقدم ولدك حتى يقتلوا بين يديك ثم تقاتل أنت حتى تقتل آخرهم ثم ان اشمويل سقط ميتا ورجع طالوت أحزن ما كان رهبة ان لا يتابعه بنوه وعلى ما يريد وكان قد بكى حتى سقطت أشفار عينيه ونحل جسمه فجمع أولاده وقال لهم أرأيتم لو دفعت الى النار هل كنتم تنقذونني منها فقالوا بلى ننقذك بما نقدر عليه قال فانها النار ان لم تفعلوا ما آمركم به قالوا اعرض علينا ما أردت فذكر لهم القصة قالوا وانك لمقتول قال نعم قالوا فلا خير لنا في الحياة بعدك قد طابت أنفسنا بالذي سألت فتجهز هو وولده وخرج طالوت مجاهدا في سبيل الله فقدم أولاده فقاتلوا حتى قتلوا ثم شد هو من بعدهم فقاتل حتى قتل وجاء قاتل طالوت الى داود فبشره بقتله وقال له قد قتلت عدوك فقال داود ما أنت بباق بعده وقتله فكان ملك طالوت الى ان قتل مدة أربعين سنة فاتى بنو اسرائيل الى داود فملكوه عليهم وأعطوه خزائن طالوت قال الكلبي والضحاك ملك داود بعد قتل جالوت سبع سنين ولم يجتمع بنو اسرائيل على ملك واحد الا على داود فذلك قوله تعالى (وآتاه الله الملك والحكمة) يعني النبوة جمع الله لداود بين الملك والنبوة ولم يكن كذلك من قبل بل كانت النبوة في سبط والملك في سبط وقيل الحكمة هي العلم مع العمل به (وعلمه مما يشاء) أي وعلم الله داود صنعة الدروع فكان يصنعها ويبيعها وكان لا يأكل الا من عمل يده وقيل علمه منطق الطير وقيل علمه الزبور وقيل هو الصوت الطيب والالحان ولم يعط الله أحدا من خلقه مثل صوت داود فكان اذا قرأ الزبور تدنو منه الوحوش حتى يؤخذ باعناقها وتظله الطير مصيخة له ويركد الماء الجاري وتسكن الرياح عند قراءته وقيل علمه سياسة الملك وضبطه وذلك لانه لم يكن من بيت الملك حتى يتعلمه من آبائه وقال ابن عباس هو ان الله تعالى أعطاه سلسلة موصولة بالمجرة ورأسها عند صومعته قوتها قوة الحديد ولونها لون النور وحلقها مستديرة مفصلة بالجوهر مدسرة بقضبان اللؤلؤ الرطب فكان لا يحدث في الهواء حدث الا

فحملها في مخلاته ورمى بها جالوت فقتله وزوجه طالوت بنته ثم حسده وأراد قتله ثم مات تائبا (وآتاه الله الملك) في مشارق الارض المقدسة ومغاربها وما اجتمعت بنو اسرائيل على ملك قط قبل داود (والحكمة) والنبوة (وعلمه مما يشاء) من صنعة الدروع وكلام الطيور والدواب وغير

(ولولا دفع الله الناس) هو مفعول به (بعضهم) بدل من الناس دفاع مدني مصدر دفع أو دافع (ببعض لفسدت الارض) أي ولولا ان الله تعالى يدفع بعض الناس ببعض ويكف بهم فسادهم لغلب المفسدون وفسدت الارض وبطلت منافعها من الحرث والنسل أو ولولا ان الله تعالى ينصر المسلمين على الكافرين لفسدت الارض بغلبة الكفار وقتل الابرار وتخريب البلاد وتعذيب العباد (ولكن الله ذو فضل على العالمين) بازالة الفساد عنهم وهو دليل على المعتزلة في مسئلة الاصلح (تلك) مبتدأ خبره (آيات الله) يعني القصص التي اقتصها من حديث الالوف واماتهم واحياءهم وتمليك طالوت واظهاره على الجبابرة على يد صبي (تتلوها) حال من آيات الله والعامل فيه معنى الاشارة أو آيات الله بدل من تلك ونتلوها الخبر (عليك بالحق) باليقين الذي لا يشك فيه أهل الكتاب لانه في كتبهم كذلك (وانك لمن المرسلين) حيث تخبر بها من غير أن تعرف بقراءة كتاب أو سماع من أهله (تلك الرسل) اشارة الى جماعة الرسل التي ذكرت قصصها في هذه السورة من آدم الى داود أو التي ثبت علمها عند رسول الله عليه السلام (فضلنا بعضهم على بعض) بالخصائص وراء الرسالة لاستوائهم فيها كالمؤمنين يستوون في صفة الايمان ويتفاوتون في الطاعات بعد الايمان ثم بين ذلك بقوله (منهم من كلم الله) أي كلمه الله حذف العائد من الصلة يعني منهم من فضله الله بان كلمه من غير سفير وهو موسى عليه السلام (ورفع بعضهم) مفعول أول (درجات) مفعول ثان أي بدرجات أو الى درجات يعني ومنهم من رفعه على سائر الانبياء فكان بعد تفاوتهم في الفضل أفضل منهم بدرجات كثيرة وهو محمد صلى الله عليه وسلم لانه هو المفضل عليهم بارساله الى الكافة وبانه أوتي ما لم يؤته أحد من الانبياء المتكاثرة المرتقية الى ألف أو أكثر وأكبرها القرآن لانه المعجزة الباقية على وجه الدهر وفي هذا الابهام تفخيم وبيان انه العلم الذي لا يشتبه على أحد والمتميز الذي لا يلتبس وقيل أريد به محمد وابراهيم وغيرهما من أولي العزم من الرسل

صلصلت السلسلة فيعلم داود ذلك الحدث ولا يمسها ذو عاهة الا برأ وكانوا يتحاكمون اليها بعد داود الى أن رفعت فمن تعدى على صاحبه أو أنكره حقا أتى السلسلة فمن كان صادقا مد يده الى السلسلة فنالها ومن كان كاذبا لم ينلها فكانت كذلك الى ان ظهر فيهم المكر والخبث فبلغنا أن بعض ملوكهم أودع رجلا جوهرة ثمينة فلما طالبه بالوديعة أنكره اياها فتحاكما الى السلسلة فعمد الذي عنده الجوهرة الى عكازة فنقرها وجعل الجوهرة فيها واعتمد عليها حتى أتيا السلسلة فقال صاحب الجوهرة رد علي الوديعة فقال صاحبه ما أعرف لك عندي وديعة فان كنت صادقا فتناول السلسلة فتناولها بيده وقال للمنكر قم أنت أيضا فتناولها فقال لصاحب الجوهرة أمسك عكازتي فاخذها الرجل منه وقام المنكر الى السلسلة وقال اللهم ان كنت تعلم ان الوديعة التي يدعيها قد وصلت اليه فقرب السلسلة مني ومد يده فتناولها فعجب القوم من ذلك وشكوا فيها فاصبحوا وقد رفع الله السلسلة ۞ قوله تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض) يعني ولولا ان الله يدفع ببعض الناس وهم أهل الايمان والطاعة بعضا وهم أهل الكفر والمعاصي قال ابن عباس ولولا دفع الله بجنوده المسلمين لغلب المشركون على الارض فقتلوا المؤمنين وخربوا المساجد والبلاد وقيل معناه لولا دفع الله بالمؤمنين والابرار على الكفار والفجار (لفسدت الارض) يعني لهلكت بمن فيها ولكن الله يدفع بالمؤمن عن الكافر وبالصالح عن الفاجر روى أحمد بن حنبل عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء ثم قرأ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض (ولكن الله ذو فضل على العالمين) يعني ان دفع الفساد بهذا الطريق انعام وافضال عم الناس كلهم (تلك آيات الله) يعني القصص التي اقتصها من حديث الالوف واماتهم واحياءهم وتمليك طالوت واظهاره بالآية وهي التابوت واهلاك الجبابرة على يد صبي (نتلوها عليك بالحق) أي باليقين الذي لا يشك فيه أهل الكتاب لانه في كتبهم (وانك لمن المرسلين) يعني حيث تخبر بهذه الاخبار العجيبة والقصص القديمة من غير أن تعرف بقراءة كتاب ولا سماع أخبار فدل ذلك على انك من المرسلين وان الذي تخبر به وحي من الله تعالى ۞ قوله عز وجل (تلك الرسل) يعني جماعة الرسل الذين تقدم ذكرهم في هذه السورة (فضلنا بعضهم على بعض) فيه دليل على زوال الشبهة ان أوجب التسوية بين الانبياء في الفضيلة لاستوائهم في القيام بالرسالة وأجمعت الامة على ان الانبياء بعضهم أفضل من بعض وان نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم أفضلهم لعموم رسالته وهو قوله تعالى وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا (منهم) أي من الرسل (من كلم الله) أي كلمه الله وهو موسى عليه السلام (ورفع بعضهم درجات) يعني محمدا صلى الله عليه وسلم رفع الله منصبه ومرتبته على كافة سائر الانبياء بما فضله عليهم من الآيات البينات والمعجزات الباهرات فما أوتي نبي من الانبياء آية أو معجزة الا وأوتي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مثل ذلك وفضل محمد صلى الله عليه وسلم على غيره من الانبياء بآيات ومعجزات أخر مثل انشقاق القمر باشارته وحنين الجذع الذي حن عند مفارقته وتسليم الحجر والشجر عليه وكلام البهائم له شاهدة برسالته ونبع الماء من بين أصابعه وغير ذلك من الآيات والمعجزات التي لا تحصى كثرة وأعظمها وأظهرها معجزة آية القرآن العظيم الذي عجز أهل الارض

(وآتينا عيسى بن مريم البينات) كاحياء الموتى وابراء الاكمه والابرص وغير ذلك (وأيدناه بروح القدس) قويناه بجبريل أو بالانجيل (ولو شاء الله ما اقتتل) أي ما اختلف لانه سببه (الذين من بعدهم) من بعد الرسل (من بعد ما جاءتهم البينات) المعجزات الظاهرات (ولكن اختلفوا) بمشيئتي ثم بين الاختلاف فقال (فمنهم من آمن ومنهم من كفر) بمشيئتي يقول الله أجريت أمور رسلي على هذا أي لم يجتمع لاحد منهم طاعة جميع أمته في حياته ولا بعد وفاته بل اختلفوا عليه فمنهم من آمن ومنهم من كفر (ولو شاء الله ما اقتتلوا) كرره للتأكيد أي لو شئت أن لا يقتتلوا لم يقتتلوا اذ لا يجري في ملكي الا ما يوافق مشيئتي وهذا يبطل قول المعتزلة لانه أخبر أنه لو شاء أن لا يقتتلوا لم يقتتلوا وهم يقولون شاء أن لا يقتتلوا فاقتتلوا (ولكن الله يفعل ما يريد) أثبت الارادة لنفسه كما هو مذهب أهل السنة (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم) في الجهاد في سبيل الله أو هو عام في كل صدقة واجبة (من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه) أي من قبل أن يأتي يوم لا تقدرون فيه على تدارك ما فاتكم من الانفاق لانه لا بيع فيه حتى تبتاعوا ما تنفقونه (ولا خلة) حتى يسامحكم اخلاؤكم به (ولا شفاعة) أي للكافرين فاما المؤمنون فلهم شفاعة أو الا باذنه (والكافرون هم الظالمون) أنفسهم بتركهم التقديم ليوم حاجتهم أو الكافرون بهذا اليوم هم الظالمون لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة مكي و بصري

عن معارضته والاتيان بمثله فهو معجزة باقية الى يوم القيامة (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من نبي من الانبياء الا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وانما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله الي فارجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة (ق) عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الانبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الارض مسجدا وطهورا فايما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي الغنائم ولم تحل لاحد قبلي وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة (م) عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فضلت على الانبياء بست أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الارض مسجدا وطهورا وأرسلت الى الخلائق كافة وختم بي النبيون فان قلت لم ذكره على سبيل الرمز والاشارة ولم يصرح باسمه صلى الله عليه وسلم قلت في هذا الابهام والرمز من تفخيم فضله واعلاء قدره صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى لما فيه من الشهادة بانه العلم الذي لا يشتبه ولا يلتبس فهو كما يقول الرجل وقد فعل شيأ فعله بعضكم أو أحدكم ويريد نفسه فيكون أفخم من التصريح به كما سئل الحطيئة من أشعر الناس قال زهير والنابغة ثم قال ولو شئت لذكرت الثالث أراد نفسه ۞ وقوله تعالى (وآتينا عيسى ابن مريم البينات) يعني الحجج والادلة الباهرة والمعجزات الظاهرة على نبوته مثل ابراء الاكمه والابرص واحياء الموتى (وأيدناه بروح القدس) أي وقويناه بجبريل عليه السلام فكان معه الى أن رفعه الى عنان السماء السابعة فان قلت لم خص موسى وعيسى بالذكر من بين سائر الانبياء قلت لما أوتيا من الآيات العظيمة والمعجزات الباهرة ولقد بين الله تعالى وجه التفضيل حيث جعل التكليم من الفضل وهو آية عظيمة وتأييد عيسى بروح القدس آية عظيمة أيضا فلما أوتي موسى وعيسى من الايات العظيمة خصا بالذكر في باب التفضيل فعلى هذا كل من كان من الانبياء أعظم آيات وأكثر معجزات كان أفضل ولهذا أحرز نبينا صلى الله عليه وسلم قصبات السبق في الفضل لانه أعظم الانبياء آيات وأكثرهم معجزات فهو أفضلهم صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين (ولو شاء الله) أي ولو أراد الله وأصل المشيئة الارادة (ما اقتتل الذين من بعدهم) يعني بعد الرسل الذين وصفهم الله (من بعد ما جاءتهم البينات) أي الدلالات الواضحات من الله بما فيه مزدجر لمن هداه الله تعالى ووفقه (ولكن اختلفوا) يعني اختلف هؤلاء الذين من بعد الرسل (فمنهم من آمن) أي ثبت على ايمانه بالله ورسوله بفضل الله (ومنهم من كفر) أي ومنهم من تعمد الكفر بعد قيام الحجة وبعثة الرسل (ولو شاء الله ما اقتتلوا) أي ولو أراد الله أن يحجزهم عن الاقتتال والاختلاف لحجزهم عن ذلك (ولكن الله يفعل ما يريد) يعني انه تعالى يوفق من يشاء لطاعته والايمان به فضلا منه ورحمة ويخذل من يشاء عدلا منه لا اعتراض عليه في ملكه وفعله سأل رجل علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن القدر فقال يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر فقال طريق مظلم فلا تسلكه فاعاد السؤال فقال بحر عميق فلا تلجه فاعاد السؤال فقال سر الله قد خفي عليك فلا تفتشه ۞ قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم) قيل أراد به الزكاة الواجبة وقيل أراد به صدقة التطوع والانفاق في وجوه الخير (من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه) أي لا فدية فيه وانما سماه بيعا لان الفداء شراء النفس من الهلاك والمعنى قدموا لانفسكم اليوم من أموالكم من قبل أن يأتي يوم لا تجارة فيه فيكسب الانسان ما يفتدي به من العذاب (ولا خلة) أي ولا مودة ولا صداقة (ولا شفاعة) وظاهر هذا يقتضي نفي الخلة والشفاعة وقد دلت النصوص على ثبوت المودة والشفاعة بين المؤمنين فيكون هذا عاما مخصوصا (والكافرون هم الظالمون) لانهم وضعوا العبادة في غير موضعها ۞ قوله عز وجل

الله

(الله لا اله الا هو الحى القيوم)

﴿فصل فى فضل هذه الآية الكريمة﴾ عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لكل شئ سنام وان سنام القرآن البقرة وفيها آية هى سيدة آى القرآن آية الكرسى أخرجه الترمذى قوله ان لكل شئ سناما سنام كل شئ أعلاه تشبيها بسنام البعير والمراد منه تعظيم هذه السورة والسيد الفاضل فى قومه والشريف والكريم وأصله من ساد يسود وقوله هى سيدة آى القرآن آى أفضله (م) عن أبى بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا المنذر أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم قلت الله لا اله الا هو الحى القيوم فضرب فى صدرى وقال ليهنك العلم يا أبا المنذر عن واثلة بن الاسقع ان النبى صلى الله عليه وسلم جاءهم فى صفة المهاجرين فسأله انسان أى آية فى القرآن أعظم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله لا اله الا هو الحى القيوم أخرجه أبو داود وقال العلماء انما تميزت آية الكرسى بكونها أعظم آية فى القرآن لما جمعت من أصول الاسماء والصفات من الالهية والوحدانية والحياة والعلم والقيومية والملك والقدرة والارادة فهذه أصول الاسماء والصفات وذلك لان الله تعالى أعظم مذكورفا كان ذكراله من توحيد وتعظيم كان أعظم الاذكار وفى هذا الحديث حجة لمن يقول بجواز تفضيل بعض القرآن على بعض وتفضيله على سائر كتب الله المنزلة ومنع من جواز تفضيل بعض القرآن على بعض جماعة منهم أبو الحسن الاشعرى وأبو بكر الباقلانى قالا لان تفضيل بعضه على بعض يقتضى نقص المفضول وليس فى كلام الله عز وجل نقص وتأول هؤلاء ما ورد من اطلاق لفظ أعظم وأفضل على بعض الآيات أو السور بمعنى عظيم وفاضل ومن أجاز تفضيل بعض القرآن على بعض من العلماء والمتكلمين قالوا هذا التفضيل راجع الى عظم أجر القارئ أوجزيل ثوابه وقول ان هذه الآية أو هذه السورة أعظم أو أفضل بمعنى ان الثواب المتعلق بها أكثر وهذا هو المختار وهو معنى الحديث والله أعلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ حين يصبح آية الكرسى وآيتين من أول حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم حفظ يومه ذلك حتى يمسى ومن قرأها حين يمسى حفظ ليلته تلك حتى يصبح أخرجه الترمذى وقال حديث غريب وأما التفسير فقوله عز وجل الله لا اله الا هو نفى الالهية عن كل ما سواه وأثبت الالهية له سبحانه وتعالى فهو كقولك لا كريم الا زيد فانه أبلغ من قولك زيد كريم الحى يعنى الباقى على الابد الدائم بلا زوال والحى فى صفة الله تعالى هو الذى لم يزل موجودا وبالحياة موصوفا لم تحدث له الحياة بعد موت ولا يعتريه الموت بعد حياة وسائر الاحياء سواء يعتريهم الموت والعدم فكل شئ هالك الا وجهه سبحانه وتعالى القيوم قال مجاهد القيوم القائم على كل شئ وتأويله انه تعالى قائم بتدبير خلقه فى ايجادهم وأرزاقهم وجميع ما يحتاجون اليه وقيل هو القائم الدائم بلا زوال الموجود الذى يمتنع عليه التغيير وقيل هو القائم على كل نفس بما كسبت والقيوم فيعول من القيام وهو نعت للقائم على الشئ (لا تأخذه سنة ولا نوم) السنة ما يتقدم النوم من الفتور الذى يسمى نعاسا وهو النوم الخفيف والوسنان بين النائم واليقظان والنوم هو الثقيل المزيل للعقل والقوة وقيل السنة فى الرأس والنعاس فى العين والنوم فى القلب فالسنة هى أول النوم والنوم هو غشية ثقيلة تقع على القلب تمنع المعرفة بالاشياء والمعنى لا تأخذه سنة فضلا عن أن يأخذه نوم لان النوم والسهو والغفلة محال على الله تعالى لان هذه الاشياء عبارة عن عدم العلم وذلك نقص وآفة والله تعالى منزه عن النقص والآفات وأن ذلك تغير والله تعالى منزه عن التغير (م) عن أبى موسى الاشعرى قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا بخمس كلمات فقال ان الله عز وجل لا ينام ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع اليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور وفى رواية النار لو كشفه لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه ✽ شرح ما يتعلق بلفظ هذا الحديث منقول من شرح مسلم للشيخ محيى الدين النووى قوله صلى

(الله لا اله الا هو) لا مع اسمه وخبره وما أبدل من موضعه فى موضع الرفع خبر المبتدا وهو الله (الحى) الباقى الذى لا سبيل عليه للفناء (القيوم) الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه (لا تأخذه سنة) نعاس وهو ما يتقدم النوم من الفتور (ولا نوم) عن المفضل السنة ثقل فى الرأس والنعاس فى العين والنوم فى القلب وهو تأكيد للقيوم لان من جاز عليه ذلك استحال أن يكون قيوما وقد أوحى الى موسى عليه السلام قل لهؤلاء انى أمسك السموات والارض بقدرتى فلو أخذنى نوم أو نعاس لزالتا

الله عليه وسلم ان الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام فمعناه الاخبار انه سبحانه وتعالى لا ينام وانه مستحيل في حقه لان النوم انغمار وغلبة على العقل يسقط به الاحساس والله تعالى منزه عن ذلك وقوله يخفض القسط و يرفعه أراد بالقسط الميزان الذي يقع به العدل ومعناه ان الله تعالى يخفض الميزان و يرفعه بما يوزن فيه من أعمال العباد المرتفعة اليه وقيل أراد بالقسط الرزق الذي هو قسط كل مخلوق ومعنى يخفض يقبض و يضيق على من يشاء و يرفعه أي يوسعه على من يشاء وقوله يرفع اليه عمل الليل قبل عمل النهار يعني ان الحفظة من الملائكة يصعدون بأعمال العباد في الليل بعد انقضائه في أول النهار و يصعدون بأعمال النهار بعد انقضائه في أول الليل قوله حجابه النور لو كشفه لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه سبحات بضم السين المهملة والباء الموحدة تحت و بضم التاء في آخره جمع سبحة ومعنى سبحات وجهه نوره وجلاله و بهاؤه والحجاب أصله في اللغة المنع وحقيقة الحجاب انما تكون للاجسام المحدودة والله تعالى منزه عن الجسم والحد فالمراد به هنا الشيء المانع من الرؤية وسمى ذلك الشيء المانع نورا أو نارا لانهما يمنعان من الادراك في العادة والمراد بالوجه الذات والمراد بما انتهى اليه بصره من خلقه جميع المخلوقات لان بصره سبحانه وتعالى محيط بجميع الكائنات ولفظة من في قوله من خلقه لبيان الجنس لا للتبعيض ومعنى الحديث لو زال المانع وهو الحجاب المسمى نورا أو نارا وتجلى لخلقه لاحرق جلال ذاته جميع مخلوقاته هذا آخر كلام الشيخ على هذا الحديث والله أعلم وروى الطبري بسنده عن ابن عباس في قوله لا تأخذه سنة ولا نوم ان موسى عليه السلام سأل الملائكة هل ينام الله تعالى فاوحى الله تعالى الى الملائكة وأمرهم أن يؤرقوه ثلاثا فلا يتركوه ينام ففعلوا ثم أعطوه قارورتين فامسكهما ثم تركوه وحذروه أن يكسرهما فجعل ينعس و ينتبه وهما في يديه في كل يد واحدة حتى نعس نعسة فضرب احداهما بالاخرى فكسرهما قال معمر انما هو مثل ضربه الله تعالى له يقول فكذلك السموات والارض ورواه عن أبي هريرة مرفوعا قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي عن موسى على المنبر قال وقع في نفس موسى هل ينام الله وذكر نحو حديث ابن عباس قال بعض العلماء ان صح هذا الحديث فيحمل على ان هذا السؤال كان من جهال قوم موسى كطلب الرؤية من موسى لان الانبياء عليهم السلام هم أعلم بالله من غيرهم فلا يجوز أن ينسب لموسى مثل هذا السؤال والله تعالى أعلم ۞ قوله تعالى (له ما في السموات وما في الارض) يعني ان الله تعالى مالك جميع ذلك بغير شريك ولا منازع وهو خالقهم وهم عبيده وفي ملكه فان قلت لم قال له ما في السموات ولم يقل من في السموات قلت لما كان المراد اضافة كل ما سواه اليه من الخلق والملك وكان الغالب فيهم من لا يعقل أجرى الغالب مجرى الكل فعبر عنه بلفظ ما (من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه) أي بأمره وهذا استفهام انكاري والمعنى لا يشفع عنده أحد الا بأمره وارادته وذلك لان المشركين زعموا ان الاصنام تشفع لهم فاخبر انه لا شفاعة لاحد عنده الا ما استثناه بقوله الا باذنه يريد بذلك شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعة بعض الانبياء والملائكة وشفاعة المؤمنين بعضهم لبعض (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) يعني ما بين أيديهم من الدنيا وما خلفهم من الآخرة وقيل بعكسه لانهم يقدمون على الآخرة و يخلفون الدنيا وراء ظهورهم وقيل يعلم ما كان قبلهم وما كان بعدهم وقيل يعلم ما قدموه بين أيديهم من خير أو شر وما خلفهم مما هم فاعلوه والمقصود من هذا انه سبحانه وتعالى عالم بجميع المعلومات لا يخفى عليه شيء من أحوال جميع خلقه (ولا يحيطون بشيء من علمه) يقال أحاط بالشيء اذا علمه وهو أن يعلم وجوده وجنسه وقدره وحقيقته فاذا علمه ووقف عليه وجمعه في قلبه فقد أحاط به والمراد بالعلم المعلوم والمعنى أن أحدا لا يحيط بمعلومات الله تعالى (الا بما شاء) يعني أن يطلعهم عليه وهم الانبياء والرسل ليكون ما يطلعهم عليه من علم غيبه دليلا على نبوتهم كما قال تعالى فلا

(له ما في السموات وما في الارض) ملكا وملكا (من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه) ليس لاحد أن يشفع عنده الا باذنه وهو بيان لملكوته وكبريائه وان أحدا لا يتمالك أن يتكلم يوم القيامة الا اذا أذن له في الكلام وفيه رد لزعم الكفار ان الاصنام تشفع لهم (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) ما كان قبلهم ما يكون بعدهم والضمير لما في السموات والارض لان فيهم العقلاء (ولا يحيطون بشيء من علمه) من معلومه يقال في الدعاء اللهم اغفر فيناعلمك أي معلومك (الا بما شاء) الا بما علم

(وسع كرسيه السموات والارض) أى علمه ومنه الكراسة لتضمنها العلم والكراسى العلماء وسمى العلم كرسيا تسمية بمكانه الذى هو كرسى العالم وهو كقوله تعالى ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما أو ملكه تسمية بمكانه الذى هو كرسى الملك أو عرشه كذا عن الحسن أو هو سرير دون العرش فى الحديث ما السموات السبع فى الكرسى الا كحلقة ملقاة بفلاة وفضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على تلك الحلقة أو قدرته بدليل قوله (ولا يؤده) ولا يثقله ولا يشق عليه (حفظهما) حفظ السموات والارض (وهو العلى) فى ملكه وسلطانه (العظيم) فى عزه وجلاله أو العلى المتعالى عن الصفات التى لا تليق به العظيم المتصف بالصفات التى تليق به فهما جامعان لكمال التوحيد وانما ترتبت الجمل فى آية الكرسى بلا حرف عطف لانها وردت على سبيل البيان فالاولى بيان لقيامه بتدبير

الخلق وكونه مهيمنا عليه غير ساه عنه والثانية لكونه مالكا لما يدبره والثالثة لكبرياء شأنه والرابعة لاحاطته بأحوال الخلق والخامسة لسعة علمه وتعلقه بالمعلومات كلها أو لجلاله وعظم قدره وانما فضلت هذه الآية حتى ورد فى فضلها ما ورد منه ما روى عن على رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ آية الكرسى فى دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة الا الموت ولا يواظب عليها الا صديق أو عابد ومن قرأها اذا أخذ مضجعه آمنه الله على نفسه وجاره وجار جاره والابيات التى حوله وقال عليه السلام سيد البشر آدم وسيد العرب محمد ولا فخر وسيد الفرس سلمان وسيد الروم صهيب وسيد الحبشة بلال وسيد الجبال الطور وسيد الايام يوم الجمعة وسيد الكلام القرآن وسيد القرآن البقرة وسيد البقرة آية الكرسى وقال ما قرئت هذه الآية فى دار الا هجرتها الشياطين ثلاثين يوما ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلة وقال من قرأ آية الكرسى عند منامه بعث اليه ملك يحرسه حتى يصبح وقال من قرأ هاتين الآيتين حين يمسى حفظ بهما حتى يصبح وان قرأهما حين يصبح حفظ بهما حتى يمسى آية الكرسى وأول حم المؤمن الى اليه المصير لاشتمالهما على توحيد الله تعالى وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى ولا مذكور أعظم من رب العزة فما كان ذكرا له كان أفضل من سائر الاذكار وبه يعلم ان اشرف العلوم علم التوحيد (لا اكراه فى الدين) أى لا اجبار على الدين الحق وهو دين الاسلام وقيل هو اخبار فى معنى النهى وروى أنه كان لانصارى ابنان فتنصرا فلزمهما أبوهما وقال والله لا أدعكما حتى تسلما فأبيا فاختصما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الانصارى يا رسول الله أيدخل بعضى فى النار وأنا أنظر فنزلت

يظهر على غيبه أحدا الا من ارتضى من رسول (وسع كرسيه السموات والارض) يقال فلان وسع الشئ سعة اذا احتمله وأطاقه وأمكنه القيام به وأصل الكرسى فى اللغة من تركب الشئ بعضه على بعض ومنه الكراسة لتركب بعض أوراقها على بعض والكرسى فى العرف اسم لما يقعد عليه سمى به لتركب خشباته بعضها على بعض واختلفوا فى المراد بالكرسى هنا على أربعة أقوال أحدها ان الكرسى هو العرش نفسه قال الحسن لان العرش والكرسى اسم للسرير الذى يصح التمكن عليه القول الثانى ان الكرسى غير العرش وهو أمامه وهو فوق السموات السبع ودون العرش قال السدى ان السموات والارض فى جوف الكرسى كحلقة ملقاة فى فلاة والكرسى فى جنب العرش كحلقة فى فلاة وعن ابن عباس ان السموات السبع فى الكرسى كدراهم سبعة ألقيت فى ترس وقيل ان كل قائمة من قوائم الكرسى طولها مثل السموات والارض وهو بين يدى العرش ويحمل الكرسى أربعة أملاك لكل ملك أربعة وجوه وأقدامهم على الصخرة التى تحت الارض السابعة السفلى ملك على صورة أبى البشر آدم وهو يسأل الرزق والمطر لبنى آدم من السنة الى السنة وملك على صورة النسر وهو يسأل الرزق للطير من السنة الى السنة وملك على صورة الثور وهو يسأل الرزق للانعام من السنة الى السنة وملك على صورة السبع وهو يسأل الرزق للوحوش من السنة الى السنة وفى بعض الاخبار ان بين حملة العرش وحملة الكرسى سبعين حجابا من ظلمة وسبعين حجابا من نور غلظ كل حجاب مسيرة خمسمائة عام لولا ذلك لاحترقت حملة الكرسى من نور حملة العرش القول الثالث ان الكرسى هو الاسم الاعظم لان العلم يعتمد عليه كما ان الكرسى يعتمد عليه قال ابن عباس كرسيه علمه القول الرابع المراد بالكرسى الملك والسلطان والقدرة لان الكرسى موضع الملك والسلطان فلا يبعد أن يكنى عن الملك بالكرسى على سبيل المجاز (ولا يؤده) أى لا يثقله ولا يجهده ولا يشق عليه (حفظهما) أى حفظ السموات والارض (وهو العلى) أى الرفيع فوق خلقه الذى ليس فوقه شئ فيما يجب له أن يوصف به من معانى الجلال والكمال فهو العلى بالاطلاق المتعالى عن الاشباه والانداد والاضداد وقيل العلى بالملك والسلطنة والقهر فلا أعلى منه أحد وقيل معنى العلو فى صفة الله تعالى منقول الى اقتداره وقهره واستحقاق صفات المدح جميعها على كل وجه وقيل معناه أنه يعلو أن يحيط به وصف الواصفين (العظيم) يعنى أنه ذو العظمة والكبرياء الذى لا شئ أعظم منه وقال ابن عباس العظيم الذى قد كمل فى عظمته وقيل العظيم هو ذو العظمة والجلال والكمال وهو فى صفة الله تعالى ينصرف الى عظم الشأن وجلالة القدر دون العظم الذى هو من نعوت الاجسام

قوله عزوجل (لا اكراه فى الدين) سبب نزول هذه الآية فيما روى عن ابن عباس قال كانت المرأة من

الانصار تكون مقلاة وهي التي لا يعيش لها ولد فكانت تنذر لئن عاش لها ولد لتهودنه فاذا عاش جعلته في اليهود فجاء الاسلام وفيهم منهم فلما أجليت بنو النضير كان فيهم عدد من أولاد الانصار فأرادت الانصار استردادهم وقالوا هم أبناؤنا واخواننا فنزلت الآية لا اكراه في الدين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خير أصحابكم فان اختاروكم فهم منكم وان اختاروهم فأجلوهم معهم وقيل كان لرجل من الانصار من بني سالم ابن عوف يقال له أبو الحصين ابنان متنصران قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ثم قدما المدينة في نفر من النصارى يحملون الزيت فلزمهما أبوهما وقال لا أدعكما حتى تسلما فاختصموا الى النبي صلى الله عليه وسلم وقال يارسول الله أيدخل بعضي النار وأنا أنظر فأنزل الله تعالى لا اكراه في الدين فخلى سبيلهما وقيل نزلت في أهل الكتاب اذا قبلوا بذل الجزية لم يكرهوا على الاسلام وذلك ان العرب كانت أمة أمية ولم يكن لهم كتاب يرجعون اليه فلم يقبل منهم الا الاسلام أو القتل ونزل في أهل الكتاب لا اكراه في الدين يعني اذا قبلوا الجزية فمن أعطى الجزية منهم لم يكره على الاسلام فعلى هذا القول تكون الآية محكمة ليست بمنسوخة وقيل بل الآية منسوخة وكان ذلك في ابتداء الاسلام قبل ان يؤمروا بالقتال ثم نسخت بآية القتال وهو قول ابن مسعود وقال الزهري سألت زيد بن أسلم عن قول الله تعالى لا اكراه في الدين قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عشر سنين لا يكره أحدا في الدين فأبى المشركون الا ان يقاتلوه فاستأذن الله في قتالهم فاذن له ومعنى لا اكراه في الدين أي دين الاسلام ليس فيه اكراه عليه (قد تبين الرشد من الغي) يعني ظهر ووضح وتميز الحق من الباطل والايمان من الكفر والهدى من الضلالة بكثرة الآيات والبراهين الدالة على صحته (فمن يكفر بالطاغوت) يعني الشيطان وقيل هو الساحر والكاهن وقيل هو كل ما عبد من دون الله تعالى وقيل كل ما يطغي الانسان فهو طاغوت فاعول من الطغيان (ويؤمن بالله) أي ويصدق بالله أنه ربه ومعبوده من دون كل شئ كان يعبده وفيه اشارة الى أنه لا بد للكافر أن يتوب أولا عن الكفر ويتبرأ منه ثم يؤمن بعد ذلك بالله فمن فعل ذلك صح ايمانه وهو قوله تعالى (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أي فقد تمسك واعتصم بالعقد الوثيق المحكم في الدين والوثقى تأنيث الاوثق وقيل العروة الوثقى السبب الذي يوصل الى رضا الله تعالى وهو دين الاسلام (لا انفصام لها) أي لا انقطاع لها حتى تؤديه الى الجنة والمعنى ان المتمسك بالدين الصحيح الذي هو دين الاسلام كالمتمسك بالشئ الوثيق الذي لا يمكن كسره ولا انقطاعه (والله سميع) يعني أنه تعالى يسمع قول من كفر بالطاغوت وأتى بالشهادتين (عليم) بما في قلبه من الايمان وقيل معناه سميع لدعائك اياهم الى الاسلام عليم بحرصك على اسلامهم ۞ قوله عز وجل (الله ولي الذين آمنوا) أي ناصرهم ومعينهم وقيل محبهم ومتولي أمورهم فلا يكلهم الى غيره وقيل هو متولي هدايتهم (يخرجهم من الظلمات الى النور) أي من الكفر الى الايمان وكل ما في القرآن من ذكر الظلمات والنور فالمراد به الكفر والايمان غير الذي في صورة الانعام وهو قوله تعالى وجعل الظلمات والنور فالمراد به الليل والنهار وانما سمي الكفر ظلمة لالتباس طريقه ولان الظلمة تحجب الابصار عن ادراك الحقائق فكذلك الكفر يحجب القلوب عن ادراك حقائق الايمان وسمي الاسلام نورا لوضوح طريقه وبيان أدلته (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت) يعني كعب بن الاشرف وحيي بن أخطب وسائر رؤس الضلالة (يخرجونهم من النور الى الظلمات) أي من الهدى الى الضلالة فان قلت كيف قال يخرجونهم من النور الى الظلمات وهم كفار لم يكونوا في نور قط قلت هم اليهود كانوا مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم وصحة نبوته قبل أن يبعث لما يجدون في كتبهم من نعته وصفته فلما بعث كفروا به وجحدوا نبوته وقيل هو على العموم

خلافهما قال ابن مسعود وجماعة كان هذا في الابتداء ثم نسخ بالامر بالقتال (قد تبين الرشد من الغي) قد تميز الايمان من الكفر بالدلائل الواضحة (فمن يكفر بالطاغوت) بالشيطان أو الاصنام (ويؤمن بالله فقد استمسك) تمسك (بالعروة) أي المعتصم والمتعلق (الوثقى) تأنيث الاوثق أي الاشد من الحبل الوثيق المحكم المأمون (لا انفصام لها) لا انقطاع للعروة وهذا تمثيل للمعلوم بالنظر والاستدلال بالمشاهد المحسوس حتى يتصوره السامع كأنه ينظر اليه بعينه فيحكم اعتقاده والمعنى فقد عقد لنفسه من الدين عقدا وثيقا لا تحله شبهة (والله سميع) لاقراره (عليم) باعتقاده (الله ولي الذين آمنوا) أرادوا أن يؤمنوا أي ناصرهم ومتولي أمورهم (يخرجهم من الظلمات) من ظلمات الكفر والضلالة وجمعت لاختلافها (الى النور) الى الايمان والهداية ووحد لاتحاد الايمان (والذين كفروا) مبتدأ والجملة وهي (أولياؤهم الطاغوت) خبره (يخرجونهم من النور الى الظلمات) وجمع لان الطاغوت في معنى الجمع يعني والذين صمموا على الكفر أمرهم على عكس ذلك أو الله ولي المؤمنين يخرجهم من الشبهة في الدين ان وقعت لهم بما يهديهم ويوفقهم له من حلها حتى يخرجوا منها الى نور اليقين والذين كفروا أولياؤهم الشيطان يخرجهم من نور البينات الذي يظهر لهم الى ظلمات الشك والشبهة

في حق جميع الكفار سمى منع الطاغوت اياهم عن الدخول فيه اخراجا من الايمان بمعنى صدهم الطاغوت عنه وحرمهم خيره وان لم يكونوا دخلوا فيه قط فهو كقول الرجل لابيه أخرجتني عن مالك اذا أوصى به لغيره في حياته وحرمه منه وكقول الله تعالى اخبارا عن يوسف عليه السلام اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ولم يكن قط في ملتهم (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) يعني الكفار والطاغوت أهل النار الذين يخلدون فيها دون غيرهم ۞ قوله عز وجل (ألم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه) يعني هل انتهى اليك يا محمد خبر الذي خاصم ابراهيم وجادله لان ألم تر كلمة يوقف بها المخاطب على تعجب منها ولفظها استفهام فهو كما يقال ألم تر الى فلان كيف يصنع معناه هل رأيت فلانا في صنعه والذي حاج ابراهيم هو نمرود بن كنعان الجبار وهو أول من وضع التاج على رأسه وتجبر في الارض وادعى الربوبية (أن آتاه الله الملك) أي لان آتاه الله الملك فطغى وتجبر بسببه وكانت تلك المحاجة من بطر الملك وطغيانه قال مجاهد ملك الارض أربعة مؤمنان وكافران فاما المؤمنان فسليمان بن داود وذو القرنين وأما الكافران فنمرود وبختنصر واختلفوا في وقت هذه المحاجة فقيل لما كسر ابراهيم الاصنام سجنه نمرود ثم أخرجه ليحرقه فقال له من ربك الذي تدعونا اليه قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت وقيل كان هذا بعد القائه في النار وذلك ان الناس قحطوا على عهد نمرود وكان الناس يمتارون من عنده الطعام فكان اذا أتاه أحد يمتار سأله من ربك فيقول أنت فيميره فخرج ابراهيم عليه السلام اليه يمتار لاهله الطعام فاتاه فقال له من ربك قال ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال ابراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر فرده بغير طعام فرجع ابراهيم الى أهله فمر على كثيب رمل أعفر فأخذ منه تطييبا لقلوب أهله اذا دخل عليهم فلما أتى أهله وضع متاعه ثم نام فقامت زوجته سارة الى رحله ففتحته فاذا هو طعام أجود ما رآه أحد فصنعت منه خبزا فلما انتبه قربته اليه فقال لها ابراهيم من أين هذا وكان عهد أهله وليس عندهم طعام فقالت من الطعام الذي جئت به فعلم ابراهيم ان الله قد رزقه فحمد الله تعالى ثم ان الله تعالى بعث الى نمرود الجبار ملكا فقال له ان ربك يقول لك أن آمن بي وأتركك في ملكك قال وهل رب غيري فجاءه الثانية فقال له مثل ذلك ثم أتاه الثالثة فرد عليه مثل ذلك فقال له الملك اجمع جموعك فجمع الجبار جموعه فامر الله الملك ففتح عليه بابا من البعوض حتى سترت الشمس فلم يروها فبعثها الله عليهم فاكلت لحومهم وشربت دماءهم فلم يبق الا العظام ونمرود ينظر ولم يصبه شيء من ذلك ثم بعث الله عليه بعوضة فدخلت في منخره فمكثت في رأسه أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق وكان أرحم الناس به من يجمع له يديه ثم يضرب بهما رأسه فكان كذلك يعذب أربعمائة سنة مدة ملكه حتى أماته الله عز وجل (اذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت) هذا جواب سؤال غير مذكور تقديره قال له نمرود من ربك قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت (قال) يعني قال نمرود (أنا أحيي وأميت) قال أكثر المفسرين دعا نمرود برجلين فقتل أحدهما واستحيا الآخر فجعل تَرْكَ القتل احياءً فانتقل ابراهيم صلى الله عليه وسلم الى حجة أخرى لا عجزا عن نصر حجته الاولى فانها كانت لازمة لانه أراد بالاحياء احياء الميت فكان لابراهيم أن يقول لنمرود فاحي من أمت ان كنت صادقا ولكن انتقل الى حجة أخرى أوضح من الاولى لما رأى من قصور فهم نمرود وضعف رأيه فانه عارض الفعل بمثله ونسي اختلاف الفاعلين (قال ابراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر) يعني تحير نمرود ودهش وانقطعت حجته ولم يرجع اليه شيأ وعرف أنه لا يطيق ذلك فان قلت كيف بهت الذي كفر وكان يمكنه أن يقول لابراهيم سل أنت ربك حتى يأتي بها من المغرب قلت انما لم يقله لانه خاف انه

فهو ربهما (أن آتاه الله الملك) لان آتاه الله يعني أن ايتاء الملك أبطره وأورثه الكبر فحاج لذلك وهو دليل على المعتزلة في الاصلح أو حاج وقت أن آتاه الله الملك (اذ قال) نصب بحاج أو بدل من أن آتاه اذا جعل بمعنى الوقت (ابراهيم ربي) حمزة (الذي يحيي ويميت) كأنه قال له من ربك قال ربي الذي يحيي ويميت (قال) نمرود (أنا أحيي وأميت) يريد أعفو عن القتل وأقتل فانقطع اللعين بهذا عن المخاصمة فزاد ابراهيم عليه السلام مالا يتأتى فيه التلبيس على الضعفة حيث (قال ابراهيم) عليه السلام (فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) وهذا ليس بانتقال من حجة الى حجة كما زعم البعض لان الحجة الاولى كانت لازمة ولكن لما عاند اللعين حجة الاحياء بتخلية واحد وقتل آخر كلمه من وجه لا يعاند وكانوا أهل تنجيم وحركة الكواكب من المغرب الى المشرق معلومة لهم والحركة الشرقية المحسوسة لنا قسرية كتحريك الماء النمل على الرحى الى غير جهة حركة النمل فقال ان ربي يحرك الشمس قسرا على غير حركتها فان كنت ربا فحركها بحركتها فهو أهون (فبهت الذي كفر) تحير ودهش

لوسأل ذلك دعا ابراهيم ربه فكان ذلك زيادة فى فضيحة نمرود وانقطاعه وقيل ان الله تعالى صرفه عن تلك المعارضة اظهارا للحجة عليه ومعجزة لابراهيم صلى الله عليه وسلم وهو الصحيح (والله لا يهدى القوم الظالمين) يعنى لا يرشدهم الى حجة يدحضون بها حجج أهل الحق عند المحاجة والمخاصمة وعنى بالظالمين نمرود ۞ قوله عز وجل (أو كالذى مر على قرية) هذه معطوفة على الآية التى قبلها والمعنى ألم تر الى الذى حاج ابراهيم أو كالذى مر على قرية فيكون هذا عطفا على المعنى وقيل تقديره هل رأيت كالذى حاج ابراهيم وهل رأيت كالذى مر على قرية وقيل الكاف زائدة والتقدير ألم تر الى الذى حاج ابراهيم أو الى الذى مر على قرية واختلفوا فى ذلك المار فروى عن مجاهد أنه كان كافرا شك فى البعث وهذا قول ضعيف لقوله تعالى قال كم لبثت والله تعالى لا يخاطب الكافر ولقوله تعالى ولنجعلك آية للناس وهذا اللفظ لا يستعمل فى حق الكافر وانما يستعمل فى حق الانبياء وقال قتادة وعكرمة والضحاك والسدى هو عزير بن شرخيا وقال وهب بن منبه هو أرمياء بن حلقيا من سبط هرون وهو الخضر ومقصود القصة تعريف منكرى البعث قدرة الله تعالى على احياء خلقه بعد اماتتهم لا تعريف اسم ذلك المار على القرية فجائز أن يكون ذلك المار هو عزير وجائز أن يكون ارمياء وفى هذه القصة دلالة عظيمة بنبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لانه أخبر اليهود بما يجدونه فى كتبهم ويعرفونه وهو أمى لم يقرأ الكتب القديمة واختلفوا فى تلك القرية فقيل هى بيت المقدس وذلك لما خربها بختنصر والمراد بالاحياء هنا عمارتها وقيل هى القرية التى أهلك الله أهلها الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف وقيل هى دير سابر آباد وقيل سلما باد وقيل هى دير هرقل وقيل قرية العنب هى على فرسخين من بيت المقدس وقوله هى دير سابر آباد موضع كان بفارس وسلما باد محلة أو قرية من نواحى جرجان وقيل أيضا من نواحى همدان ودير هرقل بكسر أوله وراء ساكنة وقاف مكسورة دير مشهور بين البصرة وعسكر مكرم وقيل هو موضع الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف فاماتهم الله تعالى ثم أحياهم لحزقيل كما تقدم ويقال ان المراد بقوله تعالى أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها هى التى عندها أحيا الله حمار عزير (وهى خاوية على عروشها) أى ساقطة على سقوفها وذلك ان السقوف سقطت أولا ثم وقعت الحيطان عليها بعد ذلك (قال) يعنى ذلك المار (أنى يحيى هذه الله بعد موتها) فمن قال ان ذلك المار كان كافرا وهو ضعيف انما حمله على الشك فى قدرة الله ومن قال كان نبيا حمله على سبيل الاستبعاد بحسب مجارى العرف والعادة لا على سبيل الانكار لقدرة الله تعالى أو كان المقصود منه طلب زيادة الدلائل لاجل التأكيد كما قال ابراهيم عليه السلام رب أرنى كيف تحيي الموتى ومعنى أنى يحيى هذه الله من أين يحيى هذه القرية والمراد بالاحياء عمارتها فاحب الله أن يريه آية فى نفسه وفى احياء تلك القرية وكان سبب القصة فى ذلك ما روى عن وهب بن منبه ان الله تعالى بعث أرمياء الى ناشية بن أموص ملك بنى اسرائيل ليسدده ويأتيه بالخبر من الله تعالى فعظمت الاحداث فى بنى اسرائيل وركبوا المعاصى فاوحى الله تعالى الى أرمياء أن ذكر قومك نعمى عليهم وعرفهم أحداثهم وادعهم الىّ فقال أرمياء يارب انى ضعيف ان لم تقونى عاجز ان لم تبلغنى مخذول ان لم تنصرنى فقال الله تعالى

(والله لا يهدى القوم الظالمين) أى لا يوفقهم وقالوا انما لم يقل نمرود فليأت ربك بالشمس من المغرب لان الله تعالى صرفه عنه وقيل انه كان يدعى الربوبية لنفسه وما كان يعترف بالربوبية لغيره ومعنى قوله أنا أحيي وأميت أن الذى ينسب اليه الاحياء والاماتة أنا لا غيرى والآية تدل على اباحة التكلم فى علم الكلام والمناظرة فيه لانه قال ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه والمحاجة تكون بين اثنين فدل على ان ابراهيم حاجه أيضا ولو لم يكن مباحا لما باشرها ابراهيم عليه السلام لكون الانبياء عليهم السلام معصومين عن ارتكاب الحرام ولانا أمرنا بدعاء الكفرة الى الايمان بالله وتوحيده واذا دعوناهم الى ذلك لابد أن يطلبوا منا الدليل على ذلك وذا لا يكون الا بعد المناظرة كذا فى شرح التأويلات (أو كالذى مر) معناه أو أرأيت مثل الذى فحذف لدلالة ألم تر عليه لان كلتيهما كلمة تعجيب أو هو محمول على المعنى دون اللفظ تقديره أرأيت كالذى حاج ابراهيم أو كالذى مر وقال صاحب الكشف فيه الكاف زائدة والذى عطف على قوله الى الذى حاج عن الحسن ان المار كان كافرا بالبعث لانتظامه مع نمرود فى سلك ولكلمة الاستبعاد التى هى أنى يحيى والاكثر أنه عزير أراد ان يعاين احياء الموتى ليزداد بصيرة كما طلبه ابراهيم عليه السلام وأنى يحيى اعتراف بالعجز عن انى معرفة طريقة الاحياء واستعظام لقدرة المحيى (على قرية) هى بيت المقدس حين خربه بختنصر وهى التى خرج منها الالوف (وهى خاوية على عروشها) ساقطة مع سقوفها أو سقطت السقوف ثم سقطت عليها الحيطان وكل مرتفع عرش (قال أنى يحيى) أى كيف (هذه) أى أهل هذه (الله بعد موتها

انى ألهمك فقام أرمياء فيهم ولم يدر ما يقول فألهمه الله تعالى فى الوقت خطبة بليغة طويلة بين لهم فيها ثواب الطاعة وعقاب المعصية وقال فى آخرها ان الله عز وجل انى أحلف بعزتى لأقيضن لهم فتنة يتحير فيها الحكيم ولاسلطن عليهم جبارا فارسيا ألبسه الهيبة وأنزع من صدره الرحمة يتبعه عدد مثل سواد الليل المظلم ثم أوحى الله تعالى اليه أنى مهلك بنى اسرائيل بيافث ويافث هم أهل بابل وهم من ولد يافث بن نوح فلما سمع أرمياء ذلك صاح وبكى وشق ثيابه ونبذ الرماد على رأسه فلما رأى الله تضرعه وبكاءه ناداه يا أرمياء أشق عليك ما أوحيت اليك قال نعم يارب أهلكنى قبل أن أرى فى بنى اسرائيل مالا أسر به فقال الله عز وجل وعزتى وجلالى لأهلك بنى اسرائيل حتى يكون الامر فى ذلك من قبلك ففرح أرمياء بذلك وطابت نفسه وقال لاوالذى بعث موسى بالحق لأرضى بهلاك بنى اسرائيل ثم أتى الملك فأخبره بذلك وكان ملكا صالحا فاستبشر وفرح وقال ان يعذبنا ربنا فبذنوبنا وان يعف عنا فبرحمته ثم انهم مكثوا بعد ذلك الوحى ثلاث سنين لم يزدادوا الا معصية وتماديا فى الشر فقل الوحى وذلك حين اقترب هلاكهم فدعاهم الملك الى التوبة فلم يفعلوا فسلط الله عليهم بختنصر البابلى فخرج فى ستمائة ألف راية يريد أهل بيت المقدس فلما فصل سائرا وأتى الخبر الى ملك بنى اسرائيل قال لارمياء أين ما زعمت ان الله تعالى أوحى اليك فقال أرمياء ان الله لا يخلف الميعاد وأنا به واثق فلما قرب الاجل بعث الله تعالى الى أرمياء ملكا قد تمثل له فى صورة رجل من بنى اسرائيل فقال له أرمياء من أنت قال أنا رجل من بنى اسرائيل أتيتك استفتيك فى أهل رحمى وصلت أرحامهم ولم آت اليهم الاحسنا ولا يزيدهم اكرامى اياهم الاسخطا لى فافتنى فيهم فقال أرمياء أحسن فيما بينك وبين الله وصلهم وأبشر بخير فانصرف الملك فمكث اياما ثم أقبل اليه فى صورة ذلك الرجل فقعد بين يديه فقال له أرمياء من أنت قال أنا الرجل الذى أتيتك أستفتيك فى شأن أهلى فقال له أرمياء اماطهرت أخلاقهم بعد لك فيهم فقال يا نبى الله والذى بعثك بالحق نبيا ما أعلم كرامة يأتيها أحد من الناس الى رحمه الا قدمتها اليهم وأفضل فقال أرمياء ارجع اليهم فاحسن اليهم اسأل الله الذى يصلح عباده الصالحين أن يصلحهم فقام الملك فمكث أياما ثم ان بختنصر نزل بجنوده بيت المقدس ففزع منهم بنو اسرائيل فقال ملكهم لارمياء يا نبى الله أين ما وعدك الله فقال انى بربى واثق ثم أقبل ذلك الملك الى أرمياء وهو قاعد على جدار بيت المقدس يضحك ويستبشر بنصر ربه الذى وعده فقعد بين يديه فقال له أرمياء من أنت قال أنا الذى جئتك فى شأن أهلى مرتين فقال أرمياء أما آن لهم ان يفيقوا من الذى هم فيه فقال الملك يا نبى الله ان كل شئ كان يصيبنى منهم قبل اليوم كنت أصبر عليه فاليوم رأيتهم على عمل لا يرضى الله تعالى فقال له أرمياء على أى عمل رأيتهم قال على عمل عظيم يسخط الله تعالى فغضبت لله عز وجل فأتيتك لاخبرك وأنا أسألك بالله الذى بعثك بالحق أن تدعو الله عليهم ليهلكوا فقال أرمياء يا مالك السموات والارض يا ذا الجلال والاكرام ان كانوا على حق وصواب فابقهم وان كانوا على عمل لا ترضاه فاهلكهم فلما خرجت الكلمة من فيه حتى أرسل الله عز وجل صاعقة من السماء على بيت المقدس فالتهب مكان القربان وأحرقت سبعة أبواب من أبوابه فلما رأى ذلك أرمياء صاح وشق ثيابه ونبذ الرماد على رأسه وقال يا مالك السموات والارض أين ميعادك الذى وعدتنى به فنودى انهم لم يصبهم ما أصابهم الا بفتياك ودعائك عليهم فاستيقن أرمياء انها فتياه وان ذلك السائل كان رسولا من الله تعالى اليه فخرج أرمياء حتى خالط الوحوش ودخل بختنصر وجنوده بيت المقدس ووطئ الشام وقتل بنى اسرائيل حتى أفناهم وخرب بيت المقدس وأمر جنوده ان يملأ كل رجل منهم ترسه ترابا ويقذفه فى بيت المقدس ففعلوا ذلك حتى ملؤه ثم أمرهم أن يجمعوا من كان بقى فى بلدان بيت المقدس فاجتمع عنده من كان بقى من بنى اسرائيل من صغير وكبير فاختار منهم سبعين ألف صبى فقسمهم بين الملوك الذين كانوا معه فاصاب كل رجل منهم أربعة غلمة وكان فى أولئك الغلمان دانيال عليه السلام وحنانيا وعزير وفرق من بقى من بنى اسرائيل ثلاث فرق

فأماته الله مائة عام ثم بعثه) أي أحياه (قال) له ملك (كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم) بناء على الظن وفيه دليل جواز الاجتهاد روى انه مات ضحى و بعث بعد مائة سنة قبل غيبوبة الشمس فقال قبل النظر الى الشمس يوما ثم التفت فرأى بقية من الشمس فقال أو بعض يوم (قال بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك) روى ان طعامه كان تينا وعنبا وشرابه عصيرا ولبنا فوجد التين والعنب كما جنيا والشراب على حاله (لم يتسنه) لم يتغير والهاء أصلية أو هاء سكت واشتقاقه من السنة على الوجهين لان لامها هاء لان الاصل سنهة والفعل سانهت يقال سانهت فلانا أي عاملته سنة أو واو لان الاصل سنوة والفعل سانيت ومعناه لم تغيره السنون لم يتسن بحذف الهاء في الوصل و باثباتها في الوقف حمزة وعلي (وانظر الى حمارك) كيف تفرقت عظامه ونخرت وكان له حمار قد ربطه فمات وتفتتت عظامه أو وانظر اليه سالما في مكانه كما ربطته وذلك من أعظم الآيات أن يعيش مائة عام من غير علف ولا ماء كما حفظ طعامه وشرابه من التغير (ولنجعلك آية للناس) فعلنا ذلك نريد احياءه بعد الموت وحفظ ما معه وقيل الواو عطف على محذوف أي لتعتبر ولنجعلك قيل أتى قومه را كبا حماره وقال أنا عزير فكذبوه فقال هاتوا التوراة فأخذ يقرؤها عن ظهر قلبه ولم يقرأ التوراة ظاهرا أحد قبل عزير فذلك كونه آية وقيل رجع الى منزله فرأى أولاده شيوخا وهو شاب (وانظر الى العظام) أي عظام الحمار أو عظام الموتى الذين تعجب من احيائهم (كيف ننشرها) نحركها ونرفع بعضها الى بعض للتركيب ننشرها بالراء حجازي و بصري نحييها (ثم نكسوها) أي العظام (لحما)

فلما قتلهم وثلثا سباهم وثلثا أقرهم بالشام فكانت هذه الوقعة الاولى التي أنزلها الله ببني اسرائيل بظلمهم فلما ولى بختنصر راجعا الى بابل ومعه سبايا بني اسرائيل أقبل أرمياء على حمار له ومعه عصير عنب في ركوة وسلة تين حتى غشي ايليا وهي أرض بيت المقدس فلما رأى خرابها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها ومن قال ان المار كان عزيرا قال ان بختنصر لما خرب بيت المقدس قدم بسبايا بني اسرائيل وكان فيهم عزير ودانيال وسبعة آلاف من أهل بيت داود فلما نجا عزير من بابل ارتحل على حمار حتى نزل دير هرقل على شط دجلة فطاف بالقرية فلم ير أحدا وعامة شجرها حامل فأكل من الفاكهة واعتصر من العنب فشرب منه وجعل فضل الفاكهة في سلة وفضل العصير في زق ولما رأى خراب القرية وهلاك أهلها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها وانما قال ذلك تعجبا لا شكا في البعث ورجعنا الى حديث وهب قال ثم ان أرمياء ربط حماره بحبل جديد وألقى الله تعالى عليه النوم فلما نام نزع الله منه الروح فمات مائة عام وأمات حماره وبقي عصيره وتينه عنده وأعمى الله عنه العيون فلم يره أحد وذلك ضحى ومنع لحمه من السباع والطير فلما مضى من وقت موته مدة سبعين سنة أرسل الله تعالى ملكا الى ملك من ملوك فارس يقال له يوشك وقال له ان الله يأمرك أن تنفر بقومك فتعمر بيت المقدس وايليا حتى يعود أعمر ما كان فانتدب الملك ألف قهرمان مع كل قهرمان ثلثمائة ألف عامل وجعلوا يعمرونه وأهلك الله بختنصر ببعوضة دخلت في دماغه ونجى الله من بقي من بني اسرائيل وردهم جميعا الى بيت المقدس ونواحيها فعمروها ثلاثين سنة وكثروا كأحسن ما كانوا فلما مضت المائة أحيا الله منه عينيه وسائر جسده ميت ثم أحيا الله جسده وهو ينظر ثم نظر الى حماره فاذا عظامه تلوح بيض متفرقة فسمع صوتا من السماء أيتها العظام البالية ان الله يأمرك أن تجتمعي فاجتمع بعضها الى بعض ثم نودي ان الله يأمرك أن تكتسي لحما وجلدا فكان كذلك ثم نودي ان الله يأمرك ان تحيي فقام الحمار باذن الله ثم نهق وعمر الله أرمياء فهو يدور في الفلوات فذلك قوله تعالى (فأماته الله مائة عام) أصل العام من العوم وهو السباحة سميت السنة عاما لان الشمس تعوم في جميع بروجها (ثم بعثه) أي ثم أحياه وأصله من بعثت الناقة اذا أقمتها من مكانها (قال كم لبثت) يعني قال الله تعالى له كم قدر الزمان الذي مكثت فيه ميتا قبل أن أبعثك من مكانك حيا ويقال ان الله تعالى لما أحياه بعث اليه ملكا فسأله كم لبثت (قال) يعني ذلك المبعوث بعد مماته (لبثت يوما) وذلك ان الله تعالى أماته ضحى في أول النهار وأحياه بعد مائة سنة في آخر النهار قبل أن تغيب الشمس فقال لبثت يوما وهو يرى ان الشمس قد غابت ثم التفت فرأى بقية من الشمس فقال (أو بعض يوم قال) يعني قال الله له وقيل قال الملك له (بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك) يعني التين الذي كان معه قبل موته (وشرابك) يعني العصير (لم يتسنه) يعني لم تغيره السنون التي أتت عليه فكان التين كأنه قد قطف من ساعته والعصير كأنه قد عصر من ساعته لم يتغير ولم ينتن (وانظر الى حمارك) أي وانظر الى احياء حمارك فنظر فاذا هو عظام بيض فركب الله تعالى العظام بعضها على بعض ثم كساه اللحم والجلد وأحياه وهو ينظر (ولنجعلك آية للناس) قيل الواو زائدة مقحمة وقيل دخول الواو فيه دلالة على انها شرط لفعل بعدها والمعنى وفعلنا ما فعلنا من الاماتة والاحياء لنجعلك آية للناس يعني عبرة ودلالة على البعث بعد الموت قاله أكثر المفسرين وقيل انه عاد الى القرية وهو شاب أسود الرأس واللحية وأولاده وأولاد أولاده شيوخ وعجائز شمط فكان ذلك آية للناس (وانظر الى العظام كيف ننشرها ثم نكسوها لحما) قرئ بالراء ومعناه كيف نحييها يقال أنشر الله الميت انشارا يعني أحياه وقرئ بالزاي ومعناه كيف

رفعها من الارض ونردها الى مكانها من الجسد ونركب بعضها على بعض وانشاز الشئ رفعه وازعاجه يقال نشزته فنشز أى رفعته فارتفع واختلفوا فى معنى الآية فقال الاكثرون انه أراد عظام الحمار قيل ان الله تعالى أحيا عزيرا أو ارمياء على اختلاف القولين فيه ثم قال له انظر الى حمارك قد هلك و بليت عظامه فنظر و بعث الله ريحا جاءت بعظام الحمار من كل سهل وجبل فاجتمعت فركب بعضها على بعض حتى الكسرة من العظم رجعت الى موضعها فصار حمارا من عظام ليس عليه لحم ولا فيه دم ثم كسا الله تلك العظام اللحم والعروق والدم فصار حمارا ذا لحم ودم لا روح فيه ثم بعث الله ملكا فاقبل اليه يمشى حتى أخذ بمنخر الحمار فنفخ فيه الروح فقام الحمار حيا باذن الله تعالى ثم نهق وقيل أراد بالعظام عظام هذا الرجل نفسه وذلك ان الله تعالى اماته ثم بعثه ولم يمت حماره ثم قيل له انظر الى حمارك فنظر فرأى حماره حيا قائما كهيئته يوم ربطه لم يطعم ولم يشرب مائة عام ونظر الى الرمة فى عنقه جديدة لم تتغير ثم قيل له انظر الى العظام كيف ننشزها وذلك ان الله أول ما أحيا منه عينيه فنظر فرأى سائر جسده ميتا وفى الآية تقديم وتأخير تقديره وانظر الى حمارك وانظر الى العظام كيف ننشزها ولنجعلك آية للناس وعن ابن عباس وغيره من المفسرين لما أحيا الله عزيرا بعد ما أماته مائة سنة ركب حماره حتى أتى الى محلته فانكره الناس وأنكر هو الناس وأنكر منازله فانطلق على وهم حتى أتى منزله فاذا بعجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مائة وعشرون سنة وكانت أمة لهم ولما خرج عزير عنهم كانت بنت عشرين سنة وكانت قد عرفته وعقلته فقال لها عزير ياهذه هذا منزل عزير فقالت نعم و بكت وقالت ما رأيت أحدا يذكر عزيرا منذ كذا وكذا فقال أنا عزير فقالت سبحان الله ان عزيرا فقدناه من مائة سنة ولم نسمع له بذكر فقال انى عزير ان الله تعالى أماتنى مائة سنة ثم أحيانى فقالت ان عزيرا كان رجلا مجاب الدعوة وكان يدعو للمريض وصاحب البلايا بالعافية فادع الله أن يرد على بصرى حتى أراك فان كنت عزيرا عرفتك فدعا ربه ومسح بيده على عينيها فصحتا وأخذ بيدها وقال لها قومى باذن الله تعالى فاطلق الله رجليها فقامت صحيحة فنظرت اليه وقالت أشهد أنك عزير وانطلقت الى بنى اسرائيل وهم فى أنديتهم ومجالسهم وابن لعزير شيخ ابن مائة سنة وثمانية عشرة سنة و بنو بنيه شيوخ فنادت هذا عزير قد جاءكم فكذبوها فقالت أنا فلانة مولاتكم دعا لى عزير ربه فرد على بصرى وأطلق رجلى وزعم ان الله تعالى قد أماته مائة سنة ثم بعثه قال فنهض الناس اليه وقال ابنه كان لابى شامة سوداء مثل الهلال بين كتفيه فكشف عن كتفيه فنظر اليها فرآها فعرف انه عزير وقيل لما رجع عزير الى قريته وقد أحرق بختنصر التوراة ولم يكن من الله عهد بين الخلائق بكى عزير على التوراة فاتاه ملك باناء فيه ماء فسقاه من ذلك الماء فثبتت التوراة فى صدره فرجع الى بنى اسرائيل وقد علمه الله التوراة و بعثه نبيا فقال أنا عزير فلم يصدقوه فقال انى عزير وقد بعثنى الله اليكم لاجدد لكم توراتكم قالوا فاملها علينا فاملاها عليهم من ظهر قلبه فقالوا ما جعل الله التوراة فى قلب رجل بعد ما ذهبت الا أنه ابنه فقالوا عزير ابن الله وستأتى القصة فى سورة التوبة ان شاء الله تعالى ۞ وقوله تعالى (فلما تبين له) يعنى فلما اتضح له عيانا ما كان ينكره من احياء القرية ورآه عيانا فى نفسه (قال اعلم) قرئ مجزوما موصولا على الامر يعنى قال الله له اعلم وقرئ أعلم على قطع الالف ورفع الميم على الخبر عن الذى قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها والمعنى فلما تبين له ورأى ذلك عيانا قال أعلم (أن الله على كل شئ قدير) يعنى الاماتة والاحياء ۞ قوله عز وجل (واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى) اختلفوا فى سبب هذا السؤال من ابراهيم عليه السلام فقيل انه مر على دابة ميتة وهى جيفة حمار وقيل بل كانت حوتا ميتا وقيل كان رجلا ميتا بساحل البحر وقيل بحر طبرية فرآها وقد توزعها دواب البحر والبر فاذا مد البحر جاءت الحيتان فاكلت منها واذا جزر البحر جاءت السباع فاكلت منها فاذا ذهبت السباع جاءت الطير فاكلت منها فلما رأى ابراهيم ذلك تعجب منها وقال يارب انى قد علمت انك لتجمعها من بطون السباع

جعل اللحم كاللباس مجازا (فلما تبين له) فاعله مضمر تقديره فلما تبين له ان الله على كل شئ قدير (قال أعلم ان الله على كل شئ قدير) فحذف الاول لدلالة الثانى عليه كقولهم ضربنى وضربت زيدا ويجوز فلما تبين له ما أشكل عليه يعنى أمر احياء الموتى قال اعلم على لفظ الامر حمزة وعلى أى قال الله له اعلم أوهو خاطب نفسه (واذ قال ابراهيم رب أرنى) بصرنى (كيف تحيى الموتى) موضع كيف نصب بتحيى

وحواصل الطير وأجواف الدواب فأرني كيف تحييها لأعاين ذلك فازداد يقينا فعاتبه الله تعالى (قال أولم تؤمن) يعني أولم تصدق (قال بلى) يارب قد علمت وآمنت (ولكن ليطمئن قلبي) أي ليسكن قلبي عند المعاينة أراد ابراهيم عليه السلام أن يصير له علم اليقين عين اليقين لان الخبر ليس كالمعاينة وقيل لما رأى الجيفة على البحر وقد تناولها السباع والطير ودواب البحر تفكر كيف يجتمع ما تفرق من تلك الجيفة وتطلعت نفسه الى مشاهدة ميت يحييه ربه ولم يكن ابراهيم عليه السلام شاكا في احياء الله الموتى ولا دافعا له ولكنه أحب أن يرى ذلك عيانا كما كان المؤمنين يحبون أن يروا نبيهم محمدا صلى الله عليه وسلم ويحبون رؤية الله تعالى في الجنة ويطلبونها ويسألونه في دعائهم مع الايمان بصحة ذلك وزوال الشك عنهم فكذلك أحب ابراهيم أن يصير الخبر له عيانا وقيل كان سبب هذا السؤال من ابراهيم أنه لما احتج على نمرود فقال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت فقال نمرود أنا أحيي وأميت فقتل أحد الرجلين وأطلق الآخر فقال ابراهيم ان الله تعالى يقصد الى جسد ميت فيحييه فقال له نمرود أنت عاينته فلم يقدر ابراهيم أن يقول نعم فانتقل الى حجة أخرى ثم سأل ابراهيم ربه أن يريه كيف يحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي بقوة حجتي فاذا قيل أنت عاينته فأقول نعم وقال سعيد بن جبير لما اتخذ الله ابراهيم خليلا سأل ملك الموت ربه أن يأذن له فيبشر ابراهيم بذلك فاذن له فأتى ابراهيم ولم يكن في الدار فدخل داره وكان ابراهيم من أغير الناس وكان اذا خرج أغلق بابه فلما جاء وجد في الدار رجلا فثار اليه ليأخذه وقال له من أذن لك أن تدخل داري فقال أذن لي رب الدار فقال ابراهيم صدقت وعرف انه ملك فقال له من أنت قال أنا ملك الموت جئت أبشرك ان الله قد اتخذك خليلا فحمد الله عز وجل وقال له ما علامة ذلك قال ان يجيب الله دعاءك ويحيي الموتى بسؤالك فحينئذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي بانك اتخذتني خليلا وتجيبني اذا دعوتك وتعطيني اذا سألتك (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نحن أحق بالشك من ابراهيم اذ قال رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ويرحم الله لوطا لقد كان يأوي الى ركن شديد ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لاجبت الداعي ﴿القول على معنى الحديث وما يتعلق به﴾ اختلف العلماء في قوله صلى الله عليه وسلم نحن أحق بالشك من ابراهيم على أقوال كثيرة فاحسنها وأصحها ما نقل المزني وغيره من العلماء ان الشك مستحيل في حق ابراهيم فان الشك في احياء الموتى لو كان متطرقا الى الانبياء لكنت أنا أحق به من ابراهيم ولقد علمتم أني لم أشك فاعلموا أن ابراهيم لم يشك وانما خص ابراهيم بالذكر لكون الآية قد يسبق الى بعض الاذهان الفاسدة منها احتمال الشك فنفى ذلك عنه وقال الخطابي ليس في قوله نحن أحق بالشك من ابراهيم اعتراف بالشك على نفسه ولا على ابراهيم لكن فيه نفي الشك عنهما يقول اذا لم أشك أنا في قدرة الله تعالى على احياء الموتى فابراهيم أولى بان لا يشك وقال ذلك على سبيل التواضع والهضم من النفس وكذلك قوله لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لاجبت الداعي وفيه الاعلام بان المسئلة من ابراهيم لم تعرض من جهة الشك لكن من قبل زيادة العلم بالعيان والعيان يفيد من المعرفة والطمانينة ما لا يفيده الاستدلال وقيل لما نزلت هذه الآية قال قوم شك ابراهيم ولم يشك نبينا صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن أحق بالشك من ابراهيم ومعناه ان هذا الذي تظنونه شكا أنا أولى به فانه ليس بشك وانما هو طلب لمزيد اليقين وانما رجح ابراهيم صلى الله عليه وسلم على نفسه صلى الله عليه وسلم تواضعا منه وأدبا أو قبل ان يعلم أنه صلى الله عليه وسلم خير ولد آدم وأما تفسير الآية فقوله تعالى واذ قال ابراهيم أي واذكر يا محمد اذ قال ابراهيم وقيل انه معطوف على قوله ألم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه والتقدير ألم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه ألم تر اذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال يعني قال الله لابراهيم أولم تؤمن الالف في أولم تؤمن ألف اثبات وايجاب كقول جرير * ألستم خير من ركب المطايا * أي ألستم كذلك

(قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي) وانما قال له أولم تؤمن وقد علم انه أثبت الناس ايمانا ليجيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجليلة للسامعين وبلى ايجاب لما بعد النفي معناه بلى آمنت ولكن لازيد سكونا وطمأنينة بمضامة علم الضرورة علم الاستدلال وتظاهر الادلة أسكن للقلوب وأزيد للبصيرة فعلم الاستدلال يجوز معه التشكيك بخلاف الضروري واللام تتعلق بمحذوف تقديره ولكن سألت ذلك ارادة طمأنينة القلب

(قال فخذ أربعة من الطير) طاوساوديكاوغراباوحمامة (فصرهن اليك) وبكسر الصاد حمزة أى أملهن واضممهن اليك (ثم اجعل على كل جبل منهن جزأ) ثم جزئهن وفرق أجزاءهن على الجبال التى بحضرتك وفى أرضك وكانت أربعة أجبل أوسبعة جزأ بضمتين وهمزأبو بكر (ثم ادعهن) قل لهن تعالين باذن الله (يأتينك سعيا) مصدر فى موضع الحال أى ساعيات مسرعات فى طيرانهن أوفى مشيهن على أرجلهن وانما أمره بضمها الى نفسه بعد أخذها ليتأملها ويعرف أشكالها وهيآتها وحلاها لئلا تلتبس عليه بعد الاحياء ولا يتوهم أنها غير تلك وروى أنه أمر بأن يذبحها وينتف ريشها ويقطعها ويفرق أجزاءها ويخلط ريشها ودماءها ولحومها وأن يمسك رؤسها ثم أمر أن يجعل أجزاءها على الجبال على كل جبل ربعا من كل طائر ثم يصيح بها تعالين باذن الله تعالى فجعل كل جزء يطير الى الآخر حتى صارت جثثا ثم أقبلن فانضممن الى رؤسهن كل جثة الى رأسها (واعلم أن الله عزيز) لا يمتنع عليه مايريده (حكيم) فيما يدبر لا يفعل الا مافيه الحكمة ولما برهن على قدرته على الاحياء حث على الانفاق فى سبيل الله واعلم أن من أنفق فى سبيله فله فى نفقته أجر عظيم وهو قادر عليه فقال (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله) لابد من حذف مضاف أى مثل نفقتهم (كمثل حبة) أومثلهم كمثل باذر حبة (أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة) المنبت هو الله ولكن الحبة لما كانت سببا أسند اليها الانبات كما يسند الى الارض والى الماء ومعنى انباتها سبع سنابل أن تخرج ساقا يتشعب منه سبع شعب لكل واحد سنبلة وهذا التمثيل تصوير للاضعاف كأنها ماثلة بين عينى الناظر والممثل به موجود فى الدخن والذرة وربما فرخت ساق البرة فى الارض القوية المغلة فيبلغ حبها هذا المبلغ على أن التمثيل يصح وان لم يوجد على سبيل الفرض والتقدير ووضع سنابل موضع سنبلات كوضع قروء موضع اقراء

والمعنى أولست قد آمنت وصدقت أنى أحيي الموتى قال بلى قد آمنت وصدقت ولكن ليطمئن قلبى يعنى سألتك ذلك ارادة طمأنينة القلب وزيادة اليقين وقوة الحجة وقال ابن عباس معناه ولكن لارى من آياتك واعلم انك قد أجبتنى (قال فخذ أربعة من الطير) قيل أخذ طاوساوديكا وحمامة وغرابا وقيل نسرا بدل الحمامة فان قلت لم خص الطير من جملة الحيوانات بهذه الحالة قلت لان الطير صفته الطيران فى السماء والارتفاع فى الهواء وكانت همة ابراهيم عليه السلام كذلك وهو العلو فى الوصول الى الملكوت فكانت معجزته مشاكلة لهمته فان قلت لم خص هذه الاربعة الاجناس من الطير بالاخذ قلت فيه اشارة ففى الطاوس اشارة الى مافى الانسان من حب الزينة والجاه وفى النسر اشارة الى شدة الشغف بالاكل وفى الديك اشارة الى شدة الشغف بحب النكاح وفى الغراب اشارة الى شدة الحرص ففى هذه الطيور مشابهة لما فى الانسان من حب هذه الاوصاف وفيه اشارة الى أن الانسان اذا ترك هذه الشهوات الذميمة لحق أعلى الدرجات فى الجنة وفاز بنيل السعادات (فصرهن) قرئ بكسر الصاد ومعناه قطعهن ومزقهن وقرئ بضم الصاد ومعناه أملهن (اليك) ووجههن وقيل معناه اجمعهن واضممهن اليك فمن فسره بالامالة والضم قال فيه اضمار ومعناه فصرهن اليك ثم قطعهن فحذف اكتفاء بقوله (ثم اجعل على كل جبل منهن جزأ) لانه يدل عليه قال المفسرون أمر الله تعالى ابراهيم صلى الله عليه وسلم أن يذبح تلك الطيور وينتف ريشها وان يخلط ريشها ولحمها ودمها بعضه ببعض ففعل ثم أمره أن يجعل على كل جبل منهن جزأ واختلفوا فى عدد الاجزاء والجبال فقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أمر أن يجعل كل طائر أربعة أجزاء وان يجعلها على أربعة أجبل على كل جبل ربعا من كل طائر قيل جبل على جهة الشرق وجبل على جهة الغرب وجبل على جهة الشمال وجبل على جهة الجنوب وقيل جزأه سبعة أجزاء ووضعها على سبعة أجبل وامسك رؤسهن بيده ثم دعاهن فقال تعالين باذن الله تعالى فجعلت كل قطرة من دم طائر تطير الى القطرة الاخرى وكل ريشة تطير الى الريشة الأخرى وكل عظم يطير الى العظم الآخر وكل بضعة تطير الى البضعة الأخرى وابراهيم ينظر حتى لقيت كل جثة بعضها ببعض فى السماء بغير رؤس ثم أقبلن سعيا الى رؤسهن كلما جاء طائر قال برأسه فان كان رأسه دنا منه وان لم يكن تأخر عنه حتى التقى كل طائر برأسه فذلك قوله تعالى (ثم ادعهن يأتينك سعيا) وقيل المراد بالسعى الاسراع والعدو وقيل المشى والحكمة فى سعى الطيور اليه دون الطيران لان ذلك أبعد من الشبهة لانها لو طارت لتوهم متوهم أنها غير تلك الطيور أو ان أرجلها غير سليمة فنفى الله تعالى هذه الشبهة بقوله يأتينك سعيا وقيل المراد بالسعى المشى والمراد بالمشى الطيران وفيه ضعف لانه لا يقال للطائر اذا طار سعى وقيل السعى هو الحركة الشديدة (واعلم أن الله عزيز) يعنى أنه تعالى غالب على جميع الاشياء لا يعجزه شئ (حكيم) يعنى فى جميع أموره ۞ قوله عز وجل (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله) قيل أراد به الانفاق فى الجهاد وقيل هو الانفاق فى جميع أبواب الخير ووجوه البر فيدخل فيه الواجب والتطوع وفيه اضمار تقديره مثل صدقات الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله (كمثل حبة) أى كمثل زارع حبة (أنبتت) يعنى أخرجت تلك الحبة (سبع سنابل) جمع سنبلة (فى كل سنبلة مائة حبة) فان قلت فهل رأيت سنبلة فيها مائة حبة حتى يضرب المثل بها قلت ذلك غير مستحيل ومالا يكون مستحيلا فضرب المثل به جائز وان لم يوجد والمعنى فى كل سنبلة مائة حبة

ان جعل الله ذلك فيها وقيل هو موجود في الدخن وقيل ان المقصود من الآية أنه اذا علم الانسان الطالب للزيادة والربح أنه اذا بذر حبة واحدة أخرجت له سبعمائة حبة ما كان ينبغي له ترك ذلك ولا التقصير فيه فكذلك ينبغي لمن طلب الاجر عند الله في الآخرة أن لا يترك الانفاق في سبيل الله اذا علم أنه يحصل له بالواحد عشرة ومائة وسبعمائة (والله يضاعف لمن يشاء) يعني أنه تعالى يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء وقيل معناه يضاعف على هذا ويزيد لمن يشاء من سبع الى سبعين الى سبعمائة الى ما يشاء من الاضعاف مما لا يعلمه الا الله (والله واسع) أي غني يعطي الغني عن سعة وقيل واسع القدرة على المجازاة وعلى الجود والافضال (عليم) يعني بنية من ينفق في سبيله وقيل عليم بمقادير الانفاق وبما يستحق المنفق من الجزاء والثواب عليه ۞ قوله عز وجل (الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله) قيل نزلت في عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف أما عثمان فجهز المسلمين في غزوة تبوك بألف بعير بأقتابها وأحلاسها فنزلت هذه الآية وقال عبد الرحمن بن سمرة جاء عثمان بألف دينار في جيش العسرة فصبها في حجر النبي صلى الله عليه وسلم فرأيته يدخل يده فيها ويقلبها ويقول ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم فأنزل الله الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله وأما عبد الرحمن فجاء بأربعة آلاف درهم صدقة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال كان عندي ثمانية آلاف فأمسكت لنفسي ولعيالي أربعة آلاف وأربعة آلاف أخرجتها لربي عز وجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت والمعنى الذين يعينون المجاهدين في سبيل الله بالانفاق عليهم في حوائجهم ومؤنتهم (ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى) أي لا يتبع نفقته التي أنفقها عليهم بالمن والاذى وهو أن يمن عليه بعطائه فيقول قد أعطيتك كذا وكذا فيعدد نعمه عليه فيكدرها عليه والاذى هو أن يعيره فيقول كم تسأل وأنت فقير أبدا وقد بليت بك وأراحني الله منك وأمثال ذلك والمن في اللغة الانعام والمنة النعمة الثقيلة يقال من فلان على فلان اذا أثقله بالنعمة ويكون ذلك بالقول أيضا ومنه قول الشاعر

فمني علينا بالسلام فانما * كلامك ياقوت ودر منظم

ومن المن بالقول ما هو مستقبح بين الناس مثل أن يمن على الانسان بما أعطاه قال عبد الرحمن بن زيد كان أبي يقول اذا أعطيت رجلا شيأ ورأيت أن سلامك يثقل عليه فلا تسلم عليه والعرب تمدح بترك المن وكتم النعمة وتذم على اظهارها والمن بها قال قائلهم في المدح بترك المن

زاد معروفك عندي عظما * انه عندك مستور حقير
تتناساه كأن لم تأته * وهو في العالم مشهور كبير

وقال قائلهم يذم المنان بالعطاء

أتيت قليلا ثم أسرعت منة * فنيلك ممنون لذاك قليل

وأما الأذى فهو ما يصل الى الانسان من ضرر بقول أو فعل اذا عرفت هذا فنقول المن هو اظهار المعروف الى الناس والمن عليهم به والاذى هو أن يشكو منهم بسبب ما أعطاهم فحرم الله تعالى على عباده المن بالمعروف والاذى فيه وذم فاعله فان قلت قد وصف الله تعالى نفسه بالمنان فما الفرق قلت المنان في صفة الله تعالى معناه المتفضل فمن الله افضال على عباده واحسان اليهم فجميع ما هم فيه منة منه سبحانه وتعالى ومن العباد تعيير وتكدير فظهر الفرق بينهما ۞ وقوله تعالى (لهم أجرهم) يعني ثوابهم (عند ربهم) يعني في الآخرة (ولا خوف عليهم) يعني يوم القيامة (ولا هم يحزنون) يعني على ما خلفوا من الدنيا (قول معروف) أي كلام حسن ورد جميل على الفقير السائل وقيل عدة حسنة تعده بها وقيل دعاء صالح تدعو له بظهر الغيب (ومغفرة) أي تستر عليه خلته وفقره ولا تهتك ستره وقيل هو أن يتجاوز عن الفقير اذا استطال عليه حالة رده (خير من صدقة) يعني هذا القول المعروف والمغفرة خير من الصدقة التي تدفعها الى الفقير (يتبعها أذى) وهو أن يعطي الفقير الصدقة ويمن عليه بها ويعيره بقول أو يؤذيه بفعل (والله غني) أي

(والله يضاعف لمن يشاء) أي يضاعف تلك المضاعفة لمن يشاء لا لكل منفق لتفاوت أحوال المنفقين أو يزيد على سبعمائة لمن يشاء يضعف شامي ومكي (والله واسع) واسع الفضل والجود (عليم) بنيات المنفقين (الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا) هو أن يعتدي على من أحسن اليه باحسانه ويريه أنه اصطنعه وأوجب عليه حقا وكانوا يقولون اذا صنعتم صنيعة فانسوها (ولا أذى) هو أن يتطاول عليه بسبب ما أعطاه ومعنى ثم اظهار التفاوت بين الانفاق وترك المن والاذى وان تركهما خير من نفس الانفاق كما جعل الاستقامة على الايمان خيرا من الدخول فيه بقوله ثم استقاموا (لهم أجرهم عند ربهم) أي ثواب انفاقهم (ولا خوف عليهم) من بخس الاجر (ولا هم يحزنون) من فوته أو لا خوف من العذاب ولا حزن بفوت الثواب وانما قال هنا لهم أجرهم وفيما بعد فلهم أجرهم لان الموصول هنا لم يضمن معنى الشرط وضمنه ثمة (قول معروف) رد جميل (ومغفرة) وعفو عن السائل اذا وجد منه ما يثقل على المسؤل أو ونيل مغفرة من الله بسبب الرد الجميل (خير من صدقة يتبعها أذى) وصح الاخبار عن المبتدا النكرة لاختصاصه بالصفة (والله غني) لا حاجة له الى منفق يمن ويؤذي

مستغن

(حليم) عن معاجلته بالعقوبة وهذا وعيد له ثم أكد ذلك بقوله (ياأيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى كالذى) الكاف نصب صفة مصدر محذوف والتقدير ابطالا مثل ابطال الذى (ينفق ماله رئاء الناس ولايؤمن بالله واليوم الآخر) أى لاتبطلوا ثواب صدقاتكم بالمن والاذى كابطال المنافق الذى ينفق ماله رئاء الناس ولايريد بانفاقه رضا الله ولاثواب الآخرة ورئاء مفعول له (فمثله كمثل صفوان عليه تراب) مثله ونفقته التى لاينتفع بها البتة بحجر أملس كان عليه تراب (فأصابه وابل) مطر عظيم القطر (فتركه صلدا) أجرد نقيا من التراب الذى كان عليه (لايقدرون على شئ مما كسبوا) لايجدون ثواب شئ مما أنفقوا أو الكاف فى محل النصب على الحال أى لاتبطلوا صدقاتكم مماثلين الذى ينفق وانما قال لايقدرون بعد قوله كالذى ينفق لانه أراد بالذى ينفق الجنس أو الفريق الذى ينفق (والله لايهدى القوم الكافرين) ماداموا مختارين الكفر (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم) أى وتصديقا للاسلام وتحقيقا للجزاء من أصل أنفسهم لانه اذا أنفق المسلم ماله فى سبيل الله علم ان تصديقه وايمانه بالثواب من أصل نفسه ومن اخلاص قلبه ومن لابتداء الغاية وهو معطوف على المفعول له أى للابتغاء والتثبيت والمعنى ومثل نفقة هؤلاء فى زكائها عند الله (كمثل جنة) بستان (بربوة) مكان مرتفع وخصها لان الشجر فيها أزكى وأحسن ثمرا بربوة عاصم وشامى (أصابها وابل فآتت أكلها) ثمرتها أكلها نافع ومكى وأبو عمرو (ضعفين) مثلى ما كانت تثمر قبل بسبب الوابل

مستغن عن صدقة العباد والغنى الكامل الغنى الذى لايحتاج الى أحد وليس كذلك الا الله تعالى (حليم) يعنى أنه تعالى حليم لايعجل بالعقوبة على من يمن على عباده و يؤذى بصدقته ﴿قوله عزوجل (ياأيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم) يعنى أجور صدقاتكم (بالمن والاذى) يعنى على السائل الفقير وقال ابن عباس بالمن على الله تعالى والاذى لصاحبها ثم ضرب الله تعالى لذلك مثلا فقال تعالى (كالذى) أى كابطال الذى (ينفق ماله رئاء الناس) أى مراآة لهم وسمعة ليروا نفقته و يقولوا انه سخى كريم (ولايؤمن بالله واليوم الآخر) يعنى أن الرياء يبطل الصدقة ولاتكون النفقة مع الرياء من فعل المؤمنين لكن من فعل المنافقين لان الكافر معلن بكفره غير مراء به (فمثله) أى مثل هذا المرائى بصدقته وسائر أعماله (كمثل صفوان) هو الحجر الاملس الصلب وهو واحد وجمع فمن جعله جمعا قال واحده صفوانة ومن جعله واحدا قال جمعه صفى (عليه تراب) أى على ذلك الصفوان تراب (فاصابه وابل) يعنى المطر الشديد العظيم القطر (فتركه صلدا) يعنى ترك المطر ذلك الصفوان صلدا أملس لاشئ عليه من ذلك التراب فهذا مثل ضربه الله تعالى لنفقة المنافق والمرائى والمؤمن المنان بصدقته يؤذى الناس يرى الناس أن لهؤلاء أعمالا فى الظاهر كما يرى التراب على الصفوان فاذا جاء المطر أذهبه وأزاله وكذلك حال هؤلاء يوم القيامة تبطل أعمالهم وتضمحل لانها لم تكن لله تعالى كما أذهب الوابل ما على الصفوان من التراب (لايقدرون على شئ مما كسبوا) أى لايقدرون على ثواب شئ مما عملوا فى الدنيا (والله لايهدى القوم الكافرين) يعنى الذين سبق فى علمه انهم يموتون على الكفر روى البغوى بسنده عن محمود بن لبيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال انما أخوف ماأخاف عليكم الشرك الاصغر قالوا يارسول الله وما الشرك الاصغر قال الرياء يقال لهم يوم تجازى العباد باعمالهم اذهبوا الى الذين كنتم تراؤن فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء (م) عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تبارك وتعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه ﴿قوله عزوجل (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله) أى طلب رضا الله (وتثبيتا من أنفسهم) يعنى على الانفاق فى طاعة الله تعالى وتصديقا بثوابه وقيل معناه أن أنفسهم موقنة مصدقة بوعد الله اياها فيما أنفقت وقيل احسانا وقيل تصديقا والمعنى انهم يخرجون زكاة أموالهم و ينفقون أموالهم فى سائر وجوه البر والطاعات طيبة أنفسهم بما أنفقوا على يقين بثواب الله وتصديق بوعده يعلمون ان ما أنفقوا خير لهم مما تركوا وقيل معناه على يقين باخلاف الله عليهم وقيل معناه انهم يتثبتون فى الموضع الذى يضعون فيه صدقاتهم قيل كان الرجل اذا هم بصدقة تثبت فان كانت لله خالصة أمضاها وان خالطه شك أو رياء أمسك (كمثل جنة) أى بستان قال الفراء اذا كان فى البستان نخل فهو جنة وان كان فيه كرم فهو فردوس (بربوة) هى المكان المرتفع عن الارض المستوى لان ما ارتفع من الارض عن مسيل الماء والاودية كان ثمرها أحسن وأزكى اذا كان لها من الماء مايرويها وقيل هى الارض المستوية الجيدة الطيبة اذا أصابها المطر انتفخت وربت فاذا كانت الارض بهذه الصفة كثر ريعها وحلت أشجارها (أصابها وابل) وهو المطر الكثير الشديد قال بعضهم

ماروضة من رياض الحزن معشبة * خضراء جاد عليها وابل هطل

أراد بالحزن ماغلظ وارتفع من الارض (فآتت أكلها ضعفين) أى فأعطت ثمرتها مثلين قيل انها حملت فى

سنة من الريع ما يحمله غيرها في سنتين وقيل أضعفت فحملت في السنة مرتين (فان لم يصبها وابل فطل) أي طش وهو المطر الخفيف الضعيف والمعنى ان لم يكن أصابها وابل وأصابها طل فتلك حال هذه الجنة في تضاعف ثمرها فانها لا تنقص بالطل عن مقدار ثمرها بالوابل وهذا مثل ضربه الله تعالى لعمل المؤمن المخلص في انفاقه وسائر أعماله يقول الله تعالى كما ان هذه الجنة تربع وتزكو في كل حال ولا تخلف سواء كان المطر قليلا أو كثيرا فكذلك يضعف الله صدقة المؤمن المخلص في صدقته وانفاقه الذي لا يمن ولا يؤذي سواء قلت نفقته أو كثرت (والله بما تعملون بصير) يعني انه تعالى لا تخفى عليه نفقة المخلص في صدقته الذي لا يمن بها ولا يؤذي والذي يمن بصدقته ويؤذي ﴿ قوله عز وجل (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب) هذه متصلة بما قبلها وهو قوله تعالى لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى أيود يعني أيحب أحدكم أن تكون له جنة أي بستان من نخيل وأعناب انما خصهما بالذكر لانهما أشرف الفواكه وأحسنها ولما فيهما من الغذاء والتفكه (تجري من تحتها الانهار) يعني أن جري الانهار فيهما من تمام حسنها وسبب لزيادة ثمرها (له فيها من كل الثمرات) لان ذلك من تمام كمال البستان وحسنه (وأصابه الكبر) يعني صاحب هذه الجنة كثرت جهات حاجاته ولم يكن له كسب غيرها فحينئذ يكون في غاية الاحتياج الى تلك الجنة فان قلت كيف عطف وأصابه الكبر على أيود وكيف يجوز عطف الماضي على المستقبل قلت فيه وجهان أحدهما أن يكون له جنة حال ما أصابه الكبر والوجه الثاني انه عطف على المعنى فكأنه قيل أيود أحدكم لو كانت له جنة وأصابه الكبر (وله ذرية ضعفاء) يعني له أولاد صغار عجزت عن الحركة بسبب الضعف والصغر (فاصابها) يعني أصاب تلك الجنة (اعصار فيه نار فاحترقت) الاعصار ريح ترتفع الى السماء وتستدير كأنها عمود وهذا مثل ضربه الله تعالى لعمل المنافق والمرائي يقول مثل عمل المنافق والمرائي بعمله في حسنه كحسن جنة ينتفع بها صاحبها فلما كبر وضعف وصار له أولاد ضعاف أصاب جنته اعصار فيه نار فاحرقها وهو أحوج ما يكون اليها فحصل في قلبه من الغم والحسرة ما لا يعلمه الا الله تعالى لكبره وضعفه وضعف أولاده فهو لا يجد ما يعود به على أولاده وهم لا يجدون ما يعودون به عليه فبقوا جميعا متحيرين عجزة لا حيلة بايديهم فكذلك حال من أتى يوم القيامة باعمال حسنة ولم يقصد بها وجه الله تعالى فيبطلها الله تعالى وهو في غاية الحاجة اليها حين لا مستعتب له ولا توبة وقال عبيد بن عمير قال عمر يوما لاصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن ترون نزلت هذه الآية أيود أحدكم قالوا الله أعلم فغضب عمر وقال قولوا نعلم أو لا نعلم فقال ابن عباس في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين فقال عمر قل يا ابن أخي ولا تحقر نفسك فقال ضرب الله مثلا لعمل قال لاي عمل قال لرجل غني يعمل بطاعة الله ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أحرق أعماله كلها (كذلك يبين الله لكم الآيات) يعني كما بين الله تعالى لكم أمر النفقة المقبولة وغير المقبولة كذلك يبين الله لكم من الآيات سوى ذلك (لعلكم تتفكرون) أي فتتعظوا وقال ابن عباس لعلكم تتفكرون يعني في زوال الدنيا واقبال الآخرة ﴿ قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم) أي من خيار ما كسبتم وجيده وقيل من حلالات ما كسبتم بالتجارة والصناعة وفيه دليل على اباحة الكسب وانه ينقسم الى طيب وخبيث عن خولة الانصارية قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان هذا المال خضر حلو من أصابه بحق بورك له فيه ورب متخوض فيما شاءت نفسه من مال الله ورسوله ليس له يوم القيامة الا النار أخرجه الترمذي

(فان لم يصبها وابل فطل) فطل صغير القطر يكفيها لكرم منبتها أو مثل حالهم عند الله بالجنة على الربوة ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطل وكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكل الجنة فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة بعد أن يطلب بها رضا الله تعالى زاكية عند الله زائدة في زلفاهم وحسن حالهم عنده (والله بما تعملون بصير) يرى أعمالكم على اكثارها واقلالها ويعلم نياتكم فيهما من رياء واخلاص الهمزة في (أيود أحدكم) للانكار (أن تكون له جنة) بستان (من نخيل وأعناب تجري من تحتها الانهار له) لصاحب البستان (فيها) في الجنة (من كل الثمرات) يريد بالثمرات المنافع التي كانت تحصل له فيها ولان النخيل والاعناب لما كانا أكرم الشجر وأكثرها منافع خصهما بالذكر وجعل الجنة منهما وان كانت محتوية على سائر الاشجار تغليبا لهما على غيرهما ثم أردفهما ذكر كل الثمرات (وأصابه الكبر) الواو للحال ومعناه أن تكون له جنة وقد أصابه الكبر والواو في (وله ذرية ضعفاء) أولاد صغار للحال أيضا والجملة في موضع الحال من الهاء في أصابه (فأصابها اعصار) ريح تستدير في الارض ثم تسطع نحو السماء كالعمود (فيه) في الاعصار وارتفع (نار) بالظرف اذ جرى الظرف وصفا لاعصار (فاحترقت) الجنة وهذا مثل لمن يعمل الاعمال الحسنة رياء فاذا كان يوم القيامة وجدها محبطة فيتحسر عند ذلك حسرة من كانت له جنة جامعة للثمار فبلغ الكبر وله أولاد ضعاف والجنة معاشهم فهلكت بالصاعقة (كذلك) كهذا البيان الذي بين فيما تقدم (يبين الله لكم الآيات) في التوحيد والدين (لعلكم تتفكرون) فتنتبهوا (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم) من جياد مكسوباتكم وفيه دليل وجوب الزكاة في أموال التجارة

المتخوض الذي يأخذ المال من غير وجهه كما يخوض الانسان في الماء يمينا وشمالا (خ) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ منه أمن حلال أم من حرام (خ) عن المقداد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده وان نبي الله داود كان يأكل من عمل يده عن عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان أطيب ما أكلتم من كسبكم وان أولادكم من كسبكم أخرجه الترمذي والنسائي واختلفوا في المراد بقوله تعالى أنفقوا فقيل المراد به الزكاة المفروضة لان الامر للوجوب والزكاة واجبة فوجب صرف الآية اليها وقيل المراد به صدقة التطوع وقيل انه يتناول الفرض والنفل جميعا لان المفهوم من هذا الامر ترجيح جانب الفعل على الترك وهذا المفهوم قدر مشترك بين الفرض والنفل فوجب أن يدخل تحت هذا الامر فعلى القول الاول ان المراد من هذا الانفاق هو الزكاة يتفرع عليه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ ظاهر الآية يدل على وجوب الزكاة في كل مال يكتسبه الانسان فيدخل فيه زكاة الذهب والفضة والنعم وعروض التجارة لان ذلك يوصف بانه مكتسب وذهب جمهور العلماء الى وجوب الزكاة في مال التجارة وقال داود الظاهري لا تجب الزكاة بحكم التجارة في العروض الا أن ينوي به التجارة في حال تملكه ودليل الجمهور ما روى عن سمرة ابن جندب قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا باخراج الصدقة من الذي يعد للبيع أخرجه أبو داود وعن أبي عمرو بن حماس ان أباه قال مررت بعمر بن الخطاب وعلى عنقي ادمة أحملها فقال عمر ألا تؤدي زكاتك يا حماس فقلت مالي غير هذا واهب في القرظ قال ذاك مال فضع فوضعتها فحسبها فاخذ منها الزكاة فاذا حال الحول على عروض التجارة قوم فان بلغ قيمته عشرين دينارا أو مائتي درهم أخرج منه ربع العشر ﴿المسئلة الثانية﴾ في قوله تعالى (ومما أخرجنا لكم من الارض) ظاهر الآية يدل على وجوب الزكاة في كل ما خرج من الارض من النبات مما يزرع الآدميون لكن جمهور العلماء خصصوا هذا العموم فاوجبوا الزكاة في النخيل والكروم وفيما يقتات ويدخر من الحبوب وأوجب أبو حنيفة الزكاة في كل ما يقصد من نبات الارض كالفواكه والبقول والخضراوات كالبطيخ والقثاء والخيار ونحو ذلك دليل الجمهور ما روى عن معاذ انه كتب الى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله عن الخضراوات وهي البقول فقال ليس فيها شئ أخرجه الترمذي وقال هذا الحديث ليس بصحيح وليس يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب شئ وانما يروى هذا عن موسى بن طلحة عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا والعمل على هذا عند أهل العلم انه ليس في الخضراوات صدقة قلت وحديث موسى بن طلحة أخرجه الشيخ مجد الدين أبو البركات عبد السلام بن عبد الله بن تيمية الحراني في احكامه عن عطاء بن السائب قال أراد عبد الله بن المغيرة أن يأخذ من أرض موسى بن طلحة من الخضراوات صدقة فقال له موسى بن طلحة ليس ذلك لك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول ليس في ذلك صدقة رواه الاثرم في سننه وهو أقوى المراسيل لاحتجاج من أرسله به وقال الزهري والاوزاعي ومالك تجب الزكاة في الزيتون وتجب في الثمار عند بدو الصلاح وهو ان يحمر البسر ويصفر ووقت الاخراج بعد الاجتناء والجفاف وفي الحبوب عند الاشتداد ووقت الاخراج بعد الدراس والتصفية ﴿المسئلة الثالثة﴾ يجب اخراج العشر فيما سقي بالمطر والانهار والعيون ونصف العشر فيما سقي بنضح أو سانية ويدل على ذلك ما روى عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيما سقت السماء والعيون أو كان عثريا العشر وما سقي بالنضح نصف العشر أخرجه البخاري ولابي داود والنسائي قال فيما سقت السماء والانهار والعيون أو كان بعلا العشر وما سقي بالسواني والنضح نصف العشر قال أبو داود البعل ما شرب بعروقه ولم يتعن في سقيه وقال وكيع هو الذي ينبت من ماء السماء قوله أو كان عثريا أراد به القوي من الزرع وهو البعل وقد فسر في لفظ الحديث والنضح هو الاستقاء وكذلك السانية وهي

(ومما أخرجنا لكم من الارض) من الحب والثمر والمعادن وغيرها والتقدير ومن طيبات ما أخرجنا لكم الا انه حذف لذكر الطيبات

[illegible]

الخير فإيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله تعالى فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء أخرجه الترمذي وقال هذا حديث حسن غريب قوله إن للشيطان لمة بابن آدم اللمة الخطرة الواحدة من الإلمام وهو القرب من الشيء والمراد بهذه اللمة اللمة التي تقع في القلب من فعل خير أو شر والعزم فأما لمة الشيطان فوسوسة وأما لمة الملك فإلهام من الله تعالى (والله واسع) أي غني قادر على إغنائكم وإخلاف ما تنفقون (عليم) يعني بما تنفقونه لا يخفى عليه خافية (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من يوم يصبح فيه العباد إلا وملكان ينزلان يقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال الله تعالى أنفق ينفق عليك وفي رواية يد الله ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار وقال أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه وفي رواية فإنه لم يغض ما في يمينه وكان عرشه على الماء وبيده الميزان يخفض ويرفع وفي رواية وبيده الأخرى الفيض والقبض يرفع ويخفض (ق) عن أسماء بنت أبي بكر الصديق قالت قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أنفقي ولا تحصي فيحصي الله عليك ولا توعي فيوعى عليك قوله ولا توعي أي لا تشحي فيشح الله عليك أي فيجازيك بالتقتير في رزقك ولا يخلف عليك ولا يبارك لك والمعنى لا تحصي وتمنعي بل أنفقي ولا تعادي ولا تشحي ۞ قوله عز وجل (يؤتي الحكمة من يشاء) قال ابن عباس هي علم القرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وقال الضحاك القرآن والفهم فيه وإنما قال ذلك لتضمن القرآن الحكمة وقال في القرآن مائة وتسع آيات ناسخة ومنسوخة وألف آية حلال وحرام لا يسع المؤمنين تركهن حتى يتعلموهن ولا يكونوا كأهل النهروان يعني الخوارج تأولوا آيات من القرآن في أهل القبلة وإنما نزلت في أهل الكتاب جهلوا علمها فسفكوا بها الدماء وانتهبوا الأموال وشهدوا على أهل السنة بالضلالة فعليكم بعلم القرآن فإنه من علم فيم نزل لم يختلف في شيء منه وقيل هي القرآن والعلم والفقه وقيل هي الإصابة في القول والفعل وحاصل هذه الأقوال إلى شيئين العلم والإصابة فيه ومعرفة الأشياء بذواتها وأصل الحكمة المنع ومنه حكمة الدابة لأنها تمنعها قال الشاعر ۞ أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم ۞ أي امنعوا سفهاءكم وقال السدي الحكمة النبوة لأن النبي يحكم بين الناس فهو حاكم وقيل الحكمة الورع في دين الله لأن الورع يمنع صاحبه من أن يقع في الحرام أو ما لا يجوز له فعله (ومن يؤت الحكمة) يعني ومن يؤته الله الحكمة (فقد أوتي خيرا كثيرا) تنكير تعظيم معناه فقد أوتي أي خير كثير (وما يذكر إلا أولو الألباب) أي وما يتعظ بمواعظ الله إلا ذوو العقول الذين عقلوا عن الله أمره ونهيه ۞ قوله عز وجل (وما أنفقتم من نفقة) يعني فيما فرض الله عليكم من الزكاة وغيرها (أو نذرتم من نذر) يعني ما أوجبتموه على أنفسكم في طاعة الله فوفيتم به والنذر أن يوجب الإنسان على نفسه شيئا ليس بواجب يقال نذرت لله نذرا وأصله من الخوف لأن الإنسان إنما يعقد على نفسه النذر من خوف التقصير في الأمر المهم والنذر في الشرع على ضربين مفسر وغير مفسر فالمفسر أن يقول لله علي صوم أو حج أو عتق أو صدقة فيلزمه الوفاء به ولا يجزيه غيره وغير المفسر هو أن يقول نذرت لله لا أفعل كذا ثم يفعله أو يقول لله علي نذر من غير تسمية شيء فيلزمه فيه كفارة يمين (خ) عن عائشة رضي الله عنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من نذر نذرا لم يسمه فكفارته كفارة يمين ومن نذر نذرا في معصية فكفارته كفارة يمين ومن نذر نذرا لا يطيقه فكفارته كفارة يمين ومن نذر نذرا أطاقه فليف به أخرجه أبو داود عن عمران بن حصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نذر في معصية ولا فيما لا يملك ابن آدم أخرجه النسائي (ق) عن ابن عمر أن رسول الله

(والله واسع) يوسع على من يشاء (عليم) بأفعالكم ونياتكم (يؤتي الحكمة من يشاء) علم القرآن والسنة أو العلم النافع الموصل إلى رضا الله والعمل به والحكيم عند الله هو العالم العامل (ومن يؤت الحكمة) ومن يؤت يعقوب أي ومن يؤته الله الحكمة (فقد أوتي خيرا كثيرا) تنكير تعظيم أي أوتي أي خير كثير (وما يذكر إلا أولو الألباب) وما يتعظ بمواعظ الله إلا ذوو العقول السليمة أو العلماء العمال والمراد به الحث على العمل بما تضمنت الآي في معنى الإنفاق (وما أنفقتم من نفقة) في سبيل الله أو في سبيل الشيطان (أو نذرتم من نذر) في طاعة الله أو في معصيته

صلى الله عليه وسلم نهى عن النذر وقال انه لايأتي بخير وانما يستخرج به من البخيل (م) عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان النذر لايقرب من ابن آدم شيأ لم يكن الله قدره له ولكن النذر يوافق القدر فيخرج بذلك من البخيل مالم يكن البخيل يريد أن يخرج قال بعض العلماء يحتمل أن يكون سبب النهي عن النذر كون الناذر يصير ملتزما له فيأتي به تكلفا من غير نشاط أو يكون سببه كونه يأتي به على سبيل المعاوضة عن الامر الذي طلبه فينقص أجره وشأن العبادة أن تكون متمحضة لله تعالى وقال بعضهم يحتمل أن يكون النهي لكونه قد يظن بعض الجهلة ان النذر يرد القدر أو يمنع من حصول المقدور فنهى عنه خوفا من اعتقاد ذلك وسياق الحديث يؤكد هذا وقوله في بعض روايات الحديث انه لايأتي بخير معناه انه لا يرد شيأ من القدر وقوله فيخرج بذلك من البخيل مالم يكن البخيل يريد أن يخرج معناه انه لايأتي بهذه القربة تطوعا محضا مبتدأ وانما يأتي بها في مقابلة شيء يريده كقوله ان شفى الله مريضي فلله علي كذا ونحو ذلك مما يحصل بالنذر والله أعلم ۞ وقوله تعالى (فان الله يعلمه) أي يعلم ما أنفقتم ونذرتم فيجازيكم به وانما قال يعلمه ولم يقل يعلمهما لانه رد الضمير على الآخر منهما فهو كقوله ومن يكسب خطيئة أو اثما ثم يرم به بريئا وقيل ان الكناية عادت على ما في قوله وما أنفقتم لانها اسم فهو كقوله وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ولم يقل بهما (وما للظالمين) يعني الواضعين الصدقة في غير موضعها وقيل الذين يريدون بصدقاتهم الرياء والسمعة وقيل هم الذين يتصدقون بالمال الحرام (من أنصار) أي من أعوان يدفعون عنهم عذاب الله تعالى ففيه وعيد عظيم لكل ظالم ۞ قوله عز وجل (ان تبدوا الصدقات) أي تظهروا الصدقات والصدقة ما يخرجه الانسان من ماله على وجه القربة فيدخل فيه الزكاة الواجبة وصدقة التطوع (فنعماهي) أي فنعمت الخصلة هي وقيل فنعم الشيء هي وقيل معناه فنعم شيأ ابداء الصدقات (وان تخفوها) أي تسروا الصدقة (وتؤتوها الفقراء) أي وتعطوها الفقراء في السر (فهو خير لكم) يعني اخفاء الصدقة أفضل من العلانية وكل مقبول اذا كانت النية صادقة واختلفوا في المراد بالصدقة المذكورة في الآية فقال الاكثرون المراد بها صدقة التطوع واتفق العلماء على ان كتمان صدقة التطوع أفضل واخفاؤها خير من اظهارها لان ذلك أبعد من الرياء وأقرب الى الاخلاص ولان فيه بعدا عما تؤثره النفس من اظهار الصدقة وفي صدقة السر أيضا فائدة ترجع الى الفقير الآخذ وهي انه اذا أعطي في السر زال عنه الذل والانكسار واذا أعطي في العلانية يحصل له الذل والانكسار ويدل على ان صدقة السر أفضل ما روي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة يظلهم الله في ظله يوم لاظل الا ظله امام عادل وشاب نشأ في طاعة الله تعالى ورجل قلبه معلق بالمسجد اذا خرج منه حتى يعود اليه ورجلان تحابا في الله تعالى اجتمعا على ذلك وافترقا عليه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من خشية الله ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال اني أخاف الله ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ما تنفق يمينه أخرجاه في الصحيحين ووجه جواز اظهار الصدقة يكون ممن قد أمن على نفسه من مداخلة الرياء في عمله أو يكون ممن يقتدى به في أفعاله فاذا أظهر الصدقة تابعه غيره على ذلك وأما الزكاة فاظهار اخراجها أفضل من كتمانها كالصلاة المكتوبة في الجماعة أفضل وصلاة التطوع في البيت أفضل ولكن في اظهار الزكاة نفي التهمة عن المزكي وقيل ان الآية واردة في زكاة الفرض وكان اخفاؤها خيرا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لانهم كانوا لايظنون باحد انه يمنع الزكاة فأما اليوم في زماننا فاظهار الزكاة أفضل حتى لايساء الظن به وقيل ان الآية عامة في جميع الصدقات الواجبة والتطوع والاخفاء أفضل في كل صدقة من زكاة وغيرها ۞ وقوله تعالى (ونكفر عنكم من سيئاتكم) قيل ان من صلة زائدة تقديره ونكفر عنكم سيآتكم قال ابن عباس جميع سيآتكم وقيل ادخل من للتبعيض ليكون العباد على وجل ولا يتكلوا والمعنى ونكفر عنكم الصغائر من سيآتكم وأصل التكفير

(فان الله يعلمه) لايخفى عليه وهو مجازيكم عليه (وما للظالمين) الذين يمنعون الصدقات أو ينفقون أموالهم في المعاصي أو ينذرون في المعاصي أولا يفون بالنذور (من أنصار) ممن ينصرهم من الله ويمنعهم من عقابه (ان تبدوا الصدقات فنعماهي) فنعم شيأ ابداؤها وما نكرة غير موصولة ولا موصوفة والمخصوص بالمدح هي فنعما هي بكسر النون واسكان العين أبو عمرو ومدني غير ورش و بفتح النون وكسر العين شامي وحمزة وعلي و بكسر النون والعين غيرهم (وان تخفوها وتؤتوها الفقراء) وتصيبوا بها مصارفها مع الاخفاء (فهو خير لكم) فالاخفاء خير لكم قالوا المراد صدقات التطوع والجهر في الفرائض أفضل لنفي التهمة حتى اذا كان المزكي ممن لايعرف باليسار كان اخفاؤه أفضل والمتطوع ان أراد أن يقتدى به كان اظهاره أفضل (ونكفر) بالنون وجزم الراء مدني وحمزة وعلي و بالياء ورفع الراء شامي وحفص و بالنون والرفع غيرهم فمن جزم فقد عطف على محل الفاء وما بعده لانه جواب الشرط ومن رفع فعلى الاستئناف والياء على معنى يكفر الله (عنكم من سيآتكم) والنون على معنى نحن نكفر في

(والله بما تعملون) من الابداء والاخفاء (خبير) عالم (ليس عليك هداهم) لا يجب عليك أن تجعلهم مهديين الى الانتهاء عما نهوا عنه من المن والاذى والانفاق من الخبيث وغير ذلك وما عليك الا أن تبلغهم النواهي فحسب (ولكن الله يهدي من يشاء) أو ليس عليك التوفيق على الهدى أو خلق الهدى وانما ذلك الى الله (وما تنفقوا من خير) من مال (فلانفسكم) فهو لانفسكم لا ينتفع به

غيركم فلا تمنوا به على الناس ولا تؤذوهم بالتطاول عليهم (وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله) وليست نفقتكم الا ابتغاء وجه الله أي رضا الله وطلب ما عنده فما بالكم تمنون بها وتنفقون الخبيث الذي لا يوجه مثله الى الله أو هذا نفي معناه النهي أي ولا تنفقوا الا ابتغاء وجه الله (وما تنفقوا من خير يوف اليكم) ثوابه اضعافا مضاعفة فلا عذر لكم في ان ترغبوا عن انفاقه وان يكون على أحسن الوجوه وأجلها (وأنتم لا تظلمون) ولا تنقصون كقوله ولم تظلم منه شيأ أي لم تنقص الجار في (للفقراء) متعلق بمحذوف أي اعمدوا للفقراء أو هو خبر مبتدا محذوف أي هذه الصدقات للفقراء (الذين أحصروا في سبيل الله) هم الذين أحصرهم الجهاد فمنعهم من التصرف (لا يستطيعون) لاشتغالهم به (ضربا في الارض) للكسب وقيل هم أصحاب الصفة وهم نحو من أربعمائة رجل من مهاجري قريش لم تكن لهم مساكن في المدينة ولا عشائر فكانوا في صفة المسجد وهي سقيفة يتعلمون القرآن بالليل ويرضخون النوى بالنهار وكانوا يخرجون في كل سرية بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن كان عنده فضل أتاهم به اذا أمسى (يحسبهم الجاهل) بحالهم يحسبهم وبابه شامي ويزيد وحمزة وعاصم غير الاعشى وهبيرة والباقون بكسر السين (أغنياء من التعفف) مستغنين من أجل تعففهم عن المسئلة

في اللغة التغطية والستر (والله بما تعملون خبير) يعني من اظهار الصدقة واخفائها ۞ قوله عز وجل (ليس عليك هداهم) قيل سبب نزول هذه الآية ان ناسا من المسلمين كان لهم قرابات وأصهار في اليهود وكانوا ينفعونهم وينفقون عليهم قبل أن يسلموا فلما أسلموا كرهوا أن ينفعوهم وأرادوا بذلك أن يسلموا وقيل كانوا يتصدقون على فقراء أهل المدينة فلما كثر المسلمون نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التصدق على المشركين كي تحملهم الحاجة الى الدخول في الاسلام لحرصه صلى الله عليه وسلم على اسلامهم فنزل ليس عليك هداهم ومعناه ليس عليك هداية من خالفك حتى تمنعهم الصدقة لاجل أن يدخلوا في الاسلام فحينئذ تتصدق عليهم فاعلمه الله تعالى انه انما بعث بشيرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه فاما كونهم مهتدين فليس ذلك اليك (ولكن الله يهدي من يشاء) يعني ان الله تعالى يوفق من يشاء فيهديه الى الاسلام وأراد بالهداية هنا هداية التوفيق وأما هداية البيان والدعوة فكانت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما نزلت هذه الآية أعطوهم وتصدقوا عليهم (وما تنفقوا من خير) أي من مال (فلانفسكم) أي ما تنفعلوا تنفعوا به أنفسكم (وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله) ظاهره خبر ومعناه نهي أي ولا تنفقوا الا ابتغاء وجه الله وقال الزجاج هذا خاص للمؤمنين أعلمهم الله انه قد علم أن مرادهم بنفقتهم ما عنده وقيل معناه ولستم في صدقاتكم على أقاربكم من المشركين تقصدون الا وجه الله وقد علم الله هذا من قلوبكم فانفقوا عليهم اذا كنتم انما تبتغون بذلك وجه الله في صلة الرحم وسد خلة مضطر قال بعض العلماء لو أنفقت على شر خلق الله لكان لك ثواب نفقتك وأجمع العلماء على انه لا يجوز صرف الزكاة الا الى المسلمين وهم اهل السهمان المذكورون في سورة التوبة وجوز أبو حنيفة صرف صدقة الفطر الى أهل الذمة وخالفه سائر العلماء في ذلك فعلى هذا تكون الآية مختصة بصدقة التطوع أباح الله تعالى أن تصرف الى فقراء المسلمين وفقراء أهل الذمة فاما زكاة الفرض فلا يجوز صرفها الى أهل الذمة بحال (وما تنفقوا من خير يوف اليكم) أي يوفر لكم جزاؤه وقال ابن عباس يجازيكم به يوم القيامة ومعناه يؤدي اليكم يوم القيامة وهذا احسن ادخال الى مع التوفية لانها تضمنت معنى التأدية (وأنتم لا تظلمون) أي لا تنقصون شيأ من ثواب أعمالكم ۞ قوله عز وجل (للفقراء) اختلفوا في موضع اللام في قوله للفقراء فقيل هو مردود على موضع اللام من قوله فلانفسكم فكأنه قال وما تنفقوا من خير فللفقراء وانما تنفقون لانفسكم وقيل معناه الصدقات التي سبق ذكرها للفقراء وقيل خبر محذوف تقديره للفقراء الذين من صفتهم كذا وكذا حق واجب وهم فقراء المهاجرين كانوا نحوا من أربعمائة رجل لم يكن لهم بالمدينة مساكن ولا عشائر وكانوا يأوون الى صفة في المسجد يتعلمون القرآن بالليل ويرضخون النوى بالنهار وكانوا يخرجون في كل سرية يبعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أصحاب الصفة فحث الله تعالى الناس على مواساتهم فكان من عنده فضل أتاهم به اذا أمسى ۞ وقوله (الذين أحصروا في سبيل الله) يعني هم الذين حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله وقيل حبسوا أنفسهم على طاعة الله (لا يستطيعون ضربا في الارض) يعني لا يتفرغون للتجارة وطلب المعاش والكسب وهم أهل الصفة الذين تقدم ذكرهم وقيل حبسهم الفقر والعدم عن الجهاد في سبيل الله وقيل هم قوم أصابتهم جراحات في الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فصاروا زمنى حصرهم المرض والزمانة عن الضرب في سبيل الله (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) أي يظن من لم يختبر حالهم انهم أغنياء من التعفف وهو

تفعل من العفة يقال عف عن الشيء إذا أمسك عنه وتعفف إذا ترك السؤال ولزم القناعة والمعنى يظنهم من لم يعرف حالهم أغنياء لإظهارهم التجمل وتركهم المسألة (تعرفهم بسيماهم) السيما والسيمياء والسمة العلامة التي يعرف بها الشيء واختلفوا في معناها فقال مجاهد هي التخشع والتواضع وقيل هي أثر الجهد من الحاجة والفقر وقيل صفرة ألوانهم من الجوع ورثاثة ثيابهم من الضر (لا يسألون الناس إلحافا) يعني [illegible] وقيل لا يسألون الناس إلحافا ولا غير إلحاف لأنه قال يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف وهو ترك السؤال فدل على أنهم لا يسألون البتة ولأنه قال تعالى تعرفهم بسيماهم ولو كانت المسألة من شأنهم لما كانت الحاجة إلى معرفتهم بالعلامة فمعنى الآية ليس لهم سؤال فيقع فيه إلحاف فهم لا يسألون الناس إلحافا ولا غير إلحاف (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس (ق) عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يقوم فيسأل الناس (خ) عن الزبير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه (ت) عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سأل الناس وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ومسألته في وجهه خموش أو خدوش أو كدوح قيل يا رسول الله وما يغنيه قال خمسون درهما أو قيمتها من الذهب أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف أخرجه أبو داود وقال زاد هشام في حديثه وكانت الأوقية على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين درهما وفي رواية عطاء بن يسار من سأل منكم وله أوقية أو عدلها فقد سأل إلحافا عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سأل الناس وله أربعون درهما فهو ملحف أخرجه النسائي (م) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سأل الناس تكثرا فإنما يسأل جمرا فليستقل أو ليستكثر وقوله تعالى (وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم) يعني أن الله تعالى يعلم مقادير الإنفاق ويجازي عليها ففيه حث على الصدقة والإنفاق والطاعة

قوله عز وجل (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية) قال ابن عباس في رواية عنه نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب كانت عنده أربعة دراهم لا يملك غيرها فتصدق بدرهم ليلا وبدرهم نهارا وبدرهم سرا وبدرهم علانية وفي رواية عنه قال لما نزل للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله بعث عبد الرحمن ابن عوف بدنانير كثيرة إلى أهل الصفة وبعث علي بن أبي طالب في الليل بوسق من تمر فأنزل الله فيهما الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار يعني بنفقة الليل نفقة علي وبالنهار نفقة عبد الرحمن وفي الآية إشارة إلى أن صدقة السر أفضل من صدقة العلانية لأنه تعالى قدم نفقة الليل على نفقة النهار وقدم السر على العلانية وقيل نزلت الآية في الذين يربطون الخيل للجهاد في سبيل الله لأنهم يعلفونها بالليل والنهار وفي السر والعلانية (خ) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من احتبس فرسا في سبيل الله إيمانا واحتسابا وتصديقا بوعده كان شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة يعني حسنات وقيل إن الآية عامة في الذين ينفقون أموالهم في جميع الأوقات ويعمون بها أصحاب الحاجات والفاقات (فلهم أجرهم عند ربهم) أي جزاء أعمالهم (ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) يعني في الآخرة

قوله عز وجل (الذين يأكلون الربا) أي يعاملون به وإنما خص الأكل لأنه معظم الأمر المقصود من المال لأن المال لا يؤكل إنما يصرف في المأكول ثم يؤكل فمنع الله التصرف في الربا بما ذكر فيه من الوعيد (م) عن جابر قال لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه وقال هم سواء وأصل الربا في اللغة الزيادة يقال

(تعرفهم بسيماهم) من صفرة الوجه ورثاثة الحال (لا يسألون الناس إلحافا) إلحاحا قيل هو [illegible] السؤال والإلحاح [illegible]

[illegible]

مسرين ومعلنين يعني يعمون الأوقات والأحوال بالصدقة لحرصهم على الخير فكلما نزلت بهم حاجة محتاج عجلوا قضاءها ولم يؤخروه ولم يتعللوا بوقت ولا حال وقيل نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين تصدق بأربعين ألف دينار عشرة بالليل وعشرة بالنهار وعشرة في السر وعشرة في العلانية أو في علي رضي الله عنه لم يملك إلا أربعة دراهم تصدق بدرهم ليلا وبدرهم نهارا وبدرهم سرا وبدرهم علانية (فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين يأكلون الربا) هو فضل مال خال عن العوض في معاوضة مال بمال وكتب الربوا بالواو على لغة من يفخم كما كتبت الصلوة والزكوة وزيدت الألف بعدها تشبيها بواو الجمع

[illegible]

قلت ياجبريل من هؤلاء قال هؤلاء الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس قوله بطنه مثل البيت الضخم أى العظيم الكبير الغليظ وقوله منضدين أى موضوعين بعضهم على بعض والسابلة الطريق وقوله مثل الابل المنهومة النهم بالتحريك افراط فى الشهوة بالطعام من الجوع ۞ قوله عز وجل (ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا) أى ذلك الذى نزل بهم من العذاب بقولهم هذا واستحلالهم اياه وذلك ان أهل الجاهلية كان أحدهم اذا حل ماله على غريمه يطالبه به فيقول الغريم لصاحب الحق زدنى فى الاجل حتى أزيدك فى المال فيفعلان ذلك وكانوا يقولون سواء علينا الزيادة فى أول البيع بالربح أو عند المحل لاجل التأخير فكذبهم الله تعالى ورد عليهم بقوله (وأحل الله البيع وحرم الربوا) يعنى وأحل الله لكم الارباح فى التجارة بالبيع والشراء وحرم الربا الذى هو زيادة فى المال لاجل تأخير الاجل وذلك لان الله تعالى خالق الخلق فهم عبيده وهو مالكهم يحكم فيهم بما يشاء ويستعبدهم بما يريد ليس لاحد أن يعترض عليه فى شئ مما أحل أو حرم وانما على كافة الخلق الطاعة والتسليم لحكمه وأمره ونهيه وذكر بعض العلماء الفرق بين البيع والربا فقال اذا باع ثوبا يساوى عشرة بعشرين فقد جعل ذات الثوب مقابلا للعشرين فلما حصل التراضى على هذا التقابل صار كل واحد منهما مقابلا للآخر فى المالية عندهما فلم يكن أخذ من صاحبه شيأ بغير عوض أما اذا باع عشرة دراهم بعشرين فقد أخذ العشرة الزائدة بغير عوض ولا يمكن أن يقال ان العوض هو الامهال فى مدة الاجل لان الامهال ليس مالا أو شيأ يشار اليه حتى يجعله عوضا عن العشرة الزائدة فقد ظهر الفرق بين الصورتين

﴿فصل فى حكم الربا﴾ وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ ذكروا فى سبب تحريم الربا وجوها أحدها ان الربا يقتضى أخذ مال الغير بغير عوض لان من يبيع درهما بدرهمين نقدا كان أو نسيئة فقد حصل له زيادة درهم من غير عوض فهو حرام الوجه الثانى انما حرم عقد الربا لانه يمنع الناس من الاشتغال بالتجارة لان صاحب الدراهم اذا تمكن من عقد الربا خف عليه تحصيل الزيادة من غير تعب ولا مشقة فيفضى ذلك الى انقطاع منافع الناس بالتجارات وطلب الارباح الوجه الثالث ان الربا هو سبب الى انقطاع المعروف بين الناس من القرض فلما حرم الربا طابت النفوس بقرض الدراهم للمحتاج واسترجاع مثله لطلب الاجر من الله تعالى الوجه الرابع ان تحريم الربا قد ثبت بالنص ولا يجب أن يكون حكم جميع التكاليف معلومة

[illegible]

الذين يخرجون من الاجداث يوفضون الا أكلة الربا فانهم ينهضون ويسقطون كالمصروعين لانهم أكلوا الربا فأرباه الله فى بطونهم حتى أثقلهم فلا يقدرون على الايفاض (ذلك) العقاب (بأنهم) بسبب انهم (قالوا انما البيع مثل الربوا) ولم يقل انما الربا مثل البيع مع أن الكلام فى الربا لا فى البيع لانه جىء به على طريقة المبالغة وهو انه قد بلغ من اعتقادهم فى حل الربا انهم جعلوه أصلا وقانونا فى الحل حتى شبهوا به البيع (وأحل الله البيع وحرم الربوا) انكار لتسويتهم بينهما اذ الحل مع الحرمة ضدان فانى يتماثلان ودلالة على أن القياس يهدمه النص لانه جعل الدليل على بطلان قياسهم احلال الله وتحريمه

للخلق فوجب القطع بتحريم الربا وان كنا لا نعلم وجه الحكمة في ذلك ﴿المسئلة الثانية﴾ اعلم ان الربا في اللغة هو الزيادة وطلب الزيادة بطريق التجارة غير حرام فثبت ان الزيادة المحرمة هو الربا وهو على صفة مخصوصة في مال مخصوص بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم (ق) عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الذهب بالورق ربا الا هاء وهاء والبر بالبر ربا الا هاء وهاء والشعير بالشعير ربا الا هاء وهاء والتمر بالتمر ربا الا هاء وهاء وفي رواية الورق بالورق ربا الا هاء وهاء والذهب بالذهب ربا الا هاء وهاء (م) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الذهب بالذهب وزنا بوزن مثلا بمثل والفضة بالفضة وزنا بوزن مثلا بمثل فمن زاد واستزاد فقد أربى وفي رواية التمر بالتمر والحنطة بالحنطة والشعير بالشعير والملح بالملح مثلا بمثل يدا بيد فمن زاد واستزاد فقد أربى الا ما اختلفت ألوانه (م) عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلا بمثل سواء بسواء يدا بيد فاذا اختلفت هذه الاصناف فبيعوا كيف شئتم اذا كان يدا بيد فنص رسول الله صلى الله عليه وسلم على جريان الربا في هذه الستة أشياء وهي النقدان وأربعة أصناف من المطعومات وهي البر والشعير والتمر والملح فذهب عامة أهل العلم الى ان حكم الربا ثبت في هذه الاشياء لاوصاف فيها فيتعدى الى كل ما يوجد من تلك الاوصاف فيه ثم اختلفوا في تلك الاوصاف فذهب قوم الى أن المعنى في جميعها واحد وهو النفع فاثبتوا الربا في جميع الاموال وذهب الاكثرون الى أن الربا ثبت في الدراهم والدنانير بوصف وفي الاشياء المطعومة بوصف آخر واختلفوا في ذلك الوصف فذهب الشافعي ومالك الى أنه ثبت في الدراهم والدنانير بوصف النقدية وذهب أصحاب الرأي الى انه ثبت بعلة الوزن فاثبتوا الربا في جميع الموزونات مثل الحديد والنحاس والقطن ونحو ذلك وأما الاربعة أشياء المطعومة فذهب أصحاب الرأي الى ان الربا ثبت فيها بعلة الوزن والكيل فاثبتوا الربا في جميع المكيلات والموزونات طعوما كان أو غير مطعوم كالجص والنورة ونحوهما وذهب جماعة الى أن العلة فيها الطعم مع الكيل والوزن فكل مطعوم مكيل أو موزون يثبت فيه الربا ولا يثبت فيما سوى ذلك مما ليس بمكيل أو موزون وهو قول سعيد بن المسيب والشافعي في القديم وقال في الجديد يثبت الربا فيها بوصف الطعم فاثبت الربا في جميع الاشياء المطعومة من الثمار والفواكه والبقول والادوية مكيلة كانت أو موزونة لما روى عن معمر بن عبد الله أرسل غلامه بصاع قمح فقال بعه ثم اشتر به شعيرا فذهب الغلام فاخذ صاعا وزيادة بعض من صاع فلما جاء معمرا أخبره بذلك فقال له معمر لم فعلت ذلك انطلق فرده ولا تأخذن الا مثلا بمثل فاني كنت اسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الطعام بالطعام مثلا بمثل وكان طعامنا الشعير قيل له فانه ليس بمثله فقال اني أخاف أن يضارع أخرجه مسلم فجملة مال الربا عند الشافعي ما كان ثمنا أو طعوما ﴿المسئلة الثالثة﴾ الربا نوعان ربا فضل وهو الزيادة وربا نسيئة وهو الاجل فان باع ما يدخل فيه الربا بجنسه مثل ان باع أحد النقدين بجنسه كالذهب بالذهب أو المطعوم بجنسه كالحنطة بالحنطة ونحو ذلك فيشترط فيه التماثل والمساواة بمعيار الشرع فان كان موزونا كالدراهم والدنانير فيشترط فيه المساواة في الوزن وان كان مكيلا كالحنطة والشعير يشترط في بيعه بجنسه المساواة في الكيل ويشترط التقابض في مجلس العقد فان باع ما يدخل فيه الربا بغير جنسه ينظر فان باع بما لا يوافقه في وصف الربا مثل ان باع مطعوما باحد النقدين فلا ربا فيه كما لو باعه بغير مال الربا فان باعه بما يوافقه في الوصف لا في الجنس مثل ان باع الدراهم بالدنانير أو باع الحنطة بالشعير أو كان مطعوما بمطعوم آخر من غير جنسه فلا يثبت فيه ربا التفاضل فيجوز بيعه متفاضلا ويثبت فيه ربا النسيئة فيشترط في بيعه التقابض في المجلس لقوله صلى الله عليه وسلم الا يدا بيد وقوله هاء وهاء ففيه اشتراط التقابض في المجلس وتحريم النسيئة وقوله صلى الله عليه وسلم الا سواء بسواء مثلا بمثل ففيه ايجاب المماثلة وتحريم التفاضل عند

اتفاق الجنس وقوله صلى الله عليه وسلم فاذا اختلفت هذه الاصناف فبيعوا كيف شئتم ففيه اطلاق التبايع مع التفاضل عند اختلاف الجنس مع اشتراط التقابض في المجلس وهو قوله صلى الله عليه وسلم اذا كان يدا بيد والله أعلم ﴿المسئلة الرابعة﴾ في القرض وهو من أقرض شيأ وشرط عليه أن يرد عليه أفضل منه فهو قرض جر منفعة وكل قرض جر منفعة فهو ربا يدل عليه ماروى عن مالك قال بلغني ان رجلا أتى ابن عمر فقال اني أسلفت رجلا سلفا واشترطت عليه أفضل مما أسلفته فقال عبد الله بن عمر فذلك الربا أخرجه مالك في الموطأ قال فان لم يشترط فضلا في وقت القرض فرد المستقرض أفضل مما أخذ جاز و يدل على ذلك ماروى عن مجاهد أن ابن عمر استلف دراهم فقضى صاحبها خيرا منها فأبى أن يأخذها وقال هذه خير من دراهمي فقال ابن عمر قد علمت ولكن نفسي بذلك طيبة أخرجه مالك في الموطأ ۞ وقوله تعالى (فمن جاءه موعظة من ربه) أي تذكير وتخويف وانما ذكر الفعل لان تأنيثه غير حقيقي فجاز تذكيره وذلك لان الوعظ والموعظة شيء واحد (فانتهى) أي عن أكل الربا (فله ما سلف) أي ما مضى من ذنبه قبل النهي مغفور له (وأمره الى الله) يعني بعد النهي ان شاء عصمه حتى يثبت على الانتهاء وان شاء خذله حتى يعود الى أكل الربا وقيل معناه وأمره الى الله فيما يأمره وينهاه ويحل له ويحرم عليه وليس اليه من أمر نفسه شيء وقيل ان الآية فيمن يعتقد تحريم أكل الربا ثم يأكله فأمره الى الله تعالى ان شاء عفا عنه وان شاء عذبه (ومن عاد) يعني الى أكل الربا بعد التحريم مستحلا له (فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) ۞ قوله عز وجل (يمحق الله الربا) أي ينقصه ويهلكه ويذهب ببركته قال ابن عباس لا يقبل منه صدقة ولا حجا ولا جهادا ولا صلة (ويربي الصدقات) أي يزيدها ويثمرها ويبارك فيها في الدنيا ويضاعف أجرها في الآخرة (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تصدق أحد بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله الا الطيب الا أخذها الرحمن بيمينه وان كانت تمرة فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله لفظ مسلم وللبخاري من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يصعد الى الله وفي رواية ولا يقبل الله الا الطيب فان الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل (والله لا يحب كل كفار) يعني كل مصر على كفره مقيم عليه مستحل لأكل الربا (أثيم) يعني متماديا في الاثم وفيما نهي عنه وان من أكل الربا لا ينزجر عنه ولا يتركه وقيل يحتمل أن يكون الكفار راجعا الى مستحل الربا والاثيم راجعا الى من يفعله مع اعتقاد التحريم فتكون الآية جامعة للفريقين ۞ قوله عز وجل (ان الذين آمنوا) يعني صدقوا بالله ورسوله (وعملوا الصالحات) يعني التي أمرهم الله بها (وأقاموا الصلاة) يعني المفروضة بأركانها وحدودها في أوقاتها (وآتوا الزكاة) يعني المفروضة عليهم في أموالهم (لهم أجرهم عند ربهم) أي لهم ثواب أعمالهم في الآخرة (ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أي يوم القيامة ۞ قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا) قيل نزلت في العباس بن عبد المطلب وعثمان بن عفان وكانا قد أسلفا في التمر فلما كان وقت الجذاذ قال صاحب التمر لهما ان أنتما أخذتما حقكما لم يبق لي ما يكفي عيالي فهل لكما أن تأخذا النصف وتؤخرا النصف وأضعف لكما ففعلا فلما حل الاجل طلبا منه الزيادة فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فنهاهما وأنزل الله هذه الآية فسمعا وأطاعا وأخذا رؤس أموالهما وقيل نزلت في العباس وخالد بن الوليد وكانا شريكين في الجاهلية يسلفان في الربا الى بني عمرو بن عمير ناس من ثقيف فجاء الاسلام ولهما أموال عظيمة في الربا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع فيما رواه جابر من افراد مسلم ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ودماء الجاهلية موضوعة وان أول دم أضع من دمائنا دم ربيعة بن الحرث كان مسترضعا في بني سعد فقتلته هذيل وربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضع ربا العباس بن المطلب فانه موضوع كله وقيل نزلت في أربعة اخوة من ثقيف وهم مسعود وعبد ياليل وحبيب وربيعة بن عمرو

(فمن جاءه موعظة من ربه) فمن بلغه وعظ من الله وزجر بالنهي عن الربا (فانتهى) فتبع النهي وامتنع (فله ما سلف) فلا يؤاخذ بما مضى منه لانه أخذ قبل نزول التحريم (وأمره الى الله) يحكم في شأنه يوم القيامة وليس من أمره اليكم شيء فلا تطالبوه به (ومن عاد) الى استحلال الربا عن الزجاج أو الى الربا مستحلا (فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) لانهم بالاستحلال صاروا كافرين لان من أحل ما حرم الله عز وجل فهو كافر فلذا استحق الخلود وبهذا تبين أنه لا تعلق للمعتزلة بهذه الآية في تخليد الفساق (يمحق الله الربا) يذهب ببركته ويهلك المال الذي يدخل فيه (ويربي الصدقات) ينميها ويزيدها أي يزيد المال الذي أخرجت منه الصدقة ويبارك فيه وفي الحديث ما نقصت زكاة من مال قط (والله لا يحب كل كفار) عظيم الكفر باستحلال الربا (أثيم) متماد في الاثم بأكله (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) قيل المراد به الذين آمنوا بتحريم الربا (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا) أخذوا ما شرطوا على الناس من الربا وبقيت لهم بقايا فأمروا ان يتركوها ولا يطالبوا بها روى أنها

كان مقيما على أكل الربا لاينزع عنه فحق على امام المسلمين أن يستتيبه فان نزع أى تاب والاضرب عنقه (وان تبتم) أى ان تركتم أكل الربا ورجعتم عنه (فلكم رؤس أموالكم لاتظلمون ولاتظلمون) يعنى لاتظلمون أنتم الغريم بطلب زيادة على رأس المال ولاتظلمون أنتم بنقصان رأس المال فلما نزلت هذه الآية قال بنو عمرو الثقفى ومن كان يعامل بالربا من غيرهم بل نتوب الى الله فانه لايدان لنا يعنى لاقوة لنا بحرب الله ورسوله ورضوا برؤس أموالهم فشكا بنو المغيرة العسرة ومن كان عليه دين وقالوا أخرونا الى أن تدرك الغلات فابوا أن يؤخروهم فانزل الله عز وجل (وان كان ذو عسرة) يعنى وان كان الذى عليه الحق من غرمائكم معسرا والعسر نقيض اليسر وهو تعذر وجدان المال وأعسر الرجل اذا ضاق ولم يجد ما يؤديه فى دينه (فنظرة) أى فامهال وتأخير (الى ميسرة) أى الى زمن اليسار وهو ضد الاعسار وهو وجدان المال الذى يؤديه فى دينه واختلفوا فى حكم الآية وهل الانظار مختص بالربا أم هو عام فى كل دين على قولين القول الاول وهو قول ابن عباس وشريح والضحاك والسدى أن الآية فى الربا وذكر عن شريح ان رجلا خاصم رجلا اليه فقضى عليه وأمر بحبسه فقال رجل كان عند شريح أنه معسر والله تعالى يقول فى كتابه وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة فقال شريح انما ذاك فى الربا وان الله تعالى قال فى كتابه ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ولا يأمرنا الله بشئ ثم يعذبنا عليه والقول الثانى وهو قول مجاهد وجماعة من المفسرين ان حكم الآية عام فى كل دين على معسر واحتجوا بان الله تعالى قال وان كان ذو عسرة ولم يقل ذا عسرة ليكون الحكم عاما فى جميع المعسرين (وأن تصدقوا خير لكم) يعنى وأن تصدقوا على المعسر بما عليه من الدين فتتركوا رؤس أموالكم للمعسر خير لكم وانما جاز هذا الحذف للعلم به لانه قد جرى ذكر المعسرين وذكر رأس المال فعلم ان التصدق راجع اليهما (ان كنتم تعلمون) يعنى ان التصدق خير لكم وأفضل لان فيه الثناء الجميل فى الدنيا والثواب الجزيل فى العقبى

(فصل فى ثواب انظار المعسر والوضع عنه وتشديد أمر الدين والامر بقضائه) (م) عن أبى قتادة انه طلب غريما له فتوارى عنه ثم وجده فقال انى معسر قال آلله قال آلله قال فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه (م) عن أبى اليسر قال

ورسوله (وان تبتم) من الارباء (فلكم رؤس أموالكم لاتظلمون) المديونين بطلب الزيادة عليها (ولا تظلمون) بالنقصان منها (وان كان ذو عسرة) وان وقع غريم من غرمائكم ذو عسرة ذو اعسار (فنظرة) فالحكم أو فالامر نظرة أى انظار (الى ميسرة) يسار وميسرة نافع وهما لغتان (وأن تصدقوا) بالتخفيف عاصم أى تتصدقوا برؤس أموالكم أو ببعضها على من أعسر من غرمائكم وبالتشديد غيره فالتخفيف على حذف احدى التاءين والتشديد على الادغام (خير لكم) فى القيامة وقيل أريد بالتصدق الانظار لقوله عليه السلام لايحل دين رجل مسلم فيؤخره الا كان له بكل يوم صدقة (ان كنتم تعلمون) انه خير لكم فتعملوا به جعل من لايعمل به وان علمه كأنه لايعلمه

سمعت

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كان فيمن كان قبلكم تاجر يداين الناس فإن رأى معسراً قال لفتيانه تجاوزوا عنه لعل الله أن يتجاوز عنا فتجاوز الله عنه وعن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن أعظم الذنوب عند الله أن يلقاه بها عبد بعد الكبائر التي نهى الله عنها أن يموت رجل وعليه دين لا يدع له قضاء أخرجه أبو داود (خ) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عز وجل عنه ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مطل الغني ظلم زاد في رواية وإذا أتبع أحدكم على ملي فليتبع (ق) عن كعب بن مالك أنه تقاضى ابن أبي حدرد دينا كان له عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد فارتفعت أصواتهما حتى سمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في بيته فخرج إليهما حتى كشف سجف حجرته فنادى فقال يا كعب قلت لبيك يا رسول الله فأشار بيده أن ضع الشطر من دينك فقال كعب قد فعلت يا رسول الله قال قم فاقضه (ق) عن أبي هريرة قال كان لرجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم سن من الإبل فجاءه يتقاضاه فقال أعطوه فطلبوا سنه فلم يجدوا إلا سنا فوقها فقال أعطوه فقال أوفيتني أوفاك الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم إن خيركم أحسنكم قضاء وفي رواية أنه أغلظ لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استقضاه حتى هم به بعض أصحابه فقال دعوه فإن لصاحب الحق مقالا ثم أمر له بأفضل من سنه (م) عن أبي قتادة الأنصاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قام فيهم فذكرهم أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال فقام رجل فقال يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله تكفر عني خطاياي فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف قلت قال أرأيت إن قتلت في سبيل الله أتكفر عني خطاياي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلا الدين فإن جبريل قال لي ذلك عن محمد بن جحش قال كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع رأسه إلى السماء ثم وضع يده على جبهته ثم قال سبحان الله ماذا أنزل من التشديد فسكتنا وفزعنا فلما كان من الغد سألته يا رسول الله ما هذا التشديد الذي نزل فقال والذي نفسي بيده لو أن رجلا قتل في سبيل الله ثم أحيي ثم قتل ثم أحيي وعليه دين ما دخل الجنة حتى يقضى عنه دينه أخرجه النسائي ۞ قوله عز وجل (واتقوا) أي وخافوا (يوما ترجعون فيه إلى الله) قرئ بفتح التاء أي تصيرون فيه إلى الله وقرئ بضم التاء وفتح الجيم أي تردون فيه إلى الله (ثم توفى كل نفس ما كسبت) يعني من خير أو شر (وهم لا يظلمون) أي في ذلك اليوم وفي هذه الآية وعيد شديد وزجر عظيم قال ابن عباس هذه آخر آية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال جبريل ضعها على رأس مائتين وثمانين من سورة البقرة وعاش بعدها رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا وعشرين يوما وقيل تسع ليال وقيل سبع ليال ومات صلى الله عليه وسلم لليلتين خلتا من ربيع الأول في يوم الاثنين سنة إحدى عشرة من الهجرة وروى الشعبي عن ابن عباس أن آخر آية نزلت آية الربا ۞ قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين) قال ابن عباس لما حرم الربا أباح السلم وقال أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى قد أحله الله في كتابه وأذن فيه وقوله إذا تداينتم أي تعاملتم بالدين أو داين بعضكم بعضا والتداين تفاعل من الدين يقال داينته إذا عاملته بالدين وإنما قال بدين بعد قوله إذا تداينتم لأن المداينة قد تطلق على المجازاة وعلى المعاطاة فقيده بالدين ليعرف المراد من اللفظ ويخلص أحد المعنيين من الآخر وقيل إنما قال بدين ليرجع الضمير إليه في قوله فاكتبوه إذ لو لم يذكر ذلك لوجب أن يقال فاكتبوا الدين فلا يحسن النظم بذلك وقيل إنما ذكره تأكيدا (إلى أجل مسمى) يعني إلى مدة معلومة الأول والآخر مثل السنة والشهر ولا يجوز إلى غير مدة

(واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله) ترجعون أبو عمرو فرجع لازم ومتعد قيل هي آخر آية نزل بها جبريل عليه السلام وقال ضعها في رأس المائتين وثمانين من البقرة وعاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها أحدا وعشرين يوما أو أحدا وثمانين أو سبعة أيام أو ثلاث ساعات (ثم توفى كل نفس ما كسبت) أي جزاء ما كسبت (وهم لا يظلمون) بنقصان الحسنات وزيادة السيئات (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين) أي إذا داين بعضكم بعضا يقال داينت الرجل إذا عاملته بدين معطيا أو آخذا (إلى أجل مسمى) مدة معلومة كالحصاد أو الدياس أو رجوع الحاج وإنما احتيج إلى ذكر الدين [illegible]

(فاكتبوه) اذ لولم يذكر لوجب ان يقال فاكتبوا الدين فلم يكن النظم بذلك الحسن ولانه أبين لتنويع الدين الى مؤجل وحال وانما أمر بكتابة الدين لان ذلك أوثق وآمن من النسيان وأبعد من الجحود والمعنى اذا تعاملتم بدين مؤجل فاكتبوه والامر للندب وعن ابن عباس رضي الله عنهما ان المراد به السلم وقال لما حرم الله الربا أباح السلم المضمون الى أجل معلوم في كتابه وأنزل فيه

معلومة كما لو قال الى الحصاد أو نحوه والاجل يلزم في الثمن في البيع وفي السلم حتى لا يكون لصاحب الحق الطلب قبل محل الاجل بخلاف القرض فانه لا يلزم فيه الاجل عند أكثر أهل العلم (ق) عن ابن عباس قال قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يسلفون في التمر العام والعامين فقال لهم من أسلف في تمر ففي كيل معلوم أو وزن معلوم الى أجل معلوم ۞ وقوله تعالى (فاكتبوه) أي اكتبوا الدين الذي تداينتم به بيعا كان ذلك أو سلما أو قرضا واختلفوا في هذه الكتابة فقيل هي واجبة وهو مذهب عطاء وابن جريج والنخعي واختاره محمد بن جرير الطبري وقيل الامر محمول على الندب والاستحباب فان ترك فلا باس وهو قول جمهور العلماء وقيل بل كانت الكتابة والاشهاد والرهن فرضا ثم نسخ بقوله تعالى فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذي اؤتمن أمانته وهو قول الحسن والشعبي والحكم بن عيينة ثم بين الله تعالى كيفية الكتابة فقال تعالى (وليكتب بينكم كاتب) أي ليكتب الدين بين الطالب والمطلوب كاتب (بالعدل) أي بالحق من غير زيادة ولا نقصان ولا تقديم أجل ولا تأخيره وقيل ان فائدة الكتابة هي حفظ المال من الجانبين لان صاحب الدين اذا علم ان حقه مقيد بالكتابة تعذر عليه طلب زيادة أو تقديم المطالبة قبل حلول الاجل ومن عليه الدين اذا عرف ذلك تعذر عليه الجحود أو النقص من أصل الدين الذي عليه فلما كانت هذه الفائدة من الكتابة أمر الله تعالى بها (ولا يأب) أي ولا يمتنع (كاتب أن يكتب) واختلفوا في وجوب الكتابة على الكاتب وتحمل الشهادة على الشاهد فقيل بوجوبهما لان ظاهر الكلام نهي عن الامتناع من الكتابة وايجابها على كل كاتب فاذا طولب بالكتابة وتحمل الشهادة ممن هو من أهلهما وجب عليه ذلك وقيل هو من فرض الكفاية وهو قول الشعبي فان لم يوجد الا واحد وجب عليه ذلك وقيل هو على الندب والاستحباب وذلك لان الله تعالى لما علمه الكتابة وشرفه بها استحب له أن يكتب ليقضي حاجة أخيه المسلم ويشكر تلك النعمة التي أنعم الله بها عليه وقيل كانت الكتابة وتحمل الشهادة واجبتين على الكاتب والشاهد ثم نسخهما الله تعالى بقوله ولا يضار كاتب ولا شهيد (كما علمه الله) أي كما شرعه الله وأمر به (فليكتب) وذلك ان يكتب بحيث لا يزيد ولا ينقص ويكتب ما يصلح أن يكون حجة عند الحاجة ولا يخص أحد الخصمين بالاحتياط له دون الآخر وأن يكون كل واحد منهما آمنا من ابطال حقه وأن يكون ما يكتبه متفقا عليه عند العلماء وأن يحترز من الالفاظ التي يقع النزاع فيها وهذه الامور لا تحصل الا لمن هو فقيه عالم باللغة ومذاهب العلماء (وليملل الذي عليه الحق) يعني ان المطلوب الذي عليه الحق يقر على نفسه بلسانه ليعلم ما عليه من الحق فيذكر قدره وجنسه وصفة الاجل ونحو ذلك والاملال والاملاء لغتان فصيحتان معناهما واحد (وليتق الله ربه) يعني المملي (ولا يبخس) أي ولا ينقص (منه) أي من الحق الذي وجب (شيأ فان كان الذي عليه الحق سفيها) أي جاهلا بالاملاء وقيل هو الطفل الصغير وقال الشافعي السفيه هو المبذر المفسد لماله ودينه (أو ضعيفا) يعني شيخا كبيرا وقيل هو ضعيف العقل لعته أو جنون (أو لا يستطيع أن يمل هو) يعني لخرس أو عمى أو عجمة في كلامه أو حبس أو غيبة لا يمكنه الحضور عند الكاتب أو يجهل بماله وعليه فهؤلاء كلهم لا يصح اقرارهم فلا بد من أن يقوم غيرهم مقامهم وهو قوله تعالى (فليملل وليه) يعني ولي كل واحد من هؤلاء الثلاثة المحجور عليهم لانه مقامه في صحة الاقرار وقال ابن عباس أراد بالولي صاحب الدين يعني ان عجز الذي عليه الحق عن الاملاء فليملل صاحب الحق لانه أعلم بحقه (بالعدل) أي بالصدق

أطول آية وفيه دليل على اشتراط الاجل في السلم (وليكتب بينكم) بين المتداينين (كاتب بالعدل) هو متعلق بكاتب صفة له أي كاتب مأمون على ما يكتب يكتب بالاحتياط لا يزيد على ما يجب أن يكتب ولا ينقص وفيه دليل أن يكون الكاتب فقيها عالما بالشروط حتى يجيء مكتوبه معدلا بالشرع وهو أمر للمتداينين بتخير الكاتب وأن لا يستكتبوا الا فقيها دينا حتى يكتب ما هو متفق عليه (ولا يأب كاتب) ولا يمتنع واحد من الكتاب (أن يكتب كما علمه الله) مثل ما علمه الله كتابة الوثائق لا يبدل ولا يغير وكما متعلق بان يكتب (فليكتب) تلك الكتابة لا يعدل عنها (وليملل الذي عليه الحق) ولا يكن المملي الا من وجب عليه الحق لانه هو المشهود على ثباته في ذمته واقراره به فيكون ذلك اقرارا على نفسه بلسانه والاملال والاملاء لغتان (وليتق الله ربه) وليتق الله الذي عليه الدين ربه فلا يمتنع عن الاملاء فيكون بجحود الكل حقه (ولا يبخس منه شيأ) ولا ينقص من الحق الذي عليه شيأ في الاملاء فيكون بجحود البعض حقه (فان كان الذي عليه الحق سفيها) أي مجنونا لان السفه خفة في العقل أو محجورا عليه لتبذيره وجهله بالتصرف (أو ضعيفا) صبيا (أو لا يستطيع أن يمل هو) لعي به أو خرس أو جهل باللغة (فليملل وليه) الذي يلي أمره ويقوم به (بالعدل) بالصدق

واستشهدوا

(واستشهدوا شهيدين) يعنى وأشهدوا على حقوقكم شهيدين لان المقصود من الكتابة هو الاشهاد (من رجالكم) يعنى من أهل ملتكم يعنى من المسلمين الاحرار دون العبيد والصبيان وهذا قول أكثر أهل العلم وأجاز شريح وابن سيرين شهادة العبيد ووجه هذا القول ان قوله من رجالكم عام يتناول العبيد وغيرهم وذلك لان عقل الانسان ودينه وعدالته تمنعه من الكذب فاذا اجتمعت هذه الشرائط فيه كانت شهادة معتبرة وحجة جمهور العلماء ولا يأب الشهداء اذا مادعوا فهذا نص يقتضى ان من تحمل شهادة وجب عليه الاداء اذا طولب بها والعبد ليس كذلك فان السيد اذا لم يأذن له فى ذلك حرم عليه الذهاب الى أداء الشهادة فوجب ان لا يكون العبد من أهل الشهادة (فان لم يكونا رجلين) أى فان لم يكن الشاهدان رجلين (فرجل وامرأتان) أى فليشهد رجل وامرأتان وأجمع الفقهاء على أن شهادة النساء مع الرجال جائزة فى الاموال فيثبت الحق بشهادة رجل وامرأتين واختلفوا فى غير الاموال فذهب سفيان الثورى وأصحاب الرأى الى انه يجوز شهادة النساء مع الرجال فى سائر الحقوق غير العقوبات وذهب جماعة الى أن غير المال لا يثبت الا برجلين عدلين وذهب الشافعى الى أن ما يطلع عليه النساء غالبا كالولادة والرضاع والبكارة والثيوبة ونحوها تجوز شهادة رجل وامرأتين أو شهادة أربعة نسوة واتفقوا على ان شهادة النساء غير جائزة ولا مقبولة فى العقوبات والحدود ۞ قوله تعالى (ممن ترضون من الشهداء) يعنى من كان مرضيا عندكم فى دينه وأمانته والشرائط المعتبرة فى العدالة وقبول الشهادة عشرة وهى الاسلام والحرية والعقل والبلوغ والعدالة والمروأة وأن لا يجر بتلك الشهادة منفعة الى نفسه ولا يدفع عنه بها مضرة ولا يكون معروفا بكثرة الغلط والسهو وأن لا يكون بينه و بين من شهد عليه عداوة فشهادة الكافر مردودة لان الكذاب لا تقبل شهادته فالذى يكذب على الله أولى بأن ترد شهادته وجوز بعض أهل الرأى شهادة أهل الذمة بعضهم على بعض ولا تقبل شهادة العبيد وأجازها ابن سريج وابن سيرين وهو قول أنس ولا قول للمجنون معتبر حتى تصح شهادته ولا تجوز شهادة الصبيان وسئل ابن عباس عن ذلك فقال لا تجوز لان الله تعالى قال ممن ترضون من الشهداء والعدالة شرط وهو أن لا يكون الشاهد مقيما على الكبائر مصرا على الصغائر والمروءة شرط وهى ما تتصل بآداب النفس مما يعلم ان تاركه قليل الحياء وهى حسن الهيئة والسيرة والعشرة والصناعة فان كان الرجل يظهر فى نفسه شيأ مما يستحى أمثاله من اظهاره فى الاغلب علم بذلك قلة مروءته وترد شهادته وانتفاء التهمة شرط فلا تقبل شهادة العدو على عدوه وان كان مقبول الشهادة على غيره لانه متهم فى حق عدوه لا فى حق غيره ولا تقبل شهادة الرجل لولده ووالده وتقبل شهادته عليهما ولا تقبل شهادة من يجر بشهادته الى نفسه نفعا عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة ولا مجلود حدا ولا ذى غمر على أخيه ولا مجرب شهادة ولا القانع أهل البيت لهم ولا ظنين فى ولاء ولا قرابة قال الفزارى القانع التابع أخرجه الترمذى قوله لا تجوز شهادة خائن أراد بالخيانة الخيانة فى الدين والمال والامانة فان من ضيع شيأ من أوامر الله أو ارتكب شيأ مما نهى الله عنه لا يكون عدلا والغمر بكسر الغين الحقد والقانع هو السائل المستطعم وقيل المنقطع الى قوم يخدمهم فترد شهادته للتهمة فى جر النفع الى نفسه لان التابع لاهل البيت ينتفع بما يصير اليهم والظنين ٢ بكسر الظاء المتهم ۞ وقوله تعالى (أن تضل احداهما) أى تنسى احدى المرأتين (فتذكر احداهما الاخرى) لان الغالب على طباع النساء النسيان فاقيمت المرأتان مقام الرجل الواحد حتى لو نسيت احداهما تذكرها الاخرى فتقول حضرنا مجلس كذا وسمعنا كذا فيحصل بذلك الذكرى وحكى عن سفيان بن عيينة أنه قال هو من الذكر أى تجعل احداهما الاخرى ذكرا والمعنى ان شهادتهما تصير كشهادة ذكر والقول الاول أصح لانه معطوف على تضل وهو النسيان وقوله تعالى (ولا يأب الشهداء اذا مادعوا) يعنى اذا دعوا لتحمل الشهادة وسماهم شهداء لانهم يكونون شهداء وهذا أمر ايجاب

والحق (واستشهدوا شهيدين) واطلبوا أن يشهد لكم شهيدان على الدين (من رجالكم) من رجال المؤمنين والحرية والبلوغ شرط مع الاسلام وشهادة الكفار بعضهم على بعض مقبولة عندنا (فان لم يكونا) فان لم يكن الشهيدان (رجلين فرجل وامرأتان) فليشهد رجل وامرأتان شهادة الرجال مع النساء تقبل فيما عدا الحدود والقصاص (ممن ترضون من الشهداء) ممن تعرفون عدالتهم وفيه دليل على أن غير المرضى شاهد (أن تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى) لاجل أن تنسى احداهما الشهادة فتذكرها الاخرى ان تضل احداهما على الشرط فتذكر بالرفع والتشديد حمزة كقوله ومن عاد فينتقم الله منه فتذكر مكى وبصرى من الذكر لا من التذكر (ولا يأب الشهداء اذا مادعوا) لاداء الشهادة أو للتحمل لئلا تتوى حقوقهم وسماهم شهداء قبل التحمل تنزيلا لما يشارف منزلة الكائن فالاول للفرض والثانى

٢ قوله بكسر الظاء كذا فى النسخ بايدينا والصواب بفتح الظاء اهـ

منسب (ولا يأب الشهداء) [illegible] للكاتب الخياط [illegible] ولا تملوا (أن تكتبوه) الضمير للدين أو الحق (صغيرا أو كبيرا) على أي حال كان الحق من صغر أو كبر وفيه دلالة جواز السلم في الثياب لأن ما يكال أو يوزن لا يقال فيه الصغير والكبير وإنما يقال في [illegible] ويجوز أن يكون الضمير للكتاب وأن يكتبوه مختصرا أو مشبعا (إلى أجله) إلى وقته الذي اتفق الغريمان على تسميته (ذلكم) إشارة إلى أن تكتبوه لأنه في معنى المصدر أي ذلك الكتب (أقسط) أعدل من القسط وهو العدل (عند الله) ظرف لأقسط (وأقوم للشهادة) وأعون على إقامة الشهادة وبني أفعلا التفضيل أي أقسط وأقوم من أقسط وأقام على مذهب سيبويه (وأدنى أن لا ترتابوا) وأقرب من انتفاء الريب للشاهد والحاكم وصاحب الحق فإنه قد يقع الشك في المقدار والصفات وإذا رجعوا إلى المكتوب زال ذلك وانتفى الشك (إلا أن تكون تجارة حاضرة) بالرفع عاصم أي إلا أن تقع تجارة حاضرة أو إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة على كان التامة أي الا أن تقع تجارة حاضرة وهي بالنصب والاسم تجارة حاضرة والخبر (تديرونها بينكم) تديرونها ومعنى إدارتها تعاطيهم إياها يدا بيد (فليس عليكم جناح أن لا تكتبوها) يعني الا أن تتبايعوا بيعا ناجزا يدا بيد فلا بأس أن لا تكتبوها لأنه لا يتوهم فيه ما يتوهم في التداين (وأشهدوا إذا تبايعتم) أمر بالإشهاد على التبايع مطلقا ناجزا أو كالئا لأنه أحوط وأبعد من وقوع الاختلاف أو أريد به وأشهدوا إذا تبايعتم هذا التبايع يعني التجارة الحاضرة على أن الإشهاد كاف فيه دون الكتابة والأمر للندب (ولا يضار كاتب ولا شهيد) يحتمل البناء للفاعل لقراءة عمر رضي الله عنه ولا يضارر وللمفعول لقراءة ابن عباس رضي الله عنهما ولا يضارر والمعنى نهي الكاتب والشهيد عن ترك الإجابة إلى ما يطلب منهما وعن التحريف والزيادة والنقصان أو النهي عن الضرار بهما بأن يعجلا عن مهم ويلزا أو لا يعطى الكاتب حقه من الجعل أو يحمل الشهيد مؤنة مجيئه من بلد (وإن تفعلوا) وإن تضاروا (فإنه) فإن الضرار (فسوق بكم) [illegible] (واتقوا الله) في مخالفة أوامره (ويعلمكم الله) شرائع دينه (والله بكل شيء عليم) لا يلحقه [illegible] (وإن كنتم) أيها المتداينون (على سفر) مسافرين (ولم تجدوا

كاتبا

[illegible] وقال قوم يجب إذا لم يكن غيره فإن كان غيره فهو مخير وقيل هو أمر ندب فهو مخير في جميع الأحوال وقال بعضهم عنى بقوله ولا يأب الشهداء إقامة الشهادة وأداءها ومعنى الآية ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا لأداء الشهادة التي تحملوها وقيل الآية في الأمرين جميعا أي في التحمل والأداء والإقامة إذا كان فارغا وقيل الشاهد بالخيار ما لم يشهد فإذا أشهد وجب عليه الأداء (ولا تسأموا) أي ولا تملوا ولا تضجروا (أن تكتبوه) الضمير راجع إلى الحق أو الدين (صغيرا) كان (أو كبيرا) يعني قليلا كان الحق أو الدين أو كثيرا (إلى أجله) يعني إلى محل الحق والدين (ذلكم) يعني ذلك الكتاب (أقسط عند الله) يعني أعدل عند الله لأنه أمر به واتباع أمره أعدل من تركه (وأقوم للشهادة) يعني أن الكتابة تذكر الشهود (وأدنى ألا ترتابوا) يعني وأحرى وأقرب إلى أن لا تشكوا في الشهادة (إلا أن تكون تجارة حاضرة) أي إلا أن تقع تجارة حاضرة يدا بيد (تديرونها بينكم) أي تتبايعونها بينكم ليس فيها أجل (فليس عليكم جناح) أي لا حرج عليكم (أن لا تكتبوها) يعني التجارة الحاضرة والتجارة تقليب الأموال بقصد طلب النماء والزيادة بالأرباح وإنما رخص الله تعالى في ترك الكتابة والإشهاد في هذا النوع من التجارة لكثرة ما يجري بين الناس فلو كلفوا فيها الكتابة والإشهاد لشق ذلك عليهم ولأنه إذا أخذ كل واحد من المتبايعين حقه من صاحبه في ذلك المجلس لم يكن هناك خوف التجاحد فلا حاجة إلى الكتابة والإشهاد (وأشهدوا إذا تبايعتم) يعني فيما جرت العادة بالإشهاد فيه وقد اختلفوا في هذا الأمر فقيل هو للوجوب فيجب أن يشهد في صغير الحق وكبيره ونقده ونسيئته وقيل هو أمر ندب واستحباب وهو قول الجمهور وقيل إنه منسوخ بقوله فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذي اؤتمن أمانته ✿ وقوله تعالى (ولا يضار كاتب ولا شهيد) هذا نهي من المضارة وأصله يضارر بكسر الراء الأولى ومعناه لا يضارر الكاتب فيأبى أن يكتب والشاهد فيأبى أن يشهد أو يضار الكاتب فيزيد أو ينقص أو يحرف ما أملي عليه فيضر صاحب الحق أو من عليه الحق وكذلك الشاهد وقيل أصله يضارر بفتح الراء الأولى ومعناه أن يضار الكاتب والشاهد بأن يدعوهما وهما مشغولان [illegible] فإذا طالب غيرهما فيقول الداعي [illegible] فيلحقهما الحرج [illegible] (وإن تفعلوا) يعني ما نهيتم عنه من الضرار (فإنه فسوق بكم) أي معصية وخروج عن الأمر (واتقوا الله) أي خافوا الله [illegible] (ويعلمكم الله) يعني ما يكون إرشادا لكم في أمر الدنيا كما يكون إرشادكم في أمر الدين (والله بكل شيء عليم) يعني أن الله تعالى عالم بجميع مصالح عباده لا يخفى عليه شيء من ذلك ✿ قوله عز وجل (وإن كنتم على سفر) أي في سفر (ولم تجدوا

[illegible] (فرهان) [illegible] مقبوضة [illegible]
[illegible] كتابة ولا اشهاد [illegible] الاشهاد [illegible]
[illegible] فيقوم التوثق بالارتهان مقام التوثق بالكتاب والاشهاد لا أن السفر شرط لجواز الارتهان [illegible]
[illegible] علم ان الرهن يصح بالايجاب والقبول بدون القبض (فان أمن بعضكم بعضا) فان أمن بعض الدائنين بعض [illegible]
[illegible] التوثق بالكتابة والشهود والرهن (فليؤد الذي اؤتمن أمانته) دينه [illegible]

كاتبا) يعني ولم تجدوا آلات الكتابة (فرهن) جمع رهن [illegible] (مقبوضة) يعني فارتهنوا [illegible] ووضعه ليكون وثيقة لكم بالحق والحكم [illegible] الرهن الدوام يقال رهن الشيء اذا دام وثبت [illegible] الرهن [illegible] عند الانسان مما ينوب مناب ما أخذ منه دينا فان قلت [illegible] الارتهان في السفر [illegible] بعضهم دون [illegible] وقد صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم [illegible] أبي الشحم [illegible] ولم يكن ذلك في سفر [illegible] يجوز الارتهان [illegible] لما كان السفر [illegible] والشهود [illegible] ان الله تعالى [illegible] وقال مجاهد لا يجوز الرهن الا في السفر [illegible] ظاهر الآية أجاب الجمهور عن ظاهر الآية بأن الكلام انما خرج على الاعم الاغلب لا [illegible] الحق الا بالقبض فلو رهن ولم يسلم [illegible] يجوز لان [illegible] ما دام شيء من الحق باقيا ﴿﴾ قوله تعالى (فان أمن بعضكم بعضا) يعني فان كان الذي عليه الحق أمينا عند صاحب الحق [illegible] (فليؤد الذي اؤتمن أمانته) يعني فليؤد المديون الذي عليه الحق الذي كان أمينا في ظن الدائن الذي هو صاحب الحق [illegible] حتى سمى الدين أمانة [illegible] الله عليه [illegible] مجحوده فلم [illegible] عليه ولم يأخذ منه رهنا حث المديون على أن يكون عند ظن الدائن الذي ائتمنه وأن يؤدي اليه حقه الذي ائتمنه عليه ولم [illegible] منه [illegible] كيا بقوله (وليتق الله ربه) أي المديون في أداء الحق [illegible] غير مماطلة ولا جحود [illegible] الحسنة [illegible] الشهود فقال تعالى (ولا تكتموا الشهادة) [illegible] وذلك لان الشاهد [illegible] اقامة الشهادة [illegible] كتمان الشهادة [illegible] عليه فقال تعالى (ومن يكتمها) يعني الشهادة (فانه آثم قلبه) أي فاجر قلبه [illegible] لان الافعال [illegible] في القلب فلما كان [illegible] الى القلب [illegible] الشهادة [illegible] (والله بما تعملون عليم) [illegible] ﴿﴾ قوله عز وجل (لله ما في السموات وما في الارض) [illegible] (وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) وهذا [illegible]

[illegible]
للمديون [illegible]
[illegible]
[illegible] (ولا [illegible]
[illegible]
على الجاهلية [illegible]
[illegible]
وانما أسند الى القلب [illegible]
والجملة هي الآثمة [illegible]
[illegible] الشهادة
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] أسند
الى [illegible]
[illegible]
[illegible] القلب

التي ان صلحت صلح الجسد كله وان فسدت فسد الجسد كله [illegible] القلوب أعظم من أفعال سائر الجوارح ألا ترى ان أصل الحسنات والسيئات الايمان والكفر وهما من أفعال القلوب فاذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب فقد شهد له بأنه من معاظم الذنوب وعن ابن عباس رضي الله عنهما أكبر الكبائر الاشراك بالله [illegible] شهادة الزور وكتمان الشهادة (والله بما تعملون عليم) من كتمان الشهادة واظهارها (عليم) لا يخفى عليه شيء (لله ما في السموات وما في الارض) [illegible] (وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه) يعني من السوء (يحاسبكم به الله) يكافئكم [illegible] ولا يدخل الوساوس وحديث النفس فيما

النفس والخواطر الفاسدة التي ترد على القلب ولا يتمكن من دفعها والمؤاخذة بها تجري مجرى تكليف ما لا يطاق وأجيب عن هذا بأن الخواطر الحاصلة في القلب على قسمين فمنها ما يوطن الانسان نفسه عليه ويعزم على اظهاره الى الوجود فهذا مما يؤاخذ الانسان به والقسم الثاني ما يخطر بالبال ولا يمكن دفعه عن نفسه لكن يكرهه ولا يعزم على فعله ولا اظهاره الى الوجود فهذا معفو عنه بدليل قوله تعالى لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت وقال قوم ان هذه الآية خاصة ثم اختلفوا في وجه تخصيصها فقال بعضهم هي متصلة بالآية التي قبلها وانما نزلت في كتمان الشهادة ومعنى الآية وان تبدوا ما في أنفسكم أيها الشهود من كتمان الشهادة أو تخفوه أي تخفوا الكتمان يحاسبكم به الله وهذا ضعيف لان اللفظ عام وان كان واردا عقيب قضية فلم يلزم صرفه اليها وقال بعضهم ان الآية نزلت فيمن يتولى الكافرين من المؤمنين والمعنى وان تبدوا أي تظهروا ما في أنفسكم يعني من ولاية الكفار أو تخفوه فلا تظهروه يحاسبكم به الله وذهب أكثر العلماء الى أن الآية عامة ثم اختلفوا فقال قوم هي منسوخة بالآية التي بعدها ويدل عليه ما روي عن أبي هريرة قال لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم لله ما في السموات وما في الارض وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الركب فقالوا أي رسول الله كلفنا من الاعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير فلما اقترأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله تعالى في أثرها آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير فلما فعلوا ذلك نسخها الله عز وجل فأنزل الله تعالى لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا قال نعم ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا قال نعم ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به قال نعم واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين قال نعم أخرجه مسلم وله عن ابن عباس نحوه وفيه قد فعلت بدل نعم (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى تجاوز لامتي ما حدثت به أنفسها ما لم يعملوا به أو يتكلموا به وفي رواية ما وسوست به صدورها وقال قوم ان الآية غير منسوخة لان النسخ لا يرد الا على الامر والنهي ولا يرد على الاخبار وقول الله تعالى يحاسبكم به الله خبر فلا يرد عليه النسخ ثم اختلفوا في تأويلها فقال قوم قد أثبت الله تعالى للقلب كسبا فقال بما كسبت قلوبكم وليس لله عبد أسر عملا أو أعلنه من حركة جارحة أو همة قلب الا يعلمه الله ثم يخبره به ويحاسبه عليه ثم يغفر ما يشاء ويعذب بما يشاء وقال آخرون في معنى الآية ان الله تعالى يحاسب خلقه بجميع ما أبدوا من أعمالهم أو أخفوه ويعاقبهم عليه غير ان معاقبتهم على ما أخفوه أخف مما لم يعملوا به وهو ما يحدث لهم في الدنيا من النوائب والمصائب والامور التي يحزنون عليها وهذا قول عائشة عن أمية أنها سألت عائشة عن قول الله عز وجل وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله وعن قوله من يعمل سوءا يجز به فقالت ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هذه معاتبة الله العبد بما يصيبه من الحمى والنكبة حتى البضاعة يضعها في يد قميصه فيفقدها فيفزع لها حتى ان العبد ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الاحمر من الكير أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وله عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا واذا أراد الله بعبده الشر أمسك عليه بذنبه حتى يوافيه به يوم القيامة وقال قوم في معنى الآية وان تبدوا ما في أنفسكم يعني مما عزمتم عليه أو تخفوه أي ولا تبدوه

يخفيه الانسان لان ذلك مما ليس في وسعه الخلو منه ولكن ما اعتقده وعزم عليه والحاصل ان عزم الكفر كفر وخطرة الذنوب من غير عزم معفوة وعزم الذنوب اذا ندم عليه ورجع عنه واستغفره مغفور فأما اذا هم بسيئة وهو ثابت على ذلك الا انه منع عنه بمانع ليس باختياره فانه لا يعاقب على ذلك عقوبة فعله أي بالعزم على الزنا لا يعاقب عقوبة الزنا وهل يعاقب عقوبة عزم الزنا قيل لا لقوله عليه السلام ان الله عفا عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به والجمهور على ان الحديث في الخطرة دون العزم وان المؤاخذة في العزم ثابتة واليه مال الشيخ أبو منصور وشمس الائمة الحلواني رحمهما الله والدليل عليه قوله تعالى ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة الآية وعن عائشة رضي الله عنها ما هم العبد بالمعصية من غير عمل يعاقب على ذلك بما يلحقه من الهم والحزن في الدنيا وفي أكثر التفاسير انه لما نزلت هذه الآية جزعت الصحابة رضي الله عنهم وقالوا أنؤاخذ بكل ما حدثت به أنفسنا فنزل قوله آمن الرسول الى قوله لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت فتعلق ذلك بالكسب دون العزم وفي بعضها انها نسخت بهذه الآية والمحققون على ان النسخ يكون في الاحكام لا في الاخبار وأتم

وأنتم عازمون عليه يحاسبكم به الله فأما حديث النفس مما لم تعزموا عليه فان ذلك مما لا يكلف الله نفسا الا وسعها ولا يؤاخذ به قال عبد الله بن المبارك قلت لسفيان أيؤاخذ العبد بالهمة فقال اذا كانت عزما أخذ بها وقيل معنى المحاسبة الاخبار والتعريف فيرجع معنى هذه المحاسبة الى كونه تعالى عالما بكل ما في الضمائر والسرائر مما ظهر أو خفي ومعنى الآية وان تبدوا ما في أنفسكم فتعملوا به أو تخفوه مما أضمرتم ونويتم يحاسبكم به الله أي يخبركم به و يعرفكم اياه ثم يغفر للمؤمنين اظهارا لفضله و يعذب الكافرين اظهارا لعدله يروى عن ابن عباس و يدل عليه أنه قال يحاسبكم به الله ولم يقل يؤاخذكم به لان المحاسبة غير المؤاخذة و يدل عليه أيضا ما روى عن صفوان بن محرز المازني قال بينما ابن عمر يطوف اذ عرض له رجل فقال يا أبا عبد الرحمن أخبرني ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم في النجوى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يدنى المؤمن من ربه حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه تعرف ذنب كذا وكذا فيقول أعرف رب أعرف مرتين فيقول الله سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم تطوى صحيفة حسابه وأما الآخرون وهم الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين أخرجه في الصحيحين ۞ وقوله تعالى (فيغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء) قال ابن عباس يغفر لمن يشاء الذنب العظيم و يعذب من يشاء على الذنب الصغير لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون (والله على كل شئ قدير) يعني انه تعالى قادر على كل شئ كامل القدرة فيغفر للمؤمنين فضلا و يعذب الكافرين عدلا ۞ قوله عز وجل (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه) عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله دخل قلوبهم منها شئ لم يدخل من شئ فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم فانزل الله آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون الآية لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا قال قد فعلت ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا قال قد فعلت ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين قال قد فعلت أخرجه الترمذي وقال حديث حسن قال الزجاج لما ذكر الله في هذه السورة فرض الصلاة والزكاة والصوم والحج والطلاق والايلاء والحيض والجهاد وأقاصيص الانبياء وما ذكر من كلام الحكماء ختم السورة بذكر تصديق نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بجميع ذلك ومعنى آمن الرسول صدق الرسول يعني محمدا صلى الله عليه وسلم والمعنى صدق الرسول ان هذا القرآن وجملة ما فيه من الشرائع والاحكام منزل من عند الله عز وجل (والمؤمنون) أي وصدق المؤمنون بذلك أيضا (كل) أي كل واحد من المؤمنين (آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) فهذه أربع مراتب من أصول الايمان وضروريا ته فأما الايمان بالله فهو أن يؤمن بان الله واحد أحد لا شريك له ولا نظير له و يؤمن بجميع أسمائه الحسنى وصفاته العليا وانه حي عالم قادر على كل شئ وأما الايمان بالملائكة فهو أن يؤمن بوجودهم وأنهم معصومون مطهرون وانهم السفرة الكرام البررة وانهم الوسائط بين الله تعالى و بين رسله وأما الايمان بكتبه فهو ان يؤمن بان الكتب المنزلة من عند الله هي وحي الله الى رسله وانها حق وصدق من عند الله بغير شك ولا ارتياب وان القرآن لم يحرف ولم يبدل ولم يغير وانه مشتمل على المحكم والمتشابه وان محكمه يكشف عن متشابهه وأما الايمان بالرسل فهو أن يؤمن بانهم رسل الله الى عباده وأمناؤه على وحيه وانهم معصومون وانهم أفضل الخلق وان بعضهم أفضل من بعض وقد أنكر بعضهم ذلك وتمسك بقوله تعالى لا نفرق بين أحد من رسله وأجيب عنه بان المقصود من هذا الكلام شئ آخر وهو اثبات نبوة الانبياء والرد على اليهود والنصارى الذين يقرون بنبوة موسى وعيسى و ينكرون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقد ثبت بالنص الصريح تفضيل بعض الانبياء على بعض بقوله تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ومعنى قوله (لا نفرق بين أحد من رسله) فنؤمن

و بالادغام أبو عمرو وك.. في الاشارة والبشارة وقال صاحب الكشاف مدغم الراء في اللام لاحن مخطئ لان الراء حرف مكرر فيصير بمنزلة المضاعف ولا يجوز ادغام المضاعف وراو يه عن أبي عمرو مخطئ مرتين لانه يلحن و ينسب الى أعلم الناس بالعربية ما يؤذن بجهل عظيم (والله على كل شئ) من المغفرة والتعذيب وغيرهما (قدير) قادر (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون) ان عطف المؤمنون على الرسول كان الضمير الذي التنوين نائب عنه في (كل) راجع الى الرسول والمؤمنون أي كلهم (آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) ووقف عليه وان كان مبتدأ كان عليه كل مبتدأ ثانيا والتقدير كل منهم وآمن خبر المبتدأ الثاني والجملة خبر الاول وكان الضمير للمؤمنين ووحد ضمير كل في آمن على معنى كل واحد منهم آمن وكتابه حمزة وعلى يعني القرآن أو الجنس (لا نفرق) أي يقولون لا نفرق بل نؤمن بالكل (بين أحد من رسله) أحد في معنى الجمع ولذا دخل عليه بين وهو لا يدخل الا على اسم يدل على أكثر من واحد تقول المال بين القوم ولا تقول المال بين زيد

(وقالوا سمعنا) أجبنا قولك (وأطعنا) أمرك (غفرانك) أي اغفر لنا غفرانك فهو منصوب بفعل مضمر (ربنا وإليك المصير) المرجع وفيه اقرار بالبعث والجزاء والآية تدل على بطلان الاستثناء في الايمان وعلى بقاء الايمان لمرتكب الكبائر (لا يكلف الله نفسا) يحكى عنهم أو مستأنف (الا وسعها) الا طاقتها وقدرتها لان التكليف لا يرد الا بفعل يقدر عليه المكلف كذا في شرح التأويلات وقال صاحب الكشاف الوسع ما يسع الانسان ولا يضيق عليه ولا يحرج فيه أي لا يكلفها الا ما يتسع فيه طوقه و يتيسر عليه دون مدى غاية الطاقة والمجهود فقد كان في طاقة الانسان أن يصلي أكثر من الخمس و يصوم أكثر من الشهر و يحج أكثر من حجة (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) ينفعها ما كسبت من خير و يضرها ما اكتسبت من شر وخص الخير بالكسب والشر بالاكتساب لان الافتعال للانكماش والنفس تنكمش في الشر وتتكلف للخير (ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا) تركنا أمرا من أوامرك سهوا (أو أخطأنا) ودل هذا على جواز المؤاخذة في النسيان والخطأ خلافا للمعتزلة لامكان التحرز عنهما في الجملة ولولا جواز المؤاخذة بهما لم يكن للسؤال معنى

ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى بل نؤمن بجميع رسله وفي الآية اضمار تقديره وقالوا يعني المؤمنين لا نفرق بين أحد من رسله (وقالوا سمعنا وأطعنا) يعني سمعنا قولك وأطعنا أمرك والمعنى قال المؤمنون سمعنا قول ربنا فيما أمرنا به وأطعناه فيما ألزمنا من فرائضه واستعبدنا به من طاعته وسلمنا له فيما أمرنا به ونهانا عنه (غفرانك ربنا) أي نسألك غفرانك ربنا أو يكون المعنى اغفر لنا غفرانك ربنا (واليك المصير) يعني قالوا اليك يا ربنا مرجعنا ومعادنا فاغفر لنا ذنوبنا روى البغوي بغير سند عن حكيم بن جابر أن جبريل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل قد أثنى عليك وعلى أمتك فسل تعطه قال بتلقين الله تعالى غفرانك ربنا واليك المصير ﴿ قوله عز وجل (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) قيل يحتمل أن يكون ابتداء خبر من الله تعالى و يحتمل أن يكون حكاية عن المؤمنين وفيه اضمار كأنه قال الله تعالى عنهم وقالوا لا يكلف الله نفسا الا وسعها يعني طاقتها والوسع اسم لما يسع الانسان ولا يضيق عليه قال ابن عباس وأكثر المفسرين ان هذه الآية نسخت حديث النفس والوسوسة وذلك انه لما نزل وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه ضج المؤمنون منها وقالوا يا رسول الله نتوب من عمل اليد والرجل واللسان فكيف نتوب من الوسوسة وحديث النفس فنزلت هذه الآية والمعنى انكم لا تستطيعون أن تمتنعوا من الوسوسة وحديث النفس كان ذلك مما لم تطيقوه وقال ابن عباس في رواية عنه هم المؤمنون خاصة وسع الله عليهم أمر دينهم ولم يكلفهم ما لا يستطيعون كما قال يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر وقال تعالى وما جعل عليكم في الدين من حرج وسئل سفيان بن عيينة عن قوله لا يكلف الله نفسا الا وسعها قال الا يسرها ولم يكلفها فوق طاقتها وهذا قول حسن لان الوسع ما دون الطاقة وقيل معناه ان الله تعالى لا يكلف نفسا الا وسعها فلا يتعبدها بما لا تطيق (لها ما كسبت) يعني للنفس ما عملت من الخير فلها أجره وثوابه (وعليها ما اكتسبت) يعني من الشر عليها وزره وعقابه وقيل في معنى الآية ان الله تعالى لا يؤاخذ أحدا بذنب غيره ﴿ قوله عز وجل (ربنا لا تؤاخذنا) وهذا تعليم من الله تعالى عباده المؤمنين كيف يدعونه ومعناه قولوا ربنا لا تؤاخذنا أي لا تعاقبنا وانما جاء بلفظ المفاعلة وهو فعل واحد لان المسيء قد أمكن من نفسه وطرق السبيل اليها بفعله فكأنه أعدى عليه من يعاقبه بذنبه و يأخذه به (ان نسينا أو أخطأنا) ٢ فيه وجهان أحدهما انه من النسيان الذي هو السهو وهو ضد التذكر قيل كان بنو اسرائيل اذا نسوا شيأ مما أمروا به أو أخطؤا عجلت لهم العقوبة فيحرم عليهم شيء مما كان حلالا لهم من مطعم أو مشرب على حسب ذلك الذنب فأمر الله المؤمنين ان يسألوه ترك مؤاخذتهم بذلك فان قلت أليس فعل الناسي في محل العفو بدليل قوله صلى الله عليه وسلم رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه فاذا كان النسيان في محل العفو قطعا فما معنى طلب العفو عنه بالدعاء قلت الجواب عنه من وجوه الاول ان النسيان على ضربين * أما الاول فهو ما كان من العبد على وجه التضييع والتفريط وهو ترك ما أمر بفعله كمن رأى على ثوبه دما فأخر ازالته عنه ثم نسي فصلى فيه وهو على ثوبه فيعد مقصرا اذ كان يلزمه المبادرة الى ازالته اما اذا لم يره فيعذر فيه وكذا لو ترك ما أمر بفعله على وجه السهو أو ارتكب منهيا عنه من غير قصد اليه كأكل آدم عليه السلام من الشجرة التي نهي عنها على وجه النسيان من غير عزم على المخالفة كما قال تعالى ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما فمثل هذا يجب ان يسأل الله تعالى ان يعفو له عن ذلك وأما الضرب الثاني فهو كمن ترك صلاة ثم نسيها أو ترك دراسة القرآن بعد ان حفظه حتى نسيه فهذا لا يعذر بنسيانه وسهوه لانه فرط فثبت ان النسيان على قسمين واذا كان كذلك صح طلب العفو والغفران عن النسيان * الوجه الثاني من الجواب ان الصحابة رضي الله

عنهم

٢ قوله فيه وجهان لم يذكر الا وجها واحدا ولعله اكتفى عن الثاني بما ذكره في الجواب عن الايراد الذي أورده ومع ذلك فيه ما فيه اهـ مصححه

عنهم كانوا من المتقين لله حق تقاته فان صدر منهم مالا ينبغي فلا يكون الا على سبيل السهو والنسيان فطلبهم العفو والغفران لما يقع منهم على سبيل السهو والنسيان انما هو لشدة خوفهم وتقواهم * الوجه الثالث ان المقصود من هذا الدعاء هو التضرع والتذلل لله تعالى واما الخطأ في قوله أو أخطأنا ففيه وجهان أيضا * أحدهما ان يأتي العبد ما نهي عنه بقصد وارادة فذلك خطأ منه وهو به مأخوذ فيحسن طلب العفو والغفران لذلك الفعل الذي ارتكبه * الوجه الثاني أن يكون الخطأ على سبيل الجهل والظن بان له فعله كمن ظن ان وقت الصلاة لم يدخل وهو في يوم غيم فأخرها حتى خرج وقتها فهذا من الخطأ الموضوع عن العبد لكن طلب العفو والغفران لسبب تقصيره وقوله (ربنا ولا تحمل علينا اصرا) يعني عهدا ثقيلا وميثاقا غليظا فلا نستطيع القيام به فتعذبنا بنقضه وتركه (كما حملته على الذين من قبلنا) يعني اليهود فلم يقوموا به فعذبتهم عليه وقيل معناه ولا تشدد علينا كما شددت على اليهود من قبلنا وذلك ان الله تعالى فرض عليهم خمسين صلاة وأمرهم باداء ربع أموالهم زكاة ومن أصاب منهم ثوبه نجاسة قطعها ومن أصاب ذنبا أصبح وذنبه مكتوب على بابه ونحو هذا من الاثقال والآصار التي كتبت عليهم فسأل المسلمون ربهم ان يصونهم عن أمثال هذه التغليظات والعهود الثقيلة وقد أجاب الله تعالى دعاءهم برحمته وخفف عنهم بفضله وكرمه فقال تعالى وما جعل عليكم في الدين من حرج وقيل الاصر ذنب لا توبة له فسأل المؤمنون ربهم ان يعصمهم من مثله (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) يعني لا تكلفنا من الاعمال ما لا نطيق القيام به لثقل حمله علينا وتكليف ما لا يطاق على وجهين * أحدهما ما ليس في قدرة العبد احتماله كتكليف الاعمى النظر والزمن العدو فهذا النوع من التكليف الذي لا يكلف الله به عبده بحال * الوجه الثاني من تكليف ما لا يطاق هو ما في قدرة العبد احتماله مع المشقة الشديدة والكلفة العظيمة كتكليف الاعمال الشاقة والفرائض الثقيلة كما كان في ابتداء الاسلام صلاة الليل واجبة ونحوه فهذا الذي سأل المؤمنون ربهم لا يحملهم ما لا طاقة لهم به واستدل بهذه الآية من يقول ان تكليف ما لا يطاق جائز اذ لو لم يكن جائزا لما حسن طلب تخفيفه بالدعاء من الله تعالى وقيل في قوله ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به هو حديث النفس والوسوسة وقيل هيجان الغلمة وقيل هو الحب وقيل هو شماتة الاعداء وقيل هو الفرقة والقطيعة وقيل هو مسخ القردة والخنازير نعوذ بالله من ذلك كله (واعف عنا) أي تجاوز عن ذنوبنا وامحها عنا (واغفر لنا) أي استر علينا ذنوبنا ولا تفضحنا (وارحمنا) أي تغمدنا برحمة تنجينا بها من عقابك فانه ليس بناج من عقابك الا من رحمته وقيل انا لا ننال العمل بطاعتك ولا نترك معصيتك الا برحمتك وأصل الرحمة رقة تقتضي الاحسان الى المرحوم واذا وصف بها الله تعالى فليس يراد بها الا الاحسان المجرد والتفضل على العباد دون الرقة وقيل ان طلب العفو هو ان يسقط عنه عقاب ذنوبه وطلب المغفرة هو ان يستر عليه صونا له من الفضيحة كأن العبد يقول أطلب منك العفو واذا عفوت عني فاستره علي فاذا عفا الله تعالى عن العبد وستره طلب الرحمة التي هي الانعام والاحسان ليفوز بالنعيم والثواب (أنت مولانا) أي ناصرنا وحافظنا وولينا ومتولي أمورنا (فانصرنا على القوم الكافرين) يعني الجاحدين الذين عبدوا غيرك وجحدوا وحدانيتك قال ابن عباس في قوله تعالى غفرانك ربنا قال قد غفرت لكم وفي قوله لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا قال لا أؤاخذكم ربنا ولا تحمل علينا اصرا قال لا أحمل عليكم ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به قال لا أحملكم واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين قال قد عفوت عنكم وغفرت لكم ورحمتكم ونصرتكم على القوم الكافرين كان معاذ اذا ختم سورة البقرة قال آمين (م) عن عبد الله بن مسعود قال لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى به الى سدرة المنتهى وهي في السادسة واليها ينتهي ما يعرج من الارض فيقبض منها واليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها قال اذ يغشى السدرة ما يغشى قال فراش من ذهب قال فاعطي رسول الله صلى الله عليه وسلم

(ربنا ولا تحمل علينا اصرا) عبأ يأصر حامله أي يحبسه مكانه لثقله استعير للتكليف الشاق من نحو قتل الانفس وقطع موضع النجاسة من الجلد والثوب وغير ذلك (كما حملته على الذين من قبلنا) كاليهود (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) من العقوبات النازلة بمن قبلنا (واعف عنا) امح سيآتنا (واغفر لنا) واستر ذنوبنا وليس بتكرار فالاول للكبائر والثاني للصغائر (وارحمنا) بتثقيل ميزاننا مع افلاسنا والاول من المسخ والثاني من الخسف والثالث من الغرق (أنت مولانا) سيدنا ونحن عبيدك أو ناصرنا أو متولي أمورنا (فانصرنا على القوم الكافرين) فمن حق المولى أن ينصر عبيده في الحديث من قرأ آمن الرسول الى آخره في ليلة كفتاه وفيه من قرأهما بعد العشاء الآخرة اجزأتاه عن قيام الليل ويجوز أن يقال قرأت سورة البقرة أو قرأت البقرة لما روي عن علي رضي الله عنه خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش وقال بعضهم يكره ذلك بل يقال قرأت السورة التي تذكر فيها البقرة والله أعلم

ثلاثا أعطى الصلوات الخمس وخواتيم سورة البقرة وغفر لمن لا يشرك بالله من أمته شيأ المقحمات المقحمات الذنوب العظام التي تولج مرتكبها النار وأصل الاقتحام الولوج (ق) عن أبي مسعود الانصاري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلة كفتاه معناه كفتاه من كل ما يحذر من كل هامة وشيطان فلا يقربه تلك الليلة وقيل كفتاه عن قيام الليل (م) عن ابن عباس قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنده جبريل عليه السلام إذ سمع نقيضا من فوقه فرفع جبريل بصره الى السماء فقال هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط الا اليوم فنزل منه ملك فقال هذا ملك نزل من السماء الى الارض لم ينزل قط الا اليوم فسلم وقال أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منهما الا أعطيته عن النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله كتب انا كتابا قبل ان يخلق السموات والارض بألفي عام أنزل فيه آيتين ختم بهما سورة البقرة ولا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان أخرجه الترمذي وقال حديث غريب آخر تفسير سورة البقرة والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

﴿تفسير سورة آل عمران﴾

مدنية وهي مائتا آية وثلاثة آلاف وأربعمائة وثمانون كلمة وأربعة عشر ألفا وخمسمائة وعشرون حرفا

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

قوله عز وجل (الم الله لا اله الا هو الحي القيوم) قال المفسرون نزلت هذه الآية في وفد نجران وكانوا ستين راكبا قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم منهم ثلاثة نفر اليهم يؤول أمرهم وهم العاقب واسمه عبد المسيح وهو أمير القوم وصاحب مشورتهم الذي لا يصدرون الا عن رأيه والسيد واسمه الايهم وهو ثمالهم القائم بمالهم وصاحب رحلهم الذي يقوم بأمر طعامهم وشرابهم وأبو حارثة بن علقمة وهو أسقفهم وحبرهم وكان ملوك الروم يكرمونه لما بلغهم عن علمه واجتهاده في دينه فدخلوا مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يصلي العصر وعليهم ثياب الحبرات جبب وأردية يقول من رآهم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ما رأينا وفدا مثلهم وقد حانت صلاتهم فقاموا للصلاة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوهم فصلوا الى المشرق فلما فرغوا كلم السيد والعاقب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلما قالا قد أسلمنا قبلك قال كذبتما يمنعكما من الاسلام دعواكما لله ولدا وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير قالا ان لم يكن عيسى ولد الله فمن أبوه وخاصموه جميعا في عيسى فقال النبي صلى الله عليه وسلم ألستم تعلمون انه لا يكون ولد الا وهو يشبه أباه قالوا بلى قال ألستم تعلمون ان ربنا حي لا يموت وان عيسى يأتي عليه الموت قالوا بلى قال ألستم تعلمون ان ربنا قيم على كل شيء يحفظه ويرزقه قالوا بلى قال فهل يملك عيسى من ذلك شيأ قالوا لا قال ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء قالوا بلى قال فهل يعلم عيسى من ذلك الا ما علم قالوا لا قال ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء وربنا لا يأكل ولا يشرب قالوا بلى قال ألستم تعلمون ان عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ثم غذي كما يغذى الصبي ثم كان يطعم ويشرب ويحدث قالوا بلى قال فكيف يكون هذا كما زعمتم فسكتوا فأنزل الله صدر سورة آل عمران الى بضع وثمانين آية منها زاد بعضهم فقالوا يا محمد ألست تزعم أن عيسى كلمة الله وروح منه قال بلى قالوا حسبنا فأبوا الا الجحود فأنزل الله ردا عليهم الم الله لا اله الا هو يعني ان كانت منازعتكم يا معشر النصارى في معرفة الاله فهو الله الذي لا اله الا هو فكيف تثبتون له ولدا فبين تعالى أن أحدا لا يستحق العبادة سواه لانه الواحد الاحد ليس معه اله ولا له ولد ثم أتبع ذلك بما يجري مجرى الدلالة عليه فقال تعالى الحي القيوم أما الحي في صفة الله تعالى فهو الدائم الباقي الذي لا يصح عليه الموت وأما القيوم فهو القائم بذاته والقائم بتدبير

﴿سورة آل عمران﴾

نزلت بالمدينة وهي مائتا آية

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

(الم الله) حركت الميم لالتقاء الساكنين أعني سكونها وسكون لام الله وفتحت لخفة الفتحة ولم تكسر للياء وكسر الميم قبلها تحاميا عن توالي الكسرات وليس فتح الميم لسكونها وسكون ياء قبلها اذ لو كان كذلك لوجب فتحها في حم ولا يصح أن يقال ان فتح الميم هو فتحة همزة الله نقلت الى الميم لان تلك الهمزة همزة وصل تسقط في الدرج وتسقط معها حركتها ولو جاز نقل حركتها لجاز اثباتها واثباتها غير جائز وأسكن يزيد والاعشى الميم وقطعا الالف والباقون بوصل الالف وفتح الميم والله مبتدأ (لا اله الا هو) خبره وخبر لا مضمر والتقدير لا اله في الوجود الا هو وهو في موضع الرفع بدل من موضع لا واسمه (الحي القيوم) خبر مبتدأ محذوف أي هو الحي أو بدل من هو والقيوم فيعول من قام وهو القائم بالقسط والقائم على كل نفس بما كسبت

الخلق ومصالحهم فيما يحتاجون اليهم في معاشهم ومعادهم (نزل عليك الكتاب) يعني القرآن (بالحق) أي بالصدق والعدل (مصدقا لما بين يديه) يعني لما قبله من الكتب في التوحيد والنبوات والاخبار وبعض الشرائع وقوله لما بين يديه من مجاز الكلام وذلك أن ما بين يديه فهو امامه فقيل لكل شئ تقدم على الشئ هو بين يديه لغاية ظهوره واشتهاره (وأنزل التوراة والانجيل من قبل) أي من قبل القرآن فان قلت لم قيل نزل الكتاب وأنزل التوراة والانجيل قلت لان القرآن نزل منجما مفصلا في أوقات كثيرة ونزل هو للتكثير وأنزل التوراة والانجيل جملة واحدة (هدى للناس) يعني أن انزال التوراة والانجيل قبل القرآن كان هدى للناس فان قلت كيف وصف القرآن في أول البقرة بانه هدى للمتقين ووصف هنا التوراة والانجيل بانهما هدى للناس قلت انما وصف القرآن بانه هدى للمتقين لانهم هم الذين انتفعوا به واتبعوه ووصف هنا التوراة والانجيل بانهما هدى للناس لان المناظرة كانت مع نصارى نجران وهم يعتقدون صحة التوراة والانجيل فلهذا السبب قال هنا هدى للناس وقيل ان قوله هدى للناس يعود الى الكتب الثلاثة يعني القرآن المتقدم ذكره والتوراة والانجيل وانما وصف هذه الكتب بانها هدى للناس لما فيها من الشرائع والاحكام (وأنزل الفرقان) يعني الفارق بين الحق والباطل قيل أراد به القرآن وانما أعاد ذكره تعظيما لشأنه ومدحا له لكونه فارقا بين الحق والباطل وقيل انما أعاد ذكره ليبين انه تعالى أنزله بعد التوراة والانجيل ليجعله فارقا بين ما اختلف فيه اليهود والنصارى في أمر عيسى عليه السلام وقيل المراد به الكتب الثلاثة لانها كلها هدى للناس ومفرقة بين الحلال والحرام والحق والباطل وقال السدي في الآية تقديم وتأخير تقديره وأنزل التوراة والانجيل والفرقان هدى للناس (ان الذين كفروا بآيات الله) يعني الكتب المنزلة وغيرها قيل أراد بهم نصارى وفد نجران كفروا بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل ان خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ فهو يتناول كل من كفر بشئ من آيات الله تعالى (لهم عذاب شديد والله عزيز) أي غالب لا يغلب (ذو انتقام) يعني ممن كفر به والانتقام المبالغة في العقوبة ۞ قوله عز وجل (ان الله لا يخفى عليه شئ في الارض ولا في السماء) أي لا يخفى عليه شئ من أمر العالم وهو المطلع على أحوالهم فقوله ان الله لا يخفى عليه شئ في الارض ولا في السماء اشارة الى كمال علمه المتعلق بجميع المعلومات (هو الذي يصوركم في الارحام) التصوير جعل الشئ على صورة والصورة هيئة يكون عليها الشئ بالتأليف والارحام جمع رحم (كيف يشاء) يعني الصور المختلفة المتفاوتة في الخلقة ذكرا أو أنثى أبيض أو أسود حسنا أو قبيحا كاملا أو ناقصا والمعنى انه الذي يصوركم في ظلمات الارحام صورا مختلفة في الشكل والطبع واللون وذلك من نطفة (ق) عن عبد الله بن مسعود قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق ان خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث اليه ملك بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح فوالله الذي لا اله غيره ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها (ق) عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وكل الله بالرحم ملكا فيقول أي رب نطفة أي رب علقة أي رب مضغة فاذا أراد الله أن يقضي خلقها قال يا رب أذكر أم أنثى أشقي أم سعيد فما الرزق فما الاجل فيكتب له ذلك في بطن أمه وقيل ان الآية واردة في الرد على النصارى وذلك ان عيسى عليه السلام كان يخبر ببعض الغيب فيقول أكلت في دارك كذا وصنعت كذا وانه أحيا الموتى وأبرأ الاكمه والابرص وخلق من الطين طيرا فادعت النصارى فيه الالهية وقالوا ما قدر على ذلك الا لانه اله فرد الله

(نزل) أي هو نزل (عليك الكتاب) القرآن (بالحق) حال أي نزله حقا ثابتا (مصدقا لما بين يديه) لما قبله (وأنزل التوراة والانجيل) هما اسمان أعجميان وتكلف اشتقاقهما من الورى والنجل ووزنهما بتفعلة وافعيل انما يصح بعد كونهما عربيين وانما قيل نزل الكتاب وأنزل التوراة والانجيل لان القرآن نزل منجما ونزل الكتابان جملة (من قبل) من قبل القرآن (هدى للناس) لقوم موسى وعيسى أو لجميع الناس (وأنزل الفرقان) أي جنس الكتب لان الكل يفرق بين الحق والباطل أو الزبور وكرر ذكر القرآن بما هو نعت له تفخيما لشأنه (ان الذين كفروا بآيات الله) من كتبه المنزلة وغيرها (لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام) ذو عقوبة شديدة لا يقدر على مثلها منتقم (ان الله لا يخفى عليه شئ في الارض ولا في السماء) أي في العالم فعبر عنه بالسماء والارض أي هو مطلع على كفر من كفر وايمان من آمن وهو مجازيهم عليه (هو الذي يصوركم في الارحام كيف يشاء) من الصور المختلفة

(لا اله الا هو العزيز) في سلطانه (الحكيم) في تدبيره روي انه قدم وفد بني نجران وهم ستون راكبا أميرهم العاقب وعمدتهم السيد وأسقفهم وحبرهم أبو حارثة خاصموا في أن عيسى ان لم يكن ولد الله فمن أبوه فقال عليه السلام ألستم تعلمون انه لا يكون ولد الا وهو يشبه أباه قالوا بلى قال ألم تعلموا ان الله تعالى حي لا يموت وعيسى يموت وان ربنا قيم على العباد يحفظهم ويرزقهم وعيسى لا يقدر على ذلك وانه لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء وعيسى لا يعلم الا ما علم وانه صور عيسى في الرحم كيف شاء فحملته أمه ووضعته وأرضعته وكان يأكل ويحدث وربنا منزه عن ذلك كله فانقطعوا فانزل فيهم صدر سورة آل عمران الى بضع وثمانين آية (هو الذي أنزل عليك الكتاب) القرآن (منه) من الكتاب (آيات محكمات) أحكمت عبارتها بان حفظت من الاحتمال والاشتباه (هن أم الكتاب) أصل الكتاب تحمل المتشابهات عليها وترد اليها (وأخر) وآيات أخر (متشابهات) مشتبهات محتملات ومثال ذلك الرحمن على العرش استوى فالاستواء يكون بمعنى الجلوس وبمعنى القدرة والاستيلاء ولا يجوز الاول على الله تعالى بدليل المحكم وهو قوله ليس كمثله شيء أو المحكم ما أمر الله به في كل كتاب أنزله نحو قوله قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم الآيات وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه الآيات والمتشابه ما وراءه أو ما لا يحتمل الا وجها واحدا وما احتمل أوجها أو ما يعلم تأويله وما لم يعلم تأويله أو الناسخ الذي يعمل به والمنسوخ الذي لا يعمل به وانما لم يكن كل القرآن محكما لما في المتشابه من الابتلاء به والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه ولما في تقادح العلماء واتعابهم القرائح في استخراج معانيه ورده الى المحكم من الفوائد الجليلة والعلوم الجمة ونيل الدرجات عند الله تعالى

تعالى عليهم بذلك وأخبر ان الاله المستحق لهذا الاسم هو الذي لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء وانه المصور في الارحام كيف يشاء وان عيسى عليه السلام ممن صور في الرحم فنبه بكونه مصورا في الرحم على انه عبد مخلوق كغيره وانه يخفى عليه ما لا يخفى على الله عز وجل (لا اله الا هو العزيز الحكيم) وهذا أيضا في الرد على النصارى حيث قالوا عيسى ولد الله كانه قال كيف يكون ولدا لله وقد صوره الله في الرحم

❁ قوله عز وجل (هو الذي أنزل عليك الكتاب) يعني القرآن (منه آيات محكمات) يعني مبينات مفصلات أحكمت عبارتها من احتمال التأويل والاشتباه سميت محكمة من الاحكام كانه تعالى أحكمها فمنع الخلق من التصرف فيها لظهورها ووضوح معناها (هن أم الكتاب) يعني هن أصل الكتاب الذي يعول عليه في الاحكام ويعمل به في الحلال والحرام فان قلت كيف قال هن أم الكتاب ولم يقل أمهات الكتاب قلت لان الآيات في اجتماعها وتكاملها كالآية الواحدة وكلام الله كله شيء واحد وقيل ان كل آية منهن أم الكتاب كما قال وجعلنا ابن مريم وأمه آية يعني أن كل واحد منهما آية (وأخر) جمع أخرى (متشابهات) يعني أن لفظه يشبه لفظ غيره ومعناه يخالف معناه فان قلت قد جعله هنا محكما ومتشابها وجعله في موضع آخر كله محكما فقال في أول هود الر كتاب أحكمت آياته وجعله في موضع آخر كله متشابها فقال تعالى في الزمر الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها فكيف الجمع بين هذه الآيات قلت حيث جعله كله محكما أراد أنه كله حق وصدق ليس فيه عبث ولا هزل وحيث جعله كله متشابها أراد أن بعضه يشبه بعضا في الحسن والحق والصدق وحيث جعله هنا بعضه محكما وبعضه متشابها فقد اختلفت عبارات العلماء فيه فقال ابن عباس المحكمات الثلاث آيات التي في آخر سورة الانعام وهي قوله تعالى قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ونظيرها في بني اسرائيل وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه الآيات وعنه ان الآيات المحكمة هي الناسخ والمتشابهات هي الآيات المنسوخة وبه قال ابن مسعود وقتادة والسدي وقيل ان المحكمات ما فيه أحكام الحلال والحرام والمتشابهات ما سوى ذلك يشبه بعضه بعضا ويصدق بعضه بعضا وقيل ان المحكمات ما أطلع الله عباده على معناه والمتشابه ما استأثر الله بعلمه فلا سبيل لاحد الى معرفته نحو الخبر عن اشراط الساعة مثل الدجال ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى عليه السلام وطلوع الشمس من مغربها وفناء الدنيا وقيام الساعة فجميع هذا مما استأثر الله بعلمه وقيل ان المحكم ما لا يحتمل من التأويل الا وجها واحدا والمتشابه ما يحتمل أوجها وروي ذلك عن الشافعي وقيل ان المحكم سائر القرآن والمتشابه هي الحروف المقطعة في أوائل السور قال ابن عباس ان رهطا من اليهود منهم حيي بن أخطب وكعب بن الاشرف ونظراؤهما أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقال له حيي بلغنا أنك أنزل عليك الم فأنشدك الله أأنزلت عليك قال نعم قال ان كان ذلك حقا فاني أعلم مدة ملك أمتك هي احدى وسبعون سنة فهل أنزل عليك غيرها قال نعم المص قال فهذه أكثر هي احدى وستون ومائة فهل أنزل عليك غيرها قال نعم الر قال هذه أكثر هي مائتان واحدى وثلاثون سنة فهل من غيرها قال نعم المر قال هذه أكثر هي مائتان واحدى وسبعون سنة ولقد اختلط علينا فلا ندري أبكثيرة نأخذ أم بقليله ونحن ممن لا يؤمن بهذا فانزل الله هذه الآية قوله تعالى فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه وقيل ان المحكم ما لم تتكرر ألفاظه والمتشابه ما تكررت ألفاظه وقيل ان المحكم ما استقل بنفسه ولم يحتج الى بيان والمتشابه ما احتاج الى بيان وقيل ان المحكم هو الامر والنهي والوعد

والوعد والوعيد والمتشابه هو القصص والامثال فان قلت انما نزل القرآن لبيان الدين وارشاد العباد وهدايتهم فما فائدة المتشابه وهلا كان كله محكما قلت ذكر العلماء عن هذا السؤال أجوبة أحدها ان القرآن أنزل بالفاظ العرب ولغاتهم وكلام العرب على ضربين أحدهما الايجاز للاختصار والموجز الذى لا يخفى على سامعه ولا يحتمل غير ظاهره والاطالة لبيان المراد والتوكيد الضرب الثانى المجاز والكنايات والاشارات والتلويحات واغماض بعض المعانى وهذا الضرب هو المستحسن عند العرب والبديع فى كلامهم فانزل الله تعالى القرآن على هذين الضربين ليتحقق عجزهم عن الاتيان بمثله فكأنه قال عارضوه باى الضربين شئتم ولو نزل كله محكما واضحا لقالوا هلا أنزل بالضرب المستحسن عندنا الجواب الثانى ان الله تعالى أنزل المتشابه لفائدة عظيمة وهى ان يشتغل أهل العلم والنظر بردهم المتشابه الى المحكم فيطول بذلك فكرهم ويتصل بالبحث عن معانيه اهتمامهم فيثابون على تعبهم كما أثيبوا على عباداتهم ولو أنزل القرآن كله محكما لاستوى فى معرفته العالم والجاهل ولم يفضل العالم على غيره ولماتت الخواطر وخمدت الفكرة ومع الغموض تقع الحاجة الى الفكرة والحيلة الى استخراج المعانى وقد قيل فى عيب الغنى انه يورث البلادة وفى فضيلة الفقر انه يورث الفطنة وقيل انه يبعث على الحيلة لانه اذا احتاج احتال الجواب الثالث ان أهل كل علم يجعلون فى علومهم معانى غامضة ومسائل دقيقة ليختبروا بذلك اذهان المتعلمين منهم على انتزاع الجواب لانهم اذا قدروا على انتزاع المعانى الغامضة كانوا على الواضح أقدر فلما كان ذلك حسنا عند العلماء جاز أن يكون ما أنزل الله تعالى من المتشابه على هذا النحو الجواب الرابع ان الله تعالى أنزل المتشابه فى كتابه مختبرا به عباده ليقف المؤمن عنده ويرد علمه الى عالمه فيعظم بذلك ثوابه ويرتاب به المنافق فيداخله الزيغ فيستحق بذلك العقوبة كما ابتلى بنو اسرائيل بالنهر والله أعلم بمراده ۞ وقوله تعالى (فاما الذين فى قلوبهم زيغ) أى ميل عن الحق وقيل الزيغ الشك واختلفوا فى المعنى بهم والمشار اليهم فقيل هم وفد نجران الذين خاصموا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عيسى عليه السلام وقالوا ألست تزعم ان عيسى روح الله وكلمته قال بلى قالوا حسبنا فانزل الله هذه الآية وقيل هم اليهود لانهم طلبوا معرفة مدة بقاء هذه الامة واستخراجه بحساب الجمل من الحروف المقطعة فى أوائل السور وقيل هم المنافقون وقيل هم الخوارج وكان قتادة يقول ان لم يكونوا الحرورية والسبئية فلا أدرى من هم وقيل هم جميع المبتدعة (فيتبعون ما تشابه منه) يعنى يحيلون المحكم على المتشابه والمتشابه على المحكم ويقولون ما بال هذه الآية عمل بها كذا وكذا ثم نسخت وقيل كل من احتج لباطله بالمتشابه فهو المعنى بهذه الآية (ق) عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات الى وما يذكر الا أولو الالباب فقال اذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فاولئك الذين سماهم الله فاحذروهم ۞ وقوله تعالى (ابتغاء الفتنة) أى طلب الشرك والكفر وقيل طلب الشبهات واللبس ليضلوا بها جهالهم وقيل طلب افساد ذات البين (وابتغاء تأويله) أى تفسيره وأصل التأويل فى اللغة المرجع والمصير تقول آل الامر الى كذا اذا رجع اليه وتسمى العاقبة تأويلا لان الامر يصير اليه قال ابن عباس فى قوله وابتغاء تأويله أى طلب بقاء ملك محمد صلى الله عليه وسلم وقيل المراد بهم الكفار طلبوا متى يبعثون وكيف احياؤهم بعد الموت وقيل هو طلب تفسير المتشابه وعلمه (وما يعلم تأويله الا الله) يعنى تأويل المتشابه وقيل لا يعلم انقضاء ملك هذه الامة الا الله تعالى لان انقضاء ملكها مع قيام الساعة ولا يعلم ذلك الا الله وقيل يجوز أن يكون للقرآن تأويل استأثر الله بعلمه ولم يطلع عليه أحدا من خلقه كعلم قيام الساعة ووقت طلوع الشمس من مغربها وخروج الدجال ونزول عيسى بن مريم وعلم الحروف المقطعة وأشباه ذلك مما استأثر الله بعلمه فالايمان به واجب وحقائق علومه مفوضة الى الله تعالى وهذا قول أكثر المفسرين وهو مذهب ابن مسعود

(فاما الذين فى قلوبهم زيغ) ميل عن الحق وهم أهل البدع (فيتبعون ما تشابه) فيتعلقون بالمتشابه الذى يحتمل ما يذهب اليه المبتدع مما لا يطابق المحكم ويحتمل ما يطابقه من قول أهل الحق (منه ابتغاء الفتنة) طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم ويضلوهم (وابتغاء تأويله) وطلب ان يؤولوه التأويل الذى يشتهونه (وما يعلم تأويله الا الله) أى لا يهتدى الى تأويله الحق الذى يجب أن يحمل عليه الا الله

وابن عباس فى رواية عنه وأبى بن كعب وعائشة وأكثر التابعين فعلى هذا القول تم الكلام عند قوله الا الله فيوقف عليه ثم ابتدأ فقال عز من قائل (والراسخون فى العلم) أى الثابتون فى العلم وهم الذين أتقنوا علمهم بحيث لا يدخل فى علمهم شك (يقولون آمنا به) قال ابن عباس سماهم الله راسخين فى العلم بقولهم آمنا به فرسوخهم فى العلم هو الايمان به وقال عمر بن عبد العزيز فى هذه الآية انتهى علم الراسخين فى العلم بتأويل القرآن الى ان قالوا آمنا به (كل من عند ربنا) يعنى المحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ وما علمناه منه وما لم نعلم ونحن معتمدون فى المتشابه بالايمان به ونكل معرفته الى الله تعالى وفى المحكم يجب علينا الايمان به والعمل بمقتضاه وروى عن ابن عباس أنه قال تفسير القرآن على أربعة أوجه فمنه تفسير لا يسع أحدا جهله وتفسير تعرفه العرب بألسنتها وتفسير تعلمه العلماء وتفسير لا يعلمه الا الله وقيل ان الواو فى قوله والراسخون فى العلم واو عطف يعنى ان تأويل المتشابه يعلمه الله ويعلمه الراسخون فى العلم وهم مع علمهم يقولون آمنا به روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انه كان يقول أنا من الراسخين فى العلم وعن مجاهد عنه أنا ممن يعلم تأويله ووجه هذا القول ان الله تعالى أنزل كتابه لينتفع به عباده ولا يجوز أن يكون فى القرآن شئ لا يعرفه أحد من الامة وفى المراد بالراسخين فى العلم هنا قولان أحدهما انهم مؤمنو أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وأصحابه دليله قوله تعالى لكن الراسخون فى العلم منهم والقول الثانى ان الراسخين هم العلماء العاملون بعلمهم سئل أنس بن مالك عن الراسخين فى العلم فقال العالم العامل بما علم المتبع له وقيل الراسخ فى العلم من وجد فى علمه أربعة أشياء التقوى فيما بينه وبين الله تعالى والتواضع فيما بينه وبين الناس والزهد فيما بينه وبين الدنيا والمجاهدة فيما بينه وبين النفس (وما يذكر الا أولو الالباب) أى وما يتعظ بما فى القرآن الا ذوو العقول وهذا ثناء من الله عز وجل على الذين قالوا آمنا به كل من عند ربنا ۞ قوله عز وجل (ربنا لا تزغ قلوبنا) أى ويقول الراسخون فى العلم ربنا لا تزغ قلوبنا أى لا تملها عن الحق والهدى كما أزغت قلوب الذين فى قلوبهم زيغ (بعد اذ هديتنا) أى وفقتنا لدينك والايمان بالمحكم والمتشابه من كتابك (وهب لنا من لدنك رحمة) أى أعطنا توفيقا وتثبيتا للذى نحن عليه من الايمان والهدى وقيل هب لنا تجاوزا ومغفرة (انك أنت الوهاب) الهبة العطية الخالية عن الاعواض والاغراض والوهاب فى صفة الله تعالى انه تعالى يعطى كل أحد على قدر استحقاقه (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قلوب بنى آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك هذا من أحاديث الصفات وللعلماء فيه قولان أحدهما الايمان به وامراره كما جاء من غير تعرض لتأويل ولا تكييف ولا لمعرفة معناه بل نؤمن به كما جاء وانه حق ونكل علمه الى مراد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم هذا القول هو مذهب أهل السنة من سلف الامة وخلفها من أهل الحديث وغيرهم والقول الثانى انه يتأول بحسب ما يليق به وان ظاهره غير مراد قال تعالى ليس كمثله شئ فعلى هذا المراد هو المجاز كما يقال فلان فى قبضتى وفى كفى يريد انه تحت قدرته وفى تصرفه لانه حال فى كفه فمعنى الحديث انه سبحانه وتعالى متصرف فى قلوب عباده وغيرها كيف شاء لا يمتنع عليه منها شئ ولا يفوته ما أراده منها كما لا يمتنع على الانسان ما بين أصبعيه فخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بما يفهمونه ويعلمونه من أنفسهم وانما ثنى لفظ الاصبعين والقدرة واحدة لانه جرى على المعهود من التمثيل بحسب ما اعتادوه وان كان غير مقصود به التثنية أو الجمع وهذا مذهب جمهور المتكلمين وغيرهم من المتأخرين وانما خص القلوب بالذكر لفائدة وهى أن الله تعالى جعل القلوب محلا للخواطر والارادات والنيات وهى مقدمات الافعال ثم جعل سائر الجوارح تابعة للقلوب

(والراسخون فى العلم) والذين رسخوا أى ثبتوا فيه وتمكنوا وعضوا فيه بضرس قاطع مستأنف عند الجمهور والوقف عندهم على قوله الا الله وفسروا المتشابه بما استأثر الله بعلمه وهو مبتدأ عندهم والخبر (يقولون آمنا به) وهو ثناء منه تعالى عليهم بالايمان على التسليم واعتقاد الحقية بلا تكييف وفائدة انزال المتشابه الايمان به واعتقاد حقية ما أراد الله به ومعرفة قصور افهام البشر عن الوقوف على ما لم يجعل لهم اليه سبيلا ويعضده قراءة أبى ويقول الراسخون وعبد الله ان تأويله الا عند الله ومنهم من لا يقف عليه ويقول بان الراسخين فى العلم يعلمون المتشابه ويقولون كلام مستأنف موضح لحال الراسخين بمعنى هؤلاء العالمون بالتأويل يقولون آمنا به أى بالمتشابه أو بالكتاب (كل) من متشابهه ومحكمه (من عند ربنا) من عند الله الحكيم الذى لا يتناقض كلامه (وما يذكر) وما يتعظ وأصله يتذكر (الا أولو الالباب) أصحاب العقول وهو مدح للراسخين بالقاء الذهن وحسن التأمل وقيل يقولون حال من الراسخين (ربنا لا تزغ قلوبنا) لا تملها عن الحق بخلق الميل فى القلوب (بعد اذ هديتنا) للعمل بالمحكم والتسليم للمتشابه (وهب لنا من لدنك رحمة) من عندك نعمة بالتوفيق والتثبيت (انك أنت الوهاب) كثير الهبة والآية من مقول الراسخين ويحتمل الاستئناف أى قولوا وكذلك التى بعدها

فى

وهى (ربنا انك جامع الناس ليوم) أى تجمعهم لحساب يوم أو لجزاء يوم (لا ريب فيه) لا شك فى وقوعه (ان الله لا يخلف الميعاد) الموعد
والمعنى ان الالهية تنافى خلف الميعاد كقولك ان الجواد لا يخيب سائله أى لا يخلف ماوعد المسلمين والكافرين

فى الحركات والسكنات والله أعلم ۞ قوله عز وجل (ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه) أى ليوم القضاء وقيل اللام بمعنى فى أى فى يوم لا ريب فيه أى لا شك فيه انه كائن وهو يوم القيامة (ان الله لا يخلف الميعاد) هذا من بقية دعاء الراسخين فى العلم وذلك أنهم طلبوا من الله تعالى أن يصرف قلوبهم عن الزيغ وأن يخصهم بالهداية والرحمة وذلك من مصالح الدين والدنيا ثم انهم اتبعوا ذلك بقولهم ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ومعناه انا نعلم انك جامع الناس للجزاء فى يوم القيامة ونعلم ان وعدك حق وانك لا تخلف الميعاد فمن أزغت قلبه فهو هالك ومن مننت عليه بالهداية والرحمة فهو ناج من العذاب سعيد ۞ قوله عز وجل (ان الذين كفروا) يعنى برسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس هم قريظة والنضير (لن تغنى) أى لن تنفع ولن تدفع (عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيأ) أى من عذاب الله شيأ وقيل من بمعنى عند أى عند الله شيأ (وأولئك هم وقود النار كدأب آل فرعون) قال ابن عباس كفعل آل فرعون وصنيعهم فى الكفر وقيل كسنة آل فرعون وقيل كعادة آل فرعون والمعنى ان عادة هؤلاء الكفار فى تكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجحود الحق كعادة آل فرعون فانهم كذبوا موسى وصدقوا فرعون (والذين من قبلهم) يعنى كفار الامم الماضية مثل عاد وثمود وغيرهم (كذبوا بآياتنا) يعنى لما جاءتهم بها الرسل (فأخذهم الله بذنوبهم) أى فعاقبهم الله بسبب تكذيبهم (والله شديد العقاب) وقيل فى معنى الآية ان الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم عند حلول النقمة والعقوبة مثل آل فرعون وكفار الامم الخالية فأخذناهم فلم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم ۞ قوله عز وجل (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون) قرئ بالتاء والياء فيهما فمن قرأ بالياء المنقوطة تحت فمعناه بلغهم يا محمد أنهم سيغلبون ويحشرون ومن قرأ بالتاء المنقوطة فوق فمعناه قل لهم ستغلبون وتحشرون (الى جهنم) قيل أراد بالذين كفروا مشركى قريش والمعنى قل لكفار مكة ستغلبون يوم بدر وتحشرون فى الآخرة الى جهنم فلما نزلت هذه الآية قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم يوم بدر ان الله غالبكم وحاشركم الى جهنم وقيل ان أبا سفيان جمع جماعة من قومه بعد وقعة بدر فانزل الله تعالى هذه الآية وقيل ان هذه الآية نزلت فى اليهود وقال ابن عباس ان يهود المدينة قالوا لما هزم رسول الله صلى الله عليه وسلم المشركين يوم بدر هذا والله النبى الذى بشر به موسى لا ترد له راية وأرادوا اتباعه ثم قال بعضهم لبعض لا تعجلوا حتى تنظروا وقعة أخرى فلما كان يوم أحد ونكب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شكوا وغلب عليهم الشقاء فلم يسلموا وكان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد الى مدة فنقضوا العهد وانطلق كعب بن الاشرف فى ستين راكبا الى مكة ليستفزهم فأجمعوا أمرهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله تعالى هذه الآية وقال ابن عباس وغيره لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا يوم بدر ورجع الى المدينة جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع وقال يا معشر اليهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش يوم بدر وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم فقد عرفتم انى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم فقالوا يا محمد لا يغرنك انك لقيت قوما أغمارا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة وانا والله لو قاتلناك لعرفت انا نحن الناس فانزل الله عز وجل قل للذين كفروا يعنى اليهود ستغلبون أى ستهزمون وتحشرون يعنى فى الآخرة الى جهنم (وبئس المهاد) أى الفراش والمعنى بئس ما مهد لهم فى النار ۞ قوله عز وجل (قد كان لكم آية فى فئتين التقتا) قيل الخطاب للمؤمنين يروى ذلك عن ابن مسعود والحسن وقيل هو خطاب لكفار مكة فيكون عطفا على الذى قبله ٢ فيخرج

من الثواب والعقاب (ان الذين كفروا) برسول الله (لن تغنى) تنفع أو تدفع (عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله) من عذابه (شيأ) من الاشياء (وأولئك هم وقود النار) حطبها (كدأب آل فرعون والذين من قبلهم) الدأب مصدر دأب فى العمل اذا كدح فيه فوضع موضع ما عليه الانسان من شأنه وحاله والكاف مرفوع المحل تقديره دأب هؤلاء الكفرة فى تكذيب الحق كدأب من قبلهم من آل فرعون وغيرهم أو منصوب المحل بلن تغنى أى لن تغنى عنهم مثل ما لم تغن عن أولئك كداب بلاهمز حيث كان أبو عمرو (كذبوا بآياتنا) تفسير لدأبهم مما فعلوا أو فعل بهم على انه جواب سؤال مقدر عن حالهم ويجوز أن يكون حالا أى قد كذبوا (فأخذهم الله بذنوبهم) بسبب ذنوبهم يقال أخذته بكذا أى جازيته عليه (والله شديد العقاب) شديد عقابه فالاضافة غير محضة (قل للذين كفروا) هم مشركو مكة (ستغلبون) يوم بدر

 (وتحشرون الى جهنم) من الجهنام وهى بئر عميقة وبالياء فيهما حمزة وعلى (وبئس المهاد) المستقر جهنم (قد كان لكم آية) الخطاب لمشركى قريش (فى فئتين التقتا) يوم بدر

٢ قوله فيخرج على قول ابن عباس ليس بظاهر لان قول ابن عباس فى الآية التى قبل هذه انها فى اليهود ولم يتقدم له قول انها فى كفار قريش حتى يخرج هذا عليه اهـ مصححه

على قول ابن عباس وقيل هو خطاب لليهود قاله ابن جرير فان قلت لم قال قد كان لكم آية ولم يقل قد كانت لان الآية مؤنثة قلت كل ماليس بمؤنث حقيقي يجوز تذكيره وقيل انه رد المعنى الى البيان فمعناه قد كان لكم بيان فذهب الى المعنى وترك اللفظ وقال الفراء انما ذكر لانه حالت الصفة بين الفعل والاسم المؤنث فذكر الفعل وكل ماجاء من هذا فهذا وجهه ومعنى الآية قد كان لكم آية أى عبرة ودلالة على صدق ما أقول انكم ستغلبون فى فئتين أى فرقتين وأصلها فىء الحرب لان بعضهم يفىء الى بعض أى يرجع التقتا يعنى يوم بدر (فئة تقاتل فى سبيل الله) أى فى طاعة الله وهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وكانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا سبعة وسبعون رجلا من المهاجرين ومائتان وستة وثلاثون رجلا من الانصار وكان صاحب راية المهاجرين على بن أبى طالب وصاحب راية الانصار سعد بن عبادة وكان فيهم سبعون بعيرا وفرسان وكان معهم من السلاح ستة أدرع وثمانية سيوف ۞ وقوله تعالى (وأخرى كافرة) أى وفرقة أخرى كافرة وهم مشركو مكة وكانوا تسعمائة وخمسين رجلا من المقاتلة وكان رأسهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وكان فيهم مائة فرس وكانت وقعة بدر أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة وقوله تعالى (يرونهم مثليهم) قرئ بالتاء يعنى ترون أهل مكة ضعفى المسلمين يامعشر اليهود وذلك أن جماعة من اليهود كانوا قد حضروا قتال بدر لينظروا على من تكون الدائرة وان النصر فرأوا المشركين مثلى عدد المسلمين ورأوا النصر للمسلمين فكان ذلك معجزة وقرئ يرونهم بالياء واختلفوا فى وجه قراءة الياء فجعل بعضهم الرؤية للمسلمين ثم له تأويلان أحدهما يرى المسلمون المشركين مثليهم كما هم فان قلت كيف قال مثليهم وانما كانوا ثلاثة أمثالهم قلت هذا مثل قول الرجل وعنده درهم انا محتاج الى مثلى هذا الدرهم يعنى الى مثليه سواه فيكون ثلاثة دراهم ووجه آخر وهو أن يكون الله تعالى أظهر للمسلمين من عدد المشركين القدر الذى يعلم المؤمنون انهم يغلبونهم لازالة الخوف من قلوبهم وهذا التأويل الثانى هو الاصح فقلل الله المشركين فى أعين المسلمين حتى رأوهم مثليهم فان قلت كيف الجمع بين قوله تعالى يرونهم مثليهم وبين قوله واذ يريكموهم اذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم وكيف يقال ان المشركين استكثروا المسلمين أو المسلمين استكثروا المشركين وان الفئتين تساويا فى استقلال احداهما الأخرى قلت ان التقليل والتكثير كانا فى حالتين مختلفتين فان قيل ان الفئة الرائية هم المسلمون فانهم رأوا عدد المشركين عند بداية القتال على ماهم عليه ثم قلل الله المشركين فى أعين المسلمين حتى اجترؤا عليهم فصبروا على قتالهم بذلك السبب قال ابن مسعود نظرنا الى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا ثم نظرناهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلا واحدا وفى رواية أخرى عنه قال لقد قللوا فى أعيننا حتى قلت لرجل الى جنبى تراهم سبعين قال أراهم مائة قال فاسرنا منهم رجلا فقلنا كم كنتم قال ألفا وان قلنا ان الفئة الرائية هم المشركون على قول بعضهم ان الرؤية راجعة الى المشركين يعنى رأى المشركون المسلمين مثليهم فقلل الله المسلمين فى أعين المشركين فى أول القتال ليجترؤا عليهم ولا ينصرفوا فلما أخذوا فى القتال كثر الله المسلمين فى أعين المشركين ليجبنوا فيكون ذلك سبب خذلانهم وقد روى أن المشركين لما أسروا يوم بدر قالوا للمسلمين كم كنتم قالوا كنا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا قالوا يعنى المشركين ما كنا نراكم الا تضعفون علينا فكان فى وقعة بدر أحوال فى التكثير والتقليل وما ذلك الا اظهار للقدرة التامة وقوله تعالى (رأى العين) أى فى رأى العين (والله يؤيد) أى يقوى (بنصره من يشاء ان فى ذلك) يعنى الذى ذكر من النصرة وقيل رؤية الجيش مثليهم (لعبرة) أى لآية والعبرة الدلالة الموصلة الى اليقين المؤدية الى العلم وأصلها من العبور كانه طريق يعبرونه فيوصلهم الى مرادهم وقيل العبرة هى التى يعبر منها من منزلة الجهل الى منزلة العلم (لاولى الابصار) لذوى العقول والبصائر ۞ قوله عزوجل (زين للناس) قال أهل السنة المزين هو الله تعالى لانه تعالى خالق لجميع أفعال العباد ولان الله

(فئة تقاتل فى سبيل الله) وهم المؤمنون (وأخرى) وفئة أخرى (كافرة يرونهم مثليهم) يرى المشركون المسلمين مثلى عدد المشركين ألفين أو مثلى عدد المسلمين ستمائة ونيفا وعشرين أراهم الله اياهم مع قلتهم أضعافهم ليهابوهم ويجبنوا عن قتالهم ترونهم نافع أى ترون يامشركى قريش المسلمين مثلى فئتكم الكافرة أو مثلى أنفسهم ولا يناقض هذا ما قال فى سورة الانفال ويقللكم فى أعينهم لانهم قللوا أولا فى أعينهم حتى اجترؤا عليهم فلما اجتمعوا كثروا فى أعينهم حتى غلبوا فكان التقليل والتكثير فى حالتين مختلفتين ونظيره من المحمول على اختلاف الاحوال فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان وقفوهم انهم مسئولون وتقليلهم تارة وتكثيرهم أخرى فى أعينهم أبلغ فى القدرة واظهار الآية ومثليهم نصب على الحال كانه من رؤية العين بدليل قوله (رأى العين) يعنى رؤية ظاهرة مكشوفة لالبس فيها (والله يؤيد بنصره من يشاء) كما أيد أهل بدر بتكثيرهم فى أعين العدو (ان فى ذلك) فى تكثير القليل (لعبرة) لعظة (لاولى الابصار) لذوى البصائر (زين للناس) المزين هو الله عند الجمهور

للابتلاء كقوله انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم ودليله قراءة مجاهد زين للناس على تسمية الفاعل وعن الحسن ... تعالى

تعالى خلق جميع ملاذ الدنيا وأباحها لعبيده وإباحتها للعبد تزيين لها قال الله تعالى هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا وقال تعالى قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق وقال الله تعالى انا جعلنا ما على الارض زينة لها وقال تعالى وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا فكل ذلك يدل على ان المزين هو الله تعالى ومما يؤيد ذلك قراءة مجاهد زين بفتح الزاي على تسمية الفاعل وقال الحسن المزين هو الشيطان وهو قول طائفة من المعتزلة ويدل على ذلك ان الله تعالى زهد في هذه الاشياء بأن أعلم عباده زوالها ولان الله تعالى أطلق حب الشهوات فيدخل فيه الشهوات المحرمة والمزين لذلك هو الشيطان ولان الله تعالى ذكر هذه الاشياء في معرض الذم للدنيا ويدل عليه آخر الآية وهو قوله تعالى والله عنده حسن المآب ونقل عن أبي علي الجبائي من المعتزلة ان كل ما كان حراما كان المزين له هو الشيطان وكل ما كان مباحا كان المزين له هو الله تعالى والصحيح ما ذهب اليه أهل السنة لان الله تعالى خالق كل شيء ولا شريك له في ملكه ۞ وقوله تعالى (حب الشهوات) يعني المشتهيات لان الشهوة توقان النفس الى الشيء المشتهى (من النساء) انما بدأ بذكر النساء لان الالتذاذ بهن أكثر والاستئناس بهن أتم ولانهن حبائل الشيطان وأقرب الى الافتتان (والبنين) انما خص البنين بالذكر لان حب الولد الذكر أكثر من حب الانثى ووجه حبه ظاهر لانه يتكثر به ويعضده ويقوم مقامه وقد جعل الله تعالى في قلب الانسان حب الزوجة والولد لحكمة بالغة وهي بقاء التوالد ولولا تلك المحبة لما حصل ذلك (والقناطير المقنطرة) جمع قنطار وسمي قنطارا من الاحكام والعقد يقال قنطرته اذا أحكمته ومنه القنطرة المحكمة الطاق واختلفوا في القنطار هل هو محدود أو غير محدود على قولين أحدهما انه محدود ثم اختلفوا في حده فروى عن معاذ بن جبل ان القنطار ألف ومائتا أوقية وقال ابن عباس ألف ومائتا مثقال وعنه أنه اثنا عشر ألف درهم أو ألف دينار دية أحدكم وبه قال الحسن وقال سعيد بن جبير هو مائة ألف ومائة من ومائة رطل ومائة مثقال ومائة درهم ولقد جاء الاسلام يوم جاء وبمكة مائة رجل قد قنطروا وقال سعيد بن المسيب وقتادة هو ثمانون ألفا وقال مجاهد سبعون ألفا وقال السدي هو أربعة آلاف مثقال والقول الثاني ان القنطار ليس بمحدود وقال ربيع بن أنس القنطار المال الكثير بعضه على بعض وروى عن أبي عبيدة انه حكى عن العرب ان القنطار وزن لا يحد وهو اختيار ابن جرير الطبري وغيره وقال الحاكم القنطار ما بين السماء والارض من مال وقال أبو نصرة القنطار ملء مسك ثور ذهبا أو فضة وقال القنطار من المال ما فيه عبور الحياة تشبيها بعبور القنطرة المقنطرة أي المجموعة وقيل المضاعفة لان القناطير جمع وأقله ثلاثة والمقنطرة المضاعفة فيحتمل أن تكون ستة أو تسعة وقيل المقنطرة المسكوكة المنقوشة (من الذهب والفضة) انما بدأ بهما من بين سائر أصناف الاموال لانهما قيم الاشياء وانما كانا محبوبين لان المالك لهما مالك قادر على ما يريده وهي صفة كمال وهي محبوبة وقيل سمي الذهب ذهبا لانه يذهب ولا يبقى والفضة لانها تنفض أي تتفرق (والخيل المسومة) الخيل جمع لا واحد له من لفظه كالقوم والرهط سميت الافراس خيلا لاختيالها في مشيتها وقيل لان الخيل لا يركبها أحد الا وجد في نفسه مخيلة يعني عجبا واختلفوا في معنى المسومة على ثلاثة أقوال القول الاول انها الراعية يقال أسمت الدابة وسومتها اذا أرسلتها المرعى والمقصود انها اذا رعت زاد حسنها والقول الثاني انها من السمة وهي العلامة ثم القائلون بهذا القول اختلفوا في تلك العلامة فقيل هي الغرة والتحجيل التي تكون في الخيل وقيل هي الخيل البلق وقيل هي المعلمة بالكي والقول الثالث انها المضمرة الحسان وتسويمها حسنها (والانعام) جمع نعم وهي الابل والبقر والغنم ولا يقال للجنس الواحد منها نعم الا للابل خاصة فانه غلب عليها (والحرث) يعني الزرع (ذلك) يعني ذلك الذي ذكر من هذه الاصناف (متاع الحياة الدنيا) أي الذي يستمتع به في الحياة الدنيا وهي زائلة فانية يشير الى ان الحياة الدنيا متاع يفنى (والله عنده حسن المآب) أي

الشيطان (حب الشهوات) الشهوة توقان النفس الى الشيء جعل الاعيان التي ذكرها شهوات مبالغة في كونها مشتهاة كأنه أراد تخسيسها بتسميتها شهوات اذ الشهوة مسترذلة عند الحكماء مذموم من اتبعها شاهد على نفسه بالبهيمية (من النساء) والاماء داخلة فيها (والبنين) جمع ابن وقد يقع في غير هذا الموضع على الذكور والاناث وهنا أريد به الذكور فهم المشتهون في الطباع والمعدون للدفاع (والقناطير) جمع قنطار وهو المال الكثير قيل ملء مسك ثور أو مائة ألف دينار ولقد جاء الاسلام وبمكة مائة رجل قد قنطروا (المقنطرة) المنضدة أو المدفونة (من الذهب والفضة) سمي ذهبا لسرعة ذهابه بالانفاق وفضة لانها تتفرق بالانفاق والفض التفريق (والخيل) سميت بها لاختيالها في مشيها (المسومة) المعلمة من السومة وهي العلامة أو المرعية من أسام الدابة وسومها (والانعام) هي الازواج الثمانية (والحرث) الزرع (ذلك) المذكور (متاع الحياة الدنيا) يتمتع بها في الدنيا (والله عنده حسن المآب)

المرجع فيه اشارة الى التزهيد فى الدنيا والترغيب فى الآخرة وقيل فيه اشارة الى ان من آتاه الله الدنيا كان الواجب عليه أن يصرفها فيما يكون فيه صلاحه فى الآخرة لانها السعادة القصوى ﴿قوله عزوجل (قل أؤنبئكم) أى أخبركم (بخير من ذلكم) يعنى الذى ذكر من متاع الدنيا (للذين اتقوا) قال ابن عباس فى رواية عنه يريد المهاجرين والانصار أراد أن يعرفهم ويشوقهم الى الآخرة قال العلماء ويدخل فى هذا الخطاب كل من اتقى الشرك (عند ربهم) معناه ان الله تعالى أخبر ان ماعنده خير مما كان فى الدنيا وان كان محبوبا لخلقهم على ترك ما يحبون لما يرجون ثم فسر ذلك الخير فقال تعالى (جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله) * (ق) عن أبى سعيد الخدرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله عزوجل يقول لاهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير كله فى يديك فيقول هل رضيتم فيقولون ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون وأى شئ أفضل من ذلك فيقول أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا وقيل ان العبد اذا علم ان الله تعالى قد رضى عنه كان أتم لسروره وأعظم لفرحه (والله بصير بالعباد) يعنى ان الله تعالى عالم بمن يؤثر ماعنده ممن يؤثر شهوات الدنيا فيجازى كلا على عمله فيثيب ويعاقب على قدر الاعمال وقيل ان الله تعالى بصير بالذين اتقوا فلذلك أعد لهم الجنات ﴿ قوله عزوجل (الذين يقولون ربنا اننا آمنا) أى صدقنا (فاغفر لنا ذنوبنا) أى استر علينا وتجاوز عنا (وقنا عذاب النار) ﴿قوله عزوجل (الصابرين) يعنى على أداء الواجبات وعن المحرمات والمنهيات وفى البأساء والضراء وحين البأس وقيل الصابرين على دينهم وما أصابهم (والصادقين) يعنى فى ايمانهم وقال قتادة هم قوم صدقت نياتهم واستقامت ألسنتهم وقلوبهم فى السر والعلانية والصدق يكون فى القول والافعال والنية فاما صدق القول فهو مجانبة الكذب والصدق فى الفعل هو عدم الانصراف عنه قبل اتمامه والصدق فى النية العزم على الفعل حتى يبلغه (والقانتين) يعنى المطيعين لله وقيل هم المصلون وهو عبارة عن دوام الطاعة والمواظبة عليها (والمنفقين) يعنى أموالهم فى طاعة الله تعالى ويدخل فيه نفقة الرجل على نفسه وعلى أهله وأقاربه وصلة رحمه والزكاة والنفقة فى جميع القربات (والمستغفرين بالاسحار) يعنى المصلين بالسحر وهو الوقت بعد ظلمة الليل الى طلوع الفجر وقيل كانوا يصلون بالليل حتى اذا كان وقت السحر أخذوا فى الدعاء والاستغفار فكان هذا دأبهم فى ليلهم قال نافع كان ابن عمر يحيى الليل ثم يقول يانافع أسحرنا فاقول لا فيعاود الصلاة فاذا قلت نعم قعد يستغفر ويدعو حتى يصلى الصبح (ق) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة الى سماء الدنيا حين يبقى الثلث الاخير فيقول من يدعونى فاستجيب له من يسألنى فاعطيه من يستغفرنى فاغفر له وفى لفظ مسلم فيقول أنا الملك أنا الملك من ذا الذى يدعونى الحديث وله فى رواية أخرى فيقول هل من سائل فيعطى هل من داع فيستجاب له هل من مستغفر فيغفر له حتى ينفجر الصبح هذا الحديث من أحاديث الصفات وللعلماء فيه وفى أمثاله مذهبان معروفان مذهب السلف الايمان به واجراؤه على ظاهره ونفى الكيفية عنه والمذهب الثانى هو مذهب من يتأول أحاديث الصفات قال أبو سليمان الخطابى انما ينكر هذا الحديث من يقيس الامور على مايشاهده من النزول الذى هو تدل من أعلى الى أسفل وانتقال من فوق الى تحت وهذا صفة الاجسام فامانزول من لا تستولى عليه صفات الاجسام فان هذه المعانى غير متوهمة فيه وانما هو خبر عن قدرته ورأفته بعباده وعطفه عليهم واستجابته دعاءهم ومغفرته لهم يفعل مايشاء لايتوجه على صفاته كيفية ولا على أفعاله كمية سبحانه ليس كمثله شئ وهو السميع البصير وقيل فى قوله والمستغفرين بالاسحار وصف الله تعالى هؤلاء بما وصف ثم بين انهم مع ذلك لشدة خوفهم ووجلهم انهم يستغفرون بالاسحار وروى ان لقمان قال لابنه يابنى لا تكن أعجز من الديك فانه يصوت بالاسحار وأنت نائم على فراشك وقيل هم

كلام مستأنف فيه دلالة على بيان ماهو خير من ذلكم لجنات مبتدأ والذين اتقوا خبره (تجرى من تحتها الانهار) صفة الجنات ويجوز أن يتعلق اللام بخير واختص المتقين لانهم هم المنتفعون به ويرتفع جنات على هو جنات وتنصره قراءة من قرأ جنات بالجر على البدل من خير (خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله) أى رضا الله (والله بصير بالعباد) عالم باعمالهم فيجازيهم عليها أو بصير بالذين اتقوا وباحوالهم فلذا أعد لهم الجنات (الذين يقولون) نصب على المدح أو رفع أو جر صفة للمتقين أو للعباد (ربنا اننا آمنا) اجابة لدعوتك (فاغفر لنا ذنوبنا) انجاز الوعدك (وقنا عذاب النار) بفضلك (الصابرين) على الطاعات والمصائب وهو نصب على المدح (والصادقين) قولا باخبار الحق وفعلا باحكام العمل ونية بامضاء العزم (والقانتين) الداعين أو المطيعين (والمنفقين) المتصدقين (والمستغفرين بالاسحار) المصلين أو طالبين المغفرة وخص الاسحار لانه وقت اجابة الدعاء ولانه وقت الخلوة قال لقمان لابنه يابنى لايكن الديك أكيس منك ينادى بالاسحار وأنت نائم والواو المتوسطة بين الصفات للدلالة على كمالهم فى كل واحدة منها وللاشعار بان كل صفة مستقلة بالمدح

الذين

الذين يصلون صلاة الصبح في جماعة فعلى هذا القول إنما سميت الصلاة استغفاراً لأنهم طلبوا بفعلها المغفرة

۞ قوله عز وجل (شهد الله أنه لا إله إلا هو) قيل سبب نزول هذه الآية أن حبرين من أحبار الشأم قدما على النبي صلى الله عليه وسلم فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي صلى الله عليه وسلم الذي يخرج في آخر الزمان فلما دخلا على النبي صلى الله عليه وسلم عرفاه بالصفة فقالا له أنت محمد قال نعم قالا وأنت أحمد قال نعم قالا فإنا نسألك عن شيء فإن أنت أخبرتنا به آمنا بك وصدقناك قال اسألاني قالا فأخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله عز وجل فأنزل الله هذه الآية فأسلم الحبران وقيل إن هذه الآية نزلت في نصارى نجران فيما ادعوا في عيسى عليه السلام فقوله تعالى شهد الله يعني بين الله وأظهر لأن معنى الشهادة تبيين وإظهار وقيل معنى شهد الله حكم الله وقضى وقيل معناه أعلم الله أنه لا إله إلا هو وذلك ببيان الدلائل لما أمكن التوصل إلى معرفة الوحدانية فهو تعالى أرشد عباده إلى معرفة توحيده بما بين من عجائب مصنوعاته وغرائب مبتدعاته سئل بعض الأعراب ما الدليل على وجود الصانع فقال إن البعرة تدل على البعير وآثار القدم تدل على المسير فهيكل علوي بهذه اللطافة ومركز سفلي بهذه الكثافة أما يدلان على وجود الصانع الخبير قال ابن عباس خلق الله تعالى الأرواح قبل الأجساد بأربعة آلاف سنة وخلق الأرزاق قبل الأرواح بأربعة آلاف سنة فشهد لنفسه بنفسه قبل أن خلق الخلق حين كان ولم تكن سماء ولا أرض ولا بر ولا بحر فقال تعالى شهد الله أنه لا إله إلا هو (والملائكة) أي وشهد الملائكة فمعنى شهادة الله تعالى الإخبار والإعلام ومعنى شهادة الملائكة والمؤمنين الإقرار والاعتراف بأنه لا إله إلا هو ولما كان كل واحد من هذين الأمرين يسمى شهادة حسن إطلاق لفظ الشهادة عليهما (وأولوا العلم) أي وشهد أولوا العلم بأنه لا إله إلا هو واختلفوا في أولي العلم فقيل هم الأنبياء عليهم السلام لأنهم أعلم الخلق بالله تعالى وقيل هم علماء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار وقيل هم علماء مؤمني أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وأصحابه وقيل هم علماء جميع المؤمنين (قائماً بالقسط) أي بالعدل نصب على الحال أو القطع أو المدح ومعناه أنه تعالى قائم بتدبير خلقه كما يقال فلان قائم بأمر فلان يعني أنه مدبر له ومتعهد لأسبابه وفلان قائم بحق فلان أي أنه مجازله فالله مدبر أمر خلقه وقائم بأرزاقهم ومجازيهم بأعمالهم (لا إله إلا هو) إنما كرره للتأكيد وقيل إن الأول وصف وتوحيد والثاني رسم تعليم أي قولوا لا إله إلا هو وقيل فائدة تكرارها الإعلام بأن هذه الكلمة أعظم الكلام وأشرفه ففيه حث للعباد على تكريرها والاشتغال بها فإنه من اشتغل بها فقد اشتغل بأفضل العبادات (العزيز) أي الغالب الذي لا يقهر (الحكيم) يعني في جميع أفعاله (إن الدين عند الله الإسلام) يعني إن الدين المرضي عند الله هو الإسلام كما قال تعالى ورضيت لكم الإسلام ديناً وفيه رد على اليهود والنصارى وذلك لما ادعت اليهود أنه لا دين أفضل من اليهودية وادعت النصارى أنه لا دين أفضل من النصرانية رد الله عليهم ذلك فقال إن الدين عند الله الإسلام وقرئ أن الدين بفتح الهمزة رداً على أن الأولى والمعنى شهد الله أنه لا إله إلا هو وشهد أن الدين عند الله الإسلام وأصل الدين في اللغة الجزاء يقال كما تدين تدان ثم صار اسماً للملة والشريعة ومعناه الانقياد للطاعة والشريعة قال الزجاج الدين اسم لجميع ما تعبد الله به خلقه وأمرهم بالإقامة عليه والإسلام هو الدخول في السلم وهو الاستسلام والانقياد والدخول في الطاعة وروى البغوي بسند الثعلبي عن غالب القطان قال أتيت الكوفة في تجارة فنزلت قريباً من الأعمش فكنت أختلف إليه فلما كان ذات ليلة أردت أن أنحدر إلى البصرة قام من الليل يتهجد فمر بهذه الآية شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم قال الأعمش وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة وهي لي عند الله وديعة إن الدين عند الله الإسلام قالها مراراً قلت سمع فيها شيئاً فصليت الصبح معه وودعته ثم قلت له إني سمعتك ترددها فما بلغك فيها قال والله لا أحدثك فيها إلى

(شهد الله) أي حكم أو قال (أنه) أي بأنه (لا إله إلا هو والملائكة) بما عاينوا من عظيم قدرته (وأولوا العلم) أي الأنبياء والعلماء (قائماً بالقسط) مقيماً للعدل فيما يقسم من الأرزاق والآجال ويثيب ويعاقب وما يأمر به عباده من إنصاف بعضهم لبعض والعمل على التسوية فيما بينهم وانتصابه على أنه حال مؤكدة من اسم الله تعالى أو من هو وإنما جاز إفراده بنصب الحال دون المعطوفين عليه ولو قلت جاء زيد وعمرو راكباً لم يجز لعدم الإلباس فإنك لو قلت جاءني زيد وهند راكباً جاز لتميزه بالذكورة أو على المدح وكرر (لا إله إلا هو) للتأكيد (العزيز الحكيم) رفع على الاستئناف أي هو العزيز وليس بوصف لهو لأن الضمير لا يوصف يعني أنه العزيز الذي لا يغالب الحكيم الذي لا يعدل عن الحق (إن الدين عند الله الإسلام) جملة مستأنفة أن الدين على البدل من قوله أنه لا إله إلا هو أي شهد الله أن الدين عند الله الإسلام قال عليه السلام من قرأ الآية عند منامه خلق الله تعالى منها سبعين ألف خلق يستغفرون له إلى يوم القيامة ومن قال بعدها وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة وهي لي عند الله وديعة يقول الله تعالى يوم القيامة إن لعبدي عندي عهداً وأنا أحق من وفى بالعهد أدخلوا عبدي الجنة

(وما اختلف الذين أوتوا الكتاب) أى أهل الكتاب من اليهود والنصارى واختلافهم انهم تركوا الاسلام وهو التوحيد فثلثت النصارى
وقالت اليهود عزير ابن الله (الا من بعد ما جاءهم العلم) انه الحق الذى لا محيد عنه (بغيا بينهم) أى ما كان ذلك الاختلاف الا حسدا بينهم
وطلبا منهم للرياسة وحظوظ الدنيا واستتباع كل فريق ناسا لا شبهة فى الاسلام وقيل هو اختلافهم فى نبوة محمد عليه الصلاة والسلام حيث
آمن به بعض وكفر به بعض وقيل هم النصارى واختلافهم فى أمر عيسى بعد ما جاءهم العلم انه عبد الله ورسوله (ومن يكفر بآيات الله)
بحججه ودلائله (فان الله سريع الحساب) سريع المجازاة (فان حاجوك) فان جادلوك فى ان دين الله

الاسلام والمراد بهم وفد
نى نجران عند الجمهور
(فقل أسلمت وجهى لله)
أى أخلصت نفسى وجملتى
لله وحده لم أجعل فيها لغيره
شريكا بان أعبده وأدعو الها
معه يعنى ان دينى دين
التوحيد وهو الدين القويم
الذى ثبتت عندكم صحته كما
ثبتت عندى وما جئت
بشئ بديع حتى تجادلونى
فيه ونحوه قل يا أهل الكتاب
تعالوا الى كلمة سواء بيننا
و بينكم أن لا نعبد الا الله
ولا نشرك به شيأ فهو
دفع للمحاجة بان ماهو
عليه ومن معه من المؤمنين
هو اليقين الذى لا شك
فيه فما معنى المحاجة فيه
(ومن اتبعن) عطف على
التاء فى أسلمت أى أسلمت
أنا ومن اتبعنى وحسن
للفاصل ويجوز أن يكون
الواو بمعنى مع فيكون
مفعولا معه ومن اتبعنى فى
الحالين سهل ويعقوب
وافق أبو عمرو فى الوصل
وجهى مدنى وشامى وحفص
والاعشى والبرجمى (وقل للذين أوتوا الكتاب) من اليهود والنصارى (والاميين) والذين لا كتاب الله
لهم من مشركى العرب (أأسلمتم) بهمزتين كوفى يعنى انه قد أتاكم من البينات ما يقتضى حصول الاسلام فهل أسلمتم أم أنتم بعد على كفركم
وقيل لفظه لفظ الاستفهام ومعناه الامر أى أسلموا كقوله فهل أنتم منتهون أى انتهوا (فان أسلموا فقد اهتدوا) فقد أصابوا الرشد حيث
خرجوا من الضلال الى الهدى (وان تولوا فانما عليك البلاغ) أى لم يضروك فانك رسول منبه ما عليك الا أن تبلغ الرسالة وتنبه على طريق
الهدى (والله بصير بالعباد) فيجازيهم على اسلامهم وكفرهم (ان الذين يكفرون بآيات

سنة فكتبت على بابه ذلك اليوم وأقمت سنة فلما مضت السنة قلت يا أبا محمد قد مضت السنة فقال حدثنى أبو
وائل عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله عز وجل ان
لعبدى هذا عندى عهدا وأنا أحق من وفى بالعهد أدخلوا عبدى الجنة ۞ قوله عز وجل (وما اختلف الذين
أوتوا الكتاب) قال الكلبى نزلت فى اليهود والنصارى حين تركوا الاسلام والمعنى وما اختلف الذين أوتوا
الكتاب فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (الا من بعد ما جاءهم العلم) يعنى بيان نعته وصفته فى كتبهم وقال
الربيع ان موسى عليه السلام لما حضره الموت دعا سبعين رجلا من خيار بنى اسرائيل وأودعهم التوراة
واستخلف يوشع بن نون فلما مضى القرن الاول والثانى والثالث وقعت الفرقة والاختلاف بينهم وهم الذين
أوتوا الكتاب وهم من أبناء الملوك السبعين حتى أهرقوا الدماء ووقع الشر والاختلاف وذلك بعد ما جاءهم
العلم يعنى بيان ما فى التوراة من الاحكام (بغيا بينهم) أى طلبا بينهم للملك والرياسة فسلط الله عليهم الجبابرة
وقيل نزلت فى نصارى نجران ومعناه وما اختلف الذين أوتوا الكتاب يعنى الانجيل واختلافهم كان فى أمر
عيسى عليه الصلاة والسلام وما ادعوا فيه من الالهية الا من بعد ما جاءهم العلم يعنى بان الله تعالى واحد أحد
وأن عيسى عبده ورسوله بغيا بينهم يعنى المعاداة والمخالفة (ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب)
فيه وعيد وتهديد لمن أصر على الكفر من اليهود والنصارى الذين جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ۞ قوله
عز وجل (فان حاجوك) أى خاصموك يا محمد فى الدين وذلك ان اليهود والنصارى قالوا لسنا على ما سميتنا
يا محمد انما اليهودية والنصرانية نسب والدين هو الاسلام ونحن عليه فامر الله عز وجل نبيه محمدا صلى الله عليه
وسلم أن يحتج عليهم بانه اتبع أمر الله الذى هم مقرون به بقوله (فقل أسلمت وجهى لله) أى انقدت له بقلبى
ولسانى وجميع جوارحى وانما خص الوجه بالذكر لانه أشرف جوارح الانسان الظاهرة فاذا خضع وجهه
لشئ فقد خضع له سائر جوارحه وقيل أراد بالوجه العمل أى أخلصت عملى لله وقصدت بعبادتى الله (ومن
اتبعن) يعنى ومن أسلم كما أسلمت أنا (وقل للذين أوتوا الكتاب) يعنى اليهود والنصارى (والاميين) يعنى
مشركى العرب (أأسلمتم) لفظه استفهام ومعناه أمر أى أسلموا (فان أسلموا فقد اهتدوا) يعنى الى الفوز
والنجاة فى الآخرة فلما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية على أهل الكتاب قالوا قد أسلمنا فقال
لليهود أتشهدون ان موسى كليم الله وعبده ورسوله فقالوا معاذ الله وقال للنصارى أتشهدون ان عيسى كلمة
الله وعبده ورسوله فقالوا معاذ الله أن يكون عيسى عبدا قال الله تعالى (وان تولوا) أى أعرضوا (فانما عليك
البلاغ) يعنى تبليغ الرسالة وليس عليك هدايتهم واختلف علماء الناسخ والمنسوخ فى الآية فذهب طائفة
الى انها محكمة والمراد بها تسلية النبى صلى الله عليه وسلم لانه كان يحرص على ايمانهم ويتألم لتركهم الاجابة
وذهب طائفة الى انها منسوخة بآية السيف لان المراد بها الاقتصار على التبليغ وهذا منسوخ بآية السيف
(والله بصير بالعباد) يعنى انه تعالى عالم بمن يؤمن وبمن لا يؤمن ۞ قوله عز وجل (ان الذين يكفرون بآيات

الله و يقتلون النبيين) هم أهل الكتاب راضون بقتل آبائهم الانبياء (بغير حق) حال مؤكدة لان قتل النبي لا يكون حقا (و يقتلون الذين يامرون) و يقاتلون حمزة (بالقسط) بالعدل (من الناس) أى سوى الانبياء قال عليه السلام قتلت بنو اسرائيل ثلاثة وأربعين نبيامن أول النهار فى ساعة واحدة فقام مائة واثناعشر رجلا من عباد بنى اسرائيل فامروا قتلتهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعا فى آخر النهار من ذلك اليوم (فبشرهم بعذاب أليم) دخلت الفاء فى خبران لتضمن اسمها معنى الجزاء كأنه قيل الذين يكفرون فبشرهم بعذاب أليم بمعنى من يكفر فبشرهم وهذا لان ان لا تغير معنى الابتداء فهى للتحقيق فكان دخولها كلا دخول ولو كان مكانها ليت ولعل لامتنع دخول الفاء (أولئك الذين حبطت أعمالهم) أى ضاعت (فى الدنيا والآخرة) فلهم اللعنة والخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة (وما لهم من ناصرين) جمع لوفق رؤس الآى والافا لواحد النكرة فى النفى يعم (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) يريد أحبار اليهود وانهم حصلوا نصيبا وافرا من التوراة ومن للتبعيض أو للبيان (يدعون) حال من الذين (الى كتاب الله) أى التوراة أو القرآن (ليحكم بينهم) جعل حاكما حيث كان سببا للحكم أو ليحكم النبى روى انه عليه السلام دخل مدراسهم فدعاهم فقال له نعيم بن عمرو والحرث ابن زيد على أى دين أنت قال النبى عليه السلام على ملة ابراهيم قالا ان ابراهيم كان يهوديا قال لهما ان بيننا و بينكم التوراة فهلموا اليها فأبيا

الله) يعنى يجحدون القرآن و ينكرونه وهم اليهود والنصارى (و يقتلون النبيين بغير حق و يقتلون الذين يامرون بالقسط من الناس) كان أنبياء بنى اسرائيل يأتيهم الوحى ولم يكن يأتيهم كتاب لانهم كانوا ملتزمين باحكام التوراة فكانوا يذكرون قومهم فيقتلونهم فيقوم رجال ممن آمن بهم وصدقهم فيذكرونهم و يامرونهم بالمعروف و ينهونهم عن المنكر فيقتلونهم أيضا فهم الذين يامرون بالقسط يعنى بالعدل من الناس روى البغوى بسند الثعلبى عن أبى عبيدة بن الجراح قال قلت يارسول الله أى الناس أشد عذابا يوم القيامة قال رجل قتل نبيا أو رجلا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم و يقتلون النبيين بغير حق و يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس الى أن انتهى الى قوله وما لهم من ناصرين ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أباعبيدة قتلت بنو اسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا من أول النهار فى ساعة واحدة فقام مائة واثناعشر رجلا من عباد بنى اسرائيل فامروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوهم جميعا من آخر النهار فى ذلك اليوم فهم الذين ذكرهم الله فى كتابه وأنزل الآية فيهم (فبشرهم بعذاب أليم) انما دخلت الفاء فى قوله فبشرهم مع انه خبر ان لانه فى معنى الجزاء والتقدير من كفر فبشره بعذاب أليم يوم القيامة وهذا محمول على الاستعارة وهو ان انذار الكفار بالعذاب قام مقام بشرى المحسنين بالثواب وفى هذه الآية توبيخ لليهود الذين كانوا فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وان كان أسلافهم الذين قتلوا الانبياء لانهم رضوا بفعلهم (أولئك الذين حبطت) أى بطلت (أعمالهم فى الدنيا والآخرة) و بطلان العمل هو أن لا يقبل فى الدنيا ولا يجازى عليه فى الآخرة (وما لهم من ناصرين) يعنى يمنعونهم من العذاب ۞ قوله عز وجل (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) نزلت فى اليهود (يدعون الى كتاب الله) يعنى القرآن وذلك أن اليهود دعوا الى حكم القرآن فاعرضوا عنه قال ابن عباس ان الله جعل القرآن حكما فيما بينهم و بين رسول الله صلى الله عليه وسلم فحكم القرآن على اليهود والنصارى انهم على غير الهدى فاعرضوا عنه وروى عن ابن عباس أيضا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل بيت المدراس على جماعة من اليهود فدعاهم الى الله عز وجل فقال له نعيم بن عمرو والحرث بن زيد على أى دين أنت يا محمد فقال على ملة ابراهيم قالا ان ابراهيم كان يهوديا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هلموا الى التوراة فهى بيننا و بينكم فابيا عليه فانزل الله هذه الآية فعلى هذا القول يكون المراد بكتاب الله التوراة وروى عنه أيضا أن رجلا وامرأة من أهل خيبر زنيا وكان فى كتابهم الرجم فكرهوا رجمهما لشرفهما فيهم فرفعوا أمرهما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجوا أن تكون عنده رخصة فحكم عليهما بالرجم فقال النعمان بن أوفى و بحرى بن عمرو جرت عليهما يا محمد وليس عليهما الرجم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينى و بينكم التوراة فقالوا قد أنصفت فقال من أعلمكم بالتوراة فقالوا رجل أعور يقال له عبد الله بن صوريا يسكن فدك فارسلوا اليه فقدم المدينة وكان جبريل قد وصفه للنبى صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت ابن صوريا قال نعم قال أنت أعلم اليهود بالتوراة قال كذلك يزعمون فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتوراة وقال له اقرأ فقرأ فلما أتى على آية الرجم وضع يده عليها وقرأ ما بعدها فقال عبد الله بن سلام يارسول الله قد جاوزها ثم قام ورفع كفه عنها وقرأها على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى اليهود وفيها ان المحصن والمحصنة اذا زنيا وقامت عليهما البينة رجما وان كانت المرأة حبلى تربص بها حتى تضع ما فى بطنها فامر رسول الله صلى الله عليه وسلم باليهوديين فرجما فغضبت اليهود لذلك فانزل الله عز وجل ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يعنى علمهم الذى علموه من التوراة يدعون الى كتاب الله يعنى القرآن أو التوراة على اختلاف الروايتين (ليحكم بينهم) أى ليقضى بينهم

(ثم يتولى فريق منهم) استبعاد لتوليهم بعد علمهم بان الرجوع الى كتاب الله واجب (وهم معرضون) وهم قوم لا يزال الاعراض ديدنهم (ذلك بانهم قالوا لن تمسنا النار الأياما معدودات) أى ذلك التولى والاعراض بسبب تسهيلهم على أنفسهم أمر العقاب وطمعهم فى الخروج من النار بعد أيام قلائل وهى أربعون يوما أو سبعة أيام وذلك مبتدأ وبانهم خبره (وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون) أى غرهم افتراؤهم على الله وهو قولهم نحن أبناء الله وأحباؤه فلا يعذبنا بذنوبنا الامدة يسيرة (فكيف اذا جمعناهم ليوم) فكيف يكون حالهم فى ذلك الوقت (لاريب فيه) لاشك فى كونه (ووفيت كل نفس ما كسبت) جزاء ما كسبت (وهم) يرجع الى كل نفس على المعنى لانه فى معنى كل الناس (لايظلمون) بزيادة فى سيآتهم ونقصان فى حسناتهم (قل اللهم) الميم عوض من يا ولذا لا يجتمعان وهذا بعض خصائص هذا الاسم كما اختص بالتاء فى القسم وبدخول حرف النداء عليه وفيه لام التعريف وبقطع همزته فى يا الله وبالتفخيم (مالك الملك) تملك جنس الملك فتتصرف فيه تصرف الملاك فيما يملكون وهو نداء ثان أى يا مالك الملك (تؤتى الملك من تشاء) تعطى من تشاء النصيب الذى قسمت له من الملك (وتنزع الملك ممن تشاء) أى من تنزعه فالملك الاول عام والملكان الآخران خاصان بعضان من الكل روى انه عليه السلام حين فتح مكة وعد أمته ملك فارس والروم فقالت اليهود والمنافقون هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم هم أعز وأمنع من ذلك (وتعز من تشاء) بالملك (وتذل من تشاء) بنزعه منه

واضافة الحكم الى الكتاب هو على سبيل المجاز (ثم يتولى فريق منهم) يعنى الرؤساء والعلماء (وهم معرضون) يعنى عن الحق وقيل الذين تولوا هم العلماء والذين أعرضوا هم الاتباع (ذلك بانهم) يعنى ذلك التولى والاعراض انما حصل بسبب انهم (قالوا لن تمسنا النار الأياما معدودات) تقدم تفسيره فى سورة البقرة (وغرهم) أى وأطمعهم (فى دينهم ما كانوا يفترون) أى يحلفون ويكذبون قيل هو قولهم نحن أبناء الله وأحباؤه وقيل هو قولهم لن تمسنا النار الأياما معدودات وقيل غرهم قولهم نحن على الحق وأنتم على الباطل (فكيف اذا جمعناهم) أى فكيف يكون حالهم اذا جمعناهم (ليوم) أى فى يوم (لاريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت) أى لاشك فيه انه كائن وواقع وهو يوم القيامة وفيه تهديد لهم واستعظام لما أعد لهم فى ذلك اليوم وانهم يقعون فيما لا حيلة لهم فيه وان ما حدثوا به أنفسهم وسهلوه عليها تعلل بباطل وطمع فيما لا يكون ولا يحصل لهم قيل ان أول راية ترفع لاهل الموقف من رايات الكفار راية اليهود تفضحهم على رؤس الاشهاد ثم يؤمر بهم الى النار (وهم لايظلمون) أى لا ينقص من حسناتهم ان كانت لهم حسنة ولا يزاد على سيآتهم ۞ قوله عز وجل (قل اللهم مالك الملك) قال قتادة ذكر لنا ان نبى الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه عز وجل ان يجعل ملك فارس والروم فى أمته فانزل الله هذه الآية وقال ابن عباس لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وعد أمته ملك فارس والروم فقال المنافقون واليهود هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم وهم أعز وأمنع من ذلك ألم يكف محمدا مكة والمدينة حتى طمع فى ملك فارس والروم فانزل الله تعالى هذه الآية وقيل ان اليهود قالوا والله لا نطيع رجلا جاء بنقل النبوة من بنى اسرائيل الى غيرهم فنزلت هذه الآية قل اللهم معناه يا الله لما حذف حرف النداء زيد الميم فى آخره وقيل ان الميم فيه معنى آخر وهو يا الله أمنا بخير أى اقصدنا مالك الملك أى مالك العباد وما ملكوا وقيل مالك السموات والارض وقيل معناه بيده الملك يؤتيه من يشاء وقيل معناه مالك الملوك ووارثهم يوم لا يدعى الملك أحد غيره وفى بعض كتب الله المنزلة أنا الله ملك الملوك ومالك الملك قلوب الملوك ونواصيهم بيدى فان العباد أطاعونى جعلتهم عليهم رحمة وان هم عصونى جعلتهم عليهم عقوبة فلا تشتغلوا بسب الملوك ولكن توبوا الى أعطفهم عليكم وقيل الملك هو القدرة والمالك هو القادر والمعنى أنه تعالى قادر على كل شئ ومالك على كل مالك ومملوك وقادر ومقدور وقيل معناه مالك الملك أى جنس الملك يتصرف فيه كيف يشاء (تؤتى الملك من تشاء) يعنى النبوة لانها أعظم مراتب الملك وذلك لان النبى صلى الله عليه وسلم له الامر على بواطن الخلق وظواهرهم والملك ليس له الامر الا على ظواهر بعض الخلق وهو من يطيعه منهم وطاعة النبى واجبة على الكافة (وتنزع الملك ممن تشاء) يعنى بذلك نزع النبوة من بنى اسرائيل وايتاءها محمدا صلى الله عليه وسلم فانه لا نبى بعده ولم يشركه فى نبوته ورسالته أحد وقيل تؤتى الملك من تشاء يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتنزع الملك ممن تشاء يعنى من أبى جهل وصناديد قريش وقيل تؤتى الملك من تشاء يعنى أمة محمد صلى الله عليه وسلم وتنزع الملك ممن تشاء يعنى فارس والروم وقيل تؤتى الملك من تشاء يعنى آدم وذريته وتنزع الملك ممن تشاء يعنى ابليس وجنوده الذين كانوا فى الارض قبل آدم (وتعز من تشاء) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم بالنبوة والرسالة (وتذل من تشاء) يعنى اليهود باخذ الجزية منهم ونزع النبوة عنهم وقيل تعز المهاجرين والانصار وتذل فارس والروم وقيل تعز من تشاء يعنى محمدا وأصحابه دخلوا مكة فى عشرة آلاف ظاهرين عليها وتذل من تشاء يعنى أبا جهل واضرابه حين قتلوا وألقوا فى قليب بدر يوم بدر وقيل تعز من تشاء بالطاعة وتذل من تشاء بالمعصية وقيل تعز

(بيدك الخير) أى الخير والشرفا كتفى بذكر أحد الضدين عن الآخر ولان الكلام وقع فى الخير الذى يسوقه الى المؤمنين وهو الذى أنكرته الكفرة فقال بيدك الخير تؤتيه أولياءك على رغم من أعدائك (انك على كل شئ قدير) ولا يقدر على شئ أحد غيرك الا باقدارك وقيل المراد بالملك ملك العافية أو ملك القناعة قال عليه السلام ملوك الجنة من أمتى القانعون بالقوت يوما فيوما أو ملك قيام الليل وعن الشبلى الاستغناء بالمكون عن الكونين تعز بالمعرفة أو بالاستغناء بالمكون أو بالقناعة وتذل باضدادها ثم ذكر قدرته الباهرة بذكر حال الليل والنهار فى المعاقبة بينهما وحال الحى والميت فى اخراج أحدهما من الآخر وعطف عليه رزقه بغير حساب بقوله (تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل) فالايلاج ادخال الشئ فى الشئ وهو مجاز هنا أى تنقص من ساعات الليل وتزيد فى النهار وتنقص من ساعات النهار وتزيد فى الليل (وتخرج الحى من الميت) الحيوان من النطفة أو الفرخ من البيضة أو المؤمن من الكافر (وتخرج الميت من الحى) النطفة من الانسان أو البيض من الدجاج أو الكافر من المؤمن (وترزق من تشاء بغير حساب) لا يعرف الخلق عدده ومقداره وان كان معلوما عنده ليدل على أن من قدر على تلك الافعال العظيمة المحيرة للافهام ثم قدر أن يرزق بغير حساب من يشاء من عباده فهو قادر على أن ينزع الملك من العجم ويذلهم ويؤتيه العرب ويعزهم وفى بعض

الكتب أنا الله ملك الملوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدى فان العباد أطاعونى جعلتهم عليهم رحمة وان العباد عصونى جعلتهم عليهم عقوبة فلا تشتغلوا بسب الملوك ولكن توبوا الى أعطفهم عليكم وهو معنى قوله عليه السلام كما تكونوا يولى عليكم الحى من الميت والميت من الحى بالتشديد حيث كان مدنى وكوفى غير أبى بكر (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء) نهوا أن يوالوا الكافرين لقرابة بينهم أو لصداقة قبل الاسلام أو غير ذلك وقد كرر ذلك فى القرآن والمحبة فى الله والبغض فى الله باب عظيم فى الايمان (من دون

من تشاء بالغنى وتذل من تشاء بالفقر وقيل تعز من تشاء بالقناعة والرضا وتذل من تشاء بالحرص والطمع (بيدك الخير) يعنى النصر والغنيمة وقيل الالف واللام تفيد العموم والمعنى بيدك كل الخيرات فان قلت كيف قال بيدك الخير دون الشر قلت لان الكلام انما وقع فى الخير الذى يسوقه الله تعالى الى عباده المؤمنين وهو الذى أنكرته اليهود والمنافقون فقال بيدك الخير تؤتيه أولياءك على رغم أعدائك وقيل ان قوله بيدك الخير لا ينافى أن يكون بيده غيره فيكون المعنى بيدك الخير وبيدك ماسواه الا انه خص الخير بالذكر لانه المنتفع به والمرغوب فيه (انك على كل شئ قدير) يعنى من ايتاء الملك من تشاء واعزاز من تشاء واذلال من تشاء ۞ قوله تعالى (تولج الليل فى النهار) الآية لما ذكر الله تعالى أنه مالك الملك أردفه بذكر قدرته الباهرة فى حال الليل والنهار فى المعاقبة بينهما وحال اخراج الحى من الميت ثم عطف عليه انه يرزق من يشاء بغير حساب وفى ذلك دلالة على ان من قدر على تلك الافعال العظيمة المحيرة لذوى الافهام والعقول فهو قادر ان ينزع الملك من فارس والروم واليهود ويذلهم ويؤتيه العرب ويعزهم فقوله تعالى تولج الليل فى النهار يعنى تدخل الليل فى النهار وهو أن تجعل الليل قصيرا وما نقص منه زائدا فى النهار حتى يكون النهار خمس عشرة ساعة وذلك غاية طول النهار ويكون الليل تسع ساعات وذلك غاية قصر الليل (وتولج النهار فى الليل) حتى يكون الليل خمس عشرة ساعة وذلك غاية طوله ويكون النهار تسع ساعات وذلك غاية قصره وقيل المراد أنه تعالى يأتى بسواد الليل عقيب ضوء النهار ويأتى بضوء النهار بعد ظلمة الليل والقول الاول أصح وأقرب الى معنى الآية لانه اذا نقص الليل كان ذلك القدر زيادة فى النهار وبالعكس وهو معنى الولوج (وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى) وهو أنه تعالى يخرج الانسان الحى من النطفة وهى ميتة ويخرج النطفة من الانسان ويخرج الفرخ وهو حى من البيضة وهى ميتة وبالعكس وكذلك سائر الحيوان وقيل يخرج النبات الغض الاخضر من الحب اليابس ويخرج النخلة من النواة وبالعكس وقيل معناه انه تعالى يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن لان المؤمن حى الفؤاد والكافر ميته (وترزق من تشاء بغير حساب) يعنى من غير تضييق ولا تقتير بل تبسط الرزق لمن تشاء وتوسعه عليه ۞ قوله عز وجل (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) قال ابن عباس كان الحجاج بن عمرو وابن أبى الحقيق وقيس بن زيد يبطنون بنفر من الانصار ليفتنوهم عن دينهم فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير وسعيد بن خيثمة لاولئك النفر اجتنبوا هؤلاء اليهود لا يفتنونكم عن دينكم فابى أولئك النفر الا مباطنتهم فانزل الله تعالى هذه الآية وقيل نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة وغيره ممن كان يظهر المودة لكفار مكة وقيل نزلت فى عبد الله بن أبى وأصحابه كانوا يتولون المشركين واليهود ويأتونهم بالاخبار ويرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله هذه الآية ونهى المؤمنين عن مثل ذلك وقيل ان عبادة بن الصامت كان له حلفاء من اليهود فقال يوم الاحزاب يا رسول الله ان معى خمسمائة من اليهود وقد رأيت ان أستظهر بهم على العدو فنزلت هذه الآية وقوله لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء يعنى أنصارا وأعوانا من دون المؤمنين يعنى من غير المؤمنين والمعنى لا يجعل المؤمن ولايته لمن هو غير مؤمن نهى الله المؤمنين أن يوالوا الكفار أو يلاطفوهم لقرابة

المؤمنين) يعني ان الكم في موالاة المؤمنين مندوحة عن موالاة الكافرين فلا تؤثروهم عليهم (ومن يفعل ذلك فليس من الله في شئ) أي ومن يوال الكفرة فليس من ولاية الله في شئ لان موالاة الولي وموالاة عدوه متنافيان (الا أن تتقوا منهم تقاة) الا أن تخافوا من جهتهم أمرا يجب اتقاؤه أي الا أن يكون للكافر عليك سلطان فتخافه على نفسك ومالك فحينئذ يجوز لك اظهار الموالاة وابطان المعاداة (ويحذركم الله نفسه) أي ذاته فلا تتعرضوا لسخطه بموالاة أعدائه وهذا وعيد شديد (والى الله المصير) أي مصيركم اليه والعذاب معد لديه وهو وعيد آخر (قل ان تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه) من ولاية الكفار أو غيرها مما لا يرضى الله (يعلمه الله) ولم يخف عليه وهو أبلغ وعيد (ويعلم ما في السموات وما في الارض) استئناف وليس بمعطوف على جواب الشرط أي هو الذي يعلم ما في السموات وما في الارض فلا يخفى عليه سركم وعلنكم (والله على كل شئ قدير) فيكون قادرا على عقوبتكم (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا) يوم منصوب بتود والضمير في بينه لليوم أي يوم القيامة حين تجد كل نفس خيرها وشرها حاضرين تتمنى لو أن بينها وبين ذلك اليوم وهوله أمدا بعيدا أي مسافة بعيدة أو باذكر ويقع ما عملت وحده ويرتفع وما عملت على الابتداء وتود خبره أي والذي عملته من سوء تود هي لو تباعد ما بينها وبينه ولا يصح أن تكون ما شرطية لارتفاع تود نعم الرفع جائز اذا كان الشرط ماضيا (قوله لكن الجزم هو الكثير وعن المبرد ان الرفع شاذ وكرر قوله (ويحذركم الله نفسه) ليكون على بال منهم لا يغفلون عنه (والله رؤف بالعباد) ومن رأفته بهم أن حذرهم نفسه حتى لا يتعرضوا لسخطه ويجوز أن يريد انه مع كونه محذرا لكمال قدرته مرجو لسعة رحمته كقوله تعالى ان ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ونزل حين قال اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه

بينهم أو محبة أو معاشرة والحب في الله والبغض في الله باب عظيم وأصل من أصول الايمان (ومن يفعل ذلك) يعني موالاة الكفار من نقل الاخبار اليهم واظهار عورة المسلمين أو يودهم ويحبهم (فليس من الله في شئ) أي فليس من دين الله في شئ وقيل معناه فليس من ولاية الله في شئ وهذا أمر معقول من أن ولاية المولى معاداة أعدائه وموالاة الله وموالاة الكفار ضدان لا يجتمعان (الا أن تتقوا منهم تقاة) أي الا أن تخافوا منهم مخافة ومعنى الآية ان الله نهى المؤمنين عن موالاة الكفار ومداهنتهم ومباطنتهم الا أن يكون الكفار غالبين ظاهرين أو يكون المؤمن في قوم كفار فيداهنهم بلسانه وقلبه مطمئن بالايمان دفعا عن نفسه من غير أن يستحل دما حراما أو مالا حراما أو غير ذلك من المحرمات أو يظهر الكفار على عورة المسلمين والتقية لا تكون الا مع خوف القتل مع سلامة النية قال الله تعالى الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ثم هذه التقيه رخصة فلو صبر على اظهار ايمانه حتى قتل كان له بذلك أجر عظيم وأنكر قوم التقيه اليوم وقالوا انما كانت التقية في جدة الاسلام قبل استحكام الدين وقوة المسلمين فاما اليوم فقد أعز الله الاسلام والمسلمين فليس لاهل الاسلام أن يتقوا من عدوهم قال يحيى البكاء قلت لسعيد بن جبير في أيام الحجاج ان الحسن يقول التقية باللسان والقلب مطمئن بالايمان فقال سعيد ليس في الاسلام تقية انما التقية في الحرب وقيل انما تجوز التقية لصون النفس عن الضرر لان دفع الضرر عن النفس واجب بقدر الامكان (ويحذركم الله نفسه) أي ويخوفكم الله أن تعصوه بان ترتكبوا المنهي أو تخالفوا المأمور به أو توالوا الكفار فتستحقوا عقابه على ذلك كله (والى الله المصير) يعني ان الله يحذركم عقابه اذا صرتم اليه في الآخرة قوله عز وجل (قل ان تخفوا ما في صدوركم) يعني ما في قلوبكم من موالاة الكفار ومودتهم وانما ذكر الصدر لانه وعاء القلب (أو تبدوه) يعني تبدوا مودة الكفار قولا وفعلا وقيل معناه ان تخفوا ما في قلوبكم من تكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو تبدوه أي تظهروه بالحرب والمقاتلة له (يعلمه الله) أي يحفظه عليكم ويجازيكم به (ويعلم ما في السموات وما في الارض) يعني أنه تعالى اذا كان لا يخفى عليه شئ في السموات ولا في الارض فكيف يخفى عليه حالكم وموالاتكم الكفار وميلكم اليهم بقلوبكم (والله على كل شئ قدير يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا) يعني تجد كل نفس جزاء ما عملت محضرا يوم القيامة لم ينقص ولم يبخس منه شئ (وما عملت من سوء) أي تجد ما عملت من الخير محضرا فتسر به وما عملت من سوء (تود) أي تتمنى (لو أن بينها وبينه) أي وبين ما عملت من السوء (أمدا بعيدا) أي مكانا بعيدا قيل كما بين المشرق والمغرب والامد الاجل والغاية وقيل معناه تود أنها لم تعمله ويكون بينها وبينه أمد بعيد (ويحذركم الله نفسه) انما كرره لتأكيد الوعيد (والله رؤف بالعباد) قيل معناه انه رؤف بهم حيث حذرهم نفسه وعرفهم كمال قدرته وعلمه وأنه يمهل ولا يهمل وقيل معناه أنه رؤف بالعباد حيث أمهلهم للتوبة والتدارك العمل الصالح وقيل انه تعالى لما قال ويحذركم الله نفسه وهو وعيد اتبعه بقوله والله رؤف بالعباد وهو وعد ليعلم العبد المؤمن أن رحمته ووعده غلبت وعيده وسخطه

۞ قوله عزوجل (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) نزلت في اليهود والنصارى حيث قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه فنزلت هذه الآية فعرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم فلم يقبلوها وقال ابن عباس وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على قريش وهم في المسجد الحرام وقد نصبوا أصنامهم وعلقوا عليها بيض النعام وجعلوا في آذانها الشنوف وهم يسجدون لها فقال يا معشر قريش والله لقد خالفتم ملة أبيكم ابراهيم واسمعيل فقالت قريش انما نعبدها حبا لله لتقربنا الى الله زلفى فنزلت هذه الآية وقيل ان نصارى نجران قالوا انما نقول هذا القول في عيسى حبا لله وتعظيما له فانزل الله قل يا محمد ان كنتم تحبون الله فيما تزعمون فاتبعوني يحببكم الله لانه قد ثبتت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بالدلائل الظاهرة والمعجزات الباهرة فوجب على كافة الخلق متابعته والمعنى قل ان كنتم صادقين في ادعاء محبة الله فكونوا منقادين لاوامره مطيعين له فاتبعوني فان اتباعي من محبة الله تعالى وطاعته وقال العلماء ان محبة العبد لله عبارة عن اعظامه واجلاله وايثار طاعته واتباع أمره ومجانبة نهيه ومحبة الله للعبد ثناؤه عليه ورضاه عنه وثوابه له وعفوه عنه فذلك قوله تعالى (ويغفر لكم ذنوبكم) يعني ان من غفر له فقد أزال عنه العذاب (والله غفور رحيم) يعني انه تعالى يغفر ذنوب من أحبه ويرحمه بفضله وكرمه ولما نزلت هذه الآية قال عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين لاصحابه ان محمدا يجعل طاعته كطاعة الله ويأمرنا أن نحبه كما أحبت النصارى عيسى بن مريم فانزل الله عزوجل (قل أطيعوا الله والرسول) يعني ان طاعة الله متعلقة بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فان طاعته لا تتم مع عصيان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال الشافعي رضي الله عنه كل أمر أو نهي ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جرى ذلك في الفريضة واللزوم مجرى ما أمر الله به في كتابه أو نهى عنه وقال ابن عباس رضي الله عنهما فان طاعتكم لمحمد صلى الله عليه وسلم طاعتكم لي فاما ان تطيعوني وتعصوا محمدا فان أقبل منكم (فان تولوا) أي أعرضوا عن طاعة الله ورسوله (فان الله لا يحب الكافرين) أي لا يرضى فعلهم ولا يغفر لهم (خ) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل أمتي يدخلون الجنة الا من أبى قالوا ومن يأبى قال من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى (ق) عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن يطع الامير فقد أطاعني ومن يعص الامير فقد عصاني ۞ قوله عزوجل (ان الله اصطفى آدم ونوحا) قال ابن عباس قالت اليهود نحن من أبناء ابراهيم واسحق ويعقوب ونحن على دينهم فانزل الله هذه الآية والمعنى ان الله اصطفى هؤلاء بالاسلام وأنتم يا معشر اليهود على غير دين الاسلام ومعنى اصطفى اختار من الصفوة وهي الخالص من كل شيء آدم هو أبو البشر عليه السلام ونوحا هو نوح ابن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو ادريس عليه السلام وحكى ابن الجوزي في تفسيره عن أبي سليمان الدمشقي ان اسم نوح السكن وانما سمي نوحا لكثرة نوحه على نفسه (وآل ابراهيم) قيل أراد بآل ابراهيم ابراهيم نفسه وقيل آل ابراهيم اسمعيل واسحق ويعقوب وذلك ان الله تعالى جعل ابراهيم أصلا لشعبتين فجعل اسمعيل بن ابراهيم عليهما السلام أصلا للعرب ومحمد صلى الله عليه وسلم منهم فهو داخل في هذا الاصطفاء وجعل اسحق أصلا لبني اسرائيل وجعل فيهم النبوة والملك الى زمن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ثم جمع له ولامته النبوة والملك الى يوم القيامة وقيل أراد بآل ابراهيم من كان على دينه (وآل عمران) واختلفوا في عمران هذا فقيل هو عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب وهو والد موسى وهرون فيكون آل عمران موسى وهرون أو نفسه وقيل هو عمران بن أشيم بن أمون وقيل ابن ماثان وهو من ولد سليمان بن داود عليهما السلام وعمران هذا هو والد مريم وابنها عيسى فعلى هذا يكون المراد بآل عمران مريم وابنها عيسى عليه السلام وانما خص هؤلاء بالذكر لان الانبياء والرسل من نسلهم (على العالمين)

يرضى عنه ويحمد فعله وعن الحسن زعم أقوام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يحبون الله فاراد أن يجعل لقولهم تصديقا من عمل فمن ادعى محبته وخالف سنة رسوله فهو كذاب وكتاب الله يكذبه وقيل محبة الله معرفته ودوام خشيته ودوام اشتغال القلب به وبذكره ودوام الانس به وقيل هي اتباع النبي عليه السلام في أقواله وأفعاله وأحواله الا ما خص به وقيل علامة المحبة أن يكون دائم التفكر كثير الخلوة دائم الصمت لا يبصر اذا نظر ولا يسمع اذا نودي ولا يحزن اذا أصيب ولا يفرح اذا أصاب ولا يخشى أحدا ولا يرجوه (ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم قل أطيعوا الله والرسول) قيل هي علامة المحبة (فان تولوا) أعرضوا عن قبول الطاعة ويحتمل أن يكون مضارعا أي فان تتولوا (فان الله لا يحب الكافرين) أي لا يحبهم (ان الله اصطفى) اختار (آدم) أبا البشر (ونوحا) شيخ المرسلين (وآل ابراهيم) اسمعيل واسحق وأولادهما (وآل عمران) موسى وهرون هما ابنا

عمران بن يصهر وقيل عيسى ومريم بنت عمران بن ماثان ... ألف وثمانمائة سنة (على العالمين) على عالمي زمانهم

أي اختارهم واصطفاهم على العالمين بما خصهم من النبوة والرسالة (ذرية) أي اصطفى ذرية وأصلها من ذرأ بمعنى خلق وقيل من الذر لان الله تعالى استخرجهم من ظهر آدم كالذر وانما سمي الآباء والابناء ذرية لان الله خلق بعضهم من بعض فالابناء من ذرية الآباء والآباء من ذرية آدم وهو ممن ذرأه الله تعالى أي خلقه (بعضها من بعض) أي بعضها من ولد بعض وقيل بعضها من بعض في التناصر والتعاضد وقيل بعضها على دين بعض (والله سميع عليم) يعني ان الله تعالى سميع لاقوال العباد عليم بنياتهم وانما يصطفي لنبوته ورسالته من يعلم استقامته قولا وفعلا ۞ قوله عز وجل (اذ قالت امرأت عمران) هي حنة بنت فاقوذا أم مريم وعمران هو عمران بن ماثان وقيل ابن أشيم وليس بعمران أبي موسى لان بينهما ألفا وثمانمائة سنة وكان بنو ماثان رؤس بني اسرائيل في ذلك الزمن وأحبارهم وملوكهم (رب اني نذرت لك ما في بطني محررا) أي جعلت الحمل الذي في بطني نذرا محررا مني لك والنذر ما يوجبه الانسان على نفسه والمعنى محررا أي عتيقا خالصا مفرغا لعبادة الله وخدمة الكنيسة لا أشغله بشيء من أمور الدنيا قيل كان المحرر عندهم اذا حرر جعل في الكنيسة فيقوم عليها ويخدمها ولا يبرح مقيما فيها حتى يبلغ الحلم ثم يخير فان أحب أقام فيها وان أحب ذهب حيث شاء فان اختار الخروج بعد ان اختار الاقامة في الكنيسة لم يكن له ذلك ولم يكن أحد من أنبياء بني اسرائيل ومن علمائهم الا ومن أولاده محرر لخدمة بيت المقدس ولم يكن يحرر الا الغلمان ولا تصلح الجارية لخدمة بيت المقدس لما يصيبها من الحيض والاذى فحررت أم مريم ما في بطنها وكانت القصة في ذلك على ما ذكره أصحاب السير والاخبار ان زكريا وعمران تزوجا أختين فكانت ايشاع بنت فاقوذا وهي أم يحيى عند زكريا وكانت حنة بنت فاقوذا أخت ايشاع عند عمران وهي أم مريم وكان قد أمسك عن حنة الولد حتى أيست وكبرت وكانوا أهل بيت صالحين وهم من الله بمكان فبينما هي في ظل شجرة اذ بصرت بطائر يطعم فرخا فتحركت نفسها بذلك للولد فدعت الله أن يهب لها ولدا وقالت اللهم لك علي ان رزقتني ولدا أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سدنته وخدمه فلما حملت بمريم حررت ما في بطنها ولم تعلم ما هو فقال لها زوجها ويحك ما صنعت أرأيت ان كان ما في بطنك أنثى فلا تصلح لذلك فوقعا جميعا في هم شديد من أجل ذلك فمات عمران قبل أن تضع حنة حملها ثم قال تعالى حاكيا عنها (فتقبل مني) يعني فتقبل نذري والتقبل أخذ الشيء على الرضا وأصله من المقابلة لانه يقابل بالجزاء وهذا سؤال من لا يريد بما فعله الا الطلب لرضا الله تعالى والاخلاص في دعائه وعبادته (انك أنت السميع) يعني لتضرعي ودعائي (العليم) يعني بنيتي وما في ضميري ۞ قوله عز وجل (فلما وضعتها) أي ولدت حملها وانما قال وضعتها لانه كان في علم الله انها جارية وكانت حنة ترجو أن يكون غلاما (قالت) يعني حنة (رب اني وضعتها أنثى) تريد بذلك اعتذارا الى الله من اطلاقها النذر المتقدم فذكرت ذلك على سبيل الاعتذار لا على سبيل الاعلام لان الله تعالى عالم بما في بطنها قبل أن تضعه (والله أعلم بما وضعت) قرئ بجزم التاء اخبارا عن الله تعالى والمعنى أنه تعالى قال والله أعلم بالشيء الذي وضعت وقرئ وضعت برفع التاء وهو من كلام أم مريم على تقدير أنها لما قالت رب اني وضعتها أنثى خافت أن تكون أخبرت الله بذلك فازالت هذه الشبهة بقولها والله أعلم بما وضعت (وليس الذكر كالانثى) يعني في خدمة الكنيسة والعباد الذين فيها وفي الكلام تقديم وتأخير تقديره وليس الانثى كالذكر

(ذرية) بدل من آل ابراهيم وآل عمران (بعضها من بعض) مبتدأ وخبره في موضع النصب صفة لذرية يعني ان الآلين ذرية واحدة متسلسلة بعضها متشعب من بعض موسى وهرون من عمران وعمران من يصهر ويصهر من قاهث وقاهث بن لاوي ولاوي من يعقوب ويعقوب من اسحق وكذلك عيسى بن مريم بنت عمران بن ماثان وهو يتصل بيهوذا بن يعقوب بن اسحق وقد دخل في آل ابراهيم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل بعضها من بعض في الدين (والله سميع عليم) يعلم من يصلح للاصطفاء أو سميع عليم لقول امرأة عمران ونيتها (اذ قالت) واذ منصوب به أو باضمار اذكر (امرأة عمران) هي امرأة عمران ابن ماثان أم مريم جدة عيسى وهي حنة بنت فاقوذ (رب اني نذرت لك) أوجبت (ما في بطني محررا) هو حال من ما وهي بمعنى الذي أي معتقا لخدمة بيت المقدس لا يد لي عليه ولا أستخدمه وكان هذا النوع من النذر مشروعا عندهم أو مخلصا للعبادة يقال طين حر أي خالص (فتقبل مني) مدني وأبو عمرو والتقبل أخذ الشيء على الرضا به (انك أنت السميع العليم فلما وضعتها) الضمير لما في بطني وانما أنث على تأويل الحبلة أو النفس أو النسمة (قالت رب اني وضعتها أنثى) أنثى حال من الضمير في وضعتها أي وضعت الحبلة والنفس أو النسمة أنثى وانما قالت هذا القول لان التحرير لم يكن الا للغلمان فاعتذرت عما نذرت وتحزنت الى ربها لتكلمها بذلك على وجه التحزن والتحسر قال الله (والله أعلم بما وضعت) تعظيما لموضوعها أي والله أعلم بالشيء الذي وضعت وما علق به من عظائم الامور وضعتُ شامي وأبو بكر بمعنى ولعل لله فيه سرا وحكمة وعلى هذا يكون داخلا في القول وعلى الاول يوقف عند قوله أنثى وقوله والله أعلم بما وضعت ابتداء اخبار من الله تعالى (وليس الذكر) الذي طلبت (كالانثى) التي وهبت لها واللام فيهما للعهد

(وانى سميتها مريم) معطوف على انى وضعتها انثى وما بينهما جملتان معترضتان وانما ذكرت حنة تسميتها مريم لربها لان مريم فى لغتهم العابدة فارادت بذلك التقرب والطلب اليه أن يعصمها حتى يكون فعلها مطابقا لاسمها وان يصدق فيها ظنها بها ألا ترى كيف اتبعته طلب الاعاذة لها ولولدها من الشيطان بقوله (وانى) مدنى (أعيذها بك) أجيرها (وذريتها) أولادها (من الشيطان الرجيم) الملعون فى الحديث ما من مولود يولد الا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخا من مس الشيطان اياه الا مريم وابنها

(فتقبلها ربها) قبل الله مريم ورضى بها فى النذر مكان الذكر (بقبول حسن) قيل القبول اسم ما يقبل به الشئ كالسعوط لما يسعط به وهو اختصاصه لها باقامتها مقام الذكر فى النذر ولم تقبل قبلها أنثى فى ذلك أو بان تسلمها من أمها عقيب الولادة قبل ان تنشأ وتصلح للسدانة روى ان حنة لما ولدت مريم لفتها فى خرقة وحملتها الى المسجد ووضعتها عند الاحبار ابناء هرون وهم فى بيت المقدس كالحجبة فى الكعبة فقالت لهم دونكم هذه النذيرة فتنافسوا فيها لانها كانت بنت امامهم وصاحب قربانهم وكانت بنو ماثان رؤس بنى اسرائيل وأحبارهم فقال لهم زكريا أنا أحق بها عندى أختها فقالوا لا حتى نقترع عليها فانطلقوا وكانوا سبعة وعشرين الى نهر فالقوا فيه أقلامهم فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت أقلامهم فتكفلها وقيل هو مصدر على تقدير حذف المضاف أى فتقبلها بذى قبول حسن أى بامر ذى قبول حسن وهو الاختصاص (وأنبتها نباتا حسنا) مجاز عن التربية الحسنة قال ابن عطاء ما كانت ثمرته مثل عيسى فذاك أحسن النبات ونباتا مصدر على خلاف المصدر أو التقدير فنبتت نباتا (وكفلها) قبلها أو ضمن القيام بامرها وكفلها كوفى أى كفلها الله زكريا يعنى جعله كافلا لها وضامنا لمصالحها (زكريا) بالقصر كوفى غير أبى بكر فى كل القرآن وقرأ أبو بكر بالمد والنصب هنا وغيرهم بالمد والرفع كالثانية والثالثة ومعناه فى العبرى دائم الذكر والتسبيح

كالذكر والمراد منه تفضيل الذكر على الانثى لان الذكر يصلح للخدمة للكنيسة ولا تصلح الانثى لذلك لضعفها وما يحصل لها من الحيض ولانها عورة ولا يجوز لها الحضور مع الرجال وقيل فى معنى الآية ان المراد منها هو تفضيل هذه الانثى على الذكر كأنها قالت كان الذكر مطلوبى لخدمة المسجد وهذه الانثى هى موهبة لله تعالى وليس الذكر الذى طلبت كالانثى التى هى موهبة الله تعالى وكانت مريم من اجل النساء وأفضلهن فى وقتها (وانى سميتها مريم) يعنى العابدة والخادمة وهو بلغتهم وأرادت بهذه التسمية أن يفضلها الله على اناث الدنيا (وانى أعيذها بك وذريتها) أى أمنعها وأجيرها بك وذريتها (من الشيطان الرجيم) يعنى اللعين الطريد وذلك ان حنة أم مريم لما فاتها ما كانت تطلب من أن يكون ولدها ذكرا فاذا هى أنثى تضرعت الى الله تعالى أن يحفظها ويعصمها من الشيطان الرجيم وأن يجعلها من الصالحات العابدات (ق) عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من بنى آدم من مولود الا نخسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخا من نخسه اياه الا مريم وابنها ثم يقول أبو هريرة اقرؤا ان شئتم وانى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم وللبخارى عنه قال كل ابن آدم يطعن الشيطان فى جنبيه باصبعيه حين يولد غير عيسى بن مريم ذهب ليطعن فطعن فى الحجاب ۞ قوله عز وجل (فتقبلها ربها بقبول حسن) يعنى ان الله تعالى تقبل مريم من حنة مكان الذكر المحرر بمعنى قبل ورضى قال الزجاج الاصل فى العربية تقبلها بتقبل ولكن قبول محمول على قبلها قبولا كما يقال قبلت الشئ قبولا اذا رضيته وقال أبو عمرو ليس فى المصادر فعول بفتح الفاء الا هذا ولم أسمع فيه الضم وقيل معنى التقبل والقبول واحد وهما سواء وهو ان يرى الشئ ويأخذه وقيل معنى التقبل التكفل فى التربية والقيام بشأنها وانما قال بقبول للجمع بين الامرين يعنى التقبل الذى بمعنى التكفل والقبول الذى هو بمعنى الرضا (وأنبتها نباتا حسنا) معناه وأنبتها فنبتت هى نباتا حسنا قال ابن عباس فى قوله تعالى فتقبلها ربها بقبول حسن أى سلك بها طريق السعداء وأنبتها نباتا حسنا يعنى سوى خلقها من غير زيادة ولا نقصان فكانت تنبت فى اليوم ما ينبت المولود فى عام (وكفلها زكريا) قال أهل الاخبار لما ولدت حنة مريم أخذتها فلفتها فى خرقة وحملتها الى المسجد ووضعتها عند الاحبار أبناء هرون وهم يومئذ يلون من بيت المقدس ما تلى الحجبة من الكعبة وقالت دونكم النذيرة فتنافس فيها الاحبار لانها كانت بنت امامهم وصاحب قربانهم فقال لهم زكريا أنا أحق بها لان خالتها عندى فقالت له الاحبار لو تركت لاحق الناس بها لتركت لامها التى ولدتها ولكنا نقترع عليها فتكون عند من خرج سهمه بها فانطلقوا وكانوا تسعة وعشرين رجلا الى نهر جار قيل هو الاردن فالقوا أقلامهم فى الماء على أن من ثبت قلمه فى الماء وصعد فهو أولى بها من غيره وكان على كل قلم مكتوب اسم واحد منهم وقيل بل كانوا يكتبون التوراة فالقوا أقلامهم التى كانت بايديهم فارتفع قلم زكريا فوق الماء ووقف وانحدرت أقلامهم ثم رسبت فى النهر وقيل جرى قلم زكريا مصعدا الى أعلى وجرت أقلامهم مع جرى الماء الى أسفل فسهمهم زكريا وقرعهم وكان زكريا رأس الاحبار ونبيهم فذلك قوله تعالى وكفلها زكريا قرئ بتشديد

(كلما دخل عليها زكريا المحراب) قيل بنى لها زكريا محرابا فى المسجد أى غرفة تصعد اليها بسلم وقيل المحراب أشرف المجالس ومقدمها كأنها وضعت فى أشرف موضع من بيت المقدس وقيل كانت مساجدهم تسمى المحاريب وكان لا يدخل عليها الا هو وحده (وجد عندها رزقا) كان رزقها ينزل عليها من الجنة ولم ترضع ثديا قط فكان يجد عندها فاكهة الشتاء فى الصيف وفاكهة الصيف فى الشتاء (قال يا مريم أنى لك هذا) من أين لك هذا الرزق الذى لا يشبه أرزاق الدنيا وهو آت فى غير حينه (قالت هو من عند الله) فلا تستبعد قيل تكلمت وهى صغيرة كما تكلم عيسى وهو فى المهد (ان الله يرزق من يشاء) من جملة كلام مريم أو من كلام رب العالمين (بغير حساب) بغير تقدير لكثرته أو تفضلا بغير محاسبة ومجازاة على عمل (هنالك) فى ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم فى المحراب أو فى ذلك الوقت فقد يستعار هنا وحيث وثم للزمان لما رأى حال مريم فى كرامتها على الله ومنزلتها رغب أن يكون له من ايشاع ولد مثل ولد أمها حنة فى الكرامة على الله وان كانت عاقرا عجوزا فقد كانت أمها كذلك وقيل لما رأى الفاكهة فى غير وقتها انتبه على جواز ولادة العاقر (دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية) ولدا والذرية يقع على الواحد والجمع (طيبة) مباركة والتأنيث لفظ الذرية (انك سميع الدعاء) مجيبه (فنادته الملائكة) قيل ناداه جبريل عليه السلام وانما قيل الملائكة لان المعنى أتاه النداء من هذا الجنس كقولهم فلان يركب الخيل فناديه بالياء والامالة حمزة وعلى (وهو قائم يصلى فى المحراب) وفيه دليل على أن المرادات تطلب بالصلوات وفيها اجابة الدعوات وقضاء الحاجات وقال ابن عطاء ما فتح الله تعالى على عبد حالة سنية الا باتباع الاوامر واخلاص الطاعات ولزوم المحاريب

الفاء ومعناه وضمنها الله زكريا وضمها اليه بالقرعة وقرئ بتخفيف الفاء ومعناه وضمها زكريا الى نفسه بالقرعة وقام بأمرها وهو زكريا بن آذن بن مسلم بن صدوق من أولاد سليمان بن داود عليهما السلام فلما ضم زكريا مريم الى نفسه بنى لها بيتا واسترضع لها المراضع وقيل ضمها الى خالتها أم يحيى حتى اذا شبت وبلغت مبالغ النساء بنى لها محرابا فى المسجد وجعل بابه فى وسطه ولا يرقى اليه الا بسلم ولا يصعد اليها غيره وكان يأتيها بطعامها وشرابها كل يوم فذلك قوله تعالى (كلما دخل عليها زكريا المحراب) يعنى الغرفة والمحراب أشرف المجالس ومقدمها وكذلك هو من المسجد وقيل المحراب ما يرقى اليه بدرج وقيل كان زكريا يغلق عليها سبعة أبواب فاذا دخل عليها المحراب (وجد عندها رزقا) يعنى فاكهة فى غير وقتها فكان يجد عندها فاكهة الشتاء فى الصيف وفاكهة الصيف فى الشتاء (قال) يعنى زكريا (يا مريم أنى لك هذا) أى من أين لك هذه الفاكهة (قالت) يعنى مريم مجيبة لزكريا (هو من عند الله) يعنى من الجنة وقيل ان مريم من حين ولدت لم تلقم ثديا بل كان يأتيها رزقها من الجنة فيقول زكريا يا مريم أنى لك هذا فتقول هو من عند الله تكلمت وهى صغيرة فى المهد كما تكلم ولدها عيسى عليه السلام وهو صغير فى المهد وقال محمد بن اسحق أصابت بنى اسرائيل أزمة وهى على ذلك من حالها حتى ضعف زكريا عن حملها وكفالتها فخرج على بنى اسرائيل فقال يا بنى اسرائيل تعلمون والله لقد كبرت سنى وضعفت عن حمل بنت عمران فأيكم يكفلها بعدى قالوا والله لقد جهدنا وأصابنا من السنة ما ترى فتدافعوها بينهم ثم لم يجدوا من حملها بدا فتقارعوا عليها بالاقلام فخرج السهم لرجل نجار يقال له يوسف بن يعقوب وكان ابن عم لمريم فحملها فعرفت مريم فى وجهه شدة ذلك عليه فقالت له يا يوسف أحسن بالله الظن فان الله سيرزقنا فصار يوسف يرزق لمكانها منه فكان يأتيها كل يوم من كسبه بما يصلحها فاذا أدخله عليها فى المحراب أنماه الله وزاده فيدخل زكريا عليها فيقول يا مريم أنى لك هذا فتقول هو من عند الله (ان الله يرزق من يشاء بغير حساب) وهذا يحتمل أن يكون من تمام كلام مريم أو ابتداء كلام من الله عز وجل ومعناه ان الله تعالى يرزق من يشاء بغير تقدير لكثرته أو من غير سبب وفى هذه الآية دليل على جواز كرامات الاولياء وظهور خوارق العادات على أيديهم قال أهل الاخبار فلما رأى زكريا ذلك قال ان الذى قدر على أن يأتى مريم بالفاكهة فى غير وقتها وحينها من غير سبب لقادر أن يصلح زوجى ويهب لى ولدا فى غير حينه مع الكبر وطمع فى الولد وذلك ان أهل بيته كانوا قد انقرضوا وكان زكريا قد كبر وشاخ وأيس من الولد فذلك قوله عز وجل (هنالك دعا زكريا ربه) يعنى انه عليه السلام دخل محرابه وأغلق الابواب وسأل ربه الولد (قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة) يعنى انه قال يا رب اعطنى من عندك ولدا مباركا تقيا صالحا رضيا والذرية تطلق على الواحد والجمع والذكر والانثى والمراد بها هنا الواحد وانما قال طيبة لتأنيث لفظ الذرية (انك سميع الدعاء) أى سامعه ومجيبه ۞ قوله عز وجل (فنادته الملائكة) يعنى جبريل عليه السلام وانما أخبر عنه بلفظ الجمع تعظيما لشأنه ولانه رئيس الملائكة وقل أن يبعث الا ومعه جمع من الملائكة فجرى ذلك على مجرى العادة (وهو قائم يصلى فى المحراب) أى فى المسجد وذلك ان زكريا عليه السلام كان الحبر الكبير الذى يقرب القربان ويفتح لهم الباب فلا يدخلون حتى يأذن لهم فى الدخول فبينما هو قائم يصلى فى محرابه عند المذبح والناس ينتظرون أن يأذن فى الدخول اذا هو برجل شاب عليه ثياب بيض ففزع زكريا منه فناداه جبريل عليه السلام يا زكريا

ان

(أَنَّ الله يبشرك بيحيى) أي بولد اسمه يحيى قال ابن عباس سمي يحيى لان الله تعالى أحيا به عقر أمه وقيل لان الله تعالى أحيا قلبه بالايمان وقيل لان الله تعالى أحياه بالطاعة حتى لم يهم بمعصية قط (مصدقا بكلمة من الله) يعني عيسى بن مريم وانما سمي عيسى عليه السلام كلمة لان الله تعالى قال له كن فكان من غير أب دلالة على كمال القدرة فوقع عليه اسم الكلمة لانه بها كان وقيل سمي كلمة لان عيسى عليه السلام كان يرشد الخلق الى الحقائق والاسرار الالهية ويهتدى به كما يهتدى بكلام الله تعالى فسمي كلمة بهذا الاعتبار وقيل سمي كلمة لان الله تعالى بشر به مريم على لسان جبريل عليهما السلام وقيل لان الله تعالى أخبر الانبياء الذين قبله في كتبه المنزلة عليهم انه يخلق نبيا من غير واسطة أب فلما جاء قيل هذا هو تلك الكلمة يعني الوعد الذي وعد أنه يخلقه كذلك وكان يحيى أول من آمن بعيسى وصدقه وكان يحيى أكبر من عيسى بستة أشهر وكانا ابني خالة وقتل يحيى قبل أن يرفع عيسى عليهما السلام وقيل ان أم يحيى لقيت أم عيسى وهما حاملتان فقالت أم يحيى لام عيسى يا مريم أشعرت اني حامل فقالت مريم وأنا أيضا حامل فقالت أم يحيى يا مريم اني لاجد ما في بطني يسجد لما في بطنك فذلك قوله مصدقا بكلمة من الله يعني ان يحيى آمن بعيسى وصدق به (وسيدا) من ساد يسود والسيد هو الرئيس الذي يتبع وينتهى الى قوله وكان يحيى عليه السلام سيد المؤمنين ورئيسهم في الدين والعلم والحلم وقيل السيد هو الحسن الخلق وقيل هو الذي يطيع ربه وقيل هو الفقيه العالم وقيل سيدا في العلم والعبادة والورع وقيل السيد هو الحليم الذي لا يغضبه شئ وقيل السيد هو الذي يفوق قومه في جميع خصال الخير وقيل هو السخي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سيدكم يا بني سلمة قالوا جد بن قيس على انا نبخله قال وأي داء أدوأ من البخل لكن سيدكم عمرو بن الجموح (وحصورا) قال ابن عباس وغيره من المفسرين الحصور الذي لا يأتي النساء ولا يقربهن فعلى هذا هو فعول بمعنى فاعل يعني انه حصر نفسه عن الشهوات وأصله من الحصر وهو الحبس وقيل هو العنين وقيل هو الفقير الذي لا مال له فيكون الحصور بمعنى المحصور يعني الممنوع من النساء قال سعيد بن المسيب كان له مثل هدبة الثوب وقد تزوج مع ذلك ليغض بصره وفيه قول آخر وهو أن الحصور هو الممتنع عن الوطء مع القدرة عليه وانما تركه للعفة والزهد فيه وهذا القول هو الصحيح وهو قول جماعة من المحققين وهو أليق بمنصب الانبياء لان الكلام انما خرج مخرج المدح والثناء وذكر صفة النقص في معرض المدح لا يجوز وأيضا فان منصب النبوة يجل من أن يضاف الى أحد منهم نقص أو آفة فحمل الكلام على منع النفس عن الوطء مع القدرة عليه أولى من حمله على ترك الوطء مع العجز عنه (ونبيا من الصالحين) يعني انه من أولاد الانبياء الصالحين ۞ قوله عز وجل (قال) يعني زكريا (رب) اي يا رب قيل هو خطاب مع جبريل لان الآية المتقدمة دلت على أن الذين نادوه هم الملائكة فعلى هذا القول يكون الرب هنا بمعنى السيد والمربي أي يا سيدي وقيل انه خطاب مع الله تعالى فيكون الرب بمعنى المالك وذلك ان الملائكة لما بشروه بالولد تعجب ورجع في ازالة ذلك التعجب الى الله تعالى فقال رب (أنى يكون لي غلام) يعني من أين يكون وكيف يكون لي غلام (وقد بلغني الكبر) قيل هو من المقلوب ومعناه وقد بلغت الكبر وشخت وقيل معناه وقد نالني الكبر وأدركني الضعف فان قلت كيف أنكر زكريا الولد مع تبشير الملائكة اياه وما معنى هذه المراجعة ولم تعجب من ذلك بعد وعد الله اياه به أكان شاكا في وعد الله أو في قدرته قلت لم يشك زكريا عليه السلام في وعد الله وفي قدرته وانما قال ذلك على سبيل الاستفهام والاستعلام والمعنى من أي جهة يكون لي الولد أيكون بازالة العقر عن زوجتي ورد شبابي علي أو يكون ونحن على حالنا من الكبر والضعف فاجابه بقوله كذلك الله يفعل ما يشاء وقال عكرمة والسدي لما سمع زكريا نداء الملائكة جاءه الشيطان وقال يا زكريا ان الصوت الذي سمعت ليس هو من الله تعالى وانما هو من الشيطان ولو كان من الله تعالى لاوحاه اليك كما يوحي اليك في سائر الامور فقال ذلك زكريا دفعا

(يبشرك) يبشرك وما بعده حمزة وعلي من بشره والتخفيف والتشديد لغتان (بيحيى) هو غير منصرف ان كان عجميا وهو الظاهر فللتعريف والعجمة كموسى وعيسى وان كان عربيا فللتعريف ووزن الفعل كيعمر (مصدقا) حال منه (بكلمة من الله) أي مصدقا بعيسى مؤمنا به فهو أول من آمن به وسمي عيسى كلمة الله لان تكونه بكن بلا أب أو مصدقا بكلمة من الله مؤمنا بكتاب منه (وسيدا) هو الذي يسود قومه أي يفوقهم في الشرف وكان يحيى فائقا على قومه لانه لم يركب سيئة قط يا لها من سيادة وقال الجنيد هو الذي جاد بالكونين عوضا عن المكون (وحصورا) هو الذي لا يقرب النساء مع القدرة حصر لنفسه أي منعها من الشهوات (ونبيا من الصالحين) ناشئا من الصالحين لانه كان من أصلاب الانبياء أو كائنا من جملة الصالحين (قال رب أنى يكون لي غلام) استبعاد من حيث العادة واستعظام للقدرة لا تشكك (وقد بلغني الكبر) كقولهم أدركته السن العالية أي أثر في الكبر وأضعفني وكان له تسع وتسعون سنة ولامرأته ثمان وتسعون

للوسوسة واعترض على الجواب بانه لا يجوز أن يشتبه على الانبياء كلام الملائكة بكلام الشيطان اذ لو جوزنا ذلك لارتفع الوثوق باخبارهم عن الوحي السماوي وأجيب عن هذا الاعتراض بانه لما دلت الدلائل على صدق الانبياء فيما يخبرون به عن الله تعالى بواسطة الملك فلا مدخل للشيطان فيه وذلك فيما يتعلق بالدين والشرائع فاما ما يتعلق بمصالح الدنيا وبالولد فقد يحتمل فيه حصول الوسوسة فسأل زكريا ذلك لنزول هذه الوسوسة من خاطره قال الكلبي كان زكريا يوم بشر بالولد ابن اثنين وتسعين سنة وقيل ابن تسع وتسعين سنة وقال ابن عباس في رواية الضحاك كان ابن مائة وعشرين سنة وكانت امرأته بنت ثمان وتسعين سنة فذلك قوله تعالى (وامرأتي عاقر) أي عقيم لا تلد (قال كذلك الله يفعل ما يشاء) يعني انه تعالى قادر على هبة الولد على الكبر يفعل ما يشاء لا يعجزه شيء ۞ قوله عز وجل (قال) يعني زكريا (رب اجعل لي آية) أي علامة أعلم بها وقت حمل امرأتي فازيد في العبادة والشكر لك (قال آيتك) أي علامتك على الذي طلبت معرفة علامه (أن لا تكلم الناس) أي لا تقدر على تكليم الناس (ثلاثة أيام) أي مدة ثلاثة أيام بلياليها قال جمهور المفسرين عقد لسانه عن تكليم الناس ثلاثة أيام مع ابقائه على قدرة التسبيح والذكر ولذلك قال في آخر الآية واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والابكار يعني في أيام منعك من تكليم الناس وهذه من الآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة لان قدرته على التسبيح والذكر مع عجزه عن تكليم الناس بامور الدنيا وذلك مع صحة الجسم وسلامة الجوارح من أعظم المعجزات وانما منع من الكلام مع الناس ليخلص في هذه الايام لعبادة الله تعالى وذكره ولا يشغل لسانه بشيء آخر توفيرا منه على قضاء حق هذه النعمة الجسيمة وشكر الله على اجابته فيما طلب الآية من أجله وأن يكون ذلك دليلا على وجود الحمل ليتم سروره بذلك وقال قتادة انما أمسك لسانه عن الكلام عقوبة لسؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة اياه ببشارة الولد فلم يقدر على الكلام ثلاثة أيام (الا رمزا) يعني الاشارة والاشارة قد تكون باليد وبالعين وبالايماء بالرأس وكانت اشارته بالاصبع المسبحة وقيل الرمز قد يكون باللسان من غير تبيين كلام وهو الصوت الخفي شبه الهمس وقيل أراد به صوم ثلاثة أيام لانهم كانوا اذا صاموا لم يتكلموا والقول الاول أصح لموافقة أهل اللغة عليه (واذكر ربك كثيرا) وذلك لما منعه الله من الكلام في تلك المدة أمره بالذكر فقال واذكر ربك كثيرا فانك لا تمنع من ذلك ولا يحال بينك وبينه (وسبح) أي وعظم ربك ونزهه عن النقائص وقيل وصل لربك وسميت الصلاة تسبيحا لان فيها تنزيه الرب سبحانه وتعالى (بالعشي والابكار) فاما العشي فهو ما بين زوال الشمس الى غروبها ومنه سميت صلاتا الظهر والعصر صلاتي العشي والابكار هو ما بين طلوع الفجر الى الضحى ۞ قوله عز وجل (واذ قالت الملائكة) يعني جبريل عليه السلام (يا مريم ان الله اصطفاك) أي اختارك (وطهرك) يعني من مسيس الرجال وقيل من الحيض والنفاس وكانت مريم لا تحيض وقيل من الذنوب (واصطفاك) أي واختارك (على نساء العالمين) أي عالمي زمانها وقيل على جميع نساء العالمين فان قلت هل فرق بين الاصطفاء الاول والثاني قلت ذكر العلماء في معناهما وجوها يتحصل منها الفرق فقيل في معنى الاصطفاء الاول ان الله تعالى اختار مريم وقبلها منذورة محررة لم تحرر قبلها أنثى ولم يجعل ذلك لغيرها من النساء وان الله بعث اليها رزقها من عنده وكفلها زكريا ومعنى الاصطفاء الثاني ان الله تعالى وهب لها عيسى من غير أب وأسمعها كلام الملائكة ولم يحصل ذلك لغيرها من النساء (ق) عن علي بن أبي طالب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد قال أبو كريب وأشار وكيع الى السماء والارض قيل أراد وكيع بهذه الاشارة تفسير الضمير في قوله خير نسائها

(وامرأتي عاقر) لم تلد (قال كذلك الله يفعل ما يشاء) من الافعال العجيبة (قال رب اجعل لي) مدني وأبو عمرو (آية) علامة أعرف بها الحبل لأتلقى النعمة بالشكر اذا جاءت (قال آيتك ألا تكلم الناس) أي لا تقدر على تكليم الناس (ثلاثة أيام الا رمزا) الاشارة بيد أو رأس أو عين أو حاجب وأصله التحرك يقال ارتمز اذا تحرك واستثنى الرمز وهو ليس من جنس الكلام لانه لما أدى مؤدى الكلام وفهم منه ما يفهم منه سمي كلاما أو هو استثناء منقطع وانما خص تكليم الناس ليعلم انه يحبس لسانه عن القدرة على تكليمهم خاصة مع ابقاء قدرته على التكلم بذكر الله ولذا قال (واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والابكار) أي في أيام عجزك عن تكليم الناس وهي من الآيات الباهرة والادلة الظاهرة وانما حبس لسانه عن كلام الناس ليخلص المدة لذكر الله لا يشغل لسانه بغيره كأنه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له آيتك ان تحبس لسانك الا عن الشكر وأحسن الجواب ما كان منتزعا من السؤال والعشي من حين الزوال الى الغروب والابكار من طلوع الفجر الى وقت الضحى (واذ) عطف على اذ قالت امرأة عمران أو التقدير واذكر اذ (قالت الملائكة يا مريم) روى انهم كلموها شفاها (ان الله اصطفاك) أولا حين تقبلك من أمك ورباك واختصك بالكرامة السنية (وطهرك) مما يستقذر من الافعال (واصطفاك) آخرا (على نساء العالمين) بان وهب لك عيسى من غير أب ولم يكن ذلك لاحد من النساء

(يامريم اقنتي لربك) أديمي الطاعة أو أطيلي قيام الصلاة (واسجدي) وقيل أمرت بالصلاة بذكر القنوت والسجود لكونهما من هيئات لصلاة ثم قيل لها (واركعي مع الراكعين) أي ولتكن صلاتك مع المصلين أي في الجماعة أو وانظمي نفسك في جملة المصلين وكوني في عدادهم ولا تكوني في عداد غيرهم (ذلك) اشارة الى ماسبق من قصة حنة وزكريا ويحيى ومريم (من أنباء الغيب نوحيه اليك)

نسائها ومعناه أنهما خير كل النساء بين السماء والارض قال الشيخ محيي الدين النووي والاظهر ان معناه ان كل واحدة منهما خير نساء الارض في عصرها وأما التفضيل بينهما فمسكوت عنه (ق) عن أبي موسى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء الا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام قال العلماء معناه ان الثريد من كل طعام أفضل من المرق وثريد اللحم أفضل من مرقه بلا ثريد وثريد مالا لحم فيه أفضل من مرقه من غير ثريد وفضل عائشة على النساء كزيادة فضل الثريد على غيره وليس في هذا تصريح بتفضيلها على مريم وآسية لاحتمال ان المراد تفضيلها على نساء هذه الامة عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون أخرجه الترمذي قوله عزوجل (يامريم اقنتي لربك) أي قالت الملائكة لها شفاها أطيعي ربك وقيل معناه أطيلي القيام في الصلاة لربك قال الاوزاعي لما قالت الملائكة لها ذلك قامت حتى تورمت قدماها وسالت دما وقيحا وحكي عن مجاهد نحوه (واسجدي واركعي مع الراكعين) انما قدم السجود على الركوع لان الواو لا تقتضي الترتيب انما هي للجمع كانه قيل لها افعلي الركوع والسجود وقيل انما قدم السجود على الركوع لانه كان كذلك في شريعتهم وقال ابن الانباري امرها أمرا عاما وحضها على فعل الخير فكأنه قال استعملي السجود في حال والركوع في حال ولم يرد تقديم السجود على الركوع بل أراد العموم بالامر على اختلاف الحالين وانما قال اركعي مع الراكعين ولم يقل مع الراكعات لان لفظ الراكعين اعم فيدخل فيه الرجال والنساء والصلاة مع الرجال أفضل وأتم وقيل معناه افعلي كفعل الراكعين وقيل المراد به الصلاة في جماعة أي صلي مع المصلين في جماعة ۞ قوله عزوجل (ذلك من أنباء الغيب) يقول الله عزوجل لمحمد صلى الله عليه وسلم ذلك الذي ذكرت لك من حديث زكريا ويحيى ومريم وعيسى عليهم السلام من أخبار الغيب (نوحيه اليك) أي نلقيه اليك يا محمد لانه لا يمكنك أن تعلم أخبار الامم الماضين الا بوحي منا اليك وانما قال نوحيه لانه رد الضمير الى ذلك فلذلك ذكر اللفظ (وما كنت) يعني يا محمد (لديهم) هنالك عندهم (اذ يلقون أقلامهم) يعني التي كانوا يكتبون بها في الماء لاجل الاقتراع (أيهم يكفل مريم) يعني يربيها ويقوم بمصالحها ٣ قيل سبب منازعتهم في كفالة مريم حتى اقترعوا على ذلك انها كانت بنت عمران وكان رئيسهم وكبيرهم فلاجل ذلك رغبوا في كفالتها وقيل لان مريم حررت لعبادة الله وخدمة المسجد وكان أبوها قد مات فلاجل ذلك رغبوا في كفالتها (وما كنت لديهم اذ يختصمون) يعني في كفالتها وتربيتها ۞ قوله عزوجل (اذ قالت الملائكة يامريم ان الله يبشرك بكلمة منه) معناه وما كنت لديهم يا محمد اذ يختصمون وما كنت لديهم اذ قالت الملائكة يعني جبريل عليه السلام يامريم ان الله يبشرك والبشارة اخبار المرء بما يسره من خير بكلمة منه يعني برسالة من الله وخبر من عنده فهو كقول القائل ألقى الي فلان كلمة سرني بها وأخبرني خبرا فرحت به ومعنى الآية اذ قالت الملائكة لمريم يامريم ان الله يبشرك ببشرى من عنده وهي ولد يولد لك من غير بعل ولا فحل وذلك الولد (اسمه المسيح عيسى بن مريم) وقال قتادة في قوله تعالى بكلمة منه هو قوله تعالى كن فسماه الله كلمة لانه كان عن الكلمة التي هي كن كما يقال لما قدر الله من شئ هذا قدر الله وقضاء الله يعني ان هذا الامر عن قدره وقضائه حدث وقال ابن عباس الكلمة هي عيسى عليه السلام انما سمي كلمة لانه وجد عن الكلمة التي هي كن فان قلت ان كل مخلوق انما يوجد بواسطة الكلمة التي هي كن فلم خص عيسى عليه السلام

يعني ان ذلك من الغيوب التي لم تعرفها الا بالوحي (وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم) أزلامهم وهي قداحهم التي طرحوها في النهر مقترعين أو هي الاقلام التي كانوا يكتبون التوراة بها اختاروها للقرعة تبركا بها (أيهم يكفل مريم) متعلق بمحذوف دل عليه يلقون كانه قيل يلقونها ينظرون أيهم يكفل مريم أو ليعلموا أو يقولون (وما كنت لديهم اذ يختصمون) في شأنها تنافسا في التكفل بها (اذ قالت الملائكة) أي اذكر (يامريم ان الله يبشرك بكلمة) أي بعيسى (منه) في موضع جر صفة لكلمة (اسمه) مبتدأ وذكر ضمير الكلمة لان المسمى بها مذكر (المسيح) خبره والجملة في موضع جر صفة لكلمة والمسيح لقب من الالقاب المشرفة كالصديق والفاروق وأصله مشيحا بالعبرانية ومعناه المبارك كقوله وجعلني مباركا أينما كنت وقيل سمي مسيحا لانه كان لا يمسح ذا عاهة الا برأ أو لانه كان يمسح الارض بالسياحة لا يستوطن مكانا (عيسى) بدل من المسيح (ابن مريم) خبر مبتدأ محذوف أي هو ابن مريم ولا يجوز أن يكون صفة لعيسى لان اسمه عيسى فحسب وليس اسمه عيسى بن مريم وانما قال ابن مريم اعلاما لها أنه يولد من غير أب فلا ينسب الا الى أمه

٣ قيل سبب منازعتهم الخ تقدم قول ثالث وهو حصول الازمة لهم اهـ مصححه

بهذا الاسم وسماه كلمة دون غيره فان قلت ان كل مخلوق وان وجد حدوثه وخلقه بواسطة الكلمة الا ان هذا السبب ماهو المتعارف ولما كان حدوث عيسى عليه السلام بمجرد الكلمة من غير واسطة أخرى فلاجرم كان اضافة حدوثه الى الكلمة أتم وأكمل وبهذا التأويل حسن ان يسمى عيسى عليه السلام نفس الكلمة لانه حدث عنها فان قلت الضمير في قوله اسمه عائد الى الكلمة وهي مؤنثة فلم ذكر الضمير قلت لان المسمى بها مذكر فلهذا ذكر الضمير فان قلت لم قال اسمه المسيح عيسى بن مريم وهذه ثلاثة الاسم منها واحد وهو عيسى وأما المسيح فلقب وابن مريم صفة قلت الضمير في قوله اسمه يرجع الى عيسى والمسمى علامة يعرف بها ويتميز عن غيره فكأنه قال الذي يعرف به ويتميز عن سواه هو مجموع هذه الثلاثة واختلفوا لم سمي عيسى عليه السلام مسيحا وهل هو اسم مشتق أو موضوع فقيل انه موضوع وأصله بالعبرانية مشيحا فغيرته العرب وأصل عيسى ايشوع كما قالوا موسى وأصله موشى أو ميشى وقال الاكثرون انه اسم مشتق ثم ذكروا فيه وجوها قال ابن عباس سمي عيسى مسيحا لانه مامسح ذا عاهة الا برأ منها وقيل لانه مسح بالبركة وقيل لانه مسح من الاقذار وطهر من الذنوب وقيل انه خرج من بطن أمه ممسوحا بالدهن وقيل لان جبريل عليه السلام مسحه بجناحه حتى لا يكون للشيطان عليه سبيل وقيل لانه كان يسيح في الارض ولا يقيم بمكان فكأنه يمسح الارض أي يقطعها مساحة فعلى هذا القول تكون الميم زائدة وقيل سمي مسيحا لانه كان ممسوح القدمين لاأخمص له وسمي الدجال مسيحا لانه ممسوح احدى العينين وقيل المسيح هو الصديق وبه سمي عيسى عليه السلام وقد يكون المسيح بمعنى الكذاب وبه سمي الدجال فعلى هذا تكون هذه الكلمة من الاضداد ۞ وقوله تعالى (وجيها) أي شريفا رفيعا ذا جاه وقدر (في الدنيا والآخرة) أما وجاهته في الدنيا فبسبب النبوة وانه كان يبرئ الاكمه والابرص ويحيي الموتى وأما وجاهته في الآخرة فبسبب علو مرتبته عند الله وهو قوله تعالى (ومن المقربين) يعني عند الله يوم القيامة لان لاهل الجنة منازل ودرجات ومنازل الانبياء ودرجاتهم أعلى من سواهم وقيل فيه تنبيه على علو منزلته وانه رفعه الى السماء (ويكلم الناس في المهد) يعني ويكلم الناس صغيرا وهو في المهد وذلك قبل أوان الكلام ووقته والكلام الذي تكلم به هو ماذكره الله عنه في سورة مريم وهو قوله اني عبد الله آتاني الكتاب الآية وتكلم ببراءة أمه مما رماها به أهل القرية من القذف ويحكى ان مريم قالت كنت اذا خلوت أنا وعيسى حدثني وحدثته فاذا شغلني عنه انسان سبح وهو في بطني وأنا أسمع ولما تكلم ببراءة أمه سكت بعد ذلك فلم يتكلم الا في الوقت الذي يتكلم فيه الصغير قال ابن عباس تكلم عيسى ساعة ثم سكت ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغ النطق (وكهلا) يعني ويكلم الناس في حال الكهولة والكهل في اللغة هو الذي اجتمعت قوته وكمل شبابه والكهل عند العرب الذي جاوز الثلاثين وقيل هو الذي وخطه الشيب وهو السن الذي يستحكم فيه العقل وتنبأ فيه الانبياء قال ابن قتيبة لما كان لعيسى ثلاثون سنة أرسله الله تعالى فمكث في رسالته ثلاثين شهرا ثم رفعه الله تعالى وقال وهب بن منبه جاءه الوحي على رأس ثلاثين سنة فمكث في نبوته ثلاث سنين ثم رفعه الله فمعنى الآية انه يكلم الناس وهو في المهد ببراءة أمه وهي معجزة عظيمة ويكلم الناس في حال الكهولة بالدعوة والرسالة وقيل فيه بشارة لمريم أخبرها بانه يبقى حتى يكتهل وقيل فيه اخبار بانه يتغير من حال الى حال ولو كان الها كما زعمت النصارى لم يدخل عليه التغيير ففيه رد على النصارى الذين يدعون فيه الالوهية وقال الحسن بن الفضل وكهلا يعني ويكلم الناس كهلا بعد نزوله من السماء وفي هذه نص على انه سينزل من السماء الى الارض ٣ ويقتل الدجال وقال مجاهد الكهل الحكيم والعرب تمدح الكهولة لانها الحالة الوسطى في احتناك السن واستحكام العقل وجودة الرأي والتجربة (ومن الصالحين) يعني انه من العباد الصالحين مثل ابراهيم واسحق ويعقوب وموسى وغيرهم من الانبياء وانما ختم أوصاف عيسى عليه السلام بكونه من الصالحين بعد ماوصفه بالاوصاف العظيمة لان الصلاح

(وجيها) ذا جاه وقدر (في الدنيا) بالنبوة والطاعة (والآخرة) بعلو الدرجة والشفاعة (ومن المقربين) برفعه الى السماء وقوله وجيها حال من كلمة لكونها موصوفة وكذا ومن المقربين أي وثابتا من المقربين وكذا (ويكلم الناس) أي ومكلما الناس (في المهد) حال من الضمير في يكلم أي ثابتا في المهد وهو مايمهد للصبي من مضجعه سمي بالمصدر (وكهلا) عطف عليه أي ويكلم الناس طفلا وكهلا أي ويكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الانبياء من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة التي يستحكم فيها العقل ويستنبأ فيها الانبياء (ومن الصالحين) حال أيضا والتقدير يبشرك به موصوفا بهذه الصفات

٣ قوله ويقتل الدجال هذا لايستفاد من نص عبارة الحسن اه مصححه

(قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق مايشاء اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون) أى اذا قدر تكون شئ كونه من غير تأخير لكنه عبر بقوله كن اخبارا عن سرعة تكون الاشياء بتكوينه (ويعلمه) مدنى وعاصم وموضعه حال معطوفة على وجيها الباقون بالنون على انه كلام مبتدأ (الكتاب) أى الكتابة وكان أحسن الناس خطا فى زمانه وقيل كتب الله (والحكمة) بيان الحلال والحرام أو الكتاب الخط باليد والحكمة البيان باللسان (والتوراة والانجيل ورسولا) أى ونجعله رسولا أو يكون فى موضع الحال أى وجيها فى الدنيا والآخرة ورسولا (الى بنى اسرائيل أنى) بانى (قد جئتكم بآية من ربكم) بدلالة تدل على صدق فيما أدعيه من النبوة (أنى أخلق لكم) نصب بدل من أنى قد جئتكم أو جر بدل من آية أو رفع على هى أنى أخلق لكم انى نافع على الاستئناف (من الطين كهيئة الطير) أى أقدر لكم شيأ مثل صورة الطير (فانفخ فيه) الضمير للكاف أى فى ذلك الشئ المماثل لهيئة الطير (فيكون طيرا) فيصير طيرا كسائر الطيور طائرا مدنى (باذن الله) بامره وقيل لم يخلق شيأ غير الخفاش (وأبرئ الأكمه) الذى ولد أعمى (والابرص وأحيي الموتى باذن الله) كرر باذن الله دفعا لوهم من يتوهم فيه اللاهوتية روى انه أحيا سام بن نوح عليه السلام وهم ينظرون اليه فقالوا هذا سحر مبين فأرنا آية فقال يافلان أكلت كذا ويافلان خبئ لك كذا وهو قوله

من أعظم المراتب وأشرف المقامات لانه لا يسمى المرء صالحا حتى يكون مواظبا على النهج الاصلح والطريق الاكمل فى جميع أقواله وأفعاله فلما وصفه الله تعالى بكونه وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين وانه يكلم الناس فى المهد وكهلا أردفه بقوله ومن الصالحين ليكمل له أعلى الدرجات وأشرف المقامات ❁ قوله عز وجل (قالت) يعنى مريم (رب) يعنى ياسيدى تقوله لجبريل لما بشرها بالولد وقيل تقوله لله عز وجل (أنى يكون لى ولد) أى من أين يكون لى ولد (ولم يمسسنى بشر) أى ولم يصبنى رجل وانما قالت ذلك تعجبا لا شكا فى قدرة الله تعالى اذ لم تكن العادة جرت أن يولد ولد من غير أب (قال كذلك الله يخلق مايشاء) يعنى هكذا يخلق الله منك ولدا من غير أن يمسك بشر فيجعله آية للناس وعبرة فانه يخلق مايشاء ويصنع مايريد وهو قوله (اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون) يعنى كما يريد (ونعلمه الكتاب) يعنى الكتابة والخط باليد (والحكمة) يعنى العلم والسنة وأحكام الشرائع (والتوراة) يعنى التى أنزلت على موسى (والانجيل) يعنى الذى أنزل عليه وهذا اخبار من الله تعالى لمريم ماهو فاعل بالولد الذى بشرها به من الكرامة وعلو المنزلة (ورسولا الى بنى اسرائيل) أى ونجعله رسولا الى بنى اسرائيل وكان أول أنبياء بنى اسرائيل يوسف بن يعقوب وآخرهم عيسى بن مريم عليه السلام فلما بعث اليهم قال (أنى قد جئتكم بآية من ربكم) يعنى بعلامة من ربكم على صدق قولى وانما قال بآية وقد جاء بآيات كثيرة لان الكل دل على شئ واحد وهو صدقه فى الرسالة فلما قال ذلك عيسى لبنى اسرائيل قالوا ماهذه الآية قال (أنى أخلق) أى أصور وأقدر (لكم من الطين كهيئة الطير) والهيئة الصورة المهيأة من قولهم هيأت الشئ اذا قدرته وأصلحته (فانفخ فيه) أى فى الطين المهيأ المصور (فيكون طيرا) قرئ بلفظ الجمع لان الطير اسم جنس يقع على الواحد والاثنين والجمع وقرئ فيكون طائرا على التوحيد على معنى يكون ما أنفخ فيه طائرا أو ما أخلقه يكون طائرا وقيل انه لم يخلق غير الخفاش وهو الذى يطير فى الليل وانما خص الخفاش لانه من أكمل الطير خلقا وذلك لانه يطير بلا ريش وله اسنان و يقال ان الانثى منه لها ثدى وتحيض ذكروا أن عيسى عليه السلام لما ادعى النبوة وأظهر لهم المعجزات أخذوا يتعنتون عليه فطلبوا منه ان يخلق لهم خفاشا فأخذ طينا وصوره كهيئة الخفاش ثم نفخ فيه فاذا هو طير يطير بين السماء والارض قال وهب كان يطير مادام الناس ينظرون اليه فاذا غاب عنهم سقط ميتا ليتميز فعل المخلوق من فعل الخالق وهو الله تعالى وليعلم ان الكمال لله تعالى (باذن الله) معناه بتكوين الله وتخليقه والمعنى أنى أعمل هذا التصوير فأما خلق الحياة فيه فهو من الله تعالى على سبيل اظهار المعجزة على يد عيسى عليه السلام (وأبرئ الاكمه والابرص) أى وأشفى الاكمه والابرص وأصححهما واختلفوا فى الاكمه فقال ابن عباس هو الذى ولد أعمى وقيل هو الاعمى وان كان أبصر وقيل هو الاعشى وهو الذى يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل والابرص هو الذى به وضح وكان الغالب على زمان عيسى عليه السلام الطب فأراهم المعجزة من جنس ذلك الا انه ليس فى علم الطب ابراء الاكمه والابرص فكان ذلك معجزة له ودليلا على صدقه وقال وهب ربما اجتمع على عيسى عليه السلام من المرضى فى اليوم الواحد نحو خمسين ألفا فمن أطاق أن يمشى اليه مشى ومن لم يطق مشى عيسى عليه السلام اليه وكان يداويهم بالدعاء على شرط الايمان برسالته (وأحيى الموتى باذن الله) قال ابن عباس قد أحيا أربعة أنفس عازر وابن العجوز وابنة العاشر وسام بن نوح وكلهم بقى وولد له الا سام بن نوح فأما عازر فكان صديقا لعيسى عليه السلام فأرسلت اليه أخت عازر ان أخاك عازر يموت وكان بينهما مسيرة ثلاثة أيام فأتاه عيسى وأصحابه فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيام فقال لاخته انطلقى بنا الى قبره فانطلقت بهم الى قبره فدعا الله

عيسى فقام عازر حيا باذن الله تعالى فخرج من قبره وعاش وولد له وأما ابن العجوز فانه مر به وهو ميت على عيسى عليه السلام يحمل على السرير فدعا الله عيسى فجلس على سريره ونزل عن أعناق الرجال ولبس ثيابه وأتى أهله وعاش وولد له وأما ابنة العاشر فكان أبوها يأخذ العشور من الناس وماتت بالامس فدعا الله عيسى فاحياها بدعوته فعاشت وولد لها وأما سام بن نوح فان عيسى جاء الى قبره ودعا الله باسمه الاعظم فخرج من قبره وقد شاب نصف رأسه خوفا من قيام الساعة ولم يكونوا يشيبون فى ذلك الزمان فقال قد قامت الساعة فقال عيسى عليه السلام لا ولكن دعوتك باسم الله الاعظم ثم قال مت قال بشرط أن يعيذنى الله من سكرات الموت مرة أخرى فدعا الله عيسى ففعل (وأنبئكم) يعنى وأخبركم (بما تأكلون) أى بما لم أعاينه (وما تدخرون فى بيوتكم) أى وما ترفعونه فتخبؤنه فى بيوتكم لتأكلوه فيما بعد ذلك قيل كان عيسى عليه السلام يخبر الرجل بما أكل البارحة وبما يأكله اليوم وبما ادخره للعشاء وقيل كان فى الكتاب يحدث الغلمان بما يصنع آباؤهم ويقول للغلام انطلق فقد أكل أهلك كذا وكذا وقد رفعوا لك كذا فينطلق الصبى فيبكى على أهله حتى يعطوه ذلك الشئ فيقولون من أخبرك بهذا فيقول عيسى فحبسوا صبيانهم عنه وقالوا لا تلعبوا مع ذلك الساحر وجمعوهم فى بيت فجاء عيسى يطلبهم فقالوا ليسوا هنا فقال وما فى البيت قالوا خنازير فقال كذلك يكونون ففتحوا عليهم الباب فاذاهم خنازير ففشا ذلك فى بنى اسرائيل وظهر فهموا به فخافت عليه أمه فحملته على حمار لها وخرجت هاربة الى مصر وقال قتادة انما كان هذا فى نزول المائدة وكان خوانا ينزل عليهم أينما كانوا فيه من طعام الجنة وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا للغد فخانوا وادخروا فكان عيسى عليه السلام يخبرهم بما أكلوا من المائدة وما ادخروا منها فمسخهم الله خنازير وفى هذا دليل قاطع على صحة نبوة عيسى عليه السلام ومعجزة عظيمة له وهى اخباره عن المغيبات مع ما تقدم له من الآيات الباهرات من ابراء الاكمه والابرص واحياء الموتى باذن الله تعالى واخباره عن الغيوب باعلام الله اياه ذلك وهذا مما لا سبيل لاحد من البشر عليه الا الانبياء عليهم السلام فان قلت قد يخبر المنجم والكاهن عن مثل ذلك فما الفرق قلت ان المنجم والكاهن لا بد لكل واحد منهما من مقدمات يرجع اليها ويعتمد فى اخباره عليها أما المنجم فانه يستعين على ذلك بواسطة معرفة الكواكب وامتزاجاتها أو بواسطة حساب الرمل أو نحو ذلك وقد يخطئ فى كثير مما يخبر به وأما الكاهن فانه يستعين برائد من الجن وقد يخطئ أيضا فى كثير مما يخبر به وأما اخبار الانبياء عليهم السلام عن المغيبات فليس الا بالوحى السماوى وهو من الله تعالى وليس ذلك باستعانة بواسطة حساب ولا غيره فحصل الفرق (ان فى ذلك) يعنى الذى تقدم ذكره من خلق الطير من الطين باذن الله وابراء الاكمه والابرص والاخبار عن المغيبات (لآية لكم) أى لعبرة ودلالة على صدقى انى رسول من الله اليكم (ان كنتم مؤمنين) يعنى مصدقين بذلك (ومصدقا) قيل انه عطف على قوله ورسولا وقيل انه عطف على انى قد جئتكم بآية من ربكم والمعنى وجئتكم مصدقا (لما بين يدى من التوراة) وذلك لان الانبياء عليهم السلام يصدق بعضهم بعضا فكل واحد منهم يصدق الذى قبله ويصدق بما أنزل الله من الكتب والشرائع والاحكام فلهذا قال عيسى عليه السلام ومصدقا لما بين يدى من التوراة (ولأُحِلَّ لكم بعضَ الذى حُرِّمَ عليكم) قال وهب بن منبه ان عيسى كان على شريعة موسى عليهما السلام وكان يسبت ويستقبل بيت المقدس وقال لبنى اسرائيل انى لم أدعكم الى خلاف حرف مما فى التوراة الا لاحل لكم بعض الذى حرم عليكم وأضع عنكم الآصار وذلك ان الله تعالى كان قد حرم على اليهود بعض الاشياء عقوبة لهم على بعض ما صدر منهم من الخيانات كما قال تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم فبقى ذلك التحريم مستمرا على اليهود الى أن جاء عيسى عليه السلام فرفع عنهم تلك التشديدات التى كانت عليهم وقال قتادة كان الذى جاء به عيسى ألين من الذى جاء به موسى وكان قد حرم عليهم فيما جاء به موسى

(وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم) وما فيهما بمعنى الذى أو مصدرية (ان فى ذلك) فيما سبق (لآية لكم ان كنتم مؤمنين ومصدقا لما بين يدى من التوراة) أى قد جئتكم بآية وجئتكم مصدقا (ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم) رد على قوله بآية من ربكم أى جئتكم بآية من ربكم ولأحل لكم ما حرم الله عليهم فى شريعة موسى عليه السلام الشحومَ ولحومَ الابل والسمك وكلَّ ذى ظفر فأحل لهم عيسى بعض ذلك

لحوم الابل والثروب والشحوم وأشياء من الطير والحيتان زاد بعضهم فجاءهم عيسى بالتخفيف وأحلها لهم وقال آخرون ان عيسى عليه السلام رفع كثيرا من أحكام التوراة ورفع السبت ووضع الاحد وكان ذلك كله بأمر الله فكان ذلك ناسخا لتلك الاحكام والشرائع والناسخ والمنسوخ حق وصدق (وجئتكم بآية من ربكم) أي بحجة واضحة شاهدة على صحة رسالتي ثم خوفهم بقوله (فاتقوا الله) يعني يامعشر بني اسرائيل فيما أمركم به ونهاكم عنه (وأطيعون) يعني فيما ادعوكم اليه لان طاعة الرسول من توابع تقوى الله وما أدعوكم اليه هو قولي (ان الله ربي وربكم فاعبدوه) لان جميع الرسل كانوا على دين واحد وهو التوحيد ولم يختلفوا في الله تعالى وفي هذه الآية حجة بالغة على نصارى وفد نجران ومن قال بقولهم من سائر النصارى باخبار الله عن عيسى عليه السلام انه كان بريئا مما نسبه اليه النصارى وانه كان عبد الله وخصه بنبوته ورسالته ثم ختم ذلك بقوله (هذا صراط مستقيم) يعني التوحيد ۞ قوله عز وجل (فلما أحس عيسى منهم الكفر) أي وجد وعرف وقيل رأى والاحساس عبارة عن وجدان الشئ بالحاسة والمعنى انهم تكلموا بكلمة الكفر فاحس ذلك عيسى منهم وعرف اصرارهم عليه وعزمهم على قتله ﴿ذكر سبب القصة﴾ قال أهل الاخبار والسير لما بعث الله عيسى الى بني اسرائيل وأمره باظهار رسالته والدعاء اليه نفوه وأخرجوه من بينهم فخرج هو وأمه يسيحان في الارض فنزل في قرية على رجل فاضافهم وأحسن اليهم وكان لتلك القرية ملك جبار معتد فجاء ذلك الرجل في بعض الايام وهو مهموم حزين فدخل منزله ومريم عند امرأته فقالت مريم ماشأن زوجك أراه كئيبا حزينا فقالت لاتسأليني فقالت مريم أخبريني لعل الله ان يفرج كربته قالت المرأة ان لنا ملكا جبارا وقد جعل على كل رجل منا يوما يطعمه فيه هو وجنوده ويسقيهم الخمر وان لم يفعل ذلك عاقبه واليوم نوبتنا وليس عند ناسعة لذلك فقالت لها قولي له لايهتم لذلك فانا آمر ابني أن يدعو له فيكفي ذلك ثم قالت مريم لعيسى في ذلك فقال عيسى ان فعلت ذلك وقع شر فقالت مريم لانبالي فانه قد أحسن الينا وأكرمنا فقال عيسى قولي له اذا قرب ذلك الوقت فاملأ قدورك وخوابيك ماء ثم اعلمني ففعل الرجل ذلك ثم دعا الله عيسى عليه السلام فتحول ماء القدور مرقا ولحما وماء الخوابي خمرا لم تر الناس مثله فلما جاء الملك وأكل من ذلك الطعام وشرب من ذلك الخمر قال من أين لك هذا الخمر فقال الرجل هو من أرض كذا فقال الملك ان خمري من تلك الارض وليست مثل هذه فقال هي من أرض أخرى فلما رآه الملك قد اختلط شدد عليه فقال الرجل أنا أخبرك ان عندي غلاما لايسأل الله شيأ الا أعطاه اياه وانه دعا الله تعالى فجعل الماء خمرا وكان للملك ابن يريد ان يستخلفه في ملكه وقد مات قبل ذلك بايام وكان يحبه حبا شديدا فقال الملك ان رجلا دعا الله تعالى حتى صار الماء خمرا بدعوته ليستجيبن له في احياء ابني فطلب عيسى وكلمه في ذلك فقال له عيسى لاتفعل فانه ان عاش وقع شر فقال الملك لاأبالي أليس أراه فقال عيسى ان أنا أحييته تتركني أنا وأمي نذهب حيث نشاء قال نعم فدعا الله عيسى فعاش الغلام فلما رآه أهل مملكة الرجل قد عاش تبادروا الى السلاح وقالوا قد أكلنا هذا الملك حتى اذا دنا أجله يريد أن يستخلف علينا ابنه فيأكلنا كما أكلنا أبوه فقاتلوه وظهر أمر عيسى فقصدوا قتله وكفروا به وقيل ان اليهود كانوا عارفين بانه المسيح المبشر به في التوراة وانه ينسخ دينهم فلما أظهر عيسى الدعوة اشتد ذلك عليهم فأخذوا في أذاه وطلبوا قتله وكفروا به فاستنصر عليهم كما أخبر الله عز وجل عنه بقوله (قال) يعني عيسى عليه السلام (من أنصاري الى الله) أي مع الله وقيل معناه الى أن أبين أمر الله وأظهر دينه وقيل الى بمعنى في أي في ذات الله وسبيله وقيل الى في موضعها والمعنى من يضم نصرته الى نصرة الله لي (قال الحواريون نحن أنصار الله) وذلك أن عيسى عليه السلام لما دعا بني اسرائيل الى الله تعالى وتمردوا عليه وكفروا به خرج يسيح في الارض فمر بجماعة يصطادون السمك وكانوا اثنى عشر ورئيسهم شمعون ويعقوب فقال عيسى عليه السلام ماتصنعون قالوا نصيد السمك قال أفلا تمشون

(وجئتكم بآية من ربكم) كرر للتأكيد (فاتقوا الله) في تكذيبي وخلافي (وأطيعون) في أمري (ان الله ربي وربكم) اقرار بالعبودية ونفي للربوبية عن نفسه بخلاف مايزعم النصارى (فاعبدوه) دوني (هذا صراط مستقيم) يؤدي صاحبه الى النعيم المقيم (فلما أحس عيسى منهم الكفر) علم من اليهود كفرا علما لاشبهة فيه كعلم مايدرك بالحواس (قال من أنصاري) مدني وهو جمع ناصر كاصحاب أو جمع نصير كاشراف (الى الله) يتعلق بمحذوف حال من الياء أي من أنصاري ذاهبا الى الله ملتجئا اليه (قال الحواريون) حواري الرجل صفوته وخاصته (نحن أنصار الله) أعوان دينه

حتى نصيد الناس قالوا ومن أنت قال أنا عيسى بن مريم عبد الله ورسوله فسألوه آية تدلهم على صدقه وكان شمعون قد رمى بشبكته في الماء فدعا الله عيسى فاجتمع في تلك الشبكة من السمك ما كادت تتمزق من كثرته فاستعانوا بأهل سفينة أخرى وملؤا السفينتين من السمك فعند ذلك آمنوا به وانطلقوا معه واختلف في الحواريين فقيل كانوا يصطادون السمك فلما آمنوا بعيسى صاروا يصطادون الناس ويهدونهم الى الدين سموا حواريين لبياض ثيابهم يقال حورت الشيء بمعنى بيضته وقيل كانوا قصارين سموا بذلك لانهم كانوا يحورون الثياب أي يبيضونها وقيل ان مريم سلمت عيسى الى أعمال شتى فكان آخر من سلمته اليه الحواريين وكانوا قصارين وصباغين فدفعته الى رئيسهم ليتعلم منه فاجتمع عنده ثياب وعرض له سفر فقال لعيسى انك قد تعلمت هذه الصنعة وأنا خارج الى السفر ولا أرجع الى عشرة أيام وهذه ثياب مختلفة الالوان وقد علمت كل واحد منها بخيط على اللون الذي يصبغ به فأريد ان تفرغ منها وقت قدومي وخرج المعلم الى سفره فطبخ عيسى حبا واحدا على لون واحد وأدخل فيه جميع الثياب وقال كوني باذن الله على ما أريد منك ثم قدم الحواري والثياب كلها في الحب فقال لعيسى ما فعلت قال قد فرغت منها قال وأين هي قال في الحب قال كلها قال نعم قال لقد أفسدت على الثياب قال عيسى لا ولكن قم فانظر وقام عيسى وأخرج ثوبا أحمر وثوبا أخضر وثوبا أصفر وثوبا أسود حتى أخرجها كلها على الالوان التي يريدها الحواري فجعل الحواري يتعجب من ذلك وعلم أن ذلك من الله تعالى فقال للناس تعالوا فانظروا فآمن به هو وأصحابه وهم الحواريون وقيل سموا حواريين لصفاء قلوبهم ولما ظهر عليهم من أثر العبادة ونورها وقيل الحواريون الاصفياء وكانوا أصفياء عيسى وخاصته وقيل الحواريون هم الخلفاء وقيل هم الوزراء وكانوا خلفاء عيسى ووزراءه وقيل الحواريون هم الانصار والحواري الناصر والحواري الرجل الذي يستعان به (ق) عن جابر بن عبد الله قال ندب النبي صلى الله عليه وسلم الناس يوم الخندق فانتدب الزبير ثم ندبهم فانتدب الزبير ثم ندبهم فانتدب الزبير فقال النبي صلى الله عليه وسلم ان لكل نبي حواري وحواري الزبير قال الحواريون نحن أنصار الله يعني أنصار دين الله ورسوله وأعوانه (آمنا بالله) أي صدقنا بان الله ربنا ورب كل شيء (واشهد) يعني أنت يا عيسى (بانا مسلمون) قيل معناه واشهد بأنا منقادون لما تريده من نصرك والذب عنك ومستسلمون لامر الله عز وجل وقيل هو اقرار منهم بان دينهم الاسلام وأنه دين عيسى وكل الانبياء قبله لا اليهودية والنصرانية (ربنا آمنا بما أنزلت) يعني قال الحواريون بعد اشهاد عيسى عليهم بانهم مسلمون ربنا آمنا بما أنزلت يعني بكتابك الذي أنزلته على عيسى عليه السلام (واتبعنا الرسول) يعني عيسى (فاكتبنا مع الشاهدين) يعني الذين شهدوا للانبياء لك بالصدق واتبعوا أمرك ونهيك فاثبت أسماءنا مع أسمائهم واجعلنا في عدادهم ومعهم فيما تكرمهم به وهذا يقتضي أن يكون للشاهدين الذين سأل الحواريون أن يكونوا معهم مزيد فضل عليهم فلهذا قال ابن عباس في قوله فاكتبنا مع الشاهدين أي مع محمد صلى الله عليه وسلم وأمته لانهم هم المخصوصون بتلك الفضيلة فانهم يشهدون للرسل بالبلاغ وقيل مع الشاهدين يعني النبيين لان كل نبي شاهد على أمته ۞ قوله عز وجل (ومكروا) يعني كفار بني اسرائيل الذين أحس عيسى منهم الكفر وأصل المكر صرف الغير عما يقصده بضرب من الحيلة وقيل هو السعي بالفساد في الخفية فأما مكرهم بعيسى فانهم دبروا في قتله وهموا به وذلك ان عيسى عليه السلام بعد أن أخرجه قومه هو وأمه رجع مع الحواريين وصاح فيهم بالدعوة وأظهر رسالته اليهم فهموا بقتله والفتك به فذلك مكرهم والمكر من الخالق الخبث والخديعة والحيلة (ومكر الله) أي جازاهم على مكرهم فسمى الجزاء باسم الابتداء لانه في مقابلته وقيل مكر الله استدراج العبد وأخذه بغتة من حيث لا يحتسب ومكر الله في هذه الآية خاصة هو القاء الشبه على صاحبهم الذي دلهم على عيسى حين أرادوا قتله حتى قتل قال ابن عباس ان عيسى عليه السلام استقبل رهطا من اليهود فلما رأوه قالوا قد جاء الساحر ابن

(آمنا بالله واشهد) يا عيسى (بانا مسلمون) انما طلبوا شهادته باسلامهم تأكيدا لايمانهم لان الرسل يشهدون يوم القيامة لقومهم وعليهم وفيه دليل على أن الايمان والاسلام واحد (ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول) أي رسولك عيسى (فاكتبنا مع الشاهدين) مع الانبياء الذين يشهدون لاممهم أو مع الذين يشهدون لك بالوحدانية أو مع أمة محمد عليه السلام لانهم شهداء على الناس (ومكروا) أي كفار بني اسرائيل الذين أحس منهم الكفر حين أرادوا قتله وصلبه (ومكر الله) أي جازاهم على مكرهم بان رفع عيسى الى السماء وألقى شبهه على من أراد اغتياله حتى قتل ولا يجوز اضافة المكر الى الله تعالى الا على معنى الجزاء لانه مذموم عند الخلق وعلى هذا الخداع والاستهزاء كذا في شرح التأويلات

الساحرة والفاعل ابن الفاعلة فقذفوه وأمه فلما سمع عيسى ذلك دعا عليهم ولعنهم فمسخوا خنازير فلما رأى ذلك يهودا رأس اليهود وملكهم فزع لذلك وخاف دعوته فاجتمعت كلمة اليهود على قتل عيسى وثاروا اليه ليقتلوه فبعث الله عز وجل جبريل فادخله خوخة في سقفها روزنة فرفعه الله من تلك الروزنة وأمر يهودا ملك اليهود رجلا من أصحابه يقال له ططيانوس ان يدخل الخوخة فيقتله فيها فلما دخل لم ير عيسى وأبطأ عليهم فظنوا أنه يقاتله فيها وألقى الله عليه شبه عيسى فلما خرج ظنوا أنه عيسى فأخذوه وقتلوه وصلبوه وقال وهب بن منبه ان اليهود طرقوا عيسى في بعض الليل ونصبوا له خشبة ليصلبوه عليها فاظلمت الارض وأرسل الله عز وجل الملائكة فحالت بينهم وبينه فجمع عيسى عليه السلام الحواريين تلك الليلة وأوصاهم وقال ليكفرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ويبيعني بدراهم يسيرة فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه فاتى أحد الحواريين الى اليهود وقال ما تجعلون لي ان دللتكم على المسيح فجعلوا له ثلاثين درهما فأخذها ودلهم عليه فلما دخل البيت الذي فيه المسيح ألقى الله شبه عيسى عليه ورفع الله عيسى عليه السلام وأخذ الذي دل عليه فقال أنا الذي دللتكم عليه فلم يلتفتوا الى قوله فقتلوه وصلبوه وهم يظنون أنه عيسى فلما صلب الذي ألقي عليه شبه عيسى جاءت مريم وامرأة أخرى كان عيسى دعا لها فأبرأها الله من الجنون بدعوته فجعلتا تبكيان عند المصلوب فجاءهما عيسى عليه السلام وقال على من تبكيان ان الله عز وجل قد رفعني ولم يصبني الا خير وهذا شيء شبه لهم فلما كان بعد سبعة أيام قال الله تعالى لعيسى اهبط الى مريم المجدلانية وهو اسم موضع نسبت اليه فانه لم يبك عليك أحد بكاها ولم يحزن عليك أحد حزنها ثم لتجمع لك الحواريين فبثهم في الارض دعاة الى الله عز وجل فاهبطه الله عز وجل عليها فاشتعل الجبل نورا حين هبط فجمعت له الحواريين فبثهم دعاة في الارض ثم رفعه الله فتلك الليلة التي تدخن فيها النصارى فلما أصبح الحواريون تكلم كل واحد منهم بلغة من أرسله عيسى اليهم فذلك قوله تعالى ومكروا ومكر الله (والله خير الماكرين) يعني وهو أفضل المجازين بالسيئة العقوبة وقال السدي ان اليهود حبست عيسى عليه السلام في بيت ومعه عشرة من الحواريين فدخل عليه رجل منهم وكان قد نافق فالقى عليه شبه عيسى فاخذ وقتل وصلب وقال قتادة ذكر لنا أن نبي الله عيسى عليه السلام قال لاصحابه أيكم يقذف عليه شبهي فانه مقتول فقال رجل منهم أنا يا نبي الله فقتل ذلك الرجل ومنع الله عيسى ورفعه اليه وكساه الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وطار مع الملائكة فهو معهم حول العرش وصار انسيا ملكيا أرضيا سماويا قال أهل التاريخ حملت مريم بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة وولدته ببيت لحم من أرض أوري شلم لمضي خمس وستين سنة من غلبة الاسكندر على أرض بابل وأوحى الله الى عيسى على رأس ثلاثين سنة ورفعه الله من بيت المقدس ليلة القدر من رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة فكانت نبوته ثلاث سنين وعاشت أمه مريم بعد رفعه ست سنين ۞ قوله عز وجل (اذ قال الله يا عيسى اني متوفيك ورافعك الي) اختلفوا في معنى التوفي هنا على طريقين فالطريق الاول ان الآية على ظاهرها من غير تقديم ولا تأخير وذكروا في معناها وجوها الاول معناه اني قابضك ورافعك الي من غير موت من قولهم توفيت الشيء واستوفيته اذا أخذته وقبضته تاما والمقصود منه هنا أن لا يصل أعداؤه من اليهود اليه بقتل ولا غيره الوجه الثاني أن المراد بالتوفي النوم ومنه قوله عز وجل الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فجعل النوم وفاة وكان عيسى قد نام فرفعه الله وهو نائم لئلا يلحقه خوف فمعنى الآية اني منيمك ورافعك الي الوجه الثالث ان المراد بالتوفي حقيقة الموت قال ابن عباس معناه اني مميتك قال وهب بن منبه ان الله توفى عيسى ثلاث ساعات من النهار ثم أحياه ثم رفعه اليه وقيل ان النصارى يزعمون ان الله توفاه سبع ساعات من النهار ثم أحياه ورفعه اليه الوجه الرابع ان الواو في قوله ورافعك الي لا تفيد الترتيب والآية تدل على أن الله تعالى يفعل به ما ذكر فاما كيف

(والله خير الماكرين) أقوى المجازين وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المعاقب (اذ قال الله) ظرف لمكر الله (يا عيسى اني متوفيك) أي مستوفي أجلك ومعناه اني عاصمك من أن تقتلك الكفار ومميتك حتف أنفك لا قتلا بأيديهم (ورافعك الي) الى سمائي ومقر ملائكتي

يفعل ومتى يفعل فالامر فيه موقوف على الدليل وقد ثبت فى الحديث أن عيسى ينزل و يقتل الدجال
وسنذكره ان شاء الله تعالى الوجه الخامس قال أبو بكر الواسطى معناه انى متوفيك عن شهواتك وعن
حظوظ نفسك ورافعك الى وذلك أن عيسى عليه السلام لما رفع الى السماء صارت حالته حالة الملائكة فى
زوال الشهوة الوجه السادس أن معنى التوفى أخذ الشئ وافيا ولما علم الله تعالى أن من الناس من يخطر
بباله أن الذى رفعه الله اليه هو روحه دون جسده كما زعمت النصارى أن المسيح رفع لاهوته يعنى روحه
و بقى فى الارض ناسوته يعنى جسده فرد الله عليهم بقوله انى متوفيك ورافعك الى فاخبر الله أنه رفعه بتمامه
الى السماء بروحه وجسده جميعا الطريق الثانى ان فى الآية تقديما وتاخيرا تقديره انى رافعك الى ومطهرك
من الذين كفروا ومتوفيك بعد انزالك الى الارض وقيل لبعضهم هل تجد نزول عيسى الى الارض فى
القرآن قال نعم قوله تعالى وكهلا وذلك لانه لم يكتهل فى الدنيا وانما معناه وكهلا بعد نزوله من السماء (ق)
عن أبى هريرة أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن
مريم حكما عدلا مقسطا فيكسر الصليب و يقتل الخنزير و يضع الجزية و يفيض المال حتى لا يقبله أحد
زاد فى رواية حتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها ثم يقول أبو هريرة اقرؤا ان شئتم وان
من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته وفى رواية كيف أنتم اذا نزل ابن مريم فيكم وامامكم منكم وفى
رواية فامكم منكم قال ابن أبى ذؤيب تدرى ما أمكم منكم قلت فاخبرنى قال فامكم بكتاب ربكم عز وجل و سنة
نبيكم صلى الله عليه وسلم وفى أفراد مسلم من حديث النواس بن سمعان قال فبينما هو كذلك اذ بعث الله المسيح
ابن مريم عليه السلام فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال ليس بينى و بينه يعنى عيسى نبى و انه نازل فاذا رأيتموه فاعرفوه فانه رجل مربوع الى الحمرة والبياض
ينزل بين ممصرتين كان رأسه يقطر وان لم يصبه بلل فيقاتل الناس على الاسلام فيدق الصليب و يقتل الخنزير
و يضع الجزية ويهلك الله الملل فى زمانه كلها الا الاسلام ويهلك المسيح الدجال ثم يمكث فى الارض أربعين
سنة ثم يتوفى و يصلى عليه المسلمون أخرجه أبو داود ونقل بعضهم ان عيسى عليه السلام يدفن فى حجرة
رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقوم أبو بكر وعمر يوم القيامة بين نبيين محمد وعيسى عليهما السلام قوله عز
وجل (ومطهرك من الذين كفروا) يعنى مخرجك من بينهم ومنجيك منهم (وجاعل الذين اتبعوك فوق
الذين كفروا الى يوم القيامة) يعنى وجاعل الذين اتبعوك فى التوحيد وصدقوا قولك وهم أهل الاسلام من
أمة محمد صلى الله عليه وسلم فوق الذين كفروا بالعز والنصر والغلبة بالحجة الظاهرة وقيل هم الحواريون الذين
اتبعوا عيسى على دينه وقيل هم النصارى فهم فوق اليهود وذلك لان ملك اليهود قد ذهب ولم يبق لهم ملك
وملك النصارى باق فعلى هذا القول يكون الاتباع بمعنى المحبة والادعاء لا اتباع الدين لان النصارى وان
أظهروا متابعة عيسى عليه السلام فهم أشد مخالفة له وذلك ان عيسى عليه السلام لم يرض بما هم عليه من
الشرك والقول الاول هو الاصح لان الذين اتبعوه هم الذين شهدوا له بانه عبد الله ورسوله وكلمته وهم
المسلمون وملكهم باق الى يوم القيامة (ثم الى مرجعكم) يعنى يقول الله عز وجل الى مرجع الفريقين فى
الآخرة الذين اتبعوا عيسى وصدقوا به والذين كفروا به (فاحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) يعنى من
الحق فى أمر عيسى ثم بين ذلك الحكم فقال تعالى (فاما الذين كفروا) يعنى الذين جحدوا نبوة عيسى وخالفوا
ملته وقالوا فيه ما قالوا من الباطل ووصفوه بما لا ينبغى من سائر اليهود والنصارى (فاعذبهم عذابا شديدا
فى الدنيا) يعنى بالقتل والسبى والذلة وأخذ الجزية منهم (والآخرة) أى وأعذبهم فى الآخرة بالنار
(وما لهم من ناصرين) يعنى مانعين يمنعونهم من عذابنا (وأما الذين آمنوا) يعنى بعيسى عليه السلام
وصدقوا بنبوته وانه عبد الله ورسوله وكلمته (وعملوا الصالحات) يعنى عملوا بما افترضت عليهم وشرعت لهم

(ومطهرك من الذين كفروا) من سوء جوارهم وخبث صحبتهم وقيل متوفيك قابضك من الارض من توفيت مالى على فلان اذا استوفيته أو مميتك فى وقتك بعد النزول من السماء ورافعك الآن اذ الواو لا توجب الترتيب قال النبى عليه السلام ينزل عيسى خليفة على أمتى يدق الصليب و يقتل الخنازير و يلبث أربعين سنة و يتزوج و يولد له ثم يتوفى وكيف تهلك أمة أنا فى أولها وعيسى فى آخرها والمهدى من أهل بيتى فى وسطها أو متوفى نفسك بالنوم ورافعك وأنت نائم حتى لا يلحقك خوف وتستيقظ وأنت فى السماء آمن مقرب (وجاعل الذين اتبعوك) أى المسلمين لانهم متبعوه فى أصل الاسلام وان اختلفت الشرائع دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من اليهود والنصارى (فوق الذين كفروا) بك (الى يوم القيامة) يعلونهم بالحجة وفى أكثر الاحوال بها و بالسيف (ثم الى مرجعكم) فى الآخرة (فاحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون فاما الذين كفروا فاعذبهم عذابا شديدا فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات

فيوفيهم

(فيوفيهم أجورهم) يعني جزاء أعمالهم لا ينقص منه شئ (والله لا يحب الظالمين) أي لا يحب من ظلم غيره حقاله أو وضع شيأ في غير موضعه والمعنى انه تعالى لا يرحمهم ولا يثني عليهم بجميل ثم قال تعالى (ذلك) يعني الذي ذكرته لك من أخبار عيسى وأمه مريم والحواريين وغير ذلك من القصص (نتلوه عليك) أي نخبرك به يا محمد على لسان جبريل وانما أضاف ما يتلوه جبريل عليه السلام الى نفسه سبحانه وتعالى لانه من عنده وبأمره من غير تفاوت أصلا فاضافه اليه (من الآيات) يعني من القرآن وقيل الآيات يعني العلامات الدالة على نبوتك يا محمد لانها أخبار لا يعلمها الا من يقرأ ويكتب أو نبي يوحى اليه وأنت أمي لا تقرأ ولا تكتب فثبت ان ذلك من الوحي السماوي الذي أنزل عليك (والذكر الحكيم) أي المحكم الممنوع من الباطل قيل المراد من الذكر الحكيم القرآن لانه حاكم يستفاد منه جميع الاحكام وقيل الذكر الحكيم هو اللوح المحفوظ الذي منه تنزلت جميع كتب الله على رسله وهو لوح من درة بيضاء معلق بالعرش ۞ قوله عز وجل (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب) الآية أجمع أهل التفسير ان هذه الآية نزلت في محاجة نصارى وفد نجران قال ابن عباس ان رهطا من أهل نجران قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم وكان فيهم السيد والعاقب فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ما شأنك تذكر صاحبنا فقال من هو قالوا عيسى تزعم انه عبد الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم أجل انه عبد الله فقالوا له فهل رأيت له مثلا أو أنبئت به ثم خرجوا من عنده فجاءه جبريل عليه السلام فقال له قل لهم اذا أتوك ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب وقيل ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم انه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها الى مريم العذراء البتول فغضبوا وقالوا يا محمد هل رأيت انسانا قط من غير أب فانزل الله تعالى ان مثل عيسى عند الله أي في الخلق والانشاء في كونه خلقه من غير أب كمثل آدم في كونه خلقه من تراب من غير أب وأم ومعنى الآية أن صفة خلق عيسى من غير أب كصفة آدم في كونه خلقه من تراب لا من أب وأم فمن أقر بان الله خلق آدم من التراب اليابس وهو أبلغ في القدرة فلم لا يقر بان الله خلق عيسى من مريم من غير أب بل الشأن في خلق آدم أعجب وأغرب وتم الكلام عند قوله كمثل آدم لانه تشبيه كامل ثم قال تعالى خلقه من تراب فهو خبر مستأنف على جهة التفسير لحال خلق آدم في كونه خلقه من تراب أي قدره جسدا من طين (ثم قال له كن) أي أنشأه خلقا بالكلمة وكذلك عيسى أنشأه خلقا بالكلمة فعلى هذا القول ذكروا في الآية اشكالا وهو انه تعالى قال خلقه من تراب ثم قال له كن فهذا يقتضي أن يكون خلق آدم متقدما على قوله كن ولا تكوين بعد الخلق وأجيب عن هذا الاشكال بان الله تعالى أخبر بانه خلقه من تراب لا من ذكر وأنثى ثم ابتدأ خبرا آخر فقال اني أخبركم أيضا اني قلت له كن فكان من غير ترتيب في الخلق كما يكون في الولادة ويحتمل أن يكون المراد انه تعالى خلقه جسدا من تراب ثم قال له كن بشرا فكان فيصح النظم وقيل الضمير في قوله كن يرجع الى عيسى عليه السلام وعلى هذا فلا اشكال في الآية فان قلت كيف شبه عيسى عليه السلام بآدم عليه السلام وقد وجد عيسى من غير أب ووجد آدم من غير أب ولا أم قلت هو مثله في أحد الطرفين فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به لان المماثلة مشاركة في بعض الاوصاف ولانه شبه به في انه وجد وجودا خارجا عن العادة المستمرة وهما في ذلك نظيران لان الوجود من غير أب وأم أغرب في العادة من الوجود من غير أب فشبه الغريب بالاغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته اذا نظر فيما هو أغرب مما استغرب به وحكي ان بعض العلماء أسر في بعض بلاد الروم فقال لهم لم تعبدون عيسى قالوا لانه لا أب له قال فآدم أولى لانه لا أب له ولا أم قالوا وكان يحيي الموتى فقال حزقيل أولى لان عيسى أحيا أربعة نفر وأحيا حزقيل أربعة آلاف قالوا وكان يبرئ الاكمه والابرص قال فجرجيس أولى لانه طبخ وأحرق ثم قام سليما ۞ وقوله كن (فيكون) قال ابن عباس معناه كن فكان فاريد بالمستقبل

فنوفيهم أجورهم والله لايحب الظالمين) وتفسير ٣ الحكم هاتان الآيتان فيوفيهم حفص (ذلك) اشارة الى ماسبق من نبأ عيسى وغيره وهو مبتدأ (نتلوه عليك) خبره (من الآيات) خبر بعد خبر أو خبر مبتدا محذوف (والذكر الحكيم) القرآن يعني المحكم أو كانه ينطق بالحكمة لكثرة حكمه ونزل لما قال وفد بني نجران هل رأيت ولدا بلا أب (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم) أي ان شأن عيسى وحاله الغريبة كشأن آدم عليه السلام (خلقه من تراب) قدره جسدا من طين وهي جملة مفسرة لحالة شبه عيسى بآدم ولا موضع لها أي خلق آدم من تراب ولم يكن ثمة أب ولا أم فكذلك حال عيسى مع ان الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود من غير أب فشبه الغريب بالاغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته اذا نظر فيما هو أغرب مما استغرب به وعن بعض العلماء انه أسر بالروم فقال لهم لم تعبدون عيسى قالوا لانه لا أب له قال فآدم أولى لانه لا أبوين له قالوا كان يحيي الموتى قال فحزقيل أولى لان عيسى أحيا أربعة نفر وحزقيل ثمانية آلاف فقالوا كان يبرئ الاكمه والابرص قال فجرجيس أولى لانه طبخ وأحرق ثم قام سالما (ثم قال له كن) أي أنشأه بشرا (فيكون) أي فكان وهو حكاية حال ماضية وثم لترتيب الخبر على الخبر لا لترتيب المخبر عنه

(الحق من ربك) خبر مبتدأ محذوف أي هو الحق (فلا تكن) أيها السامع (من الممترين) الشاكين ويحتمل أن يكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ويكون من باب التهييج لزيادة الثبات لانه عليه السلام معصوم من الامتراء (فمن حاجك) من النصارى (فيه) في عيسى (من بعد ما جاءك من العلم) من البينات الموجبة للعلم وما بمعنى الذي (فقل تعالوا) هلموا والمراد بالمجيء العزم والرأي كما تقول تعال نفكر في هذه المسئلة (ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم) أي يدع كل مناومنكم أبناءه ونساءه ونفسه الى المباهلة (ثم نبتهل) ثم نتباهل بان نقول بهلة الله على الكاذب مناومنكم والبهلة بالفتح والضم اللعنة وبهله الله لعنه وأبعده من رحمته وأصل

الابتهال هذا ثم يستعمل في كل دعاء يجتهد فيه وان لم يكن التعانا وروى انه عليه السلام لما دعاهم الى المباهلة قالوا حتى ننظر فقال العاقب وكان ذا رأيهم والله لقد عرفتم يامعشر النصارى ان محمدا نبي مرسل وما باهل قوم نبيا قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ولئن فعلتم لتهلكن فان أبيتم الا الف دينكم فوادعوا الرجل وانصرفوا الى بلادكم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غدا محتضنا للحسين آخذا بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعلي خلفها وهو يقول اذا أنا دعوت فأمنوا فقال أسقف نجران يامعشر النصارى اني لارى وجوها لو سألوا الله ان يزيل جبلا من مكانه لازاله بها فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الارض نصراني فقالوا يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك فصالحهم النبي على ألفي حلة كل سنة فقال عليه السلام والذي نفسي بيده ان الهلاك قد تدلى على أهل نجران ولو لاعنوا المسخوا قردة وخنازير وانما ضم الابناء والنساء وان كانت المباهلة مختصة به وبمن يكاذبه لان ذلك آكد في الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه حيث استجرأ على تعريض أعزته وأفلاذ كبده لذلك ولم يقتصر على تعريض نفسه له وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته ان تمت المباهلة وخص الابناء والنساء لانهم أعز الاهل والصقهم بالقلوب وقدمهم في الذكر على الانفس لينبه على قرب مكانهم ومنزلتهم وفيه دليل واضح على صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم لانه لم يروأحد من موافق أو مخالف انهم أجابوا الى ذلك (فنجعل لعنة الله على الكاذبين) مناومنكم في شأن عيسى ونبتهل ونجعل معطوفان على ندع

المماضي وقيل معناه ثم قال له كن واعلم يامحمد ان ماقال له ربك كن فانه يكون لامحالة (الحق من ربك) الذي أخبرتك به من تمثيل عيسى بآدم هو الحق من ربك (فلا تكن من الممترين) أي من الشاكين ان ذلك كذلك وهذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته لانه صلى الله عليه وسلم لم يشك قط فهو كقوله تعالى ياأيها النبي اذا طلقتم النساء والمعنى فلا تكن من الممترين ياأيها السامع كائنا من كان لهذا التمثيل والبرهان الذي ذكر فهو من باب التهييج لزيادة الثبات والطمأنينة ۞ قوله عز وجل (فمن حاجك فيه) أي فمن جادلك في عيسى وقيل في الحق (من بعد ما جاءك من العلم) يعني بان عيسى عبد الله ورسوله (فقل تعالوا) أي هلموا والمراد منه المجيء وأصله من العلو بالرأي والعزم كما تقول تعال نتفكر في هذه المسئلة (ندع أبناءنا وأبناءكم) أي يدع كل مناومنكم أبناءه (ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم) قيل أراد بالابناء الحسن والحسين وبالنساء فاطمة وبالنفس نفسه صلى الله عليه وسلم وعليا رضي الله عنه وقيل هو على العموم لجماعة أهل الدين (ثم نبتهل) قال ابن عباس نتضرع في الدعاء وقيل معناه نجتهد ونبالغ في الدعاء وقيل معناه نلتعن والابتهال الالتعان يقال عليه بهلة الله أي لعنة الله (فنجعل لعنة الله على الكاذبين) يعني مناومنكم في أمر عيسى قال المفسرون لما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية على وفد نجران ودعاهم الى المباهلة قالوا حتى نرجع وننظر في أمرنا ثم نأتيك غدا فلما خلا بعضهم ببعض قالوا للعاقب وكان كبيرهم وصاحب رأيهم ماترى ياعبد المسيح قال لقد عرفتم يامعشر النصارى ان محمدا نبي مرسل ولئن فعلتم ذلك لتهلكن فان أبيتم الا الاقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا الى بلادكم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد احتضن الحسين وأخذ بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعلي يمشي خلفها والنبي صلى الله عليه وسلم يقول لهم اذا دعوت فأمنوا فلما رآهم أسقف نجران قال يامعشر النصارى اني لارى وجوها لو سألوا الله أن يزيل جبلا لازاله من مكانه فلا تبتهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الارض نصراني الى يوم القيامة فقالوا يا أبا القاسم قد رأينا أن لا نباهلك وان نتركك على دينك ونتركنا على ديننا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فان أبيتم المباهلة فاسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ماعليهم فابوا ذلك فقال اني أناجزكم فقالوا ما لنا بحرب العرب طاقة ولكنا نصالحك على أن لا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردنا عن ديننا وان نؤدي اليك في كل سنة ألفي حلة ألف في صفر وألف في رجب زاد في رواية وثلاثا وثلاثين درعا عادية وثلاثا وثلاثين بعيرا وأربعا وثلاثين فرسا غازية فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك وقال والذي نفسي بيده ان العذاب تدلى على أهل نجران ولو تلاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادي نارا ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على الشجر ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى هلكوا فان قلت ما كان دعاؤه الى المباهلة الا ليتبين الصادق من الكاذب منه ومن خصمه وذلك يختص به وبمن يباهله فما معنى ضم الابناء والنساء في المباهلة قلت ذلك آكد في الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه حيث استجرأ على

تعريض

تعريض أعزته وافلاذ كبده وأحب الناس اليه فلذلك ضمهم فى المباهلة ولم يقتصر على تعريض نفسه لذلك وعلى ثقتـه بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته هلاك استئصال ان تمت المباهلة وانما خص الابناء والنساء لانهم أعز الاهل وألصقهم بالقلب وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتـل وانما قدمهم فى الذكر على النفس لينبه بذلك على لطف مكانهم وقرب منزلتهم وفيه دليل قاطع وبرهان واضح على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لانه لم يروأحد من موافق ومخالف انهم أجابوا الى المباهلة لانهم عرفوا صحة نبوته ومابدلوه فى كتبهم *قوله تعالى (ان هذا) يعنى الذى قص عليك يامحمد من خبر عيسى عليه السلام وانه عبد الله ورسوله (لهو القصص الحق) وأصله من القص وهو تتبع الاثر والقصص الخبر الذى تتتابع فيه المعانى (وما من اله الا الله) انما دخلت من لتوكيد النفى والمعنى ان عيسى ليس باله كما زعمت النصارى ففيه ردعليهـم ونفى جميع من ادعى من المشركين انهم آلهة واثبات الالهية لله تعالى وحـده لاشريك له فى الالهية (وان الله لهو العزيز) أى الغالب المنتقم ممن عصاه وخالف أمره وادعى معه الها آخر (الحكيم) يعنى فى تدبيره وفيه رد على النصارى لان عيسى لم يكن كذلك (فان تولوا) يعنى فان أعرضوا عن الايمان ولم يقبلوه (فان الله عليم بالمفسدين) أى الذين يعبدون الله و يدعون الناس الى عبادة غيره وفيه وعيد وتهديد لهم ﴿قوله عزوجل (قل ياأهـل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا و بينـكم) قال المفسرون لما قدم وفد نجران المدينة اجتمعوا باليهود واختصموا فى ابراهيم صلى الله عليه وسلم فزعمت النصارى أنه كان نصرانيا وهم على دينـه وأولى الناس به وقالت اليهود بل كان يهوديا وهم على دينه وأولى الناس به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا الفريقين برىء من ابراهيم ودينه بل كان حنيفا مسلما وأنا على دينه فاتبعوا دينه الاسلام فقالت اليهود ماتريد الاأن نتخـذك ربا كما اتخذت النصارى عيسى ربا وقال النصارى يامحمـد ماتريد الاأن نقول فيك ماقالت اليهود فى عزير فانزل الله عزوجل قل ياأهل الكتاب تعالوا أى هلموا الى كلمة يعنى فيها انصاف ولا ميل فيها لاحد على صاحبه والعرب تسمى كل قصة أوقصيدة لها أول وآخر وشرح كلمة سواء أى عـدل لايختلف فيهـا التوراة والانجيل والقرآن وتفسير الـكلمة قوله (ألا نعبد الا الله ولانشرك به شيأ ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) وذلك ان النصارى عبـدوا غير الله وهو المسيح وأشركوا به وهو قولهم أب وابن وروح القدس فجعلوا الواحد ثلاثة واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله وذلك انهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الشرك و يسجدون لهم فهـذا معـنى اتخاذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله فثبت ان النصارى قد جمعوا بين هذه الثلاثة أشياء ومعنى الآية قل يامحمد لليهود والنصارى هلموا الى أمر عدل نصف وهو أن لانقول عزير ابن الله ولانقول المسيح ابن الله لان كل واحـد منهما بشر مخلوق مثلنا ولانطيع أحبارنا ورهبانا فيما أحـدثوا من التحريم والتحليل من غـير رجوع الى ماشرع ولايسجد بعضنا لبعض لان السجود لغير الله حرام فلا نسجد لغير الله وقيل معناه ولانطيع أحـدا فى معصية الله (فان تولوا) يعنى فان أعرضوا عما أمرتهم به (فقولوا) أنتم لهؤلاء (اشهدوا بانا مسلمون) أى مخلصون بالتوحيد لله والعبادة له (ق) عن ابن عباس ان أباسفيان أخبره ان هرقل أرسل اليـه فى ركب من قريش وكانوا تجارا بالشأم فى المدة التى كان رسول الله صـلى الله عليه وسـلم ماد فيها أباسفيان وكفار قريش فاتوه وهو بايليا فدعاهم فى مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى بعث به مع دحية الكلبى الى عظيم بصرى فدفعه الى هرقل فقرأه فاذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله الى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى اما بعـد فانى أدعوك بدعاية الاسلام أسلم تسـلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فانما عليك اثم الاريسين و ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا و بينكم أن

(ان هذا) الذى قص عليك من نبأ عيسى (لهو القصص الحق) هو فصل بين اسم ان وخبرها أو مبتـدأ والقصص الحق خبره والجملة خبر ان وجاز دخول اللام على الفصـل لانه اذا جاز دخولها على الخبر كان دخولها على الفعل أجوز لانه أقرب الى المبتـدأ منـه وأصلها ان تدخل على المبتدأ ومن فى (ومامن اله الا الله) بمنزلة البناء على الفتح فى لا اله الا الله فى افادة معـنى الاستغراق والمراد الرد على النصارى فى تثليثهم (وان الله لهو العزيز) فى الانتقام (الحكيم) فى تدبير الاحكام (فان تولوا) أعرضوا ولم يقبـلوا (فان الله عليم بالمفسـدين) وعيدلهم بالعذاب المذكور فى قوله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون (قل ياأهل الكتاب) هم أهل الكتابين أو وفد نجران أو يهود المدينة (تعالوا الى كلمة سواء) أى مستوية (بيننا و بينـكم) لايختلف فيهـا القرآن والتوراة والانجيل وتفسير الكلمة قـوله (ألا نعبـد الا الله ولانشرك به شيأ ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) يعنى تعالوا اليها حتى لانقـول عزير ابن الله ولا المسيح ابن الله لان كل واحـد منهما بعضنا بشر مثلنا ولانطيع أحبارنا فيما أحـدثوا من التحريم والتحليل من غير رجوع الى ماشرع الله وعن عدى ابن حاتم ما كنا نعبدهم يارسول الله قال أليس كانوا يحلون لـكم ويحرمون فتأخذون بقولهم قال نعم قال هو ذاك (فان تولوا) عن التوحيد (فقولوا اشهدوا بانا مسلمون) أى لزمتكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا وتسلموا بانا مسلمون دونكم كما يقول الغالب للـ[illegible]

(يا أهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده) زعم كل فريق من اليهود والنصارى ان ابراهيم كان منهم وجادلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فيه فقيل لهم ان اليهودية انما حدثت بعد نزول التوراة والنصرانية بعد نزول الانجيل و بين ابراهيم وموسى ألف سنة و بينه و بين عيسى ألفان فكيف يكون ابراهيم على دين لم يحدث الا بعد

عهده بازمنة متطاولة (أفلا تعقلون) حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدال المحال (ها أنتم هؤلاء) ها للتنبيه وأنتم مبتدأ وهؤلاء خبره (حاججتم) جملة مستأنفة مبينة للجملة الاولى يعني أنتم هؤلاء الاشخاص الحمقاء وبيان حماقتكم وقلة عقولكم انكم جادلتم (فيما لكم به علم) مما نطق به التوراة والانجيل (فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم) ولا ذكر له في كتابيكم من دين ابراهيم وقيل هؤلاء بمعنى الذي وحاججتم صلته هاأنتم بالمد وغير الهمز حيث كان مدني وأبو عمرو (والله يعلم) علم ما حاججتم فيه (وأنتم لا تعلمون) وأنتم جاهلون به ثم أعلمهم بانه بريء من دينهم فقال (ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين) كأنه أراد بالمشركين اليهود والنصارى لاشراكهم به عزيرا والمسيح أو وما كان من المشركين كما لم يكن منهم (ان

لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيأ ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون لفظ الحديث أحد روايات البخاري وقد أخرجه باطول من هذا (٢) وفيه زيادة قوله اليريسيين وفي رواية الاريسيين والاريس الاكار وهو الزراع والفلاح وقيل هم أتباع عبد الله بن أريس رجل كان في الزمن الاول بعثه الله فخالفه قومه وقيل هم الاروسيون وهم نصارى أتباع عبد الله بن أروس وهم الاروسة وقيل هم الاريسون بضم الهمزة وهم الملوك الذين يخالفون أنبياءهم وقيل هم المتبخترون وقيل هم اليهود والنصارى الذين صددتهم عن الاسلام واتبعوك على كفرك ۞ قوله عز وجل (يا أهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم) قال ابن عباس اجتمع عند النبي صلى الله عليه وسلم نصارى نجران وأحبار اليهود فتنازعوا عنده فقالت الاحبار ما كان ابراهيم الا يهوديا وقالت النصارى ما كان ابراهيم الا نصرانيا فانزل الله فيهم يا أهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم (وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده) ومعنى الآية ان اليهود والنصارى لما اختصموا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن ابراهيم عليه السلام وادعت كل طائفة أنه كان منهم وعلى دينهم فبرأ الله عز وجل ابراهيم مما ادعوا فيه وأخبر ان اليهودية والنصرانية انما حدثا بعد نزول التوراة والانجيل وانما نزلا بعد ابراهيم بزمان طويل فكان بين ابراهيم و بين موسى ونزول التوراة عليه خمسمائة سنة وخمسة وسبعون سنة و بين موسى وعيسى ألف وستمائة واثنتان وثلاثون سنة وقال ابن اسحق كان بين ابراهيم وموسى خمسمائة سنة وخمس وستون سنة و بين موسى وعيسى ألف سنة وتسعمائة وعشرون سنة وأورد على هذا التأويل أن الاسلام أيضا انما حدث بعد ابراهيم وموسى وعيسى بزمان طويل وكذلك انزال القرآن انما نزل بعد التوراة والانجيل فكيف يصح ما ادعيتم في ابراهيم انه كان حنيفا مسلما وأجيب عنه بان الله عز وجل أخبر في القرآن بان ابراهيم كان حنيفا مسلما وليس في التوراة والانجيل ان ابراهيم كان يهوديا أو نصرانيا فصح وثبت ما ادعاه المسلمون و بطل ما ادعاه اليهود والنصارى وهو قوله تعالى (أفلا تعقلون) يعني بطلان قولكم يا معشر اليهود والنصارى حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدال المحال (ها أنتم هؤلاء) ها للتنبيه وهو موضع النداء يعني يا هؤلاء والمراد بهم أهل الكتابين يعني يا معشر اليهود والنصارى (حاججتم) أي جادلتم وخاصمتم (فيما لكم به علم) يعني فيما وجدتم في كتبكم وأنزل عليكم بيانه في أمر موسى وعيسى وادعيتم أنكم على دينهما وقد أنزلت التوراة والانجيل عليكم (فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم) يعني انه ليس في كتابكم ان ابراهيم كان يهوديا أو نصرانيا (والله يعلم) يعني ما كان ابراهيم عليه من الدين (وأنتم لا تعلمون) يعني ذلك والمعنى وأنتم جاهلون بما تقولون في ابراهيم ثم برأه الله عز وجل عما قالوا فيه وأعلمهم أن ابراهيم بريء من دينهم فقال تعالى (ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا) يعني لم يكن كما ادعوه فيه ثم وصفه بما كان عليه من الدين فقال تعالى (ولكن كان حنيفا مسلما) يعني مائلا عن الاديان كلها الى الدين المستقيم وهو الاسلام وقيل الحنيف الذي يوحد ويختتن ويضحي ويستقبل الكعبة في صلاته وهو أحسن الاديان وأسهلها وأحبها الى الله عز وجل (وما كان من المشركين) يعني الذين يعبدون الاصنام وقيل فيه تعريض بكون النصارى مشركين لقولهم بالهية المسيح وعبادتهم له ۞ قوله عز وجل (ان

(٢) قوله وفيه زيادة قوله الخ غير ظاهر فان لفظ اليريسيين الذي جعله زائدا هو المذكور في هذه الرواية والذي في شرح مسلم للنووي ان الرواية المشهورة الاريسيين وفيه الاريسين بفتح الهمزة وكسر الراء فيهما والاريسيين بكسر الهمزة وتشديد الراء ثم قال وفي أول صحيح البخاري اليريسيين وفيه كلام آخر في تفسير هذه الكلمة منه انهم الملوك ولم يذكر أن الملوك تفسير المضموم الهمزة بل لم يذكر مضموم الهمزة وذكر أن اتباع ابن أريس اليهود والنصارى ولم يذكر ان أروس وبهذا يعلم ما هنا وما هناك اه مصححه

أولى الناس بإبراهيم) يعني أخصهم به وأقربهم منه (للذين اتبعوه) يعني الذين كانوا في زمانه وآمنوا به واتبعوا شريعته (وهذا النبي) يعني محمدا صلى الله عليه وسلم (والذين آمنوا) يعني هذه الأمة الاسلامية (والله ولي المؤمنين) يعني بالنصر والمعونة عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لكل نبي ولاة من النبيين وان وليي أبي وخليل ربي ابراهيم ثم قرأ ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين أخرجه الترمذي وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ورواه محمد بن اسحق عن ابن شهاب باسناده حديث هجرة الحبشة قال لما هاجر جعفر بن أبي طالب وأناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الى أرض الحبشة واستقرت بهم الدار وهاجر النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة وكان من أمر بدر ما كان اجتمعت قريش في دار الندوة وقالوا ان لنا في الذين عند النجاشي من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ثارا ممن قتل منكم ببدر فاجمعوا مالا واهدوه الى النجاشي لعله يدفع اليكم من عنده من قومكم ولينتدب لذلك رجلان من ذوي رأيكم فبعثوا عمرو بن العاص وعمارة بن أبي معيط معهما الهدايا الادم وغيره فركبا البحر حتى أتيا الحبشة فلما دخلا على النجاشي سجدا له وسلما عليه وقالا له ان قومنا لك ناصحون شاكرون ولاصحابك محبون وانهم بعثونا اليك لنحذرك هؤلاء الذين قدموا عليك لانهم قوم رجل كذاب خرج فينا يزعم انه رسول الله ولم يتابعه أحد منا الا السفهاء وانا كنا قد ضيقنا عليهم الامر وألجأناهم الى شعب بارضنا لا يدخل عليهم أحد ولا يخرج منهم أحد فقتلهم الجوع والعطش فلما اشتد عليهم الامر بعث اليك ابن عمه ليفسد عليك دينك وملكك ورعيتك فاحذرهم وادفعهم الينا نكفيكهم قالوا وآية ذلك انهم اذا دخلوا عليك لا يسجدون لك ولا يحيونك بالتحية التي يحييك بها الناس رغبة عن دينك وسنتك قالا فدعاهم النجاشي فلما حضروا صاح جعفر بالباب يستأذن عليك حزب الله تعالى فقال النجاشي مروا هذا الصائح فليعد كلامه ففعل جعفر فقال النجاشي نعم فليدخلوا بامان الله وذمته فنظر عمرو الى صاحبه فقال ألا تسمع كيف ٢ يرطنون بحزب الله وما أجابهم به الملك فساءهما ذلك ثم دخلوا عليه فلم يسجدوا له فقال عمرو بن العاص ألا ترى انهم يستكبرون أن يسجدوا لك فقال لهم النجاشي ما منعكم أن تسجدوا لي وتحيوني بالتحية التي يحييني بها من أتاني من الآفاق قالوا نسجد لله الذي خلقك وملكك وانما كانت تلك التحية لنا ونحن نعبد الاوثان فبعث الله فينا نبيا صادقا فأمرنا بالتحية التي رضيها الله وهي السلام تحية أهل الجنة فعرف النجاشي ان ذلك حق وانه في التوراة والانجيل قال أيكم الهاتف يستأذن عليك حزب الله تعالى قال جعفر أنا قال تكلم قال انك ملك من ملوك الارض من أهل الكتاب ولا يصلح عندك كثرة الكلام ولا الظلم وانما أحب ان أجيب عن أصحابي فمر هذين الرجلين فليتكلم أحدهما ولينصت الآخر فتسمع محاورتنا فقال عمرو لجعفر تكلم فقال جعفر للنجاشي سل هذين الرجلين أعبيد نحن أم أحرار فان كنا عبيدا قد أبقنا من أربابنا فردنا عليهم فقال النجاشي أعبيد هم أم أحرار فقال بل أحرار كرام فقال النجاشي نجوا من العبودية فقال جعفر سلهما هل أرقنا دما بغير حق فيقتص منا فقال عمرو ولا ولا قطرة قال جعفر سلهما هل أخذنا أموال الناس بغير حق فعلينا قضاؤها فقال النجاشي ان كان قنطارا فعلي قضاؤه فقال عمرو ولا ولا قيراط فقال النجاشي فما تطلبون منهم قال كنا واياهم على دين واحد وأمر واحد على دين آبائنا فتركوا ذلك واتبعوا غيره فبعثنا قومنا لتدفعهم الينا فقال النجاشي وما هذا الدين الذي كنتم عليه والدين الذي اتبعوه فقال جعفر أما الدين الذي كنا عليه فهو دين الشيطان كنا نكفر بالله ونعبد الحجارة وأما الذي تحولنا اليه فهو دين الله الاسلام جاءنا به من عند الله رسول وكتاب مثل كتاب ابن مريم موافقا له فقال النجاشي يا جعفر تكلمت بأمر عظيم فعلى رسلك ثم أمر النجاشي بضرب الناقوس فضرب فاجتمع اليه كل قسيس وراهب فلما اجتمعوا عنده قال النجاشي أنشدكم الله الذي أنزل الانجيل على عيسى هل تجدون بين عيسى و بين

أولى الناس بابراهيم) ان أخصهم به وأقربهم منه من الولي وهو القرب (للذين اتبعوه) في زمانه وبعده (وهذا النبي) خصوصا خص بالذكر لخصوصيته بالفضل والمراد محمد عليه السلام (والذين آمنوا) من أمته (والله ولي المؤمنين) ناصرهم

٢ قوله يرطنون الذي في كتب اللغة ان الرطانة في الكلام بالاعجمية وهذا ليس منه فلم يكن لهذه اللفظة معنى يفهم على الحقيقة اه مصححه

يوم القيامة نبيا مرسلا قالوا اللهم نعم قد بشر بابه عيسى فقال من آمن به فقد آمن بي ومن كفر به فقد كفر بي فقال النجاشي لجعفر ماذا يقول لكم هذا الرجل وما يأمركم به وما ينهاكم عنه فقال يقرأ علينا كتاب الله ويأمرنا بالمعروف وينهانا عن المنكر ويأمرنا بحسن الجوار وصلة الرحم وبر اليتيم ويأمرنا أن نعبد الله وحده لا شريك له فقال اقرأ علي مما يقرأ عليكم فقرأ عليه سورة العنكبوت والروم ففاضت عينا النجاشي وأصحابه من الدمع وقالوا زدنا من هذا الحديث الطيب فقرأ عليهم سورة الكهف فاراد عمرو أن يغضب النجاشي فقال انهم يشتمون عيسى وأمه فقال النجاشي فما تقولون في عيسى وأمه فقرأ عليهم سورة مريم فلما أتى على ذكر مريم وعيسى رفع النجاشي من سواكه قدر ما يقذي العين قال والله ما زاد المسيح على ما تقولون هذا ثم أقبل على جعفر وأصحابه فقال اذهبوا فانتم سيوم بارضي يقول آمنون من سبكم أو آذاكم غرم ثم قال ابشروا ولا تخافوا فلا دهورة اليوم على حزب ابراهيم فقال عمرو يا نجاشي ومن حزب ابراهيم قال هؤلاء الرهط وصاحبهم الذي جاؤا من عنده ومن اتبعهم فانكر ذلك المشركون وادعوا دين ابراهيم ثم رد النجاشي على عمرو وصاحبه المال الذي حملوه وقال انما هديتكم الى رشوة فاقبضوها فان الله ملكني ولم يأخذ مني رشوة قال جعفر فانصرفنا فكنا في خير جوار وأنزل الله عز وجل في ذلك اليوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في خصومتهم في ابراهيم وهو في المدينة ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ۞ قوله تعالى (ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم) نزلت في معاذ بن جبل وحذيفة ابن اليمان وعمار بن ياسر حين دعاهم اليهود الى دينهم فنزلت فيهم ودت طائفة أي تمنت جماعة من أهل الكتاب يعني اليهود لو يضلونكم يعني عن دينكم ويردونكم الى الكفر (وما يضلون الا أنفسهم) لان المؤمنين لا يقبلون قولهم فيحصل عليهم الاثم بتمنيهم اضلال المؤمنين (وما يشعرون) يعني ان وبال الاضلال يعود عليهم لان العذاب يضاعف لهم بسبب ضلالهم وتمني اضلال المسلمين وما يقدرون على ذلك انما يضلون أمثالهم وأتباعهم وأشياعهم (يا أهل الكتاب) الخطاب لليهود (لم تكفرون بآيات الله) يعني القرآن وقيل المراد بآيات الله الواردة في التوراة والانجيل من نعت محمد صلى الله عليه وسلم وصفته وسبب كفرهم بالتوراة والانجيل على هذا القول هو تحريفهم وتبديلهم ما فيهما من بيان نعت محمد صلى الله عليه وسلم وصفته والبشارة بنبوته لانهم ينكرون ذلك (وأنتم تشهدون) يعني ان نعته وصفته مذكور في التوراة والانجيل وذلك ان أحبار اليهود كانوا يكتمون الناس نعته وصفته فاذا خلا بعضهم ببعض أظهروا ذلك فيما بينهم وشهدوا انه حق (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل) وذلك ان علماء اليهود والنصارى كانوا يعلمون بقلوبهم ان محمدا صلى الله عليه وسلم رسول من عند الله وان دينه حق وكانوا ينكرون ذلك بألسنتهم وكانوا يجتهدون في القاء الشبهات والتشكيكات وذلك ان الساعي في اخفاء الحق لا يقدر على ذلك الا بهذه الامور فقوله تعالى لم تلبسون الحق بالباطل معناه تحريف التوراة وتبديلها فيخلطون المحرف الذي كتبوه بأيديهم بالحق المنزل وقيل هو خلط الاسلام باليهودية والنصرانية وذلك أنهم تواطؤا على اظهار الاسلام في أول النهار والرجوع عنه في آخره والمراد بذلك تشكيك الناس وقيل انهم كانوا يقولون ان محمدا صلى الله عليه وسلم معترف بصحة نبوة موسى وأنه حق ثم ان التوراة دالة على ان شرع موسى لا ينسخ فهذا من تلبيساتهم على الناس (وتكتمون الحق) يعني نعت محمد صلى الله عليه وسلم وصفته في التوراة (وأنتم تعلمون) يعني انه رسول من عند الله وان دينه حق وانما كتمتم الحق عنادا وحسدا وأنتم تعلمون ما تستحقون على كتمان الحق من العقاب ۞ قوله عز وجل (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره) وهذا نوع آخر من تلبيسات اليهود وقيل تواطأ اثنا عشر حبرا من يهود خيبر وقرى عرينة فقال بعضهم لبعض ادخلوا في دين محمد أول النهار باللسان دون اعتقاد القلب ثم اكفروا

(ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم) هم اليهود دعوا حذيفة وعمارا ومعاذا الى اليهودية (وما يضلون الا أنفسهم) وما يعود وبال الاضلال الا عليهم لان العذاب يضاعف لهم بضلالهم واضلالهم (وما يشعرون) بذلك (يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله) بالتوراة والانجيل وكفرهم بها أنهم لا يؤمنون بما نطقت به من صحة نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرها (وأنتم تشهدون) تعترفون بانها آيات الله أو تكفرون بالقرآن ودلائل نبوة الرسول وأنتم تشهدون نعته في الكتابين أو تكفرون بآيات الله جميعا وأنتم تعلمون انها حق (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل) تخلطون الايمان بموسى وعيسى بالكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم (وتكتمون الحق) نعت محمد عليه السلام (وأنتم تعلمون) انه حق (وقالت طائفة من أهل الكتاب) فيما بينهم (آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا) أي القرآن (وجه النهار) ظرف أي أوله يعني أظهروا الايمان بما أنزل على المسلمين في أول النهار (واكفروا آخره) واكفروا به في آخره

آخر النهار وقولوا انانظرنا فى كتبناوشاورناعلماءنافوجدناان محمداليس هو بذلك المنعوت وظهرلنا كذبه فاذافعلتم ذلك شك أصحاب محمد فى دينه واتهموه وقالوا انهم أهل الكتاب وأعلم به منا فيرجعون عن دينهم وقيل هذا فى شأن القبلة وذلك انه لماصرفت الى الكعبة شق ذلك على اليهود فقال كعب بن الاشرف لاصحابه آمنوابالذى أنزل على محمد فى أمر الكعبة وصلوا اليها أول النهار ثم اكفرواوارجعوا الى قبلتكم آخر النهار لعلهم يرجعون فيقولون هؤلاء أهل كتاب وهم أعلم فيرجعون الى قبلتنا فاطلع الله رسوله صلى الله عليه وسلم على سرهم وأنزل هذه الآية ووجه النهار أوله والوجه مستقبل كل شئ لانه أول مايواجه منه وأنشدوافى معناه

من كان مسرورابمقتل مالك * فليأت نسوتنابوجه نهار

۞ وقوله (لعلهم يرجعون) يعنى عنه أى اناألقيناهذه الشبهة لعلهم يشكون فى دينهم فيرجعون عنه ولما دبرواهذه الحيلة أخبرالله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بهافلم تتم لهم ولم يحصل لهاأثر فى قلوب المؤمنين ولولا هذا الاعلام من الله تعالى لكان ربماأثرذلك فى قلوب بعض من كان فى ايمانه ضعف ۞ قوله تعالى (ولاتؤمنوا الالمن تبع دينكم) هذامتصل بالاول وهومن قول اليهود يقول بعضهم لبعض ولاتؤمنوا أى ولاتصدقوا الالمن تبع دينكم أى وافق ملتكم التى أنتم عليهاوهى اليهودية واللام فى لمن صلة كقوله ردف لكم أى ردفكم (قل ان الهدى هدى الله) أى ان الدين دين الله والبيان بيانه وهذاخبرمن الله تعالى ثم اختلفوا فيه فمنهم من قال هذا كلام معترض بين كلامين ومابعده متصل بالكلام الاول وهواخبار عن قول اليهود بعضهم لبعض ومعنى الآية ولاتؤمنوا الالمن تبع دينكم ولاتؤمنوا أن يؤتى أحدمثل ماأوتيتم من العلم والحكمة والكتاب والآيات من فلق البحروانزال المن والسلوى عليكم وغيرذلك من الكرامات ولاتؤمنوا ان يحاجوكم عندربكم لانكم أصح دينامنهم فلماأخبر الله تعالى عن اليهود بذلك قال فى أثناءذلك قل ان الهدى هدى الله والمعنى ان الذى أنتم عليه انماصاردينابحكم الله وأمره فاذا أمربدين آخروجب اتباعه والانقياد لحكمه لانه هوالذى هدى اليه وأمربه وقيل معناه قل لهم يامحمدان الهدى هدى الله وقدجئتكم به ولن ينفعكم فى دفعه هذا الكيد الضعيف وقرأ الحسن والاعمش ان يؤتى بكسرالالف فيكون قول اليهود تاماعند قوله الالمن اتبع دينكم ومابعده من قول الله تعالى والمعنى قل يامحمدان الهدى هدى الله (ان يؤتى أحد مثل ماأوتيتم) وتكون ان بمعنى الجحد أى مايؤتى احدمثل ماأوتيتم ياأمة محمدمن الدين والهدى (أويحاجوكم عندربكم) يعنى الاأن يحاجوكم أى اليهود بالباطل فيقولوانحن أفضل منكم وقوله عندربكم أى عندفعل ربكم وقيل أوفى قوله أويحاجوكم بمعنى حتى ومعنى الآية مااعطى الله احدامثل مااعطيتم ياأمة محمد من الدين والحجة حتى يحاجوكم عندربكم وقرأ ابن كثيرآن يؤتى بالمدعلى الاستفهام وحينئذيكون فى الكلام اختصارتقديره آن يؤتى أحدمثل ماأوتيتم يامعشر اليهودمن الكتاب والحكمة فتحسدونه ولاتؤمنون به هذاقول قتادة والربيع قالاهذامن قول الله تعالى يقول قل يامحمدان الهدى هدى الله ألأن أنزل كتابامثل كتابكم وبعث نبيامثل نبيكم حسدتموه وكفرتم به قل ان الفضل بيدالله يؤتيه من يشاء وقوله أويحاجوكم على هذه القراءة رجوع الى خطاب المؤمنين وتكون أوبمعنى ان لانهماحرفاشرط وجزاء يوضع أحدهماموضع الآخروالمعنى وان يحاجوكم يامعشرالمؤمنين عندربكم قل يامحمدان الهدى هدى الله ونحن عليه ويحتمل أن يكون الجميع خطابالالمؤمنين و يكون نظم الآية ان يؤتى أحدمثل ماأوتيتم يامعشر المؤمنين فان حسدوكم فقل ان الفضل بيدالله فان حاجوكم فقل ان الهدى هدى الله و يحتمل أن يكون الخبر عن اليهودقدتم عندقوله لعلهم يرجعون وقوله ولاتؤمنوامن كلام الله تعالى ثبت به قلوب المؤمنين لئلايشكوا عندتلبيس اليهودوتزويرهم فى دينهم يقول الله عزوجل لاتصدقوايامعشرالمؤمنين الالمن تبع دينكم

(لعلهم يرجعون) لعل المسلمين يقولون مارجعوا وهم أهل كتاب وعلم الالامرقدتبين لهم فيرجعون برجوعكم (ولاتؤمنوا الالمن تبع دينكم قل ان الهدى هدى الله) ولاتؤمنوا متعلق بقوله (أن يؤتى أحد مثل ماأوتيتم) ومابينهما اعتراض أى ولاتظهروا ايمانكم بان يؤتى أحدمثل ماأوتيتم الالاهل دينكم دون غيرهم أرادوا أسروا تصديقكم بان المسلمين قد أوتوامن كتب الله مثل ما أوتيتم ولاتفشوه الاالى أشياعكم وحدهم دون المسلمين لئلايزيدهم ثباتا ودون المشركين لئلايدعوهم الى الاسلام (أويحاجوكم عندربكم) عطف على ان يؤتى والضميرفى يحاجوكم لاحد لانه فى معنى الجمع يعنى ولاتؤمنوالغيراتباعكم أن المسلمين يحاجونكم يوم القيامة بالحق ويغالبونكم عندالله بالحجة ومعنى الاعتراض ان الهدى هدى الله من شاءهداه حتى أسلم أوثبت على الاسلام كان ذلك ولم ينفع كيدكم وحيلكم و[illegible]كم تصديقكم عن المسلمين والمشركين وكذلك قوله

(قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء) يريد الهداية والتوفيق أو يتم الكلام عند قوله الالمن تبع دينكم أى ولا تؤمنوا هذا الايمان الظاهر وهو ايمانهم وجه النهار الالمن تبع دينكم الالمن كانوا تابعين لدينكم ممن أسلموا منكم لان رجوعهم كان أرجى عندهم من رجوع من سواهم ومعنى قوله ان يؤتى لان يؤتى أحد مثل ما أوتيتم قلتم ذلك ودبرتموه لا لشئ آخر يعنى ان مابكم من الحسد والبغى ان يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من العلم والكتاب دعاكم الى ان قلتم ماقلتم ويدل عليه قراءة ابن كثير آن بالمد والاستفهام يعنى ألأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الكتاب تحسدونهم وقوله أو يحاجوكم على هذا معناه دبرتم مادبرتم لان يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ولما يتصل به عند كفركم به من محاجتهم لكم عند ربكم (والله واسع) أى واسع الرحمة (عليم) بالمصلحة (يختص برحمته) بالنبوة أو بالاسلام (من يشاء والله ذو الفضل العظيم ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك) هو عبد الله بن سلام استودعه رجل من قريش ألفا ومائتى أوقية ذهبا فاداه اليه (ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك) هو فنحاص بن عازوراء استودعه رجل من قريش دينارا فجحده وخانه وقيل المأمونون على الكثير النصارى لغلبة الامانة عليهم والخائنون فى القليل اليهود لغلبة الخيانة عليهم (الا مادمت عليه قائما) الا مدة دامك عليه ياصاحب الحق قائما على رأسه ملازماله يؤده ولا يؤده بكسر الهاء مشبعة مكى وشامى ونافع وعلى وحفص واختلس أبو عمرو وفى رواية غيرهم بسكون الهاء (ذلك) اشارة الى ترك الاداء الذى دل عليه لا يؤده (بانهم قالوا ليس علينا فى الاميين وادعوا سبيل) أى تركهم أداء الحقوق بسبب قولهم ليس علينا فى الاميين سبيل أى لا يتطرق علينا اثم وذم فى شأن الاميين يعنون الذين ليسوا من أهل الكتاب وما فعلنا بهم من حبس أموالهم والاضرار بهم لانهم ليسوا على ديننا وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم وكانوا يقولون لم يجعل لهم فى كتابنا حرمة وقيل بايع اليهود رجالا من قريش فلما أسلموا تقاضوهم فقالوا ليس لكم علينا حق حيث تركتم دينكم وادعوا انهم وجدوا

ولا تصدقوا ان يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الدين والفضل ولا تصدقوا ان يحاجوكم عند ربكم أو يقدروا على ذلك فان الهدى هدى الله وان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم فتكون الآية كلها خطابا للمؤمنين عند تلبيس اليهود لئلا يرتابوا ولا يشكوا ۞ وقوله تعالى (قل ان الفضل) يعنى قل لهم يا محمد ان التوفيق للايمان والهداية للاسلام (بيد الله) أى انه مالك له وقادر عليه دونكم ودون سائر خلقه (يؤتيه من يشاء) يعنى الفضل الذى هو دين الاسلام يعطيه من يشاء من عباده ويوفق له من أراد من خلقه وفيه تكذيب لليهود فى قولهم ان يؤتى أحد مثل ما أوتيتم فقال الله تعالى رداعليهم قل لهم ليس ذلك اليكم وانما الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء وأصل الفضل فى اللغة الزيادة وأكثر ما يستعمل فى زيادة الاحسان والفاضل الزائد على غيره فى خصال الخير (والله واسع) أى ذو سعة يتفضل على من يشاء (عليم) أى بمن يتفضل عليه وهو للفضل أهل (يختص برحمته) يعنى بنبوته ورسالته وقيل بدينه الذى هو الاسلام وقيل بالقرآن (من يشاء) يعنى من خلقه وفيه دليل على ان النبوة لا تحصل الا بالاختصاص والتفضل لا بالاستحقاق لانه تعالى جعلها من باب الاختصاص وللفاعل أن يفعل ما يشاء الى من يشاء بغير استحقاق (والله ذو الفضل العظيم) ۞ قوله عزوجل (ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك) الآية نزلت فى اليهود أخبر الله عزوجل ان فيهم أمانة وخيانة وقسمهم قسمين والقنطار عبارة عن المال الكثير والدينار عبارة عن المال القليل يقول منهم من يؤدى الامانة وان كثرت مثل عبد الله بن سلام وأصحابه ومنهم من لا يؤديها وان قلت وهم كفار أهل الكتاب مثل كعب بن الاشرف وأصحابه قال ابن عباس فى هذه الآية أودع رجل من قريش عبد الله بن سلام ألفا ومائتى أوقية من ذهب فاداها اليه فذلك قوله تعالى ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك يعنى فنحاص بن عازوراء استودعه رجل من قريش دينارا فخانه وجحده ولم يؤده اليه وقيل أهل الامانة هم النصارى وأهل الخيانة هم اليهود لان مذهبهم ان يحل قتل من خالفهم فى الدين وأخذ ماله باى طريق كان (الا مادمت عليه قائما) قال ابن عباس يريد تقوم عليه وتطالبه بالالحاح والخصومة والملازمة وقيل معناه الامدة دوامك عليه ياصاحب الحق قائما على رأسه متوكلا عليه بالمطالبة له والتعنيف بالرفع الى الحاكم واقامة البينة عليه وقيل أراد انه ان أودعته شيأ ثم استرجعته منه فى الحال وأنت قائم على رأسه لم تفارقه رده عليك وان أخرت استرجاع ما أودعته أنكره ولم يرده عليك (ذلك) أى سبب ذلك الاستحلال والخيانة (بانهم قالوا) يعنى اليهود (ليس علينا فى الاميين سبيل) يعنى انهم يقولون ليس علينا اثم ولا حرج فى أخذ مال العرب وذلك ان اليهود قالوا أموال العرب حلال لنا انهم ليسوا على ديننا ولا حرمة لهم فى كتابنا وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم فى دينهم وقيل ان اليهود قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه والخلق لنا عبيد فلا سبيل علينا اذا أكلنا أموال عبيدنا وقيل انهم قالوا ان الاموال كلها كانت لنا فما فى يد العرب فهو لنا وانما هم ظلمونا وغصبوها منا فلا سبيل علينا فى أخذها منهم باى طريق كان وقيل ان اليهود كانوا يبايعون رجالا من المسلمين فى الجاهلية فلما أسلموا تقاضوهم بقية أموالهم فقالوا ليس لكم علينا حق ولا عندنا قضاء لانكم تركتم دينكم وانقطع العهد بيننا وبينكم

وادعوا أنهم وجدوا ذلك فی كتابهم فأكذبهم الله تعالى فقال (ويقولون على الله الكذب) يعنى اليهود (وهم يعلمون) يعنى انهم كاذبون ثم انه تعالى رد على اليهود قولهم فقال (بلى) أی ليس الامر كما قالوا بل عليهم سبيل ولفظة بلى لمجرد نفی ما قبلها فعلى هذا يحسن الوقوف عليها ثم يبتدئ من أوفى أی ولكن (من أوفى بعهده) أی بعهد الله الذی عهد اليه فی التوراة من الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن الذی أنزل عليه وبأداء الامانة الى من ائتمنه عليها وقيل الهاء فی قوله بعهده راجعة الى الموفی (واتقى) يعنى الكفر والخيانة ونقض العهد (فان الله يحب المتقين) يعنى الذين يتقون الشرك (ق) عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها اذا ائتمن خان واذا حدث كذب واذا عاهد غدر واذا خاصم فجر وفی رواية اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا عاهد غدر واذا خاصم فجر ۞ قوله عز وجل (ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا) قال عكرمة نزلت هذه الآية فی أحبار اليهود ورؤسائهم أبی رافع وكنانة بن أبی الحقيق وكعب بن الاشرف وحيی بن أخطب الذين كتموا عهد الله اليهم فی التوراة فی شأن محمد صلى الله عليه وسلم فبدلوه وكتبوا بأيديهم غيره وحلفوا انه من عند الله لئلا تفوتهم الرشا والمآكل التی كانوا يأخذونها من اتباعهم وسفلتهم وقيل نزلت فی ادعاء اليهود الذين قالوا انه ليس علينا فی الاميين سبيل وكتبوا ذلك بأيديهم وحلفوا انه من عند الله وقيل نزلت فی الاشعث بن قيس وخصم له (ق) عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من حلف على مال امرئ مسلم بغير حقه لقی الله وهو عليه غضبان قال عبد الله ثم قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مصداقه من كتاب الله عز وجل ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا الى آخر الآية وفی رواية قال من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرئ مسلم لقی الله وهو عليه غضبان فأنزل الله تصديق ذلك ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا الآية فدخل الاشعث بن قيس الكندی فقال ما يحدثكم أبو عبد الرحمن قلنا كذا وكذا فقال صدق فی نزلت كان بينی وبين رجل خصومة فی بئر فاختصمنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم شاهداك أو يمينه قلت انه اذا يحلف ولا يبالی فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرئ مسلم هو فيها فاجر لقی الله وهو عليه غضبان ونزلت ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا الى آخر الآية وأخرجه الترمذی وأبو داود وقالا ان الحكومة كانت بين الاشعث وبين رجل يهودی وقيل نزلت هذه الآية فی رجل أقام سلعة فی السوق فحلف لقد أعطى بها ما لم يعطه (خ) عن عبد الله بن أبی أوفى أن رجلا أقام سلعة وهو فی السوق فحلف بالله لقد أعطى بها ما لم يعط ليوقع فيها رجلا من المسلمين فنزلت ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا الى آخر الآية وقيل الاقرب حمل الآية على الكل فقوله تعالى ان الذين يشترون بعهد الله يدخل فيه جميع ما أمر الله به ويدخل فيه العهود والمواثيق المأخوذة من جهة الرسل ويدخل فيه ما يلزم الرجل نفسه من عهد وميثاق فكل ذلك من عهد الله الذی يجب الوفاء به ومعنى ان الذين يشترون يستبدلون بعهد الله يعنى الامانة وأيمانهم يعنى الكاذبة ثمنا قليلا يعنى شيأ يسيرا من حطام الدنيا وذلك لان المشتری يأخذ شيأ ويعطی شيأ فكل واحد من المعطى والمأخوذ ثمن للآخر فهذا معنى الشراء (أولئك) يعنى من هذه صفتهم (لا خلاق لهم فی الآخرة) أی لا نصيب لهم فی الآخرة ونعيمها وجميع منافعها (ولا يكلمهم الله) يعنى كلاما يسرهم به أو ينفعهم وقيل هو بمعنى الغضب (ولا ينظر اليهم يوم القيامة) أی لا يرحمهم ولا يحسن اليهم ولا ينيلهم خيرا (ولا يزكيهم) أی ولا يطهرهم من الذنوب ولا يثنی عليهم بجميل (ولهم عذاب أليم) يعنى فی الآخرة (ق) عن أبی هريرة رضی الله عنه عن النبی صلى الله عليه وسلم أنه قال ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر اليهم

ذلك فی كتابهم (ويقولون على الله الكذب) بادعائهم ان ذلك فی كتابهم (وهم يعلمون) انهم كاذبون (بلى) اثبات لما نفوه من السبيل عليهم فی الاميين أی بلى عليهم سبيل فيهم وقوله (من أوفى بعهده واتقى) جملة مستأنفة مقررة للجملة التی سدت بلى مسدها والضمير فی بعهده يرجع الى الله تعالى أی كل من أوفى بعهد الله واتقاه (فان الله يحب المتقين) أی يحبهم فوضع الظاهر موضع الضمير وعموم المتقين قام مقام الضمير الراجع من الجزاء الى من ويدخل فی ذلك الايمان وغيره من الصالحات وما وجب اتقاؤه من الكفر وأعمال السوء وقيل نزلت فی عبد الله بن سلام ونحوه من مسلمی أهل الكتاب ويجوز أن يرجع الضمير الى من أوفى أی كل من أوفى بما عاهد الله عليه واتقى الله فی ترك الخيانة والغدر فان الله يحبه ونزل فيمن حرف التوراة وبدل نعته عليه السلام من اليهود وأخذ الرشوة على ذلك (ان الذين يشترون) يستبدلون (بعهد الله) بما عاهدوه عليه من الايمان بالرسول المصدق لما معهم (وأيمانهم) وبما حلفوا به من قولهم والله لنؤمنن به ولننصرنه (ثمنا قليلا) متاع الدنيا من الترؤس والارتشاء ونحو ذلك وقوله بعهد الله يقوی رجوع الضمير فی بعهده الى الله (أولئك لا خلاق لهم فی الآخرة) أی لا نصيب (ولا يكلمهم الله) بما يسرهم (ولا ينظر اليهم يوم القيامة) نظر رحمة (ولا يزكيهم) ولا يثنی عليهم (ولهم عذاب أليم) مؤلم

ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم رجل حلف على سلعة لقد أعطى بها أكثر مما أعطى وهو كاذب ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ليقتطع بها مال امرئ مسلم ورجل منع فضل ماله فيقول الله له اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك (م) عن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر اليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم قال فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات فقلت خابوا وخسروا ومن هم يا رسول الله قال المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب وللنسائي المنان بما أعطى والمسبل ازاره والمنفق سلعته بالحلف الكاذب (م) عن أبي امامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه حرم الله عليه الجنة وأوجب له النار فقالوا يا رسول الله وان كان شيأ يسيرا قال وان كان قضيبا من أراك ۞ قوله عز وجل (وان منهم) يعني من اليهود (لفريقا) يعني طائفة وجماعة وهم كعب بن الاشرف ومالك بن الصيف وحيي بن أخطب وأبو ياسر وشعبة بن عمرو الشاعر (يلوون) أي يعطفون ويميلون وأصل اللي الفتل من قولك لويت يده اذا فتلتها (ألسنتهم بالكتاب) يعني بالتحريف والتغيير والتبديل وتحريف الكلام تقليبه عن وجهه لان المحرف يلوي لسانه عن سنن الصواب بما يأتي به من عند نفسه قال الواحدي ويحتمل أن يكون المعنى يلوون بألسنتهم الكتاب لانهم يحرفون الكتاب عما هو عليه بألسنتهم فيأتون به على القلب ونقل الامام فخر الدين عن القفال قال يلوون ألسنتهم معناه أن يعمدوا الى اللفظة فيحرفونها في حركات الاعراب تحريفا يتغير به المعنى وهذا كثير في لسان العرب فلا يبعد مثله في العبرانية فلما فعلوا ذلك في الآيات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من التوراة كان ذلك هو المراد من قوله يلوون ألسنتهم بالكتاب وقيل انهم غيروا صفة النبي صلى الله عليه وسلم من التوراة وبدلوها وآية الرجم وغير ذلك مما بدلوا وغيروا (لتحسبوه من الكتاب) يعني لتظنوا أن الذي حرفوه وبدلوه من الكتاب الذي أنزله الله على أنبيائه (وما هو من الكتاب) يعني ذلك الذي يزعمون انه من الكتاب ما هو منه (ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله) يعني الذي يقولونه ويغيرونه انما كرر هذا بلفظين مختلفين مع اتحاد المعنى لاجل التأكيد (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) يعني انهم كاذبون وقال ابن عباس ان الآية نزلت في اليهود والنصارى جميعا وذلك انهم حرفوا التوراة والانجيل وألحقوا في كتاب الله ما ليس فيه ۞ قوله عز وجل (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة) قيل ان نصارى نجران قالوا ان عيسى أمرهم أن يتخذوه ربا فقال الله تعالى ردا عليهم ما كان لبشر يعني عيسى عليه السلام ان يؤتيه الله الكتاب يعني الانجيل وقال ابن عباس في قوله تعالى ما كان لبشر يعني محمدا صلى الله عليه وسلم ان يؤتيه الله الكتاب يعني القرآن وذلك ان أبا رافع من اليهود والسيد من نصارى نجران قالا يا محمد تريد أن نعبدك ونتخذك ربا قال معاذ الله أن آمر بعبادة غير الله وما بذلك أمرني الله وما بذلك بعثني فأنزل الله هذه الآية ما كان لبشر أي ما ينبغي لبشر وهو جميع بني آدم لا واحد له من لفظه كالقوم والرهط ويوضع موضع الواحد والجمع أن يؤتيه الله الكتاب والحكم يعني الفهم والعلم وقيل هو امضاء الحكم من الله تعالى والنبوة يعني المنزلة الرفيعة (ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله) ومعنى الآية انه لا يجتمع لرجل نبوة مع القول للناس كونوا عبادا لي من دون الله وكيف يدعو الناس الى عبادة نفسه دون الله وقد آتاه الله ما آتاه من الكتاب والحكم والنبوة وذلك ان الانبياء موصوفون بصفات لا يحصل معها ادعاء الالهية والربوبية منها ان الله تعالى آتاهم الكتب السماوية ومنها ايتاء النبوة ولا يكون الا بعد كمال العلم وكل هذه تمنع من هذه الدعوى (ولكن كونوا ربانيين) يعني ولكن يقول لهم كونوا ربانيين فاضمر القول على حسب مذهب العرب في جواز الاضمار اذا كان في الكلام ما يدل عليه واختلفوا في معنى الرباني فقال ابن عباس معناه كونوا فقهاء علماء وعنه كونوا فقهاء معلمين وقيل معناه حكماء حلماء وقيل الرباني الذي

(وان منهم) من أهل الكتاب (لفريقا) هم كعب بن الاشرف ومالك بن الصيف وحيي بن أخطب وغيرهم (يلوون ألسنتهم بالكتاب) يفتلونها بقراءته عن الصحيح الى المحرف واللي الفتل وهو الصرف والمراد تحريفهم كآية الرجم ونعت محمد صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك والضمير في (لتحسبوه) يرجع الى ما دل عليه يلوون ألسنتهم بالكتاب وهو المحرف ويجوز ان يراد يعطفون ألسنتهم بشبه الكتاب لتحسبوا ذلك الشبه (من الكتاب) أي التوراة (وما هو من الكتاب) وليس هو من التوراة (ويقولون هو من عند الله) تأكيد لقوله هو من الكتاب وزيادة تشنيع عليهم (وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) انهم كاذبون (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب) تكذيب لمن اعتقد عبادة عيسى عليه السلام وقيل قال رجل يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك قال لا ينبغي أن يسجد لاحد من دون الله ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لاهله (والحكم) والحكمة وهي السنة أو فصل القضاء (والنبوة ثم يقول) عطف على يؤتيه (للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين) ولكن يقول كونوا ربانيين والرباني منسوب الى الرب بزيادة الالف والنون وهو شديد التمسك بدين   يربي
الله وطاعته وحين مات ابن عباس قال ابن الحنفية مات رباني هذه الامة وعن الحسن ربانيين علماء فقهاء وقيل علماء معلمين وقالوا الرباني

يربى الناس بصغار العلم وكباره وقيل الربانى العالم الذى يعمل بعلمه وقيل الربانى العالم بالحلال والحرام والامر والنهى وقيل الربانى الذى جمع بين علم البصيرة والعلم بسياسة الناس ولما مات ابن عباس رضى الله عنهما قال محمد بن الحنفية اليوم مات ربانى هذه الامة قال سيبويه الربانى المنسوب الى الرب بمعنى كونه عالما به ومواظبا على طاعته وزيادة الالف والنون فيه للدلالة على كمال هذه الصفة وقال المبرد الربانيون أرباب العلم واحدهم ربان وهو الذى يربى العلم ويربى الناس أى يعلمهم ويصلحهم والالف والنون للمبالغة فعلى قول سيبويه الربانى منسوب الى الرب على معنى التخصيص بمعرفة الرب وطاعته وعلى قول المبرد الربانى مأخوذ من التربية وقيل الربانيون هم ولاة الامر والعلماء وهما الفريقان اللذان يطاعان ومعنى الآية على هذا التأويل لا أدعوكم الى أن تكونوا عبادا لى ولكن أدعوكم الى أن تكونوا ملوكا وعلماء ومعلمين الناس الخير ومواظبين على طاعة الله وعبادته وقال أبو عبيدة أحسب ان هذه الكلمة ليست عربية انما هى عبرانية أو سريانية وسواء كانت عربية أو عبرانية فهى تدل على الذى علم وعمل بما علم وعلم الناس طريق الخير ۞ وقوله تعالى (بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) أى كونوا ربانيين بسبب كونكم عالمين ومعلمين وبسبب دراستكم الكتاب فدلت الآية على أن العلم والتعليم والدراسة توجب كون الانسان ربانيا فمن اشتغل بالعلم والتعليم لا لهذا القصود ضاع علمه وخاب سعيه ۞ قوله عزوجل (ولا يامركم) قرئ بنصب الراء عطفا على قوله ثم يقول فيكون مردودا على البشر وقيل على اضمار أن أى ولا ان يامركم وقرئ برفع الراء على الاستئناف وهو ظاهر ومعناه ولا يامركم الله وقيل ولا يامركم محمد صلى الله عليه وسلم وقيل ولا يامركم عيسى وقيل ولا يامركم الانبياء (أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا) يعنى كفعل قريش والصابئين حيث قالوا الملائكة بنات الله وكفعل اليهود والنصارى حيث قالوا فى المسيح والعزير ما قالوا وانما خص الملائكة والنبيين بالذكر لان الذين وصفوا بعبادة غير الله عزوجل من أهل الكتاب لم يحك عنهم الا عبادة الملائكة وعبادة المسيح وعزير فلهذا المعنى خصهم بالذكر (أيامركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون) انما قاله على طريق التعجب والانكار يعنى لا يقول هذا ولا يفعله ۞ قوله عزوجل (واذ أخذ الله ميثاق النبيين) قال الزجاج موضع اذ نصب والمعنى واذكر فى أقاصيصك اذ أخذ الله وقال الطبرى معناه واذكروا يا أهل الكتاب اذ أخذ الله يعنى حين أخذ الله ميثاق النبيين وأصل الميثاق فى اللغة عقد يؤكد بيمين ومعنى ميثاق النبيين ما وثقوا به على أنفسهم من طاعة الله فيما أمرهم به ونهاهم عنه وذكروا فى معنى أخذ الميثاق وجهين أحدهما انه مأخوذ من الانبياء والثانى انه مأخوذ لهم من غيرهم فلهذا السبب اختلفوا فى المعنى بهذه الآية فذهب قوم الى أن الله تعالى أخذ الميثاق من النبيين خاصة قبل أن يبلغوا كتاب الله ورسالاته الى عباده أن يصدق بعضهم بعضا وأخذ العهد على كل نبى أن يؤمن بمن يأتى بعده من الانبياء وينصره ان أدركه وان لم يدركه أن يامر قومه بنصرته ان أدركوه فأخذ الميثاق من موسى أن يؤمن بعيسى ومن عيسى أن يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين وهذا قول سعيد بن جبير والحسن وطاوس وقيل انما أخذ الميثاق من النبيين فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم خاصة وهو قول على وابن عباس وقتادة والسدى فعلى هذا القول اختلفوا فقيل انما أخذ الله الميثاق على أهل الكتاب الذين أرسل اليهم النبيين ويدل عليه قوله ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه وانما كان محمد صلى الله عليه وسلم مبعوثا الى أهل الكتاب دون النبيين وانما أطلق هذا اللفظ عليهم لانهم كانوا يقولون نحن أولى بالنبوة من محمد لانا أهل كتاب والنبيون منا وقيل أخذ الله الميثاق على النبيين وأممهم جميعا فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم فاكتفى بذكر الانبياء لان العهد مع المتبوع عهد مع الاتباع وهو قول ابن عباس قال على بن أبى طالب ما بعث الله نبيا آدم فمن بعده الا أخذ عليه العهد فى أمر

العالم العامل (بما كنتم تعلمون الكتاب) كوفى وشامى أى غيركم غيرهم بالتخفيف (وبما كنتم تدرسون) أى تقرؤن والمعنى بسبب كونكم عالمين وبسبب كونكم دارسين للعلم كانت الربانية التى هى قوة التمسك بطاعة الله مسببة عن العلم والدراسة وكفى به دليلا على خيبة سعى من جهد نفسه وكد روحه فى جمع العلم ثم لم يجعله ذريعة الى العمل فكان كمن غرس شجرة حسناء تونقه بمنظرها ولا تنفعه بثمرها وقيل معنى تدرسون تدرسونه على الناس كقوله لتقرأه على الناس فيكون معناه معنى تدرسون من التدريس كقراءة ابن جبير (ولا يامركم) بالنصب عطفا على ثم يقول ووجهه أن تجعل لا مزيدة لتأكيد معنى النفى فى قوله ما كان لبشر والمعنى ما كان لبشر أن يستنبئه الله وينصبه للدعاء الى اختصاص الله بالعبادة وترك الانداد ثم يامر الناس بان يكونوا عبادا له ويامركم (ان تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا) كما تقول ما كان لزيد أن أكرمه ثم يهيننى ولا يستخف بى وبالرفع حجازى وأبو عمرو وعلى على ابتداء الكلام والهمزة فى (أيامركم بالكفر) للانكار والضمير فى لا يامركم وأيامركم للبشر أو لله وقوله (بعد اذ أنتم مسلمون) يدل على أن المخاطبين كانوا مسلمين وهم الذين استأذنوه أن يسجدوا له

(واذ أخذ الله ميثاق النبيين) هو على ظاهره من أخذ الميثاق على النبيين بذلك أو المراد ميثاق أولاد النبيين وهم بنو اسرائيل على حذف

المضاف واللام في (لما آتيتكم من كتاب وحكمة) لام التوطئة لان أخذ الميثاق في معنى الاستحلاف وفي لتؤمنن لام جواب القسم وما يجـ
أن تكون متضمنة لمعنى الشرط لتؤمنن ساد مسد جواب القسم والشرط جميعا وأن تكون موصولة بمعنى للذي آتيتكموه لتؤمنن به (ثم جا
معطوف على الصلة والعائد منه الى ما محذوف والتقدير ثم جاءكم به (رسول مصدق لما معكم) للكتاب الذي معكم (لتؤمـ
به) لرسول (ولتنصرنه) أي الرسول وهو محمد صلى الله عليه وسلم لما آتيتكم حمزة وما بمعنى الذي أو مصدرية أي لاجل ايتائي اياكم بعض الكتاب والحكمة ثم لمجيء رسول مصدق لما معكم واللام للتعليل أي أخذ الله ميثاقهم لتؤمنن بالرسول ولتنصرنه لاجل أني آتيتكم الحكمة وان الرسول الذي آمركم بالايمان به ونصرته موافق لكم غير مخالف آتينا كم مدني (قال) أي الله (أأقررتم وأخذتم على ذلكم اصري) أي قبلتم عهدي وسمي اصرا لانه مما يؤصر أي يشد ويعقد (قالوا أقررنا قال فاشهدوا) فليشهد بعضكم على بعض بالاقرار (وأنا معكم من الشاهدين) وأنا معكم على ذلك من اقراركم وتشاهدكم من الشاهدين وهذا توكيد عليهم وتحذير من الرجوع اذا علموا بشهادة الله وشهادة بعضهم على بعض وقيل قال الله للملائكة اشهدوا (فمن تولى بعد ذلك) الميثاق
والتوكيد ونقض العهد بعد قبوله وأعرض عن الايمان بالنبي الجائي (فاولئك هم الفاسقون) المتمردون من
الكفار (أفغير دين الله يبغون) دخلت همزة الانكار على الفاء العاطفة جملة على جملة والمعنى فاولئك هم الفاسقون فغير دين الله يبغون ثم
توسطت الهمزة بينهما ويجوز أن يعطف على محذوف تقديره أيتولون فغير دين الله يبغون وقدم المفعول وهو غير دين الله على فعله لانه أهم
من حيث ان الانكار الذي هو معنى الهمزة متوجه الى المعبود بالباطل

محمد صلى الله عليه وسلم وأخذ هو العهد على قومه ليؤمنن به ولئن بعث وهم أحياء لينصرنه وقيل ان المراد من
الآية ان الانبياء كانوا يأخذون العهد والميثاق على أممهم بانه اذا بعث محمد صلى الله عليه وسلم أن يؤمنوا به
وينصروه وهذا قول كثير من المفسرين ۞ وقوله (لما آتيتكم من كتاب وحكمة) قرئ بفتح اللام من
وبكسرها مع التخفيف في القراءتين فمن قرأ بفتح اللام قال معنى الآية واذ أخذ الله ميثاق النبيين من أجل
الذي آتاهم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول يعني ذكر محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة لتؤمنن به للذي
عندكم في التوراة من ذكره ومن قرأ بكسر اللام جعل قوله لتؤمنن به من أخذ الميثاق كما يقال أخذت
ميثاقك لتفعلن لان أخذ الميثاق بمنزلة الاستحلاف فكان معنى الآية واذ استحلف الله النبيين للذي آتاهم
من كتاب وحكمة متى جاءهم رسول مصدق لما معهم ليؤمنن به ولينصرنه ۞ وقوله (ثم جاءكم رسول) يعني
محمدا صلى الله عليه وسلم (مصدق لما معكم) وذلك ان الله وصفه في كتب الانبياء المتقدمة وشرح فيها أحوال
فاذا جاءت صفاته وأحواله مطابقة لما في كتبهم المنزلة فقد صار مصدقا لها فيجب الايمان به والانقياد لقول
ولام قوله (لتؤمنن به) لام القسم تقديره والله لتؤمنن به (ولتنصرنه) قال البغوي قال الله عز وجل للانبياء
حين استخرج الذرية من صلب آدم والانبياء فيهم كالمصابيح أخذ عليهم الميثاق في أمر محمد صلى الله عليه وسـ
أأقررتم وأخذتم على ذلكم اصري الآية وقال الامام فخر الدين الرازي يحتمل أن يكون هذا الميثاق ما قرر في
عقولهم من الدلائل الدالة على أن الانقياد واجب فاذا جاء رسول وظهرت المعجزات الدالة على صدق
فاذا أخبرهم بعد ذلك ان الله أمر الخلق بالايمان به عرفوا عند ذلك وجوبه بتقرير هذا الدليل في عقولهم
فهذا هو المراد من الميثاق (قال أأقررتم) يعني قال الله تعالى أأقررتم فان فسرنا ان أخذ الميثاق كان من
النبيين كان معناه قال الله تعالى للنبيين أأقررتم بالايمان به والنصر له وان فسرنا بان أخذ الميثاق كان على
الامم كان معناه قال كل نبي لامته أأقررتم وذلك لانه تعالى أضاف أخذ الميثاق الى نفسه وان كان النبيون
أخذوه على الامم فلذلك طلب هذا الاقرار وأضافه الى نفسه وان وقع من الانبياء والمقصود أن الانبيا
بالغوا في اثبات هذا الميثاق وتأكيده على الامم وطالبوهم بالقبول وأكدوا ذلك بالاشهاد (وأخذتم على
ذلكم اصري) أي عهدي والاصر العهد الثقيل وقيل سمي العهد اصرا لانه مما يؤصر أي يشد ويعقد (قالوا
أقررنا) أي قال النبيون أقررنا بما ألزمتنا من الايمان برسلك الذين ترسلهم مصدقين لما معنا من كتبك
(قال فاشهدوا) يعني قال الله عز وجل للنبيين فاشهدوا يعني أنتم على أنفسكم وقيل على أممكم وأتباعكم
الذين أخذتم عليهم الميثاق وقيل قال الله للملائكة فاشهدوا فهو كناية عن غير مذكور وقيل معناه فاعلموا
وبينوا لان أصل الشهادة العلم والبيان (وأنا معكم من الشاهدين) يعني قال الله يا معشر الانبياء وأنا معكم
من الشاهدين عليكم وعلى أتباعكم أو قال للملائكة وأنا معكم من الشاهدين عليهم (فمن تولى) أي أعرض
عن الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ونصرته (بعد ذلك) الاقرار (فاولئك هم الفاسقون) أي الخارجون
عن الايمان والطاعة ۞ قوله عز وجل (أفغير دين الله يبغون) وذلك ان أهل الكتاب اختلفوا فادعى كل
فريق منهم أنه على دين ابراهيم عليه السلام فاختصموا الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهم رسول الله صلى
الله عليه وسلم كلا الفريقين بريء من دين ابراهيم فغضبوا وقالوا لا نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك فانزل الله

(وله أسلم من في السموات) الملائكة (والارض) الانس والجن (طوعا) بالنظر في الادلة والانصاف من نفسه (وكرها) بالسيف أو بمعاينة العذاب كنتق الجبل على بني اسرائيل وادراك الغرق فرعون والاشفاء على الموت فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وانتصب طوعا وكرها على الحال أي طائعين ومكرهين (واليه ترجعون) فيجازيكم على الاعمال يبغون ويرجعون بالياء فيهما حفص وبالتاء في الثاني وفتح الجيم أبو عمرو لان الباغين هم المتولون والراجعون جميع الناس وبالتاء فيهما وفتح الجيم غيرهما (قل آمنا

أفغير دين الله الهمزة للاستفهام والمراد منه الانكار والتوبيخ يعني أفبعد أخذ الميثاق عليهم ووضوح الدلائل لهم ان دين ابراهيم هو دين الله الاسلام تبغون قرئ بالتاء على خطاب الحاضر أي أفغير دين الله تطلبون يا معشر اليهود والنصارى وقرئ بالياء على الغيبة ردا على قوله فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون (وله أسلم) أي خضع وانقاد (من في السموات والارض طوعا وكرها) الطوع الانقياد والاتباع بسهولة والكره ما كان من ذلك بمشقة واباء من النفس واختلفوا في معنى قوله طوعا وكرها فقيل أسلم أهل السموات طوعا وأسلم بعض أهل الارض طوعا وبعضهم كرها من خوف القتل والسبي وقيل أسلم المؤمن طوعا وانقاد الكافر كرها وقيل هذا في يوم أخذ الميثاق حين قال ألست بربكم قالوا بلى فمن سبقت له السعادة قال ذلك طوعا ومن سبقت له الشقاوة قال ذلك كرها وقيل أسلم المؤمن طوعا فنفعه اسلامه يوم القيامة والكافر يسلم كرها عند الموت في وقت اليأس فلم ينفعه ذلك في القيامة وقيل انه لا سبيل لاحد من الخلق الى الامتناع على الله في مراده فاما المسلم فينقاد لله فيما أمره ونهاه عنه طوعا وأما الكافر فينقاد لله كرها في جميع ما يقضي عليه ولا يمكنه دفع قضائه وقدره عنه (واليه ترجعون) قرئ بالتاء والياء والمعنى ان مرجع الخلق كلهم الى الله يوم القيامة ففيه وعيد عظيم لمن خالفه في الدنيا ۞ قوله عز وجل (قل آمنا بالله) لما ذكر الله عز وجل في الآية المتقدمة أخذ الميثاق على الانبياء في تصديق الرسول الذي يأتي مصدقا لما معهم بين في هذه الآية أن من صفة محمد صلى الله عليه وسلم مصدقا لما معهم فقال تعالى قل آمنا بالله وانما وحد الضمير في قوله قل وجمع في قوله آمنا بالله لانه انما خاطبه بلفظ الوحدان ليدل هذا الكلام على انه لا يبلغ هذا التكليف عن الله تعالى الى الخلق الا هو ثم قال آمنا بالله تنبيها على انه حين قال هذا القول وافقه أصحابه فحسن الجمع في قوله آمنا ومعنى الآية قل يا محمد صدقنا بالله انه ربنا والهنا لا اله لنا غيره ولا رب سواه وانما قدم الايمان بالله على غيره لانه الاصل (وما أنزل علينا) يعني وقل يا محمد وصدقنا أيضا بما أنزل علينا من وحيه وتنزيله وانما قدم ذكر القرآن لانه أشرف الكتب وانه لم يحرف ولم يبدل وغيره حرف وبدل (وما أنزل على ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى) انما خص هؤلاء الانبياء بالذكر لان أهل الكتاب يعترفون بوجودهم ولم يختلفوا في نبوتهم والاسباط هم أولاد يعقوب الاثنا عشر وكانوا أنبياء ثم جمع جميع الانبياء فقال (والنبيون) أي وما أوتي النبيون (من ربهم لا نفرق بين أحد منهم) وذلك ان أهل الكتاب يؤمنون ببعض النبيين ويكفرون ببعض فامر الله عز وجل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ان يخبر عن نفسه وعن أمته انه يؤمن بجميع الانبياء فان قلت لم عدي أنزل في هذه الآية بحرف الاستعلاء وفيما تقدم من مثلها في البقرة بحرف الانتهاء قلت لوجود المعنيين جميعا لان الوحي ينزل من فوق وينتهي الى الرسل فجاء تارة باحد المعنيين وتارة بالمعنى الآخر (ونحن له مسلمون) أي موحدون مخلصون أنفسنا له لا نجعل له شريكا في عبادتنا ۞ قوله عز وجل (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه) يعني ان الدين المقبول عند الله هو دين الاسلام وان كل دين سواه غير مقبول عنده لان الدين الصحيح ما يأمر الله به ويرضى عن فاعله ويثيبه عليه (وهو في الآخرة من الخاسرين) يعني الذين وقعوا في الخسار

بالله وما أنزل علينا) أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بان يخبر عن نفسه وعمن معه بالايمان فلذا وحد الضمير في قل وجمع في آمنا أو أمر بان يتكلم عن نفسه كما يتكلم الملوك اجلالا من الله لقدر نبيه وعدي أنزل هنا بحرف الاستعلاء وفي البقرة بحرف الانتهاء لوجود المعنيين اذ الوحي ينزل من فوق وينتهي الى الرسول فجاء تارة باحد المعنيين وأخرى بالآخر وقال صاحب اللباب الخطاب في البقرة للامة لقوله قولوا فلم يصح الا الى لان الكتب منتهية الى الانبياء والى أمتهم جميعا وهنا قال قل وهو خطاب للنبي عليه السلام دون أمته فكان اللائق به على لان الكتب منزلة عليه لا شركة للامة فيه وفيه نظر لقوله تعالى آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا (وما أنزل على ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط) أولاد يعقوب وكان فيهم أنبياء (وما أوتي موسى وعيسى والنبيون) كرر في البقرة وما أوتي موسى ولم يكرر هنا لتقدم ذكر الايتاء حيث قال لما آتيتكم (من ربهم) من عند ربهم (لا نفرق بين أحد منهم) في الايمان كما فعلت اليهود والنصارى (ونحن له مسلمون) موحدون مخلصون أنفسنا له لا نجعل له شريكا في عبادتنا (ومن يبتغ غير الاسلام) يعني التوحيد واسلام الوجه لله أو غير دين محمد عليه السلام (دينا) تمييز (فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) من الذين وقعوا في الخسران ونزل في رهط أسلموا ثم رجعوا عن الاسلام ولحقوا بمكة

وهو حرمان الثواب وحصول العقاب وروى ابن جرير الطبري عن عكرمة في قوله ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه قالت اليهود فنحن مسلمون فقال الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم قل لهم ولله على الناس حج البيت فلم يحجوا ۞ قوله عز وجل (كيف يهدي الله قوما كفروا بعد ايمانهم) نزلت في اثني عشر رجلا ارتدوا عن الاسلام وخرجوا من المدينة وأتوا مكة كفارا منهم الحرث بن سويد الانصاري وطعمة بن أبيرق ووحوح بن الاسلت وقال ابن عباس نزلت في اليهود والنصارى وذلك ان اليهود كانوا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم يستفتحون به على الكفار ويقرون به ويقولون قد أظل زمان نبي مبعوث فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم كفروا به بغيا وحسدا ومعنى كيف يهدي الله كيف يرشد الله للصواب ويوفق للايمان قوما كفروا أي جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بعد ايمانهم أي تصديقهم اياه واقرارهم به وبما جاء به من عند ربه (وشهدوا أن الرسول حق) يعني وبعد ان اقروا وشهدوا أن محمدا رسول الله الى خلقه وانه حق وصدق (وجاءهم البينات) يعني الحجج والبراهين والمعجزات الدالة على صحة نبوته التي بمثلها تثبت النبوة (والله لا يهدي القوم الظالمين) أي لا يوفقهم الى الحق والصواب لما سبق في علمه تعالى انهم ظالمون وقيل لا يهديهم في الآخرة الى الجنة والثواب فان قلت كيف قال في أول الآية كيف يهدي الله قوما كفروا وقال في آخرها والله لا يهدي القوم الظالمين وهذا تكرار قلت ليس فيه تكرار لان قوله كيف يهدي الله قوما كفروا انما هو مختص بأولئك المرتدين عن الاسلام ثم انه تعالى عمم ذلك الحكم في آخر الآية فقال والله لا يهدي القوم الظالمين يعني جميع الكفار المرتدين عن الاسلام والكافر الاصلي وانما سمى الكافر ظالما لانه وضع العبادة في غير موضعها (أولئك جزاؤهم) يعني الذين كفروا بعد ايمانهم (ان عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها) أي في عذاب اللعنة وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة (لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) أي لا يؤخرون عن وقت العذاب ولا يؤخر عنهم من وقت الى وقت ثم استثنى سبحانه وتعالى فقال (الا الذين تابوا من بعد ذلك) يعني من بعد ارتدادهم وكفرهم وذلك ان الحرث بن سويد الانصاري لما لحق بالكفار ندم على ذلك فارسل الى قومه ان سلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم هل لي من توبة ففعلوا فانزل الله تعالى الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا الآية فبعث بها اليه أخوه الجلاس مع رجل من قومه فاقبل الى المدينة تائبا وقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم توبته وحسن اسلامه (وأصلحوا) أي وضموا الى التوبة الاعمال الصالحة فبين ان التوبة وحدها لا تكفي حتى يضاف اليها العمل الصالح وقيل معناه وأصلحوا باطنهم مع الحق بالمراقبات وظاهرهم مع الخلق بالعبادات والطاعات (فان الله غفور رحيم) أي غفور لقبائحهم في الدنيا بالستر رحيم في الآخرة بالعفو وقيل غفور بازالة العذاب رحيم باعطاء الثواب ۞ قوله عز وجل (ان الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم) نزلت في اليهود وذلك انهم كفروا بعيسى والانجيل بعد ايمانهم بموسى وغيره من أنبيائهم ثم ازدادوا كفرا يعني كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وقيل نزلت في اليهود والنصارى وذلك انهم كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم لما رأوه بعد ايمانهم به قبل مبعثه لما ثبت عندهم من نعته وصفته في كتبهم ثم ازدادوا كفرا يعني ذنوبا في حال كفرهم وقيل نزلت في جميع الكفار وذلك انهم أشركوا بالله بعد اقرارهم بان الله خالقهم ثم ازدادوا كفرا يعني باقامتهم على كفرهم حتى هلكوا عليه وقيل زيادة كفرهم هو قولهم نتربص بمحمد ريب المنون وقيل نزلت في أحد عشر رجلا من أصحاب الحرث بن سويد الذين ارتدوا

كيف يهدي الله قوما كفروا بعد ايمانهم) والواو في (وشهدوا ان الرسول حق) للحال وقد مضمرة أي كفروا وقد شهدوا ان الرسول أي محمدا حق أو للعطف على ما في ايمانهم من معنى الفعل لان معناه بعد ان آمنوا (وجاءهم البينات) أي الشواهد كالقرآن وسائر المعجزات (والله لا يهدي القوم الظالمين) أي ماداموا مختارين الكفر أو لا يهديهم طريق الجنة اذا ماتوا كفارا (أولئك) مبتدأ (جزاؤهم) مبتدأ ثان خبره (أن عليهم لعنة الله) وهما خبر أولئك أو جزاؤهم بدل الاشتمال من أولئك (والملائكة والناس أجمعين خالدين) حال من الهاء والميم في عليهم (فيها) في اللعنة (لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون الا الذين تابوا من بعد ذلك) الكفر العظيم والارتداد (وأصلحوا) ما أفسدوا أو دخلوا في الصلاح (فان الله غفور) لكفرهم (رحيم) بهم ونزل في اليهود (ان الذين كفروا) بعيسى والانجيل بعد ايمانهم بموسى والتوراة (ثم ازدادوا كفرا) بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن أو كفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما كانوا به مؤمنين من قبل مبعثه ثم ازدادوا كفرا باصرارهم على ذلك وطعنهم فيه في كل وقت أو نزل في الذين ارتدوا ولحقوا بمكة وازديادهم الكفر أن قالوا نقيم بمكة نتربص بمحمد ريب المنون (لن تقبل توبتهم) أي ايمانهم عند البأس لانهم لا يتوبون الا عند الموت قال الله تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا

عن الاسلام فلما رجع الحرث الى الاسلام أقاموا على كفرهم بمكة وقالوا نقيم على الكفر ما بدا لنا فمتى أردنا الرجعة ينزل فينا مثل ما نزل فى الحرث فلما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فمن دخل منهم فى الاسلام قبلت توبته ونزل فيمن مات منهم على كفره ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار الآية فان قيل قد وعد الله قبول التوبة ممن تاب فما معنى قوله لن تقبل توبتهم قلت اختلف المفسرون فى معنى قوله لن تقبل توبتهم فقال الحسن وعطاء وقتادة والسدى لن تقبل توبتهم حين يحضرهم الموت وهو وقت الحشرجة لان الله تعالى قال وليست التوبة للذين يعملون السيآت حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن فان الذى يموت على الكفر لا تقبل توبته كأنه قال ان اليهود أو الكفار أو المرتدين الذين فعلوا ما فعلوا ثم ماتوا على ذلك لن تقبل توبتهم وقال ابن عباس انهم الذين ارتدوا وعزموا على اظهار التوبة لاستر أحوالهم والكفر فى ضمائرهم وقال أبو العالية هم قوم تابوا من ذنوب عملوها فى حال الشرك ولم يتوبوا من الشرك فان توبتهم فى حال الشرك غير مقبولة وقال مجاهد لن تقبل توبتهم اذا ماتوا على الكفر وقال ابن جرير الطبرى معنى لن تقبل توبتهم أى مما ازدادوا من الكفر على كفرهم بعد ايمانهم لا من كفرهم لان الله تعالى لما وعد ان يقبل التوبة من عباده وانه قابل توبة كل تائب من كل ذنب لقوله تعالى الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم علم أن المعنى الذى لا تقبل التوبة منه غير المعنى الذى تقبل التوبة منه فعلى هذا فالذى لا تقبل التوبة منه هو الازدياد على الكفر بعد الكفر لا يقبل الله منه توبة ما أقام على كفره لان الله تعالى لا يقبل عمل مشرك ما أقام على شركه فاذا تاب من شركه وكفره وأصلح فان الله كما وصف نفسه غفور رحيم ۞ وقوله تعالى (وأولئك هم الضالون) يعنى هؤلاء الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفرا هم الذين ضلوا عن سبيل الحق وأخطؤا منهاجه ۞ قوله عز وجل (ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار) قال ابن عباس لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة دخل من كان من أصحاب الحرث بن سويد حيا فى الاسلام فنزلت هذه الآية فيمن مات منهم على الكفر وقيل نزلت فيمن مات كافرا من جميع أصناف الكفار من اليهود والنصارى وعبدة الاصنام فالآية عامة فى جميع من مات على الكفر (فلن يقبل من أحدهم ملء الارض ذهبا) أى قدر ما يملأ الارض من شرقها الى غربها (ولو افتدى به) قيل معناه لو افتدى به والواو زائدة مقحمة وقيل الواو على حالها وفائدتها انها للعطف والتقدير لو تقرب الى الله بملء الارض ذهبا وقد مات على كفره لم ينفعه ذلك وكذلك لو افتدى من العذاب بملء الارض ذهبا لن يقبل منه وهذا آكد فى التغليظ لانه تصريح بنفى القبول من جميع الوجوه فان قلت الكافر لا يملك شيأ فى الآخرة فما وجه قوله فلن يقبل من أحدهم ملء الارض ذهبا قلت الكلام ورد على سبيل الفرض والتقدير والمعنى لو أن للكافر قدر ملء الارض ذهبا يوم القيامة لبذله فى تخليص نفسه من العذاب ولكن لا يقدر على شئ من ذلك وقيل معناه لو أن الكافر أنفق فى الدنيا ملء الارض ذهبا ثم مات على كفره لم ينفعه ذلك لان الطاعة مع الكفر غير مقبولة (أولئك) اشارة الى من مات على الكفر (لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين) يعنى مانعين يمنعونهم من العذاب (ق) عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يقول الله عز وجل لأهون أهل النار عذابا يوم القيامة لو أن لك ما فى الارض من شئ أكنت تفتدى به فيقول نعم فيقول أردت منك أهون من هذا وأنت فى صلب آدم أن لا تشرك بى شيأ فأبيت الا الشرك لفظ مسلم ۞ قوله عز وجل (لن تنالوا البر) قال ابن عباس يعنى الجنة وقيل البر هو التقوى وقيل هو الطاعة وقيل معناه لن تنالوا حقيقة البر ولن تكونوا أبرارا حتى تنفقوا مما تحبون وقيل معناه لن تنالوا بر الله وهو ثوابه وأصل البر التوسع فى فعل الخير يقال بر العبد ربه أى توسع فى طاعته فالبر من الله الثواب ومن العبد الطاعة وقد يستعمل فى الصدق وحسن الخلق لانهما من الخير المتوسع فيه (ق) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الصدق يهدى الى البر وان

(وأولئك هم الضالون ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الارض) الفاء فى فلن يقبل يؤذن بان الكلام بنى على الشرط والجزاء وان سبب امتناع قبول الفدية هو الموت على الكفر وترك الفاء فيما تقدم يشعر بان الكلام مبتدأ وخبر ولا دليل فيه على التسبيب (ذهبا) تمييز (ولو افتدى به) أى فلن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الارض ذهبا قال عليه السلام يقال للكافر يوم القيامة لو كان لك ملء الارض ذهبا أكنت مفتديا به فيقول نعم فيقال له قد سئلت أيسر من ذلك قيل الواو لتأكيد النفى (أولئك لهم عذاب أليم) مؤلم (وما لهم من ناصرين) معينين دافعين العذاب (لن تنالوا البر) لن تبلغوا حقيقة البر أو لن تكونوا ابرارا أو لن تنالوا بر الله وهو ثوابه

(حتى تنفقوا مما تحبون) حتى تكون نفقتكم من أموالكم التي تحبونها وتؤثرونها وعن الحسن كل من تصدق ابتغاء وجه الله بما يحبه ولو تمرة فهو داخل في هذه الآية قال الواسطي (٢٧٢) الوصول الى البر بانفاق بعض المحاب والى الرب بالتخلي عن الكونين وقال أبو بكر الوراق لن

البر يهدي الى الجنة وان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا وان الكذب يهدي الى الفجور وان الفجور يهدي الى النار وان الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا (م) عن النواس بن سمعان قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر والاثم فقال البر حسن الخلق والاثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس منك فعلى هذا يكون المعنى عليكم بالاعمال الصالحة حتى تكونوا أبرارا وتدخلوا في زمرة الابرار ومن قال ان لفظ البر هو الجنة فقال معنى الآية لن تنالوا ثواب البر المؤدي الى الجنة (حتى تنفقوا مما تحبون) يعني من جيد أموالكم وأنفسها عندكم قال الله تعالى ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون وقيل هو أن تنفق من مالك ما أنت محتاج اليه قال الله تعالى ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (ق) عن أبي هريرة قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فقال يا رسول الله أي الصدقة أفضل قال ان تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ٧ ولا تمهل حتى اذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا الا وقد كان واختلفوا في هذا الانفاق فقال ابن عباس هو الزكاة المفروضة والمعنى لن تنالوا البر حتى تخرجوا زكاة أموالكم فعلى هذا القول قيل ان الآية منسوخة بآية الزكاة وفيه بعد لانه رغب في اخراج الزكاة وقال ابن عمر المراد بها سائر الصدقات وقال الحسن كل شئ أنفقه المسلم من ماله مما يبتغي به وجه الله ويطلب ثوابه حتى التمرة فانه يدخل في قوله لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون (ق) عن أنس بن مالك قال كان أبو طلحة أكثر الانصار بالمدينة مالا وكان أحب أمواله اليه بيرحا وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب قال أنس فلما نزلت هذه الآية لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون قام أبو طلحة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ان الله تعالى يقول في كتابه لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وان أحب أموالي الي بيرحا وانها صدقة لله عز وجل أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث شئت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بخ بخ ذلك مال رابح أو قال ذلك مال رايح أرى ان تجعلها في الاقربين فقال أبو طلحة أفعل يا رسول الله فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه قوله بخ بخ هي كلمة تقال عند المدح والرضا وتكرير ها للمبالغة وهي مبنية على السكون فاذا وصلت جرت ونونت فقلت بخ بخ قوله مال رابح أي ذو ربح وفي الرواية الاخرى ذلك مال رايح بالياء معناه يروح عليك نفعه وثوابه وبيرحا اسم موضع بالمدينة وهو حائط كان لابي طلحة وروي عن مجاهد قال كتب عمر بن الخطاب الى أبي موسى الاشعري ان يبتاع له جارية من سبي جلولاء يوم فتحت فلما جاءت أعجبته فقال عمر ان الله عز وجل يقول لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون فاعتقها عمر وعن حمزة بن عبد الله بن عمر أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما خطرت على قلبه هذه الآية لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون قال عبد الله فذكرت ما أعطاني الله تعالى فما كان شئ أحب الي من فلانة فقلت هي حرة لوجه الله تعالى قال ولولا اني لا أعود في شئ جعلته لله لنكحتها وعن عمرو بن دينار قال لما نزلت هذه الآية لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون جاء زيد بن حارثة بفرس يقال لها سبل كان يحبها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تصدق بهذه يا رسول الله فاعطاها رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد بن حارثة فقال يا رسول الله انما أردت أن أتصدق بها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبلت صدقتك وفي رواية كأن زيدا وجد في نفسه فلما رأى ذلك منه النبي صلى الله عليه وسلم قال أما ان الله قد قبلها وروي ان أبا ذر نزل به ضيف فقال للراعي ائتني بخير ابلي فجاء بناقة مهزولة فقال للراعي خنتني فقال الراعي وجدت خير الابل فحلها فذكرت يوم حاجتكم اليه فقال ان يوم حاجتي اليه ليوم أوضع في حفرتي وقوله تعالى (وما تنفقوا من شئ) يعني من أي شئ كان من طيب تحبونه أو من خبيث تكرهونه (فان الله به عليم) أي يعلمه ويجازيكم به ﴿قوله عز وجل (كل الطعام كان حلا لبني اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على

تنالوا برى بكم الا ببركم باخوانكم والخاص انه لا وصول لي المطلوب الا باخراج المحبوب وعن عمر بن عبد العزيز انه كان يشتري اعدال السكر ويتصدق بها فقيل له لم لا تتصدق بثمنها قال لان السكر أحب الي فاردت أن أنفق مما أحب (وما تنفقوا من شئ فان الله به عليم) أي هو عليم بكل شئ تنفقونه فيجازيكم بحسبه ومن الاولى للتبعيض لقراءة عبد الله حتى تنفقوا بعض ما تحبون والثانية للتبيين أي من أي شئ كان الانفاق طيب تحبونه أو خبيث تكرهونه ولما قالت اليهود للنبي عليه السلام انك تدعي انك على ملة ابراهيم وأنت تأكل لحوم الابل وألبانها فقال عليه السلام كان ذلك حلالا لابراهيم فنحن نحله فقالت اليهود انها لم تزل محرمة في ملة ابراهيم ونوح عليهما السلام نزل تكذيبا لهم (كل الطعام) أي المطعومات التي فيها النزاع فان منها ما هو حرام قبل ذلك كالميتة والدم (كان حلا لبني اسرائيل) أي حلالا وهو مصدر يقال حل الشئ حلا ولذا استوى في صفة المذكور المؤنث والواحد والجمع قال الله تعالى لا هن حل لهم (الا ما حرم اسرائيل) أي يعقوب (على نفسه

٧ قوله ولا تمهل في بعض النسخ ولا تهمل وقوله بعد الا وقد كان ليس آخر الحديث فانه مذكور في غير هذا المحل وقد كان لفلان كذا اهـ مصححه

نفسه من قبل أن تنزل التوراة) سبب نزول هذه الآية ان اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم انك تزعم انك على ملة ابراهيم وكان ابراهيم لا يأكل لحوم الابل والبانها وأنت تأكل ذلك كله فلست على ملته فقال النبي صلى الله عليه وسلم كان ذلك حلالا لابراهيم قالوا كل ماتحرمه اليوم كان ذلك حراما على نوح وابراهيم حتى انتهى الينا فأنزل الله عز وجل كل الطعام كان حلا لبني اسرائيل الا ماحرم اسرائيل على نفسه وهو يعقوب من قبل أن تنزل التوراة يعني ليس الامر على ماتدعيه اليهود من تحريم لحوم الابل على ابراهيم بل كان ذلك حلالا على ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب وانما حرمه يعقوب بسبب من الاسباب وبقيت تلك الحرمة في أولاده فانكر اليهود ذلك فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم باحضار التوراة وطلب منهم ان يستخرجوا منها ان ذلك كان حراما على ابراهيم فعجزوا عن ذلك وافتضحوا وبان كذبهم فيما ادعوا من حرمة هذه الاشياء على ابراهيم وقيل ان اليهود أنكروا شرع محمد صلى الله عليه وسلم وادعوا ان النسخ غير جائز فابطل الله ذلك عليهم وأخبر أن كل الطعام كان حلا لبني اسرائيل الا ماحرم اسرائيل على نفسه فذلك الذي حرمه على نفسه كان حلالا ثم صار حراما عليه وعلى أولاده فقد حصل النسخ وبطل قول اليهود بان النسخ غير جائز فانكرت اليهود ذلك وقالوا بل كان ذلك حراما من زمن آدم الى هذا الوقت فالزمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم باحضار التوراة وقال ان التوراة ناطقة بان بعض أنواع الطعام انما حرم بسبب ان اسرائيل حرمه على نفسه فخاف اليهود من الفضيحة وامتنعوا من احضار التوراة فحصل بذلك كذبهم وانهم ينسبون الى التوراة ماليس فيها وبطل قولهم بان النسخ غير جائز وفي هذا دليل على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وذلك انه صلى الله عليه وسلم كان رجلا أميا لم يقرأ الكتب ولم يعرف مافي التوراة فلما أخبر أن ذلك ليس في التوراة علم ان الذي أخبر به صلى الله عليه وسلم وحي من الله تعالى وقوله كل الطعام يعني كل أنواع الطعام أو سائر المطعومات كان حلا أي حلالا لبني اسرائيل الا ماحرم اسرائيل على نفسه اسرائيل هو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام واختلفوا في الذي حرم يعقوب على نفسه فقيل حرم لحوم الابل وألبانها وروى الطبري بسنده عن ابن عباس ان عصابة من اليهود حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا أبا القاسم أخبرنا أي الطعام حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن اسرائيل يعقوب مرض مرضا شديدا فطال سقمه منه فنذر لله نذرا لئن عافاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب اليه وكان أحب الطعام اليه لحم الابل وأحب الشراب اليه ألبانها فقالوا اللهم نعم وقال ابن عباس هي العروق وكان سبب ذلك انه اشتكى عرق النسا وكان أصل وجعه فيما روي عن الضحاك أن يعقوب كان نذر لئن وهب الله له اثني عشر ولدا وأتى بيت المقدس صحيحا أن يذبح أحدهم وفي رواية آخرهم فتلقاه ملك من الملائكة وقال يا يعقوب انك رجل قوي فهل لك في الصراع فعالجه فلم يصرع أحدهما صاحبه فغمزه الملك غمزة فعرض له عرق النسا من ذلك ثم قال أما اني لو شئت أن أصرعك لفعلت ولكن غمزتك هذه الغمزة لانك قد نذرت ان أتيت بيت المقدس صحيحا ذبحت آخر ولدك فجعل الله لك بهذه الغمزة من ذلك مخرجا فلما قدم يعقوب بيت المقدس أراد ذبح ولده ونسي ماقال له الملك فأتاه الملك وقال له انما غمزتك للمخرج وقد وفي نذرك فلا سبيل لك الى ذبح ولدك وقال ابن عباس في آخرين أقبل يعقوب من حران يريد بيت المقدس حين هرب من أخيه العيص وكان يعقوب رجلا بطشا قويا فلقيه ملك في صورة رجل فظن يعقوب انه لص فعالجه أن يصرعه فغمز الملك فخذ يعقوب وصعد الى السماء ويعقوب ينظر فهاج به عرق النسا ولقي منه شدة فكان لاينام الليل من الوجع ويبيت وله زقاء أي صياح فحلف يعقوب لئن شفاه الله أن لايأكل عرقا ولا طعاما فيه عرق فحرمه على نفسه فكان بنوه بعد ذلك يتبعون العروق ويخرجونها من اللحم ولا يأكلونها وقيل لما أصاب يعقوب ذلك

نفسه من قبل أن تنزل التوراة) وبالتخفيف مكي وبصري وهو لحوم الابل وألبانها وكانا أحب الطعام اليه والمعنى ان المطاعم كلها لم تزل حلالا لبني اسرائيل من قبل انزال التوراة سوى ماحرم اسرائيل على نفسه فلما نزلت التوراة على موسى حرم عليهم فيها لحوم الابل وألبانها لتحريم اسرائيل ذلك على نفسه

(قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين) أمر بان يحاجهم بكتابهم و يبكتهم بما هو ناطق به من ان تحريم ما حرم عليهم تحريم حادث بسبب ظلمهم و بغيهم لا تحريم قديم كما يدعونه فلم يجرؤا على اخراج التوراة و بهتوا وفيه دليل بين على صدق النبي عليه السلام وعلى جواز النسخ الذي ينكرونه (فمن افترى على الله الكذب) بزعمه ان ذلك كان محرما في ملة ابراهيم ونوح عليهما السلام (من بعد ذلك) من بعد ما لزمهم من الحجة القاطعة (فاولئك هم الظالمون) المكابرون الذين لا ينصفون من أنفسهم ولا يلتفتون الى البينات (قل صدق الله) في اخباره انه لم يحرم وفيه تعريض بكذبهم أي ثبت ان الله تعالى صادق فيما أنزل وأنتم الكاذبون (فاتبعوا ملة ابراهيم) وهي ملة الاسلام التي عليها محمد عليه السلام ومن آمن معه حتى تتخلصوا من اليهودية التي ورطتكم في فساد دينكم ودنياكم حيث اضطرتكم الى تحريف كتاب الله لتسوية أغراضكم وألزمتكم تحريم الطيبات التي أحلها الله لابراهيم ولمن تبعه (حنيفا) حال من ابراهيم أي مائلا عن الاديان الباطلة (وما كان من المشركين) ولما قالت اليهود للمسلمين قبلتنا قبل قبلتكم نزل (ان أول بيت وضع للناس) والواضع هو الله عز وجل ومعنى وضع الله بيتا للناس أنه جعله متعبدا لهم فكأنه قال ان أول متعبد للناس الكعبة وفي الحديث ان المسجد الحرام وضع قبل بيت المقدس بأربعين سنة وقيل أول من بناه ابراهيم وقيل هو أول بيت حج بعد الطوفان وقيل هو أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق السماء والارض وقيل هو أول بيت بناه آدم عليه السلام في الارض وقوله وضع للناس في موضع جر صفة لبيت والخبر (للذي ببكة) أي للبيت الذي ببكة وهي علم للبلد الحرام ومكة وبكة لغتان فيه وقيل بكة موضع المسجد وقيل اشتقاقها من بكه اذا زحمه لازدحام الناس فيها

فاتبعوا

وصف له الاطباء ان يجتنب لحوم الابل فحرمها يعقوب على نفسه وقيل انما حرم يعقوب لحوم الجزور تعبدا لله تعالى وسأل ربه أن يجيز ذلك فحرمه الله على ولده وهو ظاهر الآية لان الله تعالى قال كل الطعام كان حلا لبني اسرائيل ثم استثنى ما حرم اسرائيل على نفسه فوجب بحكم الاستثناء أن يكون ذلك حراما على بني اسرائيل أما قوله من قبل أن تنزل التوراة فمعناه ان قبل انزال التوراة كان كل أنواع الطعام حلالا لبني اسرائيل سوى ما حرمه اسرائيل على نفسه أما بعد نزول التوراة فقد حرم الله تعالى عليهم أشياء كثيرة من أنواع الطعام ثم اختلفوا في حال هذا الطعام المحرم على بني اسرائيل بعد نزول التوراة فقال السدي حرم الله عليهم في التوراة ما كانوا حرموه على أنفسهم قبل نزولها وقال عطية انما كان حراما عليهم بتحريم اسرائيل فانه قال ان عافاني الله تعالى لا يأكله ولدي ولم يكن ذلك محرما عليهم في التوراة وقال الكلبي لم يحرمه الله في التوراة وانما حرم عليهم بعد نزول التوراة لظلمهم كما قال تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وقال تعالى وعلى الذين هادوا حرمنا الى أن قال ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون فكانت بنو اسرائيل اذا أصابوا ذنبا عظيما حرم الله عليهم طعاما طيبا أو صب عليهم رجزا وهو الموت وقال الضحاك لم يكن شيء من ذلك حراما عليهم ولا حرمه الله في التوراة وانما حرموه على أنفسهم اتباعا لابيهم ثم أضافوا تحريمه الى الله عز وجل فكذبهم الله تعالى فقال الله تعالى (قل فأتوا بالتوراة) يعني قل لهم يا محمد فأتوا بالتوراة (فاتلوها) أي فاقرؤها وما فيها حتى يتبين أن الامر كما قلتم (ان كنتم صادقين) يعني فيما ادعيتم فلم يأتوا بها وخافوا الفضيحة فقال تعالى (فمن افترى على الله الكذب) الافتراء اختلاق الكذب والافتراء الكذب والقذف والافساد وأصله من فري الاديم اذا قطعه لان الكاذب يقطع القول من غير حقيقة له في الوجود (من بعد ذلك) أي من بعد ظهور الحجة بان التحريم انما كان من جهة يعقوب ولم يكن محرما قبله (فأولئك هم الظالمون) أي هم المستحقون للعذاب لان كفرهم ظلم منهم لانفسهم ولمن أضلوه عن الدين من بعدهم وهذا رد على اليهود وتكذيب لهم حيث أرادوا براءة ساحتهم فيما نعى عليهم مما نطق به القرآن من تعديد مساويهم التي كانوا يرتكبونها (قل صدق الله) يعني قل صدق الله يا محمد فيما أخبر ان ذلك النوع من الطعام صار حراما على اسرائيل وأولاده بعد ان كان حلالا لهم فصح القول بالنسخ و بطل قول اليهود وقيل معناه صدق الله في قوله ان لحوم الابل وألبانها كانت محللة لابراهيم عليه السلام وانما حرمت على بني اسرائيل بسبب تحريمها اسرائيل على نفسه وقيل صدق الله في ان سائر الاطعمة كانت محللة على بني اسرائيل وانما حرمت على اليهود جزاء على قبائح أفعالهم ففيه تعريض بكذب اليهود والمعنى ثبت ان الله تعالى صادق فيما أنزل وأخبر وأنتم كاذبون يا معشر اليهود (فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا) أي اتبعوا ما يدعوكم اليه محمد صلى الله عليه وسلم من ملة ابراهيم وهي الاسلام وهو الدين الصحيح وهو الذي عليه محمد ومن آمن معه وانما دعاهم الى ملة ابراهيم لانها ملة محمد صلى الله عليه وسلم (وما كان من المشركين) أي لم يدع مع الله الها آخر ولا عبد سواه ﴿ قوله عز وجل (ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة) سبب نزول هذه الآية ان اليهود قالوا للمسلمين بيت المقدس قبلتنا وهو أفضل من الكعبة وأقدم وهو مهاجر الانبياء وقبلتهم وأرض المحشر وقال المسلمون بل الكعبة أفضل فانزل الله هذه الآية وقيل لما ادعت اليهود والنصارى انهم على ملة ابراهيم أكذبهم الله تعالى وأخبر ان ابراهيم كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين وأمرهم باتباعه فقال تعالى في الآية المتقدمة

فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وكان من أعظم شعائر ملة ابراهيم الحج الى الكعبة ذكر في هذه الآية فضيلة البيت ليفرع عليها ايجاب الحج وقوله ان أول بيت وضع للناس الاول هو الفرد السابق المتقدم على ما سواه وقيل هو اسم للشئ الذي يوجد ابتداء سواء حصل عقيبه شئ آخر أولم يحصل والمعنى ان أول بيت وضع للناس أي وضعه الله موضعا للطاعات والعبادات وقبلة للصلاة وموضعا للحج وللطواف تزداد فيه الخيرات وثواب الطاعات وكونه وضع للناس يعني يشترك فيه جميع الناس كما قال تعالى سواء العاكف فيه والباد فان قلت كيف أضافه الى نفسه مرة في قوله وطهر بيتي وأضافه للناس أخرى بقوله وضع للناس قلت اما اضافته الى نفسه فعلى سبيل التشريف والتعظيم له كقوله ناقة الله وأما اضافته الى الناس فلانه يشترك فيه جميع الناس لانه موضع حجهم وقبلة صلاتهم للذي ببكة قيل هي مكة نفسها والعرب تعاقب بين الباء والميم فيقولون ضربة لازب ولازم وقيل بكة اسم لموضع البيت ومكة اسم للبلد وفي اشتقاق بكة وجهان أحدهما انه من البك الذي هو عبارة عن الدفع يقال بكه يبكه اذا دفعه وزاحمه ولهذا قال سعيد بن جبير سميت بكة لان الناس يتباكون فيها أي يزدحمون في الطواف وهو قول محمد بن علي الباقر ومجاهد وقتادة الوجه الثاني سميت بكة لانها تبك أعناق الجبابرة أي تدقها لم يقصدها جبار بسوء الا قصمه الله تعالى وهذا قول عبد الله بن الزبير وأما مكة فسميت بذلك لقلة مائها من قول العرب مك الفصيل ضرع أمه وامتكه اذا مص كل ما فيه من اللبن وقيل لانها تمك الذنوب أي تزيلها وسميت مكة أم رحم لان الرحمة تنزل بها والحاطمة لانها تحطم من استخف بحرمتها أو لان الناس يحطم بعضهم بعضا من الزحمة وسميت أم القرى لانها أصل كل بلدة ومن تحتها دحيت الارض واختلف العلماء في كون البيت أول بيت وضع للناس على قولين أحدهما انه أول في الوضع والبناء قال مجاهد خلق الله هذا البيت قبل أن يخلق شيأ من الارضين وفي رواية عنه أن الله خلق موضع البيت قبل أن يخلق شيأ من الارض بالفي عام وقيل هو أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق السموات والارض خلقه قبل الارض بالفي عام وكان زبدة بيضاء على وجه الماء فدحيت الارض من تحته وهذا قول ابن عمر ومجاهد وقتادة والسدي وقيل هو أول بيت بني على الارض وروى عن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم ان الله تعالى وضع تحت العرش بيتا وهو البيت المعمور وأمر الملائكة أن يطوفوا به ثم أمر الملائكة الذين في الارض أن يبنوا بيتا في الارض على مثاله وقدره فبنوا هذا البيت ٣ واسمه الضراح وأمر من في الارض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور وروى أن الملائكة بنوه قبل خلق آدم بالفي عام وكانوا يحجونه فلما حج آدم قالت له الملائكة برحجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بالفي عام وقال ابن عباس هو أول بيت بناه آدم في الارض قيل ان آدم لما أهبط الى الارض استوحش وشكا الوحشة فامره الله تعالى ببناء الكعبة فبناها وطاف بها وبقي ذلك البناء الى زمان نوح عليه السلام فلما كان الطوفان رفع الله البيت الى السماء وبقي موضع البيت أكمة بيضاء الى أن بعث الله ابراهيم عليه السلام فامره ببنائه القول الثاني أن المراد من الاولية كون هذا أول بيت وضع للناس مباركا ويدل عليه سياق الآية وهو قوله تعالى للذي ببكة مباركا وروى أن رجلا قام الى علي بن أبي طالب فقال ألا تخبرني عن البيت أهو أول بيت وضع في الارض قال لا قد كان قبله بيوت ولكنه أول بيت وضع للناس مباركا وهدى وفيه مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا وقال الحسن هو أول مسجد عبد الله فيه وقال مطرف هو أول بيت وضع للعبادة وقال الضحاك هو أول بيت وضع فيه البركة وأول بيت وضع للناس يحج اليه وأول بيت جعل قبلة للناس (ق) عن أبي ذر قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع في الارض قال المسجد الحرام قلت ثم أي قال المسجد الاقصى قلت كم بينهما قال أربعون عاما ثم الارض لك مسجد فحيثما أدركت الصلاة فصل زاد البخاري فان الفضل فيه وقوله (مباركا) يعني ذا بركة وأصل البركة النمو والزيادة وقيل هو ثبوت الخير

أو لانها تبك أعناق الجبابرة أي تدقها لم يقصدها جبار الا قصمه الله (مباركا) كثير الخير لما يحصل للحجاج والمعتمرين من الثواب وتكفير السيآت

٣ قوله واسمه الضراح الذي في القاموس ان الضراح البيت المعمور في السماء الرابعة اهـ مصححه

(وهدى للعالمين) لانه قبلتهم ومتعبدهم ومباركا وهدى حالان من الضمير في وضع (فيه آيات بينات) علامات واضحات لا تلتبس على أحد (مقام ابراهيم) عطف بيان لقوله آيات بينات وصح بيان الجماعة بالواحد لانه وحده بمنزلة آيات كثيرة لظهور شأنه وقوة دلالته على قدرة الله تعالى ونبوة ابراهيم عليه السلام من تأثير قدمه في حجر صلد أولا شتماله على آيات لان أثر القدم في الصخرة الصماء آية وغوصه فيها الى الكعبين آية والانه بعض الصخرة دون بعض آية وابقاءه دون سائر آيات الانبياء عليهم السلام آية لابراهيم خاصة على أن (ومن دخله كان آمنا) عطف بيان لآيات وان كان جملة ابتدائية أو شرطية من حيث المعنى لانه يدل على أمن داخله فكأنه قيل فيه آيات بينات مقام ابراهيم وأمن داخله والاثنان في معنى الجمع ويجوز أن يذكر هاتان الآيتان ويطوى ذكر غيرهما دلالة على تكاثر الآيات كأنه قيل فيه آيات بينات مقام ابراهيم وأمن داخله وكثير سواهما نحو انمحاق الاحجار مع كثرة الرماة وامتناع الطير من العلو عليه وغير ذلك ونحوه في طي الذكر قوله عليه السلام حبب الى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وقرة عيني في الصلاة فقرة عيني ليس من الثلاث بل هو ابتداء كلام لانها ليست من الدنيا والثالث مطوى وكأنه عليه السلام ترك ذكر الثالث تنبيها على أنه لم يكن من شأنه أن يذكر شيأ من الدنيا فذكر شيأ هو من الدين وقيل في سبب هذا الاثر أنه لما ارتفع بنيان الكعبة وضعف ابراهيم عليه السلام عن رفع الحجارة قام على هذا الحجر فغاصت فيه قدماه وقيل انه جاء زائرا من الشام الى مكة فقالت له امرأة اسمعيل عليه السلام انزل حتى تغسل رأسك فلم ينزل فجاءته بهذا الحجر فوضعته على شقه الايمن فوضع قدمه عليه حتى غسلت شق رأسه ثم حولته الى شقه الايسر حتى غسلت الشق الآخر فبقي أثر قدميه عليه وأمان من دخله بدعوة ابراهيم عليه السلام رب اجعل هذا البلد آمنا وكان الرجل لو جنى كل جناية ثم التجأ الى الحرم لم يطلب وعن عمر رضي الله عنه لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه ومن لزمه القتل في الحل بقود أو ردة أو زنا فالتجأ الى الحرم لم يتعرض له الا انه لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى ولا يبايع حتى يضطر الى الخروج وقيل أمنا من النار لقوله عليه السلام من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمنا من النار وعنه عليه السلام الحجون والبقيع يؤخذ باطرافهما وينثران في الجنة وهما مقبرتا مكة والمدينة وعنه عليه السلام من صبر على حر مكة ساعة من نهار تباعدت

الالهي فيه وقيل هو أول بيت خص بالبركة وزيادة الخير وقيل لان الطاعات وسائر العبادات تتضاعف ويزداد ثوابها عنده (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد الا المسجد الحرام (وهدى للعالمين) يعني انه قبلة للمؤمنين يهتدون به الى جهة صلاتهم وقيل لان فيه دلالة على وجود الصانع المختار لما فيه من الآيات التي لا يقدر عليها غيره وقيل هو هدى للعالمين الى الجنة لان من قصده بان صلى اليه أو حجه فقد أوجب الله تعالى له الجنة برحمته ۞ قوله تعالى (فيه آيات بينات) أي فيه دلالات واضحات على حرمته ومزيد فضله ثم اختلفوا في تفسير تلك الآيات فقيل هي قوله مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا وقيل الآيات غير مذكورة وهي ما يدل على فضل هذا البيت منها ان الطير لا يطير فوق الكعبة في الهواء بل ينحرف عنها اذا وصل اليها يمينا وشمالا ومنها ان الوحوش لا تؤذي بعضها في الحرم حتى الكلاب لا تهيج الظباء ولا تصطادها ومنها ان الطير اذا مرض منه شيء استشفى بالكعبة ومنها تعجيل العقوبة لمن انتهك حرمة البيت وما قصده جبار بسوء الا أهلكه الله كما أهلك أصحاب الفيل وغيرهم ومن الآيات التي فيه الحجر الاسود والملتزم والحطيم وزمزم ومشاعر الحج التي فيه كلها من الآيات ومنها أن الآمر ببناء هذا البيت هو الجليل والمهندس له جبريل والباني هو ابراهيم الخليل والمساعد في بنيانه هو اسمعيل فهذه فضيلة عظيمة لهذا البيت ۞ قوله تعالى (مقام ابراهيم) يعني الحجر الذي كان يقوم عليه عند بناء البيت وكان فيه أثر قدمي ابراهيم فاندرس من كثرة المسح بالايدي (ومن دخله كان آمنا) قيل لما كانت الآيات المذكورة عقيب قوله ان أول بيت وضع للناس موجودة في جميع الحرم علم أن المراد بقوله ومن دخله كان آمنا جميع الحرم ويدل عليه أيضا دعوة ابراهيم حيث قال رب اجعل هذا البلد آمنا يعني من أن يهاج فيه وكانت العرب يقتل بعضهم بعضا ويغير بعضهم على بعض وكان من دخل الحرم أمن من القتل والغارة وهو المراد من حكم الآية على قول أكثر المفسرين قال الله تعالى أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم وقيل في معنى الآية ومن دخله عام عمرة القضاء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كان آمنا وقيل هو خبر بمعنى الامر تقديره ومن دخله فأمنوه وهو قول ابن عباس حتى ذهب أبو حنيفة الى أن من وجب عليه القتل قصاصا كان أو حدا فالتجأ الى الحرم فانه لا يستوفى منه القصاص أو الحد في الحرم لكنه لا يطعم ولا يبايع ولا يشارى ولا يكلم ويضيق عليه حتى يخرج من الحرم فيقام عليه الحد خارج الحرم وقال الشافعي اذا وجب عليه القصاص خارج الحرم ثم لجأ الى الحرم استوفى منه في الحرم وأجمعوا على أنه لو قتل في الحرم أو سرق أو زنى فانه يستوفى منه الحد في الحرم عقوبة له وقيل في معنى الآية ومن دخله معظما له متقربا بذلك الى الله تعالى كان آمنا من العذاب يوم القيامة وقيل ومن دخله كان آمنا من الذنوب

التي

التي اكتسبها قبل ذلك ﴿ قوله عز وجل (ولله على الناس حج البيت) أي ولله على الناس فرض حج البيت والحج أحد أركان الاسلام (ق) عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بني الاسلام على خمس شهادة أن لا اله الا الله وان محمدا رسول الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة والحج وصوم رمضان فعد النبي صلى الله عليه وسلم الحج من أركان الاسلام الخمسة (من استطاع اليه سبيلا) يعني وفرض الحج واجب على من استطاع من أهل التكليف ووجد السبيل الى حج البيت الحرام

(فصل) في فضل البيت والحج والعمرة (ق) عن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أول بيت وضع للناس مباركا يصلي فيه الكعبة قلت ثم أي قال المسجد الاقصى قلت كم بينهما قال أربعون عاما عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل الحجر الاسود من الجنة وهو أشد بياضا من اللبن وانما سودته خطايا بني آدم أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحجر والله ليبعثنه الله يوم القيامة وله عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهد على من استلمه بحق وله عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما ولو لم يطمس نورهما لاضاءتا ما بين المشرق والمغرب قال الترمذي وهذا يروى عن ابن عمر موقوفا (ق) عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجد الرسول والمسجد الاقصى (ق) عن أبي سعيد الخدري ان النبي عليه السلام قال لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الاقصى (م) عن أبي هريرة قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا فقال له رجل في كل عام يا رسول الله فسكت حتى قالها ثلاثا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم عن ابن عمر قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ما يوجب الحج قال الزاد والراحلة أخرجه الترمذي وقال حديث حسن وابراهيم بن يزيد الجوزي المكي قد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العمرة الى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء الا الجنة وفي رواية سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من حج لله عز وجل وفي لفظ من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه أخرجه الترمذي وقال غفر له ما تقدم من ذنبه وعن ابن مسعود ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تابعوا بين الحج والعمرة فانهما ينفيان الذنوب والفقر كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة وليس لحجة مبرورة ثواب الا الجنة ومامن مؤمن يظل يومه محرما الا غابت الشمس بذنوبه أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وله عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامن مسلم يلبي الا لبى ما عن يمينه وشماله من حجر أو شجر أو مدر حتى تنقطع الارض من ههنا وههنا وقال الترمذي هذا حديث غريب وله عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من طاف بالبيت خمسين مرة خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه قال الترمذي هذا حديث غريب

﴿فصل﴾ في أحكام تتعلق بالحج قال العلماء الحج واجب على كل مسلم وهو أحد أركان الاسلام الخمسة ولوجوب الحج خمس شرائط الاسلام والبلوغ والعقل والحرية والاستطاعة ولا يجب على الكافر والمجنون ولو حجا لم يصح لان الكافر ليس من أهل القربة ولا حكم لقول المجنون ولا يجب على الصبي والعبد ولو حج صبي يعقل أو حج عبد صح حجهما تطوعا ولا يسقط الفرض فاذا بلغ الصبي وعتق العبد واجتمع فيهما شرائط الحج وجب عليهما ان يحجا ثانيا ولا يجب على غير المستطيع لقوله تعالى ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا فلو تكلف غير المستطيع الحج وحج صح حجه وسقط عنه فرض حجة الاسلام والاستطاعة نوعان أحدهما أن يكون مستطيعا بنفسه والآخر أن يكون مستطيعا بغيره فاما المستطيع

منه جهنم مسيرة مائتي عام (ولله على الناس حج البيت) أي استقر له عليهم فرض الحج حج البيت كوفي غير أبي بكر وهو اسم وبالفتح مصدر وقيل هما لغتان في مصدر حج (من) في موضع جر على أنه بدل البعض من الكل (استطاع اليه سبيلا) فسرها النبي عليه السلام بالزاد والراحلة والضمير في اليه للبيت أو للحج وكل ما أتى الى الشيء فهو سبيل اليه ولما نزل قوله تعالى ولله على الناس حج البيت جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الاديان كلهم فخطبهم فقال ان الله تعالى كتب عليكم الحج فحجوا فآمنت به ملة واحدة وهم المسلمون وكفرت به خمس ملل قالوا لا نؤمن به ولا نصلي اليه ولا نحجه فنزل

بنفسه فهو أن يكون قويا قادرا على الذهاب ووجد الزاد والراحلة لما تقدم من حديث ابن عمر فى الزاد والراحلة قال ابن المنذر وحديث الزاد والراحلة لا يثبت لانه ليس بمتصل وان المرفوع مارواه ابراهيم بن يزيد عن محمد بن عباد عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم وابراهيم متروك الحديث قال يحيى بن معين ابراهيم ليس بثقة قال ابن المنذر واختلف العلماء فى قوله تعالى من استطاع اليه سبيلا فقالت طائفة الآية على العموم اذ لا نعلم خبرا ثابتا عن النبى صلى الله عليه وسلم ولا اجماعا لاهل العلم يوجب ان نستثنى من ظاهر الآية بعضا فعلى كل مستطيع للحج يجد اليه السبيل باى وجه كانت الاستطاعة الحج على ظاهر الآية قال وروينا عن عكرمة انه قال الاستطاعة الصحة وقال الضحاك اذا كان شابا صحيحا فليؤجر نفسه بأكله وعقبه حتى يقضى نسكه وقال مالك الاستطاعة على اطاقة الناس الرجل يجد الزاد والراحلة ولا يقدر على المشى وآخر يقدر على المشى على رجليه وقالت طائفة الاستطاعة لزاد والراحلة كذلك قال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وأحمد بن حنبل واحتجوا بحديث ابن عمر المتقدم وقال الشافعى الاستطاعة وجهان أحدهما أن يكون الرجل مستطيعا ببدنه واجدا من ماله مايبلغه الحج فتكون استطاعته تامة فعليه فرض الحج والثانى لا يقدر ان يثبت على الراحلة وهو قادر على من يطيعه اذا أمره أن يحج عنه أو قادر على مال ويجد من يستأجره فيحج عنه فيكون هذا ممن لزمه فرض الحج أما حكم لزاد والراحلة فهو ان يجد راحلة تصلح له ووجد من الزاد مايكفيه لذهابه ورجوعه فاضلا عن نفقته ونفقة من تلزمه نفقتهم وكسوتهم وعن دين ان كان عليه ووجد رفقة يخرجون فى وقت جرت العادة بخروج أهل البلد فى ذلك الوقت فان خرجوا قبله أو أخروا الخروج الى وقت لا يصلون الا بقطع أكثر من مرحلة لا يلزمه الخروج معهم ويشترط ان يكون الطريق أمنا فان كان فيه خوف من عدو مسلم أو كافر أو رصدى طلب الخفارة لا يلزمه ويشترط أن تكون منازل الماء مأهولة معمورة يجد فيها ماجرت العادة بوجوده من الماء والزاد فان تفرق أهلها الجدب أو غارت مياهها فلا يلزمه الخروج ولو لم يجد الراحلة وهو قادر على المشى أو لم يجد الزاد وهو قادر على الاكتساب لا يلزمه الحج عنه من جعل وجدان الزاد والراحلة شرطا لوجوب الحج ويستحب له أن يفعل ذلك ويلزمه الحج عند مالك وأما المستطيع بغيره فهو ان يكون الرجل عاجزا بنفسه بان كان زمنا أو به مرض لا يرجى برؤه وله مال يمكنه ان يستأجر من يحج عنه فيجب عليه أن يستأجر من يحج عنه وان لم يكن له مال وبذل له ولده أو أجنبى الطاعة فى ان يحج عنه لزمه الحج ان كان يعتمد على صدقه لان وجوب الحج متعلق بالاستطاعة وعند أبى حنيفة لا يجب الحج ببذل الطاعة وعند مالك لا يجب على من غصب ماله وحجة من أوجب الحج ببذل الطاعة مارُوى عن ابن عباس قال كان الفضل بن عباس رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءته امرأة من خثعم تستفتيه فجعل الفضل ينظر اليها وتنظر اليه فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصرف وجه الفضل الى الشق الآخر قالت يارسول الله ان فريضة الله على عباده فى الحج أدركت أبى شيخا كبيرا لا يستطيع ان يثبت على الراحلة أفأحج عنه قال نعم وذلك فى حجة الوداع أخرجه فى الصحيحين ۞ قوله تعالى (ومن كفر فان الله غنى عن العالمين) يعنى ومن جحد ما ألزمه الله من فرض حج بيته وكفر به فان الله غنى عنه وعن حجه وعمله وعن جميع خلقه وقيل نزلت فيمن وجد مايحج ثم مات ولم يحج فهو كفر به لما رُوى عن على بن أبى طالب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ملك زادا وراحلة تبلغه الى بيت الله ولم يحج فلا عليه ان يموت يهوديا أو نصرانيا وذلك ان الله تعالى يقول ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا أخرجه الترمذى وقال هذا حديث حسن غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه وفى اسناده مقال وهلال بن عبد الله مجهول والحرث يضعف فى الحديث وقيل هو الذى ان حج لم يره برا وان قعد لم يره اثما وقيل نزلت فى اليهود وغيرهم من أصحاب الملل حيث قالوا انا مسلمون فنزلت ولله على الناس حج البيت فلم يحجوا وقالوا الحج الى مكة غير واجب وكفروا به

(ومن كفر) أى جحد فرضية الحج وهو قول ابن عباس والحسن وعطاء ويجوز أن يكون من الكفران أى ومن لم يشكر ما أنعمت عليه من صحة الجسم وسعة الرزق ولم يحج (فان الله غنى عن العالمين) مستغن عنهم وعن طاعتهم وفى هذه الآية أنواع من التأكيد والتشديد منها اللام وعلى أى انه حق واجب لله فى رقاب الناس ومنها الابدال ففيه تثنية للمراد وتكريره ولان الايضاح بعد الابهام والتفصيل بعد الاجمال ايراد له فى صورتين مختلفتين ومنها قوله ومن كفر مكان ومن لم يحج تغليظا على تارك الحج ومنها ذكر الاستغناء وذلك دليل على المقت والسخط ومنها قوله عن العالمين وان لم يقل عنه وما فيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان لانه اذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لامحالة ولانه يدل على الاستغناء الكامل فكان أدل على عظم السخط الذى وقع عبارة عنه

فنزلت

فنزلت ومن كفر فان الله غني عن العالمين فعلى هذه الاقوال تكون هذه الآية متعلقة بما قبلها وقيل انه كلام مستأنف ومعناه ومن كفر بالله واليوم الآخر فان الله غني عن العالمين ۞ قوله عز وجل (قل يا أهل الكتاب) قيل الخطاب لعلماء أهل الكتاب الذين علموا صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل الخطاب لجميع أهل الكتاب اليهود والنصارى الذين أنكروا نبوته (لم تكفرون بآيات الله) يعني الآيات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وانه حق وصدق ومعنى لم تكفرون بآيات الله التي دلتكم على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل المراد بآيات الله القرآن ومحمد صلى الله عليه وسلم (والله شهيد على ما تعملون) أي والله شهيد على أعمالكم فيجازيكم عليها (قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن) يعني لم تصرفون عن دين الله من آمن وكان صدهم عن سبيل الله بالقاء الشبهة والشكوك وذلك بانكارهم صفة محمد صلى الله عليه وسلم في كتبهم (تبغونها عوجا) يعني زيغا وميلا عن الحق والعوج بالكسر الزيغ والميل عن الاستواء في الدين والقول والعمل وكل ما لا يرى فاما الشيء الذي يرى كالحائط والقناة ونحو ذلك يقال فيه عوج بفتح العين والهاء في قوله تبغونها عائدة على السبيل والمعنى لم تطلبون الزيغ والميل في سبيل الله بالقاء الشبه في قلوب الضعفاء (وأنتم شهداء) قال ابن عباس يعني وأنتم شهداء ان نعت محمد صلى الله عليه وسلم وصفته مكتوب في التوراة وان دين الله الذي لا يقبل غيره هو الاسلام وقيل معناه وأنتم تشهدون المعجزات التي تظهر على يد محمد صلى الله عليه وسلم الدالة على نبوته (وما الله بغافل عما تعملون) فيه وعيد وتهديد لهم وذلك انهم كانوا يجتهدون ويحتالون بالقاء الشبهة في قلوب الناس ليصدوهم عن سبيل الله والتصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم فلذلك قال الله تعالى وما الله بغافل عما تعملون ۞ قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب) الآية قال زيد بن أسلم مر شاس بن قيس اليهودي وكان شيخا عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين فمر بنفر من الاوس والخزرج وهم في مجلس يتحدثون فيه فغاظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم في الاسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية وقال قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد والله ما لنا معهم اذا اجتمعوا من قرار فامر شابا من اليهود كان معه فقال له اعمد اليهم واجلس معهم ثم ذكرهم يوم بعاث وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من الاشعار وكان يوم بعاث يوما اقتتلت فيه الاوس والخزرج وكان الظفر فيه للاوس على الخزرج ففعل فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب وهما أوس بن قيظي أحد بني حارثة من الاوس وجبار ابن صخر أحد بني سلمة من الخزرج فتقاولا فقال أحدهما لصاحبه ان شئتم والله رددناها الآن جذعة وغضب الفريقان جميعا وقالا قد فعلنا السلاح السلاح موعدكم الظاهر وهي الحرة فخرجوا اليها وانضمت الاوس والخزرج بعضهم الى بعض على دعواهم في الجاهلية فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج اليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم فقال يا معشر المسلمين أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد اذ أكرمكم الله بالاسلام وقطع عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم ترجعون الى ما كنتم عليه كفارا الله الله فعرف القوم انها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم فالقوا السلاح من أيديهم وبكوا واعتنق بعضهم بعضا ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين قال جابر فما رأيت يوما أقبح أولا وأحسن آخرا من ذلك اليوم فانزل الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يعني شاسا اليهودي وأصحابه (يردوكم بعد ايمانكم كافرين) والكفر يوجب الهلاك في الدنيا بوقوع العداوة والبغضاء وهيجان الفتنة والحرب وسفك الدماء وفي الآخرة النار ثم قال تعالى (وكيف

(قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون) الواو للحال والمعنى لم تكفرون بآيات الله الدالة على صدق محمد عليه السلام والحال ان الله شهيد على أعمالكم فيجازيكم عليها (قل يا أهل الكتاب لم تصدون) الصد المنع (عن سبيل الله من آمن) عن دين حق علم انه سبيل الله التي أمر بسلوكها وهو الاسلام وكانوا يمنعون من أراد الدخول فيه بجهدهم ومحل (تبغونها) تطلبون لها نصب على الحال (عوجا) اعوجاجا وميلا عن القصد والاستقامة بتغييركم صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وجهها ونحو ذلك (وأنتم شهداء) انها سبيل الله التي لا يصد عنها الا ضال مضل (وما الله بغافل عما تعملون) من الصد عن سبيله وهو وعيد شديد ثم نهى المؤمنين عن اتباع هؤلاء الصادين عن سبيله بقوله (يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين) قيل مر شاس بن قيس اليهودي على نفر من الانصار من الاوس والخزرج في مجلس لهم يتحدثون فغاظه تحدثهم وتآلفهم فامر شابا من اليهود أن يذكرهم يوم بعاث لعلهم يغضبون وكان يوما اقتتلت فيه الاوس والخزرج وكان الظفر فيه للاوس ففعل فتنازع القوم عند ذلك وقالوا السلاح السلاح فبلغ النبي عليه السلام فخرج اليهم فيمن معه من المهاجرين والانصار فقال أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد اذ أكرمكم الله بالاسلام وألف بينكم فعرف القوم انها نزغة من الشيطان فالقوا السلاح وعانق بعضهم بعضا باكين فنزلت الآية (وكيف

تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله) كلمة كيف كلمة تعجب والتعجب انما يليق بمن لا يعلم السبب وذلك على الله محال فالمراد منه المنع والتغليظ وذلك لان تلاوة آيات الله وهي القرآن حالا بعد حال وكون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكم يرشدكم الى مصالحكم وذلك يمنع من وقوع الكفر فكان وقوع الكفر منهم بعيدا على هذا الوجه قال قتادة في هذه الآية علمان بينان كتاب الله تعالى ونبي الله صلى الله عليه وسلم اما نبي الله فقد مضى وأما كتاب الله فقد أبقاه الله بين أظهركم رحمة منه ونعمة (م) عن زيد ابن أرقم قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فينا خطيبا بماء يدعى خما بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ الناس وذكر ثم قال أما بعد ألا أيها الناس انما أنا بشر يوشك ان يأتيني رسول ربي فأجيب واني تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي وقوله تعالى (ومن يعتصم بالله) أي يمتنع بالله ويستمسك بدينه وطاعته وأصل العصمة الامتناع من الوقوع في آفة وفيه حث لهم في الالتجاء الى الله تعالى في دفع شر الكفار عنهم (فقد هدى الى صراط مستقيم) أي الى طريق واضح وهو طريق الحق المؤدي الى الجنة ۞ قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته) قال مقاتل بن حيان كان بين الاوس والخزرج عداوة في الجاهلية وقتال فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة أصلح بينهم فافتخر بعد ذلك منهم رجلان وهما ثعلبة بن غنم من الاوس وأسعد بن زرارة من الخزرج فقال الاوسي منا خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين ومنا حنظلة غسيل الملائكة ومنا عاصم بن ثابت بن أفلح حمي الدبر ومنا سعد بن معاذ الذي اهتز عرش الرحمن له ورضي الله بحكمه في بني قريظة وقال الخزرجي منا أربعة أحكموا القرآن أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد ومنا سعد بن عبادة خطيب الانصار ورئيسهم فجرى الحديث بينهما فغضبا وأنشدا الاشعار وتفاخرا فجاء الاوس والخزرج ومعهم السلاح فأتاهم النبي صلى الله عليه وسلم فأصلح بينهم فأنزل الله عز وجل هذه الآية يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته قال ابن عباس هو أن يطاع فلا يعصى ويشكر فلا يكفر ويذكر فلا ينسى وقال مجاهد هو أن تجاهدوا في الله حق جهاده ولا تأخذكم في الله لومة لائم وتقوموا لله بالقسط ولو على أنفسكم وآبائكم وأبنائكم وعن أنس قال لا يتقي الله عبد حق تقاته حتى يخزن لسانه وقيل حق تقاته يعني واجب تقواه وهو القيام بالواجب واجتناب المحارم واختلف العلماء في هذا القدر من هذه الآية هل هو منسوخ أم لا على قولين أحدهما انه منسوخ وذلك انه لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين وقالوا يا رسول الله ومن يقوى على هذا فأنزل الله تعالى الناسخ وهو قوله تعالى في سورة التغابن فاتقوا الله ما استطعتم وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وابن زيد والسدي والقول الثاني انها محكمة غير منسوخة وهو رواية عن ابن عباس أيضا وبه قال طاوس ووجه هذا الاختلاف يرجع الى معنى الآية فمن قال انها منسوخة قال حق تقاته هو أن يأتي العبد بكل ما يجب لله ويستحقه فهذا يعجز العبد عن الوفاء به فتحصيله ممتنع ومن قال بانها محكمة قال ان حق تقاته أداء ما يلزم العبد على قدر طاقته فكان قوله تعالى اتقوا الله ما استطعتم مفسرا لحق تقاته لا ناسخا ولا مخصصا فمن اتقى الله ما استطاع فقد اتقاه حق تقواه وقيل معنى حق تقاته كما يجب أن يتقى وذلك بان يجتنب جميع معاصيه وقيل في معنى قول ابن عباس هو أن يطاع فلا يعصى هذا صحيح والذي يصدر من العبد على سبيل السهو والنسيان غير قادح فيه لان التكليف في تلك الحال مرفوع عنه وكذلك قوله وان يشكر فلا يكفر فواجب على العبد حضور ما أنعم الله به عليه بالبال وأما عند السهو فلا يجب عليه وكذلك قوله وان يذكر فلا ينسى فان هذا انما يجب عند الدعاء والعبادة لا عند السهو والنسيان وقوله تعالى (ولا تموتن الا وأنتم مسلمون) لفظ النهي واقع على الموت والمعنى واقع على الأمر بالاقامة على الاسلام

تكفرون) معنى الاستفهام فيه الانكار والتعجب أي من أين يتطرق اليكم الكفر (وأنتم تتلى عليكم آيات الله) والحال ان آيات الله وهي القرآن المعجز تتلى عليكم على لسان الرسول غضة طرية (وفيكم رسوله) وبين أظهركم رسول الله عليه السلام ينبهكم ويعظكم ويزيح عنكم شبهكم (ومن يعتصم بالله) ومن يتمسك بدينه أو بكتابه أو هو حث لهم على الالتجاء اليه في دفع شرور الكفار ومكايدهم (فقد هدى الى صراط مستقيم) أرشد الى الدين الحق أو ومن يجعل ربه ملجأ ومفزعا عند الشبه يحفظه عن الشبه (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته) واجب تقواه وما يحق منها وهو القيام بالواجب والاجتناب عن المحارم وعن عبد الله هو أن يطاع فلا يعصى ويشكر فلا يكفر ويذكر فلا ينسى أو هو أن لا تأخذه في الله لومة لائم ويقوم بالقسط ولو على نفسه أو بنيه أو أبيه وقيل لا يتقي الله عبد حق تقاته حتى يخزن لسانه والتقاة من اتقى كالتؤدة من اتأد (ولا تموتن الا وأنتم مسلمون) ولا تكونن على حال سوى حال الاسلام اذا أدرككم

المعنى كونوا على الاسلام فاذا ورد عليكم الموت صادفكم على ذلك وقيل هذا فى الحقيقة نهى عن ترك الاسلام المعنى لا تتركوا الاسلام فان الموت لابد منه فتى جاءكم صادفكم وأنتم على الاسلام لانه لما كان يمكنهم الثبات على الاسلام حتى اذا أتاهم الموت أتاهم وهم على الاسلام صار الموت على الاسلام بمنزلة ماقد دخل فى امكانهم وقيل معناه ولا تموتن الا وأنتم مسلمون مخلصون مفوضون الى الله أموركم تحسنون الظن به عزوجل عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون فقال لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا لافسدت على أهل الارض معايشهم فكيف بمن تكون طعامه أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح ﴿قوله عزوجل (واعتصموا بحبل الله جميعا) أى تمسكوا بحبل الله والحبل هو السبب الذى يتوصل به الى البغية وسمى الامان حبلا لانه سبب يتوصل به الى زوال الخوف وقيل حبل الله هو السبب الذى به يتوصل اليه فعلى هذا اختلفوا فى معنى الآية فقال ابن عباس معناه تمسكوا بدين الله لانه سبب يوصل اليه وقيل حبل الله هو القرآن لانه أيضا سبب يوصل اليه وفى افراد مسلم من حديث زيد بن أرقم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألا وانى تارك فيكم ثقلين أحدهما كتاب الله هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى ومن تركه كان على ضلالة الحديث عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان هذا القرآن هو حبل الله المتين وهو النور المبين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ذكره البغوى بغير سند وقال ابن مسعود هو الجماعة وقال عليكم بالجماعة فانها حبل الله الذى أمر به وأن ما تكرهون فى الجماعة والطاعة خير مما تحبون فى الفرقة وقيل بحبل الله يعنى بامر الله وطاعته (ولا تفرقوا) يعنى كما تفرقت اليهود والنصارى وقيل ولا تفرقوا يعنى كما كنتم متفرقين فى الجاهلية متدابرين يعادى بعضكم بعضا ويقتل بعضكم بعضا وقيل معناه لا تحدثوا ما يكون عنه التفرق ويزول معه الاجتماع والالفة التى أنتم عليها ففيه النهى عن التفرق والاختلاف والامر بالاتفاق والاجتماع لان الحق لا يكون الا واحدا وماعداه يكون جهلا وضلالا واذا كان كذلك وجب النهى عن الاختلاف فى الدين وعن الفرقة لان كل ذلك كان عادة أهل الجاهلية فنهوا عنه وروى البغوى بسنده عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله يرضى لكم ثلاثا ويسخط لكم ثلاثا يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيأ وان تعتصموا بحبل الله جميعا وان تناصحوا من ولى الله أمركم ويسخط لكم قيل وقال واضاعة المال وكثرة السؤال ﴿قوله تعالى (واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا) قال محمد بن اسحق وغيره من أهل الاخبار كان الاوس والخزرج أخوين لاب وأم فوقعت بينهما عداوة وقتيل ثم تطاولت تلك العداوة والحروب بينهم مائة وعشرين سنة الى أن أطفأ الله ذلك بالاسلام وألف بينهم بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وسبب ذلك ان سويد بن الصامت أخى بنى عمرو بن عوف وكان شريفا يسميه قومه الكامل لجده ونسبه فقدم مكة حاجا أو معتمرا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث وأمر بالدعوة فتصدى له النبى حين سمع به ودعاه الى الله عزوجل والى الاسلام فقال له سويد فلعل الذى معك مثل الذى معى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم وما الذى معك قال مجلة لقمان يعنى حكمة لقمان فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم اعرضها على فعرضها عليه فقال ان هذا الكلام حسن ومعى أفضل من هذا قرآن أنزله الله عزوجل على نورا وهدى فتلا عليه القرآن ودعاه الى الاسلام فلم يبعد منه وقال ان هذا القول حسن ثم انصرف الى المدينة فلم يلبث ان قتله الخزرج يوم بعاث وان قومه يقولون قد قتل وهو مسلم ثم قدم أبو الحيس أنس بن رافع ومعه فتية من بنى عبد الاشهل فيهم اياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم وجلس اليهم وقال لهم هل لكم الى خير مما جئتم له قالوا وما هو قال أنا رسول الله قد بعثنى الله الى العباد أدعوهم الى أن لا يشركوا بالله شيأ وأنزل على الكتاب ثم ذكر الاسلام

الموت (واعتصموا بحبل الله) تمسكوا بالقرآن لقوله عليه السلام القرآن حبل الله المتين لا تنقضى عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد من قال به صدق ومن عمل به رشد ومن اعتصم به هدى الى صراط مستقيم (جميعا) حال من ضمير المخاطبين وقيل تمسكوا باجماع الامة دليله (ولا تفرقوا) أى ولا تتفرقوا يعنى ولا تفعلوا ما يكون عنه التفرق ويزول معه الاجتماع أو ولا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كما اختلفت اليهود والنصارى أو كما كنتم متفرقين فى الجاهلية يحارب بعضكم بعضا (واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا) كانوا فى الجاهلية بينهم العداوة والحروب فالف بين قلوبهم بالاسلام وقذف فى قلوبهم المحبة فتحابوا وصاروا اخوانا

وتلا عليهم القرآن قال اياس بن معاذ وكان غلاما حدثا أى قوم هذا والله خير مما جئتم له فاخذ أبو الحيس حفنة من البطحاء فضرب بها وجه اياس وقال دعنا منك فلعمرى لقد جئنا لغير هذا فصمت اياس وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم وانصرفوا الى المدينة فكانت وقعة بعاث بين الاوس والخزرج فلم يلبث اياس بن معاذ أن هلك فلما أراد الله عز وجل اظهار دينه واعزاز نبيه صلى الله عليه وسلم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الموسم الذى لقى فيه النفر من الانصار فعرض نفسه على القبائل من العرب كما كان يصنع فى كل موسم فلقى عند العقبة رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرا وهم ستة نفر أسعد بن زرارة وعوف بن الحرث وهو ابن عفراء ورافع بن مالك العجلانى وقطبة بن عامر بن حديدة وعقبة بن عامر بن نابى وجابر بن عبد الله رضى الله عنهم فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنتم قالوا نفر من الخزرج قال أمن موالى اليهود قالوا نعم قال أفلا تجلسون حتى أكلمكم قالوا بلى فجلسوا معه فدعاهم الى الله عز وجل وعرض عليهم الاسلام وتلا عليهم القرآن قال وكان مما صنع الله لهم به فى الاسلام أن يهود كانوا معهم ببلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم وهم أهل أوثان وشرك وكانوا اذا كان بينهم شئ قالوا ان نبيا الآن مبعوث قد أظل زمانه سنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وارم فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ودعاهم الى الله عز وجل قال بعضهم لبعض ياقوم تعلمون والله انه النبى الذى توعدكم به يهود فلا يسبقنكم اليه فاجابوه وصدقوه وأسلموا معه وقالوا انا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى الله أن يجمعهم بك وسنقدم عليهم وندعوهم الى أمرك فان يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين الى بلادهم فلما قدموا المدينة ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوهم الى الاسلام حتى فشا فيهم فلم تبق دار من دور الانصار الا وفيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اذا كان العام المقبل وافى الموسم من الانصار اثناعشر رجلا وهم أسعد بن زرارة وعوف ومعاذ ابنا عفراء ورافع بن مالك العجلانى وذكوان ابن عبد القيس وعبادة بن الصامت ويزيد بن ثعلبة وعباس بن عبادة وعقبة بن عامر وقطبة بن عامر فهؤلاء خزرجيون وأبو الهيثم بن التيهان وعويم بن ساعدة من الاوس فلقوه بالعقبة وهى العقبة الاولى فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء على أن لا يشركن بالله شيأ ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف الآية فان وفيتم فلكم الجنة وان غشيتم شيأ من ذلك فأخذتم بحده فى الدنيا فهو كفارة وان ستر عليكم فأمركم الى الله عز وجل ان شاء عذبكم وان شاء غفر لكم قال وذلك قبل أن يفرض الحرب قال فلما انصرف القوم بعث معهم مصعب بن عمير ابن هاشم بن عبد مناف وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الاسلام ويفقههم فى الدين وكان يسمى مصعب بالمدينة المقرئ وكان منزله على أسعد بن زرارة ثم ان أسعد بن زرارة خرج ومصعب فدخل به حائطا من حوائط بنى ظفر فجلسا فى الحائط واجتمع اليهما رجال ممن أسلم فقال سعد بن معاذ لاسيد بن حضير انطلق الى هذين الرجلين اللذين أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما فان أسعد ابن خالتى ولولا ذلك لكفيتكه وكان سعد ابن معاذ وأسيد بن حضير سيدى قومهما من بنى عبد الاشهل وهما بعد مشركان فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل الى مصعب وأسعد وهما جالسان فى الحائط فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه قال مصعب ان يجلس أكلمه فلما وقف عليهما متشتما وقال ما جاء بكما الينا تسفهان ضعفاءنا اعتزلا ان كانت لكما فى أنفسكما حاجة قال له مصعب أو تجلس فتسمع فان رضيت أمرا قبلته وان كرهته كف عنك ما تكره قال أنصفت ثم ركز حربته وجلس اليهما فكلمه مصعب بالاسلام وقرأ عليه القرآن قالا والله لعرفنا الاسلام فى وجهه قبل ان يتكلم من اشراقه وتسهله ثم قال ما أحسن هذا وأجمله كيف تصنعون اذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين قالا تغتسل وتطهر ثوبك وتشهد شهادة الحق ثم تصلى ركعتين

فقام واغتسل وطهر ثوبه وشهد شهادة الحق ثم صلى ركعتين ثم قال ان ورائى رجلان اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله اليكما الآن سعد بن معاذ ثم أخذ حربته فانصرف الى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديهم فلما نظر سعد الى أسيد مقبلا قال أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم فلما وقف أسيد على النادى قال له سعد ما فعلت قال كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسا وقد نهيتهما فقالا لا نفعل الا ما أحببت وقد حدثت أن بنى حارثة خرجوا الى أسعد بن زرارة ليقتلوه وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليحقروك فقام سعد مغضبا للذى ذكره من بنى حارثة فأخذ الحربة ثم قال والله ما أراك أغنيت شيأ فانصرف اليهما فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيدا انما أراد أن يسمع منهما فوقف عليهما متشتما ثم قال لأسعد بن زرارة لولا ما بينى وبينك من القرابة ما رمت هذا منى تغشانا فى دارنا بما نكره وقد كان قال أسعد لمصعب جاءك والله سيد قومه ان يتبعك لم يخالفك أحد منهم فقال له مصعب أو تقعد فتسمع فان رضيت أمرا ورغبت فيه قبلته وان كرهته عزلنا عنك ما تكره فقال سعد أنصفت ثم ركز الحربة وجلس فعرض عليه مصعب الاسلام وقرأ عليه القرآن قالا فعرفنا والله الاسلام فى وجهه قبل أن يتكلم من اشراق وجهه وتسهله ثم قال كيف تصنعون اذا أسلمتم ودخلتم فى هذا الدين قالا تغتسل وتطهر ثوبك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلى ركعتين فقام واغتسل وطهر ثوبه وشهد شهادة الحق وركع ركعتين ثم أخذ حربته وأقبل عامدا الى نادى قومه ومعه أسيد بن حضير فلما رأوه مقبلا قالوا نحلف بالله لقد رجع سعد اليكم بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم فلما وقف عليهم قال يا بنى عبد الاشهل كيف تعلمون أمرى فيكم قالوا سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة قال فان كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله قال فما أمسى فى دار بنى عبد الاشهل رجل ولا امرأة الا مسلم ومسلمة ورجع أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير الى منزل أسعد فأقام عنده يدعو الناس الى الاسلام حتى لم تبق دار من دور الانصار الا وفيها رجال ونساء مسلمون ومسلمات الا ما كان من دار أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف ذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الاسلت الشاعر وكانوا يسمعون منه ويطيعونه فوقف بهم عن الاسلام حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة ومضى بدر وأحد والخندق قالوا ثم ان مصعب بن عمير رجع الى مكة وخرج معه من الانصار المسلمين سبعون رجلا مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة فوعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق وهى بيعة العقبة الثانية قال كعب بن مالك وكان قد شهد ذلك فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر أخبرناه وكنا نكتم من معنا من المشركين من قومنا أمرنا فكلمناه وقلنا يا أبا جابر انك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا وانا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبا للنار غدا ودعوناه الى الاسلام فأسلم فأخبرناه بميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم فشهد معنا العقبة وكان نقيبا فبتنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا حتى اذا مضى ثلث الليل خرجنا لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم نتسلل مستخفين تسلل القطا حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة ونحن سبعون رجلا ومعنا امرأتان من نسائنا نسيبة بنت كعب أم عمارة احدى نساء بنى النجار وأسماء بنت عمرو بن عدى أم منيع احدى نساء بنى سلمة فاجتمعنا بالشعب ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه الا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له فلما جلسنا أول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال يا معشر الخزرج وكانت العرب يسمون هذا الحى من الانصار الخزرج خزرجها وأوسها ان محمدا منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا وهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده وانه قد أبى الا الانقطاع اليكم واللحوق بكم فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم به من ذلك وان كنتم ترون انكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج

اليكم فمن الآن فدعوه فانه فى عز ومنعة قال فقلنا قد سمعنا ما قلت فتكلم يارسول الله وخذ لنفسك ولربك ماشئت فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا القرآن ودعا الى الله عز وجل ورغب فى الاسلام ثم قال أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم ونساءكم وأبناءكم قال فاخذ البراء بن معرور بيده ثم قال والذى بعثك بالحق نبيا لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يارسول الله فنحن أهل الحرب وأهل الحلقة ورثناهما كابرا عن كابر فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو الهيثم بن التيهان فقال يارسول الله ان بيننا وبين الناس حبالا يعنى عهودا وانا قاطعوها فهل عسيت ان فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال بل الدم الدم والهدم الهدم أنتم منى وأنا منكم أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجوا الى منكم اثنى عشر نقيبا كفلاء على قومهم بما فيهم ككفالة الحواريين بعيسى بن مريم فاخرجوا اثنى عشر نقيبا تسعة من الخزرج وثلاثة من الاوس قال عاصم بن عمرو بن قتادة ان القوم لما اجتمعوا البيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العباس بن عبادة بن نضلة الانصارى يامعشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل انكم تبايعونه على حرب الاحمر والاسود فان كنتم ترون انكم اذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه فمن الآن فهو والله خزى فى الدنيا والآخرة وان كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتموه اليه على نهكة الاموال وقتل الاشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة قالوا فانا نأخذه على مصيبة الاموال وقتل الاشراف فمالنا بذلك يارسول الله ان نحن وفينا قال الجنة قالوا ابسط يدك فبسط يده فبايعوه وأول من ضرب على يده البراء بن معرور ثم تتابع القوم قال فلما بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صرخ الشيطان من رأس العقبة بانفذ صوت ماسمعته قط ياأهل الجباجب هل لكم فى مذمم والصباة معه قد اجتمعوا على حربكم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا عدو الله هذا أزب العقبة يعنى شيطان العقبة اسمع أى عدو الله اما والله لافرغن لك ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انفضوا الى رحالكم فقال العباس بن عبادة بن نضلة والذى بعثك بالحق لئن شئت لنميلن على أهل منى باسيافنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا الى رحالكم فرجعنا الى مضاجعنا فنمنا عليها حتى أصبحنا فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاؤنا فى منازلنا فقالوا يامعشر الخزرج بلغنا انكم جئتم صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا وانه والله ماحى من العرب أبغض الينا أن تنشب الحرب بيننا وبينه منكم قال فانبعث من هناك من مشركى قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شئ وما علمناه وصدقوا لم يعلموا به وبعضنا ينظر الى بعض وقام القوم وفيهم الحرث بن هشام بن المغيرة المخزومى وعليه نعلان جديدتان قال فقلت له كلمة كانى أريد أن أشرك القوم بها فيما قالوا ياجابر أما تستطيع أن تتخذ وأنت سيد من ساداتنا مثل نعلى هذا الفتى من قريش قال فسمعها الحرث فخلعهما من رجليه ورمى بهما الى وقال والله لتنتعلنهما قال أبو جابر مه والله أحفظت الفتى فاردد اليه نعليه قال فقلت لا أردهما قال والله ياأباصالح لئن صدق الفأل لاسلبنه قال ثم انصرف الانصار الى المدينة وقد شدوا العقد فلما قدموها أظهروا الاسلام بها وبلغ ذلك قريشا فآذوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصحابه ان الله قد جعل لكم اخوانا ودارا تأمنون فيها فأمرهم بالهجرة الى المدينة واللحوق باخوانهم من الانصار فاول من هاجر الى المدينة أبو سلمة بن عبد الاسد المخزومى ثم عامر ابن ربيعة ثم عبد الله بن جحش ثم تتابع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ارسالا الى المدينة ثم هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة فجمع الله عز وجل أهل المدينة أوسها وخزرجها بالاسلام وأصلح ذات بينهم بنبيه عليه الصلاة والسلام وأنزل الله عز وجل واذكروا يعنى يامعشر الانصار نعمة الله عليكم يعنى بالاسلام اذ كنتم أعداء يعنى قبل الاسلام فالف بين قلوبكم يعنى بالاسلام وبنبيه عليه الصلاة والسلام

(وكنتم على شفا حفرة من النار) وكنتم مشفين على أن تقعوا فى نار جهنم لما كنتم عليه من الكفر (فأنقذكم منها) بالاسلام وهو رد على المعتزلة فعندهم هم الذين ينقذون أنفسهم لا الله تعالى والضمير للحفرة أو للنار

أو للشفا وأنث لاضافته الى الحفرة

فأصبحتم بنعمته اخوانا يعنى فصرتم برحمته وبدينه الاسلام اخوانا فى الدين والولاية بعد العداوة (وكنتم يامعشر الاوس والخزرج (على شفا حفرة من النار) يعنى على طرف حفرة مثل شفا البئر ليس بينكم وبين الوقوع فى النار الا أن تموتوا على كفركم (فأنقذكم منها) أى خلصكم بالايمان من الوقوع فى النار (كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) ۞ قوله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) اللام فى قوله ولتكن لام الامر أى لتكن منكم أمة دعاة الى الخير وقيل ان كلمة من فى قوله منكم للتبيين لا للتبعيض وذلك لان الله عز وجل أوجب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر على كل الامة فى قوله تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر فيجب على كل مكلف الامر بالمعروف والنهى عن المنكر اما بيده أو بلسانه أو بقلبه (م) عن أبى سعيد الخدرى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان فعلى هذا يكون معنى الآية كونوا أمة دعاة الى الخير آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر ومن قال بهذا القول يقول ان الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض كفاية اذا قام به واحد سقط الفرض عن الباقين وقيل ان من هنا للتبعيض وذلك لان فى الامة من لا يقدر على الامر بالمعروف والنهى عن المنكر لعجز أو ضعف فحسن ادخال لفظ من فى قوله ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير وقيل ان الامر بالمعروف والنهى عن المنكر انما يختص بالعلماء وولاة الامر فعلى هذا يكون المعنى ليكن بعضكم آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر (خ) عن النعمان بن بشير عن النبى صلى الله عليه وسلم قال مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فان تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وان أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا والخير المذكور فى الآية هو كل شئ يرغب فيه من الافعال الحسنة وقيل هو هنا كناية على الاسلام والمعنى لتكن أمة أى جماعة دعاة الى الاسلام والى كل فعل حسن يستحسن فى الشرع والعقل وقيل الدعوة الى فعل الخير يندرج تحتها نوعان احدهما الترغيب فى فعل ماينبغى وهو الامر بالمعروف والثانى الترغيب فى ترك مالا ينبغى وهو النهى عن المنكر فذكر الحسن أولا وهو الخير ثم اتبعه بنوعيه مبالغة فى البيان والمعروف اسم لكل فعل يعرف بالعقل والشرع حسنه والمنكر ضد ذلك وهو ماعرف بالعقل والشرع قبحه وقوله تعالى (وأولئك هم المفلحون) تقدم تفسيره ۞ قوله عز وجل (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا) يعنى ولا تكونوا يامعشر المؤمنين كالذين تفرقوا يعنى أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى فى قول أكثر المفسرين واختلفوا فى دين الله وأمره ونهيه وقيل تفرقوا واختلفوا بمعنى واحد وانما ذكرهما للتأكيد وقيل تفرقوا بسبب العداوة واتباع الهوى واختلفوا فى دين الله فصاروا فرقا مختلفين قال الربيع فى هذه الآية هم أهل الكتاب نهى الله أهل الاسلام أن يتفرقوا أو يختلفوا كما تفرق واختلف أهل الكتاب وقال ابن عباس أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة وأخبرهم انما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات فى الدين وقال بعضهم هم المبتدعة من هذه الامة وقال أبو أمامة هم الحرورية قال عبد الله بن شداد وقف أبو أمامة وأنا معه على رؤس الحرورية على درج جامع دمشق فذرفت عيناه ثم قال كلاب أهل النار وكانوا مؤمنين فكفروا بعد ايمانهم شر قتيل تحت أديم السماء وخير قتيل تحت أديم السماء الذين قتلهم هؤلاء قلت فما شأنك دمعت عيناك قال رحمة لهم كانوا من أهل الاسلام فكفروا بعد

وشفا الحفرة حرفها ولامها واو فلهذا يثنى شفوان (كذلك) مثل ذلك البيان البليغ (يبين الله لكم آياته) أى القرآن الذى فيه أمر ونهى ووعد ووعيد (لعلكم تهتدون) لتكونوا على رجاء الهداية أو لتهتدوا به الى الصواب وماينال به الثواب (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف) بما استحسنه الشرع والعقل (وينهون عن المنكر) عما استقبحه الشرع والعقل أو المعروف ماوافق الكتاب والسنة والمنكر ماخالفهما أو المعروف الطاعة والمنكر المعاصى والدعاء الى الخير عام فى التكاليف من الافعال والتروك وما عطف عليه خاص ومن للتبعيض لان الامر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفاية ولانه لا يصلح له الا من علم بالمعروف والمنكر وعلم كيف يرتب الامر فى اقامته فانه يبدأ بالسهل فان لم ينفع ترقى الى الصعب قال الله تعالى فاصلحوا بينهما ثم قال فقاتلوا أو للتبيين أى وكونوا أمة تأمرون كقوله تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف (وأولئك هم المفلحون) أى هم الاخصاء بالفلاح الكامل قال عليه السلام من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله فى أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه وعن على رضى الله عنه أفضل الجهاد الامر بالمعروف والنهى عن المنكر (ولا تكونوا كالذين تفرقوا) بالعداوة (واختلفوا) فى الديانة وهم اليهود والنصارى فانهم اختلفوا وكفر

ايمانهم ثم أخذ بيدي وقال ان بأرض منهم كثيرا وفي رواية ثم قرأ بعد قوله فكفروا بعد ايمانهم ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا الى قوله أكفرتم بعد ايمانكم ورواه الترمذي عن أبي غالب قال رأى أبو أمامة رؤسا منصوبة على درج دمشق فقال أبو أمامة كلاب أهل النار شر قتلى تحت أديم السماء خير قتلى من قتلوه ثم قرأ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه الى آخر الآية قلت لأبي أمامة أنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو لم أسمعه الا مرة أو مرتين أو ثلاث مرات أو أربع مرات حتى عد سبعا ما حدثتكموه وقال فيه هذا حسن ۞ وقوله تعالى (من بعد ما جاءهم البينات) يعني الحجج الواضحات فعلموها ثم خالفوها وانما قال جاءهم ولم يقل جاءتهم لجواز حذف علامة التأنيث من الفعل في التقديم تشبيها بعلامة التثنية والجمع (وأولئك لهم عذاب عظيم) يعني لهؤلاء الذين تفرقوا واختلفوا عذاب عظيم في الآخرة وفيه زجر عظيم للمؤمنين عن التفرق والخلاف عن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من فارق الجماعة شبرا فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه أخرجه أبو داود أراد بربقة الاسلام عقد الاسلام وأصله ان الربق حبل فيه عدة عرى يشد بها الغنم الواحدة من العرى ربقة وروى البغوي بسنده عن عمر بن الخطاب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من سره ان يسكن بحبوحة الجنة فعليه بالجماعة فان الشيطان مع الفذ وهو من الاثنين أبعد بحبوحة الجنة وسطها والفذ هو الواحد ۞ قوله عز وجل (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) يعني اذكروا يوم تبيض وجوه المؤمنين وتسود وجوه الكافرين وقيل تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة وقيل تبيض وجوه المخلصين وتسود وجوه المنافقين وفي بياض الوجوه وسوادها قولان أحدهما ان البياض كناية عن الفرح والسرور والسواد كناية عن الغم والحزن وهذا مجاز مستعمل يقال لمن نال بغيته وظفر بمطلوبه ابيض وجهه يعني من السرور والفرح ولمن ناله مكروه اسود وجهه واربد لونه يعني من الحزن والغم قال الله تعالى واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا يعني من الحزن فعلى هذا بياض الوجوه اشراقها وسرورها واستبشارها بعملها وذلك ان المؤمن اذا ورد القيامة على ما قدم من خير وعمل صالح استبشر بثواب الله ونعمه عليه فاذا كان كذلك وسم وجهه ببياض اللون واشراقه واستنارته وابيضت صحيفته وأشرقت وسعى النور بين يديه وعن يمينه وشماله وأما الكافر والظالم اذا ورد القيامة على ما قدم من قبيح عمل وسيآت حزن واغتم لعلمه بعذاب الله فاذا كان كذلك وسم وجهه بسواد اللون وكمودته واسودت صحيفته وأظلمت وأحاطت به الظلمة من كل جانب نعوذ بفضل الله وسعة رحمته من الظلمات يوم القيامة والقول الثاني بياض الوجوه وسوادها حقيقة تحصل في الوجه فيبيض وجه المؤمن ويكسى نورا ويسود وجه الكافر ويكسى ظلمة لان لفظ البياض والسواد حقيقة فيهما والحكمة في بياض الوجوه وسوادها ان أهل الموقف اذا رأوا بياض وجه المؤمن عرفوا انه من أهل السعادة واذا رأوا سواد وجه الكافر عرفوا انه من أهل الشقاوة (فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) أي فيقال لهم أكفرتم والهمزة للتوبيخ والتقريع فان قلت كيف قال أكفرتم بعد ايمانكم وهم لم يكونوا مؤمنين فمن المراد بهؤلاء الذين كفروا بعد ايمانهم قلت اختلف العلماء في ذلك فروى عن أبي ابن كعب انه قال أراد به الايمان يوم أخذ الميثاق حين قال لهم ألست بربكم قالوا بلى فآمن الكل فكل من كفر في الدنيا فقد كفر بعد الايمان وقال الحسن هم المنافقون وذلك انهم تكلموا بالايمان بألسنتهم وأنكروه بقلوبهم وقال عكرمة هم أهل الكتاب وذلك انهم آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه فلما بعث أنكروه وكفروا به وقيل هم الذين ارتدوا زمن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهم أهل الردة (ق) عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا فرطكم على الحوض وليرفعن الي رجال منكم حتى اذا أهويت اليهم لاناولهم اختلجوا دوني فأقول أي رب أصحابي فيقال انك لا تدري ما أحدثوا بعدك (ق) عن أنس

بعضهم بعضا (من بعد ما جاءهم البينات) الموجبة للاتفاق على كلمة واحدة وهي كلمة الحق (وأولئك لهم عذاب عظيم) ونصب (يوم تبيض وجوه) أي وجوه المؤمنين بالظرف وهو لهم أو بعظيم أو باذكروا (وتسود وجوه) أي وجوه الكافرين والبياض من النور والسواد من الظلمة (فأما الذين اسودت وجوههم) فيقال لهم (أكفرتم) فحذف الفاء والقول جميعا للعلم به والهمزة للتوبيخ والتعجب من حالهم (بعد ايمانكم) يوم الميثاق فيكون المراد به جميع الكفار وهو قول أبي وهو الظاهر أو هم المرتدون أو المنافقون أي أكفرتم باطنا بعد ايمانكم ظاهرا أو أهل الكتاب وكفرهم بعد الايمان تكذيبهم برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد اعترافهم به قبل مجيئه (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون)

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليردن على الحوض رجال ممن صاحبني حتى اذا رفعوا الي اختلجوا دوني فلأقولن أي رب أصحابي أصحابي فيقال لي انك لا تدري ما أحدثوا بعدك زاد في رواية فأقول سحقاً لمن بدل بعدي (ق) عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يرد على يوم القيامة رهط من أصحابي أو قال من أمتي فيجلون عن الحوض فأقول يارب أصحابي فيقول انه لا علم لك بما أحدثوا بعدك انهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى وقيل هم الخوارج الذين خرجوا على علي بن أبي طالب وقتلهم وهم الحرورية (م) عن زيد بن وهب انه كان في الجيش الذين كانوا مع علي لما ساروا الى الخوارج فقال علي أيها الناس اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يخرج قوم من أمتي يقرؤن القرآن ليس قراءتكم الى قراءتهم بشيء ولا صلاتكم الى صلاتهم بشيء ولا صيامكم الى صيامهم بشيء يقرؤن القرآن يحسبون انه لهم وهو عليهم لا تجاوز صلاتهم تراقيهم يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية وفي رواية سويد بن غفلة عنه يقرؤن القرآن لا يجاوز ايمانهم حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فاينما لقيتموهم فاقتلوهم فان في قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة (ق) عن يسير بن عمرو قال قلت لسهل بن حنيف هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في الخوارج شيأ قال سمعته يقول وأهوى بيده الى العراق يخرج منهم قوم يقرؤن القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الاسلام مروق السهم من الرمية وقيل هم أهل البدع والاهواء من هذه الامة كالقدرية ونحوهم ومن قال بهذا القول يقول كفرهم بعد ايمانهم هو خروجهم من الجماعة ومفارقتهم في الاعتقاد (م) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بادروا بالاعمال فتناً كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا وقال الحرث الاعور سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول على المنبر ان الرجل ليخرج من أهله فما يؤب اليهم حتى يعمل عملاً يستوجب به الجنة وان الرجل ليخرج من أهله فما يعود اليهم حتى يعمل عملاً يستوجب به النار ثم قرأ يوم تبيض وجوه الآية ثم نادى هم الذين كفروا بعد الايمان ورب الكعبة ۞ وقوله تعالى (وأما الذين ابيضت وجوههم) يعني المؤمنين المطيعين لله عز وجل (ففي رحمة الله) يعني في جنة الله وانما سميت الجنة رحمة لانها دار رحمة وفيه اشارة الى ان العبد وان عمل بالطاعات لا يدخل الجنة الا برحمة الله تعالى (هم فيها خالدون) قيل انما كرر كلمة في لان في كل واحدة منهن معنى غير الاخرى المعنى انهم في رحمة الله وانهم في الرحمة خالدون (تلك آيات الله) يعني القرآن وقيل هذه الآيات التي تقدمت (نتلوها عليك بالحق) أي بالمعنى الحق لان المتلو حق (وما الله يريد ظلماً للعالمين) يعني لا يعاقب أحداً بغير جرم واستحقاق للعقوبة وانما ذكر الظلم هنا لانه قد تقدم ذكر العقوبة في قوله فأما الذين اسودت وجوههم الى قوله فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون أخبرانهم انما وقعوا فيما وقعوا فيه بسبب أفعالهم المنكرة وانه لا يظلم أحداً من خلقه (ولله ما في السموات وما في الارض) لما ذكر الله أنه لا يريد ظلماً للعالمين لانه لا حاجة به الى الظلم وذلك ان الظالم انما يظلم غيره ليزداد مالاً أو عزاً أو سلطاناً أو يتم نقصاً فيه بما يظلم به غيره ولما كان الله عز وجل مستغنياً عن ذلك وله صفة الكمال أخبر ان له ما في السموات وما في الارض وان جميع ما فيهما ملكه وأهلهما عبيده واذا كان كذلك يستحيل في حقه سبحانه وتعالى أن يظلم أحداً من خلقه لانهم عبيده وفي قبضته ثم قال (والى الله ترجع الامور) يعني واليه مصير جميع الخلائق المؤمن والكافر والطائع والعاصي فيجازى الكل على قدر استحقاقهم ولا يظلم أحداً منهم ۞ قوله عز وجل (كنتم خير أمة) سبب نزول هذه الآية ان مالك بن الصيف ووهب بن يهودا اليهوديين قالا لعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى حذيفة نحن أفضل منكم وديننا خير من دينكم الذي تدعوننا اليه فأنزل الله هذه الآية واختلف في لفظة كان فقيل هي بمعنى الحدوث والوقوع والمعنى حدثتم ووجدتم وخلقتم خير أمة وقيل كان هنا

(وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله) ففي نعمته وهي الثواب المخلد ثم استأنف فقال (هم فيها خالدون) لا يظعنون عنها ولا يموتون (تلك آيات الله) الواردة في الوعد والوعيد وغير ذلك (نتلوها عليك) ملتبسة (بالحق) والعدل من جزاء المحسن والمسيء (وما الله يريد ظلماً للعالمين) أي يشاء أن لا يظلم هو عباده فيأخذ أحداً بغير جرم أو يزيد في عقاب مجرم أو ينقص من ثواب محسن (ولله ما في السموات وما في الارض والى الله ترجع الامور) فيجازي المحسن باحسانه والمسيء باساءته ترجع شامي وحمزة وعلي كان عبارة عن وجود الشيء في زمان ماض على سبيل الابهام ولا دليل فيه على عدم سابق ولا على انقطاع طارئ ومنه قوله (كنتم خير أمة) كأنه قيل وجدتم خير أمة أو كنتم في علم الله أو في اللوح خير أمة أو كنتم في الامم قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة موصوفين به

ناقصة وهي عبارة عن وجود الشيء في زمان ماض ولا تدل على انقطاع طارئ بدليل قوله وكان الله غفور
رحيما فعلى هذا التقدير يكون المعنى كنتم في علم الله خير أمة وقيل كنتم مذكورين في الامم الماضية بانكم
خير أمة وقيل كنتم في اللوح المحفوظ موصوفين بانكم خير أمة وقيل معناه كنتم منذ أنتم خير أمة وقيل
قوله خير أمة تابع لقوله فاما الذين ابيضت وجوههم والتقدير انه يقال لهم عند دخول الجنة كنتم في دنيا كم
خير أمة فلهذا استحققتم ما أنتم فيه من بياض الوجوه والنعيم المقيم وقيل كنتم بمعنى أنتم وقيل
يحتمل أن يكون كان بمعنى صار فمعنى قوله كنتم أي صرتم خير أمة فاما المخاطبون بهذا من هم ففيه خلاف
قال ابن عباس في قوله كنتم خير أمة هم الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى ابن جرير عن
عمر بن الخطاب قال لو شاء الله تعالى لقال أنتم فكنا كلنا ولكن في خاصة من أصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم ومن صنع مثل ما صنعتم كانوا خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وقال
الضحاك هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني به كانوا هم الرواة الدعاة الذين أمر الله عز وجل
المسلمين باتباعهم وطاعتهم (ق) عن عمران بن حصين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خير الناس قرني
ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم قال عمران فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة ثم ان بعدهم قوما يشهدون
ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السمن زاد في رواية ويحلفون
ولا يستحلفون (ق) عن ابن مسعود ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خير الناس قرني ثم الذين يلونهم
ثم الذين يلونهم ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته قوله خير الناس قرني يعني أصحابي
والقرن أهل كل زمان مأخوذ من الاقتران فكأنه الزمان الذي يقترن فيه أهل ذلك الزمان في أعمارهم
وأحوالهم وقيل القرن أربعون سنة وقيل ثمانون وقيل مائة سنة (ق) عن أبي سعيد الخدري قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدا أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه
النصيف النصف وقال ابن عباس في رواية عطاء في قوله كنتم خير أمة هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال الزجاج
قوله كنتم خير أمة الخطاب فيه مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه عام في كل الامة ونظيره
قوله كتب عليكم الصيام كتب عليكم القصاص فان كل ذلك خطاب مع الحاضرين بحسب اللفظ ولكنه
عام في حق الكل كذا ههنا عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده انه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول في
قوله تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس قال أنتم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله تعالى أخرجه
الترمذي وقال حديث حسن وأصل الامة الجماعة المجتمعة على الشيء وأمة محمد صلى الله عليه وسلم هم الجماعة
الموصوفون بالايمان بالله عز وجل وبمحمد صلى الله عليه وسلم (خ) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم كل أمتي يدخلون الجنة الا من أبى قالوا ومن يأبى قال من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد
أبى عن ابن عمران رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله لا يجمع أمتي أو قال أمة محمد صلى الله عليه وسلم
على ضلالة ويد الله على الجماعة ومن شذ شذ في النار أخرجه الترمذي عن أبي موسى قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم ان أمتي أمة مرحومة ليس عليها عذاب في الآخرة عذابها في الدنيا الفتن والزلازل والقتل
أخرجه أبو داود عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل أمتي كمثل المطر لا يدري آخره خير أم أوله
أخرجه الترمذي وله عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أهل الجنة عشرون ومائة صف
ثمانون منها من هذه الامة وأربعون من سائر الامم وله عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم باب
أمتي الذي يدخلون منه الجنة عرضه مسيرة الراكب المسرع المجد ثلاثا ثم انهم يتضاغطون عليه حتى تكاد
مناكبهم تزول قال الترمذي سألت محمدا يعني البخاري عن هذا الحديث فلم يعرفه وقال خالد بن أبي بكر
مناكير عن سالم بن عبد الله زاد غيره في الحديث وهم شركاء الناس في سائر الابواب عن أبي سعيد الخدري

قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمتي من يشفع في الفئام من الناس ومنهم من يشفع في القبيلة ومنهم من يشفع للعصبة ومنهم من يشفع للواحد أخرجه الترمذي (خ) عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفا أو سبعمائة ألف سماطين متماسكين آخذ بعضهم ببعض حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة وجوههم على صورة القمر ليلة البدر عن أبي امامة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وعدني ربي أن يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب ومع كل ألف سبعون ألفا وثلاث حثيات من حثيات ربي أخرجه الترمذي وروى البغوي باسناد الثعلبي عن عمر بن الخطاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الجنة حرمت على الانبياء كلهم حتى أدخلها وحرمت على الامم حتى تدخلها أمتي ۞ وقوله تعالى (أخرجت للناس) معناه كنتم خير الامم المخرجة للناس في جميع الاعصار ومعنى أخرجت أظهرت للناس حتى تميزت وعرفت وقيل معناه كنتم للناس خير أمة أخرجت (خ) عن أبي هريرة قال كنتم خير أمة أخرجت للناس قال خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الاسلام وقيل أخرجت صلة والتقدير كنتم خير أمة للناس وقيل معناه ما أخرج للناس أمة خير من أمة محمد صلى الله عليه وسلم (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) هذا كلام مستأنف والمقصود منه بيان علة تلك الخيرية وكونهم خير أمة كما تقول زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بمصالحهم والمعروف هو التوحيد والمنكر هو الشرك والمعنى تأمرون الناس بقول لا اله الا الله وتنهونهم عن الشرك (وتؤمنون بالله) أي وتصدقون بالله وتخلصون له التوحيد والعبادة فان قلت لم قدم الامر بالمعروف والنهي عن المنكر على الايمان بالله في الذكر مع ان الايمان يلزم أن يكون مقدما على كل الطاعات والعبادات قلت الايمان بالله أمر يشترك فيه جميع الامم المؤمنة وانما فضلت هذه الامة الاسلامية بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر على سائر الامم واذا كان كذلك كان المؤثر في هذه الخيرية هو الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وأما الايمان بالله فهو شرط في هذا الحكم لانه ما لم يوجد الايمان لم يصر شيء من الطاعات مقبولا فثبت ان الموجب لهذه الخيرية لهذه الامة هو كونهم آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر فلهذا السبب حسن تقديم ذكر الامر بالمعروف والنهي عن المنكر على ذكر الايمان ۞ وقوله تعالى (ولو آمن أهل الكتاب) يعني ولو آمن اليهود والنصارى بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالدين الذي جاء به (لكان خيرا لهم) يعني مما هم عليه من اليهودية والنصرانية وانما حملهم على ذلك حب الرياسة واستتباع العوام ولو أنهم آمنوا لحصلت لهم الرياسة في الدنيا والثواب العظيم في الآخرة وهو دخول الجنة (منهم) يعني من أهل الكتاب (المؤمنون) يعني عبد الله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا من اليهود والنجاشي وأصحابه الذين أسلموا من النصارى (وأكثرهم الفاسقون) أي المتمردون في الكفر وقيل ان الكافر قد يكون عدلا في دينه وهؤلاء مع كفرهم فاسقون ۞ قوله عز وجل (لن يضروكم الا أذى) سبب نزول هذه الآية ان رؤساء اليهود عمدوا الى من آمن منهم مثل عبد الله بن سلام وأصحابه فآذوهم لاسلامهم فانزل الله تعالى لن يضروكم الا أذى يعني لن يضركم أيها المؤمنون هؤلاء اليهود الا أذى يعني باللسان من طعنهم في دينكم أو تهديد أو القاء شبهة وتشكيك في القلوب وكل ذلك يوجب الاذى والغم (وان يقاتلوكم يولوكم الادبار) يعني منهزمين مخذولين (ثم لا ينصرون) يعني لا يكون لهم النصر عليكم بل تنصرون عليهم وفيه تثبيت لمن أسلم من أهل الكتاب لانهم كانوا يؤذونهم بالقول ويهددونهم ويوبخونهم فاعلمهم الله تعالى انهم لا يقدرون أن يجاوزوا الاذى بالقول الى غيره من الضرر ثم وعدهم الغلبة والانتقام منهم وان عاقبتهم الخذلان والذل فقال تعالى (ضربت

(أخرجت) أظهرت (للناس) اللام يتعلق باخرجت (تأمرون) كلام مستأنف بين به كونهم خير أمة كما تقول زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم يبنت بالاطعام والالباس وجه الكرم فيه (بالمعروف) بالايمان وطاعة الرسول (وتنهون عن المنكر) عن الكفر وكل محظور (وتؤمنون بالله) وتدومون على الايمان به أولان الواو لا تقتضي الترتيب (ولو آمن أهل الكتاب) بمحمد عليه السلام (لكان خيرا لهم) لكان الايمان خيرا لهم مما هم فيه لانهم انما آثروا دينهم عن دين الاسلام حبا للرياسة واستتباع العوام ولو آمنوا لكان خيرا لهم من الرياسة والاتباع وحظوظ الدنيا مع الفوز بما وعدوا على الايمان به من ايتاء الاجر مرتين (منهم المؤمنون) كعبد الله ابن سلام وأصحابه (وأكثرهم الفاسقون) المتمردون في الكفر (لن يضروكم الا أذى) الا ضرارا مقتصرا على أذى يقول من طعن في الدين أو تهديد أو نحو ذلك (وان يقاتلوكم يولوكم الادبار) منهزمين ولا يضروكم بقتل أو أسر (ثم لا ينصرون) ثم لا يكن لهم نصر من أحد ولا يمنعون منكم وفيه تثبيت لمن أسلم منهم لانهم كانوا يؤذونهم بتوبيخهم وتهديدهم وهو ابتداء اخبار معطوف على جملة الشرط والجزاء وليس بمعطوف على يولوكم اذ لو كان معطوفا عليه لقيل ثم لا ينصروا

وانما استؤنف ليؤذن ان الله لا ينصرهم قاتلوا أو لم يقاتلوا وتقدير الكلام أخبركم انهم ان يقاتلوكم ينهزموا ثم أخبركم انهم لا ينصرون وثم للتراخي في المرتبة لان الاخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الاخبار بتوليتهم الادبار (ضربت) ألزمت

(عليهم الذلة) أي على اليهود (أينما ثقفوا) وجدوا (الا بحبل من الله) في محل النصب على الحال والباء متعلق بمحذوف تقديره الا معتصمين أو متمسكين بحبل من الله (وحبل من الناس) والحبل العهد والذمة والمعنى ضربت عليهم الذلة في كل حال الا في حال

(عليهم الذلة) يعني جعلت الذلة ملصقة بهم كالشيء يضرب على الشيء فيلتصق به والمراد بالذلة قتلهم وسبيهم وغنيمة أموالهم وقيل الذلة ضرب الجزية عليهم لانها ذلة وصغار وقيل ذاتهم انك لا ترى في اليهود ملكا قاهرا ولا رئيسا معتبرا بل هم مستضعفون في جميع البلاد (أينما ثقفوا) أي حيثما وجدوا وصودفوا (الا بحبل من الله) يعني الا بعهد من الله وهو أن يسلموا فتزول عنهم الذلة (وحبل من الناس) يعني المؤمنين ببذل الجزية والمعنى ضربت عليهم الذلة في عامة الاحوال الا في حال اعتصامهم بحبل الله وحبل الناس وهو ذمة الله وعهده وذمة المسلمين وعهدهم لا عز لهم الا هذه الواحدة وهي التجاؤهم الى الذمة لما قبلوه من بذل الجزية وانما سمي العهد حبلا لانه سبب يوصل الى الامن وزوال الخوف (وباؤا بغضب من الله) يعني رجعوا بغضب من الله واستوجبوه وقيل أصله من البواء وهو المكان والمعنى انهم مكثوا في غضب من الله وحلوا فيه (وضربت عليهم المسكنة) يعني كما يضرب البيت على أهله فهم ساكنون في المسكنة غير خارجين منها قال الحسن المسكنة هي الجزية وذلك لان الله تعالى أخرج المسكنة عن الاستثناء وذلك يدل على انها باقية عليهم والباقي عليهم هو الجزية فدل على ان المسكنة هي الجزية وقيل المراد بالمسكنة هو ان اليهودي يظهر من نفسه الفقر وان كان غنيا موسرا (ذلك) اشارة الى ما ذكر من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب (بانهم) أي بسبب انهم (كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) أي ذلك الذي نزل بهم بسبب عصيانهم لله عز وجل وتعديهم لحدوده فنزل بهم ما نزل ۞ قوله عز وجل (ليسوا سواء) قال ابن عباس لما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه قالت أحبار اليهود ما آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم الا شرارنا ولولا ذلك ما تركوا دين آبائهم فانزل الله تعالى هذه الآية وفي قوله ليسوا سواء قولان أحدهما انه كلام تام يوقف عليه والمعنى أن أهل الكتاب الذين سبق ذكرهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ليسوا سواء وقيل معناه لا يستوي اليهود وأمة محمد صلى الله عليه وسلم القائمة بأمر الله الثابتة على الحق والقول الثاني ان قوله ليسوا سواء متعلق بما بعده ولا يوقف عليه ۞ وقوله (من أهل الكتاب أمة قائمة) فيه اختصار واضمار والتقدير ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة ومنهم أمة مذمومة غير قائمة فترك ذكر الامة الاخرى اكتفاء بذكر أحد الفريقين وهذا على مذهب العرب ان ذكر أحد الضدين يغني عن ذكر الآخر قال أبو ذؤيب

دعاني اليها القلب اني امرؤها * مطيع فلا أدري أرشد طلابها

أراد أم غير فاكتفى بذكر أحد الرشدين دون الآخر وقال الزجاج لا حاجة الى اضمار الامة المذمومة لانه قد جرى ذكر أهل الكتاب بقوله كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء بغير حق فاعلم الله أن منهم أمة قائمة فلا حاجة بنا الى أن نقول وأمة غير قائمة وانما ابتدأ بذكر فعل الاكثر منهم وهو الكفر والمشاقة ثم ذكر من كان مباينا لهم في فعلهم فقال ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة قال ابن عباس قائمة أي مهدية قائمة على أمر الله تعالى لم يضيعوه ولم يتركوه وقيل قائمة أي عادلة وقيل قائمة على كتاب الله عز وجل وحدوده وقيل قائمة في الصلاة (يتلون آيات الله) أي يقرؤن كتاب الله عز وجل (آناء الليل) يعني ساعاته (وهم يسجدون) يعني يصلون عبر بالسجود عن الصلاة لان التلاوة لا تكون في السجود وقيل هي صلاة التهجد بالليل وقيل هي صلاة العشاء لان اليهود لا يصلونها وقيل يحتمل أنه أراد بالسجود الخضوع والخشوع لان العرب تسمي الخشوع سجودا وقال عطاء في قوله تعالى ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يريد أربعين

اعتصامهم بحبل الله وحبل الناس يعني ذمة الله وذمة المسلمين أي لا عز لهم قط الا هذه الواحدة وهي التجاؤهم الى الذمة لما قبلوه من الجزية (وباؤا بغضب من الله) استوجبوه (وضربت عليهم المسكنة) الفقر عقوبة لهم على قولهم ان الله فقير ونحن أغنياء أو خوف الفقر مع قيام اليسار (ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء بغير حق) ذلك اشارة الى ما ذكر من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بغضب الله أي ذلك كائن بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم الانبياء بغير حق ثم قال (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) أي ذلك الكفر وذلك القتل كائن بسبب عصيانهم لله واعتدائهم لحدوده (ليسوا سواء) ليس أهل الكتاب مستوين (من أهل الكتاب) كلام مستأنف لبيان قوله ليسوا سواء كما وقع قوله تأمرون بالمعروف بيانا لقوله كنتم خير أمة (أمة قائمة) جماعة مستقيمة عادلة من قولك أقمت العود فقام أي استقام وهم الذين أسلموا منهم (يتلون آيات الله) القرآن (آناء الليل) ساعاته واحدها انى رجلا كمعى أو انو كقنو أو انى كنحي (وهم يسجدون) يصلون قيل يريد صلاة العشاء لان أهل الكتاب لا يصلونها وقيل عبر عن تهجدهم بتلاوة القرآن في ساعات الليل مع السجود

(يؤمنون بالله واليوم الآخر و يأمرون بالمعروف) بالايمان وسائر أبواب البر (و ينهون عن المنكر) عن الكفر ومنهيات الشرع (و يسارعون فى الخيرات) يبادرون اليها خشية الفوت وقوله يتلون و يؤمنون فى محل الرفع صفتان لامة أى أمة قائمة تالون مؤمنون ووصفهم بخصائص ما كانت فى اليهود من تلاوة آيات الله بالليل ساجدين ومن الايمان بالله لان ايمانهم به كلا ايمان لاشراكهم به عزيرا وكفرهم ببعض الكتب والرسل ومن الايمان باليوم الآخر لانهم يصفونه بخلاف صفته ومن الامر بالمعروف والنهى عن المنكر لانهم كانوا مداهنين ومن المسارعة فى الخيرات لانهم كانوا متباطئين عنها غير راغبين فيها والمسارعة فى الخير فرط الرغبة فيه لان من رغب فى الامر سارع بالقيام به (وأولئك) الموصوفون بما وصفوا به (من الصالحين) من المسلمين أو من جملة الصالحين الذين صلحت أحوالهم عند الله ورضيهم (وما يفعلوا من خير فلن يكفروه) بالياء فيهما كوفى غير أبى بكر وأبو عمرو مخير غيرهم بالتاء وعدى يكفروه الى مفعولين وان كان شكر وكفر لا يتعديان الا الى واحد تقول شكر النعمة وكفرها لتضمنه معنى الحرمان كانه قيل فلن تحرموه أى فلن تحرموا جزاءه (والله عليم بالمتقين) بشارة للمتقين بجزيل الثواب (ان الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيأ) أى من عذاب الله (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا) فى المفاخر والمكارم وكسب الثناء وحسن الذكر بين الناس أو ما يتقربون به الى الله مع

رجلا من أهل نجران من العرب واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى عليه الصلاة والسلام وصدقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وآمنوا به وكان عدة نفر من الانصار منهم أسعد بن زرارة والبراء بن معرور ومحمد بن مسلمة وأبو قيس صرمة بن أنس كانوا قبل الاسلام موحدين يغتسلون من الجنابة و يقومون بما عرفوا من شرائع الحنيفية حتى جاءهم الله عز وجل بالنبى صلى الله عليه وسلم فآمنوا به وصدقوه ثم وصفهم الله تعالى بصفات ما كانت فى اليهود فقال (يؤمنون بالله واليوم الآخر) وذلك لان ايمان أهل الكتاب فيه شرك و يصفون اليوم الآخر بغير ما يصفه المؤمنون وقيل ان الايمان بالله يستلزم الايمان بجميع أنبيائه ورسله واليهود يؤمنون ببعض الانبياء ويكفرون ببعض والايمان باليوم الآخر يستلزم الحذر من فعل المعاصى واليهود لا يحترزون منها فلم يحصل الايمان الخالص بالله واليوم الآخر (و يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) يعنى غير مداهنين كما يداهن اليهود بعضهم بعضا وقيل يأمرون بالمعروف يعنى بتوحيد الله تعالى والايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم و ينهون عن المنكر يعنى عن الشرك وعن كتم صفة محمد صلى الله عليه وسلم (و يسارعون فى الخيرات) أى يبادرون اليها خوف الفوت وذلك ان من رغب فى أمر سارع اليه وقام به غير متوان عنه وقيل يسارعون فى الخيرات غير متثاقلين ولا كسالى (وأولئك) اشارة الى الموصوفين بما وصفوا به (من الصالحين) أى من جملة الصالحين الذين صلحت أحوالهم عند الله عز وجل ورضى عنهم واستحقوا ثناءه عليهم وذلك لان الصلاح ضد الفساد فاذا حصل الصلاح للانسان فقد حصل له أعلى الدرجات وأكمل المقامات وقيل يحتمل أن يراد بالصالحين المسلمون والمعنى وأولئك الذين تقدم وصفهم من جملة المسلمين ۞ قوله عز وجل (وما يفعلوا من خير فلن يكفروه) قرئ بالياء لان الكلام متصل بما قبله من ذكر مؤمنى أهل الكتاب وذلك ان اليهود لما قالوا لعبد الله بن سلام وأصحابه انكم خسرتم بسبب هذا الدين الذى دخلتم فيه فاخبر الله تعالى أنهم فازوا بالدرجات العلى وما فعلوه من خير يجازيهم به ولا يمنع من خصوص السبب عموم الحكم فيدخل فيه كل فاعل للخير وقرئ بالتاء على انه ابتداء كلام وهو خطاب لجميع المؤمنين و يدخل فيه مؤمنو أهل الكتاب أيضا ومعنى الآية وما تفعلوا من خير أيها المؤمنون فلن تكفروه أى فلن تعدموا ثوابه ولن تحرموه أو تمنعوه بل يشكره لكم و يجازيكم به (والله عليم بالمتقين) فيه بشارة للمتقين بجزيل الثواب ودلالة على انه لا يفوز عنده الا أهل الايمان والتقوى ۞ قوله عز وجل (ان الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيأ) قال ابن عباس يريد بنى قريظة والنضير وذلك ان رؤساء اليهود مالوا الى تحصيل الاموال فى معاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما كان مقصودهم بمعاداته تحصيل الرياسة والاموال فقال الله عز وجل لن تغنى عنهم أموالهم وقيل نزلت فى مشركى قريش فان أبا جهل كان كثير الافتخار بالاموال وأنفق أبو سفيان مالا كثيرا فى يومى بدر وأحد على المشركين وقيل ان الآية عامة فى جميع الكفار لان اللفظ عام ولا دليل يوجب التخصيص فوجب اجراء اللفظ على عمومه ومعنى الآية ان الذين كفروا لن تغنى أى تدفع عنهم أموالهم بالفدية لو افتدوا بها من عذاب الله ولا أولادهم بالنصر وانما خص الاموال والاولاد بالذكر لان الانسان يدفع عن نفسه تارة بالفداء بالمال وتارة بالاستعانة بالاولاد فاعلم الله تعالى ان الكافر لا ينفعه شئ من ذلك فى الآخرة ولا مخلص له من عذاب الله وهو قوله (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) لا يخرجون منها ولا يفارقونها ۞ قوله عز وجل (مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا) قيل أراد نفقة أبى سفيان وأصحابه ببدر وأحد فى معاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل أراد نفقة اليهود على علمائهم ورؤسائهم وقيل أراد نفقات جميع الكفار

وصدقاتهم في الدنيا وقيل أراد نفقة المرائي الذي لا يريد بما ينفق وجه الله تعالى وذلك لان انفاقهم المال اما أن يكون لمنافع الدنيا أو لمنافع الآخرة فان كان لمنافع الدنيا لم يبق له أثر في الآخرة في حق المسلم فضلا عن الكافر وان كان لمنافع الآخرة كمن يتصدق و يعمل أعمال البر فان كان كافرا فان الكفر محبط لجميع أعمال البر فلا ينتفع بما أنفق في الدنيا لاجل الآخرة وكذلك المرائي الذي لا يريد بما أنفق وجه الله تعالى فانه لا ينتفع بنفقته في الآخرة ثم ضرب لذلك الانفاق مثلا فقال تعالى (كمثل ريح فيها صر) فيه وجهان أحدهما وهو قول أكثر المفسرين وأهل اللغة أن الصر البرد الشديد و به قال ابن عباس وقتادة والسدي وابن زيد والوجه الثاني أن الصر هو السموم الحارة التي تقتل وهو رواية عن ابن عباس و به قال ابن الانباري من أهل اللغة وعلى الوجهين فالتشبيه صحيح والمقصود منه حاصل لانها سواء كان فيها برد فهي مهلكة أو حر فهي مهلكة أيضا (أصابت) يعني الريح التي فيها صر (حرث قوم) أي زرع قوم (ظلموا أنفسهم) يعني بالكفر والمعاصي ومنع حق الله فيه (فأهلكته) يعني فأهلكت الريح الزرع ومعنى الآية مثل نفقات الكفار في ذهابها وقت الحاجة اليها كمثل زرع أصابته ريح باردة فأهلكته أو نار فأحرقته فلم ينتفع به أصحابه فان قلت الغرض تشبيه ما أنفقوا و ابطال ثوابه وعدم الانتفاع به بالحرث الذي هلك بالريح فكيف شبهه بالريح المهلكة للحرث قلت هو من التشبيه المركب وهو ما حصلت فيه المشابهة بين ما هو المقصود من الجملتين وان لم تحصل المشابهة بين أجزاء الجملتين فعلى هذا زال الاشكال ومن التشبيه ما حصلت فيه المشابهة بين المقصود من الجملتين و بين أجزاء كل واحدة منهما فان جعلنا هذا المثل من هذا القسم ففيه وجهان أحدهما أن يكون التقدير مثل الكفر في اهلاك ما ينفقون كمثل الريح المهلكة للحرث الوجه الثاني مثل ما ينفقون كمثل مهلك الريح وهو الحرث والمقصود من ضرب هذا المثل هو تشبيه ما ينفقون بشيء يذهب بالكلية ولا يبقى منه شيء وقوله تعالى (وما ظلمهم الله) يعني بان لم يقبل نفقاتهم (ولكن أنفسهم يظلمون) يعني انهم عصوا الله فاستحقوا عقابه فأبطل نفقاتهم وأهلك حرثهم وقيل ظلموا أنفسهم حيث لم يأتوا بنفقاتهم مستحقة للقبول ۞ قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة) الآية قال ابن عباس كان رجال من المسلمين يواصلون اليهود لما بينهم من القرابة والصداقة والحلف والجوار والرضاع فأنزل الله عز وجل هذه الآية فنهاهم عن مباطنتهم خوف الفتنة عليهم و يدل على صحة هذا القول ان الآيات المتقدمة فيها ذكر اليهود فتكون هذه الآية كذلك وقيل كان قوم من المؤمنين يصافون المنافقين و يفشون اليهم الاسرار و يطلعونهم على الاحوال الخفية فنهاهم الله عن ذلك وحجة هذا القول ان الله ذكر في سياق هذه الآية قوله واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ وهذه صفة المنافقين لا صفة اليهود وقيل المراد بهذه جميع أصناف الكفار و يدل على صحة هذا القول معنى الآية لان الله تعالى قال لا تتخذوا بطانة من دونكم فمنع المؤمنين ان يتخذوا بطانة من دون المؤمنين فيكون ذلك نهيا عن جميع الكفار والبطانة خاصة الرجل المطلع على سره واشتقاقه من بطانة الثوب بدلالة قولهم لبست فلانا اذا اختصصته و يقال فلان شعاري ودثاري والشعار الذي يلي الجسد وكذلك البطانة والحاصل ان الذي يخصه الانسان بمزيد القرب يسمى بطانة لانه يستبطن أمره و يطلع منه على ما لا يطلع عليه غيره (من دونكم) قيل من صلة زائدة والتقدير لا تتخذوا بطانة دونكم وقيل من للتبيين أي لا تتخذوا بطانة من دون أهل ملتكم والمعنى لا تتخذوا أولياء ولا أصفياء من غير أهل ملتكم ثم بين سبحانه وتعالى علة النهي عن مباطنتهم فقال تعالى (لا يألونكم خبالا) يعني لا يقصرون ولا يتركون جهدهم فيما يورثكم الشر والفساد وهو الخبال لان أصل الخبال الفساد والضرر الذي يلحق الانسان فيورثه نقصان العقل (ودوا ما عنتم) أي يودون عنتكم وهو ما يشق عليكم من الضرر

كفرهم (كمثل ريح) كمثل مهلك ريح وهو الحرث أو مثل اهلاك ما ينفقون كمثل اهلاك ريح (فيها صر) برد شديد عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو مبتدأ وخبر في موضع جر صفة لريح مثل (أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم) بالكفر (فأهلكته) عقوبة على كفرهم (وما ظلمهم الله) باهلاك حرثهم (ولكن أنفسهم يظلمون) بارتكاب ما استحقوا به العقوبة أو يكون الضمير للمنافقين أي وما ظلمهم الله بان لم يقبل نفقاتهم ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث لم يأتوا بها لائقة للقبول ونزل نهيا للمؤمنين عن مصافاة المنافقين (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة) بطانة الرجل ووليجته خصيصته وصفيه شبه ببطانة الثوب كما يقال فلان شعاري وفي الحديث الانصار شعار والناس دثار (من دونكم) من دون أبناء جنسكم وهم المسلمون وهو صفة لبطانة أي بطانة كائنة من دونكم مجاوزة لكم (لا يألونكم خبالا) في موضع النصب صفة لبطانة يعني لا يقصرون في فساد دينكم يقال ألا في الامر يألو اذا قصر فيه والخبال الفساد وانتصب خبالا على التمييز أو على حذف في أي في خبالكم (ودوا ما عنتم) أي عنتكم فما مصدرية والعنت شدة الضرر والمشقة أي تمنوا ان يضروكم في دينكم ودنياكم أشد الضرر وأبلغه وهو مستأنف على وجه التعليل للنهي عن اتخاذهم بطانة كقوله

والشر

(قد بدت البغضاء من أفواههم) لانهم لا يتمالكون مع ضبطهم أنفسهم ان ينفلت من ألسنتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين (وما تخفي صدورهم) من البغض لكم (أكبر) مما بدا (قد بينا لكم الآيات) الدالة على وجوب الاخلاص في الدين وموالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه (ان كنتم تعقلون) ما بين لكم (هاأنتم أولاء) ها للتنبيه وأنتم مبتدأ وأولاء خبره أي أنتم أولاء الخاطؤن في موالاة منافقي أهل الكتاب (تحبونهم ولا يحبونكم) بيان لخطئهم في موالاتهم حيث يبذلون محبتهم لاهل البغضاء وأولاء موصول صلته تحبونهم والواو في (وتؤمنون بالكتاب كله) للحال وانتصابها من لا يحبونكم أي لا يحبونكم والحال انكم تؤمنون بكتابهم كله وهم مع ذلك يبغضونكم فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشئ من كتابكم وفيه توبيخ شديد لانهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم وقيل الكتاب للجنس (واذا لقوكم قالوا آمنا) أظهروا كلمة التوحيد (واذا خلوا) فارقوكم أو خلا بعضهم ببعض (عضوا عليكم الانامل من الغيظ) يوصف المغتاظ والنادم بعض الانامل والبنان والابهام (قل موتوا بغيظكم) دعاء عليهم بان يزداد غيظهم حتى يهلكوا به والمراد بزيادة الغيظ زيادة ما يغيظهم من قوة الاسلام وعز أهله وما لهم في ذلك من الذل والخزي (ان الله عليم بذات الصدور) فهو يعلم ما في صدور المنافقين من الحنق والبغضاء وما يكون منهم في حال خلو بعضهم ببعض وهو داخل في جملة المقول أي أخبرهم بما يسرونه من عضهم الانامل غيظا اذا خلوا وقل لهم ان الله عليم بما هو أخفى مما تسرونه بينكم وهو مضمرات الصدور فلا تظنوا ان شيأ من أسراركم يخفى عليه أو خارج عن المقول أي قل لهم ذلك يا محمد ولا تتعجب من اطلاعي اياك على ما يسرون فاني أعلم بما هو أخفى من ذلك وهو ما أضمروه في صدورهم (ان تمسسكم حسنة) رخاء وخصب وغنيمة ونصرة (تسؤهم) تحزنهم اصابتها (وان تصبكم سيئة) اضدادما ذكرنا والمس مستعار من الاصابة فكان المعنى واحدا ألا ترى الى قوله تعالى ان تصبك حسنة تسؤهم وان تصبك مصيبة (يفرحوا بها) باصابتها (وان تصبروا) على عداوتهم

والشر والهلاك والعنت المشقة (قد بدت البغضاء من أفواههم) أي ظهرت العداوة من أفواههم بالشتيمة والوقيعة بين المسلمين وقيل هو اطلاع المشركين على أسرار المؤمنين (وما تخفي صدورهم) يعني من العداوة والغيظ (أكبر) أي أعظم مما يظهرونه (قد بينا لكم الآيات) يعني الدالة على وجوب الاخلاص في الدين من موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين (ان كنتم تعقلون) يعني ما بين لكم فتتعظون به ۞ قوله تعالى (هاأنتم) ها للتنبيه وأنتم كناية للمخاطبين من الذكور (أولاء) اسم للمشار اليهم في قوله (تحبونهم) والمعنى أنتم أيها المؤمنون تحبون هؤلاء اليهود الذين نهيتكم عن مباطنتهم للاسباب التي بينكم وبينهم من القرابة والرضاع والمصاهرة والحلف (ولا يحبونكم) يعني اليهود لما بينكم وبينهم من المخالفة في الدين وقيل تحبونهم يعني تريدون لهم الاسلام وهو خير الاشياء ولا يحبونكم لانهم يريدون لكم الكفر وهو شر الاشياء لان فيه هلاك الابد وقيل هم المنافقون تحبونهم لما أظهروا من الايمان وأنتم لا تعلمون ما في قلوبهم ولا يحبونكم لان الكفر ثابت في قلوبهم وقيل تحبونهم وذلك بان تفشوا اليهم أسراركم ولا يحبونكم أي لا يفعلون مثل ذلك معكم (وتؤمنون بالكتاب كله) يعني وهم لا يؤمنون وانما ذكر الكتاب بلفظ الواحد والمراد به الجمع لانه ذهب به الى الجنس كقولهم كثر الدرهم في أيدي الناس والمعنى انكم تؤمنون بالكتب كلها وهم لا يؤمنون بشئ من كتابكم (واذا لقوكم قالوا آمنا) يعني ان الذين وصفهم في هذه الآية بهذه الصفات اذا لقوا المؤمنين قالوا آمنا كايمانكم وصدقنا كتصديقكم وهذه صفة المنافقين وقيل هم اليهود (واذا خلوا) أي خلا بعضهم الى بعض (عضوا عليكم الانامل من الغيظ) الانامل جمع أنملة وهي طرف الاصبع والمعنى انه اذا خلا بعضهم ببعض أظهروا العداوة وشدة الغيظ على المؤمنين لما يرون من ائتلافهم واجتماع كلمتهم وصلاح ذات بينهم وعض الانامل عبارة عن شدة الغيظ وهذا من مجاز الامثال وان لم يكن هناك عض كما يقال عض يده من الغيظ والغضب (قل موتوا بغيظكم) هذا دعاء عليهم أن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به وذلك لما يرون من قوة الاسلام وعزة أهله وما لهم في ذلك من الذل والخزي والمعنى ابقوا الى الممات بغيظكم (ان الله عليم بذات الصدور) يعني به الخواطر القائمة بالقلب والدواعي والصوارف الموجودة فيه وهي لكونها حالة في القلب منتسبة اليه كني عنها بذوات الصدور والمعنى انه تعالى عالم بكل ما يحصل في قلوبكم من الخواطر فاخبرهم انه عليم بما يسرونه من عض الانامل غيظا اذا خلوا وانه عليم بما هو أخفى منه وهو ما يسرونه في قلوبهم * قوله عز وجل (ان تمسسكم) أي تصبكم أيها المؤمنون وأصل المس باليد ثم يسمى كل ما يصل الى شئ ماساله على سبيل التشبيه كما يقال مسه نصب وتعب أي اصابه (حسنة) المراد بالحسنة هنا منافع الدنيا مثل ظهوركم على عدوكم واصابتكم غنيمة منهم وتتابع الناس في الدخول في دينكم وخصب في معايشكم (تسؤهم) أي تحزنهم وتغمهم والسوء ضد الحسنى (وان تصبكم سيئة) أي مساءة من اخفاق سرية لكم أو اصابة عدو منكم أو اختلاف يقع بينكم أو غدر ونكبة ومكروه يصيبكم (يفرحوا بها) أي بما أصابكم من ذلك المكروه (وان تصبروا) يعني على أذاهم وقيل ان

تصبروا على طاعة الله وما ينالكم فيها من شدة (وتتقوا) أي تخافوا ربكم وقيل وتتقوا ما نهاكم عنه وتتوكلوا عليه (لايضركم) أي لا ينقصكم (كيدهم) أي عداوتهم ومكرهم (شيأ) أي لانكم في عناية الله وحفظه (ان الله بما يعملون) قرئ بالياء على الغيبة والمعنى انه عالم بما يعملون من عداوتكم وأذاكم فيعاقبهم عليه وقرئ بالتاء على خطاب الحاضر والمعنى انه عالم بما تعملون أيها المؤمنون من الصبر والتقوى فيجازيكم عليه (محيط) أي عالم بجميع ذلك حافظ له لا يعزب عنه شئ منه ۞ قوله عز وجل (واذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال) قال جمهور المفسرين ان هذا كان في يوم أحد وهو قول عبد الرحمن بن عوف وابن مسعود وابن عباس والزهري وقتادة والسدي والربيع وابن اسحق وقال الحسن ومجاهد ومقاتل انه يوم الاحزاب ونقل عن الحسن أيضا انه يوم بدر قال ابن جرير الطبري الاول أصح لقوله اذ همت طائفتان منكم أن تفشلا وقد اتفق العلماء ان ذلك كان يوم أحد قال مجاهد والكلبي والواقدي غدا رسول الله صلى الله عليه وسلم من منزل عائشة فمشى على رجليه الى أحد فجعل يصف أصحابه للقتال كما يقوم القدح قال محمد بن اسحق والسدي عن رجالهما ان المشركين نزلوا باحد يوم الاربعاء فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنزولهم استشار أصحابه ودعا عبد الله بن أبي ابن سلول ولم يدعه قط قبلها فاستشاره فقال عبد الله بن أبي وأكثر الانصار يا رسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج اليهم فوالله ما خرجنا منها الى عدو قط الا أصاب منا ولا دخلها علينا الا أصبنا منه فكيف وأنت فينا فدعهم يا رسول الله فان أقاموا أقاموا بشر مجلس وان دخلوا قاتلتهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم وان رجعوا رجعوا خائبين فاعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الرأي وقال بعض أصحابه يا رسول الله أخرج الى هذه الاكلب لئلا يروا أنا جبنا عنهم وضعفنا خفناهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اني قد رأيت في منامي بقرا فاولتها خيرا ورأيت في ذباب سيفي ثلما فاولتها هزيمة ورأيت اني أدخلت يدي في درع حصينة فاولتها المدينة فان رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم فان أقاموا أقاموا بشر وان دخلوا علينا المدينة قاتلناهم فيها وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه أن يدخلوا عليه المدينة فيقاتلهم في الازقة فقال رجال من المسلمين ممن فاتهم يوم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد اخرج بنا الى أعدائنا فلم يزالوا برسول الله صلى الله عليه وسلم من حبهم للقاء القوم حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم منزله ولبس لامته فلما رأوه قد لبس السلاح ندموا وقالوا بئس ما صنعنا نشير على رسول الله صلى الله عليه وسلم والوحي يأتيه فقاموا واعتذروا اليه وقالوا يا رسول الله اصنع ما شئت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينبغي لنبي أن يلبس لامته فيضعها حتى يقاتل وكان قد قام المشركون باحد يوم الاربعاء والخميس وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة بعد ما صلى باصحابه الجمعة وكان قد مات في ذلك اليوم رجل من الانصار فصلى عليه ثم خرج عليهم فاصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال سنة ثلاث من الهجرة وقيل كان نزوله في جانب الوادي وجعل ظهره وأصحابه الى أحد وأمر عبد الله بن جبير على الرماة وقال ادفعوا عنا بالنبل حتى لا يأتونا من ورائنا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اثبتوا في هذا المقام فاذا عاينوكم ولوا الادبار فلا تطلبوا المدبرين ولا تخرجوا من هذا المقام ولما خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم رأي عبد الله بن أبي ابن سلول شق عليه ذلك قال لاصحابه أطاع الولدان وعصاني ثم قال لاصحابه ان محمدا انما يظفر بعدوه بكم وقد وعد أصحابه ان أعداءهم اذا عاينوهم انهزموا فاذا رأيتم أعداءهم فانهزموا أنتم فيتبعونكم فيصير الامر الى خلاف ما قاله محمد لاصحابه فلما التقى الجمعان وكان عسكر المسلمين ألفا وكان المشركون ثلاثة آلاف انخذل عبد الله بن أبي ابن سلول بثلثمائة من أصحابه من المنافقين وبقي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو سبعمائة من أصحابه فقواهم الله تعالى واثبتهم حتى هزموا المشركين فلما رأى المؤمنون انهزام المشركين طمعوا في أن تكون هذه الوقعة

(وتتقوا) ما نهيتم عنه من موالاتهم أو وان تصبروا على تكاليف الدين ومشاقه وتتقوا الله في اجتنابكم محارمه (لايضركم كيدهم شيأ) مكرهم وكنتم في حفظ الله وهذا تعليم من الله وارشاد الى ان يستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى وقال الحكماء اذا أردت أن تكبت من يحسدك فازدد فضلا في نفسك لايضركم مكي وبصري ونافع من ضاره يضيره بمعنى ضره وهو واضح والمشكل قراءة غيرهم لانه جواب الشرط وجواب الشرط مجزوم فكان ينبغي أن يكون بفتح الراء كقراءة المفضل عن عاصم الا ان ضمت الراء لاتباع ضمة الضاد نحو مد ياهذا (ان الله بما تعملون) بالتاء سهل أي من الصبر والتقوى وغيرهما (محيط) ففاعل بكم ما أنتم أهله وبالياء غيره أي انه عالم بما يعملون في عداوتكم فمعاقبهم عليه (واذ غدوت من أهلك) واذكر يا محمد اذ خرجت غدوة من أهلك بالمدينة والمراد غدوه من حجرة عائشة رضي الله عنها الى أحد (تبوئ المؤمنين) تنزلهم وهو حال (مقاعد للقتال) مواطن ومواقف من الميمنة والميسرة والقلب والجناحين والساقة وللقتال يتعلق بتبوئ

كوقعة بدر فطلبوا المدبرين وخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فاراد الله أن يقطعهم عن هذا الفعل
لايقدموا على مثله من مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وليعلموا ان ظفرهم يوم بدر انما كان ببركة
اعة الله وطاعة رسوله ثم ان الله تعالى نزع الرعب من قلوب المشركين فكروا راجعين على المسلمين فانهزم
سلمون وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جماعة من أصحابه منهم أبو بكر وعلى والعباس ٣ وطلحة
سعد وكسرت رباعية رسول الله صلى الله عليه وسلم وشج وجهه يومئذ وكان من أمر غزوة أحد ما كان فذلك
له تعالى واذ غدوت من أهلك أى واذكر اذ غدوت من أهلك يعنى من منزل عائشة ففيه منقبة عظيمة
ائشة رضى الله عنها لقوله من أهلك فنص الله تعالى على انها من أهله تبوئ المؤمنين أى تنزل المؤمنين
اعد للقتال أى مواضع ومواطن للقتال وقيل تتخذ عسكرا للقتال (والله سميع) يعنى لاقوالكم (عليم) يعنى
يانكم وبما فى ضمائركم ۞ قوله عز وجل (اذ همت طائفتان منكم أن تفشلا) أى تجبنا وتضعفا عن
قتال والطائفتان بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الاوس وكانا جناحى العسكر وذلك ان رسول الله
لى الله عليه وسلم خرج الى أحد فى ألف رجل وقيل فى تسعمائة وخمسين رجلا وكان المشركون ثلاثة آلاف
جل فلما بلغوا الشوط انخذل عبد الله بن أبى بثلث الناس ورجع فى ثلثمائة وقال علام نقتل أنفسنا
ولادنا فتبعهم أبو جابر السلمى وقال أنشدكم الله فى نبيكم وأنفسكم فقال عبد الله بن أبى لو نعلم قتالا لاتبعناكم
همت الطائفتان بالانصراف مع عبد الله بن أبى فعصمهم الله فثبتوا ومضوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
ل ابن عباس أضمروا أن يرجعوا فعزم الله لهم على الرشد فثبتوا فذكرهم الله عظيم نعمته عليهم فقال
همت طائفتان منكم أن تفشلا (والله وليهما) أى ناصرهما وحافظهما ومتولى أمرهما بالتوفيق
لعصمة فان قلت الهم العزم على فعل الشئ والآية تدل على ان الطائفتين قد عزمتا على الفشل وترك
قتال وذلك معصية فكيف مدحهما الله تعالى بقوله والله وليهما قلت الهم قد يراد به العزم وقد يراد به
حديث النفس واذا كان كذلك فحمل الهم على حديث النفس هنا أولى والله تعالى لا يؤاخذ بحديث
نفس ويعضده قول ابن عباس انهم أضمروا أن يرجعوا فلما عزم الله لهم على الرشد ثبتوا مع رسول الله
صلى الله عليه وسلم مدحهم الله تعالى بقوله والله وليهما (ق) عن جابر قال نزلت فينا اذ همت طائفتان منكم
ن تفشلا والله وليهما قال نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة وما يسرنى انها لم تنزل لقول الله والله وليهما
فيه الاستبشار بما حصل لهم من الشرف العظيم وانزاله فيهم آية ناطقة مفصحة بان الله وليهم وان تلك الهمة
ى هموها ما أخرجتهم من ولاية الله تعالى ۞ وقوله تعالى (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) التوكل تفعل
ن وكل أمره الى غيره اذا اعتمد عليه فى كفايته والقيام به والتوكل هو العجز والاعتماد على الغير وقيل هو
تفويض الامر الى الله تعالى ثقة بحسن تدبيره فامر الله عباده المؤمنين أن لا يتوكلوا الا عليه وأن لا يفوضوا
أمرهم الا اليه ۞ قوله عز وجل (ولقد نصركم الله ببدر) بدر اسم موضع بين مكة والمدينة معروف وقيل هو
اسم لبئر هناك وكانت البئر لرجل يقال له بدر فسميت به ذكر الله المؤمنين منته عليهم بالنصر يوم بدر (وأنتم
أذلة) جمع ذليل وهو جمع قلة وأراد به قلة العدد فان المسلمين كانوا ثلثمائة وبضعة عشر وفى رواية وثلاثة
عشر رجلا والمراد بذلتهم ضعف الحال وقلة السلاح والمركوب والمال وعدم القدرة على مقاومة العدو وذلك

(الله سميع عليم) سميع لاقوالكم عليم بنياتكم وضمائركم روى ان المشركين نزلوا بأحد يوم الاربعاء فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم
أصحابه ودعا عبد الله بن أبى فاستشاره فقال أقم بالمدينة فما خرجنا على عدو قط الا أصاب منا وما دخلوا علينا الا أصبنا منهم فقال عليه السلام
ارأيت فى منامى بقرا مذبحة حولى فاولتها خيرا ورأيت فى ذباب سيفى ثلمة فاولتها هزيمة ورأيت كأنى أدخلت يدى فى درع حصينة فاولتها
المدينة فلم يزل به قوم ينشطون فى الشهادة حتى لبس لامته ثم ندموا فقالوا الامر اليك يارسول الله
فقال عليه السلام لا ينبغى
لنبى ان يلبس لامته فيضعها
حتى يقاتل فخرج بعد صلاة
الجمعة وأصبح بالشعب من
أحد يوم السبت للنصف
من شوال (اذ همت) بدل
من اذ غدوت أو عمل فيه
معنى عليم (طائفتان
منكم) حيان من الانصار
بنو سلمة من الخزرج وبنو
حارثة من الاوس وكان
عليه السلام خرج الى أحد
فى ألف والمشركون فى ثلاثة
آلاف ووعدهم الفتح ان
صبروا فانخذل عبد الله بن
أبى بثلث الناس وقال علام
نقتل أنفسنا وأولادنا فهم
الحيان باتباعه فعصمهم
الله فمضوا مع رسول الله
(أن تفشلا) أى بان تفشلا
أى بان تجبنا وتضعفا والفشل
الجبن والخور (والله
وليهما) محبهما أو ناصرهما
أو متولى أمرهما فما لهما
تفشلان ولا تتوكلان على
الله (وعلى الله فليتوكل
المؤمنون) أمرهم بان لا
يتوكلوا الا عليه ولا يفوضوا
أمورهم الا اليه قال جابر والله
ما يسرنا انا لم نهم بالذى هممنا
به لما أخبرنا الله بانه ولينا ثم ذكرهم ما يوجب عليهم التوكل مما يسر لهم من الفتح يوم بدر وهم فى حال قلة وذلة فقال (ولقد نصركم الله ببدر) وهو اسم
ماء بين مكة والمدينة كان لرجل يسمى بدرا فسمى به أو ذكر بدرا بعد أحد للجمع بين الصبر والشكر (وأنتم أذلة) لقلة العدد فانهم كانوا ثلثمائة
وبضعة عشر وكان عدوهم زهاء ألف مقاتل والعدد فانهم خرجوا على النواضح يعتقب النفر منهم على البعير الواحد وما كان معهم الا فرس
واحد ومع عدوهم مائة فرس والشكة والشوكة وجاء بجمع القلة وهو أذلة ليدل على انهم على ذلتهم كانوا قليلا

ظرف لنصركم على أن تقول لهم ذلك يوم بدر أى نصركم الله وقت مقالتكم هذه أو بدل ثان من اذ غدوت على أن تقول لهم ذلك يوم أحد (ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) منزّلين شامى منزِلين أبو حيوة أى للنصرة ومعنى ألن يكفيكم انكار أن لا يكفيهم الامداد بثلاثة آلاف من الملائكة وجىء بلن الذى هو لتأكيد النفى للاشعار بانهم كانوا لقلتهم وضعفهم وكثرة عدوهم وشوكته كالآيسين من النصر (بلى) ايجاب لما بعد لن أى يكفيكم الامداد بهم فاوجب الكفاية ثم قال (ان تصبروا) على القتال (وتتقوا) خلاف الرسول عليه السلام (ويأتوكم) يعنى المشركين (من فورهم هذا) هو من فارت القدر اذا غلت فاستعير للسرعة ثم سميت بها الحالة التى لا ريث بها ولا تعريج على شئ من صاحبها فقيل خرج من فوره كما تقول من ساعته لم يلبث ومنه قول الكرخى الامر المطلق على الفور لا على التراخى والمعنى ان يأتوكم من ساعتهم هذه (يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة) فى حال اتيانهم لا يتأخر نزولهم

انهم خرجوا على نواضح وكان النفر منهم يتعقب على البعير الواحد وكان أكثرهم رجالة ولم يكن معهم الا فرس واحد وكان عدوهم من كفار قريش فى حال الكثرة زهاء ألف مقاتل ومعهم مائة فرس وكان معهم السلاح والشوكة فنصر الله المؤمنين مع قلتهم على عدوهم مع كثرتهم (فاتقوا الله) يعنى فى الثبات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم (لعلكم تشكرون) يعنى بتقواكم ما أنعم به عليكم من نصرته ﴿قوله عز وجل (اذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) اختلف المفسرون فى أن هذا الوعد بانزال الملائكة هل حصل يوم بدر أو يوم أحد على قولين أحدهما انه كان يوم بدر قال قتادة كان هذا يوم بدر أمدهم الله بألف من الملائكة كما قال اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف كما ذكر ههنا (بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة) فصبروا يوم بدر واتقوا فامدهم الله بخمسة آلاف كما وعد قال ابن عباس لم تقاتل الملائكة فى معركة الا يوم بدر وفيما سوى ذلك يشهدون القتال ولا يقاتلون انما يكونون عددا ومددا وقال الحسن هؤلاء الخمسة آلاف ردء للمؤمنين الى يوم القيامة وقال الشعبى بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين يوم بدر ان كرز بن جابر المحاربى يريد أن يمد المشركين فشق ذلك عليهم فانزل الله تعالى ألن يكفيكم الى قوله مسومين فبلغ كرزا الهزيمة فرجع ولم يأتهم ولم يمدهم فلم يمدهم الله أيضا بالخمسة آلاف وكانوا قد أمدوا بألف من الملائكة وفى صحيح البخارى من حديث ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب واحتج لصحة هذا القول أيضا بان الله تعالى قال قبل هذه الآية ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة وظاهر هذا يقتضى ان الله نصرهم حين قال النبى صلى الله عليه وسلم للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف ولان العدد والعدد كانت يوم بدر قليلة وكان الاحتياج الى الامداد أكثر القول الثانى ان هذا الوعد بانزال الملائكة كان يوم أحد وهو قول عكرمة والضحاك ومقاتل قال عمير بن اسحق لما كان يوم أحد انجلى القوم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبقى سعد بن مالك يرمى وفتى شاب يتنبل له كلما فنى النبل أتاه به فنثره وقال ارم أبا اسحق ارم أبا اسحق مرتين فلما انجلت المعركة سئل عن ذلك الرجل فلم يعرف (ق) عن سعد بن أبى وقاص قال رأيت عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه كأشد القتال ما رأيتهما قبل ولا بعد يعنى جبريل وميكائيل واحتج لصحة هذا القول بان المدد كان يوم بدر بألف من الملائكة كما نص عليه فى سورة الانفال ولم يكن بثلاثة آلاف ولا بخمسة آلاف كما ههنا وأيضا ان الكفار كانوا يوم بدر ألفا أو ما يقرب منهم وكان المسلمون على الثلث من ذلك فانهم كانوا ثلثمائة وبضعة عشر فانزل الله يوم بدر ألفا من الملائكة فى مقابلة عدد الكفار فوقع النصر يومئذ للمسلمين والهزيمة للكفار وكان عدد المسلمين يوم أحد ألفا وعدد الكفار ثلاثة آلاف فناسب أن يكون المدد يومئذ للمسلمين ثلاثة آلاف من الملائكة ليكون ذلك مقابلا لعدد الكفار كما فى يوم بدر وأجيب عن الاحتجاج الاول لهذا القول بان الله تعالى أمدهم يوم بدر بألف كما ذكر فى سورة الانفال ثم لما سمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بامداد كرز الكفار قريش شق عليهم وعدوا بان يمدوا بثلاثة آلاف وبخمسة آلاف لتقوى قلوبهم بذلك وأجيب عن الثانى وهو ان الكفار كانوا يوم بدر ألفا فانزل الله الفا وفى يوم أحد كانوا ثلاثة آلاف فانزل الله ثلاثة آلاف بان هذا تقريب حسن ولله ان يزيد ما شاء فى أى وقت شاء وهذا قال عكرمة فى قوله تعالى بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا قال يوم بدر قال ولم يصبروا ولم يتقوا يوم أحد فلم يمدوا ولو أمدوا لم يهزموا يومئذ وقيل لم يصبروا ولم يتقوا الا فى يوم الاحزاب فامدهم الله بالملائكة حتى حاصروا قريظة (ق) عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق ووضع السلاح

واغتسل أتاه جبريل فقال قد وضعت السلاح والله ما وضعناه اخرج اليهم قال فالى أين قال ههنا وأشار الى بنى قريظة فخرج النبى صلى الله عليه وسلم اليهم (خ) عن أنس رضى الله عنه قال كانى أنظر الى الغبار ساطعا فى زقاق بنى غنم موكب جبريل عليه السلام حين سار رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بنى قريظة وقال عبد الله ابن أبى أوفى كنا محاصرين قريظة والنضير ما شاء الله فلم يفتح علينا فرجعنا فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بغسل فهو يغسل رأسه اذ جاءه جبريل عليه السلام فقال أوضعتم أسلحتكم ولم تضع الملائكة أوزارها فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخرقة فلف بها رأسه ولم يغسله ثم نادى فينا فقمنا حتى أتينا قريظة والنضير فيومئذ أمدنا الله بثلاثة آلاف من الملائكة ففتح لنا فتحا يسيرا وقال ابن جرير الطبرى وأولى الاقوال بالصواب ان الله تعالى أخبر عن نبيه صلى الله عليه وسلم انه قال للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة فوعدهم بثلاثة آلاف من الملائكة مددا لهم ثم وعدهم بخمسة آلاف ان صبروا لاعدائهم واتقوا ولا دلالة فى الآية على انهم أمدوا بهم ولا على انهم لم يمدوا بهم فقد يجوز ان الله أمدهم وقد يجوز أن لا يكون أمدهم ولا يثبت ذلك الا بنص تقوم به الحجة فى ذلك وقد ثبت بنص القرآن انهم أمدوا يوم بدر بالف من الملائكة كما فى سورة الانفال وأما يوم أحد فالدلالة على انهم لم يمدوا أبين منها بأنهم أمدوا وذلك انهم لو أمدوا لم ينهزموا ولم ينل منهم ما نيل منهم فان قلت فما تصنع بحديث سعد بن أبى وقاص المتقدم فى يوم أحد وانه رأى ملكين عن يمين النبى صلى الله عليه وسلم وشماله قلت انما كان ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم خاصة لانه صبر ولم ينهزم كما انهزم أصحابه يوم أحد وأما التفسير فقوله تعالى اذ تقول للمؤمنين فعلى قول من قال ان هذا كان يوم بدر قال نظم الآية ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة اذ تقول للمؤمنين ومن قال هذا يوم أحد يقول نظم الآية ان الله ذكر قصة أحد ثم أتبعه بقوله ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فكذلك هو قادر أن ينصركم فى سائر المواطن ثم رجع الى قصة أحد فقال تعالى اذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم ومعنى الكفاية هو سد الخلة والقيام بالامر مع بلوغ المراد ان يمدكم ربكم الامداد اعانة الجيش فما كان على جهة القوة والاعانة يقال له أمده امدادا وما كان على جهة الزيادة يقال فيه مده مدا وقيل المد فى الشر والامداد فى الخير بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين انما وعدهم الله بنزول الملائكة لتقوى قلوبهم ويثقوا بنصر الله ويعزموا على الثبات بلى تصديق لوعد الله أى بلى يمدكم وقيل بلى ايجاب لما بعد ألن يعنى يكفيكم الامداد بهم فاوجب الكفاية ان تصبروا أى على لقاء عدوكم وتتقوا يعنى معصية الله ومخالفة نبيه صلى الله عليه وسلم ويأتوكم يعنى المشركين من فورهم هذا قال ابن عباس ابتداء الامر يوجد فيه ثم يوصل بآخر فمن قال معنى من فورهم من وجههم أراد ابتداء مخرجهم يوم بدر ومن قال معناه من غضبهم أراد ابتداء غضبهم لقتلاهم يوم بدر لانهم رجعوا للحرب يوم أحد من غضبهم ليوم بدر يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة لم يرد خمسة آلاف سوى الثلاثة المتقدمة بل أراد معهم فمن قال ان هذا الامداد كان يوم بدر قال ان الله تعالى أمدهم بالف فلما سمعوا ان كرز بن جابر المحاربى يريد أن يمد المشركين فشق على المسلمين ذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم للمسلمين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم الآية على تقدير ان يجئ للمشركين المدد فلما لم يمدوا لم يمد الله المسلمين بغير ألف وروى ابن الجوزى فى تفسيره عن جبير بن مطعم عن على بن أبى طالب قال بينا أنا امتح من قليب بدر جاءت ريح شديدة لم أر أشد منها ثم جاءت ريح شديدة لم أر أشد منها الا التى قبلها ثم جاءت ريح شديدة لم أر أشد منها الا التى كانت قبلها فكانت الريح الاولى جبريل نزل فى ألفين من الملائكة وكانوا بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم وكانت الريح الثانية ميكائيل نزل فى ألفين من الملائكة وكانوا عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم والريح الثالثة اسرافيل نزل فى ألف من الملائكة عن يسار رسول الله صلى الله عليه وسلم وكنت عن يساره وهزم الله أعداءه ومن الناس من ضم العدد القليل الى الكثير فقال لان الله تعالى ذكر الالف فى

عن انيانهم يعنى ان الله تعالى يعجل نصرتكم وييسر فتحكم ان صبرتم واتقيتم

مسومين) بكسر الواو مكي وأبو عمرو وعاصم وسهل أي معلمين أنفسهم أو خيلهم بعلامة يعرف بها في الحرب والسومة العلامة عن الضحاك معلمين بالصوف الابيض في نواصي الدواب وأذنابها غيرهم بفتح الواو أي معلمين قال الكلبي معلمين بعمائم صفر مرخاة على أكتافهم وكانت عمامة الزبير يوم بدر صفراء فنزلت الملائكة كذلك قال قتادة نزلت ألف فصاروا ثلاثة آلاف ثم خمسة آلاف (وما جعله الله) الضمير يرجع الى الامداد الذي دل عليه ان يمددكم (الا بشرى لكم) أي وما جعل الله امدادكم بالملائكة الا بشارة لكم بانكم تنصرون (ولتطمئن قلوبكم به) كما كانت السكينة لبني اسرائيل بشارة بالنصر وطمأنينة لقلوبهم (وما النصر الا من عند الله) لا من عند المقاتلة ولا من عند الملائكة ولكن ذلك مما يقوي به الله رجاء النصرة والطمع في الرحمة (العزيز) الذي لا يغالب في أحكامه (الحكيم) الذي يعطي النصر لاوليائه ويبتليهم بجهاد أعدائه واللام في (ليقطع طرفا من الذين كفروا) ليهلك طائفة منهم بالقتل والاسر وهو ما كان يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين من رؤساء قريش متعلقة بقوله ولقد نصركم الله أو بقوله وما النصر الا من عند الله أو بيمددكم ربكم (أو يكبتهم) أو يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة وحقيقة الكبت شدة وهن تقع في القلب فيصرع في الوجه لاجله (فينقلبوا خائبين) فيرجعوا غير ظافرين بمبتغاهم (ليس لك من الامر شئ) اسم ليس شئ والخبر لك من الامر حال من شئ لانها صفة مقدمة (أو يتوب عليهم) عطف على ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم وليس لك من الامر شئ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه والمعنى ان الله تعالى مالك أمرهم فاما ان يهلكهم أو يهزمهم أو يتوب عليهم ان أسلموا (أو يعذبهم) ان أصروا على الكفر وليس لك من أمرهم شئ انما أنت عبد مبعوث لانذارهم ومجاهدتهم وعن الفراء أو بمعنى حتى وعن ابن عيسى بمعنى الا أن كقولك لالزمنك أو تعطيني حقي أي ليس لك من أمرهم شئ الا أن يتوب الله عليهم فتفرح بحالهم أو يعذبهم

الركوع

سورة الانفال وذكر هنا ثلاثة آلاف وخمسة آلاف فيكون المجموع تسعة آلاف وان حملناه على غزوة أحد فيكون المجموع ثمانية آلاف لانه ليس فيها ذكر الالف المفردة (مسومين) قرئ بفتح الواو وبكسرها فمن فتح الواو أراد ان الله سومهم ومعناه معلمين قد سوموا فهم مسومون والسومة والسيما العلامة وهذه العلامة يعلمها الفارس يوم اللقاء ليعرف بها قال عنترة

فتعرفوني انني أنا ذاكم * شاك سلاحي في الحوادث معلم

ومن كسر الواو نسب الفعل الى الملائكة والمعنى انهم أعلموا أنفسهم بعلامات مخصوصة أو أعلموا خيلهم واختلفوا في تلك العلامة فقال عروة بن الزبير كانت الملائكة على خيل بلق وعليهم عمائم صفر وقال علي وابن عباس كان عليهم عمائم بيض قد أرسلوها بين أكتافهم وقال هشام بن عروة والكلبي كانت عليهم عمائم صفر مرخاة على أكتافهم وقال قتادة والضحاك كانوا قد اعلموا بالعهن يعني بالصوف المصبوغ في نواصي خيلهم وأذنابها وروي ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه يوم بدر تسوموا فان الملائكة قد تسومت بالصوف الابيض في قلانسهم ومغافرهم ذكره البغوي بغير سند وقيل كانت عمامة الزبير يوم بدر صفراء فنزلت الملائكة كذلك وقيل كانوا قد سوموا أنفسهم بسيما القتال ۞ قوله تعالى (وما جعله الله) يعني هذا الوعد والمدد (الا بشرى لكم) يعني بشارة بانكم تنصرون فتستبشرون به (ولتطمئن) أي ولتسكن (قلوبكم به) أي فلا تجزع من كثرة عدوكم وقلة عددكم (وما النصر الا من عند الله) يعني لا تحيلوا النصر على الملائكة والجند وكثرة العدد فان النصر من عند الله لا من عند غيره والغرض أن يكون توكلهم على الله لا على الملائكة الذين أمدوا بهم وفيه تنبيه على الاعراض عن الاسباب والاقبال على مسبب الاسباب (العزيز الحكيم) يعني فاستعينوا به وتوكلوا عليه لان العز هو كمال القدرة والقوة والحكم وهو كمال العلم له فلا تخفى عليه مصالح عباده (ليقطع طرفا من الذين كفروا) هذا متعلق بقوله ولقد نصركم الله ببدر والمعنى ان المقصود من نصركم ببدر ليقطع طرفا أي ليهلك طائفة من الذين كفروا وقيل معناه ليهدم ركنا من أركان الشرك بالقتل والاسر فقتل يوم بدر من قادتهم وسادتهم سبعون وأسر سبعون ومن حمل الآية على غزوة أحد قال قد قتل منهم ستة عشر وكان النصر فيه للمسلمين حتى خالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم (أو يكبتهم) أصل الكبت في اللغة صرع الشئ على وجهه والمعنى انه يصرعهم على وجوههم والمراد منه القتل والهزيمة أو الاهلاك أو اللعن والخزي (فينقلبوا خائبين) أي بالخيبة لم ينالوا شيأ من الذي أملوه من الظفر بكم ۞ قوله عز وجل (ليس لك من الامر شئ أو يتوب عليهم أو يعذبهم) اختلف في سبب نزول هذه الآية فقيل انها نزلت في أهل بئر معونة وهم سبعون رجلا من القراء بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بئر معونة وهي بين مكة وعسفان وأرض هذيل وذلك في صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من أحد بعثهم ليعلموا الناس القرآن والعلم وأمر عليهم المنذر بن عمرو فقتلهم عامر بن الطفيل فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك وجدا شديدا وقنت شهرا في الصلوات كلها يدعو على جماعة من تلك القبائل باللعن (خ) عن ابن عمر انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا رفع رأسه من

الركوع فى الركعة الاخيرة من الفجر يقول اللهم العن فلانا وفلانا وفلانا بعد مايقول سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد فانزل الله تعالى عليه ليس لك من الامر شئ الى قوله فانهم ظالمون (ق) عن أبى هريرة قال لما رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من الركعة الثانية قال اللهم انج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش ابن أبى ربيعة والمستضعفين بمكة اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف زاد فى رواية اللهم العن فلانا وفلانا لاحياء من العرب حتى أنزل الله تعالى ليس لك من الامر شئ الآية سماهم فى رواية يونس اللهم العن رعلا وذكوان وعصية عصت الله ورسوله قال ثم بلغنا انه ترك ذلك لما أنزل الله ليس لك من الامر شئ أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون وقيل انها نزلت يوم أحد ثم اختلفوا فى سببها فقيل ان عتبة بن أبى وقاص شج وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكسر رباعيته (ق) عن أنس بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كسرت رباعيته وشج فى رأسه فجعل يسلت الدم عنه ويقول كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم الى الله تعالى فانزل الله تعالى ليس لك من الامر شئ وقيل أراد النبى صلى الله عليه وسلم ان يدعو عليهم بالاستئصال فنزلت هذه الآية وذلك لعلمه أن أكثرهم يسلمون وقيل ان النبى صلى الله عليه وسلم لما وقف على عمه حمزة ورأى ماصنعوا به من المثلة أراد ان يدعو عليهم فنزلت هذه الآية وقال العلماء وهذه الاشياء كلها محتملة فلا يبعد حمل الآية فى النزول على كلها ومعنى الآية ليس لك من أمر مصالح عبادى شئ الا ماأوحى اليك فان الله تعالى هو مالك أمرهم فاما ان يتوب عليهم ويهديهم فيسلموا أو يهلكهم ويعذبهم ان أصروا على الكفر وقيل ليس لك مسئلة هلاكهم والدعاء عليهم لانه تعالى أعلم بمصالحهم فربما تاب على من يشاء منهم وقيل معناه ليس لك من أمر خلقى شئ الا ماوافق أمرى انما أنت عبد مبعوث لانذارهم ومجاهدتهم وقيل ان قوله أو يتوب عليهم معطوف على قوله ليقطع طرفا وقوله ليس لك من الامر شئ كلام معترض بين المعطوف والمعطوف عليه والتقدير ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون ليس لك من الامر شئ بل الامر أمرى فى ذلك كله قال بعض العلماء والحكمة فى منعه صلى الله عليه وسلم من الدعاء عليهم ولعنهم ان الله تعالى علم من حال بعض الكفار انه سيسلم فيتوب عليهم أو سيولد من بعضهم ولد يكون مسلما برا تقيا فلاجل هذا المعنى منعه الله تعالى من الدعاء عليهم لان دعوته صلى الله عليه وسلم مجابة فلو دعا عليهم بالهلاك هلكوا جميعا لكن اقتضت حكمة الله وماسبق فى علمه ابقاءهم ليتوب على بعضهم وسيخرج من بعضهم ذرية صالحة مؤمنة ويهلك بعضهم بالقتل والموت وهو قوله أو يعذبهم فيحتمل أن يكون المراد بعذابهم فى الدنيا وهو القتل والاسر وفى الآخرة وهو عذاب النار (فانهم ظالمون) هو كالتعليل لعذابهم والمعنى انما يعذبهم لانهم ظالمون ثم قال تعالى (ولله مافى السموات ومافى الارض) هذا تأكيد لما قبله من قوله ليس لك من الامر شئ والمعنى انما يكون الامر لمن له مافى السموات ومافى الارض وليس ذلك الا لله تعالى وليس لاحد معه امر (يغفر لمن يشاء) بفضله ورحمته (ويعذب من يشاء) بعدله يحكم فيهم بما يشاء لامنازع له فى حكمه ولا معارض له فى فعله (والله غفور رحيم) يعنى انه تعالى يستر ذنوب عباده ويغفرها لهم ويرحمهم بترك العقوبة عنهم عاجلا وانما يفعل ذلك على سبيل التفضل والاحسان الى عباده لا على سبيل الوجوب عليه لانه تعالى لو ادخل جميع خلقه الجنة لكان ذلك برحمته ولو أدخل جميع خلقه النار كان ذلك بعدله لكن جانب المغفرة والرحمة غالب ۞ قوله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربوا اضعافا مضاعفة) أراد به ما كانوا يفعلونه فى الجاهلية عند حلول الدين من زيادة المال وتأخير الاجل كان الرجل فى الجاهلية اذا كان له على انسان دين فاذا جاء الاجل ولم يكن للمديون مايؤدى قال له صاحب الدين زدنى فى المال حتى أزيدك فى الاجل فربما فعلوا ذلك مرارا فيصير الدين اضعافا مضاعفة فنهى الله عز وجل عن ذلك وحرم أصل الربا ومضاعفته (واتقوا الله)

فتنتشى منهم وقيل أراد ان يدعو عليهم فنهاه الله تعالى لعلمه ان فيهم من يؤمن (فانهم ظالمون) مستحقون للتعذيب (ولله مافى السموات وما فى الارض) أى الامر له لا لك لان مافى السموات ومافى الارض ملكه (يغفر لمن يشاء) للمؤمنين (ويعذب من يشاء) الكافرين (والله غفور رحيم ياأيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربوا أضعافا مضاعفة) مضعفة مكى وشامى هذا نهى عن الربا مع التوبيخ بما كانوا عليه من تضعيفه كان الرجل منهم اذا بلغ الدين محله يقول اما ان تقضى حقى أو تربى وأزيد فى الاجل (واتقوا الله) فى أكله

(لعلكم تفلحون واتقوا النار التي أعدت للكافرين) كان أبو حنيفة رضي الله عنه يقول هي أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين ان لم يتقوه

في اجتناب محارمه وقد أمد ذلك بما أتبعه من تعليق رجاء المؤمنين لرحمته بتوفرهم على طاعته وطاعة رسوله بقوله (وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون) وفيه رد على المرجئة في قولهم لا يضر مع الايمان ذنب ولا يعذب بالنار أصلا وعندنا غير الكافرين من العصاة قد يدخلها ولكن عاقبة أمره الجنة وفي ذكره تعالى لعل وعسى في نحو هذه المواضع وان قال أهل التفسير ان لعل وعسى من الله للتحقيق ما لا يخفى على العارف من دقة مسلك التقوى وصعوبة اصابة رضا الله تعالى وعزة التوصل الى رحمته وثوابه (وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة) سارعوا مدني وشامي فمن أثبت الواو عطفها على ما قبلها ومن حذفها استأنفها ومعنى المسارعة الى المغفرة والجنة الاقبال على ما يوصل اليهما ثم قيل هي الصلوات الخمس أو التكبيرة الاولى أو الطاعة أو الاخلاص أو التوبة أو الجمعة والجماعات (عرضها السموات والارض) أي عرضها عرض السموات والارض كقوله عرضها كعرض السماء والارض والمراد وصفها بالسعة والبسط فشبهت بأوسع ما علمه الناس من خلقه وأبسطه وخص العرض لانه في العادة أدنى من النهار الطول للمبالغة وعن ابن عباس رضي الله عنهما كسبع سموات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض وما روي ان الجنة في السماء السابعة أو في السماء الرابعة فمعناه انها في جهتها الا انها فيها أو في بعضها كما يقال في الدار بستان وان كان يزيد عليها لان المراد ان بابه اليها

يعني في أكل الربا فلا تأكلوه (لعلكم تفلحون) أي لكي تسعدوا بثوابه في الآخرة لان الفلاح يتوقف على التقوى فلو أكل ولم يتق لم يحصل الفلاح وفيه دليل على ان أكل الربا من الكبائر ولهذا أعقبه بقوله تعالى (واتقوا النار التي أعدت للكافرين) يعني واتقوا أيها المؤمنون ان تستحلوا شيأ مما حرم الله فان من استحل شيأ مما حرم الله فهو كافر بالاجماع ويستحق النار بذلك قال ابن عباس هذا تهديد للمؤمنين ان يستحلوا ما حرم الله عليهم من الربا وغيره مما أوجب الله فيه النار قال بعضهم ان هذه الآية أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين ان لم يتقوه ويجتنبوا محارمه وقال الواحدي في هذه الآية تقوية لرجاء المؤمنين رحمة من الله تعالى لانه قال أعدت للكافرين فجعلها معدة للكافرين دون المؤمنين (وأطيعوا الله) يعني فيما أمركم به أو نهاكم عنه من أكل الربا وغيره (والرسول) أي وأطيعوا الرسول أيضا فان طاعته طاعة الله قال محمد بن اسحق في هذه الآية معاتبة للذين عصوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد (لعلكم ترحمون) أي لكي ترحموا ولا تعذبوا اذا أطعتم الله ورسوله فان طاعة الله مع معصية رسوله ليست بطاعة ۞ قوله عز وجل (وسارعوا الى مغفرة من ربكم) يعني وبادروا وسابقوا الى ما يوجب المغفرة من ربكم وهي الاعمال الصالحة المأمور بفعلها قال ابن عباس الى الاسلام ووجهه أن الله تعالى ذكر المغفرة على سبيل التنكير والمراد منه المغفرة العظيمة وذلك لا يحصل الا بسبب الاسلام لانه يجب ما قبله وعن ابن عباس أيضا الى التوبة لان التوبة من الذنوب توجب المغفرة وقال علي بن أبي طالب الى أداء الفرائض لان اللفظ مطلق فيعم الكل وكذا وجه من قال الى جميع الطاعات وروي عن أنس بن مالك وسعيد بن جبير انها التكبيرة الاولى يعني تكبيرة الاحرام وقيل الى الاخلاص في الاعمال لان المقصود من جميع العبادات هو الاخلاص وقيل الى الهجرة وقيل الى الجهاد (وجنة) أي وسارعوا الى جنة وانما فصل بين المغفرة والجنة لان المغفرة هي ازالة العقاب والجنة هي حصول الثواب وقيل اشعارا بانه لابد من المسارعة الى التوبة الموجبة للمغفرة وذلك بترك المنهيات والمسارعة الى الاعمال الصالحة المؤدية الى الجنة (عرضها) أي عرض الجنة (السموات والارض) يعني كعرض السموات والارض لان نفس السموات والارض ليس عرضا للجنة والمراد سعتها وانما خص العرض للمبالغة لان الطول في العادة يكون أكثر من العرض يقول هذه صفة عرضها فكيف بطولها والمراد وصف الجنة بالسعة والبسط فشبهت بأوسع شئ علمه الناس وذلك انه لو جعلت السموات والارض طبقا طبقا ثم وصل البعض بالبعض حتى يكون طبقا واحدا كان ذلك مثل عرض الجنة فأما طولها فلا يعلمه الا الله تعالى وقيل المراد بالعرض السعة كما تقول العرب بلاد عريضة أي واسعة عظيمة قال الشاعر

كأن بلاد الله وهي عريضة ۞ على الخائف المطلوب كفة حابل

والاصل فيه ان ما اتسع عرضه لم يضق ولم يدق وما ضاق عرضه دق فجعل العرض كناية عن السعة وروي ان هرقل أرسل الى النبي صلى الله عليه وسلم انك كتبت تدعوني الى جنة عرضها السموات والارض فأين النار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان الله فأين الليل اذا جاء النهار قيل معناه والله أعلم بذلك انه اذا دار الفلك حصل النهار في جانب والليل في ضد ذلك الجانب فكذلك الجنة في جهة العلو والنار في جهة السفل وروى طارق بن شهاب ان ناسا من اليهود سألوا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعنده أصحابه فقالوا أرأيتم قولكم وجنة عرضها السموات والارض فأين النار فقال عمر بن الخطاب أرأيتم اذا جاء الليل فأين يكون

النهار واذا جاء النهار فأين يكون الليل فقالوا ان لمثلها في التوراة ومعناه حيث يشاء الله تعالى فان قلت قال الله تعالى وفي السماء رزقكم وما توعدون وأراد بالذي وعدنا به الجنة ومذهب أهل السنة انها في السموات واذا كانت الجنة في السموات فكيف يكون عرضها السموات والارض قلت المراد من قولنا انها في السموات انها فوق السموات وتحت العرش كما سئل أنس بن مالك عن الجنة أفي السماء هي أم في الارض فقال أي أرض وسماء تسع الجنة قيل له فأين هي قال فوق السموات تحت العرش وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم الفردوس فقال وسقفها عرش الرحمن وقال قتادة كانوا يرون ان الجنة فوق السموات السبع وان جهنم تحت الارضين السبع وقيل ان باب الجنة في السماء وعرضها كعرض السموات والارض (أعدت للمتقين) أي هيئت للمتقين وفيه دليل على ان الجنة والنار مخلوقتان الآن ۞ قوله عز وجل (الذين ينفقون في السراء والضراء) يعني في العسر واليسر لا يتركون الانفاق في كلتا الحالتين في الغنى والفقر والرخاء والشدة ولا في حال فرح وسرور ولا في حال محنة وبلاء وسواء كان الواحد منهم في عرس أو حبس فانهم لا يدعون الاحسان الى الناس فأول ما ذكر الله من أخلاقهم الموجبة للجنة السخاء لانه أشق على النفس وكانت الحاجة الى اخراج المال في ذلك الوقت أعظم الاحوال للحاجة اليه في مجاهدة الاعداء ومواساة الفقراء من المسلمين عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار ولجاهل سخي أحب الى الله تعالى من عابد بخيل أخرجه الترمذي (ق) عن أبي هريرة انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جنتان من حديد من ثديهما الى تراقيهما فأما المنفق فلا ينفق الا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفي ثيابه وتعفو أثره وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيأ الا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع الجنة الدرع من الحديد (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من يوم يصبح العباد فيه الا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا (ق) عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال الله تبارك وتعالى انفق ينفق عليك (ق) عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنفق زوجين في سبيل الله دعاه خزنة الجنة كل خزنة باب أي فل هلم فقال أبو بكر يا رسول الله ذاك الذي لا توى عليه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اني لارجو أن تكون منهم قوله أي فل يعني يا فلان وليس بترخيم والتوى الهلاك يعني ذاك الذي لا هلاك عليه وقوله تعالى (والكاظمين الغيظ) يعني والجارعين الغيظ عند امتلاء نفوسهم منه والكظم حبس الشيء عند امتلائه وكظم الغيظ هو أن يمتلئ غيظا فيرده في جوفه ولا يظهره بقول ولا فعل ويصبر عليه ويسكت عنه ومعنى الآية أنهم يكفون غيظهم عن الامضاء ويردون غيظهم في أجوافهم وهذا الوصف من أقسام الصبر والحلم عن سهل بن معاذ عن أنس الجهني عن أبيه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من كظم غيظا وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله تعالى يوم القيامة على رؤس الخلائق حتى يخيره في أي الحور شاء أخرجه الترمذي وأبو داود (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس الشديد بالصرعة انما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب وروي عن عائشة رضي الله تعالى عنها ان خادما لها غاظها فقالت لله در التقوى ما تركت لذي غيظ شفاء (والعافين عن الناس) يعني اذا جني عليهم أحد لم يؤاخذوه فتكون

(أعدت) في موضع جر صفة لجنة أيضا أي جنة واسعة معدة (للمتقين) ودلت الآيتان على ان الجنة والنار مخلوقتان ثم المتقي من يتقي الشرك كما قال وجنة عرضها كعرض السماء والارض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله أو من يتقي المعاصي فان كان المراد الثاني فهي لهم بغير عقوبة وان كان الاول فهي لهم أيضا في العاقبة ويوقف عليه ان جعل (الذين ينفقون في السراء والضراء) في حال اليسر والعسر مبتدأ وعطف عليه والذين اذا فعلوا فاحشة وجعل الخبر أولئك وان جعل وصفا للمتقين وعطف عليه والذين اذا فعلوا فاحشة فلا وقف فان قلت الآية تدل على أن الجنة معدة أي أعدت للمتقين والتائبين دون المصرين قلت جاز أن تكون معدة لهم ثم يدخلها بفضل الله وعفوه غيرهما كما يقال أعدت هذه المائدة للامير ثم قد يأكلها أتباعه ألا ترى انه قال واتقوا النار التي أعدت للكافرين ثم قد يدخلها غير الكافرين بالاتفاق وافتتح بذكر الانفاق لانه أشق شيء على النفس وأدله على الاخلاص ولانه كان في ذلك الوقت أعظم الاعمال للحاجة اليه في مجاهدة العدو ومواساة فقراء المسلمين وقيل المراد الانفاق في جميع الاحوال لانها لا تخلو من حال مسرة ومضرة (والكاظمين الغيظ) والممسكين الغيظ عن الامضاء يقال كظم القربة اذا ملأها وشد فاها ومنه كظم الغيظ وهو أن يمسك على ما في نفسه منه بالصبر ولا يظهر له أثرا والغيظ توقد حرارة القلب من الغضب وعن النبي عليه السلام من كظم غيظا وهو يقدر على انفاذه ملأ الله قلبه أمنا وايمانا (والعافين عن الناس) أي اذا جنى عليهم أحد لم يؤاخذوه وروي ينادي مناد يوم القيامة أين الذين كانت أجورهم على الله فلا يقوم الا من عفا وعن ابن عيينة انه رواه للرشيد وقد غضب على رجل فخلاه

الآية على العموم وقيل أراد بالناس المماليك لسوء أدب يقع منهم فتكون على الخصوص وقيل يعفون عمن ظلمهم وأساء اليهم وهو قريب من القول الاول (والله يحب المحسنين) يحتمل أن تكون اللام للجنس فيتناول كل محسن ويحتمل أن تكون للعهد فتكون اشارة الى المذكورين فى الآية والاحسان الى الغير انما يكون بايصال النفع اليه أو بدفع الضر عنه وقيل الاحسان أن تحسن لمن أساء اليك فان الاحسان الى المحسن متاجرة وقيل المحسن هو الذى يعم باحسانه كل أحد كالشمس والمطر والريح وقيل الاحسان وقت الامكان وليس عليك فى كل وقت احسان وقيل الاحسان هذه الخصال المذكورة فى هذه الآية فمن فعلها فهو محسن ولما كانت هذه الخصال احسانا الى الغير ذكر الله ثوابها بقوله والله يحب المحسنين فان محبة الله تعالى للعبد أعظم درجات الثواب ۞ قوله عز وجل (والذين اذا فعلوا فاحشة) قال ابن مسعود رضى الله عنه قال المؤمنون للنبى صلى الله عليه وسلم يا رسول الله كانت بنو اسرائيل أكرم على الله منا كان أحدهم اذا أذنب ذنبا أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة على عتبة بابه اجدع أنفك أذنك افعل كذا فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله هذه الآية وروى عطاء عن ابن عباس انها نزلت فى تيهان التمار أتته امرأة حسناء تبتاع منه تمرا فقال لها ان هذا التمر ليس بجيد وفى البيت اجود منه فذهب بها الى بيته فضمها الى نفسه وقبلها فقالت له اتق الله فتركها وندم على ذلك فأتى النبى صلى الله عليه وسلم وذكر له ذلك فنزلت هذه الآية وفى رواية أبى صالح عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم آخى بين رجلين أحدهما أنصارى والآخر ثقفى فخرج الثقفى فى غزوة واستخلف أخاه الانصارى على أهله فاشترى لهم ذات يوم لحما فلما أرادت المرأة أن تأخذه منه دخل على أثرها وقبل يدها ثم ندم وانصرف ووضع التراب على رأسه وهام على وجهه فلما رجع الثقفى لم يستقبله الانصارى فسأل امرأته عن حاله فقالت لا كثر الله فى الاخوان مثله وذكرت له الحال والانصارى يسيح فى الجبال تائبا مستغفرا فطلبه الثقفى حتى وجده فأتى به الى أبى بكر رجاء أن يجد عنده راحة وفرجا فقال الانصارى هلكت وذكر القصة فقال أبو بكر ويحك أما علمت ان الله تعالى يغار للغازى ما لا يغار للمقيم ثم لقيا عمر فقال لهما مثل ذلك فأتيا النبى صلى الله عليه وسلم فقال لهما مثل مقالتهما فانزل الله عز وجل والذين اذا فعلوا فاحشة يعنى فعلة فاحشة خارجة عما أذن الله فيه والفاحشة ما عظم قبحه من الافعال والاقوال وأصل الفحش القبح والخروج عن الحد قال جابر الفاحشة الزنا وقوله تعالى (أو ظلموا أنفسهم) ظلم النفس مادون الزنا مثل القبلة والمعانقة واللمس والنظر وقيل الفاحشة الكبيرة وظلم النفس هى الصغيرة وقيل الفاحشة ما يكون فعله كاملا فى القبح وظلم النفس هو أى ذنب كان (ذكروا الله) يعنى ذكروا وعيد الله وعقابه وان الله يسألهم عن ذلك يوم الفزع الاكبر وقيل ذكروا اجلال الله الموجب للحياء منه وقيل ذكروا الله باللسان عند الذنوب ۞ وهو قوله تعالى (فاستغفروا لذنوبهم) يعنى لاجل ذنوبهم فتابوا منها وأقلعوا عنها نادمين على فعلها عازمين على أن لا يعودوا اليها وهذه شروط صحة التوبة المقبولة (ومن يغفر الذنوب الا الله) وصف نفسه بسعة الرحمة وقرب المغفرة وأن التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له وانه لا مفزع للمذنبين الا الى فضله وكرمه واحسانه وعفوه ورحمته وفيه تنبيه على ان العبد لا يطلب المغفرة الا منه وأنه القادر على عقاب المذنب وكذلك هو القادر على ازالة ذلك العقاب عنه فثبت انه لا يجوز طلب المغفرة الا منه (ولم يصروا على ما فعلوا) يعنى ولم يقيموا على الذنوب ولم يثبتوا عليها ولكن تابوا منها وأنابوا واستغفروا وقيل الاصرار هو ترك الاستغفار عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما أصر من استغفر ولو عاد فى اليوم سبعين مرة أخرجه أبو داود وقال حديث حسن غريب وعنده عوض ولو عاد ولو فعل (وهم يعلمون) قال ابن عباس وهم يعلمون انها معصية وان لهم ربا يغفرها

(والله يحب المحسنين) اللام للجنس فيتناول كل محسن ويدخل تحته هؤلاء المذكورون أو للعهد فيكون اشارة الى هؤلاء عن الثورى الاحسان أن تحسن الى المسىء فان الاحسان الى المحسن متاجرة (والذين اذا فعلوا فاحشة) فعلة متزايدة القبح ويجوز أن يكون والذين مبتدأ خبره أولئك (أو ظلموا أنفسهم) قيل الفاحشة الكبيرة وظلم النفس الصغيرة أو الفاحشة الزنا وظلم النفس القبلة واللمسة ونحوهما (ذكروا الله) بلسانهم أو بقلوبهم ليبعثهم على التوبة (فاستغفروا لذنوبهم) فتابوا عنها لقبحها نادمين قيل بكى ابليس حين نزلت هذه الآية (ومن يغفر الذنوب الا الله) من مبتدأ ويغفر خبره وفيه ضمير يعود الى من والا الله بدل من الضمير فى يغفر والتقدير ولا أحد يغفر الذنوب الا الله وهذه جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه وفيه تطييب لنفوس العباد وتنشيط للتوبة وبعث عليها وردع عن اليأس والقنوط وبيان لسعة رحمته وقرب مغفرته من التائب واشعار بان الذنوب وان جلت فان عفوه أجل وكرمه أعظم (ولم يصروا على ما فعلوا) ولم يقيموا على قبيح فعلهم والاصرار الاقامة قال عليه السلام ما أصر من استغفر وان عاد فى اليوم سبعين مرة وروى لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الاصرار (وهم يعلمون) حال من الضمير فى ولم يصروا أى وهم يعلمون انهم أساؤا أو وهم يعلمون انه لا يغفر ذنوبهم الا الله وقيل

وقيل وهم يعلمون ان الاصرار ضار وقيل معناه وهم يعلمون ان الله يملك مغفرة الذنب وقيل وهم يعلمون ان الله لا يتعاظمه العفو عن الذنوب وان كثرت وقيل معناه وهم يعلمون انهم ان استغفروه غفر لهم قال ثابت البناني بلغني ان ابليس بكى حين نزلت هذه الآية والذين اذا فعلوا فاحشة الى آخرها

﴿فصل في فضل الاستغفار﴾ عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه انه قال اني كنت اذا سمعت حديثا من رسول الله صلى الله عليه وسلم نفعني الله منه ما شاء أن ينفعني واذا حدثني أحد من الصحابة استحلفته فاذا حلف لي صدقته وانه حدثني أبو بكر وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من عبد مؤمن أو قال ما من رجل يذنب ذنبا فيقوم فيتطهر ثم يصلي ركعتين ثم يستغفر الله الا غفر الله له ثم قرأ هذه الآية والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله الى آخر الآية أخرجه أبو داود والترمذي وقال هذا حديث قد رواه غير واحد عن عثمان بن المغيرة فرفعوه ورواه مسعر وسفيان عن عثمان بن المغيرة فوقفاه ولم يرفعاه ولا يعرف لاسماء الا هذا الحديث عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا ومن كل هم فرجا ورزقه من حيث لا يحتسب أخرجه أبو داود (م) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم (ق) عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربه تبارك وتعالى قال اذا أذنب عبد ذنبا فقال اللهم اغفر لي ذنبي قال تبارك وتعالى أذنب عبدي ذنبا علم ان له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فاذنب فقال أي رب اغفر لي ذنبي فقال تبارك وتعالى ان عبدي أذنب ذنبا فعلم ان له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فاذنب فقال أي رب اغفر لي ذنبي فقال تبارك وتعالى أذنب عبدي ذنبا فعلم ان له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب وفي رواية اعمل ما شئت قد غفرت لك قال عبد الاعلى لا أدري أقال في الثالثة أو الرابعة اعمل ما شئت عن أنس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تبارك وتعالى يا ابن آدم انك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الارض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيأ لاتيتك بقرابها مغفرة أخرجه الترمذي وقال حديث حسن عنان السماء بفتح العين قيل هو السحاب وقيل هو ما عن لك منها أي ما ظهر لك منها وقراب الارض بضم القاف وروى بكسرها والضم أشهر وهو ما يقارب ملأها عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال أستغفر الله العظيم الذي لا اله الا هو الحي القيوم وأتوب اليه غفرت ذنوبه وان كان قد فر من الزحف أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم وقال حديث حسن صحيح على شرط البخاري ومسلم عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كل ذنب عسى الله ان يغفره أو قال عسى ان يغفره الله الا من مات مشركا ومن قتل مؤمنا متعمدا أخرجه أبو داود انتهى ﴿قوله عز وجل (أولئك) اشارة الى من تقدم ذكره في قوله والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم الآية (جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الانهار) معنى الآية ان المطلوب بالتوبة أمران أحدهما الامن من العقاب واليه الاشارة بقوله مغفرة من ربهم والثاني ايصال الثواب واليه الاشارة بقوله وجنات تجري من تحتها الانهار أي ذلك لهم ذخر لا بخس وأجر لا بوكس (خالدين فيها) أي في الجنات (ونعم أجر العاملين) أي ونعم ثواب المطيعين يعني الجنة ﴿قوله عز وجل (قد خلت من قبلكم سنن) يعني قد انقضت من قبلكم سنة الله في الامم الماضية بالهلاك والاستئصال لانهم خالفوا الانبياء والرسل للحرص على الدنيا وطلب لذاتها والبقاء فيها فانقرضوا ولم يبق منهم أحد وقيل في معنى السنة الطريقة المستقيمة والمثال المتبع لكل أمة سنة ومنهاج اذا اتبعوه رضي الله عنهم بذلك وقيل سنن أي شرائع وقيل سنن أي أمم والسنة الامة ومعنى الآية قد مضت وسلفت مني سنن فيمن كان قبلكم من الامم الماضية

(أولئك) الموصوفون (جزاؤهم مغفرة من ربهم) بتوبته (وجنات) برحمته (تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين) المخصوص بالمدح محذوف أي ونعم أجر العاملين ذلك يعني المغفرة والجنات نزلت في تمار قال لامرأة تريد التمر في بيتي تمر أجود فادخلها بيته وضمها الى نفسه وقبلها فندم أو في أنصاري استخلفه ثقفي وقد آخى بينهما النبي عليه السلام في غيبة غزوة فاتى أهله لكفاية حاجة فرآها فقبلها فندم فساح في الارض صارخا فاستعتبه الله تعالى (قد خلت) مضت (من قبلكم سنن) يريد ماسنه الله تعالى في الامم المكذبين من وقائعه

(فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) فتعتبروا بها (هذا) أي القرآن أو ما تقدم ذكره (بيان للناس وهدى) ى
ارشاد (وموعظة) ترغيب وترهيب (للمتقين) عن الشرك (ولا تهنوا) ولا تضعفوا عن الجهاد لما أصابكم من

الكافرة بامهالي واستدراجي اياهم حتى يبلغ الكتاب أجله فيهم الذي أجلته لاهلاكهم (فسيروا في الارض) أمر ندب لا على سبيل الوجوب بل المقصود تعرف أحوال الماضين بقوله (فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) فرغب أمة محمد صلى الله عليه وسلم في تأمل أحوال الامم الماضية ليصير ذلك داعيا لهم الى الايمان بالله ورسوله والاعراض عن الدنيا ولذاتها وفيه أيضا زجر للكافر عن كفره لانه اذا تأمل أحوال الكفار واهلاكهم صار ذلك داعيا له الى الايمان لان النظر الى آثار المتقدمين له أثر في النفس كما قيل

ان آثارنا تدل علينا * فانظروا بعدنا الى الآثار

وفي هذه الآية تسلية لاصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وما جرى لهم في غزوة أحد يقول فاني انما أمهلت الكفار حتى يبلغ الكتاب أجله فيهم الذي أجلته لهم في اهلاكهم ونصر محمد صلى الله عليه وسلم وأوليائه وهلاك أعدائه ۞ قوله تعالى (هذا) يعني القرآن وقيل هو اسم اشارة الى ما تقدم من أمره ونهيه ووعده ووعيده (بيان للناس) يعني عامة (وهدى) يعني من الضلالة (وموعظة للمتقين) يعني خاصة وقيل في الفرق بين البيان والهدى والموعظة لان العطف يقتضي المغايرة البيان هو الدلالة التي تفيد ازالة الشبهة بعد ان كانت حاصلة والهدى هو طريق الرشد المأمور بسلوكه دون طريق الغي والموعظة هي الكلام الذي يفيد الزجر عما لا ينبغي في طريق الدين فالحاصل أن البيان جنس تحته نوعان أحدهما الكلام الهادي الى ما ينبغي في الدين وهو الهدى والثاني الكلام الزاجر عما لا ينبغي في الدين وهو الموعظة وانما خص المتقين بالهدى والموعظة لانهم المنتفعون بهما دون غيرهم ۞ قوله عز وجل (ولا تهنوا ولا تحزنوا) نزلت يوم أحد حين أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بطلب القوم مع ما أصابهم من الجراح فاشتد ذلك على المسلمين فانزل الله تعالى هذه الآية وحث فيها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على الجهاد على ما أصابهم من الجراح والقتل وكان قد قتل يوم أحد من الانصار سبعون رجلا ومن المهاجرين خمسة رجال منهم حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومصعب بن عمير ومعنى الآية ولا تهنوا أي ولا تضعفوا عن الجهاد ولا تحزنوا يعني على من قتل منكم لانهم في الجنة (وأنتم الاعلون) يعني بالنصر والغلبة عليهم وان العاقبة لكم وقال ابن عباس انهزم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعب فاقبل خالد بن الوليد في خيل المشركين يريد أن يعلو عليهم الجبل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم لا يعلون علينا اللهم لا قوة لنا الا بك فثاب نفر من المسلمين رماة فصعدوا الجبل ورموا خيل المشركين حتى انهزموا وعلا المسلمون الجبل فذلك قوله وأنتم الاعلون وقيل وأنتم الاعلون لان حالكم خير من حالهم لان قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار وأنتم تقاتلون على الحق وهم يقاتلون على الباطل وقيل وأنتم الاعلون في العاقبة لانكم تظفرون بهم وتستولون عليهم (ان كنتم مؤمنين) أي اذ كنتم مؤمنين وقيل معناه ان كنتم مصدقين بان ناصركم هو الله تعالى فصدقوا بذلك فانه حق وصدق وقوله تعالى (ان يمسسكم قرح) قرئ بضم القاف وبفتحها وهما لغتان ومعناهما واحد وقيل انه بالفتح مصدر وبالضم اسم وقيل انه بالفتح اسم للجراحة وبالضم ألم الجراحة والآية خطاب للمسلمين حين انصرفوا من أحد مع الحزن والكآبة يقول ان يمسسكم أيها المسلمون قرح يوم أحد (فقد مس القوم) يعني الكفار (قرح مثله) يعني في يوم بدر وقيل ان الكفار قد نالهم يوم أحد مثل ما نال منكم من الجراح والقتل فقد قتل منهم نيف وعشرون رجلا وكثرت الجراحات فيهم (وتلك الايام نداولها بين الناس) المداولة نقل الشيء من واحد الى آخر يقال تداولته الايدي اذا انتقل من واحد الى آخر ويقال الدنيا دول أي تنتقل من قوم الى آخرين ثم منهم الى غيرهم والمعنى ان أيام الدنيا هي دول بين الناس

الهزيمة (ولا تحزنوا) على ما فاتكم من الغنيمة أو على من قتل منكم أو جرح وهو تسلية من الله لرسوله وللمؤمنين عما أصابهم يوم أحد وتقوية لقلوبهم (وأنتم الاعلون) وحالكم انكم أعلى منهم وأغلب لانكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم يوم أحد أو وأنتم الاعلون بالنصر والظفر في العاقبة وهي بشارة لهم بالعلو والغلبة وان جندنا لهم الغالبون أو وأنتم الاعلون شانا لان قتالكم لله ولاعلاء كلمته وقتالهم للشيطان ولاعلاء كلمة الكفر أو لان قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار (ان كنتم مؤمنين) متعلق بالنهي أي ولا تهنوا ان صح ايمانكم يعني ان صحة الايمان توجب قوة القلب والثقة بوعد الله وقلة المبالاة بأعدائه أو بالاعلون أي ان كنتم مصدقين بما يعدكم الله به ويبشركم به من الغلبة (ان يمسسكم قرح) بضم القاف حيث كان كوفي غير حفص وبفتح القاف غيرهم وهما لغتان كالضعف والضعف وقيل بالفتح الجراحة وبالضم ألمها (فقد مس القوم قرح مثله) أي ان نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم قبله يوم بدر ثم لم يضعف ذلك قلوبهم ولم يثبطهم عن معاودتكم الى القتال فانتم أولى ان لا تضعفوا (وتلك) مبتدأ (الايام) صفته والخبر (نداولها) نصرفها (بين الناس) أي نصرف ما فيها من النعم والنقم تعطي لهؤلاء تارة وطورا لهؤلاء كبيت الكتاب فيوم

فيوما علينا ويوما لنا * ويوما نساء ويوما نسر

فيوم لهؤلاء ويوم لهؤلاء فكانت الدولة للمسلمين على المشركين في يوم بدر حتى قتلوا منهم سبعين رجلا وأسروا سبعين وأديل المشركون من المسلمين يوم أحد حتى جرحوا منهم سبعين وقتلوا خمسا وسبعين ٢ (خ) عن البراء بن عازب قال جعل النبي صلى الله عليه وسلم على الرجالة يوم أحد وكانوا خمسين رجلا وهم الرماة عبد الله بن جبير فقال ان رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا من مكانكم هذا حتى أرسل اليكم وان رأيتمونا هزمنا القوم ووطئناهم فلا تبرحوا حتى أرسل اليكم فهزمهم الله قال فانا والله رأيت النساء يشتددن قد بدت خلاخلهن وأسوقهن رافعات ثيابهن فقال أصحاب عبد الله بن جبير الغنيمة أي قوم الغنيمة ظهر أصحابكم فما تنتظرون فقال عبد الله بن جبير أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين فذلك قوله والرسول يدعوكم في أخراكم فلم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم غير اثني عشر رجلا فاصابوا منا سبعين رجلا وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أصاب من المشركين يوم بدر أربعين ومائة سبعين أسيرا وسبعين قتيلا فقال أبو سفيان أفي القوم محمد ثلاث مرات فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم ان يجيبوه ثم قال أفي القوم ابن أبي قحافة ثلاث مرات ثم قال أفي القوم عمر بن الخطاب ثلاث مرات ثم رجع الى أصحابه فقال أما هؤلاء فقد قتلوا فما ملك عمر نفسه فقال كذبت والله يا عدو الله ان الذين عددت لاحياء كلهم وقد بقي لك ما يسوءك قال يوم بيوم بدر والحرب سجال انكم ستجدون في القوم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني ثم أخذ يرتجز أعل هبل أعل هبل فقال النبي صلى الله عليه وسلم ألا تجيبوه فقالوا يا رسول الله ما نقول قال قولوا الله أعلى وأجل قال أبو سفيان

* ان لنا عزى ولا عزى لكم * فقال النبي صلى الله عليه وسلم الا تجيبوه قالوا يا رسول الله ما نقول قال قولوا

* الله مولانا ولا مولى لكم * قال البغوي وقد روى هذا المعنى عن ابن عباس وفي حديثه قال أبو سفيان يوم بيوم وان الايام دول والحرب سجال فقال عمر لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار قال الزجاج الدولة تكون للمسلمين على الكفار لقوله تعالى وان جندنا لهم الغالبون فكانت يوم أحد للكفار على المسلمين لمخالفتهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (وليعلم الله الذين آمنوا) يعني انما جعل الدولة للكفار على المسلمين ليميز المؤمن المخلص ممن يرتد عن الدين اذا أصابته نكبة وشدة وقيل معناه وليعلم الله الذين آمنوا بما يظهر من صبرهم على جهاد عدوهم أي ليعرفهم باعيانهم الا أن سبب العلم وهو ظهور الصبر حذف هنا وقيل معناه ليعلم الله ذلك واقعا منهم لان الله تعالى يعلم الشئ قبل وجوده ولا يحتاج الى سبب حتى يعلم والمعنى ليقع ما علمه عيانا ومشاهدة للناس والمجاز اذا انما تقع على الواقع دون المعلوم الذي لم يوجد وقيل معناه ليعلم أولياء الله فاضاف علمهم الى نفسه تفخيما وقيل معناه ليحكم الله بالامتياز بين المؤمن والمنافق فوضع العلم موضع الحكم لان الحكم لا يحصل الا بعد العلم (ويتخذ منكم شهداء) يعني وليكرم قوما منكم بالشهادة ممن أراد أن يكرمهم بها وذلك لان قوما من المسلمين فاتهم يوم بدر وكانوا يتمنون لقاء العدو وان يكون لهم يوم كيوم بدر فيقاتلون فيه العدو ويلتمسون فيه الشهادة والشهداء جمع شهيد وهو من قتل من المسلمين بسيف الكفار في المعركة واختلفوا في معنى الشهيد فقيل الشهيد الحي لقوله تعالى بل أحياء عند ربهم يرزقون فارواحهم حية حضرت دار السلام وشهدتها وأرواح غيرهم لا تشهدها وقيل سمي شهيدا لان الله شهد له بالجنة وقيل سموا شهداء لانهم يشهدون يوم القيامة مع الانبياء والصديقين على الامم لان الشهادة تكون للافضل فالافضل من الامة ولان منصب الشهادة منصب عظيم ودرجة عالية (والله لا يحب الظالمين) يعني المشركين وقيل هم الذين ظلموا أنفسهم بالمعاصي وقيل هم المنافقون الذين يظهرون الايمان بالسنتهم ويسرون الكفر والمعنى والله لا يحب من لا يكون ثابتا على الايمان صابرا على الجهاد (وليمحص الله الذين آمنوا) أي وليطهرهم من ذنوبهم ويزيلها عنهم وأصل المحص في اللغة التنقية والازالة (ويمحق الكافرين)

(وليعلم الله الذين آمنوا) أي نداولها الضروب من التدبير وليعلم الله المؤمنين مميزين بالصبر والايمان من غيرهم كما علمهم قبل الوجود (ويتخذ منكم شهداء) وليكرم ناسا منكم بالشهادة يريد المستشهدين يوم أحد أو ليتخذ منكم من يصلح للشهادة على الامم يوم القيامة من قوله لتكونوا شهداء على الناس (والله لا يحب الظالمين) اعتراض بين بعض التعليل وبعض ومعناه والله لا يحب من ليس من هؤلاء الثابتين على الايمان المجاهدين في سبيله وهم المنافقون والكافرون (وليمحص الله الذين آمنوا) التمحيص التطهير والتصفية (ويمحق الكافرين) ويهلكهم يعني ان كانت الدولة على المؤمنين فللتمييز والاستشهاد والتمحيص وان كانت على الكافرين فلمحقهم ومحو آثارهم

٢ قوله (خ) عن البراء كانه رواه بالمعنى اذ رواية البخاري في غزوة احد تغاير هذه لفظا اهـ مصححه

(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة) أم منقطعة ومعنى الهمزة فيها الانكار أي لا تحسبوا (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) أي ولما تجاهدوا والان العلم متعلق بالمعلوم فنزل نفي العلم منزلة نفي متعلقه لانه منتف بانتفائه تقول ما علم الله في فلان خيرا أي ما فيه خير حتى يعلمه ولما بمعنى لم الا ان فيه ضربا من التوقع فدل على نفي الجهاد فيما مضى وعلى توقعه فيما يستقبل (ويعلم الصابرين) نصب باضمار ان والواو بمعنى الجمع نحو لا تأكل السمك وتشرب اللبن أو جزم للعطف على يعلم الله وانما حركت الميم لالتقاء الساكنين واختيرت الفتحة لفتحة ما قبلها (ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه) خوطب به الذين لم يشهدوا بدرا وكانوا يتمنون أن يحضروا مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لينالوا كرامة الشهادة وهم الذين ألحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخروج الى المشركين وكان رأيه في الاقامة بالمدينة يعني وكنتم تمنون الموت قبل أن تشاهدوه وتعرفوا شدته (فقد رأيتموه وأنتم تنظرون) أي رأيتموه معاينين مشاهدين له حين قتل اخوانكم بين أيديكم وشارفتم أن تقتلوا وهذا توبيخ لهم على تمنيهم الموت وعلى ما تسببوا له من خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحاحهم عليه ثم انهزامهم عنه وانما تمنوا الشهادة لينالوا كرامة الشهداء من غير قصد الى ما يتضمنه من غلبة الكفار كمن شرب الدواء من طبيب نصراني فان قصده حصول الشفاء ولا يخطر بباله أن فيه جر منفعة الى عدو الله وتنفيقا لصناعته لما رمى ابن قميئة رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر فكسر رباعيته أقبل يريد قتله فذب عنه مصعب بن عمير وهو صاحب الراية حتى قتله ابن قميئة وهو يرى أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قتلت محمدا وصرخ صارخ قيل هو الشيطان ألا ان محمدا قد قتل ففشا في الناس خبر قتله فانكفؤوا وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الى عباد الله حتى انحازت اليه طائفة من أصحابه فلامهم على هزيمتهم فقالوا يا رسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا أتانا خبر قتلك فولينا مدبرين فنزل (وما محمد الا رسول قد خلت) مضت (من قبله الرسل) فسيخلو كما خلوا وكما أن اتباعهم بقوا متمسكين بدينهم بعد خلوهم فعليكم أن تتمسكوا بدينه بعد خلوه لان المقصود من بعثة الرسل تبليغ الرسالة والزام الحجة لا وجوده بين أظهر قومه

أي يفنيهم ويهلكهم ومعنى الآية ان قتلكم الكافرون فهو شهادة وتطهير لكم وان قتلتموهم أنتم فهو محقهم واستئصالهم ۞ قوله عز وجل (أم حسبتم) أي بل حسبتم وظننتم والمراد به الانكار والمعنى لا تحسبوا أيها المؤمنون (ان تدخلوا الجنة) وتنالوا كرامتي وثوابي (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) قال الامام فخر الدين الرازي ظاهر الآية يدل على وقوع النفي على العلم والمراد وقوعه على نفي المعلوم والتقدير أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يصدر الجهاد عنكم وتقريره ان العلم متعلق بالمعلوم كما هو عليه فلما حصلت هذه المطابقة لا جرم حسن اقامة كل واحد منهما مقام الآخر وقال الواحدي النفي في الآية واقع على العلم والمعنى على الجهاد دون العلم وذلك لما فيه من الايجاز في انتفاء جهاد لو كان لعلمه والتقدير ولما يكن المعلوم من الجهاد الذي أوجب عليكم فجرى النفي على العلم للايجاز على سبيل التوسع في الكلام اذ المعنى مفهوم من غير اخلال وقال الزجاج المعنى ولما يقع العلم بالجهاد والعلم بصبر الصابرين أي ولما يعلم الله ذلك واقعا منكم لانه يعلمه غيبا وانما يجازيهم على عملهم وقال الطبري يقول ولما يتبين لعبادي المؤمنين المجاهد منكم على ما أمرته به (ويعلم الصابرين) يعني في الحرب وعلى ما نالهم في ذات الله عز وجل من جراح وألم ومكروه وفي هذه الآية معاتبة لمن انهزم يوم أحد والمعنى أم حسبتم أيها المنهزمون ان تدخلوا الجنة كما دخلها الذين قتلوا وبذلوا مهجهم لربهم عز وجل وصبروا على ألم الجراح والضرب وثبتوا للعدو وهم من غير أن تسلكوا طريقهم وتصبروا صبرهم ۞ قوله تعالى (ولقد كنتم تمنون الموت من قبل ان تلقوه) قال ابن عباس لما أخبر الله عز وجل المؤمنين على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بما فعل بشهدائهم يوم بدر من الكرامة رغبوا في ذلك فتمنوا قتالا يستشهدون فيه فيلحقون باخوانهم فأراهم الله يوم أحد فلم يلبثوا ان انهزموا الا من شاء الله منهم فأنزل الله هذه الآية وقيل ان قوما من المسلمين تمنوا يوما كيوم بدر ليقاتلوا فيه ويستشهدوا فأراهم الله يوم أحد ومعنى قوله تمنون الموت أي تطلبون أسباب الموت وهو القتال والجهاد من قبل ان تلقوه أي من قبل ان تلقوا يوم أحد (فقد رأيتموه) يعني رأيتم ما كنتم تمنون والهاء في رأيتموه عائدة على الموت أي رأيتم أسبابه معاينين له شاهدين قتل من قتل من اخوانكم بين أيديكم (وأنتم تنظرون) قيل ذكره تأكيدا وقال الزجاج معناه فقد رأيتموه وأنتم بصراء كما تقول رأيت كذا وكذا وليس في عينك علة أي رأيته رؤية حقيقية وقيل معناه وأنتم تنظرون ما تمنيتم فلم انهزمتم ۞ قوله عز وجل (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل) قال أهل المغازي خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بالشعب من أحد في سبعمائة رجل وجعل عبد الله بن جبير على الرجالة وكانوا خمسين رجلا وقال أقيموا بأصل الجبل وانضحوا عنا بالنبل حتى لا يأتونا من خلفنا فان كانت لنا أو علينا فلا تبرحوا من مكانكم حتى أرسل اليكم فانا لن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم وكانت قريش على ميمنتهم خالد بن الوليد وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبي جهل ومعهم النساء يضربن بالدفوف وينشدن الاشعار فقاتلوا حتى حميت الحرب وحمل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه على المشركين

المشركين فهزموهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أخذ سيفا وقال من يأخذ هذا السيف بحقه ويضرب به العدو حتى يثخن فأخذه أبو دجانة سماك بن خرشة الانصاري فلما أخذه اعتم بعمامة حمراء وجعل يتبختر في مشيته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انها لمشية يبغضها الله تعالى ورسوله الا في هذا الموضع فلما نظرت الرماة الى المشركين وقد انكشفوا ورأوا أصحابهم ينهبون الغنيمة أقبلوا يريدون النهب فلما رأى خالد بن الوليد قلة الرماة واشتغال المسلمين بالغنيمة ورأى ظهورهم خالية صاح في خيله وحمل على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهزموهم ورمى عبد الله بن قمئة رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر فكسر أنفه ورباعيته وشجه في وجهه فاثقله وتفرق عنه أصحابه ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم الى صخرة ليعلوها فلم يستطع وكان قد ظاهر بين درعين فجلس تحته طلحة فنهض حتى استوى على الصخرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أوجب طلحة ووقعت هند والنسوة معها يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يجدعن الآذان والانوف حتى اتخذت من ذلك قلائد وأعطتها وحشيا وبقرت عن كبد حمزة رضي الله تعالى عنه وكان قد قتل يومئذ فأخذت منها قطعة فلاكتها فلم تسغها فلفظتها وأقبل عبد الله بن قمئة يريد قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فذب عنه مصعب بن عمير رضي الله عنه وهو يومئذ صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتله ابن قمئة وهو يرى انه قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع وقال اني قد قتلت محمدا وصاح صارخ ألا ان محمدا قد قتل ويقال ان الصارخ ابليس اللعين فانكفأ الناس وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الى عباد الله الى عباد الله فاجتمع اليه ثلاثون رجلا فحموه حتى كشفوا عنه المشركين ورمى سعد بن أبي وقاص حتى اندقت سية قوسه ونثل له رسول الله صلى الله عليه وسلم كنانته وقال ارم فداك أبي وأمي وكان أبو طلحة رجلا راميا شديد النزع كسر يومئذ قوسين أو ثلاثة وكان الرجل يمر ومعه جعبة النبل فيقول انثرها لابي طلحة وكان اذا رمى تشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر موضع نبله وأصيبت يد طلحة بن عبيد الله فيبست وقى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصيبت عين قتادة بن النعمان يومئذ حتى وقعت على وجنته فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم فعادت أحسن ما كانت فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أدركه أبي بن خلف الجمحي وهو يقول لا نجوت ان نجوت فقال القوم يا رسول الله ألا يعطف عليه رجل منا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوه حتى اذا دنا منه وكان أبي قبل ذلك يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول عندي رمكة أعلفها كل يوم فرق ذرة أقتلك عليها فيقول النبي صلى الله عليه وسلم بل أنا أقتلك ان شاء الله فلما دنا منه تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الحربة من الحرث بن الصمة ثم استقبله وطعنه في عنقه وخدشه خدشة فسقط عن فرسه وهو يخور كما يخور الثور ويقول قتلني محمد فاحتمله أصحابه وقالوا ليس عليك بأس فقال بل لو كانت هذه الطعنة بربيعة ومضر لقتلتهم أليس قال لي أنا أقتلك فلو بزق علي بعد تلك المقالة لقتلني بها فلم يلبث بعد ذلك الا يوما حتى مات بموضع يقال له سرف (خ) عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشتد غضب الله على من قتله نبي في سبيل الله اشتد غضب الله على قوم أدموا وجه نبي الله قالوا وفشا في الناس ان محمدا صلى الله عليه وسلم قد قتل فقال بعض المسلمين ليت لنا رسولا الى عبد الله بن أبي فيأخذ لنا أمانا من أبي سفيان وجلس بعض الصحابة وألقوا بأيديهم وقال اناس من المنافقين ان كان محمد قد قتل فالحقوا بدينكم الاول وقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك يا قوم ان كان محمد قد قتل فان رب محمد لم يقتل وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه ثم قال اللهم اني أعتذر اليك مما يقول هؤلاء يعني المسلمين وأبرأ اليك مما جاء به هؤلاء يعني المشركين ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق الى الصخرة وهو يدعو الناس فأول من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم كعب بن مالك قال قد عرفت عينيه تزهران تحت

المغفر فناديت باعلى صوتي يامعشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشار الي أن اسكت فانحازت اليه طائفة من أصحابه فلامهم النبي صلى الله عليه وسلم على الفرار فقالوا يا رسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا أتانا الخبر بأنك قد قتلت فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين فانزل الله عز وجل وما محمد الارسول قد خلت من قبله الرسل ومعنى الآية فسيخلو محمد كما خلت الرسل من قبله فكما أن أتباعهم بقوا متمسكين بدينهم بعد خلو أنبيائهم فعليكم أنتم أن تتمسكوا بدينه بعد خلوه لان الغرض من بعث الرسول تبليغ الرسالة والزام الحجة لاوجوده بين ظهراني قومه ومحمد اسم علم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه اشارة الى وصفه بذلك وتخصيصه بمعناه وهو الذي كثرت خصاله المحمودة والمستحق لجميع المحامد لانه الكامل في نفسه صلى الله عليه وسلم فاكرم الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم فسماه باسمين مشتقين من اسمه المحمود سبحانه وتعالى فسماه محمدا وأحمد وفي ذلك يقول حسان بن ثابت

ألم تر أن الله أرسل عبده * ببرهانه والله أعلى وأمجد * أغر عليه بالنبوة خاتم
من الله مشهور يلوح ويشهد * وشق له من اسمه ليجله * فذو العرش محمود وهذا محمد

(ق) عن جبير بن مطعم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب والعاقب الذي ليس بعده نبي وسماه الله رؤفا رحيما (م) عن أبي موسى الاشعري قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمي لنا نفسه أسماء فقال أنا محمد وأنا أحمد وأنا المقفي ونبي التوبة ونبي الرحمة قوله المقفي هو آخر الانبياء الذي لانبي بعده والرسول هو المرسل ويكون بمعنى الرسالة والمراد به هنا المرسل بدليل قوله تعالى وانك لمن المرسلين (أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) يعني أتنقلبون على أعقابكم ان مات محمد أو قتل وترجعون الى دينكم الاول يقال لكل من رجع الى ما كان عليه رجع وراءه ونكص على عقبيه وحاصل الكلام أن الله تعالى بين أن موت محمد صلى الله عليه وسلم أو قتله لا يوجب ضعفا في دينه ولا الرجوع عنه بدليل موت سائر الانبياء قبله وان أتباعهم ثبتوا على دين أنبيائهم بعد موتهم (ومن ينقلب على عقبيه) يعني فيرتد عن دينه ويرجع الى الكفر (فلن يضر الله شيأ) يعني بارتداده لان الله تعالى لا يضره كفر الكافرين لانه تعالى غني عن العالمين وانما يضر المرتد والكافر نفسه (وسيجزي الله الشاكرين) يعني الثابتين على دينهم الذين لم ينقلبوا عنه لانهم شكروا نعمة الله عليهم بالاسلام وثباتهم عليه فسماهم الله شاكرين لما فعلوا والمعنى وسيثيب الله من شكره على توفيقه وهدايته وروى ابن جبير عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه في قوله وسيجزي الله الشاكرين قال الثابتين على دينهم أبا بكر وأصحابه وكان علي يقول أبو بكر أمين الشاكرين وأمين أحبار الله وكان أشكرهم وأحبهم الى الله تعالى ۞ قوله عز وجل (وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله) أي بأمر الله وقضائه وقدره وعلمه وذلك أن الله تعالى يأمر ملك الموت بقبض الارواح ولا يموت أحد الا باذن الله تعالى وأمره والمراد من الآية تحريض المؤمنين على الجهاد وتشجيعهم على لقاء العدو وباعلامهم بان الجبن لا ينفع وان الحذر لا يدفع المقدور وان أحدا لا يموت قبل أجله وان خاض المهالك واقتحم المعارك واذا جاء الاجل لم يدفع الموت بحيلة فلا فائدة في الخوف والجبن وفي الآية أيضا ذكر حفظ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم عند غلبة العدو وتخليصه منهم عند التفافهم عليه واسلام أصحابه له فانجاه الله تعالى من عدوه سالما مسلما لم يضره شئ (كتابا مؤجلا) يعني موقتا له أجل معلوم لا يتقدم ولا يتأخر والمعنى أن الله تعالى كتب لكل نفس أجلا لا يقدر أحد على تغييره أو تقديمه أو تأخيره وقيل الكتاب هو اللوح المحفوظ لان فيه آجال جميع الخلق (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها) يعني من يرد بعمله وطاعته الدنيا ويعمل لها نؤته منها ما يكون جزاء لعمله والمعنى نؤته منها ما نشاء على ما قدرناه له نزلت في الذين تركوا المركز يوم أحد وطلبوا الغنيمة (ومن

(أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) الفاء معلقة للجملة الشرطية بالجملة التي قبلها على معنى التسبيب والهمزة لانكار أن يجعلوا خلو الرسل قبله سببا لانقلابهم على أعقابهم بعد هلاكه بموت أو قتل مع علمهم أن خلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكا به يجب أن يجعل سببا للتمسك بدين محمد عليه السلام لا للانقلاب عنه والانقلاب على العقبين مجاز عن الارتداد أو عن الانهزام (ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيأ) وانما ضر نفسه (وسيجزي الله الشاكرين) الذين لم ينقلبوا وسماهم شاكرين لانهم شكروا نعمة الاسلام فيما فعلوا (وما كان) وما جاز (لنفس أن تموت الا باذن الله) أي بعلمه أو بان يأذن ملك الموت في قبض روحه والمعنى ان موت الانفس محال أن يكون الا بمشيئة الله وفيه تحريض على الجهاد وتشجيع على لقاء العدو واعلام بان الحذر لا ينفع وأن أحدا لا يموت قبل بلوغ أجله وان خاض المهالك واقتحم المعارك (كتابا) مصدر مؤكد لان المعنى كتب الموت كتابا (مؤجلا) موقتا له أجل معلوم لا يتقدم ولا يتأخر (ومن يرد) بقتاله (ثواب الدنيا) أي الغنيمة وهو تعريض بالذين شغلتهم الغنائم يوم أحد (نؤته منها) من ثوابها (ومن

يرد

يرد ثواب الآخرة نؤته منها) يعني من يرد بعمله الآخرة نؤته ثوابه فيها نزلت في الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد واعلم أن هذه الآية وان نزلت في الجهاد خاصة لكنها عامة في جميع الاعمال وذلك لان الاصل في ذلك كله يرجع الى نية العبد فان كان يريد بعمله الدنيا فليس له جزاء الا فيها وكذلك من أراد بعمله الدار الآخرة فجزاؤه أيضا فيها (ق) عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انما الاعمال بالنيات وفي رواية بالنية وانما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها وفي رواية ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه وروى البغوي بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من كانت نيته طلب الآخرة جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا راغمة ومن كانت نيته طلب الدنيا جعل الله الفقر بين عينيه وشتت عليه أمره ولا يأتيه منها الا ما كتب الله له ۞ وقوله تعالى (وسنجزي الشاكرين) يعني المؤمنين المطيعين الذين لم يشغلهم شيء عن الجهاد ولم يريدوا بأعمالهم الا الله تعالى والدار الآخرة ۞ قوله عز وجل (وكأين من نبي) أي وكم من نبي (قتل معه) وقرئ قاتل معه فمن قرأ قتل بضم القاف فله أوجه أحدها أن يكون القتل راجعا على النبي وحده فعلى هذا يكون الوقف على قتل لانه كلام تام وفيه اضمار تقديره قتل ومعه ربيون كثير يكون معناه قتل حال ما كان معه ربيون كثير والمعنى ان كثيرا من الانبياء قتلوا والذين بقوا بعدهم ما وهنوا في دينهم وما استكانوا بل استمروا على جهاد عدوهم ونصرة دينهم فكان ينبغي لكم أن تكونوا مثلهم الوجه الثاني ان القتل نال النبي ومن معه من الربيين ويكون المراد البعض ويكون قوله فما وهنوا راجعا الى الباقين والمعنى وكأين من نبي قتل وبعض من كان معه فما ضعف الباقون لقتل من قتل من اخوانهم بل مضوا على جهاد عدوهم فكان ينبغي لكم أن تكونوا كذلك الوجه الثالث أن يكون القتل نال الربيين لا النبي والمعنى وكأين من نبي قتل ممن كان معه وعلى دينه ربيون كثير ومن قرأ قاتل معه ربيون كثير فالمعنى وكأين من نبي قاتل معه العدد الكثير من أصحابه فأصابهم من عدوهم قروح وجراحات فما وهنوا لما أصابهم بل استمروا على جهاد عدوهم لان الذي أصابهم انما هو في سبيل الله وطاعته واقامة دينه ونصرة نبيه فكان ينبغي لكم أن تفعلوا مثل ذلك يا أمة محمد وحجة هذه القراءة ما روي عن سعيد ابن جبير أنه قال ما سمعنا ان نبيا قتل في القتال ۞ وقوله (ربيون كثير) قال ابن عباس جموع كثيرة وقيل الربيون الالوف وقيل الربية الواحدة عشرة آلاف وقيل ألف وقيل ربيون يعني فقهاء علماء وقيل الربيون هم الاتباع (فما وهنوا) أي فما جبنوا عن الجهاد في سبيل الله (لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا) يعني عن مجاهدة عدوهم بما نالهم من ألم الجراح وقتل الاصحاب (وما استكانوا) يعني وما استسلموا وما خضعوا لعدوهم ولكنهم صبروا على أمر ربهم وطاعة نبيهم وجهاد عدوهم وهذا تعريض بما أصابهم يوم أحد من الوهن والانكسار عند الارجاف بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وضعفهم عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم حين أرادوا أن يعتضدوا بالمنافق عبد الله بن أبي في طلب الامان من أبي سفيان والمقصود من الآية حكاية ما جرى لسائر الانبياء وأتباعهم لتقتدي هذه الامة بهم وترغيب الذين كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجهاد (والله يحب الصابرين) يعني في الجهاد والمعنى ان من صبر على تحمل الشدائد في طلب الآخرة ولم يظهر الجزع والعجز فان الله تعالى يحبه ومحبة الله تعالى للعبد عبارة عن ارادة اكرامه واعزازه وايصال الثواب له وادخاله الجنة مع أوليائه وأصفيائه ۞ ثم قال تعالى (وما كان قولهم) يعني قول الربيين (الا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا) فيدخل فيه جميع الصغائر والكبائر (واسرافنا في أمرنا) يعني ما أسرفنا فيه فتخطينا الى العظام من الذنوب لان الاسراف الافراط في الشيء ومجاوزة الحد فيه فيكون المعنى اغفر لنا ذنوبنا الصغائر منها والكبائر (وثبت أقدامنا) لكيلا نزل عند لقاء العدو وذلك يكون بازالة

يرد ثواب الآخرة) أي اعلاء كلمة الله والدرجة في الآخرة (نؤته منها وسنجزي الشاكرين) وسنجزي الجزاء المبهم الذين شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شيء عن الجهاد (وكأين) أصله أي دخل عليه كاف التشبيه وصار في معنى كم التي للتكثير وكائن بوزن كاع حيث كان مكي (من نبي قاتل) قتل مكي وبصري ونافع (معه ربيون) حال من الضمير في قتل أي قتل كائنا معه ربيون (كثير) والربيون الربانيون وعن الحسن بضم الراء وعن البعض بفتحها والفتح على القياس لانه منسوب الى الرب والضم والكسر من تغييرات النسب (فما وهنوا) فما فتروا عند قتل نبيهم (لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا) عن الجهاد بعده (وما استكانوا) وما خضعوا لعدوهم وهذا تعريض بما أصابهم من الوهن عند الارجاف بقتل رسول الله عليه السلام واستكانتهم لهم حيث أرادوا أن يعتضدوا بابن أبي في طلب الامان من أبي سفيان (والله يحب الصابرين) على جهاد الكافرين (وما كان قولهم الا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا) أي وما كان قولهم الا هذا القول وهو اضافة الذنوب الى أنفسهم مع كونهم ربانيين هضما لها (واسرافنا في أمرنا) تجاوزنا حد العبودية (وثبت أقدامنا) في القتال

(وانصرنا على القوم الكافرين) بالغلبة وقدم الدعاء بالاستغفار من الذنوب على طلب تثبيت الاقدام في مواطن الحرب والنصرة على الاعداء لانه أقرب الى الاجابة لما فيه من الخضوع والاستكانة (فآتاهم الله ثواب الدنيا) أي النصرة والظفر والغنيمة (وحسن ثواب الآخرة) المغفرة والجنة وخص بالحسن دلالة على فضله وتقدمه وانه هو المعتد به عنده (والله يحب المحسنين)

أي هم محسنون والله يحبهم (يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم) يرجعوكم الى الشرك (فتنقلبوا خاسرين) قيل هو عام في جميع الكفار وعلى المؤمنين أن يجانبوهم ولا يطيعوهم في شئ حتى لا يستجروهم الى موافقتهم وعن السدى ان تستكينوا لابي سفيان وأصحابه وتستأمنوهم يردوكم الى دينهم وقال على رضى الله عنه نزلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة ارجعوا الى اخوانكم وادخلوا في دينهم (بل الله مولاكم) ناصركم فاستغنوا عن نصرة غيره (وهو خير الناصرين سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب) الرعب شامى وعلى وهما لغتان قيل قذف الله في قلوب المشركين الخوف يوم أحد فانهزموا الى مكة من غير سبب ولهم القوة والغلبة (بما أشركوا بالله) بسبب اشراكهم أى كان السبب في القاء الله الرعب

في قلوبهم اشراكهم به (ما لم ينزل به سلطانا) آلهة لم ينزل الله باشراكها حجة ولم يرد ان هناك حجة الا انها لم تنزل عليهم لان الشرك لا يستقيم أن تقوم عليه حجة وانما المراد نفي الحجة ونزولها جميعا كقوله * ولا ترى الضب بها ينجحر * أي ليس ضب فينجحر ولم يعن ان بها ضبا ولا ينجحر (ومأواهم) مرجعهم (النار وبئس مثوى الظالمين) النار فالمخصوص بالذم محذوف ولما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه الى المدينة قال ناس من أصحابه من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر فنزل (ولقد صدقكم الله وعده) أي حقق

الخوف والرعب من قلوبهم (وانصرنا على القوم الكافرين) لان النصر على الاعداء لا يكون الا من عند الله بين الله تعالى أنهم كانوا مستعدين عند لقاء العدو بالدعاء والتضرع وطلب الاعانة والنصر من الله تعالى والغرض منه أن يقتدى بهم في هذه الطريقة الحسنة أمة محمد صلى الله عليه وسلم يقول هلا فعلتم مثل ما فعلوا وقلتم مثل ما قالوا (فآتاهم الله ثواب الدنيا) يعني النصر والغنيمة وقهر الاعداء والثناء الجميل وغفران الذنوب والخطايا (وحسن ثواب الآخرة) يعني الجنة وما فيها من النعيم المقيم وانما خص ثواب الآخرة بالحسن تنبيها على اجلاله وعظمته لانه غير زائل ولم يشب بتنغيص ولم يصف ثواب الدنيا بالحسن لقلته ولانه سريع الزوال مع ما يشوبه من التنغيص (والله يحب المحسنين) يعني الذين يفعلون مثل ما فعل هؤلاء وهذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يقولوا مثل هذا عند لقاء العدو وفيه دقيقة لطيفة وهي أنهم لما اعترفوا بذنوبهم وكونهم مسيئين سماهم الله تعالى محسنين ۞ قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا) يعني اليهود والنصارى وقيل المنافقين وذلك في قولهم للمؤمنين عند الهزيمة يوم أحد ارجعوا الى اخوانكم وادخلوا في دينهم وقيل معناه ان تطيعوهم فيما يأمرونكم به من ترك الجهاد (يردوكم على أعقابكم) يعني يرجعوكم الى أمركم الاول وهو الكفر والشرك بالله بعد الايمان به لان قبول قولهم في الدعوة الى الكفر كفر (فتنقلبوا خاسرين) يعني مغبونين في الدنيا والآخرة أما خسار الدنيا فهو طاعة الكفار والتذلل للاعداء وأما خسار الآخرة فهو دخول النار وحرمان دار القرار (بل الله مولاكم) أي وليكم وناصركم وحافظكم فاستعينوا به (وهو خير الناصرين) يعني انه تعالى قادر على نصركم والمعنى انكم انما تطيعون الكفار لينصروكم ويعينوكم وهم عاجزون عن نصر أنفسهم فضلا عن غيرهم فاطلبوا النصر من الله تعالى فهو خير الناصرين ۞ قوله عز وجل (سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب) وذلك ان أبا سفيان ومن معه ارتحلوا يوم أحد متوجهين الى مكة فلما بلغوا بعض الطريق ندموا وقالوا بئس ما صنعنا قتلناهم حتى اذا لم يبق منهم الا الشريد تركناهم ارجعوا اليهم فاستأصلوهم فلما عزموا على ذلك ألقى الله في قلوبهم الرعب يعني الخوف الشديد حتى رجعوا عما هموا به فعلى هذا القول يكون الوعد بالقاء الرعب في قلوب الكفار مخصوصا بيوم أحد وقيل انه عام وان كان السببُ خاصا لقوله صلى الله عليه وسلم نصرت بالرعب مسيرة شهر فكأنه قال سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب منكم حتى تقهروهم ويظهر دينكم على سائر الاديان وقد فعل الله ذلك بفضله وكرمه حتى صار دين الاسلام ظاهرا على جميع الاديان والملل كما قال تعالى ليظهره على الدين كله (بما أشركوا بالله) يعني انما كان القاء الرعب في قلوبهم بسبب اشراكهم بالله (ما لم ينزل به سلطانا) يعني حجة وبرهانا وسميت الحجة سلطانا لان السلطان مشتق من السليط وهو ما يستصبح به وقيل السلطان القوة والقدرة وسميت الحجة سلطانا لقوتها على دفع الباطل (ومأواهم النار) لما بين الله تعالى حال الكفار في الدنيا وهو القاء الرعب والخوف في قلوبهم بين حالهم في الآخرة فقال تعالى ومأواهم النار أي مسكنهم (وبئس مثوى الظالمين) أي المسكن الذي يستقرون به ويقيمون فيه وكلمة بئس تستعمل في جميع المذام والمعنى وبئس مقام الظالمين الذين ظلموا أنفسهم باكتساب ما أوجب لهم عذاب النار والاقامة فيها ۞ قوله عز وجل (ولقد صدقكم الله وعده) قال محمد بن كعب القرظي لما

(اذ تحسونهم) تقتلونهم قتلا ذريعا وعن ابن عيسى حسه أبطل حسه بالقتل (باذنه) بامره وعلمه (حتى اذا فشلتم) جبنتم (وتنازعتم فى الامر) أى اختلفتم (وعصيتم) أمر نبيكم بترككم المركز واشتغالكم بالغنيمة (من بعد ما أراكم ما تحبون) من الظفر وقهر الكفار ومتعلق اذا محذوف تقديره حتى اذا فشلتم منعكم نصره وجاز أن يكون المعنى صدقكم الله وعده الى وقت فشلكم (منكم من يريد الدنيا) أى الغنيمة وهم الذين تركوا المركز لطلب الغنيمة روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل أحدا خلف ظهره واستقبل المدينة وأقام الرماة عند الجبل وأمرهم أن يثبتوا فى مكانهم ولا يبرحوا كانت الدولة للمسلمين أو عليهم فلما أقبل المشركون جعل الرماة يرشقون خيلهم والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم يقتلونهم حتى اذا فشلوا وتنازعوا فقال بعضهم قد انهزم المشركون فما موقفنا ههنا فادخلوا عسكر المسلمين وخذوا الغنيمة مع اخوانكم وقال بعضهم لا تخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن ثبت مكانه عبد الله بن جبير أمير الرماة فى نفر دون العشرة وهم المعنيون بقوله (ومنكم من يريد الآخرة) فكر المشركون على الرماة وقتلوا عبد الله بن جبير وأقبلوا على المسلمين حتى هزموهم وقتلوا من قتلوا وهو قوله (ثم صرفكم عنهم) أى كف معونته عنكم فغلبوكم (ليبتليكم) ليمتحن صبركم على المصائب وثباتكم عندها وحقيقته ليعاملكم معاملة المختبر لانه يجازى على ما يعمله العبد لا على ما يعلمه منه (ولقد عفا عنكم) حيث ندمتم على ما فرط منكم من عصيان رسول الله صلى الله عليه وسلم (والله ذو فضل على المؤمنين) بالعفو عنهم وقبول توبتهم أو هو متفضل عليهم فى جميع الاحوال سواء أديل لهم أو أديل عليهم لان الابتلاء رحمة كما ان النصرة رحمة وانتصب (اذ تصعدون) تبالغون فى الذهاب فى صعيد

رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من أحد الى المدينة وقد أصابهم ما أصابهم قال ناس من الصحابة من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر فانزل الله تعالى ولقد صدقكم الله وعده يعنى بالنصر والظفر وذلك ان الظفر كان للمسلمين فى الابتداء وقيل ان الله وعد المؤمنين النصر باحد فنصرهم فلما خالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلبوا الغنيمة هزموا (اذ تحسونهم) يعنى اذ تقتلون الكفار قتلا ذريعا وقيل معنى تحسونهم تستأصلونهم بالقتل (باذنه) يعنى بعلم الله وأمره وقيل بقضاء الله وقدره (حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الامر وعصيتم) قال الفراء فيه تقديم وتأخير تقديره حتى اذا تنازعتم فى الامر وعصيتم فشلتم وقيل معناه ولقد صدقكم الله وعده بالنصر الى ان كان منكم الفشل والتنازع والمعصية وقيل فيه معنى الشرط وجوابه محذوف تقديره حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الامر وعصيتم منعكم الله النصر ومعنى فشلتم ضعفتم والفشل الضعف مع جبن ومعنى التنازع الاختلاف وكان اختلافهم وتنازعهم أن الرماة الذين كانوا مع عبد الله بن جبير لما انهزم المشركون قال بعضهم لبعض أى قوم ما نصنع بمقامنا ههنا وقد انهزم المشركون ثم أقبلوا على الغنيمة وقال بعضهم لبعض لا تجاوزوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت عبد الله بن جبير أمير القوم فى نفر يسير دون العشرة ممن كان معه فلما رأى خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل ذلك حملوا على الرماة الذين ثبتوا مع عبد الله بن جبير فقتلوا عبد الله بن جبير وأصحابه وأقبلوا على المسلمين وتحولت الريح دبورا بعد ما كانت صبا وانتقضت صفوف المسلمين واختلطوا فجعلوا يقتتلون على غير شعار يضرب بعضهم بعضا وما يشعرون بذلك من الدهش ونادى ابليس ان محمدا قد قتل فكان ذلك سبب هزيمة المسلمين وقوله وعصيتم يعنى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أمركم به من لزوم المركز (من بعد ما أراكم ما تحبون) من النصر والظفر والغنيمة يا معشر المسلمين (منكم من يريد الدنيا) يعنى الذين تركوا المركز وأقبلوا على النهب (ومنكم من يريد الآخرة) يعنى الذين ثبتوا مع أميرهم عبد الله بن جبير حتى قتلوا قال عبد الله ابن مسعود ما شعرت أن أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا حتى كان يوم أحد نزلت هذه الآية (ثم صرفكم عنهم) يعنى يا معشر المسلمين يعنى عن المشركين بالهزيمة (ليبتليكم) يعنى ليمتحنكم وقيل لينزل عليكم البلاء لتتوبوا اليه وتستغفروه وقيل معناه ليختبركم وهو أعلم ليتميز المؤمن من المنافق ومن يريد الدنيا ممن يريد الآخرة (ولقد عفا عنكم) يعنى ولقد عفا الله عنكم أيها المخالفون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يستأصلكم بعد المخالفة والمعصية وقيل عفا عن عقوبتكم أيها المخالفون (والله ذو فضل على المؤمنين) وهذا من تمام نعمه على عباده المؤمنين لانه نصرهم أولا ثم عفا عن المذنبين منهم ثانيا لانه ذو الفضل والطول والاحسان وفى الآية دليل على ان صاحب الكبيرة مؤمن وان الله تعالى يعفو بفضله وكرمه ان شاء لانه سماهم مؤمنين مع ما ارتكبوه من مخالفة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى كبيرة وعفا عنهم بعد ذلك ۞ قوله عز وجل (اذ تصعدون) قيل هو متعلق بما قبله والتقدير ولقد عفا عنكم اذ تصعدون لان عفوه عنهم لا بد وان يتعلق بامر اقترفوه وذلك الامر هو ما بينه بقوله اذ تصعدون يعنى هاربين فى الجبل وقيل هو ابتداء كلام لا تعلق له بما قبله والمعنى اذكروا اذ تصعدون وقراءة الجمهور بضم التاء وكسر العين من الاصعاد وهو الذهاب فى الارض والابعاد فيها وقرأ الحسن تصعدون بفتح التاء من

الارض والاصعاد الذهاب فى صعيد الارض أو الابعاد فيه بصرفكم أو بقوله ليبتليكم أو باضمار اذكروا (ولا تلاوون على أحد) ولا تلتفتون
وهو عبارة عن غاية انهزامهم وخوف عدوهم (والرسول يدعوكم) يقول الى عباد الله أنا رسول الله من يكر فله الجنة والجملة فى موضع الحال (فى

وأولاهم بتأويل مقدمتهم وجماعتهم الاولى (فأثابكم) عطف على صرفكم أى فجزاكم الله (غما) حين صرفكم عنهم وابتلاكم (بغم) بسبب غم أذقتموه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعصيانكم أمره أو غما مضاعفا بعد غم وغما متصلا بغم من الاغتمام بما أرجف به من قتل رسول الله عليه السلام والجرح والقتل وظفر المشركين وفوت الغنيمة والنصر (لكيلا تحزنوا على مافاتكم) لتتمرنوا على تجرع الغموم فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع (ولا ماأصابكم) ولا على مصيب من المضار (والله خبير بما تعملون) عالم بعملكم لا يخفى عليه شئ من أعمالكم وهذا ترغيب فى الطاعة وترهيب عن المعصية (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا) ثم أنزل الله الامن على المؤمنين وأزال عنهم الخوف الذى كان بهم حتى نعسوا وغلبهم النوم عن

الصعود وهو الارتقاء من أسفل الى أعلى كالصعود على الجبل وعلى السلم ونحوه وللمفسرين فى معنى الآية قولان أحدهما انه صعودهم فى الجبل عند الهزيمة والثانى انه الابعاد فى الارض فى حال الهزيمة ووقت الحرب (ولا تلاوون على أحد) أى لا تعرجون ولا تقيمون على أحد ولا يلتفت بعضكم الى بعض من شدة الحرب (والرسول يدعوكم فى أخراكم) أى فى آخركم ومن ورائكم يقول الى عباد الله أنا رسول الله من كر أى رجع فله الجنة (فأثابكم غما بغم) يعنى فجزاكم بفراركم عن نبيكم صلى الله عليه وسلم وفشلكم عن عدوكم غما بغم فسمى العقوبة التى عاقبهم بها ثوابا على سبيل المجاز لان لفظ الثواب لا يستعمل فى الاغلب الا فى الخير وقد يجوز استعماله فى الشر لانه ماخوذ من ثاب اذا رجع فاصل الثواب كل مايعود الى الفاعل من جزاء فعله سواء كان خيرا أو شرا فتى حملنا لفظ الثواب على أصل اللغة كان الكلام صحيحا ومتى حملناه على الاغلب كان على سبيل المجاز فهو كقول الشاعر

أخاف زيادا أن يكون عطاؤه * أداهم سودا أو محدرجة سمرا

فجعل العطاء مكان العقاب لان الاداهم السود هى القيود الثقال والمحدرجة هى السياط والباء فى قوله غما بغم بمعنى مع أو بمعنى على لان حروف الجر ينوب بعضها عن بعض وقيل الباء على بابها والمعنى غما متصلا بغم واختلفوا فى معنى الغمين فقيل الغم الاول هو مافاتهم من الظفر والغنيمة والغم الثانى هو مانالهم من القتل والهزيمة وقيل الغم الاول ماأصابهم من القتل والجراح والغم الثانى هو ماسمعوا ان محمدا صلى الله عليه وسلم قد قتل فانساهم غمهم الاول وقيل الغم الاول هو أنهم غموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمخالفة أمره فجزاهم الله بذلك الغم القتل والهزيمة وقيل ان غمهم الاول بسبب اشراف خالد بن الوليد مع خيل المشركين عليهم والغم الثانى حين أشرف أبو سفيان عليهم وذلك ان أبا سفيان وأصحابه وقفوا بباب الشعب فلما نظر المسلمون اليهم غمهم ذلك وظنوا انهم يميلون عليهم فيقتلونهم فاهمهم ذلك ﴿ قوله تعالى (لكيلا) فى لفظة لا قولان أحدهما انها باقية على أصلها ومعناها النفى فعلى هذا يكون الكلام متصلا بقوله ولقد عفا عنكم والمعنى ولقد عفا عنكم لكيلا (تحزنوا على مافاتكم ولا ماأصابكم) لان عفوه يذهب كل هم وحزن وقيل معناه فأثابكم غما أنساكم الحزن على مافاتكم وما أصابكم وقد روى انهم لما سمعوا ان النبى صلى الله عليه وسلم قد قتل نسوا ماأصابهم ومافاتهم والقول الثانى ان لفظة لا صلة ومعنى الكلام لكى تحزنوا على مافاتكم وأصابكم عقوبة لكم على مخالفتكم قال ابن عباس الذى فاتهم الغنيمة والذى أصابهم القتل والهزيمة (والله خبير بما تعملون) أى هو عالم بجميع أعمالكم خيرها وشرها فيجازيكم عليها ﴿ قوله عزوجل (ثم أنزل عليكم) يامعشر المسلمين (من بعد الغم) الذى أصابكم (أمنة نعاسا) يعنى أمنا والامنة والامن واحد وقيل الامن يكون مع زوال الخوف والامنة مع بقاء سبب الخوف وكان سبب الخوف بعد باقيا والنعاس اخف من النوم والمعنى أعقبكم بما نالكم من الخوف والرعب ان أمنكم أمنا تنامون معه لان الخائف لا يكاد ينام فانهم بعد خوفهم (يغشى طائفة منكم) قال ابن عباس أمنهم يومئذ بنعاس تغشاهم وانما ينعس من يأمن والخائف لا ينام (خ) عن أنس عن أبى طلحة قال كنت فيمن تغشاهم النعاس يوم أحد حتى سقط سيفى من يدى مرارا يسقط وآخذه ويسقط فآخذه وأخرجه الترمذى عنه

أبى طلحة غشينا النعاس ونحن فى مصافنا فكان السيف يسقط من يد أحدنا فيأخذه ثم يسقط فيأخذه والامنة الامن قال
ونعاسا بدل من أمنة أو هو مفعول وأمنة حال منه مقدمة عليه نحو رأيت راكبا رجلا والاصل أنزل عليكم نعاسا ذا أمنة اذ النعاس ليس هو
الامن ويجوز أن يكون أمنة مفعولا له أو حالا من المخاطبين بمعنى ذوى أمنة أو على انه جمع آمن كبار وبررة (يغشى) يعنى النعاس تغشى بالتاء
والامالة حمزة وعلى أى الامنة (طائفة منكم) هم أهل الصدق واليقين

(وطائفة) هم المنافقون (قد أهمتهم أنفسهم) مابهم مهم الاهم أنفسهم وخلاصها الاهم الدين ولاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين رضوان الله عليهم (يظنون بالله غير الحق) فى حكم المصدر أى يظنون بالله غير الظن الحق الذى يجب ان يظن به وهو ان لاينصر محمدا صلى الله عليه وسلم (ظن الجاهلية) بدل منه والمراد الظن المختص بالملة الجاهلية أو ظن أهل الجاهلية أى لايظن مثل ذلك الظن الا أهل الشرك الجاهلون بالله (يقولون هل لنا من الامر من شئ) هل لنا معاشر المسلمين من أمر الله نصيب قط يعنون النصر والغلبة على العدو (قل ان الامر) أى النصر والغلبة (كله لله) ولاوليائه المؤمنين وان جندنا لهم الغالبون كله تأكيد للامر ولله خبر ان كله بصرى وهو مبتدأ ولله خبره والجملة خبر ان (يخفون فى أنفسهم مالايبدون لك) خوفا من السيف (يقولون) فى أنفسهم أو بعضهم لبعض منكرين لقولك لهم ان الامر كله لله (لو كان لنا من الامر شئ ماقتلنا ههنا) أى لو كان الامر كما قال محمد ان الامر كله لله ولاوليائه وانهم الغالبون لما غلبنا قط ولما قتل من المسلمين من قتل فى هذه المعركة قد أهمتهم صفة لطائفة ويظنون خبر الطائفة أو صفة أخرى أو حال أى قد أهمتهم أنفسهم ظانين ويقولون بدل من يظنون ويخفون حال من يقولون وقل ان الامر كله لله اعتراض بين الحال وذى الحال ويقولون بدل من يخفون أو استئناف (قل لو كنتم فى بيوتكم) أى من علم الله منه انه يقتل فى هذه المعركة وكتب ذلك فى اللوح لم يكن بد من وجوده فلو قعدتم فى بيوتكم (لبرز) من بينكم (الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم) مصارعهم بأحد ليكون ماعلم الله انه يكون والمعنى ان الله كتب فى اللوح قتل من يقتل من المؤمنين وكتب مع ذلك انهم الغالبون لعلمه ان العاقبة فى الغلبة لهم وان دين الاسلام يظهر على الدين كله وان ماينكبون به فى بعض الاوقات تمحيص لهم

قال غشينا النعاس ونحن فى مصافنا يوم أحد وذكره نحو رواية البخارى وزاد والطائفة الاخرى المنافقون ليس لهم هم الا أنفسهم أجبن قوم وأرعبه وأخذله للحق وفى رواية أخرى له قال رفعت رأسى يوم أحد فجعلت أراهم ومامنهم يومئذ أحد الا يميد تحت حجفته من النعاس فذلك قوله تعالى ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا وقال الزبير بن العوام لقد رأيتنى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتد علينا الخوف أرسل الله تعالى علينا النوم والله انى لاسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشانى ماأسمعه الا كالحلم يقول لو كان لنا من الامر شئ ماقتلنا ههنا فقوله تعالى يغشى طائفة منكم يعنى المؤمنين (وطائفة قد أهمتهم أنفسهم) يعنى المنافقين أراد الله ان يميز المؤمنين من المنافقين فاوقع النعاس على المؤمنين حتى أمنوا ولم يوقع النعاس على المنافقين فبقوا فى الخوف وفى القاء النعاس على المؤمنين دون المنافقين آية عظيمة ومعجزة باهرة لان النعاس كان سبب أمن المؤمنين وعدم النعاس عن المنافقين كان سبب خوفهم وهو قوله تعالى وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يعنى حملتهم أنفسهم على الهم لان أسباب الخوف وهى قصد الاعداء كانت حاصلة عندهم (يظنون بالله غير الحق) يعنى يظنون ان الله لاينصر محمدا وأصحابه وقيل ان محمدا صلى الله عليه وسلم قد قتل وان أمره يضمحل والمعنى يظنون بالله غير ظن الحق الذى يجب ان يظن به (ظن الجاهلية) أى كظن أهل الجاهلية (يقولون) يعنى المنافقين (هل لنا) أى مالنا (من الامر من شئ) وذلك انه لما شاور النبى صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبى ابن سلول رأس المنافقين فى هذه الواقعة وأشار عليه ان لايخرج من المدينة فلما خالفه النبى صلى الله عليه وسلم وخرج وقتل من قتل قيل لعبد الله بن أبى قد قتل بنو الخزرج قال هل لنا من الامر شئ وهو استفهام على سبيل الانكار أى مالنا أمر يطاع وقيل المراد بالامر النصر والظفر يعنى مالنا من هذا الذى يعدنا محمد به من النصر والظفر من شئ انما هو للمشركين (قل) يامحمد لهؤلاء المنافقين (ان الامر كله لله) يعنى النصر والظفر والقضاء والقدر كله لله وبيده يصرفه كيف يشاء ويدبره كيف أحب (يخفون فى أنفسهم مالايبدون لك) يعنى من الكفر والشك فى وعد الله عز وجل وقيل يخفون الندم على خروجهم مع المسلمين وقيل الذى أخفوه هو قوله تعالى حكاية عنهم (يقولون لو كان لنا من الامر شئ ماقتلنا ههنا) وذلك ان المنافقين قال بعضهم لبعض لو كان لنا عقول لم نخرج مع محمد الى قتال أهل مكة ولم تقتل رؤساؤنا وقيل كانوا يقولون لو كنا على الحق ماقتلنا ههنا وعن ابن عباس فى قوله تعالى يظنون بالله غير الحق يعنى التكذيب بالقدر وهو قولهم لو كان لنا من الامر شئ ماقتلنا ههنا قيل ان الذى قال هل لنا من الامر من شئ هو عبد الله بن أبى ابن سلول المنافق والذى قال لو كان لنا من الامر شئ هو معتب بن قشير (قل) أى قل يامحمد لهؤلاء المنافقين (لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل) أى قضى عليهم القتل وقدر عليهم (الى مضاجعهم) يعنى الى مصارعهم التى يصرعون بها وقت القتل ومعنى الآية ان الحذر لاينفع مع القدر والتدبير لايقاوم التقدير فالذين قدر عليهم القتل وقضاه وحكم به عليهم لابد وأن يقتلوا والمعنى لو جلستم فى بيوتكم لخرج منها الذين قضى الله عليهم بالقتل وقدره الى حيث يقتلون فيه (وليبتلى الله مافى صدوركم) أى وليختبر مافى صدوركم ليعلمه مشاهدة كما علمه غيبا لان المجازاة انما تقع على ماعلمه مشاهدة وقيل معناه ليعاملكم معاملة المبتلى المختبر لكم وقيل معناه ليبتلى أولياء

(وليبتلي الله مافي صدوركم وليمحص مافي قلوبكم) وليمتحن مافي صدور المؤمنين من الاخلاص ويمحص مافي قلوبهم من وساوس الشيطان فعل ذلك لمصالح جمة وللابتلاء والتمحيص (والله عليم بذات الصدور) بخفياتها (ان الذين تولوا منكم) انهزموا (يوم التقى الجمعان) جمع محمد عليه السلام وجمع أبي سفيان للقتال باحد (انما استزلهم الشيطان) دعاهم الى الزلة وحملهم عليها (ببعض ما كسبوا) بتركهم المركز الذي أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالثبات فيه فالاضافة الى الشيطان الطف وتقريب والتعليل بكسبهم وعظ وتاديب وكان أصحاب محمد عليه السلام تولوا عنه يوم أحد الاثلاثة عشر رجلا منهم أبو بكر وعلي وطلحة وابن عوف وسعد بن أبي وقاص والباقون من الانصار (ولقد عفا الله عنهم) تجاوز عنهم (ان الله غفور) للذنوب (حليم) لا يعاجل بالعقوبة (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا) كابن أبي وأصحابه (وقالوا لاخوانهم) أي في حق اخوانهم في النسب أو في النفاق (اذا ضربوا في الارض) سافروا فيها للتجارة أو غيرها (أو كانوا غزا) جمع غاز كعاف وعفى وأصابهم موت أو قتل (لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم) اللام يتعلق بلا تكونوا أي لا تكونوا كهؤلاء في النطق بذلك القول واعتقاده ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم خاصة ويصون منها قلوبكم أو بقالوا أي قالوا ذلك واعتقدوه ليكون ذلك حسرة في قلوبهم والحسرة الندامة على فوت المحبوب (والله يحيي ويميت) رد لقولهم ان القتال يقطع الآجال أي الامر بيده قد يحيي المسافر والمقاتل ويميت المقيم والقاعد (والله بما تعملون بصير) فيجازيكم على أعمالكم يعملون مكي وحمزة وعلي أي الذين كفروا (ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم) متم وبابه بالكسر نافع وكوفي غير عاصم تابعهم حفص الا في هذه السورة كأنه أراد الوفاق بينه وبين قتلتم غيرهم بضم الميم في جميع القرآن فالضم من مات يموت والكسر من مات يمات كخاف يخاف فكما تقول خفت تقول مت (لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون) ما بمعنى الذي والعائد محذوف وبالتاء حفص

الله مافي صدوركم فاضاف الابتلاء اليه تعظيما لشأن أوليائه المؤمنين (وليمحص مافي قلوبكم) قال قتادة أي يطهرها من الشك والارتياب بما يريكم من عجائب صنعه في القاء الامنة وصرف العدو واظهار سرائر المنافقين فعلى هذا يكون الخطاب للمؤمنين خاصة وقيل معناه وليبين ويظهر مافي قلوبكم يعني من الاعتقاد لله ولرسوله وللمؤمنين من العداوة فعلى هذا يكون الخطاب للمنافقين خاصة (والله عليم بذات الصدور) يعني بالاشياء الموجودة في الصدور وهي الاسرار والضمائر لانه عالم بجميع المعلومات ﴿ قوله عز وجل (ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان) أي انهزموا وهربوا منكم يا معشر المسلمين فهو خطاب لمن كان مع النبي صلى الله عليه وسلم من المؤمنين يوم أحد باحد وكان قد انهزم أكثر المسلمين ولم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم الا ثلاثة عشر رجلا وقيل أربعة عشر من المهاجرين سبعة ومن الانصار سبعة فمن المهاجرين أبو بكر وعمر وعلي وطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف والزبير وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم (انما استزلهم الشيطان) أي طلب زلتهم كما يقال استعجله أي طلب عجلته وقيل حملهم على الزلة وهي الخطيئة وذلك بالقاء الوسوسة في قلوبهم لانه أمرهم بها (ببعض ما كسبوا) يعني بمعصيتهم النبي صلى الله عليه وسلم وتركهم المركز وقيل استزلهم الشيطان بتذكير خطايا سبقت لهم فكرهوا أن يقتلوا قبل اخلاص التوبة منها وهذا اختيار الزجاج لانه قال لم يتولوا على جهة المعاندة ولا على الفرار من الزحف رغبة في الدنيا وانما اذكرهم الشيطان خطايا سلفت لهم فكرهوا لقاء الله الا على حالة يرضاها (ولقد عفا الله عنهم) يعني ولقد تجاوز الله عن الذين تولوا يوم التقى الجمعان فلم يعاقبهم بذلك وغفر لهم قيل ان عثمان عوتب في هزيمته يوم أحد فقال ان ذلك وان كان خطأ لكن الله قد عفا عنه وقرأ هذه الآية (ان الله غفور) يعني لمن تاب وأناب (حليم) لا يعجل بالعقوبة ولا يستأصلهم بالقتل ﴿ قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا) يعني المنافقين عبد الله بن أبي وأصحابه (وقالوا لاخوانهم) يعني في النفاق والكفر وقيل لاخوانهم في النسب وكانوا مسلمين (اذا ضربوا في الارض) يعني اذا سافروا في الارض لتجارة وغيرها (أو كانوا غزا) جمع غاز أي غزاة في الكلام حذف دل المعنى على ذلك الحذف وهو اذا ضربوا في الارض فماتوا أو كانوا غزا فقتلوا (لو كانوا عندنا) يعني مقيمين (ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك) يعني قولهم وظنهم (حسرة في قلوبهم) يعني غما وأسفا (والله يحيي ويميت) هذا رد لقول المنافقين لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا والمعنى ان الامر بيد الله وان المحيي والمميت هو الله تعالى فقد يحيي المسافر والغازي ويميت المقيم والقاعد عن الغزو كما يشاء فكيف ينفع الجلوس في البيت وهل ينجي أحدا من الموت (والله بما تعملون بصير) يعني انه تعالى مطلع على ما تعملون من خير أو شر فيجازيكم به فاتقوه ولا تكونوا مثل المنافقين لان مقصدهم تنفير المؤمنين عن الجهاد بقولهم لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا فان الله تعالى هو المحيي المميت فمن قدر له البقاء لم يقتل في الجهاد ومن قدر له الموت لم يبق وان أقام ببيته عند أهله فلا تقولوا أنتم أيها المؤمنون لمن يريد الخروج الى الجهاد لا تخرج فتقتل فلأن يموت في الجهاد فيستوجب الثواب

(ولئن متم أو قتلتم لالى الله تحشرون) لالى الرحيم الواسع الرحمة المثيب العظيم الثواب تحشرون ولوقوع اسم الله فى هذا الموضع مع تقديمه وادخال اللام على الحرف المتصل به شأن غنى عن البرهان لمغفرة جواب القسم وهو ساد مسد جواب الشرط

الثواب فان ذلك خير له من أن يموت فى بيته بلا فائدة واليه الاشارة بقوله تعالى (ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة) يعنى فى العاقبة (خير مما تجمعون) يعنى من الغنائم والمعنى ولئن تم عليكم ما تخافونه من القتل فى سبيل الله أو الهلاك بالموت فان ما تنالونه من المغفرة والرحمة بالموت والقتل فى سبيل الله خير مما تجمعون من الدنيا ومنافعها ولم تموتوا (ولئن متم أو قتلتم لالى الله تحشرون) يعنى لالى الله الرحيم الواسع الرحمة والمغفرة المثيب العظيم الثواب تحشرون فى الآخرة فيجازيكم بأعمالكم وقد قسم بعض مقامات العبودية ثلاثة أقسام فمن عبد الله خوفا من ناره أمنه مما يخاف واليه الاشارة بقوله تعالى لمغفرة من الله ومن عبد الله تعالى شوقا الى جنته أناله ما يرجو واليه الاشارة بقوله تعالى ورحمة لان الرحمة من أسماء الجنة ومن عبد الله شوقا الى وجهه الكريم لا يريد غيره فهذا هو العبد المخلص الذى يتجلى له الحق سبحانه وتعالى فى دار كرامته واليه الاشارة بقوله لالى الله تحشرون ۞ قوله عز وجل (فبما رحمة من الله لنت لهم) أى فبرحمة من الله وما صلة لنت لهم أى سهلت لهم أخلاقك وكثر احتمالك ولم تسرع اليهم بتعنيف على ما كان يوم أحد منهم ومعنى فبما رحمة من الله هو توفيق الله عز وجل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم للرفق والتلطف بهم وان الله تعالى ألقى فى قلب نبيه صلى الله عليه وسلم داعية الرحمة واللطف حتى فعل ذلك معهم (ولو كنت فظا) يعنى جافيا (غليظ القلب) يعنى قاسى القلب سيئ الخلق قليل الاحتمال (لانفضوا من حولك) أى لنفروا عنك وتفرقوا حتى لا يبقى منهم أحد عندك (فاعف عنهم) أى تجاوز عن زلاتهم وما أتوا يوم أحد (واستغفر لهم) أى واسأل الله المغفرة لهم حتى يشفعك فيهم وقيل فاعف عنهم فيما يختص بك واستغفر لهم فيما يختص بحقوق الله وذلك من تمام الشفقة عليهم (وشاورهم فى الامر) أى استخرج آراءهم واعلم ما عندهم واختلف العلماء فى المعنى الذى من أجله أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بالمشاورة لهم مع كمال عقله وجزالة رأيه ونزول الوحى عليه ووجوب طاعته على كافة الخلق فيما أحبوا أو كرهوا فقيل هو عام مخصوص والمعنى وشاورهم فيما ليس عندك من الله فيه عهد وذلك فى أمر الحرب ونحوه من أمور الدنيا لتستظهر برأيهم فيما تشاورهم فيه وقيل أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بمشاورتهم تطييبا لقلوبهم فان ذلك أعطف لهم عليه وأذهب لاضغانهم فان سادات العرب كانوا اذا لم يشاوروا فى الامور شق عليهم ذلك وقال الحسن قد علم الله تعالى ان ما به الى مشاورتهم حاجة ولكن أراد الله أن يستن به من بعده من أمته وقيل انما أمر بمشاورتهم ليعلم مقادير عقولهم وأفهامهم لا ليستفيد منهم رأيا وروى البغوى بسنده عن عائشة انها قالت ما رأيت رجلا أكثر استشارة للرجال من رسول الله صلى الله عليه وسلم اتفق العلماء على ان كل ما نزل فيه وحى من الله تعالى لم يجز لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشاور فيه الامة وانما أمر أن يشاور فيما سوى ذلك من أمر الدنيا ومصالح الحرب ونحو ذلك وقيل أن يشاورهم فى أمر الدين والدنيا فيما لم ينزل عليه فيه شئ لان النبى صلى الله عليه وسلم شاور فى أسارى بدر وهو من أمر الدين قال على بن أبى طالب رضى الله عنه الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استغنى برأيه والتدبر قبل العمل يؤمنك من الندم وقال بعض الحكماء ما استنبط الصواب بمثل المشاورة ومن فوائد المشاورة انه قد يعزم الانسان على أمر فيشاور فيه فيتبين له الصواب فى قول غيره فيعلم بذلك عجز نفسه عن الاحاطة بفنون المصالح ومنها انه اذا لم ينجح أمره علم أن امتناع النجاح محض قدر فلم يلم نفسه وقال بعضهم فى مدح المشاورة

وشاور اذا شاورت كل مهذب * لبيب أخى حزم لترشد فى الامر * ولا تك ممن يستبد برأيه

وكذلك لالى الله تحشرون كذب الكافرين أولا فى زعمهم أن من سافر من اخوانهم أو غزوا لو كان بالمدينة لما مات ونهى المسلمين عن ذلك لانه سبب التقاعد عن الجهاد ثم قال لهم ولئن تم عليكم ما تخافونه من الهلاك بالموت أو القتل فى سبيل الله فان ما تنالونه من المغفرة والرحمة بالموت فى سبيل الله خير مما تجمعون من الدنيا فان الدنيا زاد المعاد فاذا وصل العبد الى المراد لم يحتج الى الزاد (فبما رحمة من الله لنت لهم) ما مزيدة للتوكيد والدلالة على ان لينه لهم ما كان الا برحمة من الله ومعنى الرحمة ربطه على جاشه وتوفيقه للرفق والتلطف بهم (ولو كنت فظا) جافيا (غليظ القلب) قاسيه (لانفضوا من حولك) لتفرقوا عنك حتى لا يبقى حولك أحد منهم (فاعف عنهم) ما كان منهم يوم أحد مما يختص بك (واستغفر لهم) فيما يختص بحق الله اتماما للشفقة عليهم (وشاورهم فى الامر) أى فى أمر الحرب ونحوه مما لم ينزل عليك فيه وحى تطييبا لنفوسهم وترويحا لقلوبهم ورفعا لاقدارهم أو لتقتدى بك أمتك فيها وفى الحديث ما تشاور قوم قط الا هدوا لأرشد أمرهم وعن أبى هريرة رضى الله عنه ما رأيت أحدا أكثر مشاورة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنى شاورت فلانا أظهرت ما عندى وما عنده من الرأى وشرت الدابة استخرجت جريها وشرت العسل أخذته من مأخذه وفيه دلالة جواز الاجتهاد وبيان أن القياس حجة

فتعجز أو لا تستريح من الفكر * ألم تر ان الله قال لعبده * وشاورهم فى الامر حتما بلا نكر

﴿ قوله تعالى (فاذا عزمت) يعنى على المشاورة (فتوكل على الله) أى فاستعن بالله فى أمورك كلها وثق به ولا تعتمد الا عليه فانه ولى الاعانة والعصمة والتسديد والمقصود أن لا يكون للعبد اعتماد على شئ الا على الله تعالى فى جميع أموره وان المشاورة لا تنافى التوكل (ان الله يحب المتوكلين) يعنى المتوكلين عليه فى جميع أمورهم ﴿ قوله عز وجل (ان ينصركم الله) يعنى ان يعنكم الله بنصره ويمنعكم من عدوكم كما فعل يوم بدر (فلا غالب لكم) يعنى من الناس لان الله تعالى هو المتولى نصركم (وان يخذلكم) كما فعل يوم أحد فلم ينصركم ووكلكم الى أنفسكم لمخالفتكم أمره وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم (فمن ذا الذى ينصركم من بعده) أى من بعد خذلانه (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) لا على غيره لان الامر كله لله ولا راد لقضائه ولا دافع لحكمه فيجب أن يتوكل العبد فى كل الامور على الله تعالى لا على غيره وقيل التوكل أن لا تعصى الله من أجل رزقك ولا تطلب لنفسك ناصرا غيره ولا لعملك شاهدا سواه (م) عن عمران بن حصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفا بغير حساب قالوا ومن هم يا رسول الله قال هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة بن محصن فقال يا رسول الله ادع الله ان يجعلنى منهم فقال أنت منهم فقام آخر فقال يا نبى الله ادع الله أن يجعلنى منهم فقال سبقك بها عكاشة عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا أخرجه الترمذى وقال حديث حسن ﴿ قوله عز وجل (وما كان لنبى ان يغل) قال ابن عباس نزلت هذه الآية وما كان لنبى أن يغل فى قطيفة حمراء فقدت يوم بدر فقال بعض القوم لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها فانزل الله تعالى هذه الآية الى آخرها أخرجه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن غريب وروى عن الضحاك قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم طلائع فغنم النبى صلى الله عليه وسلم فلم يقسم للطلائع فانزل الله تعالى وما كان لنبى أن يغل وروى ابن جرير الطبرى عن ابن عباس فى قوله تعالى وما كان لنبى أن يغل يقول ما كان لنبى أن يقسم الى طائفة من المؤمنين ويترك طائفة ويجور فى القسم ولكن يقسم بالعدل ويأخذ فيه بامر الله ويحكم فيه بما أنزل الله يقول ما كان الله ليجعل نبيا يغل من أصحابه فاذا فعل ذلك النبى استنوا به وقال مقاتل والكلبى نزلت فى غنائم أحد حين ترك الرماة المركز للغنيمة وقالوا نخشى أن يقول النبى صلى الله عليه وسلم من أخذ شيأ فهو له وأن لا تقسم الغنائم كما لم تقسم يوم بدر فتركوا المركز ووقعوا فى الغنائم فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم ألم أعهد اليكم أن لا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمرى قالوا تركنا بقية اخواننا وقوفا فقال النبى صلى الله عليه وسلم بل ظننتم انا نغل فلا نقسم فانزل الله تعالى هذه الآية وقال قتادة ذكر لنا انها نزلت فى طائفة غلت من أصحابه وقيل ان الاقوياء ألحوا عليه يسألونه من المغنم فانزل الله تعالى ما كان لنبى أن يغل يعنى فيعطى قوما ويمنع آخرين بل عليه أن يقسم بينهم بالسوية وقال محمد بن كعب القرظى ومحمد بن اسحق بن يسار هذا فى شأن الوحى يقول وما كان لنبى أن يكتم شيأ من الوحى رغبة أو رهبة أو مداهنة والغلول هو الخيانة وأصله أخذ الشئ فى خفية يقال غل فلان يغل قرئ بفتح الياء وضم الغين أى وما كان لنبى أن يخون لان النبوة والخيانة لا يجتمعان لان منصب النبوة أعظم المناصب وأشرفها وأعلاها فلا تليق به الخيانة لانها فى نهاية الدناءة والخسة والجمع بين الضدين محال فثبت بذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يخن أمته فى شئ لا من الغنائم ولا من الوحى وقيل المراد به الامة لانه قد ثبت براءة ساحة النبى صلى الله عليه وسلم من الغلول والخيانة فدل ذلك على ان المراد بالغلول غيره وقيل اللام فيه منقولة معناه ما كان النبى ليغل على نفى الغلول عن الانبياء وقيل معناه ما كان لنبى الغلول أراد ما غل

(فاذا عزمت) فاذا قطعت الرأى على شئ بعد الشورى (فتوكل على الله) فى امضاء أمرك على الارشد لا على المشورة (ان الله يحب المتوكلين) عليه والتوكل الاعتماد على الله والتفويض فى الامور اليه وقال ذو النون خلع الارباب وقطع الاسباب (ان ينصركم الله) كما نصركم يوم بدر (فلا غالب لكم) فلا أحد يغلبكم وانما يدرك نصر الله من تبرأ من حوله وقوته واعتصم بربه وقدرته (وان يخذلكم) كما خذلكم يوم أحد (فمن ذا الذى ينصركم من بعده) من بعد خذلانه وهو ترك المعونة أو هو من قولك ليس لك من يحسن اليك من بعد فلان تريد اذا جاوزته وهذا تنبيه على ان الامر كله لله وعلى وجوب التوكل عليه (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وليخص المؤمنون ربهم بالتوكل والتفويض اليه لعلمهم انه لا ناصر سواه ولان ايمانهم يقتضى ذلك (وما كان لنبى أن يغل) مكى وأبو عمرو وعاصم أى يخون وبضم الياء وفتح الغين غيرهم يقال غل شيأ من المغنم غلولا وأغل اغلالا اذا أخذه فى خفية ويقال أغله اذا وجده غالا والمعنى ما صح له ذلك يعنى ان النبوة تنافى الغلول وكذا من قرأ على البناء للمفعول فهو راجع الى هذا لان معناه وما صح له ان يوجد غالا ولا يوجد غالا الا اذا كان غالا روى ان قطيفة حمراء فقدت يوم بدر مما أصيب من المشركين فقال بعض المنافقين لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها فنزلت الآية

نبي قط فنفى عن الانبياء الغلول وقيل معناه وما كان يحل لنبي الغلول واذا لم يحل له لم يفعله ووجه هذه القراءة أنهم نسبوا النبي صلى الله عليه وسلم الى الغلول في بعض الروايات فبين الله تعالى بهذه الآية ان هذه الخصلة لا تليق به ونفى عنه ذلك بقوله وما كان لنبي أن يغل وقرئ يغل بضم الياء وفتح الغين ولها معنيان أحدهما أن يكون من الغلول أيضا ومعناه وما كان لنبي أن يخان أي تخونه أمته والثاني أن يكون من الاغلال ومعناه وما كان لنبي أن يخون أي ينسب الى الخيانة (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة) يعني بالشيء الذي غله بعينه يحمله على ظهره يوم القيامة ليزداد فضيحة بما يحمله يوم القيامة وقيل يمثل له ذلك الشيء في النار ثم يقال له انزل فخذه فينزل فيحمله على ظهره فاذا بلغ موضعه وقع ذلك الشيء في النار فيكلف أن ينزل اليه ليخرجه يفعل به ذلك ماشاء الله وقيل معناه انه يأتي باثم ما غله فيجازى به يوم القيامة وهو قوله تعالى (ثم توفى كل نفس ما كسبت) يعني من خير أو شر والمعنى ان كل كاسب خيرا كان ذلك الكسب أو شرا فهو مجزى به يوم القيامة ويوفى جزاء عمله (وهم لا يظلمون) يعني بل يعدل بينهم يوم القيامة في الجزاء فيجازى كل على عمله

(فصل في ذكر أحاديث وردت في الغلول ووعيد الغال) وقد تقدم ان أصل الغلول هو أخذ الشيء في خفية وانه الخيانة الا انه قد صار في العرف مخصوصا بالخيانة في الغنيمة وبهذا وردت الاحاديث (ق) عن أبي هريرة قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره حتى قال لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول يا رسول الله أغثني فاقول لا أملك لك شيأ قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة فيقول يا رسول الله أغثني فاقول لا أملك لك شيأ قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول يا رسول الله أغثني فاقول لا أملك لك شيأ قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح فيقول يا رسول الله أغثني فاقول لا أملك لك شيأ قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق فيقول يا رسول الله أغثني فاقول لا أملك لك شيأ قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت فيقول يا رسول الله أغثني فاقول لا أملك لك شيأ قد أبلغتك لفظ مسلم الرغاء صوت البعير والثغاء صوت الشاة والرقاع الثياب والصامت الذهب والفضة (ق) عن أبي هريرة قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى خيبر ففتح الله علينا فلم نغنم ذهبا ولا ورقا غنمنا المتاع والطعام والثياب ثم انطلقنا الى الوادي يعني وادي القرى ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد له وهبه له رجل من جذام يدعى رفاعة بن زيد من بني الضبيب فلما نزلنا الوادي قام عبد رسول الله صلى الله عليه وسلم يحل رحله فرمى بسهم فكان فيه حتفه فقلنا هنيئا له الشهادة يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا والذي نفس محمد بيده ان الشملة لتلتهب عليه نارا أخذها من الغنائم يوم خيبر لم تصبها المقاسم قال ففزع الناس فجاء رجل بشراك أو شراكين فقال أصبتها يوم خيبر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم شراك من نار أو شراكان من نار وفي رواية نحوه وفيه ومعه عبد يقال له مدعم أهداه له أحد بني الضبيب وفيه اذ جاءه سهم عائر الشراك سير النعل الذي يكون على ظهر القدم ومثله شسع النعل والسهم العائر هو السهم الذي لا يدرى من رماه (خ) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال كان على ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل يقال له كركرة فمات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو في النار فذهبوا ينظرون اليه فوجدوا عباءة قد غلها عن زيد بن خالد الجهني ان رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم توفي فذكروه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلوا على صاحبكم فتغيرت وجوه الناس لذلك فقال ان صاحبكم غل في سبيل الله ففتشنا متاعه فوجدنا خرزا من خرز اليهود لا يساوي درهمين أخرجه أبو داود والنسائي عن عمر بن الخطاب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من غل فاحرقوا

(ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة) أي يأت بالشيء الذي غله بعينه حاملا له على ظهره كما جاء في الحديث أو يأت بما احتمل من وباله وإثمه (ثم توفى كل نفس ما كسبت) تعطى جزاءها وافيا ولم يقل ثم يوفى ما كسب ليتصل بقوله ومن يغلل بل جيء بعام ليدخل تحته كل كاسب من الغال وغيره فاتصل به من حيث المعنى وهو أبلغ لانه اذا علم الغال ان كل كاسب خيرا أو شرا مجزى فموفى جزاءه علم انه غير متخلص من بينهم مع عظم ما اكتسب (وهم لا يظلمون) أي جزاء كل على قدر كسبه

متاعه واضربوه أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر أحرقوا متاع الغال وضربوه زاد في رواية ومنعوه سهمه أخرجه أبو داود ۞ قوله تعالى (أفمن اتبع رضوان الله) يعني فترك الغلول فلم يغل (كمن باء) أي رجع (بسخط من الله) يعني بغضب من الله والمعنى فغل والسخط الغضب الشديد المفضي للعقوبة وهو من الله انزال العقوبة بمن سخط عليه وقيل في معنى الآية ان النبي صلى الله عليه وسلم لما أمر المسلمين باتباعه والخروج معه يوم أحد اتبعه المؤمنون وتخلف عنه جماعة من المنافقين فأخبر الله تعالى بحال من اتبعه بقوله أفمن اتبع رضوان الله وبحال من تخلف عنه بقوله كمن باء بسخط من الله (ومأواه جهنم وبئس المصير) يعني الغال أو المتخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم (هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون) يعني هم ذوو درجات عند الله قال ابن عباس يعني من اتبع رضوان الله ومن باء بسخط من الله مختلفو المنازل عند الله فلمن اتبع رضوان الله الثواب العظيم ولمن باء بسخط من الله العذاب الاليم والمعنى أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ليسوا سواء بل هم درجات عند الله على حسب أعمالهم وقيل الضمير في قوله هم درجات عائد على قوله أفمن اتبع رضوان الله فقط لان الغالب في العرف استعمال الدرجات لاهل الثواب والدركات لاهل النار ولان الله وصف من باء بسخط من الله ان مأواهم جهنم وبئس المصير فدل على أن الضمير في قوله هم درجات عند الله راجع للاول وفيه تحريض على العمل بطاعته وتحذير عن العمل بمعاصيه ۞ قوله عز وجل (لقد من الله على المؤمنين) يعني أحسن اليهم وتفضل عليهم والمنة النعمة العظيمة وذلك في الحقيقة لا يكون الا من الله ومنه قوله تعالى لقد من الله على المؤمنين (اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) يعني من جنسهم عربيا مثلهم ولد ببلدهم ونشأ بينهم يعرفون نسبه وليس حي من أحياء العرب الا وقد ولده وله فيهم نسب الا بني تغلب فانهم كانوا نصارى وقد ثبتوا على النصرانية فطهر الله رسوله صلى الله عليه وسلم من أن يكون له فيهم نسب وقيل أراد بالمؤمنين جميع المؤمنين ومعنى قوله تعالى من أنفسهم أي بالايمان والشفقة لا بالنسب ومن جنسهم ليس بملك ولا أحد من غير بني آدم وقيل من أنفسهم يعني أنه من ولد اسمعيل بن ابراهيم الخليل عليهما السلام ووجه المنة والانعام على المؤمنين ببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم لكونه داعيا لهم الى ما يخلصهم من العذاب الاليم ويوصلهم الى الثواب في جنات النعيم وكونه من أنفسهم ومن جنسهم لانه اذا كان اللسان واحدا سهل الاخذ عنه فيما يجب عليهم وكانوا واقفين على جميع أحواله وأفعاله يعرفون صدقه وأمانته فكان ذلك أقرب الى تصديقه والوثوق به وفي كونه من أنفسهم شرف لهم وكان فيما خطب به أبو طالب حين زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة بنت خويلد رضي الله تعالى عنها وقد حضر ذلك بنو هاشم ورؤساء مضر فقوله الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسماعيل وضئضئ معد وعنصر مضر وجعلنا سدنة بيته وسواس حرمه وجعل لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا وجعلنا الحكام على الناس وان ابني هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به فتى الا رجح وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطب جليل وقيل في وجه المنة ببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ان الخلق جبلوا على الجهل ونقصان العقل وقلة الفهم وعدم الدراية فمن الله تعالى على خلقه وأنعم عليهم وأحسن اليهم بان بعث فيهم رسولا من أنفسهم أنقذهم به من الضلالة وبصرهم به من الجهالة وهداهم به الى صراط مستقيم وانما خص المؤمنين بالذكر لانهم هم المنتفعون بما جاء به دون غيرهم (يتلوا عليهم آياته) يعني يقرأ عليهم كتابه الذي أنزل عليه بعد ان كانوا أهل جاهلية لم يطرق أسماعهم شئ من الوحي السماوي (ويزكيهم) أي ويطهرهم من دنس الكفر ونجاسة المحرمات والخبائث (ويعلمهم الكتاب والحكمة) يعني القرآن والسنة التي سنها لهم على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم (وان كانوا من قبل) يعني من قبل بعثة الرسول صلى الله

عليه

(أفمن اتبع رضوان الله) أي رضا الله قيل هم المهاجرون والانصار (كمن باء بسخط من الله) وهم المنافقون والكفار (ومأواه جهنم وبئس المصير) المرجع (هم درجات عند الله) هم متفاوتون كما تتفاوت الدرجات أو ذوو درجات والمعنى تفاوت منازل المثابين منهم ومنازل المعاقبين والتفاوت بين الثواب والعقاب (والله بصير بما يعملون) عالم بأعمالهم ودرجاتها فيجازيهم على حسبها (لقد من الله على المؤمنين) على من آمن مع رسول الله عليه السلام من قومه وخص المؤمنين منهم لانهم هم المنتفعون بمبعثه (اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) من جنسهم عربيا مثلهم أو من ولد اسمعيل كما انهم من ولده والمنة في ذلك من حيث انه اذا كان منهم كان اللسان واحدا فيسهل أخذ ما يجب عليهم أخذه عنه وكانوا واقفين على أحواله في الصدق والامانة فكان ذلك أقرب لهم الى تصديقه وكان لهم شرف بكونه منهم وفي قراءة رسول الله من أنفسهم أي من أشرفهم (يتلوا عليهم آياته) أي القرآن بعدما كانوا أهل جاهلية لم يطرق اسماعهم شئ من الوحي (ويزكيهم) ويطهرهم بالايمان من دنس الكفر والطغيان أو يأخذ منهم الزكاة (ويعلمهم الكتاب والحكمة) القرآن والسنة (وان كانوا من قبل) من قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم

عليه وسلم (لفي ضلال مبين) يعني لفي جهالة وحيرة عن الهدى عميا لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا فهداهم الله بنبيه صلى الله عليه وسلم ۞ قوله تعالى (أولما أصابتكم مصيبة) يعني ما أصابهم يوم أحد (قد أصبتم مثليها) يعني ببدر وذلك ان المشركين قتلوا من المسلمين يوم أحد سبعين وقتل المسلمون من المشركين يوم بدر سبعين وأسروا سبعين وقيل ان المسلمين هزموا المشركين يوم بدر وهزموهم في أول الامر يوم أحد فلما عصوا الله ورسوله هزمهم المشركون فحصل انهزام المشركين مرتين وانهزام المسلمين مرة واحدة (قلتم أنى هذا) أي من أين لنا هذا القتل والهزيمة ونحن مسلمون ورسول الله صلى الله عليه وسلم فينا وهو استفهام انكار (قل هو من عند أنفسكم) يعني انما وقعتم فيما وقعتم فيه بشؤم ذنوبكم وهو مخالفتكم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك انه صلى الله عليه وسلم اختار الاقامة في المدينة على الخروج الى العدو واختاروا هم الخروج اليه وأيضا أمر الرماة بالاقامة في الموضع الذي عينه لهم فخالفوا وتركوا المركز لاجل الغنيمة فكان ذلك سبب القتل والهزيمة وروى عبيدة السلماني عن علي بن أبي طالب قال جاء جبريل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان الله قد كره ما صنع قومك في أخذهم الفداء من الاسارى وقد أمرك ان تخيرهم بين أن يضربوا أعناق الاسارى و بين أن يأخذوا الفداء على ان يقتل منهم عدتهم فذكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس فقالوا يا رسول الله عشائرنا واخواننا بل نأخذ فداءهم فنتقوى به على قتال عدونا ويستشهد منا عدتهم فقتل منهم يوم أحد سبعون عدد أسارى أهل بدر لم يسنده البغوي وأسنده ابن جرير الطبري فذلك معنى قوله قل هو من عند أنفسكم يعني بأخذكم الفداء واختياركم القتل لانفسكم (ان الله على كل شئ قدير) يعني من نصركم مع الطاعة وترك نصركم مع المخالفة ۞ قوله عز وجل (وما أصابكم) يعني من القتل والجراح والهزيمة (يوم التقى الجمعان) يعني جمع المؤمنين وجمع المشركين وذلك باحد يوم أحد (فباذن الله) يعني فبعلمه وقضائه وقدره وحكمته وفيه تسلية للمؤمنين بما حصل لهم يوم أحد من القتل والهزيمة ولا تقع التسلية الا اذا علموا أن ذلك كان واقعا بقضاء الله وقدره فحينئذ يرضون بما قضى الله عليهم (وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا) أي ليظهر ايمان المؤمنين بثبوتهم على ما نالهم ويظهر نفاق المنافقين بقلة صبرهم على ما نزل بهم فالمراد من العلم المعلوم والتقدير ليتبين المؤمن من المنافق وليتميز أحدهما من الآخر والمنافق هو الذي أظهر الايمان بلسانه وأضمر خلافه واشتقاقه من النفق وهو السرب في الارض النافذ ومنه نافقاء اليربوع لان له جحرا في الارض له بابان اذا طلب من أحدهما خرج من الآخر فكذلك المنافق صنع له طريقين أحدهما اظهار الايمان بلسانه والآخر اضمار الكفر بقلبه من أيهما طلب خرج من الآخر وقيل لانه دخل في الايمان من باب وخرج من باب آخر والنفاق اسم اسلامي لم تكن العرب تعرفه قبل الاسلام (وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا) المقول له عبد الله بن أبي ابن سلول المنافق وأصحابه وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج الى أحد في ألف رجل حتى اذا كان ٤ بالشوط بين أحد والمدينة انخذل عبد الله بن أبي ابن سلول بثلث الناس وقال ما ندري علام نقتل أنفسنا فرجع بمن معه من المنافقين فتبعهم جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الانصاري أخو بني سلمة وهو يقول يا قوم أذكركم الله ان تخذلوا نبيكم عند حضور عدوه فذلك قوله تعالى وقيل لهم يعني المنافقين عبد الله بن أبي ابن سلول وأصحابه تعالوا قاتلوا في سبيل الله أي لاجل دين الله وطاعته أو ادفعوا يعني عن أموالكم وأهليكم وقيل معناه تعالوا كثروا سواد المسلمين ان لم تقاتلوا ليكون ذلك دفعا وقمعا للعدو (قالوا) يعني المنافقين (لو نعلم قتالا لاتبعناكم) أي

(لفي ضلال) عمى وجهالة (مبين) ظاهر لا شبهة فيه ان مخففة من الثقيلة واللام فارقة بينها و بين النافية والتقدير وان الشأن والحديث كانوا من قبل في ضلال مبين (أولما أصابتكم مصيبة) يريد ما أصابهم يوم أحد من قتل سبعين منهم (قد أصبتم مثليها) يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين وهو في موضع رفع صفة لمصيبة (قلتم أنى هذا) من أين هذا (قل هو من عند أنفسكم) لاختياركم الخروج من المدينة أو لترككم المركز لما نصب بقلتم وأصابتكم في محل الجر باضافة لما اليه وتقديره أقلتم حين أصابتكم وأنى هذا نصب لانه مقول والهمزة للتقرير والتقريع وعطف الواو هذه الجملة على [illegible] من قصة أحد من قوله ولقد صدقكم الله وعده أو على محذوف كأنه قيل أفعلتم كذا وقلتم حينئذ كذا (ان الله على كل شئ قدير) يقدر على النصر وعلى منعه (وما أصابكم) ما بمعنى الذي وهو مبتدأ (يوم التقى الجمعان) جمعكم وجمع المشركين باحد والخبر (فباذن الله) فكائن باذن الله أي بعلمه وقضائه (وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا) وهو كائن ليتميز المؤمنون والمنافقون وليظهر ايمان هؤلاء ونفاق هؤلاء (وقيل لهم) للمنافقين وهو كلام مبتدأ (تعالوا قاتلوا في سبيل الله) أي جاهدوا للآخرة كما تقاتل المؤمنون (أو ادفعوا) أي قاتلوا دفعا عن أنفسكم وأهليكم وأموالكم ان لم تقاتلوا للآخرة وقيل أو ادفعوا العدو بتكثيركم سواد المجاهدين ان لم تقاتلوا لان كثرة السواد مما تروع العدو (قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم) أي لو نعلم ما يصح ان يسمى قتالا لاتبعناكم يعنون أن ما أنتم فيه لخطأ رأيكم

٤ قوله بالشوط بشين معجمة مفتوحة فواو ساكنة فطاء مهملة كما في الزرقاني على المواهب

ليس بشئ ولا يقاتل لمثله قتال انما هو القاء النفس فى التهلكة (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان) يعنى أنهم كانوا يتظاهرون بالايمان قبل ذلك وما ظهرت منهم أمارة تؤذن بكفرهم فلما انخذلوا عن عسكر المؤمنين وقالوا ما قالوا تباعدوا بذلك عن الايمان المظنون بهم واقتربوا من الكفر وهم لاهل الكفر أقرب

نصرة منهم لاهل الايمان لان تقليلهم سواد المؤمنين بالانخذال تقوية للمشركين (يقولون بافواههم ما ليس فى قلوبهم) أى يظهرون خلاف ما يضمرون من الايمان وغيره والتقييد بالافواه للتأكيد ونفى المجاز (والله أعلم بما يكتمون) من النفاق (الذين قالوا) أى ابن أبى وأصحابه وهو فى موضع رفع على هم الذين قالوا أو على الابدال من واو يكتمون أو نصب باضمار أعنى أو على البدل من الذين نافقوا أو جر على البدل من الضمير فى أفواههم او قلوبهم (لاخوانهم) لاجل اخوانهم من جنس المنافقين المقتولين يوم أحد (وقعدوا) أى قالوا وقد قعدوا عن القتال (لو أطاعونا ما قتلوا) لو أطاعنا اخواننا فيما أمرناهم به من الانصراف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والقعود ووافقونا فيه لما قتلوا كما لم نقتل (قل فادرؤا عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين) بان الحذر ينفع من القدر فخذوا حذركم من الموت أو معناه قل ان كنتم صادقين فى انكم وجدتم الى دفع القتل سبيلا وهو القعود عن القتال فخذوا الى دفع الموت سبيلا وروى انه مات يوم قالوا هذه المقالة سبعون منافقا ونزل فى قتلى أحد (ولا تحسبن) شامى وحمزة وعلى وعاصم وبكسر السين غيرهم والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد (الذين قتلوا) قتلوا شامى (فى سبيل الله أمواتا

لو نعلم ان اليوم يجرى فيه قتال لاتبعناكم ولم نرجع ولو علموا ما اتبعوهم وقيل معناه لو نحسن قتالا لاتبعناكم (هم للكفر) يعنى المنافقين الى الكفر (يومئذ أقرب منهم للايمان) أى الى الايمان وانما قال تعالى يومئذ لانهم قبل ذلك اليوم لم يظهروا ما أظهروه من المعاندة والرجوع عن المسلمين وقولهم لو نعلم قتالا لاتبعناكم وانما كانوا قبل ذلك يظهرون كلمة الاسلام و يخفون الكفر (يقولون بافواههم ما ليس فى قلوبهم) يعنى يظهرون بالسنتهم الايمان وليس هو فى قلوبهم انما فى قلوبهم الكفر والنفاق وهذه صفة المنافقين لا صفة المؤمنين لان صفة المؤمن المخلص مواطأة القلب للسان على شئ واحد وهو التوحيد (والله أعلم بما يكتمون) يعنى من النفاق (الذين قالوا لاخوانهم) نزلت فى عبد الله بن أبى المنافق وأصحابه وفى المراد باخوانهم قولان أحدهما ان المراد باخوانهم الذين استشهدوا باحد فيكون اخوانهم فى النسب لا فى الدين والقول الثانى ان المراد باخوانهم المنافقون فعلى القول الاول يكون معنى الآية الذين قالوا فى اخوانهم أو عن اخوانهم الذين قتلوا باحد لو أطاعونا ما قتلوا الا انهم بعد ان قتلوا لا يخاطبون وعلى القول الثانى يكون معنى الآية الذين قالوا وهم عبد الله بن أبى وأصحابه لاخوانهم يعنى فى النفاق (وقعدوا) يعنى عن الجهاد (لو أطاعونا) يعنى هؤلاء الذين خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أطاعونا يعنى فى القعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الانصراف عنه (ما قتلوا) يومئذ فرد الله تعالى عليهم بقوله (قل) يعنى قل لهم يا محمد (فادرؤا) أى فادفعوا (عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين) يعنى ان الحذر لا ينفع من القدر وفى الآية دليل على ان المقتول يموت باجله خلافا لمن يزعم ان القتل قطع على المقتول أجله (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا) قيل نزلت فى شهداء بدر وكانوا أربعة عشر رجلا ستة من المهاجرين وثمانية من الانصار وقال أكثر المفسرين انها نزلت فى شهداء أحد ويدل على ذلك ما روى عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه انه لما أصيب اخوانكم باحد جعل الله أرواحهم فى جوف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى الى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا من يبلغ اخواننا عنا أنا أحياء فى الجنة لئلا يزهدوا فى الجنة ولا ينكلوا عن الحرب فقال الله تعالى أنا أبلغهم عنكم فانزل الله ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون الى آخر الآية أخرجه أبو داود (م) عن مسروق قال سألنا عبد الله عن هذه الآية ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فقال أما انا قد سألنا عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى الى تلك القناديل فاطلع اليهم ربهم اطلاعة فقال هل تشتهون شيأ قالوا أى شئ نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ففعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا انهم لن يتركوا من ان يسألوا قالوا يارب نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى فلما رأى ان ليس لهم حاجة تركوا ذكر ما يتعلق بهذا الحديث قول مسروق سألنا عبد الله كذا جاء عبد الله غير منسوب وقد نسبه بعض الناس فقال عبد الله بن عمرو وقد ذكره أبو مسعود الدمشقى والحميدى فى مسنده عن عبد الله بن مسعود وهو الصحيح وهذا الحديث مرفوع لقوله اما انا قد سألنا عن ذلك فقال يعنى النبى صلى الله عليه وسلم وفى الحديث دليل على ان الجنة مخلوقة الآن خلافا للمعتزلة لقوله صلى الله عليه وسلم تسرح من الجنة حيث شاءت وهو مذهب أهل السنة وفيه دليل على ان الارواح

باقية لاتفنى بفناء الجسد وان المحسن ينعم و يجازى بالثواب وان المسيء يعذب و يجازى بالعقاب قبل يوم القيامة وهو مذهب أهل السنة أيضا قوله أرواحهم فى جوف طير خضر أى يجعل الله أرواح الشهداء فى جوف طير خضر وهذا ليس ببعيد لاسيما مع القول بان الارواح أجسام لطيفة وقيل ان المنعم والمعذب من الارواح والاجساد جزء من الجسد تبقى فيه الروح وهو الذى يتلذذ بالنعيم و يتألم بالعذاب فغير مستحيل ان يصور الله تعالى ذلك الجزء طائرا او يجعل فى جوف طير فتسرح فى الجنة وتأوى الى تلك القناديل وقد تعلق بهذا الحديث من يقول بالتناسخ من المبتدعة و يقول بانتقال الارواح وتنعيمها فى الصور الحسان المرفهة وتعذيبها فى الصور القبيحة المسخرة و يزعمون ان هذا هو الثواب والعقاب وهذا ضلال بين وقول سخيف و بدعة باطلة لما فى هذا القول من ابطال ماجاءت به الشرائع من الحشر والنشر والمعاد والجنة والنار وقد جاء فى بعض روايات هذا الحديث ما يرد عليهم وهو قوله حتى يرجعه الله الى جسده يوم يبعثه يعنى يحيى جميع جسده يوم يبعثه وهو يوم القيامة والله أعلم عن جابر قال لقينى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مهتم فقال مالى أراك منكسرا قلت يارسول الله استشهد أبى يوم أحد وترك عيالا ودينا فقال ألا أبشرك بما لقى الله به أباك قلت بلى قال ما كلم الله أحدا قط الامن وراء حجاب وانه أحيا أباك وكلمه كفاحا وقال ياعبدى تمن على أعطيك قال يارب تحيينى فاقتل ثانية قال سبحانه انه قد سبق منى انهم لا يرجعون فنزلت ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله الاية أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب وقيل ان الآية نزلت فى شهداء بئر معونة وهى بئر بين مكة وعسفان وأرض هذيل قال محمد بن اسحق عن أشياخه من أهل العلم قالوا قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الاسنة وكان سيد بنى عامر بن صعصعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهدى له هدية فابى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يقبلها وقال انى لا أقبل هدية مشرك ثم عرض عليه الاسلام وأخبره بماله فيه وما أعد الله للمؤمنين وقرأ عليه القرآن فلم يسلم ولم يبعد وقال يامحمد ان الذى تدعو اليه حسن جميل فلو بعثت رجالا من أصحابك الى أهل نجد يدعونهم الى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى أخشى عليهم أهل نجد فقال أبو براء أنا لهم جار فابعثهم فليدعوا الناس الى أمرك فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المنذر بن عمرو أخا بنى ساعدة فى سبعين رجلا من خيار المسلمين وكان يقال لهم القراء منهم الحرث بن الصمة وحرام بن ملحان وعروة بن أسماء بن الصلت ونافع بن بديل بن ورقاء الخزاعى وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر وذلك فى صفر سنة أربع من الهجرة بعد أحد بأربعة أشهر فساروا حتى نزلوا بئر معونة وهى أرض بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم فلما نزلوها قال بعضهم لبعض أيكم يبلغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل هذا الماء فقال حرام بن ملحان أنا فخرج بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عامر بن الطفيل وكان على ذلك الماء فلما أتاهم حرام بن ملحان لم ينظر عامر بن الطفيل فى كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال حرام بن ملحان ياأهل بئر معونة انى رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم اليكم وانى أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله فآمنوا بالله ورسوله فخرج اليه رجل من كسر البيت برمح فضرب به فى جنبه حتى خرج من الشق الآخر فقال الله أكبر فزت ورب الكعبة ثم استصرخ عامر بن الطفيل بنى عامر على المسلمين فابوا ان يجيبوه الى مادعاهم اليه وقالوا لانخفر أبا براء فقد عقد لهم عقدا وجوارا فاستصرخ عليهم قبائل بنى سليم عصية ورعلا وذكوان فاجابوه فخرجوا حتى غشوا القوم فاحاطوا بهم فى رحالهم فلما رأوهم أخذوا السيوف فقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم الا كعب بن زيد فانهم تركوه و به رمق فارتث بين القتلى فعاش حتى قتل يوم الخندق وكان فى سرح القوم عمرو بن أمية الضمرى ورجل من الانصار أحد بنى عمرو بن عوف فلم يعلمهما بمصاب أصحابهما الا الطير تحوم على العسكر فقالا والله ان لهذا الطير لشأنا فاقبلا لينظرا فاذا القوم فى دمائهم واذا الخيل التى أصابتهم واقفة فقال الانصارى لعمرو

بن أمية ماذا ترى قال نلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ونخبره فقال الانصارى لكنى لا أرغب عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو ثم قاتل القوم حتى قتل وأخذ عمرو بن أمية الضمرى أسيرا فلما أخبرهم انه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل وجز ناصيته وأعتقه عن رقبة زعم انها كانت على أمه فقدم عمرو بن أمية على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا عمل أبى براء وقد كنت لهذا كارها متخوفا فبلغ ذلك أبا براء فشق عليه اخفار عامر بن الطفيل اياه وما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بسببه وجواره وكان فيمن أصيب عامر بن فهيرة مولى أبى بكر الصديق فروى محمد بن اسحق عن هشام بن عروة عن أبيه ان عامر بن الطفيل كان يقول من الرجل منهم لما قتل رأيته رفع بين السماء والارض حتى رأيت السماء من دونه قالوا هو عامر بن فهيرة قالوا وبلغ ربيعة بن أبى براء ان عامر بن الطفيل أخفر ذمة أبيه فحمل على عامر بن الطفيل فطعنه فخر عن فرسه قلت وذكر ابن الاثير الجزرى فى كتاب جامع الاصول له فى قسم الاسماء فى ترجمة عامر بن الطفيل ان عامر بن الطفيل قدم على النبى صلى الله عليه وسلم وهو ابن بضع وثمانين سنة ولم يسلم وعاد من عنده فخرج له خراج فى أصل اذنه أخذه منه مثل النار فاشتد عليه ومات منه (ق) عن أنس قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أقواما من بنى سليم الى بنى عامر فى سبعين وفى رواية ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث خاله أخا لام سليم واسمه حرام فى سبعين راكبا فلما قدموا قال لهم خالى أتقدمكم فان أمنونى حتى أبلغهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والا كنتم منى قريبا فتقدم فامنوه فبينما هو يحدثهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أومؤا الى رجل منهم فطعنه فانفذه فقال الله أكبر فزت ورب الكعبة ثم مالوا على بقية أصحابه فقتلوهم الا رجلا أعرج صعد الجبل قال همام وأراه آخر معه فاخبر جبريل عليه السلام النبى صلى الله عليه وسلم انهم قد لقوا ربهم فرضى عنهم وأرضاهم قال فكنا نقرا ان بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا ثم نسخ بعد فدعا عليهم أربعين صباحا على رعل وذكوان و بنى عصية الذين عصوا الله ورسوله وفى رواية ان رعلا وذكوان و بنى لحيان استمدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فامدهم بسبعين رجلا من الانصار كنا نسميهم القراء فى زمانهم كانوا يحتطبون بالنهار و يصلون بالليل حتى اذا كانوا ببئر معونة قتلوهم وغدروا بهم فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقنت عليهم شهرا يدعو فى الصبح على أحياء من العرب على رعل وذكوان وعصية و بنى لحيان قال أنس فقرأنا فيهم قرآنا ثم ان ذلك رفع بلغوا قومنا ان قد لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا ولمسلم قال جاء ناس الى النبى صلى الله عليه وسلم فسألوه ان ابعث معنا رجالا يعلمونا القرآن والسنة فبعث اليهم سبعين رجلا من الانصار وذكر نحو ما تقدم وقيل ان أولياء الشهداء وأهليهم كانوا اذا أصابتهم نعمة وخير تحسروا على الشهداء وقالوا نحن فى النعمة والرخاء وآباؤنا وأبناؤنا واخواننا فى القبور فانزل الله تعالى هذه الآية تطييبا لقلوبهم وتنفيسا عنهم واخبارا عن حال قتلاهم فقال تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أى ولا تظنن الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولكل أحد من أمته والمعنى لا يظن ظان ان الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا يعنى كاموات غيرهم ممن لم يقتل فى سبيل الله (بل أحياء) أى بل هم أحياء وظاهر الآية يدل على كون من قتل فى سبيل الله حيا فاما أن يكون المراد انهم سيصيرون أحياء فى الآخرة أو يكون المراد انهم أحياء فى الحال وعلى تقدير انهم أحياء فى الحال هل يكون المراد اثبات الحياة الروحانية أو اثبات الحياة الجسمانية فهذه ثلاثة أوجه فى معنى احتمال الحياة فمن قال بالوجه الاول وهو انهم سيصيرون أحياء فى الآخرة قال معنى الآية بل هم أحياء فى الذكر وانهم يذكرون بخير أعمالهم وانهم استشهدوا فى سبيل الله وقيل بل هم أحياء فى الدين وهذا القول ليس بصواب لان الله تعالى أثبت لهم الحياة فى الحال بقوله بل أحياء يعنى فى حال ما يقتلون فانهم يحيون وهو الاحتمال الثانى واختلفوا فى معنى هذه الحياة هل هى للروح أو للجسم والروح

بل أحياء) بل هم أحياء

(عند ربهم) مقربون عنده ذوو زلفى (يرزقون) مثل ما يرزق سائر الاحياء يأكلون و يشربون وهو تأكيد لكونهم أحياء ووصف لحالهم التى هم عليها من التنعم برزق الله (فرحين) حال من الضمير فى يرزقون (بما آتاهم الله من فضله) وهو التوفيق فى الشهادة وما ساق اليهم من الكرامة والتفضيل على غيرهم من كونهم أحياء مقربين معجلا لهم رزق

الجنة ونعيمها وقال النبى عليه السلام لما أصيب اخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر تدور فى أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى الى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش وقيل هذا الرزق فى الجنة يوم القيامة وهو ضعيف لانه لا يبقى للتخصيص فائدة (ويستبشرون بالذين) باخوانهم المجاهدين الذين (لم يلحقوا بهم) لم يقتلوا فيلحقوا بهم (من خلفهم) يريد الذين من خلفهم قد بقوا من بعدهم وهم قد تقدموهم أو لم يلحقوا بهم لم يدركوا فضلهم ومنزلتهم (ألا خوف عليهم) بدل من الذين والمعنى ويستبشرون بما تبين لهم من حال من تركوا خلفهم من المؤمنين وهو انهم يبعثون آمنين يوم القيامة بشرهم الله بذلك فهم مستبشرون به وفى ذكر حال الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم بعث للباقين بعدهم على الجد فى الجهاد والرغبة فى نيل منازل الشهداء (ولاهم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل) مسرون بما أنعم الله عليهم وما تفضل عليهم من زيادة الكرامة (وان الله) عطف على النعمة والفضل وان الله بالكسر على الاستئناف وعلى ان الجملة اعتراض (لا يضيع أجر المؤمنين) بل يوفر عليهم

معا فمن أثبت الحياة للروح دون الجسم قال يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر فخص الارواح دون الاجساد وقال بعض المفسرين ان أرواح الشهداء تركع وتسجد كل ليلة تحت العرش الى يوم القيامة ومن أثبت الحياة للروح والجسم معا قال يدل عليه سياق الآية وهو قوله عند ربهم يرزقون فاخبر الله سبحانه وتعالى انهم يرزقون ويأكلون ويتنعمون كالاحياء وقيل ان الشهيد لا يبلى فى قبره ولا تأكله الارض كغيره وروى أنه لما أراد معاوية أن يجرى الماء على قبور الشهداء أمر ان ينادى من كان له قتيل فليخرجه وليحوله من هذا الموضع قال جابر فخرجنا اليهم فاخرجناهم رطاب الابدان فاصابت المسحاة أصبع رجل منهم فنبعت دما ذكر البغوى بغير سند عن عبيد الله بن عمير قال مر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انصرف من أحد على مصعب بن عمير وهو مقتول فوقف عليه ودعا له ثم قرأ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أشهد ان هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة فأتوهم وزوروهم وسلموا عليهم فوالذى نفسى بيده لا يسلم عليهم أحد الى يوم القيامة الا ردوا عليه ۞ وقوله تعالى (عند ربهم) يعنى فى محل كرامته وفضله (يرزقون) يعنى من ثمار الجنة وتحفها (فرحين بما آتاهم الله من فضله) يعنى بما أعطاهم من الثواب والكرامة والاحسان والافضال فى دار النعيم (ويستبشرون) أى يفرحون والاستبشار هو الفرح والسرور الذى يحصل للانسان عند البشارة (بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم) يعنى من اخوانهم الذين تركوهم أحياء فى الدنيا على منهج الايمان والجهاد لعلمهم بانهم اذا استشهدوا ولحقوا بهم ونالوا من الكرامة مثل ما نالوا فهم بذلك مستبشرون وقيل ان الشهداء سألوا الله عز وجل أن يخبر اخوانهم بما نالوا من الخير والكرامة ليرغبوا فى الجهاد فاخبرهم الله عز وجل أنى قد أنزلت على نبى محمد صلى الله عليه وسلم وأخبرته بحالكم وما صرتم اليه من الكرامة وان محمدا صلى الله عليه وسلم قد أخبر اخوانكم بذلك ففرحوا بذلك واستبشروا (ألا خوف عليهم) يعنى فى الآخرة (ولاهم يحزنون) يعنى على ما فاتهم من نعيم الدنيا (يستبشرون بنعمة من الله وفضل) لما بين الله تعالى ان الشهداء يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ذكر أنهم أيضا يستبشرون لانفسهم بما رزقوا من النعيم والفضل فالاستبشار الاول كان لغيرهم والاستبشار الثانى لانفسهم خاصة (وان الله لا يضيع أجر المؤمنين) يعنى كما انه تعالى لا يضيع أجر المجاهدين والشهداء كذلك لا يضيع أجر المؤمنين

✱(فصل فى فضل الجهاد والشهادة فى سبيل الله)✱

(ق) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تضمن الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه ٣ الاجهادا فى سبيلى وايمانا بى وتصديقا برسلى فهو على ضامن ان أدخله الجنة أو أرجعه الى مسكنه الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة والذى نفس محمد بيده ما من كلم يكلم فى سبيل الله الا جاء يوم القيامة كهيئته حين يكلم لونه لون دم وريحه ريح مسك والذى نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبدا ولكن لا أجد سعة فاحملهم ولا يجدون سعة ويشق عليهم ان يتخلفوا عنى والذى نفس محمد بيده لوددت انى أغزو فى سبيل الله فاقتل ثم أغزو فاقتل ثم أغزو فاقتل لفظ مسلم (ق) عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها (ق) عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رباط

٣ قوله لا يخرجه الا جهادا الخ قال النووى فى شرح مسلم هكذا هو فى جميع النسخ جهادا بالنصب وكذا قال بعده وايمانا بى وتصديقا وهو منصوب على انه مفعول له وتقديره لا يخرجه المخرج ولا يحركه المحرك الا للايمان والجهاد والتصديق اه نقله مصححه

يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها وموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما عليها عن فضالة بن عبيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كل ميت يختم على عمله الا المرابط في سبيل الله فانه ينمي له عمله الى يوم القيامة و يأمن من فتنة القبر أخرجه أبو داود والترمذي عن معاذ بن جبل انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة ومن سأل الله القتل في سبيل الله صادقا من نفسه ثم مات أو قتل كان له أجر شهيد ومن جرح جرحا في سبيل الله أو نكب نكبة فانها تجيء يوم القيامة كاغزر ما كانت لونها لون الزعفران وريحها ريح المسك ومن خرج به خراج في سبيل الله فان عليه طابع الشهداء أخرجه أبو داود والنسائي وأخرجه الترمذي مفرقا في موضعين (ق) عن أبي سعيد قال أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أي الناس أفضل قال مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله قال ثم من قال رجل في شعب من الشعاب يعبد الله وفي رواية يتقي الله ويدع الناس من شره (خ) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من احتبس فرسا في سبيل الله ايمانا واحتسابا وتصديقا بوعده فان شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة يعني حسنات (ق) عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما أحد يدخل الجنة فيحب أن يرجع الى الدنيا وله ما على الارض من شئ الا الشهيد يتمنى أن يرجع الى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة وفي رواية لما يرى من فضل الشهادة (م) عن عبد الله بن عمرو ابن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يغفر للشهيد كل ذنب الا الدين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما يجد الشهيد من مس القتل الا كما يجد أحدكم من القرصة أخرجه الترمذي والنسائي نحوه عن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته أخرجه أبو داود ۞ قوله عز وجل (الذين استجابوا لله والرسول) الآية قال أكثر المفسرين ان أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا على انصرافهم وتلاوموا فقالوا لا محمدا قتلتم ولا الكواعب أردفتم قتلتموهم حتى اذا لم يبق الا الشريد تركتموهم ارجعوا فاستأصلوهم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاراد أن يرهب العدو و يريهم من نفسه وأصحابه قوة فندب أصحابه للخروج في طلب أبي سفيان فانتدب عصابة منهم مع ما بهم من ألم الجراح والقرح الذي أصابهم يوم أحد ونادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا لا يخرجن معنا أحد الا من حضرنا بالامس فكلمه جابر بن عبد الله فقال يا رسول الله ان أبي كان خلفني على أخوات لي سبع وقال لي يا بني انه لا ينبغي لي ولك ان نترك هؤلاء النسوة ولا رجل فيهن ولست بالذي أوثرك على نفسي بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتخلف على أخواتك فتخلفت عليهن فاذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج معه وانما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مرهبا للعدو وليبلغهم انه خرج في طلبهم فيظنوا به قوة وأن الذي أصابهم لم يوهنهم فينصرفوا فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة ابن الجراح وعبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان في سبعين رجلا من أصحابه حتى بلغوا حمراء الاسد وهي من المدينة على ثلاثة أميال (ق) عن عائشة في قوله الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم قالت لعروة يا ابن أختي كان أبواك منهم الزبير وأبو بكر لما أصاب نبي الله صلى الله عليه وسلم ما أصاب يوم أحد وانصرف المشركون خاف أن يرجعوا فقال من يذهب في أثرهم فانتدب منهم سبعون رجلا كان فيهم أبو بكر والزبير قال فمر برسول الله صلى الله عليه وسلم معبد الخزاعي بحمراء الاسد وكانت خزاعة مسلمهم وكافرهم عيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم بتهامة صفقتهم معه لا يخفون عنه شيأ كان بها ومعبد يومئذ مشرك فقال يا محمد والله لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك ولوددنا ان الله كان قد أعفاك فيهم ثم خرج معبد من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقي أبا سفيان ومن معه بالروحاء وقد

(الذين استجابوا لله والرسول) مبتدأ خبره للذين أحسنوا أو صفة للمؤمنين أو نصب على المدح

أجمعوا على الرجعة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا قد أصبنا جل أصحابه وقادتهم لنكرن على بقيتهم ولنفرغن منهم فلما رأى أبو سفيان معبدا قال له ما وراءك يا معبد قال محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليكم تحرقا وقد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم وندموا على صنيعهم وفيهم من الحنق عليكم شئ لم أر مثله قط قال أبو سفيان ويلك ما تقول قال والله ما أراك ترحل حتى ترى نواصى الخيل قال فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم فقال والله انى أنهاك عن ذلك فوالله لقد حملنى ما رأيت على ان قلت أبياتا قال وما قلت قال قلت

كادت تهد من الاصوات راحلتى * اذ سالت الارض بالجرد الابابيل
تردى بأسد كرام لا تنابلة * عند اللقاء ولا ميل معازيل
فقلت ويل ابن حرب من لقائكم * اذا تغطمطت البطحاء بالخيل
انى نذير لاهل السبل ضاحية * لكل ذى اربة منهم ومعقول
من جيش أحمد لا وحش يقابله * وليس يوصف ما أنذرت بالقيل

قال فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه ومر ركب من عبد القيس فقال أين تريدون قالوا نريد المدينة لاجل الميرة قال فهل أنتم مبلغون عنا محمدا رسالة وأحمل لكم ابلكم زبيبا بعكاظ اذا وافيتموها قالوا نعم قال اذا وافيتموه فاخبروه انا قد أجمعنا السير اليه والى أصحابه لنستأصل بقيتهم وانصرف أبو سفيان الى مكة ومر الركب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بحمراء الاسد فاخبروه بالذى قال أبو سفيان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حسبنا الله ونعم الوكيل ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا الى المدينة بعد ثالثة وقال مجاهد وعكرمة نزلت هذه الآية فى غزوة بدر الصغرى وذلك ان أبا سفيان يوم أحد حين أراد أن ينصرف قال يا محمد موعد ما بيننا وبينك موسم بدر الصغرى لقابل ان شئت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك بيننا وبينك ان شاء الله فلما كان العام المقبل خرج أبو سفيان فى أهل مكة حتى نزل بمجنة من ناحية مر الظهران ثم ألقى الله الرعب فى قلبه فبدا له الرجوع فلقى نعيم بن مسعود الاشجعى وقد قدم معتمرا فقال له أبو سفيان يا نعيم انى قد واعدت محمدا وأصحابه أن نلتقى بموسم بدر الصغرى وهذا عام جدب ولا يصلحنا الا عام نرعى فيه الشجر ونشرب اللبن وقد بدا لى أن لا أخرج اليها وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج أنا فيزيدهم ذلك جراءة ولان يكون الخلف من قبلهم أحب الى من أن يكون من قبلى فالحق بالمدينة فثبطهم وأعلمهم انا فى جمع كثير لا طاقة لهم بنا ولك عندى عشرة من الابل أضعها لك على يد سهيل بن عمرو ويضمنها لك قال وجاء سهيل فقال له نعيم يا أبا يزيد أتضمن لى هذه القلائص وانطلق الى محمد فاثبطه قال نعم قال فخرج نعيم حتى أتى المدينة فوجد الناس يتجهزون لميعاد أبى سفيان فقال نعيم أين تريدون قالوا واعدنا أبا سفيان أن نلتقى بموسم بدر الصغرى فقال نعيم بئس الرأى رأيتم أتوكم فى دياركم وقراركم فلم يفلت منكم الا الشريد أفتريدون أن تخرجوا اليهم وقد جمعوا لكم عند الموسم والله لا يفلت منكم أحد فكره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لاخرجن ولو وحدى فاما الجبان فانه رجع وأما الشجاع فانه تأهب للقتال وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه حتى وافوا بدرا الصغرى وكانوا يلقون المشركين فيسألونهم عن قريش فيقولون قد جمعوا لكم يريدون بذلك أن يرعبوا المسلمين فيقول المؤمنون حسبنا الله ونعم الوكيل حتى بلغوا بدرا الصغرى وكانت موضع سوق لهم فى الجاهلية يجتمعون اليها كل عام ثمانية أيام فاقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر ينتظر أبا سفيان وقد انصرف أبو سفيان من مجنة الى مكة فلم يلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أحدا من المشركين ووافوا السوق وكان معهم تجارات ونفقات فباعوا وأصابوا بالدرهم درهمين وانصرفوا الى المدينة سالمين

(من بعد ماأصابهم القرح) الجرح روى ان أباسفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا وهموا بالرجوع فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاراد أن يرهبهم ويريهم من نفسه وأصحابه قوة فندب النبى أصحابه للخروج فى طلب أبى سفيان فخرج يوم الاحد من المدينة مع سبعين رجلا حتى بلغوا حمراء الاسد وهى من المدينة على ثمانية أميال وكان باصحابه القرح فالقى الله الرعب فى قلوب المشركين فذهبوا فنزلت (للذين أحسنوا منهم واتقوا) من للتبيين ومثلها فى قوله وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة لان الذين استجابوا لله والرسول قد أحسنوا كلهم واتقوا لا بعضهم (أجر عظيم) فى الآخرة (الذين قال لهم الناس) بدل من الذين استجابوا (ان الناس قد جمعوا لكم) روى ان أباسفيان نادى عند انصرافه من أحد يا محمد موعدنا موسم بدر القابل فقال عليه السلام ان شاء الله فلما كان القابل خرج أبو سفيان فى أهل مكة فالقى الله الرعب فى قلبه فبداله أن يرجع فلقى نعيم بن مسعود الاشجعى وقد قدم معتمرا فقال يا نعيم انى واعدت محمدا أن نلتقى بموسم بدر وقد بدالى ان أرجع فالحق بالمدينة فثبطهم ولك عندى عشرة من الابل فخرج نعيم فوجد المسلمين يتجهزون فقال لهم أتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم فوالله لا يفلت منكم أحد فقال عليه السلام والله لاخرجن ولو لم يخرج معى أحد فخرج فى سبعين راكبا وهم يقولون حسبنا الله ونعم الوكيل حتى وافوا بدرا وأقاموا بها ثمانى ليال وكانت معهم تجارة فباعوها وأصابوا خيرا ثم انصرفوا الى المدينة سالمين غانمين ولم يكن قتال ورجع أبو سفيان الى مكة فسمى أهل مكة جيشه جيش السويق وقالوا انما خرجتم لتأكلوا السويق فالناس الاول نعيم وهو جمع أريد به الواحد أو كان له أتباع يثبطون مثل تثبيطه عنهم والثانى أبو سفيان وأصحابه (فاخشوهم) فخافوهم (فزادهم) أى القول الذى هو ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم أو القول أو نعيم (ايمانا) بصيرة ويقينا (وقالوا حسبنا الله) كافينا الله أى الذى يكفينا الله يقال حسبه الشئ اذا كفاه وهو بمعنى المحسب بدليل أنك تقول هذا رجل حسبك فتصف به النكرة لان اضافته غير حقيقية لكونه فى معنى اسم الفاعل (ونعم الوكيل) ونعم الموكول اليه هو (فانقلبوا بنعمة من الله) وهى السلامة وحذر العدو منهم (وفضل) وهو الربح فى التجارة فاصابوا بالدرهم درهمين (لم يمسسهم سوء) لم يلقوا ما يسوءهم من كيد عدو وهو حال من الضمير فى انقلبوا وكذا بنعمة والتقدير فرجعوا من بدر منعمين بريئين من سوء (واتبعوا رضوان الله) بجراءتهم وخروجهم

غانمين فذلك قوله تعالى الذين استجابوا لله والرسول أى أجابوا الله وأطاعوه فى جميع أوامره وأطاعوا الرسول أيضا (من بعد ما أصابهم القرح) يعنى من بعد ما نالهم من ألم الجراح (للذين أحسنوا منهم واتقوا) يعنى احسنوا بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجابوه الى الغزو واتقوا معصيته والتخلف عنه (أجر عظيم) يعنى لهم ثواب جزيل وهو الجنة ۞ قوله عز وجل (الذين قال لهم الناس) هذه الآية متعلقة بالآية التى قبلها لان المراد بالذين من تقدم ذكره وهم الذين استجابوا لله والرسول وفى المراد بالناس وجوه أحدها انه نعيم بن مسعود الاشجعى فيكون اللفظ عاما أريد به الخاص وانما جاز اطلاق لفظ الناس على الانسان الواحد لان ذلك الواحد اذا فعل فعلا أو قال قولا ورضى به غيره حسن اضافة ذلك الفعل والقول الى الجماعة وان كان الفاعل واحدا فهو كقوله تعالى واذ قتلتم نفسا والقاتل واحد والوجه الثانى ان المراد بالناس الركب من عبد القيس قاله ابن عباس ومحمد بن اسحق الوجه الثالث أن المراد بالناس المنافقون وذلك انهم لما رأوا النبى صلى الله عليه وسلم يتجهز لميعاد أبى سفيان نهوا أصحابه عن الخروج معه وقالوا لهم ان القوم قد أتوكم فى دياركم فقتلوا الاكثر منكم فان خرجتم اليهم لم يبق أحد منكم (ان الناس) يعنى أباسفيان وأصحابه من رؤساء المشركين (قد جمعوا لكم) يعنى الجموع الكثيرة لان العرب تسمى الجيش جمعا ويجمعونه جموعا (فاخشوهم) أى فخافوهم واحذروهم فانه لا طاقة لكم بهم (فزادهم ايمانا) يعنى فزاد المسلمين ذلك التخويف تصديقا ويقينا وقوة فى دينهم وثبوتا على نصر نبيهم صلى الله عليه وسلم وفى هذه الآية دليل لمن يقول بزيادة الايمان ونقصانه لان الله تعالى نص على وقوع الزيادة فى الايمان (وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) أى كافينا الله هو الذى يكفينا أمرهم فهو كقول امرئ القيس * وحسبك من غنى شبع ورى * أى يكفيك الشبع والرى ونعم الوكيل يعنى ونعم الموكول اليه فى الامور كلها وقيل الوكيل هو الكافى والمعنى يكفينا الله ونعم الكافى هو وقيل الوكيل هو الكفيل ووكيل الرجل فى ماله هو الذى كفله وقام به والوكيل فى صفة الله تعالى هو الكفيل بارزاق العباد ومصالحهم وانه الذى يستقل بامورهم كلها (خ) عن ابن عباس قال فى قوله تعالى ان الناس قد جمعوا لكم الى قوله وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل قالها ابراهيم حين ألقى فى النار وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم ۞ قوله تعالى (فانقلبوا) أى فانصرفوا ورجعوا بعد خروجهم والمعنى وخرجوا فانقلبوا فحذف الخروج لان الانقلاب يدل عليه (بنعمة من الله) أى بعافية لم يلقوا عدوا (وفضل) أى تجارة وربح وهو ما أصابوا فى سوق بدر من الربح وقيل النعمة منافع الدنيا والفضل ثواب الآخرة (لم يمسسهم سوء) أى لم يصبهم أذى ولا مكروه من قتل وجراح (واتبعوا رضوان الله) يعنى فى طاعة الله وطاعة رسوله وقيل انهم قالوا هل يكون هذا غزوا فاعطاهم الله ثواب الغزو ورضى

الى وجه العدو على أثر تثبيطه وهو معطوف على انقلبوا (والله ذو فضل عظيم) قد تفضل عليهم بالتوفيق فيما فعلوا (انما ذلكم الشيطان) هو خبر ذلكم أى انما ذلكم المثبط هو الشيطان وهو نعيم (يخوف أولياءه) أى المنافقين وهو جملة مستأنفة بيان لشيطنته أو الشيطان صفة لاسم الاشارة و يخوف الخبر (فلا تخافوهم) أى أولياءه (وخافون ان كنتم مؤمنين) لان الايمان يقتضى أن يؤثر العبد خوف الله على خوف غيره وخافونى فى الوصل والوقف سهل و يعقوب و افقهما أبو عمرو فى الوصل (ولا يحزنك) يحزنك فى كل القرآن نافع الا فى سورة الانبياء لا يحزنهم الفزع الاكبر (الذين يسارعون فى الكفر) يعنى لا يحزنوك لخوف أن يضروك ألا ترى الى قوله (انهم لن يضروا الله شيأ) أى أولياء الله يعنى انهم لا يضرون بمسارعتهم فى الكفر غيرا نفسهم وماو بال ذلك عائد على غيرهم ثم بين كيف يعود و باله عليهم بقوله (يريد الله أن لا يجعل لهم حظا فى الآخرة) أى نصيبا من الثواب (ولهم) بدل الثواب (عذاب عظيم) وذلك أبلغ ما ضر به الانسان نفسه والآية تدل على ارادة الكفر والمعاصى لان ارادته أن لا يكون لهم ثواب فى الآخرة لا تكون بدون ارادة كفرهم ومعاصيهم (ان الذين اشتروا الكفر بالايمان) أى استبدلوه به (لن يضروا الله شيأ) هو نصب على المصدر أى شيأ من الضرر الآية الاولى فيمن نافق من المتخلفين أو ارتد عن الاسلام والثانية فى جميع الكفار أو على العكس (ولهم عذاب أليم ولا يحسبن) وثلاثة بعدها مع ضم الباء فى يحسبنهم بالياء مكى وأبو عمرو وكلها بالتاء حمزة وكلها بالياء مدنى وشامى الا فلا تحسبنهم فانها بالتاء الباقون الاوليان بالياء والاخريان بالتاء (الذين كفروا) فيمن قرأ بالياء رفع أى ولا يحسبن الكافرون وان مع اسمه وخبره فى قوله (انما نملى لهم خير لانفسهم) فى موضع المفعولين ليحسبن والتقدير ولا يحسبن الذين كفروا املاءنا خيرا لانفسهم وما مصدرية وكان حقها فى قياس علم الخط أن تكتب مفصولة ولكنها وقعت فى الامام متصلة فلا يخالف وفيمن قرأ بالتاء نصب أى ولا تحسبن الكافرين وانما نملى لهم خير لانفسهم بدل من الكافرين أى ولا تحسبن ان ما نملى للكافرين خير لهم وان مع ما فى حيزه ينوب عن المفعولين والاملاء لهم امهالهم واطالة عمرهم (انما نملى لهم ليزدادوا اثما) ما هذه حقها أن تكتب متصلة لانها كافة دون الاولى وهذه جملة مستأنفة تعليل للجملة قبلها كانه قيل ما بالهم لا يحسبون الاملاء خيرا لهم فقيل انما نملى لهم ليزدادوا اثما والآية حجة لنا على المعتزلة فى مسئلتى الاصلح وارادة المعاصى (ولهم عذاب مهين) واللام فى

عنهم بمجرد خروجهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم (والله ذو فضل عظيم) يعنى انه تعالى تفضل عليهم بالتوفيق لما فعلوا وقيل تفضل عليهم بالقاء الرعب فى قلوب المشركين حتى رجعوا ۞ قوله عز وجل (انما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه) يعنى انما ذلكم التخويف والمثبط هو الشيطان يخوف بالوسوسة بان ألقى ذلك فى أفواههم ليرهبوا المؤمنين و يخوفوهم و يجبنوهم وقوله أولياءه يعنى الشيطان يخوفكم يا معشر المؤمنين باوليائه وقيل معناه يعظم أولياءه فى صدوركم لتخافوهم وقيل معناه يخوف أولياءه المنافقين ليقعدوا عن قتال المشركين وأولياء الشيطان هم الكفار والمنافقون الذين يطيعونه و يؤثرون أمره وأولياء الله هم المؤمنون الذين لا يخافون الشيطان اذا خوفهم ولا يطيعونه اذا أمرهم (فلا تخافوهم) يعنى فلا تخافوا أولياء الشيطان ولا تقعدوا عن قتالهم ولا تجبنوا عنهم (وخافون) أى فجاهدوا فى سبيلى مع رسولى فانى وليكم وناصركم (ان كنتم مؤمنين) أى مصدقين بوعدى انى متكفل لكم بالنصر والظفر ۞ قوله تعالى (ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر) قيل هم كفار قريش وقيل هم المنافقون ورؤساء اليهود وقيل هم قوم ارتدوا عن الاسلام والمعنى ولا يحزنك يا محمد من يسارع فى الكفر و يجمع الجموع لحاربتك فان هذا المقصود لا يحصل لهم وقيل مسارعتهم فى الكفر مظاهرتهم الكفار على النبى صلى الله عليه وسلم والمعنى يسارعون فى نصرة الكفر فلا يحزنك فعلهم فانك منصور عليهم (انهم لن يضروا الله شيأ) يعنى بمسارعتهم فى الكفر انما يضرون أنفسهم بذلك وقيل معناه لن يضروا أولياء الله شيأ (يريد الله ألا يجعل لهم حظا فى الآخرة) يعنى لا يجعل لهم نصيبا فى ثواب الآخرة فلذلك خذلهم حتى سارعوا فى الكفر وفى الآية دليل على أن الخير والشر بارادة الله تعالى وفيه رد على القدرية والمعتزلة (ولهم عذاب عظيم) يعنى فى الآخرة (ان الذين اشتروا الكفر بالايمان) يعنى المنافقين آمنوا ثم كفروا والمعنى انهم استبدلوا الكفر بالايمان فكأنهم أعطوا الايمان وأخذوا الكفر كما يفعل المشترى من اعطاء شئ وأخذ غيره بدلا عنه (لن يضروا الله شيا) يعنى باستبدالهم الكفر بالايمان وانما ضروا أنفسهم بذلك (ولهم عذاب أليم) يعنى فى الآخرة ۞ قوله عز وجل (ولا تحسبن الذين كفروا) قرئ تحسبن بالتاء والياء فمن قرأ بالتاء فمعناه ولا تحسبن يا محمد املاءنا للكفار خيرا لانفسهم ومن قرأ بالياء قال معناه ولا يحسبن الكفار املاءنا لهم خيرا نزلت فى مشركى مكة وقيل نزلت فى يهود بنى قريظة والنضير (انما نملى لهم) الاملاء الامهال والتأخير وأصله من الملاوة وهى المدة من الزمان والمعنى ولا يظنن الذين كفروا ان امهالنا اياهم بطول العمر والانساء فى الاجل (خير لانفسهم) ثم قال تعالى (انما نملى لهم ليزدادوا اثما) يعنى انما نمهلهم ونؤخر فى آجالهم ليزدادوا اثما (ولهم عذاب مهين) يعنى فى الآخرة روى البغوى بسنده عن عبد الرحمن بن أبى بكر عن أبيه قال سئل

رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله قيل فأي الناس شر قال من طال عمره وساء عمله وروى ابن جرير الطبري بسنده عن الاسود قال قال عبد الله ما من نفس برة ولا فاجرة الا والموت خير لها وقرأ ولا تحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لانفسهم انما نملي لهم ليزدادوا اثما وقرأ نزلا من عند الله وما عند الله خير للابرار وقال ابن الانباري قال جماعة من أهل العلم أنزل الله عز وجل هذه الآية في قوم يعاندون الحق سبق في علمه أنهم لا يؤمنون فقال انما نملي لهم ليزدادوا اثما بعنادهم الحق وخلافهم الرسول وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا رأيت الله يعطي على المعاصي فان ذلك استدراج من الله لخلقه ثم تلا هذه الآية وقال الزجاج هؤلاء قوم أعلم الله نبيه صلى الله عليه وسلم انهم لا يؤمنون أبدا وان نفاقهم يزيدهم كفرا واثما وهذه الآية حجة ظاهرة على القدرية حيث أخبر الله تعالى انه يطيل أعمار قوم ويمهلهم ليزدادوا كفرا واثما وغيا ۞ قوله تعالى (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) اختلف العلماء في سبب نزول هذه الآية فقال الكلبي قالت قريش يا محمد تزعم ان من خالفك فهو في النار والله عليه غضبان وأن من أطاعك وتبعك على دينك فهو في الجنة والله عنه راض فاخبرنا بمن يؤمن بك وبمن لا يؤمن بك فانزل الله تعالى هذه الآية وقال السدي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عرضت على أمتي في صورها في الطين كما عرضت على آدم وأعلمت من يؤمن بي ومن يكفر بي فبلغ ذلك المنافقين فقالوا استهزاء زعم محمد انه يعلم من يؤمن به ومن يكفر ممن لم يخلق بعد ونحن معه وما يعرفنا فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام على المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال ما بال أقوام طعنوا في علمي لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة الا نبأتكم به فقام عبد الله بن حذافة السهمي فقال من أبي يا رسول الله فقال حذافة فقام عمر فقال يا رسول الله رضينا بالله ربا وبالاسلام دينا وبالقرآن اماما وبك نبيا فاعف عنا عفا الله عنك فقال النبي صلى الله عليه وسلم فهل أنتم منتهون فهل أنتم منتهون ثم نزل عن المنبر فانزل الله هذه الآية وقيل ان المؤمنين سألوا أن يعطوا آية يفرقون بها بين المؤمن والكافر فنزلت هذه الآية وقيل ان قوما من المنافقين ادعوا ان ايمانهم كايمان المؤمنين فاظهر الله نفاقهم يوم أحد وأنزل هذه الآية واختلفوا في معنى الآية وحكمها فقال ابن عباس وأكثر المفسرين الخطاب للكفار والمنافقين والمعنى ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه يا معشر الكفار والمنافقين من الكفر والنفاق حتى يميز الخبيث من الطيب وقيل خطاب للمؤمنين والمعنى ما كان الله ليذركم يا معشر المؤمنين على ما أنتم عليه من اختلاط المؤمن بالمنافق والتباس بعضهم ببعض حتى يميز الخبيث من الطيب يعني المنافق من المؤمن الخالص فميز الله المؤمنين من المنافقين يوم أحد فاظهر المنافقون النفاق وتخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل انما حصل التمييز يوم أحد بالقاء الجميع في الخوف والقتل والهزيمة فمن كان مؤمنا ثبت على ايمانه وتصديقه ولم يتزلزل ومن كان منافقا أظهر نفاقه وكفره وقيل في معنى الآية حتى يميز المؤمن من المنافق والكافر بالجهاد والهجرة وقيل في معنى الآية ما كان الله ليذر المؤمنين في أصلاب الرجال المشركين وأرحام النساء المشركات والمعنى ما كان الله ليدع أولادكم الذين جرى لهم الحكم بالايمان على ما أنتم عليه من الشرك حتى يميز الخبيث من الطيب يعني يفرق بينكم وبين من في أصلابكم وأرحام نسائكم من المؤمنين فيحكم لاهل الايمان بالجنة ولاهل الشرك والكفر والنفاق بالنار (وما كان الله ليطلعكم على الغيب) الخطاب في قوله ليطلعكم لكفار قريش الذين قالوا يا محمد أخبرنا عمن يؤمن بك ومن لا يؤمن والمعنى وما كان الله ليبين لكم أيها الكفار المؤمن من الكافر فيقول فلان مؤمن وفلان كافر أو منافق لانه لا يعلم الغيب أحد غيره وان سنة الله جارية انه لا يطلع على غيبه آحاد الناس فلا سبيل الى معرفة المؤمن من الكافر والمنافق الا بالامتحان بالآفات والمصائب فيتميز المؤمن المخلص بثباته على ايمانه

(ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه) من اختلاط المؤمنين الخلص والمنافقين لتأكيد النفي (حتى يميز الخبيث من الطيب) حتى يعزل المنافق عن المخلص يميز حمزة وعلي والخطاب في أنتم للمصدقين من أهل الاخلاص والنفاق كأنه قيل ما كان الله ليذر المخلصين منكم على الحال التي أنتم عليها من اختلاط بعضكم ببعض حتى يميزهم منكم بالوحي الى نبيه واخباره باحوالكم (وما كان الله ليطلعكم على الغيب) وما كان الله ليؤتي أحدا منكم علم الغيوب فلا تتوهموا عند اخبار الرسول بنفاق الرجل واخلاص الآخر انه يطلع على ما في القلوب اطلاع الله فيخبر عن كفرها

و يتزلزل المنافق عند المحن والبلايا وقيل في معنى الآية وما كان الله ليطلع محمدا على الغيب فيخبركم بالمؤمن من الكافر (ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء) يعني ولكن الله يصطفي و يختار من رسله من يشاء فيطلعه على ما يشاء من غيبه (فآمنوا بالله ورسله) يعني انه لما اقامت الدلائل على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فلم يبق الا الايمان بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وانما قال ورسله على الجمع ولم يقل ورسوله على التوحيد لقوله ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ولانه اذا أقر بجميع الرسل كان مقرا باحدهم وهذه صفة المؤمنين لانهم آمنوا بجميع الرسل (وان تؤمنوا وتتقوا) يعني وان تصدقوا من اجتبيته برسالتي وأطلعته على ما أشاء من غيبي وأعلمته بالمنافق منكم والمؤمن المخلص وتتقوا ربكم فيما أمركم به ونهاكم عنه (فلكم أجر عظيم) يعني فلكم بايمانكم واتقائكم ثواب جزيل وهو الجنة ﴿ قوله عز وجل (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم) يعني ولا يحسبن الذين يبخلون البخل خيرا لهم (بل هو) يعني البخل (شر لهم) والبخل هو امساك المقتنيات عما لا يستحق حبسها عنه والبخيل هو الذي يكثر منه البخل والآية دالة على ذم البخل عن عبد الله بن عمر قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اياكم والشح فانما هلك من كان قبلكم بالشح أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالفجور ففجروا أخرجه أبو داود وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خصلتان لا يجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب واختلف العلماء فيمن نزلت هذه الآية فقال عبد الله بن مسعود وأبو هريرة وابن عباس في رواية أبي صالح عنه والشعبي ومجاهد نزلت هذه الآية في الذين يبخلون أن يؤدوا زكاة أموالهم ووجه هذا القول ان أكثر العلماء ذهبوا الى ان البخل عبارة عن منع الواجب وان من منع التطوع لا يكون بخيلا ويدل عليه الوعيد الشديد في سياق الآية وهو قوله تعالى سيطوقون ما بخلوا به وهذا لا يكون الا في ترك الواجب لا في التطوع وقال ابن عباس في رواية عطية عنه وابن جريج عن مجاهد انها نزلت في أحبار اليهود الذين كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته وهذا القول هو اختيار الزجاج ووجه هذا القول ان البخل عبارة عن منع الخير والنفع ويدخل فيه العلم كما يقال بخل فلان بعلمه وصحح الطبري القول الاول واختاره ﴿ وقوله (سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) أي سيلزمون وبال ما بخلوا به الزام الطوق فان حملنا معنى الآية على منع الزكاة والبخل بها فقد قال ابن مسعود وابن عباس يجعل ما منعه من الزكاة حية تطوق في عنقه يوم القيامة تنهشه من فرقه الى قدمه ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه يعني شدقيه ثم يقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله الآية أخرجه البخاري قوله له زبيبتان قيل هما النكتتان السوداوان فوق عيني الحية وقيل هما نقطتان يكتنفان فاها وقيل هما زبيبتان في شدقيها وقد جاء في الحديث تفسير لهزمتيه بانهما شدقاه وقيل انهما مضغتان في أصل الحنك وقيل هو منحنى اللحيين أسفل من الاذنين وكله متقارب (ق) عن أبي ذر قال انتهيت الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس في ظل الكعبة فلما رآني قال هم الاخسرون ورب الكعبة قال فجئت حتى جلست فلم أتقار ان قمت فقلت يا رسول الله فداك أبي وأمي من هم قال هم الاكثرون أموالا الا من قال هكذا وهكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ما هم ما من صاحب ابل ولا بقر ولا غنم لا يؤدي زكاتها الا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه باظلافها كلما نفدت اخراها عادت عليه أولاها حتى يقضى بين الناس لفظ مسلم وفرقه البخاري بمعناه في موضعين وقيل في معنى الآية انه يجعل في أعناقهم أطواق من النار وقيل يكلفون يوم

وايمانها (ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء) أي ولكن الله يرسل الرسول فيوحي اليه ويخبره بان في الغيب كذا وان فلانا في قلبه النفاق وفلانا في قلبه الاخلاص فيعلم ذلك من جهة اخبار الله لا من جهة نفسه والآية حجة على الباطنية فانهم يدعون ذلك العلم لامامهم فان لم يثبتوا النبوة له صاروا مخالفين للنص حيث أثبتوا علم الغيب لغير الرسول وان أثبتوا النبوة له صاروا مخالفين لنص آخر وهو قوله وخاتم النبيين (فآمنوا بالله ورسله) بصفة الاخلاص (وان تؤمنوا وتتقوا) النفاق (فلكم أجر عظيم) في الآخرة ونزل في مانعي الزكاة (ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم) من قرأ بالتاء قدر مضافا محذوفا أي ولا تحسبن بخل الباخلين وهو فصل وخيرا لهم مفعول ثان وكذا من قرأ بالياء وجعل فاعل يحسبن ضمير رسول الله أو ضمير أحد ومن جعل فاعله الذين يبخلون كان التقدير ولا يحسبن الذين يبخلون بخلهم خيرا لهم وهو فصل وخيرا لهم مفعول ثان (بل هو) أي البخل (شر لهم) لان أموالهم ستزول عنهم ويبقى عليهم وبال البخل (سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامه) تفسير لقوله بل هو شر لهم أي سيجعل ما لهم الذي منعوه عن الحق طوقا في أعناقهم كما جاء في الحديث من منع زكاة ماله يصير حية ذكرا أقرع له نابان فيطوق في عنقه فينهشه ويدفعه الى النار

القيامة أن يأتوا بما بخلوا به من أموالهم فى الدنيا وان حملنا تفسير البخل على البخل بالعلم وكتمانه فقد قال ابن عباس فى قوله سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة أى يحملون وزره وإثمه فيكون على طريق التمثيل كما يقال قلدتك هذا الامر وجعلته فى عنقك وقيل يجعل فى رقابهم طوق من نار ويدل عليه ما روى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سئل علما يعلمه فكتمه ألجم بلجام من نار أخرجه الترمذى وفى رواية أبى داود من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة قيل فى معنى الحديث انهم لما سئلوا عن العلم فكتموه ولم ينطقوا به بألسنتهم ولم يخرجوه من أفواههم عوضوا عن ذلك بلجام من نار فى أفواههم عقوبة لهم والله أعلم ۞ قوله تعالى (ولله ميراث السموات والارض) يعنى انه سبحانه وتعالى الباقى الدائم بعد فناء خلقه وزوال أملاكهم فيموتون وتبقى أملاكهم فيرثها سبحانه والمقصود من الآية انه يبطل ملك جميع المالكين ويبقى الملك لله تعالى وقيل فى معنى الآية وله ما فيهما مما يتوارثه أهلهما من مال وعلم وغير ذلك فما لهؤلاء البخلاء يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه فى سبيله (والله بما تعملون خبير) قرئ يعملون بالياء على الغيبة على طريقة الالتفات وهى أبلغ فى الوعيد والمعنى والله بما يعملون يعنى البخلاء من منعهم الحقوق خبير فيجازيهم عليه وقرئ بالتاء على خطاب الحاضرين ۞ قوله عز وجل (لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء) قال الحسن وقتادة لما نزلت هذه الآية من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا قالت اليهود ان الله فقير يستقرض منا ونحن أغنياء وذكر الحسن ان القائل هذه المقالة هو حيى ابن أخطب وقال عكرمة والسدى ومقاتل ومحمد ابن اسحق كتب النبى صلى الله عليه وسلم مع أبى بكر الصديق الى يهود بنى قينقاع يدعوهم الى الاسلام والى اقامة الصلاة وايتاء الزكاة وان يقرضوا الله قرضا حسنا فدخل أبو بكر ذات يوم بيت مدراسهم فوجد ناسا كثيرا قد اجتمعوا على فنحاص بن عازوراء وكان من علمائهم ومعه حبر آخر يقال له اسبيع فقال أبو بكر لفنحاص اتق الله وأسلم فوالله انك لتعلم ان محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة فآمن وصدق وأقرض الله قرضا حسنا يدخلك الجنة ويضاعف لك الثواب فقال فنحاص يا أبا بكر تزعم ان ربنا يستقرض أموالنا وما يستقرض الا الفقير من الغنى فان كان ما تقول حقا فان الله اذا فقير ونحن أغنياء فغضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة وقال والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت عنقك يا عدو الله فذهب فنحاص الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا محمد انظر ما صنع بى صاحبك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابى بكر ما حملك على ما صنعت فقال يا رسول الله ان هذا عدو الله قال قولا عظيما زعم ان الله فقير وانهم أغنياء فغضبت لله وضربت وجهه فجحد ذلك فنحاص فأنزل الله تصديقا لابى بكر وتكذيبا لفنحاص وردا عليه لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء وهذه المقالة وان كانت قد صدرت من واحد من اليهود لكنهم يرضون بمقالته هذه فنسبت الى جميعهم ولا يخلوا أن يكونوا قالوا هذه المقالة عن اعتقاد لذلك القول أو قالوها استهزاء وأيهما كان فهذه المقالة عظيمة القبح لا تصدر عن عاقل وانما صدرت عن كافر متمرد فى كفره وضلاله (سنكتب ما قالوا) يعنى قولهم ان الله فقير ونحن أغنياء لان ذلك كذب وافتراء والمعنى سنحفظ عليهم ما قالوا وقيل سنثبت ذلك القول فى صحائف أعمالهم التى تكتبها الحفظة عليهم حتى يوافوا بها يوم القيامة فهو وعيد وتهديد لهم (وقتلهم الانبياء بغير حق) قيل معناه سنكتب ما قال هؤلاء اليهود ونكتب ما فعله أسلافهم فنجازى كلا الفريقين بما هو أهله وانما نسب قتل الانبياء الى اليهود الذين كانوا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وانما فعله أسلافهم وأوائلهم لانهم رضوا بفعلهم فنسب اليهم وقيل فى معنى الآية سنكتب على هؤلاء ما قالوا بأنفسهم ونكتب عليهم أيضا رضاهم بقتل آبائهم الانبياء والفائدة فى ضم قتلهم الانبياء الى ما وصفوا الله تعالى بالفقر الاعلام بذلك انهما اخوان فى العظم وان هذا القول منهم ليس

(ولله ميراث السموات والارض) وله ما فيهما مما يتوارثه أهلهما من مال وغيره فما لهم يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه فى سبيل الله والاصل فى ميراث موراث فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها (والله بما تعملون خبير) وبالياء مكى وأبو عمرو فالتاء على طريقة الالتفات وهو أبلغ فى الوعيد والياء على الظاهر (لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء) قال ذلك اليهود حين سمعوا قوله تعالى من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا وقالوا ان اله محمد يستقرض منا فنحن اذا أغنياء وهو فقير ومعنى سماع الله له انه لم يخف عليه وانه أعد له كفاءه من العقاب (سنكتب ما قالوا) سنأمر الحفظة بكتابة ما قالو فى الصحائف أو سنحفظه اذ الكتاب من الخلق ليحفظ ما فيه فسمى به مجازا وما مصدرية أو بمعنى الذى (وقتلهم الانبياء بغير حق) معطوف على ما جعل قتلهم الانبياء قرينة له ايذانا بانهما فى العظم أخوان وان من قتل الانبياء لم يستبعد منه الاجتراء على مثل هذا القول

باول ماارتكبوه من العظائم وانهم أصلاء في الكفر والجهل والضلال ولهم في ذلك سوابق وان من قتل الانبياء لايبعد منه الاجتراء على مثل هذا القول العظيم الفحش والقبح (ونقول) يعني لهؤلاء الذين قالوا هذه المقالة (ذوقوا عذاب الحريق) أي ننتقم منهم بان نقول لهم يوم القيامة ذوقوا عذاب الحريق كما أذقتم المسلمين الغصص في الدنيا (ذلك) أي ذلك العذاب المحرق جزاء فعلكم حيث وصفتم الله بالفقر وأقدمتم على قتل الانبياء (بما قدمت أيديكم) انما ذكر الايدي على سبيل المجاز لان الفاعل هو الانسان لا اليد الا ان اليد لما كانت آلة الفعل حسن اسناد الفعل اليها ولان أكثر الأعمال يكون باليد فجعل كل عمل كالواقع بالايدي على سبيل التغليب (وان الله ليس بظلام للعبيد) فيعذب بغير سبب بل هو سبحانه وتعالى عادل ومن العدل ان يعاقب المسيء ويثيب المحسن ۞ قوله عز وجل (الذين قالوا ان الله عهد الينا) قال الكلبي نزلت في كعب بن الاشرف ومالك بن صيفي ووهب بن يهوذا وزيد بن تابوت وفنحاص بن عازوراء وحيي بن أخطب من اليهود أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد تزعم ان الله بعثك الينا رسولا وأنزل عليك كتابا وان الله عهد الينا في التوراة ان لانؤمن لرسول يزعم انه جاء من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار فان جئتنا به صدقناك فأنزل الله تعالى الذين قالوا يعني قد سمع الله قول الذين قالوا ان الله عهد الينا يعني أمرنا وأوصانا في كتبه (أن لانؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار) يعني فيكون ذلك دليلا على صدقه وذكر الواحدي عن السدي انه قال ان الله تعالى أمر بني اسرائيل في التوراة من جاءكم يزعم انه رسول الله فلا تصدقوه حتى يأتيكم بقربان تأكله النار حتى يأتيكم المسيح ومحمد فاذا أتياكم فآمنوا بهما فانهما يأتيان بغير قربان زاد غير الواحدي عنه قال وكانت هذه العادة باقية فيهم الى مبعث المسيح عليه السلام ثم ارتفعت وزالت وقيل ان ادعاء هذا الشرط كذب على التوراة وهو من كذب اليهود وتحريفهم ويدل على ذلك ان المقصود في الدلالة على صدق النبي هو ظهور المعجزة الخارقة للعادة فأي معجزة أتى بها النبي قبلت منه وكانت دليلا على صدقه وقد أتى النبي صلى الله عليه وسلم بالمعجزات الباهرات الدالة على صدقه فوجب على كافة الخلق اتباعه وتصديقه والقربان كل مايتقرب به العبد الى الله عز وجل من أعمال البر من نسك وصدقة وذبح وكل عمل صالح ويدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم الصوم جنة والصلاة قربان يعني انها مما يتقرب بها الى الله عز وجل وكانت القرابين والغنائم لاتحل لبني اسرائيل وكانوا اذا قربوا قربانا أو غنموا غنيمة جمعوا ذلك وجاءت نار بيضاء من السماء لادخان لها ولها دوي وحفيف فتأكل ذلك القربان أو الغنيمة وتحرقه فيكون ذلك دليلا وعلامة على القبول واذا لم يقبل بقي على حاله ولم تنزل نار وقال عطاء كانت بنو اسرائيل يذبحون لله فيأخذون الثروب وأطايب اللحم فيضعونها في وسط بيت والسقف مكشوف فيقوم نبيهم عليه السلام في البيت ويناجي ربه عز وجل وبنو اسرائيل خارجون حول البيت فتنزل نار بيضاء لها دوي وحفيف ولادخان لها فتأكل ذلك القربان ثم قال الله عز وجل مجيبا عن هذه الشبهة التي ذكرها هؤلاء اليهود واقامة للحجة عليهم (قل) يعني قل يا محمد لهؤلاء اليهود (قد جاءكم) يعني يا معشر اليهود (رسل من قبلي) يعني مثل زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام (بالبينات) يعني بالدلالات الواضحات الدالة على صدقهم (وبالذي قلتم) يعني ماطلبوا من القربان (فلم قتلتموهم) يعني فلم قتلتم الانبياء الذين أتوا بما طلبتم منهم مثل زكريا ويحيى وسائر من قتلوا من الانبياء وأراد بذلك فعل أسلافهم وانما خاطب بذلك اليهود الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لانهم كانوا راضين بفعل أسلافهم (ان كنتم صادقين) يعني في دعواكم ومعناه تكذيبهم اياك يا محمد مع علمهم بصدقك كقتل آبائهم الانبياء مع اتيانهم بالقربان ثم قال تعالى مسليا لنبيه صلى

(ونقول) لهم يوم القيامة (ذوقوا عذاب الحريق) أي عذاب النار كما أذقتم المسلمين الغصص قال الضحاك يقول لهم ذلك خزنة جهنم وانما أضيف الى الله تعالى لانه بامره كما في قوله سنكتب سيكتب وقتلهم ويقول حمزة (ذلك) اشارة الى ماتقدم من عقابهم (بما قدمت أيديكم) أي ذلك العذاب بما قدمتم من الكفر والمعاصي والاضافة الى اليد لان أكثر الاعمال يكون بالايدي فجعل كل عمل كالواقع بالايدي على سبيل التغليب ولانه يقال للآمر بالشيء فاعله فذكر الايدي للتحقيق يعني انه فعل نفسه لاغيره بامره (وان الله ليس بظلام للعبيد) وبان الله لايظلم عباده فلا يعاقبهم بغير جرم (الذين قالوا) في موضع جر على البدل من الذين قالوا أو نصب باضمار أعني أو رفع باضمارهم (ان الله عهد الينا) أمرنا في التوراة وأوصانا (ان لانؤمن) بان لانؤمن (لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار) أي يقرب قربانا فتنزل نار من السماء فتأكله فان جئتنا به صدقناك وهذه دعوى باطلة وافتراء على الله لان أكل النار القربان سبب الايمان للرسول الآتي به لكونه معجزة فهو اذا وسائر المعجزات سواء (قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات) بالمعجزات سوى القربان (وبالذي قلتم) أي بالقربان يعني قد جاء أسلافكم الذين أنتم على ملتهم وراضون بفعلهم (فلم قتلتموهم) أي ان كان امتناعكم عن الايمان لاجل هذا فلم لم تؤمنوا بالذي أتوا به ولم قتلتموهم (ان كنتم صادقين) في قولكم انما نؤخر الايمان لهذا

(فان كذبوك فقد كذب رسل من قبلك) فان كذبك اليهود فلا يهولنك فقد فعلت الامم بانبيائها كذلك (جاؤا بالبينات) بالمعجزات الظاهرات (والزبر) الكتب جمع زبور من الزبر وهو الكتابة وبالزاي شامي (والكتاب) جنسه (المنير) المضيء وقيل هما واحد في الاصل وانما ذكر لاختلاف الوصفين فالزبور كتاب فيه حكم زاجرة والكتاب المنير هو الكتاب الهادي (كل نفس) مبتدأ والخبر (ذائقة الموت) وجاز الابتداء بالنكرة لما فيه من العموم والمعنى لا يحزنك تكذيبهم اياك فمرجع الخلق الى فاجازيهم على التكذيب وأجازيك على الصبر وذلك قوله (وانما توفون أجوركم يوم القيامة) أي تعطون ثواب أعمالكم على الكمال يوم قيامة فان الدنيا ليست بدار الجزاء (فمن زحزح) بعد والزحزحة الابعاد (عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) ظفر بالخير وقيل فقد حصل له الفوز المطلق وقيل الفوز نيل المحبوب والبعد عن المكروه (وما الحيوة الدنيا الا متاع الغرور) شبه الدنيا بالمتاع الذي يدلس به على المستام ويغر حتى يشتريه ثم يتبين له فساده ورداءته والشيطان هو المدلس الغرور وعن سعيد بن جبير انما هذا لمن آثرها على الآخرة فاما من طلب الآخرة بها فانها متاع بلاغ وعن الحسن كخضرة النبات ولعب البنات لا حاصل لها (لتبلون) والله لتبلون أي لتختبرن (في أموالكم) بالانفاق في سبيل الله وبما يقع فيها من الآفات (وأنفسكم) بالقتل والاسر والجراح وما يرد عليها من أنواع المخاوف والمصائب وهذه الآية دليل على ان النفس هي الجسم المعاين دون ما فيه من المعنى الباطن كما قال بعض أهل الكلام والفلاسفة كذا في شرح التأويلات

الله عليه وسلم (فان كذبوك) يعني هؤلاء اليهود (فقد كذب رسل من قبلك) يعني مثل نوح وهود وصالح وابراهيم وغيرهم من الرسل (جاؤا بالبينات) يعني بالدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات (والزبر) أي الكتب واحدها زبور وكل كتاب فيه حكمة فهو زبور وأصله من الزبر وهو الزجر وسمي الكتاب الذي فيه الحكمة زبورا لانه يزبر أي يزجر عن الباطل ويدعو الى الحق (والكتاب المنير) أي الواضح المضيء وانما عطف الكتاب المنير على الزبر لشرفه وفضله وقيل أراد بالزبر الصحف وبالكتاب المنير التوراة والانجيل ۞ قوله عز وجل (كل نفس ذائقة الموت) يعني ان كل نفس مخلوقة ذائقة الموت ولا بد لها منه قيل لما نزل قل يتوفاكم ملك الموت قالوا يا رسول الله انما نزلت في بني آدم فأين ذكر الموت للجن والانعام والوحوش والطير فنزلت هذه الآية وقيل لما خلق الله آدم عليه السلام اشتكت الارض الى ربها عز وجل مما أخذ منها فوعدها أن يرد فيها ما أخذ منها فما أحد يموت الا ويدفن في التربة التي خلق منها فان قلت الحور والولدان نفوس مخلوقة في الجنة لا تذوق الموت فما حكم لفظ كل في قوله كل نفس ذائقة الموت قلت لفظة كل لا تقتضي الشمول والاحاطة بدليل قوله تعالى وأوتيت من كل شيء ولم تؤت ملك سليمان فتكون الآية من العام المخصوص ويحتمل أن يكون المراد بهم المكلفين بدليل سياق الآية وهو قوله تعالى (وانما توفون أجوركم) يعني توفون جزاء أعمالكم (يوم القيامة) ان كان خيرا فخير وان كان شرا فشر (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) يعني فمن نحي وأبعد عن النار وأدخل الجنة فقد ظفر بالنجاة ونجا من الخوف (وما الحيوة الدنيا الا متاع الغرور) يعني أن العيش في هذه الدار الفانية يغر الانسان بما يمنيه من طول البقاء وسينقطع عن قريب فوصفت بانها متاع الغرور لانها تغر ببذل المحبوب وتخيل للانسان أنه يدوم وليس بدائم والمتاع كل ما استمتع به الانسان من مال وغيره وقيل المتاع كالفأس والقدر والقصعة ونحوها والغرور ما يغر الانسان مما لا يدوم وقيل الغرور الباطل ومعنى الآية أن منفعة الانسان بالدنيا كمنفعته بهذه الاشياء التي يستمتع بها ثم تزول عن قريب وقيل متاع متروك يوشك أن يضمحل ويزول فخذوا من هذا المتاع واعملوا فيه بطاعة الله ما استطعتم قال سعيد بن جبير هي متاع الغرور لمن لم يشتغل بطلب الآخرة فاما من اشتغل بطلب الآخرة فهي له متاع وبلاغ الى ما هو خير منها (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرؤا ان شئتم فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين زاد الترمذي وفي الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها واقرؤا ان شئتم وظل ممدود وموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها واقرؤا ان شئتم فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحيوة الدنيا الا متاع الغرور ۞ قوله عز وجل (لتبلون) اللام لام القسم تقديره والله لتبلون أي لتختبرن فيوقع عليكم المحن ليعلم المؤمن من غيره والاختبار طلب المعرفة ليعرف الجيد من الرديء وذلك في وصف الله محال لان الله تعالى عالم بحقائق الاشياء كلها قبل أن يخلقها فعلى هذا يكون معنى الاختبار في وصف الله تعالى أنه يعامل العبد معاملة المختبر (في أموالكم) يعني بالابتلاء في الاموال بالنقصان منها وقيل باداء ما فرض فيها من الحقوق (وأنفسكم) يعني بالمصائب والامراض والقتل وفقد الاقارب والعشائر خوطب بهذه الآية المسلمون ليوطنوا أنفسهم على احتمال الاذى وما سيلقون من الشدائد والمصائب ليصبروا على ذلك حتى اذا لقوها لقوها وهم مستعدون بالصبر لها لا يرهقهم ما يرهق غيرهم ممن تصيبه الشدة بغتة فينكرها ويشمئز منها

(ولتسمعن

(ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا) قال عكرمة نزلت في أبي بكر الصديق وفنحاص بن عازوراء وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر الى فنحاص سيد بني قينقاع يستمده وكتب اليه معه كتابا وقال لابي بكر لا تفتاتن علي بشيء حتى ترجع فجاء أبو بكر وهو متوشح بالسيف الى فنحاص وأعطاه الكتاب فلما قرأه قال فنحاص قد احتاج ربك حتى نمده فهم أبو بكر أن يضربه بالسيف ثم ذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم لا تفتاتن علي بشيء حتى ترجع فنزلت الآية وقال الزهري نزلت هذه الآية في النبي صلى الله عليه وسلم وكعب بن الاشرف اليهودي وذلك انه كان يهجو النبي صلى الله عليه وسلم ويسب المسلمين ويحرض المشركين على قتالهم في شعره (ق) عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لكعب بن الاشرف فانه قد آذى الله ورسوله قال محمد بن مسلمة أتحب أن أقتله قال نعم قال ائذن لي فلأقل قال قل قال فأتاه فقال له وذكر ما بينهم وقال ان هذا الرجل قد أراد الصدقة وقد عنانا فلما سمعه قال وأيضا والله لتملنه قال انا قد اتبعناه ونكره الآن أن ندعه حتى ننظر الى أي شيء يصير أمره قال وقد أردت أن تسلفني سلفا قال فما ترهنني أترهنني نساءكم قال أنت أجمل العرب أنرهنك نساءنا قال له ترهنون أولادكم قال يسب ابن أحدنا فيقال رهن في وسقين من تمر ولكن نرهنك اللامة يعني السلاح قال نعم وواعده ان يأتيه بالحرث وأبي عبس بن جبر وعباد بن بشر قال فجاؤا فدعوه ليلا فنزل اليهم قالت امرأته اني لاسمع صوتا كانه صوت دم قال انما هو محمد ورضيعي أبو نائلة ان الكريم لو دعي الى طعنة ليلا لاجاب قال محمد اني اذا جاء فسوف أمد يدي الى رأسه فاذا استمكنت منه فدونكم قال فلما نزل نزل وهو متوشح فقالوا نجد منك ريح الطيب قال نعم تحتي فلانة أعطر نساء العرب قال فتأذن لي ان أشم منه قال نعم فشم فتناول فشم ثم قال أتأذن لي ان أعود قال فاستمكن من رأسه ثم قال دونكم فقتلوه زاد في رواية ثم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه وزاد أصحاب السير والمغازي فاختلف عليه أسيافهم فلم تغن شيأ قال محمد بن مسلمة فذكرت مغولا في سيفي فأخذته وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصن الا أوقدت عليه نار قال فوضعته في ثندوته ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته ووقع عدو الله وقد أصيب الحرث بن أوس بجرح في رأسه أصابه بعض أسيافنا فخرجنا وقد أبطأ علينا صاحبنا الحرث ونزفه الدم فوقفنا له ساعة حتى أتانا يتبع آثارنا فحملناه وجئنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر الليل وهو قائم يصلي فسلمنا عليه فخرج علينا فأخبرناه بقتل كعب بن الاشرف وجئنا برأسه اليه وتفل على جرح صاحبنا فرجعنا الى أهلنا وأصبحنا وقد خافت اليهود وقعتنا بعدو الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ظفرتم به من رجال اليهود فاقتلوه وأنزل الله عز وجل في شأن كعب بن الاشرف اليهودي لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم يعني اليهود والنصارى ومن الذين أشركوا يعني مشركي العرب أذى كثيرا يعني بالاذى قول اليهود ان الله فقير ونحن أغنياء وما أشبه ذلك من افترائهم وكذبهم على الله ورسوله وما كان كعب بن الاشرف يهجو به النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين فهذا هو الاذى الكثير (وان تصبروا وتتقوا) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمسلمين يعني وان تصبروا على أذاهم وتتقوا فيما أمركم به ونهاكم عنه لان الصبر عبارة عن احتمال الاذى والمكروه والتقوى عبارة عن الاحتراز عما لا ينبغي (فان ذلك من عزم الامور) أي من صواب التدبير الذي لا شك ان الرشد فيه ولا ينبغي لعاقل تركه وأصله من قولك عزمت عليك أن تفعل كذا أي ألزمتك أن تفعله لا محالة ولا تتركه وقيل معناه فان ذلك مما قد عزم عليكم فعله أي ألزمتم الاخذ به ۞ قوله تعالى (واذ أخذ الله) أي واذكر يا محمد وقت اذ أخذ الله (ميثاق الذين أوتوا الكتاب) يعني اليهود والنصارى والمراد منهم العلماء خاصة وقيل المراد بالذين أوتوا الكتاب العلماء والاحبار من اليهود خاصة وأخذ الميثاق هو التوكيد والالزام لبيان ما أوتوه من الكتاب وهو قوله تعالى (لتبيننه للناس) يعني ليبينن ما في الكتاب وليظهرنه للناس حتى

(ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) يعني اليهود والنصارى (ومن الذين أشركوا أذى كثيرا) كالطعن في الدين وصد من أراد الايمان وتخطئة من آمن ونحو ذلك (وان تصبروا) على أذاهم وتتقوا المخالفة أمر الله (فان ذلك) فان الصبر والتقوى (من عزم الامور) من معزومات الامور أي مما يجب العزم عليه من الامور خوطب المؤمنون بذلك ليوطنوا أنفسهم على احتمال ما سيلقون من الشدائد والصبر عليها حتى اذا لقوها وهم مستعدون لا يرهقهم ما يرهق من تصيبه الشدة بغتة فينكرها وتشمئز منها نفسه (واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب) واذكر وقت أخذ الله ميثاق أهل الكتاب (لتبيننه للناس

يعلموه وذلك ان الله أوجب على علماء التوراة والانجيل أن يشرحوا للناس ما في هذين الكتابين من الدلائل الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (ولا يكتمونه) يعني ولا يخفون ذلك عن الناس (فنبذوه) يعني الكتاب وقيل الميثاق (وراء ظهورهم) أي فطرحوه وضيعوه وتركوا العمل به (واشتروا به ثمنا قليلا) يعني المآكل والرشا التي كانوا يأخذونها من عوامهم وسفلتهم (فبئس ما يشترون) ذمهم الله تعالى على فعلهم ذلك واعلم ان ظاهر هذه الآية وان كان مخصوصا بعلماء أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى فلا يبعد ان يدخل فيه علماء هذه الامة الاسلامية لانهم أهل كتاب وهو القرآن وهو أشرف الكتب قال قتادة هذا ميثاق أخذه الله تعالى على أهل العلم فمن علم شيئا فليعلمه واياكم وكتمان العلم فانه هلكة وقال أيضا مثل علم لا يقال به كمثل كنز لا ينفق منه ومثل حكمة لا تخرج كمثل صنم لا يأكل ولا يشرب وقال أيضا طوبى لعالم ناطق ومستمع واع هذا علم علما فبذله وهذا سمع خيرا فقبله ووعاه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سئل علما يعلمه فكتمه ألجم بلجام من نار أخرجه الترمذي ولابي داود من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة وقال أبو هريرة لولا ما أخذ الله عز وجل على أهل الكتاب ما حدثتكم بشئ ثم تلا هذه الآية واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب الآية وقال الحسن بن عمارة أتيت الزهري بعد ان ترك الحديث فالفيته على بابه فقلت أريد أن تحدثني فقال أما علمت أني قد تركت الحديث فقلت اما ان تحدثني واما أن أحدثك قال حدثني فقلت حدثني الحكم بن عيينة عن يحيى بن الخراز قال سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا قال فحدثني أربعين حديثا قوله عز وجل (لا تحسبن الذين يفرحون) قرئ بالتاء على الخطاب أي لا تحسبن يا محمد الفارحين الذين يفرحون وقرئ بالياء على الغيبة يعني ولا يحسبن الفارحون والمعنى لا يحسبن الذين يفرحون فرحهم منجيا لهم من العذاب نزلت هذه الآية في المنافقين (ق) عن أبي سعيد الخدري أن رجالا من المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتذروا اليه وحلفوا له وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا فنزلت لا يحسبن الذين يفرحون بما أتوا الآية وقيل نزلت في اليهود (ق) عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف ان مروان قال اذهب يا رافع لبوابه الى ابن عباس فقل لئن كان كل امرئ منا فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لنعذبن أجمعون قال ابن عباس ما لكم ولهذه الآية انما نزلت هذه الآية في أهل الكتاب ثم تلا ابن عباس واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس الآية وتلا ابن عباس لا يحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا وقال ابن عباس سألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شئ فكتموه اياه وأخبروه بغيره فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا اليه بذلك وفرحوا بما أتوا من كتمانهم اياه ما سألهم عنه (بما أتوا) يعني يفرحون بما فعلوا (ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا) أي ويحبون أن يحمدهم الناس على شئ لم يفعلوه قيل عنى بذلك قوما من أحبار اليهود كانوا يفرحون باضلالهم الناس ونسبة الناس اياهم الى العلم قال ابن عباس واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب الى قوله ولهم عذاب أليم يعني فنحاص واشيع واشباههما من الاحبار الذين يفرحون بما يصيبون من الدنيا على ما زينوا للناس من الضلالة ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا أي بقول الناس لهم علماء وليسوا باهل علم وقيل هم اليهود فرحوا باجتماع كلمتهم على تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وذلك أنهم كتبوا الى يهود العراق والشام واليمن ومن بلغهم كتابهم من اليهود في الارض كلها ان محمدا ليس بنبي فاثبتوا على دينكم فاجتمعت كلمتهم على الكفر ففرحوا بذلك وقالوا نحن أهل الصوم والصلاة وأحبوا أن يحمدوا على ذلك وقيل فرحوا بما أتوا من تبديلهم التوراة وأحبوا أن يحمدهم الناس

(ولا تكتمونه) عن الناس بالتاء على حكاية مخاطبتهم كقوله وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن وبالياء مكي وأبو عمرو وأبو بكر لانهم غيب والضمير للكتاب أكد عليهم ايجاب الكتاب واجتناب كتمانه (فنبذوه وراء ظهورهم) فنبذوا الميثاق وتأكيده عليهم أي لم يراعوه ولم يلتفتوا اليه والنبذ وراء الظهر مثل في الطرح وترك الاعتداد وهو دليل على أنه يجب على العلماء ان يبينوا الحق للناس وما علموه وأن لا يكتموا منه شيئا لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة وتطييب لنفوسهم أو لجر منفعة أو دفع أذية أو لبخل بالعلم وفي الحديث من كتم علما عن أهله ألجمه الله بلجام من نار (واشتروا به ثمنا قليلا) عرضا يسيرا (فبئس ما يشترون) والخطاب في (لا تحسبن) لرسول الله واحد المفعولين (الذين يفرحون) والثاني بمفازة وقوله فلا تحسبنهم تأكيد تقديره لا تحسبنهم فلا تحسبنهم فائزين (بما أتوا) بما فعلوا وهي قراءة أبي وجاء وأتى يستعملان بمعنى فعل انه كان وعده مأتيا لقد جئت شيئا فريا وقرأ النخعي بما آتوا أي أعطوا (ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا

على

فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب) بمنجاة منه (ولهم عذاب أليم) مؤلم روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سال اليهود عن شئ مما في التوراة فكتموا الحق وأخبروه بخلافه وأروه انهم قد صدقوه واستحمدوا اليه وفرحوا بما فعلوا من تدليسهم فاطلع الله رسوله على ذلك وسلاه بما أنزل من وعيدهم أي لا تحسبن اليهود الذين يفرحون بما فعلوا من تدليسهم عليك ويحبون أن تحمدهم بما لم يفعلوا من اخبارك بالصدق عما سالتهم عنه ناجين من العذاب وقيل هم المنافقون يفرحون بما أتوا من اظهار الايمان للمسلمين وتوصلهم بذلك الى أغراضهم و يستحمدون اليهم بالايمان الذي لم يفعلوه على الحقيقة وفيه وعيد لمن ياتي بحسنة فيفرح بها فرح اعجاب ويحب أن يحمده الناس بما ليس فيه (ولله ملك السموات والارض) فهو يملك أمرهما وفيه تكذيب لمن قال ان الله فقير (والله على كل شئ قدير) فهو يقدر على عقابهم (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات) لادلة واضحة على صانع قديم عليم حكيم قادر (لاولي الالباب) لمن خلص عقله عن الهوى خلوص اللب عن القشر فيرى ان العرض المحدث في الجواهر يدل على حدوث الجواهر لان جوهرا ما لا ينفك عن عرض حادث وما لا يخلو عن الحادث فهو حادث ثم حدوثها يدل على محدثها وذا قديم والا لاحتاج الى محدث آخر الى ما لا يتناهى وحسن صنعه يدل على علمه واتقانه يدل على حكمته وبقاؤه يدل على قدرته قال عليه السلام ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها وحكى أن في بني اسرائيل من اذا عبد الله ثلاثين سنة أظلته سحابة فعبدها فتى فلم تظله فقالت له أمه لعل فرطة فرطت منك في مدتك قال ما أذكر قالت لعلك نظرت مرة الى السماء ولم تعتبر قال لعل قالت فما أوتيت الا من ذلك (الذين) في موضع جر نعت لاولي أو نصب باضمار أعني أو رفع باضمارهم (يذكرون الله) يصلون (قياما) قائمين عند القدرة (وقعودا) قاعدين (وعلى جنوبهم) أي مضطجعين عند العجز وقياما وقعودا حالان من ضمير الفاعل في يذكرون وعلى جنوبهم حال أيضا أو المراد الذكر على كل حال لان الانسان لا يخلو عن هذه الاحوال وفي الحديث من أحب ان يرتع في رياض الجنة فليكثر

على ذلك وقيل ان يهود خيبر أتت الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا نحن نعرفك ونصدقك وقالوا لاصحابه نحن على رأيكم ونحن لكم ردء وليس ذلك في قلوبهم وأحبوا أن يحمدهم النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون على ذلك (فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب) أي فلا تظننهم بمنجاة من العذاب الذي أعده الله لهم في الدنيا من القتل والاسر وضرب الجزية والذلة والصغار (ولهم عذاب أليم) يعني في الآخرة وهذه الآية وان كانت قد نزلت في اليهود أو المنافقين خاصة فان حكمها عام في كل من أحب ان يحمد بما لم يفعل من الخير والصلاح أو ينسب الى العلم وليس هو كذلك ۞ قوله عز وجل (ولله ملك السموات والارض) يعني انه تعالى مالك لما فيهما جميعا يتصرف فيه كيف يشاء وفيه تكذيب لمن قال ان الله فقير ونحن أغنياء يقول الله عز وجل ان من له جميع ما حوته السموات والارض من شئ كيف يكون فقيرا (والله على كل شئ قدير) يعني انه تعالى قادر على تعجيل العقوبة لهم على ذلك القول لكنه تفضل على خلقه بامهالهم ۞ قوله عز وجل (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب) قال ابن عباس ان أهل مكة سالوا النبي صلى الله عليه وسلم ان ياتيهم باية فنزلت هذه الآية والمعنى تفكروا واعتبروا أيها الناس فيما خلقته وأنشأته من السموات والارض لمعاشكم وأرزاقكم وفيما عقبت من ذلك بين الليل والنهار واختلافهما في الطول والقصر لمصلحتهما يختلفان و يعتقبان عليكم لكي تتصرفوا فيهما لمعاشكم تطلبون أرزاقكم في النهار وتسكنون في الليل لراحة أجسادكم فاعتبروا وتفكروا يا أولي الالباب يعني يا ذوي العقول الصافية يعني الذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال والاعتبار لا ينظرون اليهما نظر البهائم غافلين عما فيهما من عجائب مخلوقاته وغرائب مبتدعاته (ق) عن ابن عباس أنه بات عند ميمونة أم المؤمنين وهي خالته قال فقلت لانظرن الى صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فطرحت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وسادة فاضطجعت في عرض الوسادة واضطجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله في طولها فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل ثم استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده ثم قرأ العشر آيات الخواتيم من سورة آل عمران ثم قام الى شن معلقة فتوضأ منها فاحسن وضوءه ثم قام يصلي قال عبد الله بن عباس فقمت فصنعت مثل ما صنع ثم ذهبت فقمت الى جنبه فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده اليمنى على رأسي وأخذ باذني ففتلها فصلى ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم أوتر ثم اضطجع حتى جاء المؤذن فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم خرج فصلى الصبح وفي رواية فقمت عن يساره فاخذني فجعلني عن يمينه وفي رواية قال بت في بيت خالتي ميمونة فتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهله ساعة ثم رقد فلما كان ثلث الليل الاخير قعد فنظر الى السماء فقال ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب وذكره ۞ قوله تعالى (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) قال علي بن أبي طالب وابن مسعود وابن عباس وقتادة هذا في الصلاة يعني الذين يصلون قياما فان عجزوا فقعودا فان عجزوا فعلى جنوبهم والمعنى انهم لا يتركون الصلاة في حال من

الاحوال بل يصلون فى كل حال (خ) عن عمران بن حصين قال كانت بى بواسير فسألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فقال صل قائما فان لم تستطع فقاعدا فان لم تستطع فعلى جنب أخرجه الترمذى وقال فيه سألته عن صلاة المريض وذكر نحوه وقال الشافعى رضى الله تعالى عنه اذا صلى المريض مضطجعا وجب عليه أن يصلى على جنب ويومئ برأسه ايماء وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى بل يصلى مستلقيا على ظهره فان وجد خفة قعد وحجة الشافعى ظاهر الآية وهو قوله تعالى وعلى جنوبهم وقوله صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين فان لم تستطع فعلى جنب فنص على الجنب دون غيره وقال أكثر المفسرين المراد به المداومة على الذكر فى غالب الاحوال لان الانسان قل ان يخلو من احدى هذه الثلاث حالات وهى القيام والقعود وكونه نائما على جنبه (م) عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله عز وجل فى كل أحيانه عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قعد مقعدا لم يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة ومن اضطجع مضطجعا لا يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة وما مشى أحد ممشى لا يذكر الله فيه الا كانت عليه من الله ترة أخرجه أبو داود والترة النقص وقيل هى هنا التبعة ۞ وقوله تعالى (ويتفكرون فى خلق السموات والارض) أصل الفكر اعمال الخاطر فى الشئ وتردد القلب فى ذلك الشئ وهو قوة متطرقة للعلم الى المعلوم والتفكر جريان تلك القوة بحسب نظر العقل ولا يمكن التفكر الا فيما له صورة فى القلب ولهذا قيل تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله اذ الله منزه ان يوصف بصورة فلذلك أخبر عن عباده الصالحين بانهم يتفكرون فى خلق السموات والارض وما أبدع الله فيهما من عجائب مصنوعاته وغرائب مبتدعاته ليدلهم ذلك على كمال قدرة الصانع سبحانه وتعالى ويعلموا ان لهما خالقا قادرا مدبرا حكيما لان عظم آثاره وافعاله تدل على عظم خالقها سبحانه وتعالى كما قيل

وفى كل شئ له آية ۞ تدل على انه واحد

وقيل ان الفكر مقلوب عن الفرك لان الفكر مستعمل فى المعانى وهو فرك الامور وبحثها طلبا للوصول الى حقيقتها وقيل الفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشية كما يحدث الماء للزرع النماء وما جليت القلوب بمثل الاحزان ولا استنارت بمثل الفكرة (ربنا) أى ويقولون ربنا وقيل معناه ويتفكرون فى خلق السموات والارض قائلين ربنا (ما خلقت هذا باطلا) يعنى عبثا وهزلا بل خلقته دليلا على وحدانيتك وكمال قدرتك (سبحانك) تنزيها لك عن أن تخلق شيأ عبثا لغير حكمة (فقنا عذاب النار) يعنى انا قد صدقنا بوحدانيتك وان لك جنة ونارا فقنا عذاب النار والمقصود من قوله سبحانك فقنا عذاب النار تعليم عباده كيفية الدعاء فمن أراد أن يدعو فليقدم الثناء على الله أولا ويدل عليه قوله سبحانك وبعد ذلك الثناء يأتى بالدعاء ويدل عليه قوله فقنا عذاب النار (ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته) أى أهنته وأذللته وقيل أهلكته وقيل فضحته وأبلغت فى ايذائه والخزى ضرب من الاستخفاف أو انكسار يلحق الانسان وهو الحياء المفرط فان قلت قد تمسكت المعتزلة بهذه الآية وقالوا قد أخبر الله انه لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه فوجب ان كل من يدخل النار لا يكون مؤمنا ولقوله انك من تدخل النار فقد أخزيته والمؤمن لا يخزى قلت قد ذكر العلماء فى الجواب وجوها أحدها ما روى عن أنس فى تفسير قوله تعالى انك من تدخل النار فقد أخزيته قال من يخلده وروى نحوه عن سعيد بن المسيب قال هى خاصة لمن لا يخرج منها وهذا الجواب انما يصح على مذهب أهل السنة الذين يرون اخراج الموحدين من النار أما على مذهب المعتزلة فلا يصح هذا الجواب لان مذهبهم ان الفاسق يخلد فى النار فهو داخل فى قوله تعالى فقد أخزيته الوجه الثانى

ذكر الله (ويتفكرون فى خلق السموات والارض) وما يدل عليه اختراع هذه الاجرام العظام وابداع صنعتها وما دبر فيها مما تتكل الافهام عن ادراك بعض عجائبه على عظم شأن الصانع وكبريائه سلطانه وعن النبى عليه السلام بينا رجل مستلق على فراشه اذ رفع رأسه فنظر الى النجوم والى السماء فقال أشهد أن لك ربا وخالقا اللهم اغفر لى فنظر الله اليه فغفر له وقال عليه السلام لا عبادة كالتفكر وقيل الفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشية وما جليت القلوب بمثل الاحزان ولا استنارت بمثل الفكر (ربنا ما خلقت هذا باطلا) أى يقولون ذلك وهو فى محل الحال أى يتفكرون قائلين والمعنى ما خلقته خلقا باطلا بغير حكمة بل خلقته لحكمة عظيمة وهو أن تجعلها مساكن للمكلفين وأدلة لهم على معرفتك وهذا اشارة الى الخلق على أن المراد به المخلوق أو الى السموات والارض لانها فى معنى المخلوق كأنه قيل ما خلقت هذا المخلوق العجيب باطلا (سبحانك) تنزيها لك عن الوصف بخلق الباطل وهو اعتراض (فقنا عذاب النار) الفاء دخلت لمعنى الجزاء تقديره اذا نزهناك فقنا (ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته) أهنته أو أهلكته أو فضحته واحتج أهل الوعيد بالآية مع قوله يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه فى أن من يدخل النار لا يكون مؤمنا ويخلد قلنا قال جابر اخزاء المؤمن تاديبه وان فوق ذلك لخزيا

فى

في الجواب أن المدخل في النار مخزي في حال دخوله وان كانت عاقبته ان يخرج منها ومعنى الآية على هذا فقد أخزيته بدخوله فيها وتعذيبه بها ويدل على صحة هذا المعنى ما روي عن عمرو بن دينار قال قدم علينا جابر ابن عبد الله في عمرة فانتهيت اليه أنا وعطاء فسألته عن هذه الآية ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته فقال وما أخزاه حين أحرقه بالنار ان دون ذا الخزيا وهذا الوجه هو اختيار ابن جرير الطبري لان من أدخل النار فقد أخزي بدخوله اياها وان أخرج منها وذلك الخزي هو هتك المخزي وفضيحته وقال ابن الانباري حمل الآية على العموم أولى من نقلها الى الخصوص اذ لا دليل عليه الوجه الثالث في الجواب ما قاله أهل المعاني وهو ان الخزي يحتمل معاني منها الاهانة والاهلاك والابعاد وهذا للكفار ومنها الاخجال يقال خزي خزاية اذا استحى واذا عمل عملا يستحي منه ويخجل فيكون خزي المؤمن الذي يدخل النار الحياء من المؤمنين بدخوله النار الى أن يخرج منها وخزي الكافر الهلاك بالخلود في النار وحاصل هذا الجواب ان لفظ الاخزاء مشترك بين التخجيل والاهلاك واللفظ المشترك لا يمكن حمله في طرفي النفي والاثبات على معنييه جميعا وهذا يسقط الاستدلال الوجه الرابع في الجواب وهو الذي اختاره الفخر الرازي وصححه أن قوله تعالى يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه لا يقتضي نفي الاخزاء مطلقا وانما يقتضي أن لا يحصل الاخزاء حال ما يكونون مع النبي وهذا النفي لا يناقضه اثبات الاخزاء في الجملة لاحتمال أن يحصل ذلك الاثبات في وقت آخر والله أعلم وقوله تعالى (وما للظالمين) يعني المشركين الذين وضعوا العبادة في غير موضعها (من أنصار) يعني ينصرونهم يوم القيامة ويمنعونهم من العذاب ۞ قوله عز وجل (ربنا اننا سمعنا مناديا ينادي للايمان) قال ابن عباس وأكثر المفسرين المنادي هو محمد صلى الله عليه وسلم ويدل على صحة هذا قوله تعالى ادع الى سبيل ربك بالحكمة وقوله وداعيا الى الله باذنه وقال محمد بن كعب القرظي المنادي هو القرآن قال اذ ليس كل أحد لقي النبي صلى الله عليه وسلم ووجه هذا القول أن كل أحد يسمع القرآن ويفهمه فاذا وفقه الله تعالى للايمان به فقد فاز به وذلك لان القرآن مشتمل على الرشد والهدى وأنواع الدلائل الدالة على الوحدانية فصار كالداعي اليها واللام في للايمان بمعنى الى يعني ينادي الى الايمان (أن آمنوا بربكم فآمنا) أي فصدقنا (ربنا فاغفر لنا ذنوبنا) أي كبائر ذنوبنا (وكفر عنا سيآتنا) أي صغائر ذنوبنا وقيل ان الغفر هو الستر والتغطية وكذلك التكفير فهما بمعنى واحد وانما ذكرهما للتأكيد لان الالحاح في الدعاء والمبالغة فيه مندوب اليه وقيل معناه اغفر لنا ما تقدم من ذنوبنا وكفر عنا سيآتنا في المستقبل وقيل يريد بالغفران ما يزول بالتوبة من الذنوب وبالتكفير ما يكفر بالطاعات من الذنوب (وتوفنا مع الابرار) يعني في جملتهم وزمرتهم والابرار هم الانبياء والصالحون والمعنى توفنا على مثل أعمالهم حتى نكون في درجتهم يوم القيامة وقيل توفنا في جملة أتباعهم وأشياعهم (ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك) يعني على ألسنة رسلك وقيل معناه وآتنا ما وعدتنا على تصديق رسلك فان قلت كيف سألوا الله انجاز ما وعد والله لا يخلف الميعاد قلت معناه أنهم طلبوا من الله تعالى التوفيق فيما يحفظ عليهم أسباب انجاز الميعاد وقيل هو من باب اللجا الى الله تعالى والتذلل له واظهار الخضوع والعبودية كما أن الانبياء عليهم السلام يستغفرون الله مع علمهم انهم مغفور لهم يقصدون بذلك التذلل لربهم سبحانه وتعالى والتضرع اليه واللجأ اليه الذي هو سيما العبودية وقيل معناه ربنا واجعلنا ممن يستحق ثوابك وتؤتيهم ما وعدتهم على ألسنة رسلك لانهم لم يتيقنوا استحقاقهم لتلك الكرامة فسألوه أن يجعلهم مستحقين لها وقيل انما سألوه تعجيل ما وعدهم من النصر على الاعداء قالوا قد علمنا انك لا تخلف الميعاد ولكن لا صبر لنا على حلمك فعجل هلاكهم وانصرنا عليهم (ولا تخزنا يوم القيامة) يعني ولا تهلكنا ولا تفضحنا ولا تهنا في ذلك اليوم فان قلت قوله وآتنا ما وعدتنا على رسلك يدل على طلب

(ربنا اننا سمعنا مناديا) تقول سمعت رجلا يقول كذا فتوقع الفعل على الرجل وتحذف المسموع لانك وصفته بما يسمع فاغناك عن ذكره ولولا الوصف لم يكن منه بد وان يقال يقال سمعت كلام فلان والمنادي هو الرسول عليه السلام أو القرآن (ينادي للايمان) لاجل الايمان بالله وفيه تفخيم لشأن المنادي اذ لا منادي أعظم من مناد ينادي للايمان (أن آمنوا) بان آمنوا أو أي آمنوا (بربكم فآمنا) قال الشيخ أبو منصور رحمه الله فيه دليل بطلان الاستثناء في الايمان (ربنا فاغفر لنا ذنوبنا) كبائرنا (وكفر عنا سيآتنا) صغائرنا (وتوفنا مع الابرار) مخصوصين بصحبتهم معدودين في جملتهم والابرار المتمسكون بالسنة جمع بر أو بار كرب وأرباب وصاحب وأصحاب (ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك) أي على تصديق رسلك أو ما وعدتنا منزلا على رسلك أو على ألسنة رسلك وعلى متعلق بوعدتنا والموعود هو الثواب أو النصرة على الاعداء وانما طلبوا انجاز ما وعد الله والله لا يخلف الميعاد لان معناه طلب التوفيق فيما يحفظ عليهم أسباب انجاز الميعاد أو المراد اجعلنا ممن لهم الوعد اذ الوعد غير مبين لمن هو أو المراد ثبتنا على ما يوصلنا الى عدتك يؤيده قوله (ولا تخزنا يوم القيامة) أو هو اظهار للخضوع

والضراعة (انك لا تخلف الميعاد) هو مصدر بمعنى الوعد (فاستجاب لهم ربهم) أي أجاب يقال استجاب له واستجابه (أني) بأني (لا أضيع
عمل عامل منكم) منكم صفة لعامل (من ذكر أو أنثى) بيان لعامل (بعضكم من بعض) الذكر من الانثى
والانثى من الذكر كلكم
بنو آدم أو بعضكم من
بعض في النصرة والدين
وهذه جملة معترضة بينت
بها شركة النساء مع الرجال
فيما وعد الله عباده العاملين
وعن جعفر الصادق رضي
الله عنه من حزبه أمر فقال
خمس مرات ربنا أنجاه الله
مما يخاف وأعطاه ما أراد
وقرأ الآيات (فالذين
هاجروا) مبتدأ وهو تفصيل
لعمل العامل منهم على
سبيل التعظيم له كأنه قال
فالذين عملوا هذه الأعمال
السنية الفائقة وهي
المهاجرة عن أوطانهم فارين
الى الله بدينهم الى حيث
يأمنون عليه فالهجرة
كائنة في آخر الزمان كما كانت
في أول الاسلام (وأخرجوا
من ديارهم) التي ولدوا فيها
ونشؤا (وأوذوا في سبيلي)
بالشتم والضرب ونهب
المال يريد سبيل الدين
(وقاتلوا وقتلوا) وغزوا
المشركين واستشهدوا
وقتلوا مكي وشامي وقتلوا
وقاتلوا على التقديم والتأخير
حمزة وعلي وفيه دليل على
ان الواو لا توجب الترتيب
والخبر (لا كفرن عنهم
سيآتهم ولادخلنهم جنات تجري من تحتها الانهار) وهو جواب قسم محذوف (ثوابا) في موضع لهم
المصدر المؤكد يعني اثابة أو تثويبا (من عند الله) لان قوله لا كفرن عنهم ولادخلنهم في معنى لاثيبنهم (والله عنده حسن الثواب) أي
يختص به ولا يقدر عليه غيره وروي ان طائفة من المؤمنين قالوا ان أعداء الله فيما نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع فنزل

الثواب ومتى حصل الثواب اندفع العقاب لا محالة فما معنى قوله ولا تخزنا وهو طلب دفع العقاب عنهم قلت المقصود من الآية طلب التوفيق على الطاعة والعصمة عن فعل المعصية كأنهم قالوا وفقنا للطاعات واذا وفقتنا لها فاعصمنا عن فعل ما يبطلها ويوقعنا في الخزي وهو الهلاك ويحتمل أن يكون قوله ولا تخزنا يوم القيامة سببا لقوله تعالى وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون فانه ربما يظن الانسان انه على عمل صالح فاذا كان يوم القيامة ظهر انه على غير ما يظن فيحصل الخجل والحسرة والندامة في موقف القيامة فسألوا الله تعالى أن يزيل ذلك عنهم فقالوا ولا تخزنا يوم القيامة (انك لا تخلف الميعاد) ﴿ قوله تعالى (فاستجاب لهم ربهم) يعني أجاب دعاءهم وأعطاهم ما سألوه (أني) أي وقال لهم اني (لا أضيع عمل عامل منكم) يعني لا أحبط عملكم أيها المؤمنون بل أثيبكم عليه (من ذكر أو أنثى) يعني لا أضيع عمل عامل منكم ذكرا كان أو أنثى عن أم سلمة قالت قلت يا رسول الله ما أسمع الله تعالى ذكر النساء في الهجرة بشيء فأنزل الله تعالى أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض الى والله عنده حسن الثواب أخرجه الترمذي وغيره ﴿ وقوله تعالى (بعضكم من بعض) يعني في الدين والنصرة والموالاة وقيل كلكم من آدم وحواء وقيل من بمعنى الكاف أي بعضكم كبعض في الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية فهو كما يقال فلان مني يعني على خلقي وسيرتي وقيل ان الرجال والنساء في الطاعة على شكل واحد (فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي) يعني المهاجرين الذين هجروا أوطانهم وأهليهم وآذاهم المشركون بسبب اسلامهم ومتابعتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرجوا مهاجرين الى الله ورسوله وتركوا أوطانهم وعشائرهم لله ورسوله ومعنى في سبيلي في طاعتي وديني وابتغاء مرضاتي وهم المهاجرون الذين أخرجهم المشركون من مكة فهاجر طائفة الى الحبشة وطائفة الى المدينة قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد هجرته فلما استقر رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة رجع اليه من كان هاجر الى الحبشة من المسلمين (وقاتلوا وقتلوا) يعني وقاتلوا العدو واستشهدوا في جهاد الكفار (لا كفرن عنهم سيآتهم) يعني لامحون عنهم ذنوبهم ولاغفرنها لهم (ولادخلنهم جنات تجري من تحتها الانهار ثوابا من عند الله) يعني ذلك الذي أعطاهم من تكفير سيآتهم وادخالهم الجنة ثوابا من فضل الله واحسانه اليهم (والله عنده حسن الثواب) وهذا تأكيد لكون ذلك الثواب الذي أعطاهم من فضله وكرمه لانه جواد كريم روى ابن جرير الطبري بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان أول ثلة تدخل الجنة فقراء المهاجرين الذين يتقى بهم المكاره اذا أمروا اسمعوا وأطاعوا وان كانت لرجل منهم حاجة الى سلطان لم تقض له حتى يموت وهي في صدره فان الله عز وجل يدعو يوم القيامة الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها فيقول أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي وقتلوا وأوذوا في سبيلي وجاهدوا في سبيلي ادخلوا الجنة فيدخلونها بغير عذاب ولا حساب وتأتي الملائكة فيسجدون ويقولون ربنا نحن نسبح لك الليل والنهار ونقدس لك من هؤلاء الذين آثرتهم علينا فيقول الرب عز وجل هؤلاء عبادي الذين قاتلوا في سبيلي وأوذوا في سبيلي فتدخل الملائكة عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار قال بعضهم في هذه الآيات تعليم من الله تعالى لعباده كيف يدعى وكيف يبتهل اليه ويتضرع وتكرير ربنا من باب الابتهال واعلام بما يوجب حسن الاجابة وقال جعفر الصادق من حزبه أمر فقال خمس مرات ربنا انجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد وقرأ هذه الآيات وقال الحسن حكى الله عنهم انهم قالوا خمس مرات ربنا ثم أخبر انه استجاب

(لايغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد) والخطاب لكل أحد أو للنبى عليه السلام والمراد به غيره ولان مدره القوم ومقدمهم يخاطب بشئ فيقوم خطابه مقام خطابهم جميعا فكانه قيل لايغرنكم ولان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان غير مغرور بحالهم فأكد عليه ما كان عليه وثبت على التزامه كقوله فلا تكونن ظهيرا للكافرين ولا تكونن من المشركين وهذا فى النهى نظير قوله فى الامر اهدنا الصراط المستقيم يا أيها الذين آمنوا آمنوا (متاع قليل) خبر مبتدا محذوف أى تقلبهم فى البلاد متاع قليل وأراد قلته فى جنب مافاتهم من نعيم الآخرة أو فى جنب ما أعد الله للمؤمنين من الثواب أو أراد انه قليل فى نفسه لانقضائه وكل زائل قليل (ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) وساء ما مهدوا لانفسهم (لكن الذين اتقوا ربهم) عن الشرك (لهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها نزلا) النزل والنزل ما يقام للنازل وهو حال من جنات لتخصصها بالصفة والعامل اللام فى لهم أو هو مصدر مؤكد كانه قيل رزقا أو عطاء (من عند الله) صفة له (وما عند الله) من الكثير الدائم (خير للابرار) مما يتقلب فيه الفجار من القليل الزائل لكن بالتشديد يزيد وهو للاستدراك اى لابقاء لتمتعهم لكن ذلك للذين اتقوا ونزلت فى ابن سلام وغيره من مسلمى أهل الكتاب أو فى أربعين من أهل نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم وكانوا على دين عيسى عليه السلام فاسلموا (وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله) دخلت لام الابتداء على اسم ان لفصل الظرف بينهما (وما أنزل اليكم) من القرآن (وما أنزل اليهم) من الكتابين (خاشعين لله) حال من فاعل يؤمن لان من يؤمن فى معنى الجمع (لايشترون بآيات الله ثمنا قليلا) كما يفعل من لم يسلم من احبارهم وكبارهم وهو حال بعد حال أى غير مشترين (أولئك لهم أجرهم عند ربهم) أى ما يختص من الاجر وهو ما وعده فى قوله أولئك يؤتون أجرهم مرتين

لهم ۞ قوله عز وجل (لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد) نزلت فى المشركين وذلك انهم كانوا فى رخاء ولين من العيش يتجرون و يتنعمون فقال بعض المؤمنين ان أعداء الله فيما نرى من الخير ونحن فى الجهد فانزل الله تعالى هذه الآية لا يغرنك الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره من الامة لانه صلى الله عليه وسلم لم يغتر قط والمعنى لا يغرنك أيها السامع تقلب الذين كفروا فى البلاد يعنى ضربهم فى الارض وتصرفهم فى البلاد للتجارات وطلب الارباح والمكاسب (متاع قليل) أى ذلك متاع قليل و بلغة فانية ونعمة زائلة (ثم مأواهم) يعنى مصيرهم فى الآخرة (جهنم و بئس المهاد) أى و بئس الفراش هى ۞ قوله تعالى (لكن الذين اتقوا ربهم) فيما أمرهم به من العمل بطاعته واتباع مرضاته واجتناب ما نهاهم عنه من معاصيه (لهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها نزلا) أى جزاء وثوابا والنزل ما يهيأ للضيف عند قدومه (من عند الله) يعنى من فضل الله وكرمه واحسانه (وما عند الله) يعنى من الخير والكرامة والنعيم الدائم الذى لا ينقطع (خير للابرار) يعنى ذلك الفضل والنعمة التى أعدها الله للمطيعين الابرار خير مما يتقلب فيه هؤلاء الكفار من نعيم الدنيا ومتاعها فانه قليل زائل (ق) عن عمر بن الخطاب قال جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو فى مشربة وانه لعلى حصير ما بينه وبينه شئ وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف وعند رجليه قرظ مصبور وعند رأسه أهب معلقة فرأيت أثر الحصير فى جنبه فبكيت فقال ما يبكيك قلت يا رسول الله ان كسرى وقيصر فيما هم فيه وأنت رسول الله فقال أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة لفظ البخارى المشربة الغرفة والعلية والمشارب العلالى ۞ قوله عز وجل (وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم) قال ابن عباس نزلت فى النجاشى ملك الحبشة واسمه أصحمة ومعناه بالعربية عطية وذلك انه لما مات نعاه جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى اليوم الذى مات فيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصحابه اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم النجاشى فخرج الى البقيع وكشف له الى أرض الحبشة فابصر سرير النجاشى فصلى عليه وكبر أربع تكبيرات واستغفر له فقال المنافقون انظروا الى هذا يصلى على علج حبشى نصرانى لم يره قط وليس على دينه فأنزل الله تعالى هذه الآية وقيل نزلت فى أربعين رجلا من أهل نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى عليه السلام فآمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم وصدقوه وقيل نزلت فى عبد الله بن سلام وأصحابه الذين آمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم وقيل نزلت فى جميع مؤمنى أهل الكتاب وهذا القول أولى لانه لما ذكر أحوال الكفار وأحوال أهل الكتاب وان مصيرهم الى النار ذكر حال من آمن من أهل الكتاب وان مصيرهم الى الجنة فقال تعالى وان من أهل الكتاب يعنى بعض اليهود والنصارى أهل التوراة والانجيل لمن يؤمن بالله يعنى من يقر بوحدانية الله وما أنزل اليكم يعنى و يؤمن بما أنزل اليكم أيها المؤمنون يعنى القرآن وما أنزل اليهم يعنى من الكتب المنزلة مثل التوراة والانجيل والزبور (خاشعين لله) يعنى خاضعين لله متواضعين له غير مستكبرين (لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا) يعنى لا يغيرون كتبهم ولا يحرفونها ولا يكتمون صفة محمد صلى الله عليه وسلم لاجل الرياسة والمآكل والرشا كما يفعله غيرهم من رؤساء اليهود (أولئك) اشارة الى من هذه صفته من أهل الكتاب (لهم أجرهم عند ربهم) يعنى لهم ثواب أعمالهم التى عملوها لله ذلك الثواب لهم ذخر

عنده الله يوفيه اليهم يوم القيامة (ان الله سريع الحساب) يعني انه تعالى عالم بجميع المعلومات لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده فيجازي كل أحد على قدر عمله لانه سريع الحساب ﴿ قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اصبروا) يعني على دينكم الذي أنتم عليه ولا تدعوه لشدة ولا لغيرها وأصل الصبر حبس النفس عما لا يقتضيه شرع ولا عقل والصبر لفظ عام تحته أنواع من المعاني قال بعض الحكماء الصبر على ثلاثة أقسام ترك الشكوى وقبول القضاء وصدق الرضا قيل في معنى الآية اصبروا على طاعة الله وقيل على أداء الفرائض وقيل على تلاوة القرآن وقيل اصبروا على أمر الله وقيل اصبروا على البلاء وقيل اصبروا على الجهاد وقيل اصبروا على أحكام الكتاب والسنة (وصابروا) يعني الكفار والاعداء وجاهدوهم (ورابطوا) يعني داوموا على جهاد المشركين واثبتوا عليه وأصل المرابطة أن يربط هؤلاء خيولهم وهؤلاء خيولهم بحيث يكون كل من الخصمين مستعد لقتال الآخر ثم قيل لكل مقيم بثغر يدفع عمن وراءه مرابط وان لم يكن له مركب مربوط (ق) عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها (م) عن سلمان الخير قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وان مات فيه جرى عليه عمله الذي كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان وقيل المراد بالمرابطة انتظار الصلاة بعد الصلاة قال أبو سلمة بن عبد الرحمن لم يكن في زمن النبي صلى الله عليه وسلم غزو يرابط فيه ولكنه انتظار الصلاة خلف الصلاة ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات قالوا بلى يا رسول الله قال اسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا الى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط أخرجه مسلم (واتقوا الله لعلكم تفلحون) قال محمد بن كعب القرظي يقول الله عز وجل واتقوا الله فيما بيني وبينكم لعلكم تفلحون غدا اذا لقيتموني وقال أهل المعاني في معنى هذه الآية يا أيها الذين آمنوا اصبروا على بلائي وصابروا على نعمائي ورابطوا على مجاهدة أعدائي واتقوا محبة سوائي لعلكم تفلحون بلقائي وقيل اصبروا على النعماء وصابروا على البأساء والضراء ورابطوا في دار الاعداء واتقوا اله الارض والسماء لعلكم تفلحون في دار البقاء وقيل اصبروا على الدنيا ومحنها رجاء السلامة وصابروا عند القتال بالثبات والاستقامة ورابطوا على مجاهدة النفس اللوامة واتقوا ما يعقبكم الندامة لعلكم تفلحون غدا في دار الكرامة والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

﴿ تفسير سورة النساء وهي مدنية ﴾

وهي مائة وخمس وسبعون آية وثلاثة آلاف وخمس وأربعون كلمة وستة عشر ألف حرف وثلاثون حرفا ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ قوله عز وجل (يا أيها الناس) خطاب للكافة فهو كقوله يا بني آدم (اتقوا ربكم) أي احذروا أمر ربكم ان تخالفوه فيما أمركم به أو نهاكم عنه ثم وصف نفسه بكمال القدرة فقال تعالى (الذي خلقكم من نفس واحدة) يعني من أصل واحد وهو آدم أبو البشر عليه السلام وانما أنث الوصف على لفظ النفس وان كان المراد به الذكر فهو كما قال بعضهم

أبوك خليفة ولدته أخرى * وأنت خليفة ذاك الكمال

فانه قال ولدته أخرى لتأنيث الخليفة (وخلق منها زوجها) يعني حواء وذلك ان الله تعالى لما خلق آدم عليه السلام ألقى عليه النوم ثم خلق حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى وهو قصير فلما استيقظ رآها جالسة عند رأسه فقال لها من أنت قالت امرأة قال لماذا خلقت قالت خلقت لتسكن الى فمال اليها وألفها لانها خلقت منه واختلفوا في أي وقت خلقت حواء فقال كعب الاحبار ووهب وابن اسحق خلقت قبل دخوله الجنة وقال ابن مسعود وابن عباس انما خلقت في الجنة بعد دخوله اياها (وبث منهما) يعني نشر وأظهر من آدم وحواء

عنه الصبر حبس النفس على المكروه بنفي الجزع (وصابروا) أعداء الله في الجهاد أي غالبوهم في الصبر على شدائد الحرب لا تكونوا أقل صبرا منهم وثباتا (ورابطوا) وأقيموا في الثغور رابطين خيلكم فيها مترصدين مستعدين للغزو (واتقوا الله لعلكم تفلحون) الفلاح البقاء مع المحبوب بعد الخلاص عن المكروه ولعل لتغييب المآل لئلا يتكلوا على الآمال عن تقديم الاعمال وقيل اصبروا في محبتي وصابروا في نعمتي ورابطوا أنفسكم في خدمتي لعلكم تفلحون تظفرون بقربي قال النبي صلى الله عليه وسلم اقرؤا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فانهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما والله اعلم بالصواب واليه المرجع والمآب (سورة النساء) نزلت بالمدينة آياتها مائة وست وسبعون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم) (يا أيها الناس) يا بني آدم (اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة) فرعكم من أصل واحد وهو نفس آدم أبيكم (وخلق منها زوجها) معطوف على محذوف كأنه قيل من نفس واحدة انشأها وخلق منها زوجها والمعنى شعبكم من نفس واحدة هذه صفتها وهي أنه انشأها من تراب وخلق منها زوجها حواء من ضلع من أضلاعه (وبث منهما) ونشر من آدم وحواء رجالا

(رجالا كثيرا ونساء) كثيرة أي و بث منهما نوعي جنس الانس وهما الذكور والاناث فوصفها بصفة هي بيان وتفصيل لكيفية خلقهم منها أو على خلقكم والخطاب في يا أيها الناس للذين بعث اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى خلقكم من نفس آدم وخلق منها أمكم حواء و بث منهما رجالا كثيرا ونساء غيركم من الامم الفائتة للحصر فان قلت الذي تقتضيه جزالة النظم ان يجاء عقيب الامر بالتقوى بما يدعو اليها فكيف كان خلقه اياهم من نفس واحدة على التفصيل الذي ذكره داعيا اليها قلت لان ذلك مما يدل على القدرة العظيمة ومن قدر على نحوه كان قادرا على كل شيء ومن المقدورات عقاب الكفار والفجار فالنظر فيه يؤدي الى ان يتقي القادر عليه و يخشى عقابه ولانه يدل على النعمة السابغة عليهم فحقهم ان يتقوه في كفرانها قال عليه السلام عند نزول الآية خلقت المرأة من الرجل فهمها في الرجل وخلق الرجل من التراب فهمه في التراب (واتقوا الله الذي تساءلون به) والاصل تتساءلون فأدغمت التاء في السين بعد ابدالها سينا لقرب التاء من السين للهمس تساءلون به بالتخفيف كوفي على حذف التاء الثانية استثقالا لاجتماع التاءين أي يسأل بعضكم بعضا بالله و بالرحم فيقول بالله و بالرحم افعل كذا على سبيل الاستعطاف (والارحام) بالنصب على انه معطوف على اسم الله تعالى أي واتقوا الارحام ان تقطعوها أو على موضع الجار والمجرور كقولك مررت بزيد وعمرا أو بالجر حمزة على عطف الظاهر على الضمير وهو ضعيف لان الضمير المتصل كاسمه متصل والجار والمجرور كشيء واحد فاشبه العطف على بعض الكلمة (ان الله كان عليكم رقيبا) حافظا أو عالما (وآتوا اليتامى أموالهم) يعني الذين ماتت آباؤهم فانفردوا عنهم واليتم الانفراد ومنه الدرة اليتيمة وقيل اليتم في الاناسي من قبل الآباء وفي البهائم من قبل الامهات وحق هذا الاسم ان يقع على الصغار والكبار لبقاء معنى الانفراد عن الآباء الا انه قد غلب ان يسموا به قبل ان يبلغوا مبلغ الرجال فاذا استغنوا بانفسهم عن كافل وقائم عليهم زال هذا الاسم عنهم وقوله عليه السلام لا يتم بعد الحلم تعليم شريعة لا لغة يعني انه اذا احتلم لم تجر عليه أحكام الصغار والمعنى وآتوا اليتامى أموالهم بعد البلوغ وسماهم يتامى لقرب عهدهم اذا بلغوا بالصغر وفيه اشارة الى ان لا يؤخر دفع أموالهم اليهم عن حد البلوغ ان أونس منهم الرشد وان يؤتوها قبل ان يزول عنهم اسم اليتامى والصغار

(رجالا كثيرا ونساء) انما وصف الرجال بالكثرة دون النساء لان حال الرجال أتم وأكمل وهذا كالتنبيه على ان اللائق بحال الرجال الظهور والاشتهار وبحال النساء الاختفاء والخمول (واتقوا الله الذي تساءلون به) انما كرر ذلك التقوى للتأكيد وانه أهل ان يتقى والتساؤل بالله هو كقولك أسألك بالله واحلف عليك بالله وأستشفع اليك بالله (والارحام) قرئ بفتح الميم ومعناه واتقوا الارحام أن تقطعوها وقرئ بكسر الميم فهو كقولك سألتك بالله و بالرحم وناشدتك بالله و بالرحم لان العرب كان من عادتهم أن يقولوا ذلك والرحم القرابة وانما استعير اسم الرحم للقرابة لانهم خرجوا من رحم واحدة وقيل هو مشتق من الرحمة لان القرابة يتراحمون و يعطف بعضهم على بعض وفي الآية دليل على تعظيم حق الرحم والنهي عن قطعها ويدل على ذلك أيضا الاحاديث الواردة في ذلك (ق) عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله (ق) عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من سره أن يبسط عليه من رزقه و ينسأ في أثره فليصل رحمه قوله ينسأ في أثره أي يؤخر له في أجله (ق) عن جبير بن مطعم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يدخل الجنة قاطع قال سفيان في روايته يعني قاطع رحم وعن الحسن قال من سألك بالله فاعطه ومن سألك بالرحم فاعطه وعن ابن عباس قال الرحم معلقة بالعرش فاذا أتاها الواصل بشت به وكلمته واذا أتاها القاطع احتجبت عنه (ان الله كان عليكم رقيبا) يعني حافظا والرقيب في صفة الله تعالى هو الذي لا يغفل عما خلق فيلحقه نقص و يدخل عليه خلل وقيل هو الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء من أمر خلقه فبين بقوله ان الله كان عليكم رقيبا انه يعلم السر وأخفى واذا كان كذلك فهو جدير بان يخاف و يتقى ۞ قوله عز وجل (وآتوا اليتامى أموالهم) نزلت في رجل من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم كان في حجره فلما بلغ اليتيم طلب المال الذي له فمنعه عمه فترافعا الى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية فلما سمعها العم قال أطعنا الله وأطعنا الرسول نعوذ بالله من الحوب الكبير ودفع الى اليتيم ماله فقال النبي صلى الله عليه وسلم من يوق شح نفسه و يطع ربه هكذا فانه يحل داره يعني جنته فلما قبض الصبي ماله أنفقه في سبيل الله تعالى فقال النبي صلى الله عليه وسلم ثبت الاجر و بقي الوزر فقالوا كيف ثبت الاجر و بقي الوزر قال ثبت الاجر للغلام و بقي الوزر على أبيه والخطاب في قوله تعالى وآتوا للاولياء والاوصياء واليتامى جمع يتيم وهو الصبي الذي مات أبوه واليتم في اللغة الانفراد ومنه الدرة اليتيمة لانفرادها واسم اليتيم يقع على الصغير والكبير لغة لبقاء معنى الانفراد عن الآباء لكن في العرف اختص اسم اليتيم بمن لم يبلغ مبلغ الرجال فاذا بلغ الصبي وصار يستغني بنفسه عن غيره زال عنه اسم اليتيم وسئل ابن عباس عن اليتيم متى ينقطع عنه اسم اليتم قال اذا أونس منه الرشد وانما سماهم يتامى بعد البلوغ على مقتضى اللغة أو لقرب عهدهم باليتم وان كان قد زال عنهم بالبلوغ وقيل المراد باليتامى الصغار الذين لم يبلغوا والمعنى

(ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب) ولا تستبدلوا الحرام وهو مال اليتامى بالحلال وهو مالكم أو لا تستبدلوا الامر الخبيث وهو اختزال أموال اليتامى بالامر الطيب وهو حفظها والتورع عنها والتفعل بمعنى الاستفعال غير عزيز ومنه التعجل بمعنى الاستعجال

وآتوا اليتامى أموالهم بعد البلوغ وتحقق الرشد وقيل معناه وآتوا اليتامى الصغار ما يحتاجون اليه من نفقة وكسوة والقول الاول هو الصحيح اذ المراد باليتامى البالغون لانه لا يجوز دفع المال الى اليتيم الا بعد البلوغ وتحقق الرشد (ولا تتبدلوا) أي ولا تستبدلوا (الخبيث بالطيب) يعني الخبيث الذي هو حرام عليكم بالحلال من أموالكم واختلفوا في هذا التبديل فقال سعيد بن المسيب والنخعي والزهري والسدي كان أولياء اليتامى يأخذون الجيد من مال اليتيم ويجعلون مكانه الردىء فربما كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة ويجعل مكانها الهزيلة ويأخذ الدرهم الجيد ويجعل مكانه الزيف ويقول شاة بشاة ودرهم بدرهم فذلك تبديلهم فنهوا عنه وقال عطاء والربح في مال اليتيم وهو صغير لا علم له بذلك وقيل انه ليس بابدال حقيقة وانما هو أخذه مستهلكا وذلك ان أهل الجاهلية كانوا لا يورثون النساء والصغار وانما كان يأخذ الميراث الاكابر من الرجال وقيل هو أكل مال اليتيم عوضا عن أكل أموالهم فنهوا عن ذلك (ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم) يعني مع أموالكم وقيل معناه ولا تضموا أموالهم الى أموالكم في الانفاق واعلم ان الله تعالى نهى عن أكل مال اليتيم وأراد به جميع التصرفات المهلكة للمال وانما ذكر الاكل لانه معظم المقصود (انه كان حوبا كبيرا) يعني ان أكل مال اليتيم من غير حق اثم عظيم والحوب الاثم ۞ قوله عز وجل (وان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى) يعني وان خفتم يا أولياء اليتامى أن لا تعدلوا فيهن اذا نكحتموهن فانكحوا غيرهن من الغرائب (ق) عن عروة انه سأل عائشة رضي الله تعالى عنها عن قوله تعالى وان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء الى قوله أو ما ملكت أيمانكم قال يا ابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها فيرغب في جمالها ومالها ويريد أن ينتقص صداقها فنهوا عن نكاحهن الا أن يقسطوا لهن في اكمال الصداق وأمروا بنكاح من سواهن قالت عائشة رضي الله عنها فاستفتى الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فانزل الله عز وجل ويستفتونك في النساء الى وترغبون أن تنكحوهن فبين الله لهم في هذه الآية ان اليتيمة اذا كانت ذات جمال ومال رغبوا في نكاحها ولم يلحقوها بسنتها في اكمال الصداق وان كانت مرغوبة عنها في قلة المال والجمال تركوها والتمسوا غيرها من النساء قال فكما يتركونها حين يرغبون عنها فليس لهم أن ينكحوها اذا رغبوا فيها الا أن يقسطوا لها ويعطوها حقها الاوفى من الصداق وقال الحسن كان الرجل من أهل المدينة تكون عنده الايتام وفيهن من يحل له نكاحها فيتزوجها لاجل مالها وهي لا تعجبه كراهية ان يدخل غريب فيشاركه في مالها ثم يسيء صحبتها ويتربص بها الى أن تموت فيرثها فعاب الله ذلك عليهم وأنزل هذه الآية وقال عكرمة في روايته عن ابن عباس كان الرجل من قريش يتزوج العشر من النساء أو أكثر فاذا صار معدما من مؤن نسائه مال الى مال يتيمته التي في حجره فانفقه فقيل لهم لا تزيدوا على أربع حتى لا يحوجكم الى أخذ مال اليتامى وقيل كانوا يتحرجون عن أموال اليتامى ويترخصون في النساء فيتزوجون ما شاؤا فربما عدلوا وربما لم يعدلوا فلما أنزل الله تعالى في أموال اليتامى وآتوا اليتامى أموالهم أنزل هذه الآية وان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى يقول فكما خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فكذلك خافوا في النساء أن لا تعدلوا فيهن فلا تتزوجوا أكثر مما يمكنكم القيام بحقهن لان النساء في الضعف كاليتامى وهذا قول سعيد بن جبير وقتادة والضحاك والسدي ثم رخص الله تعالى في نكاح أربع فقال تعالى (فانكحوا ما طاب لكم من النساء) يعني ما حل لكم من النساء واستدلت الظاهرية بهذه الآية على وجوب النكاح قالوا لان قوله فانكحوا أمر والامر للوجوب وأجيب عنه بان قوله تعالى فانكحوا انما هو بيان لما يحل من العدد في النكاح وتمسك الشافعي في بيان أن النكاح ليس بواجب بقوله ومن لم يستطع منكم

(ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم) الى متعلقة بمحذوف وهو في موضع الحال أي مضافة الى أموالكم والمعنى ولا تضموها اليها في الانفاق حتى لا تفرقوا بين أموالكم وأموالهم قلة مبالاة بما لا يحل لكم وتسوية بينه وبين الحلال (انه) ان أكلها (كان حوبا كبيرا) ذنبا عظيما (وان خفتم ألا تقسطوا) أي لا تعدلوا أقسط أي عدل (في اليتامى) يقال للاناث اليتامى كما يقال للذكور وهو جمع يتيمة وأما أيتام فجمع يتيم (فانكحوا ما طاب لكم) ما حل لكم (من النساء) لان منهن ما حرم الله كاللاتي في آية التحريم وقيل ما ذهابا الى الصفة لان ما يجيء في صفات من يعقل فكأنه قيل الطيبات من النساء ولان الاناث من العقلاء يجرين مجرى غير العقلاء ومنه قوله تعالى أو ما ملكت أيمانكم قيل كانوا لا يتحرجون من الزنا ويتحرجون من ولاية اليتامى فقيل ان خفتم الجور في حق اليتامى فخافوا الزنا فانكحوا ما حل لكم من النساء ولا تحوموا حول المحرمات أو كانوا يتحرجون من الولاية في أموال اليتامى ولا يتحرجون من الاستكثار من النساء مع ان الجور يقع بينهن اذا كثرن فكأنه قيل اذا تحرجتم من هذا فتحرجوا من ذلك وقيل وان خفتم أن لا تقسطوا في نكاح

طولا

اليتامى فانكحوا من البالغات يقال طابت الثمرة أي أدركت (مثنى وثلاث ورباع) نكرات وانما منعت الصرف للعدل والوصف وعليه دل كلام سيبويه ومحلهن النصب على الحال من النساء أو مما طاب تقديره فانكحوا الطيبات لكم معدودات هذا العدد ثنتين ثنتين وثلاثا ثلاثا وأربعا أربعا فان قلت الذى أطلق للناكح فى الجمع أن يجمع بين اثنتين أو ثلاث أو أربع فما معنى التكرير فى مثنى وثلاث ورباع قلت الخطاب للجميع فوجب التكرير ليصيب كل ناكح يريد الجمع ما أراد من العدد الذى أطلق له كما تقول للجماعة اقتسموا هذا المال وهو ألف درهم درهمين درهمين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة ولو أفردت لم يكن له معنى وجىء بالواو لتدل على تجويز الجمع بين الفرق ولو جىء بأو مكانها لذهب معنى التجويز (فان خفتم ألا تعدلوا) بين هذه الاعداد (فواحدة) فالزموا أو فاختاروا واحدة (أو ما ملكت أيمانكم) سوى فى اليسر بين الحرة الواحدة وبين الاماء من غير حصر (ذلك) اشارة الى اختيار الواحدة والتسرى (أدنى ألا تعولوا) أقرب من أن لا تميلوا ولا تجوروا يقال عال الميزان عولا اذا مال وعال الحاكم فى حكمه اذا جار وحكى عن الشافعى رحمه الله انه فسر أن لا تعولوا أن لا تكثر عيالكم واعترضوا عليه بانه يقال أعال يعيل اذا كثر عياله وأجيب بان يجعل من قولك عال الرجل عياله يعولهم كقولك مانهم يمونهم اذا أنفق عليهم لان من كثر عياله لزمه أن يعولهم وفى ذلك ما يصعب عليه المحافظة على حدود الورع وكسب الحلال وكلام مثله من أعلام العلم حقيق بالحمل على السداد وان لا يظن به تحريف تميلوا الى تعولوا كأنه سلك فى تفسير هذه الكلمة طريقة الكنايات (وآتوا النساء صدقاتهن

طولا أن ينكح الى قوله ذلك لمن خشى العنت منكم وان تصبروا خير لكم الآية فحكم فى هذه السورة بان ترك النكاح خير من فعله وذلك يدل على انه ليس بواجب ولا مندوب وقوله تعالى (مثنى وثلاث ورباع) معناه اثنين اثنين وثلاثا ثلاثا وأربعا أربعا وهو غير منصرف لانه اجتمع فيه أمران العدل والوصف والواو بمعنى أو فى هذا الفصل لانه لما كانت أو بمنزلة واو النسق جاز أن تكون الواو بمنزلة أو وقيل ان الواو أفادت أنه يجوز لكل أحد أن يختار لنفسه قسما من هذه الاقسام بحسب حاله فان قدر على نكاح اثنتين فاثنتان وان قدر على ثلاث فثلاث وان قدر على أربع فأربع لانه يضم عددا وأجمعت الامة على انه لا يجوز لاحد أن يزيد على أربع نسوة وان الزيادة على أربع من خصائص رسول الله صلى الله عليه وسلم التى لا يشاركه فيها أحد من الامة ويدل على ان الزيادة على أربع غير جائزة وانها حرام ما روى عن الحرث بن قيس أو قيس بن الحرث قال أسلمت وعندى ثمان نسوة فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اختر منهن أربعا أخرجه أبو داود عن ابن عمر أن غيلان بن سلمة الثقفى أسلم وله عشر نسوة فى الجاهلية فاسلمن معه فامره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يختار منهن أربعا أخرجه الترمذى قال العلماء فيجوز للحر أن يجمع بين أربع نسوة حرائر ولا يجوز للعبد أن ينكح أكثر من امرأتين وهو قول أكثر العلماء لانه خطاب لمن ولى وملك وذلك للاحرار دون العبيد وقال مالك فى احدى الروايتين عنه وربيعة يجوز للعبد أن يتزوج بأربع نسوة واستدل بهذه الآية وأجاب الشافعى بان هذه الآية مختصة بالاحرار ويدل عليه آخر الآية وهو قوله فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم والعبد لا يملك شيأ فثبت بذلك ان المراد من حكم الآية الاحرار دون العبيد وقوله تعالى (فان خفتم) يعنى فان خشيتم وقيل فان علمتم (ألا تعدلوا) يعنى بين الازواج الاربع (فواحدة) يعنى فانكحوا واحدة (أو ما ملكت أيمانكم) يعنى وما ملكتم من السرارى لانه لا يلزم فيهن من الحقوق مثل ما يلزم فى الحرائر ولا قسم لهن (ذلك أدنى) أى أقرب (ألا تعولوا) معناه أقرب من ان لا تعولوا الحذف لفظة من لدلالة الكلام عليه ومعنى أن لا تعولوا أى لا تميلوا ولا تجوروا وهو قول أكثر المفسرين لان أصل العول الميل يقال عال الميزان اذا مال وقيل معناه لا تجاوزوا ما فرض الله عليكم ومنه عول الفرائض اذا جاوزت سهامها وقيل معناه ذلك أدنى أن لا تضلوا وقال الشافعى رحمه الله تعالى معناه ان لا تكثر عيالكم وقد أنكر على الشافعى من ليس له احاطة بلغة العرب فقال انما يقال من كثرة العيال أعال الرجل يعيل اعالة اذا كثر عياله قال وهذا من خطأ الشافعى لانه انفرد به ولم يوافقه عليه أحد وانما قال هذه المقالة من أنكر على الشافعى وخطأه من غير علم له بلغة العرب فقد روى الازهرى فى كتابه تهذيب اللغة عن عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم فى قوله ألا تعولوا أى لا تكثر عيالكم وروى الازهرى عن الكسائى قال عال الرجل اذا افتقر وأعال اذا كثر عياله قال ومن العرب الفصحاء من يقول عال يعول اذا كثر عياله قال الازهرى وهذا يقوى قول الشافعى لان الكسائى لا يحكى عن العرب الا ما حفظه وضبطه وقول الشافعى نفسه حجة لانه عربى فصيح والذى اعترض عليه وخطأه عجل ولم يتثبت فيما قال ولا ينبغى للحضرى أن يعجل الى انكار ما لا يحفظه من لغات العرب هذا آخر كلام الازهرى وبسط الامام فخر الدين الرازى فى هذا الموضع من تفسيره ورد على أبى بكر الرازى ثم قال الطعن لا يصدر الا عن كثرة الغباوة وقلة المعرفة وحكى البغوى عن أبى حاتم قال كان الشافعى أعلم بلسان العرب منا ولعله لغة ويقال هى لغة حمير وقرأ طلحة بن مصرف ألا تعيلوا بضم التاء وهو حجة للشافعى (وآتوا النساء صدقاتهن) قال الكلبى وجماعة هذا خطاب للاولياء قال أبو صالح كان الرجل اذا

مهورهن (نحلة) من نحله كذا اذا أعطاه اياه ووهبه له عن طيبة من نفسه نحلة ونحلا وانتصابها على المصدر لان النحلة والايتاء بمعنى الاعطاء فكأنه قال وانحلوا النساء صدقاتهن نحلة أى اعطوهن مهورهن عن طيبة أنفسكم أو على الحال من المخاطبين أى آتوهن صدقاتهن ناحلين طيبي النفوس بالاعطاء أو من الصدقات أى منحولة معطاة عن طيبة الانفس وقيل نحلة من الله تعالى عطية من عنده وتفضلا منه عليهن وقيل النحلة الملة وفلان ينتحل كذا أى يدين به يعنى وآتوهن مهورهن ديانة على انها مفعول لها والخطاب للازواج وقيل للاولياء لانهم كانوا يأخذون مهور بناتهم (فان طبن

لكم) للازواج (عن شئ منه) أى من الصداق اذ هو فى معنى الصدقات (نفسا) تمييز وتوحيدها لان الغرض بيان الجنس والواحد يدل عليه والمعنى فان وهبن لكم شيأ من الصدقات وتجافت عنه نفوسهن طيبات غير مخبثات بما يضطرهن الى الهبة من شكاسة أخلاقكم وسوء معاشرتكم وفى الآية دليل على ضيق المسلك فى ذلك ووجوب الاحتياط حيث بنى الشرط على طيب النفس فقيل فان طبن لكم عن شئ منه نفسا ولم يقل فان وهبن لكم اعلاما بان المراعى هو تجافى نفسها عن الموهوب طيبة (فكلوه) الهاء يعود على شئ (هنيئا) لااثم فيه (مريئا) لاداء فيه فسرهما النبى عليه السلام أو هنيئا فى الدنيا بلامطالبة مريئا فى العقبى بلا تبعة وهما صفتان من هنؤ الطعام ومرؤ اذا كان سائغا لاتنغيص فيه وهما وصف مصدر أى أكلا هنيئا مريئا أو حال من الضمير أى كلوه وهو هنئ مرئ وهذه عبارة عن المبالغة فى الاباحة وازالة التبعة هنيا مريا بغير همز يزيد وكذا حمزة فى الوقف وهمزهما الباقون وعن على رضى الله عنه اذا اشتكى أحدكم شيأ فليسأل امرأته ثلاثة دراهم من صداقها ثم ليشتر بها عسلا فليشربه بماء السماء فيجمع الله له هنيئا ومريئا وشفاء ومباركا (ولا تؤتوا السفهاء) المبذرين أموالهم الذين ينفقونها فيما لا ينبغى ولا قدرة لهم على اصلاحها وتثميرها والتصرف فيها والخطاب للاولياء وأضاف الى الاولياء أموال السفهاء بقوله (أموالكم) لانهم يلونها ويمسكونها (التى جعل الله لكم قياما) أى قواما لابدانكم ومعاشا لاهلكم وأولادكم قيما بمعنى قياما نافع وشامى كما جاء عوذا بمعنى عياذا وأصل قيام قوام فجعلت الواو ياء لانكسار ماقبلها وكان

اهالك

زوج ابنه أخذ صداقها دونها فنهاهم الله عن ذلك وقيل ان ولى المرأة كان اذا زوجها فان كانت معهم فى العشيرة لم يعطها من مهرها الاقليلا ولا كثيرا وان كان زوجها غريبا حملوها اليه على بعير ولا يعطيها من مهرها غير ذلك فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم أن يدفعوا الحق الى أهله وقال الحضرمى كان أولياء النساء يعطى هذا أخته على أن يعطيه الآخر أخته ولا مهر بينهما وهذا هو الشغار فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم بتسمية المهر فى العقد (ق) عن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن الشغار فى العقد والشغار أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الرجل ابنته وليس بينهما صداق وقيل الخطاب للازواج وهذا أصح وهو قول الاكثرين لان الخطاب فيما قبل مع الناكحين وهم الازواج أمرهم الله تعالى باتيان نسائهم الصداق والصدقات المهور واحدها صدقة بفتح الصاد وضم الدال (نحلة) يعنى فريضة مسماة وقيل عطية وهبة وقيل نحلة يعنى عن طيب نفس وأصل النحلة العطية على سبيل التبرع وهى أخص من الهبة وسمى الصداق نحلة من حيث انه لا يجب فى مقابلة غير التمتع دون عوض مالى (ق) عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق الشروط ان توفوا بها ما استحللتم به الفروج وقوله تعالى (فان طبن) يعنى النساء المتزوجات (لكم) يعنى للازواج (عن شئ منه) يعنى من الصداق ومن هنا لبيان الجنس لا للتبعيض لانها لو وهبت المرأة لزوجها جميع صداقها جاز (نفسا) نصب على التمييز والمعنى فان طابت نفوسهن عن شئ من ذلك الصداق المعين فوهبن ذلك لكم فنقل الفعل من النفوس الى أصحابها فخرجت النفس مفسرا فلذلك وحد النفس وقيل لفظه واحد ومعناه الجمع (فكلوه) يعنى ما وهبنه لكم (هنيئا مريئا) يعنى طيبا سائغا وقيل الهنئ الطيب المساغ الذى لا ينغصه شئ والمرئ المحمود العاقبة وفى الآية دليل على اباحة هبة المرأة صداقها وانها تملكه ولا حق للولى فيه ۞ قوله تعالى (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) اختلفوا فى هؤلاء السفهاء من هم فقيل هم النساء نهى الله الرجال أن يؤتوا النساء أموالهم سواء كن أزواجا أو بنات أو أمهات وقيل هم الاولاد خاصة يقول لا تعط ولدك السفيه مالك الذى هو قيامك فيفسده عليك وقيل امرأتك وابنك السفيه قال ابن عباس لا تعمد الى مالك الذى خولك الله وجعله لك معيشة فتعطيه امرأتك وابنك فيكونوا هم الذين يقومون عليك ثم تنظر الى ما بين أيديهم أمسك مالك وأصلحه وكن أنت الذى تنفق عليهم فى رزقهم ومؤنتهم وقال الكلبى اذا علم الرجل ان امرأته سفيهة مفسدة وان ولده سفيه مفسد لا ينبغى له أن يسلط واحدا منهما على ماله فيفسده وقال سعيد بن جبير هو مال اليتيم يكون عندك يقول لا تؤته اياه وأنفق عليه منه حتى يبلغ وانما أضاف المال الى الاولياء لانهم قوامها ومدبروها وأصل السفه الخفة واستعمل فى خفة النفس لنقصان العقل فى الامور الدنيوية والدينية والسفيه المستحق الحجر هو الذى يكون مبذرا فى ماله ومفسدا فى دينه فلا يجوز لوليه أن يدفع اليه ماله وقيل ان السفه المذكور فى هذه الآية ليس هو صفة ذم لهؤلاء وانما سموا سفهاء لخفة عقولهم ونقصان تمييزهم وضعفهم عن القيام بحفظ المال فقوله تعالى ولا تؤتوا السفهاء يعنى الجهال بموضع الحق أموالكم (التى جعل الله لكم قياما) يعنى قوام معايشكم يقول المال هو قوام الناس وقوام معايشهم كن أنت قيم

السلف يقولون المال سلاح المؤمن ولان أترك مالا يحاسبني الله عليه خير من ان احتاج الى الناس وعن سفيان وكان له بضاعة يقلبها ولولاها لتمندل بي بنو العباس (وارزقوهم فيها) واجعلوها مكانا لرزقهم بان تتجروا فيها وتربحوا حتى تكون نفقتهم من الارباح لامن صلب المال فيأكلها الانفاق (واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا) قال ابن جريج عدة جميلة ان صلحتم ورشدتم سلمنا اليكم أموالكم وكل ماسكنت اليه النفس لحسنه عقلا أو شرعا من قول أو عمل فهو معروف وما أنكرته لقبحه فهو منكر (وابتلوا اليتامى) واختبروا عقولهم وذوقوا أحوالهم ومعرفتهم بالتصرف قبل البلوغ فالابتلاء عندنا أن يدفع اليه مايتصرف فيه حتى تتبين حاله فيما يجيء منه وفيه دليل على جواز اذن الصبي العاقل في التجارة (حتى اذا بلغوا النكاح) أي الحلم لانه يصلح للنكاح عنده ولطلب ماهو مقصود به وهو التوالد (فان آنستم منهم) تبينتم (رشدا) هداية في التصرفات وصلاحا في المعاملات (فادفعوا اليهم أموالهم) من غير تأخير عن حد البلوغ ونظم هذا الكلام ان مابعد حتى الى فادفعوا اليهم أموالهم جعل غاية للابتلاء وهي حتى التي تقع بعدها الجمل كالتي في قوله حتى ماء دجلة أشكل والجملة الواقعة بعدها جملة شرطية لان اذا متضمنة معنى الشرط وفعل الشرط بلغوا النكاح وقوله فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم جملة من شرط وجزاء واقعة جوابا للشرط الاول الذي هو اذا بلغوا النكاح فكأنه قيل وابتلوا اليتامى الى وقت بلوغهم واستحقاقهم دفع أموالهم اليهم بشرط ايناس الرشد منهم وتنكير الرشد يفيد ان المراد رشد مخصوص وهو الرشد في التصرف والتجارة أو يفيد التقليل أي طرفا من الرشد حتى لا ينتظر به تمام الرشد وهو دليل لابي حنيفة رحمه الله في دفع المال عند بلوغ خمس وعشرين سنة

أهلك أنفق عليهم ولا تؤت مالك امرأتك وولدك فيكونوا هم الذين يقومون عليك ولما كان المال سببا للقيام بالمعاش سمي به اطلاقا لاسم المسبب على السبب على سبيل المبالغة لانه به يقام الحج والجهاد وأعمال البر وفكاك الرقاب من النار (وارزقوهم فيها) أي أطعموهم (واكسوهم) يعني لمن يجب عليكم رزقه وكسوته لما نهى الله عن ايتاء المال للسفيه أمر أن يجري رزقه وكسوته وانما قال وارزقوهم فيها ولم يقل منها لانه أراد اجعلوا لهم فيها رزقا والرزق من الله تعالى هو العطية من غير حد ولا قطع ومعنى الرزق من العباد هو الاجر الموظف المعلوم لوقت معلوم محدود (وقولوا لهم قولا معروفا) يعني قولا جميلا لان القول الجميل يؤثر في القلب ويزيل السفه وقيل معناه عدوهم عدة جميلة من البر والصلة قال عطاء يقول اذا ربحت أعطيتك وان غنمت قسمت لك حظا وقيل معناه الدعاء أي ادعوا لهم قال ابن زيد ان لم يكن ممن تجب عليك نفقته فقل له عافانا الله واياك بارك الله فيك وقيل معناه قولوا لهم قولا تطيب به أنفسهم وهو أن يقول الولي لليتيم السفيه مالك عندي وأنا أمين عليه فاذا بلغت ورشدت أعطيتك مالك وقال الزجاج معناه علموهم مع اطعامكم وكسوتكم اياهم أمر دينهم ومايصلحهم مما يتعلق بالعلم والعمل ۞ قوله عز وجل (وابتلوا اليتامى) الآية نزلت في ثابت ابن رفاعة وفي عمه وذلك ان رفاعة مات وترك ابنه ثابتا وهو صغير فجاء عمه الى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له ان ابن أخي يتيم في حجري فما يحل لي من ماله ومتى ادفع اليه ماله فانزل الله تعالى هذه الآية وابتلوا اليتامى يعني اختبروهم في عقولهم وأديانهم وحفظ أموالهم (حتى اذا بلغوا النكاح) أي مبلغ الرجال والنساء (فان آنستم) أي أبصرتم وعرفتم (منهم رشدا) يعني عقلا وصلاحا في الدين وحفظا للمال وعلما بما يصلحه

﴿فصل﴾ في أحكام تتعلق بالحجر وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ الابتلاء يختلف باختلاف أحوال اليتامى فان كان ممن يتصرف بالبيع والشراء في الاسواق يدفع اليه شيأ يسيرا من المال وينظر في تصرفه وان كان ممن لم يتصرف في الاسواق فيختبر بنفقته على أهله وعبيده واجرائه وتصرفه في أحوال داره وتختبر المرأة في أمر بيتها وحفظ متاعها وغزلها واستغزالها فاذا رأى حسن تدبير اليتيم وحسن تصرفه في الامور مرارا وغلب على الظن رشده دفع اليه ماله بعد بلوغه ولا يدفع اليه ماله وان كان شيخا يغلب عليه السفه حتى يؤنس منه الرشد ﴿المسئلة الثانية﴾ قال الامام أبو حنيفة تصرفات الصبي العاقل المميز باذن الولي صحيحة وقال الشافعي هي غير صحيحة واحتج أبو حنيفة على قوله بهذه الآية وذلك لان قوله تعالى وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح يقتضي ان هذا الابتلاء انما يحصل قبل البلوغ والمراد من هذا الابتلاء اختبار حاله في جميع تصرفاته فثبت ان قوله وابتلوا اليتامى أمر للاولياء بالاذن لهم في البيع والشراء قبل البلوغ أجاب الشافعي بان قال ليس المراد بقوله وابتلوا اليتامى الاذن لهم في التصرف حال الصغر بدليل قوله فان آنستم منهم رشدا (فادفعوا اليهم أموالهم) وانما تدفع اليهم أموالهم بعد البلوغ وايناس الرشد فثبت بموجب هذه الآية أنه لا يدفع اليه ماله حال الصغر فوجب أن لا يصح تصرفه حال الصغر وانما المراد من الابتلاء هو اختبار عقله واستكشاف حاله في معرفة المصالح والمفاسد ﴿المسئلة الثالثة﴾ في بيان البلوغ وذلك بأربعة أشياء اثنان يشترك فيهما الرجال والنساء واثنان يختصان بالنساء أما اللذان يشترك فيهما الرجال والنساء فأحدهما السن فاذا استكمل المولود خمس عشرة سنة حكم ببلوغه غلاما كان أو جارية ويدل عليه ماروى

عن ابن عمر قال عرضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم عام أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة فردني ثم عرضت عليه عام الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني أخرجاه في الصحيحين وهذا قول أكثر أهل العلم وقال أبو حنيفة بلوغ الجارية باستكمال سبع عشرة سنة و بلوغ الغلام باستكمال ثماني عشرة سنة والثاني الاحتلام وهو انزال المني الدافق سواء أنزل باحتلام أو جماع فاذا وجد ذلك من الصبي أو الجارية حكم ببلوغه لقوله تعالى وإذا بلغ الاطفال منكم الحلم ولقوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ خذ من كل حالم دينارا أما انبات الشعر الخشن حول الفرج فهو يدل على البلوغ في أولاد المشركين لما روى عن عطية القرظي قال كنت من سبي قريظة فكانوا ينظرون فمن أنبت الشعر قتل ومن لم ينبت لم يقتل فكنت ممن لم ينبت وهل يكون ذلك علامة على البلوغ في أولاد المسلمين فيه قولان أحدهما أنه يكون بلوغا كما في أولاد المشركين والثاني لا يكون ذلك بلوغا في حق أولاد المسلمين لانه يمكن الوقوف على مواليد أولاد المسلمين والرجوع الى قول آبائهم بخلاف الكفار فانه لا يوقف على مواليدهم ولا يقبل في ذلك قول آبائهم لكفرهم فجعل الانبات الذي هو امارة البلوغ بلوغا في حقهم وأما الذي يختص بالنساء فهو الحيض والحبل فاذا حاضت الجارية بعد استكمال تسع سنين حكم ببلوغها وكذلك اذا ولدت حكم ببلوغها قبل الوضع بستة أشهر لانها أقل مدة الحمل ﴿المسألة الرابعة﴾ في بيان الرشد وهو أن يكون مصلحا في دينه وماله فالصلاح في الدين هو اجتناب الفواحش والمعاصي التي تسقط بها العدالة والصلاح في المال هو أن لا يكون مبذرا والتبذير ان ينفق ماله فيما لا يكون محمدة دنيوية ولا مثوبة أخروية أو لا يحسن التصرف فيغبن في البيع والشراء فاذا بلغ الصبي وهو مفسد لماله ودينه لم ينفك عنه الحجر ولا ينفذ تصرفه في ماله وبه قال الشافعي وقال أبو حنيفة اذا كان مصلحا لماله زال عنه الحجر وان كان مفسدا لدينه واذا كان له مفسدا لا يدفع اليه المال حتى يبلغ خمسة وعشرين سنة غير انه ينفذ تصرفه قبله والقرآن حجة الشافعي في استدامة الحجر عليه لان الله تعالى قال فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم أمر بدفع المال بعد البلوغ وايناس الرشد والفاسق لا يكون رشيدا وبعد بلوغه خمسا وعشرين سنة وهو مفسد لماله بالاتفاق غير رشيد فوجب أن لا يجوز دفع المال اليه كما قبل بلوغ هذا السن ﴿المسألة الخامسة﴾ اذا بلغ الصبي أو الجارية وأونس منه الرشد زال عنه الحجر ودفع اليه ماله سواء تزوج أو لم يتزوج وقال مالك ان كانت امرأة لا يدفع اليها المال ما لم تتزوج فاذا تزوجت دفع اليها مالها ولا ينفذ تصرفها الا باذن الزوج ما لم تكبر وتجرب ﴿المسألة السادسة﴾ اذا بلغ الصبي رشيدا زال عنه الحجر فلو عاد سفيها ينظر فان كان مبذرا لماله حجر عليه وان كان مفسدا في دينه فعلى وجهين أحدهما أن يعاد عليه الحجر كما يستدام اذا بلغ وهو بهذه الصفة والثاني لا يحجر عليه لان حكم الدوام أقوى من حكم الابتداء وعند أبي حنيفة لا حجر على الحر العاقل البالغ بحال والدليل على اثبات الحجر من اتفاق الصحابة ما روى عن هشام بن عروة عن أبيه ان عبد الله بن جعفر ابتاع أرضا سبخة بستين ألف درهم فقال علي لآتين عثمان ولأحجرن عليك فأتى ابن جعفر الزبير فأعلمه بذلك فقال الزبير أنا شريكك في بيعك فأتى علي عثمان فقال احجر على هذا فقال الزبير أنا شريكه فقال عثمان كيف أحجر على رجل في بيع شريكه فيه الزبير فكان اتفاقا منهم على جواز الحجر حتى احتال الزبير لدفعه ۞ وقوله تعالى (ولا تأكلوها اسرافا) الخطاب للاولياء يعني يا معشر الاولياء لا تأكلوا أموال اليتامى بغير حق (وبدارا أن يكبروا) يعني لا تبادروا كبرهم ورشدهم فتفرطوا في انفاقهم وتقولون ننفق كما نشتهي قبل أن يكبروا فيلزمكم تسليمها اليهم * ثم بين تعالى حال الاولياء وقسمهم قسمين فقال تعالى (ومن كان غنيا فليستعفف) أي فليمتنع من أكل مال اليتيم ولا يرزؤه قليلا ولا كثيرا (ومن كان فقيرا) يعني محتاجا الى مال اليتيم وهو يحفظه (فليأكل بالمعروف) روى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ان رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال اني فقير وليس لي

(ولا تأكلوها اسرافا وبدارا أن يكبروا) ولا تأكلوها مسرفين ومبادرين كبرهم فاسرافا وبدارا مصدران في موضع الحال وان يكبروا في موضع المصدر منصوب الموضع ببدارا ويجوز أن يكونا مفعولا لهما أي لاسرافكم ومبادرتكم كبرهم تفرطون في انفاقها وتقولون ننفق فيما نشتهي قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا (ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف) قسم الامر بين أن يكون الوصي غنيا وبين ان يكون فقيرا فالغني يستعفف من أكلها أي يحترز من أكل مال اليتيم واستعف أبلغ من عف كأنه طالب زيادة العفة والفقير يأكل قوتا مقدرا محتاطا في أكله عن ابراهيم ما سد الجوعة ووارى العورة

شئ ولي يتيم فقال كل من مال يتيمك غير مسرف ولا مبذر ولا متأثل واختلاف العلماء في حكم هذه الآية فروي عن عمر وابن عباس وابن جبير وأبي العالية وعبيدة السلماني وأبي وائل ومجاهد ومقاتل أنه يأخذ من مال اليتيم على وجه القرض واختلفوا في أنه هل يلزمه القضاء فذهب قوم الى أنه يلزمه القضاء اذا أيسر وهو المراد من قوله تعالى فليأكل بالمعروف والمعروف القرض أي يستقرض من مال اليتيم اذا احتاج اليه فاذا أيسر قضاه وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير قال عمر بن الخطاب اني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة مال اليتيم ان استغنيت استعففت وان افتقرت أكلت بالمعروف فاذا أيسرت قضيت وقال قوم لا ضمان عليه ولا قضاء بل يكون ما يأكله كالاجرة له على عمله وهو قول الحسن والشعبي والنخعي وقتادة قال الشعبي لا يأكله الا أن يضطر اليه كما يضطر الى الميتة ثم القائلون بجواز الاكل من مال اليتيم اختلفوا في قوله فليأكل بالمعروف فقال عطاء وعكرمة يأكل باطراف أصابعه ولا يسرف ولا يكتسي منه ولا يلبس الكتان ولا الحلل لكن يأكل ما يسد به الجوع ويلبس ما يستر به العورة وقال الحسن يأكل من تمر نخله ولبن مواشيه بالمعروف ولا قضاء عليه فأما الذهب والفضة فلا يأخذ منه شيأ فان أخذ وجب عليه رده وقال الكلبي المعروف هو ركوب الدابة وخدمة الخادم وليس له أن يأكل من ماله شيأ وروي أن رجلا قال لابن عباس ان لي يتيما وان له ابلا أفأشرب من لبن ابله فقال ابن عباس ان كنت تبغي ضالة ابله وتهنأ جرباها وتليط حوضها وتسقيها يوم ورودها فاشرب غير مضر بنسل ولا ناهك في الحلب وقال قوم المعروف أن يأخذ من ماله بقدر قيامه وأجرة عمله ولا قضاء عليه وهو قول عائشة وجماعة من أهل العلم وقوله تعالى (فاذا دفعتم اليهم أموالهم فاشهدوا عليهم) هذا أمر ارشاد وليس بواجب أمر الله تعالى الولي بالاشهاد على دفع المال الى اليتيم بعد البلوغ لتزول عنه التهمة وتنقطع الخصومة لانه اذا كانت عليه بينة كان أبعد من أن يدعي عدم القبض وتظهر بذلك أمانة الوصي وتسقط عنه اليمين عند انكار اليتيم القبض (وكفى بالله حسيبا) يعني محاسبا ومجازيا وشاهدا به

۞ قوله تعالى (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون) نزلت هذه الآية في أوس بن ثابت الانصاري توفي وترك امرأته ويقال لها أم كحة وثلاث بنات منها فقام رجلان هما ابنا عم الميت ووصياه يقال لهما سويد وعرفجة فاخذا ماله ولم يعطيا امرأته ولا بناته شيأ من ماله وذلك انهم كانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغير من الذكور وانما كانوا يورثون الرجال ويقولون لا يعطى الارث الا من قاتل وحاز الغنيمة وحمى الحوزة فجاءت أم كحة امرأة أوس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله مات أوس بن ثابت وترك ثلاث بنات وأنا امرأته وليس عندي ما أنفق عليهن وقد ترك أبوهن مالا حسنا وهو عند سويد وعرفجة ولم يعطياني ولا بناته منه شيأ وهن في حجري ولا يطعمن ولا يسقين فدعاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا يا رسول الله ان ولدها لا يركبن فرسا ولا يحملن كلا ولا ينكين عدوا فانزل الله هذه الآية وبين ان الارث ليس مختصا بالرجال بل هو أمر يشترك فيه الرجال والنساء فقال تعالى للرجال يعني الذكور من أولاد الميت وعصبته نصيب أي حظ مما ترك الوالدان والاقربون يعني من الميراث (وللنساء نصيب) يعني وللاناث من أولاد الميت حظ (مما ترك الوالدان والاقربون مما قل منه أو كثر) يعني من المال المخلف عن الميت (نصيبا مفروضا) يعني معلوما والفرض ما فرضه الله تعالى وهو آكد من الواجب فلما نزلت هذه الآية مجملة ولم يبين كم هو النصيب أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى سويد وعرفجة لا تفرقا من المال شيأ فان الله تعالى قد جعل لبناته نصيبا مما ترك ولم يبين كم هو حتى أنظر ما ينزل فيهن فانزل الله تعالى يوصيكم الله في أولادكم الآية فلما نزلت أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى سويد وعرفجة ان ادفعا الى أم كحة الثمن مما ترك والى بناته الثلثين ولكما باقي المال ۞ قوله عز وجل (واذا حضر القسمة) يعني قسمة الميراث فعلى هذا

(فاذا دفعتم اليهم أموالهم فاشهدوا عليهم) بانهم تسلموها وقبضوها دفعا للتجاحد وتفاديا عن توجه اليمين عليكم عند التخاصم والتناكر (وكفى بالله حسيبا) محاسبا فعليكم بالتصادق واياكم والتكاذب أو هو راجع الى قوله فليأكل بالمعروف أي ولا يسرف فان الله يحاسبه عليه ويجازيه به وفاعل كفى لفظة الله والباء زائدة وكفى يتعدى الى مفعولين دليله فسيكفيكهم الله (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون) هم المتوارثون من ذوي القرابات دون غيرهم (مما قل منه أو كثر) بدل مما ترك بتكرير العامل والضمير في منه يعود الى ما ترك (نصيبا) نصب على الاختصاص بمعنى أعني نصيبا (مفروضا) مقطوعا لا بد لهم من أن يحوزوه روي ان أوس ابن ثابت ترك امرأته أم كحة وثلاث بنات فزوى ابنا عمه ميراثه عنهن وكان أهل الجاهلية لا يورثون النساء والاطفال ويقولون لا يرث الا من طاعن بالرماح وحاز الغنيمة فجاءت أم كحة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكت فقال ارجعي حتى أنظر ما يحدث الله فنزلت الآية فبعث اليهما لا تفرقا من مال أوس شيأ فان الله تعالى قد جعل لهن نصيبا ولم يبين حتى يبين فنزلت يوصيكم الله فأعطى أم كحة الثمن والبنات الثلثين والباقي ابني العم (واذا حضر القسمة) أي قسمة التركة

القول يكون الخطاب للوارثين (أولوا القربى) يعني القرابة الذين لا يرثون (واليتامى والمساكين) انما قدم اليتامى لشدة ضعفهم وحاجتهم (فارزقوهم منه) أي فارضخوا لهم من المال قبل القسمة واختلف العلماء في حكم هذه الآية فقال قوم هذه الآية منسوخة بآية المواريث وهذا قبل نزول آية المواريث فلما نزلت آية المواريث جعلت لاهلها ونسخت هذه الآية وهي رواية مجاهد عن ابن عباس وقول سعيد بن المسيب وعكرمة والضحاك وقتادة وقال قوم هي محكمة غير منسوخة وهي الرواية الاخرى عن ابن عباس وهو قول أبي موسى الاشعري والحسن وأبي العالية والشعبي وعطاء بن أبي رباح وسعيد بن جبير ومجاهد والنخعي والزهري ثم اختلف العلماء بعد القول بانها محكمة هل هذا الامر أمر وجوب أو ندب على قولين أحدهما انه واجب فقيل ان كان الوارث كبيرا وجب عليه أن يرضخ لمن حضر القسمة شيأ من المال بقدر تطيب به نفسه وان كان الوارث صغيرا وجب على الولي أن يعتذر اليهم ويقول اني لا أملك هذا المال وهو لهؤلاء الضعفاء قال ابن عباس ان كان الورثة كبارا رضخوا لهم وان كان الورثة صغارا اعتذر اليهم فيقول الولي أو الوصي اني لا أملك هذا المال وانما هو للصغار ولو كان لي منه شئ لاعطيتكم وان يكبروا فسيعرفوا حقكم هذا هو القول المعروف وقال بعضهم هذا حق واجب في مال الصغار والكبار فان كان الورثة كبارا تولوا اعطاءهم بانفسهم وان كانوا صغارا أعطى وليهم وروى محمد بن سيرين ان عبيدة السلماني قسم أموال أيتام فامر بشاة فذبحت وصنعت طعاما لاجل هذه الآية وقال لولا هذه الآية لكان هذا من مالي وقال الحسن والنخعي هذا الرضخ مختص بقسمة الاعيان فاذا آل الامر الى قسمة الارضين والرقيق وما أشبه ذلك فقولوا لهم قولا معروفا وقيل كانوا يعطون التابوت والاواني ورث الثياب والمتاع الذي يستحي من قسمته والقول الثاني ان هذا الامر ندب واستحباب لا على سبيل الفرض والايجاب وهذا القول هو الاصح الذي عليه العمل اليوم واحتجوا لهذا القول بانه لو كان لهؤلاء حق معين لبينه الله تعالى كما بين سائر الحقوق فحيث لم يبين علمنا ان ذلك غير واجب وقيل في معنى الآية ان المراد بالقسمة الوصية فاذا حضر الوصية من لا يرث من الاقرباء واليتامى والمساكين أمر الله الوصي أن يجعل لهم نصيبا من تلك الوصية ويقول لهم مع ذلك قولا معروفا وقوله (وقولوا لهم قولا معروفا) هو أن لا يتبع العطية بالمن والاذى ﴿ قوله تعالى (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا) يعني أولادا صغارا (خافوا عليهم) يعني الفقر قيل هذا خطاب للذين يجلسون عند المريض وقد حضره الموت فيقولون له انظر لنفسك فان أولادك وورثتك لا يغنون عنك شيأ قدم لنفسك اعتق وتصدق وأعط فلا يزالون به حتى يأتي على عامة ماله فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم بان يأمروه بالنظر لولده ولا يزيد على الثلث في وصيته ولا يجحف والمعنى كما انكم تكرهون بقاء أولادكم في الضعف والجوع من غير مال فاخشوا الله ولا تحملوا المريض على أن يحرم أولاده الصغار من ماله وحاصل هذا الكلام كما أنك لا ترضى مثل هذا الفعل لنفسك فلا ترضه لاخيك المسلم وكانه لو كان هذا القائل هو الموصي لسره ان يحثه من يحضره على حفظ ماله لولده ولا يدعهم عالة يتكففون الناس مع ضعفهم وعجزهم وقيل هو الرجل يحضره الموت ويريد أن يوصي بشئ فيقول له من حضره من الرجال اتق الله وأمسك أموالك لولدك فيمنعونه من الوصية لاقاربه المحتاجين وقيل الآية يحتمل أن تكون خطابا لمن حضر أجله ويكون المقصود نهيه عن تكثير الوصية لئلا تبقى ورثته فقراء ضعافا ضائعين بعده ثم ان كانت هذه الآية نزلت قبل تقدير الثلث كان المراد منها ان لا يجعل الوصية مستغرقة للتركة وان كانت قد نزلت بعد تقدير الثلث كان المراد منها أن يوصي بالثلث أو باقل منه اذا خاف على ورثته كما روي عن كثير من الصحابة انهم أوصوا بالقليل لاجل ذلك وكانوا يقولون الخمس في الوصية أفضل من الربع والربع أفضل من الثلث وقد ورد في الصحيح الثلث والثلث كثير لأن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس يعني يسألونهم

(أولوا القربى) ممن لا يرث (واليتامى والمساكين) من الاجانب (فارزقوهم) فاعطوهم (منه) مما ترك الوالدان والاقربون وهو أمر ندب وهو باق لم ينسخ وقيل كان واجبا في الابتداء ثم نسخ بآية الميراث (وقولوا لهم قولا معروفا) عذرا جميلا وعدة حسنة وقيل القول المعروف ان يقولوا لهم خذوا بارك الله عليكم ويستقلوا ما أعطوهم ولا يمنوا عليهم (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم

فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا) المراد بهم الاوصياء أمروا بان يخشوا الله فيخافوا على من فى حجورهم من اليتامى فيشفقوا عليهم خوفهم على ذريتهم لو تركوهم ضعافا وأن يقدروا ذلك فى أنفسهم ويصوروه حتى لا يجسروا على خلاف الشفقة والرحمة ولو مع ما فى حيزه صلة للذين أى وليخش الذين صفتهم وحالهم انهم لو شارفوا ان يتركوا خلفهم ذرية ضعافا وذلك عند احتضارهم خافوا عليهم الضياع بعدهم لذهاب كافلهم وجواب لو خافوا والقول السديد من الاوصياء ان يكلموهم كما يكلمون أولادهم بالادب الحسن والترحيب ويدعوهم بيابنى ويا ولدى (ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما) ظالمين فهو مصدر فى موضع الحال (انما يأكلون فى بطونهم) ملء بطونهم (نارا) أى يأكلون ما يجر الى النار فكانه نار روى انه يبعث آكل مال اليتامى يوم القيامة والدخان يخرج من قبره ومن فيه وأذنيه فيعرف الناس انه كان يأكل مال اليتيم فى الدنيا (وسيصلون) شامى وأبو بكر أى سيدخلون (سعيرا) نارا من النيران مبهمة الوصف (يوصيكم الله) يعهد اليكم ويامركم (فى أولادكم) فى شأن ميراثهم وهذا اجمال تفصيله (للذكر مثل حظ الانثيين) أى للذكر منهم أى من أولادكم فحذف الراجع اليه لانه مفهوم كقولهم السمن منوان بدرهم وبدأ بحظ الذكر ولم يقل للانثيين مثل حظ الذكر أو للانثى نصف حظ الذكر لفضله كما ضوعف حظه لذلك ولانهم كانوا يورثون الذكور دون الاناث وهو السبب لورود الآية فقيل كفى الذكور أن ضوعف لهم نصيب الاناث فلا يتمادى فى حظهن حتى يحرمن مع ادلائهن من القرابة بمثل ما يدلون به والمراد حال الاجتماع أى اذا اجتمع الذكر والانثيان كان له سهمان كما ان لهما سهمين وأما فى حال الانفراد فالابن ياخذ المال كله والبنتان تاخذان الثلثين والدليل عليه انه اتبعه حكم الانفراد بقوله

باكفهم وقيل هو خطاب لاولياء اليتامى والمعنى وليخش من خاف على ولده من بعد موته ان يضيع مال اليتيم الضعيف الذى هو ذرية غيره اذا كان فى حجره والمقصود من الآية من كان فى حجره يتيم فليحسن اليه وليه أو وصيه وليفعل به ما يحب أن يفعل باولاده من بعده (فليتقوا الله) يعنى فى الامر الذى تقدم ذكره (وليقولوا قولا سديدا) يعنى عدلا وصوابا فالقول السديد من الجالسين عند المريض هو أن يامره ان يتصدق بدون الثلث ويترك الباقى لولده وورثته وان لا يحيف فى وصيته والقول السديد من الاوصياء وأولياء اليتامى ان يكلموهم كما يكلمون أولادهم ولا يؤذوهم بقول ولا فعل ۞ قوله عز وجل (ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما) قال مقاتل وابن حبان نزلت فى رجل من غطفان يقال له مرثد بن زيد ولى مال يتيم وكان اليتيم ابن أخيه فاكله فانزل الله هذه الآية ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما يعنى حراما بغير حق (انما يأكلون فى بطونهم نارا) يعنى سيأكلون يوم القيامة فسمى الذى يأكلون نارا بما يؤول اليه أمرهم يوم القيامة قال السدى يبعث آكل مال اليتيم ظلما يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه ومن مسامعه وأذنيه وعينيه وأنفه يعرفه من رآه بآكل مال اليتيم وفى حديث أبى سعيد الخدرى قال حدثنا النبى صلى الله عليه وسلم عن ليلة أسرى به قال نظرت فاذا أنا بقوم لهم مشافر كمشافر الابل وقد وكل بهم من ياخذ بمشافرهم ثم يجعل فى أفواههم صخرا من نار يخرج من أسافلهم قلت يا جبريل من هؤلاء قال هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وقيل انما ذكر أكل النار على سبيل التمثيل والتوسع فى الكلام والمراد ان أكل مال اليتيم ظلما يفضى به الى النار وانما خص الاكل بالذكر وان كان المراد سائر أنواع الاتلافات وجميع التصرفات الرديئة المتلفة للمال لان الضرر يحصل بكل ذلك لليتيم فعبر عن جميع ذلك بالاكل لانه معظم المقصود وانما ذكر البطون للتأكيد فهو كقولك رأيت بعينى وسمعت باذنى (وسيصلون سعيرا) يعنى بأكلهم أموال اليتامى ظلما والسعير النار الموقدة المسعرة ولما نزلت هذه الآية ثقل ذلك على الناس واحترزوا من مخالطة اليتامى وأموالهم بالكلية فشق ذلك على اليتامى فنزل قوله تعالى وان تخالطوهم فاخوانكم وقد توهم بعضهم ان قوله وان تخالطوهم ناسخ هذه الآية وهذا غلط ممن توهمه لان هذه الآية واردة فى المنع من أكل أموال اليتامى ظلما وهذا لا يصير منسوخا لان أكل مال اليتيم بغير حق من أعظم الآثام وقوله وان تخالطوهم فاخوانكم وارد على سبيل الاصلاح فى أموال اليتامى والاحسان اليهم وهو من أعظم القرب ۞ قوله تعالى (يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين) اختلف العلماء فى سبب نزول هذه الآية فروى عن جابر قال مرضت فاتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودنى وأبو بكر وهما يمشيان فوجدانى أغمى على فتوضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صب وضوءه على فافقت فاذا النبى صلى الله عليه وسلم جالس فقلت يا رسول الله كيف أصنع فى مالى كيف أقضى فى مالى فلم يجبنى بشىء حتى نزلت آية الميراث وفى رواية فقلت لا يرثنى الا كلالة فكيف الميراث فنزلت آية الفرائض وفى رواية أخرى فنزلت يوصيكم الله فى أولادكم وفى رواية أخرى فلم يرد على شيأ حتى نزلت آية الميراث يستفتونك قل الله يفتيكم أخرجه البخارى ومسلم وقال مقاتل

والكلبي نزلت في أم كحة امرأة أوس بن ثابت وبناته وقال عطاء نزلت في سعد بن الربيع النقيب استشهد يوم أحد وترك بنتين وامرأة وأخا (ق) عن جابر رضي الله عنه قال جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها من سعد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك يوم أحد شهيدا وان عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا ولا ينكحان الا ولهما مال قال يقضي الله في ذلك فنزلت آية الميراث فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عمهما فقال اعط ابنتي سعد الثلثين واعط أمهما الثمن ومابقي فهولك أخرجه الترمذي وقال السدي كان أهل الجاهلية لايورثون الجواري ولا الضعفاء من الغلمان لايرث الرجل من ولده الامن أطاق القتال فمات عبد الرحمن أخو حسان الشاعر وترك امرأة وخمس بنات فجاء الورثة وأخذوا ماله فشكت امرأته الى النبي صلى الله عليه وسلم فانزل الله تعالى هذه الآية الكريمة وقبل الشروع في تفسير هذه الآية الكريمة تقدم فصولا تتضمن أحكام الفرائض وأصول قواعدها

﴿فصل في الحث على تعليم الفرائض﴾ اعلم ان علم الفرائض من أعظم العلوم قدرا واشرفها ذخرا وأفضلها ذكرا وهي ركن من أركان الشريعة وفرع من فروعها في الحقيقة اشتغل الصدر الاول من الصحابة بتحصيلها وتكلموا في فروعها وأصولها ويكفي في فضلها ان الله عز وجل تولى قسمتها بنفسه وانزلها في كتابه مبينة من محل قدسه وقد حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على تعليمها فيما رواه أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلموا الفرائض والقرآن وعلموا الناس فاني مقبوض أخرجه الترمذي وقال فيه اضطراب وأخرجه أحمد بن حنبل وزاد فيه فاني امرؤ مقبوض والعلم مرفوع ويوشك ان يختلف اثنان في الفريضة فلا يجدان أحدا يخبرهما عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلموا الفرائض وعلموها فانه نصف العلم وهو أول علم ينسى وهو أول شئ ينزع من أمتي أخرجه ابن ماجه والدارقطني

﴿فصل في بيان أحكام الفرائض﴾ اذا مات الميت وله مال يبدأ بتجهيزه من ماله ثم تقضى ديونه ان كان عليه دين ثم تنفذ وصاياه ومافضل بعد ذلك من ماله يقسم بين ورثته والوارثون من الرجال عشرة الابن وابن الابن وان سفل والاب والجد وان علا والاخ سواء كان لاب وأم أولاب أولام وابن الاخ للاب والام أوللاب وان سفل والعم للاب والام أوللاب وابناهما وان سفلوا والزوج والمعتق والوارثات من النساء سبع البنت وبنت الابن وان سفلت والام والجدة وان علت والاخت من كل الجهات والزوجة والمعتقة وستة من هؤلاء لايلحقهم حجب الحرمان بالغير وهم الابوان والولدان والزوجان لانه ليس بينهم وبين الميت واسطة ثم الورثة ثلاثة أصناف صنف يرث بالفرض المجرد وهم الزوجان والبنات والاخوات والامهات والجدات وأولاد الام وصنف يرث بالتعصيب وهم البنون والاخوة وبنوهم والاعمام وبنوهم وصنف يرث بالتعصيب تارة وبالفرض أخرى وهما الاب والجد فيرث بالتعصيب اذا لم يكن للميت ولد فان كان له ابن ورث الاب بالفرض السدس وان كانت بنت ورث السدس بالفرض وأخذ الباقي بالتعصيب والعصبة اسم لمن يأخذ جميع المال اذا انفرد ويأخذ مافضل عن أصحاب الفرائض

﴿فصل﴾ وأسباب الارث ثلاثة نسب ونكاح وولاء فالنسب القرابة يرث بعضهم بعضا والنكاح هو أن يرث أحد الزوجين من صاحبه بسبب النكاح والولاء هو ان المعتق وعصباته يرثون المعتق والاسباب التي تمنع الميراث أربعة اختلاف الدين فالكافر لايرث المسلم ولا المسلم يرث الكافر لما روى عن اسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لايرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم أخرجاه في الصحيحين فاما الكفار فيرث بعضهم بعضا مع اختلاف مللهم وأديانهم لان الكفر كله ملة واحدة وذهب بعضهم الى ان اختلاف الملل والكفر يمنع التوارث أيضا حتى لايرث اليهودي من النصراني ولا النصراني من المجوسي والى هذا ذهب

الزهري والاوزاعي وأحمد واسحق لما روى عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا توارث بين أهل ملتين أخرجه الترمذي وقال حديث غريب * عن عبد الله بن عمرو بن العاص ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يتوارث أهل ملتين شتى أخرجه أبو داود وحمله الآخرون على الاسلام والكفر لان الكفر عندهم ملة واحدة فتوريث بعضهم من بعض لا يكون فيه اثبات التوارث بين ملتين شتى والرق يمنع الارث لان الرقيق ملك ولا ملك له فلا يرث ولا يورث والقتل يمنع الارث عمدا كان القتل أو خطأ لما روى عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال القاتل لا يرث أخرجه الترمذي وقال هذا حديث لا يصح والعمل عليه عند أهل العلم ان القاتل لا يرث سواء كان القتل عمدا أو خطأ وقال بعضهم اذا كان القتل خطأ فانه يرث وهو قول مالك وعمى الموت وهو أن يخفى موت المتوارثين وذلك بان غرقا أو انهدم عليهما بناء فلم يدر أيهما اسبق موته فلا يرث أحدهما الآخر بل يكون ارث كل واحد منهما لمن كانت حياته يقينا بعد موته من ورثته

﴿فصل﴾ والسهام المحدودة في الفرائض المذكورة في كتاب الله عز وجل ستة النصف والربع والثمن والثلثان والثلث والسدس فالنصف فرض خمسة فرض الزوج عند عدم الولد وفرض البنت الواحدة للصلب أو بنت الابن عند عدم بنت الصلب وفرض الاخت الواحدة للاب والام وفرض الاخت الواحدة للاب اذا لم يكن ولد للاب وأم والربع فرض الزوج مع الولد وفرض الزوجة مع عدم الولد والثمن فرض الزوجة مع الولد والثلثان فرض البنتين فصاعدا أو بنات الابن عند عدم بنات الصلب وفرض الاختين فصاعدا للاب والام أو للاب والثلث فرض ثلاثة فرض الام اذا لم يكن للميت ولد ولا اثنان من الاخوة والاخوات الا في مسئلتين احداهما زوج وأبوان والاخرى زوجة وأبوان فان للام فيهما ثلث الباقي بعد نصيب الزوج أو الزوجة وفرض الاثنين فصاعدا من أولاد الام ذكرهم وأنثاهم فيه سواء وفرض الجد مع الاخوة اذا لم يكن في المسئلة صاحب فرض وكان الثلث للجد خيرا من المقاسمة مع الاخوة والسدس فرض سبعة فرض الاب اذا كان للميت ولد وفرض الام اذا كان للميت ولد أو ولد ابن أو اثنان من الاخوة والاخوات وفرض الجد اذا كان للميت ولد ومع الاخوة اذا كان في المسئلة صاحب فرض وكان السدس خيرا للجد من المقاسمة مع الاخوة وفرض الجدة والجدات وفرض الواحد من أولاد الام ذكرا كان أو أنثى وفرض بنات الابن مع بنت الصلب تكملة الثلثين وفرض الاخوات للاب مع الاخت للاب والام تكملة الثلثين (ق) عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألحقوا الفرائض باهلها فما بقي فهو لأولى رجل ذكر (خ) عن ابن عباس قال كان المال للولد والوصية للوالدين فنسخ الله من ذلك ما أحب فجعل للذكر مثل حظ الانثيين وجعل للابوين لكل واحد منهما السدس والثلث وجعل للمرأة الثمن والربع وللزوج الشطر والربع اه

﴿فصل﴾ روى عن زيد بن ثابت قال ولد الابناء بمنزلة الابناء اذا لم يكن دونهن ابن ذكرهم كذكرهم وأنثاهم كانثاهم يرثون كما يرثون ويحجبون كما يحجبون ولا يرث ولد ابن مع ابن ذكر فان ترك ابنة وابن ابن ذكرا كان للبنت النصف ولابن الابن ما بقي لقوله صلى الله عليه وسلم ألحقوا الفرائض باهلها فما بقي فهو لأولى رجل ذكر ففي هذا الحديث دليل على أن بعض الورثة يحجب البعض والحجب حجبان حجب نقصان وحجب حرمان أما الاول وهو حجب النقصان فهو أن الولد وولد الابن يحجب الزوج من النصف الى الربع والزوجة من الربع الى الثمن والام من الثلث الى السدس وكذلك الاثنان من الاخوة والاخوات يحجبون الام من الثلث الى السدس وأما الثاني وهو حجب الحرمان فهو أن الام تسقط الجدات وأولاد الام وهم الاخوة للام يسقطون باربعة بالاب والجد وان علا وبالولد وولد الابن وأولاد الاب والام وهم الاخوة للاب والام يسقطون بثلاثة بالاب والابن وابن الابن وان سفلوا ولا يسقطون بالجد على مذهب زيد بن ثابت وهو

قول عمر وعثمان وعلى وابن مسعود وبه قال مالك والاوزاعى والشافعى وأحمد وأولاد الاب يسقطون بهؤلاء الثلاثة وبالاخ للاب والام وذهب قوم الى أن الاخوة يسقطون جميعا بالجد كما يسقطون بالاب وهو قول أبى بكر الصديق وابن عباس ومعاذ وأبى الدرداء وعائشة وبه قال الحسن وعطاء وطاوس وأبو حنيفة والاقرب من العصبات يسقط الابعد منهم فاقربهم الابن ثم ابن الابن وان سفل ثم الاب ثم الجد وان علا فان كان مع الجد أحد من الاخوة والاخوات للاب والام أو للاب يشترك كان فى الميراث فان لم يكن جد فللاخ للاب والام ثم الاخ للاب ثم بنو الاخوة يقدم أقربهم سواء كان لاب وأم أو لأب فان استويا فى الدرجة فالذى هو لأب وأم أولى ثم العم لاب وأم ثم لاب ثم بنوهم على ترتيب بنى الاخوة ثم عم الاب ثم عم الجد على الترتيب فان لم يكن أحد من عصبات النسب وعلى الميت ولاء فالميراث للمعتق فان لم يكن حيا فلعصبات المعتق وأربعة من الذكور يعصبون الاناث الابن وابن الابن والاخ للاب والام والاخ للاب فلومات عن ابن وبنت أو عن أخ وأخت لاب وأم أو لاب يكون المال بينهما للذكر مثل حظ الانثيين ولا يفرض للبنت والاخت وكذلك ابن الابن يعصب من فى درجته من الاناث ومن فوقه اذا لم يأخذن من الثلثين شيأ حتى لومات عن بنتين وبنت ابن فللبنتين الثلثان ولاشئ لبنت الابن فان كان فى درجتها ابن ابن أو أسفل منها ابن ابن ابن كان الباقى بينهما للذكر مثل حظ الانثيين والاخت للاب والام أو للاب تكون مع البنت عصبة حتى لومات عن بنت وأخت كان للبنت النصف والباقى وهو النصف للاخت ولومات عن بنتين وأخت كان للبنتين الثلثان والباقى للاخت ويدل على ذلك ماروى عن هذيل بن شرحبيل قال سئل أبو موسى عن ابنة وابنة ابن وأخت فقال للابنة النصف وللاخت النصف وأت ابن مسعود فسئل ابن مسعود وأخبر بقول أبى موسى فقال ابن مسعود لقد ضللت وما أنا من المهتدين ثم قال أقضى فيها بقضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم للابنة النصف ولابنة الابن السدس تكملة الثلثين ومابقى فللاخت فأخبرأبو موسى بقول ابن مسعود فقال لا تسألونى مادام هذا الحبر فيكم أخرجه البخارى وأما التفسير فقوله تعالى يوصيكم الله أى يعهد اليكم ويفرض عليكم فى أولادكم يعنى فى أمر أولادكم اذا متم والوصية من الله ايجاب وانما بدأ الله تعالى بذكر ميراث الاولاد لان تعلق قلب الانسان بولده أشد من تعلقه بغيره فلهذا قدم الله ذكر ميراثهم للذكر مثل حظ الانثيين يعنى ان الولد الذكر له من الميراث ضعفا سهام الانثى فللذكر سهمان وللانثى سهم فلوحصل مع الاولاد غيرهم من الورثة من أهل الفروض كالابوين أخذوا فروضهم ومابقى بعد ذلك كان بين الاولاد للذكر مثل حظ الانثيين (فان كن) يعنى المتروكات من الاولاد (نساء فوق اثنتين) يعنى بنتين فصاعدا (فلهن ثلثا ماترك) وأجمعت الامة على أن للبنتين الثلثين الا ماروى عن ابن عباس انه ذهب الى ظاهر الآية وقال الثلثان فرض الثلاث من البنات لان الله تعالى قال فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ماترك فجعل الثلثين للنساء اذا زدن على الثنتين وعنده ان فرض الثنتين النصف كفرض الواحدة وأجيب عنه بوجوه فيها حجة لمذهب الجمهور أيضا الوجه الاول ان الله تعالى قال وان كانت واحدة فلها النصف فجعل النصف للواحدة وذلك ينفى حصول النصف نصيبا للبنتين الوجه الثانى ان فى الآية تقديما وتأخيرا والتقدير فان كن نساء اثنتين فما فوقهما فلهن الثلثان الوجه الثالث ان لفظة فوق ههنا صلة والتقدير فان كن نساء اثنتين فهو كقوله فاضربوا فوق الاعناق يعنى فاضربوا الاعناق وانما سمى الاثنتين نساء بلفظ الجمع لان العرب تطلق على الاثنين جماعة بدليل قوله تعالى فقد صغت قلوبكما الوجه الرابع قال علماء الجمهور انما أعطينا البنتين الثلثين بتأويل القرآن لان الله تعالى جعل للبنت الواحدة النصف بقوله تعالى وان كانت واحدة فلها النصف وجعل للاخت الواحدة النصف بقوله ان امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ماترك ثم جعل للاختين الثلثين بقوله فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان فلما جعل للاختين الثلثين علمنا ان للبنتين الثلثين قياسا على الاختين الوجه الخامس ان النبى صلى الله عليه وسلم قضى

(فان كن نساء) أى فان كانت الاولاد نساء خاصا يعنى بنات ليس معهن ابن (فوق اثنتين) خبر ثان لكان أو صفة لنساء أى نساء زائدات على اثنتين (فلهن ثلثا ماترك) أى الميت لان الآية لما كانت فى الميراث علم أن التارك هو الميت

(وان كانت واحدة فلها النصف) أي وان كانت المولودة منفردة واحدة مبنى على كان التامة والنصب أوفق لقوله فان كن نساء فان قلت قد
ذكر حكم البنتين في حال اجتماعهما مع الابن وحكم البنات والبنت في حال الانفراد ولم يذكر حكم البنتين في الانفراد فما حكمهما حال الانفراد
قلت حكمهما مختلف فيه فابن عباس رضي الله عنهما انزلهما منزلة الواحدة لا منزلة الجماعة وغيره من الصحابة رضي الله عنهم أعطوهما حكم
الجماعة بمقتضى قوله للذكر مثل حظ الانثيين وذلك لان من مات وخلف بنتا وابنا فالثلث للبنت والثلثان للابن فاذا كان الثلث لبنت
واحدة كان الثلثان للبنتين ولانه قال في آخر السورة ان امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها ان لم يكن لها ولد فان
كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك والبنتان أمس رحما بالميت من الاختين فاوجبوا لهما ما أوجب الله للاختين ولم ينقصوا حظهما عن حظ

من هو أبعد منهما ولان البنت لما وجب لها مع أخيها الثلث كان أحرى ان يجب لها الثلث اذا كانت مع
أخت مثلها ويكون لاختها معها مثل ما كان يجب لها أيضا مع أخيها لو انفردت معه فوجب لهما الثلثان وفي الآية دلالة على أن المال كله للذكر اذا لم يكن معه أنثى لانه جعل للذكر مثل حظ الانثيين وقد جعل للانثى النصف اذا كانت منفردة فعلم ان للذكر في حال الانفراد ضعف النصف وهو الكل والضمير في (ولابويه) للميت والمراد الاب والام الا أنه غلب الذكر (لكل واحد منهما السدس) بدل من لابويه بتكرير العامل وفائدة هذا البدل انه لو قيل ولابويه السدس لكان ظاهره اشتراكهما فيه ولو قيل ولابويه السدسان لاوهم قسمة السدسين عليهما على التسوية وعلى خلافها
ولو قيل ولكل واحد من أبويه السدس لذهبت فائدة التأكيد وهو التفصيل بعد الاجمال والسدس
مبتدأ خبره لابويه والبدل متوسط بينهما للبيان وقرأ الحسن السدس والربع والثمن والثلث بالتخفيف (مما ترك ان كان له ولد) هو يقع
على الذكر والانثى (فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلامه الثلث) أي مما ترك والمعنى وورثه أبواه فحسب لانه اذا ورثه أبواه مع أحد الزوجين
كان للام ثلث ما يبقى بعد اخراج نصيب الزوج لا ثلث ما ترك لان الاب أقوى من الام في الارث بدليل ان له ضعف حظها اذا خلصا فلو ضرب لها
الثلث كملا لادى الى حط نصيبه عن نصيبها فان امرأة لو تركت زوجا وأبوين فصار للزوج النصف وللام الثلث والباقي للاب حازت الام
سهمين والاب سهما واحدا فينقلب الحكم الى ان يكون للانثى مثل حظ الذكرين فلامه بكسر الهمزة حمزة وعلى لمجاورة كسر اللام (فان كان
له) أي للميت (اخوة فلامه السدس) اذا كان للميت اثنان من الاخوة والاخوات فصاعدا فلامه السدس والاخ الواحد لا يحجب
والاعيان والعلات والاخياف في حجب الام سواء

بالثلثين لابنتي سعد بن الربيع وهذا نص واضح في المسئلة وقوله تعالى (وان كانت واحدة) يعني البنت
واحدة (فلها النصف) يعني فرضا لها (ولابويه) يعني أبوي الميت كناية عن غير مذكور وهما والداه
(لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد) يعني أن للاب والام مع وجود الولد أو ولد الابن لكل
واحد منهما سدس الميراث واعلم ان اسم الولد يقع على الذكر والانثى فاذا مات الميت وترك أبوين وولدا
ذكرا واحدا كان أو أكثر أو ترك بنات فان للام السدس بالفرض وللاب السدس مع الولد الذكر
بالفرض ومع البنات له السدس بالتعصيب وهو الباقي من التركة وله مع البنت الواحدة السدس بالفرض
والباقي بالتعصيب (فان لم يكن له ولد) يعني للميت (وورثه أبواه فلامه الثلث) يعني ان الميت اذا مات عن
أبوين وليس له وارث سواهما فان الام تأخذ الثلث بالفرض ويأخذ الاب باقي المال بالفرض والتعصيب
فيكون المال بينهما أثلاثا للذكر مثل حظ الانثيين فان كان مع الابوين أحد الزوجين فيفرض للام
ثلث الباقي بعد نصيب الزوج أو الزوجة (فان كان له) يعني للميت (اخوة) يعني ذكورا أو اناثا (فلامه
السدس) يعني لام الميت سدس التركة اذا كان معها أب وأجمع العلماء على أن الثلاثة يحجبون الام
من الثلث الى السدس وان الاخ الواحد والاخت الواحدة لا تحجب الام من الثلث الى السدس
واختلفوا في الاخوين فاكثرون من الصحابة يقولون ان الاخوين يحجبان الام من الثلث الى السدس
وهذا قول عمر وعثمان وعلي وزيد بن ثابت والجمهور وقال ابن عباس لا تحجب الاخوة الام من الثلث الى
السدس الا أن يكونوا ثلاثة قال ابن عباس لعثمان لم صار الاخوان يردان الام من الثلث الى السدس وانما
قال الله تعالى فان كان له اخوة والاخوان في لسان قومك ليسا باخوة فقال عثمان يا بني ان قومك حجبوها
باخوين ولا أستطيع نقض أمر قد كان قبلي وانما نشأ هذا الاختلاف لانهم اختلفوا في أقل الجمع وفيه
قولان أحدهما ان أقل الجمع اثنان وهو قول القاضي أبي بكر الباقلاني وحجة هذا القول انك اذا جمعت
واحدا الى واحد فهما جماعة لان أصل الجمع ضم شيء الى شيء وقال ابن الانباري التثنية عند العرب أول الجمع
ومشهور في كلامهم ايقاع الجمع على التثنية فمن ذلك قوله تعالى وكنا لحكمهم شاهدين وهما داود وسليمان
عليهما السلام ومنه قوله تعالى فقد صغت قلوبكما يريد قلباكما والقول الثاني ان أقل الجمع ثلاثة وهو قول
جمهور العلماء وهو الاصح وانما حجب العلماء الام بالاخوين لدليل اتفقوا عليه وهو ان لفظ الاخوة يطلق

(من بعد وصية) متعلق بما تقدمه من قسمة المواريث كلها لا بما يليه وحده كأنه قيل قسمة هذه الانصباء من بعد وصية (يوصى بها) وما بعده بفتح الصاد مكي وشامي وحماد ويحيى ووافق الاعشى في الاولى وحفص في الثانية لمجاورة يورث وكسر الاولى لمجاورة يوصيكم الله الباقون بكسر الصادين أي يوصي بها الميت (أو دين) والاشكال ان الدين مقدم على الوصية في الشرع وقدمت الوصية على الدين في التلاوة والجواب ان أو لا تدل على الترتيب ألا ترى انك اذا قلت جاءني زيد أو عمرو كان المعنى جاءني أحد الرجلين فكان التقدير في قوله من بعد وصية يوصى بها أو دين من بعد أحد هذين الشيئين الوصية أو الدين ولو قيل بهذا اللفظ لم يدر فيه الترتيب بل يجوز تقديم المؤخر وتأخير المقدم كذا هنا وانما قدمنا الدين على الوصية بقوله عليه السلام ألا ان الدين قبل الوصية ولأنها تشبه الميراث من حيث انها صلة بلا عوض فكان اخراجها مما يشق على الورثة وكان أداؤها مظنة للتفريط بخلاف الدين فقدمت على الدين ليسارعوا الى اخراجها مع الدين (آباؤكم) مبتدأ (وأبناؤكم) عطف عليه والخبر (لا تدرون) وقوله (أيهم) مبتدأ خبره (أقرب لكم) والجملة في موضع نصب بتدرون (نفعا) تمييز والمعنى فرض الله الفرائض على ما هو عليه حكمة ولو وكل ذلك اليكم لم تعلموا أيهم أنفع لكم فوضعتم أنتم الاموال على غير حكمة والتفاوت في السهام بتفاوت المنافع وأنتم لا تدرون تفاوتها فتولى الله ذلك فضلا منه ولم يكلها الى اجتهادكم لعجزكم عن معرفة المقادير وهذه الجملة اعتراضية مؤكدة لا موضع لها من الاعراب واعلم (فريضة) ونصبت نصب المصدر المؤكد أي فرض ذلك فرضا (من الله ان الله كان عليما) بالاشياء قبل خلقها (حكيما) في كل ما فرض وقسم من المواريث وغيرها (ولكم نصف ما ترك أزواجكم) أي زوجاتكم (ان لم يكن لهن ولد) أي ابن أو بنت (فان كان لهن ولد) منكم أو من غيركم (فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين) والواحدة والجماعة سواء في الربع والثمن جعل ميراث الزوج ضعف ميراث الزوجة لدلالة قوله للذكر مثل حظ

على الاخوين فما زاد وذلك جائز في اللغة كما تقدم ثم ان الاخوة اذا حجبوا الام من الثلث الى السدس فانهم لا يرثون شيأ البتة بل يأخذ الاب الباقي كرجل مات عن أبوين وأخوين فان للام السدس والباقي وهو خمسة أسداس للاب سدس بالفريضة والباقي بالتعصيب قال قتادة وانما حجب الاخوة الام من غير أن يرثوا مع الاب شيأ معونة للاب لانه يقوم بشأنهم وينفق عليهم دون الام (من بعد وصية يوصى بها أو دين) يعني ان هذه الانصباء والسهام انما تقسم بعد قضاء الدين وانفاذ وصية الميت في ثلثه وذكر الوصية مقدم على الدين في اللفظ لا في الحكم لان لفظة أو لا توجب الترتيب وانما هي لاحد الشيئين كأنه قال من بعد أحد هذين مفردا أو مضموما الى الآخر قال علي رضي الله عنه انكم تقرؤن الوصية قبل الدين وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدين قبل الوصية وهذا اجماع على أن الدين مقدم على الوصية والارث مؤخر عنهما لان الدين حق على الميت والوصية حق له وهما يتقدمان على حق الورثة ۞ قوله تعالى (آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا) قيل هذا كلام معترض بين ذكر الوارثين وانصبائهم وبين قوله فريضة من الله ولا تعلق لمعناه بمعنى الآية ومعنى هذا الكلام في قول ابن عباس ان الله عز وجل يشفع المؤمنين بعضهم في بعض فاطوعكم لله من الآباء والابناء أرفعكم درجة فان كان الوالد أرفع درجة من ولده رفع الله درجة ولده اليه وان كان الولد أرفع درجة من والديه رفع الله اليه والديه لتقر بذلك أعينهم فقال تعالى لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا لان احدهما لا يعرف منفعة صاحبه له في الجنة وسبقه الى منزلة عالية تكون سببا لرفعته اليها وقيل ان هذا الكلام ليس معترضا بينهما ومعناه متعلق بمعنى الآية يقول آباؤكم وأبناؤكم يعني الذين يرثونكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا أي لا تعلمون أيهم أنفع لكم في الدين والدنيا فمنكم من يظن ان الاب أنفع له فيكون الابن أنفع له ومنكم من يظن ان الابن أنفع له فيكون الاب أنفع له ولكن الله هو الذي دبر أمركم على ما فيه المصلحة لكم فاتبعوه ولو وكل ذلك اليكم لم تعلموا أيهم أنفع لكم فتعطون من لا يستحق ما لا يستحق من الميراث وتمنعون من يستحق الميراث (فريضة من الله) يعني ما قدر من المواريث لاهلها فريضة واجبة (ان الله كان عليما حكيما) يعني كان عليما بالاشياء قبل خلقها حكيما فيما قدر من الفرائض وفرض من الاحكام وقيل معناه عليما بخلقه قبل أن يخلقهم حكيما حيث فرض للصغار مع الكبار ولم يخص الكبار بالميراث كما كانت العرب تفعل وفي معنى لفظة كان ثلاثة أقوال أحدها ان الله تعالى كان عليما بالاشياء قبل خلقها ولم يزل كذلك الثاني حكى الزجاج عن سيبويه انه قال ان القوم لما شاهدوا علما وحكمة ومغفرة وفضلا قيل لهم ان الله كان كذلك ولم يزل الله على ما شاهدتم الثالث قال الخليل الخبر عن الله عز وجل بمثل هذه الاشياء كالخبر بالحال والاستقبال لان صفات الله تعالى لا يجوز عليها الزوال والتقلب ۞ قوله عز وجل (ولكم نصف ما ترك أزواجكم ان لم يكن لهن ولد فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين) هذا ميراث الازواج من الزوجات وقال تعالى في ميراث الزوجات من الازواج (ولهن) يعني للزوجات (الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين) لما جعل الله في الموجب النسبي حظ الرجل مثل حظ الانثيين جعل الله في الموجب السببي للرجل مثل حظ الانثيين

واعلم ان الواحدة من النساء لها الربع أو الثمن وكذلك لو كن أربع زوجات فانهن يشتركن فى الربع أو الثمن واسم الولد يطلق على الذكر والانثى ولا فرق بين الولد وولد الابن وولد البنت فى ذلك وسواء كان الولد للرجل من الزوجة أو من غيرها ۞ قوله تعالى (وان كان رجل يورث كلالة أو امرأة) تقدير الآية وان كان رجل أو امرأة يورث كلالة واختلفوا فى الكلالة فذهب أكثر الصحابة الى ان الكلالة من لا ولد له ولا والد روى الشعبى قال سئل أبو بكر الصديق عن الكلالة فقال سأقول فيها قولا برأيى فان كان صوابا فمن الله وان كان خطأ فمنى ومن الشيطان أراه ما خلا الوالد والولد فلما استخلف عمر قال انى لاستحى من الله ان أرد شيأ قاله أبو بكر وهذا قول على وابن مسعود وزيد بن ثابت واحدى الروايتين عن عمر وابن عباس وهذا القول هو الصحيح المختار ويدل على صحته ان اشتقاق الكلالة من كلت الرحم بين فلان وفلان اذا تباعدت القرابة بينهم فسميت القرابة البعيدة كلالة من هذا الوجه وقيل ان الكلالة فى أصل اللغة عبارة عن الاحاطة ومنه الاكليل لاحاطته بالرأس فمن عدا الوالد والولد من القرابة انما سموا كلالة لانهم كالدائرة المحيطة بالانسان اما نسبة الولادة فليست كذلك لان فيها تفرع البعض عن البعض وتولد البعض من البعض فهو كالشئ الواحد الذى يتزايد على نسق واحد فاما القرابة المغايرة لقرابة الولادة وهم الاخوة والاخوات والاعمام والعمات وغيرهم فانما يحصل نسبهم اتصال احاطة بالمنسوب اليه فثبت بذلك ان الكلالة عبارة عمن عدا الوالد والولد والرواية الاخرى عن عمر وابن عباس ان الكلالة من لا ولد له وبه قال طاوس واحتج لهذا القول بقوله تعالى قل الله يفتيكم فى الكلالة ان امرؤ هلك ليس له ولد وبيانه عند عامة العلماء ماخوذ من حديث جابر بن عبد الله لان الآية نزلت فيه ولم يكن له يوم نزولها أب ولا ابن لان أباه قتل يوم أحد وآية الكلالة نزلت فى آخر عمر النبى صلى الله عليه وسلم فصار شأن جابر بيانا لمراد الآية التى نزلت فى آخر السورة لنزولها فيه واختلفوا فى ان الكلالة اسم لمن فمنهم من قال هو اسم للميت وهو قول على بن أبى طالب وابن مسعود وابن عباس لانه مات عن ذهاب طرفيه فكل عمود نسبه وقيل هو اسم للحى من الورثة وهو قول أبى بكر الصديق وعليه جهور العلماء الذين قالوا ان الكلالة من دون الوالد والولد ويدل عليه حديث جابر انما يرثنى كلالة أى يرثنى ورثة ليسوا بولد ولا والد فان كان المراد بالكلالة الميت الموروث فالمراد يرثه غير الوالد والولد وان كان المراد الوارثين فهم غير الوالد والولد وقال ابن زيد الكلالة الذى لا ولد له ولا والد والحى والميت كلهم كلالة هذا يرث بالكلالة وهذا يورث بالكلالة وقال أبو الخير سأل رجل عقبة عن الكلالة فقال ألا تعجبون من هذا يسألنى عن الكلالة وما أعضل بأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم شئ ما أعضلت بهم الكلالة (ق) عن عمر قال ثلاث وددت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عهد الينا فيهن عهدا ننتهى اليه الجد والكلالة وأبواب من أبواب الربا وهذا طرف حديث ذكر فى الخمر (ق) عن معدان بن أبى طلحة قال خطب عمر بن الخطاب فقال انى لا أدع بعدى شيأ أهم عندى من الكلالة ما راجعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شئ ما راجعته فى الكلالة وما أغلظ لى فى شئ ما أغلظ لى فى الكلالة حتى طعن باصبعه فى صدرى وقال يا عمر ألا يكفيك آية الصيف التى فى آخر سورة النساء وانى ان أعش أقض فيها بقضية يقضى بها من يقرأ القرآن ومن لا يقرأ القرآن لفظ مسلم قوله ألا يكفيك آية الصيف أراد ان الله عز وجل أنزل فى الكلالة آيتين احداهما فى الشتاء وهى التى فى أول سورة النساء والآية الاخرى فى الصيف وهى التى فى آخر السورة وفيها من البيان ما ليس فى آية الشتاء فلذلك أحاله عليها ۞ وقوله تعالى (وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس) أراد به الاخ والاخت للام باتفاق العلماء وقرأ سعد بن أبى وقاص وله أخ أو أخت من أم فان قلت ان الله تعالى قال وان كان رجل يورث كلالة أو امرأة ثم قال تعالى وله أخ فذكر الرجل ولم يذكر المرأة فما السبب فيه قلت هذا على عادة العرب فانهم اذا ذكروا اسمين ثم أخبروا عنهما وكانا فى الحكم سواء ربما أضافوا أحدهما

الانثيين (وان كان رجل) يعنى الميت وهو اسم كان (يورث) من ورث أى يورث منه وهو صفة لرجل (كلالة) خبر كان أى وان كان رجل موروث منه كلالة أو يورث خبر كان وكلالة حال من الضمير فى يورث والكلالة تنطلق على من لم يخلف ولدا ولا والدا وعلى من ليس بولد ولا والد من المخلفين وهو فى الاصل مصدر بمعنى الكلال وهو ذهاب القوة من الاعياء (أو امرأة) عطف على رجل (وله أخ أو أخت) أى لام فان قلت قد تقدم ذكر الرجل والمرأة فلم أفرد الضمير وذكره قلت أما افراده فلان أو لاحد الشيئين وأما تذكيره فلانه يرجع الى رجل لانه مذكر مبدوء به أو يرجع الى أحدهما وهو مذكر (فلكل واحد منهما السدس

فان كانوا أكثر من ذلك) من واحد (فهم شركاء في الثلث) لانهم يستحقون بقرابة الام وهي لا ترث أكثر من الثلث ولهذا لا يفضل الذكر منهم على الانثى (من بعد وصية يوصى بها

أودين) انما كررت الوصية لاختلاف الموصين فالاول الوالدان والاولاد والثاني الزوجة والثالث الزوج والرابع الكلالة (غير مضار) حال أي يوصى بها وهو غير مضار لورثته وذلك بان يوصى بزيادة على الثلث أو لوارث (وصية من الله) مصدر مؤكد أي يوصيكم بذلك وصية (والله عليم) بمن جار أو عدل في وصيته (حليم) على الجائر لا يعاجله بالعقوبة وهذا وعيد فان قلت فاين ذو الحال فيمن قرأ يوصى بها قلت يضمر يوصى فينتصب عن فاعله لانه لما قيل يوصى بها علم ان ثم موصيا كما كان رجال فاعل مايدل عليه يسبح لانه لما قيل يسبح له علم ان ثم مسبحا فاضمر يسبح واعلم ان الورثة أصناف أصحاب الفرائض وهم الذين لهم سهام مقدرة كالبنت ولها النصف وللا كثر الثلثان وبنت الابن وان سفلت وهي عند عدم الولد كالبنت ولها مع البنت الصلبية السدس وتسقط بالابن وبنتي الصلب الا ان يكون معها أو أسفل منها غلام فيعصبها والاخوات لاب وأم وهن عند عدم الولد وولد الابن كالبنات والاخوات لاب وهن كالاخوات لاب وأم عند عدمهن ويصير الفريقان عصبة مع البنت أو بنت الابن ويسقطن بالابن وابنه وان سفل والاب وبالجد عند أبي حنيفة رحمه الله وولد الام فللواحد السدس وللاكثر الثلث وذكرهم كانثاهم ويسقطون بالولد وولد الابن وان سفل وبالاب والجد والاب وله السدس مع الابن أو ابن الابن وان سفل

هو

الى الآخر وبما أضافوا اليهما فهو كقوله تعالى واستعينوا بالصبر والصلاة ثم قال تعالى وانها لكبيرة وقال الفراء اذا جاء حرفان بمعنى واحد جاز اسناد التفسير الى أيهما أريد ويجوز اسناده اليهما أيضا (فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث) وهذا اجماع العلماء أن أولاد الام اذا كانوا اثنين فصاعدا يشتركون في الثلث ذكرهم وأنثاهم فيه سواء قال أبو بكر الصديق في خطبته ألا ان الآية التي أنزل الله في أول سورة النساء من شأن الفرائض أنزلها في الولد والوالد والام والآية الثانية في الزوج والزوجة والاخوة من الام والآية الثالثة التي ختم الله بها سورة النساء في الاخوة والاخوات من الاب والام والآية التي ختم بها سورة الانفال أنزلها الله في أولي الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ۞ وقوله تعالى (من بعد وصية يوصى بها أودين) تقدم تفسيره وبقي شيء من الاحكام يذكرها وذلك ان ظاهر الآية يدل على جواز الوصية بكل المال وببعضه وفي معنى الآية ماروي عن نافع عن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ماحق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه وفي رواية له شيء يريد أن يوصي به أن يبيت ليلتين وفي رواية ثلاث ليال الا ووصيته مكتوبة عنده قال نافع سمعت عبد الله بن عمر يقول مامرت علي ليلة منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك الا وعندي وصيتي مكتوبة أخرجاه في الصحيحين ففي ظاهر الآية والحديث مايدل على اطلاق الوصية لكن ورد في السنة مايدل على تقييد هذا المطلق وتخصيصه وهو قوله صلى الله عليه وسلم في حديث سعد بن أبي وقاص قال الثلث والثلث كثير انك أن تذر ورثتك أغنياء خير من ان تذرهم عالة يتكففون الناس أخرجاه في الصحيحين ففي هذا الحديث دليل على أن الوصية لاتجوز بأكثر من الثلث وان النقصان عن الثلث جائز ولا تجوز الوصية لوارث ويدل عليه ماروي عن عمرو بن خارجة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله عز وجل أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث والولد للفراش وللعاهر الحجر أخرجه الترمذي والنسائي عن أبي امامة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث أخرجه أبو داود وقوله تعالى (غير مضار) يعني غير مدخل الضرر على الورثة بمجاوزة الثلث في الوصية وهو ان يوصي بأكثر من الثلث وقيل هو ان يوصي بدين ليس عليه أو يقر بماله أو أكثر ماله لاجنبي ويترك ورثته عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الرجل ليعمل والمرأة بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرهما الموت فيضاران في الوصية فتجب لهما النار ثم قرأ أبو هريرة من بعد وصية يوصى بها أودين الى قوله وذلك الفوز العظيم أخرجه أبو داود والترمذي وقال قتادة كره الله تعالى الضرار في الحياة وعند الموت فنهى عنه وقدم فيه وقيل ان الاضرار في الوصية من الكبائر لان مخالفة أمر الله عز وجل كبيرة وقد نهى الله عن الاضرار في الوصية فدل على أن ذلك من الكبائر واعلم ان الاولى بالانسان ان ينظر عند الموت في قدر مايخلف من المال ومن يخلف من الورثة ثم يجعل وصيته بحسب ذلك فان كان ماله قليلا وفي الورثة كثرة فالاولى به ان لا يوصي بشيء لقوله صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص انك ان تذر ورثتك أغنياء خير من ان تذرهم عالة يتكففون الناس وان كان في المال كثرة أوصى بحسب المال وبحسب الورثة وحاجتهم بعده في القلة والكثرة ۞ وقوله تعالى (وصية من الله) أي فريضة من الله وقيل عهدا من الله اليكم فيما يجب لكم من ميراث من مات منكم (والله عليم) يعني انه عالم بمصالح عباده ومضارهم وبما يفرض عليهم من الاحكام وقيل عليم بمن يجور في وصيته وبمن لا يجور (حليم) يعني انه تعالى ذو حلم وذو أناة في ترك العقوبة عمن جار في وصيته وقال أبو سليمان الخطابي الحليم ذو الصفح والاناة الذي لا يستفزه غضب ولا يستخفه جهل جاهل والحليم

ومع البنت أو بنت الابن وان سفلت السدس والباقي والجد وهو أبو الاب وهو كالاب عند عدمه الا في رد الام الى ثلث ما يبقى والام ولها السدس مع الولد أو ولد الابن وان سفل أو الاثنين من الاخوة والاخوات فصاعدا من أي جهة كانوا وثلث الكل عند عدمهم وثلث ما يبقى بعد فرض أحد الزوجين في زوج وأبوين أو زوجة وأبوين والجدة ولها السدس وان كثرت لام كانت أو لاب والبعدى تحجب بالقربى والكل بالام والابويات بالاب والزوج وله الربع مع الولد أو ولد الابن وان سفل وعند عدمه النصف والزوجة ولها الثمن مع الولد أو ولد الابن وان سفل وعند عدمه الربع * والعصبات وهم الذين يرثون ما بقي من الفرض وأولاهم الابن ثم ابنه وان سفل ثم الاب ثم أبوه وان علا ثم الاخ لاب وأم ثم الاخ لاب ثم ابن الاخ لاب وأم ثم ابن الاخ لاب ثم الاعمام ثم أعمام الاب ثم أعمام الجد ثم المعتق ثم عصبته على الترتيب واللاتي فرضهن النصف والثلثان يصرن عصبة باخواتهن لا بغيرهن * وذووا الارحام وهم الاقارب الذين ليسوا من العصبات ولا من أصحاب الفرائض وترتيبهم كترتيب العصبات (تلك) اشارة الى الاحكام التي ذكرت في باب اليتامى والوصايا والمواريث (حدود الله) سماها حدودا لان الشرائع كالحدود المضروبة للمكلفين لا يجوز لهم أن يتجاوزوها (ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ومن يعص الله ورسوله و يتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها) انتصب خالدين وخالدا على الحال وجمع مرة وأفرد أخرى نظرا الى معنى من ولفظها ندخله فيهما مدني وشامي (وله عذاب مهين) لهوانه عند الله ولا تعلق للمعتزلة بالآية فانها في حق الكفار اذ الكافر هو الذي تعدى الحدود كلها وأما المؤمن العاصي فهو مطيع بالايمان غير متعد حد التوحيد ولهذا فسر الضحاك المعصية هنا بالشرك وقال الكلبي ومن يعص الله ورسوله بكفره بقسمة المواريث و يتعد حدوده استحلالا ثم خاطب الحكام فقال (واللاتي) هي جمع التي وموضعها رفع بالابتداء (يأتين الفاحشة) أي الزنا لزيادتها في القبح على كثير من القبائح يقال أتى الفاحشة وجاءها ورهقها وغشيها بمعنى (من نسائكم) من للتبعيض والخبر (فاستشهدوا عليهن) فاطلبوا الشهادة (أربعة منكم) من المؤمنين (فان شهدوا) بالزنا (فامسكوهن في البيوت) فاحبسوهن (حتى يتوفاهن الموت) أي ملائكة الموت كقوله الذين تتوفاهم الملائكة أو حتى يأخذهن الموت و يستوفي أرواحهن (أو يجعل الله لهن) قيل أو بمعنى الا أن (سبيلا) غيرهذه عن ابن عباس رضي الله عنهما السبيل للبكر جلد مائة وتغريب عام وللثيب الرجم لقوله عليه السلام خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة

هو الصفوح مع القدرة المتأني الذي لا يعجل بالعقوبة ۞ قوله عز وجل (تلك حدود الله) يعني الاحكام التي تقدم ذكرها في هذه السورة من مال اليتامى والوصايا والانكحة والمواريث وانما سماها حدودا لان الشرائع كالحدود المضروبة للمكلفين فلا يجوز لهم أن يتجاوزوها وقال ابن عباس يريد ما حد الله من فرائضه (ومن يطع الله ورسوله) يعني في شأن المواريث ورضي بما قسم الله له وحكم عليه (يدخله جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ومن يعص الله ورسوله) يعني في شأن المواريث ولم يرض بقسمة الله ورسوله (و يتعد حدوده) يعني و يتجاوز ما أمر الله تعالى به (يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين) فان قلت كيف قطع للعاصي بالخلود في النار في هذه الآية وهل فيها دليل للمعتزلة على قولهم ان العصاة والفساق من أهل الايمان يخلدون في النار قلت قال الضحاك المعصية هنا الشرك وروى عكرمة عن ابن عباس في معنى الآية من لم يرض بقسمة الله و يتعد ما قال الله يدخله نارا وقال الكلبي يكفر بقسمة المواريث و يتعد حدود الله استحلالا اذا ثبت ذلك فمن رد حكم الله ولم يرض بقسمته كفر بذلك واذا كفر كان حكمه حكم الكفار في الخلود في النار اذا لم يتب قبل موته واذا مات وهو مصر على ذلك كان مخلدا في النار بكفره فلا دليل في الآية للمعتزلة والله أعلم ۞ قوله تعالى (واللاتي) هو جمع التي وهي كلمة يخبر بها عن المؤنث خاصة (يأتين الفاحشة) يعني يفعلن الفاحشة يقال أتيت أمرا قبيحا اذا فعلته والفاحشة في اللغة الفعلة القبيحة وقيل الفاحشة عبارة عن كل فعل أو قول يعظم قبحه في النفوس و يقبح ذكره في الالسنة حتى يبلغ الغاية في جنسه وذلك مخصوص بشهوة الفرج الحرام ولذلك أجمعوا على أن الفاحشة ههنا هي الزنا وانما سمي الزنا فاحشة لزيادة قبحه (من نسائكم) قيل هن الزوجات وقيل المراد بهن جنس النساء (فاستشهدوا عليهن أربعة منكم) يعني من المسلمين وهذا خطاب للازواج أي اطلبوا أربعة من الشهود ليشهدوا عليهن وقيل هو خطاب للحكام أي استمعوا شهادة أربع عليهن و يشترط في هذه الشهادة العدالة والذكورة قال عمر ابن الخطاب انما جعل الله الشهود أربعة سترا يستركم به دون فواحشكم (فان شهدوا) يعني الشهود بالزنا (فامسكوهن في البيوت) أي فاحبسوهن في البيوت والحكمة في حبسهن ان المرأة انما تقع في الزنا عند الخروج والبروز للرجال فاذا حبست في البيت لم تقدر على الزنا (حتى يتوفاهن الموت) يعني تتوفاهن ملائكة الموت عند انقضاء آجالهن (أو يجعل الله لهن سبيلا) وهذا الحكم كان في أول الاسلام قبل نزول الحدود كانت المرأة اذا زنت حبست في البيت حتى تموت ثم نسخ الحبس بالحدود وجعل الله لهن سبيلا

(م) عن عبادة بن الصامت قال كان نبي الله صلى الله عليه وسلم اذا نزل عليه حكم كرب لذلك وتربد وجهه فأنزل الله عليه ذات يوم فبقي كذلك فلما سرى عنه قال خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة والثيب بالثيب جلد مائة والرجم

﴿فصل﴾ اتفق العلماء على أن هذه الآية منسوخة ثم اختلفوا في ناسخها فذهب بعضهم الى أن ناسخها هو حديث عبادة بن الصامت المتقدم وهذا على مذهب من يرى نسخ القرآن بالسنة وذهب بعضهم الى أن الآية منسوخة بآية الحد التي في سورة النور وقيل ان هذه الآية منسوخة بالحديث والحديث منسوخ بآية الجلد وقال أبو سليمان الخطابي لم يحصل النسخ في هذه الآية ولا في الحديث وذلك لان قوله تعالى فامسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا يدل على امساكهن في البيوت ممدودا الى غاية أن يجعل الله لهن سبيلا وان ذلك السبيل كان مجملا فلما قال صلى الله عليه وسلم خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا الحديث صار هذا الحديث بيانا لتلك الآية المجملة لا ناسخا لها وأجمع العلماء على جلد البكر الزاني مائة ورجم المحصن وهو الذي اجتمع فيه أربعة أوصاف البلوغ والعقل والحرية والاصابة في نكاح صحيح وهو الثيب واختلفوا في جلد الثيب ورجمه فذهب طائفة الى أنه يجب الجمع بينهما وبه قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه والحسن واسحق بن راهويه وداود وأهل الظاهر وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه جلد شراحة الهمدانية يوم الخميس ورجمها يوم الجمعة وقال جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال جماهير العلماء الواجب على المحصن الزاني الرجم وحده لان النبي صلى الله عليه وسلم رجم ماعزا والغامدية ولم يجلدهما وأما تغريب البكر الزاني ونفيه سنة فمذهب الشافعي وجماهير العلماء وجوب ذلك وقال أبو حنيفة وحماد لا يقضى بالنفي أحد الا أن يراه الحاكم تعزيرا وقال مالك والاوزاعي لا نفي على النساء وروى مثله عن علي قال لان المرأة عورة وفي نفيها تضييع لها وتعريض للفتنة وحجة الشافعي وجماهير العلماء ظاهر حديث عبادة بن الصامت وهو قوله صلى الله عليه وسلم البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة وروى نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب وغرب وأن أبا بكر ضرب وغرب وان عمر ضرب وغرب وان كان الزاني عبدا فعليه جلد خمسين وفي تغريبه قولان فان قلنا انه يغرب ففيه قولان أصحهما أنه يغرب نصف سنة قياسا على حده وان كان الزاني مجنونا أو غير بالغ فلا جلد عليه ﴿قوله عز وجل (واللذان) هو تثنية الذي (يأتيانها) يعني يأتيان الفاحشة (منكم) يعني من رجالكم ونسائكم وقيل هما البكران اللذان لم يحصنا وهما غير المعنيين بالآية الاولى وقيل المراد بمن ذكر في الاولى النساء وهذه للرجال لان الله تعالى حكم في الآية الاولى بالحبس في البيت على النساء وهو اللائق بحالهن لان المرأة انما تفعل الفاحشة عند الخروج فاذا حبست في البيت انقطعت مادة المعصية وأما الرجل فلا يمكن حبسه في البيت لانه يحتاج الى الخروج في اصلاح معاشه واكتساب قوت عياله فجعلت عقوبة الرجل الزاني الاذية بالقول والفعل (فآذوهما) يعني عيروهما بالقول باللسان وهو أن يقال له أما خفت الله أما استحييت من الله حين زنيت وقال ابن عباس سبوهما واشتموهما وفي رواية عنه قال هو باللسان واليد يؤذى بالتعيير ويضرب بالنعال (فان تابا) يعني من الفاحشة (وأصلحا) يعني العمل فيما يأتي (فاعرضوا عنهما) أي اتركوهما ولا تؤذوهما (ان الله كان توابا رحيما) يعني انه تعالى يعود على عبده بفضله ومغفرته ورحمته اذا تاب اليه وهذا الحكم كان في ابتداء الاسلام كان حد الزاني الاذى بالتوبيخ والتعيير بالقول باللسان فلما نزلت الحدود وثبتت الاحكام نسخ ذلك الاذى بالآية التي في سورة النور وهي قوله تعالى الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله الآية فثبت الجلد على البكر بنص الكتاب وثبت الرجم على الثيب المحصن بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد صح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم رجم ماعزا وكان قد أحصن وسواء في هذا الحكم المسلم واليهودي لانه ثبت في الصحيح

(واللذان) يريد الزاني والزانية وبتشديد النون مكي (يأتيانها منكم) أي الفاحشة (فآذوهما) بالتوبيخ والتعيير وقولوا لهما أما استحييتما أما خفتما الله (فان تابا) عن الفاحشة (وأصلحا) وغيرا الحال (فاعرضوا عنهما) فاقطعوا التوبيخ والمذمة (ان الله كان توابا رحيما) يقبل توبة التائب ويرحمه قال الحسن أول ما نزل من حد الزنا الاذى ثم الحبس ثم الجلد أو الرجم فكان ترتيب النزول على خلاف ترتيب التلاوة والحاصل انهما اذا كانا محصنين فحدهما الرجم لاغير واذا كانا غير محصنين فحدهما الجلد لاغير وان كان أحدهما محصنا والآخر غير محصن فعلى المحصن منهما الرجم وعلى الآخر الجلد وقال ابن بحر الآية الاولى في السحاقات والثانية في اللواطين والتي في سورة النور في الزاني والزانية وهو دليل ظاهر لابي حنيفة رحمه الله في انه يعزر في اللواطة ولا يحد وقال مجاهد آية الاذى في اللواطة

(انما التوبة) هي من تاب الله عليه اذا قبل توبته أي انما قبولها (على الله) وليس المراد به الوجوب اذ لا يجب على الله شيء ولكنه تأكيد للوعد يعني أنه يكون لا محالة كالواجب الذي لا يترك (للذين يعملون السوء) الذنب لسوء عقابه (بجهالة) في موضع الحال أي يعملون السوء جاهلين سفهاء لان ارتكاب القبيح مما يدعو اليه السفه وعن مجاهد من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع عن جهالته وقيل جهالته اختياره اللذة الفانية على الباقية وقيل لم يجهل انه ذنب ولكنه جهل كنه عقوبته (ثم يتوبون من قريب) من زمان قريب وهو ماقبل حضرة الموت ألا ترى الى قوله حتى اذا حضر أحدهم الموت فبين ان وقت الاحتضار هو الوقت الذي لا تقبل فيه التوبة وعن الضحاك كل توبة قبل الموت فهو قريب وعن ابن عباس رضي الله عنهما قبل أن ينظر الى ملك الموت وعنه صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يقبل توبة العبد مالم يغرغر ومن للتبعيض أي يتوبون بعض زمان قريب كأنه سمى ما بين وجود المعصية و بين حضرة الموت زمانا قريبا (فأولئك يتوب الله عليهم) عدة بانه يفي بذلك واعلام بان الغفران كائن لا محالة (وكان الله عليما) بعزمهم على التوبة (حكيما) حكم بكون الندم توبة (وليست التوبة للذين يعملون السيآت حتى اذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن) أي ولا توبة للذين يذنبون ويسوفون توبتهم الى أن يزول حال التكليف بحضور أسباب الموت ومعاينة ملك الموت فان توبة هؤلاء غير مقبولة لانها حال اضطرار لا حالة اختيار وقبول التوبة ثواب ولا

أن النبي صلى الله عليه وسلم رجم يهوديين زنيا وكانا قد أحصنا وقال أبو حنيفة لا رجم على اليهودي لان المشرك ليس بمحصن وأجيب عنه بان المراد بهذا الاحصان احصان العفاف لا احصان الفرج ﴿قوله تعالى (انما التوبة على الله) يعني التوبة التي يقبلها الله تعالى فيكون على بمعنى عند وقيل على بمعنى من أي من الله وقال أهل المعاني ان الله تعالى وعد قبول التوبة من المؤمنين في قوله كتب ربكم على نفسه الرحمة واذا وعد الله شيأ أنجز ميعاده وصدق فيه فمعنى قوله على الله أوجب على نفسه من غير ايجاب أحد عليه لانه تعالى يفعل مايريد (للذين يعملون السوء) يعني الذنوب والمعاصي سميت سوأ لسوء عاقبتها اذا لم يتب منها (بجهالة) قال قتادة أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ان كل شيء عصى الله به فهو جهالة عمدا كان أو غيره وكل من عصى الله فهو جاهل وقال ابن عباس من عمل السوء فهو جاهل من جهالته عمل السوء فكل من عصى الله سمي جاهلا وسمي فعله جهالة وانما سمي من عصى الله جاهلا لانه لم يستعمل ما معه من العلم بالثواب والعقاب واذا لم يستعمل ذلك سمي جاهلا بهذا الاعتبار وقيل معنى الجهالة ان يأتي الانسان بالذنب مع العلم بانه ذنب لكنه يجهل عقوبته وقيل معنى الجهالة هو اختيار اللذة الفانية على اللذة الباقية (ثم يتوبون من قريب) يعني يتوبون بعد الاقلاع عن الذنب بزمان قريب لئلا يعد في زمرة المصرين وقيل القريب ان يتوب في صحته قبل مرض موته وقيل قبل موته وقيل قبل معاينة ملك الموت ومعاينة أهوال الموت وانما سميت هذه المدة قريبة لان كل ما هو آت قريب وفيه تنبيه على ان عمر الانسان وان طال فهو قليل وان الانسان يتوقع في كل ساعة ولحظة نزول الموت به عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى يقبل توبة العبد مالم يغرغر أخرجه الترمذي الغرغرة أن يجعل المشروب في فم المريض فيردده في الحلق ولا يصل اليه ولا يقدر على بلعه وذلك عند بلوغ الروح الى الحلقوم وروى البغوي بسنده عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الشيطان قال وعزتك يارب لا أبرح أغوي عبادك مادامت أرواحهم في أجسادهم فقال الرب تبارك وتعالى وعزتي وجلالي وارتفاعي في مكاني لا أزال أغفر لهم ما استغفروني وقيل في معنى الآية ان القريب هو أن يتوب الانسان قبل أن يحيط السوء بحسناته فيحبطها (فأولئك يتوب الله عليهم) يعني يقبل توبتهم (وكان الله عليما حكيما) قال ابن عباس علم ما في قلوب عباده المؤمنين من التصديق واليقين فحكم بالتوبة قبل الموت ولو بقدر فواق ناقة وقيل في معنى الآية علم انه انما أتى بتلك المعصية باستيلاء الشهوة والجهالة عليه فحكم بالتوبة لمن تاب عنها وأناب عن قريب ﴿قوله عز وجل (وليست التوبة للذين يعملون السيآت) قال ابن عباس يريد الشرك وقال أبو العالية وسعيد بن جبير هم المنافقون وقال سفيان الثوري هم المسلمون ألا ترى انه قال ولا الذين يموتون وهم كفار (حتى اذا حضر أحدهم الموت) يعني وقع في النزع وعاين ملائكة الموت وهو حالة السوق حين تساق الروح للخروج من جسده (قال اني تبت الآن) قال المحققون قرب الموت لا يمنع من قبول التوبة بل المانع من قبولها مشاهدة الاحوال التي لا يمكن معها الرجوع الى الدنيا بحال ولذلك لم تقبل توبة فرعون ولا ايمانه وهو قوله تعالى حتى اذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ويدل على ذلك أيضا قوله تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا فان قلت قد تعلقت الوعيدية بهذه الآية وقالوا أخبر الله تعالى ان عصاة المؤمنين اذا أهملوا أمرهم الى انقضاء آجالهم حصلوا على عذاب الآخرة مع الكفار لان الله تعالى جمعهم في قوله أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما وأيضا انه تعالى أخبر انه لا توبة لهم عند معاينة الموت وأسبابه قلت ليس الامر على ما زعموا فقد روي عن ابن عباس

وعد به الاختيار (ولا الذين يموتون) في موضع جر بالعطف على للذين يعملون السيآت أي ليست التوبة للذين يعملون السيآت ولا للذين يموتون (وهم كفار) قال سعيد بن جبير الآية الاولى في المؤمنين والوسطى في المنافقين والاخرى في الكافرين وفي بعض المصاحف بالامين وهو مبتدأ خبره (أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما) أي هيأنا من العتيد وهو الحاضر والاصل أعددنا فقلبت الدال تاء ● كان الرجل يرث امرأة مورثه بان يلقي عليها ثوبه فيتزوجها بلا مهر فنزلت (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها) أي ان تأخذوهن على سبيل الارث كما تحاز المواريث وهن كارهات لذلك أو مكرهات كرها بالفتح من الكراهة وبالضم حمزة وعلي من الاكراه مصدر في موضع الحال من المفعول والتقييد بالكره لا يدل على الجواز عند عدمه لان تخصيص الشيء بالذكر لا يدل على نفي ما عداه كما في قوله ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق وكان الرجل اذا تزوج امرأة ولم تكن من حاجته حبسها مع سوء العشرة لتفتدي منه بمالها وتختلع فقيل (ولا تعضلوهن) وهو منصوب عطفا على أن ترثوا ولا لتأكيد النفي أي لا يحل لكم أن ترثوا النساء ولا ان تعضلوهن أو مجزوم بالنهي على الاستئناف فيجوز الوقف حينئذ على كرها والعضل الحبس والتضييق (لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن) من المهر واللام متعلقة بتعضلوا (الا أن يأتين بفاحشة) هي النشوز وايذاء الزوج وأهله بالبذاء الا أن يكون سوء العشرة من جهتهن فقد عذرتم في طلب الخلع وعن الحسن الفاحشة الزنا فان فعلت حل لزوجها أن يسألها الخلع (مبينة) بفتح الياء مكي وأبو بكر والاستثناء من أعم عام الظرف والمفعول له كانه قيل ولا تعضلوهن في جميع الاوقات الا وقت ان يأتين بفاحشة أو ولا تعضلوهن لعلة من العلل الا لان يأتين بفاحشة وكانوا يسيئون معاشرة النساء فقيل لهم (وعاشروهن بالمعروف) وهو النصفة في المبيت والنفقة والاجمال في القول

في قوله وليست التوبة للذين يعملون السيآت يريد الشرك وقال سعيد بن جبير نزلت الآية الاولى في المؤمنين يعني قوله انما التوبة على الله والوسطى في المنافقين يعني قوله وليست التوبة والاخرى في الكافرين يعني قوله ولا الذين يموتون وهم كفار واذا كانت الآية نازلة في المنافقين والكفار فلا وجه لحملها على المؤمنين وعلى تقدير أن تكون الآية نازلة في عصاة المؤمنين فقد روي عن ابن عباس في قوله تعالى وليست التوبة للذين يعملون السيآت الآية ثم أنزل الله تعالى بعد ذلك ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فحرم الله المغفرة على من مات وهو كافر وأرجأ أهل التوحيد الى مشيئته ولم يؤيسهم من المغفرة فعلى هذا القول تكون الآية منسوخة في حق المؤمنين ● وقوله تعالى (ولا الذين يموتون وهم كفار) معناه لا توبة للكفار اذا ماتوا على كفرهم وانما لم تقبل توبتهم في الآخرة لرفع التكليف في الآخرة ومعاينة ما وعدوا به من العقاب (أولئك أعتدنا لهم) أي هيأنا لهم (عذابا أليما) ● قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها) نزلت في أهل المدينة وذلك انهم كانوا في الجاهلية وفي أول الاسلام اذا مات الرجل وخلف امرأة جاء ابنه من غيرها أو قريبه من ذوي عصبته فالقى ثوبه على تلك المرأة وعلى خبائها فصار أحق بها من نفسها ومن غيره فان شاء تزوجها بغير صداق الا الصداق الاول الذي أصدقها الميت وان شاء زوجها غيره وأخذ هو صداقها وان شاء عضلها ومنعها من الازواج يضارها بذلك لتفتدي منه بما ورثت من الميت أو تموت هي فيرثها فان ذهبت المرأة الى أهلها قبل أن يلقي عليها ولي زوجها ثوبه كانت أحق بنفسها وكانوا على ذلك حتى توفي أبو قيس بن الاسلت الانصاري وترك امرأته كبيشة بنت معن الانصارية فقام ابن له من غيرها يقال له حصن وقيل اسمه قيس بن أبي قيس فطرح ثوبه عليها فورث نكاحها ثم تركها فلم ينفق عليها يضارها بذلك لتفتدي منه فأتت كبيشة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله ان أبا قيس توفي وورث نكاحي ابنه فلا هو ينفق علي ولا هو يدخل بي ولا يخلي سبيلي فقال اقعدي في بيتك حتى يأتي أمر الله فيك فانزل الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها يعني ميراث نكاح النساء وقيل معناه أن ترثوا أموالهن كرها يعني وهن كارهات (ولا تعضلوهن) أي ولا تمنعوهن من الازواج وأصل العضل المنع (لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن) يعني لتضجر فتفتدي ببعض مالها قيل هو خطاب للازواج قال ابن عباس هذا في الرجل تكون له امرأة وهو كاره لها ولصحبتها ولها عليه مهر فيضارها لتفتدي منه وترد اليه ما ساق اليها من المهر فنهى الله عن ذلك وقيل كان الرجل يطلق امرأته ثم يراجعها ثم يطلقها يضارها بذلك فنهوا عن ذلك وقيل هو خطاب لاولياء الميت فنهاهم الله عن عضل المرأة ثم قال تعالى (الا أن يأتين بفاحشة مبينة) يعني فحينئذ يحل لكم اضرارهن ليفتدين منكم واختلفوا في الفاحشة المبينة فقيل هي النشوز وسوء الخلق وايذاء الزوج وأهله وقيل الفاحشة هي الزنا يعني ان المرأة اذا نشزت أو زنت حل للزوج أن يسألها الخلع وقيل كانت المرأة اذا أصابت فاحشة أخذ منها زوجها ما ساق اليها وأخرجها فنسخ الله ذلك بالحدود (وعاشروهن بالمعروف) قيل هو راجع للكلام الذي قبله والمعنى وآتوا النساء صدقاتهن نحلة وعاشروهن بالمعروف والمعاشرة بالمعروف هو الاجمال في القول والمبيت والنفقة وقيل هو ان تصنع

(فان كرهتموهن) لقبحهن أو سوء خلقهن (فعسى أن تكرهوا شيأ ويجعل الله فيه) فى ذلك الشئ أو فى الكره (خيرا كثيرا) ثوابا جزيلا أو ولدا صالحا والمعنى فان كرهتموهن فلا تفارقوهن لكراهة الانفس وحدها فربما كرهت النفس ماهو أصلح فى الدين وأدنى الى الخير وأحبت ماهو بضد ذلك ولكن للنظر فى أسباب الصلاح وانما صح قوله فعسى أن تكرهوا جزاء للشرط لان المعنى فان كرهتموهن فاصبروا عليهن مع الكراهة فلعل لكم فيما تكرهونه خيرا كثيرا ليس فيما تحبونه وكان الرجل اذا رأى امرأة فأعجبته بهت التى تحته ورماها بفاحشة حتى يلجئها الى الافتداء منه بما أعطاها فقيل (وان أردتم استبدال زوج مكان زوج) أى تطليق امرأة وتزوج أخرى (وآتيتم احداهن) وأعطيتم احدى الزوجات فالمراد بالزوج الجمع لان الخطاب لجماعة الرجال (قنطارا) مالا عظيما كما مر فى آل عمران وقال عمر رضى الله عنه على المنبر لا تغالوا بصدقات النساء فقالت امرأة أنتبع قولك أم قول الله وآتيتم احداهن قنطارا فقال عمر كل أحد أعلم من عمر تزوجوا على ماشئتم (فلا تأخذوا منه) من القنطار (شيأ أتأخذونه بهتانا واثما مبينا) أى بينا والبهتان أن تستقبل الرجل بأمر قبيح تقذفه به وهو برىء منه لانه يبهت عند ذلك أى يتحير وانتصب بهتانا على الحال أى باهتين وآثمين ثم أنكر أخذ المهر بعد الافضاء فقال (وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض) أى خلا بلا حائل ومنه الفضاء والآية حجة لنا فى الخلوة الصحيحة انها تؤكد المهر حيث أنكر الاخذ وعلل بذلك (وأخذن منكم ميثاقا غليظا) عهدا وثيقا وهو قول الله تعالى فامساك بمعروف أو تسريح باحسان والله تعالى أخذ هذا الميثاق على عباده لاجلهن فهو كأخذهن أو قول النبى عليه السلام استوصوا بالنساء خيرا فانهن عوان فى أيديكم أخذتموهن بامانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولما نزل لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها قالوا اتركنا هذا الا نرثهن كرها ولكن نخطبهن فننكحهن برضاهن فقيل لهم

لها كما تحب ان تصنع لك (فان كرهتموهن) يعنى فان كرهتم عشرتهن وصحبتهن وآثرتم فراقهن (فعسى أن تكرهوا شيأ ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) قال ابن عباس ربما رزق منها ولدا صالحا فجعل الله فى ولدها خيرا كثيرا فتنقلب تلك الكراهة محبة والنفرة رغبة وقيل فى الآية ندب الى امساك المرأة مع الكراهية لها لانه اذا كره صحبتها وتحمل ذلك المكروه طلبا للثواب وأنفق عليها وأحسن هو صحبتها استحق الثناء الجميل فى الدنيا والثواب الجزيل فى العقبى وقيل فى معنى الآية انكم ان كرهتموهن ورغبتم فى فراقهن فربما جعل الله فى تلك المفارقة لهن خيرا كثيرا وذلك بان تخلص من هذا الزوج الكاره لها وتتزوج غيره خيرا منه

❁ قوله عز وجل (وان أردتم استبدال زوج مكان زوج) الخطاب للرجال وأراد بالزوج الزوجة قال المفسرون لما ذكر الله فى الآية الاولى مضارة الزوجات اذا أتين بفاحشة وهى اما النشوز أو الزنا بين فى هذه الآية تحريم المضارة ان لم يكن من قبلها نشوز ولا زنا ونهى عن بخس الرجل المرأة اذا أراد طلاقها واستبدال غيرها (وآتيتم احداهن قنطارا) يعنى وكان ذلك الصداق مالا كثيرا وفى الآية دليل على جواز المغالاة فى المهور روى ان عمر قال على المنبر ألا لا تغالوا فى مهور نسائكم فقامت امرأة فقالت يا ابن الخطاب الله يعطينا وأنت تمنعنا وتلت الآية فقال كل الناس أفقه منك يا عمر وفى رواية امرأة أصابت وأمير أخطأ ورجع عن كراهة المغالاة وقد تغالى الناس فى صدقات النساء حتى بلغوا الالوف وقيل ان خير المهور أيسرها وأسهلها (فلا تأخذوا منه شيأ) يعنى من القنطار الذى آتيتموهن لو جعلتم ذلك القدر لهن صداقا فلا تأخذوا منه شيأ وذلك ان سوء العشرة اما أن يكون من قبل الزوج أو من قبل الزوجة فان كان من الزوج وأراد طلاق المرأة فلا يحل له أن يأخذ شيأ من صداقها وان كان النشوز من قبل المرأة جاز له ذلك (أتأخذونه) استفهام بمعنى التوبيخ (بهتانا) يعنى ظلما وقيل باطلا (واثما مبينا) يعنى أتأخذونه مباهتين آثمين فلا تفعلوا مثل هذا الفعل مع ظهور قبحه فى الشرع والعقل قال تعالى (وكيف تأخذونه) كلمة تعجب والمعنى لاى وجه تفعلون مثل هذا الفعل وكيف يليق بالعاقل أن يسترد شيأ بذله لزوجته عن طيب نفس وقيل هو استفهام معناه التوبيخ والتعظيم لاخذ المهر بغير حله ثم ذكر السبب فى ذلك فقال تعالى (وقد أفضى بعضكم الى بعض) أصل الافضاء فى اللغة الوصول يقال أفضى اليه أى وصل اليه ثم للمفسرين فى معنى الافضاء فى هذه الآية قولان أحدهما انه كناية عن الجماع وهو قول ابن عباس ومجاهد والسدى واختيار الزجاج وابن قتيبة ومذهب الشافعى لان عنده أن الزوج اذا طلق قبل المسيس فله أن يرجع بنصف المهر وان خلا بها والقول الثانى فى معنى الافضاء هو أن يخلو بها وان لم يجامعها وقال الكلبى الافضاء أن يكون معها فى لحاف واحد جامعها أو لم يجامعها وهذا القول هو اختيار الفراء ومذهب أبى حنيفة ان الخلوة الصحيحة عنده تقرر المهر (وأخذن منكم ميثاقا غليظا) قيل هو قول العاقد عند العقد زوجتكها على ما أخذ الله للنساء على الرجال من امساك بمعروف أو تسريح باحسان وقيل هى كلمة النكاح المعقود على الصداق وهى الكلمة التى تستحل بها فروج النساء ويدل على ذلك ماروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اتقوا الله فى النساء فانكم أخذتموهن بامانة

(ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء) وقيل المراد بالنكاح الوطء اى لا تطؤا ما وطئ آباؤكم وفيه تحريم وطء موطوأة الاب بنكاح
أو بملك يمين أو بزنا كما هو مذهبنا وعليه كثير من المفسرين ولما قالوا كنا نفعل ذلك فكيف حال ما كان منا قال (الا ما قد سلف) أي
لكن ما قد سلف فانكم لا تؤاخذون به والاستثناء منقطع عن سيبويه ثم بين صفة هذا العقد فى الحال فقال (انه كان فاحشة) بالغة فى القبح
(ومقتا) و بغضا عند الله وعند المؤمنين وناس منهم يمقتونه من ذوى مروآتهم و يسمونه نكاح المقت وكان المولود عليه

يقال له المقتى (وساء سبيلا) و بئس الطريق طريقا ذلك ولما ذكر فى أول السورة نكاح ما طاب أى حل من النساء وذكر بعض ما حرم قبل هذا وهو نساء الآباء ذكر المحرمات الباقيات وهن سبع من النسب وسبع من السبب و بدأ بالنسب فقال (حرمت عليكم أمهاتكم) والمراد تحريم نكاحهن عند البعض وقد ذكرنا المختار فى شرح المنار والجدة من قبل الام أو الاب ملحقة بهن (وبناتكم) و بنات الابن و بنات البنت ملحقات بهن والاصل ان الجمع اذا قوبل بالجمع ينقسم الآحاد على الآحاد فتحرم على كل واحد أمه و بنته (وأخواتكم) لاب وأم أو لاب أو لام (وعماتكم) من الاوجه الثلاثة (وخالاتكم) كذلك (و بنات الاخ) كذلك (و بنات الاخت) كذلك ثم شرع فى السبب فقال (وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة) الله تعالى نزل الرضاعة منزلة النسب فسمى المرضعة والاخت
أما للرضيع والمرضعة أختا وكذلك زوج المرضعة أبوه وأبواه جداه وأخته عمته وكل ولد ولد له من غير المرضعة قبل الرضاع و بعده فهم
اخوته وأخواته لابيه وأم المرضعة جدته وأختها خالته وكل من ولدها من هذا الزوج فهم اخوته وأخواته لابيه وأمه ومن ولدها من غير
فهم اخوته وأخواته لام وأصله قوله عليه السلام يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب

الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله قوله تعالى (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء) قال المفسرون كان
أهل الجاهلية يتزوجون أزواج آبائهم فنهاهم الله عن ذلك بهذه الآية روى انه لما توفى أبو قيس وكان من
صالحى الانصار خطب ابنه قيس امرأة أبيه فقالت انى اتخذتك ولدا وأنت من صالحى قومك ولكنى آتى
رسول الله صلى الله عليه وسلم واستأمره فاتته فاخبرته فانزل الله عز وجل ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء
(الا ما قد سلف) يعنى الا ما مضى فى الجاهلية قبل نزول التحريم فانه معفو عنه (انه كان فاحشة) انما سماه فاحشة
لان زوجة الاب فى منزلة الام ونكاح الامهات حرام فلما كان ذلك كذلك سماه الله فاحشة لانه من أقبح المعاصى
(ومقتا) يعنى انه يورث المقت من الله وهو أشد الغضب وغاية الخزى والخسارة (وساء سبيلا) أى و بئس ذلك
طريقا لانه يؤدى الى مقت الله والعرب تسمى ولد الرجل من امرأة أبيه مقيتا وكان منهم الاشعث بن قيس
وأبو معيط ابن أبى عمرو بن أمية روى البغوى بسنده عن البراء بن عازب قال مر بى خالى ومعه لواء فقلت أين
تذهب قال بعثنى النبى صلى الله عليه وسلم الى رجل تزوج امرأة أبيه آتيه برأسه ۞ قوله عز وجل (حرمت
عليكم أمهاتكم) بين الله عز وجل فى هذه الآية المحرمات من النساء بسبب الوصلة اما بسبب أو نسب (خ) عن
ابن عباس قال حرم من النسب سبع ومن الصهر سبع ثم قرأ حرمت عليكم أمهاتكم الآية جملة المحرمات
من النساء بنص الكتاب أربعة عشر صنفا فاما المحرمات بالنسب فقوله حرمت عليكم أمهاتكم جمع أم وأصل
أمهات أمات وانما زيدت الهاء للتوكيد والام هى الوالدة القريبة و يدخل فى حكمها كل امرأة رجع
النسب اليها من جهة الاب أو من جهة الام بدرجة أو بدرجات وهن جميع الجدات وان علون فيحرم نكاح
الام وجميع الجدات (و بناتكم) والبنت عبارة عن كل أنثى رجع نسبها اليك بالولادة بدرجة أو درجات بانات
كبنت البنت وان سفلت وكذا بنت الابن (وأخواتكم) جمع أخت وهى عبارة عن كل امرأة شاركتك فى
أصلك فتدخل فيه الاخوات من الاب والام والاخوات من الاب والاخوات من الام (وعماتكم) جمع عمة
وهى كل امرأة شاركت أباك فى أصله وهن جميع أخوات الاب وأخوات آبائه وان علون وقد تكون العمة
من جهة الام أيضا وهى أخت أبى الام (وخالاتكم) جمع خالة وهى كل امرأة شاركت الام فى أصلها فيدخل
فيه جميع أخوات الام وأخوات أمهاتها وقد تكون الخالة من جهة الاب أيضا وهى أخت أم الاب (و بنات
الاخ و بنات الاخت) وهى عبارة عن كل امرأة لاخيك أو لاختك عليها ولادة و يرجع نسبها الى الاخ أو
الاخت فيدخل فيهن جميع بنات أولاد الاخ والاخت وان سفلن فهذه الاصناف السبعة محرمة بسبب النسب
بنص الكتاب وجملته انه يحرم على الرجل أصوله وفصوله وفصول أول أصوله وأول فصل من كل أصل بعده
أصل فالاصول هن الامهات والجدات والفصول هن البنات وبنات الاولاد وفصول أول أصوله هن الاخوات
و بنات الاخوة والاخوات وأول فصل من كل أصل بعده أصل هن العمات والخالات وان علون قال العلماء
كل امرأة حرم الله نكاحها بالنسب والرحم فحرمتها مؤبدة لا تحل بوجه من الوجوه ۞ الصنف الثانى المحرمات
بالسبب وهن سبع الاول والثانى المحرمات بالرضاع وذلك فى قوله تعالى (وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم
وأخواتكم من الرضاعة) كل أنثى انتسبت باللبن اليها فهى أمك و بنتها أختك وانما نص الله على ذكر الا

والاخت ليدل ذلك على جميع الاصول والفروع فنبه بذلك انه تعالى أجرى الرضاع مجرى النسب ويدل على ذلك ماروى عن عائشة رضى الله تعالى عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يحرم من الرضاع مايحرم من الولادة أخرجاه فى الصحيحين (ق) عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنت حمزة انها لاتحل لى يحرم من الرضاع مايحرم من النسب وانها ابنة أخى من الرضاعة فكل من حرمت بسبب النسب حرم نظيرها بسبب الرضاعة وانما سمى الله تعالى المرضعات أمهات لاجل الحرمة فيحرم عليه نكاحها ويحل له النظر اليها والخلوة بها والسفر معها ولا يترتب عليه جميع أحكام الامومية من كل وجه فلا يتوارثان ولا تجب على كل واحد منهما نفقة الآخر وغير ذلك من الاحكام وانما تثبت حرمة الرضاع بشرطين أحدهما أن يكون ارضاع الصبى فى حال الصغر وذلك الى انتهاء سنتين من ولادته لقوله تعالى والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين وقوله تعالى وفصاله فى عامين عن أم سلمة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لايحرم من الرضاع الا مافتق الامعاء فى الثدى وكان قبل الفطام أخرجه الترمذى عن ابن مسعود قال لارضاعة الا ما كان فى الحولين أخرجه مالك فى الموطأ باطول من هذا وأخرجه أبو داود مختصرا قال قال عبد الله بن مسعود لارضاع الا ماشد اللحم وقال أبو حنيفة مدة الرضاع ثلاثون شهرا لقوله تعالى وحمله وفصاله ثلاثون شهرا وحمله الجمهور على أقل مدة الحمل وأكثر مدة الرضاع لان مدة الحمل داخلة فيه وأقله ستة أشهر الشرط الثانى أن يوجد خمس رضعات متفرقات روى ذلك عن عائشة وبه قال عبد الله بن الزبير واليه ذهب الشافعى ويدل على ذلك ماروى عن عائشة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لاتحرم المصة ولا المصتان أخرجه مسلم (م) عن أم الفضل ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لاتحرم الاملاجة ولا الاملاجتان وفى رواية ان رجلا من بنى عامر بن صعصعة قال يانبى الله هل تحرم الرضعة الواحدة قال لا (م) عن عائشة قالت كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن ثم نسخت بخمس معلومات فتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهن فيما يقرأ من القرآن قولها فتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهن فيما يقرأ من القرآن يحتمل انه لم يبلغها نسخ ذلك وأجمعوا على ان هذا لايتلى فهو مما نسخ تلاوته وبقى حكمه وذهب جمهور العلماء الى أن قليل الارضاع وكثيره يحرم وهو قول ابن عباس وابن عمر وبه قال سعيد بن المسيب واليه ذهب الثورى والاوزاعى ومالك وابن المبارك وأبو حنيفة وأحمد فى احدى الروايتين عنه والرواية الاخرى كمذهب الشافعى واحتج مذهب الجمهور بمطلق الآية لانه عمل بعموم القرآن وظاهره ولم يذكر عددا وأجاب الشافعى ومن وافقه فى هذه المسئلة بان السنة مبينة للقرآن مفسرة له قوله تعالى (وأمهات نسائكم) يعنى اذا تزوج الرجل بامرأة حرمت عليه أمها الاصلية وجميع جداتها من قبل الاب والام كما فى النسب والرضاع أيضا ومذهب أكثر الصحابة وجميع التابعين وكل العلماء أن من تزوج امرأة حرمت عليه أمها بنفس العقد سواء دخل بها أو لم يدخل بها وذهب جمع من الصحابة الى أن أم المرأة انما تحرم بالدخول بابنتها وهو قول على وزيد بن ثابت وابن عمر وابن الزبير وجابر وأظهر الروايات عن ابن عباس والعمل اليوم على القول الاول وهو مذهب الجمهور ويدل على ذلك ماروى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أيما رجل نكح امرأة فلا يحل له نكاح ابنتها وان لم يكن دخل بها فلينكح ابنتها أيما رجل نكح امرأة فلا يحل له أن ينكح أمها دخل بها أو لم يدخل أخرجه الترمذى وقوله تعالى (وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم) الربائب جمع ربيبة وهى بنت المرأة من رجل آخر سميت ربيبة لتربيته اياها فى حجر الرجل وقوله دخلتم بهن كناية عن الجماع لا نفس العقد فيحرم على الرجل بنات امرأته وبنات أولادها وان سفلن من النسب والرضاع بعد الدخول بالزوجة فلو فارق زوجته قبل الدخول بها أو ماتت قبل دخوله

سمى ولد المرأة من غير زوجها ربيبا وربيبة لانه يربهما كما يرب ولده فى غالب الامر ثم اتسع فيه فسميا بذلك وان لم يربهما (اللاتى فى حجوركم) قال داود اذا لم تكن فى حجره لاتحرم قلنا ذكر الحجر على غلبة الحال دون الشرط وفائدته التعليل للتحريم وانهن لاحتضانكم لهن أو لكونهن بصدد احتضانكم كانكم فى العقد على بناتهن عاقدون على بناتكم (من نسائكم اللاتى دخلتم بهن) متعلق بربائبكم أى الربيبة من المرأة المدخول بها حرام على الرجل حلال له اذا لم يدخل بها والدخول بهن كناية عن الجماع كقولهم بنى عليها وضرب عليها الحجاب أى أدخلتموهن الستر والباء للتعدية واللمس ونحوه يقوم مقام الدخول وقد جعل بعض العلماء اللاتى دخلتم بهن وصفا للنساء المتقدمة والمتأخرة وليس كذلك لان الوصف الواحد لايقع على موصوفين مختلفى العامل وهذا لان النساء الاولى مجرورة بالاضافة والثانية بمن ولا يجوز أن تقول مررت بنسائك وهربت من نساء زيد الظريفات على أن تكون الظريفات نعتا لهؤلاء النساء وهؤلاء النساء كذا قال الزجاج وغيره وهذا أولى مما قاله صاحب الكشاف فيه (فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم) فلا حرج عليكم فى أن تتزوجوا بناتهن اذا فارقتموهن أو متن

بها جاز له ان يتزوج بنتها ولا يجوز له ان يتزوج أمها لان الله تعالى أطلق تحريم الامهات وعلق تحريم البنات بالدخول بالام وقوله تعالى (وحلائل أبنائكم) يعني أزواج أبنائكم واحدتها حليلة والرجل حليل سمي بذلك لان كل واحد منهما يحل لصاحبه وقيل لان كل واحد منهما يحل حيث يحل صاحبه في ازار واحد وقيل لان كل واحد منهما يحل ازار صاحبه من الحل بفتح الحاء وجملته انه يحرم على الرجل أزواج أبنائه وأبنا أولاده وان سفلوا من النسب والرضاع وذلك بنفس العقد (الذين من أصلابكم) انما قال من أصلابكم احتراز من التبني ليعلم ان زوجة المتبنى لا تحرم على الرجل الذي تبناه لانه كان في صدر الاسلام بمنزلة الابن فنسخ الله ذلك وقال الله تعالى ادعوهم لآبائهم وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجة زيد بن حارثة وكان قد تبناه فقال المشركون تزوج زوجة ابنه فانزل الله تعالى وما جعل أدعياءكم أبناءكم وقال تعالى لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم ۞ وقوله تعالى (وان تجمعوا بين الاختين) يعني لا يجوز للرجل أن يجمع بين الاختين في نكاح واحد سواء كانت الاخوة بينهما اخوة نسب أو رضاع الجمع بين الاختين يقع على ثلاثة أوجه أحدها أن يجمع بينهما بعقد واحد فهذا العقد فاسد لا يصح فلو تزوج احدى الاختين ثم تزوج الاخرى بعدها فههنا يحكم ببطلان نكاح الثانية فلو طلق الاولى طلاقا بائنا جاز له نكاح أختها الوجه الثاني من صور الجمع بين الاختين هو ان يجمع بينهما بملك اليمين فلا يجوز له ان يجمع بينهما في الوطء فاذا وطئ احداهما حرمت عليه الثانية حتى يحرم الاولى ببيع أو هبة أو عتق أو كتابة الوجه الثالث من صور الجمع بين الاختين هو أن يتزوج احداهما ويشتري الاخرى فيملكها بملك اليمين فذهب بعض العلماء الى أنه لا يجوز الجمع بينهما لان ظاهر هذه الآية يقتضي تحريم الجمع مطلقا فوجب ان يحرم الجمع بينهما على جميع الوجوه وذهب بعضهم الى جوازه والقول الاول أصح وأولى لما روى قبيصة ابن ذؤيب أن رجلا سأل عثمان عن أختين مملوكتين لرجل هل يجمع بينهما فقال عثمان أحلتهما آية وحرمتهما آية فاما أنا فلا أحب ان أصنع ذلك فخرج من عنده فلقي رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عنه فقال أما أنا فلو كان لي من الامر شئ ثم أجد أحدا فعل ذلك الا جعلته نكالا قال ابن شهاب أراه علي بن أبي طالب قال مالك انه بلغه عن الزبير بن العوام مثل ذلك أخرجه مالك في الموطأ ۞ وقوله تعالى (الا ما قد سلف) يعني لكن ما قد مضى فانه معفو عنه بدليل قوله تعالى (ان الله كان غفورا رحيما) وقيل ان فائدة هذا الاستثناء ان أنكحة الكفار صحيحة فلو أسلم عن أختين قيل له اختر أيتهما شئت ويدل على ذلك ما روى عن الضحاك بن فيروز عن أبيه قال قلت يا رسول الله اني أسلمت وتحتي اختان قال طلق أيتهما شئت أخرجه أبو داود ﴿فروع﴾ تتعلق بحكم الآية الاول لا يجوز الجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها ويدل على ذلك ما روى عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها أخرجاه في الصحيحين قال بعض العلماء في حد ما يحرم الجمع كل امرأتين بينهما قرابة أو لبن لو كان ذلك بينك وبين المرأة لم يجز لك نكاحها لم يجز لك الجمع بينهما الفرع الثاني المحرمات بالنسب سبعة أصناف ذكرت في الآية نسقا والمحرمات بالسبب صنفان صنف يحرم بالرضاع وهن الامهات والاخوات على ما تقدم ذكره وصنف يحرم بالمصاهرة وهن أم المرأة وحليلة الابن وزوجة الاب وقد تقدم ذكرها في قوله تعالى ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الآية والربائب على التفصيل المذكور والجمع بين الاختين الفرع الثالث التحريم الحاصل بسبب المصاهرة انما يحصل بنكاح صحيح فلو زنى بامرأة لم تحرم عليه أمها ولا بنتها وأراد أن يتزوج بهن وكذلك لا تحرم المزني بها على آباء الزاني ولا أبنائه انما تتعلق الحرمة بنكاح صحيح أو بنكاح فاسد يجب لها به الصداق وتجب عليها العدة ويلحق به الولد وهذا قول علي وابن عباس وبه قال سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير والزهري واليه ذهب مالك والشافعي وفقهاء الحجاز وذهب قوم الى

ان

(وحلائل أبنائكم) جمع حليلة وهي الزوجة لان كل واحد منهما يحل للآخر أو يحل فراش الآخر من الحل أو من الحلول (الذين من أصلابكم) دون من تبنيتم فقد تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب حين فارقها زيد وقال الله تعالى لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج ادعيائهم وليس هذا النفي الحرمة عن حليلة الابن من الرضاع (وأن تجمعوا بين الاختين) أي في النكاح وهو في موضع الرفع عطف على المحرمات أي وحرم عليكم الجمع بين الاختين (الا ما قد سلف) ولكن ما مضى مغفور بدليل قوله (ان الله كان غفورا رحيما) وعن محمد بن الحسن رحمه الله ان أهل الجاهلية كانوا يعرفون هذه المحرمات الا نكاح امرأة الأب ونكاح الاختين فلذا قال فيهما الا ما قد سلف

ان الزنا يتعلق به تحريم المصاهرة يروى ذلك عن عمران بن حصين وأبى هريرة وبه قال جابر بن زيد والحسن وأهل العراق ولو لمس امرأة أجنبية بشهوة أو قبلها بشهوة هل يجعل ذلك كالدخول فى اثبات تحريم المصاهرة وكذلك لو لاس امرأة بشهوة هل يجعل ذلك كالوطء فى تحريم الربيبة فيه قولان أصحهما انه تثبت به حرمة المصاهرة وهو قول أكثر أهل العلم والثانى لا تثبت به كما لا تثبت بالنظر بشهوة ۞ قوله تعالى (والمحصنات) يعنى وحرمت المحصنات (من النساء) وأصل الاحصان فى اللغة المنع والحصان بالفتح المرأة العفيفة ويطلق الاحصان على المرأة ذات الزوج والحرة والعفيفة والمرأة المسلمة والمراد من الاحصان فى قوله والمحصنات ذوات الازواج من النساء فلا يحل لاحد نكاحهن قبل مفارقة أزواجهن وهذه هى السابعة من النساء التى حرمن بالسبب قال أبو سعيد الخدرى نزلت هذه الآية فى نساء كن هاجرن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهن أزواج فتزوجن بعض المسلمين ثم قدم أزواجهن مهاجرين فنهى الله المسلمين عن نكاحهن ثم استثنى فقال تعالى (الاماملكت أيمانكم) يعنى السبايا اللاتى سبين ولهن أزواج فى دار الحرب فيحل لمالكهن وطؤهن بعد الاستبراء لان السبى يرتفع به النكاح بينها وبين زوجها قال أبو سعيد الخدرى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشا الى أوطاس فاصابوا سبايا لهن أزواج من المشركين فكرهوا غشيانهن فانزل الله تعالى هذه الآية وقال ابن مسعود أراد انه اذا باع الجارية المزوجة فتقع الفرقة بينها وبين زوجها ويكون بيعها طلاقا فيحل للمشترى وطؤها وقال عطاء أراد بقوله الاماملكت أيمانكم ان تكون أمته فى نكاح عبده فيجوز له أن ينتزعها منه وقيل أراد بالمحصنات من النساء الحرائر ومعناه ان مافوق الاربع منهن فانه عليكم حرام الاماملكت أيمانكم فانه لا عدد عليكم فى الجوارى ولا حصر (كتاب الله عليكم) يعنى حرمت عليكم أمهاتكم وكتب عليكم هذا كتابا وقيل معناه الزموا كتاب الله وقيل معناه كتابا من الله عليكم بمعنى كتب الله تحريم ماحرم عليكم من ذلك وتحليل ماحلل كتابا (وأحل لكم ماوراء ذلكم) يعنى وأحل الله لكم ماسوى ذلكم الذى ذكر من المحرمات وظاهر هذه الآية يقتضى حل ماسوى المذكورين من الاصناف المحرمات لكن قد دل الدليل من السنة بتحريم أصناف أخر سوى ماذكر فمن ذلك انه يحرم الجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها ومن ذلك المطلقة ثلاثا لا تحل لزوجها الاول حتى تنكح زوجا غيره ومن ذلك نكاح المعتدة فلا تحل للازواج حتى تنقضى عدتها ومن ذلك ان من كان فى نكاحه حرة لم يجز له أن يتزوج بامة والقادر على طول الحرة لم يجز له أن يتزوج بالامة ومن ذلك ان من كان عنده أربع نسوة حرم عليه أن يتزوج بخامسة ومن ذلك الملاعنة فانها محرمة على الملاعن بالتأبيد فهذه أصناف من المحرمات سوى ماذكر فى الآية فعلى هذا يكون قوله تعالى وأحل لكم ماوراء ذلكم ورد بلفظ العموم لكن العموم دخله التخصيص فيكون عاما مخصوصا وقوله تعالى (أن تبتغوا باموالكم) فيه اضمار تقديره وأحل لكم ان تبتغوا أى تطلبوا باموالكم أى تنكحوا بصداق أو تشتروا بثمن وفى الآية دليل على ان الصداق لا يتقدر بشئ فيجوز على القليل والكثير لاطلاق قوله تعالى أن تبتغوا باموالكم (محصنين) يعنى متزوجين وقيل متعففين (غير مسافحين) يعنى غير زانين والسفاح الفجور وأصله من السفح وهو الصب وانما سمى الزنا سفاحا لان الزانى لا غرض له الا صب النطفة فقط وقوله تعالى (فما استمتعتم به منهن) اختلفوا فى معناه فقال الحسن ومجاهد أراد ما انتفعتم وتلذذتم بالجماع من النساء بنكاح صحيح لان أصل الاستمتاع فى اللغة الانتفاع وكل ما انتفع به فهو متاع (فآتوهن أجورهن) يعنى مهورهن وانما سمى المهر أجرا لانه

(والمحصنات من النساء) أى ذات الازواج لانهن أحصن فروجهن بالتزوج قرأ الكسائى بفتح الصاد هنا وفى سائر القرآن بكسرها وغيره بفتحها فى جميع القرآن (الاماملكت أيمانكم) بالسبى وزوجها فى دار الحرب والمعنى وحرم عليكم نكاح المنكوحات أى اللاتى لهن أزواج الاماملكتموهن بسبيهن واخراجهن بدون أزواجهن لوقوع الفرقة بتباين الدارين لا بالسبى فتحل الغنائم بملك اليمين بعد الاستبراء (كتاب الله عليكم) مصدر مؤكد أى كتب الله ذلك عليكم كتابا وفرضه فريضة وهو تحريم ماحرم وعطف (وأحل لكم) على الفعل المضمر الذى نصب كتاب الله أى كتب الله عليكم تحريم ذلك وأحل لكم (ماوراء ذلكم) ماسوى المحرمات المذكورة وأحل كوفى غير أبى بكر عطف على حرمت (ان تبتغوا) مفعول له أى بين لكم مايحل مما يحرم لان تبتغوا أو بدل مما وراء ذلكم ومفعول تبتغوا مقدر وهو النساء والاجود ان لا يقدر (باموالكم) يعنى المهور وفيه دليل على ان النكاح لا يكون الا بمهر وانه يجب وان لم يسم وان غير المال لا يصلح مهرا وان القليل لا يصلح مهرا اذ الحبة لا تعد مالا عادة (محصنين) فى حال كونكم محصنين (غير مسافحين) لئلا تضيعوا أموالكم وتفقروا أنفسكم فيما لا يحل لكم فتخسروا دينكم ودنياكم ولا فساد اعظم من الجمع بين الخسرانين والاحصان العفة وتحصين النفس من الوقوع فى الحرام والمسافح الزانى من السفح وهو صب المنى (فما استمتعتم به منهن) فما نكحتموه منهن (فآتوهن أجورهن) مهورهن لان المهر ثواب على البضع فما فى معنى النساء ومن للتبعيض أو للبيان ويرجع الضمير اليه على اللفظ فى به وعلى المعنى فى فآتوهن

بدل المنافع ليس بدل الاعيان كما سمى بدل منافع الدار والدابة أجرا وقال قوم المراد من حكم الآية هو نكاح المتعة وهو ان ينكح امرأة الى مدة معلومة بشئ معلوم فاذا انقضت تلك المدة بانت منه بغير طلاق و يستبرئ رحمها وليس بينهما ميراث وكان هذا فى ابتداء الاسلام ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المتعة فحرمها (م) عن سبرة بن معبد الجهنى انه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أيها الناس انى كنت أذنت لكم فى الاستمتاع من النساء وان الله قد حرم ذلك الى يوم القيامة فمن كان عنده منهن شئ فليخل سبيله ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيأ والى هذا ذهب جمهور العلماء من الصحابة فمن بعدهم أى ان نكاح المتعة حرام والآية منسوخة واختلفوا فى ناسخها فقيل نسخت بالسنة وهو ما تقدم من حديث سبرة الجهنى (ق) عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن متعة النساء يوم خيبر وعن أكل لحوم الحمر الانسية وهذا على مذهب من يقول ان السنة تنسخ القرآن ومذهب الشافعى ان السنة لا تنسخ القرآن فعلى هذا يقول ان ناسخ هذه الآية قوله تعالى فى سورة المؤمنون والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين والمنكوحة فى المتعة ليست بزوجة ولا ملك يمين واختلفت الروايات عن ابن عباس فى المتعة فروى عنه ان الآية محكمة وكان يرخص فى المتعة قال عمارة سألت ابن عباس عن المتعة أسفاح هى أم نكاح فقال لا سفاح ولا نكاح قلت فما هى قال متعة قال الله تعالى فما استمتعتم به منهن قلت هل لها عدة قال نعم حيضة قلت هل يتوارثان قال لا وروى ان الناس لما ذكروا الاشعار فى فتيا ابن عباس بالمتعة قال قاتلهم الله انا ما أفتيت باباحتها على الاطلاق لكن قلت انما تحل للمضطر كما تحل الميتة له وروى انه رجع عنه وقال بتحريمها وروى عطاء الخراسانى عن ابن عباس فى قوله فما استمتعتم به منهن انها صارت منسوخة بقوله يا أيها النبى اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وروى سالم بن عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ما بال أقوام ينكحون هذه المتعة وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها لا أجد رجلا نكحها الا رجمته بالحجارة وقال هدم المتعة النكاح والطلاق والعدة والميراث قال الشافعى لا أعلم فى الاسلام شيأ أحل ثم حرم ثم أحل ثم حرم غير المتعة وقال أبو عبيد المسلمون اليوم مجمعون على ان متعة النساء قد نسخت بالتحريم نسخها الكتاب والسنة هذا قول اهل العلم جميعا من أهل الحجاز والشام والعراق من أصحاب الاثر والرأى وانه لا رخصة فيها لمضطر ولا لغيره قال ابن الجوزى فى تفسيره وقد تكلف قوم من مفسرى القرآن فقالوا المراد بهذه الآية نكاح المتعة ثم نسخت بما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه نهى عن متعة النساء وهذا تكلف لا يحتاج اليه لان النبى صلى الله عليه وسلم أجاز المتعة ثم منع منها فحرمها فكان قوله منسوخا بقوله وأما الآية فانها لم تتضمن جواز المتعة لانه تعالى قال فيها ان تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فدل ذلك على النكاح الصحيح قال الزجاج ومعنى قوله فما استمتعتم به منهن فما نكحتموه على الشرائط التى جرت وهو قوله محصنين غير مسافحين أى عاقدين التزويج وقال ابن جرير الطبرى أولى التأويلين فى ذلك بالصواب تأويل من تأوله فما نكحتموه منهن فجامعتموهن فآتوهن أجورهن لقيام الحجة بتحريم الله تعالى متعة النساء على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقوله تعالى فآتوهن أجورهن يعنى مهورهن (فريضة) يعنى لازمة وواجبة (ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة) اختلفوا فيه فمن حمل ما قبله على نكاح المتعة قال أراد انهما اذا عقدا عقدا الى أجل على مال فاذا تم الاجل فان شاءت المرأة زادت فى الاجل وزاد الرجل فى الاجر وان لم يتراضيا فارقها وقد تقدم ان ذلك كان جائزا ثم نسخ وحرم ومن حمل الآية على الاستمتاع بالنكاح الصحيح قال المراد بقوله ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به يعنى من الابراء من المهر والافتداء والاعتياض وقال الزجاج معناه لا جناح عليكم ان تهب المرأة للزوج مهرها او ان يهب الرجل للمرأة التى لم يدخل بها نصف المهر الذى لا يجب

(فريضة) حال من الاجور أى مفروضة أو وضعت موضع ايتاء لان الايتاء مفروض أو مصدر مؤكد أى فرض ذلك فريضة (ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة) فيما تحط عنه من المهر أو تهب له من كله أو يزيد لها على مقداره أو فيما تراضيا به من مقام أو فراق

عليه (ان الله كان عليما) يعني بما يصلحكم أيها الناس في مناكحكم وغيرها من سائر أموركم (حكيما) يعني فيما دبر لكم من التدبير وفيما يأمركم به وينهاكم عنه ولا يدخل حكمه خلل ولا زلل

﴿فصل في قدر الصداق وما يستحب منه﴾ اعلم انه لا تقدير لأكثر الصداق لقوله تعالى وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيأ والمستحب ان لا يغالي فيه قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ألا لا تغالوا في صدقة النساء فانها لو كانت مكرمة في الدنيا وتقوى عند الله لكان أولاكم بها نبي الله صلى الله عليه وسلم ما علمت رسول الله صلى الله عليه وسلم نكح شيأ من نسائه ولا أنكح شيأ من بناته على أكثر من اثني عشر أوقية أخرجه الترمذي ولأبي داود نحوه (م) عن أبي سلمة قال سألت عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم كم كان صداق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت كان صداقه لأزواجه ثنتي عشرة أوقية ونشا قالت أتدري ما النش قلت لا قالت نصف أوقية فذلك خمسمائة درهم واختلف العلماء في أقل الصداق فذهب جماعة الى انه لا تقدير لاقله بل كل ما جاز أن يكون مبيعا أو ثمنا جاز أن يكون صداقا وهو قول ربيعة وسفيان الثوري والشافعي وأحمد واسحق وقال قوم يتقدر الصداق بنصاب السرقة وهو قول مالك وأبي حنيفة غير ان نصاب السرقة عند مالك ثلاثة دراهم وعند أبي حنيفة عشرة دراهم والدليل على ان الصداق لا يتقدر ما روي عن سهل بن سعد الساعدي قال جاءت امرأة الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله قد وهبت نفسي لك فنظر اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فصعد النظر فيها وصوبه ثم طأطأ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيأ جلست فقام رجل من أصحابه فقال يا رسول الله ان لم تكن لك بها حاجة فزوجنيها فقال فهل عندك من شئ فقال لا والله يا رسول الله فقال اذهب الى أهلك فانظر هل تجد شيأ فذهب ثم رجع فقال لا والله ما وجدت شيأ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظر ولو خاتما من حديد فذهب ثم رجع فقال لا والله يا رسول الله ولا خاتما من حديد ولكن ازاري هذا قال سهل ماله رداء فلها نصفه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تصنع بازارك ان لبسته لم يكن عليها منه شئ وان لبسته لم يكن عليك منه شئ فجلس الرجل حتى اذا طال مجلسه قام فرآه النبي صلى الله عليه وسلم موليا فأمر به فدعى له فلما جاء قال ماذا معك من القرآن قال معي سورة كذا وسورة كذا عددها قال تقرؤهن عن ظهر قلبك قال نعم قال اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن وفي رواية فقد زوجتكها تعلمها من القرآن وفي رواية فقد أنكحناكها بما معك من القرآن أخرجاه في الصحيحين وهذا اللفظ للحميدي ففي هذا الحديث دليل على انه لا تقدير لأقل الصداق لانه قال هل تجد شيأ فهذا يدل على جواز أي شئ كان من المال ثم قال ولو خاتما من حديد ولا قيمة له الا القليل التافه وفيه دليل على انه يجوز أن يجعل تعليم القرآن صداقا وهو قول الشافعي ومنعه أصحاب الرأي عن جابر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أعطى في صداق امرأة ملء كفيه سويقا أو تمرا فقد استحل أخرجه أبو داود وعن عبد الله بن عامر عن أبيه ان امرأة من بني فزارة تزوجت على نعلين فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم أرضيت من نفسك ومالك بنعلين قالت نعم فأجازه أخرجه الترمذي وقال عمر ابن الخطاب ثلاث قبضات من زبيب مهر ۞ قوله عز وجل (ومن لم يستطع منكم طولا) يعني فضلا وسعة وانما سمي الغنى طولا لانه ينال به من المراد ما لا ينال مع الفقر والطول هنا كناية عما يصرف الى المهر والنفقة (أن ينكح المحصنات) يعني الحرائر (المؤمنات فما ملكت أيمانكم) يعني جارية أخيك المؤمن فان الانسان لا يجوز له أن يتزوج بجارية نفسه (من فتياتكم المؤمنات) المعنى من لم يقدر على مهر الحرة المؤمنة فليتزوج الامة المؤمنة والفتيات الجواري المملوكات جمع فتاة يقال للامة فتاة وللعبد فتى وفي الآية دليل على انه لا يجوز للحر نكاح الامة الا بشرطين أحدهما أن لا يجد مهر حرة لانه جرت العادة في الاماء بتخفيف مهورهن ونفقتهن وسبب ذلك اشتغالهن بخدمة ساداتهن والشرط الثاني هو خوف العنت على

(ان الله كان عليما) بالاشياء قبل خلقه (حكيما) فيما فرض لهم من عقد النكاح الذي به حفظت الانساب وقيل ان قوله فما استمتعتم نزلت في المتعة التي كانت ثلاثة أيام حين فتح الله مكة على رسوله ثم نسخت (ومن لم يستطع منكم طولا) فضلا يقال لفلان على طول أي فضل وزيادة وهو مفعول يستطع (أن ينكح) مفعول الطول فانه مصدر فيعمل عمل فعله أو بدل من طولا (المحصنات المؤمنات) حرائر المسلمات (فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) أي فلينكح مملوكة من الاماء المسلمات وقوله من فتياتكم أي من فتيات المسلمين والمعنى ومن لم يستطع زيادة في المال وسعة يبلغ بها نكاح الحرة فلينكح أمة ونكاح الامة الكتابية يجوز عندنا والتقييد في النص للاستحباب بدليل ان الايمان ليس بشرط في الحرائر اتفاقا مع التقييد به وقال ابن عباس ومما وسع الله على هذه الامة نكاح الامة واليهودية والنصرانية وان كان موسرا وفيه دليل لنا في مسئلة الطول

نفسه وهو قوله تعالى ذلك لمن خشي العنت منكم قال ابن عباس هو الزنا وهذا قول جابر وابن عباس وسعيد بن جبير وطاوس ومسروق ومكحول وعمرو بن دينار واليه ذهب مالك والشافعي وأحمد وروي عن علي والحسن البصري وابن المسيب ومجاهد والزهري انه يجوز للحر أن ينكح الامة وان كان موسرا وهو مذهب أبي حنيفة الا أن يكون في نكاحه حرة والسبب في منع الحر من نكاح الامة الا عند خوف العنت ان الولد يتبع الام في الرق والحرية واذا كانت الام رقيقة كان الولد رقيقا وذلك نقص في حق الحر وفي حق ولده ولان حق السيد أعظم من حق الزوج فربما احتاج الزوج اليها فلا يجد اليها سبيلا لان للسيد حبسها لخدمته ولان مهرها ملك السيد فلا تقدر على هبته من زوجها ولا أن تبرئه منه بخلاف الحرة فلهذا السبب منع الله من نكاح الامة الا على سبيل الرخصة والاضطرار ويجوز للعبد نكاح الامة وان كان في نكاحه حرة وعند أبي حنيفة لا يجوز له اذا كانت تحته حرة كما يقول في الحر وفي الآية دليل على انه لا يجوز للمسلم حرا كان أو عبدا نكاح الامة الكتابية لقوله تعالى من فتياتكم المؤمنات يفيد جواز نكاح الامة المؤمنة دون الكتابية لان فيها نوعين من النقص وهما الرق والكفر بخلاف الامة المؤمنة لان فيها نقصا واحدا وهو الرق وهذا قول مجاهد والحسن واليه ذهب مالك والشافعي وقال أبو حنيفة يجوز التزويج بالامة الكتابية وبالاتفاق يجوز وطء الامة الكتابية بملك اليمين ۞ وقوله تعالى (والله أعلم بإيمانكم) قال الزجاج أي اعملوا على الظاهر في الايمان فانكم متعبدون بما ظهر والله يتولى السرائر والحقائق وقيل معناه لا تتعرضوا للباطن في الايمان وخذوا بالظاهر فان الله أعلم بإيمانكم (بعضكم من بعض) يعني أنكم كلكم من نفس واحدة فلا تستنكفوا من نكاح الاماء عند الضرورة وانما قيل لهم ذلك لان العرب كانت تفتخر بالانساب والاحساب ويسمون ابن الامة الهجين فاعلم الله تعالى ان ذلك أمر لا يلتفت اليه فلا يتداخلنكم شموخ وأنفة من التزويج بالاماء فانكم متساوون في النسب الى آدم وقيل ان معناه ان دينكم واحد وهو الايمان وأنتم مشتركون فيه فمتى وقع لاحدكم الضرورة جاز له أن يتزوج بالامة عند خوف العنت وقال ابن عباس يريد أن المؤمنين بعضهم أكفاء بعض (فانكحوهن بإذن أهلهن) يعني اخطبوا الاماء الى ساداتهن واتفق العلماء على ان نكاح الامة بغير اذن سيدها باطل لان الله تعالى جعل اذن السيد شرطا في جواز نكاح الامة (وآتوهن أجورهن) يعني مهورهن (بالمعروف) يعني من غير مطل ولا ضرار وقيل معناه وآتوهن مهور أمثالهن وأجمعوا على ان المهر للسيد لانه ملكه وانما أضيف ايتاء المهر الى الاماء لانه ثمن بضعهن (محصنات) يعني عفائف (غير مسافحات) يعني غير زانيات (ولا متخذات أخدان) جمع خدن وهو الصاحب الذي يكون معك في كل أمر ظاهر وباطن وأكثر ما يستعمل فيمن يصاحب بشهوة يقال خدن المرأة وخدينها يعني حبها الذي يزني بها في السر قال الحسن المسافحة هي التي كل من دعاها تبعته وذات الاخدان هي التي تختص بواحد ولا تزني مع غيره وكانت العرب في الجاهلية تحرم الاولى وتجوز الثانية فلما كان هذا الفرق معتبرا عندهم لا جرم ان الله تعالى أفرد كل واحد من هذين القسمين بالذكر ونص على تحريمهما معا (فاذا أحصن) قرئ بفتح الالف والصاد ومعناه حفظن فروجهن وقيل معناه أسلمن وقرأ حفص بضم الالف وكسر الصاد ومعناه زوجن (فان أتين بفاحشة) يعني بزنا (فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب) يعني فعلى الاماء اللاتي زنين نصف ما على الحرائر الابكار اذا زنين من الجلد ويجلد العبد للزنا اذا زنى خمسين جلدة ولا فرق بين المملوك المتزوج وغير المتزوج فانه يجلد خمسين ولا رجم عليه هذا قول أكثر العلماء ويروى عن ابن عباس وقال طاوس انه لا حد على من لم يتزوج من المماليك اذا زنى لان الله تعالى قال فاذا أحصن والذي لم يتزوج ليس بمحصن وأجيب عنه بان معنى الاحصان عند الاكثرين الاسلام وان كان المراد منه التزويج فليس المراد منه ان التزويج شرط لوجوب الحد عليه بل المراد منه التنبيه على ان المملوك وان كان محصنا فلا رجم عليه

(والله أعلم بإيمانكم) فيه تنبيه على قبول ظاهر إيمانهن ودليل على أن الإيمان هو التصديق دون عمل اللسان لان العلم بالايمان المسموع لا يختلف (بعضكم من بعض) أي لا تستنكفوا من نكاح الاماء فكلكم بنو آدم وهو تحذير عن التعيير بالانساب والتفاخر بالاحساب (فانكحوهن باذن أهلهن) ساداتهن وهو حجة لنا في أن لهن أن يباشرن العقد بانفسهن لانه اعتبر اذن الموالي لا عقدهم وانه ليس للعبد أو للامة أن يتزوج الا باذن المولى (وآتوهن أجورهن بالمعروف) وأدوا اليهن مهورهن بغير مطل واضرار وملاك مهورهن مواليهن فكان أداؤها اليهن أداء الى الموالي لانهن وما في أيديهن مال الموالي والتقدير وآتوا مواليهن فحذف المضاف (محصنات) عفائف حال من المفعول في وآتوهن (غير مسافحات) زوان علانية (ولا متخذات أخدان) زوان سرا والاخدان الاخلاء في السر (فاذا أحصن) بالتزويج أحصن كوفي غير حفص (فان أتين بفاحشة) زنا (فعليهن نصف ما على المحصنات) أي الحرائر (من العذاب) من الحد يعني خمسين جلدة وقوله نصف ما على المحصنات يدل على انه الجلد لا الرجم لان الرجم لا يتنصف وان المحصنات هنا الحرائر اللاتي لم يزوجن

(ذلك) أى نكاح الاماء (لمن خشى العنت منكم) لمن خاف الاثم الذى تؤدى اليه غلبة الشهوة وأصل العنت انكسار العظم بعد الجبر فاستعير لكل مشقة وضرر ولا ضرر أعظم من مواقعة المآثم وعن ابن عباس رضى الله عنهما هو الزنا لانه سبب الهلاك (وأن تصبروا) فى محل الرفع على الابتداء أى وصبركم عن نكاح الاماء متعففين (خير لكم) لان فيه ارقاق الولد ولانها خراجة ولاجة ممتهنة مبتذلة وذلك

انما حده الجلد بخلاف الحر فحد الامة ثابت بهذه الآية وبيان انه بالجلد لا بالرجم ثابت بالحديث وهو ماروى عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها فليجلدها الحد ولا يثرب عليها ثم ان زنت فليجلدها الحد ولا يثرب عليها ثم ان زنت الثالثة فتبين زناها فليبعها ولو بحبل من شعر أخرجاه فى الصحيحين قوله ولا يثرب عليها أى لا يعيرها والتثريب التأنيب والتعيير والاستقصاء فى اللوم قال الشيخ محيى الدين النووى وهذا البيع المأمور به فى الحديث مستحب وليس بواجب عندنا وعند الجمهور وقال داود وأهل الظاهر هو واجب وفيه جواز بيع الشئ الثمين بالثمن الحقير وهذا البيع المأمور به يلزم صاحبه أن يبين حالها للمشترى لانه عيب والاخبار بالعيب واجب فان قيل كيف يكره شيأ ويرتضيه لاخيه المسلم فالجواب لعلها تستعف عند المشترى بان يعفها بنفسه أو يصونها بهيبته أو بالاحسان اليها أو يزوجها أو غير ذلك والله أعلم (ذلك) اشارة الى نكاح الامة (لمن خشى العنت منكم) يعنى الزنا والمعنى ذلك لمن خاف أن تحمله شدة الشبق والغلمة وشدة الشهوة على الزنا وانما سمى الزنا بالعنت لما يعقبه من المشقة وهى شدة العزوبة فاباح الله تعالى نكاح الامة بثلاثة شروط عدم القدرة على نكاح الحرة وخوف العنت وكون الامة مؤمنة (وأن تصبروا) يعنى عن نكاح الاماء متعففين (خير لكم) يعنى كيلا يكون الولد عبدا رقيقا (والله غفور رحيم) وهذا كالتوكيد لما تقدم يعنى انه تعالى غفر لكم ورحمكم حيث أباح لكم ما أنتم محتاجون اليه ۞ قوله تعالى (يريد الله ليبين لكم) اللام فى قوله ليبين معناه أن يبين وقيل معناه يريد انزال هذه الآيات من أجل أن يبين لكم دينكم ويوضح لكم شرعكم ومصالح أموركم وقيل يبين لكم مايعتريكم منه وقيل يبين ان الصبر على نكاح الاماء خير لكم (ويهديكم) أى ويرشدكم (سنن الذين من قبلكم) أى شرائع من قبلكم فى تحريم الامهات والبنات والاخوات فانها كانت محرمة على من قبلكم وقيل معناه يرشدكم الى مالكم فيه مصلحة كما بينه لمن كان قبلكم وقيل معناه ويهديكم الى الملة الحنيفية وهى ملة ابراهيم عليه السلام (ويتوب عليكم) يعنى ويتجاوز عنكم ما أصبتم قبل أن يبين لكم ويرجع بكم عن المعصية التى كنتم عليها الى طاعته وقيل لما بين انا أمر الشرائع والمصالح وأرشدنا الى طاعته فربما وقع منا تقصير وتفريط فيما أمر به وبينه فلاجرم انه تعالى قال ويتوب عليكم (والله عليم) يعنى بمصالح عباده فى أمر دينهم ودنياهم (حكيم) يعنى فيما يدبر من أمورهم (والله يريد ان يتوب عليكم) قال ابن عباس معناه يريد أن يخرجكم من كل مايكره الى مايحب ويرضى وقيل معناه يدلكم على ما يكون سببا لتوبتكم التى يغفر لكم بها ماسلف من ذنوبكم وقيل معناه ان وقع منكم تقصير فى دينه فيتوب عليكم ويغفر لكم (ويريد الذين يتبعون الشهوات) قيل هم اليهود والنصارى وقيل هم اليهود خاصة لانهم يقولون ان نكاح بنت الاخت من الاب حلال وقيل هم المجوس لانهم يستحلون نكاح الاخوات وبنات الاخوة فلما حرمهن الله قالوا انكم تحلون بنت الخالة وبنت العمة والخالة والعمة عليكم حرام فانكحوا بنات الاخ والاخت فنزلت هذه الآية وقيل هم الزناة يريدون أن تكونوا مثلهم (أن تميلوا) يعنى عن الحق وقصد السبيل بالمعصية (ميلا عظيما) يعنى باتيانكم ما حرم الله عليكم (يريد الله أن يخفف عنكم) يعنى ليسهل عليكم أحكام الشرائع فهو عام فى كل أحكام الشرع وجميع مايسره لنا وسهله علينا احسانا

كله نقصان يرجع الى الناكح ومهانة والعزة من صفات المؤمنين وفى الحديث الحرائر صلاح البيت والاماء هلاك البيت (والله غفور) يستر المحظور (رحيم) يكشف المحذور (يريد الله ليبين لكم) أصله يريد الله أن يبين لكم فزيدت اللام مؤكدة لارادة التبيين كما زيدت فى لا أبالك لتأكيد اضافة الاب والمعنى يريد الله أن يبين لكم ماهو خفى عليكم من مصالحكم وأفاضل أعمالكم (ويهديكم سنن الذين من قبلكم) وأن يهديكم مناهج من كان قبلكم من الانبياء والصالحين والطرق التى سلكوها فى دينهم لتقتدوا بهم (ويتوب عليكم) ويوفقكم للتوبة عما كنتم عليه من الخلاف (والله عليم) بمصالح عباده (حكيم) فيما شرع لهم (والله يريد أن يتوب عليكم) التكرير للتأكيد والتقرير والتقابل (ويريد) الفجرة (الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما) وهو الميل عن القصد والحق ولا ميل أعظم منه بمساعدتهم وموافقتهم على اتباع الشهوات وقيل هم اليهود لاستحلالهم الاخوات لاب وبنات الاخ وبنات الاخت فلما حرمهن الله قالوا فانكم تحلون بنت الخالة والعمة والخالة والعمة عليكم حرام فانكحوا بنات الاخت والاخ فنزلت يقول يريدون ان تكونوا زناة مثلهم (يريد الله ان يخفف عنكم) باحلال نكاح الامة وغيره من الرخص

(وخلق الانسان ضعيفا) لا يصبر عن الشهوات وعلى مشاق الطاعات (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) بما لم تبحه الشريعة من نحو السرقة والخيانة والغصب والقمار وعقود الربا (الا أن تكون تجارة) الا أن تقع تجارة تجارة كوفي الا أن تكون التجارة تجارة (عن تراض منكم) صفة لتجارة أي تجارة صادرة عن تراض بالعقد أو بالتعاطي والاستثناء منقطع معناه ولكن اقصدوا كون تجارة عن تراض أو ولكن كون تجارة عن تراض غير منهي عنه وخص التجارة بالذكر لان أسباب الرزق أكثرها متعلق بها والآية تدل على جوار البيع بالتعاطي وعلى جواز البيع الموقوف اذا وجدت الاجازة لوجود الرضا وعلى نفي خيار المجلس لان فيها اباحة الاكل بالتجارة عن تراض من غير تقييد بالتفرق عن مكان العقد والتقييد به زيادة على النص (ولا تقتلوا أنفسكم) من كان من جنسكم من المؤمنين لان المؤمنين كنفس واحدة أو ولا يقتل الرجل نفسه كما يفعله بعض الجهلة أو معنى القتل أكل الاموال بالباطل فظالم غيره كمهلك نفسه أو لا تتبعوا اهواءها فتقتلوها أو تركبوا ما يوجب القتل (ان الله كان بكم رحيما) ولرحمته بكم نهاكم على ما فيه صيانة أموالكم وبقاء أبدانكم وقيل معناه انه أمر بني اسرائيل بقتلهم أنفسهم ليكون توبة لهم وتمحيصا لخطاياهم وكان بكم يا أمة محمد رحيما حيث لم يكلفكم تلك التكاليف الصعبة (ومن يفعل ذلك) أي القتل أي ومن يقدم على قتل الانفس (عدوانا وظلما) لا خطأ ولا قصاصا وهما مصدران في موضع الحال أو مفعول لهما

منه الينا وتفضلا ولطفا علينا ولم يثقل التكاليف علينا كما ثقلها على بني اسرائيل فهو كقوله تعالى يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر وقوله تعالى وما جعل عليكم في الدين من حرج وكما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال بعثت بالحنيفية السهلة السمحة ۞ وقوله تعالى (وخلق الانسان ضعيفا) يعني في قلة الصبر عن النساء فلا صبر له عنهن وقيل انه لضعفه يستميله هواه فهو ضعيف العزم عن قهر الهوى وقيل هو ضعيف في أصل الخلقة لانه خلق من ماء مهين ۞ قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) يعني بالحرام الذي لا يحل في الشرع كالربا والقمار والغصب والسرقة والخيانة وشهادة الزور وأخذ المال باليمين الكاذبة ونحو ذلك وانما خص الاكل بالذكر ونهى عنه تنبيها على غيره من جميع التصرفات الواقعة على وجه الباطل لان معظم المقصود من المال الاكل وقيل يدخل فيه أكل مال نفسه بالباطل ومال غيره أما أكل ماله بالباطل فهو انفاقه في المعاصي وأما أكل مال غيره فقد تقدم معناه وقيل يدخل في أكل المال بالباطل جميع العقود الفاسدة ۞ وقوله تعالى (الا أن تكون تجارة عن تراض منكم) هذا الاستثناء منقطع لان التجارة عن تراض ليست من جنس أكل المال بالباطل فكان الا ههنا بمعنى لكن يحل أكله بالتجارة عن تراض يعني بطيبة نفس كل واحد منكم وقيل هو أن يخير كل واحد من المتبايعين صاحبه بعد البيع فيلزم والا فلهما الخيار ما لم يتفرقا لما روي عن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا تبايع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا وكانا جميعا أو يخير أحدهما الآخر فان خير أحدهما الآخر فتبايعا على ذلك فقد وجب البيع وان تفرقا بعد أن تبايعا ولم يترك واحد منهما البيع فقد وجب البيع أخرجاه في الصحيحين ۞ وقوله تعالى (ولا تقتلوا أنفسكم) أي لا يقتل بعضكم بعضا وانما قال أنفسكم لانهم أهل دين واحد فهم كنفس واحدة وصح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في حجة الوداع ألا لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض وقيل ان هذا نهي للانسان عن قتل نفسه (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالدا مخلدا فيها أبدا ومن تحسى سما فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا قوله يتردى التردي هو الوقوع من موضع عال الى أسفل قوله يتوجأ يقال وجأته بالسكين اذا ضربته بها وهو يتوجأ بها أي يضرب بها نفسه (ق) عن جندب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كان برجل جراح فقتل نفسه فقال الله تبارك وتعالى بدرني عبدي بنفسه حرمت عليه الجنة وفي رواية قال كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح فجزع فأخذ سكينا فحز بها يده فما رقأ الدم حتى مات فقال الله تعالى بادرني عبدي بنفسه حرمت عليه الجنة وقيل في معنى قتل الانسان نفسه أن يفعل شيأ يستحق به القتل مثل أن يقتل فيقتل به فيكون هو الذي تسبب في قتل نفسه وقيل معناه ولا تقتلوا أنفسكم بأكل المال بالباطل وقيل معناه ولا تهلكوا أنفسكم بأن تعملوا عملا ربما أدى الى قتلها (ان الله كان بكم رحيما) يعني انه تعالى من رحمته بكم نهاكم عن كل شئ تستوجبون به مشقة أو محنة وقيل انه تعالى أمر بني اسرائيل بقتل أنفسهم ليكون ذلك توبة لهم وكان بكم يا أمة محمد رحيما حيث لم يكلفكم تلك التكاليف المشقة الصعبة (ومن يفعل ذلك) يعني ما سبق ذكره من قتل النفس المحرمة لان الضمير يعود الى أقرب المذكورات وقيل انه يعود الى قتل النفس وأكل المال بالباطل لانهما مذكوران في آية واحدة وقيل انه يعود الى كل ما نهى الله عنه من أول السورة الى هنا (عدوانا وظلما) يعني يتجاوز الحد فيضع الشئ في غير موضعه فلذلك قيده بالعدوان والظلم لانه قد يكون القتل بحق وهو القصاص وكذلك قد يكون

اخذ

أخذ المال بحق فلهذا السبب قيده بالوعيد وما كان على وجه العدوان والظلم وهو قوله تعالى (فسوف نصليه نارا) أى ندخله فى الآخرة نارا يصلى فيها (وكان ذلك على الله يسيرا) أى هينا لانه تعالى قادر على مايريد ﴿ قوله عزوجل (ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه) اجتناب الشئ المباعدة عنه وتركه جانبا والكبيرة ما كبر وعظم من الذنوب وعظمت عقوبته * وقبل ذكر التفسير نذكر الاحاديث الواردة فى الكبائر فمن ذلك ماروى عن أبى بكرة قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ألا انبئكم باكبر الكبائر ثلاثا قلنا بلى يارسول الله قال الاشراك بالله وعقوق الوالدين ألا وشهادة الزور وقول الزور وكان متكئا فجلس فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت أخرجاه فى الصحيحين (ق) عن أنس بن مالك قال ذكر لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبائر فقال الشرك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس وقال ألا أنبئكم باكبر الكبائر قول الزور أوقال شهادة الزور (ق) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اجتنبوا السبع الموبقات قيل يارسول الله وماهن قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله الا بالحق وأكل مال اليتيم والزنا والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات (خ) عن ابن مسعود قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الذنب أعظم عند الله قال ان تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ان ذلك لعظيم ثم أى قال ان تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قلت ثم أى قال أن تزانى حليلة جارك (خ) عن عبدالله بن عمرو بن العاص ان النبى صلى الله عليه وسلم قال الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس وفى رواية ان أعرابيا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ماالكبائر قال الاشراك بالله قال ثم ماذا قال اليمين الغموس قلت وما اليمين الغموس قال الذى يقتطع مال امرئ مسلم بيمين هو فيها كاذب (ق) عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان من الكبائر شتم الرجل والديه قالوا وهل يشتم الرجل والديه قال نعم يسب الرجل أبا الرجل أوامه فيسب أباه أوامه وفى رواية من أكبر الكبائر ان يلعن الرجل والديه وذكر الحديث وقال عبد الله بن مسعود أكبر الكبائر الاشراك بالله والامن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله وعن سعيد بن جبير ان رجلا سأل ابن عباس عن الكبائر أسبع هى قال هى الى السبعمائة اقرب وفى رواية الى السبعين أقرب الا انه لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع اصرار وقال كل شئ عصى الله به فهو كبيرة فمن عمل شيأ منها فليستغفر الله فان الله لايخلد فى النار من هذه الامة الامن كان راجعا عن الاسلام أوجاحدا فريضة أومكذبا بقدر وقال على بن أبى طالب كل ذنب ختمه الله بنار أوغضب أولعنة أوعذاب فهو كبيرة وقال سفيان الثورى الكبائر ما كان فيه المظالم فيما بينك و بين العباد والصغائر ما كان بينك و بين الله تعالى لان الله تعالى كريم يغفر و يعفو واحتج لذلك بما روى عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادى مناد من بطنان العرش يوم القيامة ياأمة محمد ان الله قد عفا عنكم جميعا المؤمنين والمؤمنات تواهبوا المظالم وادخلوا الجنة برحمتى وقال مالك ابن مغول الكبائر ذنوب أهل البدع والسيآت ذنوب أهل السنة وقيل الكبائر ذنوب العمد والسيآت الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه وحديث النفس المرفوع عن هذه الامة وقال السدى الكبائر مانهى الله عنه من الذنوب والسيآت مقدماتها وتوابعها التى يقع فيها الصالح والفاسق مثل النظرة واللمسة والقبلة واشباه ذلك (ق) عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لامحالة العينان زناهما النظر والاذنان زناهما الاستماع واللسان زناه الكلام واليد زناها البطش والرجل زناها الخطا والقلب يهوى و يتمنى و يصدق ذلك الفرج أو يكذبه لفظ مسلم وقيل الكبائر الشرك وما يؤدى اليه ومادونه فهو من السيآت فقد ثبت بما تقدم من الادلة أن من الذنوب كبائر وصغائر والى هذا ذهب الجمهور من السلف والخلف وثبت بدلائل الكتاب والسنة واذا ثبت انقسام المعاصى الى صغائر وكبائر فقوله

(فسوف نصليه نارا) ندخله نارا مخصوصة شديدة العذاب (وكان ذلك) أى اصلاؤه النار (على الله يسيرا) سهلا وهذا الوعيد فى حق المستحل للتخليد وفى حق غيره لبيان استحقاقه دخول النار مع وعد الله بمغفرته (ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه

نكفر عنكم سيئاتكم) عن ابن مسعود رضي الله عنهما الكبائر كل ما نهى الله عنه من أول سورة النساء الى قوله ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه وعنه أيضا الكبائر ثلاث الاشراك بالله واليأس من روح الله والامن من مكر الله وقيل المراد بها أنواع الكفر بدليل قراءة عبد الله كبير ما تنهون عنه وهو الكفر (وندخلكم مدخلا) مدخلا مدني وكلاهما بمعنى المكان والمصدر (كريما) حسنا وعن ابن عباس رضي الله عنهما ثمان آيات في سورة النساء

هي خير لهذه الامة مما طلعت عليه الشمس وغربت يريد الله ليبين لكم والله يريد أن يتوب عليكم يريد الله أن يخفف عنكم ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم ان الله لا يغفر أن يشرك به ان الله لا يظلم مثقال ذرة ومن يعمل سوأ أو يظلم نفسه ما يفعل الله بعذابكم وتشبث المعتزلة بالآية على ان الصغائر واجبة المغفرة باجتناب الكبائر وعلى ان الكبائر غير مغفورة باطل لان الكبائر والصغائر في مشيئته تعالى سواء ان شاء عذب عليهما وان شاء عفا عنهما لقوله تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فقد وعد المغفرة لما دون الشرك وقرنها بمشيئته تعالى وقوله ان الحسنات يذهبن السيآت فهذه الآية تدل على ان الصغائر والكبائر يجوز ان يذهبا بالحسنات لان لفظ السيآت ينطلق عليهما ولما كان أخذ مال الغير بالباطل وقتل النفس بغير حق بتمني مال الغير وجاهه نهاهم عن تمني ما فضل الله به بعض الناس على بعض من الجاه والمال بقوله (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض) لان ذلك التفضيل قسمة من الله صادرة عن حكمة وتدبير وعلم باحوال العباد وبما ينبغي لكل من بسط في الرزق أو قبض فعلى كل واحد أن يرضى بما قسم له ولا يحسد أخاه على حظه فالحسد ان يتمنى أن يكون ذلك الشيء له ويزول عن صاحبه والغبطة ان يتمنى مثل ما لغيره وهو مرخص فيه والاول منهي عنه ولما قال الرجال نرجو أن يكون أجرنا على الضعف من أجر النساء كالميراث وقالت النساء يكون وزرنا على نصف وزر الرجال كالميراث نزل (للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن) وليس ذلك على حسب الميراث

تعالى ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه هي كل ذنب عظم قبحه وعظمت عقوبته اما في الدنيا بالحدود واما في الآخرة بالعذاب عليه (نكفر عنكم سيئاتكم) يعني نسترها عليكم حتى تصير بمنزلة ما لم يعمل لان أصل التكفير الستر والتغطية فصغار الذنوب تكفر بالحسنات ولا تكفر كبارها الا بالتوبة والاقلاع عنها كما ورد في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة كفارات لما بينهن زاد في رواية ما لم تغش الكبائر وزاد في رواية أخرى ورمضان الى رمضان مكفرات لما بينهن اذا اجتنبت الكبائر أخرجه مسلم ۞ وقوله تعالى (وندخلكم مدخلا كريما) يعني حسنا شريفا وهو الجنة والمعنى اذا اجتنبتم الكبائر وأتيتم بالطاعات ندخلكم مدخلا تكرمون فيه ۞ قوله عز وجل (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض) أصل التمني ارادة الشيء وتشهي حصول ذلك الامر المرغوب فيه ومنه حديث النفس بما يكون وبما لا يكون وقيل التمني تقدير الشيء في النفس وتصويره فيها وذلك قد يكون عن تخمين وظن وقد يكون عن رؤية وأكثر التمني تصور ما لا حقيقة له وقيل التمني عبارة عن ارادة ما يعلم أو يظن أنه لا يكون عن مجاهد عن أم سلمة قالت قلت يا رسول الله يغزو الرجال ولا تغزو النساء وانما لنا نصف الميراث فانزل الله تعالى ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض قال مجاهد وأنزل ان المسلمين والمسلمات وكانت أم سلمة أول ظعينة قدمت المدينة مهاجرة أخرجه الترمذي وقال هذا حديث مرسل وقيل لما جعل الله للذكر مثل حظ الانثيين من الميراث قالت النساء نحن أحق وأحوج الى الزيادة من الرجال لانا ضعفاء وهم أقوى وأقدر على طلب المعاش منا فانزل الله تعالى هذه الآية وقيل لما نزل قوله للذكر مثل حظ الانثيين قالت الرجال انا لنرجو ان نفضل على النساء في الحسنات في الآخرة فيكون لنا أجرنا على ضعف أجر النساء كما فضلنا عليهن في الميراث وقالت النساء انا لنرجو أن يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال كما لنا في الميراث النصف من نصيبهم فنزلت هذه الآية والتمني على قسمين أحدهما أن يتمنى الانسان أن يحصل له مال غيره مع زوال تلك النعمة عن ذلك الغير فهذا القسم هو الحسد وهو مذموم لان الله تعالى يفيض نعمه على من يشاء من عباده وهذا الحاسد يعترض على الله تعالى فيما فعل وربما اعتقد في نفسه انه أحق بتلك النعمة من ذلك الانسان أيضا فهذا اعتراض على الله أيضا وهو مذموم القسم الثاني أن يتمنى مثل مال غيره ولا يحب أن يزول ذلك المال عن الغير وهذا هو الغبطة وهذا ليس بمذموم ومن الناس من منع منه أيضا قال لان تلك النعمة ربما كانت مفسدة في حقه في الدين أو الدنيا قال الحسن لا تتمن مال فلان ولا مال فلان وما تدري لعل هلاكك في ذلك المال فيعلم العبد ان الله عز وجل أعلم بمصالح عباده فليرض بقضائه ولتكن أمنيته الزيادة من عمل الآخرة وليقل اللهم أعطني ما يكون صلاحا لي في ديني ودنياي ومعادي ۞ وقوله تعالى (للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن) قال ابن عباس يعني مما ترك الوالدان والاقربون من الميراث يقول للذكر مثل حظ الانثيين وقيل هذا الاكتساب في الاجر يعني ان الرجال والنساء في الاجر في الآخرة سواء لان الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها يستوي في ذلك الرجال والنساء وان فضل الرجال في

الدنيا

الدنيا على النساء وقيل للرجال نصيب مما اكتسبوا من أمر الجهاد وللنساء نصيب مما اكتسبن يعني من طاعة الازواج وحفظ الفروج (واسألوا الله من فضله) قال ابن عباس يعني من رزقه وقيل من عبادته وهو سؤال التوفيق للعبادة وقيل لم يأمر الله عباده بالمسئلة الا ليعطيهم وفيه تنبيه على أن العبد لا يعين شيأ في الدعاء والطلب ولكن يطلب من فضل الله ما يكون سببا لصلاح دينه ودنياه وآخرته وقيل لما تمنى النساء أن يكن رجالا وأن يكون لهن مثل ما للرجال نهاهن الله عن ذلك وأمرهن أن يسألوه من فضله فانه أعلم بمصالح عباده (ان الله كان بكل شيء عليما) يعني انه تعالى عليم بما يكون صلاحا للسائلين فليقتصر السائل على المجمل في الطلب فان الله تعالى عليم بما يصلحه فلا يتمنى غير الذي قدر له ۞ قوله تعالى (ولكل) يعني من الرجال والنساء (جعلنا موالي) يعني ورثة من بني عم واخوة وسائر العصبات (مما ترك) يعني يرثون مما ترك (الوالدان والاقربون) من ميراثهم فعلى هذا الوالدان والاقربون هم الموروثون وقيل معناه ولكل جعلنا موالي أي ورثة مما ترك وتكون ما بمعنى من يعني من تركهم الميت ثم فسر الموالي فقال الوالدان والاقربون فعلى هذا الوالدان والاقربون هم الوارثون والمعنى ولكل شخص جعلنا ورثة ممن تركهم وهم والده وأقربوه والقول الاول أصح لانه مروي عن ابن عباس وغيره (والذين عاقدت أيمانكم) وقرئ عقدت بغير ألف مع التخفيف والمعاقدة المحالفة والمعاهدة والايمان جمع يمين يحتمل أن يراد بها القسم أو اليد أو هما جميعا وذلك انهم كانوا اذا تحالفوا أخذ كل واحد منهم بيد صاحبه وتحالفوا على الوفاء بالعهد والتمسك بذلك العقد وكان الرجل يحالف الرجل في الجاهلية ويعاقده فيقول دمي دمك وهدمي هدمك وثاري ثارك وحربي حربك وسلمي سلمك ترثني وأرثك وتطلب بي وأطلب بك وتعقل عني وأعقل عنك فيكون لكل واحد من الحليفين السدس في مال الآخر وكان الحكم ثابتا في الجاهلية وابتداء الاسلام فذلك قوله تعالى (فآتوهم نصيبهم) يعني أعطوهم حظهم من الميراث ثم نسخ الله هذا الحكم بقوله وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله وقال ابن عباس نزلت هذه الآية في الذين آخى بينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والانصار لما قدموا المدينة وكانوا يتوارثون بتلك المؤاخاة دون النسب والرحم فلما نزلت ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان نسختها ثم قال والذين عاقدت أيمانكم من النصر والرفادة والنصيحة وقد ذهب الميراث ويوصى له وفي رواية أخرى عنه قال والذين عاقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم كان الرجل يحالف الرجل ليس بينهما نسب فيرث أحدهما الآخر فنسخ ذلك بسورة الانفال فقال وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله وقال سعيد بن المسيب كانوا يتوارثون بالتبني بهذه الآية ثم نسخ ذلك وذهب قوم الى ان الآية ليست بمنسوخة بل حكمها باق والمراد بقوله والذين عاقدت أيمانكم الحلفاء والمراد من قوله فآتوهم نصيبهم يعني من النصرة والنصيحة والموافاة والمصافاة ونحو ذلك فعلى هذا لا تكون منسوخة وقيل نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق عن داود بن الحصين قال كنت أقرأ على أم سعد بنت الربيع وكانت يتيمة في حجر أبي بكر الصديق فقرأت والذين عاقدت أيمانكم فقالت لا تقرؤا والذين عقدت أيمانكم انما نزلت في أبي بكر وابنه عبد الرحمن حين أبى الاسلام فحلف أبو بكر أن لا يورثه فلما أسلم أمره الله أن يؤتيه نصيبه أخرجه أبو داود وعلى هذا فلا نسخ أيضا فمن قال ان حكم الآية باق قال انما كانت المعاقدة في الجاهلية على النصرة لا غير والاسلام لم يغير ذلك ويدل عليه ما روي عن جبير بن مطعم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا حلف في الاسلام وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الاسلام الا شدة أخرجه مسلم ۞ وقوله تعالى (ان الله كان على كل شيء شهيدا) قال عطاء يريد انه لم يغب عنه علم ما خلق وبرأ فعلى هذا الشهيد بمعنى الشاهد والمراد منه علمه بجميع الاشياء وقيل الشهيد هو الشاهد على الخلق يوم القيامة بكل ما عملوه فعلى هذا الشاهد بمعنى المخبر وفيه وعد للطائعين ووعيد للعصاة المخالفين ۞ قوله عز وجل (الرجال قوامون على النساء) نزلت في سعد

(واسألوا الله من فضله) فان خزائنه لا تنفد ولا تتمنوا ما للناس من الفضل (ان الله كان بكل شيء عليما) فالتفضيل منه عن علم بمواضع الاستحقاق قال ابن عيينة لم يأمر بالمسئلة الا ليعطي وفي الحديث من لم يسأل الله من فضله غضب عليه وفيه ان الله تعالى ليمسك الخير الكثير عن عبده ويقول لا أعطي عبدي حتى يسألني وسلوا مكي وعلي (ولكل) المضاف اليه محذوف تقديره ولكل أحد أو لكل مال (جعلنا موالي) وراثا يلونه ويحرزونه (مما ترك الوالدان والاقربون) هو صفة مال محذوف أي من مال تركه الوالدان أو هو متعلق بفعل محذوف دل عليه الموالي تقديره يرثون مما ترك (والذين عاقدت أيمانكم) عاقدتهم أيديكم وهو مبتدأ ضمن معنى الشرط فوقع خبره وهو (فآتوهم نصيبهم) مع الفاء عقدت كوفي أي عقدت عهودهم أيمانكم والمراد به عقد الموالاة وهي مشروعة والوراثة بها ثابتة عند عامة الصحابة رضي الله عنهم وهو قولنا وتفسيره اذا أسلم رجل أو امرأة لا وارث له وليس بعربي ولا معتق فيقول لآخر واليتك على أن تعقلني اذا جنيت وترث مني اذا مت ويقول الآخر قبلت انعقد ذلك ويرث الاعلى من الاسفل (ان الله كان على كل شيء شهيدا) أي هو عالم الغيب والشهادة وهو أبلغ وعد ووعيد (الرجال قوامون على النساء) يقومون عليهن آمرين ناهين كما يقوم الولاة على الرعايا وسموا قواما

ابن الربيع وكان من النقباء وفي امرأته حبيبة بنت زيد بن أبي زهير ويقال امرأته بنت محمد بن مسلمة وذلك انها نشزت عليه فلطمها فانطلق أبوها معها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال افرشته كريمتي فلطمها فقال النبي صلى الله عليه وسلم لتقتص من زوجها فانصرفت مع أبيها لتقتص منه فقال النبي صلى الله عليه وسلم ارجعوا هذا جبريل أتاني فانزل الله تعالى هذه الآية فقال النبي صلى الله عليه وسلم أردنا أمرا وأراد الله أمرا والذي أراد الله خير ورفع القصاص فقوله تعالى الرجال قوامون على النساء أي متسلطون على تاديب النساء والاخذ على أيديهن قال ابن عباس أمروا عليهن فعلى المرأة أن تطيع زوجها في طاعة الله والقوام هو القائم بالمصالح والتدبير والتأديب فالرجل يقوم بأمر المرأة ويجتهد في حفظها ولما أثبت القيام للرجال على النساء بين السبب في ذلك فقال تعالى (بما فضل الله بعضهم على بعض) يعني أن الله تعالى فضل الرجال على النساء بامور منها زيادة العقل والدين والولاية والشهادة والجهاد والجمعة والجماعات وبالامامة لان منهم الانبياء والخلفاء والائمة ومنها أن الرجل يتزوج باربع نسوة ولا يجوز للمرأة غير زوج واحد ومنها زيادة النصيب في الميراث والتعصيب في الميراث وبيده الطلاق والنكاح والرجعة واليه الانتساب فكل هذا يدل على فضل الرجال على النساء ۞ ثم قال تعالى (وبما أنفقوا من أموالهم) يعني وبما أعطوا من مهور النساء والنفقة عليهن عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لاحد لامرت المرأة أن تسجد لزوجها أخرجه الترمذي (فالصالحات) يعني المحسنات العاملات بالخير (قانتات) أي مطيعات لازواجهن وقيل مطيعات لله (حافظات للغيب) لفروجهن في غيبة أزواجهن لئلا يلحق الزوج العار بسبب زناها ولئلا يلحق به الولد الذي هو من غيره وقيل معناه حفظ سر زوجها وحفظ ماله وما يجب على المرأة من حفظ متاع البيت في غيبة زوجها عن أبي هريرة قال قيل يا رسول الله أي النساء خير قال التي تسره اذا نظر اليها وتطيعه اذا أمر ولا تخالفه في نفسها ولا مالها بما يكره أخرجه النسائي ورواه البغوي بسند الثعلبي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير النساء امرأة اذا نظرت اليها سرتك واذا أمرتها أطاعتك واذا غبت عنها حفظتك في مالها ونفسها ثم تلا الرجال قوامون على النساء الآية ۞ وقوله تعالى (بما حفظ الله) يعني بما حفظهن الله حين أوصى بهن الازواج وأمرهم باداء المهر والنفقة اليهن (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم استوصوا بالنساء خيرا فان المرأة خلقت من ضلع أعوج وان أعوج ما في الضلع أعلاه فان ذهبت تقيمه كسرته وان تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء وقيل في معنى الآية بما حفظهن الله وعصمهن ووفقهن لحفظ الغيب وقيل بما حفظ الله من حقوقهن على أزواجهن حيث أمرهم بالعدل فيهن وامساكهن بمعروف أو تسريحهن باحسان (واللاتي تخافون) أي تعلمون وقيل تظنون (نشوزهن) أي شرورهن وأصل النشوز الارتفاع ونشوز المرأة هو بغضها لزوجها ورفع نفسها عن طاعته والتكبر عليه وقيل دلالات النشوز قد تكون بالقول والفعل فالقول مثل ان كانت تلبيه اذا دعاها وتخضع له اذا خاطبها والفعل مثل ان كانت تقوم له اذا دخل عليها وتسرع الى أمره اذا أمرها فاذا خالفت هذه الاحوال بان رفعت صوتها عليه أو لم تجبه اذا دعاها ولم تبادر الى أمره اذا أمرها دل ذلك على نشوزها على زوجها (فعظوهن) يعني اذا ظهر منهن امارات النشوز فعظوهن بالتخويف بالقول وهو أن يقول لها اتقي الله وخافيه فان لي عليك حقا وارجعي عما أنت عليه واعلمي أن طاعتي فرض عليك ونحو ذلك فان اصرت على ذلك هجرها في المضجع وهو قوله تعالى (واهجروهن في المضاجع) يعني ان لم ينزعن عن ذلك بالقول

لذلك (بما فضل الله بعضهم على بعض) الضمير في بعضهم للرجال والنساء يعني انما كانوا مسيطرين عليهن بسبب تفضيل الله بعضهم وهم الرجال على بعض وهم النساء بالعقل والعزم والحزم والرأي والقوة والغزو وكمال الصوم والصلاة والنبوة والخلافة والامامة والاذان والخطبة والجماعة والجمعة وتكبير التشريق عند أبي حنيفة رحمه الله والشهادة في الحدود والقصاص وتضعيف الميراث والتعصيب فيه وملك النكاح والطلاق واليهم الانتساب وهم أصحاب اللحى والعمائم (وبما أنفقوا من أموالهم) وبان نفقتهم عليهم وفيه دليل وجوب نفقتهن عليهم ثم قسمهن على نوعين النوع الاول (فالصالحات قانتات) مطيعات قائمات بما عليهن للازواج (حافظات للغيب) لمواجب الغيب وهو خلاف الشهادة أي اذا كان الازواج غير شاهدين لهن حفظن ما يجب عليهن حفظه في حال الغيبة من الفروج والبيوت والاموال وقيل للغيب لاسرارهم (بما حفظ الله) بما حفظهن الله حين أوصى بهن الازواج بقوله وعاشروهن بالمعروف أو بما حفظهن الله وعصمهن ووفقهن لحفظ الغيب أو بحفظ الله اياهن حيث صيرهن كذلك والثاني (واللاتي تخافون نشوزهن) عصيانهن وترفعهن عن طاعة الازواج والنشز المكان المرتفع والنبوة عن ابن عباس رضي الله عنهما هو ان تستخف بحقوق زوجها ولا تطيع أمره (فعظوهن) خوفوهن عقوبة الله تعالى والضرب والعظة كلام يلين القلوب القاسية ويرغب الطبائع النافرة (واهجروهن في المضاجع) في المراقد أي لا تداخلوهن تحت اللحف وهو كناية عن الجماع أو هو ان يوليها ظهره في المضجع لانه لم يقل عن المضاجع

فاهجروهن

فاهجروهن في المضاجع قال ابن عباس هو أن يوليها ظهره في الفراش ولا يكلمها وقيل هو ان يعتزل عنها الى فراش آخر (واضربوهن) يعني ان لم ينزعن بالهجران فاضربوهن يعني ضرباً غير مبرح ولا شائن قيل هو ان يضربها بالسواك ونحوه وقال الشافعي الضرب مباح وتركه أفضل عن عمرو بن الاحوص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع يقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ فذكر في الحديث قصة فقال ألا فاستوصوا بالنساء خيراً فانما هن عوان عندكم ليس تملكون منهن شيأ غير ذلك الا أن يأتين بفاحشة مبينة فان فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا أخرجه الترمذي بزيادة فيه قوله عوان جمع عانية أي أسيرة شبه المرأة ودخولها تحت حكم زوجها بالاسير والضرب المبرح الشديد الشاق ﴿وقوله (فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا) أي لا تطلبوا عليهن طريقة تحتجون بها عليهن اذا قمن بواجب حقكم عن حكيم بن معاوية عن أبيه قال قلت يارسول الله ماحق زوجة أحدنا عليه قال ان تطعمها اذا طعمت وتكسوها اذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر الا في البيت أخرجه أبو داود قوله ولا تقبح أي لا تقل قبحك الله (ق) عن عبد الله بن زمعة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد ثم لعله يجامعها أو قال يضاجعها من آخر اليوم عن اياس بن عبد الله بن أبي ذئاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تضربوا النساء فجاء عمر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ذئرت النساء على أزواجهن فرخص في ضربهن فاطاف بآل رسول الله صلى الله عليه وسلم نساء كثير يشكون أزواجهن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن ليس أولئك بخياركم أخرجه أبو داود واياس بن عبد الله هذا قد اختلف في صحبته وقال البخاري لا يعرف له صحبة قوله ذئرت يقال ذئرت المرأة على زوجها اذا نشزت واجترأت عليه وأطاف بالشئ أحاط به ففي هذه الاحاديث دليل على أن الاولى ترك الضرب للنساء فان احتاج الى ضربها لتأديب فلا يضربها ضرباً شديداً وليكن ذلك مفرقاً ولا يوالي بالضرب على موضع واحد من بدنها وليتق الوجه لانه مجمع المحاسن ولا يبلغ بالضرب عشرة أسواط وقيل ينبغي أن يكون الضرب بالمنديل واليد ولا يضرب بالسوط والعصا وبالجملة فالتخفيف بابلغ شئ أولى في هذا الباب واختلف العلماء فقال بعضهم حكم الآية مشروع على الترتيب فان ظاهر اللفظ وان دل على الجمع الا أن مجرى الآية يدل على الترتيب قال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه يعظها بلسانه فان انتهت فلا سبيل له عليها فان أبت هجر مضجعها فان أبت ضربها فان لم تتعظ بالضرب بعث الحكم وقال آخرون هذا الترتيب مراعى عند خوف النشوز أما عند تحقق النشوز فلا بأس بالجمع بين الكل وقيل ان له ان يعظها عند خوف النشوز وهل له ان يهجرها فيه احتمال ذلك وله عند ظهور النشوز ان يعظها وان يهجرها أو يضربها عن عمر رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يسئل الرجل فيم ضرب امرأته أخرجه أبو داود (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دعا الرجل امرأته الى فراشه فابت أن تجيء فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح وفي رواية ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته الى فراشه فتأبى عليه الا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها وفي رواية اذا باتت مهاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح وفي أخرى حتى ترجع عن طلق بن علي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا دعا الرجل امرأته الى حاجة فلتأته وان كانت على التنور أخرجه الترمذي وله عن معاذ بن جبل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا الا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله فانما هو دخيل عندك يوشك أن يفارقك الينا وله عن أم سلمة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيما امرأة ماتت وزوجها راض عنها دخلت الجنة وقوله تعالى فان أطعنكم يعني فان رجعن عن النشوز الى طاعتكم عند هذا التأديب فلا تبغوا

(واضربوهن) ضرباً غير مبرح أمر بوعظهن أولاً ثم بهجرانهن في المضاجع ثم بالضرب ان لم ينجع فيهن الوعظ والهجران (فان أطعنكم) بترك النشوز (فلا تبغوا عليهن سبيلا) فازيلوا عنهن التعرض بالاذى وسبيلا مفعول تبغوا وهو من بغيت الامر أي طلبته

(ان الله كان عليا كبيرا) أى ان علت أيديكم عليهن فاعلموا ان قدرته عليكم أعظم من قدرتكم عليهن فاجتنبوا ظلمهن أو ان الله كان عليا كبيرا وانكم تعصونه على علو شأنه وكبرياء سلطانه ثم تتوبون فيتوب عليكم فأنتم أحق بالعفو عمن يجني عليكم اذا رجع

خاطب الولاة بقوله (وان خفتم شقاق بينهما) أصله شقاقا بينهما فاضيف الشقاق الى الظرف على سبيل الاتساع كقوله بل مكر الليل والنهار وأصله بل مكر فى الليل والنهار والشقاق العداوة والخلاف لان كلا منهما يفعل مايشق على صاحبه أو يميل الى شق أى ناحية غير شق صاحبه والضمير للزوجين ولم يجر ذكرهما لجرى ذكر مايدل عليهما وهو الرجال والنساء (فابعثوا حكما من أهله) رجلا يصلح للحكومة والاصلاح بينهما (وحكما من أهلها) وانما كان بعث الحكمين من أهلهما لان الاقارب أعرف ببواطن الاحوال واطلب للصلاح ونفوس الزوجين أسكن اليهم فيبرزان مافى ضمائرهما من الحب والبغض وارادة الصحبة والفرقة والضمير فى (ان يريدا اصلاحا) للحكمين وفى (يوفق الله بينهما) للزوجين أى ان قصدا اصلاح ذات البين وكانت نيتهما صحيحة بورك فى وساطتهما وأوقع الله بحسن سعيهما بين الزوجين الالفة والوفاق وألقى فى نفوسهما المودة والاتفاق أو الضميران للحكمين أى ان قصد اصلاح ذات البين والنصيحة للزوجين يوفق الله بينهما فيتفقان على الكلمة الواحدة ويتساندان فى طلب الوفاق حتى يتم المراد أو الضميران للزوجين أى ان يريدا الاصلاح مابينهما وطلب الخير وان يزول عنهما الشقاق يلق الله بينهما الالفة وأبدلهما بالشقاق الوفاق وبالبغضاء المودة

عليهن سبيلا يعنى فلا تطلبوا عليهن الضرب والهجران على سبيل التعنت والايذاء وقيل معناه أزيلوا عنهن التعرض بالاذى والتوبيخ ولا تجنوا عليهن الذنوب وقيل معناه لاتكلفوهن محبتكم فان القلب ليس بايديهن (ان الله كان عليا كبيرا) العلى فى صفة الله تعالى معناه الرفيع الذى يعلو عن وصف الواصفين ومعرفة العارفين العلى بالاطلاق الذى يستحق جميع صفات المدح والكبير هو المستغنى عن غيره وذلك هو الله تعالى الموصوف بالجلال والعظمة والكبرياء وكبر الشأن الذى يصغر كل أحد لكبريائه وعظمته تعالى والمعنى ان الله متعال من أن يكلف عباده مالا يطيقونه وقيل ان النساء وان ضعفن عن دفع ظلم الرجال عنهن فان الله على كبير قادر على ان ينتصف لهن ممن ظلمهن من الرجال وقيل معناه ان الله مع علوه وكبريائه يقبل توبة العاصى اذا تاب و يغفر له فاذا تابت المرأة من نشوزها فالاولى بكم أن تقبلوا توبتها وتتركوا معاتبتها واعلموا ان قدرته عليكم أعظم من قدرتكم على من تحت أيديكم فانتم أحق بالعفو عمن جنى عليكم ۞ قوله تعالى (وان خفتم) يعنى وان علمتم وتيقنتم وقيل معناه الظن أى ظننتم (شقاق بينهما) يعنى بين الزوجين وأصل الشقاق المخالفة وكون كل واحد من المتخالفين فى شق غير شق صاحبه أو يكون أصله من شق العصا وهو ان يقول كل واحد من الزوجين مايشق على صاحبه سماعه وذلك انه اذا ظهر بين الزوجين شقاق ومخالفة واشتبه حالهما ولم يفعل الزوج الصلح ولا الصفح ولا الفرقة وكذلك الزوجة لاتؤدى الحق ولا الفدية وخرجا الى مالا يحل قولا وفعلا ۞ وقوله تعالى (فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها) اختلفوا فى المخاطبين بهذا ومن المأمور ببعثة الحكمين فقيل المخاطب بذلك هو الامام أو نائبه لان تنفيذ الاحكام الشرعية اليه وقيل المخاطب بذلك كل أحد من صالحى الامة لان قوله تعالى فابعثوا خطاب الجمع وليس حمله على البعض أولى من حمله على البقية فوجب حمله على الكل فعلى هذا يجب أن يكون أمرا لآحاد الامة سواء وجد الامام أو لم يوجد فللصالحين أن يبعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها وأيضا فهذا يجرى مجرى دفع الضرر فلكل واحد ان يقوم به وقيل هو خطاب للزوجين فاذا حصل بينهما شقاق بعثا حكمين حكما من أهله وحكما من أهلها (ان يريدا اصلاحا) يعنى الحكمين وقيل الزوجين (يوفق الله بينهما) يعنى بالصلاح والالفة روى الشافعى بسنده عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه انه جاءه رجل وامرأة ومع كل واحد منهما فئام من الناس فقال علام شأن هذين قالوا وقع بينهما شقاق قال على فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ثم قال للحكمين تدريان ماعليكما عليكما ان رأيتما ان تجمعا جمعتما وان رأيتما ان تفرقا فرقتما فقالت المرأة رضيت بكتاب الله بما على فيه ولى وقال الرجل أما الفرقة فلا قال على كذبت والله حتى تقر بمثل ماأقرت به قال الشافعى والمستحب ان يبعث الحاكم عدلين و يجعلهما حكمين والاولى ان يكون واحد من أهله وواحد من أهلها لان اقاربهما أعرف بحالهما من الاجانب واشد طلبا للاصلاح فان كانا أجنبيين جاز وفائدة الحكمين ان كل واحد منهما يخلو بصاحبه و يستكشف حقيقة الحال ليعرف ان رغبته فى الاقامة على النكاح أو فى المفارقة ثم يجتمعان فيفعلان ماهو الصواب من اتفاق أو طلاق أو خلع والحكمان وكيلان للزوجين وهل يجوز لهما تنفيذ أمر يلزم الزوجين دون رضاهما واذنهما فى ذلك مثل ان يطلق حكم الرجل أو يفتدى حكم المرأة بشئ من مالها فللشافعى فى ذلك قولان أحدهما انه لايجوز الا برضاهما وليس لحكم الزوج ان يطلق الا باذنه ولا لحكم المرأة ان يختلع بشئ من مالها الا باذنها وهو مذهب أبى حنيفة وأحمد لان عليا توقف حين لم يرض الزوج وذلك حين قال أما الفرقة فلا فقال له على كذبت حتى تقر بمثل ماأقرت به فثبت أن تنفيذ الامر

موقوف على اقراره ورضاها ومعنى قول على للزوج كذبت أى لست بمنصف فى دعواك حيث لم تقر بمثل ماأقرت به من الرضابحكم كتاب الله لها وعليها والقول الثانى انه يجوز بعث الحكمين دون رضاهما ويجوز لحكم الزوج ان يطلق دون رضاه ولحكم الزوجة ان يختلع دون رضاها اذا رأيا الصلاح فى ذلك كالحاكم يحكم بين الخصمين وان لم يكن على وفق مرادهما وبه قال مالك ومن قال بهذا القول قال ليس المراد من قول على للزوج حتى تقران رضاه شرط بل معناه ان المرأة لما رضيت بما فى كتاب الله تعالى فقال الرجل اما الفرقة فلا يعنى ليست الفرقة فى كتاب الله فقال له على كذبت حيث انكرت ان تكون الفرقة فى كتاب الله بل هى فى كتاب الله فان قوله تعالى يوفق الله بينهما يشتمل على الفراق وعلى غيره لان التوفيق ان يخرج كل واحد منهما من الاثم والوزر ويكون تارة ذلك بالفراق وتارة بصلاح حاليهما فى الوصلة ۞ وقوله تعالى (ان الله كان عليما خبيرا) يعنى ان الله تعالى يعلم كيف يوفق بين المختلفين ويجمع بين المتفرقين وفيه وعيد شديد للزوجين والحكمين ان سلكوا غير طريق الحق ۞ قوله عز وجل (واعبدوا الله) يعنى وحدوه وأطيعوه وعبادة الله تعالى عبارة عن كل فعل يأتى به العبد لمجرد الله تعالى ويدخل فيه جميع اعمال القلوب واعمال الجوارح (ولا تشركوا به شيأ) يعنى وأخلصوا له فى العبادة ولا تجعلوا له فى الربوبية والعبادة شريكا لان من عبد مع الله غيره أو اراد بعمله غير الله فقد أشرك به ولا يكون مخلصا (ق) عن معاذ بن جبل قال كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمار يقال له عفير أو اسمه يعفور فقال يامعاذ هل تدرى ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله قلت الله ورسوله اعلم قال فان حق الله على العباد ان يعبدوه ولا يشركوا به شيا وحق العباد على الله ان لا يعذب من لا يشرك به شيا فقلت يارسول الله أفلا أبشر الناس قال لا تبشرهم فيتكلوا قوله هل تدرى ما حق الله على عباده معناه مايستحقه مما أوجبه وجعله متحتما عليهم ثم فسر ذلك الحق بقوله ان يعبدوه ولا يشركوا به شيا وقوله وما حق العباد على الله انما قال حقهم على سبيل المقابلة لحقه عليهم لا لانهم يستحقون عليه شيا ويجوز ان يكون من قول الرجل لصاحبه حقك على واجب أى متأكد قيامى به وقوله أفلا ابشر الناس الخ انما قال لا تبشرهم فيتكلوا لانه صلى الله عليه وسلم رأى ذلك اصلح لهم واحرى أن لا يتكلوا على هذه البشارة و يتركوا العمل الذى ترفع لهم به الدرجات فى الجنة ۞ وقوله تعالى (وبالوالدين احسانا) تقديره واحسنوا بالوالدين احسانا يعنى برا بهما وعطفا عليهما وانما قرن بر الوالدين بعبادته وتوحيده لتأكد حقهما على الولد واعلم ان الاحسان الى الوالدين هو ان يقوم بخدمتهما ولا يرفع صوته عليهما ويسعى فى تحصيل مرادهما والانفاق عليهما بقدر القدرة (ق) عن أبى هريرة قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله من احق الناس بحسن صحابتى قال أمك قال ثم من قال ثم امك قال ثم من قال ثم امك قال ثم من قال أبوك وفى رواية قال أمك ثم أمك ثم أمك ثم أباك ثم أدناك فادناك قوله ثم أباك فيه حذف تقديره ثم بر أباك (م) عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول رغم أنفه رغم أنفه رغم أنفه قيل من يارسول الله قال من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة ۞ قوله تعالى (وبذى القربى) أى واحسنوا الى ذى القرابة وهو ذو رحمه من قبل ابيه وأمه (ق) عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من سره ان يبسط له فى رزقه وينسأله فى أثره فليصل رحمه قوله ينسأله فى أثره يعنى يؤخر له فى أجله وعمره ۞ وقوله تعالى (واليتامى والمساكين) أى واحسنوا الى اليتامى وانما أمر بالاحسان اليهم لان اليتيم مخصوص بنوعين من العجز الصغر وعدم المشفق والمسكين هو الذى ركبه ذل الفاقة والفقر فتمسكن لذلك (خ) عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيا (ق) عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال الساعى على الارملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله وأحسبه قال وكالقائم الذى لا يفتر

(ان الله كان عليما) بارادة الحكمين (خبيرا) بالظالم من الزوجين وليس لهما ولاية التفريق عندنا خلافا لمالك رحمه الله (واعبدوا الله) قيل العبودية أربعة الوفاء بالعهود والرضا بالموجود والحفظ للحدود والصبر على المفقود (ولا تشركوا به شيا) صنما وغيره ويحتمل المصدر أى اشراكا (وبالوالدين احسانا) وأحسنوا بهما احسانا بالقول والفعل والانفاق عليهما عند الاحتياج (وبذى القربى) وبكل من بينكم وبينه قربى من أخ أو عم أو غيرهما (واليتامى والمساكين)

وكالصائم لا يفطر ۞ وقوله تعالى (والجار ذى القربى والجار الجنب) أى وأحسنوا الى الجار ذى القربى وهو الذى قرب جواره منك والجار الجنب هو الذى بعد جواره عنك وقيل الجار ذو القربى هو القريب والجار الجنب هو الاجنبى الذى ليس بينك و بينه قرابة (ق) عن ابن عمر رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت انه سيورثه وعن عائشة مثله (خ) عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت قلت يارسول الله ان لى جارين فالى أيهما اهدى قال الى أقربهما بابا منك (م) عن أبى ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أباذر اذا طبخت مرقة فا كثر ماءها وتعاهد جيرانك وفى رواية قال أوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم قال اذا طبخت مرقة فاكثر ماءها ثم انظر الى أهل بيت من جيرانك فاصبهم منها بمعروف (ق) عن أبى هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن قيل من يارسول الله قال الذى لا يامن جاره بوائقه ولمسلم لا يدخل الجنة من لا يامن جاره بوائقه البوائق الغوائل والشرور (ق) عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يانساء المؤمنات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة معناه ولو ان تهدى اليها فرسن شاة وهو الظلف وأراد به الشئ الحقير (ق) عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت ۞ وقوله تعالى (والصاحب بالجنب) قال ابن عباس هو الرفيق فى السفر وقيل هى المرأة تكون معنى الى جنبك وقيل هو الذى يصحبك رجاء نفعك ۞ عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الاصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله تعالى خيرهم لجاره أخرجه الترمذى وقال حديث حسن ۞ وقوله تعالى (وابن السبيل) يعنى المسافر المجتاز بك الذى قد انقطع به وقال الاكثرون المراد بابن السبيل الضيف يمر بك فتكرمه وتحسن اليه (ق) عن أبى شريح خويلد بن عمرو العدوى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته قالوا وما جائزته يارسول الله قال يومه وليلته والضيافة ثلاثة أيام فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه وقال من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت زاد فى رواية ولا يحل لرجل مسلم أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه قالوا يارسول الله وكيف يؤثمه قال يقيم عنده ولا شئ عنده يقريه به قوله جائزته يومه وليلته الجائزة العطية أى يقرى الضيف ثلاثة أيام ثم يعطيه ما يجوز به من منهل الى منهل وقيل هو أن يكرم الضيف فاذا سافر أعطاه ما يكفيه يوما وليلة حتى يصل الى موضع آخر وقوله أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه أى يوقعه فى الاثم لانه اذا أقام عنده ولم يقره أثم بذلك ۞ وقوله تعالى (وماملكت أيمانكم) يعنى المماليك فاحسنوا اليهم والاحسان اليهم أن لا يكلفهم ما لا يطيقون ولا يؤذيهم بالكلام الخشن وان يعطيهم من الطعام والكسوة ما يحتاجون اليه بقدر الكفاية ۞ عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يدخل الجنة سئ الملكة أخرجه الترمذى ۞ عن رافع بن مكيث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال حسن الملكة نماء وسوء الخلق شؤم أخرجه أبو داود وله عن على بن أبى طالب قال كان آخر كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة الصلاة تقوا الله فيما ملكت أيمانكم (ق) عن المعرور بن سويد قال رأيت أباذر وعليه حلة وعلى غلامه حلة مثلها فسألته عن ذلك فذكر انه ساب رجلا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فعيره بامه فاتى الرجل النبى صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال له النبى صلى الله عليه وسلم انك امرؤ فيك جاهلية قلت على ساعتى هذه من كبر السن قال نعم هم اخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فان كلفتموهم فاعينوهم عليه ۞ وقوله تعالى (ان الله لا يحب من كان مختالا) المختال المتكبر العظيم فى نفسه الذى لا يقوم بحقوق الناس (فخورا) الفخور هو الذى يفتخر على الناس ويعدد مناقبه تكبرا وتطاولا على من دونه وقيل

(والجار ذى القربى) الذى قرب جواره (والجار الجنب) أى الذى جواره بعيد أو الجار القريب النسيب والجار الجنب الاجنبى (والصاحب بالجنب) أى الزوجة عن على رضى الله عنه أو الذى صحبك بان حصل بجنبك اما رفيقا فى سفر أو شريكا فى تعلم علم أو غيره أو قاعدا الى جنبك فى مجلس أو مسجد (وابن السبيل) الغريب أو الضيف (وما ملكت أيمانكم) العبيد والاماء (ان الله لا يحب من كان مختالا) متكبرا يأنف عن قرابته وجيرانه فلا يلتفت اليهم (فخورا) يعدد مناقبه كبرا فان عدها اعترافا كان شكورا

(الذين يبخلون) نصب على البدل من من كان مختالا فخورا وجمع على معنى من أو على الذم أو رفع على خبر مبتدا محذوف تقديره الذين هم يبخلون (و يأمرون الناس بالبخل) بالبخل حمزة وعلى وهما لغتان كالرشد والرشد أى يبخلون بذات أيديهم و بما فى أيدى غيرهم فيأمرونهم بان يبخلوا به مقتا للسخاء قيل البخل أن يأكل بنفسه ولا يؤكل غيره والشح ان لا يأكل ولا يؤكل والسخاء أن يأكل و يؤكل والجود أن يؤكل ولا يأكل (ويكتمون ما آتاهم الله من فضله) و يخفون ما أنعم الله عليهم به من المال وسعة الحال وفى الحديث اذا أنعم الله على عبده نعمة أحب أن يرى نعمته على عبده و بنى عامل للرشيد قصرا حذاء قصره فنم به فقال الرجل يا أمير المؤمنين ان الكريم يسره أن يرى أثر نعمته فاحببت أن أسرك بالنظر الى آثار نعمتك فاعجبه كلامه وقيل نزلت فى شأن اليهود الذين كتموا صفة محمد عليه السلام (وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا) أى يهانون به فى الآخرة (والذين ينفقون أموالهم) معطوف على الذين يبخلون أو على الكافرين (رئاء الناس) مفعول له أى للفخار وليقال ما أجودهم لا لابتغاء وجه الله وهم المنافقون أو مشركو مكة (ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا) حيث حملهم على البخل والرياء وكل شر ويجوز أن يكون وعيدا لهم بان الشيطان يقرن بهم فى النار (وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله) وأى تبعة و بال عليهم فى الايمان والانفاق فى سبيل الله والمراد الذم والتوبيخ والا فكل منفعة ومصلحة فى ذلك وهذا كما يقال للعاق ما ضرك لو كنت بارا وقد علم انه لا مضرة فى البر ولكنه ذم وتوبيخ

هو الذى يفتخر على عباد الله بما أعطاه الله من نعمه ولا يشكره عليها وانما ختم الله هذه الآية بهذين الوصفين المذمومين لان المختال الفخور يأنف من أقاربه الفقراء ومن جيرانه الضعفاء فلا يحسن اليهم ولا يلوى بنظره عليهم ولان المختال هو المتكبر ومن كان متكبرا فلا يقوم بحقوق الناس (ق) عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا ينظر الله يوم القيامة الى من جر ثوبه خيلاء (ق) عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا ينظر الله يوم القيامة الى من جر ازاره بطرا (ق) عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بينما رجل يمشى فى حلة تعجبه نفسه مرجل جمته يختال فى مشيته اذ خسف الله به فهو يتجلجل الى يوم القيامة (خ) عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بينما رجل ممن كان قبلكم يجر ازاره من الخيلاء خسف به فهو يتجلجل فى الارض الى يوم القيامة (ق) عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الفخر والخيلاء فى الفدادين من أهل الوبر والسكينة فى أهل الغنم الفدادون هم الفلاحون والحراثون وأصحاب الابل والبقر المستكثرون منها المتكبرون على الناس بهما ۞ قوله عز وجل (الذين يبخلون و يأمرون الناس بالبخل) نزلت فى اليهود الذين بخلوا ببيان صفة محمد صلى الله عليه وسلم فكتموها وعلى هذا يكون المراد بالبخل كتمان العلم وقال ابن عباس نزلت فى كردم بن زيد وحيى بن أخطب ورفاعة بن زيد بن التابوت وأسامة بن حبيب ونافع بن أبى نافع و بحرى بن عمرو كانوا يأتون رجالا من الانصار و يخالطونهم يقولون لهم لا تنفقوا أموالكم فانا نخشى عليكم الفقر ولا تدرون ما يكون فانزل الله عز وجل هذه الآية وقيل يحتمل أن يكون المراد بالبخل كتمان العلم ومنع المال لان البخل فى كلام العرب منع السائل من فضل ما لديه وامساك المقتنيات وفى الشرع البخل عبارة عن امساك الواجب ومنعه واذا كان ذلك أمكن حمله على منع المال ومنع العلم (و يكتمون ما آتاهم الله من فضله) يعنى اليهود كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم وما عندهم من العلم وقيل هم الاغنياء الذين كتموا الغنى وأظهروا الفقر و بخلوا بالمال (وأعتدنا للكافرين) يعنى الجاحدين نعمة الله عليهم (عذابا مهينا) يعنى فى الآخرة عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خصلتان لا يجتمعان فى مؤمن البخل وسوء الخلق أخرجه الترمذى وقال حديث غريب ۞ قوله عز وجل (والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس) يعنى للفخار والسمعة وليقال ما أسخاهم وما أجودهم لا يريدون بما أنفقوا وجه الله تعالى (م) عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تبارك وتعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه نزلت هذه الآية فى اليهود وقيل فى المنافقين لان الرياء ضرب من النفاق وقيل نزلت فى مشركى مكة المنفقين أموالهم فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم (ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) يعنى ولا يصدقون بتوحيد الله ولا بالمعاد الذى فيه جزاء الاعمال انه كائن (ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا) يعنى من يكن الشيطان صاحبه وخليله فبئس الصاحب و بئس الخليل الشيطان وانما اتصل الكلام هنا بذكر الشيطان تقريعا لهم على طاعة الشيطان والمعنى من يكن عمله بما سول له الشيطان فبئس العمل عمله وقيل هذا فى الآخرة يجعل الله الشياطين قرناءهم فى النار يقرن مع كل كافر شيطان فى سلسلة من النار ثم و بخهم الله تعالى وعيرهم على ترك الايمان فقال تعالى (وماذا عليهم) يعنى وأى شئ عليهم وأى و بال وتبعة تلحقهم (لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله) أى أى و بال عليهم فى الايمان بالله والانفاق فى سبيله

وابتغاء مرضاته (وكان الله بهم عليما) يعنى لا يخفى عليه شئ من أعمال هؤلاء الذين ينفقون أموالهم لاجل الرياء والسمعة ففيه وعيد وتهديد لهم ﴿ قوله عزوجل (ان الله لا يظلم مثقال ذرة) نظم الكلام وماذا عليهم لو آمنوا وأنفقوا فان الله لا يظلم ولا يبخس ولا ينقص أحدا من ثواب عمله مثقال ذرة يعنى وزن ذرة وقال ابن عباس الذرة رأس نملة حمراء وقيل الذرة كل جزء من أجزاء الهباء الذى يكون فى الكوة اذا كان فيها ضوء الشمس لا وزن لها وهذا مثل ضربه الله تعالى لأقل الاشياء والمعنى ان الله تعالى لا يظلم أحدا شيأ من قليل ولا كثير فخرج الكلام على أصغر شئ يعرفه الناس (وان تك حسنة يضاعفها) يعنى الحسنة بعشر أمثالها وقيل هذا عند الحساب فمن بقى له من الحسنات مثقال ذرة ضاعفها الله له الى سبعمائة والى أجر عظيم قال قتادة لان تفضل حسناتى على سيآتى بمثقال ذرة أحب الى من الدنيا وما فيها (م) عن أنس بن مالك فى قوله تعالى ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله لا يظلم مؤمنا حسنة يعطى بها فى الدنيا ويجزى بها فى الآخرة وأما الكافر فيعطى بحسنات قد عمل بها فى الدنيا حتى اذا أفضى الى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى سيخلص رجلا من أمتى على رؤس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلا كل سجل مثل مد البصر ثم يقول أتنكر من هذا شيأ أظلمك كتبتى الحافظون فيقول لا يارب فيقول أفلك عذر فيقول لا يارب فيقول تعالى بلى ان لك عندنا حسنة فانه لا ظلم عليك اليوم فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله فيقول احضر وزنك فيقول يارب ماهذه البطاقة مع هذه السجلات فقال فانك لا تظلم فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شئ أخرجه الترمذى (ق) عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ويقولون اللهم سلم سلم قيل يارسول الله وما الجسر قال دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسكة تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكاجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوش فى نار جهنم حتى اذا خلص المؤمنون من النار فوالذى نفسى بيده مامن أحد منكم بأشد مناشدة لله فى استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لاخوانهم الذين فى النار وفى رواية فما أنتم بأشد مناشدة فى الحق قد تبين لكم من المؤمنين يومئذ للجبار اذا رأوا انهم قد نجوا فى اخوانهم يقولون ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون فيقال لهم أخرجوا من عرفتم فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار الى نصف ساقيه والى ركبتيه ثم يقولون ربنا مابقى فيها أحد ممن أمرتنا به فيقول ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار من خير فاخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار من خير فاخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدا ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من خير فاخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خيرا وكان أبو سعيد يقول ان لم تصدقونى بهذا الحديث فاقرؤا ان شئتم ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما فيقول الله تبارك وتعالى شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق الا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حمما فيلقيهم فى نهر فى افواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون كما تخرج الحبة فى حميل السيل ألا ترونها تكون الى الحجر أو الى الشجر ما يكون الى الشمس أصيفر وأخيضر وما يكون منها الى الظل يكون أبيض فقالوا يارسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية قال فيخرجون كاللؤلؤ فى رقابهم الخواتم يعرفهم أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه ثم

(وكان الله بهم عليما) وعيد (ان الله لا يظلم مثقال ذرة) هى النملة الصغيرة وعن ابن عباس رضى الله عنهما انه أدخل يده فى التراب فرفعه ثم نفخ فيه فقال كل واحدة من هؤلاء ذرة وقيل كل جزء من أجزاء الهباء فى الكوة ذرة (وان تك حسنة) وان يك مثقال الذرة حسنة وانما أنث ضمير المثقال لكونه مضافا الى مؤنث حسنة حجازى على كان التامة وحذفت النون من تكن تخفيفا لكثرة الاستعمال (يضاعفها) يضاعف ثوابها يضعفها مكى وشامى

(و يؤت من لدنه أجرا عظيما) و يعط صاحبها من عنده ثوابا عظيما وما وصفه الله بالعظم فمن يعرف مقداره مع انه سمى متاع الدنيا قليلا وفيه ابطال قول المعتزلة فى تخليد مرتكب الكبيرة مع ان له حسنات كثيرة (فكيف) يصنع هؤلاء الكفرة من اليهود وغيرهم (اذا جئنا من كل أمة بشهيد) يشهد عليهم بما فعلوا وهو نبيهم (وجئنا بك) يا محمد (على هؤلاء) أى أمتك (شهيدا) حال أى شاهدا على من آمن بالايمان وعلى من كفر بالكفر وعلى من نافق بالنفاق وعن ابن مسعود رضى الله عنه انه قرأ سورة النساء على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ قوله وجئنا بك على هؤلاء شهيدا فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال حسبك (يومئذ) ظرف لقوله (يود الذين كفروا بالله (وعصوا الرسول لو تسوى بهم الارض) لو يدفنون فتسوى بهم الارض كما تسوى بالموتى أو يودون انهم لم يبعثوا وانهم كانوا والارض سواء أو تصير البهائم ترابا فيودون حالها تسوى بفتح التاء وتخفيف السين والامالة وحذف احدى التاءين من تتسوى حمزة وعلى تسوى بادغام التاء فى السين مدنى وشامى (ولا يكتمون الله حديثا) مستأنف أى ولا يقدرون على كتمانه لان جوارحهم تشهد عليهم ولما صنع عبد الرحمن بن عوف طعاما وشرابا ودعا نفرا من الصحابة رضى الله عنهم حين كانت الخمر مباحة فأكلوا وشربوا فقدموا أحدهم ليصلى بهم المغرب فقرأ قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون وأنتم عابدون ما أعبد نزل

يقول ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم فيقولون ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحدا من العالمين فيقول لكم عندى أفضل من هذا فيقولون ربنا أى شئ أفضل من هذا فيقول رضاى فلا أسخط عليكم بعده أبدا لفظ مسلم وهو بعض حديث وقال بعضهم هذه الآية واردة فى الخصوم ويدل عليه ما روى عن عبد الله بن مسعود قال اذا كان يوم القيامة جمع الله الاولين والآخرين ثم نادى مناد من عند الله ألا من كان يطلب مظلمة فليجئ الى حقه فليأخذه قال فيفرح المرء ان يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته أو أخيه فيأخذ منه وان كان صغيرا ومصداق ذلك فى كتاب الله تعالى قوله تعالى فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ويؤتى بالعبد وينادى مناد على رؤس الاولين والآخرين هذا فلان بن فلان من كان له عليه حق فليأت الى حقه ثم يقال له آت هؤلاء حقوقهم فيقول أى رب من أين وقد ذهبت الدنيا فيقول الله تبارك وتعالى للملائكة انظروا فى أعماله الصالحات فاعطوهم منها فان بقى مثقال ذرة من حسنة قالت الملائكة يا ربنا وهو أعلم بذلك أعطينا كل ذى حق حقه وبقى له مثقال ذرة من حسنة فيقول للملائكة ضعفوها لعبدى وأدخلوه بفضل رحمتى الجنة ومصداق ذلك فى كتاب الله ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما أى الجنة وان كان عبدا شقيا قالت الملائكة الهنا فنيت حسناته وبقى طالبون كثير فيقول الله تبارك وتعالى خذوا من سيئاتهم فاضيفوها الى سيئاته ثم اكتبوا له كتابا الى النار أخرجه البغوى بغير سند عن ابن مسعود موقوفا عليه وأسنده ابن جرير الطبرى عن ابن مسعود فمعنى الآية على هذا التأويل ان الله لا يظلم مثقال ذرة للخصم على خصمه بل يأخذه له منه ولا يظلم مثقال ذرة تبقى له بل يثيبه عليها ويضاعفها له فذلك قوله تعالى وان تك حسنة يضاعفها أى يجعلها أضعافا كثيرة (ويؤت من لدنه) يعنى من عنده (أجرا عظيما) يعنى الجنة والمعنى ويعط من عنده أجرا عظيما يعنى عوضا من حسنة وذلك العوض هو الجنة وقال أبو هريرة اذا قال الله عز وجل أجرا عظيما فمن يقدر قدره قوله تعالى (فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد) يعنى فكيف يكون حال هؤلاء المشركين والمنافقين يوم القيامة اذا جئنا من كل أمة بشهيد قال ابن عباس يريد بنبيها والمعنى انه يؤتى بنبى كل أمة يشهد عليها ولها (وجئنا بك) يا محمد (على هؤلاء شهيدا) يعنى تشهد على هؤلاء الذين سمعوا القرآن وخوطبوا به بما عملوا (ق) عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرأ على القرآن فقلت يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل قال انى أحب أن أسمعه من غيرى قال فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت الى هذه الآية فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا قال حسبك الآن قال فالتفت اليه فاذا عيناه تذرفان زاد مسلم شهيدا ما دمت فيهم أو قال ما كنت فيهم شك أحد رواته ﴿ وقوله تعالى (يومئذ) يعنى يوم القيامة (يود) أى يتمنى (الذين كفروا) يعنى جحدوا وحدانية الله تعالى (وعصوا الرسول) يعنى فيما أمرهم به من توحيد الله عز وجل (لو تسوى بهم الارض) يعنى لو صاروا فيها وسويت عليهم وقيل انهم ودوا أن لن يبعثوا لانهم انما كانوا فى الارض وهى مستوية عليهم وقال الكلبى يقول الله تعالى للبهائم والوحوش والطيور والسباع كونى ترابا فتسوى بهن الارض فعند ذلك يتمنى الكافر لو يكون ترابا (ولا يكتمون الله حديثا) قال ابن عباس فى رواية عطاء ودوا لو تسوى بهم الارض وأنهم لم يكونوا كتموا أمر محمد صلى الله عليه وسلم ولا كفروا به ولا نافقوه فعلى هذا القول يكون الكتمان ما كتموا فى الدنيا من صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته وهو كلام متصل بما قبله وقيل هو كلام مستأنف قال سعيد بن جبير سأل رجل ابن عباس فقال انى أجد فى القرآن أشياء تختلف على قال هات ما يختلف عليك قال منها قوله تعالى ولا يكتمون الله حديثا ومنها قوله تعالى والله ربنا ما كنا مشركين فقد كتموا فقال يغفر الله

تعالى لاهل الاسلام ذنوبهم ويدخلهم الجنة فيقول المشركون تعالوا نقول ما كنا مشركين فيقولون والله ربنا ما كنا مشركين رجاء أن يغفر لهم فيختم على أفواههم وتنطق أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون فعند ذلك عرفوا أن الله لا يكتم حديثا وعنده يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الارض ولا يختلف عليك القرآن فان كلا من عند الله وقال الحسن انها مواطن ففي موطن لا يتكلمون ولا تسمع الا همسا وفي موطن يتكلمون ويكذبون ويقولون والله ربنا ما كنا مشركين وما كنا نعمل من سوء وفي موطن يعترفون على أنفسهم وهو قوله تعالى فاعترفوا بذنبهم وفي موطن لا يتساءلون وفي موطن يسألون الرجعة وآخر تلك المواطن أن يختم على أفواههم وتتكلم جوارحهم فهو قوله تعالى ولا يكتمون الله حديثا

۞ قوله عزوجل (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) جمع سكران (حتى تعلموا ما تقولون) سبب نزول هذه الآية ما روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال صنع لنا ابن عوف طعاما فدعانا فاكلنا وسقانا خمرا قبل تحريم الخمر فاخذت منا وحضرت الصلاة فقدموني فقرأت قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون قال فخلطت فنزلت لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وأخرجه أبو داود ولفظه ان رجلا من الانصار دعاه وعبد الرحمن ابن عوف فسقاهما قبل ان تحرم الخمر فحضرت الصلاة فامهم علي في المغرب فقرأ قل يا أيها الكافرون فخلط فيها فنزلت الآية لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون وروى ابن جرير الطبري عن ابن عباس ان رجالا كانوا يأتون الصلاة وهم سكارى قبل أن تحرم الخمر فقال الله عزوجل يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى الآية فعلى هذا في المراد بالصلاة قولان أحدهما أنه نفس الصلاة ذات الركوع والسجود وهو قول الاكثرين والمعنى لا تصلوا وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون والقول الثاني ان المراد بالصلاة موضع الصلاة وهو المسجد واطلاق لفظ الصلاة على المسجد محتمل فيكون من باب حذف المضاف والمعنى لا تقربوا مواضع الصلاة وأنتم سكارى وحذف المضاف جائز سائغ ويدل عليه قوله تعالى لهدمت صوامع وبيع وصلوات والمراد بالصلوات مواضعها فثبت ان اطلاق لفظ الصلاة والمراد موضعها جائز واعلم ان هذا النهي عن قربان الصلاة في حالة السكر انما كان قبل تحريم الخمر فكانوا يشربونها في غير أوقات الصلاة ثم نزل تحريم الخمر بعد ذلك ونسخت هذه الآية وقال الضحاك المراد بالسكر سكر النوم يعني لا تقربوا الصلاة عند غلبة النوم ويدل عليه ما روى عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم فان أحدكم اذا صلى وهو ناعس لا يدري لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه أخرجاه في الصحيحين

۞ وقوله تعالى (ولا جنبا) يعني ولا تقربوا الصلاة وأنتم جنب والجنب يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث لانه اسم جرى مجرى المصدر الذي هو الاجناب وأصل الجنابة البعد سمي الذي أصابته الجنابة جنبا لانه يتجنب الصلاة والمسجد وقيل لمجانبته الناس حتى يغتسل (الا عابري سبيل) العابر ههنا فاعل من العبور وهو قطع الطريق من هذا الجانب الى الجانب الآخر واختلف العلماء في معنى قوله الا عابري سبيل على قولين أحدهما أن المراد بالعبور هو العبور في المسجد وذلك أن قوما من الانصار كانت أبوابهم في المسجد فتصيبهم الجنابة ولا ماء عندهم ولا ممر لهم الا في المسجد فرخص لهم العبور فيه فعلى هذا القول يكون المراد بالصلاة موضع الصلاة والمعنى لا تقربوا المسجد وأنتم جنب الا مجتازين فيه اما للخروج منه أو للدخول فيه مثل أن يكون قد نام في المسجد فاجنب فيجب الخروج منه أو يكون الماء في المسجد فيدخل اليه أو يكون طريقه عليه فيمر فيه من غير اقامة وهذا قول ابن مسعود وأنس بن مالك والحسن وسعيد بن المسيب وعكرمة والضحاك وعطاء الخراساني والنخعي والزهري واليه ذهب الشافعي وأحمد القول الثاني أن المراد من قوله الا عابري سبيل المسافرون والمعنى لا تقربوا الصلاة

(يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) أي لا تقربوها في هذه الحالة (حتى تعلموا ما تقولون) أي تقرؤن وفيه دليل على ان ردة السكران ليست بردة لان قراءة سورة الكافرين بطرح اللامات كفر ولم يحكم بكفره حتى خاطبهم باسم الايمان وما أمر النبي عليه السلام بالتفريق بينه وبين امرأته ولا بتجديد الايمان ولان الامة اجتمعت على أن من أجرى كلمة الكفر على لسانه مخطئا لا يحكم بكفره (ولا جنبا) عطف على وأنتم سكارى لان محل الجملة مع الواو النصب على الحال كانه قيل لا تقربوا الصلاة سكارى ولا جنبا أي ولا تصلوا جنبا والجنب يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث لانه اسم جرى مجرى المصدر الذي هو الاجناب (الا عابري سبيل) صفة لقوله جنبا أي لا تقربوا الصلاة جنبا غير عابري سبيل أي جنبا مقيمين غير مسافرين والمراد بالجنب الذين لم يغتسلوا كانه قيل لا تقربوا الصلاة غير مغتسلين

وأنتم جنب الا أن تكونوا مسافرين ولم تجدوا الماء فتيمموا فمنع الجنب من الصلاة حتى يغتسل الا أن يكون في سفر ولا ماء معه فيتيمم و يصلي الى أن يجد الماء فيغتسل وهذا قول علي وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة فمن جعل عابري السبيل المسافرين منع الجنب من العبور في المسجد وهو مذهب أبي حنيفة وصحح ابن جرير الطبري والواحدي القول الاول و يدل على صحته وجهان أحدهما أن المسافر الجنب لا تصح صلاته بدون التيمم ولم يذكر التيمم ههنا فيحتاج الى اضمار شيئين عدم الماء وذكر التيمم وعلى القول الاول لا يحتاج الى اضمار شئ الوجه الثاني أن الله تعالى ذكر حكم السفر وعدم الماء وجواز التيمم بعد هذا فلا يحمل هذا على حكم معاد في الآية و يدل عليه أن جميع القراء استحسنوا الوقف على قوله (حتى تغتسلوا) يعني الى أن تغتسلوا وفيه دليل على أن حكم الجنابة باق على الجنب الى غاية هي الاغتسال

﴿فصل في أحكام تتعلق بالآية﴾ اختلف العلماء في العبور في المسجد فاباحه قوم على الاطلاق وهو قول الحسن و به قال مالك والشافعي ومنعه بعضهم على الاطلاق وهو قول أصحاب الرأي وقال قوم يتيمم للعبور في المسجد واختلف العلماء في المكث في المسجد أيضا للجنب فمنعه أكثر أهل العلم وقالوا لا يجوز للجنب المكث في المسجد بحال لما روي عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجوه بيوت أصحابه شارعة في المسجد فقال وجهوا هذه البيوت عن المسجد ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يصنع القوم شيأ رجاء أن ينزل لهم رخصة فخرج اليهم بعد فقال وجهوا هذه البيوت عن المسجد فاني لا أحل المسجد لحائض ولا جنب أخرجه أبو داود وجوز أحمد المكث في المسجد بشرط الوضوء و به قال المزني من أصحاب الشافعي وأجاب أحمد عن حديث عائشة بانه في رواته مجهول وقال عبد الحق لا يثبت من قبل اسناده واستدل أحمد لمذهبه بما روي عن عطاء بن يسار قال رأيت رجالا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلسون في المسجد وهم مجنبون اذا توضؤا وضوء الصلاة أخرجه سعيد بن منصور في مسنده واحتج لمذهب الجمهور بعموم الآية و بما روي عن أم سلمة قالت دخل النبي صلى الله عليه وسلم صرحة هذا المسجد فنادى باعلى صوته ان المسجد لا يحل لجنب ولا حائض أخرجه ابن ماجه و يحرم على الجنب أيضا الطواف وقراءة القرآن كما يحرم عليه فعل الصلاة ويدل على ذلك أيضا ما روي عن علي بن أبي طالب قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضي حاجته ثم يخرج فيقرأ القرآن و يأكل معنا اللحم ولا يحجبه وربما قال ولا يحجزه من القرآن شئ ليس الجنابة أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي ولفظه كان يقرأ القرآن على كل حال ما لم يكن جنبا وقال حديث حسن صحيح * عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقرأ الجنب ولا الحائض ولا النفساء من القرآن شيأ أخرجه الدارقطني و يجب الغسل باحد شيئين بانزال المني وهو الماء الدافق أو بايلاج الحشفة في الفرج وان لم ينزل و يدل على ذلك ما روي عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يجد البلل ولا يذكر احتلاما قال يغتسل وعن الرجل يرى أنه احتلم ولا يجد بللا قال لا غسل عليه قالت أم سلمة والمرأة ترى ذلك أعليها غسل قال نعم أخرجه أبو داود والترمذي (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا جلس بين شعبها الاربع ثم جهدها فقد وجب الغسل زاد في رواية وان لم ينزل ۞ وقوله تعالى (وان كنتم مرضى) جمع مريض وأراد به المرض الذي يضر معه امساس الماء مثل الجدري واحراق النار ونحو ذلك وان كان على بعض أعضائه جراحة أو به قروح يخاف من استعمال الماء التلف أو زيادة الوجع فانه يتيمم و يصلي مع وجود الماء وان كان بعض أعضائه صحيحا و بعضها جريحا غسل الصحيح وتيمم للجريح في الوجه واليدين لما روي عن جابر قال خرجنا في سفر فاصاب رجلا منا حجر فشجه في رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه هل تجدون لي رخصة في التيمم فقالوا ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء فاغتسل فمات فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك

(حتى تغتسلوا) الا أن تكونوا مسافرين عادمين الماء متيممين عبر عن المتيمم بالمسافر لان غالب حاله عدم الماء وهذا مذهب أبي حنيفة رحمه الله وهو مروي عن علي رضي الله عنه وقال الشافعي رحمه الله لا تقربوا الصلاة أي مواضع الصلاة وهي المساجد ولا جنبا أي ولا تقربوا المسجد جنبا الا عابري سبيل الا مجتازين فيه فيجوز للجنب العبور في المسجد عند الحاجة (وان كنتم مرضى

فقال قتلوه قتلهم الله ألا سألوا اذا لم يعلموا فانما شفاء العى السؤال انما كان يكفيه أن يتيمم و يعصر أو قال يعصب شك الراوى على جرحه خرقة ثم يمسح عليه و يغسل سائر جسده أخرجه أبو داود و الدارقطنى ولم يجوز أصحاب الرأى الجمع بين الغسل والتيمم قالوا اذا كان أكثر أعضائه أو بدنه صحيحا غسل الصحيح ولا يتيمم عليه وان كان الاكثر جريحا اقتصر على التيمم والحديث حجة لمن أوجب الجمع بين الغسل والتيمم ﴿ قوله تعالى (أو على سفر) يعنى أو كنتم مسافرين وأراد به السفر الطويل والقصير وعدم الماء فانه يتيمم و يصلى ولا اعادة عليه لما روى عن أبى ذر قال اجتمعت غنيمة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أباذر ابد فيها فبدوت الى الربذة فكانت تصيبنى الجنابة فامكث الخمس والست فاتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو ذر فسكت فقال ثكلتك أمك يا أباذر لامك الويل فدعا بجارية سوداء فجاءت بعس فيه ماء فسترتنى بثوب واستترت بالراحلة فاغتسلت فكانى ألقيت عنى جبلا فقال الصعيد الطيب وضوء المسلم ولو الى عشر سنين فاذا وجدت الماء فامسه جلدك فان ذلك خير أخرجه أبو داود العس قدح من فخار يجعل فيه الماء للوضوء والاغتسال أما اذا لم يكن الرجل مريضا ولا على سفر وعدم الماء فى موضع لا يعدم فيه غالبا فانه يتيمم و يصلى ثم يعيد اذا وجد الماء وقدر عليه و به قال الشافعى وقال مالك والاوزاعى لا اعادة عليه وقال أبو حنيفة يؤخر الصلاة حتى يجد الماء ﴿ وقوله تعالى (أو جاء أحد منكم من الغائط) الغائط المكان المطمئن من الارض وجمعه الغيطان وكانت عادة العرب اتيان الغائط للحدث فكنوا به عن الحدث وذلك ان الرجل منهم كان اذا أراد قضاء الحاجة طلب غائطا من الارض يعنى مكانا منخفضا من الارض يحجبه عن أعين الناس فسمى الحدث بهذا الاسم فهو من باب تسمية الشئ باسم مكانه ﴿ وقوله تعالى (أو لامستم النساء) قرئ هنا وفى سورة المائدة لامستم النساء ولمستم بغير ألف واختلف العلماء فى معنى الملامسة على قولين أحدهما أنه الجماع وهو قول على وابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة ووجه هذا القول ان الله تعالى كنى باللمس عن الجماع لان اللمس يوصل اليه قال ابن عباس ان الله حيى كريم يكنى عن الجماع بالملامسة والقول الثانى ان المراد باللمس هنا التقاء البشرتين سواء كان بجماع أو بغير جماع وهو قول ابن مسعود وابن عمر والشعبى والنخعى ووجه هذا القول ان اللمس حقيقة فى اللمس باليد فاما حمله على الجماع فمجاز والاصل حمل الكلام على الحقيقة لا المجاز وأما قراءة من قرأ أو لامستم فالملامسة مفاعلة من اللمس لا تدل على المجامعة أيضا على الاطلاق لانه قد ورد فى الحديث النهى عن بيع الملامسة قال أبو عبيدة فى معناها هى أن يقول اذا لمست ثوبى أو لمست ثوبك فقد وجب البيع فالملامسة فى الحديث بمعنى اللمس باليد واذا كانت مستعملة فى غير المجامعة لم يدل قوله تعالى أو لامستم النساء على صريح الجماع بل حمل على الاصل الموضوع له وهو اللمس باليد

﴿فصل فى أحكام تتعلق بالآية﴾ وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اذا أفضى الرجل بشئ من بدنه الى شئ من بدن المرأة ولا حائل بينهما انتقض وضوءهما وهو قول ابن مسعود وابن عمر وبه قال الزهرى والاوزاعى والشافعى لما روى الشافعى بسنده عن ابن عمر أنه قال قبلة الرجل امرأته وجسها بيده من الملامسة فمن قبل امرأته أو جسها بيده فعليه الوضوء أخرجه مالك فى الموطأ قال الشافعى و بلغنا عن ابن مسعود مثله وقال مالك والليث بن سعد وأحمد واسحق اذا كان اللمس بشهوة انتقض الوضوء وان لم يكن بشهوة فلا و يدل عليه ما روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل امرأة من نسائه ثم خرج الى الصلاة ولم يتوضأ قال عروة ومن هى الا أنت فضحكت أخرجه أبو داود وأجيب عن هذا الحديث بانه ليس بثابت قال الترمذى انه لا يصح اسناده بحال وسمعت محمد بن اسمعيل ضعف هذا الحديث وقال حبيب بن ثابت لم يسمع من عروة وضعف يحيى بن سعيد القطان هذا الحديث وقال هو شبه لا شئ وفيه ضعف من وجه آخر وهو ان عروة هذا ليس بعروة بن الزبير ابن أخت عائشة انما هو شيخ مجهول قال البيهقى يعرف بعروة

أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط) أى المطمئن من الارض وكانوا يأتونه لقضاء الحاجة فكنى به عن الحدث (أو لامستم النساء) جامعتموهن كذا عن على رضى الله عنه وابن عباس

المزنى وانما المحفوظ عن عائشة ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يقبل وهو صائم كذا رواه الثقات عن عائشة وقال أبو حنيفة لا ينتقض الوضوء باللمس الا أن يحدث الانتشار وقال قوم لا ينتقض بحال وهو قول ابن عباس و به قال الحسن والثورى واحتج من لم يوجب الوضوء باللمس بما روى عن عائشة انها قالت كنت أنام بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجلاى فى قبلته فاذا سجد غمزنى فقبضت رجلى فاذ قام بسطتهما والبيوت يومئذ ليس فيها مصابيح أخرجاه فى الصحيحين وأجاب من أوجب الوضوء باللمس عن هذا الحديث بانه يحتمل أن يكون غمزه لها على حائل ﴿المسئلة الثانية﴾ اختلف قول الشافعى فى لمس المحرم كالام والبنت والاخت أو أجنبية صغيرة فاصح القولين عنه أنه لا ينتقض الوضوء به والثانى انه ينتقض الوضوء به ومأخذ القولين عند أصحاب الشافعى التردد بين التعلق بعموم الآية فى قوله أو لامستم النساء أو النظر الى المعنى فى النقض باللمس وهو تحرك الشهوة فان أخذنا بعموم الآية فينتقض الوضوء بلمس المحارم وان أخذنا بالمعنى فلا ينتقض وفى الملموس قولان والملموس هو الذى لا فعل منه فى المباشرة رجلا كان أو امرأة واللامس هو الفاعل اللمس وان لم يقصد المباشرة فاحد القولين أنه ينتقض وضوء اللامس والملموس لعموم الآية لانه لمس وقع بين الرجل والمرأة فينتقض وضوءهما معا والقول الثانى أنه ينتقض وضوء اللامس دون الملموس لما روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة من الفراش فالتمسته فوضعت يدى على أخمص قدميه وهو ساجد وهما منصوبتان وهو يقول اللهم انى أعوذ برضاك من سخطك و بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك أخرجه مسلم فلو انتقض وضوءه صلى الله عليه وسلم لقطع الصلاة ولو لمس شعر امرأة أو سنها أو ظفرها فلا وضوء عليه ﴿المسئلة الثالثة فى الحدث﴾ وهو الخارج من السبيلين عينا كان كالبول والغائط أو اثرا كالريح ونحوها فاذا حصل شئ من ذلك فلا تصح صلاته ما لم يتوضأ أو يتيمم عند عدم الماء لما روى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقبل الله صلاة احدكم اذا أحدث حتى يتوضأ فقال رجل من أهل حضرموت ما الحدث يا أبا هريرة قال فساء أو ضراط أخرجاه فى الصحيحين أما خروج النجاسة من غير السبيلين كالفصد والحجامة والرعاف والقئ ونحوها فذهب قوم الى أنه لا وضوء من خروج هذه الاشياء يروى ذلك عن ابن عمر وابن عباس و به قال عطاء وطاوس والحسن وابن المسيب واليه ذهب مالك والشافعى لما روى عن أنس قال احتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى ولم يتوضأ ولم يزد على غسل محاجمه أخرجه الدار قطنى وذهب قوم الى ايجاب الوضوء من ذلك منهم سفيان الثورى وابن المبارك وأصحاب الرأى وأحمد واسحق واتفق هؤلاء على أن خروج القليل منه لا ينقض الوضوء و يدل على انتقاض الوضوء بخروج هذه الاشياء ما روى عن معدان بن أبى طلحة عن أبى الدرداء أن النبى صلى الله عليه وسلم قاء فتوضأ قال معدان فلقيت ثوبان فى مسجد دمشق فذكرت له ذلك فقال صدق أنا صببت له وضوءه أخرجه الترمذى وقال هو أصح شئ فى هذا الباب ﴿المسئلة الرابعة﴾ من نواقض الوضوء زوال العقل بجنون أو اغماء أو نوم لما روى عن على قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم العين وكاء السه فمن نام فليتوضأ أخرجه أبو داود وابن ماجه و يستثنى من ذلك النوم اليسير قاعدا مفضيا بمحل الحدث الى الارض و يدل على ذلك ما روى عن أنس قال كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرون العشاء الاخيرة حتى تخفق رؤسهم ثم يصلون ولا يتوضؤن أخرجه أبو داود وذهب قوم الى أن النوم لا ينقض الوضوء بكل حال وهو قول أبى هريرة وعائشة و به قال الحسن واسحق والمزنى وذهب قوم الى انه لو نام قائما أو قاعدا أو ساجدا وهو فى الصلاة فلا وضوء عليه حتى يضطجع و به قال سفيان الثورى وابن المبارك وأصحاب الرأى لما روى عن ابن عباس ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ليس على من نام ساجدا وضوء حتى يضطجع فانه اذا اضطجع استرخت مفاصله أخرجه

أحمد بن حنبل وضعف بعضهم هذا الحديث ﴿المسئلة الخامسة﴾ من نواقض الوضوء مس الفرج من نفسه أو غيره فذهب قوم الى أنه يوجب الوضوء وهو قول عمر وابن عمر وابن عباس وسعد بن أبي وقاص وأبي هريرة وعائشة وبه قال سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار واليه ذهب الاوزاعي والشافعي وأحمد واسحق غير أن الشافعي قال ينتقض الوضوء اذا مس ببطن الكف والرجل والمرأة في ذلك سواء ويدل على ذلك ما روي عن بسرة بنت صفوان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من مس ذكره فلا يصل حتى يتوضأ أخرجه الترمذي وقال حديث صحيح ولأبي داود والنسائي نحوه * وعن أم حبيبة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من مس فرجه فليتوضأ أخرجه ابن ماجه وصححه أحمد وأبو زرعة وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من أفضى بيده الى ذكره وليس دونه ستر فقد وجب عليه الوضوء أخرجه أحمد بن حنبل وذهب قوم الى أن مس الذكر لا يوجب الوضوء وهو قول علي وابن مسعود وأبي الدرداء وحذيفة وبه قال الحسن واليه ذهب الثوري وابن المبارك وأصحاب الرأي واحتجوا بما روي عن طلق بن علي قال قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل كأنه بدوي فقال يا نبي الله ما ترى في مس الرجل ذكره بعد ما توضأ قال هل هو الا مضغة أو قال بضعة منه أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي نحوه بمعناه وأجاب من أوجب الوضوء على من مس الذكر عن حديث طلق بن علي بأن قدومه على رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في أول الهجرة وهو يبني المسجد وأبو هريرة من آخرهم اسلاما وقد روى انتقاض الوضوء بمس الذكر فصار حديث أبي هريرة ناسخا لحديث طلق بن علي وأيضا فان حديث طلق يرويه عنه ابنه قيس بن طلق وهو ليس بالقوي عند أهل الحديث ۞ وقوله تعالى (فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا) اعلم ان التيمم من خصائص هذه الامة خصها الله تعالى به ليسهل عليهم أسباب العبادة ويدل على ذلك ما روي عن حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فضلنا على الناس بثلاث جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وجعلت لنا الارض كلها مسجدا وجعلت تربتها لنا طهورا اذا لم نجد الماء أخرجه مسلم وكان سبب بدء التيمم ما روي عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره حتى اذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقد لي فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على التماسه وأقام الناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء فأتى الناس الى أبي بكر الصديق فقالوا ألا ترى الى ما صنعت عائشة برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء فجاء أبو بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضع رأسه على فخذي قد نام فقال حبست رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء قالت عائشة فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله ان يقول وجعل يطعن بيده في خاصرتي فلا يمنعني من التحرك الا مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذي فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصبح على غير ماء فأنزل الله عز وجل آية التيمم فتيمموا فقال أسيد بن حضير وهو أحد النقباء ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر قالت عائشة فبعثنا البعير الذي كنت عليه فوجدنا العقد تحته أخرجاه في الصحيحين قولها بالبيداء البيداء المفازة والقفر وكل صحراء فهي بيداء وجمعها بيد وذات الجيش اسم لموضع وهو على بريد من المدينة وقولها فبعثنا البعير أي أثرناه قوله تعالى فلم تجدوا ماء هو معطوف على ما قبله والمعنى أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فطلبتم الماء لتتطهروا به فلم تجدوه يعني فأعوزكم فلم تجدوه بثمن ولا بغير ثمن لان المحدث مأمور بالتطهر بالماء فاذا أعوزه الماء عدل عنه الى التيمم بعد طلب الماء قال الشافعي اذا دخل وقت الصلاة طلب الماء فان لم يجده تيمم وصلى ثم اذا دخل وقت الصلاة ثانية وجب عليه الطلب مرة أخرى وقال أبو حنيفة لا يجب عليه الطلب للصلاة الثانية حجة الشافعي قوله تعالى فلم تجدوا ماء فعدم الوجدان مشعر بسبق الطلب فلا بد في كل مرة من سبق الطلب وأجمعوا على انه لو وجد الماء لكنه يحتاج اليه

(فلم تجدوا ماء) فلم تقدروا على استعماله لعدمه أو بعده أو فقد آلة الوصول اليه أو لمانع من حية أو سبع أو عدو (فتيمموا) أدخل في حكم الشرط أربعة وهم المرضى والمسافرون والمحدثون وأهل الجنابة والجزاء الذي هو الامر بالتيمم متعلق بهم جميعا فالمرضى اذا عدموا الماء لضعف حركتهم وعجزهم عن الوصول اليه والمسافرون اذا عدموه لبعده والمحدثون وأهل الجنابة اذا لم يجدوه لبعض الاسباب فلهم أن يتيمموا لمستم حمزة وعلي (صعيدا) قال الزجاج هو وجه الارض ترابا كان أو غيره وان كان صخرا لا تراب عليه لو ضرب المتيمم يده ومسح لكان ذلك طهوره ومن في سورة المائدة لابتداء الغاية لا للتبعيض (طيبا) طاهرا

لعطشه أو عطش حيوان محترم فانه يجوز له التيمم مع وجدان ذلك الماء وقوله تعالى فتيمموا صعيدا طيبا أصل التيمم في اللغة القصد يقال تيممت فلانا اذا قصدته وهو في الشرع عبارة عن أفعال مخصوصة عند عدم الماء لتأدية الصلاة واختلفوا في الصعيد الطيب فقال قتادة الصعيد الارض التي ليس فيها شجر ولا نبات وقال ابن زيد الصعيد المستوي من الارض وكذلك قال الليث الصعيد الارض المستوية التي لا شيء فيها وقال الفراء الصعيد هو التراب وكذلك قال أبو عبيد في قوله صلى الله عليه وسلم اياكم والقعود بالصعدات قال الصعدات الطرق ماخوذ من الصعيد وهو التراب وقيل الصعيد وجه الارض البارز وهو اختيار الزجاج قال الصعيد وجه الارض ولا تبالي أكان في الموضع تراب أولا لان الصعيد ليس هو التراب انما هو وجه الارض ونقل الربيع عن الشافعي في تفسير الصعيد قال لا يقع اسم الصعيد الا على تراب ذي غبار فاما البطحاء الغليظة والرقيقة فلا يقع عليها اسم الصعيد فان خالطه تراب أو مدر يكون له غبار كان الذي خالطه هو الصعيد قال ولا يتيمم بنورة ولا بكحل ولا زرنيخ كل هذا حجارة هذا كلام الشافعي في تفسير الصعيد وهو القدوة في اللغة وقوله في ذلك حجة وقد وافقه على ذلك الفراء وأبو عبيد في انه التراب وجميع الاقوال في الصعيد صحيحة في اللغة لكن المراد به هنا التراب وقد قال ابن عباس في قوله صعيدا هو التراب واختلف أهل العلم فيما يجوز به التيمم فذهب الشافعي الى انه يختص بما وقع عليه اسم التراب مما له غبار يعلق بالوجه واليدين لان النبي صلى الله عليه وسلم قال جعلت لي الارض مسجدا وترابها طهورا فخص التراب بالطهور ولان الله تعالى وصف الصعيد بالطيب والطيب من الارض هو الذي ينبت فيها بدليل قوله والبلد الطيب يخرج نباته فعلى هذا ما لا ينبت ليس بطيب والتراب أيضا قوله تعالى في سورة المائدة فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه وكلمة من للتبعيض هنا ولا يتأتى ذلك في الصخر الذي لا تراب عليه وأيضا فانه يقال للغبار صعيد لانه ماخوذ من الصعود وهو الارتفاع ولا يكون ذلك في الصخر وما أشبهه وذهب أبو حنيفة ومالك الى انه يجوز التيمم بكل ما هو من جنس الارض كالرمل والجص والنورة والزرنيخ ونحو ذلك حتى لو ضرب يده على صخرة ملساء لا غبار عليها صح تيممه عندهم واحتج أبو حنيفة ومن وافقه بظاهر الآية قالوا لان التيمم هو القصد والصعيد اسم لما تصاعد من الارض فقوله تعالى فتيمموا صعيدا طيبا أي اقصدوا ارضا فوجب أن يكون هذا القدر كافيا وأجيب عنه بما تقدم من الدليل في قوله منه وان لفظة من تكون للتبعيض قالوا ولما روى عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال وجعلت لي الارض مسجدا وطهورا وأجيب عنه بان هذا مجمل يفسره ما تقدم من حديث حذيفة في تخصيص التراب والمفسر يقضي على المجمل وجوز بعضهم التيمم بكل ما هو متصل بالارض من شجر ونبات ومدر ونحو ذلك قالوا لان اسم الصعيد يقع على ما تصاعد على الارض وأجيب عنه بما تقدم من الادلة ﴿ وقوله تعالى (فامسحوا بوجوهكم وأيديكم) الوجه الممسوح في التيمم هو المحدود في الوضوء واختلف العلماء فيما يجب مسحه من اليد فذهب أكثر أهل العلم منهم ابن عمر وابنه سالم والحسن وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي انه يمسح الوجه واليدين الى المرفقين بضربتين وصورة ذلك أن يضرب كفيه على التراب ويمسح بهما وجهه ولا يجب ايصال التراب الى منابت الشعور ثم يضرب ضربة أخرى ويفرق أصابعه فيمسح يديه الى المرفقين ويدل على ذلك ما روى عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم التيمم ضربتان ضربة للوجه وضربة لليدين الى المرفقين رواه البيهقي ولم يضعفه وروى الشافعي عن ابراهيم بن محمد عن أبي الحويرث عن الاعرج عن ابن الصمة قال مررت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبول فسلمت عليه فلم يرد علي حتى قام الى الجدار فحته بعصا كانت معه ثم وضع يده على الجدار فمسح وجهه وذراعيه ثم رد علي هذا حديث منقطع لان الاعرج وهو عبد الرحمن بن هرمز لم يسمع هذا من ابن الصمة وانما سمعه من عمير مولى ابن عباس عن ابن الصمة وكذا هو مخرج في الصحيحين عن عمير مولى ابن عباس قال دخلنا على أبي

(فامسحوا بوجوهكم وأيديكم) قيل الباء زائدة

جهيم بن الحرث فقال أبو جهيم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من نحو بئر جمل فلقيه رجل فسلم عليه فلم يرد النبي صلى الله عليه وسلم حتى أقبل على الجدار فوضع يده على الحائط فمسح بوجهه ويديه ثم رد عليه السلام ولابي داود عن نافع قال انطلقت مع ابن عمر في حاجة الى ابن عباس فلما ان قضى حاجته فكان من حديثه يومئذ أن قال مر رجل في سكة من سكك المدينة فلقي رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خرج من غائط أو بول فسلم عليه الرجل فلم يرد عليه حتى اذا كاد الرجل ان يتوارى في السكة ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده على حائط ومسح بها وجهه ثم ضرب ضربة أخرى فمسح بها ذراعيه ثم رد عليه السلام وقال لم يمنعني أن أرد عليك أولا الا أني لم أكن على طهر وفي رواية فمسح ذراعيه الى المرفقين فهذا أجود ما في هذا الباب فان البيهقي أشار الى صحة اسناده وفيه دليل على الحكمين يعني مسح الوجه واليدين بضربتين وايصال المسح الى المرفقين وفيه دليل على ان التيمم لا يصح مالم يعلق بالوجه واليدين غبار التراب لان النبي صلى الله عليه وسلم حت الجدار بالعصا ولو كان مجرد الضرب كافيا لما كان حته وذهب الزهري الى انه يمسح اليدين الى المنكبين ويدل على ذلك ما روي عن عمار بن ياسر قال تمسحوا وهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصعيد لصلاة الفجر فضربوا بأكفهم الصعيد ثم مسحوا بوجوههم مسحة واحدة ثم عادوا فضربوا بأكفهم الصعيد مرة أخرى فمسحوا بأيديهم كلها الى المناكب والآباط ثم بطون أيديهم أخرجه أبو داود وذهب جماعة الى ان التيمم ضربة واحدة للوجه والكفين وهو قول علي وابن عباس وبه قال الشعبي وعطاء ومكحول واليه ذهب الاوزاعي ومالك وأحمد واسحق وداود الظاهري واحتجوا بما روي عن عمار بن ياسر قال بعثني النبي صلى الله عليه وسلم في حاجة فاجنبت فلم أجد الماء فتمرغت في الصعيد كما تمرغ الدابة ثم أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال انما يكفيك أن تقول بيديك هكذا ثم ضرب بيديه الارض ضربة واحدة ثم مسح الشمال على اليمين وظاهر كفيه وباطنهما ووجهه وفي رواية أن تقول هكذا وضرب بيديه الارض فنفض يديه فمسح وجهه وكفيه أخرجاه في الصحيحين وجملته ان اليد اسم لهذه الجارحة وحدها عند بعض أهل اللغة من أطراف الانامل الى الكوع وهذا هو المقطوع في حد السرقة وقال أبو اسحق الزجاج حدها من أطراف الانامل الى الكتف فمن ذهب الى أن الممسوح في التيمم هو الكف قال ان حد اليد هو المقطوع في حد السرقة ومن ذهب الى ان الممسوح في التيمم الى المناكب والآباط نظر الى ان مسمى اليد يطلق على جميعها ومن ذهب الى ان الممسوح في التيمم الى المرفقين قال ان التيمم بدل عن الوضوء واليد المغسولة في الوضوء هي الممسوحة في التيمم فيحمل المطلق الذي في قوله تعالى فامسحوا بوجوهكم وأيديكم على التقييد الذي في قوله تعالى في آية الوضوء فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وأجاب من ذهب الى هذا عن حديث عمار بان المراد منه بيان صورة الضرب وليس المراد منه جميع ما يحصل به التيمم

﴿فصل﴾ وأركان التيمم خمسة الاول تراب طاهر خالص له غبار يعلق بالوجه واليدين ويجوز بالرمل اذا كان عليه غبار الثاني قصد الصعيد فلو تعرض لمهب الريح لم يكفه ولو يممه غيره باذنه مع عجزه جاز وان كان قادرا فوجهان الثالث نقل التراب الى الوجه واليدين الرابع نية استباحة الصلاة فلو نوى رفع الحدث لم يصح وأكمله أن ينوي استباحة الفرض والنفل الخامس مسح الوجه واليدين الى المرفقين بضربتين والترتيب ولا يصح التيمم لصلاة الا بعد دخول وقتها ولا يجوز الجمع بين صلاتي فرض بتيمم واحد وهو قول علي وابن عباس وابن عمر وبه قال الشعبي والنخعي وقتادة واليه ذهب مالك والشافعي وأحمد واسحق وذهب جماعة الى ان التيمم كالوضوء فيجوز تقديمه على الوقت ويجوز أن يصلي به ماشاء من الفرائض مالم يحدث وهو قول سعيد ابن المسيب والحسن والزهري والثوري وأصحاب الرأي واتفقوا على انه يجوز أن يصلي بتيمم واحد ماشاء من النوافل قبل الفرض وبعده الى أن يدخل وقت الصلاة الاخرى وأن يقرأ القرآن ان كان جنبا ويشترط

(ان الله كان عفوا) بالترخيص والتيسير (غفورا) عن الخطا والتقصير (ألم تر) من رؤية القلب وعدى بالى على معنى ألم ينته علمك اليهم أو بمعنى ألم تنظر اليهم (الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) حظا من علم التوراة وهم أحبار اليهود (يشترون الضلالة) يستبدلونها بالهدى وهو البقاء على اليهودية بعد وضوح الآيات لهم على صحة نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وانه هو النبي العربي المبشر به في التوراة والانجيل (ويريدون ان تضلوا) أنتم أيها المؤمنون (السبيل) أي سبيل الحق كما ضلوه (والله أعلم) منكم (باعدائكم) وقد أخبركم بعداوة هؤلاء فاحذروهم ولا تستنصحوهم في أموركم (وكفى بالله وليا) في النفع (وكفى بالله نصيرا) في الدفع فثقوا بولايته ونصرته دونهم أولا تبالوا بهم فان الله ينصركم عليهم ويكفيكم مكرهم ووليا ونصيرا منصوبان على التمييز أو على الحال (من الذين هادوا) بيان للذين أوتوا نصيبا من الكتاب أو بيان لاعدائكم وما بينهما اعتراض أو يتعلق بقوله نصيرا أي ينصركم من الذين هادوا كقوله ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا أو يتعلق بمحذوف تقديره من الذين هادوا قوم يحرفون الكلم فقوم مبتدأ ويحرفون صفة له والخبر من الذين هادوا مقدم عليه وحذف الموصوف وهو قوم وأقيم صفته وهو (يحرفون الكلم عن مواضعه) يميلونه عنها ويزيلونه لانهم اذا بدلوه ووضعوا مكانه كلما غيره فقد أمالوه عن موضعه في التوراة التي وضعه الله تعالى فيها وأزالوه عنها من مقامه وذلك نحو تحريفهم أسمر ربعة عن موضعه في التوراة بوضعهم آدم طوال مكانه ثم ذكر هنا عن مواضعه وفي المائدة من بعد مواضعه فمعنى عن مواضعه على ما بينا من ازالته عن مواضعه التي أوجبت حكمة الله وضعه فيها بما اقتضت شهواتهم من ابدال غيره مكانه ومعنى من بعد مواضعه أنه كانت له مواضع هو جدير بان يكون فيها فحين حرفوه تركوه كالغريب الذي لا موضع له بعد مواضعه ومقاره والمعنيان متقاربان (ويقولون سمعنا) قولك (وعصينا) أمرك قيل أسروا به (واسمع) قولنا (غير مسمع) حال من المخاطب أي اسمع وأنت غير مسمع وهو قول ذو وجهين يحتمل الذم أي اسمع منا مدعوا عليك بلا سمعت لانه لو أجيبت دعوتهم عليه لم يسمع شيأ فكان أصم غير مسمع قالوا ذلك اتكالا على ان قولهم لا سمعت دعوة مستجابة أو اسمع غير

طلب الماء في السفر بان يطلبه في رحله وعند رفقائه وان كان في صحراء ولا حائل دون نظره نظر حواليه وان كان دون نظره حائل قريب من تل أو جدار أو نحوه عدل عنه لان الله تعالى قال فلم تجدوا ماء فتيمموا ولا يقال لم يجد الا لمن طلب ولا يشترط طلب عند أبي حنيفة فان رأى الماء ولا يقدر عليه لمانع من عدو أو سبع يمنعه من الذهاب اليه أو كان الماء في بئر وليس معه آلة الاستقاء فهو كالعادم فيتيمم ويصلي ولا اعادة عليه والله أعلم ۞ وقوله تعالى (ان الله كان عفوا) يعني يتجاوز عن ذنوب عباده ويعفو ويصفح عنهم (غفورا) ستورا على عباده يغفر الذنوب ويسترها وفيه تنبيه على ان الله تعالى رخص لعباده أمر العبادة ويسرها عليهم لان من كانت عادته ان يغفر الذنوب ويعفو عنها كان أولى ان يرخص للعاجز بن أمر العبادة ۞ قوله عز وجل (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) نزلت في يهود المدينة وقال ابن عباس نزلت في رفاعة بن زيد ومالك بن دخشم اليهوديين كانا اذا تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم لويا ألسنتهما وعاباه فانزل الله تعالى ألم تر يعني ألم ينته علمك يا محمد الى هؤلاء الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يعني أعطوا حظا من علم التوراة وذلك انهم عرفوا نبوة موسى من التوراة وانكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم منها فلذلك أتى بمن التي هي للتبعيض وقيل انهم علموا التوراة ولم يؤتوا العمل بها (يشترون الضلالة) يعني يؤثرون تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم ليأخذوا بذلك الرشا وتحصل لهم الرياسة وانما ذكر بلفظ الشراء لانه استبدال الشيء بشيء وقيل فيه اضمار يعني يستبدلون الضلالة بالهدى (ويريدون) يعني اليهود (أن تضلوا السبيل) يعني عن السبيل والمعنى انهم يتوصلون الى اضلال المؤمنين والتلبيس عليهم لكي يجتنبوا الاسلام (والله أعلم باعدائكم) يعني انه سبحانه وتعالى أعلم بكنه ما في قلوب اليهود من العداوة والبغضاء لكم يا معشر المؤمنين فلا تستنصحوهم فانهم أعداؤكم (وكفى بالله وليا) يعني متوليا أمركم والقائم به ومن كان الله تعالى وليه لم يضره أحد (وكفى بالله نصيرا) يعني فهو ينصركم عليهم فثقوا بولايته ونصره وقوله تعالى (من الذين هادوا) قيل هو بيان للذين أوتوا نصيبا من الكتاب والتقدير ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب من الذين هادوا وقيل هو متعلق بما قبله والتقدير وكفى بالله نصيرا من الذين هادوا وقيل هو ابتداء كلام وفيه حذف تقديره من الذين هادوا قوم (يحرفون الكلم) أي يزيلونه ويغيرونه ويبدلونه (عن مواضعه) يعني يغيرون صفة محمد صلى الله عليه وسلم من التوراة وقال ابن عباس كانت اليهود يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسألونه عن الامر فيخبرهم به فيرى انهم يأخذون بقوله فاذا خرجوا من عنده حرفوا كلامه وقيل المراد بالتحريف القاء الشبه الباطلة والتأويلات الفاسدة وهو تحريف اللفظ عن معناه الحق الى معنى باطل (ويقولون سمعنا وعصينا) يعني سمعنا قولك وعصينا أمرك وذلك انهم كانوا اذا أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بأمر قالوا في الظاهر سمعنا وقالوا في الباطن عصينا وقيل انهم كانوا يظهرون ذلك القول عنادا واستخفافا (واسمع غير مسمع) هذه كلمة تحتمل المدح والذم فاما معناها في المدح اسمع غير مسمع مكروها وأما معناها في الذم فانهم

مجاب الى ماتدعو اليه ومعناه غير مسمع جوابا يوافقك فكأنك لم تسمع شيأ أو اسمع غير مسمع كلاما ترضاه فسمعك عنه ناب ويحتمل المدح أي اسمع غير مسمع مكروها من قولك اسمع فلان فلانا اذا سبه وكذلك قوله (وراعنا) يحتمل راعنا نكلمك أي ارقبنا وانتظرنا ويحتمل سبه كلمة عبرانية وسريانية كانوا يتسابون بها وهي راعنا فكانوا سخرية بالدين وهزأ برسول الله صلى الله عليه وسلم يكلمونه بكلام محتمل ينوون به الشتيمة والاهانة ويظهرون به التوقير والاكرام (ليا بألسنتهم) فتلا بها وتحريفا أي يفتلون بألسنتهم الحق الى الباطل حيث يضعون راعنا موضع انظرنا وغير مسمع موضع لا سمعت مكروها أو يفتلون بألسنتهم ما يضمرونه من الشتم الى ما يظهرونه من التوقير نفاقا (وطعنا في الدين) هو قولهم لو كان نبيا حقا لأخبر بما نعتقد فيه (ولو انهم قالوا سمعنا وأطعنا) ولم يقولوا وعصينا (واسمع) ولم يلحقوا به غير مسمع (وانظرنا) مكان راعنا (لكان) قولهم ذاك (خيرا لهم) عند الله (وأقوم) وأعدل وأسد (ولكن لعنهم الله بكفرهم) طردهم وأبعدهم عن رحمته بسبب اختيارهم الكفر (فلا يؤمنون الا قليلا) منهم قد آمنوا كعبد الله بن سلام وأصحابه أو الا ايمانا قليلا ضعيفا لا يعبأ به وهو ايمانهم بمن خلقهم مع كفرهم بغيره ولما لم يؤمنوا نزل (يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا) يعني القرآن (مصدقا لما معكم) يعني التوراة (من قبل ان نطمس وجوها) أي نمحو تخطيط صورها من عين وحاجب وأنف وفم (فنردها على أدبارها) فنجعلها على هيئة أدبارها وهي الاقفاء مطموسة مثلها والفاء للتسبيب وان جعلتها للتعقيب على انهم توعدوا بعقابين أحدهما عقيب الآخر ردها على أدبارها بعد طمسها فالمعنى ان نطمس وجوها فننكس الوجوه الى خلف والاقفاء الى قدام وقيل المراد بالطمس القلب والتغيير كما طمس أموال القبط فقلبها حجارة وبالوجوه رؤسهم ووجهاؤهم أي من قبل ان نغير أحوال وجهائهم فنسلبهم اقبالهم ووجاهتهم

كانوا يقولون اسمع منا ولا نسمع منك وقيل انهم كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم اسمع ثم يقولون في أنفسهم لا سمعت وقيل معناه غير مقبول منك ما تدعو اليه وقيل معناه غير مسمع جوابا يوافقك ولا كلاما ترضيه (وراعنا) أي ويقولون راعنا يريدون بذلك نسبته الى الرعونة وقيل معناه ارعنا سمعك أي اصرف سمعك الى كلامنا وانصت الى قولنا ومثل هذا لا يخاطب به الانبياء بل انما يخاطبون بالاجلال والتعظيم والتبجيل والتفخيم (ليا بألسنتهم وطعنا في الدين) أصله لويا لأنه من لويت الشيء اذا فتلته والمعنى انهم يفتلون الحق فيجعلونه باطلا لأن راعنا من المراعاة فيجعلونه من الرعونة وكانوا يقولون لأصحابهم انما نشتمه ولا يعرف ولو كان نبيا لعرف ذلك فأظهره الله تعالى على خبث ضمائرهم وما في قلوبهم من العداوة والبغضاء ثم قال تعالى (ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا) يعني ولو أنهم قالوا بدل سمعنا وعصينا سمعنا وأطعنا (واسمع) يعني بدل قولهم لا سمعت (وانظرنا) يعني بدل قولهم راعنا أي انظر الينا (لكان خيرا لهم) يعني عند الله (وأقوم) يعني أعدل وأصوب (ولكن لعنهم الله) يعني طردهم وأبعدهم عن رحمته (بكفرهم) يعني بمحمد صلى الله عليه وسلم (فلا يؤمنون الا قليلا) يعني فلا يؤمن من اليهود الا نفر قليل مثل عبد الله بن سلام وأصحابه وقيل أراد بذلك القليل هو اعترافهم بأن الله خلقهم ورزقهم قوله تعالى (يا أيها الذين أوتوا الكتاب) خطاب لليهود (آمنوا بما نزلنا) يعني القرآن (مصدقا لما معكم) يعني التوراة وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم كلم أحبار اليهود عبد الله بن صوريا وكعب بن الاشرف فقال يا معشر اليهود اتقوا الله وأسلموا فوالله انكم لتعلمون ان الذي جئتكم به لحق قالوا ما نعرف ذلك وأصروا على الكفر فأنزل الله هذه الآية وأمرهم بالايمان وقرن بهذا الامر الوعيد الشديد فقال تعالى (من قبل ان نطمس وجوها) أصل الطمس ازالة الأثر بالمحو وذكروا في المراد بالطمس ههنا وجهين أحدهما أن يحمل على حقيقته والثاني أن يحمل على مجازه أما من حمله على الحقيقة فقال هو محو تخطيط صور الوجوه قال ابن عباس يجعلها كخف البعير وقيل نعميها فيكون المراد بالوجه العين (فنردها على أدبارها) يعني نجعلها على هيئة أدبارها وهي الاقفاء وقيل نديرها فنجعل الوجوه الى خلف والاقفاء الى قدام وانما جعل الله هذا عقوبة لهم لما فيه من تشويه الخلقة والمثلة والفضيحة وعند هذا يحصل لهم الغم وتكثر الحسرات فعلى هذا يكون هذا الوعيد مختصا بيوم القيامة وأما من حمل الطمس على المجاز فقال المراد به نطمسها عن الهدى فنردها على أدبارها يعني على ضلالتها وقيل المراد بالطمس طمس القلب والبصيرة فنردها على أدبارها يعني بتغيير أحوالهم فنلبسهم الصغار والذلة بعد العز وقيل المراد بالطمس محو آثارهم من المدينة وردهم الى أذرعات وأريحاء من أرض الشأم من حيث جاؤا وهو اجلاء بني النضير فان قلت قد أوعدهم وهددهم بطمس الوجوه ان لم يؤمنوا ولم يؤمنوا فلم يفعل بهم ذلك قلت هذا الاشكال انما يرد على من فسر الطمس بتغيير الوجوه ومحو تخطيطها وحمله على الحقيقة والجواب عنه ان هذا مشروط بعدم الايمان وقد آمن منهم ناس فرفع عن الباقين وروي ان عبد الله بن سلام لما سمع هذه الآية جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم قبل ان يأتي أهله فأسلم وقال يا رسول الله ما كنت أرى ان أصل اليك حتى يحول

وجهي الى قفاي وكذلك روي عن كعب الاحبار انه لما سمع هذه الآية في خلافة عمر بن الخطاب أسلم وقال يارب أسلمت مخافة أن يصيبني وعيد هذه الآية فكان هذا الوعيد مشروطا بان لا يؤمن أحد منهم وهذا الشرط لم يوجد لانه آمن منهم جمع كثير في زمن النبي صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن سلام وأصحابه ففات الشرط لفوات المشروط وقيل ان الطمس باق في اليهود فيكون فيهم طمس ومسخ قبل يوم القيامة وقيل انه تعالى جعل الوعيد باحد شيئين اما بالطمس أو باللعنة وهو قوله تعالى (أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت) أي نجعلهم قردة كما فعلنا باوائلهم وقيل المراد من لعنهم الطرد والابعاد من الرحمة والكناية في نلعنهم تعود الى المخاطبين في قوله تعالى يا أيها الذين أوتوا الكتاب وهذا على طريقة الالتفات كما في قوله تعالى حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وقد يحتمل أن يكون معناه من قبل أن نطمس وجوها فنردها ونلعن أصحاب الوجوه فتجعل الكناية في قوله أو نلعنهم عن ذكر أصحاب الوجوه اذا كان في الكلام دلالة عليهم ۞ وقوله تعالى (وكان أمر الله مفعولا) يعني لابد وأن يقع بهم ذلك ان لم يؤمنوا فلا راد لحكمه ولا ناقض لامره على معنى انه لا يمتنع عليه شيء يريد أن يفعله وقيل معناه وكان مأمور الله مفعولا والامر هنا في موضع المأمور سمي أمرا لانه عن أمره كان ۞ قوله عز وجل (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) قال ابن جرير الطبري معناه يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا فان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فعلى هذا يكون في الآية دلالة على أن اليهودي يسمى مشركا في عرف الشرع وقيل ان الآية نزلت في وحشي وأصحابه وذلك لما قتل حمزة رضي الله عنه ورجع الى مكة ندم هو وأصحابه فكتبوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم انا قد ندمنا على ما صنعنا وانه ليس يمنعنا عن الاسلام الا أنا سمعناك بمكة تقول والذين لا يدعون مع الله الها آخر الى آخر الآيات وقد دعونا مع الله الها آخر وقتلنا النفس التي حرم الله وزنينا فلولا هذه الآيات لاتبعناك فنزلت الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا الآيتين فبعث بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم فلما قرؤهما كتبوا اليه ان هذا شرط شديد ونخاف أن لا نعمل عملا صالحا فنزلت ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فبعث بها اليهم فبعثوا انا نخاف أن لا نكون من أهل المشيئة فنزلت قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم الآية فبعث بها اليهم فدخلوا في الاسلام ورجعوا الى النبي صلى الله عليه وسلم فقبل منهم ثم قال لوحشي اخبرني كيف قتلت حمزة فلما أخبره قال ويحك غيب وجهك عني فلحق بالشام فكان به الى أن مات وقيل لما نزلت قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم الآية قام رجل فقال يا رسول الله والشرك فسكت ثم قام اليه مرتين أو ثلاثا فنزلت هذه الآية ومعنى الآية ان الله لا يغفر لمشرك مات على شركه ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء يعني ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء من أصحاب الذنوب والآثام ففي الآية دليل على أن صاحب الكبيرة اذا مات من غير توبة فانه في خطر المشيئة ان شاء عفا عنه وأدخله الجنة بمنه وكرمه وان شاء عذبه بالنار ثم أدخله الجنة برحمته واحسانه لان الله تعالى وعد المغفرة لما دون الشرك فان مات على الشرك فهو مخلد في النار لقوله ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وفي الآية رد على المعتزلة والقدرية حيث قالوا لا يجوز في الحكمة أن يغفر لصاحب كبيرة وعند أهل السنة أن الله تعالى يفعل ما يشاء لا مكره له ولا حجر عليه ويدل على ذلك أيضا ما روي عن ابن عمر قال كنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مات الرجل على كبيرة شهدنا انه من أهل النار حتى نزلت هذه الآية ان الله لا يغفر أن

ونكسوهم صغارهم وادبارهم (أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت) أي نخزيهم بالمسخ كما مسخنا أصحاب السبت والضمير يرجع الى الوجوه ان أريد الوجهاء أو الى الذين أوتوا الكتاب على طريقة الالتفات والوعيد كان معلقا بان لا يؤمن كلهم وقد آمن بعضهم فان ابن سلام قد سمع الآية قافلا من الشام فاتى النبي صلى الله عليه وسلم مسلما قبل أن يأتي أهله وقال ما كنت أرى ان أصل الى أهلي قبل أن يطمس الله وجهي ولان الله تعالى أوعدهم باحد الامرين بطمس الوجوه أو بلعنهم فان كان الطمس تبدل أحوال رؤسائهم فقد كان أحد الامرين وان كان غيره فقد حصل اللعن فانهم ملعونون بكل لسان وقيل هو منتظر في اليهود (وكان أمر الله) أي المأمور به وهو العذاب الذي أوعدوا به (مفعولا) كائنا لا محالة فلابد أن يقع أحد الامرين ان لم يؤمنوا (ان الله لا يغفر أن يشرك به) ان مات عليه (ويغفر ما دون ذلك) أي ما دون الشرك وان كان كبيرة مع عدم التوبة والحاصل أن الشرك مغفور عنه بالتوبة وان وعد غفران ما دونه لمن لم يتب أي لا يغفر لمن يشرك وهو مشرك ويغفر لمن يذنب وهو مذنب قال النبي عليه السلام من لقي الله تعالى لا يشرك به شيأ دخل الجنة ولم تضره خطيئته وتقييده بقوله (لمن يشاء) لا يخرجه عن عمومه كقوله الله لطيف بعباده يرزق من يشاء قال علي رضي الله عنه ما في القرآن آية أحب الي من هذه الآية وحمل المعتزلة على التائب باطل لان الكفر معفو عنه بالتوبة لقوله تعالى قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف فما دونه أولى أن يغفر بالتوبة والآية سيقت لبيان التفرقة بينهما واذا فهاذكرنا

يشرك به و يغفر مادون ذلك لمن يشاء فامسكنا عن الشهادة وقال ابن عباس لعمر بن الخطاب يا أمير المؤمنين الرجل يعمل من الصالحات لم يدع من الخير شيأ الا عمله غير انه مشرك قال عمر هو في النار فقال ابن عباس الرجل لم يدع شيأ من الشر الا عمله غير أنه لم يشرك بالله شيأ فقال عمر الله أعلم قال ابن عباس اني لارجو له كما أنه لا ينفع مع الشرك عمل كذلك لا يضر مع التوحيد ذنب فسكت عمر * عن علي بن أبي طالب قال ما في القرآن أحب الي من هذه الآية ان الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر مادون ذلك لمن يشاء أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب (م) عن جابر قال جاء اعرابي الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ما الموجبتان قال من مات لا يشرك بالله شيأ دخل الجنة ومن مات يشرك به دخل النار وقوله تعالى (ومن يشرك بالله) يعني يجعل معه شريكا غيره (فقد افترى) أي اختلق (اثما عظيما) يعني ذنبا عظيما غير مغفور ان مات عليه ۞ قوله عز وجل (ألم تر الى الذين يزكون أنفسهم) نزلت في رجال من اليهود أتوا بأطفالهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد هل على هؤلاء من ذنب قال لا قالوا ما نحن الا كهيئتهم ما عملناه بالنهار يكفر عنا بالليل وما عملناه بالليل يكفر عنا بالنهار فانزل الله تعالى هذه الآية وقيل نزلت في اليهود والنصارى حين قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه وقولهم لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى والتزكية هنا عبارة عن مدح الانسان نفسه بالصلاح والدين ومنه تزكية الشاهد حتى يصير عدلا قال الله تعالى فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى وذلك لان التزكية متعلقة بالتقوى وهي صفة في الباطن فلا يعلم حقيقتها الا الله تعالى فلا تصلح التزكية الا من عند الله تعالى فلهذا قال الله تعالى بل الله يزكي من يشاء و يدخل في هذا المعنى كل من ذكر نفسه بصلاح أو وصفها بزكاء العمل أو بزيادة الطاعة والتقوى أو بزيادة الزلفى عند الله تعالى فهذه الاشياء لا يعلمها الا الله تعالى فلهذا قال فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ومعنى يزكون أنفسهم يزعمون أنهم أزكياء لانهم برؤا أنفسهم من الذنوب قال تعالى ردا عليهم (بل الله يزكي من يشاء) فيجعله زاكيا (ولا يظلمون فتيلا) يعني ان الذين يزكون أنفسهم يعاقبون على تلك التزكية من غير ظلم وقيل معناه ان الذين زكاهم الله لا ينقصون من ثواب طاعتهم شيأ والفتيل المفتول وسمي ما يكون في شق النواة فتيلا لكونه على هيئته وقيل الفتيل هو ما تفتله بين أصابعك من وسخ وغيره و يضرب به المثل في الشيء الحقير الذي لا قيمة له (انظر) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم انظر يا محمد الى هؤلاء اليهود (كيف يفترون على الله الكذب) يعني قولهم انهم لا ذنوب لهم وتزكيتهم أنفسهم (وكفى به) أي بذلك الكذب (اثما مبينا) ۞ قوله عز وجل (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) نزلت في كعب بن الاشرف وسبعين راكبا من اليهود قدموا مكة بعد وقعة أحد ليحالفوا قريشا على النبي صلى الله عليه وسلم و ينقضوا العهد الذي بينهم و بين رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل كعب بن الاشرف على أبي سفيان فأحسن مثواه ونزل باقي اليهود على قريش في دورهم فقال لهم أهل مكة أنتم أهل كتاب ومحمد صاحب كتاب ولا نأمن أن يكون هذا مكرا منكم فان أردتم أن نخرج معكم فاسجدوا الى هذين الصنمين ففعلوا ذلك فذلك قوله تعالى يؤمنون بالجبت والطاغوت ثم قال كعب بن الاشرف لاهل مكة ليجيء منكم ثلاثون رجلا ومنا ثلاثون فلنلزق أكبادنا بالكعبة فنعاهد رب هذا البيت لنجهدن على قتال محمد ففعلوا ثم قال أبو سفيان لكعب بن الاشرف انك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لا نعلم فأينا أهدى سبيلا نحن أم محمد فقال كعب أعرض علي دينكم فقال أبو سفيان نحن ننحر للحجيج الكوماء ونسقيهم الماء ونقري الضيف ونفك العاني ونصل الرحم ونعمر بيت ربنا ونطوف به ونحن أهل الحرم ومحمد فارق دين آبائه وقطع الرحم وفارق الحرم وديننا القديم ودين محمد الحديث فقال كعب أنتم والله أهدى سبيلا مما عليه محمد فانزل الله تعالى ألم تر يعني يا محمد الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يعني كعب بن الاشرف وأصحابه اليهود يؤمنون بالجبت والطاغوت يعني سجودهم

للصنمين

(ومن يشرك بالله فقد افترى اثما عظيما) كذب كذبا عظيما استحق به عذابا أليما ونزل فيمن زكى نفسه من اليهود والنصارى حيث قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى (ألم تر الى الذين يزكون أنفسهم) و يدخل فيها كل من زكى نفسه ووصفها بزكاء العمل وزيادة الطاعة والتقوى (بل الله يزكي من يشاء) اعلام بان تزكية الله هي التي يعتد بها لا تزكية غيره لانه هو العالم بمن هو أهل للتزكية ونحوه فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى (ولا يظلمون) أي الذين يزكون أنفسهم يعاقبون على تزكية أنفسهم حق جزائهم أو من يشاء يثابون على زكائهم ولا ينقص من ثوابهم (فتيلا) قدر فتيل وهو ما يحدث بفتل الاصابع من الوسخ (انظر كيف يفترون على الله الكذب) في زعمهم انهم عند الله ازكياء (وكفى به) بزعمهم هذا (اثما مبينا) من بين سائر آثامهم (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) يعني اليهود (يؤمنون بالجبت) أي الاصنام وكل ما عبدوه من دون الله (والطاغوت) الشيطان

(و يقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) وذلك ان حيي بن أخطب وكعب بن الاشرف اليهوديين خرجا الى مكة مع جماعة من اليهود يحالفون قريشا على محاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا أنتم أهل الكتاب وأنتم الى محمد أقرب منا

للصنمين واختلف العلماء فيهما فقيل الجبت والطاغوت كل معبود دون الله تعالى وقيل هما صنمان كانا لقريش وهما اللذان سجد اليهود لهما لمرضاة قريش وقيل الجبت اسم للاصنام والطاغوت شياطين الاصنام ولكل صنم شيطان يعبر فيها ويكلم الناس فيغترون بذلك وقيل الجبت الكاهن والطاغوت الساحر عن قطن بن قبيصة عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول العيافة والطيرة والطرق من الجبت أخرجه أبو داود وقال الطرق الزجر والعيافة الخط وقيل العيافة هى زجر الطير وذلك ان أهل الجاهلية كان أحدهم اذا خرج لامر زجر طيرا فاذا أخذ ذات اليمين مضى فى حاجته واذا أخذ ذات الشمال رجع فنهوا عن ذلك والطرق هو ضرب الحجارة والحصا على طريق الكهانة فنهوا عنه والطيرة هو أن يتطير بالشئ فيرى الشؤم فيه والشر منه وقيل هو من التطير وهو زجر الطائر والخط هو ضرب الرمل لاستخراج الضمير وقيل الجبت كل ما حرم الله تعالى والطاغوت كل ما يطغى الانسان وقيل الجبت هو حيى بن أخطب والطاغوت كعب بن الاشرف اليهوديان وكانا طاغية اليهود (و يقولون) يعنى كعب بن الاشرف وأصحابه (للذين كفروا) يعنى لكفار قريش (هؤلاء) يعنى أنتم يا هؤلاء (أهدى من الذين آمنوا سبيلا) يعنى طريقا (أولئك الذين لعنهم الله) يعنى كعب بن الاشرف وأصحابه (ومن يلعن الله) يعنى يطرده من رحمته (فلن تجد له نصيرا) يعنى ينصره ۞ قوله تعالى (أم لهم نصيب من الملك) هذا استفهام انكار يعنى ليس لهم من الملك شئ البتة وذلك ان اليهود كانوا يقولون نحن أولى بالملك والنبوة فكيف نتبع العرب فأكذبهم الله تعالى وأبطل دعواهم (فاذا لا يؤتون الناس نقيرا) هذا جواب وجزاء لمضمر تقديره ولئن كان لهم نصيب وحظ من الملك فلا يؤتون الناس منه نقيرا وصفهم بالبخل فى هذه الآية ووصفهم بالجهل فى الآية المتقدمة ووصفهم بالحسد فى الآية الآتية وهذه الخصال كلها مذمومة فكيف يدعون الملك وهى حاصلة فيهم والنقير هو النقطة التى تكون على ظهر النواة ومنها تنبت النخلة ويضرب به المثل فى الشئ الحقير التافه الذى لا قيمة له ۞ قوله عز وجل (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) أصل الحسد تمنى زوال النعمة عمن هو مستحق لها وربما يكون ذلك مع سعى فى زوالها وصف الله اليهود بشر خصلة وهى الحسد والمراد بالناس محمد صلى الله عليه وسلم وحده وانما جاز أن يقع عليه لفظ الجمع وهو واحد لانه صلى الله عليه وسلم اجتمع فيه من خصال الخير والبركة ما لا يجتمع مثله فى جماعة ومن هذا القبيل يقال فلان أمة وحده يعنى انه يقوم مقام أمة وقيل المراد بالناس النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه لان لفظ الناس جمع وحمله على الجمع أولى والمراد بالفضل النبوة لانها أعظم المناصب وأشرف المراتب وقيل حسدوه على ما أحل الله له من النساء وكان له يومئذ تسع نسوة فقالت اليهود لو كان نبيا لشغله أمر النبوة عن الاهتمام بأمر النساء فأكذبهم الله تعالى ورد عليهم بقوله (فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة) يعنى انه قد حصل فى أولاد ابراهيم صلى الله عليه وسلم جماعة كثيرون جمعوا بين الملك والنبوة مثل داود وسليمان عليهما السلام فلم يشغلهم الملك عن أمر النبوة والمعنى كيف يحسدون محمدا صلى الله عليه وسلم على ما آتاه الله من فضله وقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وأنتم لا تحسدونهم والمراد بالكتاب التوراة وبالحكمة النبوة (وآتيناهم ملكا عظيما) يعنى فلم يشغلهم عن النبوة فمن فسر الفضل بكثرة النساء فسر الملك العظيم فى حق داود وسليمان بكثرة النساء فانه كان لداود مائة امرأة ولسليمان ألف امرأة ثلثمائة حرة وسبعمائة سرية ولم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ الا تسع نسوة فلما لم يكن ذلك مستبعدا فى حقهم ولا نقصانا فى نبوتهم فلا يكون مستبعدا فى حق

وهو أقرب منكم الينا فلا نأمن مكركم فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن اليكم ففعلوا فهذا ايمانهم بالجبت والطاغوت لانهم سجدوا للاصنام وأطاعوا ابليس عليه اللعنة فيما فعلوا فقال ابو سفيان أنحن أهدى سبيلا أم محمد فقال كعب أنتم أهدى سبيلا (أولئك الذين لعنهم الله) أبعدهم من رحمته (ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا) يعتمد بنصره ثم وصف اليهود بالبخل والحسد وهما من شر الخصال يمنعون ما لهم ويتمنون ما لغيرهم فقال (أم لهم نصيب من الملك) فأم منقطعة ومعنى الهمزة الانكار أن يكون لهم نصيب من الملك (فاذا لا يؤتون الناس نقيرا) أى لو كان لهم نصيب من الملك أى ملك أهل الدنيا أو ملك الله فاذا لا يؤتون أحدا مقدار نقير لفرط بخلهم والنقير النقرة فى ظهر النواة وهو مثل فى القلة كالفتيل (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) بل يحسدون رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين مع انكار الحسد واستقباحه

وكانوا يحسدونهم على ما آتاهم الله من النصرة والغلبة وازدياد العز والتقدم كل يوم (فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب) أى التوراة (والحكمة) الموعظة والفقه (وآتيناهم ملكا عظيما) يعنى ملك يوسف وداود وسليمان عليهم السلام وهذا الزام لهم بما عرفوه من ايتاء الله الكتاب والحكمة آل ابراهيم الذين هم أسلاف محمد عليه السلام وانه ليس ببدع أن يؤتيه الله مثل ما أوتى أسلافه

محمد صلى الله عليه وسلم ولا نقصا في نبوته (فمنهم) يعني من اليهود (من آمن به) أي بالنبي صلى الله عليه وسلم وما أنزل اليه كعبد الله بن سلام وأصحابه (ومنهم من صد عنه) أي أعرض عنه ولم يؤمن به (وكفى بجهنم سعيرا) يعني وكفى في عذاب من لم يؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم سعيرا ۞ قوله تعالى (ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا) هذا وعيد من الله عز وجل للذين أقاموا على كفرهم وتكذيبهم بما أنزل الله عز وجل على محمد صلى الله عليه وسلم من اليهود وغيرهم من سائر الكفار والمعنى ان الذين جحدوا ما أنزلت على رسولي محمد من آياتي الدالة على توحيدي وصدق رسولي محمد صلى الله عليه وسلم سوف نصليهم نارا أي ندخلهم نارا نشويهم فيها (كلما نضجت جلودهم) يعني احترقت (بدلناهم جلودا غيرها) يعني غير الجلود المحترقة قال ابن عباس يبدلون جلودا بيضا كأمثال القراطيس وروي ان هذه الآية قرئت عند عمر بن الخطاب فقال عمر للقارئ أعدها فأعادها وكان عنده معاذ بن جبل فقال معاذ عندي تفسيرها تبدل في كل ساعة مائة مرة فقال عمر هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكره البغوي بغير سند وقال الحسن تأكلهم النار في كل يوم سبعين ألف مرة (ق) عن أبي هريرة يرفعه ما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع (م) عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرس الكافر أو قال ناب الكافر مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاثة أيام فان قلت كيف تعذب جلود لم تكن في الدنيا ولم تعص قلت يعاد الجلد الاول في كل مرة وانما قال جلودا غيرها لتبديل صفتها كما تقول صغت من خاتمي خاتما غيره فالثاني هو الاول غير ان الصناعة بدلت الصفة وقيل ان العذاب للجملة الحساسة وهي النفس التي عصت فاذا كان كذلك فغير مستحيل ان الله يخلق للكافر في كل ساعة من الجلود ما لا يحصى لتحترق ويصل ألمها اليه وقيل المراد بالجلود السرابيل وهو قوله سرابيلهم من قطران والمعنى كلما نضجت سرابيلهم واحترقت بدلناهم سرابيل من قطران غيرها لان الجلود لو احترقت لفنيت وفي فنائها راحتها وقد أخبر الله عنهم انهم لا يموتون فيها ولا يخفف عنهم من عذابها ولان الجلد أحد أجزاء الجسم فثبت ان التبديل انما هو للسرابيل وقيل يبدل الجلد من نفس الكافر فيخرج من لحمه جلدا وقيل ان الله تعالى يلبس أهل النار جلودا لا تألم لتكون زيادة في عذابهم كلما احترق جلد بدلهم جلدا غيره ۞ وقوله تعالى (ليذوقوا العذاب) أي انما فعلنا بهم ذلك ليجدوا ألم العذاب وكربه وشدته وانما أتى بلفظ الذوق مع ما ينالهم من عظم العذاب الذي نالوه اخبارا بان احساسهم به في كل حال كاحساس الذائق في تجديد وجدان الذوق من غير نقصان في الاحساس (ان الله كان عزيزا) يعني في انتقامه ممن ينتقم من خلقه لا يغلبه شيء ولا يمتنع عليه أحد (حكيما) يعني في تدبيره وقضائه وانه لا يفعل الا ما هو الصواب (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم) يعني سوف ندخلهم يوم القيامة (جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها) يعني باقين فيها (أبدا) يعني ذلك الخلود بغير نهاية ولا انقطاع (لهم فيها) يعني في الجنات (أزواج مطهرة) يعني مطهرات من الحيض والنفاس وسائر أقذار الدنيا (وندخلهم ظلا ظليلا) يعني كنينا ذلك الظل لا تنسخه الشمس ولا يؤذيهم فيه حر ولا برد وذلك الظل هو ظل الجنة فان قلت اذا لم يكن في الجنة شمس يؤذي حرها فما فائدة وصفها بالظل الظليل قلت انما خاطبهم بما يعقلون ويعرفون وذلك لان بلاد العرب في غاية الحرارة فكان الظل عندهم من أعظم أسباب الراحة واللذاذة فهو كقوله ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ۞ قوله عز وجل (ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها) قال البغوي نزلت في عثمان بن طلحة الحجبي من بني عبد الدار وكان سادن الكعبة فلما دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح أغلق عثمان باب البيت وصعد السطح فطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم المفتاح فقيل له انه مع عثمان فطلب منه رسول الله المفتاح فأبى وقال لو علمت انه رسول الله لم امنعه المفتاح فلوى علي بن أبي طالب يده وأخذ منه المفتاح وفتح الباب ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت وصلى فيه ركعتين فلما خرج سأله العباس ان

(فمنهم من آمن به) فمن اليهود من آمن بما ذكر من حديث آل ابراهيم (ومنهم من صد عنه) وأنكره مع علمه بصحته أو من اليهود من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم من أنكر نبوته وأعرض عنه (وكفى بجهنم سعيرا) للصادين (ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم) ندخلهم (نارا كلما نضجت جلودهم) أحرقت (بدلناهم جلودا غيرها) أعدنا تلك الجلود غير محترقة فالتبديل والتغيير لتغاير الهيئتين لا لتغاير الاصلين عند أهل الحق خلافا للكرامية وعن فضيل يجعل النضيج غير نضيج (ليذوقوا العذاب) ليدوم لهم ذوقه ولا ينقطع كقولك للعزيز أعزك الله أي أدامك على عزك (ان الله كان عزيزا) غالبا بالانتقام لا يمتنع عليه شيء مما يريده بالمجرمين (حكيما) فيما يفعل بالكافرين (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة) من الانجاس والحيض والنفاس (وندخلهم ظلا ظليلا) هو صفة مشتقة من لفظ الظل لتأكيد معناه كما يقال ليل أليل وهو ما كان طويلا فينانا لا جوب فيه دائما لا تنسخه الشمس وسجسجا لا حر فيه ولا برد وليس ذلك الا ظل الجنة ثم خاطب الولاة بأداء الامانات والحكم بالعدل بقوله (ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها) وقيل قد

يعطيه

يعطيه المفتاح وان يجمع له بين السقاية والسدانة فانزل الله هذه الآية فامر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا ان يرد المفتاح الى عثمان و يعتذر اليه ففعل ذلك فقال له عثمان أكرهت ثم جئت ترفق فقال على لقد أنزل الله عزوجل فى شأنك قرآ ناوقرأ عليه الآية فقال عثمان أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فاسلم فكان المفتاح معه الى ان مات فدفعه الى أخيه شيبة فالمفتاح والسدانة فى أولادهم الى يوم القيامة قلت وفيما ذكره البغوى رحمه الله من اسلام عثمان بن طلحة يوم الفتح ومنعه المفتاح وقوله لوعلم انه رسول الله لم أمنعه المفتاح نظر والصحيح ماحكاه أبو عمر بن عبد البر وابن منده وابن الاثير ان عثمان بن طلحة هاجر الى المدينة فى هدنة الحديبية سنة ثمان مع خالد بن الوليد ولقيهما عمرو بن العاص مقبلا من عند النجاشى فرافقهما وهاجر معهما فلما رآهم النبى صلى الله عليه وسلم قال رمتكم مكة بأفلاذ كبدها يعنى انهم وجوه أهل مكة فاسلموا وسلم عثمان بن طلحة المفتاح للنبى صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فرده النبى صلى الله عليه وسلم اليه وقال خذوها يابنى طلحة خالدة مخلدة لاينزعها منكم الاظالم ولم يذكروا سؤال العباس السدانة والله أعلم وثبت فى الصحيحين من حديث ابن عمر قال أقبل النبى صلى الله عليه وسلم عام الفتح وهو مردف اسامة على القصواء ومعه بلال وعثمان حتى أناخ عند البيت ثم قال لعثمان ائتنا بالمفتاح فجاءه بالمفتاح ففتح الباب وذكر الحديث وذكر ابن الجوزى فى تفسيرهذه الآية من رواية أبى صالح عن ابن عباس قال ان النبى صلى الله عليه وسلم لمافتح مكة طلب مفتاح البيت من عثمان بن طلحة فذهب ليعطيه اياه فقال العباس بابى أنت وأمى اجمعه لى مع السقاية فكف عثمان يده مخافة أن يعطيه العباس فقال النبى صلى الله عليه وسلم هات المفتاح فاعاد العباس قوله وكف عثمان يده فقال النبى صلى الله عليه وسلم هات المفتاح ان كنت تؤمن بالله واليوم الآخر فقال هاكه يارسول الله بامانة الله فاخذ المفتاح ففتح الباب ونزل جبريل بهذه الآية فدعا عثمان ودفعه اليه ففى هذه الرواية أيضا مايدل على تقدم اسلام عثمان بن طلحة على فتح مكة لان قوله صلى الله عليه وسلم لعثمان ان كنت تؤمن بالله واليوم الآخر يدل على ذلك فعلى هذا القول يكون الخطاب فى قوله ان الله يأمركم للنبى صلى الله عليه وسلم وهو أن الله أمره أن يرد مفتاح البيت الى عثمان بن طلحة وقيل الخطاب فى قوله ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها لولاة أمور المسلمين من الامراء والحكام وغيرهم و يدل على ذلك سياق الآية وهو قوله واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ومعنى الآية ان الله يأمركم ياولاة الامور أن تؤدوا ما ائتمنتم عليه من أمور رعيتكم وأن توفوهم حقوقهم وأن تعدلوا بينهم وقيل ان الآية عامة فى جميع الامانات ولا يمتنع من خصوص السبب عموم الحكم فيدخل فى ذلك جميع الامانات التى يحملها الانسان و ينقسم ذلك الى ثلاثة أقسام القسم الاول رعاية الامانة فى عبادة الله عزوجل وهو فعل المأمورات وترك المنهيات قال ابن مسعود الامانة لازمة فى كل شئ حتى فى الوضوء والغسل من الجنابة والصلاة والزكاة والصوم وسائر أنواع العبادات القسم الثانى هو رعاية الامانة مع نفسه وهو ما أنعم الله به عليه من سائر أعضائه فامانة اللسان حفظه من الكذب والغيبة والنميمة ونحو ذلك وأمانة العين غضها عن المحارم وأمانة السمع أن لايشغله بسماع شئ من اللهو والفحش والاكاذيب ونحوه ثم سائر الاعضاء على نحو ذلك القسم الثالث هو رعاية أمانة العبد مع سائر عباد الله تعالى فيجب عليه رد الودائع والعوارى الى أربابها الذين ائتمنوه عليها ولا يخونهم فيها عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أد الامانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك أخرجه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن غريب و يدخل فى ذلك وفاء الكيل والميزان فلا يطفف فيهما و يدخل فى ذلك أيضا عدل الامراء والملوك فى الرعية ونصح العلماء للعامة فكل هذه الاشياء من الامانة التى أمر الله عزوجل باداءها الى أهلها وروى البغوى بسنده عن أنس قال قلما خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الاقال لاايمان لمن لاأمانة له ولادين لمن لاعهد له وقوله تعالى (واذا حكمتم بين

دخل فى هذا الامر أداء الفرائض التى هى أمانة الله تعالى التى حملها الانسان وحفظ الحواس التى هى ودائع الله تعالى (واذا حكمتم بين

الناس أن تحكموا بالعدل) يعني وان الله يأمركم ان تحكموا بين الناس بالعدل فيجب على الحاكم أن يأخذ الحق ممن وجب عليه لمن وجب له وأصل العدل هو المساواة في الاشياء فكل ماخرج عن الظلم والاعتداء سمي عدلا قال بعض العلماء ينبغي للقاضي ان يسوي بين الخصمين في خمسة أشياء في الدخول عليه والجلوس بين يديه والاقبال عليهما والاستماع منهما والحكم بالحق فيما لهما وعليهما وحاصل الامر فيه أن يكون مقصود الحاكم بحكمه ايصال الحق الى مستحقه وان لايمتزج ذلك بغرض آخر (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب الناس الى الله يوم القيامة وأدناهم عنده مجلسا امام عادل وأبغض الناس الى الله وأبعدهم منه مجلسا امام جائر أخرجه الترمذي ﴿ وقوله تعالى (ان الله نعما يعظكم به) أي نعم الشيء الذي يعظكم به وهو أداء الامانات والحكم بالعدل (ان الله كان سميعا بصيرا) يعني أنه تعالى سميع لما تقولون و بصير بما تفعلون فاذا حكمتم فهو يسمع حكمكم واذا أديتم الامانة فهو يبصر فعلكم

﴿ قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم) (ق) عن ابن عباس قال لما نزل قوله أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم الآية قال نزلت في عبد الله بن حذافة ابن قيس بن عدي السهمي اذ بعثه النبي صلى الله عليه وسلم في سرية وقال السدي نزلت في خالد بن الوليد وذلك انه بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم على سرية وفيها عمار بن ياسر فلما قربوا من القوم هربوا منهم وجاء رجل الى عمار قد أسلم فأمنه عمار فرجع الرجل فجاء خالد فأخذ مال الرجل فقال عمار اني قد أمنته وقد أسلم فقال خالد أتجير علي وأنا الامير فتنازعا وقدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجاز أمان عمار ونهاه ان يجير الثانية على أمير فأنزل الله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم وأصل الطاعة الانقياد وهو امتثال الامر فطاعة الله عز وجل امتثال أمره فيما أمر والانقياد لذلك الامر وطاعة الله واجبة على كافة الخلق وكذا طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم واجبة أيضا لقوله تعالى وأطيعوا الرسول فأوجب طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم على الخلق واختلف العلماء في أولي الامر الذين أوجب الله طاعتهم بقوله وأولي الامر منكم يعني وأطيعوا أولي الامر منكم قال ابن عباس وجابر هم الفقهاء والعلماء الذين يعلمون الناس معالم دينهم وهو قول الحسن والضحاك ومجاهد وقال أبو هريرة الامراء والولاة وهي رواية عن ابن عباس أيضا قال علي بن أبي طالب حق على الامام أن يحكم بما أنزل الله و يؤدي الامانة فاذا فعل ذلك فحق على الرعية أن يسمعوا و يطيعوا (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن يطع الامير فقد أطاعني ومن يعص الامير فقد عصاني (ق) عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب أوكره الا أن يؤمر بمعصية الله فان أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة (خ) عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله وقال ميمون ابن مهران هم أمراء السرايا والبعوث وهي رواية عن ابن عباس أيضا ووجه هذا القول أن الآية نازلة فيهم وقال عكرمة أراد بأولي الامر أبا بكر وعمر لما روي عن حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اني لاأدري مابقائي فيكم فاقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر أخرجه الترمذي وقيل هم جميع الصحابة لما روي عن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم أخرجه رزين في كتابه وروى البغوي بسنده عن الحسن عن أنس قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مثل أصحابي في أمتي كالملح في الطعام لا يصلح الطعام الا بالملح قال الحسن قد ذهب ملحنا فكيف نصلح قال الطبري وأولى

الناس) قضيتم (أن تحكموا بالعدل) بالسوية والانصاف وقيل ان عثمان بن طلحة بن عبد الدار كان سادن الكعبة وقد أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم منه مفتاح الكعبة فلما نزلت الآية أمر عليا رضي الله عنه بان يرده اليه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد أنزل الله في شأنك قرآنا وقرأ عليه الآية فأسلم عثمان فهبط جبريل عليه السلام وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن السدانة في أولاد عثمان أبدا (ان الله نعما يعظكم به) ما نكرة منصوبة موصوفة بيعظكم به كأنه قيل نعم شيأ يعظكم به أو موصولة مرفوعة المحل صلتها مابعدها أي نعم الشيء الذي يعظكم به والمخصوص بالمدح محذوف أي نعما يعظكم به ذلك وهو المأمور به من أداء الامانات والعدل في الحكم و بكسر النون وسكون العين مدني وأبو عمرو و بفتح النون وكسر العين شامي وحمزة وعلي (ان الله كان سميعا) لاقوالكم (بصيرا) باعمالكم ولما أمر الولاة باداء الامانات والحكم بالعدل أمر الناس بان يطيعوهم بقوله (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم) أي الولاة أو العلماء لان أمرهم ينفذ على الامراء

(فان تنازعتم فى شئ) فان اختلفتم أنتم وأولوا الامر فى شئ من أمور الدين (فردوه الى الله والرسول) أى ارجعوا فيه الى الكتاب والسنة (ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) أى ان الايمان يوجب الطاعة دون العصيان ودلت الآية على ان طاعة الامراء واجبة اذا وافقوا الحق فاذا خالفوه فلا طاعة لهم لقوله عليه السلام لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق وحكى ان مسلمة بن عبد الملك بن مروان قال لابى حازم ألستم أمرتم بطاعتنا بقوله وأولى الامر منكم فقال أبو حازم أليس قد نزعت الطاعة عنكم اذا

خالفتم الحق بقوله فان تنازعتم فى شئ فردوه الى الله أى القرآن والرسول فى حياته والى أحاديثه بعد وفاته (ذلك) اشارة الى الردأى الرد الى الكتاب والسنة (خير) عاجلا (وأحسن تأويلا) عاقبة كان بين بشر المنافق و يهودى خصومة فدعاه اليهودى الى النبى صلى الله عليه وسلم لعلمه أنه لا يرتشى ودعاه المنافق الى كعب بن الاشرف ليرشوه فاحتكما الى النبى عليه السلام فقضى لليهودى فلم يرض المنافق وقال تعال نتحاكم الى عمر فقال اليهودى لعمر رضى الله عنه قضى لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرض بقضائه فقال عمر للمنافق أكذلك قال نعم فقال عمر مكانكما حتى أخرج اليكما فدخل عمر فأخذ سيفه ثم خرج فضرب به عنق المنافق فقال هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله و رسوله فنزل (ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك) وقال جبريل عليه السلام ان عمر فرق بين الحق والباطل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت الفاروق (يريدون) حال من الضمير فى يزعمون (أن يتحاكموا الى الطاغوت) أى كعب بن الاشرف سماه الله طاغوتا لافراطه فى الطغيان وعداوة رسول الله عليه السلام أو على التشبيه بالشيطان أو جعل اختيار التحاكم الى غير رسول الله صلى الله عليه وسلم على التحاكم اليه تحاكما الى الشيطان بدليل قوله (وقد أمروا أن يكفروا به

الاقوال بالصواب قول من قال هم الامراء والولاة لصحة الاخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالامر بطاعة الائمة والولاة فيما كان لله عز وجل طاعة وللمسلمين مصلحة وقال الزجاج وجملة أولى الامر من يقوم بشأن المسلمين فى أمر دينهم وجميع ما أدى اليه صلاحهم قال العلماء طاعة الامام واجبة على الرعية ما دام على الطاعة فاذا زال عن الكتاب والسنة فلا طاعة له وانما تجب طاعته فيما وافق الحق ۞ وقوله تعالى (فان تنازعتم فى شئ) يعنى اختلفتم فى شئ من أمر دينكم والتنازع اختلاف الآراء وأصله من انتزاع الحجة وهو ان كل واحد من المتنازعين ينزع الحجة لنفسه (فردوه الى الله والرسول) أى ردوا ذلك الامر الذى تنازعتم فيه الى كتاب الله عز وجل والى رسوله صلى الله عليه وسلم ما دام حيا و بعد وفاته فردوه الى سنته والرد الى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم واجب فان وجد ذلك الحكم فى كتاب الله أخذ به فان لم يوجد فى كتاب الله ففى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم فان لم يوجد فى السنة فسبيله الاجتهاد وقيل الرد الى الله ورسوله أن يقول لما لا يعلم الله ورسوله اعلم (ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) يعنى افعلوا ذلك الذى أمرتكم به ان كنتم تؤمنون بالله وان طاعته واجبة عليكم وتؤمنون بالمعاد الذى فيه جزاء الاعمال قال العلماء فى الآية دليل على ان من لا يعتقد وجوب طاعة الله وطاعة الرسول ومتابعة السنة والحكم بالاحاديث الواردة عن النبى صلى الله عليه وسلم لا يكون مؤمنا بالله واليوم الآخر (ذلك خير) يعنى رد الحكم الى الله ورسوله خير (وأحسن تأويلا) يعنى وأحمد عاقبة وقيل معناه ذلك أى ردكم ما اختلفتم فيه الى الله ورسوله أحسن تأويلا منكم له وأعظم أجرا ۞ قوله عز وجل (ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به) قال ابن عباس نزلت فى رجل من المنافقين يقال له بشر كان بينه و بين يهودى خصومة فقال اليهودى ننطلق الى محمد وقال المنافق بل ننطلق الى كعب بن الاشرف وهو الذى سماه الله الطاغوت فابى اليهودى أن يخاصمه الا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأى المنافق ذلك أتى معه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لليهودى فلما خرج من عنده لزمه المنافق وقال انطلق بنا الى عمر فاتيا عمر فقال اليهودى اختصمت أنا وهذا الى محمد فقضى لى عليه فلم يرض بقضائه وزعم انه مخاصمى اليك فقال عمر للمنافق أكذلك قال نعم فقال لهما عمر رويدا حتى أخرج اليكما فدخل عمر البيت وأخذ السيف واشتمل عليه ثم خرج فضرب به المنافق حتى برد وقال هكذا أقضى بين من لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله فنزلت هذه الآية وقال جبريل ان عمر فرق بين الحق والباطل فسمى الفاروق وقال السدى كان ناس من اليهود قد أسلموا ونافق بعضهم وكانت قريظة والنضير فى الجاهلية وكانت قريظة حلفاء الخزرج والنضير حلفاء الاوس وكان اذا قتل رجل من بنى قريظة رجلا من بنى النضير قتل به وأخذت ديته مائة وسق من تمر واذا قتل رجل من بنى النضير رجلا من قريظة لم يقتل به وأعطى ديته ستين وسقا فلما جاء الاسلام وهاجر النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة قتل رجل من النضير رجلا من قريظة فاختصموا فى ذلك فقال بنو النضير كنا وأنتم قد اصطلحنا على أن نقتل منكم ولا تقتلوا منا وديتنا مائة وسق وديتكم ستون وسقا فنحن نعطيكم ذلك فقالت الخزرج هذا شئ كنتم فعلتموه

فى الجاهلية أكثر منكم وقلتنا فقهرتمونا على ذلك فاليوم نحن اخوة فى الدين فلا فضل لكم علينا فقال المنافقون منهم ننطلق الى أبى بردة الكاهن الاسلمى وقال المسلمون من الفريقين بل ننطلق الى النبى صلى الله عليه وسلم فأبى المنافقون وانطلقوا الى أبى بردة الكاهن ليحكم بينهم فقال أعظموا اللقمة يعنى الخطر فقالوا لك عشرة أوسق فقال لا بل مائة وسق ديتى فأبوا أن يعطوه الا عشرة أوسق وأبى أن يحكم بينهم فأنزل الله عز وجل آيتى القصاص وأنزل هذه الآية ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك الزعم والزعم بضم الزاى وفتحها لغتان وأكثر ما يستعمل الزعم بمعنى القول الذى لا يتحقق وقيل هو حكاية قول يكون مظنة للكذب ولذلك قيل زعم مطية الكذب والمراد به فى هذه الآية الكذب لان الآية نازلة فى المنافقين وظاهر الآية يدل على انها نازلة فى الذين نافقوا من مؤمنى أهل الكتاب ويدل عليه قوله آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت يعنى كعب بن الاشرف فى قول ابن عباس سماه الله طاغوتا لافراطه فى الطغيان وعداوته رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل هو أبو بردة الكاهن فى قول السدى وقد أمروا أن يكفروا به يعنى بالطاغوت لان الكفر بالطاغوت ايمان بالله عز وجل (ويريد الشيطان أن يضلهم) يعنى عن طريق الهدى والحق (ضلالا بعيدا واذا قيل لهم) يعنى للمنافقين (تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول) يعنى هلموا الى حكم الله الذى أنزله فى كتابه والى الرسول ليحكم بينكم به (رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا) يعنى يعرضون عنك وعن حكمك اعراضا وأى اعراض وانما أعرض المنافقون عن حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم لانهم علموا انه صلى الله عليه وسلم كان يحكم بينهم بالحق الصريح ولا يقبل الرشا ۞ قوله عز وجل (فكيف اذا أصابتهم مصيبة) يعنى فكيف حال هؤلاء المنافقين وكيف يصنعون اذا أصابتهم مصيبة يعجزون عنها (بما قدمت أيديهم) يعنى تصيبهم عقوبة بسبب ما قدمت أيديهم وهو التحاكم الى غير رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا وعيد لهم على سوء صنيعهم ورضاهم بحكم الطاغوت دون حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل المصيبة هى قتل عمر لذلك المنافق وقيل هى كل مصيبة تصيب المنافقين فى الدنيا والآخرة (ثم جاؤك) يعنى المنافقين حين تصيبهم المصائب يعتذرون اليك (يحلفون بالله ان أردنا) أى ما أردنا بتحاكمنا الى غيرك (الا احسانا) يعنى فى التحاكم الى غيرك لا اساءة (وتوفيقا) يعنى بين الخصمين لا مخالفة لك فى حكمك وقيل جاء أولياء المنافق الذى قتله عمر يطلبون ديته وقالوا ما أردنا بالتحاكم الى عمر الا أن يحسن الى صاحبنا فى حكمه ويوفق بينه وبين خصمه وما خطر ببالنا انه يحكم بما حكم به من قتل صاحبنا فأهدر الله دم ذلك المنافق (أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم) يعنى من النفاق (فأعرض عنهم) يعنى عن عقوبتهم وقيل عن قبول عذرهم (وعظهم) يعنى باللسان والمراد زجرهم بالوعظ عن النفاق والكفر والكذب وتخويفهم بعذاب الآخرة (وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا) يعنى بليغا يؤثر فى قلوبهم موقعه وهو التخويف بالله عز وجل وقيل هو ان يوعدهم بالقتل ان لم يتوبوا من النفاق وقيل هو أن يقول لهم ان أظهرتم ما فى قلوبكم من النفاق قتلتم لان هذا القول يبلغ فى نفوسهم كل مبلغ وقيل معناه فأعرض عنهم فى الملا وقل لهم فى أنفسهم اذا خلوت بهم قولا بليغا أى اغلظ لهم فى القول خاليا بهم ليس معهم غيرهم مسارا لهم بالنصيحة لانها فى السر أنجع وقيل هذا الاعراض منسوخ بآية القتال وقد تكلم العلماء فى حد البلاغة فقال بعضهم البلاغة ايصال المعنى الى الفهم فى أحسن صورة من اللفظ وقيل البلاغة حسن العبارة مع صحة المعنى وقيل البلاغة سرعة الايجاز مع الافهام وحسن التصرف من غير اضجار وقيل أحسن الكلام ما قلت ألفاظه وكثرت معانيه وقيل خير الكلام ما شوق أوله الى سماع آخره وقيل لا يستحق الكلام اسم البلاغة الا اذا طابق لفظه معناه ومعناه لفظه ولم يكن لفظه الى السمع أسبق من معناه الى القلب وقيل المراد بالقول البليغ فى الآية أن يكون حسن

و يريد الشيطان أن يضلهم) عن الحق (ضلالا بعيدا) مستمرا الى الموت (واذا قيل لهم) للمنافقين (تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول) للتحاكم (رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا) يعرضون عنك الى غيرك ليغروه بالرشوة فيقضى لهم (فكيف) يكون حالهم وكيف يصنعون (اذا أصابتهم مصيبة) من قتل عمر بشرا (بما قدمت أيديهم) من التحاكم الى غيرك واتهامهم لك فى الحكم (ثم جاؤك) أى أصحاب القتيل من المنافقين (يحلفون بالله) حال (ان أردنا) ما أردنا بتحاكمنا الى غيرك (الا احسانا) لا اساءة (وتوفيقا) بين الخصمين ولم نرد مخالفة لك ولا تسخطا لحكمك وهذا وعيد لهم على فعلهم وانهم سيندمون عليه حين لا ينفعهم الندم ولا يغنى عنهم الاعتذار وقيل جاء أولياء المنافق يطلبون بدمه وقد أهدره الله فقالوا ما أردنا بالتحاكم الى عمر الا أن يحسن الى صاحبنا بحكومة العدل والتوفيق بينه وبين خصمه وما خطر ببالنا انه يحكم له بما حكم به (أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم) من النفاق (فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا) فأعرض عن قبول الاعتذار وعظا بالزجر والانكار و بالغ فى وعظهم بالتخويف والانذار أو أعرض عن عقابهم وعظهم فى عتابهم و بلغ كنه ما فى ضميرك من الوعظ بارتكابهم الالفاظ والبلاغة أن يبلغ بلسانه كنه ما فى جنانه وفى أنفسهم يتعلق بقل لهم أى قل لهم فى معنى أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المطوية على النفاق قولا بليغا

يبلغ منهم ويؤثر فيهم (وما أرسلنا من رسول) أي رسولا قط (الا ليطاع باذن الله) بتوفيقه في طاعته وتيسيره أو بسبب اذن الله في طاعته وبانه أمر المبعوث اليهم بان يطيعوه لانه مؤد عن الله فطاعته طاعة الله ومن يطع الرسول فقد أطاع الله (ولو انهم اذ ظلموا أنفسهم) بالتحاكم الى الطاغوت (جاؤك) تائبين من النفاق معتذرين عما ارتكبوا من الشقاق (فاستغفروا الله) من النفاق والشقاق (واستغفر لهم الرسول) بالشفاعة لهم والعامل في اذ ظلموا خبر ان وهو جاؤك والمعنى ولو وقع مجيئهم في وقت ظلمهم مع استغفارهم واستغفار الرسول (لوجدوا الله توابا) لعلموه توابا أي لتاب عليهم ولم يقل واستغفرت لهم وعدل عنه الى طريقة الالتفات تفخيما لشأنه صلى الله عليه وسلم وتعظيما لاستغفاره وتنبيها على ان شفاعة من اسمه الرسول من الله بمكان (رحيما) بهم قيل جاء اعرابي بعد دفنه عليه السلام فرمى بنفسه على قبره وحثا من ترابه على رأسه وقال يا رسول الله قلت فسمعنا وكان فيما أنزل عليك ولو انهم اذ ظلموا أنفسهم الآية وقد ظلمت نفسي وجئتك أستغفر الله من ذنبي فاستغفر لي من ربي فنودي من قبره قد غفر لك (فلا وربك) أي فوربك كقوله فوربك لنسألنهم ولا مزيدة لتأكيد معنى القسم وجواب القسم (لا يؤمنون) أو التقدير فلا أي ليس الامر كما يقولون ثم قال وربك لا يؤمنون (حتى يحكموك فيما شجر بينهم) فيما اختلف بينهم واختلط ومنه الشجر لتداخل أغصانه

الالفاظ حسن المعاني مشتملا على الترغيب والترهيب والاعذار والانذار والوعد والوعيد بالثواب والعقاب فان الكلام اذا كان كذلك عظم وقعه في القلوب وأثر في النفوس ۞ قوله تعالى (وما أرسلنا من رسول) قال الزجاج لفظة من هنا صلة مؤكدة والمعنى وما أرسلنا رسولا (الا ليطاع باذن الله) يعني بامر الله والمعنى انما وجبت طاعة الرسول بامر الله لان الله أذن في ذلك وأمر به وقيل معناه بعلم الله وقضائه أي طاعته تكون باذن الله لانه اذن فيه فتكون طاعة الرسول طاعة الله ومعصيته معصية الله والمعنى وما أرسلنا من رسول الا فرضت طاعته على من أرسلته اليهم وأنت يا محمد من الرسل الذين فرضت طاعتهم على من أرسلوا اليهم ففيه توبيخ وتقريع للمنافقين الذين تركوا حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضوا بحكم الطاغوت (ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم) يعني الذين تحاكموا الى الطاغوت ظلموا أنفسهم بالتحاكم اليه (جاؤك) يعني جاؤك تائبين من النفاق والتحاكم الى الطاغوت متنصلين مما ارتكبوا من المخالفة (فاستغفروا الله) يعني من ذلك الذنب بالاخلاص وبالغوا في الاعتذار اليك من ايذائك برد حكمك والتحاكم الى غيرك (واستغفر لهم الرسول) يعني من مخالفته والتحاكم الى غيره وانما قال واستغفر لهم الرسول ولم يقل واستغفرت لهم اجلالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتفخيما له وتعظيما لاستغفاره وانهم اذا جاؤك فقد جاؤا من خصه الله برسالته وجعله سفيرا بينه وبين خلقه ومن كان كذلك فان الله تعالى لا يرد شفاعته فلهذا السبب عدل الى طريقة الالتفات من لفظ الخطاب الى لفظ الغيبة (لوجدوا الله توابا رحيما) يعني لو انهم تابوا من ذنوبهم ونفاقهم واستغفرت لهم لعلموا ان الله يتوب عليهم ويتجاوز عنهم ويرحمهم ۞ قوله عز وجل (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) نزلت هذه الآية في الزبير بن العوام ورجل من الانصار (ق) عن عروة بن الزبير عن أبيه ان رجلا من الانصار خاصم الزبير في شراج الحرة التي يسقون بها النخل فقال الانصاري سرح الماء يمر فأبى عليه فاختصما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير اسق يا زبير ثم أرسل الى جارك فغضب الانصاري ثم قال يا رسول الله أن كان ابن عمتك فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال للزبير اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع الى الجدر فقال الزبير والله اني لاحسب هذه الآية نزلت في ذلك فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم زاد البخاري فاستوعى رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ للزبير حقه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك قد أشار على الزبير رأيا أراد سعة له وللانصاري فلما أحفظ الانصاري رسول الله صلى الله عليه وسلم استوعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير حقه في صريح الحكم قال الزبير والله ما أحسب هذه الآية نزلت الا في ذلك

۞ قوله في شراج الحرة الشراج مسايل الماء التي تكون من الجبل وتنزل الى السهل الواحدة شرجة بسكون الراء والحرة الارض الحجراء الملتبسة بالحجارة السود وقوله فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني تغير وقوله فلما أحفظ أي أغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله حتى يرجع الى الجدر هو بفتح الجيم يعني أصل الجدار وقوله فاستوعى له أي استوفى حقه في صريح الحكم وهو ان من كان أرضه أقرب الى فم الوادي فهو أولى باول الوادي وحقه تمام السقي فرسول الله صلى الله عليه وسلم أذن للزبير في السقي على وجه المسامحة فلما أبى خصمه ذلك ولم يعترف بما أشار به رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسامحة لاجله أمر الزبير باستيفاء حقه على التمام وحمل خصمه على مر الحق فعلى هذا القول تكون الآية مستأنفة لا تعلق لها بما قبلها قال البغوي وروى انهما لما خرجا مرا على المقداد فقال لمن كان القضاء فقال الانصاري لابن عمته ولوى شدقه ففطن له يهودي كان مع المقداد فقال قاتل الله هؤلاء يشهدون انه رسول الله ثم يتهمونه في قضاء

يقضي بينهم وايم الله لقد أذنبنا ذنبا مرة في حياة موسى فدعا موسى الى التوبة منه فقال فاقتلوا أنفسكم ففعلنا فبلغ قتلانا سبعين ألفا في طاعة ربنا حتى رضي عنا فقال ثابت بن قيس بن شماس أما والله ان الله ليعلم مني الصدق ولو أمرني محمد ان أقتل نفسي لفعلت وقال مجاهد والشعبي نزلت هذه الآية في بشر المنافق واليهودي الذين اختصما الى الطاغوت وعلى هذا القول تكون الآية متصلة بما قبلها فلا وربك معناه فوربك فعلى هذا تكون لا مزيدة لتأكيد معنى القسم وقيل ان لا رد لكلام سبق كأنه قال ليس الامر كما يزعمون انهم آمنوا وهم يخالفون حكمك ثم استأنف القسم فقال تعالى فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم يعني فيما اختلفوا فيه من الامور وأشكل عليهم حكمه وقيل فيما التبس عليهم يقال شاجره في الامر اذا نازعه فيه وأصله التداخل والاختلاط وشجر الكلام اذا دخل بعضه في بعض واختلط (ثم لايجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت) يعني ضيقا مما قضيت وقيل شكا فيما قضيت بل يرضوا بقضائك (ويسلموا تسليما) يعني وينقادوا لامرك انقيادا ولا يعارضونك في شيء من أمرك وقيل معناه يسلموا ما تنازعوا فيه لحكمك ۞ قوله عز وجل (ولو أنا كتبنا عليهم) أي فرضنا وأوجبنا عليهم الضمير في عليهم يعود على المنافقين وقيل يعود الضمير على الكافة فيدخل فيه المنافق وغيره (ان اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم) يعني كما كتبنا على بني اسرائيل القتل والخروج من مصر (ما فعلوه الا قليل منهم) معناه لم يفعله الا القليل منهم نزلت في ثابت بن قيس بن شماس وذلك ان رجلا من اليهود قال والله لقد كتب الله علينا القتل والخروج ففعلنا فقال ثابت والله لو كتب الله علينا ذلك لفعلنا وهو من القليل الذي استثنى الله وقيل لما نزلت هذه الآية قال عمر وعمار بن ياسر وابن مسعود وناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم القليل الذين ذكرهم الله والله لو أمرنا لفعلنا والحمد لله الذي عافانا فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان من أمتي لرجالا الايمان في قلوبهم أثبت من الجبال الرواسي ومن قال ان الضمير في عليهم يعود الى المنافقين قال معنى ما فعلوه الا قليل منهم يعني رياء وسمعة والمعنى انما كتبنا عليهم الا طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم والرضا بحكمه ولو أنا كتبنا عليهم القتل والخروج من الدور والوطن ما كان فعله الا نفر يسير منهم وقرئ الا قليلا منهم بالنصب وتقديره الا أن يكون قليلا منهم (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به) يعني ولو أنهم فعلوا ما كلفوا به من طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم والرضا بحكمه (لكان خيرا لهم) يعني في الدنيا والآخرة وانما سمى ذلك التكليف وعظا لان أوامر الله تعالى وتكاليفه مقرونة بالوعد والوعيد والثواب والعقاب وما كان كذلك يسمى وعظا (وأشد تثبيتا) يعني تحقيقا وتصديقا لايمانهم والمعنى ان ذلك أقرب الى ثبات ايمانهم وتصديقهم (واذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما) يعني ثوابا وافرا جزيلا واذا جواب لسؤال مقدر كأنه قيل ماذا يكون من هذا الخير والتثبيت قال هو ان نؤتيهم من لدنا أجرا عظيما (ولهديناهم صراطا مستقيما) قال ابن عباس معناه ولارشدناهم الى دين مستقيم يعني دين الاسلام وقيل معناه ولهديناهم الى الاعمال الصالحة التي تؤدي الى الصراط المستقيم وهو الصراط الذي يمر عليه المؤمنون الى الجنة لان الله تعالى ذكر الاجر العظيم أولا ثم ذكر الصراط المستقيم بعده لانه هو المؤدي الى الجنة ۞ قوله عز وجل (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم) الآية نزلت في ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم قليل الصبر عنه فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه يعرف الحزن في وجهه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما غير لونك فقال يا رسول الله ما بي مرض ولا وجع غير اني اذا لم أرك استوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك ثم اني اذا ذكرت الآخرة أخاف لا أراك لانك ترفع الى عليين مع النبيين واني أخاف ان دخلت الجنة كنت في منزلة هي أدنى من منزلتك وان لم أدخل الجنة لا أراك أبدا فنزلت هذه الآية وقيل ان بعض أصحاب النبي صلى الله

يلوح له اليقين (ويسلموا تسليما) وينقادوا لقضائك انقيادا وحقيقته سلم نفسه له وأسلمها أي جعلها سالمة له أي خالصة وتسليما مصدر مؤكد للفعل بمنزلة تكريره كأنه قيل وينقادوا لحكمك انقياد الاشبهة فيه بظاهرهم وباطنهم والمعنى لا يكونوا مؤمنين حتى يرضوا بحكمك وقضائك (ولو أنا كتبنا عليهم) على المنافقين أي ولو وقع كتبنا عليهم (أن اقتلوا) ان هي المفسرة (أنفسكم) أي تعرضوا للقتل بالجهاد أو ولو أوجبنا عليهم مثل ما أوجبنا على بني اسرائيل من قتلهم أنفسهم (أو اخرجوا من دياركم) بالهجرة (ما فعلوه) لنفاقهم والهاء ضمير أحد مصدري الفعلين وهو القتل أو بالخروج أو ضمير المكتوب لدلالة كتبنا عليه (الا قليل منهم) قليلا شامي على الاستثناء والرفع على البدل من واو فعلوه (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به) من اتباع رسول الله عليه السلام والانقياد لحكمه (لكان خيرا لهم) في الدارين (وأشد تثبيتا) لايمانهم وأبعد عن الاضطراب فيه (واذا) جواب لسؤال مقدر كأنه قيل وماذا يكون لهم بعد التثبيت فقيل واذا لو ثبتوا (لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما) أي ثوابا كثيرا لا ينقطع (ولهديناهم صراطا) مفعول ثان (مستقيما) أي لثبتناهم على الدين الحق (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم

عليه

من النبيين والصديقين) كأفاضل صحابة الانبياء والصديق المبالغ في صدق ظاهره بالمعاملة وباطنه بالمراقبة أو الذي يصدق قوله بفعله (والشهداء) والذين استشهدوا في سبيل الله (والصالحين) ومن صلحت أحوالهم وحسنت أعمالهم (وحسن أولئك رفيقا) أي وما أحسن أولئك رفيقا وهو كالصديق والخليط في استواء الواحد والجمع فيه (ذلك) مبتدأ

خبره (الفضل من الله) أو الفضل صفته

عليه وسلم قال كيف يكون الحال وأنت يا رسول الله في الدرجات العلى ونحن أسفل منك فكيف نراك فأنزل الله تعالى هذه الآية ومن يطع الله يعني في أداء الفرائض واجتناب النواهي والرسول أي ويطع الرسول في السنن التي سنها فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم يعني بالهداية والتوفيق في الدنيا وبدخول الجنة في الآخرة (من النبيين) يعني أن المطيعين مع النبيين في الجنة لا تفوتهم رؤية الانبياء في الجنة ومجالستهم لأنهم يكونون في درجتهم في الجنة لان ذلك يقتضي التسوية في الدرجة بين الفاضل والمفضول (والصديقين) الصديق الكثير الصدق فعيل من الصدق والصديقون هم أتباع الرسل الذين اتبعوهم على مناهجهم بعدهم حتى لحقوا بهم وقيل الصديق هو الذي صدق بكل الدين حتى لا يخالطه فيه شك والمراد بالصديقين في هذه الآية أفاضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كأبي بكر فانه هو الذي سمي بالصديق من هذه الامة وهو أفضل اتباع الرسل (والشهداء) هم الذين استشهدوا في سبيل الله وقيل هم الذين استشهدوا يوم أحد (والصالحين) جمع صالح وهو الذي استوت سريرته وعلانيته في الخير وقيل الصالح من اعتقاده صواب وعمله في سنة وطاعة وقيل المراد بالنبيين هنا محمد صلى الله عليه وسلم وبالصديقين أبو بكر وبالشهداء عمر وعثمان وعلي وبالصالحين سائر الصحابة (وحسن أولئك) يعني المشار اليهم وهم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون وفيه معنى التعجب كأنه قال وما أحسن أولئك (رفيقا) يعني في الجنة والرفيق الصاحب سمي رفيقا لارتفاقك به وبصحبته وانما وحد الرفيق وهو صفة الجمع لان العرب تعبر به عن الواحد والجمع وقيل معناه وحسن كل واحد من أولئك رفيقا (ق) عن أنس ان رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة فقال متى الساعة قال وما أعددت لها قال لا شيء الا أني أحب الله ورسوله فقال أنت مع من أحببت قال أنس فما فرحنا بشيء أشد فرحا بقول النبي صلى الله عليه وسلم أنت مع من أحببت قال أنس فأنا أحب النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي اياهم وان لم أعمل بأعمالهم ۞ وقوله تعالى (ذلك) اشارة الى ما تقدم ذكره من وصف الثواب (الفضل من الله) يعني الذي أعطى الله المطيعين من الاجر العظيم (وكفى بالله عليما) يعني بجزاء من أطاعه وقيل معناه وكفى بالله عليما بعباده فهو يوفقهم لطاعته وفيه دليل على انهم لم ينالوا تلك الدرجة بطاعتهم بل انما نالوها بفضل الله تعالى ورحمته ويدل عليه ما روي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يدخل أحدا منكم عمله الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا الا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة لفظ البخاري ولمسلم نحوه ۞ قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم) الحذر احتراز من مخوف والمعنى احذروا واحترزوا من عدوكم ولا تمكنوه من أنفسكم وقيل المراد بالحذر هنا السلاح يعني خذوا سلاحكم وعدتكم لقتال عدوكم وانما سمي السلاح حذرا لان به يتقى ويحذر وقيل معناه احذروا عدوكم ولقائل أن يقول اذا كان المقدور كائنا فما ينفع الحذر فالجواب عنه بأنه لما كان الكل بقضاء الله وقدره كان الامر بأخذ الحذر من قضاء الله وقدره (فانفروا ثبات) أي اخرجوا سرايا متفرقين سرية بعد سرية (أو انفروا جميعا) يعني أو اخرجوا جميعا كلكم مع نبيكم صلى الله عليه وسلم الى جهاد عدوكم (وان منكم لمن ليبطئن) نزلت في المنافقين وانما قال منكم لاجتماعهم مع أهل الايمان في الجنسية والنسب واظهار كلمة الاسلام لا في حقيقة الايمان والمعنى وان منكم لمن ليتأخرن وليتثاقلن

ومن الله خبره والمعنى ان ما أعطى المطيعون من الاجر العظيم ومرافقة المنعم عليهم من الله لانه تفضل به عليهم أو أراد أن فضل المنعم عليهم ومرتبتهم من الله (وكفى بالله عليما) بعباده وبمن هو أهل الفضل ودلت الآية على ان ما يفعل الله بعباده فهو فضل منه بخلاف ما يقوله المعتزله (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم) الحذر والحذر بمعنى وهو التحرز وهما كالاثر والاثر يقال أخذ حذره اذا تيقظوا احترز من الخوف كأنه جعل الحذر آلته التي يقي بها نفسه ويعصم بها روحه والمعنى احذروا واحترزوا من العدو (فانفروا ثبات) فاخرجوا الى العدو جماعات متفرقة سرية بعد سرية فالثبات الجماعات واحدها ثبة (أو انفروا جميعا) أي مجتمعين أو مع النبي عليه السلام لان الجمع بدون السمع لا يتم والعقد بدون الواسطة لا ينتظم أو انفروا ثبات اذا لم يعم النفير أو انفروا جميعا اذا عم النفير

وثبات حال وكذا جميعا واللام في (وان منكم لمن) للابتداء بمنزلتها في ان الله لغفور ومن موصولة وفي (ليبطئن) جواب قسم محذوف تقديره وان منكم لمن أقسم بالله ليبطئن والقسم وجوابه صلة من والضمير الراجع منها اليه ما استكن في ليبطئن أي ليتثاقلن وليتخلفن عن الجهاد وبطؤ بمعنى أبطأ أي تأخر ويقال ما بطؤ بك فيتعدى بالباء والخطاب لعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله منكم أي في الظاهر دون الباطن المنافقين يقولون لم تقتلون أنفسكم تأنوا حتى يظهر الامر

(فان أصابتكم مصيبة) قتل أو هزيمة (قال) المبطئ (قد أنعم الله علي اذ لم أكن معهم شهيدا) حاضرا فيصيبني مثل ما أصابهم (ولئن أصابكم فضل من الله) فتح أو غنيمة (ليقولن) هذا المبطئ متلهفا على ما فاته من الغنيمة لا طلبا للمثوبة (كأن) مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي كأنه (لم يكن) وبالتاء مكي وحفص (بينكم وبينه مودة) وهي اعتراض بين الفعل وهو ليقولن وبين مفعوله وهو (ياليتني كنت معهم) والمعنى كأن لم يتقدم له معكم موادة لان المنافقين كانوا يوادون المؤمنين في الظاهر وان كانوا يبغون لهم الغوائل في الباطن (فأفوز) بالنصب لانه جواب التمني (فوزا عظيما) فآخذ من الغنيمة حظا وافرا (فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون) يبيعون (الحياة

(الحياة الدنيا بالآخرة) والمراد المؤمنون الذين يستحبون الحياة الآجلة على العاجلة ويستبدلونها بها أي ان صد الذين مرضت قلوبهم وضعفت نياتهم عن القتال فليقاتل الثابتون المخلصون أو يشترون والمراد المنافقون الذين يشترون الحياة الدنيا بالآخرة وعظوا بان يغيروا ما بهم من النفاق ويخلصوا الايمان بالله ورسوله ويجاهدوا في سبيل الله حق جهاده (ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما) وعد الله المقاتل في سبيل الله ظافرا أو مظفورا به ايتاء الاجر العظيم على اجتهاده في اعزاز دين الله (ومالكم) مبتدأ وخبره وهذا الاستفهام في النفي للتنبيه على الاستبطاء وفي الاثبات للانكار (لا تقاتلون في سبيل الله) حال والعامل فيها الاستقرار كما تقول مالك قائما والمعنى وأي شيء لكم تاركين القتال وقد ظهرت دواعيه (والمستضعفين) مجرور بالعطف على سبيل الله أي في سبيل الله وفي خلاص المستضعفين أو منصوب على الاختصاص منه أي واختص من سبيل الله خلاص المستضعفين من المستضعفين لان سبيل الله عام في كل خير وخلاص المسلمين من أيدي الكفار من أعظم الخير وأخصه والمستضعفون هم الذين أسلموا بمكة وصدهم المشركون عن الهجرة فبقوا بين أظهرهم مستذلين مستضعفين يلقون منهم الاذى الشديد (من الرجال والنساء والولدان) ذكر الولدان تسجيلا بافراط ظلمهم حيث بلغ أذاهم الولدان غير المكلفين ارغاما لآبائهم وأمهاتهم ولان المستضعفين كانوا يشركون صبيانهم في دعائهم استنزالا لرحمة الله بدعاء صغارهم الذين لم يذنبوا كما فعل قوم يونس عليه السلام وعن ابن عباس رضي الله عنهما كنت أنا وأمي من المستضعفين من

عن الجهاد وهو عبد الله بن أبي بن سلول المنافق وكان رأس المنافقين (فان أصابتكم مصيبة) أي قتل وهزيمة (قال) يعني هذا المنافق (قد أنعم الله علي) يعني بالقعود (اذ لم أكن معهم) يعني مع المؤمنين (شهيدا) يعني حاضر الوقعة فيصيبني ما أصابهم (ولئن أصابكم فضل من الله) أي فتح وغنيمة (ليقولن) يعني هذا المنافق (كأن لم تكن بينكم وبينه مودة) أي معرفة ومودة في الدين والمعنى كأنه ليس من أهل دينكم وذلك ان المنافقين كانوا يوادون المؤمنين في الظاهر (ياليتني كنت معهم) في تلك الغزوة التي غنم فيها المؤمنون (فأفوز فوزا عظيما) أي فآخذ نصيبا وافرا من الغنيمة ۞ قوله عز وجل (فليقاتل في سبيل الله) هذا خطاب للمنافق أي فليخلص الايمان وليقاتل في سبيل الله وقيل هو خطاب للمؤمنين المخلصين أي فليقاتل المؤمنون في سبيل الله (الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة) أي يبيعون يقال شريت بمعنى بعت لانه استبدال عوض بعوض والمعنى فليقاتل المؤمنون الكافرين الذين يبيعون حياتهم في الدنيا بثواب الآخرة وما وعد الله فيها لاهل الايمان والطاعة وقيل معناه فليقاتل في سبيل الله المؤمنون الذين يبيعون الحياة الدنيا ويختارون الآخرة وثوابها على الدنيا الفانية (ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل) أي فيستشهد (أو يغلب) يعني يظفر بعدوه من الكفار (فسوف نؤتيه) يعني في كلا الحالتين الشهادة أو الظفر نؤتيه فيهما (أجرا عظيما) يعني ثوابا وافرا (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه الا جهاد في سبيلي وايمان بي وتصديق برسلي فهو علي ضامن ان أدخله الجنة أو أرجعه الى مسكنه الذي خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة لفظ مسلم ۞ قوله عز وجل (ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله) قال المفسرون هذا حض من الله على الجهاد في سبيله لاستنقاذ المؤمنين المستضعفين من أيدي الكفار وفيه دليل على ان الجهاد واجب والمعنى لا عذر لكم في ترك الجهاد وقد بلغ حال المستضعفين ما بلغ من الضعف والاذى (والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان) قال ابن عباس يريد أن قوما من المؤمنين استضعفوا فحبسوا وعذبوا وقيل كان هؤلاء بمكة يلقون من المشركين أذى شديدا وكان أهل مكة قد اجتهدوا ان يفتنوا أقواما من المؤمنين عن دينهم بالاذى لهم وكانوا مستضعفين في أيديهم ولم يكن لهم بمكة قوة يمتنعون بها من المشركين فعلى هذا يكون معنى الآية ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله وفي خلاص المستضعفين وقال ابن عباس معناه وعن المستضعفين لان المراد صرف الاذى عنهم (خ) عن ابن عباس في قوله ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين الآية قال كنت أنا وأمي من المستضعفين وفي رواية ابن أبي مليكة قال تلا ابن عباس الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان قال كنت أنا وأمي ممن عذر الله أنا من الولدان وأمي من النساء فعلى هذه الرواية الثانية من حديث ابن عباس يكون معنى والمستضعفين الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان فانهم ممن عذر الله في ترك القتال والولدان جمع وليد وهو

الصبي

النساء والولدان (الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية) يعنى مكة (الظالم أهلها) الظالم وصف للقرية الا انه مسند الى أهلها فأعطى اعراب القرية لانه صفتها وذكر لاسناده الى الاهل كما تقول من هذه القرية التى ظلم أهلها (واجعل لنا من لدنك وليا) يتولى أمرنا ويستنقذنا من أعدائنا (واجعل لنا من لدنك نصيرا) ينصرنا عليهم كانوا يدعون الله بالخلاص ويستنصرونه فيسر الله لبعضهم الخروج الى المدينة وبقى بعضهم الى الفتح حتى جعل الله لهم من لدنه خير ولى وناصر وهو محمد عليه السلام فتولاهم أحسن التولى ونصرهم أقوى النصر ولما خرج محمد صلى الله عليه وسلم استعمل عتاب بن أسيد فرأوا منه الولاية والنصرة كما أرادوا قال ابن عباس رضى الله عنهما كان ينصر الضعيف من القوى حتى كانوا أعز بها من الظلمة ثم رغب الله المؤمنين بانهم يقاتلون فى سبيل الله فهو وليهم وناصرهم وأعداؤهم يقاتلون فى سبيل الشيطان فلا ولى لهم الا الشيطان بقوله (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت) أى الشيطان (فقاتلوا أولياء الشيطان) أى الكفار (ان كيد الشيطان) أى وساوسه وقيل الكيد السعى فى فساد الحال على جهة الاحتيال (كان ضعيفا) لانه غرور لا يؤول الى محصول أو كيده فى مقابلة نصر الله ضعيف كان المسلمون مكفوفين عن القتال مع الكفار ماداموا بمكة وكانوا يتمنون أن يؤذن لهم فيه فنزل (ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم) أى عن القتال (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال) أى فرض بالمدينة (اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله) يخافون أن يقاتلهم الكفار كما يخافون أن ينزل الله عليهم بأسه لا شكا فى الدين ولا رغبة عنه ولكن نفورا عن الاخطار بالارواح وخوفا من الموت قال الشيخ أبو منصور رحمه الله هذه خشية طبع لا أن ذلك منهم كراهة لحكم الله وأمره اعتقادا فالمرء مجبول على كراهة ما فيه خوف هلاكه غالبا وخشية الله من اضافة المصدر الى المفعول ومحله النصب على الحال من الضمير فى يخشون أى يخشون الناس مثل خشية الله أى مشبهين لاهل خشية الله (أو أشد خشية) هو معطوف على الحال أى أو أشد خشية من أهل خشية الله وأو للتخيير أى ان قلت خشيتهم الناس كخشية الله فانت مصيب وان قلت انها أشد فانت مصيب لانه حصل لهم مثلها وزيادة (وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب) هلا امهلتنا الى الموت فنموت على الفرش وهو سؤال عن وجه الحكمة فى فرض القتال عليهم لا اعتراض لحكمه بدليل انهم لم يوبخوا على هذا السؤال بل أجيبوا بقوله (قل

الصبى الصغير (الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية) يعنى مكة (الظالم أهلها) يعنى الظالم أهلها أنفسهم بالشرك لقوله تعالى ان الشرك لظلم عظيم وذلك ان المستضعفين لما منعهم المشركون من الهجرة من مكة الى المدينة دعوا الله عز وجل فقالوا ربنا أخرجنا من هذه القرية يعنى مكة الظالم أهلها بالشرك (واجعل لنا من لدنك وليا) يعنى وليا يلى أمرنا (واجعل لنا من لدنك نصيرا) يعنى ينصرنا ويمنعنا من العدو فاستجاب الله دعاءهم وجعل لهم من لدنه خير ولى وخير ناصر وهو محمد صلى الله عليه وسلم فتولى أمرهم ونصرهم واستنقذهم من أيدى المشركين يوم فتح مكة واستعمل عليهم عتاب بن أسيد وكان ابن ثمان عشرة سنة فكان ينصر المظلومين على الظالمين ويأخذ للضعيف من القوى ۞ قوله عز وجل (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله) يعنى فى طاعة الله واعلاء كلمته وابتغاء مرضاته (والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت) يعنى فى طاعة الشيطان (فقاتلوا أولياء الشيطان) أى فقاتلوا أيها المؤمنون حزب الشيطان وجنوده وهم الكفار (ان كيد الشيطان كان ضعيفا) الكيد السعى فى الفساد على جهة الاحتيال ويعنى بكيده ما كاد المؤمنين به من تخويفه أولياءه الكفار يوم بدر وكونه ضعيفا لانه خذل أولياءه الكفار لما رأى الملائكة قد نزلت يوم بدر وكان النصر لاولياء الله وخزيه على أولياء الشيطان وحزبه وادخال كان فى قوله ضعيفا لتأكيد ضعف كيد الشيطان ۞ قوله عز وجل (ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) قال الكلبى نزلت فى عبد الرحمن بن عوف الزهرى والمقداد بن الاسود الكندى وقدامة بن مظعون الجمحى وسعد بن أبى وقاص وجماعة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كانوا يلقون من المشركين أذى كثيرا بمكة قبل أن يهاجروا فكانوا يقولون يا رسول الله ائذن لنا فى قتالهم فانهم قد آذونا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كفوا أيديكم فانى لم أومر بقتالهم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة يعنى قيل لهم كفوا أيديكم عن قتالهم وأدوا ما افترض عليكم من الصلاة والزكاة وفيه دليل على ان فرض الصلاة والزكاة كان قبل فرض الجهاد (فلما كتب عليهم القتال) أى فرض عليهم جهاد المشركين أمروا بالخروج الى بدر (اذا فريق منهم) يعنى اذا جماعة من الذين سالوا ان يفرض عليهم الجهاد (يخشون الناس) يعنى يخافون مشركى مكة (كخشية الله أو أشد خشية) أو بمعنى الواو يعنى وأشد خشية (وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال) يعنى لم فرضت علينا الجهاد (لولا أخرتنا الى أجل قريب) يعنى هلا تركتنا ولم تفرض علينا القتال حتى نموت بآجالنا والقائلون هذا القول هم المنافقون لان هذا القول لا يليق بالمؤمنين وقيل قاله بعض المؤمنين وانما قالوا ذلك خوفا وجبنا لا اعتقادا ثم انهم تابوا من هذا القول (قل) أى

متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى) متاع الدنيا قليل زائل ومتاع الآخرة كثير دائم والكثير اذا كان على شرف الزوال فهو قليل فكيف
القليل الزائل (ولا تظلمون فتيلا) ولا تنقصون أدنى شئ من أجوركم على مشاق القتل فلا ترغبوا عنه و بالياء

قل لهم يا محمد (متاع الدنيا قليل) يعني ان منفعتها والاستمتاع بالدنيا قليل لانه فان زائل (والآخرة) يعني وثواب الآخرة (خير لمن اتقى) يعني اتقى الشرك ومعصية الرسول صلى الله عليه وسلم (ولا تظلمون فتيلا) أي ولا تنقصون من أجوركم قدر فتيل (م) عن المستورد بن شداد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الدنيا في الآخرة الا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه وأشار يعني بالسبابة في اليم فلينظر بم ترجع ﴿ قوله عز وجل (أينما تكونوا يدرككم الموت) نزلت في المنافقين الذين قالوا في قتلى أحد لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا فرد الله عليهم بهذه الآية وقيل نزلت في الذين قالوا ربنا لم كتبت علينا القتال فرد الله عليهم بقوله تعالى أينما تكونوا يدرككم الموت يعني ينزل بكم الموت فبين تعالى أنه لا خلاص لهم من الموت واذا كان لا بد لهم من الموت كان القتل في سبيل الله وجهاد أعدائه أفضل من الموت على الفراش لان الجهاد موت تحصل به سعادة الآخرة ثم بين تعالى انه لا بد لهم من الموت وانه لا ينجي منه شئ بقوله (ولو كنتم في بروج مشيدة) البروج في كلام العرب الحصون والقلاع والمشيدة المرفوعة المطولة وقيل هي المطلية بالشيد وهو الجص (وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله) نزلت في المنافقين واليهود وذلك ان المدينة كانت ذات خير وأرزاق ونعم عند مقدم النبي صلى الله عليه وسلم فلما ظهر نفاق المنافقين وعناد اليهود أمسك الله عنهم بعض الامساك فقال المنافقون واليهود ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا منذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه فقال الله تعالى وان تصبهم يعني المنافقين واليهود حسنة أي خصب في الثمار ورخص في السعر يقولوا هذه من عند الله يعني من قبل الله (وان تصبهم سيئة) أي جدب في الثمار وغلاء في السعر (يقولوا هذه من عندك) يعني من شؤم محمد وأصحابه وقيل المراد بالحسنة الظفر والغنيمة يوم بدر وبالسيئة القتل والهزيمة يوم أحد ومعنى من عندك أنت الذي حملتنا عليه يا محمد فعلى هذا القول يكون هذا اخبارا عن المنافقين خاصة (قل) أي قل لهم يا محمد (كل من عند الله) يعني الحسنة والسيئة والخصب والجدب والغنيمة والهزيمة والظفر والقتل فأما الحسنة فانعام من الله وأما السيئة فابتلاء منه (فما لهؤلاء القوم) أي فما شأن هؤلاء القوم المنافقين واليهود الذين قالوا ما قالوا (لا يكادون يفقهون حديثا) يعني لا يفقهون معاني القرآن وان الاشياء كلها من الله عز وجل خيرها وشرها ﴿ قوله تعالى (ما أصابك من حسنة) يعني من خير ونعمة (فمن الله) يعني من فضل الله عليك يتفضل به احسانا منه اليك (وما أصابك من سيئة) يعني من شدة ومكروه ومشقة وأذى (فمن نفسك) يعني فمن قبل نفسك وبذنب اكتسبته نفسك استوجبت ذلك به وفي المخاطب بهذا الكلام قولان أحدهما انه عام وتقديره ما أصابك أيها الانسان والثاني انه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره من الامة والنبي صلى الله عليه وسلم بريء لان الله عز وجل قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وقد عصمه من حين البعثة فهو معصوم فيما يستقبل حتى يموت ويدل على ان المراد بهذا الخطاب غيره قوله عز وجل يا أيها النبي اذا طلقتم النساء خاطبه وحده ثم جمع الكل بقوله اذا طلقتم النساء فعنى قوله فمن نفسك أي عقوبة لذنبك يا ابن آدم كذا قاله قتادة وقال الكلبي ما أصابك من خير فالله هداك له وأعانك عليه وما أصابك من أمر تكرهه فبذنبك عقوبة لذلك الذنب وقد تعلق بظاهر هذه الآية القدرية وقالوا نفى الله السيئة عن نفسه ونسبها الى الانسان بقوله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ولا متعلق لهم بها لانه ليس المراد من الآية حسنة الكسب من الطاعات ولا السيئة المكتسبة من فعل المعاصي بل المراد من الحسنة والسيئة في هذه الآية ما يصيب الانسان من النعم والمحن وذلك ليس من فعل العبد لانه لا يقال في الطاعة والمعصية أصابني وانما يقال أصبتها ويقال في النعم والمحن أصابني بدليل أنه لم يذكر عليه ثوابا ولا عقابا فهو كقوله تعالى فاذا جاءتهم

مكي وحمزة وعلي ثم أخبر أن الحذر لا ينجي من القدر بقوله (أينما تكونوا يدرككم الموت) ما زائدة لتوكيد معنى الشرط في أين (ولو كنتم في بروج) حصون أو قصور (مشيدة) مرفعة (وان تصبهم حسنة) نعمة من خصب ورخاء (يقولوا هذه من عند الله) نسبوها الى الله (وان تصبهم سيئة) بلية من قحط وشدة (يقولوا هذه من عندك) أضافوها اليك وقالوا هذه من عندك وما كانت الا بشؤمك وذلك ان المنافقين واليهود كانوا اذا أصابهم خير حمدوا الله تعالى واذا أصابهم مكروه نسبوه الى محمد صلى الله عليه وسلم فكذبهم الله تعالى بقوله (قل كل من عند الله) والمضاف اليه محذوف أي كل ذلك فهو يبسط الارزاق ويقبضها (فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون) يفهمون (حديثا) فيعلمون ان الله هو الباسط القابض وكل ذلك صادر عن حكمة ثم قال (ما أصابك) يا انسان خطابا عاما وقال الزجاج المخاطب به النبي عليه السلام والمراد غيره (من حسنة) من نعمة واحسان (فمن الله) تفضلا منه وامتنانا (وما أصابك من سيئة) من بلية ومصيبة (فمن نفسك) فمن عندك أي فبما كسبت يداك وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم

الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ولماذكر الله حسنات الكسب وسيآته وعد عليها بالثواب والعقاب فقال تعالى من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها فابطل بهذا قول القدرية وقال بعضهم لو كانت الآية على ما يقول أهل القدر لقال ما أصبت من حسنة وما أصبت من سيئة ولم يقل ما أصابك لان العادة جرت بقول الانسان أصابني خير أو مكروه وأصبت حسنة أو سيئة وقيل في معنى الآية ما أصابك من حسنة أي النصر والظفر يوم بدر فمن الله أي من فضل الله وما أصابك من سيئة أي من قتل وهزيمة يوم أحد فمن نفسك يعني فبذنوب أصحابك وهو مخالفتهم اياك فان قلت كيف وجه الجمع بين قوله تعالى قل كل من عند الله وبين قوله وما أصابك من سيئة فمن نفسك فاضاف السيئة الى فعل العبد في هذه الآية قلت أما اضافة الاشياء كلها الى الله تعالى في قوله قل كل من عند الله فعلى الحقيقة لان الله تعالى هو خالقها وموجدها وأما اضافة السيئة الى فعل العبد فعلى المجاز تقديره وما أصابك من سيئة فمن الله بذنب نفسك عقوبة لك وقيل اضافة السيئة الى فعل العبد على سبيل الادب فهو كقوله تعالى واذا مرضت فهو يشفين فاضاف المرض الى نفسه على طريق الادب ولا يشك عاقل ان الممرض هو الله تعالى وقيل هذه متصلة بما قبلها وفيه اضمار وتقديم وتأخير تقديره فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا يقولون ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك قل كل من عند الله وقال ابن الانباري في معنى الآية ما أصابك الله به من حسنة وما أصابك به من سيئة فالفعلان راجعان الى الله تعالى ۞ قوله تعالى (وأرسلناك للناس رسولا) يعني وأرسلناك يا محمد الى كافة الناس رسولا لتبلغهم رسالتي وما أرسلتك به ولست رسولا الى العرب خاصة كما قال بعض اليهود بل أنت رسول الى الخلق كافة العرب وغيرهم (وكفى بالله شهيدا) يعني على ارسالك للناس كافة فما ينبغي لاحد ان يخرج عن طاعتك واتباعك وقيل معناه وكفى بالله شهيدا على تبليغك ما أرسلت به الى الناس وقيل معناه وكفى بالله شهيدا على ان الحسنة والسيئة من الله قوله عز وجل (من يطع الرسول فقد أطاع الله) سبب نزول هذه الآية ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من أطاعني فقد أطاع الله ومن أحبني فقد أحب الله فقال بعض المنافقين ما يريد هذا الرجل الا أن نتخذه ربا كما اتخذت النصارى عيسى بن مريم ربا فانزل الله هذه الآية من يطع الرسول يعني فيما أمر به ونهى عنه فقد أطاع الله يعني ان طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم طاعة الله تعالى لانه هو أمر بها وقال الحسن جعل الله طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم طاعته وقامت به الحجة على المسلمين وقال الشافعي ان كل فريضة فرضها الله في كتابه كالحج والصلاة والزكاة لولا بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ما كنا نعرف كيف نأتيها ولا كان يمكننا أداء شئ من العبادات واذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه المنزلة الشريفة كانت طاعته على الحقيقة طاعة الله (ومن تولى) أي أعرض عن طاعته (فما أرسلناك عليهم حفيظا) يعني حافظا تحفظ أعمالهم عليهم بل كل أمرهم الى الله قال المفسرون وكان هذا قبل أن يؤمر بالقتال ثم نسخ ذلك بآية القتال ۞ قوله تعالى (ويقولون طاعة) نزلت في المنافقين وذلك ان المنافقين كانوا يقولون باللسان لرسول الله صلى الله عليه وسلم آمنا بك وصدقناك فمرنا فامرك طاعة أي أمرنا وشأننا طاعة (فاذا برزوا من عندك) أي خرجوا من عندك (بيت طائفة منهم غير الذي تقول) التبييت كل أمر يفعل بالليل يقال هذا أمر مبيت اذا دبر بليل وقضى بليل فقد بيت والمعنى انهم قالوا وقدروا أمرا بالليل غير الذي أعطوك بالنهار من الطاعة وقيل معنى بيت غير وبدل طائفة منهم غير الذي تقول يعني غير الذي عهدت اليهم فعلى هذا يكون التبييت بمعنى التبديل وانما خص طائفة من المنافقين بالتبييت في قوله منهم وكلمة من للتبعيض لانه تعالى علم ان منهم من يبقى على كفره ونفاقه ومنهم من يرجع عنه ويتوب فخص من يصر على النفاق والذكر

وليس اليك الحسنة والسيئة (وكفى بالله شهيدا) بانك رسوله وقيل هذا متصل بالاول أي لا يكادون يفقهون حديثا يقولون ما أصابك وحمل المعتزلة الحسنة والسيئة في الآية الثانية على الطاعة والمعصية تعسف بين وقد نادى عليه ما أصابك اذ يقال في الافعال ما أصبت ولانهم لا يقولون الحسنات من الله خلقا وايجادا فانى يكون لهم حجة في ذلك وشهيدا تمييز (من يطع الرسول فقد أطاع الله) لانه لا يأمر ولا ينهى الا بما أمر الله به ونهى عنه فكانت طاعته في أوامره ونواهيه طاعة لله (ومن تولى) عن الطاعة فاعرض عنه (فما أرسلناك عليهم حفيظا) تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها وتعاقبهم (ويقولون) ويقول المنافقون اذا أمرتهم بشئ (طاعة) خبر مبتدا محذوف أي أمرنا وشأننا طاعة (فاذا برزوا) خرجوا (من عندك بيت طائفة منهم) زور وسوى فهو من البيتوتة لانه قضاء الامر وتدبيره بالليل أو من أبيات الشعر لان الشاعر يدبرها ويسويها وبالادغام حمزة وأبو عمرو (غير الذي تقول) خلاف ما قلت وما أمرت به أو خلاف ما قالت وما ضمنت من الطاعة لانهم أبطنوا الرد لا القبول والعصيان لا الطاعة وانما ينافقون بما يقولون ويظهرون

(والله يكتب ما يبيتون) يثبته في صحائف أعمالهم ويجازيهم عليه (فأعرض عنهم) ولا تحدث نفسك بالانتقام منهم (وتوكل على الله) في شأنهم فان الله يكفيك مضرتهم وينتقم لك منهم اذا قوي أمر الاسلام (وكفى بالله وكيلا) كافيا لمن توكل عليه (أفلا يتدبرون القرآن) أفلا يتأملون في معانيه ومبانيه والتدبر التأمل والنظر في أدبار الامر وما يؤول اليه في عاقبته ثم استعمل في كل تأمل والتفكر تصرف القلب بالنظر في الدلائل وهذا يرد

قول من زعم من الروافض ان القرآن لا يفهم معناه الا بتفسير الرسول صلى الله عليه وسلم والامام المعصوم ويدل على صحة القياس وعلى بطلان التقليد (ولو كان من عند غير الله) كما زعم الكفار (لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) أي تناقضا من حيث التوحيد والتشريك والتحليل والتحريم أو تفاوتا من حيث البلاغة فكان بعضه بالغا حد الاعجاز وبعضه قاصرا عنه يمكن معارضته أو من حيث المعاني فكان بعضه اخبارا بغيب قد وافق المخبر عنه وبعضه اخبارا مخالفا للمخبر عنه وبعضه دالا على معنى صحيح عند علماء المعاني وبعضه دالا على معنى فاسد غير ملتئم وأما تعلق الملحدة بآيات يدعون فيها اختلافا كثيرا من نحو قوله فاذا هي ثعبان مبين كأنها جان فوربك لنسألنهم أجمعين فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان فقد تفصى عنها أهل الحق وستجدها مشروحة في كتابنا هذا في مظانها ان شاء الله تعالى (واذا جاءهم أمر من الامن أو الخوف) هم ناس من ضعفة المسلمين الذين لم يكن فيهم خبرة بالاحوال أو المنافقون كانوا اذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمن وسلامة أو خوف وخلل (أذاعوا به) أفشوه وكانت اذاعتهم مفسدة يقال أذاع السر وأذاع به والضمير يعود الى الامر أو الى الامن أو الخوف لان أو تقتضي أحدهما (ولو ردوه) أي ذلك الخبر (الى الرسول) أي رسول الله صلى الله عليه وسلم (والى أولي الامر منهم) يعني كبراء الصحابة البصراء بالامور أو الذين كانوا يؤمرون منهم

وقيل ان طائفة منهم اجتمعوا في الليل وبيتوا ذلك القول فخصهم بالذكر (والله يكتب) أي يثبت ويحفظ عليهم (ما يبيتون) يعني ما يزورون ويغيرون ويقدرون وقال ابن عباس يكتب ما يسرون من النفاق (فأعرض عنهم) أي لا تعاقبهم يا محمد ولا تحدث نفسك بالانتقام منهم وخلهم في ضلالتهم فانا منتقم منهم وقيل لا تغتر باسلامهم (وتوكل على الله) أي فوض أمرك الى الله في شأنهم فان الله يكفيك أمرهم وينتقم لك منهم (وكفى بالله وكيلا) يعني ناصرا لك عليهم ۞ قوله عز وجل (أفلا يتدبرون القرآن) أصل التدبر النظر في عواقب الامور والتفكر في أدبارها ثم استعمل في كل تفكر وتأمل يقال تدبرت الشيء أي نظرت في عاقبته ومعنى تدبر القرآن تأمل معانيه والتفكر في حكمه وتبصر ما فيه من الآيات قال ابن عباس أفلا يتدبرون القرآن فيتفكرون فيه فيرون تصديق بعضه لبعض وما فيه من المواعظ والذكر والامر والنهي وان أحدا من الخلق لا يقدر عليه قال العلماء ان الله تعالى احتج بالقرآن والتدبر فيه على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والحجة في ذلك من ثلاثة أوجه أحدها فصاحته التي عجز الخلائق عن الاتيان بمثلها في أسلوبه الثاني اخباره عن الغيوب وهو ما يطلع الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم على أحوال المنافقين وما يخفونه من مكرهم وكيدهم فيفضحهم بذلك وغير ذلك من الاخبار عن أحوال الاولين واخبارهم وما يأتي في المستقبل من أمور الغيب التي لا يعلمها الا الله تعالى الثالث سلامته من الاختلاف والتناقض وهو المراد بقوله تعالى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) قال ابن عباس يعني تفاوتا وتناقضا وفي رواية عنه لو كان من عند مخلوق لكان فيه كذب واختلاف وقيل معناه لوجدوا في اخباره عن الغيب بما يكون وبما قد كان اختلافا كثيرا لان الغيب لا يعلمه الا الله تعالى واذا كان كذلك ثبت انه من عند الله وانه ليس فيه اختلاف ولا تناقض وقيل لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا من حيث البلاغة والفصاحة والمعنى لو كان من عند مخلوق لكان على قياس الكلام المخلوق بعضه فصيح بليغ حسن وبعضه مردود ركيك فاسد فلما كان القرآن جميعه على منهاج واحد في الفصاحة والبلاغة ثبت انه من عند الله والمعنى أفلا يتفكرون في القرآن فيعرفوا بعدم التناقض فيه وصدق ما يخبر به عن الغيوب انه كلام الله عز وجل وان ما يكون من عند غير الله لا يخلو عن تناقض واختلاف فلما كان القرآن ليس فيه تناقض واختلاف علم انه من عند قادر على ما لا يقدر عليه غيره عالم بما لا يعلمه سواه ۞ قوله تعالى (واذا جاءهم أمر من الامن أو الخوف أذاعوا به) وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبعث البعوث والسرايا فاذا غلبوا أو غلبوا بادر المنافقون يستخبرون عن حالهم ثم يشيعونه ويتحدثون به قبل أن يحدث به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيضعفون به قلوب المؤمنين فأنزل الله تعالى هذه الآية واذا جاءهم يعني المنافقين أمر من الامن يعني جاءهم خبر بفتح وغنيمة أو الخوف يعني القتل والهزيمة أذاعوا به أي أفشوا ذلك الخبر وأشاعوه بين الناس يقال أذاع السر وأذاع به اذا أشاعه وأظهره قال الشاعر

أذاع به في الناس حتى كأنه * بعلياء نار أوقدت بثقوب

(ولو ردوه) يعني الامر الذي تحدثوا به (الى الرسول) يعني انهم لم يتحدثوا به حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يتحدث به ويظهره (والى أولي الامر منهم) يعني ذوي العقول والرأي والبصيرة بالامور منهم وهم كبار الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وقيل هم أمراء السرايا والبعوث وانما قال منهم على

حسب الظاهر ولان المنافقين كانوا يظهرون الايمان فلذا قال والى أولى الامر منهم (لعلمه الذين يستنبطونه منهم) أي يستخرجون تدبيره بذكائهم وفطنتهم وتجاربهم ومعرفتهم بامور الحرب وما ينبغي لها ومكايدها وهم العلماء الذين علموا ما ينبغي أن يكتم من الامور وما ينبغي أن يذاع منها والنبط الماء الذي يخرج من البئر أول ما تحفر واستنباطه استخراجه فاستعير لما يخرجه الرجل بفضل ذكائه وصفاء ذهنه وفطنته من المعاني والتدبر فيما يعضل ويهم يقال استنبط الفقيه المسئلة اذا استخرجها باجتهاده وفهمه وفي الآية دليل على جواز القياس وان من العلم ما يدرك بالنص وهو الكتاب والسنة ومنه ما يدرك بالاستنباط وهو القياس عليهما ومعنى الآية ولو أن هؤلاء المنافقين والمذيعين ردوا الامر من الامن والخوف الى الرسول والى أولى الامر وطلبوا معرفة الحال فيه من جهتهم لعلموا حقيقة ذلك منهم وانهم أولى بالبحث عنه فانهم أعلم بما ينبغي أن يشاع أو يكتم ۞ قوله تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) يعني ولولا فضل الله عليكم ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم وانزال القرآن ورحمته بالتوفيق والهداية (لاتبعتم الشيطان) يعني لبقيتم على الكفر والضلالة (الا قليلا) اختلف العلماء في هذا الاستثناء والى ماذا يرجع فقيل هو راجع الى الاذاعة وهو قول ابن عباس والتقدير واذا جاءهم أمر من الامن أو الخوف أذاعوا به الا قليلا فاخرج بعض المنافقين والمؤمنين عن هذه الاذاعة لانهم لم يذيعوا ما علموا من أمر السرايا وهذا القول اختيار الفراء وابن جرير الطبري وقيل هو راجع الى المستنبطين وهو قول الحسن وقتادة واختاره ابن قتيبة وتقديره لعلمه الذين يستنبطونه منهم الا قليلا فعلى هذين القولين في الآية تقديم وتأخير وقيل انه راجع الى اتباع الشيطان وهو قول الضحاك واختاره الزجاج ومعلوم ان صرف الاستثناء الى ما يليه ويتصل به أولى من صرفه الى الشئ البعيد وتقديره ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان الا قليلا منكم وهم قوم آمنوا واهتدوا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وانزال القرآن مثل زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وقس بن ساعدة الايادي ۞ قوله تعالى (فقاتل في سبيل الله لا تكلف الا نفسك) نزلت في مواعدة رسول الله صلى الله عليه وسلم أباسفيان بن حرب وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم واعده موسم بدر الصغرى بعد حرب أحد وذلك في ذي القعدة فلما بلغ الميعاد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس الى الخروج فكرهه بعضهم فانزل الله هذه الآية فقاتل في سبيل الله يعني لا تدع جهاد العدو والانتصار للمستضعفين من المؤمنين لا تكلف الا نفسك يعني لا تكلف فرض غيرك بل جاهد في سبيل الله ولو وحدك فان الله ناصرك لا الجنود وقد وعدك النصر عليهم وهو لا يخلف الميعاد فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعين راكبا الى بدر الصغرى فكفاهم الله القتال ورجعوا سالمين وعاتب الله من تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الآية على ترك الجهاد والخروج معه وفي الآية دليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أشجع الناس وأعلمهم بامور القتال ومكايده لان الله تعالى أمره بالقتال وحده ولو لم يكن أشجع الناس لما أمره بذلك واقتدى به أبو بكر الصديق في قتال أهل الردة من بني حنيفة الذين منعوا الزكاة فعزم على الخروج الى قتالهم ولو وحده (وحرض المؤمنين) يعني حضهم على الجهاد ورغبهم في الثواب وليس عليك في شأنهم الا التحريض فحسب لا التعنيف بهم (عسى الله) أي لعل الله (أن يكف بأس الذين كفروا) يعني لعل الله أن يمنع بأس الكفار وشدتهم وقد

الذين يستنبطون تدبيره كيف يدبرونه وما يأتون ويذرون فيه والنبط الماء الذي يخرج من البئر أول ما تحفر واستنباطه استخراجه فاستعير لما يستخرجه الرجل بفضل ذهنه من المعاني والتدابير فيما يعضل (ولولا فضل الله عليكم) بارسال الرسول (ورحمته) بانزال الكتاب (لاتبعتم الشيطان) لبقيتم على الكفر (الا قليلا) لم يتبعوه ولكن آمنوا بالعقل كزيد بن عمرو ابن نفيل وقس بن ساعدة وغيرهما لما ذكر في الآي قبلها تثبطهم عن القتال واظهارهم الطاعة واضمارهم خلافها قال (فقاتل في سبيل الله) ان أفردوك وتركوك وحدك (لا تكلف الا نفسك) غير نفسك وحدها ان تقدمها الى الجهاد فان الله تعالى ناصرك لا الجنود وقيل دعا الناس في بدر الصغرى الى الخروج وكان أبو سفيان واعد رسول الله صلى الله عليه وسلم اللقاء فيها فكره بعض الناس أن يخرجوا فنزلت فخرج ومامعه الا سبعون ولو لم يتبعه أحد لخرج وحده (وحرض المؤمنين) وما عليك في شأنهم الا التحريض على القتال فحسب لا التعنيف بهم (عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا) أي بطشهم وشدتهم وهم قريش وقد كف بأسهم بالرعب فلم يخرجوا وعسى كلمة مطمعة غير ان اطماع الكريم أعود من انجاز اللئيم

(والله أشد بأسا) من قريش (وأشد تنكيلا) تعذيبا وهو تمييز كبأسا (من يشفع شفاعة حسنة) هي الشفاعة في دفع شر أو جلب نفع مع جوازها شرعا (يكن له نصيب منها) من ثواب الشفاعة (ومن يشفع شفاعة سيئة) هي خلاف الشفاعة الحسنة قال ابن عباس رضي الله عنهما ما لها مفسر غيري معناه من أمر بالتوحيد وقاتل أهل الكفر وضده السيئة وقال الحسن هو المشي بالصلح وضده النميمة (يكن له كفل منها) نصيب (وكان الله على كل شيء مقيتا) مقتدرا من أقات على الشيء اقتدر عليه أو حفيظا من القوت لأنه يمسك النفس ويحفظها (وإذا حييتم) أي سلم عليكم فإن التحية في ديننا بالسلام في الدارين فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله تحيتهم يوم يلقونه سلام وكانت العرب تقول عند اللقاء حياك الله أي أطال الله حياتك فأبدل ذلك بعد الإسلام بالسلام (بتحية) هي تفعلة من حيا يحيي تحية (فحيوا بأحسن منها) أي قولوا وعليكم السلام ورحمة الله إذا قال السلام عليكم وزيدوا وبركاته إذا قال ورحمة الله ويقال لكل شيء منتهى ومنتهى السلام وبركاته (أو ردوها) أي أجيبوها بمثلها ورد السلام جوابه بمثله لأن المجيب يرد قول المسلم وفيه حذف مضاف أي ردوا مثلها والتسليم سنة والرد فريضة والأحسن فضل وما من رجل يمر على قوم مسلمين فيسلم عليهم ولا يردون عليه إلا نزع عنهم روح القدس وردت عليه الملائكة ولا يرد السلام في الخطبة وقراءة القرآن جهرا ورواية الحديث وعند مذاكرة العلم والأذان والإقامة وعند أبي يوسف رحمه الله لا يسلم على لاعب الشطرنج والنرد والمغني والقاعد لحاجته ومطير الحمام والعاري من غير عذر في حمام أو غيره ويسلم الرجل إذا دخل على امرأته والماشي على القاعد والراكب على الماشي وراكب الفرس على راكب الحمار والصغير على الكبير والأقل على الأكثر وإذا التقيا ابتدرا وقيل بأحسن منها لأهل الملة أو ردوها لأهل الذمة وعن النبي صلى الله عليه وسلم إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم أي وعليكم ما قلتم لأنهم كانوا يقولون السام عليكم وقوله عليه السلام لا غرار في تسليم أي لا يقال عليك بل عليكم لأن كاتبيه معه (إن الله كان على كل شيء حسيبا) أي يحاسبكم على كل شيء من التحية وغيرها

فعل وذلك أن أبا سفيان بدا له عن القتال فلم يخرج إلى الموعد (والله أشد بأسا) أي أعظم صولة (وأشد تنكيلا) يعني وأشد عذابا وعقوبة من غيره ﴿ قوله عز وجل (من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها) الشفاعة مأخوذة من الشفع وهو أن يصير الإنسان بنفسه شفيعا لصاحب الحاجة حتى يجتمع معه على المسئلة إلى المشفوع إليه فعلى هذا قيل إن المراد بالشفاعة المذكورة في الآية هي شفاعة الإنسان لغيره ليجلب له بشفاعته نفعا أو يخلصه من بلاء نزل به وقيل هي الإصلاح بين الناس وقيل معنى الآية من يصر شفعا لوتر أصحابك يا محمد فيشفعهم في جهاد عدوهم يكن له نصيب منها أي حظ وافر من أجر شفاعته وهو ثواب الله وكرامته (ومن يشفع شفاعة سيئة) قيل هي النميمة ونقل الحديث لإيقاع العداوة بين الناس وقيل أراد بالشفاعة السيئة دعاء اليهود على المسلمين وقيل معناه من يشفع كفره بقتال المؤمنين (يكن له كفل) أي ضعف وقيل نصيب (منها) أي من وزرها (وكان الله على كل شيء مقيتا) قال ابن عباس يعني مقتدرا أو مجازيا وأقات على الشيء قدر عليه قال الشاعر

وذي ضغن كففت الشر عنه * وكنت على إساءته مقيتا

يعني قادرا على الإساءة إليه وقيل معناه شاهدا أو حفيظا على الأشياء (ق) عن أبي موسى قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا فجاء رجل يسأل فأقبل علينا بوجهه وقال اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان رسوله ما شاء وفي رواية كان إذا جاءه طالب حاجة أقبل على جلسائه وقال اشفعوا تؤجروا وذكره ﴿ قوله عز وجل (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها) التحية تفعلة من حيا وأصلها من الحياة ثم جعل السلام تحية لكونه خارجا عن حصول الحياة وسبب الحياة في الدنيا أو في الآخرة والتحية أن يقال حياك الله أي جعل لك حياة وذلك إخبار ثم يجعل دعاء وهذه اللفظة كانت العرب تقولها فلما جاء الإسلام بدل ذلك بالسلام وهو المراد به في الآية يعني إذا سلم عليكم المسلم فأجيبوه بأحسن مما سلم عليكم به وإنما اختير لفظ السلام على لفظة حياك الله لأنه أتم وأحسن وأكمل لأن معنى السلام السلامة من الآفات فإذا دعا الإنسان بطول الحياة بغير سلامة كانت حياته مذمومة منغصة وإذا كان في حياته سليما كان أتم وأكمل فلهذا السبب اختير لفظ السلام (أو ردوها) يعني أو ردوا عليه كما سلم عليكم (إن الله كان على كل شيء حسيبا) يعني محاسبا ومجازيا والمعنى أنه تعالى على كل شيء من رد السلام بمثله أو بأحسن منه مجاز

﴿فصل في فضل السلام والحث عليه﴾ (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الإسلام خير قال تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف قوله أي الإسلام خير معناه أي خصال الإسلام خير (م) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم عن عبد الله بن سلام قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام

الطعام وصلوا الارحام وصلوا والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام أخرجه الترمذي وقال حديث صحيح عن أبي أمامة قال أمرنا نبينا صلى الله عليه وسلم أن نفشي السلام أخرجه ابن ماجه

﴿فصل في أحكام تتعلق بالسلام﴾ وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى في كيفية السلام﴾ (ق) عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام قال اذهب فسلم على أولئك نفر من الملائكة جلوس فاستمع ما يحيونك به فانها تحيتك وتحية ذريتك فقال السلام عليكم فقالوا عليك السلام ورحمة الله فزادوه ورحمة الله قال العلماء يستحب لمن يبتدئ بالسلام أن يقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فيأتي بضمير الجمع وان كان المسلم عليه واحدا ويقول المجيب وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته فيأتي بواو العطف في قوله وعليكم عن عمران بن حصين قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال السلام عليكم فرد عليه ثم جلس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر ثم جاء آخر فقال السلام عليكم ورحمة الله فرد عليه فجلس فقال عشرون فجاء آخر فقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فرد عليه فجلس فقال ثلاثون أخرجه الترمذي وأبو داود وقال الترمذي حديث حسن وقيل اذا قال المسلم السلام عليكم فيقول المجيب وعليكم السلام ورحمة الله فيزيده ورحمة الله واذا قال السلام عليكم ورحمة الله فيقول وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته فيزيده وبركاته واذا قال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فيرد عليه السلام بمثله ولا يزيد عليه وروى أن رجلا سلم على ابن عباس فقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ثم زاد شيأ فقال ابن عباس ان السلام انتهى الى البركة ويستحب للمسلم أن يرفع صوته بالسلام ليسمع المسلم عليه فيجيبه ويشترط أن يكون الرد على الفور فان أخره ثم رد لم يعد جوابا وكان آثما بترك الرد ﴿المسئلة الثانية في حكم السلام﴾ الابتداء بالسلام سنة مستحبة ليس بواجب وهو سنة على الكفاية فان كانوا جماعة فسلم واحد منهم كفى عن جميعهم ولو سلم كلهم كان أفضل وأكمل قال القاضي حسين من أصحاب الشافعي ليس لنا سنة على الكفاية الا هذا وفيه نظر لان تشميت العاطس سنة على الكفاية أيضا كالسلام ولو دخل على جماعة في بيت أو مجلس أو مسجد وجب عليه أن يسلم على الحاضرين لقوله صلى الله عليه وسلم أفشوا السلام والامر للوجوب أو يكون ذلك سنة متأكدة لان السلام من شعار أهل الاسلام فيجب اظهاره أو يتأكد استحبابه أما الرد على المسلم فقد أجمع العلماء على وجوبه ويدل عليه قوله تعالى واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها والامر للوجوب لان في ترك الرد اهانة للمسلم فيجب ترك الاهانة فان كان المسلم عليه واحدا وجب عليه الرد واذا كانوا جماعة كان رد السلام في حقهم فرض كفاية فلو رد واحد منهم سقط فرض الرد عن الباقين وان تركوه كلهم أثموا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يجزي عن الجماعة اذا مروا أن يسلم أحدهم ويجزي عن الجلوس أن يرد أحدهم أخرجه أبو داود ﴿المسئلة الثالثة في آداب السلام﴾ السنة أن يسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير والصغير على الكبير (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير وفي رواية للبخاري قال يسلم الصغير على الكبير والمار على القاعد والقليل على الكثير واذا تلاقى رجلان فالمبتدئ بالسلام هو الافضل لما روي عن أبي امامة الباهلي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أولى الناس بالله عز وجل من بدأهم بالسلام أخرجه أبو داود والترمذي ولفظه قال قيل يارسول الله الرجلان يلتقيان أيهما يبدأ بالسلام قال أولاهما بالله قال الترمذي حديث حسن ويستحب أن يبدأ بالسلام قبل الكلام والحاجة والسنة اذا مر بجماعة صبيان صغار أن يسلم عليهم لما روي عن أنس أنه مر على صبيان فسلم عليهم وقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعله أخرجاه في الصحيحين وفي رواية لابي داود أن النبي صلى الله عليه وسلم مر على غلمان يلعبون فسلم عليهم وأما السلام على النساء فان كن جمعا

جالسات في مسجد أو موضع فيستحب أن يسلم عليهن اذا لم يخف على نفسه أو عليهن فتنة لما روي عن أسماء بنت يزيد قالت مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسوة فسلم علينا أخرجه أبو داود وفي رواية الترمذي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر في المسجد يوما وعصبة من النساء قعود فألوى بيده بالتسليم قال الترمذي حديث حسن واذا مر على امرأة مفردة أجنبية فان كانت جميلة فلا يسلم عليها ولو سلم فلا ترد هي عليه لانه لم يستحق الرد وان كانت عجوزا لا يخاف عليه ولا عليها الفتنة سلم عليها وترد هي عليه وحكم النساء مع النساء كحكم الرجال مع الرجال في السلام فيسلم بعضهن على بعض ﴿المسئلة الرابعة في الاحوال التي يكره السلام فيها﴾ فمن ذلك الذي يبول أو يتغوط أو يجامع ونحو ذلك لا يسلم عليه فلو سلم فلا يستحق المسلم جوابا لما روي عن ابن عمر أن رجلا مر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبول فسلم عليه فلم يرد عليه أخرجه مسلم قال الترمذي انما يكره اذا كان على الغائط أو البول ويكره التسليم على من في الحمام وقيل ان كانوا متزرين بالمآزر سلم عليهم والا فلا ويكره التسليم على النائم والناعس والمصلي والمؤذن والتالي في حال الصلاة والاذان والتلاوة ويكره الابتداء بالسلام في حال الخطبة لان الجالسين مأمورون بالانصات للخطبة ويكره أن يبدأ المبتدع بالتسليم عليه وكذلك المعلن بفسق وكذلك الظلمة ونحوهم فلا يسلم على هؤلاء ﴿المسئلة الخامسة في حكم السلام على أهل الذمة اليهود والنصارى﴾ اختلف العلماء فيه فذهب أكثرهم الى أنه لا يجوز ابتداؤهم بالسلام وقال بعضهم انه ليس بحرام بل هو مكروه كراهة تنزيه ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تبدؤا اليهود ولا النصارى بالسلام واذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه الى أضيقه أخرجه مسلم واذا سلم يهودي أو نصراني على مسلم فيرد عليه ويقول عليك بغير واو العطف لما روي عن أنس ان يهوديا أتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال السام عليكم فرد عليه القوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تدرون ما قال قالوا الله ورسوله أعلم سلم يا نبي الله قال لا ولكنه قال كذا وكذا ردوه على فردوه فقال قلت السام عليكم قال نعم يا نبي الله فقال صلى الله عليه وسلم عند ذلك اذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا عليك أي عليك ما قلت أخرجه الترمذي فلو أتى بواو العطف وميم الجمع فقال وعليكم جاز لانا نجاب عليهم في الدعاء ولا يجابون علينا ويدل على ذلك ما روي عن جابر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مر عليه ناس من اليهود فقالوا السام عليك يا أبا القاسم فقال وعليكم فقالت عائشة وغضبت ألم تسمع ما قالوا قال بلى قد سمعت فرددت عليهم وانا نجاب عليهم ولا يجابون علينا أخرجه مسلم واذا مر المسلم على جماعة فيهم مسلمون ويهود ونصارى يسلم عليهم ويقصد بتسليمه المسلمين لما روي عن أسامة بن زيد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على مجلس فيه أخلاط من المسلمين واليهود فسلم عليهم أخرجه الترمذي ﴿قوله عز وجل (الله لا اله الا هو ليجمعنكم) هذه لام القسم تقديره والله الذي لا اله الا هو ليجمعنكم الله في الموت وفي القبور (الى يوم القيامة) يعني الى يوم الحشر والبعث سميت القيامة قيامة لقيام الناس من قبورهم بعد الموت وقيل لقيامهم للحساب نزلت هذه الآية في منكري البعث (لا ريب فيه) يعني لا شك في ذلك اليوم انه كائن (ومن أصدق من الله حديثا) يعني لا أحد أصدق من الله فانه لا يخلف الميعاد ولا يجوز عليه الكذب والمعنى ان القيامة كائنة لا شك فيها ولا ريب ﴿قوله عز وجل (فما لكم في المنافقين فئتين) اختلفوا في سبب نزول هذه الآية فقيل نزلت في الذين تخلفوا يوم أحد من المنافقين فلما رجعوا قال بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لرسول الله صلى الله عليه وسلم اقتلهم يا رسول الله فانهم منافقون وقال بعضهم اعف عنهم فانهم قد تكلموا بكلمة الاسلام (ق) عن زيد بن ثابت قال لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أحد رجع ناس ممن خرج معه فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم فئتين قالت فرقة نقتلهم وقالت فرقة لا نقتلهم فنزلت فما لكم في المنافقين فئتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(الله) مبتدأ (لا اله الا هو) خبره أو اعتراض والخبر (ليجمعنكم) ومعناه الله والله ليجمعنكم (الى يوم القيامة) أي ليحشرنكم اليه والقيامة القيام كالطلابة والطلاب وهي قيامهم من القبور أو قيامهم للحساب يوم يقوم الناس لرب العالمين (لا ريب فيه) هو حال من يوم القيامة والهاء يعود الى اليوم أو صفة لمصدر محذوف أي جمعا لا ريب فيه والهاء يعود الى الجمع (ومن أصدق من الله حديثا) تمييز وهو استفهام بمعنى النفي أي لا أحد أصدق منه في اخباره ووعده ووعيده لاستحالة الكذب عليه لقبحه لكونه اخبارا عن الشيء بخلاف ما هو عليه (فما لكم) مبتدأ وخبره (في المنافقين فئتين) أي ما لكم اختلفتم في شأن قوم قد نافقوا نفاقا ظاهرا وتفرقتم فيهم فرقتين وما لكم لم تقطعوا القول بكفرهم وذلك ان قوما من المنافقين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخروج الى البدو معتلين باجتواء المدينة فلما خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلة مرحلة حتى لحقوا بالمشركين فاختلف المسلمون فيهم فقال بعضهم هم كفار وقال بعضهم هم مسلمون وفئتين حال كقولك مالك قائما قال سيبويه اذا قلت مالك قائما فمعناه لم قمت ونصبه على تأويل أي شيء يستقر لك في هذه الحال

(والله أركسهم) ردهم الى حكم الكفار (بما كسبوا) من ارتدادهم ولحوقهم بالمشركين فردوهم أيضا ولا تختلفوا فى كفرهم أتريدون
أن تهدوا أن تجعلوا من جملة المهتدين (من أضل الله) من جعله الله ضالا أو أتريدون أن تسموهم مهتدين وقد
أظهر الله ضلالهم فيكون تعبيرا لمن سماهم مهتدين والآية تدل على مذهبنا فى اثبات الكسب للعبد والخلق للرب جلت قدرته (ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) طريقا الى الهداية (ودوا لو تكفرون كما كفروا) الكاف نعت لمصدر محذوف وما مصدرية أى ودوا لو تكفرون كفرا مثل كفرهم (فتكونون) عطف على تكفرون (سواء) أى مستوين أنتم وهم فى الكفر (فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله) فلا تتولوهم حتى يؤمنوا لان الهجرة فى سبيل الله بالاسلام (فان تولوا) عن الايمان (فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم) كما كان حكم سائر المشركين (ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا) وان بذلوا لكم الولاية والنصرة فلا تقبلوا منهم (الا الذين يصلون الى قوم) أى ينتهون اليهم ويتصلون بهم والاستثناء من قوله فخذوهم واقتلوهم دون الموالاة (بينكم وبينهم ميثاق) القوم هم الاسلميون كان بينهم
وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد وذلك انه وادع قبل خروجه الى مكة هلال ابن عويمر الاسلمى على أن لا يعينه ولا يعين
عليه وعلى أن من وصل الى هلال والتجأ اليه فله من الجوار مثل الذى لهلال أى فاقتلوهم الا من اتصل بقوم بينكم وبينهم ميثاق

انها طيبة تنفى الرجال كما ينفى الكير خبث الحديد وقيل نزلت فى قوم خرجوا الى المدينة وأسلموا ثم استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخروج الى مكة ليأتوا ببضائع لهم يتجرون فيها فخرجوا وأقاموا بمكة فاختلف المسلمون فيهم فقائل يقول هم منافقون وقائل يقول هم مؤمنون وقيل نزلت فى ناس من قريش قدموا المدينة وأسلموا ثم ندموا على ذلك فخرجوا كهيئة المتنزهين فلما بعدوا عن المدينة كتبوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم انا على الذى فارقناك عليه من الايمان ولكنا اجتوينا المدينة واشتقنا الى أرضنا ثم انهم خرجوا فى تجارة الى الشام فبلغ ذلك المسلمين فقال بعضهم نخرج اليهم ونقتلهم ونأخذ ما معهم لانهم رغبوا عن ديننا وقال طائفة منهم كيف تقتلون قوما على دينكم وان لم يذروا ديارهم وكان هذا بعين رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ساكت لا ينهى أحد الفريقين فنزلت هذه الآية وقيل نزلت فى قوم أسلموا بمكة ولم يهاجروا وكانوا يظاهرون المشركين وقيل نزلت فى عبد الله بن أبى ابن سلول المنافق لما تكلم فى حديث الافك ومعنى الآية فما لكم يا معشر المؤمنين فى المنافقين فئتين أى صرتم فى أمرهم فرقتين فرقة تذب عنهم وفرقة تباينهم وتعاديهم فنهى الله الفرقة الذين يذبون عنهم وأمر المؤمنين جميعا أن يكونوا على منهاج واحد فى التباين لهم والتبرؤ منهم ثم أخبر عن كفرهم بقوله (والله أركسهم) يعنى نكسهم فى كفرهم وارتدادهم وردهم الى أحكام الكفار (بما كسبوا) أى بسبب ما اكتسبوا من أعمالهم الخبيثة وقيل بما أظهروا من الارتداد بعدما كانوا على النفاق (أتريدون أن تهدوا من أضل الله) هذا خطاب للفئة التى دافعت عن المنافقين والمعنى أتبتغون أيها المؤمنون هداية هؤلاء المنافقين الذين أضلهم الله عن الهدى (ومن يضلل الله) يعنى عن الهدى (فلن تجد له سبيلا) يعنى فلن تجد له طريقا تهديه فيها الى الحق والهدى ۞ قوله تعالى (ودوا) يعنى تمنى أولئك الذين رجعوا عن الايمان الى الارتداد والكفر (لو تكفرون) يعنى تكفرون أنتم يا معشر المؤمنين (كما كفروا فتكونون سواء) فى الكفر (فلا تتخذوا منهم أولياء) يعنى من الكفار منع المؤمنين من موالاتهم (حتى يهاجروا) يعنى يسلموا أو يهاجروا (فى سبيل الله) معكم وهى هجرة أخرى والهجرة على ثلاثة أوجه الاولى هجرة المؤمنين فى أول الاسلام من مكة الى المدينة الثانية هجرة المؤمنين وهى الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبيل الله مخلصين صابرين محتسبين كما حكى الله عنهم وفى هذه الآية منع المؤمنين من موالاة المنافقين حتى يهاجروا والهجرة الثالثة هجرة المؤمنين ما نهى الله عنه بقوله (فان تولوا) يعنى فان أعرضوا عن الاسلام والهجرة واختاروا الاقامة على الكفر (فخذوهم) الخطاب للمؤمنين أى خذوهم أيها المؤمنون (واقتلوهم حيث وجدتموهم) يعنى أين وجدتموهم فى الحل والحرم (ولا تتخذوا منهم وليا) يعنى فى هذه الحالة (ولا نصيرا) يعنى ينصركم على أعدائكم لانهم أعداء ثم استثنى الله عز وجل طائفة منهم فقال تعالى (الا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق) هذا الاستثناء يرجع الى القتل لا الى الموالاة لان موالاة الكفار والمنافقين لا تجوز بحال ومعنى يصلون ينتسبون اليهم أو ينتمون اليهم أو يدخلون معهم بالحلف والجوار وقال ابن عباس يريد يلجؤن الى قوم بينكم وبينهم ميثاق أى عهد وهم الاسلميون وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وادع هلال بن عويمر الاسلمى عند خروجه الى مكة على أن لا يعينه ولا يعين عليه ومن وصل الى هلال من قومه وغيرهم ولجأ اليه فلهم الجوار مثل ما لهلال وفى رواية عن ابن عباس قال أراد بالقوم الذى بينكم وبينهم ميثاق بنى بكر بن زيد مناة كانوا فى الصلح والهدنة

(أو جاؤكم) عطف على صفة قوم أى الا الذين يصلون الى قوم معاهدين أو قوم ممسكين عن القتال لا لكم ولا عليكم أو على صلة الذين أى الا الذين يتصلون بالمعاهدين أو الذين لا يقاتلونكم (حصرت صدورهم) حال باضمار قد والحصر الضيق والانقباض (أن يقاتلوكم) أى عن أن يقاتلوكم عن قتالكم (أو يقاتلوا (٤١٢) قومهم) معكم (ولو شاء الله لسلطهم عليكم) بتقوية قلوبهم وازالة الحصر عنهم (فلقاتلوكم) عطف على لسلطهم ودخول اللام للتأكيد (فان اعتزلوكم) فان لم يتعرضوا لكم (فلم يقاتلوكم والقوا اليكم السلم) أى الانقياد والاستسلام (فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) طريقا الى القتال (ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم) بالنفاق (ويأمنوا قومهم) بالوفاق هم قوم من اسد وغطفان كانوا اذا أتوا المدينة اسلموا وعاهدوا ليأمنوا المسلمين فاذا رجعوا الى قومهم كفروا ونكثوا عهودهم (كلما ردوا الى الفتنة) كلما دعاهم قومهم الى قتال المسلمين (اركسوا فيها) قلبوا فيها اقبح قلب واشنعه وكانوا شرا فيها من كل عدو (فان لم يعتزلوكم) فان لم يعتزلوا قتالكم (ويلقوا اليكم السلم) عطف على لم يعتزلوكم أى وان لم ينقادوا لكم بطلب الصلح (ويكفوا أيديهم) عطف عليه أيضا أى ولم يمسكوا عن قتالكم (فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم) حيث تمكنتم منهم وظفرتم بهم (وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا) حجة واضحة لظهور عداوتهم وانكشاف حالهم فى الكفر والغدر واضرارهم بالمسلمين أو تسلطا ظاهرا حيث أذنا لكم فى قتلهم (وما كان لمؤمن) وما صح له ولا استقام ولا لاق بحاله (أن يقتل مؤمنا) ابتداء من غير قصاص أى ليس المؤمن كالكافر الذى تقدم اباحة دمه (الا خطأ) الا على وجه الخطأ وهو استثناء منقطع بمعنى لكن أى لكن ان وقع خطأ ويحتمل ان يكون صفة لمصدر أى الا قتلا خطأ والمعنى من شأن المؤمن ان ينتفى عنه وجود قتل المؤمن ابتداء البتة الا اذا وجد منه خطأ

نزلت

وقيل هم خزاعة والمعنى ان من دخل فى عهد من كان داخلا فى عهدكم فهم أيضا داخلون فى عهدكم (أو جاؤكم حصرت صدورهم) يحتمل أن يكون عطفا على الذين وتقديره الا الذين يتصلون بالمعاهدين أو يتصلون بالذين حصرت صدورهم فلا تقتلوهم وقيل يحتمل أن يكون عطفا على صفة قوم وتقديره الا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم عهد أو يصلون الى قوم حصرت صدورهم فلا تقتلوهم ومعنى حصرت أى ضاقت صدورهم عن المقاتلة فلا يريدون قتالكم لانكم مسلمون ولا يريدون قتالهم لانهم أقاربهم وهم بنو مدلج وكانوا عاهدوا أن لا يقاتلوا المسلمين وعاهدوا قريشا أن لا يقاتلوهم (أن يقاتلوكم) يعنى ضاقت صدورهم عن قتالكم للعهد الذى بينكم وبينهم (أو يقاتلوا قومهم) يعنى من آمن منهم وقيل معناه انهم لا يقاتلونكم مع قومهم ولا يقاتلون قومهم معكم فقد ضاقت صدورهم لذلك عن قتالكم والقتال معكم وهم قوم هلال الاسلميون وبنو بكر نهى الله عن قتال هؤلاء المرتدين اذا اتصلوا باهل عهد المسلمين لان من انضم الى قوم ذوى عهد فله حكمهم فى حقن الدم وذلك ان الله تعالى أوجب قتال الكفار الا من كان معاهدا أو لجأ الى معاهد أو ترك القتال لانه لا يجوز قتل هؤلاء وعلى هذا القول فالقول بالنسخ لازم لان الكافر وان ترك القتال فقتاله جائز وقال جماعة من المفسرين معاهدة المشركين وموادعتهم فى هذه الآية منسوخة بآية السيف وذلك لان الله تعالى لما أعز الاسلام وأهله أمر ان لا يقبل من مشركى العرب الا الاسلام أو القتل (ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم) يذكر الله تعالى منته على المسلمين بكف بأس المعاهدين وذلك لما ألقى الله الرعب فى قلوبهم وكفهم عن قتالكم ومعنى التسليط هنا تقوية قلوبهم عن قتال المسلمين ولكن قذف الله الرعب فى قلوبهم وكفهم عن المسلمين (فان اعتزلوكم) يعنى فان اعتزلوا عن قتالكم (فلم يقاتلوكم) ويقال فلم يقاتلوكم يوم فتح مكة مع قومهم (والقوا اليكم السلم) يعنى الانقياد والصلح فانقادوا واستسلموا (فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) يعنى بالقتل والقتال قال بعض المفسرين هذا منسوخ بآية القتال وهى قوله تعالى اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وقال بعضهم هى غير منسوخة لانا اذا حملناها على المعاهدين فكيف يمكن ان يقال انها منسوخة ۞ قوله عز وجل (ستجدون آخرين) قال ابن عباس هم أسد وغطفان كانوا من حاضرى المدينة فتكلموا بكلمة الاسلام رياء وهم غير مسلمين وكان الرجل منهم يقول له قومه بماذا آمنت يقول آمنت بالقرد والعقرب والخنفساء واذا لقوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا لهم انا على دينكم يريدون بذلك الامن من الفريقين وفى رواية أخرى عن ابن عباس أنها نزلت فى بنى عبد الدار وكانوا بهذه الصفة (يريدون أن يأمنوكم) يعنى يريدون باظهار الايمان أن يأمنوكم فلا تتعرضوا لهم (ويأمنوا قومهم) يعنى باظهار الكفر لهم فلا يتعرضوا لهم (كلما ردوا الى الفتنة) يعنى كلما دعوا الى الشرك (أركسوا فيها) رجعوا الى الشرك وقادوا اليه منكوسين على رؤسهم فيه (فان لم يعتزلوكم) يعنى فان لم يكفوا عن قتالكم حتى يسيروا الى مكة (ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم) أى ولم يلقوا الصلح ولم يكفوا عن قتالكم (فخذوهم) يعنى أسرى (واقتلوهم حيث ثقفتموهم) يعنى حيث أدركتموهم (وأولئكم) يعنى أهل هذه الصفة (جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا) يعنى حجة ظاهرة بالقتل والقتال وقيل الحجة الواضحة هى ظهور عداوتهم وانكشاف حالهم بالكفر والعداوة ۞ قوله تعالى (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الا خطأ) الآية

من غير قصد بان يرمى كافرا فيصيب مسلما أو يرمى شخصا على انه كافر فاذا هو مسلم (ومن قتل مؤمنا خطأ) صفة مصدر محذوف أى قتلا خطأ (فتحرير رقبة) مبتدأ والخبر محذوف أى فعليه تحرير رقبة والتحرير الاعتاق والحر والعتيق الكريم لان الكرم فى الاحرار كما ان اللؤم فى العبيد ومنه عتاق الطير وعتاق الخيل لكرامها والرقبة النسمة ويعبر عنها بالرأس فى قولهم فلان يملك كذا رأسا من الرقيق (مؤمنة) قيل لما أخرج نفسا مؤمنة من جملة الاحياء لزمه أن يدخل نفسا مثلها فى جملة الاحرار لان اطلاقها من قيد الرق كاحيائها من قبل ان الرقيق ملحق بالاموات اذ الرق أثر من آثار الكفر والكفر موت حكما

أومن كان ميتا فاحييناه ولهذا امنع من تصرف الاحرار وهذا مشكل اذ لو كان كذلك لوجب فى العمد أيضا لكن يحتمل أن يقال انما وجب عليه ذلك لان الله تعالى ابقى للقاتل نفسا مؤمنة حيث لم يوجب القصاص فاوجب عليه مثلها رقبة مؤمنة (ودية مسلمة الى أهله) مؤداة الى ورثته يقتسمونها كما يقتسمون الميراث لافرق بينها و بين سائر التركة فى كل شئ فيقضى منها الدين وتنفذ الوصية واذا لم يبق وارث فهى لبيت المال وقد ورث رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة اشيم الضبابى من عقل زوجها اشيم لكن الدية على العاقلة والكفارة على القاتل (الا أن يصدقوا) الا أن يتصدقوا عليه بالدية أى يعفوا عنه والتقدير فعليه دية فى كل حال الا فى حال التصدق عليه بها (فان كان من قوم عدو لكم) فان كان المقتول خطأ من قوم اعداء لكم أى كفرة فالعدو يطلق على الجمع (وهو مؤمن) أى المقتول مؤمن (فتحرير رقبة مؤمنة) يعنى اذا اسلم الحربى فى دار الحرب ولم يهاجر الينا فقتله مسلم خطأ تجب الكفارة بقتله للعصمة المؤثمة وهى الاسلام ولا تجب الدية لان العصمة المقومة بالدار ولم توجد (وان كان) أى المقتول (من قوم بينكم) بين المسلمين (و بينهم ميثاق) عهد (فدية مسلمة الى أهله وتحرير رقبة مؤمنة) أى وان كان المقتول ذميا فحكمه حكم المسلم وفيه دليل على ان دية الذمى كدية المسلم وهو قولنا (فمن لم يجد) رقبة أى لم يملكها ولا ما يتوصل به اليها (فصيام شهرين) فعليه صيام شهرين (متتابعين)

نزلت فى عياش بن أبى ربيعة المخزومى وذلك انه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة قبل الهجرة فاسلم ثم خاف أن يظهر اسلامه لاهله فخرج هاربا الى المدينة وتحصن فى أطم من آطامها والاطم الحصن فجزعت أمه لذلك جزعا شديدا وقالت لابنيها الحرث وأبى جهل ابنى هشام وهما أخوا عياش بن أبى ربيعة لامه والله لا يظلنى سقف ولا أذوق طعاما ولا شرابا حتى تأتيانى به فخرجا فى طلبه وخرج معهما الحرث بن زيد ابن أبى أنيسة حتى أتوا المدينة فأتوا عياشا وهو فى الاطم فقالوا انزل فان أمك لم يأوها سقف بعدك وقد حلفت لا تأكل ولا تشرب حتى ترجع اليها ولك عهد الله علينا ان لا نكرهك على شئ يحول بينك و بين دينك فلما ذكروا له جزع أمه وأوثقوا له العهد بالله نزل اليهم فاخرجوه من المدينة وأوثقوه بنسعة وجلده كل واحد منهم مائة جلدة ثم قدموا به على أمه فلما أتاها قالت لا أحلك من وثاقك حتى تكفر بالذى آمنت به ثم تركوه موثقا فى الشمس ما شاء الله فاعطاهم الذى أرادوا فاتاه الحرث بن زيد فقال يا عياش أهذا الذى كنت عليه لئن كان هدى لقد تركت الهدى ولئن كان ضلالة لقد كنت عليها فغضب عياش من مقالته وقال والله لا ألقاك خاليا الا قتلتك ثم ان عياشا أسلم بعد ذلك وهاجر وأسلم الحرث بن زيد من بعده وهاجر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس عياش حاضرا يومئذ ولم يشعر باسلامه فبينا عياش يسير بظهر قباء اذ لقى الحرث فقتله فقال له الناس ويحك يا عياش أى شئ صنعت انه قد أسلم فرجع عياش الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا رسول الله انه كان من أمرى وأمر الحرث ما قد علمت وانى لم أشعر باسلامه حتى قتلته فنزل وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الا خطأ ومعنى الآية وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا البتة وما كان له سبب جواز قتله وقيل معناه ما كان له ذلك فيما أتاه من ربه وعهد اليه ففيه تحريم قتل المؤمن من كل وجه وقوله تعالى الا خطأ استثناء منقطع معناه لكن ان وقع خطأ فتحرير رقبة وقيل معناه ما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا البتة الا أن يخطئ المؤمن فكفارة خطئه ما ذكر من بعد والخطأ فعل الشئ من غير قصد وتعمد (ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة) يعنى فعليه اعتاق رقبة مؤمنة كفارة (ودية مسلمة الى أهله) أى وعليه دية كاملة مسلمة الى أهل القتيل الذين يرثونه (الا أن يصدقوا) يعنى الا أن يتصدق أهل القتيل على القاتل بالدية و يعفوا عنه (فان كان) يعنى المقتول (من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة) أراد انه اذا كان رجل مسلم فى دار الحرب وهو منفرد مع قوم كفار فقتله من لم يعلم باسلامه فلا دية عليه وعليه الكفارة وقيل المراد منه أنه اذا كان المقتول مسلما فى دار الاسلام وهو من نسب قوم كفار وأهله الذين يرثونه فى دار الحرب وهم حرب للمسلمين ففيه الكفارة ولا دية لاهله وكان الحرث بن زيد من قوم كفار حرب للمسلمين فكان فيه الكفارة تحرير رقبة مؤمنة دون الدية لانه لم يكن بين قومه و بين المسلمين عهد (وان كان من قوم بينكم و بينهم ميثاق) أى عهد (فدية مسلمة الى أهله وتحرير رقبة مؤمنة) يعنى انه اذا كان المقتول كافرا معاهدا أو ذميا فتجب فيه الدية والكفارة (فمن لم يجد) يعنى الرقبة (فصيام شهرين متتابعين) أى فعليه

صيام شهرين متتابعين بدلا عن الرقبة (توبة من الله) يعني جعل الله ذلك توبة لقاتل الخطأ (وكان الله عليما) يعني بمن قتل خطأ (حكيما) يعني فيما حكم به عليه من الدية والكفارة

﴿فصل في أحكام تتعلق بالآية﴾ وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى في بيان صفة القتل﴾ قال الشافعي القتل على ثلاثة أقسام عمد وشبه عمد وخطأ أما العمد المحض فهو أن يقصد قتل انسان بما يقتل به غالبا فقتل به ففيه القصاص عند وجود التكافؤ أو دية حالة مغلظة في مال القاتل وأما شبه العمد فهو ان يقصد ضرب انسان بما لا يقتل بمثله غالبا مثل أن ضربه بعصا خفيفة أو رماه بحجر صغير فمات فلا قصاص عليه وتجب عليه دية مغلظة على عاقلته مؤجلة الى ثلاث سنين وأما الخطأ المحض فهو أن لا يقصد قتله بل قصد شيأ آخر فاصابه فمات منه فلا قصاص عليه وتجب فيه دية مخففة على عاقلته مؤجلة الى ثلاث سنين ومن صور قتل الخطأ أيضا أن يقصد رمي مشرك أو كافر فيصيب مسلما أو يقصد قتل انسان يظنه مشركا بان كان عليه لباس المشركين أو شعارهم فالصورة الاولى خطأ في الفعل والثانية خطأ في القصد ﴿المسئلة الثانية في حكم الديات﴾ فدية الحر المسلم مائة من الابل فاذا عدمت الابل فتجب قيمتها من الدراهم أو الدنانير في قول وفي قول بدل مقدر وهو ألف دينار أو اثنا عشر ألف درهم و يدل على ذلك ماروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال كانت الدية على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانمائة دينار أو ثمانية آلاف درهم قال وكانت دية أهل الكتاب يومئذ على النصف من دية المسلم فكانت كذلك حتى استخلف عمر فقام خطيبا فقال ان الابل قد غلت ففرضها عمر على أهل الذهب ألف دينار وعلى أهل الورق اثني عشر ألف درهم وعلى أهل البقر مائتي بقرة وعلى أهل الشاء ألفي شاة وعلى أهل الحلل مائتي حلة قال وترك دية أهل الكتاب فلم يرفعها فيما رفع من الدية أخرجه أبو داود فذهب قوم الى ان الواجب في الدية مائة من الابل أو ألف دينار أو اثنا عشر ألف درهم وهو قول عروة بن الزبير والحسن البصري و به قال مالك والشافعي وذهب قوم الى انها مائة من الابل أو ألف دينار او عشرة آلاف درهم وهو قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي ودية المرأة نصف دية الذكر الحر ودية أهل الذمة والعهد ثلث دية المسلم ان كان كتابيا وان كان مجوسيا فخمس الثلث ثمانمائة درهم وهو قول سعيد بن المسيب واليه ذهب الشافعي وذهب قوم الى ان دية الذمي والمعاهد مثل دية المسلم روى ذلك عن ابن مسعود وهو قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي وقال قوم دية الذمي نصف دية المسلم وهو قول عمر ابن عبد العزيز و به قال مالك وأحمد والاصل في ذلك ماروى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال دية المعاهد نصف دية الحر أخرجه أبو داود وعنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عقل أهل الذمة نصف عقل المسلمين وهم اليهود والنصارى أخرجه النسائي فمن ذهب الى أن دية أهل الذمة ثلث دية المسلم أجاب عن هذا الحديث بان الاصل في ذلك كان النصف ثم رفعت زمن عمر دية المسلم ولم ترفع دية الذمي فبقيت على أصلها وهو قدر الثلث من دية المسلمين والدية في قتل العمد وشبه العمد مغلظة فتجب ثلاثون حقة وثلاثون جذعة وأربعون خلفة في بطونها أولادها وهذا قول عمر وزيد بن ثابت و به قال عطاء واليه ذهب الشافعي لما روى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قتل متعمدا دفع الى أولياء المقتول فان شاؤا قتلوا وان شاؤا أخذوا الدية وهي ثلاثون حقة وثلاثون جذعة وأربعون خلفة وما صولحوا عليه فهو لهم وذلك لتشديد العقل أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وعن عقبة بن أوس عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال خطب النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فقال الا ان قتيل العمد بالسوط والعصا والحجر مائة من الابل أربعون ثنية الى بازل عامها كلهن خلفة وفي رواية أخرى ألا ان كل قتيل خطأ العمد أو شبه العمد قتيل السوط والعصا مائة من الابل فيها أربعون في بطونها أولادها أخرجه النسائي وذهب قوم الى أن الدية المغلظة أرباع خمس وعشرون

(توبة من الله) قبولا من الله ورحمة منه من تاب الله عليه اذا قبل توبته يعني شرع ذلك توبة منه أو فليتب توبة فهي نصب على المصدر (وكان الله عليما) بما أمر (حكيما) فيما قدر

بنت مخاض وخمس وعشرون بنت لبون وخمس وعشرون حقة وخمس وعشرون جذعة وهذا قول الزهرى وربيعة واليه ذهب مالك وأحمد وأصحاب الرأى وأما دية الخطاء فمخففة وهى أخماس بالاتفاق غير أنهم اختلفوا فى تقسيمها فذهب قوم الى أنها عشرون بنت مخاض وعشرون بنت لبون وعشرون ابن لبون وعشرون حقة وعشرون جذعة وهذا قول عمر بن عبد العزيز وسليمان بن يسار والزهرى وربيعة وبه قال مالك والشافعى وأبدل قوم أبناء اللبون ببنات المخاض يروون ذلك عن ابن مسعود وبه قال أحمد وأصحاب الرأى والدية فى قتل الخطا وشبه العمد على العاقلة وهم العصبات من الذكور ولا يجب على الجانى منها شئ لان النبى صلى الله عليه وسلم أوجبها على العاقلة ودية الاعضاء والاطراف حكمها مبين فى كتب الفقه ودية أعضاء المرأة على النصف من دية أعضاء الرجل والله أعلم ﴿المسئلة الثالثة فى حكم الكفارة﴾ الكفارة اعتاق رقبة مؤمنة وتجب فى مال القاتل سواء كان المقتول مسلما أو معاهدا رجلا كان أو امرأة حرا كان أو عبدا فان لم يجد الرقبة فعليه صيام شهرين متتابعين فالقاتل ان كان واجد الرقبة أو قادرا على تحصيلها بوجود الثمن فاضلا عن نفقته ونفقة عياله وحاجته من مسكن ونحوه فعليه الاعتاق ولا يجوز له ان ينتقل الى الصوم فان عجز عن الرقبة أو عن تحصيل ثمنها فعليه صوم شهرين متتابعين فان افطر يوما متعمدا فى خلال الشهرين أو نسى النية أو نوى صوما آخر وجب عليه استئناف الشهرين وان أفطر يوما بعذر مرض أو سفر هل ينقطع التتابع اختلف العلماء فيه فمنهم من قال ينقطع التتابع وعليه استئناف الشهرين وهو قول النخعى وأظهر قولى الشافعى لانه أفطر مختارا ومنهم من قال لا ينقطع التتابع وعليه ان يبنى وهو قول سعيد بن المسيب والحسن والشعبى ولو حاضت المرأة فى خلال الشهرين أفطرت أيام الحيض ولا ينقطع التتابع فاذا طهرت بنت لانه أمر كتبه الله على النساء ولا يمكن الاحتراز عنه فان عجز عن الصوم فهل ينتقل عنه الى الاطعام فيطعم ستين مسكينا فيه قولان أحدهما أنه ينتقل الى الاطعام كما فى كفارة الظهار والثانى لا ينتقل لان الله تعالى لم يذكر له بدلا فقال فصيام شهرين متتابعين توبة من الله فنص على الصوم وجعل ذلك عقوبة لقتل الخطا والله أعلم

۞ قوله عز وجل (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم) نزلت فى مقيس بن صبابة الكنانى وكان قد أسلم هو وأخوه هشام فوجد أخاه هشاما قتيلا فى بنى النجار فاتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فارسل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من بنى فهر الى بنى النجار ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم ان علمتم قاتل هشام بن صبابة ان تدفعوه الى أخيه مقيس فيقتص منه وان لم تعلموه ادفعوا اليه ديته فبلغهم الفهرى ذلك فقالوا سمعا وطاعة لله ولرسوله ما نعلم له قاتلا ولكنا نؤدى اليه ديته فاعطوه مائة من الابل فانصرفا راجعين نحو المدينة فاتى الشيطان مقيسا فوسوس اليه فقال له تقبل دية أخيك لتكون عليك سبة اقتل الفهرى الذى معك فتكون نفس مكان نفس وفضل الدية فتغفل الفهرى فرماه بصخرة فقتله ثم ركب بعيرا من الابل وساق بقيتها راجعا الى مكة كافرا وقال فى ذلك

قتلت به فهرا وحلت عقله * سراة بنى النجار أرباب قارع
وأدركت ثارى واضطجعت موسدا * وكنت الى الاصنام أول راجع

فنزلت فيه ومن يقتل مؤمنا متعمدا يعنى قاصدا لقتله فجزاؤه جهنم (خالدا فيها) يعنى بكفره وارتداده وهو الذى استثناه النبى صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة عمن أمنه من أهلها فقتل وهو متعلق باستار الكعبة (وغضب الله عليه) يعنى لاجل كفره وقتله المؤمن متعمدا (ولعنه) يعنى وطرده عن رحمته (وأعد له عذابا عظيما) اختلف العلماء فى حكم هذه الآية هل هى منسوخة أم لا وهل لمن قتل مؤمنا متعمدا توبة أم لا فروى عن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس ألمن قتل مؤمنا متعمدا من توبة قال لا فتلوت عليه الآية التى فى الفرقان والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق الى آخر الآية قال هذه آية

(ومن يقتل مؤمنا متعمدا) حال من ضمير القاتل أى قاصدا قتله لايمانه وهو كفر أو قتله مستحلا لقتله وهو كفر أيضا (فجزاؤه جهنم خالدا فيها) أى ان جازاه قال عليه السلام هى جزاؤه ان جازاه والخلود قد يراد به طول المقام وقول المعتزلة بالخروج من الايمان يخالف قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى (وغضب الله عليه ولعنه) أى انتقم منه وطرده من رحمته (وأعد له عذابا عظيما) لارتكابه أمرا عظيما وخطبا جسيما فى الحديث لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرئ مسلم

مكية نسختها آية مدنية ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم وفي رواية قال اختلف أهل الكوفة في قتل المؤمن فرحلت الى ابن عباس فقال نزلت في آخر ما نزل ولم ينسخها شيء وفي رواية أخرى قال ابن عباس نزلت هذه الآية بالمدينة والذين لا يدعون مع الله الها آخر الى قوله مهانا فقال المشركون وما يغني عنا الاسلام وقد عدلنا بالله وقد قتلنا النفس التي حرم الله وأتينا الفواحش فانزل الله تعالى الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا الى آخر الآية زاد في رواية فامامن دخل في الاسلام وعقله ثم قتل فلا توبة له أخرجاه في الصحيحين وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه انه ناظر ابن عباس في هذه الآية فقال من أين لك انها محكمة فقال ابن عباس تكاثف الوعيد فيها وقال ابن مسعود انها محكمة وما تزداد الاشدة وعن خارجة ابن زيد قال سمعت زيد بن ثابت يقول أنزلت هذه الآية ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها بعد التي في الفرقان والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق بستة أشهر أخرجه أبو داود والنسائي وزاد النسائي في رواية بثمانية أشهر وقال زيد بن ثابت لما نزلت هذه الآية التي في الفرقان والذين لا يدعون مع الله الها آخر عجبنا من لينها فلبثنا سبعة أشهر ثم نزلت الغليظة بعد اللينة فنسخت اللينة وأراد بالغليظة هذه الآية التي في سورة النساء وباللينة آية الفرقان وذهب الاكثرون من علماء السلف والخلف الى ان هذه الآية منسوخة واختلفوا في ناسخها فقال بعضهم نسختها التي في الفرقان وليس هذا القول بالقوى لان آية الفرقان نزلت قبل آية النساء والمتقدم لا ينسخ المتأخر وذهب جمهور من قال بالنسخ الى ان ناسخها الآية التي في النساء أيضا وهي قوله تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وأجاب من ذهب الى انها منسوخة عن حديث ابن عباس المتقدم المخرج في الصحيحين بان هذه الآية خبر عن وقوع العذاب بمن فعل ذلك الامر المذكور في الآية والنسخ لا يدخل الاخبار ولئن سلمنا انه يدخلها النسخ لكن الجمع بين الآيتين ممكن بحيث لا يكون بينهما تعارض وذلك بان يحمل مطلق آية النساء على تقييد آية الفرقان فيكون المعنى فجزاؤه جهنم الا من تاب وقال بعضهم ما ورد عن ابن عباس انما هو على سبيل التشديد والمبالغة في الزجر عن القتل فهو كما روى عن سفيان بن عيينة انه قال ان لم يقتل يقال له لا توبة لك وان قتل ثم ندم وجاء تائبا يقال له لك توبة وقيل انه قد روى عن ابن عباس مثله وروى عنه أيضا ان توبته تقبل وهو قول أهل السنة ويدل عليه الكتاب والسنة أما الكتاب فقوله تعالى واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى وقوله ان الله يغفر الذنوب جميعا وأما السنة فما روى عن جابر بن عبد الله قال جاء اعرابي الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ما الموجبتان قال من مات لا يشرك بالله شيأ دخل الجنة ومن مات يشرك به شيأ دخل النار أخرجه مسلم (ق) عن عبادة بن الصامت قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجلس فقال تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيأ ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق وفي رواية ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوني في معروف فمن وفى منكم فاجره على الله ومن أصاب شيأ من ذلك فستره الله عليه فامره الى الله ان شاء عفا عنه وان شاء عذبه فبايعناه على ذلك

﴿فصل﴾ وقد تعلقت المعتزلة والوعيدية بهذه الآية لصحة مذهبهم على أن الفاسق يخلد في النار وأجاب علماء السنة بان الآية نزلت في كافر قتل مسلما وهو مقيس بن صبابة فتكون الآية على هذا مخصوصة وقيل هذا الوعيد لمن قتل مسلما مستحلا لقتله ومن استحل قتل مسلم كان كافرا وهو مخلد في النار بسبب كفره وعن أبي مجلز في قوله تعالى ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم قال هي جزاؤه فان شاء الله أن يتجاوز عن جزائه فعل أخرجه أبو داود وقيل ان الخلود لا يقتضي التأبيد بل معناه دوام الحالة التي هو عليها ويدل عليه قول العرب للايام خوالد وذلك لطول مكثها لا لدوام بقائها واذا ذكر الخلود في حق الكفار قرنه بذكر التأبيد

كقوله خالدين فيها أبدا واذا اقترن الخلود بهذه اللفظة علم أن المراد منه الدوام الذي لا ينقطع اذا ثبت هذا كان معنى الخلود المذكور في الآية ان الله تعالى يعذب قاتل المؤمن عمدا في النار الى حيث يشاء الله ثم يخرجه منها بفضل رحمته وكرمه فانه قد ثبت في أحاديث الشفاعة الصحيحة اخراج جميع الموحدين من النار وقيل ان قاتل المؤمن عمدا عدوانا اذا تاب قبلت توبته بدليل قوله تعالى و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء ولان الكفر أعظم من هذا القتل وتوبة الكافر من كفره مقبولة بدليل قوله قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف واذا كانت التوبة من الكفر مقبولة فلأن تقبل من القاتل أولى والله أعلم ﴿ قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا) الآية قال ابن عباس نزلت في رجل من بني مرة بن عوف يقال له مرداس بن نهيك وكان من أهل فدك لم يسلم من قومه غيره فسمعوا بسرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم تريدهم وكان على السرية رجل يقال له غالب بن فضالة الليثي فهربوا وأقام ذلك الرجل المسلم فلما رأى الخيل خاف ان لا يكونوا مسلمين فألجأ غنمه الى عاقول من الجبل وصعد هو الجبل فلما تلاحقت الخيل سمعهم يكبرون فعرف انهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكبر ونزل وهو يقول لا اله الا الله محمد رسول الله السلام عليكم فتغشاه اسامة بن زيد بسيفه فقتله واستاق غنمه ثم رجعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبروه الخبر فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك وجدا شديدا وكان قد سبقهم الخبر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أقتلتموه ارادة ما معه ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على اسامة بن زيد هذه الآية فقال اسامة استغفر لي يارسول الله فقال كيف أنت بلا اله الا الله يقولها ثلاث مرات قال اسامة فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكررها حتى وددت أني لم أكن أسلمت الا يومئذ ثم استغفر لي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أعتق رقبة وروى أبو ظبيان عن اسامة قال قلت يارسول الله انما قالها خوفا من السلاح فقال أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها خوفا أم لا وفي رواية عن ابن عباس قال مر رجل من بني سليم على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه غنم فسلم عليهم فقالوا انما سلم عليكم ليتعوذ منكم فقاموا اليه فقتلوه وأخذوا غنمه فأتوا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل هذه الآية يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله يعني اذا سافرتم الى الجهاد فتبينوا من البيان يقال تبينت الامر اذا تأملته قبل الاقدام عليه وقرئ فتثبتوا من التثبت وهو خلاف العجلة والمعنى فقفوا وتثبتوا حتى تعرفوا المؤمن من الكافر وتعرفوا حقيقة الامر الذي تقدمون عليه (ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام) يعني التحية يعني لا تقولوا لمن حياكم بهذه التحية انه انما قالها تعوذا فتقدموا عليه بالسيف لتأخذوا ماله ولكن كفوا عنه واقبلوا منه ما أظهره لكم وقرئ السلم بفتح السين من غير ألف ومعناه الاستسلام والانقياد أي استسلم وانقاد لكم وقال لا اله الا الله محمد رسول الله وقيل السلام والسلم بمعنى واحد أي لا تقولوا لمن سلم عليكم (لست مؤمنا) يعني لست من أهل الايمان فتقتلوه بذلك قال العلماء اذا رأى الغزاة في بلد أو قرية أو حي من العرب شعار الاسلام يجب ان يكفوا عنهم ولا يغيروا عليهم لما روي عن عصام المزني قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا بعث جيشا أو سرية يقول لهم اذا رأيتم مسجدا أو سمعتم مؤذنا فلا تقتلوا أحدا أخرجه أبو داود والترمذي وقال أكثر الفقهاء لو قال اليهودي أو النصراني أنا مؤمن لا يحكم بايمانه لانه يدعي أن الذي هو عليه ايمان ولو قال لا اله الا الله محمد رسول الله فعند بعض العلماء لا يحكم باسلامه حتى يتبرأ من دينه الذي كان عليه و يعترف أنه دين باطل وذلك لان بعض اليهود يزعم أن محمدا رسول الى العرب خاصة لا أنه رسول الى كافة الخلق فاذا اعترف أنه رسول الى كافة الخلق وان الذي كان عليه من التهود أو التنصر باطل صح اسلامه وحكم بصحته ﴿ وقوله تعالى (تبتغون عرض الحيوة الدنيا) يعني تطلبون الغنيمة التي هي من حطام الدنيا سريعة النفاد والذهاب وعرض الدنيا منافعها ومتاعها (فعند الله مغانم كثيرة) أي غنائم كثيرة من رزقه يغنمكموها يغنيكم بها

(يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله) سرتم في طريق الغزو (فتبينوا) فتثبتوا حمزة وعلي وهما من التفعل بمعنى الاستفعال أي اطلبوا بيان الامر وثباته ولا تتهوكوا فيه (ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام) السلم مدني وشامي وحمزة وهما الاستسلام وقيل الاسلام وقيل التسليم الذي هو تحية أهل الاسلام (لست مؤمنا) في موضع النصب بالقول وروي ان مرداس بن نهيك أسلم ولم يسلم من قومه غيره فغزتهم سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهربوا وبقي مرداس لثقته باسلامه فلما رأى الخيل ألجأ غنمه الى منعرج من الجبل وصعد فلما تلاحقوا وكبروا كبر ونزل وقال لا اله الا الله محمد رسول الله السلام عليكم فقتله اسامة بن زيد واستاق غنمه فاخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد وجدا شديدا وقال قتلتموه ارادة ما معه ثم قرأ الآية على اسامة (تبتغون عرض الحياة الدنيا) تطلبون الغنيمة التي هي حطام سريع النفاد فهو الذي يدعوكم الى ترك التثبت وقلة البحث عن حال من تقتلونه والعرض المال سمي به لسرعة فنائه وتبتغون حال من ضمير الفاعل في تقولوا (فعند الله مغانم كثيرة) يغنمكموها

تغنيكم

حل بظهر الاسلام و يتعوذ به من التعرض له لتأخذوا ماله

(كذلك كنتم من قبل) أول ما دخلتم في الاسلام سمعت من أفواهكم كلمة الشهادة فحصنت دماءكم وأموالكم من غير انتظار الاطلاع على مواطأة قلوبكم لالسنتكم والكاف في كذلك خبر كان وقد تقدم عليها وعلى اسمها (فمن الله عليكم) بالاستقامة والاشتهار بالايمان فافعلوا بالداخلين في الاسلام كما فعل بكم (فتبينوا) كرر الامر بالتبين ليؤكد عليهم (ان الله كان بما تعملون خبيرا) فلا تتهافتوا في القتل وكونوا محترزين محتاطين في ذلك (لا يستوي القاعدون) عن الجهاد (من المؤمنين غير أولى الضرر) بالنصب مدني وشامي وعلى لانه استثناء من القاعدين أو حال منهم وبالجر عن حمزة صفة للمؤمنين وبالرفع غيرهم صفة للقاعدين والضرر المرض أو العاهة من عمى أو عرج أو زمانة أو نحوها (والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم) عطف على القاعدون ونفي التساوي بين المجاهد والقاعد بغير عذر وان كان معلوما توبيخا للقاعد عن الجهاد وتحريكا له عليه ونحوه هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون فهو تحريك لطلب العلم وتوبيخ على الرضا بالجهل (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين) ذكر هذه الجملة بيانا للجملة الاولى موضحة لما نفى من استواء القاعدين والمجاهدين كأنه قيل مالهم لا يستوون فأجيب بذلك (درجة) نصب على المصدر لوقوعها موقع المرة من التفضيل كأنه قيل فضلهم تفضيلة كقولك ضربه سوطا أو نصب للاسلام

(وكلا) أي وكل فريق من القاعدين والمجاهدين لانه مفعول أول لقوله (وعد الله) والثاني (الحسنى) أي المثوبة الحسنى وهي الجنة وان كان المجاهدون مفضلين على القاعدين درجة (وفضل الله المجاهدين على القاعدين) بغير عذر (أجرا عظيما درجات منه ومغفرة

عن قتل من يظهر الاسلام ويتعوذ به وقيل معناه فعند الله ثواب كثير لمن اتقى قتل المؤمن (كذلك كنتم من قبل) يعني كما كان هذا الذي ألقى اليكم السلام فقلتم له لست مؤمنا فقتلتموه كنتم أنتم من قبل يعني من قبل أن يعز الله دينه كنتم تستخفون أنتم بدينكم كما استخفى هذا الذي قتلتموه بدينه من قومه حذرا على نفسه منهم وقيل معناه كذلك كنتم تأمنون في قومكم بهذه الكلمة فلا تحقروا من قالها ولا تقتلوه وقيل معناه كذلك كنتم من قبل مشركين (فمن الله عليكم) يعني بالاسلام والهداية فلا تقتلوا من قال لا اله الا الله وقيل معناه من عليكم باعلان الاسلام بعد الاختفاء وقيل من عليكم بالتوبة (فتبينوا) أي ولا تعجلوا بقتل مؤمن وهو تأكيد للامر بالتبين (ان الله كان بما تعملون خبيرا) يعني فلا تتهافتوا في القتل وكونوا متحرزين من ذلك محتاطين فيه ۞ قوله عز وجل (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم) الآية (خ) عن زيد بن ثابت قال أملى على النبي صلى الله عليه وسلم لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فجاءه ابن أم مكتوم وهو يملها على فقال والله يا رسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت وكان أعمى فأنزل الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم وفخذه على فخذي فثقلت على حتى خفت أن ترض فخذي ثم سرى عنه فأنزل الله عز وجل غير أولى الضرر (ق) عن البراء بن عازب لما نزلت لا يستوي القاعدون من المؤمنين دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم زيدا فجاء بكتف فكتبها وشكا ابن أم مكتوم ضرارته فنزلت لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر وفي رواية أخرى لما نزلت لا يستوي القاعدون من المؤمنين قال النبي صلى الله عليه وسلم ادعوا فلانا فجاءه ومعه الدواة واللوح والكتف فقال اكتب لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله وخلف النبي صلى الله عليه وسلم ابن أم مكتوم فقال يا رسول الله أنا ضرير فنزلت مكانها لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله هذه الرواية الثانية أخرجها ابن الاثير في كتابه جامع الاصول وأضافها الى البخاري ومسلم ولم أجدها في كتاب الجمع بين الصحيحين للحميدي وفي هذه الآية فضل الجهاد في سبيل الله والحث عليه فقوله تعالى لا يستوي القاعدون من المؤمنين يعني لا يعدل المتخلفون عن الجهاد في سبيل الله من المؤمنين المجاهدين في سبيل الله غير أولى الضرر يعني أولى الزمانة والضعف في البدن والبصر فانهم يساوون المجاهدين لان العذر أقعدهم عن الجهاد (م) عن جابر قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان بالمدينة رجالا ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا الا كانوا معكم حبسهم المرض (خ) عن أنس قال رجعنا من غزوة تبوك مع النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان أقواما خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعبا ولا واديا الا وهم معنا حبسهم العذر (خ) عن ابن عباس قال لا يستوي القاعدون من المؤمنين عن بدر والخارجون اليها ۞ وقوله تعالى (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) يعني فضيلة في الآخرة قال ابن عباس أراد بالقاعدين هنا أولى الضرر فضل الله المجاهدين على أولى الضرر درجة لان المجاهد باشر الجهاد بنفسه وماله مع النية وأولو الضرر كانت لهم نية ولم يباشروا الجهاد فنزلوا عن المجاهدين درجة (وكلا) يعني كلا من المجاهدين والقاعدين (وعد الله الحسنى) يعني الجنة بايمانهم (وفضل الله المجاهدين) يعني في سبيل الله على القاعدين) يعني الذين لا عذر لهم ولا ضرر (أجرا عظيما) يعني ثوابا جزيلا ثم فسر ذلك الاجر العظيم فقال تعالى (درجات منه) قال قتادة كان يقال

للاسلام درجة والهجرة في الاسلام درجة والجهاد في الهجرة درجة والقتل في الجهاد درجة وقال ابن زيد الدرجات هي سبع وهي التي ذكرها الله في سورة براءة حين قال ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله الى قوله ولا يقطعون واديا الا كتب لهم وقال ابن محيريز الدرجات سبعون درجة ما بين كل درجتين حضر الفرس الجواد المضمر سبعين سنة (م) عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من رضي بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا وجبت له الجنة فتعجب لها أبو سعيد فقال أعدها علي يا رسول الله فأعادها عليه ثم قال وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والارض قال وما هي يا رسول الله قال الجهاد في سبيل الله (خ) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان وحج كان حقا على الله أن يدخله الجنة جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها فقالوا أولا نبشر الناس بقولك فقال ان في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والارض فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس الاعلى فانه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة فان قلت قد ذكر الله عز وجل في الآية الاولى درجة واحدة وذكر في هذه الآية درجات فما وجه الحكمة في ذلك قلت أما الدرجة الاولى فلتفضيل المجاهدين على القاعدين بوجود الضرر والعذر وأما الثانية فلتفضيل المجاهدين على القاعدين من غير ضرر ولا عذر فضلوا عليهم بدرجات كثيرة وقيل يحتمل أن تكون الدرجة الاولى درجة المدح والتعظيم والدرجات درجات الجنة ومنازلها كما في الحديث والله أعلم ۞ قوله تعالى (ومغفرة) يعني لذنوبهم يسترها ويصفح عنها (ورحمة) يعني رأفة بهم (وكان الله غفورا) يعني لذنوب عباده المؤمنين (رحيما) يعني بهم يتفضل عليهم برحمته ومغفرته * عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربه عز وجل قال قال أيما عبد من عبادي خرج مجاهدا في سبيل الله ابتغاء مرضاتي ضمنت له ان أرجعته أرجعته بما أصاب من أجر أو غنيمة وان قبضته غفرت له ورحمته أخرجه النسائي

(فصل) اعلم ان الجهاد ينقسم الى فرض عين وفرض كفاية ففرض العين أن يدخل العدو دار قوم من المؤمنين و بلادهم فيجب على كل مكلف من الرجال ممن لا عذر له ولا ضرر به من أهل تلك البلدة الخروج الى عدوهم دفعا عن أنفسهم وعن أهليهم وجيرانهم وسواء في ذلك الحر والعبد والغني والفقير فيجب على الكافة وهو في حق من بعد عنهم من المسلمين فرض كفاية فان لم تقع الكفاية بمن نزل بهم العدو فتجب مساعدتهم على من قرب منهم من المسلمين أو بعد عنهم وان وقعت الكفاية بالمنزول بهم فلا فرض على الابعدين الا على طريق الاختيار ولا يدخل في هذا الفرض أعني فرض الكفاية الفقراء والعبيد واذا كان الكفار قارين في بلادهم فعلى الامام أن لا يخلي كل سنة من غزاة يغزوهم فيها اما بنفسه أو سراياه حتى لا يبطل الجهاد والاختيار والمطيق الجهاد مع وقوع الكفاية بغيره لا يقعد عنه ولكن لا يفرض عليه لان الله تعالى وعد المجاهدين والقاعدين الثواب بقوله وكلا وعد الله الحسنى ولو كان فرضا على الكافة لاستحق القاعدون عن الجهاد العقاب لا الثواب والله أعلم ۞ قوله تعالى (ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم) الآية نزلت في أناس تكلموا بالاسلام ولم يهاجروا منهم قيس بن الفاكه بن المغيرة وقيس بن الوليد بن المغيرة وأشباههما فلما خرج المشركون الى بدر خرجوا معهم فقتلوا مع الكفار فأنزل الله تعالى هذه الآية ان الذين توفاهم الملائكة يعني ملك الموت وأعوانه وهم ستة ثلاثة منهم يلون قبض أرواح المؤمنين وثلاثة يلون قبض أرواح الكفار وقيل أراد به ملك الموت وحده وانما ذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم كما يخاطب الواحد بلفظ الجمع وفي التوفي هنا قولان أحدهما انه قبض أرواحهم الثاني حشرهم الى النار فعلى القول الثاني يكون المراد بالملائكة الزبانية الذين يلون تعذيب الكفار ظالمي أنفسهم يعني بالشرك وقيل بالمقام في دار الشرك وذلك لان الله تعالى لم يقبل الاسلام من أحد بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم حتى يهاجر اليه ثم نسخ

ورحمة) قيل انتصب أجرا بفضل لانه في معنى أجرهم أجرا ودرجات ومغفرة ورحمة بدل من أجرا أو انتصب درجات نصب درجة كانه قيل فضلهم تفضيلا كقولك ضربه أسواطا أي ضربات وأجرا عظيما على انه حال من النكرة التي هي درجات مقدمة عليها ومغفرة ورحمة باضمار فعلهما أي وغفر لهم ورحمهم مغفرة ورحمة وحاصله ان الله تعالى فضل المجاهدين على القاعدين بعذر درجة وعلى القاعدين بغير عذر بأمر النبي عليه السلام اكتفاء بغيرهم درجات لان الجهاد فرض كفاية (وكان الله غفورا) بتكفير العذر (رحيما) بتوفير الاجر ونزل فيمن أسلم ولم يهاجر حين كانت الهجرة فريضة وخرج مع المشركين الى بدر مرتدا فقتل كافرا (ان الذين توفاهم الملائكة) يجوز أن يكون ماضيا لقراءة من قرأ توفتهم ومضارعا بمعنى تتوفاهم وحذفت التاء الثانية لاجتماع التاءين والتوفي قبض الروح والملائكة ملك الموت وأعوانه (ظالمي أنفسهم) حال من ضمير المفعول في توفاهم أي في حال ظلمهم أنفسهم بالكفر وترك الهجرة

(قالوا) أي الملائكة للمتوفين (فيم كنتم) أي في أي شيء كنتم في أمر دينكم ومعناه التوبيخ بانهم لم يكونوا في شيء من الدين (قالوا كنا مستضعفين) عاجزين عن الهجرة (في الارض) أرض مكة فاخرجونا كارهين (قالوا) أي الملائكة موبخين لهم (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) أرادوا انكم كنتم قادرين على الخروج من مكة الى بعض البلاد التي لا تمنعون فيها من اظهار دينكم ومن الهجرة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصب (٤٢٠) فتهاجروا على جواب الاستفهام (فاولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا) خبر ان فاولئك ودخول الفاء لما في الذين من الابهام المشابه بالشرط أو قالوا فيم كنتم والعائد محذوف أي قالوا لهم والآية تدل على ان من لم يتمكن من اقامة دينه في بلد كما يجب وعلم انه يتمكن من اقامته في غيره حقت عليه المهاجرة وفي الحديث من فر بدينه من أرض الى أرض وان كان شبرا من الارض استوجبت له الجنة وكان رفيق أبيه ابراهيم ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم (الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان) استثنى من أهل الوعيد المستضعفين الذين (لا يستطيعون حيلة) في الخروج منهم لفقرهم وعجزهم (ولا يهتدون سبيلا) ولا معرفة لهم بالمسالك ولا يستطيعون صفة للمستضعفين أو للرجال والنساء والولدان وانما جاز ذلك والجمل نكرات لان الموصوف وان كان فيه حرف التعريف فليس بشيء بعينه كقوله * ولقد أمر على اللئيم يسبني * (فاولئك عسى الله أن يعفو عنهم) وعسى وان كان للاطماع وابعد فهو من الله واجب لان الكريم اذا أطمع أنجز (وكان الله عفوا غفورا) لعباده قبل أن يخلقهم (ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الارض مراغما) مهاجرا وطريقا يراغم بسلوكه قومه أي يفارقهم على رغم أنوفهم والرغم الذل والهوان وأصله لصوق الانف بالرغام وهو التراب يقال راغمت الرجل اذا فارقته وهو يكره مفارقتك لمذلة تلحقه بذلك (كثيرا وسعة) في الرزق أو في اظهار الدين أو في الصدر لتبدل الخوف لامن

ذلك بعد فتح مكة بقوله صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية أخرجاه في الصحيحين وقيل ظالمي أنفسهم بخروجهم مع المشركين يوم بدر وتكثير سوادهم حتى قتلوا معهم فضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم (قالوا فيم كنتم) سؤال توبيخ وتقريع يعني قالت الملائكة لهؤلاء الذين قتلوا في أي الفريقين كنتم أفي فريق المسلمين أم في فريق المشركين فاعتذروا بالضعف عن مقاومة المشركين وهو قوله تعالى اخبارا عنهم (قالوا كنا مستضعفين) يعني عاجزين (في الارض) يعني في أرض مكة (قالوا) يعني قال لهم الملائكة (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) يعني الى المدينة وتخرجوا من بين أظهر المشركين فاكذبهم الله في قولهم كنا مستضعفين وأعلمنا بكذبهم (فاولئك) يعني من هذه صفتهم (مأواهم) يعني منزلهم (جهنم وساءت مصيرا) يعني بئس المصير مصيرهم الى جهنم ثم استثنى أهل العذر ومن علم ضعفه منهم فقال تعالى (الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة) يعني لا يقدرون على حيلة ولا نفقة ولا قوة لهم على الخروج من مكة (ولا يهتدون سبيلا) يعني ولا يعرفون طريقا يسلكونه من مكة الى المدينة (فاولئك) يعني المستضعفين من أهل الاعذار (عسى الله أن يعفو عنهم) يعني يتجاوز عنهم بفضله واحسانه وعسى من الله واجب لانه اطماع وترج والله تعالى اذا أطمع عبدا وصله (وكان الله عفوا غفورا) قال ابن عباس كنت انا وأمي ممن عذر الله يعني من المستضعفين وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو لهؤلاء المستضعفين في الصلاة (ق) عن أبي هريرة قال لما رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من الركعة الثانية قال اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين بمكة اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف ❁ قوله عز وجل (ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الارض مراغما كثيرا وسعة) قال الزجاج معنى مراغما مهاجرا يعني يجد في الارض مهاجرا يعني ان المهاجر لقومه والمراغم لهم بمنزلة واحدة وان اختلف اللفظان وهو ماخوذ من الرغام وهو التراب يقال رغم أنفه اذا التصق بالتراب وذلك لان الانف عضو شريف والتراب ذليل حقير فجمعوا قولهم رغم أنفه كناية عن حصول الذل له ويقال راغمت فلانا يعني هجرته وعاديته ولم أبال به رغم أنفه ويقوي ذلك قول بعض أهل اللغة هو الخروج من بلاد العدو برغم أنفه وقيل معناه ان الرجل اذا خرج عن قومه خرج مراغما لهم أي مغاضبا لهم ومقاطعا وقال الفراء المراغم المضطرب والمذهب في الارض وأنشد الزجاج في المعنى

الى بلد غير داني المحل * بعيد المراغم والمضطرب

فعلى هذا يكون معنى الآية يجد مذهبا يذهب اليه اذا رأى ما يكرهه هذا قول أهل اللغة في معنى المراغمة وقال ابن عباس يجد متحولا يتحول اليه من أرض الى أرض وقال مجاهد يجد متزحزحا عما يكره وقيل يجد منقلبا ينقلب اليه وقيل المراغمة والمهاجرة واحدة يقال راغمت قومي أي هاجرتهم وسميت المهاجرة مراغمة لانه يهاجر قومه برغمهم وقوله وسعة يعني في الرزق وقيل يجد سعة من الضلالة الى الهدى وقيل يجد سعة في الارض التي يهاجر اليها قال ابن عباس لما نزلت الآية التي قبل هذه سمعها رجل من بني ليث شيخ كبير مريض يقال له جندع بن ضمرة فقال والله ما أنا ممن استثنى الله عز وجل واني لاجد حيلة ولي من المال ما يبلغني الى المدينة

(ومن يخرج من بيته مهاجرا) حال من الضمير في يخرج (الى الله ورسوله) الى حيث أمر الله ورسوله (ثم يدركه الموت) قبل بلوغه مهاجره وهو عطف على يخرج (فقد وقع أجره على الله) أي حصل له الاجر بوعد الله وهو تأكيد للوعد فلا شيء يجب على الله لاحد من خلقه (وكان الله غفورا رحيما) قالوا كل هجرة لطلب علم أو حج أو جهاد أو فرار الى بلد يزداد فيه طاعة أو قناعة أو زهدا أو ابتغاء رزق طيب فهي هجرة الى الله ورسوله وان أدركه الموت في طريقه فقد وقع أجره على الله (واذا

ضربتم في الارض) سافرتم فيها فالضرب في الارض هو السفر (فليس عليكم جناح) حرج (أن تقصروا) في أن تقصروا (من الصلاة) من أعداد ركعات الصلاة فتصلوا الرباعية ركعتين وظاهر الآية يقتضي ان القصر رخصة في السفر والاكمال عزيمة كما قال الشافعي رحمه الله لان لاجناح يستعمل في موضع التخفيف والرخصة لافي موضع العزيمة وقلنا القصر عزيمة غير رخصة ولا يجوز الاكمال لقول عمر رضي الله عنه صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم صلى الله عليه وسلم وأما الآية فكأنهم ألفوا الاتمام فكانوا مظنة لان يخطر ببالهم أن عليهم نقصانا في القصر فنفي عنهم الجناح لتطيب أنفسهم بالقصر و يطمئنوا اليه (ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) ان خشيتم أن يقصدكم الكفار بقتل

وابعد منها والله لاأبيت الليلة بمكة أخرجوني فخرجوا به يحملونه على سرير حتى أتوا به التنعيم فادركه الموت فصفق بيمينه على شماله ثم قال اللهم هذه لك وهذه لرسولك أبايعك على ما بايعك رسولك ثم مات فبلغ خبره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا لو وفى المدينة لكان أتم وأوفى أجرا وضحك المشركون وقالوا ما أدرك ما طلب فانزل الله عز وجل (ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت) يعني قبل بلوغه الى مهاجره (فقد وقع أجره على الله) يعني فقد وجب أجر هجرته على الله بايجابه على نفسه بحكم الوعد والتفضل والكرم لا وجوب استحقاق وتحتم قال بعض العلماء و يدخل في حكم الآية من قصد فعل طاعة من الطاعات ثم عجز عن اتمامها كتب الله له ثواب تلك الطاعة كاملا وقال بعضهم انما يكتب له أجر ذلك القدر الذي عمل وأتى به اما تمام الاجر فلا والقول الاول أصح لان الآية انما نزلت في معرض الترغيب في الهجرة وان من قصدها ولم يبلغها بل مات دونها فقد حصل له ثواب الهجرة كاملا فكذلك كل من قصد فعل طاعة ولم يقدر على اتمامها كتب الله له ثوابها كاملا (وكان الله غفورا رحيما) يعني و يغفر الله له ما كان منه من القعود قبل الهجرة الى ان خرج مهاجرا ۞ قوله عز وجل (واذا ضربتم في الارض) يعني اذا سافرتم فيها (فليس عليكم جناح) أي حرج واثم (ان تقصروا من الصلاة) يعني من أربع ركعات الى ركعتين وذلك في صلاة الظهر والعصر والعشاء وأصل القصر في اللغة التضييق وقيل هو ضم الشيء الى أصله وفسر ابن الجوزي القصر بالنقص ولم أره لاحد من أهل التفسير واللغة وقيل معنى قصر الصلاة جعلها قصيرة بترك بعض ركعاتها أو بعض أركانها ترخيصا ولهذا السبب ذكروا في تفسير قصر الصلاة المذكورة في الآية قولين أحدهما أنه في عدد الركعات وهو رد الصلاة الرباعية الى ركعتين والقول الثاني ان المراد بالقصر ادخال التخفيف في ادائها وهو ان يكتفي بالايماء والاشارة عن الركوع والسجود والقول الاول أصح و يدل عليه لفظة من في قوله أن تقصروا من الصلاة ولفظة من هنا للتبعيض وذلك يوجب جواز الاقتصار على بعض الصلاة فثبت بهذا ان تفسير القصر باسقاط بعض ركعات الصلاة أولى (ان خفتم أن يفتنكم) يعني يغتالكم و يقتلكم في الصلاة (الذين كفروا) ذهب داود الظاهري الى ان جواز القصر مخصوص بحال الخوف واستدل على صحة مذهبه بقوله تعالى ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ولان عدم الشرط يقتضي عدم المشروط فعلى هذا لا يجوز القصر عند الامن ولا يجوز رفع هذا الشرط بخبر الآحاد لانه يقتضي نسخ القرآن بخبر الواحد وذهب جمهور أهل العلم الى ان القصر في حال الامن في السفر جائز و يدل عليه ما روى عن يعلى بن أمية قال قلت لعمر بن الخطاب فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا فقد أمن الناس فقال عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته أخرجه مسلم وعن عبد الله بن خالد بن أسيد انه قال لابن عمر كيف تقصرون الصلاة وانما قال الله تعالى فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا فقال ابن عمر يا ابن أخي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أتانا ونحن في ضلال فعلمنا فكان فيما علمنا

أو جرح أو أخذ والخوف شرط جواز القصر عند الخوارج بظاهر النص وعند الجمهور ليس بشرط لما روى عن يعلى بن أمية انه قال لعمر ما بالنا نقصر وقد أمنا فقال عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته وفيه دليل على أنه لا يجوز الاكمال في السفر لان التصدق بما لا يحتمل التمليك اسقاط محض لا يحتمل الرد وان كان المتصدق ممن لا تلزم طاعته كولي القصاص اذا عفا فمن تلزم طاعته أولى ولان حالهم حين نزول الآية كذلك فنزلت على وفق الحال وهو كقوله ان أردن تحصنا دليله قراءة عبد الله من الصلاة أن يفتنكم أي لان لا يفتنكم على ان المراد بالآية قصر الاحوال وهو ان يومئ على الدابة عند الخوف أو يخفف القراءة

أن أمرنا أن نصلي ركعتين في السفر أخرجه النسائي وعن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من المدينة الى مكة لا يخاف الا رب العالمين فصلى ركعتين أخرجه الترمذي والنسائي وأجاب الجمهور عن قوله تعالى ان خفتم ان كلمة ان تفيد حصول الشرط ولا يلزم عند عدم الشرط عدم المشروط فقوله تعالى ان خفتم لا يقتضي ان عند عدم الخوف لا تحصل رخصة القصر واذا كان كذلك كانت الآية ساكتة عن حال الامن فاثبات الرخصة حال الامن بخبر الواحد يكون اثباتا لحكم سكت عنه القرآن وذلك غير ممتنع انما الممتنع اثبات الحكم بخبر الواحد على خلاف ما دل عليه القرآن فان قلت اذا كان هذا الحكم ثابتا في حال الامن والخوف فما فائدة تقييده بحال الخوف قلت انما نزلت الآية على غالب أسفار النبي صلى الله عليه وسلم وأكثرها لم يخل عن خوف العدو فذكر الله عز وجل هذا الشرط من حيث انه الاغلب في الوقوع ۞ وقوله تعالى (ان الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا) أي ظاهر العداوة فلعلمي بهذا رخصت لكم في قصر الصلاة لئلا يجدوا الى قتلكم واغتيالكم سبيلا وانما قال عدوا ولم يقل أعداء لانه يستوي فيه الواحد والجمع

﴿فصل في أحكام تتعلق بالآية﴾ وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ في حكم القصر قصر الصلاة في حالة السفر جائز باجماع الامة وانما اختلفوا في جواز الاتمام في حال السفر فذهب أكثر العلماء الى ان القصر واجب في السفر وهو قول عمر وعلي وابن عمر وجابر وابن عباس وبه قال الحسن وعمر بن عبد العزيز وقتادة وهو قول مالك وأبي حنيفة ويدل عليه ما روي عن عائشة قالت فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ثم أتمها في الحضر وأقرت صلاة السفر على الفريضة الاولى وفي رواية أخرى قالت فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين في الحضر والسفر فاقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر أخرجاه في الصحيحين وذهب قوم الى جواز الاتمام في السفر ولكن القصر أفضل يروى ذلك عن عثمان وسعد بن أبي وقاص واليه ذهب الشافعي وأحمد وهو رواية عن مالك أيضا ويدل على ذلك ما روى البغوي بسند الشافعي عن عائشة قالت كل ذلك قد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قصر وأتم وعن عائشة انها اعتمرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة الى مكة حتى اذا قدمت مكة قالت يا رسول الله بابي أنت وأمي قصرت وأتممت وصمت وأفطرت قال أحسنت يا عائشة وما عاب علي أخرجه النسائي وظاهر القرآن يدل على ذلك لان الله تعالى قال فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ولفظة لا جناح انما تستعمل في الرخصة لا فيما يكون حتما وأجيب عن حديث عائشة فرض الله الصلاة ركعتين بان معناه فرضت ركعتين أولا وزيد في صلاة الحضر ركعتان على سبيل التحتم وأقرت صلاة السفر على جواز الاقتصار عليها وثبت جواز الاتمام بدليل آخر فوجب المصير اليه ليمكن الجمع بين الاحاديث ودلائل الشرع ﴿المسئلة الثانية﴾ اختلف في صلاة المسافر اذا صلى ركعتين ركعتين هل هي مقصورة أم غير مقصورة فذهب قوم الى انها غير مقصورة وانما فرض صلاة المسافر ركعتان تمام غير قصر يروى ذلك عن ابن عباس وابن عمر وجابر بن عبد الله واليه ذهب سعيد بن جبير والسدي وأبو حنيفة فعلى هذا يكون معنى القصر المذكور في الآية هو تخفيف ركوعها وسجودها وقد تقدم الجواب عنه وذهب قوم الى انها مقصورة وليست باصل وهو قول مجاهد وطاوس واليه ذهب الشافعي وأحمد (المسئلة الثالثة) ذهب الشافعي ومالك وأحمد والجمهور الى انه يجوز القصر في كل سفر مباح وشرط بعضهم كونه سفر حج أو عمرة أو جهاد أو سفر طاعة ولا يجوز القصر في سفر المعصية وقال أبو حنيفة والثوري يجوز ذلك ﴿المسئلة الرابعة﴾ اختلف العلماء في مسافة القصر فقال داود وأهل الظاهر يجوز القصر في قصير السفر وطويله ويروى ذلك عن أنس أيضا وقال عمرو بن دينار قال لي جابر بن زيد اقصر بعرفة وأما عامة أهل العلم فانهم لا يجوزون القصر في القصير واختلفوا في حد الطويل الذي يجوز فيه القصر فقال الاوزاعي مسيرة يوم وكان ابن عمر وابن عباس يقصران ويفطران في مسيرة أربعة برد وهي ستة عشر فرسخا واليه

والركوع والسجود والتسبيح كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما (ان الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا) فتحرزوا عنهم

ذهب

ذهب مالك وأحمد واسحق وقول الحسن والزهرى قريب من ذلك فانهما قالا مسيرة يومين واليه ذهب الشافعى فقال مسيرة ليلتين ستة عشر فرسخا كل فرسخ ثلاثة أميال فتكون ثمانية وأربعين ميلا بالهاشمى والميل ستة آلاف ذراع والذراع أربعة وعشرون أصبعا معترضة معتدلة والاصبع ست شعيرات معترضات معتدلات وقال الثورى وأبو حنيفة وأهل الكوفة لا قصر فى أقل من ثلاثة أيام

﴿فصل﴾ قيل قوله تعالى ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا كلام متصل بما بعده منفصل عما قبله وتقديره وان خفتم روى عن أبى أيوب الانصارى أنه قال نزل قوله تعالى فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة هذا القدر ثم بعد حول سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة الخوف فنزل ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ان الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا واذا كنت فيهم الآية ومثل هذا فى القرآن كثير يجىء الخبر بتمامه ثم ينسق عليه خبر آخر هو فى الظاهر كالمتصل به وهو منفصل عنه ۞ قوله عز وجل (واذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة) الآية روى عن ابن عباس وجابر أن المشركين لما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه قاموا الى الظهر يصلون جميعا ندموا أن لا كانوا أكبوا عليهم فقال بعضهم لبعض دعوهم فان لهم بعدها صلاة هى أحب اليهم من آبائهم وأبنائهم يعنى صلاة العصر فاذا قاموا اليها فشدوا عليهم فاقتلوهم فنزل جبريل عليه السلام فقال يا محمد انها صلاة الخوف وان الله عز وجل يقول واذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فعلمه صلاة الخوف وروى عن ابن عياش المرزوقى فى سبب نزول هذه الآية قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعسفان وعلى المشركين خالد بن الوليد فصلينا الظهر فقال المشركون لقد أصبنا غرة وفى رواية غفلة ولو حملنا عليهم وهم فى الصلاة فنزلت الآية بين الظهر والعصر قوله تعالى واذا كنت فيهم هذا خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم يعنى واذا كنت يا محمد فى أصحابك وشهدت معهم القتال فأقمت لهم الصلاة (فلتقم طائفة منهم معك) يعنى اذا حان وقت الصلاة وأقمتها لاصحابك فاجعلهم فرقتين فتقف فرقة منهم معك فتصلى بهم (وليأخذوا أسلحتهم) اختلفوا فى هؤلاء الذين أمرهم الله بأخذ السلاح فقيل أراد بهم الذين قاموا معه الى الصلاة فانهم يأخذون أسلحتهم فى الصلاة فعلى هذا القول انما يأخذون من السلاح ما لا يشغلهم عن الصلاة ولا يؤذى به من الى جنبه كالسيف والخنجر وذلك لانه أقرب الى الاحتياط وأمنع للعدو من الاقدام عليهم فان كان السلاح يشغل بحركته وثقله عن الصلاة كالترس الكبير أو يؤذى من الى جنبه كالرمح فلا يأخذه وقيل أراد بهم الطائفة الذين بقوا فى وجه العدو فانهم يأخذون أسلحتهم للحراسة وقيل يحتمل أن يكون أمر للفريقين بحمل السلاح لان ذلك أقرب الى الاحتياط (فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم) يعنى اذا صلى الذين معك وفرغوا من الصلاة فليكونوا من ورائكم يعنى فلينصرفوا الى المكان الذى هو فى وجه العدو للحراسة (ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا) يعنى ولتأت الطائفة التى كانت فى وجه العدو (فليصلوا معك) الركعة الثانية التى بقيت عليك ويتموا بقية صلاتهم (وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم) يعنى ان الله تعالى جعل الحذر وهو التحرز والتيقظ آلة يستعملها الغازى فى دفع العدو فلذلك جعله مأخوذا مع السلاح فان قلت لم ذكر فى أول الآية الاسلحة فقط وذكر هنا الحذر والاسلحة قلت لان العدو قلما يتنبه للمسلمين فى أول الصلاة بل يظنون كونهم قائمين فى المحاربة والمقاتلة فاذا قاموا الى الركعة الثانية ظهر للكفار أن المسلمين فى الصلاة فحينئذ ينتهزون الفرصة فى الاقدام على المسلمين فلا جرم أن الله تعالى أمرهم فى هذا الموضع بزيادة الحذر من الكفار مع أخذ الاسلحة (ود الذين كفروا) يعنى تمنى الكفار (لو تغفلون) يعنى لو وجدوكم غافلين (عن أسلحتكم وأمتعتكم) يعنى حوائجكم التى بها بلاغكم فى أسفاركم فتسهون عنها (فيميلون عليكم ميلة واحدة) يعنى فيقصدونكم ويحملون عليكم حملة واحدة وأنتم مشتغلون بصلاتكم عن

(واذا كنت) يامحمد (فيهم) فى أصحابك (فأقمت لهم الصلاة) فاردت أن تقيم الصلاة (٤٢٣) بهم وبظاهره تعلق أبو يوسف رحمه الله فلا يرى صلاة الخوف بعده عليه السلام وقالا الائمة نواب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل عصر فكان الخطاب له متناولا لكل امام كقوله تعالى خذ من أموالهم صدقة تطهرهم دليله فعل الصحابة رضى الله عنهم بعده عليه السلام (فلتقم طائفة منهم معك) فاجعلهم طائفتين فلتقم احداهما معك فصل بهم وتقوم طائفة تجاه العدو (وليأخذوا أسلحتهم) أى الذين تجاه العدو عن ابن عباس رضى الله عنهما وان كان المراد به المصلين فكانوا يأخذون من السلاح ما لا يشغلهم عن الصلاة كالسيف والخنجر ونحوهما (فاذا سجدوا) أى قيدوا ركعتهم بسجدتين فالسجود على ظاهره عندنا وعند مالك بمعنى الصلاة (فليكونوا من ورائكم) أى اذا صلت هذه الطائفة التى معك ركعة فليرجعوا ليقفوا بازاء العدو (ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا) فى موضع رفع صفة لطائفة (فليصلوا معك) أى ولتحضر الطائفة الواقفة بازاء العدو فليصلوا معك الركعة الثانية (وليأخذوا حذرهم) ما يتحرزون به من العدو كالدرع ونحوه (وأسلحتهم) جمع سلاح وهو ما يقاتل به وأخذ السلاح شرط عند الشافعى رحمه الله وعندنا مستحب وكيفية صلاة الخوف معروفة (ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم) أى تمنوا أن ينالوا منكم غرة فى صلاتكم (فيميلون عليكم ميلة واحدة) فيشدون

أسلحتكم وأمتعتكم فيصيبون منكم غرة فيقتلونكم

﴿فصل في أحكام تتعلق بالآية وصفة صلاة الخوف﴾ وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال أبو يوسف والحسن بن زياد من أصحاب أبي حنيفة صلاة الخوف كانت خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم فلا يجوز لغيره بعده فعلها وقال المزني من أصحاب الشافعي كانت ثابتة ثم نسخت واحتجوا لصحة هذا القول بان الله تعالى خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم فقال تعالى واذا كنت فيهم فاقمت لهم الصلاة وظاهر هذا يدل على ان اقامة الصلاة مشروطة بكون النبي صلى الله عليه وسلم فيهم فدل على تخصيصه بها ولان كلمة اذا تفيد الشرط وذهب جمهور العلماء والفقهاء الى ان هذا الحكم لما ثبت في حق النبي صلى الله عليه وسلم بحكم هذه الآية وجب أن يثبت في حق غيره من أمته لقوله تعالى فاتبعوه ولقوله صلى الله عليه وسلم صلوا كما رأيتموني أصلي ولان ذلك اجماع الصحابة على فعلها وقد روى عن علي بن أبي طالب انه صلى صلاة الخوف باصحابه ليلة الهرير وكذلك أبو موسى صلى باصحابه صلاة الخوف وكذلك حذيفة بن اليمان صلاها باصحابه بطبرستان وليس لهؤلاء مخالف من الصحابة وأجيب عن قوله تعالى واذا كنت فيهم فاقمت لهم الصلاة بان هذا وان كان قد خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم فان سائر أمته داخلون في هذا الحكم فهو كقوله يا أيها النبي اذا طلقتم النساء الا أن يرد نص بتخصيصه صلى الله عليه وسلم بحكم دون أمته كقوله تعالى خالصة لك من دون المؤمنين ونظيره قوله واذا كنت فيهم خذ من أموالهم صدقة فاذا كان هو المخاطب بها وقد ثبت حكم أخذ الزكاة لمن بعده من الائمة كان كذلك قوله واذا كنت فيهم وأجيب عن لفظة اذا بان مقتضاه الثبوت عند الثبوت وأما العدم عند العدم فغير مسلم ﴿المسئلة الثانية﴾ قال الخطابي صلاة الخوف أنواع صلاها النبي صلى الله عليه وسلم في أيام مختلفة وأشكال متباينة يتحرى في ذلك كله ما هو الاحوط للصلاة وأبلغ في الحراسة فهي مع اختلاف صورها متفقة المعنى فمن أنواع صلاة الخوف ما اذا كان العدو في غير جهة القبلة فرق الامام أصحابه فرقتين فتقف طائفة وجاه العدو فتحرس ويصلي بالطائفة الاخرى ركعة فاذا قام الى الثانية أتموا لانفسهم وذهبوا الى وجاه العدو فيحرسون وتأتي الطائفة الثانية التي كانت تحرس فيصلي بهم الركعة الثانية ويثبت جالسا في التشهد حتى يتموا لانفسهم الصلاة ثم يسلم بهم ويدل على ذلك ما روى عن يزيد بن رومان عن صالح بن خوات عمن صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم ذات الرقاع صلاة الخوف ان طائفة صفت معه وطائفة وجاه العدو فصلى بالتي معه ركعة ثم ثبت قائما وأتموا لانفسهم ثم انصرفوا وجاه العدو وجاءت الطائفة الاخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت من صلاته ثم ثبت جالسا فاتموا لانفسهم ثم سلم بهم أخرجاه في الصحيحين الذي صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم هو سهل بن أبي حثمة وقد أخرجاه من رواية أخرى عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم صلى باصحابه وذكر نحوه وهذا هو مختار الشافعي لانه أشد موافقة لظاهر القرآن وأحوط للصلاة وابلغ في حراسة العدو وأما كونه أشد موافقة لظاهر القرآن فان قوله ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك يدل على ان الطائفة الاولى قد صلت وقوله فليصلوا معك ظاهره يدل على ان جميع صلاة الطائفة الثانية حصلت مع الامام وكونها أحوط لامر الصلاة من حيث انه لا يكثر فيها العمل من المجيء والذهاب وكونها أحوط لامر الحرب والحراسة من حيث انه اذا لم يكونوا في الصلاة كان أمكن للحراسة والكر والفر والهرب ان احتاجوا اليه وذهب قوم الى أن الطائفة الاولى تصلي مع الامام ركعة ثم تذهب الى وجه العدو فتحرس وهم في صلاتهم ثم تأتي الطائفة الثانية فتصلي مع الامام الركعة الثانية ويسلم الامام ولا يسلمون هم بل يذهبون الى وجه العدو وترجع الطائفة الاولى الى موضع الامام فتقضي بقية صلاتها ثم تذهب ثم تأتي الطائفة الثانية الى موضع الامام فتقضي بقية صلاتها روى ذلك عن ابن مسعود وهو مذهب أبي حنيفة ويدل على ذلك ما روى عن ابن عمر قال صلى النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف قال فكبر فصلى خلفه طائفة منا وطائفة مواجهة العدو فركع بهم

رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعة وسجد سجدتين ثم انصرفوا ولم يسلموا وأقبلوا على العدو فصفوا مكانهم وجاءت الطائفة الاخرى فصفوا خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى بهم ركعة وسجدتين ثم سلم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تم ركعتين وأربع سجدات ثم قامت الطائفتان فصلى كل انسان منهم لنفسه ركعة وسجدتين أخرجه النسائي قال أبو بكر بن السني سمع الزهري من ابن عمر ولم يسمع هذا منه والذي أخرجاه في الصحيحين عن ابن عمر قال صلى النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف باحدى الطائفتين ركعة والطائفة الاخرى مواجهة العدو ثم انصرفوا وقاموا في مقام أصحابهم مقبلين على العدو وجاء أولئك فصلى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعة ثم قضى هؤلاء ركعة وهؤلاء ركعة وفي رواية أخرى قال صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف في بعض أيامه فقامت طائفة معه وطائفة بازاء العدو فصلى بالذين معه ركعة وجاء الآخرون فصلى بهم ركعة وقضت الطائفتان ركعة ركعة وبهذه الرواية المخرجة في الصحيحين أخذ الاوزاعي وأشهب المالكي وهو جائز عند الشافعي أيضا ثم قيل ان الطائفتين قضوا ركعتهم الباقية معا وقيل متفرقين وهو الصحيح والفرق بين الروايتين ان الطائفة الاولى أدركت أول الصلاة وهي في حكم من خلف الامام وأما الطائفة الثانية فلم تدرك أول الصلاة والمسبوق فيما يقضي كالمنفرد في حكم صلاته ﴿المسئلة الثالثة﴾ فيما اذا كان العدو في ناحية القبلة وصورة هذه الصلاة ما روي عن جابر بن عبد الله قال شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف فصففنا صفين خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم والعدو بيننا وبين القبلة فكبر النبي صلى الله عليه وسلم وكبرنا جميعا ثم ركع وركعنا جميعا ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعا ثم انحدر بالسجود والصف الذي يليه وقام الصف المؤخر في نحر العدو فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم السجود وقام الصف الذي يليه انحدر الصف المؤخر بالسجود وقاموا ثم تقدم الصف المؤخر وتأخر الصف المقدم ثم ركع النبي صلى الله عليه وسلم وركعنا جميعا ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعا ثم انحدر بالسجود والصف الذي يليه الذي كان مؤخرا في الركعة الاولى فقام الصف المؤخر في نحر العدو فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم السجود والصف الذي يليه انحدر الصف المؤخر بالسجود فسجدوا ثم سلم النبي صلى الله عليه وسلم وسلمنا جميعا قال جابر كما يصنع حرسكم هؤلاء بامرائهم أخرجه مسلم بتمامه وأخرج البخاري طرفا منه أنه صلى صلاة الخوف مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغزوة السابعة غزوة ذات الرقاع وبهذا الحديث أخذ الشافعي ومن وافقه فيما اذا كان العدو في جهة القبلة ﴿المسئلة الرابعة﴾ اذا اشتد الحرب والتحم القتال صلوا رجالا وركبانا يومؤن بالركوع والسجود الى أي جهة كانت هذا مذهب الشافعي ومذهب أبي حنيفة أنهم لا يصلون في هذه الحالة فاذا أمنوا قضوا ما فاتهم من الصلاة ولصلاة الخوف صور أخر مذكورة في كتب الفقه وليس هذا موضعها والله أعلم ۞ وقوله تعالى (ولا جناح عليكم) أي ولا اثم ولا حرج عليكم (ان كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم) قال ابن عباس رخص الله لهم في وضع السلاح في حال المطر وحال المرض لان السلاح يثقل حمله في هاتين الحالتين (وخذوا حذركم) يعني راقبوا عدوكم ولا تغفلوا عنه أمرهم الله بالتحفظ والتحرز والاحتياط لئلا يتجرأ العدو عليهم قال ابن عباس نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم وذلك انه غزا بني محارب وبني أنمار فنزلوا ولا يرون من العدو أحدا فوضع الناس السلاح فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجة حتى قطع الوادي والسماء ترش بالمطر فسال الوادي فحال السيل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أصحابه فجلس تحت شجرة فبصر به غورث بن الحارث المحاربي فقال قتلني الله ان لم أقتله ثم انحدر من الجبل ومعه السيف ولم يشعر به رسول الله صلى الله عليه وسلم الا وهو قائم على رأسه وقد سل السيف من غمده وقال يا محمد من يمنعك مني الآن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله عز وجل ثم قال اللهم اكفني غورث بن الحرث بما شئت فاهوى غورث بالسيف ليضرب رسول الله صلى الله

عليكم شدة واحدة (ولا جناح عليكم ان كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا) في أن تضعوا (أسلحتكم وخذوا حذركم) رخص لهم في وضع الاسلحة ان ثقل عليهم حملها بسبب ما يبلهم من مطر أو يضعفهم من مرض وأمرهم مع ذلك باخذ الحذر لئلا يغفلوا فيهجم عليهم العدو

(ان الله أعد للكافرين عذابا مهينا) أخبر انه يهين عدوهم لتقوى قلوبهم وليعلموا أن الامر بالحذر ليس لتوقع غلبتهم عليهم وانما هو تعبد من الله تعالى (فاذا قضيتم الصلوة) فرغتم منها (فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم) أى دوموا على ذكر الله فى جميع الاحوال أو فاذا أردتم أداء الصلاة فصلوا قياما ان قدرتم عليه وقعودا ان عجزتم عن القيام ومضطجعين ان عجزتم عن القعود (فاذا اطمأننتم) سكنتم بزوال الخوف (فأقيموا الصلاة) فأتموها

بطائفة واحدة أو واذا أقمتم فأتموا ولا تقصروا أو واذا اطمأننتم بالصحة فأتموا القيام والركوع والسجود (ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) مكتوبا محدودا بأوقات معلومة (ولا تهنوا) ولا تضعفوا ولا تتوانوا (فى ابتغاء القوم) فى طلب الكفار بالقتال والتعرض به لهم ثم الزمهم الحجة بقوله (ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون) أى ليس ما تجدون من الالم بالجرح والقتل مختصا بكم بل هو مشترك بينكم وبينهم يصيبهم كما يصيبكم ثم انهم يصبرون عليه فما لكم لا تصبرون مثل صبرهم مع انكم أجدر منهم بالصبر لانكم ترجون من الله مالا يرجون من اظهار دينكم على سائر الاديان ومن الثواب العظيم فى الآخرة (وكان الله عليما) بما يجد المؤمنون من الالم (حكيما) فى تدبير أمورهم روى ان طعمة بن أبيرق أحد بنى ظفر سرق درعا من جار له اسمه قتادة بن النعمان فى جراب دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه وخبأها عند زيد بن السمين رجل من اليهود فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد وحلف ما أخذها وماله بها علم فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى الى منزل اليهودى فاخذوها فقال دفعها الى طعمة وشهد له ناس من اليهود فقالت بنو ظفر انطلقوا بنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا ان لم تفعل هلك صاحبنا وافتضح وبرئ اليهودى فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل فنزل

عليه وسلم فاكب لوجهه ٤ من زلخة زلخها فندر السيف من يده فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخذ السيف ثم قال يا غورث من يمنعك منى الآن فقال لا أحد فقال أتشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأعطيك سيفك فقال لا ولكن أشهد أن لا أقاتلك أبدا ولا أعين عليك عدوا فاعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه فقال غورث لانت خير منى فقال النبى صلى الله عليه وسلم أجل أنا أحق بذلك منك فرجع غورث الى أصحابه فقالوا له ويلك يا غورث ما منعك منه فقال والله لقد أهويت اليه بالسيف لاضربه به فوالله ما أدرى من زلخنى بين كتفى فخررت لوجهى وذكر حاله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وسكن الوادى فقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم الوادى الى أصحابه وأخبرهم الخبر وقرأ هذه الآية ولا جناح عليكم ان كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى قال ابن عباس كان عبد الرحمن بن عوف جريحا فنزلت فيه أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم يعنى من عدوكم (ان الله أعد للكافرين عذابا مهينا) يعنى يهانون به ۞ قوله عز وجل (فاذا قضيتم الصلوة) يعنى فاذا فرغتم من صلاة الخوف (فاذكروا الله) يعنى بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وأثنوا على الله فى جميع أحوالكم (قياما وقعودا وعلى جنوبكم) فان ما أنتم عليه من الخوف جدير بالمواظبة على ذكر الله عز وجل والتضرع اليه (ق) عن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله فى كل أحيانه وقيل المراد بالذكر الصلاة يعنى فصلوا لله قياما يعنى فى حال الصحة وقعودا فى حال المرض وعلى جنوبكم يعنى فى حال الزمانة والجراح (فاذا اطمأننتم) يعنى فاذا أمنتم وسكنت قلوبكم وأصل الطمأنينة سكون القلب (فأقيموا الصلاة) يعنى فأتموها أربعا فعلى هذا يكون المراد بالطمأنينة ترك السفر والمعنى فاذا صرتم مقيمين فى أوطانكم فاقيموا الصلاة تامة أربعا من غير قصر وقيل معناه فاقيموا الصلاة باتمام ركوعها وسجودها فعلى هذا يكون المراد بالطمأنينة سكون القلب عن الاضطراب والامن بعد الخوف (ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) يعنى فرضا موقتا والكتاب هنا بمعنى المكتوب يعنى المكتوبة موقتة فى أوقات محدودة فلا يجوز اخراجها عن أوقاتها على أى حال كان من خوف أو أمن وقيل معناه فرضا واجبا مقدرا فى الحضر أربع ركعات وفى السفر ركعتين ۞ قوله تعالى (ولا تهنوا فى ابتغاء القوم) سبب نزول هذه الآية ان أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا يوم أحد بعث النبى صلى الله عليه وسلم فى آثارهم فشكوا من ألم الجراحات فقال الله تعالى ولا تهنوا يعنى ولا تضعفوا ولا تتوانوا فى ابتغاء القوم يعنى فى طلب أبى سفيان وأصحابه ثم أورد عليهم الحجة فى ذلك وألزمهم بها فقال تعالى (ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون) يعنى ان حصول الالم قدر مشترك بينكم وبينهم وليس ما تكابدون من الوجع وألم الجراح مختصا بكم بل هم كذلك فاذا لم يكن الالم مانعا لهم عن قتالكم فكيف يكون مانعا لكم عن قتالهم وكيف لا تصبرون مثل صبرهم مع انكم أولى بالصبر منهم لانكم تقرون بالحشر والنشر والثواب والعقاب والمشركون لا يقرون بذلك كله فانتم أيها المؤمنون أولى بالجهاد منهم وهو قوله تعالى (وترجون من الله مالا يرجون) يعنى وتأملون من الله من الثواب فى الآخرة مالا يرجون وقيل ترجون النصر والظفر فى الدنيا واظهار دينكم على الاديان كلها

وكان

٤ قوله من زلخة هى وجع يأخذ فى الظهر فيصلب ويغلظ حتى لا يتحرك معه اهـ مصححه

(وكان الله عليما حكيما) يعني انه تعالى لا يأمركم بشئ الا وهو يعلم انه مصلحة لكم ۞ قوله عز وجل (انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق) قال ابن عباس نزلت هذه الآية في رجل من الانصار يقال له طعمة بن أبيرق من بني ظفر بن الحرث سرق درعا من جار له يقال له قتادة بن النعمان وكانت الدرع في جراب فيه دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خرق في الجراب حتى انتهى الى داره ثم خبأها عند رجل من اليهود يقال له زيد بن السمين فالتمست الدرع عند طعمة فحلف بالله ما أخذها وماله بها من علم فقال أصحاب الدرع لقد رأينا أثر الدقيق حتى دخل داره فلما حلف تركوه واتبعوا أثر الدقيق الى منزل اليهودي فاخذوه منه فقال اليهودي دفعها الى طعمة ابن أبيرق زاد في الكشاف وشهد له جماعة من اليهود قال البغوي وجاء بنو ظفر قوم طعمة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألوه أن يجادل عن صاحبهم طعمة فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعاقب اليهودي وأن يقطع يده فانزل الله هذه الآية وقيل ان زيد بن السمين أودع الدرع عند طعمة فجحده طعمة فانزل الله هذه الآية انا أنزلنا اليك يعني يا محمد الكتاب يعني القرآن بالحق يعني بالصدق و بالامر والنهي والفصل (لتحكم بين الناس بما أراك الله) يعني بما علمك الله وأوحى اليك وانما سمي العلم اليقيني رؤية لانه جرى مجرى الرؤية في قوة الظهور روي عن عمر أنه قال لا يقولن أحدكم قضيت بما أراني الله فان الله لم يجعل ذلك الالنبيه صلى الله عليه وسلم ولكن ليجهد رأيه لان الرأي من رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مصيبا لان الله تعالى كان يريه اياه وان رأي أحدنا يكون ظنا ولا يكون علما قال المحققون دلت هذه الآية على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يحكم الا بالوحي الالهي والنص المنزل عليه (ولا تكن) يعني يا محمد (للخائنين خصيما) يعني ولا تكن لاجل الخائنين وهم قوم طعمة تخاصم عنهم وتجادل عن طعمة مدافعا عنه ومعينا له (واستغفر الله) يعني مما هممت به من معاقبة اليهودي وقيل من جدالك عن طعمة (ان الله كان غفورا) يعني لذنوب عباده يسترها عليهم و يغفرها لهم (رحيما) يعني بعباده المؤمنين

﴿فصل﴾ وقد تمسك بهذه الآية من يرى جواز صدور الذنب من الانبياء وقالوا لولم يقع من الرسول صلى الله عليه وسلم ذنب لما أمر بالاستغفار والجواب عما تمسكوا به من وجوه أحدها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفعل المنهي عنه في قوله ولا تكن للخائنين خصيما ولم يخاصم عن طعمة لما سأله قومه ان يذب عنه وأن يلحق السرقة باليهودي فتوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك وانتظر ما يأتيه من الوحي السماوي والامر الالهي فنزلت هذه الآية واعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بان طعمة كذاب وان اليهودي بريء من السرقة وانما مال صلى الله عليه وسلم الى نصرة طعمة وهم بذلك بسبب انه في الظاهر من المسلمين فامره الله بالاستغفار لهذا القدر الوجه الثاني ان قوم طعمة لما شهدوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ببراءة طعمة من السرقة ولم يظهر في الحال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما يوجب القدح في شهادتهم هم بان يقضي على اليهودي بالسرقة فلما أطلعه الله على كذب قوم طعمة عرف انه لو وقع ذلك الامر لكان خطأ في نفس الامر فامره الله بالاستغفار منه وان كان معذورا الوجه الثالث يحتمل أن الله تعالى أمره بالاستغفار لقوم طعمة لذبهم عن طعمة فان استغفاره صلى الله عليه وسلم يحتمل أن يكون لذنب قد سبق قبل النبوة وأن يكون لذنوب أمته الوجه الرابع ان درجة النبي صلى الله عليه وسلم أعلى الدرجات ومنصبه أشرف المناصب فلعلو درجته وشرف منصبه وكمال معرفته بالله عز وجل فما يقع منه على وجه التأويل أو السهو أو أمر من أمور الدنيا فانه ذنب بالنسبة الى منصبه صلى الله عليه وسلم كما قيل حسنات الابرار سيآت المقربين وذلك بالنسبة الى منازلهم ودرجاتهم والله أعلم ۞ قوله تعالى (ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم) يعني ولا تجادل يا محمد عن الذين يظلمون أنفسهم بالخيانة وهم طعمة ومن عاونه وذب عنه من قومه وانما سماهم خائنين لان من أقدم على ذنب فقد خان نفسه لانه أوقعها في العذاب وحرمها من الثواب ولهذا قيل لمن يظلم غيره انما ظلم نفسه وقيل المراد بهذا الجمع كل من خان خيانة أي فلا تخاصم الخائن

(انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق) أي محقا (لتحكم بين الناس بما أراك الله) بما عرفك وأوحى به اليك وقال الشيخ أبو منصور رحمه الله بما ألهمك بالنظر في أصوله المنزلة وفيه دلالة جواز الاجتهاد في حقه (ولا تكن للخائنين) لاجل الخائنين (خصيما) مخاصما أي ولا تخاصم اليهود لاجل بني ظفر (واستغفر الله) مما هممت به (ان الله كان غفورا رحيما ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم) يخونونها بالمعصية جعلت معصية العصاة خيانة منهم لانفسهم لان الضرر راجع اليهم والمراد به طعمة ومن عاونه من قومه وهم يعلمون أنه سارق أو ذكر بلفظ الجمع لتناول طعمة وكل من خان خيانته (ان الله لا يحب من كان خوانا أثيما)

وانما قيل بلفظ المبالغة لانه تعالى عالم من طعمة أنه مفرط فى الخيانة وركوب المآثم وروى أن طعمة هرب الى مكة وارتد ونقب حائطا بمكة ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله وقيل اذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم ان لها أخوات وعن عمر رضى الله عنه انه أمر بقطع يد سارق فجاءت أمه تبكى وتقول هذه أول سرقة سرقها فاعف عنه فقال كذبت ان الله لا يؤاخذ عبده فى أول مرة (يستخفون) يستترون (من الناس) حياء منهم وخوفا من ضررهم (ولا يستخفون من الله) ولا يستحيون منه (وهو معهم) وهو عالم بهم

ولا تجادل عنه (ان الله لا يحب من كان خوانا أثيما) يعنى خوانا بسرقة الدرع أثيما برميه اليهودى وهو برىء وانما قال تعالى خوانا أثيما على المبالغة لانه تعالى علم من طعمة الافراط فى الخيانة وركوب المآثم ويدل على ذلك أنه لما نزل فيه القرآن لحق بمكة مرتدا عن دينه ثم عدا على الحجاج بن علاط فنقب عليه بيته فسقط عليه حجر من الحائط فلما أصبحوا أخرجوه من مكة فلقى ركبا فعرض لهم وقال ابن سبيل ومنقطع به فحملوه حتى اذا جن عليه الليل عدا عليهم فسرقهم ثم انطلق فركبوا فى طلبه فادركوه فرموه بالحجارة حتى مات ومن كانت هذه حاله كان كثير الخيانة والاثم فلذلك وصفه الله تعالى بالمبالغة فى الخيانة والاثم قال بعضهم اذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم ان لها أخوات وروى عن عمر انه أمر بقطع يد سارق فجاءت أمه تبكى وتقول هذه أول سرقة سرقها فاعف عنه يا أمير المؤمنين فقال كذبت ان الله لا يؤاخذ عبده فى أول مرة ۞ قوله عز وجل (يستخفون من الناس) يعنى يستترون حياء من الناس يريد بذلك بنى ظفر بن الحرث وهم قوم طعمة ابن أبيرق (ولا يستخفون من الله) يعنى ولا يستترون من الله ولا يستحيون منه وأصل الاستخفاء الاستتار وانما فسر الاستخفاء بالاستحياء على المعنى لان الاستحياء من الناس يوجب الاستتار منهم (وهو معهم) يعنى والله معهم بالعلم والقدرة ولا يخفى عليه شئ من حالهم لانه تعالى لا تخفى عليه خافية وكفى بذلك زجرا للانسان عن ارتكاب الذنوب (اذ يبيتون مالا يرضى من القول) يعنى يضمرون ويقدرون ويزورون فى أذهانهم وأصل التبييت تدبير الفعل بالليل وذلك ان قوم طعمة قالوا فيما بينهم نرفع الامر الى النبى صلى الله عليه وسلم فانه يسمع قول طعمة ويقبل يمينه لانه مسلم ولا يسمع قول اليهودى لانه كافر فلم يرض الله تعالى بذلك منهم فاطلع نبيه صلى الله عليه وسلم على سرهم وما هموا به (وكان الله بما يعملون محيطا) يعنى انه تعالى لا يخفى عليه شئ من أسرار عباده وهو مطلع عليهم ومحيط بهم لا تخفى عليه خافية (ها أنتم هؤلاء) ها للتنبيه يعنى يا هؤلاء الذين هو خطاب لقوم من المؤمنين كانوا يذبون عن طعمة وعن قومه (جادلتم عنهم) يعنى خاصمتم عنهم بسبب أنهم كانوا يرونهم فى الظاهر مسلمين وأصل الجدال شدة القتل لان كل واحد من الخصمين يريد أن يفتل صاحبه عما هو عليه والمعنى هبوا أنكم خاصمتم وجادلتم عن طعمة وقومه (فى الحيوة الدنيا) وقيل هو خطاب لقوم طعمة وفى قراءة ابن مسعود جادلتم عنه والمعنى هبوا أنكم خاصمتم عن طعمة فى الحياة الدنيا (فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة) يعنى اذا أخذه بعذابه فهو استفهام بمعنى التوبيخ والتقريع (أم من يكون عليهم وكيلا) يعنى محافظا ومحاميا عنهم من بأس الله اذا نزل بهم ۞ قوله تعالى (ومن يعمل سوأ أو يظلم نفسه) نزلت هذه الآية فى ترغيب طعمة فى التوبة وعرضها عليه وقيل نزلت فى قومه الذين جادلوا عنه وقيل هى عامة فى كل مسىء ومذنب لان خصوص السبب لا يمنع من اطلاق الحكم ومعنى الآية ومن يعمل سوأ يسىء به غيره كما فعل طعمة بالسرقة من قتادة وانما خص ما يتعدى الى الغير باسم السوء لان ذلك يكون فى الاكثر ايصالا للضرر الى الغير أو يظلم نفسه يعنى فيما يختص به من الحلف الكاذب ونحو ذلك وقيل معناه ومن يعمل سوأ أى قبيحا أو يظلم نفسه برميه البرىء وقيل السوء كل ما يأثم به

مطلع عليهم لا يخفى عليه خاف من سرهم وكفى بهذه الآية ناعية على الناس ماهم فيه من قلة الحياء والخشية من ربهم مع علمهم أنهم فى حضرته لا سترة ولا غيبة (اذ يبيتون) يدبرون وأصله أن يكون ليلا (مالا يرضى من القول) وهو تدبير طعمة أن يرمى بالدرع فى دار زيد ليسرق دونه ويحلف انه لم يسرقها وهو دليل على أن الكلام هو المعنى القائم بالنفس حيث سمى التدبير قولا (وكان الله بما يعملون محيطا) عالما علم احاطة (ها أنتم هؤلاء) ها للتنبيه فى أنتم وأولاء وهما مبتدأ وخبر (جادلتم) خاصمتم وهى جملة مبينة لوقوع أولاء خبرا كقولك لبعض الاسخياء أنت حاتم تجود بمالك وأولاء اسم موصول بمعنى الذين وجادلتم صلته والمعنى هبوا أنكم خاصمتم (عنهم) عن طعمة وقومه (فى الحيوة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة) فمن

الانسان

يخاصم عنهم فى الآخرة اذا أخذهم الله بعذابه وقرئ عنه أى عن طعمة (أم من يكون عليهم وكيلا) حافظا ومحاميا من بأس الله وعذابه (ومن يعمل سوأ) ذنبا دون الشرك (أو يظلم نفسه) بالشرك أو سوأ قبيحا يتعدى ضرره الى الغير كما فعل طعمة بقتادة واليهودى أو يظلم نفسه بما يختص به كالحلف الكاذب (ثم يستغفر الله) يسأل مغفرته (يجد الله غفورا رحيما) له وهذا بعث لطعمة على الاستغفار والتوبة (ومن يكسب اثما فانما يكسبه على نفسه) لان وباله عليها (وكان الله عليما حكيما) فلا يعاقب بالذنب غير فاعله

الانسان والظلم هو الشرك فما دونه (ثم يستغفر الله) يعني من ذنوبه (يجد الله غفورا رحيما) ففي هذه الآية دليل على حكمين أحدهما أن التوبة مقبولة عن جميع الذنوب الكبائر والصغائر لان قوله ومن يعمل سوأ أو يظلم نفسه عم الكل والحكم الثاني أن ظاهر الآية يقتضي أن مجرد الاستغفار كاف وقال بعضهم انه مقيد بالتوبة لانه لا ينفع الاستغفار مع الاصرار على الذنوب (ومن يكسب اثما) يعني ومن يعمل ذنبا يأثم به (فانما يكسبه على نفسه) يعني انما يعود وبال كسبه عليه والكسب عبارة عما يفيد جر منفعة أو دفع مضرة فكأنه تعالى يقول يا أيها الانسان ان الذنب الذي ارتكبته انما عادت مضرته عليك فاني منزه عن الضرر والنفع فأكثر من الاستغفار ولا تيأس من قبول التوبة فاني لغفار لمن تاب وهذه الآية نزلت في طعمة أيضا (وكان الله عليما) يعني بسارق الدرع (حكيما) يعني اذ حكم عليه بالقطع وقيل معناه عليما بما في قلب عبده عند اقدامه على التوبة حكيما تقتضي حكمته أن يتجاوز عن التائب ويغفر له ويقبل توبته (ومن يكسب خطيئة أو اثما) قيل ان الخطيئة هي الصغيرة من الذنوب والاثم هو الكبيرة وقيل الخطيئة هي الذنب المختص بفاعله والاثم الذنب المتعدي الى الغير وقيل ان الخطيئة هي سرقة الدرع والاثم هو يمينه الكاذبة (ثم يرم به بريأ) يعني ثم يقذف بما جناه بريأ منه وهو نسبة السرقة الى اليهودي ولم يسرق فان قلت الخطيئة والاثم اثنان فكيف وحد الضمير في قوله ثم يرم به قلت معناه ثم يرم باحد هذين المذكورين بريأ وقيل معناه ثم يرم بهما فاكتفى باحدهما عن الآخر وقيل انه يعود الضمير الى الاثم وحده لانه أقرب مذكور وقيل ان الضمير يعود الى الكسب ومعناه ثم يرم بما كسب بريأ (فقد احتمل بهتانا) البهتان من البهت وهو الكذب الذي يتحير في عظمه (واثما مبينا) يعني ذنبا بينا لانه بكسب الاثم آثم وبرميه البريء باهت فقد جمع بين الامرين ۞ قوله عز وجل (ولولا فضل الله عليك ورحمته) هذه الآية متعلقة بقصة طعمة بن أبيرق وقومه حيث لبسوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر صاحبهم فقوله تعالى ولولا فضل الله عليك يعني يا محمد بالنبوة ورحمته يعني بالعصمة وما أوحي اليك من الاطلاع على أسرارهم فهو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم (لهمت طائفة منهم) يعني من بني ظفر وهم قوم طعمة (أن يضلوك) يعني عن القضاء بالحق وتوخي طريق العدل وقيل معناه يخطئوك في الحكم ويلبسوا عليك الامر حتى تدفع عن طعمة وذلك لان قوم طعمة عرفوا انه سارق ثم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يدفع عنه وينزهه عن السرقة ويرمي بها اليهودي (وما يضلون الا أنفسهم) يعني ان وبال ذلك يرجع عليهم بسبب تعاونهم على الاثم وبشهادتهم له أنه بريء فهم لما قدموا على ذلك رجع وباله عليهم (وما يضرونك من شئ) يعني انهم وان سعوا في القائك في الباطل فانت ما وقعت فيه لانك بنيت الامر على ظاهر الحال وما خطر ببالك أن الامر على خلاف ذلك وقيل معناه وما يضرونك من شئ في المستقبل فوعده الله ادامة العصمة وانه لا يضره أحد (وأنزل الله عليك الكتاب) يعني القرآن (والحكمة) يعني القضاء بهما يعني وأوجب بهما بناء الحكم على الظاهر فكيف يضرونك بالقائك في الشبهات (وعلمك ما لم تكن تعلم) يعني من أحكام الشرع وأمور الدين وقيل علمك من علم الغيب ما لم تكن تعلم وقيل معناه وعلمك من خفيات الامور وأطلعك على ضمائر القلوب وعلمك من أحوال المنافقين وكيدهم ما لم تكن تعلم (وكان فضل الله عليك عظيما) يعني ولم يزل فضل الله عليك يا محمد عظيما فاشكره على ما أولاك من احسانه ومن عليك بنبوته وعلمك ما أنزل عليك من كتابه وحكمته وعصمك ممن حاول اضلالك فان الله هو الذي تولاك بفضله وشملك باحسانه وكفاك غائلة من أرادك بسوء ففي هذه الآية تنبيه من الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على ما حباه من ألطافه وما شمله من فضله واحسانه ليقوم بواجب حقه ۞ قوله تعالى (لا خير في كثير من نجواهم) يعني من نجوى قوم طعمة وقيل هي عامة في جميع ما يتناجى الناس به والنجوى هي الاسرار في التدبير وقيل النجوى ما تفرد بتدبيره قوم سرا كان ذلك أو جهرا وناجيته ساررته وأصله أن

ومن يكسب خطيئة) صغيرة (أو اثما) أو كبيرة أو الاول ذنب بينه وبين ربه والثاني ذنب في مظالم العباد (ثم يرم به بريأ) كما رمى طعمة زيدا (فقد احتمل بهتانا) كذبا عظيما (واثما مبينا) ذنبا ظاهرا وهذا لانه بكسب الاثم آثم وبرمي البريء باهت فهو جامع بين الامرين والبهتان كذب يبهت من قيل عليه ما لا علم له به (ولولا فضل الله عليك ورحمته) أي عصمته ولطفه من الاطلاع على سرهم (لهمت طائفة منهم) من بني ظفر والمراد بالطائفة بنو ظفر والضمير في منهم يعود الى الناس (ان يضلوك) عن القضاء بالحق وتوخي طريق العدل مع علمهم بان الجاني صاحبهم (وما يضلون الا أنفسهم) لان وباله عليهم (وما يضرونك من شئ) لانك انما عملت بظاهر الحال وما كان يخطر ببالك ان الحقيقة على خلاف ذلك (وأنزل الله عليك الكتاب) القرآن (والحكمة) والسنة (وعلمك ما لم تكن تعلم) من أمور الدين والشرائع أو من خفيات الامور وضمائر القلوب (وكان فضل الله عليك عظيما) فيما علمك وأنعم عليك (لا خير في كثير من نجواهم) من تناجي الناس

(الامن أمر بصدقة) الا نجوى من أمر وهو مجرور بدل من كثير أو من نجواهم أو منصوب على الانقطاع بمعنى ولكن من أمر بصدقة ففي نجواه الخير (أو معروف) أي قرض أو اغاثة ملهوف أو كل جميل أو المراد بالصدقة الزكاة وبالمعروف التطوع (أو اصلاح بين الناس) أي اصلاح ذات البين (ومن يفعل ذلك) المذكور (ابتغاء مرضات الله) طلب رضا الله وخرج عنه من فعل ذلك رياء أو ترؤسا وهو مفعول له والاشكال انه قال الامن أمر ثم قال ومن يفعل ذلك والجواب انه ذكر الامر بالخير ليدل به على فاعله لانه اذا دخل الآمر به في زمرة الخيرين كان الفاعل فيهم أدخل ثم قال ومن يفعل ذلك فذكر الفاعل وقرن به الوعد بالاجر العظيم أو المراد ومن يأمر بذلك فعبر عن الامر بالفعل (فسوف نؤتيه أجرا عظيما) يؤتيه أبو عمرو وحمزة (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى) ومن يخالف الرسول من بعد وضوح الدليل وظهور الرشد (ويتبع غير سبيل المؤمنين) أي السبيل الذي هم عليه من الدين الحنيفي وهو دليل على ان الاجماع حجة لا تجوز مخالفتها كما لا تجوز مخالفة الكتاب والسنة لان الله تعالى جمع بين اتباع غير سبيل المؤمنين وبين مشاقة الرسول في الشرط وجعل جزاءه الوعيد الشديد فكان اتباعهم واجبا كموالاة الرسول (نوله ما تولى) نجعله واليا لما تولى من الضلال وندعه وما اختاره في الدنيا (ونصله جهنم) في العقبى (وساءت مصيرا) قيل هي في طعمة وارتداده (ان الله لا يغفر أن يشرك به

يخلو في نجوة من الارض وقيل أصله من النجي والمعنى لا خير في كثير مما يدبرونه ويتناجون فيه (الامن أمر بصدقة) يعني الا في نجوى من أمر بصدقة وقيل معناه لا خير فيما يتناجى فيه الناس ويخوضون فيه من الحديث الا فيما كان من أعمال الخير وقيل هو استثناء منقطع تقديره لكن من أمر بصدقة وحث عليها (أو معروف) يعني أو أمر بطاعة الله وما يجيزه الشرع وأعمال البر كلها معروف لان العقول تعرفها (أو اصلاح بين الناس) يعني الاصلاح بين المتباينين والمتخاصمين ليتراجعا الى ما كانا فيه من الالفة والاجتماع على ما أذن الله فيه وأمر به عن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة قالوا بلى يا رسول الله قال اصلاح ذات البين وان فساد ذات البين هي الحالقة أخرجه الترمذي وأبو داود وقال الترمذي ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال هي الحالقة لا أقول تحالق الشعر ولكن تحلق الدين (خ) عن سهل بن سعد ان أهل قباء اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اذهبوا بنا نصلح بينهم (ق) عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليس الكذاب الذي يصلح بين اثنين أو قال بين الناس فيقول خيرا أو ينمي خيرا زاد مسلم في رواية له قالت ولم أسمعه يرخص في شئ مما يقول الناس الا في ثلاث يعني الحرب والاصلاح بين الناس وحديث الرجل زوجته وحديث المرأة زوجها (ومن يفعل ذلك) يعني هذه الاشياء التي ذكرت (ابتغاء مرضات الله) يعني طلب رضاه لان الانسان اذا فعل ذلك خالصا لوجه الله نفعه وان فعله رياء وسمعة لم ينفعه ذلك لقوله صلى الله عليه وسلم انما الاعمال بالنيات الحديث (فسوف نؤتيه) يعني في الآخرة اذا فعل ذلك ابتغاء مرضاة الله (أجرا عظيما) لاحد له لان الله سماه عظيما واذا كان كذلك فلا يعلم قدره الا الله ۞ قوله عز وجل (ومن يشاقق الرسول) نزلت في طعمة أيضا وذلك انه لما سرق وظهرت عليه السرقة خاف على نفسه القطع والفضيحة فهرب الى مكة كافرا مرتدا عن الدين فأنزل الله عز وجل فيه ومن يشاقق الرسول يعني يخالفه في التوحيد والايمان وأصله من المشاقة وهي كون كل واحد منهما في شق غير شق الآخر (من بعد ما تبين له الهدى) أي وضح له التوحيد والحدود وظهر له صحة الاسلام وذلك لان طعمة كان قد تبين له بما أنزل فيه وأظهر من سرقته ما يدل على صحة دين الاسلام فعادى الرسول صلى الله عليه وسلم وأظهر الشقاق ورجع عن الاسلام (ويتبع غير سبيل المؤمنين) يعني ويتبع غير طريق المؤمنين وما هم عليه من الايمان ويتبع عبادة الاوثان (نوله ما تولى) أي نكله في الآخرة الى ما تولى في الدنيا ونتركه وما اختار لنفسه (ونصله جهنم) يعني ونلزمه جهنم وأصله من الصلي وهو لزوم النار وقت الاستدفاء (وساءت مصيرا) يعني وبئس المرجع الى النار روي ان الشافعي سئل عن آية من كتاب الله تدل على ان الاجماع حجة فقرأ القرآن ثلثمائة مرة حتى استخرج هذه الآية وهي قوله تعالى ويتبع غير سبيل المؤمنين وذلك لان اتباع غير سبيل المؤمنين وهو مفارقة الجماعة حرام فوجب أن يكون اتباع سبيل المؤمنين ولزوم جماعتهم واجبا وذلك لان الله تعالى ألحق الوعيد بمن يشاقق الرسول ويتبع غير سبيل المؤمنين فثبت بهذا ان اجماع الامة حجة ۞ قوله عز وجل (ان الله لا يغفر أن يشرك به) نزلت في طعمة بن أبيرق أيضا لكونه مات مشركا وقال ابن عباس نزلت هذه الآية في شيخ من الاعراب جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا نبي الله اني شيخ منهمك في الذنوب غير اني لم أشرك بالله منذ عرفته وآمنت به ولم أتخذ من دونه وليا ولم أواقع المعاصي جراءة على الله عز وجل وما توهمت طرفة عين اني أعجز الله هربا واني لنادم تائب مستغفر فما حالي عند الله فأنزل الله هذه الآية ان الله لا يغفر أن يشرك به فهذا نص صريح بان الشرك غير مغفور اذا مات صاحبه عليه لانه قد ثبت أن

ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) مر تفسيره فى هذه السورة (ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا) عن الصواب (ان يدعون من دونه) مايعبدون من دون الله (الا اناثا) جمع أنثى وهى اللات والعزى ومناة ولم يكن حى من العرب الا ولهم صنم يعبدونه يسمونه انثى بنى فلان وقيل كانوا يقولون فى أصنامهن هن بنات الله (وان يدعون) يعبدون (الا شيطانا) لانه هو الذى أغراهم على عبادة الاصنام فاطاعوه فجعلت طاعتهم له عبادة (مريدا) خارجا عن الطاعة عاريا عن الخير ومنه الامرد (لعنه الله وقال لاتخذن) صفتان يعنى شيطانا مريدا جامعا بين لعنة الله وهذا القول الشنيع (من عبادك نصيبا مفروضا) مقطوعا واجبا لى من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون وواحد لله (ولاضلنهم) بالدعاء الى الضلالة والتزيين والوسوسة ولو كان انفاذ الضلالة اليه لاضل الكل (ولامنينهم) ولالقين فى قلوبهم الامانى الباطلة من طول الاعمار وبلوغ الآمال (ولآمرنهم فليبتكن آذان الانعام) البتك القطع والتبتيك للتكثير والتكرير أى لاحملنهم على أن يقطعوا آذان الانعام وكانوا يشقون آذان الناقة اذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكرا وحرموا على أنفسهم الانتفاع بها (ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) بفقء عين الحامى واعفائه عن الركوب أو بالخصاء وهو مباح فى البهائم محظور فى بنى آدم أو بالوشم أو بنفى الانساب واستلحاقها أو بتغيير الشيب بالسواد أو بالتحريم والتحليل أو بالتخنث أو بتبديل فطرة الله التى هى دين الاسلام لقوله لاتبديل لخلق الله

المشرك اذا تاب من شركه وآمن قبلت توبته وصح ايمانه وغفرت ذنوبه كلها التى عملها فى حال الشرك (ويغفر مادون ذلك) يعنى مادون الشرك (لمن يشاء) يعنى لمن يشاء من أهل التوحيد قال العلماء لما أخبر الله أنه يغفر الشرك بالايمان والتوبة علمنا انه يغفر مادون الشرك بالتوبة وهذه المشيئة فيمن لم يتب من ذنوبه من أهل التوحيد فاذا مات صاحب الكبيرة أو الصغيرة من غير توبة فهو على خطر المشيئة ان شاء غفر له وأدخله الجنة بفضله ورحمته وان شاء عذبه ثم يدخله الجنة بعد ذلك (ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا) يعنى فقد ذهب عن طريق الهدى وحرم الخير كله اذا مات على شركه فان قلت لم كررت هذه الآية بلفظ واحد فى موضعين من هذه السورة وما فائدة ذلك قلت فائدة ذلك التأكيد أو لان الآية المتقدمة نزلت فى سبب ونزلت هذه الآية فى سبب آخر (٣) وهو ان الآية المتقدمة نزلت فى سبب سرقة طعمة بن أبيرق ونزلت هذه الآية فى سبب ارتداده وموته على الشرك ۞ قوله عز وجل (ان يدعون من دونه الا اناثا) نزلت فى أهل مكة يعنى مايعبدون من دون الله الا اناثا لان كل من عبد شيأ فقد دعاه لحاجته وفى قوله اناثا أقوال أحدها انهم كانوا يسمون أصنامهم بأسماء الاناث فيقولون للات والعزى ومناة قال الحسن كانوا يقولون لصنم كل قبيلة أنثى بنى فلان والقول الثانى اناثا يعنى أمواتا قال الحسن كل شئ لاروح فيه كالحجر والخشبة هو اناث قال الزجاج والموات كلها يخبر عنها كما يخبر عن المؤنث تقول هذه الحجر تعجبنى وهذه الدراهم تنفعنى ولان الانثى أنزل درجة من الذكر والميت أنزل درجة من الحى كما ان الموات أنزل من الحيوان وقد يطلق اسم الانثى على الجمادات والقول الثالث ان بعضهم كان يعبد الملائكة ويقول هن بنات الله (وان يدعون) أى ومايعبدون (الا شيطانا مريدا) قال ابن عباس لكل صنم شيطان يدخل فى جوفه ويتراءى للسدنة والكهنة ويكلمهم فلذلك قال الله تعالى وان يدعون الا شيطانا مريدا وقيل هو ابليس لانه أغواهم وأغراهم على عبادتها وأطاعوه فجعلت طاعتهم له عبادة والمريد والمارد هو المتمرد العاتى الخارج عن الطاعة (لعنه الله) أى أبعده الله وطرده عن رحمته (وقال) يعنى ابليس (لاتخذن من عبادك نصيبا مفروضا) يعنى حظا مقدرا معلوما فكل ماأطيع فيه ابليس فهو نصيبه ومفروضه وأصل الفرض القطع وهذا النصيب هم الذين يتبعون خطواته ويقبلون وساوسه (ولاضلنهم) عن طريق الحق والمراد به التزيين والوسوسة والافليس اليه من الاضلال شئ قال بعضهم لو كانت الضلالة الى ابليس لاضل جميع الخلق (ولامنينهم) قال ابن عباس يريد تسويف التوبة وتاخيرها وقال الكلبى أمنيهم انه لاجنة ولانار ولابعث وقيل أمنيهم ادراك الجنة مع عمل المعاصى وقيل أزين لهم ركوب الاهواء والاهوال الداعية الى العصيان وقيل أمنيهم طول البقاء فى الدنيا ونعيمها ليؤثروها على الآخرة (ولآمرنهم فليبتكن آذان الانعام) يعنى يقطعونها أو يشقونها وهى البحيرة وذلك انهم كانوا يشقون آذان الناقة اذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكرا وحرموا على أنفسهم الانتفاع بها ولايردونها عن ماء ولامرعى وسول لهم ابليس ان هذا قربة (ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) قال ابن عباس يعنى دين الله وتغيير دين الله هو تحليل الحرام وتحريم الحلال وقيل تغيير خلق الله هو تغيير الفطرة التى فطر الخلق عليها ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه وقيل

(٣) قوله وهو ان الآية المتقدمة الخ الذى ذكره عند الآية المتقدمة انها نزلت فى أهل الكتاب المتقدم ذكرهم قبل الآية أو فى قاتل حمزة وأصحابه أو فى جواب رجل سأل عن الشرك لما نزل قوله تعالى قل ياعبادى الآية ولم يقدم لسرقة طعمة ذكرا على انه لايظهر أن تكون سبب نزول الآية كما هو ظاهر اهـ مصححه

يحتمل ان يحمل هذا التغيير على تغيير أحوال تتعلق بظاهر الخلق مثل الوشم ووصل الشعر ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله أخرجاه من رواية ابن مسعود ولهما عن أسماء قالت لعن النبي صلى الله عليه وسلم الواصلة والمستوصلة وقيل تغيير خلق الله هو الاختصاء وقطع الآذان حتى ان بعض العلماء حرمه وكره أنس اخصاء الغنم وجوزه بعض العلماء لان فيه غرضا ظاهرا (ق) عن سعد بن أبي وقاص قال لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رد على عثمان بن مظعون التبتل لاختصينا التبتل هو ترك النكاح والانقطاع للعبادة عن نافع قال كان ابن عمر يكره الاختصاء ويقول ان فيه نماء الخلق أخرجه مالك في الموطأ ومعناه في ترك الاختصاء نماء الخلق يعني زيادتهم وقال ابن زيد هو التخنث وهو أن يتشبه الرجل بالنساء في حركاتهن وكلامهن ولباسهن ونحو ذلك وقيل تغيير خلق الله هو ان الله تعالى خلق البهائم والانعام للركوب والاكل فحرموها على انفسهم وخلق الشمس والقمر والنجوم والنار والاحجار لمنفعة الناس فعبدوها من دون الله (ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله) يعني يتخذه ربا يطيعه فيما يأمره به وقيل الولي من الموالاة وهو الناصر (فقد خسر خسرانا مبينا) لان طاعة الشيطان توصله الى نار جهنم وهي غاية الخسران بقي في الآية سؤالان * الاول قال لاتخذن من عبادك نصيبا مفروضا والنصيب المفروض هو الشئ المقدر القليل وقال في موضع آخر لاحتنكن ذريته الا قليلا وقال لاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين وهذا استثناء القليل من الكثير فكيف وجه الجمع فالجواب ان الكفار الذين هم حزب الشيطان وان كانوا أكثر من المسلمين في العدد لكنهم أقل من المؤمنين في الفضل والشرف وعلو الدرجة عند الله والمؤمنون وان كانوا أقل من الكفار لكنهم أكثر منهم لان لهم الفضل والشرف والسودد والغلبة في الدنيا وعلو الدرجة في الآخرة وأنشد بعضهم في هذا المعنى فقال

وهم الاقل اذا تعد عشيرة * والاكثرون اذا يعد السودد

وقيل ان ابليس لما لم ينل من آدم ما أراد ورأى الجنة والنار وعلم ان لهذه أهلا ولهذه أهلا قال لاتخذن من عبادك نصيبا مفروضا يعني الذين هم أهل النار * السؤال الثاني من أين لابليس العلم بالعواقب حتى يقول ولاضلنهم ولاغوينهم ولامنينهم ولآمرنهم وقال في الاعراف ولا تجد أكثرهم شاكرين وقال في بني اسرائيل لاحتنكن ذريته الا قليلا فالجواب من ثلاثة أوجه أحدها ان ابليس ظن ان تقع منهم هذه الامور التي يريدها منهم فحصل له ما ظنه ويدل على ذلك قوله تعالى ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه * الوجه الثاني قال ابن الانباري المعنى لاجتهدن ولاحرصن في ذلك لا أنه كان يعلم الغيب الوجه الثالث قال الماوردي من الجائز أن يكون قد علم ذلك من الملائكة بخبر من الله تعالى ان أكثر الخلائق لا يؤمنون وقوله تعالى (يعدهم ويمنيهم) يعني الشيطان يعد حزبه وأولياءه ويمنيهم فوعده وتمنيته اياهم ما يوقع في قلب الانسان من طول العمر ونيل ما أراده من الدنيا ومن نعيمها ولذاتها وكل ذلك غرور فيجب على العاقل أن لا يلتفت الى شئ منها فربما لم يطل عمره ولم يحصل له ما أراد منها ولئن طال عمره وحصل مقصوده فالموت وراءه ينغص عليه ما هو فيه وقيل يعدهم ويمنيهم بان لا جنة ولا نار ولا بعث فاجتهدوا في تحصيل اللذات الدنيوية (وما يعدهم الشيطان الا غرورا) يعني باطلا وضلالا (أولئك) يعني الذين اتخذوا الشيطان وليا (مأواهم جهنم) يعني مرجعهم ومستقرهم جهنم (ولا يجدون عنها) يعني عن جهنم (محيصا) يعني مفرا ومعدلا يعني لا يعدلون عنها الى غيرها ولا بد لهم من ورودها والخلد فيها لما ذكر وعيد الكفار أتبعه بوعد المؤمنين فقال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الانهار) يعني من تحت المساكن والغرف (خالدين فيها) يعني في الجنات (أبدا) بلا انتهاء ولا غاية والابد عبارة عن مدة الزمان الممتد الذي لا انقطاع له ولا يتجزأ كما يتجزأ غيره من الازمنة لانه لا يقال أبد كذا كما يقال زمن كذا وفي قوله خالدين فيها أبدا دليل

(ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله) وأجاب الى ما دعاه اليه (فقد خسر خسرانا مبينا) في الدارين (يعدهم) يوسوس اليهم أن لا جنة ولا نار ولا بعث ولا حساب (ويمنيهم) ما لا ينالون (وما يعدهم الشيطان الا غرورا) هو ان يرى شيأ يظهر خلافه (أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا) معدلا ومفرا (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) ولم يتبعوا الشيطان في الامر بالكفر (سندخلهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها أبدا) وقرأ النخعي سيدخلهم

على أن الخلود لا يفيد التأبيد والدوام لانه لو أفاد ذلك لزم التكرار وهو خلاف الاصل فعلم من ذلك أن الخلود عبارة عن طول الزمان لا على الدوام فلما اتبع الخلود بالابد علم انه يراد به الدوام الذى لا ينقطع وقوله عز وجل (وعد الله حقا) يعنى وعد الله ذلك الذى ذكر وعدا حقا (ومن أصدق من الله قيلا) يعنى ليس أحد أصدق من الله وهو توكيد بليغ لقوله وعد الله حقا ۞ قوله تعالى (ليس بامانيكم ولا أمانى أهل الكتاب) الامنية افعولة من التمنية والتمنى تقدير شئ فى النفس وتصويره فيها والامنية هى الصورة الحاصلة فى النفس من تمنى الشئ اذا وقع فى نفسه وأراده وفى المخاطب بقوله ليس بامانيكم ولا أمانى أهل الكتاب قولان أحدهما أنه خطاب للمسلمين وأهل الكتاب اليهود والنصارى وذلك أنهم افتخروا فقال أهل الكتاب نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى بالله منكم وقال المسلمون نبينا خاتم الانبياء وكتابنا يقضى على الكتب وقد آمنا بكتابكم ولم تؤمنوا بكتابنا فنحن أولى بالله منكم والقول الثانى انه خطاب لمشركى مكة فى قولهم لا نبعث ولا نحاسب وخطاب لاهل الكتاب فى قولهم لن تمسنا النار الا أياما معدودة والمعنى ليس الامر بالامانى انما الامر بالعمل الصالح (من يعمل سوأ يجز به) قال الضحاك يقول ليس لكم ما تمنيتم وليس لاهل الكتاب ما تمنوا ولكن من عمل سوأ يعنى شركا فمات عليه يجز به النار وقال الحسن هذا فى حق الكفار خاصة لانهم يجازون بالعقاب على الصغير والكبير ولا يجزى المؤمن بسيئ عمله يوم القيامة ولكن يجزى باحسن عمله و يتجاوز عن سيآته و يدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله (ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا) وهذا هو الكافر فاما المؤمن فله ولى ونصير وقال آخرون هذه الآية فى حق كل من عمل سوأ من مسلم ونصرانى وكافر قال ابن عباس هى عامة فى حق كل من عمل سوأ يجز به الا أن يتوب قبل ان يموت فيتوب الله عليه وقال ابن عباس فى رواية أبى صالح عنه لما نزلت هذه الآية شقت على المسلمين مشقة شديدة وقالوا يا رسول الله وأينا من لم يعمل سوأ غيرك فكيف الجزاء قال منه ما يكون فى الدنيا فمن يعمل حسنة فله عشر حسنات ومن جوزى بالسيئة نقصت واحدة من عشر حسناته و بقيت له تسع حسنات فويل لمن غلبت آحاده أعشاره وأما من كان جزاؤه فى الآخرة فيقابل بين حسناته وسيآته فيلقى مكان كل سيئة حسنة و ينظر فى الفضل فيعطى الجزاء فى الجنة فيؤتى كل ذى فضل فضله و يدل على صحة هذا القول ما روى عن أبى هريرة قال لما نزلت من يعمل سوأ يجز به بلغت من المسلمين مبلغا شديدا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قاربوا وسددوا ففى كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها والشوكة يشاكها أخرجه مسلم وعن أبى بكر الصديق قال كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت من يعمل سوأ يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا بكر الا أقرئك آية أنزلت على قلت بلى يا رسول الله قال فاقرأنيها فلا أعلم الا أنى وجدت انقصاما فى ظهرى فتمطأت لها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شأنك يا أبا بكر قلت يا رسول الله بأبى أنت وأمى وأينا لم يعمل سوأ وانا لمجزيون بما عملنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اما أنت يا أبا بكر والمؤمنون فتجزون بذلك فى الدنيا حتى تلقوا الله وليس عليكم ذنوب وأما الآخرون فيجتمع ذلك لهم حتى يجزوا به يوم القيامة أخرجه الترمذى وقال حديث غريب وفى اسناده مقال وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن أبى بكر وليس له اسناد صحيح وقوله ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا قال ابن عباس يريد وليا يمنعه ولا نصيرا ينصره فان قلنا ان هذه الآية خاصة فى حق الكفار فتأويلها ظاهر وان قلنا انها فى حق كل عامل سوء من مسلم وكافر فانه لا ولى لاحد من دون الله يوم القيامة ولا ناصر فالمؤمنون لا ولى لهم غير الله وشفاعة الشافعين تكون باذن الله فليس يمنع أحد أحدا عن الله وقوله تعالى (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) قال مسروق لما نزلت من يعمل سوأ يجز به قال أهل الكتاب نحن وأنتم سواء فنزلت هذه الآية قال المفسرون بين الله تعالى بهذه الآية فضيلة المؤمنين على غيرهم ولفظة من فى قوله من

(وعد الله حقا) مصدران الاول مؤكد لنفسه والثانى مؤكد لغيره (ومن أصدق من الله قيلا) قولا وهو استفهام بمعنى النفى أى لا أحد أصدق منه وهو تأكيد ثالث وفائدة هذه التوكيدات مقابلة مواعيد الشيطان الكاذبة لقرنائه بوعد الله الصادق لاوليائه (ليس بامانيكم) ليس الامر على شهواتكم وأمانيكم أيها المشركون أن تنفعكم الاصنام (ولا أمانى أهل الكتاب) ولا على شهوات اليهود والنصارى حيث قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه لن تمسنا النار الا أياما معدودة (من يعمل سوأ يجز به) أى من المشركين وأهل الكتاب بدليل قوله (ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا) وهذا وعيد للكفار لانه قال بعده (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) فقوله وهو مؤمن حال ومن الاولى للتبعيض والثانية لبيان الابهام فى من يعمل وفيه اشارة الى أن الاعمال ليست من الايمان

الصالحات للتبعيض لان أحدا لا يقدر أن يستوعب جميع الصالحات بالعمل فاذا عمل بعضها استحق الثواب (فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) النقير نقرة فى ظهر النواة ومنها انبت النخلة قال ابن عباس يريد لا ينقصون قدر نقرة النواة وهذا على سبيل المبالغة فى نفى الظلم ووعد بتوفية جزاء أعمالهم من غير نقصان

قوله عز وجل (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) لما بين الله تعالى أن الجنة لمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن شرح الايمان وبين فضله فقال تعالى ومن أحسن دينا يعنى ومن أحكم دينا والدين هو المشتمل على كمال العبودية والخضوع والانقياد لله عز وجل وهو الذى كان عليه ابراهيم صلى الله عليه وسلم واعلم أن دين الاسلام مبنى على أمرين أحدهما الاعتقاد واليه الاشارة بقوله أسلم وجهه لله يعنى انقاد لله وخضع له فى سره وعلانيته وقيل معناه أخلص طاعته لله وقيل فوض أمره الى الله الامر الثانى من مبانى الاسلام العمل واليه الاشارة بقوله وهو محسن يعنى فى عمله لله فيدخل فيه فعل الحسنات والمفروضات والطاعات وترك السيآت وقال ابن عباس فى تفسير قوله وهو محسن يريد وهو موحد لله عز وجل لا يشرك به شيأ قال العلماء وانما صار دين الاسلام أحسن الاديان لان فيه طاعة الله ورضاه وهما أحسن الاعمال وانما خص الوجه بالذكر فى قوله أسلم وجهه لله لانه أشرف الاعضاء فاذا انقاد الوجه لله وخضع له فقد انقاد لله جميع الاعضاء لانها تابعة له (واتبع ملة ابراهيم) يعنى دين ابراهيم عليه السلام (حنيفا) يعنى مسلما مخلصا والحنيف المائل ومعناه المائل عن الاديان كلها الى الاسلام لان كل ما سواه من الاديان باطل وحنيفا يجوز أن يكون حالا لابراهيم ويجوز أن يكون حالا للمتبع كما تقول رأيته راكبا قال ابن عباس ومن دين ابراهيم عليه السلام الصلاة الى الكعبة والطواف ومناسك الحج والختان ونحو ذلك فان قلت ظاهر هذه الآية يقتضى أن شرع محمد صلى الله عليه وسلم هو نفس شرع ابراهيم عليه السلام وعلى هذا لم يكن لمحمد صلى الله عليه وسلم شرع يستقل به وليس الامر كذلك فما الجواب قلت ان شرع ابراهيم وملته داخلان فى شرع محمد صلى الله عليه وسلم وملته مع زيادات كثيرة حسنة خص الله بها محمدا صلى الله عليه وسلم فمن اتبع ملة محمد صلى الله عليه وسلم فقد اتبع ملة ابراهيم لانها داخلة فى ملة محمد صلى الله عليه وسلم وشرع ابراهيم داخل فى شرع محمد صلى الله عليه وسلم وانما قال تعالى واتبع ملة ابراهيم لان ابراهيم صلى الله عليه وسلم كان يدعو الى توحيد الله وعبادته ولهذا خصه بالذكر لانه كان مقبولا عند جميع الامم فان العرب كانوا يفتخرون بالانتساب اليه وكذا اليهود والنصارى فاذا ثبت هذا ان شرعه كان مقبولا عند الامم وان شرع محمد صلى الله عليه وسلم وملته هو شرع ابراهيم وملته لزم الخلق الدخول فى دين محمد صلى الله عليه وسلم وقبول شرعه وملته وقوله تعالى (واتخذ الله ابراهيم خليلا) يعنى صفيا والخلة صفاء المودة وقيل الخلة الافتقار والانقطاع فخليل الله المنقطع اليه وسمى ابراهيم خليلا لانه انقطع الى الله فى كل حال وقيل الخلة الاختصاص والاصطفاء وسمى ابراهيم خليلا لانه والى فى الله وعادى فى الله وقيل لانه تخلق بأخلاق حسنة وخلال كريمة وقيل الخليل المحب الذى ليس فى محبته خلل وسمى ابراهيم خليل الله لانه أحبه محبة كاملة ليس فيها نقص ولا خلل وأنشد فى معنى الخلة التى هى بمعنى المحبة

قد تخللت مسلك الروح منى ﴿ و به سمى الخليل خليلا

وقيل الخليل من الخلة بفتح الخاء وهى الحاجة سميت خلة للاختلال الذى يلحق الانسان فيها وسمى ابراهيم خليلا لانه جعل فقره وفاقته وحاجته الى الله تعالى وخلة الله للعبد هى تمكينه من طاعته وعصمته وتوفيقه وستر خلله ونصره والثناء عليه فقد أثنى الله عز وجل على ابراهيم عليه السلام وجعله اماما للناس يقتدى به واختلفوا فى السبب الذى من أجله اتخذ الله ابراهيم خليلا فقال ابن عباس كان ابراهيم صلى الله عليه وسلم أبا الضيفان وكان منزله على ظهر الطريق يضيف من مر به من الناس فاصاب الناس شدة فقحط فقصد الناس باب ابراهيم يطلبون منه الطعام وكانت الميرة تأتيه من صديق له بمصر فبعث ابراهيم غلمانه الى خليله الذى

(فاولئك يدخلون الجنة) يدخلون مكي وأبو عمرو وأبو بكر (ولا يظلمون نقيرا) قدر النقير وهو النقرة فى ظهر

النواة والراجع فى ولا يظلمون لعمال السوء وعمال الصالحات جميعا وجاز ان يكون ذكره عند أحد الفريقين دليلا على ذكره عند الآخر وقوله من يعمل سوأ يجز به وقوله ومن يعمل من الصالحات بعد ذكر تمنى أهل الكتاب كقوله بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته وقوله والذين آمنوا وعملوا الصالحات عقيب قوله وقالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودة (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله) أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له لا يعرف لها ربا ولا معبودا سواه (وهو محسن) عامل للحسنات (واتبع ملة ابراهيم حنيفا) مائلا عن الاديان الباطلة وهو حال من المتبع أو من ابراهيم (واتخذ الله ابراهيم خليلا) هو فى الاصل المخال وهو الذى يخالك أى يوافقك فى خلالك أو يداخلك خلال منزلك أو يسد خللك كما يسد خلله فالخلة صفاء مودة توجب الاختصاص بتخلل الاسرار والمحبة أصفى لانها من حبة القلب وهى جملة اعتراضية لا محل لها من الاعراب كقوله والحوادث جمة وفائدتها تأكيد وجوب اتباع ملته وطريقته لان من بلغ من الزلفى عند الله ان اتخذه خليلا كان جديرا بان تتبع ملته وطريقته ولو جعلتها

بمصر فقال خليله لغلمان ابراهيم لو كان ابراهيم يريد ما عاء الطعام لنفسه احتملنا ذلك له وقد دخل علينا مثل ما دخل على الناس من الشدة فرجع غلمان ابراهيم بغير طعام فمروا ببطحاء من الرمل سهلة فقالوا لو حملنا من هذه البطحاء ليرى الناس أنا قد جئنا بالميرة فانا نستحي ان نمر بهم وابلنا فارغة فملؤا من ذلك الرمل الغرائر التي معهم ثم أتوا الى ابراهيم صلى الله عليه وسلم فأعلموه وسارة نائمة فاهتم لذلك ولمكان الناس ببابه فغلبته عيناه فنام واستيقظت سارة وقد ارتفع النهار فقالت سبحان الله ماجاء الغلمان قالوا بلى قالت فجاؤا بشئ قالوا نعم فقامت الى الغرائر ففتحتها فاذاهي ملأى باجود دقيق يكون حوارى فامرت الخباز بن تخبز واوأطعموا الناس فاستيقظ ابراهيم فوجد ريح الطعام فقال ياسارة من أين لكم هذا فقالت من عند خليلك المصري فقال هذا من عند خليلى الله قال فيومئذ اتخذه الله خليلا وقيل لما أراه الله ملكوت السموات والارض وحاج قومه فى الله ودعاهم الى توحيده ومنعهم من عبادة النجوم والشمس والقمر والاوثان وبذل نفسه للالقاء فى النيران وبذل ولده للقربان وماله للضيفان اتخذه الله خليلا وجعله اماما للناس يقتدى به وجعل النبوة فيه وفى ذريته وقيل ان ابراهيم عليه السلام لما كسر الاصنام وعادى قومه فى الله عزوجل اتخذه الله خليلا وقيل لما دخل عليه الملائكة فظنهم ضيفا فقرب اليهم عجلا مشويا وقال كلوا على شرط أن تسموا الله فى أوله وتحمدوه فى آخره فقال جبريل أنت خليل الله فن يومئذ سمى ابراهيم خليل الله (م) عن أنس قال جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ياخير البرية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ابراهيم خليل الله

﴿فصل﴾ وقد اتخذ الله محمدا صلى الله عليه وسلم خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا فقد ثبت فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لو كنت متخذا خليلا غير ربى لاتخذت أبا بكر خليلا وعن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم لو كنت متخذا خليلا لاتخذت ابا بكر خليلا ولكنه أخى وصاحبى وقد اتخذ الله صاحبكم خليلا أخرجه مسلم فقد ثبت بهذين الحديثين الخلة للنبى صلى الله عليه وسلم وزاد على ابراهيم عليه السلام بالمحبة فمحمد صلى الله عليه وسلم خليل الله وحبيبه فقد جاء فى حديث عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ألا وأنا حبيب الله ولا فخر أخرجه الترمذى باطول منه ۞ قوله تعالى (ولله ما فى السموات وما فى الارض) قال أهل المعانى لما دعا الله الخلق الى طاعته وعبادته والانقياد لامره بين سعة ملكه ليرغب الخلق اليه بالطاعة له وانما قال ما فى السموات وما فى الارض ولم يقل من لانه ذهب به مذهب الجنس والذى يعقل اذا ذكر وأريد به الجنس ذكر بلفظة ما (وكان الله بكل شئ محيطا) يعنى عالما علم احاطة وهو العلم بالشئ من كل وجه حتى لايشذ عنه نوع الاعلمه وقيل يجوز أن يكون معناه محيطا بالقدرة عليه ۞ قوله عزوجل (ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن) الآية قال ابن عباس نزلت فى بنات أم كحة وقد تقدمت قصتهن فى أول السورة وقالت عائشة هى اليتيمة تكون فى حجر الرجل وهو وليها فيرغب فى نكاحها اذا كانت ذات جمال ومال بأقل من سنة صداقها واذا كانت غير مرغوب فيها لقلة الجمال والمال تركها وفى رواية قالت هى اليتيمة تكون فى حجر الرجل وقد شركته فى ماله فيرغب عنها فلا يتزوجها لدمامتها ويكره أن يزوجها غيره فيدخل عليه ويشركه فى ماله فيحبسها حتى تموت فنهاهم الله عن ذلك وأنزل هذه الآية فقال ويستفتونك يعنى ويستخبرونك يا محمد فى شأن النساء وحالهن والاستفتاء طلب الفتوى وهو اظهار ما أشكل من الاحكام الشرعية وكشفه وتبيينه قال المفسرون والذى استفتوه فيه هو ميراث النساء وذلك انهم كانوا لا يورثون النساء ولا الصغار من الاولاد فلما نزلت آية الميراث قالوا يارسول الله كيف ترث المرأة والصغير فاجابهم بهذه الآية قل الله يفتيكم فيهن يعنى قل يا محمد الله يفتيكم فى شأن النساء وحالهن (وما يتلى عليكم فى الكتاب) يعنى يفتيكم فيما يتلى عليكم والمعنى ان الله يفتيكم فى النساء بما أنزل فى كتابه عليكم وقيل المراد بالكتاب اللوح المحفوظ والغرض منه تعظيم حال هذه الآية التى تتلى عليكم وانها فى اللوح المحفوظ

معطوفة على الجلل قبلها لم يكن لها معنى وفى الحديث اتخذ الله ابراهيم خليلا لاطعامه الطعام وافشائه السلام وصلاته بالليل والناس نيام وقيل أوحى اليه انما اتخذتك خليلا لانك تحب أن تعطى ولا تعطى وفى رواية لانك تعطى الناس ولا تسألهم وفى قوله (ولله ما فى السموات وما فى الارض) دليل على أن اتخاذه خليلا لاحتياج الخليل اليه لا لاحتياجه تعالى لانه منزه عن ذلك (وكان الله بكل شئ محيطا) عالما (ويستفتونك فى النساء) ويسألونك الافتاء فى النساء والافتاء تبيين المبهم (قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب

وأن العدل والانصاف في حقوق اليتامى من أعظم الامور عند الله تعالى التي تجب مراعاتها وان المخل بها ظالم (في يتامى النساء) قيل معناه في النساء اليتامى وقيل في اليتامى أولاد النساء لان الآية نزلت في يتامى أم كحة (اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن) يعني ما فرض لهن من الميراث وهذا على قول من يقول ان الآية نازلة في ميراث اليتامى والصغار وعلى القول الآخر معناه ما كتب لهن من الصداق (وترغبون أن تنكحوهن) يعني وترغبون في نكاحهن لمالهن وجمالهن باقل من صداقهن وقيل معناه وترغبون عن نكاحهن لقبحهن ودمامتهن وتمسكوهن رغبة في أموالهن (ق) عن عائشة قالت هذه اليتيمة تكون في حجر وليها فيرغب في جمالها ومالها ويريد أن ينقص صداقها فنهوا عن نكاحهن الا أن يقسطوا لهن في اكمال الصداق وأمروا بنكاح من سواهن قالت عائشة رضي الله عنها فاستفتى الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فانزل الله عز وجل يستفتونك في النساء الى قوله وترغبون ان تنكحوهن فبين لهم ان اليتيمة اذا كانت ذات جمال ومال رغبوا في نكاحها لم يلحقوها بسنتها في اكمال الصداق واذا كانت مرغوبة عنها في قلة المال والجمال تركوها والتمسوا غيرها قال فكما يتركونها حين يرغبون عنها فليس لهم أن ينكحوها اذا رغبوا فيها الا أن يقسطوا لها ويعطوها حقها الاوفى من الصداق ۞ وقوله تعالى (والمستضعفين من الولدان) يعني ويفتيكم في المستضعفين من الولدان وهم الصغار أن تعطوهم حقوقهم لان العرب في الجاهلية كانوا لا يورثون الصغار أيضا فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم أن يعطوهم حقهم من الميراث (وأن تقوموا لليتامى بالقسط) يعني بالعدل في مهورهن ومواريثهن (وما تفعلوا من خير فان الله كان به عليما) يعني فيجازيكم عليه ۞ قوله تعالى (وان امرأة خافت من بعلها نشوزا أو اعراضا) (ق) عن عائشة في قوله تعالى وان امرأة خافت من بعلها نشوزا أو اعراضا قالت نزلت في المرأة تكون عند الرجل لا يستكثر منها فيريد طلاقها ويتزوج غيرها فتقول له أمسكني لا تطلقني ثم تزوج غيري وأنت في حل من النفقة على والقسمة لي قالت فذلك قوله تعالى فلا جناح عليهما أن يصالحا بينهما صلحا والصلح خير وقيل نزلت في عمرة بنت محمد بن مسلمة ويقال اسمها خولة وفي زوجها اسعد بن الربيع ويقال رافع بن خديج تزوجها وهي شابة فلما كبرت تزوج عليها امرأة أخرى شابة وآثرها عليها وجفا الاولى فأتت ابنة محمد بن مسلمة تشكو زوجها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية وقيل كان رجل له امرأة قد كبرت وله منها أولاد فاراد أن يطلقها ويتزوج غيرها فقالت لا تطلقني ودعني أقوم على أولادي واقسم لي كل شهرين ان شئت وان شئت فلا تقسم لي فقال ان كان يصلح ذلك فهو أحب الي فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فانزل الله هذه الآية وان امرأة خافت يعني علمت وقيل ظنت وقيل بل المراد نفس الخوف لان الخوف لا يحصل الا عند ظهور الامارات الدالة على وقوعه من بعلها يعني من زوجها والبعل هو السيد وسمى الزوج بعلا لانه سيد المرأة نشوزا يعني بغضا وقيل هو ترك مضاجعتها وأصله من النشز وهو المرتفع من الارض والنشوز قد يكون من الزوجين وهو أن يكره كل واحد منهما صاحبه فنشوز الزوج هو أن يعرض عن المرأة وهو قوله تعالى أو اعراضا يعني بوجهه عنها أو يعبث في وجهها أو يترك مضاجعتها أو يسيء عشرتها أو يشتغل بغيرها وقيل المراد من النشوز اظهار الخشونة في القول والفعل والمراد من الاعراض السكوت عن الخير والشر والايذاء بل يعرض عنها بوجهه أو يشتغل بغيرها (فلا جناح عليهما) يعني فلا حرج ولا اثم على الزوج والمرأة (أن يصالحا) من المصالحة وقرئ أن يصلحا بضم الياء وكسر اللام من الاصلاح (بينهما

في يتامى النساء) أي الله يفتيكم والمتلو في الكتاب أي القرآن في معنى اليتامى يعني قوله وان خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى وهو من قولك أعجبني زيد وكرمه وما يتلى في محل الرفع بالعطف على الضمير في يفتيكم أو على لفظ الله وفي يتامى النساء صلة يتلى أي يتلى عليكم في معناهن ويجوز أن يكون في يتامى النساء بدلا من فيهن والاضافة بمعنى من (اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن) ما فرض لهن من الميراث وكان الرجل منهم يضم اليتيمة الى نفسه ومالها فان كانت جميلة تزوجها وأكل المال وان كانت دميمة عضلها عن التزوج حتى تموت فيرثها (وترغبون أن تنكحوهن) أي في ان تنكحوهن لجمالهن أوعن ان تنكحوهن لدمامتهن (والمستضعفين من الولدان) أي اليتامى وهو مجرور معطوف على يتامى النساء وكانوا في الجاهلية انما يورثون الرجال القوام بالامور دون الاطفال والنساء (وأن تقوموا لليتامى) مجرور كالمستضعفين بمعنى يفتيكم في يتامى النساء وفي المستضعفين وفي أن تقوموا أو منصوب بمعنى ويأمركم ان تقوموا وهو خطاب للأئمة في أن ينظروا لهم ويستوفوا لهم حقوقهم (بالقسط) بالعدل في ميراثهم ومالهم (وما تفعلوا من خير) شرط وجوابه (فان الله كان به عليما) أي فيجازيكم عليه (وان امرأة خافت من بعلها نشوزا) توقعت منه ذلك لما لاح لها من مخايله صلحا) وأماراته والنشوز أن يتجافى عنها بان يمنعها نفسه ونفقته وان يؤذيها بسب أو ضرب (أو اعراضا) عنها بان يقل محادثتها ومؤانستها بسبب كبر سن او دمامة أو سوء في خلق أو خلق أو ملال أو طموح عين الى أخرى أو غير ذلك (فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما) كوفي يصالحا

غيرهم أي يتصالحا وهو أصله فابدلت التاء صادا وأدغمت (صلحا) فى معنى مصدر كل واحد من الفعلين ومعنى الصلح أن يتصالحا على أن تطيب له نفسا عن القسمة أو عن بعضها أو تهب له بعض المهر أو كله أو النفقة (والصلح خير) من الفرقة أو من النشوز أو من الخصومة فى كل شئ أو والصلح خير من الخيور كما ان الخصومة شر من الشرور وهذه الجلة اعتراض كقوله (وأحضرت الانفس الشح) أى جعل الشح حاضرا لها لا يغيب عنها أبدا ولا تنفك عنه يعنى انها مطبوعة عليه والمراد ان المرأة لا تكاد تسمح بقسمها والرجل لا يكاد يسمح بان يقسم لها اذا رغب عنها فكل واحد منهما يطلب ما فيه راحته وأحضرت يتعدى الى مفعولين والاول الانفس ثم حث على مخالفة الطبع ومتابعة الشرع بقوله (وان تحسنوا) بالاقامة على نسائكم وان كرهتموهن وأحببتم غيرهن وتصبروا على ذلك مراعاة لحق الصحبة (وتتقوا) النشوز والاعراض وما يؤدى الى الاذى والخصومة (فان الله كان بما تعملون) من الاحسان والتقوى (خبيرا) فيثيبكم عليه وكان عمران الخارجى من أدم بنى آدم وامرأته من أجملهم فنظرت اليه وقالت الحمد لله على انى واياك من أهل الجنة قال كيف فقالت لانك رزقت مثلى فشكرت ورزقت مثلك فصبرت والجنة موعودة للشاكرين والصابرين (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء) ولن تستطيعوا العدل بين النساء والتسوية حتى لا يقع ميل ألبتة فتمام العدل أن يسوى بينهن بالقسمة والنفقة والتعهد والنظر والاقبال والمجاملة والمفاكهة وغيرها وقيل معناه ان تعدلوا فى المحبة وكان عليه السلام يقسم بين نسائه فيعدل و يقول هذه قسمتى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك يعنى المحبة لان عائشة رضى الله عنها كانت أحب اليه (ولو حرصتم) بالغتم فى تحرى ذلك (فلا تميلوا كل الميل) فلا تجوروا على المرغوب عنها كل الجور فتمنعوها قسمها من غير رضا منها يعنى ان اجتناب كل الميل فى حد اليسر فلا تفرطوا فيه وان وقع منكم التفريط فى العدل كله وفيه ضرب من التوبيخ وكل نصب على المصدر لان له حكم ما يضاف اليه (فتذروها كالمعلقة) وهى التى ليست بذات بعل ولا مطلقة (وان تصلحوا) بينهن (وتتقوا) الجور (فان الله كان غفورا رحيما) يغفر لكم ميل قلوبكم ويرحمكم فلا يعاقبكم (وان

صلحا) يعنى فى القسمة والنفقة وهو أن يقول لزوج لامرأة انك قد كبرت ودخلت فى السن وأنا أريد أن أتزوج امرأة جميلة شابة أوثرها عليك فى القسمة ليلا ونهارا فان رضيت فاقيمى وان كرهت ذلك فارقتك وخليت سبيلك فان رضيت بذلك كانت هى المحسنة ولا تجبر على ذلك وان لم ترض بدون حقها كان على الزوج ان يوفيها حقها من القسم والنفقة أو يسرحها باحسان وان أمسكها ووفاها حقها مع الكراهة لها كان هو المحسن قال ابن عباس فان صالحته على بعض حقها من القسمة والنفقة جاز وان أنكرت ذلك بعد الصلح كان ذلك لها ولها حقها (والصلح خير) يعنى اقامتها بعد تخييره اياها والمصالحة على ترك بعض حقها من القسم والنفقة خير من الفرقة عن ابن عباس قال خشيت سودة أن يطلقها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت لا تطلقنى وأمسكنى واجعل يومى لعائشة ففعل فنزلت فلا جناح عليهما أن يصالحا بينهما صلحا والصلح خير فما اصطلحا عليه من شئ فهو جائز أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم لعائشة يومين يومها ويوم سودة (وأحضرت الانفس الشح) الشح أقبح البخل وحقيقته الحرص على منع الخير وانما قال وأحضرت الانفس الشح لانه كالامر اللازم للنفوس لانها مطبوعة عليه ومعنى الآية ان كل واحد من الزوجين يشح بنصيبه من الآخر فالمرأة تشح على مكانها من زوجها والرجل يشح عليها بنفسه اذا كان غيرها أحب اليه منها (وان تحسنوا وتتقوا) هذا خطاب للازواج يعنى وان تحسنوا أيها الازواج الصحبة والعشرة وتتقوا الله فى حق المرأة فانها أمانة عندكم وقيل معناه وان تحسنوا بالاقامة معها على الكراهة وتتقوا ظلمها والجور عليها (فان الله كان بما تعملون خبيرا) يعنى فيجازيكم باعمالكم ۞ قوله عز وجل (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء) يعنى ولن تقدروا أن تسووا بين النساء فى الحب وميل القلب لان ذلك مما لا تقدرون عليه وليس من كسبكم (ولو حرصتم) يعنى على العدل والتسوية بينهن وقيل معناه ولو حرصتم على ذلك (فلا تميلوا كل الميل) يعنى الى التى تحبونها فى القسم والنفقة والمعنى انكم لستم منهيين عن حصول التفاوت فى الميل القلبى لان ذلك خارج عن قدرتكم ووسعكم ولكنكم منهيون عن اظهار ذلك الميل فى القول والفعل عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط أخرجه الترمذى وعند أبى داود من كانت له امرأتان فمال الى احداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل عن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم فيعدل فيقول اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك يعنى القلب أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى ۞ وقوله تعالى (فتذروها كالمعلقة) يعنى فتدعوا الاخرى التى لا تميلون اليها كالمعلقة لا أيما ولا ذات بعل كالشئ المعلق لا هو فى السماء ولا على الارض وقيل معناه فتذروها كالمسجونة لا هى مخلصة فتتزوج ولا هى ذات بعل فيحسن اليها (وان تصلحوا) يعنى بالعدل فى القسم (وتتقوا) يعنى الجور فى القسم (فان الله كان غفورا) يعنى لما حصل من الميل الى بعضهن دون بعض (رحيما) يعنى بكم حيث لم يكلفكم ما لا تقدرون عليه (وان

يتفرقا) أي ان لم يصطلح الزوجان على شيء وتفرقا بالخلع أو بتطليقه اياها وايفائه مهرها ونفقة عدتها (يغن الله كلا) كل واحد منهما (من سعته) من غناه أي برزقه زوجا خيرا من زوجه وعيشا أهنأ من عيشه (وكان الله واسعا) بتحليل النكاح (حكيما) بالاذن

في السراح فالسعة الغنى والقدرة والواسع الغني ثم المقتدر بين غناه وقدرته بقوله (ولله ما في السموات وما في الارض) خلقا والمتملكون عبيده رقا (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب) هو اسم للجنس فيتناول الكتب السماوية (من قبلكم) من الامم السالفة وهو متعلق بوصينا أو باوتوا (واياكم) عطف على الذين أوتوا (أن اتقوا الله) بان اتقوا أو تكون ان المفسرة لان التوصية في معنى القول والمعنى ان هذه وصية قديمة ما زال يوصي الله عنها عباده ولستم بها مخصوصين لانهم بالتقوى يسعدون عنده (وان تكفروا) عطف على اتقوا لان المعنى أمرناهم وأمرناكم بالتقوى وقلنا لهم ولكم ان تكفروا (فان لله ما في السموات وما في الارض وكان الله غنيا) عن خلقه وعن عبادتهم (حميدا) مستحقا لان يحمد لكثرة نعمه وان لم يحمده أحد وتكرير قوله لله ما في السموات وما في الارض تقرير لما هو موجب تقواه لان الخلق لما كان كله له وهو خالقهم ومالكهم فحقه أن يكون مطاعا في خلقه غير معصي وفيه دليل على ان التقوى أصل الخير كله وقوله وان تكفروا عقيب التقوى دليل على ان المراد الاتقاء عن الشرك (ولله ما في السموات وما في الارض وكفى بالله وكيلا) فاتخذوه وكيلا ولا تتكلوا على غيره ثم خوفهم وبين قدرته بقوله يعطيكم

يتفرقا) يعني ان لم يصطلحا وأرادا الفرقة (يغن الله كلا من سعته) يعني من فضله ورزقه والمعنى يغني الزوج امرأة أخرى والمرأة بزوج آخر وقيل معناه يعوض الزوج بما يحب والمرأة بما تحب ويوسع عليهما وفي هذا تسلية لكل واحد من الزوجين بعد الطلاق (وكان الله واسعا) يعني واسع الفضل والرحمة وقيل واسع القدرة والعلم والرزق وقيل هو الغني الذي وسع جميع مخلوقاته غناه (حكيما) يعني فيما أمر به ونهى عنه

﴿فصل﴾ فيما يتعلق بحكم الآية وجملته ان الرجل اذا كان تحته امرأتان أو أكثر يجب عليه التسوية بينهن في القسم فان ترك التسوية بينهن في فعل القسم عصى الله عز وجل في ذلك وعليه القضاء للمظلومة والتسوية شرط في البيتوتة أما في الجماع فلا لان ذلك يدور على النشاط وميل القلب وليس ذلك اليه ولو كان في نكاحه حرة وأمة قسم للحرة ليلتين وللامة ليلة واحدة واذا تزوج جديدة على قديمات كن عنده فانه يخص الجديدة بان يبيت عندها سبع ليال ان كانت الجديدة بكرا وان كانت ثيبا خصها بثلاث ليال ثم انه يستأنف القسم ويسوي بينهن ولا يجب عليه قضاء عوض هذه الليالي للقديمات ويدل على ذلك ماروى أبو قلابة عن أنس قال من السنة اذا تزوج البكر على الثيب أقام عندها سبعا وقسم واذا تزوج الثيب أقام عندها ثلاثا وقسم قال أبو قلابة ولو شئت لقلت ان أنسا رفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم أخرجاه في الصحيحين واذا سافر الرجل الى سفر حاجة جاز له أن يحمل معه بعض نسائه بشرط أن يقرع بينهن ولا يجب عليه أن يقضي للباقيات عوض مدة سفر وان طالت اذا لم يزد مقامه في البلد على مدة المسافرين ويدل على ذلك ماروي عن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه أخرجه البخاري مع زيادة فيه واذا أراد الرجل سفر نقلة وجب عليه أخذ نسائه معه ﴿قوله تعالى (ولله ما في السموات وما في الارض) يعني عبيدا وملكا قال أهل المعاني لما ذكر الله تعالى انه يغني من سعته وفضله أشار الى ما يوجب الرغبة اليه في طلب الخير منه لان من ملك السموات والارض لا تفنى خزائنه (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) يعني من اليهود والنصارى وأصحاب الكتب القديمة (واياكم) يعني ووصيناكم يا أهل القرآن في كتابكم (أن اتقوا الله) أي بان تتقوا الله وهو أن توحدوه وتطيعوه وتحذروه ولا تخالفوا أمره والمعنى ان الامر بتقوى الله شريعة قديمة أوصى الله بها جميع الامم السالفة في كتبهم (وان تكفروا) يعني وان تجحدوا ما أوصاكم به (فان لله ما في السموات وما في الارض) يعني فان لله ملائكة في السموات والارض هم أطوع له منكم وقيل معناه ان الله تعالى خالق السموات والارض وما فيهن ومالكهن والمنعم عليهم باصناف النعم ومن كان كذلك فحق لكل أحد أن يتقيه ويرجوه (وكان الله غنيا) يعني عن جميع خلقه غير محتاج اليهم ولا الى طاعتهم (حميدا) يعني محمودا على نعمه عليهم (ولله ما في السموات وما في الارض وكفى بالله وكيلا) قال ابن عباس يعني شهيدا على ان له فيهن عبيدا وقيل معناه وكفى بالله دافعا ومجيرا فان قلت ما الفائدة في تكرير قوله تعالى ولله ما في السموات وما في الارض قلت الفائدة في ذلك ان لكل آية معنى تختص به أما الآية الاولى فمعناها فان لله ما في السموات وما في الارض وهو يوصيكم بتقوى الله فاقبلوا وصيته وقيل لما قال تعالى وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته بين أن له ما في السموات وما في الارض وانه قادر على اغناء جميع الخلائق وهو المستغني عنهم وأما الآية الثانية فانه تعالى قال وان تكفروا فان لله ما في السموات وما في الارض والمراد انه تعالى منزه عن طاعات الطائعين وعن ذنوب المذنبين وانه لا يزداد جلاله بالطاعات ولا ينقص بالمعاصي وقيل لما بين ان له ما في السموات وما في الارض وقال بعد ذلك وكان الله غنيا حميدا فالمراد منه أنه تعالى هو الغني وله الملك فاطلبوا منه ما تطلبون فهو

(ان يشأ يذهبكم) يعدمكم (أيها الناس ويأت بآخرين) ويوجد انسا آخرين مكانكم أو خلقا آخرين غير الانس (وكان الله على ذلك قديرا)
بليغ القدرة (من كان يريد ثواب الدنيا) كالمجاهد يريد بجهاده الغنيمة (فعند الله ثواب الدنيا والآخرة) فماله

يطلب أحدهما دون الآخر والذي يطلبه أخسهما (وكان الله سميعا) للاقوال (بصيرا) بالافعال وهو وعد ووعيد (ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط) مجتهدين في اقامة العدل حتى لا تجوروا (شهداء) خبر بعد خبر (لله) أي تقيمون شهاداتكم لوجه الله (ولو على أنفسكم) ولو كانت الشهادة على أنفسكم والشهادة على نفسه هي الاقرار على نفسه لانه في معنى الشهادة عليها بالزام الحق وهذا لان الدعوى والشهادة والاقرار يشترك جميعها في الاخبار عن حق لاحد على أحد غير ان الدعوى اخبار عن حق لنفسه على الغير والاقرار للغير على نفسه والشهادة للغير على الغير (أو الوالدين والاقربين) أي ولو كانت الشهادة على آبائكم وأمهاتكم وأقاربكم (ان يكن) المشهود عليه (غنيا) فلا يمنع الشهادة عليه لغناه طلبا لرضاه (أوفقيرا) فلا يمنعها ترحما عليه (فالله أولى بهما) بالغني والفقير أي بالنظر لهما والرحمة وانما ثنى الضمير في بهما وكان حقه أن يوحد لان المعنى ان يكن أحد هذين لانه يرجع الى ما دل عليه قوله غنيا أو فقيرا وهو جنس الغني والفقير كانه قيل فالله أولى بجنسي الغني والفقير أي بالاغنياء والفقراء (فلا تتبعوا الهوى) ارادة (ان تعدلوا) عن الحق من العدول أو كراهة ان تعدلوا بين الناس من العدل (وان تلووا) بواو واحدة وضم اللام شامي وحمزة من الولاية

يعطيكم لان له مافي السموات ومافي الارض وأما الثالثة فقال تعالى ولله مافي السموات ومافي الارض وكفى بالله وكيلا أي فتوكلوا عليه ولا تتوكلوا على غيره فانه المالك لما في السموات والارض وقيل تكريرها لتعديد لما هو موجب تقواه لتتقوه وتطيعوه ولا تعصوه لان التقوى والخشية أصل كل خير ﴿ قوله عزوجل (ان يشأ يذهبكم أيها الناس) قال ابن عباس يريد المشركين والمنافقين (ويأت بآخرين) بغيركم هم خير منكم وأطوع له ففيه تهديد للكفار والمعنى أنه يهلككم أيها الكفار كما أهلك من كان قبلكم اذ كفروا به وكذبوا رسله (وكان الله على ذلك قديرا) يعني وكان الله على ذلك الاهلاك واعادة غيركم قادرا بليغا في القدرة لا يمتنع عليه شئ أراده لم يزل ولا يزال موصوفا بالقدرة على جميع الاشياء ﴿ قوله تعالى (من كان يريد ثواب الدنيا) يعني من كان يريد بعمله عرضا من الدنيا نزلت في مشركي العرب وذلك انهم كانوا يقرون بان الله تعالى خالقهم ولا يقرون بالبعث يوم القيامة فكانوا يتقربون الى الله ليعطيهم من خير الدنيا ويصرف عنهم شرها وقيل نزلت في المنافقين لانهم كانوا لا يصدقون بيوم القيامة وانما كانوا يطلبون بجهادهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عاجل الدنيا وهو ماينالونه من الغنيمة (فعند الله ثواب الدنيا والآخرة) يعني الذين يطلبون باعمالهم وجهادهم ثواب الدنيا وماينالونه من الغنيمة مخطؤن في قصدهم لان الله عنده ثواب الدنيا وثواب الآخرة فلو كانوا عقلاء لطلبوا ثواب الآخرة حتى يحصل لهم ذلك ويحصل لهم ثواب الدنيا على سبيل التبعية والمعنى ان من أراد بعمله الدنيا آتاه الله منها ما أراد وصرف عنه من شرها ما أراد وليس له ثواب في الآخرة يجزى به ومن أراد بعمله وجه الله وثواب الآخرة فعند الله ثواب الدنيا والآخرة يؤتيه من الدنيا ما قدر له ويجزيه في الآخرة خير الجزاء (وكان الله سميعا) يعني لاقوالهم وما يسرونه من طلب ثواب الدنيا (بصيرا) يعني بنياتهم ومافي نفوسهم وقيل بصيرا بمن يطلب الدنيا بعمله وبمن يطلب الآخرة بعمله ﴿ قوله عزوجل (ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله) قال السدي ان فقيرا وغنيا اختصما الى النبي صلى الله عليه وسلم فكان صغوه مع الفقير يرى ان الفقير لا يظلم الغني فانزل الله هذه الآية وأمر بالقيام بالقسط مع الغني والفقير وقيل ان هذه الآية متعلقة بقصة طعمة بن أبيرق فهي خطاب لقومه الذين جادلوا عنه وشهدوا له بالباطل فامرهم الله تعالى أن يكونوا قائمين بالقسط شاهدين لله على كل حال ولو على أنفسهم وأقاربهم فقال تعالى كونوا قوامين بالقسط القوام مبالغة في القيام بالعدل في جميع الشهادات واجتناب الجور فيها قال ابن عباس كونوا قوامين بالعدل في جميع الشهادات على من كانت شهداء لله يعني أقيموا شهاداتكم لوجه الله كما أمركم فيها فيقول الحق في شهادته (ولو على أنفسكم) يعني ولو كانت الشهادة على أنفسكم أمر الله العبد أن يشهد على نفسه بالحق وهو ان يقر على نفسه وذلك الاقرار يسمى شهادة في كونه موجبا للحق عليه (أو الوالدين والاقربين) يعني ولو كانت الشهادة على الوالدين والاقربين من ذوي رحمه وأقاربه والمعنى قولوا الحق ولو على أنفسكم أو على الوالدين أو الاقارب فاقيموا الشهادة عليهم لله تعالى ولا تحابوا غنيا لغناه ولا ترحموا فقيرا لفقره فذلك قوله تعالى (ان يكن) يعني المشهود عليه (غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما) يعني منكم والمعنى كلوا أمرهم الى الله تعالى فهو أعلم بهم وبحالهم وانما قال بهما على التثنية لانه رد الضمير الى المعنى دون اللفظ يعني فالله أولى بالغني وبالفقير (فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا) يعني فلا تتبعوا الهوى واتقوا الله أن تعدلوا عن الحق في أداء الشهادة وقيل معناه اتركوا متابعة الهوى حتى تصيروا موصوفين بصفة العدل لان العدل عبارة عن ترك متابعة الهوى (وان تلووا)

(أو تعرضوا) أي وان وليتم اقامة الشهادة أو اعرضتم عن اقامتها غيرهما تلووا بواوين وسكون اللام من اللي أي وان تلووا ألسنتكم عن شهادة الحق أو حكومة العدل أو تعرضوا عن الشهادة بما عندكم وتمنعوها (فان الله كان بما تعملون خبيرا) فيجازيكم عليه

قرئ بواوين ومعناه ان يلوي الشاهد لسانه الى غير الحق قال ابن عباس يلوي لسانه بغير الحق ولا يقيم الشهادة على وجهها (أو تعرضوا) يعني أو يعرض الشاهد عن الشهادة فيكتمها ولا يقيمها يقال لويته حقه اذا دفعته عنه ومطلته به وقيل معناه وان تلووا عن القيام باداء الشهادة أو تعرضوا عنها فتتركوها وقيل معناه التحريف والتبديل في الشهادة من قولهم لويت الشيء اذا فتلته وهو خطاب مع الحكام يقول وان تلووا يعني تميلوا مع أحد الخصمين دون الآخر أو تعرضوا عنه بالكلية وقرئ تلوا بواو واحدة من الولاية فهو خطاب للحكام أيضا ومعناه فلا تلوا أمور المسلمين وتضيعوهم أو تعرضوا عنهم (فان الله كان بما تعملون خبيرا) يعني انه تعالى يجازي المحسن باحسانه والمسيء باساءته فيجازيكم باعمالكم ۞ قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله) قال ابن عباس نزلت في عبد الله بن سلام وأسد وأسيد ابني كعب وثعلبة بن قيس وسلام ابن أخت عبد الله بن سلام وسلمة ابن أخيه ويامين بن يامين فهؤلاء مؤمنو أهل الكتاب أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا انا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سوى ذلك من الكتب والرسل فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم بل آمنوا بالله وبرسوله محمد والقرآن وبكل كتاب كان قبله فانزل الله هذه الآية يا أيها الذين آمنوا يعني بمحمد والقرآن وبموسى والتوراة آمنوا بالله ورسوله اسم جنس يعني آمنوا بجميع رسله وقيل هو خطاب لاهل الكتاب جميعا والمعنى يا أيها الذين آمنوا بموسى والتوراة وبعيسى والانجيل آمنوا بمحمد والقرآن وقيل هو خطاب للمنافقين والمعنى يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم آمنوا بقلوبكم حتى ينفعكم الايمان لان الايمان باللسان لا ينفع من غير مواطأة القلب وقيل هو خطاب للمؤمنين والمعنى يا أيها الذين آمنوا في الماضي والحال آمنوا في المستقبل ودوموا واثبتوا على الايمان (والكتاب الذي نزّل على رسوله) يعني القرآن (والكتاب الذي أنزل من قبل) يعني وآمنوا بالقرآن وبجميع الكتب التي أنزلها على أنبيائه قبل القرآن فيكون الكتاب اسم جنس لجميع الكتب (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا) ۞ قوله عز وجل (ان الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا) قال ابن عباس نزلت في اليهود آمنوا بموسى ثم كفروا بعبادتهم العجل ثم آمنوا بعد ذلك ثم كفروا بعيسى والانجيل ثم ازدادوا كفرا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وقيل انهم آمنوا بموسى ثم كفروا بعده ثم آمنوا بداود ثم كفروا بعيسى ثم ازدادوا كفرا بمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل نزلت في المنافقين وذلك انهم آمنوا ثم كفروا بعد الايمان ثم آمنوا يعني بألسنتهم وهو اظهارهم الايمان لتجري عليهم أحكام المؤمنين ثم ازدادوا كفرا يعني بموتهم على الكفر وقيل بذنوب أحدثوها في الكفر وقيل هم قوم آمنوا ثم ارتدوا الى الكفر ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا يعني بموتهم عليه وذلك لان من تكرر منه الايمان بعد الكفر والكفر بعد الايمان مرات كثيرة يدل على انه لا وقع للايمان في قلبه ومن كان كذلك لا يكون مؤمنا بالله ايمانا صحيحا وازديادهم الكفر هو استهزاؤهم وتلاعبهم بالايمان ومثل هذا المتلاعب بالدين هل تقبل توبته أم لا حكي عن علي بن أبي طالب انه قال لا تقبل توبته بل يقتل وذهب أكثر أهل العلم الى أن توبته مقبولة ۞ وقوله تعالى (لم يكن الله ليغفر لهم) يعني ما أقاموا على الكفر وماتوا عليه وذلك لان الله تعالى أخبر أنه يغفر الكفر اذا تاب منه بقوله قل للذين كفروا ان ينتهوا عن الكفر يغفر لهم ما قد سلف يعني من كفرهم (ولا ليهديهم سبيلا) يعني طريق هدى وقيل لا يجعلهم

(يا أيها الذين آمنوا) خطاب للمسلمين (آمنوا) اثبتوا على الايمان ودوموا عليه أو لاهل الكتاب لانهم آمنوا ببعض الكتب والرسل وكفروا ببعض أو للمنافقين أي يا أيها الذين آمنوا نفاقا آمنوا اخلاصا (بالله ورسوله) أي محمد صلى الله عليه وسلم (والكتاب الذي نزل على رسوله) أي الفرقان (والكتاب الذي أنزل من قبل) أي جنس ما أنزل على الانبياء قبله من الكتب ويدل عليه قوله وكتبه نزل وأنزل بالبناء للمفعول مكي وشامي وأبو عمرو وعلى البناء للفاعل فيهما غيرهم وانما قيل نزل على رسوله وأنزل من قبل لان الفرقان نزل مفرقا منجما في عشرين سنة بخلاف الكتب قبله (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر) أي ومن يكفر بشيء من ذلك (فقد ضل ضلالا بعيدا) لان الكفر ببعضه كفر بكله (ان الذين آمنوا) بموسى عليه السلام (ثم كفروا) حين عبدوا العجل (ثم آمنوا) بموسى بعد عوده (ثم كفروا) بعيسى عليهما السلام (ثم ازدادوا كفرا) بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم (لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا) الى النجاة أو الى الجنة أو هم المنافقون آمنوا في الظاهر وكفروا في السر مرة بعد أخرى وازدياد الكفر منهم ثباتهم عليه الى الموت يؤيده قوله

(بشر المنافقين) أى أخبرهم ووضع بشر مكانه تهكما بهم (بان لهم عذابا أليما) مؤلما (الذين) نصب على الذم أو رفع بمعنى أريد الذين أو هم الذين (يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة) كان المنافقون يوالون الكفرة يطلبون منهم المنعة والنصرة ويقولون لا يتم أمر محمد عليه السلام (فان العزة لله جميعا) ولمن أعزه كالنبى عليه السلام والمؤمنين كما قال ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين (وقد نزل عليكم) بفتح النون عاصم وبضمها غيره (فى الكتاب) القرآن (أن اذا (١٤١) سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره) حتى يشرعوا فى كلام غير الكفر والاستهزاء بالقرآن والخوض الشروع وان مخففة من الثقيلة أى أنه اذا سمعتم أى نزل عليكم ان الشان كذا والشأن ما افادته الجملة بشرطها وجزائها وأن مع ما فى حيزها فى موضع الرفع بنزل أو فى موضع النصب بنزل والمنزل عليهم فى الكتاب هو ما نزل عليهم بمكة من قوله واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره وذلك ان المشركين كانوا يخوضون فى ذكر القرآن فى مجالسهم فيستهزؤون به فنهى المسلمين عن القعود معهم ماداموا خائضين فيه وكان المنافقون بالمدينة يفعلون نحو فعل المشركين بمكة فنهوا ان يقعدوا معهم كما نهوا عن مجالسة المشركين بمكة (انكم اذا مثلهم) أى فى الوزر اذا مكثتم معهم ولم يرد به التمثيل من كل وجه فان خوض المنافقين فيه كفر ومكث هؤلاء معهم معصية (ان الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا) لاجتماعهم فى الكفر والاستهزاء (الذين) بدل من الذين يتخذون أو صفة للمنافقين أو نصب على الذم منهم (يتربصون بكم) ينتظرون بكم ما يتجدد لكم من ظفر او اخفاق (فان كان لكم فتح من الله) نصرة وغنيمة (قالوا ألم نكن معكم) مظاهرين فاشركونا فى الغنيمة (وان كان للكافرين نصيب) سمى ظفر المسلمين فتحا تعظيما لشأنهم لانه أمر عظيم تفتح له أبواب السماء وظفر الكافرين نصيبا تخسيسا لحظهم لانه لحظة من الدنيا يصيبونها (قالوا) للكافرين (ألم نستحوذ عليكم) ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم فابقينا عليكم والاستحواذ الاستيلاء والغلبة

بكفرهم مهتدين ﴿ قوله تعالى (بشر المنافقين بان لهم عذابا أليما) يعنى أخبرهم يا محمد وانما وضع بشر مكان أخبر تهكما بهم وقيل البشارة كل خبر تتغير به بشرة الوجه سارا كان ذلك الخبر أو غير سار وقيل معناه اجعل موضع بشارتك لهم العذاب لان العرب تقول تحيتك الضرب أى هذا بدل من تحيتك قال الشاعر

وخيل قد دلفت لها بخيل * تحية بينهم ضرب وجيع

ثم وصف الله تعالى المنافقين فقال تعالى (الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) يعنى يتخذون اليهود أولياء وأنصارا وبطانة من دون المؤمنين وذلك ان المنافقين كانوا يقولون ان محمدا لا يتم أمره فيوالون اليهود فقال الله تعالى ردا على المنافقين (أيبتغون عندهم العزة) يعنى يطلبون من اليهود العزة والمعونة والظهور على محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه (فان العزة لله جميعا) يعنى فان القوة والقدرة والغلبة لله جميعا وهو الذى يعز أولياءه وأهل طاعته كما قال تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين (وقد نزل عليكم) يا معشر المسلمين (فى الكتاب) يعنى القرآن (أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها) قال المفسرون الذى أنزل عليهم فى النهى عن مجالستهم هو قوله تعالى فى سورة الانعام واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره وهذا أنزل بمكة لان المشركين كانوا يخوضون فى القرآن ويستهزؤون به فى مجالسهم ثم ان أحبار اليهود بالمدينة كانوا يفعلون مثل فعل المشركين وكان المنافقون يجلسون اليهم ويخوضون معهم فى الاستهزاء بالقرآن فنهى الله المؤمنين عن القعود معهم بقوله (فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره) يعنى يأخذوا فى حديث آخر غير الاستهزاء بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس دخل فى هذه الآية كل محدث فى الدين وكل مبتدع الى يوم القيامة (انكم اذا مثلهم) يعنى انكم يا أيها الجالسون مع المستهزئين بآيات الله اذا رضيتم بذلك فانتم وهم فى الكفر سواء قال العلماء وهذا يدل على ان من رضى بالكفر فهو كافر ومن رضى بمنكر أو خالط أهله كان فى الاثم بمنزلتهم اذا رضى به وان لم يباشره فان جلس اليهم ولم يرض بفعلهم بل كان ساخطا له وانما جلس على سبيل التقية والخوف فالامر فيه أهون من المجالسة مع الرضا وان جلس مع صاحب بدعة أو منكر ولم يخض فى بدعته أو منكره فيجوز الجلوس معه مع الكراهة وقيل لا يجوز بحال والاول أصح (ان الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا) أى انهم اجتمعوا فى الدنيا على الاستهزاء بآيات الله وكذلك يجمعهم فى عذاب جهنم يوم القيامة ﴿ قوله عز وجل (الذين يتربصون بكم) نزلت فى المنافقين والمعنى ينتظرون ما يحدث بكم من خير أو شر (فان كان لكم فتح من الله) أى ظفر على عدوكم وغنيمة تنالونها منهم (قالوا) يعنى المنافقين لكم (ألم نكن معكم) يعنى فى الوقعة والفتح فاعطونا من الغنيمة وقيل معناه ألم نكن على دينكم وفى الجهاد كنا معكم فاجعلوا لنا نصيبا من الغنيمة (وان كان للكافرين نصيب) أى دولة وظهور على المسلمين (قالوا) يعنى المنافقين للكفار (ألم نستحوذ عليكم) الاستحواذ هو الاستيلاء والغلبة يقال استحوذ فلان على فلان أى غلب عليه والمعنى ألم نغلبكم ونتمكن منكم ومن قتالكم وأسركم ثم لم نفعل ذلك وقيل معناه ألم نغلبكم على

(ونمنعكم من المؤمنين) بأن ثبطناهم عنكم وخيلنا لهم ما ضعفت قلوبهم به ومرضوا عن قتالكم وتوانينا في مظاهرتهم عليكم فهاتوا نصيبا لنا مما أصبتم (فالله يحكم بينكم) أيها المؤمنون والمنافقون (يوم القيامة) فيدخل المنافقين النار والمؤمنين الجنة (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) أي في القيامة بدليل أول الآية كذا عن علي رضي الله عنه أو حجة كذا عن ابن عباس رضي الله عنهما (ان المنافقين يخادعون الله) أي يفعلون ما يفعل المخادع (٤٤٢) من اظهار الايمان وابطان الكفر والمنافق من أظهر الايمان وأبطن الكفر أو أولياء الله وهم المؤمنون فاضاف خداعهم الى نفسه تشريفا لهم (وهو خادعهم) وهو فاعل بهم ما يفعل الغالب في الخداع حيث تركهم معصومي الدماء والاموال في الدنيا وأعد لهم الدرك الاسفل من النار في العقبى والخادع اسم فاعل من خادعته فخدعته اذا غلبته وكنت أخدع منه وقيل يجزيهم جزاء خداعهم (واذا قاموا الى الصلوة قاموا كسالى) متثاقلين كراهة أما الغفلة فقد يبتلى بها المؤمن وهو جمع كسلان كسكارى في سكران (يراؤن الناس) حال أي يقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة والمراءاة مفاعلة من الرؤية لان المرائي يريهم عمله وهم يرونه استحسانا (ولا يذكرون الله الا قليلا) ولا يصلون الا قليلا لانهم لا يصلون قط غائبين عن عيون الناس أو لا يذكرون الله بالتسبيح والتهليل الا ذكرا قليلا نادرا قال الحسن لو كان ذلك القليل لله تعالى لكان كثيرا (مذبذبين) نصب على الذم أي مرددين يعني ذبذبهم الشيطان والهوى بين الايمان والكفر فهم مترددون بينهما متحيرون وحقيقة المذبذب الذي يذب عن كلا الجانبين أي يدفع فلا يقر في جانب واحد الا أن الذبذبة فيها تكرير ليس في الذب (بين ذلك) بين الكفر والايمان (لا الى هؤلاء) لا منسوبين الى هؤلاء فيكونوا مؤمنين (ولا الى هؤلاء) ولا منسوبين الى هؤلاء فيسموا مشركين (ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) طريقا الى الهدى

رأيكم (ونمنعكم من المؤمنين) يعني من صلاتهم بالدخول في دينهم وقيل معناه ألم ندفع المؤمنين بتخذيلهم عنكم ومراسلتنا اياكم باخبارهم وأسرارهم فهاتوا نصيبا مما أصبتم منهم ومراد المنافقين اظهار المنة على الكفار فان قلت لم سمي ظفر المؤمنين فتحا وسمي ظفر الكافرين نصيبا قلت تعظيما لشأن المؤمنين وتخسيسا لحظ الكافرين لان ظفر المؤمنين أمر عظيم تفتح له أبواب السماء حتى ينزل النصر على المسلمين وأما ظفر الكفار فما هو الاحظ دنيء ونصيب خسيس لا يبقى منه الا ما نالوه في الدنيا ولهم في الآخرة العقوبة الشديدة على ذلك النصيب الذي نالوه من المسلمين (فالله يحكم بينكم يوم القيامة) يعني الفريقين فريق المؤمنين وفريق المنافقين والمعنى انما وضع السيف عن المنافقين في الدنيا لا لاجل كرامتهم بل أخر عذابهم الى يوم القيامة (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) فيه قولان أحدهما وهو قول علي بن أبي طالب وابن عباس ان المراد به يوم القيامة بدليل أنه عطف على قوله فالله يحكم بينكم يوم القيامة روى ان رجلا سأل علي ابن أبي طالب عن هذه الآية ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا وهم يقتلوننا فقال ولن يجعل الله للكافرين يوم القيامة على المؤمنين سبيلا والقول الثاني ان هذا في الدنيا والمعنى ان حجة المؤمنين غالبة في الدنيا على الكافرين وليس لاحد أن يغلبهم بالحجة وقيل معناه ان الله لم يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا بان يمحو دولة المؤمنين بالكلية حتى يستبيحوا بيضتهم فلا يبقى احد من المؤمنين وقيل معناه ان الله لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا بالشرع فان شريعة الاسلام ظاهرة الى يوم القيامة ويتفرع على ذلك مسائل من أحكام الفقه منها ان الكافر لا يرث المسلم ومنها ان الكافر اذا استولى على مال المسلم لم يملكه بدليل هذه الآية ومنها ان الكافر ليس له أن يشتري عبدا مسلما ومنها ان المسلم لا يقتل بالذمي بدليل هذه الآية ۞ قوله تعالى (ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) يعني يعاملون الله وهو مجازيهم على خداعهم وقيل معناه يخادعون رسول الله صلى الله عليه وسلم لانهم يظهرون له الاسلام ويبطنون له الكفر وهو خادعهم يعني والله مجازيهم بالعقاب وقيل انهم يعطون نورا يوم القيامة كما يعطى المؤمنون فيمضي المؤمنون بنورهم على الصراط ويطفأ نور المنافقين (واذا قاموا الى الصلوة) يعني المنافقين (قاموا كسالى) يعني متثاقلين وسبب هذا الكسل انهم يتعبون بها لانهم لا يريدون بفعلها ثوابا ولا يريدون بها وجه الله عز وجل ولا يخافون على تركها عقابا لان الداعي الى فعلها خوف الناس فلذلك وقع فعلها على وجه الكسل والفتور (يراؤن الناس) يعني انهم لا يقومون الى الصلاة الا لاجل الرياء والسمعة لا لاجل الدين ولا يرون أنها واجبة عليهم قال قتادة والله لولا الناس ما صلى منافق (ولا يذكرون الله الا قليلا) قال ابن عباس انما قال ذلك لانهم يفعلونه رياء وسمعة ولو أرادوا بذلك القليل وجه الله لكان كثيرا وقيل لان الله لم يقبله ولو قبله لكان كثيرا وقيل المراد بذكر الله الصلاة والمعنى انهم لا يصلون الا قليلا لانهم متى لم يكن معهم أحد من المؤمنين فلا يصلون واذا كانوا مع المؤمنين يتكلفون فعلها (مذبذبين بين ذلك) يعني متحيرين مترددين بين الكفر والايمان لانهم ليسوا مع المؤمنين المخلصين ولا مع المشركين المصرحين بالشرك وهو قوله تعالى (لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء) يعني ليسوا من المؤمنين حتى يجب لهم ما يجب للمؤمنين وليسوا من الكفار فيؤخذ منهم ما يؤخذ من الكفار (ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) يعني طريقا الى الهدى (ق) عن ابن

عمر

(يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون ان تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا) حجة بينة فى تعذيبكم (ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار) أى فى الطبق الذى فى قعر جهنم والنار سبع دركات سميت بذلك لانها متداركة متتابعة بعضها فوق بعض وانما كان المنافق أشد عذابا من الكافر لانه أمن السيف فى الدنيا فاستحق الدرك الاسفل فى العقبى تعديلا ولانه مثله فى الكفر وضم الى كفره الاستهزاء بالاسلام وأهله والدرك بسكون الراء كوفى غير الاعشى وبفتح الراء غيرهم وهما لغتان وذكر الزجاج ان الاختيار فتح الراء (ولن تجد لهم نصيرا) يمنعهم من العذاب (الا الذين تابوا) من النفاق وهو استثناء من الضمير المجرور فى ولن تجد لهم نصيرا (وأصلحوا) ما أفسدوا من أسرارهم وأحوالهم فى حال النفاق (واعتصموا بالله) ووثقوا به كما يثق المؤمنون الخلص (وأخلصوا دينهم لله) لا يبتغون بطاعتهم الا وجهه (فأولئك مع المؤمنين) فهم أصحاب المؤمنين ورفاقهم فى الدارين (وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما) فيشاركونهم فيه وحذفت الياء فى الخط هنا اتباعا للفظ ثم استفهم مقررا أنه لا يعذب المؤمن الشاكر فقال (ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم) لله (وآمنتم) به فما منصوبة بيفعل أى أى شئ يفعل بعذابكم فالايمان معرفة المنعم والشكر الاعتراف بالنعمة والكفر بالمنعم والنعمة عناد فلذا استحق الكافر العذاب وقدم الشكر على الايمان لان العاقل ينظر الى ما عليه من النعمة العظيمة فى خلقه وتعريضه للمنافع فيشكر شكرا مبهما فاذا انتهى به النظر الى معرفة المنعم آمن به ثم شكر شكرا مفصلا

عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير الى هذه مرة والى هذه مرة قوله كمثل الشاة العائرة بالعين المهملة ومعناه المتحيرة المترددة لا تدرى لاى الغنمين تتبع ومعنى تعير تتردد وتذهب يمينا وشمالا مرة الى هذه ومرة الى هذه لا تدرى الى أين تذهب وهذا مثل المنافق مرة مع المؤمنين ومرة مع الكافرين أو ظاهره مع المؤمنين وباطنه مع الكافرين ۞ قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين) لما ذم الله عز وجل المنافقين بقوله مذبذبين بين ذلك نهى الله المؤمنين ان يتخلقوا بأخلاق المنافقين يقول لا توالوا الكفار من دون أهل ملتكم ودينكم فتكونوا كمن أوجبت له النار من المنافقين والسبب فى هذا النهى ان الانصار بالمدينة كان لهم من يهود بنى النضير وقريظة حلف ومودة ورضاع فقالوا يا رسول الله من نتولى فقال المهاجرين (أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا) يعنى أتريدون أيها المتخذون الكفار أولياء ان تجعلوا لله عليكم حجة بينة باتخاذكم الكفار أولياء من دون المؤمنين فتستوجبوا بذلك النار ثم بين مقر النار من المنافقين فقال تعالى (ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار) يعنى فى الطبق الذى فى قعر جهنم والنار سبع دركات بعضها فوق بعض سميت طبقات جهنم دركات لانها متداركة متتابعة وقيل الدرك بيت مقفل عليهم تتوقد فيه النار من فوقهم ومن تحتهم وقيل هى توابيت من حديد مقفلة عليهم فى النار فان قلت لم كان المنافق أشد عذابا من الكافر قلت ان المنافق مثل الكافر فى الكفر وزيادة وهو أنه ضم الى كفره نوعا آخر من الكفر أخبث منه وهو الاستهزاء بالاسلام والمسلمين وافشاء أسرار المسلمين ونقلها الى الكفار فلهذا السبب جعل الله عذاب المنافقين أشد عذابا من الكفار والمنافق من أظهر الايمان وأبطن الكفر وقيل هو الذى يصف الاسلام بلسانه ولا يعمل بشرائعه ولا يتقيد بقيوده ولا يدخل تحت أحكامه وأما تسمية من ارتكب ما يفسق به منافقا فللتغليظ ومنه قوله صلى الله عليه وسلم ثلاث من كن فيه فهو منافق وان صام وصلى وزعم أنه مسلم من اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان فان هذه الخصال صفات المنافقين فمن فعلها فقد تشبه بالمنافقين ۞ وقوله تعالى (ولن تجد لهم نصيرا) يعنى ولن تجد يا محمد لهؤلاء المنافقين ناصرا ينصرهم من عذاب الله اذا نزل بهم ثم استثنى الله عز وجل من تاب من المنافقين فقال تعالى (الا الذين تابوا) يعنى من النفاق (وأصلحوا) يعنى أصلحوا الاعمال فعملوا بما أمر الله به وأدوا فرائضه وانتهوا عما نهاهم عنه (واعتصموا بالله) يعنى وتمسكوا بعهد الله ووثقوا به (وأخلصوا دينهم لله) يعنى وأخلصوا طاعتهم وأعمالهم التى عملوها لله وأرادوه بها ولم يريدوا رياء ولا سمعة فهذه الامور الاربعة اذا حصلت فقد كمل الايمان فلذلك قال تعالى (فأولئك) يعنى التائبين من النفاق (مع المؤمنين) يعنى فى الجنة وقيل مع بمعنى من أى من المؤمنين (وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما) يعنى فى الآخرة ۞ قوله تعالى (ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم) هذا الاستفهام تقرير معناه انه تعالى لا يعذب الشاكر المؤمن فان تعذيبه لا يزيد فى ملكه وتركه عقوبته لا ينقص من سلطانه لانه الغنى الذى لا يحتاج الى شئ من ذلك فان عاقب أحدا فانما يعاقبه لامر أوجبه العدل والحكمة فان قمتم بشكر نعمته وآمنتم به فقد أنقذتم أنفسكم من عذابه قال أهل المعانى فيه تقديم وتأخير تقديره ان آمنتم وشكرتم لان الايمان مقدم على سائر الطاعات ولان الشكر لا ينفع مع عدم الايمان ولان الواو لا توجب الترتيب وقيل هو على أصله والمعنى ان العاقل ينظر بعين بصيرته أولا الى ما عليه من النعمة العظيمة فى ايجاده وخلقه فيشكر على

الجزيل من الثواب (عليما) عالما بما تصنعون (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول) ولا غير الجهر ولكن الجهر أفحش (الا من ظلم) الا جهر من ظلم استثنى من الجهر الذي لا يحبه الله جهر المظلوم وهو أن يدعو على الظالم و يذكره بما فيه من السوء وقيل الجهر بالسوء من القول هو الشتم الا من ظلم فانه ان رد عليه مثله فلا حرج عليه ولمن انتصر بعد ظلمه (وكان الله سميعا) لشكوى المظلوم (عليما) بظلم الظالم ثم حث على العفو وأن لا يجهر أحد لاحد بسوء وان كان على وجه الانتصار بعد ما أطلق الجهر به حثا على الافضل وذكر ابداء الخير واخفاءه تسببا للعفو فقال (ان تبدوا خيرا) مكان جهر السوء (أو تخفوه) فتعملوه سرا ثم عطف العفو عليهما فقال (أو تعفوا عن سوء) أي تمحوه عن قلوبكم والدليل على أن العفو هو المقصود بذكر ابداء الخير واخفائه قوله (فان الله كان عفوا قديرا) أي انه لم يزل عفوا عن الآثام مع قدرته على الانتقام فعليكم ان تقتدوا بسنته (ان الذين يكفرون بالله ورسله

ذلك شكرا عظيما مبهما ثم اذا تمم النظر ثانيا انتهى به النظر الى معرفة المنعم عليه فآمن به ثم شكره شكرا مفصلا فكان ذلك الشكر المبهم مقدما على الايمان فلذلك قدم الشكر على الايمان في الذكر (وكان الله شاكرا) يعني مثيبا عباده المؤمنين موفيا أجورهم والشكر من الله الرضا بالقليل من أعمال عباده واضعاف الثواب عليه وقيل لما أمر الله عباده بالشكر سمى الجزاء شكرا على سبيل الاستعارة فالمراد من الشاكر في صفة الله تعالى كونه مثيبا على الشكر (عليما) يعني بحق شكركم وايمانكم فيجازيكم على ذلك ۞ قوله عزوجل (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم) قال أهل المعاني يعني أنه تعالى لا يحب الجهر بالسوء ولا غير الجهر به أيضا من القول يعني من القول القبيح الا من ظلم قيل هو استثناء متصل والمعنى الا جهر من ظلم وقيل هو استثناء منقطع ومعناه لكن المظلوم يجوز أن يجهر بظلم الظالم قال العلماء لا يجوز اظهار أحوال الناس المستورة المكتومة لان ذلك يصير سببا لوقوع الناس في الغيبة ووقوع ذلك الشخص في الريبة لكن من ظلم فيجوز له اظهار ظلمه فيقول سرق مني أو غصب ونحو ذلك وان شوتم جاز له ان يشتم بمثله ولا يزيد شيأ على ذلك و يدل على ذلك ما روى عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المستبان ما قالا فعلى الاول وفي رواية فعلى البادئ منهما حتى يعتدي المظلوم أخرجه مسلم قال ابن عباس لا يحب الله ان يدعو أحد على أحد الا أن يكون مظلوما فانه قد أرخص له ان يدعو على من ظلمه وذلك قوله الا من ظلم وان صبر فهو خير له وقال الحسن البصري هو الرجل يظلم الرجل فلا يدع عليه ولكن ليقل اللهم أعني عليه اللهم استخرج لي حقي اللهم حل بيني و بين ما يريد ونحوه من الدعاء وقيل نزلت الآية في الضيف اذا نزل بقوم فلم يقروه ولم يحسنوا ضيافته فله ان يشكو ما صنع به قال مجاهد هو الرجل ينزل بالرجل فلا يحسن ضيافته فيخرج من عنده فيقول أساء ضيافتي وقال مقاتل نزلت في أبي بكر الصديق وذلك ان رجلا نال منه والنبي صلى الله عليه وسلم حاضر فسكت عنه أبو بكر مرارا ثم رد عليه فقام النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر يا رسول الله شتمني فلم تقل له شيأ حتى اذا رددت عليه قمت قال ان ملكا كان يجيب عنك فلما رددت عليه ذهب الملك وجاء الشيطان فقمت ونزلت هذه الآية (وكان الله سميعا) يعني لدعاء المظلوم (عليما) بما في قلبه فليتق الله ولا يقل الا الحق ۞ قوله تعالى (ان تبدوا خيرا) قال ابن عباس يريد من أعمال البر كالصيام والصدقة والضيافة والصلة وقيل معناه ان تبدوا خيرا بدلا من السوء (أو تخفوه) يعني تخفوا الخير فلم تظهروه وقيل معناه ان تبدوا حسنة فتعملوا بها تكتب لكم عشرا وان هم بها ولم يعملها كتبت له واحدة وقيل ان جميع مقاصد الخيرات على كثرتها محصورة في قسمين أحدهما صدق النية مع الحق والثاني التخلق مع الخلق فالذي يتعلق بالخلق ينحصر في قسمين أيضا وهما ايصال نفع اليهم في السر والعلانية واليه الاشارة بقوله تعالى ان تبدوا خيرا أو تخفوه أو رفع ضر عنهم واليه الاشارة بقوله تعالى (أو تعفوا عن سوء) فيدخل في هاتين الكلمتين جميع أعمال البر وجميع دفع الضر وقيل المراد بالخير المال والمعنى ان تبدوا الصدقة فتعطوها الفقراء جهرا أو تخفوها فتعطوها سرا أو تعفوا عن مظلمة (فان الله كان عفوا قديرا) يعني لم يزل ذا عفو مع قدرته على الانتقام فاعفوا أنتم عمن ظلمكم واقتدوا بسنة الله عزوجل يعف عنكم يوم القيامة لانه أهل للتجاوز والعفو عنكم وقيل معناه ان الله كان عفوا لمن عفا قديرا على ايصال الثواب اليه ۞ قوله عزوجل (ان الذين يكفرون بالله ورسله) نزلت في اليهود وذلك انهم آمنوا بموسى والتوراة وكفروا بعيسى والانجيل و بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وقيل نزلت في اليهود والنصارى جميعا وذلك ان اليهود آمنوا بموسى وكفروا بعيسى ومحمد والنصارى آمنوا بعيسى وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين (و يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله و يقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض) يعني و يريدون أن يفرقوا بين الايمان بالله والايمان برسله ولا يصح الايمان

و يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله و يقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض) كاليهود كفروا بعيسى ومحمد عليهما السلام والانجيل والقرآن وكالنصارى كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن

(ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا) أى دينا وسطا بين الايمان والكفر ولا واسطة بينهما (أولئك هم الكافرون) هم الكاملون فى الكفر لان الكفر بواحد كفر بالكل (حقا) تأكيد لمضمون الجملة كقولك هذا عبد الله حقا أى حق ذلك حقا وهو كونهم كاملين فى الكفر أو هو صفة لمصدر الكافرين أى هم الذين كفروا كفرا حقا ثابتا يقينا لا شك فيه (وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا) فى الآخرة (والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم) وانما جاز دخول بين على أحد لانه عام فى الواحد المذكر والمؤنث وتثنيتهما وجمعهما (أولئك سوف نؤتيهم) وبالياء حفص (أجورهم) أى الثواب الموعود لهم (وكان الله غفورا) يستر السيآت (رحيما) يقبل الحسنات والآية تدل على بطلان قول المعتزلة فى تخليد المرتكب الكبيرة لانه أخبر أن من آمن بالله ورسله ولم يفرق بين أحد منهم يؤتيه أجره ومرتكب الكبيرة ممن آمن بالله ورسله ولم يفرق بين أحد فيدخل تحت الوعد وعلى بطلان قول من لا يقول بتقدم صفات الفعل من المغفرة والرحمة لانه قال وكان الله غفورا رحيما وهم يقولون ما كان الله غفورا رحيما فى الازل ثم صار غفورا رحيما ولما قال فنحاص وأصحابه للنبى صلى الله عليه وسلم ان كنت نبيا صادقا فأتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى به موسى عليه السلام نزل (يسئلك أهل الكتاب أن تنزل عليهم) وبالتخفيف مكى وأبو عمرو (كتابا من السماء) أى جملة كما نزلت التوراة جملة وانما اقترحوا ذلك على سبيل التعنت وقال الحسن لو سألوه مسترشدين لاعطاهم لان انزال القرآن جملة ممكن (فقد سألوا موسى أكبر من ذلك) هذا جواب شرط مقدر معناه ان استكبرت ما سألوه منك فقد سألوا موسى أكبر من ذلك وانما أسند السؤال اليهم وقد وجد من آبائهم فى أيام موسى عليه السلام وهم النقباء السبعون لانهم كانوا على مذهبهم وراضين بسؤالهم (فقالوا أرنا الله جهرة) عيانا أى أرناه نره جهرة (فأخذتهم الصاعقة) العذاب الهائل أو النار المحرقة (بظلمهم) على أنفسهم بسؤال الشئ فى غير موضعه أو بالتحكم على نبيهم فى الآيات وتعنتهم فى سؤال الرؤية لا بسؤال الرؤية لانها ممكنة كانزال القرآن جملة ولو كان ذلك بسبب سؤال الرؤية لكان موسى بذلك أحق فانه قال رب أرنى أنظر اليك وما أخذته الصاعقة بل أطمعه وقيده بالممكن ولا يعلق بالممكن الا ما هو ممكن الثبوت ثم أحياهم (ثم اتخذوا العجل) الها (من بعد ما جاءتهم البينات) التوراة والمعجزات التسع

بالله مع التكذيب ببعض رسله (ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا) يعنى بين الايمان بالبعض دون البعض يتخذون مذهبا يذهبون اليه ودينا يدينون به (أولئك) يعنى من هذه صفتهم (هم الكافرون حقا) يعنى يقينا وانما قال ذلك توكيدا لكفرهم لئلا يتوهم متوهم ان الايمان ببعض الرسل يزيل اسم الكفر عنهم وليعلم أن الكفر ببعض الانبياء كالكفر بكلهم لان الدليل الذى يدل على نبوة البعض وهو المعجزة لزم منه انه حيث وجدت المعجزة حصلت النبوة وقد وجدت المعجزة لجميع الانبياء فلزم الايمان بجميعهم (وأعتدنا) يعنى وهيأنا (للكافرين عذابا مهينا) يعنى يهانون فيه (والذين آمنوا بالله ورسله) يعنى والذين صدقوا بوحدانية الله ونبوة جميع أنبيائه وان جميع ما جاؤا به من عند الله حق وصدق (ولم يفرقوا بين أحد منهم) يعنى من الرسل بل آمنوا بجميعهم وهم المؤمنون (أولئك) يعنى من هذه صفتهم (سوف نؤتيهم أجورهم) يعنى جزاء ايمانهم بالله وبجميع كتبه ورسله (وكان الله غفورا رحيما) يعنى انه تعالى لما وعدهم بالثواب أخبرهم أنه يتجاوز عن سيآتهم ويغفرها لهم ويرحمهم فهو كالترغيب لليهود والنصارى فى الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم لانهم اذا آمنوا غفر لهم ما كان منهم فى حال الكفر ۞ قوله تعالى (يسئلك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء) يعنى يسألك يا محمد أهل الكتاب وهم اليهود وذلك ان كعب بن الاشرف وفنحاص ابن عازوراء من اليهود قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان كنت نبيا فأتنا بكتاب جملة واحدة من السماء كما أتى موسى بالتوراة وقيل سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتابا مختصا بهم وقيل سألوه أن ينزل عليهم كتابا الى فلان وكتابا الى فلان ليشهد لك بأنك رسول الله وكان هذا السؤال من اليهود سؤال تعنت واقتراح لا سؤال استرشاد وانقياد والله تعالى لا ينزل الآيات على اقتراح العباد ولان معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت قد تقدمت وظهرت فكان طلب الزيادة من باب التعنت ۞ وقوله تعالى (فقد سألوا موسى أكبر من ذلك) يعنى أعظم من الذى سألوك يا محمد ففيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتوبيخ وتقريع لليهود حيث سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم سؤال تعنت والمعنى لا تعظمن عليك يا محمد مسئلتهم ذلك فانهم من فرط جهلهم واجترائهم على الله لو أتيتهم بكتاب من السماء لما آمنوا بك وانما أسند السؤال الى اليهود الذين كانوا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وان وجد هذا السؤال من آبائهم الذين كانوا فى أيام موسى عليه السلام لانهم كانوا على مذهبهم وراضين بسؤالهم ومشاكلين لهم فى التعنت (فقالوا) يعنى أسلاف هؤلاء اليهود (أرنا الله جهرة) يعنى عيانا والمعنى أرناه نره جهرة وذلك ان سبعين من بنى اسرائيل خرجوا مع موسى عليه الصلاة والسلام الى الجبل فقالوا ذلك وقد تقدمت القصة فى سورة البقرة (فأخذتهم الصاعقة بظلمهم) يعنى بسبب ظلمهم وسؤالهم الرؤية (ثم اتخذوا العجل) يعنى الها وهم الذين خلفهم موسى مع أخيه هرون حين خرج الى ميقات ربه (من بعد ما جاءتهم البينات) يعنى الدلالات الواضحات الدالة على صدق موسى وهى

(فعفونا على ذلك) تفضلا ولم نستأصلهم (وآتينا موسى سلطانا مبينا) حجة ظاهرة على من خالفه (ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم) بسبب ميثاقهم ليخافوا فلا ينقضوه (وقلنا لهم) والطور مظل عليهم (ادخلوا الباب سجدا) ادخلوا باب ايلياء مطاطئين عند الدخول رؤسكم (وقلنا لهم لا تعدوا) لا تجاوزوا الحد تعدوا وورش تعدوا باسكان العين وتشديد الدال مدني غير ورش وهما مدغما تعتدوا وهي قراءة أبي الا أنه أدغم التاء في الدال وأبقى العين ساكنة في رواية وفي رواية نقل فتح التاء الى العين (في السبت) باخذ السمك (وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) عهدا مؤكدا (فبما نقضهم) أي فبنقضهم وما مزيدة للتوكيد والباء يتعلق بقوله حرمنا عليهم طيبات تقديره حرمنا عليهم طيبات بنقضهم ميثاقهم وقوله فبظلم من الذين هادوا بدل من قوله فبما نقضهم (ميثاقهم) ومعنى التوكيد تحقيق ان تحريم الطيبات لم يكن الا بنقض العهد وما عطف عليه من الكفر وقتل الانبياء وغير ذلك (وكفرهم بآيات الله) أي معجزات موسى عليه السلام (وقتلهم الانبياء) كزكريا ويحيى وغيرهما (بغير حق) بغير سبب يستحقون به القتل (وقولهم قلوبنا غلف) جمع أغلف أي محجوبة لا يتوصل اليها شيء من الذكر والوعظ (بل طبع الله عليها بكفرهم) هو رد وانكار لقولهم قلوبنا غلف (فلا يؤمنون الا قليلا) كعبد الله بن سلام وأصحابه (وبكفرهم) معطوف على فبما نقضهم أو على ما يليه من قوله بكفرهم ولما تكرر منهم الكفر لانهم كفروا بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم عطف بعض كفرهم على جميعا
بعض (وقولهم على مريم بهتانا عظيما) هو النسبة الى الزنا (وقولهم انا قتلنا المسيح) سمي مسيحا لان جبريل عليه السلام مسحه بالبركة فهو ممسوح أو لانه كان يمسح المريض والاكمه والابرص فيبرأ فسمي مسيحا بمعنى الماسح (عيسى ابن مريم رسول الله) هم لم يعتقدوه رسول الله لكنهم قالوا استهزاء كقول الكفار لرسولنا يا أيها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون ويحتمل ان الله وصفه بالرسول وان لم يقولوا ذلك

العصا واليد وفلق البحر وغير ذلك من المعجزات الباهرة (فعفونا عن ذلك) يعني عن ذلك الذنب العظيم فلم نستأصل عبدة العجل والمقصود من هذا تسلية النبي صلى الله عليه وسلم والمعنى ان هؤلاء الذين يطلبون منك يا محمد ان تنزل عليهم كتابا من السماء انما يطلبونه عنادا ولجاجا فاني قد انزلت التوراة جملة واحدة على موسى وآتيته من المعجزات الباهرات والآيات البينات ما فيه كفاية ثم انهم طلبوا الرؤية على سبيل العناد وعبدوا العجل وكل ذلك يدل على جهلهم وانهم مجبولون على اللجاج والعناد وفي قوله فعفونا عن ذلك استدعاء الى التوبة والمعنى ان أولئك الذين أجرموا لما تابوا عفونا عنهم فتوبوا أنتم نعف عنكم (وآتينا موسى سلطانا مبينا) يعني حجة واضحة تدل على صدقه وهي المعجزات الباهرات التي أعطاها الله عز وجل لموسى عليه السلام

۞ قوله عز وجل (ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم) يعني ورفعنا فوقهم الجبل المسمى بالطور بسبب أخذ ميثاقهم وذلك ان بني اسرائيل امتنعوا من قبول التوراة والعمل بما فيها فرفع الله فوقهم الطور حتى أظلهم ليخافوا فلا ينقضوا العهد والميثاق (وقلنا لهم) يعني والطور يظلهم (ادخلوا الباب سجدا) فخالفوا ودخلوا وهم يزحفون على استاههم (وقلنا لهم لا تعدوا في السبت) يعني وقلنا لهم لا تجاوزوا في يوم السبت الى ما لا يحل لكم فيه وذلك انهم نهوا أن يصطادوا السمك في يوم السبت فاعتدوا واصطادوا فيه وقيل المراد به النهي عن العمل والكسب في يوم السبت (وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) يعني وأخذنا منهم عهدا مؤكدا شديدا بان يعملوا بما أمرهم الله به وأن ينتهوا عما نهاهم الله عنه ثم انهم نقضوا ذلك الميثاق وهو قوله تعالى (فبما نقضهم ميثاقهم) يعني فبنقضهم وما مزيدة للتوكيد والمعنى فبسبب نقضهم ميثاقهم لعناهم وسخطنا عليهم وفعلنا بهم ما فعلنا (وكفرهم بآيات الله) يعني وبجحودهم بآيات الله الدالة على صدق أنبيائه (وقتلهم الانبياء) يعني بعد قيام الحجة والدلالة على صحة نبوتهم (بغير حق) يعني بغير استحقاق لذلك القتل (وقولهم قلوبنا غلف) يعني وبقولهم على قلوبنا أغطية وغشاوة فهي لا تفقه ما تقول جمع أغلف وقيل جمع غلاف يعني قلوبنا أوعية للعلم فلا حاجة بنا الى ما تدعونا اليه فرد الله عليهم بقوله (بل طبع الله عليها بكفرهم) يعني بل ختم الله على قلوبهم بسبب كفرهم (فلا يؤمنون الا قليلا) يعني ايمانهم بموسى والتوراة وكفرهم بما سواه من الانبياء والكتب وقيل لا يؤمنون قليلا ولا كثيرا وقيل المراد بالقليل هو عبد الله بن سلام وأصحابه الذين آمنوا من اليهود

۞ قوله تعالى (وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما) يعني حين رموها بالزنا وذلك انهم أنكروا قدرة الله تعالى على خلق الولد من غير أب ومنكر قدرة الله كافر فالمراد بقوله وبكفرهم هو انكارهم قدرة الله تعالى والمراد بقولهم على مريم بهتانا عظيما هو رميهم اياها بالزنا وانما سماه بهتانا عظيما لانه قد ظهر عند ولادة مريم من المعجزات ما يدل على براءتها من ذلك فلهذا السبب وصف الله قول اليهود على مريم بالبهتان العظيم

۞ قوله عز وجل (وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) ادعت اليهود انهم قتلوا عيسى عليه السلام وصدقهم النصارى على ذلك فكذبهم الله عز وجل

جميعا ورد عليهم بقوله (وماقتلوه وماصلبوه) وفي قوله رسول الله قولان أحدهما انه من قول اليهود فيكون المعنى انه رسول الله على زعمه والقول الثاني انه من قول الله لا على وجه الحكاية عنهم وذلك ان الله تعالى أبدل ذكرهم في عيسى عليه السلام القول القبيح بالقول الحسن رفعا لدرجته عما كانوا يذكرونه من القول القبيح ﴿﴾ وقوله تعالى (ولكن شبه لهم) يعني ألقى شبه عيسى على غيره حتى قتل وصلب واختلف العلماء في صفة التشبيه الذي شبه على اليهود في أمر عيسى عليه السلام فروى الطبري بسنده عن وهب بن منبه انه قال أتى اليهود عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين في بيت فأحاطوا بهم فلما دخلوا عليهم صورهم الله تعالى كلهم على صورة عيسى فقالوا لهم سحرتمونا لتبرزن لنا عيسى أو لنقتلنكم جميعا فقال عيسى لأصحابه من يشتري نفسه منكم اليوم بالجنة فقال رجل منهم أنا فخرج اليهم فقال أنا عيسى وقد صوره الله تعالى على صورة عيسى فأخذوه وقتلوه وصلبوه فمن ثم شبه لهم وظنوا انهم قد قتلوا عيسى وظنت النصارى مثل ذلك ورفع الله عز وجل عيسى عليه السلام من يومه ذلك وفي رواية أخرى عن وهب ان عيسى عليه السلام قال لأصحابه ليكفرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات وليبيعني بدراهم يسيرة وليأكلن ثمني فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه فأخذوا شمعون أحد الحواريين فقالوا هذا من أصحاب عيسى فجحد وقال ما أنا بصاحبه فتركوه ثم أخذوا آخر فجحد كذلك فلما أصبح أتى بعض الحواريين الى اليهود وكان منافقا فقال ما تجعلون لي ان أدلكم على المسيح فجعلوا له ثلاثين درهما فدلهم عليه فألقى الله شبه عيسى على ذلك المنافق الذي دل عليه فأخذوه فقتلوه وصلبوه وهم يظنون انه عيسى وقال قتادة ان أعداء الله اليهود زعموا انهم قتلوا عيسى وصلبوه وذكر لنا ان نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام قال لأصحابه أيكم يقذف عليه شبهي وله الجنة فانه مقتول فقال رجل منهم أنا يا نبي الله فأخذ ذلك الرجل وقتل وصلب ورفع الله عز وجل عيسى الى السماء وقيل ان اليهود حبسوا عيسى في بيت وجعلوا عليه رقيبا يحفظه فألقى الله شبه عيسى على ذلك الرقيب فأخذ فقتل وصلب فرفع الله عز وجل عيسى في ذلك الوقت قال الطبري وأولى الاقوال بالصواب ما ذكرنا عن وهب ابن منبه من أن شبه عيسى ألقي على جميع من كان مع عيسى في البيت حين أحيط به وبهم من غير مسئلة عيسى اياهم ذلك ولكن ليخزي الله بذلك اليهود وينقذ به نبيه عيسى عليه السلام من كل مكروه أرادوه به من قتل وغيره وليبتلي الله من أراد ابتلاءه من عباده ويحتمل أن يكون ألقى شبهه على بعض أصحابه بعدما تفرق عنه أصحابه ورفع الله عيسى عليه السلام وبقي ذلك فأخذ وقتل وصلب وظن أصحابه واليهود ان الذي قتلوه وصلبوه هو عيسى لما رأوا من شبهه به وخفي أمر عيسى عليهم وكانت حقيقة ذلك الامر عند الله فلذلك قال تعالى وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم (وان الذين اختلفوا فيه) يعني في قتل عيسى وهم اليهود (لفي شك منه) يعني من قتله وذلك ان اليهود قتلوا ذلك الشخص المشبه بعيسى وكان قد ألقى الشبه على وجه ذلك الشخص دون جسده فلما قتلوه نظروا الى جسده فوجدوه غير جسد عيسى فقالوا الوجه وجه عيسى والجسد جسد غيره فهذا هو اختلافهم فيه وقيل ان اليهود لما حبسوا عيسى وأصحابه في البيت دخل عليه رجل منهم ليخرجه اليهم فألقى الله شبه عيسى على ذلك الرجل فأخذ وقتل ورفع الله عز وجل عيسى الى السماء وفقدوا صاحبهم فقالوا ان كنا قتلنا المسيح فأين صاحبنا وان كنا قتلنا صاحبنا فأين المسيح عيسى فهذا هو اختلافهم فيه وقيل ان الذين اختلفوا فيه هم النصارى فبعضهم يقول ان القتل وقع على ناسوت عيسى دون لاهوته وبعضهم يقول وقع القتل عليهما جميعا وبعضهم يقول رأيناه قتل وبعضهم يقول رأيناه رفع الى السماء فهذا هو اختلافهم فيه قال الله تعالى (مالهم به من علم) يعني انهم قتلوا من قتلوا على شك منهم فيه ولم يعرفوا حقيقة ذلك المقتول هل هو عيسى أو غيره (الا اتباع الظن) يعني لكن يتبعون الظن في قتله ظنا منهم أنه

(وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم) روى ان رهطا من اليهود سبوه وسبوا أمه فدعا عليهم اللهم أنت ربي وبكلمتك خلقتني اللهم العن من سبني وسب والدتي فمسخ الله من سبهما قردة وخنازير فاجتمعت اليهود على قتله فأخبره الله بانه يرفعه الى السماء ويطهره من صحبة اليهود فقال لأصحابه أيكم يرضى أن يلقى عليه شبهي فيقتل ويصلب ويدخل الجنة فقال رجل منهم أنا فألقى الله عليه شبهه فقتل وصلب وقيل كان رجل ينافق عيسى فلما أرادوا قتله قال أنا أدلكم عليه فدخل بيت عيسى ورفع عيسى وألقى الله شبهه على المنافق فدخلوا عليه فقتلوه وهم يظنون انه عيسى وجاز هذا على قوم متعنتين حكم الله بانهم لا يؤمنون وشبه مسند الى الجار والمجرور وهو لهم كقولك خيل اليه كأنه قيل ولكن وقع لهم التشبيه أو مسند الى ضمير المقتول لدلالة انا قتلنا عليه كأنه قيل ولكن شبه لهم من قتلوه (وان الذين اختلفوا فيه) في عيسى يعني اليهود قالوا ان الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا أو اختلاف النصارى قالوا الله وابن الله وثالث ثلاثة (لفي شك منه مالهم به من علم الا اتباع الظن) استثناء منقطع لان اتباع الظن ليس من جنس العلم يعني ولكن يتبعون الظن وانما وصفوا بالشك وهو أن لا يترجح أحد الجانبين ثم وصفوا بالظن وهو ان يترجح أحدهما لان المراد انهم شاكون مالهم به من علم ولكن ان لاحت لهم أمارة فظنوا فذاك وقيل وان الذين اختلفوا فيه أي

عيسى لاعن علم وحقيقة (وماقتلوه يقينا) قال ابن عباس يعنى لم يقتلوا ظنهم يقينا فعلى هذا القول تكون الهاء فى قتلوه عائدة على الظن والمعنى ماقتلوا ذلك الظن يقينا ولم يزل ظنهم ولم يرتفع ماوقع لهم من الشبه فى قتله فهو كقول العرب قتله علما وقتله يقينا يعنى علمه علما تاما وأصل ذلك ان القتل للشئ يكون عن قهر واستيلاء وغلبة ومعنى الآية على هذا لم يكن علمهم بقتل عيسى علما تاما كاملا انما كان ظنا منهم انهم قتلوه ولم يكن لذلك حقيقة وقيل ان الهاء فى قتلوه عائدة على عيسى والمعنى وماقتلوا المسيح يقينا كما ادعوا انهم قتلوه وقيل ان قوله يقينا يرجع الى مابعده تقديره وماقتلوه (بل رفعه الله اليه) يقينا والمعنى انهم لم يقتلوا عيسى ولم يصلبوه ولكن الله عز وجل رفعه اليه وطهره من الذين كفروا وخلصه ممن أراده بسوء وقد تقدم كيف كان رفعه فى سورة آل عمران بما فيه كفاية ﴿ وقوله تعالى (وكان الله عزيزا) يعنى فى اقتداره على من يشاء من عباده (حكيما) يعنى فى انجاء عيسى عليه السلام وتخليصه من اليهود وقيل عزيزا يعنى منيعا منتقما من اليهود فسلط عليهم بنطيونس بن اسبسيانوس الرومى فقتل منهم مقتلة عظيمة حكيما حكم باللعنة والغضب على اليهود حيث ادعوا هذه الدعوى الكاذبة ﴿ قوله تعالى (وان من أهل الكتاب) يعنى ومامن أحد من أهل الكتاب (الاليؤمنن به) يعنى بعيسى عليه السلام وانه عبد الله ورسوله وروحه وكلمته هذا قول ابن عباس وأكثر المفسرين وقال عكرمة فى قوله الاليؤمنن به يعنى بمحمد صلى الله عليه وسلم وهذا القول لاوجه له لانه لم يجر للنبى صلى الله عليه وسلم ذكر قبل هذه الآية حتى يرجع الضمير اليه وقول الاكثرين أولى لانه تقدم ذكر عيسى عليه السلام فكان عود الضمير اليه أولى (قبل موته) اختلف المفسرون فى هذا الضمير الى من يرجع فقال ابن عباس وأكثر المفسرين ان الضمير يرجع الى الكتابى والمعنى ومامن أحد من أهل الكتاب الا آمن بعيسى قبل موت ذلك الكتابى ولكن يكون ذلك الايمان عند الحشرجة حين لا ينفعه ايمانه قال ابن عباس معناه اذا وقع فى اليأس حين لا ينفعه ايمانه سواء احترق أو تردى من شاهق أو سقط عليه جدار أو أكله سبع أو مات فجأة فقيل له أرأيت ان خر من فوق بيت قال يتكلم به فى الهواء فقيل له أرأيت ان ضربت عنقه قال يتلجلج به لسانه وقال شهر بن حوشب ان اليهودى اذا حضره الموت ضربت الملائكة باجنحتها وجهه ودبره وقالوا يا عدو الله أتاك عيسى نبيا فكذبت به فيقول آمنت انه عبد الله ورسوله وتقول للنصرانى أتاك عيسى نبيا فزعمت انه الله وابن الله فيقول آمنت انه عبد الله فاهل الكتابين يؤمنون به ولكن حيث لا ينفعهم ذلك الايمان وذهب جماعة من أهل التفسير الى ان الضمير يرجع الى عيسى عليه السلام وهو رواية عن ابن عباس أيضا والمعنى ومامن أحد من أهل الكتاب الاليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى وذلك عند نزوله من السماء فى آخر الزمان فلا يبقى أحد من أهل الكتابين الا آمن بعيسى حتى تكون الملة واحدة وهى ملة الاسلام قال عطاء اذا نزل عيسى الى الارض لا يبقى يهودى ولا نصرانى ولا أحد يعبد غير الله الا آمن بعيسى وانه عبد الله وكلمته ويدل على صحة هذا القول ماروى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد زاد فى رواية وحتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا ومافيها ثم يقول أبو هريرة اقرؤا ان شئتم وان من أهل الكتاب الاليؤمنن به قبل موته الآية وفى رواية قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لينزلن فيكم ابن مريم حكما عادلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية وليتركن القلاص فلا يسعى عليها وليذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون الى المال فلا يقبله أحد أخرجاه فى الصحيحين ففى هذا الحديث دليل على ان عيسى ينزل فى آخر الزمان فى هذه الامة ويحكم بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم وانه لا ينزل نبيا برسالة مستقلة وشريعة ناسخة بل يكون حاكما من حكام هذه الامة واماما من أئمتهم لقوله صلى الله عليه وسلم فيكسر الصليب يعنى يكسره حقيقة ويبطل

(وماقتلوه يقينا) أى قتلا يقينا أو وماقتلوه متيقنين أو وماقتلوه حقا فيجعل يقينا تأكيدا لقوله وماقتلوه أى حق انتفاء قتله حقا (بل رفعه الله اليه) الى حيث لاحكم فيه لغير الله أو الى السماء (وكان الله عزيزا) فى انتقامه من اليهود (حكيما) فيما دبر من رفعه اليه (وان من أهل الكتاب الاليؤمنن به قبل موته) ليؤمنن به جملة قسمية واقعة صفة لموصوف محذوف تقديره وان من أهل الكتاب أحد الاليؤمنن به ونحوه ومامنا الاله مقام معلوم والمعنى ومامن اليهود والنصارى أحد الاليؤمنن قبل موته بعيسى عليه السلام وبانه عبد الله ورسوله يعنى اذا عاين قبل ان تزهق روحه حين لا ينفعه ايمانه لانقطاع وقت التكليف أو الضميران لعيسى يعنى وان منهم أحد الاليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى وهم أهل الكتاب الذين يكونون فى زمان نزوله روى انه ينزل من السماء فى آخر الزمان فلا يبقى أحد من أهل الكتاب الايؤمن به حتى تكون الملة واحدة وهى ملة الاسلام أو الضمير فى به يرجع الى الله أو الى محمد صلى الله عليه وسلم والثانى الى الكتابى

مازعمه النصارى من تعظيمه وكذلك قتله الخنزير وقوله ويضع الجزية يعني لا يقبلها من بذلها من اليهود والنصارى ولا يقبل من أحد الا الاسلام أو القتل وعلى هذا قد يقال هذا خلاف ماهو حكم الشرع اليوم فان الكتابي اذا بذل الجزية وجب قبولها منه ولم يجز قتله ولا اجباره على الاسلام والجواب أن هذا الحكم ليس مستمرا الى يوم القيامة بل هو مقيد بما قبل نزول عيسى عليه السلام وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بنسخه وليس الناسخ هو عيسى عليه السلام بل الناسخ لهذا الحكم هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لانه هو المبين للنسخ أو أن عيسى عليه السلام يحكم بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم فدل على أن الامتناع من قبول الجزية فى ذلك الوقت هو شرع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم والله أعلم قال الزجاج هذا القول بعيد يعني قول من قال ان ايمان أهل الكتاب بعيسى انما يكون عند نزوله فى آخر الزمان قال لعموم قوله تعالى وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قال والذين يبقون يومئذ يعني عند نزوله شرذمة قليلة منهم وأجاب أصحاب هذا القول يعني الذين يقولون ان ايمان أهل الكتاب بعيسى انما يكون عند نزوله فى آخر الزمان بان هذا على العموم ولكن المراد بهذا العموم الذين يشاهدون ذلك الوقت و يدركون نزوله فيؤمنون به و يكون معنى الآية ومامن أحد من أهل الكتاب أدرك ذلك الوقت الا آمن بعيسى عند نزوله من السماء وصحح الطبرى هذا القول وقال عكرمة فى معنى الآية وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل موت الكتابي فلا يموت يهودى ولا نصرانى حتى يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وذلك عند الحشرجة حتى لا ينفعه ايمانه ۞ وقوله تعالى (و يوم القيامة يكون عليهم شهيدا) يعني يكون عيسى عليه السلام شاهدا على اليهود أنهم كذبوه وطعنوا فيه وعلى النصارى أنهم اتخذوه ربا وأشركوا به و يشهد على تصديق من صدقه منهم وآمن به قال قتادة معناه أنه يكون شهيدا يوم القيامة أنه قد بلغ رسالة ربه وأقر على نفسه بالعبودية ۞ قوله عزوجل (فبظلم من الذين هادوا) يعني فبسبب ظلم منهم (حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) يعني ما حرمنا عليهم الطيبات التى كانت حلالا لهم الا بظلم عظيم ارتكبوه وذلك الظلم هو ماذكره من نقضهم الميثاق وماعدد عليهم من أنواع الكفر والكبائر العظيمة مثل قولهم اجعل لنا الها كما لهم آلهة وكقولهم أرنا الله جهرة وكعبادتهم العجل فبسبب هذه الامور حرم الله عليهم طيبات كانت حلالا لهم وهى ماذكره فى سورة الانعام فى قوله وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر الآية وقال الطبرى فى معنى الآية فحرمنا على اليهود الذين نقضوا ميثاقهم الذى واثقوا ربهم به وكفروا بآيات الله وقتلوا أنبياءهم وقالوا البهتان على مريم وفعلوا ما وصفهم الله به فى كتابه طيبات من المآكل وغيرها التى كانت لهم حلالا عقوبة لهم بظلمهم الذى أخبر الله عنهم فى كتابه وروى عن قتادة قال عوقب القوم بظلم ظلموه و بغى بغوه وحرمت عليهم أشياء ببغيهم وظلمهم ونقل الواحدى وابن الجوزى عن مقاتل قال كان الله حرم على أهل التوراة أن يأكلوا الربا ونهاهم أن يأكلوا أموال الناس ظلما فأكلوا الربا وأكلوا أموال الناس ظلما بالباطل وصدوا عن دين الله وعن الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم فحرم الله عليهم عقوبة لهم ماذكر فى قوله وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر الآية قال الواحدى فاما وجه تحريم الطيبات عليهم كيف ومتى كان وعلى لسان من حرم عليهم فلم أجد فيه شيأ أنتهى اليه فتركته ولقد أنصف الواحدى فيما قال فان هذه الآية فى غاية الاشكال و بيانه أن الله تعالى لا يعاقب على ذنب قبل وقوعه وقد ذكر المفسرون فى معنى الظلم المذكور فى الآية ماتقدم ذكره وكلها ذنوب فى المستقبل فان قلت علم الله تعالى وقوع هذه الذنوب منهم قبل وقوعها فحرم عليهم ما حرم من الطيبات التى كانت لهم حلالا عقوبة لهم على ماسيقع منهم قلت جوابه ماتقدم وهو أن الله تعالى لا يعاقب على ذنب قبل وقوعه ولهذا لم يذكر فخر الدين فى تفسير هذه الآية ماذكره المفسرون بل ذكر تفسيرا اجماليا فقال اعلم أن أنواع الذنوب محصورة فى نوعين الظلم للخلق والاعراض عن الدين الحق أما ظلم الخلق فاليه

(ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) يشهد على اليهود بانهم كذبوه وعلى النصارى بانه دعوه ابن الله (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) وهى ماذكر فى سورة الانعام وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر الآية والمعنى ماحرمنا عليهم الطيبات الا لظلم عظيم ارتكبوه وهو ماعدد قبل هذا

الاشارة بقوله (و بصدهم عن سبيل الله كثيرا وأخذهم الربوا وقد نهوا عنه) ثم انهم مع ذلك فى غاية الحرص على طلب المال فتارة يحصلونه بطريق الربا مع أنهم قد نهوا عنه وتارة يحصلونه بطريق الرشا وهو المراد بقوله (وأكلهم أموال الناس بالباطل) فهذه الاربعة هى الذنوب التى شدد عليهم بسببها فى الدنيا والآخرة أما التشديد فى الدنيا فهو ما تقدم من تحريم الطيبات عليهم وأما التشديد فى الآخرة فهو المراد بقوله تعالى (وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما) قال المفسرون انما قال منهم لان الله علم ان قوما منهم سيؤمنون فيأمنون من العذاب ۞ قوله تعالى (لكن الراسخون فى العلم منهم) يعنى من اليهود وهذا استثناء استثنى الله عز وجل من آمن من أهل الكتاب ممن تقدم وصفهم وصفتهم فى الآيات التى تقدمت فبين فيما تقدم حال كفار اليهود والجهال منهم و بين فى هذه الآية حال من هداه لدينه منهم وأرشده للعمل بما علم فقال لكن الراسخون فى العلم ولكن هنا بمعنى الاستدراك والاستثناء والراسخون فى العلم الثابتون فى العلم البالغون فيه أولو البصائر الثاقبة والعقول الصافية وهم عبد الله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا من أهل الكتاب لانهم رسخوا فى العلم وعرفوا حقيقته فاوصلهم ذلك الى الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم (والمؤمنون) يعنى بالله ورسله (يؤمنون بما أنزل اليك) يعنى بالقرآن الذى أنزل اليك (وما أنزل من قبلك) يعنى ويؤمنون بسائر الكتب التى أنزلها الله على أنبيائه من قبلك يا محمد وفى المراد بالمؤمنين ههنا قولان أحدهما أنهم أهل الكتاب فيكون المعنى لكن الراسخون فى العلم منهم وهم المؤمنون والقول الثانى أنهم المهاجرون والانصار من هذه الامة فيكون قوله والمؤمنون ابتداء كلام مستأنف يؤمنون بما أنزل اليك يعنى أنهم يصدقون بالقرآن الذى أنزل اليك يا محمد وما أنزل من قبلك (والمقيمين الصلاة) اختلف العلماء فى وجه نصبه فحكى عن عائشة وأبان بن عثمان أنه غلط من الكتاب ينبغى أن يكتب والمقيمون الصلاة وقال عثمان بن عفان ان فى المصحف لحنا ستقيمه العرب بالسنتهم فقيل له أفلا تغيره فقال دعوه فانه لا يحل حراما ولا يحرم حلالا وذهب عامة الصحابة وسائر العلماء من بعدهم الى أنه لفظ صحيح ليس فيه خطأ من كاتب ولا غيره وأجيب عما روى عن عثمان بن عفان وعن عائشة وأبان بن عثمان بان هذا بعيد جدا لان الذين جمعوا القرآن هم أهل اللغة والفصاحة والقدرة على ذلك فكيف يتركون فى كتاب الله لحنا يصلحه غيرهم فلا ينبغى أن ينسب هذا اليهم قال ابن الانبارى ما روى عن عثمان لا يصح لانه غير متصل ومحال أن يؤخر عثمان شيأ فاسدا ليصلحه غيره ولان القرآن منقول بالتواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يمكن ثبوت اللحن فيه وقال الزمخشرى فى الكشاف ولا يلتفت الى ما زعموا من وقوع لحن فى خط المصحف وربما التفت اليه من لم ينظر فى الكتاب يعنى فى كتاب سيبويه ولم يعرف مذاهب العرب ومالهم فى النصب على الاختصاص والمدح من الافتنان وهو باب واسع قد ذكره سيبويه عن أمثلة وشواهد وربما غبى عليه أن السابقين الاولين كانوا أبعد همة فى الغيرة على الاسلام وذب الطاعن عنه من ان يتركوا فى كتاب الله عز وجل ثلمة يسدها من بعدهم وخرقا يرفوه من يلحق بهم ثم اختلف العلماء فى المقيمين الصلاة أهم الراسخون فى العلم أم غيرهم على قولين أحدهما أنهم هم وانما نصب على المدح والمعنى اذكر المقيمين الصلاة وهم المؤتون الزكاة قالوا والعرب تفعل ذلك فى صفة الشئ الواحد ونعته اذا تطاولت بمدح أو ذم فربما خالفوا بين اعراب أوله وأوسطه احيانا ثم رجعوا بآخره الى اعراب أوله وربما أجروا اعراب آخره على اعراب أوسطه وربما أجروا ذلك على نوع واحد من الاعراب واستشهدوا على معنى الآية

لا يبعدن قومى الذين هم ۞ سم العداة وآفة الجزر
النازلين بكل معترك ۞ والطيبون معاقد الازر

وهذا على معنى اذكر النازلين وهم الطيبون ومن هذا المعنى تقول جاءنى قومك المطعمين وهم المعينون

(و بصدهم عن سبيل الله) و بمنعهم عن الايمان (كثيرا) أى خلقا كثيرا أو صدا كثيرا (وأخذهم الربوا وقد نهوا عنه) كان الربا محرما عليهم كما حرم علينا وكانوا يتعاطونه (وأكلهم أموال الناس بالباطل) بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة (وأعتدنا للكافرين منهم) دون من آمن (عذابا أليما) فى الآخرة (لكن الراسخون فى العلم) أى الثابتون فيه المتقنون كابن سلام وأضرابه (منهم) من أهل الكتاب (والمؤمنون) أى المؤمنون منهم والمؤمنون من المهاجرين والانصار وارتفع الراسخون على الابتداء (يؤمنون) خبره (بما أنزل اليك) أى القرآن (وما أنزل من قبلك) أى سائر الكتب (والمقيمين الصلاة) منصوب على المدح لبيان فضل الصلاة وفى مصحف عبد الله والمقيمون وهى قراءة مالك بن دينار وغيره

والقول الثاني ان المقيمين الصلاة غير الراسخين في العلم وموضع والمقيمين الصلاة خفض بالعطف على قوله تعالى بما أنزل اليك فعلى هذا القول يكون معنى الآية والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك و بالمقيمين الصلاة وهم الانبياء لانه لم يخل شرع أحد منهم عن اقامة الصلاة وقيل المراد بهم الملائكة لانهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون وصحح الزجاج القول الاول واختاره وصحح الطبري القول الثاني واختاره وقوله تعالى (والمؤتون الزكاة) عطف على والمؤمنون لانه من صفتهم (والمؤمنون بالله واليوم الآخر) يعني والمصدقون بوحدانية الله تعالى و بالبعث بعد الموت و بالثواب و بالعقاب (أولئك) يعني من هذه الاوصاف صفته (سنؤتيهم أجرا عظيما) يعني سنعطيهم على ما كان منهم من طاعة الله واتباع أمره ثوابا عظيما وهو الجنة ۞ قوله عزوجل (انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده) قال ابن عباس قال سكين وعدي بن زيد يا محمد ما نعلم ان الله أنزل على بشر من شئ من بعد موسى فأنزل الله هذه الآيات وقيل هو جواب لاهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتابا من السماء جملة واحدة فاجاب الله عزوجل عن سؤالهم بهذه الآية فقال انا أوحينا اليك يا محمد كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده والمعنى انكم يا معشر اليهود تقرون بنبوة نوح و بجميع الانبياء المذكورين في هذه الآية وهم اثنا عشر نبيا والمعنى ان الله تعالى أوحى الى هؤلاء الانبياء وأنتم يا معشر اليهود معترفون بذلك وما أنزل الله على أحد من هؤلاء المذكورين كتابا جملة واحدة مثل ما أنزل على موسى فلما لم يكن عدم انزال الكتاب جملة واحدة على أحد هؤلاء الانبياء قادحا في نبوته فكذلك لم يكن انزال القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم قادحا في نبوته بل قد أنزل عليه كما أنزل عليهم قال المفسرون وانما بدأ الله عزوجل بذكر نوح عليه السلام لانه أول نبي بعث بشريعة وأول نذير على الشرك وأنزل الله عزوجل عليه عشر صحائف وكان أول من عذبت أمته لردهم دعوته وأهلك أهل الارض بدعائه وكان أبا البشر كآدم عليهما السلام وكان أطول الانبياء عمرا عاش ألف سنة لم تنقص قوته ولم يشب ولم تنقص له سن وصبر على أذى قومه طول عمره ثم ذكر الله الانبياء من بعده جملة بقوله تعالى والنبيين من بعده ثم خص جماعة من الانبياء بالذكر لشرفهم وفضلهم فقال (وأوحينا الى ابراهيم واسمعيل واسحق و يعقوب والاسباط) وهم أولاد يعقوب وكانوا اثني عشر (وعيسى وأيوب و يونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبورا) يعني وآتينا داود كتابا مزبورا يعني مكتوبا وقيل الزبور بالفتح اسم للكتاب الذي أنزل على داود وهو مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم ولا حلال ولا حرام بل كلها تسبيح وتقديس وتحميد وثناء على الله عزوجل ومواعظ وكان داود عليه السلام يخرج الى البرية فيقوم و يقرأ الزبور وتقوم علماء بني اسرائيل خلفه و يقوم الناس خلف العلماء وتقوم الجن خلف الناس والشياطين خلف الجن وتجيء الدواب التي في الجبال فيقمن بين يديه وترفرف الطير على رؤس الناس وهم يستمعون لقراءة داود و يتعجبون منها فلما قارف الذنب زال عنه ذلك وقيل له كان ذلك أنس الطاعة وهذا ذل المعصية (ق) عن أبي موسى الاشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو رأيتني البارحة وأنا أستمع لقراءتك لقد أعطيت مزمارا من مزامير آل داود قال الحميدي زاد البرقاني قلت والله يا رسول الله لو علمت انك تسمع لقراءتي لحبرتها لك تحبيرا التحبير تحسين الصوت بالقراءة قال بعض العلماء انما لم يذكر موسى في هذه الآية لان الله أنزل عليه التوراة جملة واحدة وكان المقصود بذكر من ذكر من الانبياء في الآية انه لم ينزل على أحد منهم كتابا جملة واحدة فلهذا لم يذكر موسى عليه السلام ۞ قوله تعالى (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل) لما نزلت هذه الآية المتقدمة قالت اليهود ما لموسى لم يذكر فأنزل الله هذه الآية وفيها ذكر موسى عليه السلام والمعنى وأوحينا الى رسل قد قصصناهم عليك من قبل يعني سميناهم في القرآن وعرفناك أخبارهم والى من بعثوا وما ورد عليهم من قومهم (ورسلا لم نقصصهم عليك) أي لم نسمهم لك ولم نعرفك أخبارهم قال أهل

(انا أوحينا اليك) جواب لاهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ينزل عليهم كتابا من السماء واحتجاج عليهم بان شأنه في الوحي اليه كشأن سائر الانبياء الذين سلفوا (كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده) كهود وصالح وشعيب وغيرهم (وأوحينا الى ابراهيم واسمعيل واسحق و يعقوب والاسباط) أي أولاد يعقوب (وعيسى وأيوب و يونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبورا) زبورا حمزة مصدر بمعنى مفعول سمي به الكتاب المنزل على داود عليه السلام (ورسلا) نصب بمضمر في معنى أوحينا اليك وهو أرسلنا ونبأنا (قد قصصناهم عليك من قبل) من قبل هذه السورة (ورسلا لم نقصصهم عليك) سأل أبوذر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الانبياء قال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا قال كم الرسل منهم قال ثلثمائة وثلاثة عشر أول الرسل آدم وآخرهم نبيكم محمد عليه السلام وأربعة من العرب هود وصالح وشعيب ومحمد عليه السلام والآية تدل على ان معرفة الرسل باعيانهم ليست بشرط لصحة الايمان بل من شرطه ان يؤمن بهم اذ لو كان معرفة كل واحد منهم شرطا لقص علينا كل ذلك

المعانى الذين نوه الله بذكرهم من الانبياء يدل على تفضيلهم على من لم يذكر ولم يسم وقوله تعالى (وكلم الله موسى تكليما) يعنى خاطبه مخاطبة من غير واسطة لان تأكيد كلم بالمصدر يدل على تحقيق الكلام وان موسى عليه السلام سمع كلام الله بلا شك لان أفعال المجاز لا تؤكد بالمصادر فلا يقال أراد الحائط يسقط ارادة وهذا رد على من يقول ان الله خلق كلاما فى محل فسمع موسى ذلك الكلام وقال الفراء العرب تسمى كل ما يوصل الى الانسان كلاما بأى طريق وصل لكن لا تحققه بالمصدر واذا حقق بالمصدر لم يكن الا حقيقة الكلام فدل قوله تعالى تكليما على ان موسى قد سمع كلام الله حقيقة من غير واسطة وروى الطبرى بسنده من عدة طرق عن كعب الاحبار قال لما كلم الله موسى عليه السلام كلمه بالالسنة كلها قبل كلامه يعنى كلام موسى بلسانه فجعل موسى يقول يارب لا أفهم حتى كلمه بلسانه آخر الالسنة فقال يارب هكذا كلامك قال لو سمعت كلامى يعنى على وجهه لم تك شيأ قال موسى يارب هل فى خلقك شئ يشبه كلامك قال لا وأقرب خلق شبها بكلامى أشد ما يسمع الناس من الصواعق قال بعض العلماء كان الله تعالى خص موسى عليه السلام بالتكليم وشرفه به ولم يكن ذلك قادحا فى نبوة غيره من الانبياء فكذلك انزال التوراة عليه جملة واحدة لم يكن قادحا فى نبوة من أنزل عليه كتابه متفرقا من الانبياء ﴿ قوله عز وجل (رسلا مبشرين ومنذرين) يعنى انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده ومن أولئك النبيين أرسلت رسلا الى خلقى مبشرين من أطاعنى واتبع أمرى وصدق رسلى بالثواب الجزيل فى الجنة ومنذرين من عصانى وخالف أمرى وكذب رسلى بالعذاب الاليم فى النار وقيل هو جواب عن سؤال اليهود انزال الكتاب جملة واحدة والمعنى ان المقصود من بعثة الرسول هو ارشاد الخلق الى معرفة الله وتوحيده والايمان به والاشتغال بعبادته وانذار من خالف ذلك وهذا المقصود يحصل بانزال الكتاب جملة واحدة و بانزاله نجوما متفرقة بل انزاله متفرقا أولى وذلك ان النفوس قبل بعثة الرسل وانزال الكتب عليهم لم تكن تعرف شيأ من العبادات ولم تألفها فانزال الكتاب جملة واحدة وفيه جميع التكاليف ربما حصل فى بعض نفوس العباد نفور من تلك التكاليف وتثقل عليهم كما أخبر الله عن قوم موسى بقوله تعالى واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا انه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه فلم يقبلوا أحكام التوراة الا بعد شدة فلهذا السبب كان انزال القرآن نجوما متفرقة أولى وقوله تعالى (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) يعنى بعد ارسال الرسل وانزال الكتب والمعنى لئلا يحتج الناس على الله فى ترك التوحيد والطاعة بعدم الرسل فيقولوا ما أرسلت الينا رسولا وما أنزلت علينا كتابا ففيه دليل على انه لو لم يبعث الرسل لكان للناس عليه حجة فى ترك التوحيد والطاعة وفيه دليل على ان الله لا يعذب الخلق قبل بعثة الرسل كما قال تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وفيه دليل لمذهب أهل السنة على ان معرفة الله تعالى لا تثبت الا بالسمع لان قوله لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل يدل على ان قبل بعثة الرسل تكون لهم الحجة فى ترك الطاعات والعبادات فان قلت كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرسل والخلق محجوجون بما نصب من الادلة التى النظر فيها موصل الى معرفته ووحدانيته كما قيل

وفى كل شئ له آية * تدل على انه واحد

قلت الرسل منبهون من رقاد الغفلة والجهالة وباعثون الخلق الى النظر فى تلك الدلائل التى تدل على وحدانيته سبحانه وتعالى ومبينون لهم وهم وسائط بين الله تعالى وخلقه ومبينون أحكام الله تعالى التى افترضها على عباده ومبلغون رسالته اليهم (ق) عن المغيرة بن شعبة قال قال سعد بن عبادة لو رأيت رجلا مع امرأتى لضربته بالسيف غير مصفح فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أتعجبون من غيرة سعد والله لأنا أغير منه والله أغير منى ومن أجل غيرة الله حرم الله الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب اليه العذر من الله من أجل ذلك بعث المنذرين والمبشرين ولا أحد أحب اليه المدحة من الله ومن أجل ذلك وعد الجنة لفظ

(وكلم الله موسى تكليما) أى بلا واسطة (رسلا مبشرين ومنذرين) الاوجه ان ينتصب على المدح أى أعنى رسلا و يجوز ان يكون بدلا من الاول وأن يكون مفعولا أى وأرسلنا رسلا واللام فى (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) يتعلق بمبشرين ومنذرين والمعنى ان ارسالهم ازاحة للعلة وتتميم لالزام الحجة لئلا يقولوا لولا أرسلت الينا رسولا فيوقظنا من سنة الغفلة و ينبهنا لما وجب الانتباه له و يعلمنا ما سبيل معرفته السمع كالعبادات والشرائع أعنى فى حق مقاديرها وأوقاتها وكيفياتها دون أصولها فانها مما يعرف بالعقل

الدعاوى بالبينات اذ الحكيم لايؤيد الكاذب بالمعجزة (أنزله بعلمه) أي أنزله وهو عالم بانك أهل لانزاله اليك وانك مبلغه أو أنزله بما علم من مصالح العباد وفيه نفي قول المعتزلة في انكار الصفات فانه أثبت لنفسه العلم (والملائكة يشهدون) لك بالنبوة (وكفى بالله شهيدا) شاهدا وان لم يشهد غيره (ان الذين كفروا) بتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وهم اليهود (وصدوا عن سبيل الله) ومنعوا الناس عن سبيل الحق بقولهم للعرب انا لانجده في كتابنا (قد ضلوا ضلالا بعيدا) عن الرشد (ان الذين كفروا) بالله (وظلموا) محمدا عليه السلام بتغيير نعته وانكار نبوته (لم يكن الله ليغفر لهم) ماداموا على الكفر (ولا ليهديهم طريقا الا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا) وكان تخليدهم في جهنم سهلا عليه والتقدير يعاقبهم خالدين فهو حال مقدرة والآيتان في قوم علم الله أنهم لايؤمنون ويموتون على الكفر (يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من

البخاري وفي لفظ مسلم ولا شخص أحب اليه العذر من الله ومن أجل ذلك بعث الله المرسلين مبشرين ومنذرين وقوله تعالى (وكان الله عزيزا) يعني في انتقامه ممن خالف أمره وعصى رسله (حكيما) يعني في ارساله الرسل ۞ قوله تعالى (لكن الله يشهد بما أنزل اليك) قال ابن عباس دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من اليهود فقال لهم اني والله أعلم انكم لتعلمون اني رسول الله فقالوا مانعلم ذلك فانزل الله هذه الآية وفي رواية عن ابن عباس ان رؤساء مكة أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد انا سألنا عنك اليهود وعن صفتك في كتابهم فزعموا انهم لايعرفونك فانزل الله عز وجل لكن الله يشهد بما أنزل اليك يعني ان جحدك هؤلاء اليهود يا محمد وكفروا بما أوحينا اليك وقالوا ما أنزل الله على بشر من شئ فقد كذبوا فيما ادعوا فان الله يشهد لك بالنبوة ويشهد بما أنزل اليك من كتابه ووحيه والمعنى أن اليهود وان شهدوا ان القرآن لم ينزل عليك يا محمد لكن الله يشهد بانه أنزل عليك وشهادة الله انما عرفت بسبب أنه أنزل هذا القرآن البالغ في الفصاحة والبلاغة الى حيث عجز الاولون والآخرون عن معارضته والاتيان بمثله فكان ذلك معجزا واظهار المعجزة شهادة بكون المدعى صادقا لاجرم قال الله تعالى لكن الله يشهد لك يا محمد بالنبوة بواسطة هذا القرآن الذي أنزله عليك (أنزله بعلمه) يعني انه تعالى لما قال لكن الله يشهد بما أنزل اليك بين صفة ذلك الانزال وهو أنه تعالى أنزله بعلم تام وحكمة بالغة وقيل معناه أنزله وهو عالم بانك أهل لانزاله عليك وانك مبلغه الى عباده وقيل معناه أنزله بما علم من مصالح عباده في انزاله عليك (والملائكة يشهدون) يعني يشهدون بان الله أنزله عليك ويشهدون بتصديقك وانما عرفت شهادة الملائكة لان الله تعالى اذا شهد بشئ شهدت الملائكة بذلك الشئ وقد ثبت ان الله يشهد بانه أنزله بعلمه فلذلك الملائكة يشهدون بذلك (وكفى بالله شهيدا) يعني وحسبك يا محمد أن الله يشهد لك وكفى بالله شهيدا وان لم يشهد معه أحد غيره ففيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عن شهادة أهل الكتاب له فان الله يشهد له وملائكته كذلك ۞ قوله عز وجل (ان الذين كفروا) يعني جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وهم اليهود (وصدوا عن سبيل الله) يعني منعوا غيرهم عن الايمان بكتمان صفته والقاء الشبهات في قلوب الناس وهو قولهم لو كان محمد رسولا لاتى بكتاب من السماء جملة واحدة كما أتى موسى بالتوراة (قد ضلوا ضلالا بعيدا) يعني عن طريق الهدى (ان الذين كفروا وظلموا) يعني كفروا بالله وظلموا محمدا صلى الله عليه وسلم بكتمان صفته وظلموا غيرهم بالقاء الشبهة في قلوبهم (لم يكن الله ليغفر لهم) يعني لمن علم منهم انهم يموتون على الكفر وقيل معناه لم يكن الله ليستر عليهم قبائح أفعالهم بل يفضحهم في الدنيا ويعاقبهم عليها بالقتل والسبي والجلاء وفي الآخرة بالنار وهو قوله تعالى (ولا ليهديهم طريقا) يعني ينجون فيه من النار وقيل ولا ليهديهم طريقا الى الاسلام لانه قد سبق في علمه انهم لايؤمنون (الا طريق جهنم) يعني لكنه تعالى يهديهم الى طريق يؤدي الى جهنم وهي اليهودية لما سبق في علمه انهم أهل لذلك (خالدين فيها) يعني في جهنم (أبدا وكان ذلك على الله يسيرا) يعني هينا ۞ قوله عز وجل (يا أيها الناس) هذا خطاب عام يدخل فيه جميع الكفار من اليهود والنصارى وعبدة الاصنام وغيرهم وقيل هو خطاب لمشركي العرب (قد جاءكم الرسول) يعني محمدا صلى الله عليه وسلم (بالحق) يعني بدين الاسلام الذي ارتضاه الله لعباده وقيل جاء بالقرآن الذي هو الحق (من ربكم) يعني من عند ربكم (فآمنوا خيرا لكم) يعني فآمنوا بما جاءكم به محمد صلى الله عليه وسلم يكن الايمان بذلك خيرا لكم يعني من الكفر الذي أنتم عليه (وان تكفروا) يعني وان تجحدوا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وتكذبوا بما جاءكم به من الحق من

ربكم) أي بالاسلام وهو حال أي محقا (فآمنوا خيرا لكم) وكذلك انتهوا خيرا لكم انتصابه بمضمر وذلك انه لما بعثهم على الايمان وعلى الانتهاء عن التثليث علم أنه يحملهم على أمر فقال خيرا لكم أي اقصدوا وائتوا أمرا خيرا لكم مما أنتم فيه من الكفر والتثليث وهو الايمان به

ربكم (فان لله مافى السموات والارض) يعنى فان الله هو الغنى عن ايمانكم لان له مافى السموات والارض ملكا وعبيدا ومن كان كذلك لم يكن محتاجا الى شئ وانه قادر على مايشاء (وكان الله عليما) يعنى بما يكون منكم لايخفى عليه شئ من أعمال عباده فيجزى كل عامل بعمله (حكيما) يعنى فى تكليفكم مع علمه بما يكون منكم ۞ قوله عز وجل (ياأهل الكتاب) نزلت هذه الآية فى النصارى وذلك ان الله تعالى لما أجاب عن شبه اليهود فيما تقدم من الآية أتبع ذلك بابطال ماتعتقده النصارى وأصناف النصارى أربعة اليعقوبية والملكانية والنسطورية والمرقوسية فاما اليعقوبية والملكانية فقالوا فى عيسى انه الله وقالت النسطورية انه ابن الله وقالت المرقوسية ثالث ثلاثة وقيل انهم يقولون ان عيسى جوهر واحد ثلاثة أقانيم أقنوم الاب وأقنوم الابن وأقنوم روح القدس وانهم يريدون باقنوم الاب الذات وباقنوم الابن عيسى وباقنوم روح القدس الحياة الحالة فيه فتقدير عندهم الاله ثلاثة وقيل انهم يقولون فى عيسى ناسوتية والوهية فناسوتيته من قبل الام وألوهيته من قبل الاب تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا يقال ان الذى أظهر هذا للنصارى رجل من اليهودية يقال له بولص تنصر ودس هذا فى دين النصارى ليضلهم بذلك وسيأتى قصته فى سورة التوبة ان شاء الله تعالى وقيل يحتمل أن يكون المراد باهل الكتاب اليهود والنصارى جميعا فانهم غلوا فى أمر عيسى عليه السلام فاما اليهود فانهم بالغوا فى التقصير فى أمره حتى حطوه عن منزلته حيث جعلوه مولودا لغير رشده وغلت النصارى فى رفع عيسى عن منزلته ومقداره حيث جعلوه الها فقال الله تعالى رداعليهم جميعا ياأهل الكتاب (لاتغلوا فى دينكم) وأصل الغلو مجاوزة الحد وهو فى الدين حرام والمعنى لاتفرطوا فى أمر عيسى ولاتحطوه عن منزلته ولاترفعوه فوق قدره ومنزلته (ولاتقولوا على الله الاالحق) يعنى لاتقولوا ان له شريكا وولدا وقيل معناه لاتصفوه بالحلول والاتحاد فى بدن الانسان ونزهوا الله تعالى عن ذلك ولما منعهم الله من الغلو فى دينهم أرشدهم الى طريق الحق فى أمر عيسى عليه السلام فقال تعالى (انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) يقول انما المسيح هو عيسى ابن مريم ليس له نسب غير هذا وانه رسول الله فمن زعم غير هذا فقد كفر وأشرك (وكلمته) هى قوله تعالى كن فكان بشرا من غير أب ولا واسطة (ألقاها الى مريم) يعنى أوصلها الى مريم (وروح منه) يعنى انه كسائر الارواح التى خلقها الله تعالى وانما أضافه الى نفسه على سبيل التشريف والتكريم كما يقال بيت الله وناقة الله وهذه نعمة من الله يعنى انه تفضل بها وقيل الروح هو الذى نفخ فيه جبريل فى جيب درع مريم فحملت باذن الله وانما أضافه الى نفسه بقوله منه لانه وجد بأمر الله قال بعض المفسرين ان الله تعالى لما خلق أرواح البشر جعلها فى صلب آدم عليه السلام وأمسك عنده روح عيسى عليه السلام فلما أراد الله أن يخلقه أرسل بروحه مع جبريل الى مريم فنفخ فى جيب درعها فحملت بعيسى عليه السلام وقيل ان الروح والريح متقاربان فى كلام العرب فالروح عبارة عن نفخ جبريل عليه السلام وقوله منه يعنى ان ذلك النفخ كان بأمره واذنه وقيل أدخل التنكير فى قوله وروح على سبيل التعظيم والمعنى روح وأى روح من الارواح القدسية العالية المطهرة وقوله منه اضافته تلك الروح الى نفسه لاجل التشريف والتكريم (ق) عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من شهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له وان محمدا عبده ورسوله وان عيسى عبده ورسوله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه والجنة والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان له من العمل ۞ وقوله تعالى (فآمنوا بالله ورسله) يعنى فصدقوا ياأهل الكتاب بوحدانية الله وانه لا ولد له وصدقوا رسله فيما جاءكم به من عند الله وصدقوا بان عيسى عليه السلام من رسل الله فآمنوا به ولاتجعلوه الها وقوله تعالى (ولاتقولوا ثلاثة) يعنى ولاتقولوا الآلهة ثلاثة وذلك ان النصارى يقولون أب وابن وروح القدس وقيل انهم يقولون ان الله بالجوهر ثلاثة أقانيم وذلك انهم أثبتوا ذاتا موصوفة بصفات ثلاثة بدليل انهم يجوزون

لايسوى بينهما فى الجزاء (ياأهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم) لاتجاوزوا الحد فغلت اليهود فى حط المسيح عن منزلته حتى قالوا انه ابن الزنا وغلت النصارى فى رفعه عن مقداره حيث جعلوه ابن الله (ولاتقولوا على الله الاالحق) وهو تنزيهه عن الشريك والولد (انما المسيح عيسى ابن مريم) لاابن الله (رسول الله) خبر المبتدا وهو المسيح وعيسى عطف بيان أو بدل (وكلمته) عطف على رسول الله وقيل له كلمة لانه يهتدى به كما يهتدى بالكلام (ألقاها الى مريم) حال وقد معه مرادة أى أوصلها اليها وحصلها فيها (وروح) معطوف على الخبر أيضا وقيل له روح لانه كان يحيى الموتى كما سمى القرآن روحا بقوله وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا لما أنه يحيى القلوب (منه) أى بتخليقه وتكوينه كقوله تعالى وسخر لكم مافى السموات ومافى الارض جميعا منه وبه أجاب على بن الحسين ابن واقد غلاما نصرانيا كان للرشيد فى مجلسه حيث زعم ان فى كتابكم حجة على أن عيسى من الله (فآمنوا بالله ورسله ولاتقولوا ثلاثة) خبر مبتدا محذوف أى ولاتقولوا الآلهة ثلاثة

(انتهوا) عن التثليث (خيرا لكم) والذي يدل عليه القرآن التصريح منهم بان الله والمسيح ومريم ثلاثة آلهة وان المسيح ولد الله من مريم ألا ترى الى قوله أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله وقالت النصارى المسيح ابن الله (انما الله) مبتدأ (اله) خبره (واحد) توكيد (سبحانه أن يكون له ولد) أسبحه تسبيحا من أن يكون له ولد (له ما في السموات وما في الارض) بيان لتنزهه مما نسب اليه يعني ان كل ما فيهما خلقه وملكه فكيف يكون بعض ملكه جزأ منه اذ البنوة والملك لا يجتمعان على أن الجزء انما يصح في الاجسام وهو يتعالى عن أن يكون جسما (وكفى بالله وكيلا) حافظا ومدبرا لهما ولما فيهما ومن عجز عن كفاية أمر يحتاج الى ولد يعينه ولما قال وفد نجران لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم تعيب صاحبنا عيسى قال وأي شئ أقول قالوا تقول انه عبد الله ورسوله قال انه ليس بعار أن يكون عبد الله قالوا بلى نزل قوله تعالى (لن يستنكف المسيح) أي لن يأنف (أن يكون عبد الله) هو رد على النصارى (ولا الملائكة) رد على من يعبدهم من العرب وهو عطف على المسيح (المقربون) أي الكروبيون الذين حول العرش كجبريل وميكائيل واسرافيل ومن في طبقتهم والمعنى ولا الملائكة المقربون أن يكونوا عبادا لله فحذف ذلك لدلالة عبد الله عليه ايجازا وتشبثت المعتزلة والقائلون بتفضيل الملك على البشر بهذه الآية وقالوا الارتقاء انما يكون الى الاعلى يقال فلان لا يستنكف عن خدمتي ولا أبوه ولو قال ولا عبده لم يحسن وكان معنى قوله ولا الملائكة المقربون ولا من هو أعلى منه قدرا وأعظم منه خطرا و يدل عليه تخصيص المقربين والجواب انا نسلم تفضيل الثاني على الاول لكن هذا الاعم ما تنازعنا فيه لان الآية تدل على أن الملائكة المقربين باجمعهم أفضل من عيسى ونحن نسلم بان جميع الملائكة المقربين أفضل من رسول واحد من البشر الى هذا ذهب بعض أهل السنة ولان المراد أن الملائكة مع ما لهم من القدرة الفائقة قدر البشر والعلوم اللوحية وتجردهم عن التولد الازدواجي رأسا لا يستنكفون عن عبادته فكيف بمن يتولد من آخر ولا يقدر على ما يقدرون ولا يعلم ما يعلمون وهذا لان شدة البطش وسعة العلوم وغرابة التكون هي التي تورث الحمقاء أمثال النصارى وهم الترفع عن العبودية حيث رأوا المسيح ولد من غير أب وهو يبرئ الاكمه والابرص ويحيي الموتى وينبئ بما يأكلون ويدخرون في بيوتهم فبرؤه من العبودية فقيل لهم هذه الاوصاف في الملائكة أتم منها في المسيح ومع هذا لم يستنكفوا عن العبودية فكيف المسيح والحاصل أن خواص البشر وهم الانبياء عليهم السلام أفضل من خواص الملائكة وهم الرسل منهم كجبريل وميكائيل وعزرائيل ونحوهم وخواص الملائكة أفضل من عوام المؤمنين من البشر وعوام المؤمنين من البشر أفضل من عوام الملائكة ودليلنا على تفضيل البشر على الملك ابتداء أنهم قهروا نوازع الهوى في ذات الله تعالى مع أنهم جبلوا عليها فضاهت الانبياء عليهم السلام الملائكة عليهم السلام في العصمة وتفضلوا عليهم في قهر البواعث النفسانية والدواعي الجسدانية فكانت طاعتهم أشق لكونها مع الصوارف بخلاف طاعة الملائكة لانهم جبلوا عليها فكانت أزيد ثوابا بالحديث

على تلك الذات الحلول في عيسى وفي مريم فاثبتوا ذواتا متعددة ثلاثة وهذا هو محض الكفر فلهذا قال الله تعالى ولا تقولوا ثلاثة (انتهوا خيرا لكم) يعني يكن الانتهاء عن هذا القول خيرا لكم من القول بالتثليث ثم نزه الله تعالى نفسه عن قول النصارى بالتثليث فقال تعالى (انما الله اله واحد) ثم نزه نفسه عن الولد فقال (سبحانه أن يكون له ولد) يعني لا ينبغي أن يكون له ولد لان الولد جزء من الاب وتعالى الله عن التجزئة وعن صفات الحدوث (له ما في السموات وما في الارض) يعني انه تعالى له ملك السموات والارض وما فيهما عبيده وملكه وعيسى ومريم من جملة من فيهما فهما عبيده وملكه فاذا كانا عبدين له فكيف يعقل مع هذا ان له ولدا او زوجة تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وهذا بيان لتنزيهه مما نسب اليه من الولد والمعنى ان جميع ما في السموات والارض خلقه وملكه فكيف يكون بعض ملكه جزأ منه لان التجزئة انما تصح في الاجسام والله تعالى منزه عن صفات الاعراض والاجسام (وكفى بالله وكيلا) يعني انه تعالى كاف في تدبير جميع خلقه فلا حاجة له الى غيره وكل الخلق محتاجون اليه وفقراء اليه وهو غني عنهم ۞ وقوله تعالى (لن يستنكف المسيح أن يكون عبد الله) وذلك ان وفد نجران قالوا يا محمد انك تعيب صاحبنا فتقول انه عبد الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم انه ليس بعار على عيسى أن يكون عبد الله فنزلت لن يستنكف المسيح يعني لن يأنف ولن يتعظم والاستنكاف الاستكبار مع الانفة يقال نكفت من كذا واستنكفت منه أي انفت منه وأصله من نكفت الشئ نحيته ونكفت الدمع اذا نحيته باصبعك من خدك والمعنى لن ينقبض ولن يمتنع ولن يأنف المسيح ان يكون عبد الله (ولا الملائكة المقربون) يعني ولن يستنكف الملائكة المقربون وهم حملة العرش والكروبيون وأفاضل الملائكة مثل جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل ان يكونوا عبيدا لله لانهم في ملكه ومن جملة خلقه وقيل لما ادعت النصارى في عيسى أنه ابن الله وذلك لما رأوا منه خوارق العادات من احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص وغير ذلك من المعجزات أجاب الله تعالى عن هذه الشبهات

التي وقعت للنصارى بان عيسى مع شرف قدره وكرامته لن يستنكف أن يكون عبد الله وكذلك الملائكة المقربون فانهم مع كرامتهم وعلو منزلتهم لن يستنكفوا أن يكونوا عبيدا لله وقد يستدل بهذه الآية من يقول بتفضيل الملائكة على البشر ووجه الدليل ان الله تعالى ارتقى من عيسى الى الملائكة ولا يرتقى الا من الادنى الى الاعلى ولا حجة لهم فيه والجواب عنه ان الله تعالى لم يقل ذلك رفعا لمقامهم على مقام البشر بل قاله ردا على من يقول ان الملائكة بنات الله أو انهم آلهة كما رد على النصارى قولهم ان المسيح ابن الله وقاله أيضا ردا على النصارى فانهم يقولون بتفضيل الملائكة يعني كما ان المسيح عبد الله فكذلك الملائكة عبيد الله

۞ وقوله تعالى (ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر) يعني ومن يتعظم عن عبادة الله ويأنف من التذلل لله والخضوع والطاعات من جميع خلقه (فسيحشرهم اليه جميعا) يعني فسيبعثهم يوم القيامة لموعدهم الذي وعدهم حيث لا يملكون لانفسهم شيا (فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم) يعني يوفيهم جزاء أعمالهم الصالحة (ويزيدهم من فضله) يعني ويزيدهم على ما أعطاهم من الثواب على أعمالهم الصالحة من التضعيف على ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (وأما الذين استنكفوا واستكبروا) يعني الذين أنفوا وتكبروا عن عبادة الله تعالى (فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله) يعني من سوى الله لانفسهم (وليا) يعني ينجيهم من عذابه (ولا نصيرا) يعني ولا ناصرا ينصرهم منه ويدفع عنهم عقوبته بقي في الآية سؤال وهو أن التفصيل غير مطابق للمفصل لان التفصيل اشتمل على ذكر فريقين وهو قوله فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم وأما الذين استنكفوا واستكبروا والمفصل اشتمل على ذكر فريق واحد وهو قوله ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر والجواب انه لا اشكال فيه فهو مثل قولك جمع الامام الخوارج فمن لم يخرج عليه كساه وحمله ومن خرج عليه نكل به وصحة ذلك لوجهين أحدهما أنه حذف ذكر أحد الفريقين لدلالة التفصيل عليه لان ذكر أحدهما يدل على ذكر الثاني والوجه الثاني أن الاحسان الى غيرهم مما يغمهم فكان داخلا في جملة التنكيل بهم فكأنه قال ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فيعذبهم بالحسرة والغم اذا رأوا أجور المطيعين العاملين لله تعالى

۞ قوله عز وجل (يا أيها الناس) خطاب للكافة (قد جاءكم برهان من ربكم) يعني محمدا صلى الله عليه وسلم وما جاء به من البينات من ربه عز وجل وانما سماه برهانا لما معه من المعجزات الباهرة التي تشهد بصدقه ولان البرهان دليل على اقامة الحق وابطال الباطل والنبي صلى الله عليه وسلم كان كذلك ولانه تعالى جعله حجة قاطعة قطع به عذر جميع الخلائق (وأنزلنا اليكم نورا مبينا) يعني القرآن وانما سماه نورا لان به تتبين الاحكام كما تتبين الاشياء بالنور بعد الظلام ولانه سبب لوقوع نور الايمان في القلب فسماه نورا لهذا المعنى (فاما الذين آمنوا بالله) يعني صدقوا بوحدانية الله وبما أرسل من رسول وأنزل من كتاب (واعتصموا به) يعني بالله في أن يثبتهم على الايمان ويصونهم عن زيغ الشيطان وقيل في معنى واعتصموا به أي وتمسكوا بالنور وهو القرآن الذي أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم (فسيدخلهم في رحمة منه) يعني فسيدخلهم في رحمته التي ينجيهم بها من أليم عذابه قال ابن عباس الرحمة الجنة (وفضل) يعني ما يتفضل به عليهم بعد ادخالهم الجنة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (ويهديهم اليه صراطا مستقيما) يعني ويوفقهم لاصابة فضله الذي تفضل به عليهم ويسددهم لسلوك منهج من أنعم عليه من أهل طاعته ويرشدهم لدينه الذي ارتضاه لعباده وهو دين الاسلام

۞ قوله تعالى (يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة) نزلت في جابر بن عبد الله

الانصاري

(ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر) يترفع ويطلب الكبرياء (فسيحشرهم اليه جميعا) فيجازيهم على استنكافهم واستكبارهم ثم فصل فقال (فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا) فان قلت التفصيل غير مطابق للمفصل لان التفصيل اشتمل على الفريقين والمفصل على فريق واحد قلت هو مثل قولك جمع الامام الخوارج فمن لم يخرج عليه كساه وحمله ومن خرج عليه نكل به وصحة ذلك لوجهين أحدهما انه حذف ذكر أحد الفريقين لدلالة التفصيل عليه ولان ذكر أحدهما يدل على ذكر الثاني كما حذف أحدهما في التفصيل في قوله تعالى بعد هذا فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به والثاني أن الاحسان الى غيرهم مما يغمهم فكان داخلا في جملة التنكيل بهم فكانه قيل ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيعذب بالحسرة اذا رأى أجور العاملين وبما يصيبه من عذاب الله (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم) أي رسوله يبهر المنكر بالاعجاز (وأنزلنا اليكم نورا مبينا) قرآنا يستضاء به في ظلمات الحيرة (فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به) بالله أو بالقرآن (فسيدخلهم في رحمة منه) أي جنة (وفضل) زيادة النعمة (ويهديهم) ويرشدهم (اليه) الى الله أو الى الفضل أو الى صراطه (صراطا مستقيما) فصراطا حال من المضاف المحذوف (يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة) كان جابر بن عبد الله مريضا فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اني كلالة فكيف أصنع في مالي فنزلت

الانصارى (ق) عن جابر بن عبد الله قال مرضت فاتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر يعودانى ماشيين فاغمى على فتوضأ النبى صلى الله عليه وسلم ثم صب على من وضوئه فافقت فاذا النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله كيف أصنع فى مالى كيف أقضى فى مالى فلم يرد على شيا حتى نزلت آية الميراث يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة وفى رواية فقلت يارسول الله انما يرثنى كلالة فنزلت آية الميراث قال شعبة فقلت لمحمد بن المنكدر يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة قال هكذا نزلت وفى رواية للترمذى وكان لى تسع أخوات حين نزلت آية الميراث يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة ولابى داود قال اشتكيت وعندى سبع أخوات فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنفخ فى وجهى فافقت فقلت يارسول الله ألا أوصى لاخواتى بالثلثين قال أحسن قلت بالشطر قال أحسن ثم خرج وتركنى فقال ياجابر لا أراك ميتا من وجعك هذا وان الله قد أنزل فبين الذى لاخواتك فجعل لهن الثلثين قال فكان جابر يقول أنزلت هذه الآية فى يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة وروى الطبرى عن قتادة ان الصحابة أهمهم شان الكلالة فسألوا عنها نبى الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله هذه الآية وروى عن ابن سيرين قال نزلت يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة والنبى صلى الله عليه وسلم فى مسيرله والى جنبه حذيفة بن اليمان فبلغها النبى صلى الله عليه وسلم حذيفة و بلغها حذيفة عمر بن الخطاب وهو يسير خلفه فلما استخلف عمر سأل حذيفة عنها ورجا أن يكون عنده تفسيرها فقال له حذيفة والله انك لعاجز أن ظننت أن امارتك تحملنى أن أحدثك فيها مالم أحدثك يومئذ فقال عمر لم أرد هذا رحمك الله وأما التفسير فقوله تعالى يستفتونك يعنى يسألونك و يستخبرونك عن معنى الكلالة يامحمد قل الله يفتيكم فى الكلالة يعنى ان الله هو يخبركم عما سألتم عنه من أمر الكلالة وقد تقدم فى أول السورة الكلام على معنى الكلالة من حيث الاشتقاق وغيره وان اسم الكلالة يقع على الوارث وعلى الموروث فان وقع على الوارث فهم من سوى الوالد والولد وان وقع على الموروث فهو من مات ولا يرثه أحد الابوين ولا أحد الاولاد ۞ قوله تعالى (ان امرؤ هلك) يعنى مات سمى الموت هلاكا لانه اعدام فى الحقيقة (ليس له ولد) يعنى ولا والد فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر و يدل على المحذوف ان السؤال فى الفتيا انما كان فى الكلالة وقد تقدم ان الكلالة من ليس له ولد ولا والد (وله أخت) يعنى ولذلك الهالك أخت وأراد بالاخت من أبيه وأمه أو من أبيه (فلها نصف ماترك) يعنى فلاخت الميت نصف تركته وهو فرضها اذا انفردت و باقى المال لبيت المال اذا لم يكن للميت عصبة وهذا مذهب زيد بن ثابت وبه قال الشافعى وعند أبى حنيفة وأهل العراق يرد الباقى عليها فاذا كان للميت بنت أخذت النصف بالفرض وتاخذ الاخت النصف الباقى بالتعصيب لا بالفرض لان الاخوات مع البنات عصبة ۞ وقوله تعالى (وهو يرثها ان لم يكن لها ولد) يعنى ان الاخت اذا ماتت وتركت أخا من الاب والام أو من الاب فانه يستغرق جميع ميراث الاخت اذا انفرد ولم يكن للاخت ولد وهذا أصل فى جميع العصبات واستغراقهم جميع المال فاما الاخ من الام فانه صاحب فرض لا يستغرق جميع المال وقد تقدم بيانه (فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك) أراد بنتين فصاعدا وهو ان من مات وترك أختين أو أخوات فلهن الثلثان مما ترك الميت (وان كانوا اخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين) يعنى وان كان المتروكون من الاخوة رجالا ونساء فللذكر منهم نصيب اثنتين من اخواته الاناث (يبين الله لكم ان تضلوا) يعنى يبين الله لكم هذه الفرائض والاحكام لئلا تضلوا وقيل معناه كراهية أن تضلوا وقيل يبين الله الضلالة لتجتنبوها (والله بكل شئ عليم) يعنى من مصالح عباده التى حكم بها من قسمة المواريث و بيان الاحكام وغير ذلك لان علمه محيط بكل شئ (ق) عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال ان آخر سورة نزلت تامة سورة التوبة وان آخر آية نزلت آية الكلالة وفى رواية لمسلم قال آخر آية نزلت يستفتونك وروى عن ابن عباس ان آخر آية نزلت آية الربا وآخر سورة نزلت اذا جاء

ولد والمراد بالولد الابن وهو مشترك يقع على الذكر والانثى لان الابن يسقط الاخت ولا تسقطها البنت (وله أخت) أى لاب وأم أو لاب (فلها نصف ماترك) أى الميت (وهو يرثها) أى الاخ يرث الاخت جميع مالها ان قدر الامر على العكس من موتها وبقائه بعدها (ان لم يكن لها ولد) أى ابن لان الابن يسقط الاخ دون البنت فان قلت الابن لا يسقط الاخ وحده فالاب نظيره فى الاسقاط فلم اقتصر على نفى الولد قلت بين حكم انتفاء الولد وكل حكم انتفاء الوالد الى بيان السنة وهو قوله عليه السلام ألحقوا الفرائض باهلها فما بقى فلاولى عصبة ذكر والاب أولى من الاخ (فان كانتا اثنتين) أى فان كانت الاختان اثنتين دل على ذلك وله أخت (فلهما الثلثان مما ترك وان كانوا اخوة) أى وان كان من يرث بالاخوة والمراد بالاخوة الاخوة والاخوات تغليبا لحكم الذكورة (رجالا ونساء) ذكورا واناثا (فللذكر منهم (مثل حظ الانثيين يبين الله لكم) الحق فهو مفعول يبين (ان تضلوا) كراهة أن تضلوا (والله بكل شئ عليم) يعلم الاشياء بكنهها قبل كونها و بعده

نصر الله والفتح وروى عنه أن آخر آية نزلت واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله وروى ان النبي صلى الله عليه وسلم عاش بعد نزول سورة النصر سنة ونزلت بعدها سورة براءة وهي آخر سورة نزلت كاملة فعاش بعدها ستة أشهر هكذا ذكره البغوي وفيه نظر لانه قد ثبت في الصحيحين من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه في الحجة التي أمره عليها قبل حجة الوداع في رهط يؤذن في الناس يوم النحر الالا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ثم أردف النبي صلى الله عليه وسلم بعلي بن أبي طالب فامره أن يؤذن ببراءة قال أبو هريرة فاذن معنا في أهل منى ببراءة الالا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وكانت حجة أبي بكر هذه سنة تسع قبل حجة الوداع بسنة قال البغوي ثم نزلت في طريق حجة الوداع يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة فسميت آية الصيف ثم نزلت وهو واقف بعرفة اليوم أكملت لكم دينكم فعاش بعدها أحدا وثمانين يوما ثم نزلت آية الربا ثم نزلت واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله وعاش النبي صلى الله عليه وسلم بعدها أحدا وعشرين يوما وهذا آخر تفسير سورة النساء والله تعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه

﴿تفسير سورة المائدة﴾

نزلت بالمدينة الا قوله تعالى اليوم أكملت لكم دينكم فانها نزلت بعرفة في حجة الوداع والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بعرفة فقرأها النبي صلى الله عليه وسلم في خطبته وقال يا أيها الناس ان سورة المائدة من آخر القرآن نزولا فاحلوا حلالها وحرموا حرامها فان قلت لم خص النبي صلى الله عليه وسلم هذه السورة من بين سور القرآن بقوله فاحلوا حلالها وحرموا حرامها وكل سور القرآن يجب أن يحل حلالها ويحرم حرامها قلت هو كذلك وانما خص هذه السورة لزيادة الاعتناء بها فهو كقوله تعالى ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والارض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم فاكد اجتناب الظلم في هذه الاربعة أشهر وان كان لا يجوز الظلم في شئ من جميع أشهر السنة وانما أفرد هذه الاربعة الاشهر بالذكر لزيادة الاعتناء بها وقيل انما خص النبي صلى الله عليه وسلم هذه السورة لان فيها ثمانية عشر حكما لم تنزل في غيرها من سور القرآن قال البغوي روى عن ميسرة قال ان الله تعالى أنزل في هذه السورة ثمانية عشر حكما لم ينزلها في غيرها وهي قوله والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع الا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالازلام وما علمتم من الجوارح مكلبين وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب وتمام بيان الطهر في قوله اذا قمتم الى الصلاة والسارق والسارقة ولا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام وقوله شهادة بينكم اذا حضر أحدكم الموت

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) يعني العهود قاله الجماعة واختلفوا في المراد بهذه العقود التي أمر الله تعالى بالوفاء بها فقال ابن جريج هذا خطاب لاهل الكتاب والمعنى يا أيها الذين آمنوا بالكتب المتقدمة أوفوا بالعقود التي عهدتها اليكم في شأن محمد صلى الله عليه وسلم والايمان به وقيل هو خطاب للمؤمنين أمرهم بالوفاء بالعقود قال ابن عباس هي عهود الايمان وما أخذه على عباده في القرآن فيما أحل وحرم وقيل هي العقود التي كانت في الجاهلية كان يعاقد بعضهم بعضا على النصرة والموازرة على من حاول ظلمه أو بغاه بسوء وذلك هو معنى الحلف الذي كانوا يتعاقدونه بينهم قال قتادة ذكر لنا ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول أوفوا بعقد الجاهلية ولا تحدثوا عقدا في الاسلام وقيل بل هي العقود التي يتعاقدها الناس بينهم وما يعقده الانسان على نفسه والعقود خمس عقد اليمين وعقد النكاح وعقد العهد وعقد البيع وعقد الشركة زاد بعضهم وعقد الحلف قال الطبري وأولى الاقوال عندنا بالصواب ما قاله ابن عباس ان معناه أوفوا يا أيها المؤمنون بعقود الله التي أوجبها عليكم وعقدها فيما أحل وحرم عليكم وألزمكم فرضه وبين لكم

﴿سورة المائدة مدنية وهي مائة وعشرون آية﴾
(بسم الله الرحمن الرحيم)
(يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) يقال وفى بالعهد وأوفى به والعقد العهد الموثق شبه بعقد الحبل ونحوه وهي عقود الله التي عقدها على عباده وألزمها اياهم من مواجب التكاليف أو ما عقد الله عليكم وما تعاقدتم بينكم والظاهر انها عقود الله عليهم في دينه من تحليل حلاله وتحريم حرامه وانه كلام قدم مجملا ثم عقب بالتفصيل وهو قوله

حدوده وانما قلنا ان هذا القول أولى بالصواب لان الله تعالى اتبعه بالبيان عما أحل لعباده وحرم عليهم فقال تعالى (أحلت لكم بهيمة الانعام) وهو خطاب للمؤمنين خاصة والبهيمة اسم لكل ذى أربع من الحيوان لكن خص فى التعارف بما عدا السباع والضوارى من الوحوش وانما سميت بهيمة لانها أبهمت عن العقل والتمييز قال الزجاج كل حى لا يميز فهو بهيمة والانعام جمع النعم وهى الابل والبقر والغنم ولا يدخل فيها ذوات الحافر فى قول جميع أهل اللغة واختلفوا فى معنى الآية فقال الحسن وقتادة بهيمة الانعام الابل والبقر والغنم والمعز وعلى هذا القول انما أضاف البهيمة الى الانعام على جهة التوكيد وقال الكلبى بهيمة الانعام وحشيها كالظباء وبقر الوحش وحمر الوحش وعلى هذا انما أضاف البهيمة الى الانعام ليعرف جنس الانعام وما أحل منها لانه لو أفردها فقال البهيمة لدخل فيه ما يحل ويحرم من البهائم فلهذا قال تعالى أحلت لكم بهيمة الانعام وقال ابن عباس هى الاجنة التى توجد ميتة فى بطون أمهاتها اذا ذبحت أو نحرت ذهب أكثر العلماء الى تحليلها وهو مذهب الشافعى ويدل عليه ماروى عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال فى الجنين ذكاته ذكاة أمه أخرجه الترمذى وابن ماجه وفى رواية أبى داود قال قلنا يارسول الله ننحر الناقة ونذبح البقرة والشاة ونجد فى بطنها الجنين أنلقيه أم نأكله قال كلوه ان شئتم فان ذكاته ذكاة أمه وروى الطبرى عن ابن عمر فى قوله أحلت لكم بهيمة الانعام قال مافى بطنها قال عطية العوفى قلت ان خرج ميتا آكله قال نعم هو بمنزلة رئتها وكبدها وعن ابن عباس قال الجنين من بهيمة الانعام وعنه ان بقرة نحرت فوجد فى بطنها جنين فاخذ ابن عباس بذنب الجنين وقال هذا من بهيمة الانعام وشرط بعضهم الاشعار وتمام الخلق قال ابن عمر ذكاة مافى بطنها ذكاتها اذا تم خلقه ونبت شعره ومثله عن سعيد بن المسيب وقال أبو حنيفة لا يحل أكل الجنين اذا خرج ميتا بعد ذكاة الام ۞ وقوله تعالى (الا مايتلى عليكم) يعنى فى القرآن تحريمه وأراد به قوله تعالى حرمت عليكم الميتة الى آخر الآية فهذا من المتلو علينا وهو ما استثنى الله عز وجل من بهيمة الانعام (غير محلى الصيد وأنتم حرم) يعنى أحلت لكم الانعام كلها والوحشية أيضا من الظباء والبقر والحمر غير محلى صيدها وأنتم محرمون فى حال الاحرام فلا يجوز للمحرم أن يقتل صيدا فى حال احرامه (ان الله يحكم مايريد) يعنى ان الله يقضى فى خلقه مايشاء من تحليل ما أراد تحليله وتحريم ما أراد تحريمه وفرض مايشاء أن يفرضه عليهم من أحكامه وفرائضه بما فيه مصلحة لعباده ۞ قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله) نزلت فى الحطم واسمه شريح بن هند بن ضبيعة البكرى أتى المدينة وحده وخلف خيله خارج المدينة ودخل على النبى صلى الله عليه وسلم فقال للنبى صلى الله عليه وسلم الام تدعو الناس فقال الى شهادة أن لا اله الا الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة فقال حسن الا أن لى امراء لا أقطع أمرا دونهم ولعلى أسلم وآتى بهم فخرج من عنده وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه يدخل عليكم رجل من ربيعة يتكلم بلسان شيطان فلما خرج شريح قال النبى صلى الله عليه وسلم لقد دخل بوجه كافر وخرج بقفا غادر وما الرجل بمسلم فمر بسرح من سرح المدينة فاستاقه وانطلق به وهو يرتجز ويقول

قد لفها بالليل سواق حطم ❊ ليس براعى ابل ولا غنم
ولا بجزار على ظهر وضم ❊ باتوا نياما وابن هند لم ينم
بات يقاسيها غلام كالزلم ❊ خدلج الساقين ممسوح القدم

فتبعوه فلم يدركوه فلما كان العام القابل خرج شريح حاجا مع حجاج بكر بن وائل من اليمامة ومعه تجارة عظيمة وقد قلد الهدى فقال المسلمون يارسول الله هذا الحطم قد خرج حاجا فخل بيننا وبينه فقال النبى صلى الله عليه وسلم انه قد قلد الهدى فقالوا يارسول الله هذا شئ كنا نفعله فى الجاهلية فابى النبى صلى الله عليه وسلم فانزل الله ياأيها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله قال ابن عباس هى المناسك كان المشركون يحجون

(أحلت لكم بهيمة الانعام) والبهيمة كل ذات أربع قوائم فى البر والبحر واضافتها الى الانعام للبيان وهى بمعنى من كخاتم فضة ومعناه البهيمة من الانعام وهى الازواج الثمانية وقيل بهيمة الانعام الظباء وبقر الوحش ونحوهما (الا مايتلى عليكم) آية تحريمه وهو قوله حرمت عليكم الميتة الآية (غير محلى الصيد) حال من الضمير فى لكم أى أحلت لكم هذه الاشياء لامحلين الصيد (وأنتم حرم) حال من محلى الصيد كانه قيل أحللنا لكم بعض الانعام فى حال امتناعكم من الصيد وأنتم محرمون لئلا يضيق عليكم والحرم جمع حرام وهو المحرم (ان الله يحكم مايريد) من الاحكام أو من التحليل والتحريم ونزل نهيا عن تحليل ما حرم (ياأيها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله) جمع شعيرة وهى اسم ما أشعر أى جعل شعارا وعلما للنسك به من مواقف الحج ومرامى الجمار والمطاف والمسعى والافعال التى هى علامات الحاج يعرف بها من الاحرام والطواف والسعى والحلق

و يهدون فاراد المسلمون أن يغيروا عليهم فنهاهم الله عن ذلك وقيل الشعائر الهدايا المشعرة واشعارها ان يطعن فى صفحة سنام البعير بحديدة حتى يسيل دمه فيكون ذلك علامة أنها هدى وهو سنة فى الابل والبقر دون الغنم و يدل عليه ماروى عن عائشة قالت فتلت قلائد بدن النبى صلى الله عليه وسلم ثم أشعرها وقلدها ثم بعث بها الى البيت فما حرم عليه شئ كان له حلالا أخرجاه فى الصحيحين (م) عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى الظهر بذى الحليفة ثم دعا بناقته فاشعرها فى صفحة سنامها الايمن وسلت الدم عنها وقلدها نعلين ثم ركب راحلته فلما استوت به على البيداء أهل بالحج وعند أبى حنيفة لايجوز اشعار الهدى بل قال يكره ذلك ٢ وقال ابن عباس فى معنى الآية لاتحلوا شعائر الله هى أن تصيد وأنت محرم وقيل شعائر الله شرائع الله ومعالم دينه والمعنى لاتحلوا شيأ من فرائضه التى افترض عليكم واجتنبوا نواهيه التى نهى عنها (ولا الشهر الحرام) أى ولا تحلوا الشهر الحرام بالقتال فيه والشهر الحرام هو الذى كانت العرب تعظمه وتحرم القتال فى الجاهلية فيه فلما جاء الاسلام لم ينقض هذا الحكم بل أكده والمراد بالشهر الحرام هنا ذو القعدة وقيل رجب ذكرهما ابن جرير وقيل المراد باحلال الشهر الحرام النسىء فقال مقاتل كان جنادة ابن عوف يقوم فى سوق عكاظ فيقول انى قد أحللت كذا وحرمت كذا يعنى به الاشهر فنهى الله عن ذلك وسيأتى تفسير النسىء فى سورة براءة (ولا الهدى ولا القلائد) الهدى ما يهدى الى بيت الله من بعير أو بقرة أو شاة أو غير ذلك مما يتقرب به الى الله تعالى والقلائد جمع قلادة وهى التى تشد فى عنق البعير وغيره والمعنى ولا الهدى ذوات القلائد قال الشاعر

حلفت برب مكة والمصلى * وأعناق هدين مقلدات

فعلى هذا القول انما عطف القلائد على الهدى مبالغة فى التوصية بها لانها من أشرف البدن المهداة والمعنى ولا تستحلوا الهدى خصوصا المقلدات منها وقيل أراد أصحاب القلائد وذلك ان العرب فى الجاهلية كانوا اذا أرادوا الخروج من الحرم قلدوا أنفسهم وابلهم من لحاء شجر الحرم فكانوا يأمنون بذلك فلا يتعرض لهم أحد فنهى الله المؤمنين عن ذلك الفعل ونهاهم عن استحلال نزع شئ من شجر الحرم (ولا آمين البيت الحرام) يعنى ولا تستحلوا القاصدين الى البيت الحرام وهو الكعبة شرفها الله وعظمها (يبتغون) يعنى يطلبون (فضلا من ربهم) يعنى الرزق والارباح فى التجارة (ورضوانا) يعنى و يطلبون رضا الله عنهم بزعمهم لان الكافر لاحظ له فى الرضوان لكن يظن ان فعله ذلك طلب الرضوان فيجوز أن يوصف به بناء على ظنه وقيل ان المشركين كانوا يقصدون بحجهم ابتغاء رضوان الله وان كانوا لاينالونه فلا يبعد ان يحصل لهم بسبب ذلك القصد نوع من الحرمة وهو الامن على أنفسهم وقيل كان المشركون يلتمسون فى حجهم ما يصلح لهم دنياهم ومعاشهم وقيل ابتغاء الفضل هو للمؤمنين والمشركين عامة وابتغاء الرضوان للمؤمنين خاصة وذلك انهم كانوا يحجون جميعا

(فصل) اختلف علماء الناسخ والمنسوخ فى هذه الآية فقال قوم هذه الآية منسوخة الى ههنا لان قوله تعالى لاتحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام يقتضى حرمة القتل فى الشهر الحرام وفى الحرم وذلك منسوخ بقوله تعالى اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وقوله تعالى ولا آمين البيت الحرام يقتضى حرمة منع المشركين عن البيت الحرام وذلك منسوخ بقوله فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا فلا يجوز أن يحج مشرك ولا يامن بالهدى والقلائد كافر وهذا قول ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وأكثر المفسرين قال الشعبى لم ينسخ من سورة المائدة الا هذه الآية وقيل المنسوخ منها قوله ولا آمين البيت الحرام نسختها آية براءة اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وقوله فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا قال ابن عباس كان المؤمنون والمشركون يحجون البيت جميعا فنهى الله المؤمنين أن يمنعوا أحدا أن يحج البيت

والنحر (ولا الشهر الحرام) أى أشهر الحج (ولا الهدى) وهو ما أهدى الى البيت وتقرب به الى الله تعالى من النسائك وهو جمع هدية (ولا القلائد) جمع قلادة وهى ما قلد به الهدى من نعل أو عروة مزادة أو لحاء شجر أو غيره (ولا آمين البيت الحرام) ولا تحلوا قوما قاصدين المسجد الحرام وهم الحجاج والعمار واحلال هذه الاشياء أن يتهاون بحرمة الشعائر وأن يحال بينها و بين المتنسكين بها وأن يحدثوا فى أشهر الحج ما يصدون به الناس عن الحج وأن يتعرضوا للهدى بالغصب أو بالمنع من بلوغ محله وأما القلائد فجاز ان يراد بها ذوات القلائد وهى البدن وتعطف على الهدى للاختصاص لانها أشرف الهدى كقوله وجبريل وميكال كأنه قيل والقلائد منها خصوصا وجاز أن ينهى عن التعرض لقلائد الهدى مبالغة فى النهى عن التعرض للهدى أى ولا تحلوا قلائدها فضلا ان تحلوها كما قال ولا يبدين زينتهن فنهى عن ابداء الزينة مبالغة فى النهى عن ابداء مواقعها (يبتغون) حال من الضمير فى آمين (فضلا من ربهم) أى ثوابا (ورضوانا) وان يرضى عنهم أى لا تتعرضوا لقوم هذه صفتهم تعظيما لهم

٢ قوله وقال ابن عباس الخ كان هذا قول ثان له رضى الله عنه اذ تقدم له غير هذا اه

او

(واذا حللتم) خرجتم من الاحرام (فاصطادوا) اباحة للاصطياد بعد حظره عليهم بقوله غير محلى الصيد وأنتم حرم (ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا) جرم مثل كسب فى تعديته الى مفعول واحد واثنين تقول جرم ذنبا نحو كسبه وجرمته ذنبا نحو كسبته اياه وأول المفعولين ضمير المخاطبين والثانى أن تعتدوا وأن صدوكم متعلق بالشنآن بمعنى العلة وهو شدة البغض وبسكون النون شامى وأبو بكر والمعنى ولا يكسبنكم بغض قوم لان صدوكم الاعتداء ولا يحملنكم عليه ان صدوكم على الشرط مكى وأبو عمرو ويدل على الجزاء ماقبله وهو لا يجرمنكم ومعنى صدهم اياهم عن المسجد الحرام منع أهل مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين يوم الحديبية عن العمرة ومعنى الاعتداء الانتقام منهم بالحاق مكروه بهم (وتعاونوا على البر والتقوى) على العفو والاغضاء (ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) على الانتقام والتشفى أو البر فعل المأمور والتقوى ترك المحظور والاثم ترك المأمور والعدوان فعل المحظور ويجوز أن يراد العموم لكل بر وتقوى ولكل اثم وعدوان فيتناول بعمومه العفو والانتصار (واتقوا الله ان الله شديد العقاب) لمن عصاه ومااتقاه ثم بين ما كان أهل الجاهلية يأكلونه فقال (حرمت عليكم الميتة) أى البهيمة التى تموت حتف أنفها (والدم) أى المسفوح وهو السائل (ولحم الخنزير) وكله نجس وانما خص اللحم لانه معظم المقصود (وما أهل لغير الله به) أى رفع الصوت به لغير الله وهو قولهم باسم اللات والعزى عند ذبحه (والمنخنقة) التى خنقوها حتى ماتت أو انخنقت بالشبكة أو غيرها

أو يتعرضوا له من مؤمن أو كافر ثم أنزل الله بعد هذا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وقال آخرون لم ينسخ من ذلك شئ سوى القلائد التى كانت فى الجاهلية يتقلدونها من لحاء شجر الحرم قال الواحدى وذهب جماعة الى انه لا منسوخ فى هذه السورة وان هذه الآية محكمة قالوا ماندبنا الى أن نخيف من يقصد بيته من أهل شريعتنا فى الشهر الحرام ولا فى غيره وفصل الشهر الحرام عن غيره بالذكر تعظيما وتفضيلا وحرم علينا أخذ الهدى من المهدين وصرفه عن بلوغ محله وحرم علينا القلائد التى كانوا يفعلونها فى الجاهلية وهذا غير مقبول والظاهر ماعليه جمهور العلماء من نسخ هذه الآية لاجماع العلماء على أن الله عز وجل قد أحل قتال أهل الشرك فى الاشهر الحرم وغيرها وكذلك أجمعوا على ان المشرك لو قلد عنقه وذراعيه جميع لحاء الشجر لم يكن ذلك له أمانا من القتل اذا لم يكن قد تقدم له عقد ذمة أو أمان وكذلك أجمعوا على منع من قصد البيت بحج أو عمرة من المشركين لقوله تعالى انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا والله أعلم ۞ وقوله تعالى (واذا حللتم) يعنى من احرامكم (فاصطادوا) هذا أمر اباحة لان الله حرم الصيد على المحرم حالة احرامه بقوله تعالى غير محلى الصيد وأنتم حرم وأباحه له اذا حل من احرامه بقوله واذا حللتم فاصطادوا وانما قلنا انه أمر اباحة لانه ليس واجبا على المحرم اذا حل من احرامه أن يصطاد ومثله قوله تعالى فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض معناه أنه قد أبيح لكم ذلك بعد الفراغ من الصلاة (ولا يجرمنكم) قال ابن عباس لا يحملنكم وقيل معناه لا يكسبنكم ولا يدعونكم (شنآن قوم) يعنى بغض قوم وعداوتهم (أن صدوكم) يعنى لان صدوكم (عن المسجد الحرام) والمعنى لا يحملنكم عداوة قوم على الاعتداء لان صدوكم عن المسجد الحرام لان هذه السورة نزلت بعد قصة الحديبية فكان الصد قد تقدم (أن تعتدوا) عليهم يعنى بالقتل وأخذ المال (وتعاونوا على البر والتقوى) يعنى ليعن بعضكم بعضا على ما يكسب البر والتقوى قال ابن عباس البر متابعة السنة (ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) يعنى ولا يعن بعضكم بعضا على الاثم وهو الكفر والعدوان وهو الظلم وقيل الاثم المعاصى والعدوان البدعة (م) عن النواس بن سمعان قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر والاثم فقال البر حسن الخلق والاثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس (واتقوا الله) أى واحذروا الله أن تعتدوا ما أمركم به أو تجاوزوا الى مانهاكم عنه (ان الله شديد العقاب) يعنى لمن خالف أمره ففيه وعيد وتهديد عظيم ۞ قوله عز وجل (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير) بين الله تعالى فى أول السورة ما أحل لنا من بهيمة الانعام بقوله أحلت لكم بهيمة الانعام ثم انه تعالى استثنى من ذلك بقوله الا ما يتلى عليكم فذكر ذلك المستثنى بقوله حرمت عليكم الميتة فكل ما فارقته الروح مما يذبح بغير ذكاة فهو ميتة وسبب تحريم الميتة أن الدم لطيف جدا فاذا مات الحيوان حتف أنفه احتبس ذلك الدم وبقى فى العروق فيفسد ويحصل منه ضرر عظيم والدم هو المسفوح الجارى وكانت العرب فى الجاهلية تجعل الدم فى المصارين وتشويه وتأكله فحرم الله ذلك كله ولحم الخنزير أراد به جميع اجزائه وأعضائه وانما خص اللحم بالذكر لانه المقصود بالاكل وقد تقدم فى سورة البقرة أحكام هذه الثلاثة أشياء وما استثنى الشارع من الميتة والدم وهو السمك والجراد والكبد والطحال وذكرنا الدليل على اباحة ذلك واختلاف العلماء فى ذلك ۞ وقوله تعالى (وما أهل لغير الله به) يعنى ماذكر على ذبحه غير اسم الله وذلك ان العرب فى الجاهلية كانوا يذكرون أسماء أصنامهم عند الذبح فحرم الله ذلك بهذه الآية وبقوله ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه (والمنخنقة) قال ابن عباس كان أهل الجاهلية يخنقون

الشاة حتى اذا ماتت أكلوها فحرم الله ذلك والمنخنقة من جنس الميتة لانها لما ماتت لم يسل دمها والفرق بينهما ان الميتة تموت بلا سبب أحد والمنخنقة تموت بسبب الخنق (والموقوذة) يعنى المقتولة بالخشب وكانت العرب فى الجاهلية يضربون الشاة بالعصا حتى تموت ويأكلونها فحرم الله ذلك (والمتردية) يعنى التى تتردى من مكان عال فتموت أوفى بئر فتموت والتردى هو السقوط من سطح أومن جبل ونحوه وهذه المتردية تلحق بالميتة فيحرم أكلها ويدخل فى هذا الحكم اذا رمى بسهمه صيدا فتردى ذلك الصيد من جبل أومن مكان عال فمات فانه يحرم أكله لانه لايعلم هل مات بالتردى أو بالسهم (والنطيحة) يعنى التى تنطحها شاة أخرى حتى تموت وكانت العرب فى الجاهلية تأكل ذلك فحرمها الله تعالى لانها فى حكم الميتة فاما الهاء فى هذه الكلمات التى تقدمت أعنى المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة فانما دخلت عليها لانها صفات لموصوف مؤنث وهو الشاة كانه قال حرمت عليكم الشاة المنخنقة والموقوذة والمتردية وخصت الشاة لانها من أعم ما يأكله الناس والكلام انما يخرج على الاعم الاغلب ثم يلحق به غيره فان قلت لم أثبت الهاء فى النطيحة مع انها فى الاصل منطوحة فعدلوا بها الى النطيحة وفى مثل هذا الموضع تكون الهاء محذوفة تقول كف خضيب وعين كحيل يعنى كف مخضوبة وعين مكحولة قلت انما تحذف الهاء من الفعيلة اذا كانت صفة لموصوف يتقدمها فاذا لم يذكر الموصوف وذكرت الصفة وضعتها موضع الموصوف تقول رأيت قبيلة بنى فلان بالهاء لانك ان لم تدخل الهاء لم يعرف أرجل هو أم امرأة فعلى هذا انما دخلت الهاء فى النطيحة لانها صفة لموصوف غير مذكور وهو الشاة وقال ابن السكيت قد تأتى فعيلة بالهاء وهى فى تأويل مفعول بها تخرج مخرج الاسماء ولايذهب بها مذهب النعوت نحو النطيحة والذبيحة والفريسة وأكيلة السبع ومررت بقبيلة بنى فلان ۞ وقوله تعالى (وما أكل السبع) قال قتادة كان أهل الجاهلية اذا جرح السبع شيأ فقتله أوأكل منه أكلوا ما بقى منه فحرمه الله تعالى والسبع اسم يقع على كل حيوان له ناب ويعدو على الناس والدواب فيفترس بنابه كالاسد والذئب والنمر والفهد ونحوه وفى الآية محذوف تقديره وما أكل السبع منه لان ما أكله السبع فقد فقد فلاحكم له انما الحكم للباقى منه (الاماذكيتم) يعنى الاما أدركتموه وقد بقيت فيه حياة مستقرة من هذه الاشياء المذكورة والظاهر ان هذا الاستثناء يرجع الى جميع المحرمات المذكورة فى الآية من قوله تعالى والمنخنقة الى وما أكل السبع وهذا قول على بن أبى طالب وابن عباس والحسن وقتادة قال ابن عباس يقول الله تعالى ما أدركتم من هذا كله وفيه روح فاذبحوه فهو حلال وقال الكلبى هذا الاستثناء مما أكل السبع خاصة والقول هو الاول وأما كيفية ادراكها فقال أكثر أهل العلم من المفسرين ان أدركت ذكاته بان توجد له عين تطرف أوذنب يتحرك فأكله جائز قال ابن عباس اذا طرفت بعينها أوركضت برجلها أوتحركت فاذبح فهو حلال وذهب بعض أهل العلم الى أن السبع اذا جرح فاخرج الحشوة أوقطع الجوف قطعا تيأس معه الحياة فلاذكاة لان ذلك وان كان به حركة ورمق الا انه قد صار الى حالة لايؤثر فى حياته الذبح وهو مذهب مالك واختاره الزجاج وابن الانبارى لان معنى التذكية أن يلحقها وفيها بقية تشخب معها الاوداج وتضطرب اضطراب المذبوح لوجود الحياة فيه قبل ذلك والافهو كالميتة وأصل الذكاة فى اللغة تمام الشئ فالمراد من التذكية تمام قطع الاوداج وانهار الدم ويدل عليه ماروى عن رافع ابن خديج عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ما انهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه ليس السن والظفر وسأحدثكم عن ذلك أما السن فعظم وأما الظفر فدى الحبشة أخرجاه فى الصحيحين وأقل الذبح فى الحيوان المقدور عليه قطع المرىء والحلقوم وأكمله قطع الودجين مع ذلك والحلقوم بعد الفم وهو موضع النفس والمرىء مجرى الطعام والودجان عرقان يقطعان عند الذبح وأما آلة الذبح فكل ما أنهر الدم وفرى الاوداج

(والموقوذة) التى أثخنوها ضربا بعصا أوحجر حتى ماتت (والمتردية) التى تردت من جبل أوفى بئر فماتت (والنطيحة) المنطوحة وهى التى نطحتها أخرى فماتت بالنطح (وما أكل السبع) بعضه ومات بجرحه (الاماذكيتم) الاما أدركتم ذكاته وهو يضطرب اضطراب المذبوح والاستثناء يرجع الى المنخنقة وما بعدها فانه اذا أدركها وبها حياة فذبحها وسمى عليها حلت

من حديد وغيره الا السن والظفر لما تقدم من نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك ۞ وقوله تعالى (وما ذبح على النصب) يعنى وحرم ماذبح على النصب والنصب يحتمل أن يكون جمعا واحده نصاب وأن يكون واحدا وجمعه انصاب وهو الشئ المنصوب قيل كان حول الكعبة ثلثمائة وستون حجرا منصوبة كان أهل الجاهلية يعبدونها و يعظمونها و يذبحون لها وليست هذه الحجارة باصنام انما الاصنام الصور المنقوشة وقال ابن عباس هى الاصنام المنصوبة والمعنى وماذبح على اسم النصب أو لاجل النصب فهو حرام (وأن تستقسموا بالازلام) يعنى وحرم عليكم الاستقسام بالازلام وهو طلب القسم والحكم من الازلام وهى القداح وكانت أزلامهم سبع قداح مستوية مكتوب على واحد منها أمرنى ربى وعلى واحد نهانى وعلى واحد منكم وعلى واحد من غيركم وعلى واحد ملصق وعلى واحد العقل وعلى واحد غفل أى ليس عليه شئ وكانت العرب فى الجاهلية اذا أرادوا سفرا أو تجارة أو نكاحا أو اختلفوا فى نسب أو أمر قتيل أو تحمل عقل أو غير ذلك من الامور العظام جاؤا الى هبل وكانت أعظم صنم لقريش بمكة وجاؤا بمائة درهم وأعطوها صاحب القداح حتى يجيلها لهم فان خرج أمرنى ربى فعلوا ذلك الامر وان خرج نهانى ربى لم يفعلوه وان أجالوا على نسب فان خرج منكم كان وسطا فيهم وان خرج من غيركم كان حلفا فيهم وان خرج ملصق كان على حاله وان اختلفوا فى العقل وهو الدية فمن خرج عليه قدح العقل تحمله وان خرج الغفل أجالوا ثانيا حتى يخرج المكتوب عليه فنهاهم الله عن ذلك وحرمه وسماه فسقا وقيل الازلام كعاب فارس والروم التى كانوا يتقامرون بها وقيل كانت الازلام للعرب والكعاب للعجم وهى النرد وكلها حرام لايجوز اللعب بشئ منها ۞ عن قطن ابن قبيصة عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول العيافة والطيرة والطرق من الجبت أخرجه أبو داود وقال الطرق الزجر والعيافة الخط وقيل العيافة زجر الطير والطرق الضرب بالحصى والجبت كل ماعبد من دون الله عز وجل وقيل الجبت الكاهن و روى البغوى بسند الثعلبى عن أبى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تكهن أو استقسم بالازلام أو تطير طيرة ترده عن سفره لم ينظر الى الدرجات العلى يوم القيامة ۞ وقوله تعالى (ذلكم فسق) يعنى ماذكر من هذه المحرمات فى هذه الآية لان المعنى حرم عليكم تناول كذا وكذا فانه فسق والفسق مايخرج من الحلال الى الحرام وقيل ان الاشارة عائدة على الاستقسام بالازلام والاول أصح (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم) يعنى يئسوا أن ترجعوا عن دينكم الى دينهم كفارا وذلك أن الكفار كانوا يطمعون فى أن يعود المسلمون الى دينهم فلما قوى الاسلام أيسوا من ذلك وذلك هو اليوم الذى دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عام حجة الوداع فعند ذلك يئس الكفار من بطلان دين الاسلام وقيل ان ذلك هو يوم عرفة فنزلت هذه الآية والنبى صلى الله عليه وسلم واقف بعرفة وقيل لم يرد يوما بعينه وانما المعنى الآن يئس الذين كفروا من دينكم فهو كما تقول اليوم قد كبرت تريد الآن قد كبرت وتقول فلان كان يزورنا وهو اليوم يجفونا ولم ترد يوما بعينه يعنى وهو الآن يجفونا ولم تقصد به اليوم قال الشاعر

فيوم علينا و يوم لنا * و يوم نساء و يوم نسر

أراد فزمان علينا وزمان لنا ولم يقصد ليوم واحد بعين (فلاتخشوهم) فلاتخافوا الكفار أيها المؤمنون الذين آمنوا أن يظهروا على دينكم فقد زال الخوف عنكم باظهار دينكم (واخشون) أى وخافوا مخالفة أمرى

(وماذبح على النصب) كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت يذبحون عليها يعظمونها بذلك و يتقربون اليها تسمى الانصاب واحدها نصب أو هو جمع والواحد نصاب (وأن تستقسموا بالازلام) فى موضع الرفع بالعطف على الميتة أى حرمت عليكم الميتة وكذا وكذا والاستقسام بالازلام وهى القداح المعلمة واحدها زلم وزلم كان أحدهم اذا أراد سفرا أو غزوا أو تجارة أو نكاحا أو غير ذلك يعمد الى قداح ثلاثة على واحد منها مكتوب أمرنى ربى وعلى الآخر نهانى والثالث غفل فان خرج الآمر مضى لحاجته وان خرج الناهى أمسك وان خرج الغفل أعاده فمعنى الاستقسام بالازلام طلب معرفة ماقسم له مما لم يقسم له بالازلام قال الزجاج لافرق بين هذا و بين قول المنجمين لاتخرج من أجل نجم كذا واخرج لطلوع نجم كذا وفى شرح التأويلات رد هذا وقال لايقول المنجم ان نجم كذا يأمر بكذا ونجم كذا ينهى عن كذا كما كان فعل أولئك ولكن المنجم جعل النجوم دلالات وعلامات على أحكام الله تعالى ويجوز أن يجعل الله فى النجوم معانى وأعلاما يدرك بها الاحكام و يستخرج بها الاشياء ولالائمة فى ذلك انما اللائمة عليه فيما يحكم على الله و يشهد عليه وقيل هو الميسر وقسمتهم الجزور على الانصباء المعلومة (ذلكم فسق) الاستقسام بالازلام خروج عن الطاعة و يحتمل أن يعود الى كل محرم فى الآية (اليوم) ظرف ليئس ولم يرد به يوم بعينه وانما معناه الآن وهذا كما تقول أنا اليوم قد كبرت تريد الآن وقيل أريد يوم نزولها وقد نزلت يوم الجمعة وكان يوم عرفة بعد العصر فى حجة الوداع (يئس الذين كفروا من دينكم) يئسوا منه أن يبطلوه أو يئسوا من دينكم أن يغلبوه لان الله تعالى وفى بوعده من اظهاره على الدين كله (فلاتخشوهم) بعد اظهار الدين وزوال الخوف من الكفار وانقلابهم مغلوبين بعدما كانوا غالبين (واخشون) بغير ياء فى الوصل والوقف أى أخلصوا لى الخشية

وأخلصوا الخشية لي ﴿ قوله عز وجل (اليوم أكملت لكم دينكم) نزلت هذه الآية في يوم الجمعة بعد العصر في يوم عرفة والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات على ناقته العضباء فكادت عضد الناقة تندق وبركت لثقل الوحي وذلك في حجة الوداع سنة عشر من الهجرة (ق) عن طارق بن شهاب قال جاء رجل من اليهود الى عمر بن الخطاب فقال يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرؤنها لو علينا نزلت معشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيدا قال فأي آية قال اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا فقال عمر اني لاعلم اليوم الذي نزلت فيه والمكان الذي نزلت فيه نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفات في يوم الجمعة أشار عمر الى أن ذلك اليوم يوم عيد لنا وعن ابن عباس أنه قرأ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا وعنده يهودي فقال لو نزلت هذه الآية علينا لاتخذناها عيدا فقال ابن عباس فانها نزلت في يوم عيدين في يوم جمعة ويوم عرفة أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب قال ابن عباس كان في ذلك اليوم خمسة أعياد يوم جمعة ويوم عرفة وعيد اليهود وعيد النصارى وعيد المجوس ولم تجتمع أعياد لاهل الملل في يوم واحد قبله ولا بعده وروى أنه لما نزلت هذه الآية بكى عمر فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما يبكيك يا عمر فقال أبكاني انا كنا في زيادة من ديننا فاما اذ كمل فانه لم يكمل شئ الا نقص قال صدقت فكانت هذه الآية نعي رسول الله صلى الله عليه وسلم عاش بعدها احدا وثمانين يوما ومات صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الاول وقيل لاثنتي عشرة ليلة وهو الاصح سنة احدى عشرة من الهجرة وأما تفسير الآية فقوله تعالى اليوم أكملت لكم دينكم يعني بالفرائض والسنن والحدود والاحكام والحلال والحرام ولم ينزل بعد هذه الآية حلال ولا حرام ولا شئ من الفرائض هذا معنى قول ابن عباس وقال سعيد بن جبير وقتادة معنى أكملت لكم دينكم أي حيث لم يحج معكم مشرك وخلا الموسم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمسلمين وقيل معناه اني أظهرت دينكم على الاديان وأمنتكم من عدوكم بان كفيتكم ما كنتم تخافونه وقيل اكمال الدين لهذه الامة أنه لا يزول ولا ينسخ وأن شريعتهم باقية الى يوم القيامة وقيل اكمال الدين لهذه الامة أنهم آمنوا بكل نبي وكل كتاب ولم يكن هذا لغير هذه الامة وقال ابن الانباري اليوم أكملت شرائع الاسلام على غير نقصان كان قبل هذا الوقت وذلك أن الله تعالى كان يتعبد خلقه بالشئ في وقت ثم يزيد عليه في وقت آخر فيكون الوقت الاول تاما في وقته وكذلك الوقت الثاني تاما في وقته فهو كما يقول القائل عندي عشرة كاملة ومعلوم أن العشرين أكمل منها والشرائع التي تعبد الله عز وجل بها عباده في الاوقات المختلفة مختلفة وكل شريعة منها كاملة في وقت التعبد بها فكمل الله عز وجل الشرائع في اليوم الذي ذكره وهو يوم عرفة ولم يوجب ذلك ان الدين كان ناقصا في وقت من الاوقات ونقل الامام فخر الدين الرازي عن القفال واختاره ان الدين ما كان ناقصا البتة بل كان أبدا كاملا كانت الشرائع النازلة من عند الله كافية في ذلك الوقت الا أنه تعالى كان عالما في أول وقت البعثة بان ما هو كامل في هذا اليوم ليس بكامل في الغد ولا صالح فيه لاجرم كان ينسخ بعد الثبوت وكان يزيل بعد التحتم وأما في آخر زمان البعثة فانزل الله شريعة كاملة وحكم ببقائها الى يوم القيامة فالشرع أبدا كان كاملا الا أن الاول كمال الى يوم مخصوص والثاني كمال الى يوم القيامة فلاجل هذا المعنى قال اليوم أكملت لكم دينكم ثم قال تعالى (وأتممت عليكم نعمتي) يعني باكمال الدين والشريعة لانه لا نعمة أتم من الاسلام وقال ابن عباس حكم لهم بدخول الجنة وقيل معناه أنه تعالى أنجز لهم ما وعدهم في قوله ولاتم نعمتي عليكم فكان من تمام النعمة أن دخلوا مكة آمنين وحجوا مطمئنين لم يخالطهم أحد من المشركين (ورضيت لكم الاسلام دينا) يعني واخترت لكم الاسلام دينا من بين الاديان وقيل معناه ورضيت لكم الاسلام لامري والانقياد لطاعتي فيما شرعت لكم من الفرائض والاحكام والحدود ومعالم الدين الذي أكملته لكم وانما قال تعالى

(اليوم) ظرف لقوله (أكملت لكم دينكم) بان كفيتكم خوف عدوكم وأظهرتكم عليهم كما يقول الملوك اليوم كمل لنا الملك أي كفينا من كنا نخافه أو أكملت لكم ما تحتاجون اليه من تكليفكم من تعليم الحلال والحرام والتوقيف على شرائع الاسلام وقوانين القياس (وأتممت عليكم نعمتي) بفتح مكة ودخولها آمنين ظاهرين وهدم منار الجاهلية ومناسكهم (ورضيت لكم الاسلام دينا) حال اخترته لكم من بين الاديان وآذنتكم بانه هو الدين المرضي وحده ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه

ورضيت لكم الاسلام دينا يوم نزلت هذه الآية وان كان الله تعالى لم يزل راضيا بدين الاسلام فيما مضى قبل نزول هذه الآية لانه لم يزل يصرف نبيه صلى الله عليه وسلم وعباده المؤمنين من حال الى حال وينقلهم من مرتبة الى مرتبة أعلى منها حتى أكمل لهم شرائع الدين ومعالمه وبلغ بهم أقصى درجاته ومراتبه ثم أنزل عليهم هذه الآية ورضيت لكم الاسلام دينا يعني بالصفة التي هو اليوم بها وهي نهاية الكمال وأتم الآن عليه فالزموه ولا تفارقوه وروى البغوي بسنده عن جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال جبريل قال الله عز وجل هذا دين ارتضيته لنفسي ولن يصلحه الا السخاء وحسن الخلق فاكرموه بهما ما صحبتموه وروى الطبري عن قتادة قال ذكر لنا أنه يمثل لكل أهل دين دينهم يوم القيامة فاما الايمان فيبشر أصحابه وأهله ويعدهم في الخير حتى يجيء الاسلام فيقول يارب أنت السلام وأنا الاسلام فيقول اياك اليوم أقبل وبك اليوم أجزي ۞ وقوله تعالى (فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لاثم) هذه الآية من تمام ما تقدم ذكره في المطاعم التي حرمها الله تعالى ومتصلة بها والمعنى أن المحرمات وان كانت محرمة الا أنها قد تحل في حالة الاضطرار اليها ومن قوله تعالى ذلكم فسق الى هنا اعتراض وقع بين الكلامين والغرض منه تأكيد ما تقدم ذكره من معنى التحريم لان تحريم هذه الخبائث من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والاسلام الذي هو المرضي عند الله ومعنى الآية فمن اضطر أي أجهد وأصيب بالضر الذي لا يمكنه معه الامتناع من أكل الميتة وهو قوله تعالى في مخمصة يعني في مجاعة والمخمصة خلو البطن من الغذاء عند الجوع غير متجانف لاثم يعني غير مائل الى اثم أو منحرف اليه والمعنى فمن اضطر الى أكل الميتة أو الى غيرها في المجاعة فليأكل غير متجانف لاثم وهو أن يأكل فوق الشبع وهو قول فقهاء العراق وقيل معناه غير متعرض لمعصية في مقصده وهو قول فقهاء الحجاز (فان الله غفور رحيم) يعني لمن أكل من الميتة في حال الجوع والاضطرار ۞ قوله عز وجل (يسئلونك ماذا أحل لهم) روى الطبري بسنده عن أبي رافع قال جاء جبريل الى النبي صلى الله عليه وسلم يستأذن عليه فاذن له فلم يدخل فقال قد أذنا لك يا رسول الله قال أجل ولكنا لا ندخل بيتا فيه كلب قال أبو رافع فامرني أن أقتل كل كلب بالمدينة ففعلت حتى انتهيت الى امرأة عندها كلب ينبح عليها فتركته رحمة لها ثم جئت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبرته فامرني بقتله فرجعت الى الكلب فقتلته فجاؤا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله ما يحل لنا من هذه الامة التي أمرت بقتلها قال فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله يسئلونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين وروى عن عكرمة ان النبي صلى الله عليه وسلم بعث أبا رافع في قتل الكلاب فقتل حتى بلغ العوالي فدخل عاصم وسعد بن أبي خيثمة وعويمر بن ساعدة على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا ماذا أحل لنا فنزلت يسئلونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين قال ابن الجوزي وأخرج حديث أبي رافع الحاكم في صحيحه قال البغوي فلما نزلت هذه الآية أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في اقتناء الكلاب التي ينتفع بها ونهى عن امساك ما لا نفع فيه منها (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمسك كلبا فانه ينقص في كل يوم من عمله قيراط الا كلب حرث أو ماشية ولمسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من اقتنى كلبا ليس بكلب صيد ولا ماشية ولا أرض فانه ينقص من أجره قيراطان كل يوم وقال سعيد بن جبير نزلت هذه الآية في عدي بن حاتم وزيد بن المهلهل الطائيين وهو زيد الخيل الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد الخير قالا يا رسول الله انا قوم نصيد بالكلاب وبالبزاة فماذا يحل لنا فنزلت هذه الآية قال البغوي وهذا القول أصح في سبب نزولها وأما التفسير فقوله تعالى يسئلونك يعني يسألك أصحابك يا محمد ما الذي أحل لهم أكله من الطيبات والمآكل كانهم لما تلا عليهم من خبائث المآكل ما تلا سألوا عما أحل لهم (قل أحل لكم الطيبات) يعني قل لهم يا محمد أحل لكم

(فمن اضطر) متصل بذكر المحرمات وقوله ذلكم فسق اعتراض أكد به معنى التحريم وكذا ما بعده لان تحريم هذه الخبائث من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والاسلام المنعوت بالرضا دون غيره من الملل ومعناه فمن اضطر الى الميتة أو الى غيرها (في مخمصة) مجاعة (غير) حال (متجانف لاثم) مائل الى اثم أي غير متجاوز سد الرمق (فان الله غفور) لا يؤاخذ بذلك (رحيم) باباحة المحظور للمعذور (يسئلونك) في السؤال معنى القول فلذا وقع بعده (ماذا أحل لهم) كانه قيل يقولون لك ماذا أحل لهم وانما لم يقل ماذا أحل لنا حكاية لما قالوا لان يسئلونك بلفظ الغيبة كقولك أقسم زيد ليفعلن ولو قيل لافعلن وأحل لنا لكان صوابا وماذا مبتدأ وأحل لهم خبره كقولك أي شيء أحل لهم ومعناه ماذا أحل لهم من المطاعم كانهم حين تلى عليهم ما حرم عليهم من خبيثات المآكل سألوا عما أحل لهم منها فقال (قل أحل لكم الطيبات) أي ما ليس بخبيث منها أو هو كل ما لم يأت تحريمه في كتاب الله أو سنة أو اجماع أو قياس

الطيبات يعنى ماذبح على اسم الله عز وجل وقيل الطيبات كل ماتستطيبه العرب وتستلذه من غير أن ورد بتحريمه نص من كتاب أو سنة واعلم أن العبرة فى الاستطابة والاستلذاذ بأهل المروءة والاخلاق الجميلة من العرب فان أهل البادية منهم يستطيبون أكل جميع الحيوانات فلا عبرة بهم لقوله تعالى ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث فان الخبيث غير مستطاب فصارت هذه الآية الكريمة نصا فيما يحل ويحرم من الاطعمة ۞ وقوله تعالى (وماعلمتم من الجوارح مكلبين) يعنى وأحل صيد ماعلمتم من الجوارح فحذف ذكر الصيد وهو مراد فى الكلام لدلالة الباقى عليه ولانهم سألوا عن الصيد وقيل ان قوله وماعلمتم من الجوارح ابتداء كلام خبره فكلوا مما أمسكن عليكم وعلى هذا القول يصح معنى الكلام من غير اضمار والجوارح جمع جارحة وهى الكواسب من السباع والطير كالفهد والنمر والكلب والبازى والصقر والعقاب والشاهين والباشق من الطير مما يقبل التعليم سميت جوارح من الجرح لانها تجرح الصيد عند امساكه وقيل سميت جوارح لانها تكسب والجوارح الكواسب من جرح واجترح اذا اكتسب ومنه قوله تعالى والذين اجترحوا السيئات يعنى اكتسبوا وقوله ويعلم ماجرحتم بالنهار أى اكتسبتم مكلبين يعنى معلمين والمكلب هو الذى يغرى الكلاب على الصيد وقيل هو مؤدب الجوارح ومعلمها وانما اشتق له هذا الاسم من الكلب لانه أكثر احتياجا الى التعليم من غيره من الجوارح (تعلمونهن) يعنى تعلمون الجوارح الاصطياد (مما علمكم الله) يعنى من العلم الذى علمكم الله ففى الآية دليل على انه لايجوز صيد جارحة مالم تكن معلمة وصفة التعليم هو ان الرجل يعلم جارحة الصيد وذلك بان يوجد فيها أمور منها انه[٣] اذا أشليت على الصيد استشلت واذا زجرت انزجرت واذا أخذت الصيد أمسكت ولم تأكل منه شيأ ومنها ان لاينفر منه اذا أراده وان يجيبه اذا دعاه فهذا هو تعليم جميع الجوارح فاذا وجد ذلك منها مرارا كانت معلمة وأقلها ثلاث مرات فانه يحل قتلها اذا جرحت بارسال صاحبها (ق) عن عدى بن حاتم قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت انا قوم نصيد بهذه الكلاب فقال اذا أرسلت كلابك المعلمة وذكرت اسم الله عليه فكل مما أمسكن عليك الا أن يأكل الكلب فلا تأكل فانى أخاف أن يكون انما أمسك على نفسه وان خالطها كلاب من غيرها فلا تأكل فانما سميت على كلبك ولم تسم على غيره وفى رواية فانك لاتدرى أيها قتل وسألته عن صيد المعراض فقال اذا أصبت بحده فكل واذا أصبت بعرضه فقتل فانه وقيذ فلا تأكل واذا رميت الصيد فوجدته بعد يوم أو يومين ليس به الا أثر سهمك فكل فان وقع فى الماء فلا تأكل واختلف العلماء فيما اذا أخذت الكلاب الصيد وأكلت منه شيأ فذهب أكثر أهل العلم الى تحريمه وروى ذلك عن ابن عباس وهو قول عطاء وطاوس والشعبى وبه قال الثورى وابن المبارك وأصحاب الرأى وهو أصح قولى الشافعى ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم وان أكل فلا تأكل فانما أمسك على نفسه ورخص بعضهم فى أكله يروى ذلك عن ابن عمر وسلمان الفارسى وسعد بن أبى وقاص وبه قال مالك لما روى عن أبى ثعلبة الخشنى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صيد الكلب اذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل وان أكل منه أخرجه أبو داود وأما غير المعلم من الجوارح اذا أخذت صيدا أو المعلم اذا خرج بغير ارسال صاحبه فاخذ وقتل فانه لايحل الا أن يدركه حيا فيذبحه فيحل (ق) عن أبى ثعلبة الخشنى قال قلت يارسول الله انا بارض قوم أهل كتاب أفنأكل فى آنيتهم وبارض صيد أصيد بقوسى وبكلبى الذى ليس بمعلم وبكلبى المعلم فما يصلح لى قال اما ماذكرت من آنية أهل الكتاب فان وجدتم غيرها فلا تأكلوا فيها وان لم تجدوا غيرها فاغسلوها وكلوا فيها وماصدت بقوسك فذكرت اسم الله عليه فكل وماصدت بكلبك المعلم فذكرت اسم الله عليه فكل وما صدت بكلبك غير المعلم فادركت ذكاته فكل ۞ وقوله تعالى (فكلوا مما أمسكن عليكم) دخلت من فى قوله مما

(من الجوارح) أى الكواسب للصيد من سباع البهائم والطير كالكلب والفهد والعقاب والصقر والبازى والشاهين وقيل هى من الجراحة فيشترط للحل الجرح (مكلبين) حال من علمتم وفائدة هذه الحال مع أنه استغنى عنها بعلمتم أن يكون من يعلم الجوارح موصوفا بالتكليب والمكلب مؤدب الجوارح ومعلمها مشتق من الكلب لان التاديب فى الكلاب أكثر فاشتق من لفظه لكثرته فى جنسه أولان السبع يسمى كلبا ومنه الحديث اللهم سلط عليه كلبا من كلابك فاكله الاسد (تعلمونهن) حال أو استئناف ولاموضع له وفيه دليل على ان على كل آخذ علما أن لايأخذه الا من أنحرهم دراية فكم من آخذ عن غير متقن قد ضيع أيامه وعض عند لقاء النحارير أنامله (مما علمكم الله) من التكليب (فكلوا مما أمسكن عليكم) الامساك على صاحبه ان لاياكل منه فان أكل منه لم يؤكل اذا كان صيد كلب ونحوه فاما صيد البازى ونحوه فاكله لايحرمه وقد عرف فى موضعه والضمير فى

[٣] قوله اذا أشليت قال فى الصحاح وقول الناس أشليت الكلب على الصيد خطا وقال أبو زيد أشليت الكلب دعوته وقال ابن السكيت يقال أوسدت الكلب بالصيد وآسدته اذا أغريته به ولا يقال أشليته انما الاشلاء الدعاء اهـ مصححه

للتبعيض

للتبعيض لانه انما أحل أكل بعض الصيد وهو اللحم دون الفرث والدم وقيل من زائدة فهو كقوله تعالى كلوا من ثمره اذا أثمر (واذكروا اسم الله عليه) قال ابن عباس يعني اذا أرسلت جارحك فقل بسم الله وان نسيت فلا حرج ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لعدي اذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله عليه فكل فعلى هذا يكون الضمير في عليه عائدا الى ما علمتم من الجوارح أي سموا الله عليه عند ارساله وقيل الضمير عائد الى ما أمسكن عليكم والمعنى سموا الله عليه اذا أدركتم ذكاته وقيل يحتمل أن يكون الضمير عائدا الى الاكل يعني واذكروا اسم الله عليه عند الاكل فعلى هذا تكون التسمية شرطا عند ارسال الجوارح وعند الذبيحة وعند الاكل ٤ وسيأتي بيان هذه المسئلة في سورة الانعام عند قوله ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه (واتقوا الله) يعني واحذروا مخالفة الله يعني فيما أحل لكم وحرم عليكم (ان الله سريع الحساب) يعني اذا حاسب عباده يوم القيامة ففيه تخويف لمن خالف أمره وفعل ما نهاه عنه ۞ قوله عز وجل (اليوم أحل لكم الطيبات) انما كرر احلال الطيبات للتأكيد كأنه قال اليوم أحل لكم الطيبات التي سألتم عنها ويحتمل ان يراد باليوم اليوم الذي أنزلت فيه هذه الآية أو اليوم الذي تقدم ذكره في قوله اليوم يئس الذين كفروا من دينكم اليوم أكملت لكم دينكم ويكون الغرض من ذكر هذا الحكم انه تعالى قال اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي فبين انه كما أكمل الدين وأتم النعمة فكذلك أتم النعمة باحلال الطيبات وقيل ليس المراد باليوم يوما معينا وقد تقدم الكلام في ذلك اليوم وفي معنى الطيبات في الآية المتقدمة ۞ وقوله تعالى (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) يعني وذبائح أهل الكتاب حل لكم وهم اليهود والنصارى ومن دخل في دينهم من سائر الامم قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم فاما من دخل في دينهم بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وهو متنصر والعرب من بني تغلب فلا تحل ذبيحته روي عن علي بن أبي طالب قال لا تأكل من ذبائح نصارى العرب بني تغلب فانهم لم يتمسكوا بشئ من النصرانية الا بشرب الخمر وبه قال ابن مسعود ومذهب الشافعي ان من دخل في دين أهل الكتاب بعد نزول القرآن فانه لا تحل ذبيحته سئل ابن عباس عن ذبائح نصارى العرب فقال لا بأس به ثم قرأ ومن يتولهم منكم فانه منهم وهذا قول الحسن وعطاء بن أبي رباح والشعبي وعكرمة وقتادة والزهري والحكم وحماد وهو مذهب أبي حنيفة ومالك واحدى الروايتين عن أحمد والرواية الاخرى مثل مذهب الشافعي وأجمعوا على تحريم ذبائح المجوس وسائر أهل الشرك من مشركي العرب وعبدة الاصنام ومن لا كتاب له وأجمعوا على أن المراد بطعام الذين أوتوا الكتاب ذبائحهم خاصة لان ماسوى الذبائح فهي محللة قبل ان كانت لاهل الكتاب وبعد أن صارت لهم فلا يبقى لتخصيصها بأهل الكتاب فائدة ولان ما قبل هذه الآية في بيان حكم الصيد والذبائح فحمل هذه الآية عليه أولى ولان سائر الطعام لا يختلف بمن تولاه من كتابي أو غيره وانما تختلف الذكاة فلما خص أهل الكتاب بالذكر دل على أن المراد بطعامهم ذبائحهم واختلف العلماء فيما لو ذبح يهودي أو نصراني على غير اسم الله فقال ابن عمر لا يحل ذلك وهو قول ربيعة وذهب أكثر أهل العلم الى انه يحل سئل الشعبي وعطاء عن النصراني يذبح باسم المسيح فقال يحل فان الله قد أحل ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون وقال الحسن اذا ذبح اليهودي أو النصراني وذكر غير اسم الله وأنت تسمع فلا تأكل واذا غاب عنك فكل فقد أحله الله لك وقد زعم قوم ان هذه الآية اقتضت اباحة ذبائح أهل الكتاب مطلقا وان ذكروا غير اسم الله فيكون هذا ناسخا لقوله تعالى ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وليس الامر كذلك ولا نسخ لان الاصل انهم يذكرون الله عند الذبح فيحمل أمرهم على هذا فان تيقنا انهم ذبحوا على غير اسم الله لم تأكل ولا وجه للنسخ ۞ وقوله تعالى (وطعامكم حل لهم) يعني ان ذبائحنا لهم حلال وهذا يدل على انهم مخاطبون بشرعنا وقال الزجاج معناه ويحل لكم أن تطعموهم من طعامكم فجعل الخطاب للمؤمنين على معنى أن التحليل يعود الى اطعامنا اياهم لا اليهم لانه لا يمتنع أن يحرم الله تعالى

(واذكروا اسم الله عليه) يرجع الى ما أمسكن على معنى وسموا عليه اذا أدركتم ذكاته أو الى ما علمتم من الجوارح أي سموا عليه عند ارساله (واتقوا الله) واحذروا مخالفة أمره في هذا كله (ان الله سريع الحساب) انه محاسبكم على أفعالكم ولا يلحقه فيه لبث (اليوم) الآن (أحل لكم الطيبات) كرره تأكيدا للمنة (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) أي ذبائحهم لان سائر الاطعمة لا يختص حلها بالملة (وطعامكم حل لهم) فلا جناح عليكم أن تطعموهم لانه لو كان حراما عليهم طعام المؤمنين لما ساغ لهم اطعامهم

٤ قوله وسيأتي بيان هذه المسئلة الخ لم يتعرض لما ذكره هنا عند الآية الآتية في سورة الانعام اه مصححه

أن نطعمهم من ذبائحنا وقيل ان الفائدة فى ذكر ذلك ان اباحة المناكحة غير حاصلة من الجانبين واباحة الذبائح كانت حاصلة من الجانبين لاجرم ذكر الله تعالى ذلك تنبيها على التمييز بين النوعين ۞ ثم قال تعالى (والمحصنات من المؤمنات) قال مجاهد هن الحرائر فعلى هذا القول لا تدخل الامة المؤمنة فى هذا التحليل ومن أجاز نكاحهن أجازه بشرطين خوف العنت وعدم طول الحرة وقال ابن عباس المحصنات العفائف فعلى هذا القول لا يحل نكاح الزانية لانها لم تدخل فى هذا التحليل وأباح العلماء نكاحها اذا تابت وحسنت توبتها روى طارق بن شهاب ان رجلا أراد أن يزوج أخته فقالت انى أخشى أن أفضحك انى قد بغيت فأتى عمر فذكر ذلك له منها فقال أليس قد تابت قال بلى قال فزوجها وقيل انما خص المحصنات بالذكر وهن الحرائر أو العفائف ليحث المؤمنين على تخير النساء ليكون الولد كريم الاصل من الطرفين ۞ وقوله تعالى (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) يعنى وأحل لكم المحصنات من أهل الكتاب اليهود والنصارى قال ابن عباس يعنى الحرائر من أهل الكتاب وقال الحسن والشعبي والنخعي والضحاك يريد العفائف من أهل الكتاب فعلى قول ابن عباس لا يجوز التزوج بالامة الكتابية وهو مذهب الشافعي قال لانه اجتمع فى حقها نوعان من النقصان الكفر والرق وعلى قول الحسن ومن وافقه يجوز التزويج بالامة الكتابية وهو مذهب أبى حنيفة لعموم هذه الآية واختلف العلماء فى حكم هذه المسئلة فذهب جمهور الفقهاء الى جواز التزويج بالذميات من اليهود والنصارى روى ان عثمان بن عفان تزوج نائلة بنت الفرافصة على نسائه وهى نصرانية وان طلحة بن عبيد الله تزوج يهودية وروى عن ابن عمر كراهية ذلك ويحتج بقوله تعالى ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن وكان يقول لا أعلم شركا أعظم من قولها ان ربها عيسى وأجاب الجمهور عن قوله ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن بانه عام خص بهذه الآية فاباح الله تعالى المحصنات من أهل الكتاب وحرم من سواهن من أهل الشرك وقال سعيد بن المسيب والحسن يجوز التزويج بالذميات والحربيات من أهل الكتاب لعموم قوله تعالى والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وأجاب جمهور العلماء بان ذلك مخصوص بالذميات دون الحربيات من أهل الكتاب قال ابن عباس من نساء أهل الكتاب من تحل لنا ومنهن من لا تحل لنا وقرأ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله الى قوله حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون والمراد بهم أهل الذمة دون أهل الحرب من أهل الكتاب ۞ وقوله تعالى (اذا آتيتموهن أجورهن) يعنى مهورهن وهو العوض الذى يبذله الزوج للمرأة (محصنين غير مسافحين) يعنى متعففين بالتزويج غير زانين (ولا متخذى أخدان) يعنى ولا منفردين ببغى واحدة قد خادنها وخادنته واتخذها لنفسه صديقة يفجر بها وحده حرم الله الجماع على جهة السفاح وهو الزنا واتخاذ الصديق وهو الخدن وأحله على جهة الاحصان وهو التزويج بعقد صحيح (ومن يكفر بالايمان) يعنى ومن يجحد ما أمر الله به من توحيده ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عند الله (فقد حبط عمله) يعنى فقد بطل ثواب عمله الذى كان عمله فى الدنيا وخاب وخسر فى الدنيا والآخرة وقيل فى معنى الآية ومن يكفر بشرائع الايمان وتكاليفه فقد خاب وخسر وقال قتادة ذكر لنا أن ناسا من المسلمين قالوا كيف نتزوج نساءهم يعنى نساء أهل الكتاب وهم على غير ديننا فانزل الله تعالى ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين وقيل لما أباح الله تعالى نكاح الكتابيات قلن فيما بينهن لولا أن الله قد رضى أعمالنا لم يبح للمؤمنين تزويجنا فانزل الله هذه الآية والمعنى ان تزويج المسلمين اياهن ليس بالذى يخرجهن من الكفر وقيل ان أهل الكتاب وان حصلت لهم فى الدنيا فضيلة باباحة ذبائحهم ونكاح نسائهم الا أن ذلك غير حاصل لهم فى الآخرة لان كل من كفر بالله وجحد نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين وقيل ان من أحل ما حرم الله أو حرم ما أحل الله أو جحد بشئ مما أنزل الله فقد كفر بالله وحبط عمله المتقدم (وهو فى الآخرة من

الخاسرين)

(والمحصنات من المؤمنات) هى الحرائر أو العفائف وليس هذا بشرط لصحة النكاح بل هو للاستحباب لانه يصح نكاح الاماء من المسلمات ونكاح غير العفائف وتخصيصهن بعث على تخير المؤمنين لنطفهم وهو معطوف على الطيبات أو مبتدأ والخبر محذوف أى والمحصنات من المؤمنات حل لكم (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) هى الحرائر الكتابيات أو العفائف الكتابيات (اذا آتيتموهن أجورهن) أعطيتموهن مهورهن (محصنين غير مسافحين) متزوجين غير زانين (ولا متخذى أخدان) صدائق والخدن يقع على الذكر والانثى (ومن يكفر بالايمان) بشرائع الاسلام وما أحل الله وحرم (فقد حبط) بطل (عمله وهو فى الآخرة

من

الخاسرين) اذامات على ذلك وهذا الشرط لابدمنه لانه اذاتاب وآمن قبل الموت قبلت توبته وصح ايمانه

۞ قوله عزوجل (ياأيها الذين آمنوا اذاقمتم الى الصلوة) يعنى اذا أردتم القيام الى الصلاة ومثله قوله تعالى فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله أى اذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله ومثله من الكلام اذاتجرت فاتجر فى البرأى اذاأردت التجارة وهذا القول يقتضى وجوب الوضوء عندكل صلاة وهو ظاهر الآية ومذهب داود الظاهرى وذهب جمهور العلماء من الصحابة فمن بعدهم الى انه يجزئ عدة صلوات بوضوء واحد وأجيب عن ظاهر الآية بان المعنى اذاقمتم الى الصلاة وأنتم على غير طهر فحذف ذلك لدلالة المعنى عليه وهذا أحد اختصارات القرآن وهو كثير جدا ولان النبى صلى الله عليه وسلم جمع يوم الخندق بين أربع صلوات بوضوء واحد وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لايقبل الله صلاة أحدكم اذا أحدث حتى يتوضأ أخرجاه فى الصحيحين وقيل فى معنى الآية اذاقمتم الى الصلاة من النوم وقيل هو أمر ندب ندب من قام الى الصلاة أن يجدد لها طهارة وان كان على طهر ويدل عليه ماروى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من توضأ على طهر كتب الله له عشر حسنات أخرجه الترمذى وقيل هذا اعلام من الله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لاوضوء عليه الا اذا قام الى الصلاة دون غيرها من الاعمال ويدل عليه ماروى عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يوما من الخلاء فقدم اليه طعام فقالوا ألا نأتيك بوضوء فقال انما أمرت بالوضوء اذاقمت الى الصلاة أخرجه مسلم والقول الاول هو المختار فى معنى الآية وفروض الوضوء المذكورة فى هذه الآية أربعة ۞ الاول غسل الوجه وهو قوله تعالى (فاغسلوا وجوهكم) واستدل الشافعى على وجوب النية عند غسل الوجه بهذه الآية وحجته أن الوضوء مامور به وكل مامور به يجب أن يكون منويا ولما روى فى الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ مانوى والوضوء من الاعمال فيجب أن يكون منويا وانما قلنا ان الوضوء مامور به وانه من أعمال الدين لقوله تعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين والاخلاص عبارة عن النية الخالصة ومتى كانت النية الخالصة معتبرة كان أصل النية فى جميع الاعمال التى يتقرب بها الى الله تعالى معتبرا واستدل أبو حنيفة لعدم وجوب النية فى الوضوء بهذه الآية قال ان النية ليست شرطا لصحة الوضوء لان الله تعالى أوجب غسل الاعضاء الاربعة فى هذه الآية ولم يوجب النية فيها فايجاب النية زيادة على النص والزيادة على النص نسخ ونسخ القرآن بخبر الواحد وبالقياس غير جائز وأجيب عنه بانا انما أوجبنا النية فى الوضوء بدلالة القرآن وهو قوله تعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين وأما حد الوجه فمن منابت شعر الرأس الى منتهى الذقن طولا ومن الاذن الى الاذن عرضا لانه ماخوذ من المواجهة فيجب غسل جميع الوجه فى الوضوء ويجب ايصال الماء الى ماتحت الحاجبين وأهداب العينين والعذارين والشارب والعنفقة وان كانت كثة وأما اللحية فان كانت كثة لاترى البشرة من تحتها لايجب غسل ماتحتها ويجب غسل ماتحت اللحية الخفيفة وهل يجب امرار الماء على ظاهر مانزل من اللحية عن الذقن فيه قولان أحدهما وبه قال أبو حنيفة لايجب لان الشعر النازل عن حد الرأس لا يكون حكمه حكم الرأس فى المسح فكذلك حكم الشعر النازل عن حد الوجه لايجب غسله والقول الثانى يجب امرار الماء على ظاهره لان الوجه ماخوذ من المواجهة فتدخل جميع اللحية فى حكم الوجه ۞ الفرض الثانى قوله تعالى (وأيديكم الى المرافق) يعنى واغسلوا أيديكم

الخاسرين ياأيها الذين آمنوا اذاقمتم الى الصلوة فاغسلوا وجوهكم) أى اذاأردتم القيام الى الصلاة كقوله فاذاقرأت القرآن أى اذا أردت ان تقرأ القرآن فعبر عن ارادة الفعل بالفعل لان الفعل مسبب عن الارادة فاقيم المسبب مقام السبب للابسة بينهما وطلبا للايجاز ونحوه كما تدين تدان عبر عن الفعل الابتدائى الذى هو سبب الجزاء بلفظ الجزاء الذى هو مسبب عنه وتقديره وأنتم محدثون عن ابن عباس رضى الله عنهما أومن النوم لانه دليل الحدث وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة يتوضؤن لكل صلاة وقيل كان الوضوء لكل صلاة واجبا أول مافرض ثم نسخ (وأيديكم الى المرافق) الى تفيد معنى الغاية مطلقا فامادخولها فى الحكم وخروجها فامر يدور مع الدليل فما فيه دليل على الخروج فنظرة الى ميسرة لان الاعسار علة الانظار وبوجود الميسرة تزول العلة ولودخلت الميسرة فيه لكان منظرا فى الحالتين معسرا وموسرا وكذلك أتموا الصيام الى الليل لو دخل الليل لوجب الوصال ومما فيه دليل على الدخول قولك حفظت القرآن من أوله الى آخره لان الكلام مسوق لحفظ القرآن كله ومنه قوله تعالى من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى لوقوع العلم بانه عليه السلام لايسرى به الى بيت المقدس من غير أن يدخله وقوله الى المرافق لادليل فيه على أحد الامرين فاخذ الجمهور بالاحتياط فحكموا بدخولها فى الغسل وأخذ زفر وداود بالمتيقن فلم يدخلاها وعن النبى صلى الله عليه وسلم انه كان يدير الماء على المرفقين

(وامسحوا برؤسكم) المراد الصاق المسح بالرأس وماسح بعضه ومستوعبه بالمسح كلاهما ملصق للمسح برأسه فاخذ مالك بالاحتياط فاوجب الاستيعاب والشافعي باليقين فاوجب أقل ما يقع عليه اسم المسح وأخذنا ببيان النبي عليه السلام وهو ماروى انه مسح على ناصيته وقدرت الناصية بربع الرأس (وأرجلكم الى الكعبين) بالنصب شامي ونافع وعلي وحفص والمعنى فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وأرجلكم الى الكعبين وامسحوا برؤسكم على التقديم والتأخير غيرهم بالجر بالعطف على الرؤس لان الارجل من بين الاعضاء الثلاثة المغسولة تغسل بصب الماء عليها فكانت مظنة للاسراف المنهي عنه فعطفت على الممسوح لا لتمسح ولكن لينبه على وجوب الاقتصاد في صب الماء عليها وقيل الى الكعبين فجيء بالغاية اماطة لظن ظان يحسبها ممسوحة لان المسح لم تضرب له غاية في الشريعة وقال في جامع العلوم انها مجرورة للجوار وقد صح أن النبي عليه السلام رأى قوما يمسحون على أرجلهم فقال ويل للاعقاب من النار وعن عطاء والله ما علمت أن أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مسح على القدمين وانما أمر بغسل هذه الاعضاء ليطهرها من الاوساخ التي تتصل بها لانها تبدو كثيرا والصلاة خدمة الله تعالى والقيام بين يديه متطهرا من الاوساخ أقرب الى التعظيم فكان أكمل في الخدمة كما في الشاهد اذا أراد أن يقوم بين يدي الملك ولهذا قيل ان الاولى أن يصلي الرجل في أحسن ثيابه وان الصلاة متعمما أفضل من الصلاة مكشوف الرأس لما ان ذلك أبلغ في التعظيم

الى المرافق والمرفق بالكسر هو من الانسان أعلى الذراع وأسفل العضد وذهب جمهور العلماء الى وجوب ادخال المرفقين في الغسل ونقل عن مالك والشعبي وزفر وأبي بكر بن داود الظاهري انه لا يجب ادخال المرفقين في الغسل واختاره ابن جرير الطبري ونقل عن مالك وقد سئل عن قول الله عز وجل فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق فقال الذي أمر به أن يبلغ المرفقين في الغسل لا يجاوزهما وحجة أصحاب هذا القول ان كلمة الى لانتهاء الغاية وما يجعل غاية للحكم يكون خارجا عنه كما في قوله تعالى ثم أتموا الصيام الى الليل ولان الحد لا يدخل في المحدود فوجب أن لا يجب غسل المرفقين في الوضوء وحجة الجمهور أن كلمة الى هنا بمعنى مع ومنه قوله تعالى ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم أي مع أموالكم ويعضده من السنة ما صح من حديث أبي هريرة انه توضأ فغسل وجهه فاسبغ الوضوء ثم غسل اليمنى حتى أشرع في العضد ثم يده اليسرى حتى أشرع في العضد ثم قال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتوضأ والجواب عن الحجة المتقدمة أن الحد اذا كان من جنس المحدود دخل فيه كما في هذه الآية لان المرفق من جنس اليد واذا لم يكن من جنس المحدود لم يدخل فيه كما في قوله تعالى ثم أتموا الصيام الى الليل لان النهار من غير جنس الليل فلا يدخل فيه ۞ الفرض الثالث قوله تعالى (وامسحوا برؤسكم) اختلف العلماء في قدر الذي يجب مسحه من الرأس فقال مالك يجب مسح جميعه وهو احدى الروايتين عن أحمد والرواية الاخرى عنه أنه يجب مسح أكثره وقال أبو حنيفة يجب مسح ربعه وفي رواية أخرى عنه يجب مسح قدر ثلاثة أصابع منه وقال الشافعي الواجب مسح ما ينطلق عليه اسم المسح والمراد الصاق المسح بالرأس وماسح بعضه ومستوعبه بالمسح كلاهما ملصق للمسح بالرأس فأخذ مالك بالاحتياط فاوجب الاستيعاب وأخذ الشافعي باليقين فاوجب مسح ما يقع عليه اسم المسح وأخذ أبو حنيفة ببيان السنة وهو ماروى عن المغيرة بن شعبة أن النبي صلى الله عليه وسلم توضأ فمسح بناصيته وعلى العمامة والخفين متفق عليه وقدر الناصية بربع الرأس ۞ الفرض الرابع قوله تعالى (وأرجلكم الى الكعبين) اختلف العلماء في هذا الحكم وهل فرض الرجلين المسح أو الغسل فروى عن ابن عباس أنه قال الوضوء غسلتان ومسحتان ويروى ذلك عن قتادة أيضا ويروى عن أنس أنه قال نزل القرآن بالمسح والسنة بالغسل وعن عكرمة قال ليس في الرجلين غسل انما نزل فيهما المسح وعن الشعبي أنه قال انما هو المسح على الرجلين ألا ترى أن ما كان عليه الغسل جعل عليه التيمم وما كان عليه المسح أهمل ومذهب الامامية من الشيعة أن الواجب في الرجلين المسح وقال جمهور العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم والائمة الاربعة وأصحابهم أن فرض الرجلين هو الغسل وقال داود الظاهري يجب الجمع بينهما وقال الحسن البصري ومحمد بن جرير الطبري المكلف مخير بين الغسل والمسح وسبب هذا الاختلاف اختلاف القراء في هذا الحرف فقرأ نافع وابن عامر والكسائي وحفص عن عاصم وأرجلكم بفتح اللام عطفا على الغسل فيكون من المؤخر الذي معناه التقديم ويكون المعنى فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وأرجلكم الى الكعبين وامسحوا برؤسكم وقال أصحاب هذه القراءة انما أمر الله عباده بغسل الارجل دون مسحها ويدل عليه أيضا فعل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين فمن بعدهم وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وأبو بكر عن عاصم وأرجلكم بكسر اللام عطفا على المسح أما قراءة النصب فالمعنى فيها ظاهر لانه عطف على المغسول لوجوب غسل الرجلين على مذهب الجمهور ولا يقدح فيه قول من خالف وأما قراءة الكسر فقد

اختلفوا

اختلفوا فى معناها والجواب عنها فقال أبو حاتم وابن الانبارى وأبو على الكسر عطف على الممسوح غير أن المراد بالمسح فى الارجل الغسل وقال أبو زيد المسح خفيف الغسل لقول العرب تمسحت للصلاة بمعنى توضأت لها وهات ماتمسح به للصلاة بمعنى أتوضأ قال أبو حاتم وذلك ان المتوضئ لا يرضى بصب الماء على أعضائه حتى يمسحها مع الغسل فسمى الغسل مسحا بهذا الاعتبار فعلى هذا الرأس والرجل ممسوحان الا أن مسح الرأس أخف والذى يدل على ان المراد بالمسح فى الرجل الغسل ذكر التحديد وهو قوله تعالى الى الكعبين لان التحديد انما جاء فى المغسول ولم يجئ فى الممسوح فلما وقع التحديد مع المسح علم انه فى حكم الغسل وقال جماعة من العلماء ان الارجل معطوفة على الرؤس فى الظاهر والمراد فيها الغسل لانه قد ينسق بالشئ على غيره والحكم فيهما مختلف كما قال الشاعر

ياليت بعلك قد غدا ﴿ متقلدا سيفا ورمحا

والمعنى وحاملا رمحا لان الرمح لا يتقلد به وكذلك قول الآخر ﴿ علفتها تبنا وماء باردا ﴿ يعنى وسقيتها ماء باردا وكذلك المعنى فى الآية وامسحوا برؤسكم واغسلوا أرجلكم فلما لم يذكر الغسل وعطفت الارجل على الرؤس فى الظاهر اكتفى بقيام الدليل على ان الارجل مغسولة من مفهوم الآية والاحاديث الصحيحة الواردة بغسل الرجلين فى الوضوء وأما من جعل كسر اللام فى الارجل على مجاورة اللفظ دون الحكم واستدل بقولهم جحر ضب خرب وقال الخرب نعت للجحر لا للضب وانما أخذ اعراب الضب للمجاورة فليس بجيد لان الكسر على المجاورة انما يحمل لاجل الضرورة فى الشعر أو يصار اليه حيث يحصل الامن من الالتباس لان الخرب لا يكون نعتا للضب بل للجحر ولان الكسر بالجوار انما يكون بدون حرف العطف اما مع حرف العطف فلم تتكلم به العرب وقوله تعالى الى الكعبين فيه دليل قاطع على وجوب غسل الكعبين كما فى وجوب غسل الرجلين كما فى قوله تعالى وأيديكم الى المرافق والمعنى واغسلوا أرجلكم مع الكعبين وقد تقدم اختلاف العلماء فى ذلك عند قوله الى المرافق والكعبان هما العظمان الناتئان عند مفصل الساق والقدم هذا قول جمهور العلماء من أهل الفقه واللغة وشذت الشيعة ومن قال بمسح الرجلين فقال الكعب عبارة عن عظم مستدير على ظهر القدم ويدل على بطلان هذا القول ان الكعب لو كان على ماذكروه لكان فى كل رجل كعب واحد فكان ينبغى أن يقال وأرجلكم الى الكعاب كما فى قوله تعالى وأيديكم الى المرافق فلما قال الى الكعبين علم أن لكل رجل كعبين فبطل ما قالوه وثبت قول الجمهور

﴿فصل﴾ قد تقدم أن الفروض المذكورة فى هذه الآية أربعة وهى غسل الوجه وغسل اليدين الى المرفقين ومسح الرأس وغسل الرجلين الى الكعبين وقد تقدم استدلال الشافعى بهذه الآية على وجوب النية فى الوضوء فصارت فرضا خامسا وذهب الشافعى ومالك وأحمد الى وجوب الترتيب فى الوضوء وهو أن يغسل الاعضاء فى الوضوء على الولاء كما ذكره الله فى هذه الآية فيغسل أولا وجهه ثم يديه ثم يمسح رأسه ثم يغسل رجليه فصار الترتيب فرضا سادسا وذهب أبو حنيفة الى أن الترتيب فى الوضوء غير واجب احتج الشافعى على وجوب الترتيب بهذه الآية وذلك أن الله تعالى أمر بغسل الوجه ثم بغسل اليدين ثم بمسح الرأس ثم بغسل الرجلين فوجب أن يقع الفعل مرتبا كما أمر الله تعالى ولقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث حجة الوداع ابدأ بما بدأ الله به وهذا الحديث وان ورد فى قصة السعى بين الصفا والمروة فان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ولان أفعال النبى صلى الله عليه وسلم فى الوضوء ماوردت الا مرتبة كما ورد فى نص الآية ولم ينقل عنه ولا عن غيره من الصحابة أنه توضأ منكسا وغير مرتب فثبت أن ترتيب أفعال الوضوء كما أمر الله تعالى ونص عليه فى هذه الآية واجب واحتج أبو حنيفة لمذهبه بهذه الآية أيضا وذلك أن الواو لا توجب الترتيب فاذا قلنا بوجوب الترتيب صار ذلك زيادة على النص وذلك غير جائز وأجيب عنه بانه لم ينقل عن

النبي صلى الله عليه وسلم أنه توضأ الامر تبا كما ذكر و بيان الكتاب انما يؤخذ من السنة

﴿فصل في ذكر الاحاديث التي وردت في صفة الوضوء وفضله﴾ (ق) عن حمران مولى عثمان بن عفان ان عثمان دعا باناء فافرغ على كفيه ثلاث مرات فغسلهما ثم أدخل يمينه في الاناء فمضمض واستنشق واستنثر ثم غسل وجهه ثلاثا ويديه الى المرفقين ثلاثا ثم مسح برأسه ثم غسل رجليه ثلاث مرات الى الكعبين ثم قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ نحو وضوئي هذا ثم قال من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه (ق) عن عبد الله بن زيد بن عاصم الانصاري قيل له توضأ لنا وضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا باناء فافرغ منه على يده ثلاثا ثم أدخل يديه فاستخرجها فمضمض واستنشق من كف واحد فعل ذلك ثلاثا ثم أدخل يده فاستخرجها فغسل وجهه ثلاثا ثم أدخل يده فاستخرجها فغسل يديه الى المرفقين مرتين مرتين ثم أدخل يده فاستخرجها فمسح برأسه فاقبل بيديه وأدبر ثم غسل رجليه الى الكعبين ثم قال هكذا كان وضوء رسول الله صلى الله عليه سلم زاد في رواية بعد قوله فاقبل بيديه وأدبر بدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما الى قفاه ثم ردهما حتى رجع الى المكان الذي بدأ منه عن عبد خير قال أتانا علي كرم الله وجهه وقد صلى فدعا بطهور فقلنا ما يصنع بالطهور وقد صلى ما يريد الا ليعلمنا فأتي باناء فيه ماء وطست فأفرغ من الاناء على يمينه فغسل يديه ثلاثا ثم تمضمض واستنشق ثلاثا فمضمض ونثر من كف يأخذ منه ثم غسل وجهه ثلاثا وغسل يده اليمنى ثلاثا وغسل الشمال ثلاثا ثم جعل يده في الاناء فمسح رأسه مرة واحدة ثم غسل رجله اليمنى ثلاثا ورجله الشمال ثلاثا ثم قال من سره أن يعلم وضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو هذا أخرجه أبو داود * عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله كيف الطهور فدعا بماء في اناء فغسل كفيه ثلاثا ثم غسل وجهه ثلاثا ثم غسل ذراعيه ثلاثا ثم مسح برأسه فادخل أصبعيه السباحتين في أذنيه ومسح بابهاميه على ظاهر أذنيه ثم غسل رجليه ثلاثا ثلاثا ثم قال هكذا الوضوء فمن زاد على هذا أو نقص فقد أساء وظلم أو قال ظلم وأساء أخرجه أبو داود وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مسح برأسه وأذنيه ظاهرهما وباطنهما أخرجه الترمذي وصححه (ق) عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلا لم يغسل عقبه فقال ويل للاعقاب من النار (م) عن جابر قال أخبرني عمر بن الخطاب أن رجلا توضأ فترك موضع ظفر على قدميه فابصره النبي صلى الله عليه وسلم فقال ارجع وأحسن وضوءك قال فرجع فتوضأ ثم صلى أخرجه مسلم * عن خالد عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ان النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يصلي وفي قدمه لمعة قدر الدرهم لم يصبها الماء فامره النبي صلى الله عليه وسلم أن يعيد الوضوء والصلاة أخرجه أبو داود (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال تخلف عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفرة سافرناها فادركنا وقد أرهقتنا الصلاة ونحن نتوضأ فجعلنا نمسح على أرجلنا فنادانا بأعلى صوته ويل للاعقاب من النار مرتين أو ثلاثا * عن ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم توضأ مرة مرة أخرجه البخاري عن أبي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم توضأ مرتين مرتين أخرجه أبو داود والترمذي وقال قد روي عن أبي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم توضأ ثلاثا ثلاثا (م) عن عقبة بن عامر قال كانت علينا رعاية الابل فجاءت نوبتي فروحتها بعشي فادركت رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما يحدث الناس فادركت من قوله ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه ثم يقوم فيصلي ركعتين مقبل عليهما بقلبه ووجهه الا وجبت له الجنة فقلت ما أجود هذا فاذا قائل بين يدي يقول التي قبلها أجود فنظرت فاذا عمر قال اني قد رأيتك جئت آنفا قال ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء ثم يقول أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله الا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء (م) عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر

جامعتم (فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج) فى باب الطهارة حتى لايرخص لكم فى التيمم (ولكن يريد ليطهركم) بالتراب اذا أعوزكم التطهر بالماء (وليتم نعمته عليكم) وليتم برخصه انعامه عليكم بعزائمه (لعلكم تشكرون) نعمته فيثيبكم (واذكروا نعمة الله عليكم) بالاسلام (وميثاقه الذى واثقكم به اذ قلتم سمعنا وأطعنا) أى عاقدكم به عقدا وثيقا وهو الميثاق الذى أخذه على المسلمين حين بايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى حال اليسر والعسر والمنشط والمكره فقبلوا وقالوا سمعنا وأطعنا وقيل هو الميثاق ليلة العقبة وفى بيعة الرضوان (واتقوا الله) فى نقض الميثاق (ان الله عليم بذات الصدور) بسرائر الصدور من الخير والشر وهو وعد ووعيد (ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط) بالعدل (ولايجرمنكم

اليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء فاذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء فاذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقيا من الذنوب (ق) عن نعيم بن عبد الله المجمر عن أبى هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ان أمتى يدعون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء فمن استطاع منكم ان يطيل غرته فليفعل وفى رواية قال رأيت أبا هريرة يتوضأ فغسل وجهه فاسبغ الوضوء ثم غسل يده اليمنى حتى أشرع فى العضد ثم غسل يده اليسرى حتى أشرع فى العضد ثم مسح رأسه ثم غسل رجله اليمنى حتى أشرع فى الساق ثم غسل رجله اليسرى حتى أشرع فى الساق ثم قال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ وقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنتم الغر المحجلون يوم القيامة من اسباغ الوضوء فمن استطاع منكم فليطل غرته وتحجيله وفى رواية لمسلم قال سمعت خليلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء عن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من توضأ على طهر كتب الله له به عشر حسنات أخرجه الترمذى ❊ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصلاة لمن لاوضوء له ولاوضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه أخرجه أبو داود وابن ماجه ۞ وقوله تعالى (وان كنتم جنبا فاطهروا) أى اغتسلوا أمر الله بالاغتسال من الجنابة وذلك يجب على الرجل والمرأة باحد شيئين اما بخروج المنى على أى صفة كان من احتلام أو غيره أو بالتقاء الختانين وان لم يكن معه انزال فاذا حصل وجب الغسل (ق) عن عائشة ان النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا اغتسل من الجنابة أفغسل يديه ثم يفرغ بيمينه على شماله فيغسل فرجه ثم يتوضأ كما يتوضأ للصلاة ثم يدخل أصابعه فى الماء يخلل بهما أصول شعره ثم يصب على رأسه ثلاث غرفات بيديه ثم يفيض الماء على سائر جسده أما قوله تعالى (وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أولامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه) فقد تقدم تفسيره وأحكامه فى تفسير سورة النساء وفى قوله تعالى منه دليل على انه يجب مسح الوجه واليدين بالصعيد وهو التراب ۞ وقوله تعالى (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج) يعنى من ضيق بما فرض عليكم من الوضوء والغسل والتيمم عند عدم الماء (ولكن يريد ليطهركم) يعنى من الاحداث والذنوب والخطايا لان الوضوء تكفير للذنوب (وليتم نعمته عليكم) يعنى ببيان الشرائع والاحكام وما تحتاجون اليه من أمر دينكم (لعلكم تشكرون) يعنى تشكرون نعمة الله عليكم بان طهركم من الاحداث والذنوب وما جعل عليكم فى الدين من حرج ۞ قوله تعالى (واذكروا نعمة الله عليكم) يعنى ما أنعم به عليكم من النعم كلها لان كثرة النعم وذكرها يوجب مزيد الشكر من المنعم عليه والاشتغال بطاعة المنعم بها والانقياد لامره وهو الله تعالى (وميثاقه الذى واثقكم به) يعنى واذكروا عهده الذى عاهدكم به أيها المؤمنون (اذ قلتم سمعنا وأطعنا) وذلك حين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فيما أحبوا أو كرهوا وقيل الميثاق هو الذى أخذه عليهم فى يوم ألست بربكم قالوا بلى (واتقوا الله) يعنى فيما أخذه عليكم من الميثاق فلا تنقضوه (ان الله عليم بذات الصدور) يعنى ان الله تعالى عالم بما فى قلوب عباده من خير وشر ۞ قوله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله) قال ابن عباس يريدانهم يقومون لله بحقه ومعنى ذلك هو أن يقوم لله بالحق فى كل ما يلزمه القيام به من العمل بطاعته واجتناب نواهيه (شهداء بالقسط) يعنى وتشهدون بالعدل يقول لاتحاب فى شهادتك أهل ودك وقرابتك ولاتمنع شهادتك أهل بغضك وأعداءك أقم شهادتك لهم وعليهم بالصدق والعدل (ولايجرمنكم شنآن قوم) ولايحملنكم بغض قوم (على ألاتعدلوا) على ترك العدل فيهم لعداوتهم (اعدلوا) أمر الله بالعدل فى كل أحد القريب والبعيد

شنآن قوم على ألاتعدلوا) عدى يجرمنكم بحرف الاستعلاء مضمنا معنى

هو أقرب للتقوى) أي العدل أقرب الى التقوى نهاهم أولا أن تحملهم البغضاء على ترك العدل ثم استأنف فصرح لهم بالامر بالعدل تأكيدا
وتشديدا ثم استأنف فذكر لهم وجه الامر بالعدل وهو قوله تعالى هو أقرب للتقوى واذا كان وجوب العدل مع

والصديق والعدو (هو أقرب للتقوى) أي العدل أقرب للتقوى (واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون) يعني ان الله تعالى خبير بجميع أعمالكم مطلع عليها وخبير بمن عدل ومن لم يعدل ۞ قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات) يعني عملوا بما أمرهم الله به وأوفوا بالعهود التي عاهدهم عليها (لهم مغفرة وأجر عظيم) هذا بيان للوعد كأنه لما تقدم ذكر الوعد فقيل أي شيء هذا الوعد فقال لهم مغفرة وأجر عظيم واذا وعدهم أنجز لهم الوعد فانه تعالى لا يخلف الميعاد (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا) يعني والذين جحدوا وحدانية الله ونقضوا عهوده ومواثيقه وكذبوا بما جاءت به الرسل من عنده (أولئك) يعني من هذه صفته (أصحاب الجحيم) هذه الآية نص قاطع في أن الخلود في النار ليس الا للكفار لان المصاحبة تقتضي الملازمة كما يقال فلان صاحب فلان يعني الملازم له ۞ قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم) يعني اذكروا نعمة الله عليكم بالدفع عنكم مع سائر نعمه التي أنعم بها عليكم ثم وصف تلك النعمة التي ذكرهم بها وأمرهم بالشكر عليها فقال تعالى (اذ هم قوم أن يبسطوا اليكم أيديهم) يعني بالقتل والبطش بكم فصرفهم عنكم وحال بينهم وبين ما أرادوه بكم اختلف أهل التفسير في سبب نزول هذه الآية وفي صفة هذه النعمة التي أمر الله تعالى أصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم بذكرها والشكر عليها فقال قتادة نزلت هذه الآية ورسول الله صلى الله عليه وسلم ببطن نخلة حين أراد بنو ثعلبة وبنو محارب أن يفتكوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وبأصحابه اذا اشتغلوا بالصلاة فاطلع الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك وأنزل صلاة الخوف وقال الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم محاصرا غطفان بنخل فقال رجل من المشركين هل لكم أن أقتل محمدا قالوا وكيف تقتله قال أفتك به قالوا وددنا أنك فعلت ذلك فأتى النبي صلى الله عليه وسلم والنبي صلى الله عليه وسلم متقلد سيفه فقال يا محمد أرني سيفك فأعطاه اياه فجعل يهز السيف وينظر اليه مرة والى النبي صلى الله عليه وسلم مرة ثم قال من يمنعك مني يا محمد قال الله فتهدده أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاغمد السيف ومضى فأنزل الله هذه الآية وقال مجاهد وعكرمة والكلبي بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المنذر بن عمرو الساعدي وهو أحد النقباء ليلة العقبة في ثلاثين راكبا من المهاجرين والانصار الى بني عامر ابن صعصعة فخرجوا فلقوا عامر بن الطفيل على بئر معونة وهي من مياه بني عامر فاقتتلوا فقتل المنذر وأصحابه الا ثلاثة نفر كانوا في طلب ضالة لهم أحدهم عمرو بن أمية الضمري فلم يرعهم الا الطير تحوم في السماء يسقط من بين مناقيرها علق الدم فقال أحد النفر الثلاثة قتل أصحابنا ثم تولى يشتد حتى لقي رجلا من المشركين فاختلفا ضربتين فلما خالطته الضربة رفع رأسه الى السماء وفتح عينيه فقال الله أكبر الجنة ورب العالمين ورجع صاحباه فلقيا رجلين من بني سليم وكان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قومهما موادعة فانتسبا الى بني عامر فقتلاهما وقدم قومهما الى النبي صلى الله عليه وسلم يطلبون الدية فخرج النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة وعبد الرحمن بن عوف حتى دخلوا على كعب بن الاشرف وبني النضير يستعينهم في عقلهما وكانوا قد عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم على ترك القتال وعلى أن يعينوه في الديات وقيل أراد أن يستقرض منهم دية رجلين فقالوا نعم يا أبا القاسم قد آن لك ان تأتينا وتسألنا حاجة اجلس حتى نطعمك ونعطيك الذي سألت فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فخلا بعض اليهود ببعض وقالوا انكم لن تجدوا محمدا أقرب منه الآن فمن يظهر منكم على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه فقال عمرو بن جحاش أنا فعمد الى رحى عظيمة ليطرحها على النبي صلى الله عليه وسلم فامسك الله يده ونزل جبريل فاخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فخرج النبي صلى الله عليه وسلم راجعا الى المدينة قال

الكفار بهذه الصفة من القوة فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه (واتقوا الله) فيما أمر ونهى (ان الله خبير بما تعملون) وعد ووعيد ولذا ذكر بعدها آية الوعد وهو قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات) ووعد يتعدى الى مفعولين فالاول الذين آمنوا والثاني محذوف استغنى عنه بالجملة التي هي قوله (لهم مغفرة وأجر عظيم) والوعيد وهو قوله (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) أي لا يفارقونها (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ هم قوم) روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بني قريظة ومعه الشيخان أبو بكر وعمر والختنان يستقرضهم دية مسلمين قتلهما عمرو بن أمية الضمري خطأ يحسبهما مشركين فقالوا نعم يا أبا القاسم اجلس حتى نطعمك ونقرضك فاجلسوه في صفة وهموا بالفتك به وعمد عمرو ابن جحاش الى رحى عظيمة يطرحها عليه فامسك الله يده ونزل جبريل فاخبره بذلك فخرج النبي صلى الله عليه وسلم ونزلت الآية اذ ظرف للنعمة (أن يبسطوا) بان يبسطوا (اليكم أيديهم) بالقتل
يقال بسط لسانه اليه اذا شتمه وبسط اليه يده اذا بطش به ويسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ومعنى بسط اليد مدها الى المبطوش به

وخرج معه علي بن أبي طالب فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي لا تبرح مكانك حتى يخرج اليك أصحابي فمن خرج اليك منهم وسألك عني فقل توجه الى المدينة ففعل ذلك حتى تناهوا اليه ثم تبعوه الى المدينة وأنزل الله عز وجل هذه الآية يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ هم قوم يعني اليهود ان يبسطوا اليكم أيديهم يقال بسط يده اليه اذا بطش به وهو اذا مدها الى المبطوش به ليقتله (فكف أيديهم عنكم) يعني انه تعالى منعهم مما أرادوه بكم (واتقوا الله) يعني فيما أمركم به ونهاكم عنه (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أمر الله تعالى المؤمنين بالتوكل عليه لانه هو الكافي عباده جميع أمورهم فاذا فعلوا ذلك وتوكلوا عليه حفظهم ورعاهم ممن أرادهم بسوء كما كف أيدي اليهود عنهم لما أرادوا أن يفتكوا بهم وهذه القصة أولى بالصواب لانه عقب الآية بذم اليهود وذكر قبيح أفعالهم وخياناتهم وذلك قوله تعالى (ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل) لما ذكر الله في الآية المتقدمة بعض غدرات اليهود وما أرادوه من كيد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أتبعه بذكر أسلافهم وما نقضوه من المواثيق والعهود ومعنى الآية ان الله أخذ ميثاقهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيأ وان يعملوا بما في التوراة من الاحكام والتكاليف (وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا) اختلف العلماء في معنى النقيب فقال ابن عباس النقيب الضمين وقال قتادة هو الشهيد على قومه وقيل هو الامين الكفيل وقيل هو الباحث عن القوم وعن أحوالهم ﴿ذكر القصة في ذلك﴾ قال أصحاب الاخبار والسير ان الله عز وجل وعد موسى عليه السلام أن يورثه وقومه الارض المقدسة وكان يسكنها الكنعانيون الجبارون فامر الله موسى أن يسير ببني اسرائيل الى الارض المقدسة وقال اني كتبتها لكم دارا وقرارا فاخرج اليها وجاهد من فيها من العدو فاني ناصرك عليهم وخذ من قومك اثني عشر نقيبا من كل سبط نقيبا يكون كفيلا على قومه بالوفاء منهم على ما أمروا به فاختار موسى النقباء وسار ببني اسرائيل حتى قربوا من اريحاء وهي مدينة الجبارين فبعث هؤلاء النقباء يتجسسون له الاخبار ويعلمون علمها فلقيهم رجل من الجبارين يقال له عوج بن عنق وعنق أمه وهي احدى بنات آدم عليه السلام وكان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعا وثلث ذراع هكذا نقله البغوي وفيه نظر لان آدم عليه السلام كان طوله على ما ورد في الاحاديث الصحيحة ستين ذراعا قال وكان عوج يحتجز بالسحاب ويشرب من مائه ويتناول الحوت من قعر البحر ويشويه في عين الشمس ويروى ان الماء لما طبق على الارض من جبل وغيره ما بلغ ركبتي عوج وقال لنوح عليه السلام احملني معك في السفينة فقال نوح عليه السلام اخرج عني يا عدو الله فاني لم أومر بك وعاش عوج ثلاثة آلاف سنة حتى أهلكه الله تعالى على يد موسى عليه السلام وذلك أنه قد اقتلع صخرة من الجبل على قدر عسكر موسى وكان فرسخا في فرسخ وحملها على رأسه ليطبقها عليهم فبعث الله الهدهد فنقب الصخرة وقورها بمنقاره فوقعت في عنقه فصرعته وأقبل موسى عليه السلام وهو مصروع فقتله قال فلما لقي عوج النقباء أخذهم وجعلهم في حجزته وكان على رأسه حزمة حطب وانطلق بهم الى امرأته وقال لها انظري الى هؤلاء الذين يريدون قتالنا وطرحهم بين يديها وقال ألا أطحنهم برجلي فقالت امرأته بل خل عنهم حتى يخبروا قومهم بما رأوا وامنك وقيل انه جعلهم في كمه وأتى بهم الى الملك فنثرهم بين يديه فقال لهم الملك ارجعوا الى قومكم فاخبروهم بما رأيتم وكان مما رأوا ان العنقود العنب لا يحمله الا خمسة أنفس منهم بينهم في خشبة ويدخل في شطر الرمانة اذا نزع منها حبها خمسة أنفس فرجع النقباء وقال بعضهم لبعض يا قوم انكم اذا أخبرتم بني اسرائيل خبر القوم رجعوا عن نبي الله موسى ولا يقاتلونهم معا كتموا عن بني اسرائيل خبر القوم وأخبروا موسى وهرون بما رأيتم فيريان رأيهما وأخذ بعض النقباء على بعض الميثاق بذلك فلما رجعوا الى بني اسرائيل نكثوا العهد والميثاق وأخبر كل رجل سبطه بما رأى الا رجلان منهم وهم يوشع بن نون وكالب بن يوقنا فانهما أوفيا بالعهود ولم ينكثا الميثاق

(فكف أيديهم عنكم) فمنعها أن تمد اليكم (واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فانه الكافي والدافع والمانع (ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا) هو الذي ينقب عن أحوال القوم ويفتش عنها ولما استقر بنو اسرائيل بمصر بعد هلاك فرعون أمرهم الله بالمسير الى أريحاء أرض الشام وكان يسكنها الكنعانيون الجبابرة وقال لهم اني كتبتها لكم دارا وقرارا فاخرجوا اليها وجاهدوا من فيها واني ناصركم وأمر الله موسى عليه السلام أن يأخذ من كل سبط نقيبا يكون كفيلا على قومه بالوفاء بما أمروا به توثقة عليهم فاختار النقباء وأخذ الميثاق على بني اسرائيل وتكفل لهم النقباء وسار بهم فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون فرأوا أجراما عظيمة وقوة وشوكة فهابوا ورجعوا فحدثوا قومهم وقد نهاهم أن يحدثوهم فنكثوا الميثاق الا كالب بن يوقنا ويوشع بن نون وكانا من النقباء

(وقال الله انى معكم) أى ناصركم ومعينكم وتقف هنا لابتدائك بالشرط الداخل عليه اللام الموطئة للقسم وهو (لئن أقمتم الصلوة وآتيتم الزكوة) وكانتا فريضتين عليهم (وآمنتم برسلى) من غير تفريق بين أحد منهم (وعزرتموهم) وعظمتموهم أو نصرتموهم بان تردوا عنهم أعداءهم والعزر فى اللغة الرد ويقال عزرت فلانا أى أدبته يعنى فعلت به ما يردعه عن القبيح كذا قاله الزجاج (وأقرضتم الله قرضا حسنا) بلا من وقيل هو كل خير واللام فى (لاكفرن عنكم سيآتكم) جواب للقسم وهذا الجواب ساد مسد جواب القسم والشرط جميعا (ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الانهار فمن كفر بعد ذلك منكم) أى بعد ذلك الشرط المؤكد المتعلق بالوعد العظيم (فقد ضل سواء السبيل) أخطأ طريق الحق نعم من كفر قبل ذلك فقد ضل سواء السبيل أيضا ولكن الضلال بعده أظهر وأعظم (فبما نقضهم ميثاقهم) ما مزيدة لافادة تفخيم الامر (لعناهم) طردناهم وأخرجناهم من رحمتنا أو مسخناهم أو ضربنا عليهم الجزية (وجعلنا قلوبهم قاسية) يابسة لا رحمة فيها ولا لين قسية حمزة وعلى أى رديئة من قولهم درهم قسى أى رديء (يحرفون الكلم عن مواضعه) يفسرونه على غير ما أنزل وهو بيان لقسوة قلوبهم لانه لاقسوة أشد من الافتراء على الله وتغيير وحيه (ونسوا حظا) وتركوا نصيبا جزيلا وقسطا وافيا (مما ذكروا به) من التوراة يعنى ان تركهم واعراضهم عن التوراة اغفال حظ عظيم أو قست قلوبهم وفسدت فحرفوا التوراة وزالت أشياء منها عن حفظهم عن ابن والصفح مسعود رضى الله عنه وقد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية وتلا هذه الآية وقيل تركوا نصيب أنفسهم مما أمروا به من الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبيان نعته (ولا تزال) يا محمد (تطلع على خائنة منهم) أى هذه عادتهم وكان عليها أسلافهم كانوا يخونون الرسل وهؤلاء يخونونك ويهمون بالفتك بك وقوله على خائنة أى على خيانة أو على فعلة ذات خيانة أو على نفس أو فرقة خائنة ويقال رجل خائنة كقولهم رجل راوية للشعر للمبالغة (الا قليلا منهم) وهم الذين آمنوا منهم (فاعف عنهم) بعث على مخالفتهم أو فاعف عن مؤمنيهم ولا تؤاخذهم بما سلف منهم

فذلك قوله تعالى ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا (وقال الله انى معكم) فيه حذف تقديره وقال للنقباء انى معكم يعنى بالنصر والمعونة وقيل هو خطاب لعامة بنى اسرائيل والقول الاول أولى لان الضمير يعود الى أقرب مذكور فكان عوده الى النقباء أولى ثم ابتدأ الكلام فقال مخاطبا لبنى اسرائيل (لئن أقمتم الصلوة) هذه جملة شرطية والشرط مركب من خمسة أمور وهى قوله لئن أقمتم الصلوة (وآتيتم الزكوة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا) وجزاء الشرط قوله تعالى (لاكفرن عنكم سيآتكم) وذلك اشارة الى ازالة العذاب وقوله تعالى (ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الانهار) اشارة الى ايصال الثواب ومعنى الآية لئن أقمتم الصلاة المكتوبة وآتيتم الزكاة المفروضة وآمنتم برسلى يعنى جميع رسلى وانما أخر ذكر الايمان بالرسل لان اليهود كانوا مقرين باقام الصلاة وايتاء الزكاة والايمان ببعض الرسل فقال الله لهم انه لا يتم لكم ذلك ولا يحصل المقصود الا بالايمان بجميع الرسل وقوله تعالى وعزرتموهم يعنى ونصرتموهم وأصل التعزير فى اللغة الردع فمعنى وعزرتموهم نصرتموهم بان تردوا أعداءهم عنهم وقيل معناه ووقرتموهم وعظمتموهم والقول هو الاول وأقرضتم الله قرضا حسنا يعنى به الصدقات المندوبة لان الزكاة تقدم ذكرها فلا فائدة فى تفسير هذا القرض بالزكاة فان قلت كيف قال وأقرضتم الله قرضا حسنا ولم يقل اقراضا حسنا لان مصدر أقرضتم الاقراض قلت ان قوله قرضا أخرج مصدرا من معناه لا من لفظه وذلك ان أقرض بمعنى قرض فكان معنى الكلام وأقرضتم الله فقرضتم قرضا حسنا ونظير ذلك قوله تعالى والله أنبتكم من الارض نباتا اذ كان معناه فنبتم نباتا وقوله لاكفرن عنكم سيآتكم يعنى اذا فعلتم سائر ما أمرتكم به لامحون عنكم سيآتكم وأغفرها لكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الانهار (فمن كفر بعد ذلك منكم) يعنى بعد أخذ العهد والميثاق (فقد ضل سواء السبيل) يعنى فقد أخطأ الطريق المستقيم وهو طريق الدين الذى شرعه والهدى الذى أمر باتباعه ۞ قوله تعالى (فبما نقضهم ميثاقهم) أى بسبب نقضهم الميثاق وذلك ان بنى اسرائيل نقضوا ميثاق الله وعهده بان كذبوا الرسل الذين جاؤا من بعد موسى وقتلوا أنبياء الله ونبذوا كتابه وضيعوا فرائضه (لعناهم) يعنى جازيناهم على ذلك بان أبعدناهم وطردناهم عن رحمتنا وأصل اللعنة الابعاد عن الرحمة (وجعلنا قلوبهم قاسية) يعنى غليظة يابسة لا تلين لان القسوة خلاف اللين والرقة وقيل معناه ان قلوبهم ليست خالصة الايمان بل ايمانهم مشوب بالكفر والنفاق (يحرفون الكلم عن مواضعه) يعنى يغيرون حدود التوراة وأحكامها وقيل هو تبديلهم صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته من التوراة وقيل هو تحريفهم معانى الالفاظ بسوء التأويل (ونسوا حظا مما ذكروا به) يعنى وتركوا نصيب أنفسهم مما أمروا به من الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبيان نعته وصفته (ولا تزال تطلع على خائنة منهم) قال ابن عباس يعنى على معصية منهم وكانت خيانتهم نقض العهد ومظاهرتهم المشركين على حرب محمد صلى الله عليه وسلم وهمهم بقتله وسمه ونحوها من خياناتهم التى ظهرت (الا قليلا منهم) يعنى أنهم لم يخونوا ولم ينقضوا العهد وهم عبد الله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا من أهل الكتاب (فاعف عنهم واصفح) أى فاعف عن زلاتهم يا محمد واصفح عن جرمهم ومؤاخذتهم وهذا الامر بالعفو

ان الله يحب المحسنين) ومن فى قوله (ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم) وهو الايمان بالله والرسل وأفعال الخير يتعلق باخذنا أى وأخذنا من الذين قالوا انا نصارى ميثاقهم فقدم على الفعل الجار والمجرور وفصل بين الفعل والواو بالجار والمجرور وانما لم يقل من النصارى لانهم انما سموا أنفسهم بذلك ادعاء لنصرة الله وهم الذين قالوا لعيسى نحن أنصار الله ثم اختلفوا بعد نسطورية ويعقوبية وملكانية أنصارا للشيطان (فنسوا حظا مما ذكروا به فاغرينا) فالصقنا وألزمنا من غرى بالشئ اذا لزمه والصق به ومنه الغراء الذى يلصق به (بينهم) بين فرق النصارى المختلفين (العداوة والبغضاء الى يوم القيامة) بالاهواء المختلفة (وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون) أى فى القيامة بالجزاء والعقاب (يا أهل الكتاب) خطاب لليهود والنصارى والكتاب للجنس (قد جاءكم رسولنا) محمد عليه السلام (يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب) من نحو صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن نحو الرجم (ويعفو عن كثير) مما تخفونه لا يبينه أو يعفو عن كثير منكم لا يؤاخذه (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) يريد القرآن لكشفه ظلمات الشرك والشك ولابانته ما كان خافيا على الناس من الحق أو لانه ظاهر الاعجاز أو النور محمد عليه السلام لانه يهتدى به كما سمى سراجا (يهدى به الله) أى بالقرآن (من اتبع رضوانه) من آمن منهم (سبل السلام) طرق السلامة والنجاة من عذاب الله أو سبل الله فالسلام السلامة أو الله (ويخرجهم من الظلمات الى النور) من ظلمات الكفر الى نور الاسلام (باذنه) بارادته وتوفيقه (ويهديهم الى صراط مستقيم لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم) معناه بت القول على أن الله هو المسيح لا غير قيل كان فى النصارى قوم يقولون ذلك أو لان مذهبهم يؤدى اليه حيث انهم اعتقدوا انه يخلق ويحيى ويميت (قل

والصفح عن أهل الكتاب منسوخ بقوله تعالى قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر الآية التى نزلت فى سورة براءة قاله قتادة وقيل انها غير منسوخة بل نزلت فى قوم كان بينهم وبين النبى صلى الله عليه وسلم عهد فغدروا ونقضوا ذلك العهد فأظهر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك وأنزل هذه الآية ولم تنسخ وذلك أنه يجوز أن يعفو عن غدرة فعلوها مالم ينصبوا حربا ولم يمتنعوا من أداء الجزية والصغار وعلى هذا القول بانها غير منسوخة يكون معنى الآية فاعف عن مؤمنهم ولا تؤاخذهم بما سلف منهم قبل ذلك وقيل معناه فاعف عن صغائر زلاتهم ماداموا باقين على العهد (ان الله يحب المحسنين) يعنى اذا عفوت عنهم فانك تحسن والله يحب المحسنين ۞ قوله عز وجل (ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم) لما ذكر نقض اليهود الميثاق اتبعه بذكر نقض النصارى الميثاق وان سبيل النصارى مثل سبيل اليهود فى نقض العهد والميثاق وانما قال تعالى ومن الذين قالوا انا نصارى ولم يقل من النصارى لانهم الذين ابتدعوا هذا الاسم وسموا به أنفسهم لا أن الله تعالى سماهم به أخذنا ميثاقهم يعنى كتبنا عليهم فى الانجيل أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم (فنسوا حظا مما ذكروا به) يعنى فتركوا ما أمروا به من الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم (فأغرينا) يعنى فألقينا وأوقعنا (بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة) قال قتادة لما تركوا العمل بكتاب الله وعصوا رسله وضيعوا فرائضه وعطلوا حدوده ألقى الله العداوة والبغضاء بينهم وقيل العداوة والبغضاء هى الاهواء المختلفة وفى الهاء والميم من قوله تعالى بينهم قولان أحدهما ان المراد بهم اليهود والنصارى فان العداوة والبغضاء حاصلة بينهم الى يوم القيامة والقول الثانى أن المراد بهم فرق النصارى فان كل فرقة منهم تكفر الاخرى (وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون) يعنى ان الله تعالى يخبرهم فى الآخرة بأعمالهم التى عملوها فى الدنيا ففيه وعيد وتهديد لهم ۞ قوله تعالى (يا أهل الكتاب) يعنى اليهود والنصارى (قد جاءكم رسولنا) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب) يعنى ان محمدا صلى الله عليه وسلم يظهر كثيرا مما أخفوا وكتموا من أحكام التوراة والانجيل وذلك انهم أخفوا آية الرجم وصفة محمد صلى الله عليه وسلم وغير ذلك ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ذلك وأظهره وهذا معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم لانه لم يقرأ كتابهم ولم يعلم ما فيه فكان اظهاره ذلك معجزة له (ويعفوا عن كثير) يعنى مما يكتمونه فلا يتعرض له ولا يؤاخذهم به لانه لا حاجة الى اظهاره والفائدة فى ذلك انهم يعلمون كون النبى صلى الله عليه وسلم عالما بما يخفونه وهو معجزة له أيضا فيكون ذلك داعيا لهم الى الايمان به (قد جاءكم من الله نور) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم انما سماه الله نورا لانه يهتدى به كما يهتدى بالنور فى الظلام وقيل النور هو الاسلام (وكتاب مبين) يعنى القرآن (يهدى به الله) يعنى يهدى الله بالكتاب المبين (من اتبع رضوانه) أى اتبع ما رضيه الله وهو دين الاسلام لانه مدحه وأثنى عليه (سبل السلام) قال ابن عباس يريد دين الله وهو الاسلام فسبله دينه الذى شرع لعباده وبعث به رسله وأمر عباده باتباعه وقيل سبل السلام طرق السلامة وقيل سبل السلام دار السلام فيكون من باب حذف المضاف (ويخرجهم من الظلمات الى النور) يعنى من ظلمات الكفر الى نور الايمان (باذنه) يعنى بتوفيقه وهدايته (ويهديهم الى صراط مستقيم) يعنى دين الاسلام ۞ قوله عز وجل (لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم) قال ابن عباس هؤلاء نصارى نجران فانهم

من يملك من الله شيأ) فمن يمنع من قدرته ومشيئته شيأ (ان أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الارض جميعا) أى لن أراد أن يهلك
من دعوه الها من المسيح وأمه يعنى ان المسيح عبد مخلوق كسائر العباد وعطف من فى الارض جميعا على المسيح

قالوا هذه المقالة وهو مذهب اليعقوبية والملكانية من النصارى لانهم يقولون فى المسيح انه ابنه تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا وانما قالوا هذه المقالة الخبيثة لانهم يقولون بالحلول وان الله قد حل فى بدن عيسى فلما كان اعتقادهم ذلك لاجرم حكم الله عليهم بالكفر ثم ذكر الله مايدل على فساد مذهبهم فقال تعالى (قل) يعنى يا محمد لهؤلاء النصارى الذين يقولون هذه المقالة (فمن يملك) يعنى يقدر أن يدفع (من الله شيأ) يعنى من أمر الله شيأ (ان أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه) يعنى يعدم المسيح وأمه (ومن فى الارض جميعا) ووجه الاحتجاج على النصارى بهذا أن المسيح لو كان الها كما يقولون لقدر على دفع أمر الله اذا أراد اهلاكه واهلاك أمه وغيرها (ولله ملك السموات والارض ومابينهما) انما قال ومابينهما ولم يقل ومابينهن لانه أراد مابين هذين النوعين أو الصنفين من الاشياء فانها ملكه وأهلها عبيده وعيسى وأمه من جملة عبيده (يخلق مايشاء) يعنى من غير اعتراض عليه فيما يخلق لانه خلق آدم من غير أب وأم وخلق عيسى من أم بلا أب وخلق سائر الخلق من أب وأم (والله على كل شئ قدير) يعنى ان الله تعالى لايعجزه شئ أراده فلا اعتراض لاحد من خلقه عليه ۞ قوله تعالى (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه) قال ابن عباس أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن اصار وبحرى بن عمرو وشاس بن عدى فكلموه وكلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم الى الله وحذرهم نقمته فقالوا ماتخوفنا يامحمد نحن أبناء الله وأحباؤه كقول النصارى فانزل الله عز وجل فيهم وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه الآية وسبب هذه المقالة ماحكاه السدى قال أما اليهود فانهم قالوا ان الله أوحى الى اسرائيل انى أدخل من ولدك النار فيكونون فيها أربعين يوما حتى تطهرهم وتأكل خطاياهم ثم ينادى مناد أن أخرجوا كل مختون من ولد اسرائيل فيخرجون فذلك قوله تعالى لن تمسنا النار الا أياما معدودات وأما النصارى فان فريقا منهم يقولون المسيح ابن الله وكذبوا فيما قالوا على الله تعالى فاما وجه قول اليهود فانهم يعنون انه من عطفه عليهم كالاب الشفيق على الولد وأما وجه قول النصارى فانهم لما قالوا فى المسيح انه ابن الله وادعوا انه منهم فكأنهم قالوا نحن أبناء الله لهذا السبب وقيل ان اليهود انما قالوا هذه المقالة من باب حذف المضاف والمعنى نحن أبناء رسول الله وأما النصارى فانهم تأولوا قول المسيح أذهب الى أبى وأبيكم وقوله اذا صليتم فقولوا ياأبانا الذى فى السماء لتقدس اسمك فذهبوا الى ظاهر هذه المقالة ولم يعلموا ما أراد المسيح عليه السلام ان صحت هذه المقالة عنه فان تأويلها أنه فى بره ورحمته وعطفه على عباده الصالحين كالاب الرحيم لولده وجملة الكلام فى ذلك ان اليهود والنصارى كانوا يرون لانفسهم فضلا على من سواهم بسبب أسلافهم الافاضل حتى انتهوا فى تعظيم أنفسهم الى أن قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه فابطل الله عز وجل دعواهم وكذبهم فيما قالوا بقوله تعالى (قل فلم يعذبكم بذنوبكم) معناه اذا كان الامر كما تزعمون فلم يعذبكم الله وأنتم قد أقررتم على أنفسكم أنه يعذبكم أربعين يوما وهل رأيتم والدا يعذب ولده بالنار وهل تطيب نفس محب أن يعذب حبيبه فى النار (بل أنتم بشر ممن خلق) يعنى بل أنتم يامعشر اليهود والنصارى كسائر بنى آدم تجزون بالاساءة والاحسان ۞ قوله تعالى (يغفر لمن يشاء) يعنى لمن تاب من اليهودية والنصرانية (ويعذب من يشاء) يعنى من مات على اليهودية والنصرانية وقيل معناه يهدى من يشاء فيغفر له ويميت من يشاء على كفره فيعذبه (ولله ملك السموات والارض ومابينهما) يعنى أنه تعالى يملك ذلك لاشريك له فى ذلك فيعارضه وهو الذى يملك المغفرة لمن يشاء والتعذيب لمن يشاء وفيه دليل على أنه تعالى لاولد له لان من يملك السموات والارض يستحيل أن يكون له شبيه من خلقه أو شريك فى ملكه

وأمه ابانة انهما من جنسهم لاتفاوت بينهما وبينهم والمعنى ان من اشتمل عليه رحم الامومية متى يفارقه نقص البشرية ومن لاحت عليه شواهد الحدثية انى يليق به نعت الربوبية ولو قطع البقاء عن جميع ما أوجد لم يعد نقص الى الصمدية (ولله ملك السموات والارض وما بينهما يخلق مايشاء) أى يخلق من ذكر وأنثى ويخلق من أنثى بلا ذكر كما خلق عيسى ويخلق من ذكر من غير أنثى كما خلق حواء من آدم ويخلق من غير ذكر وأنثى كما خلق آدم أو يخلق مايشاء كخلق الطير على يد عيسى معجزة له فلا اعتراض عليه لانه الفعال لما يريد (والله على كل شئ قدير وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه) أى أعزة عليه كالابن على الاب أو أشياع ابنى الله عزير والمسيح كما قيل لاشياع أبى خبيب وهو عبد الله بن الزبير الخبيبيون وكما كان يقول أقرباء الملك وحشمه نحن أبناء الملوك أو نحن أبناء رسل الله (قل فلم يعذبكم
بذنوبكم) أى فان صح انكم أبناء الله وأحباؤه فلم تعذبون بذنوبكم بالمسخ والنار
أياما معدودة على زعمكم وهل يمسخ الاب ولده وهل يعذب الوالد ولده بالنار ثم قال رداعليهم (بل أنتم بشر ممن خلق) أى أنتم خلق من خلقه
لابنوه (يغفر لمن يشاء) لمن تاب عن الكفر فضلا (ويعذب من يشاء) من مات عليه عدلا (ولله ملك السموات والارض ومابينهما

(واليه

(واليه المصير) يعني والى الله مرجع العباد في الآخرة فيجازيهم باعمالهم ۞ قوله تعالى (ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل) قال ابن عباس قال معاذ بن جبل وسعد بن عبادة وعقبة بن وهب لليهود يا معشر اليهود اتقوا الله فوالله انكم لتعلمون أنه رسول الله لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته فقال رافع بن حريملة ووهب بن يهودا ما قلنا ذلك لكم وما أنزل الله من كتاب بعد موسى ولا أرسل بشيرا ولا نذيرا بعده فأنزل الله هذه الآية ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يعني محمدا صلى الله عليه وسلم يبين لكم يعني أحكام الدين والشرائع على فترة من الرسل قال ابن عباس يعني على انقطاع من الرسل واختلف العلماء في قدر مدة الفترة فروى عن سلمان قال فترة ما بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ستمائة سنة أخرجه البخاري وقال قتادة كانت الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ستمائة سنة وماشاء الله من ذلك وعنه أنها خمسمائة سنة وستون سنة وقال ابن السائب خمسمائة وأربعون سنة وقال الضحاك انها أربعمائة وبضع وثلاثون سنة ونقل ابن الجوزي عن ابن عباس على فترة من الرسل قال على انقطاع منهم قال وكان بين ميلاد عيسى وميلاد محمد صلى الله عليه وسلم خمسمائة سنة وتسعة وستون سنة وهي الفترة وكان بين عيسى ومحمد أربعة من الرسل فذلك قوله اذ أرسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث قال والرابع لا أدري من هو فكانت تلك السنون مائة وأربعا وثلاثين سنة نبوة وسائرها فترة قال أبو سليمان الدمشقي والرابع والله أعلم خالد بن سنان الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم نبي ضيعه قومه قال الامام فخر الدين الرازي والفائدة في بعثة محمد صلى الله عليه وسلم عند فترة الرسل هي ان التحريف والتغيير كان قد تطرق الى الشرائع المتقدمة لتقادم عهدها وطول زمانها وسبب ذلك اختلاط الحق بالباطل والكذب بالصدق فصار ذلك عذرا ظاهرا في اعراض الخلق عن العبادات لان لهم أن يقولوا الهنا عرفنا أنه لابد من عبادتك ولكنا ما عرفنا كيف نعبدك فبعث الله في هذا الوقت محمدا صلى الله عليه وسلم لازالة هذا العذر فذلك قوله عزوجل (أن تقولوا ماجاءنا من بشير ولا نذير) يعني لئلا تقولوا وقيل معناه كراهية أن تقولوا ماجاءنا من بشير ولا نذير في هذا الوقت (فقد جاءكم بشير ونذير) يعني فقد أرسلت اليكم محمدا صلى الله عليه وسلم لازالة هذا العذر (والله على كل شيء قدير) يعني أنه تعالى قادر على بعثة الرسل في وقت الحاجة اليهم ۞ قوله عزوجل (واذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم) قال ابن عباس اذكروا عافية الله وقيل معناه اذكروا أيادي الله عندكم وأيامه التي أنعم فيها عليكم قال الطبري هذا تعريف من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بتمادي هؤلاء اليهود في الغي وبعدهم عن الحق وسوء اختيارهم لانفسهم وشدة مخالفتهم لانبيائهم مع كثرة نعم الله عليهم وتتابع أياديه وآلائه لديهم سلى بذلك نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم عما نزل به من مقاساتهم ومعالجتهم في ذات الله عزوجل (اذ جعل فيكم أنبياء) يعني ان موسى عليه السلام ذكر قومه بني اسرائيل بأيام الله عندهم وبما أنعم به عليهم فقال اذكروا نعمة الله عليكم اذ فضلكم بأن جعل فيكم أنبياء قال الكلبي هم السبعون الذين اختارهم موسى من قومه وانطلق بهم الى الجبل وأيضا كان أنبياء بني اسرائيل من أولاد يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام وهؤلاء لاشك انهم من أكابر الانبياء وأولاد يعقوب وهم الاسباط أنبياء على قول الاكثرين وموسى وهرون عليهما السلام وأيضا فان الله تعالى أعلم موسى أنه يبعث من بعده في بني اسرائيل أنبياء فانه لم يبعث في أمة ما بعث في بني اسرائيل من الانبياء فكان هذا شرفا عظيما لهم ونعمة ظاهرة عليهم (وجعلكم ملوكا) يعني وجعلكم أحرارا تملكون أنفسكم بعد أن كنتم عبيدا في أيدي القبط قال ابن عباس يعني جعلكم أصحاب خدم وحشم قال قتادة كانوا أول من ملك الخدم ولم يكن لمن قبلهم خدم وروى عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال كان بنو اسرائيل اذا كان لاحدهم خادم

(واليه المصير) فيه تنبيه على عبودية المسيح لان الملك والبنوة متنافيان (ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا) محمد عليه السلام (يبين لكم) أي الشرائع وحذف لظهوره أو ما كنتم تخفون وحذف لتقدم ذكره أو لا يقدر المبين ويكون المعنى يبذل لكم البيان وهو حال أي مبينا لكم (على فترة من الرسل) متعلق بجاءكم أي جاءكم على حين فتور من ارسال الرسل وانقطاع من الوحي وكان بين عيسى ومحمد عليهما السلام ستمائة سنة أو خمسمائة سنة وستون سنة (أن تقولوا) كراهة أن تقولوا (ماجاءنا من بشير ولا نذير) والفاء في (فقد جاءكم) متعلق بمحذوف أي لا تعتذروا فقد جاءكم (بشير) للمؤمنين (ونذير) للكافرين والمعنى الامتنان عليهم بان الرسول بعث اليهم حين انطمست آثار الوحي أحوج ما يكونون اليه ليهشوا اليه ويعدوه أعظم نعمة من الله وتلزمهم الحجة فلا يعتلوا غدا بانه لم يرسل اليهم من ينبههم عن غفلتهم (والله على كل شيء قدير) فكان قادرا على ارسال محمد عليه السلام ضرورة (واذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء) لانه لم يبعث في أمة ما بعث في بني اسرائيل من الانبياء (وجعلكم ملوكا) لانه ملكهم بعد فرعون ملكه وبعد الجبابرة ملكهم ولان الملوك تكاثروا فيهم تكاثر الانبياء وقيل الملك من له مسكن واسع فيه ماء جار وكانت منازلهم واسعة فيها مياه جارية وقيل من له بيت وخدم ولانهم كانوا مملوكين في أيدي

وامرأة ودابة يكتب ملكا ذكره البغوي بغير سند وسأل رجل عبد الله بن عمرو بن العاص فقال ألسنا من فقراء المهاجرين فقال له عبد الله ألك امرأة تأوي اليها قال نعم قال ألك مسكن تسكنه قال نعم قال أنت من الاغنياء قال فان لي خادما قال فانت من الملوك وقال الضحاك كانت منازلهم واسعة فيها مياه جارية ومن كان مسكنه واسعا وفيه ماء جار فهو ملك (وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين) يعني من عالمي زمانكم يذكرهم ما أنعم الله به عليهم من فلق البحر لهم واهلاك عدوهم وانزال المن والسلوى عليهم واخراج الماء من الحجر لهم وتظليل الغمام فوقهم الى غير ذلك من النعم التي أنعم الله بها عليهم ۞ قوله تعالى (ياقوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم) لما ذكر موسى قومه ما أنعم الله به عليهم أمرهم بالخروج الى جهاد عدوهم فقال ياقوم ادخلوا الارض المقدسة يعني المطهرة سميت مقدسة لانها طهرت من الشرك وصارت مسكنا للانبياء والمؤمنين وقيل المقدسة المباركة قال الكلبي صعد ابراهيم صلى الله عليه وسلم جبل لبنان فقيل له انظر فما أدرك بصرك فهو مقدس وهو ميراث لذريتك والارض هي الطور وما حوله وقيل هي أريحاء وفلسطين وبعض الاردن وقيل هي دمشق وقيل هي الشام كلها قال كعب الاحبار وجدت في كتاب الله المنزل أن الشام كنز الله في أرضه وبها أكثر عباده التي كتب الله لكم يعني كتب الله في اللوح المحفوظ أنها لكم مساكن وقيل فرض الله عليكم دخولها وأمركم بسكناها وقيل وهبها لكم فان قلت كيف قال الله تعالى أدخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم وقال فانها محرمة عليهم وكيف الجمع بينهما قلت فيه وجوه أحدها أنها كانت هبة من الله ثم حرمها عليهم بشؤم تمردهم وعصيانهم الوجه الثاني أن اللفظ وان كان عاما لكن المراد منه الخصوص فصار كأنه مكتوب لبعضهم وحرام على بعضهم فان يوشع بن نون وكالب بن يوقنا دخلاها وكانا ممن خوطب بهذا الخطاب الوجه الثالث أن هذا الوعد كان مشروطا بالطاعة فلما لم يوجد الشرط لم يوجد المشروط الوجه الرابع أنه قال انها محرمة عليهم أربعين سنة فلما مضت الاربعون دخلوها وكانت مساكن لهم كما وعدهم الله تعالى وقوله تعالى (ولا ترتدوا على أدباركم) يعني ولا ترجعوا القهقرى مرتدين على أعقابكم الى ورائكم ولكن امضوا الامر الله الذي أمركم به وان فعلتم خلاف ما أمركم الله به (فتنقلبوا خاسرين) يعني فترجعوا خائبين لانكم رددتم أمر الله ۞ قوله عز وجل (قالوا) يعني قوم موسى (ياموسى ان فيها) يعني في الارض المقدسة (قوما جبارين) يعني قوما عاتين لا طاقة لنا بهم ولا قوة لنا بقتالهم وسموا أولئك القوم جبارين لشدة بطشهم وعظم خلقهم وكانوا ذوي أجسام عظيمة وأشكال هائلة وهم العمالقة بقية قوم عاد وأصل الجبار في صفة الانسان فعال من جبره على الامر يعني أجبره عليه وهو العاتي الذي يجبر الناس على ما يريد وقيل انه مأخوذ من قولهم نخلة جبارة اذا كانت طويلة مرتفعة لا تصل الايدي اليها ويقال رجل جبار اذا كان طويلا عظيما قويا تشبيها بالجبار من النخل (وانا لن ندخلها) يعني أرض الجبارين التي أمرهم الله بدخولها (حتى يخرجوا منها) حتى يخرج الجبارون من الارض المقدسة وانما قالوا ذلك استبعادا لخروج الجبارين من أرضهم (فان يخرجوا منها فانا داخلون) يعني اليها قال العلماء بالاخبار ان النقباء لما خرجوا يتجسسون الاخبار لموسى عليه السلام ورجعوا اليه وأخبروه خبر القوم وما عاينوه منهم قال لهم موسى لا تخبروا بني اسرائيل بهذا فيجبنوا أو يضعفوا عن قتالهم وقيل ان النقباء الاثنى عشر لما خرجوا من أرض الجبارين قال بعضهم لبعض لا تخبروا بني اسرائيل بما رأيتم فلما رجعوا وأخبروا موسى أمرهم أن لا يخبروا بني اسرائيل بذلك فخالفوا أمره ونقضوا العهد وأخبر كل رجل من النقباء سبطه بما رأى الا يوشع بن نون وكالب فانهما كتما ووفيا بالعهد فلما علم بنو اسرائيل بذلك وفشا ذلك فيهم رفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا ليتنا متنا في أرض مصر ولا يدخلنا الله أرضهم فتكون نساؤنا وأولادنا وأموالنا غنيمة لهم وجعل الرجل من بني اسرائيل يقول لصاحبه تعالوا نجعل لنا رأسا وننصرف الى مصر فلما

القبط فانقذهم الله فسمى انقاذهم ملكا (وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين) من فلق البحر واغراق العدو وانزال المن والسلوى وتظليل الغمام ونحو ذلك من الامور العظام أو أراد عالمي زمانهم (ياقوم ادخلوا الارض المقدسة) أي المطهرة أو المباركة وهي أرض بيت المقدس أو الشام (التي كتب الله لكم) قسمها لكم أو سماها أو كتب في اللوح المحفوظ انها مساكن لكم (ولا ترتدوا على أدباركم) ولا ترجعوا على أعقابكم مدبرين منهزمين من خوف الجبابرة جبنا أو لا ترتدوا على أدباركم في دينكم (فتنقلبوا خاسرين) فترجعوا خاسرين ثواب الدنيا والآخرة (قالوا ياموسى ان فيها قوما جبارين) الجبار فعال من جبره على الامر بمعنى أجبره عليه وهو العاتي الذي يجبر الناس على ما يريد (وانا لن ندخلها) بالقتال (حتى يخرجوا منها) بغير قتال (فان يخرجوا منها) بلا قتال (فانا داخلون) بلادهم حينئذ

قال رجلان) كالب ويوشع (من الذين يخافون) الله ويخشونه كأنه قيل رجلان من المتقين وهو في محل الرفع صفة لرجلان وكذا (أنعم الله عليهما) بالخوف منه (ادخلوا عليهم الباب) أي باب المدينة (فاذا دخلتموه فانكم غالبون) أي انهزموا وكانت الغلبة لكم وانما علما ذلك باخبار موسى عليه السلام (وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) اذ الايمان به يقتضى التوكل عليه وهو قطع العلائق وترك التملق للخلائق (قالوا ياموسى انا لن ندخلها) هذا نفي لدخولهم في المستقبل على وجه التوكيد

(أبدا) تعليق بالنفي المؤكد بالدهر المتطاول (ماداموا فيها) بيان للابد (فاذهب أنت وربك) من العلماء من حمله على الظاهر وقال انه كفر منهم وليس كذلك اذلو قالوا ذلك اعتقادا وكفروا به لحاربهم موسى ولم تكن مقاتلة الجبارين أولى من مقاتلة هؤلاء ولكن الوجه فيه ان يقال اذهب أنت وربك يعينك على قتالك أو وربك أي وسيدك وهو أخوك الاكبر هرون أولم يرد به حقيقة الذهاب ولكن كما تقول كلمته فذهب يجيبني تريد معنى الارادة كأنهم قالوا أريد قتالهم (فقاتلا انا ههنا قاعدون) ما كثون لانقاتلهم لنصرة دينكم فلما عصوه وخالفوه (قال رب انى لا أملك) لنصرة دينك (الا نفسى وأخى) وهو منصوب بالعطف على نفسى أو على اسم ان أي انى لا أملك الا نفسى وان أخى لا يملك الا نفسه أو مرفوع بالعطف على محل ان واسمها أو على الضمير فى لا أملك وجاز للفصل أي ولا يملك أخى الا نفسه أو هو مبتدأ والخبر محذوف أي وأخى كذلك وهذا من البث والشكوى الى الله ورقة القلب التى بمثلها تستجلب الرحمة وتستنزل النصرة وكأنه لم يثق بالرجلين المذكورين كل الوثوق فلم يذكرالا النبي المعصوم أو أراد ومن يؤاخيني على ديني (فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين) فافصل بيننا وبينهم بان تحكم لنا بما وعدتنا وتحكم عليهم بما هم أهله وهو فى معنى الدعاء عليهم أو فباعد بيننا وبينهم وخلصنا من صحبتهم كقوله ونجنى من القوم الظالمين (قال فانها) أي الارض المقدسة (محرمة عليهم) لايدخلونها وهو تحريم منع لاتحريم تعبد كقوله وحرمنا عليه المراضع والما ' ' ' له كتب الله لكم أي بشرط أن تجاهدوا أهلها فلما أبوا

قال بنو اسرائيل ذلك وهموا بالانصراف الى مصر خر موسى وهرون ساجدين وخرق يوشع وكالب ثيابهما وهما اللذان أخبر الله عنهما بقوله (قال رجلان من الذين يخافون) يعنى يخافون الله ويراقبونه (أنعم الله عليهما) يعنى بالهداية والوفاء بالعهد (ادخلوا عليهم الباب) يعنى قال الرجلان وهما يوشع بن نون وكالب ابن يوقنا لبنى اسرائيل ادخلوا على الجبارين باب مدينتهم (فاذا دخلتموه فانكم غالبون) لان الله وعدكم بالنصر وان الله ينجز لكم وعده (وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) يعنى يقول الرجلان لقوم موسى ثقوا بالله فانه معكم وناصركم ان كنتم مصدقين بان الله ناصركم ولا يهولنكم عظم أجسامهم فانا قد رأيناهم فكانت أجسامهم عظيمة وقلوبهم ضعيفة فلما قالا ذلك أراد بنو اسرائيل ان يرجوهما بالحجارة وعصوا أمرهما وقالوا ما أخبر الله عنهم بقوله تعالى (قالوا ياموسى انا لن ندخلها أبدا) يعنى قال قوم موسى انا لن ندخل مدينة الجبارين أبدا يعنى مدة حياتنا (ماداموا فيها) يعنى مقيمين فيها (فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون) انما قالوا هذه المقالة لان مذهب اليهود التجسيم فكانوا يجوزون الذهاب والمجيء على الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا قال بعض العلماء ان كانوا قالوا هذا على وجه الذهاب من مكان الى مكان فهو كفر وان كانوا قالوه على وجه الخلاف لامر الله وأمر نبيه موسى فهو فسق وقال بعضهم انما قالوه على وجه المجاز والمعنى اذهب أنت وربك معين لك لكن قوله فقاتلا يفسد هذا التأويل وقال بعضهم انما أرادوا بقولهم وربك أخاه هرون لانه كان أكبر من موسى والاصح انهم انما قالوا ذلك جهلا منهم بالله تعالى وصفاته ومنه قوله تعالى وما قدروا الله حق قدره (خ) عن ابن مسعود قال شهدت من المقداد بن الاسود مشهدا لان أكون أنا صاحبه أحب الى مما عدل به أتى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يدعو على المشركين يوم بدر فقال يارسول الله انا لانقول كما قالت بنو اسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ولكن امض ونحن معك فكأنه سرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى رواية لكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك ومن بين يديك ومن خلفك فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أشرق وجهه وسر ۞ قوله تعالى (قال) يعنى موسى عليه السلام (رب) أي يارب (انى لا أملك الا نفسى وأخى) يعنى انى لا أملك الا نفسى وأخى لا يملك الا نفسه وقيل معناه لا أملك الا نفسى ونفس أخى لانه كان يطيعه واذا كان كذلك فقد ملكه وانما قال موسى لا أملك الا نفسى وأخى وان كان معه فى طاعته يوشع بن نون وكالب بن يوقنا لاختصاص هرون به ولمزيد الاعتناء باخيه ويحتمل أن يكون معناه وأخى فى الدين ومن كان على دينه وطاعته فهو أخوه فى الدين فعلى هذا الاحتمال يدخل الرجلان فى قوله وأخى ثم قال (فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين) أي افصل وقيل احكم بيننا وبين القوم الفاسقين يعنى الخارجين عن طاعتك وانما قال موسى ذلك لانه لما رأى بنى اسرائيل وما فعلوه من مخالفة أمر الله وهمهم بيوشع وكالب غضب لذلك ودعا عليهم فاجاب الله تعالى دعاء موسى عليه السلام (قال) الله عز وجل (فانها محرمة عليهم) يعنى فان الارض المقدسة محرمة عليهم ومعناه ان تلك البلدة محرمة عليهم أبدا ولم يرد تحريم تعبد وانما أراد

تحريم منع فأوحى الله تعالى الى موسى بى حلفت لأحرمن عليهم دخول الارض المقدسة غير عبدى يوشع وكالب ولأتيهنهم فى هذه البرية أربعين سنة مكان كل يوم من الايام التى كانوا يتجسسون فيها سنة ولا قين جيفهم فى هذه القفار وأما أبناؤهم الذين لم يعملوا الشر فيدخلونها فذلك قوله تعالى فانها يعنى الارض المقدسة محرمة عليهم قال أكثر أهل العلم هذا تحريم منع لاتحريم تعبد وقيل يحتمل أن يكون تحريم تعبد فيجوز أن يكون الله تعالى أمرهم بان يمكثوا فى تلك المفازة فى الشدة والبلية عقابا لهم على سوء صنيعهم (أربعين سنة) فمن قال ان الكلام تم عند قوله فانها محرمة عليهم قال أربعين سنة يتيهون فى الارض فاما الحرمة فانها مؤبدة حتى يموتوا ويدخلها ابناؤهم وقيل معناه ان الارض المقدسة محرمة عليهم أربعين سنة ثم يدخلونها وتفتح لهم ۞ وقوله تعالى (يتيهون فى الارض) يعنى يتحيرون فيها يقال تاه يتيه اذا تحير واختلفوا فى مقدار الارض التى تاهوا فيها فقيل مقدار ستة فراسخ وقيل ستة فراسخ فى اثنى عشر فرسخا وقيل تسع فراسخ فى ثلاثين فرسخا وكان القوم ستمائة ألف مقاتل وكانوا يرحلون و يسيرون يومهم أجمع فاذا أمسوا اذاهم فى الموضع الذى رحلوا منه وكان ذلك التيه عقوبة لبنى اسرائيل ماخلا موسى وهرون و يوشع وكالب فان الله تعالى سهله عليهم وأعانهم عليه كما سهل على ابراهيم النار وجعلها بردا وسلاما فان قلت كيف يعقل بقاء هذا الجمع العظيم فى هذا المقدار الصغير من الارض أربعين سنة بحيث لم يخرج منه أحد قلت هذا من باب خوارق العادات وخوارق العادات فى أزمان الانبياء غير مستبعدة فان الله على كل شئ قدير وقيل ان فسرنا ذلك التحريم بتحريم التعبد زال هذا الاشكال لاحتمال ان الله ماحرم عليهم الخروج من تلك الارض بل أمر بالمكث أربعين سنة فى المشقة والمحنة جزاء لهم على سوء صنيعهم ومخالفتهم أمر الله ومما حصل بنو اسرائيل فى التيه شكوا الى موسى عليه السلام حالهم فأنزل الله عليهم المن والسلوى واعطوا من الكسوة ماهى قائمة لهم فينشأ الناشئ منهم فتكون معه على مقداره وهيئته وسأل موسى ربه أن يسقيهم فأتى بحجر أبيض من جبل الطور فكان اذا نزل ضربه بعصاه فيخرج منه اثنتا عشرة عينا لكل سبط منهم عين وأرسل الله عليهم الغمام يظلهم فى التيه ومات فى التيه كل من دخله ممن جاوز عشرين سنة غير يوشع بن نون وكالب بن يوقنا ولم يدخل أريحاء ممن قال انا لن ندخلها أبدا واختلفوا فى أن موسى عليه السلام مات فى التيه أم خرج منه فقيل ان موسى وهرون ماتا فى التيه جميعا

الجهاد قيل فانها محرمة عليهم أو المراد فانها محرمة عليهم (أربعين سنة) فاذا مضى الاربعون كان ما كتب فقد سار موسى عليه السلام بمن بقى من بنى اسرائيل وكان يوشع على مقدمته ففتحها وأقام فيها ماشاء الله ثم قبض وأربعين ظرف التحريم والوقف على سنة أو ظرف (يتيهون فى الارض) أى يسيرون فيها متحيرين لايهتدون طريقا أربعين سنة والوقف على عليهم وانما عوقبوا بالحبس لاختبارهم المكث فكانوا مع شدة سيرهم يصبحون حيث أمسوا ويمسون حيث أصبحوا فى ستة فراسخ ولما ندم على الدعاء عليهم قيل له

﴿قصة وفاة موسى وهرون عليهما السلام﴾

فاما هرون فانه كان أكبر من موسى بسنة قال السدى أوحى الله عز وجل الى موسى انى متوفى هرون فأت به جبل كذا وكذا فانطلق موسى وهرون نحو ذلك الجبل فاذا بشجرة لم ير مثلها واذا بيت مبنى وفيه سرير عليه فراش وفيه رائحة طيبة فلما رأى هرون ذلك البيت أعجبه وقال ياموسى انى أحب أن أنام على هذا السرير قال نم قال انى أخاف أن يأتى رب هذا البيت فيغضب على قال لاتخف انى أكفيك رب هذا البيت فنم قال ياموسى فنم أنت معى فان جاء رب هذا البيت غضب على وعليك جميعا فلما ناما أخذ هرون الموت فلما وجد مسه قال ياموسى خدعتنى فلما قبض هرون رفع البيت والسرير الى السماء وهرون عليه وذهبت الشجرة فرجع موسى الى بنى اسرائيل وليس هرون معه فقال بنو اسرائيل حسد موسى هرون فقتله لحبنا اياه قال موسى ويحكم ان هرون كان أخى أفترونى أقتله فلما أكثروا عليه قام موسى فصلى ركعتين ثم دعا الله عز وجل فنزل السرير وعليه هرون فنظروا اليه وهو بين السماء والارض فصدقوه ثم رفع وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه صعد موسى عليه السلام وهرون الى الجبل فمات هرون و بقى موسى فقال بنو اسرائيل لموسى أنت قتلته وآذوه فأمر الله الملائكة فحملوه حتى مروا به على بنى اسرائيل وتكلمت الملائكة بموته فصدقت بنو اسرائيل أنه مات و برأ الله موسى مما قالوه ثم ان الملائكة حملوه ودفنوه ولم يطلع على موضع قبره أحد الا

الرخم

الرخم فجعله الله أصم أبكم * وأما وفاة موسى عليه السلام فقال ابن اسحق كان صفى الله موسى عليه السلام قد كره الموت وأعظمه فأراد الله أن يحبب اليه الموت فنبأ يوشع بن نون فكان موسى يغدو و يروح اليه و يقول له يا نبى الله ما أحدث الله اليك فيقول له يوشع يا نبى الله ألم أصحبك كذا وكذا سنة فهل كنت أسألك عن شئ مما أحدث الله اليك حتى كنت أنت تبتدئ به وتذكره لى ولا يذكر له شيأ فلما رأى موسى ذلك كره الحياة وأحب الموت (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل ملك الموت الى موسى فلما جاءه صكه ففقأ عينه فرجع الى ربه فقال ارسلتنى الى عبد لا يريد الموت فرد الله اليه عينه وقال ارجع اليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بكل ماغطت يده من شعرة سنة قال أى رب ثم مه قال ثم الموت قال فالآن فسأل الله أن يدنيه من الارض المقدسة رمية بحجر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلو كنت ثم لاريتكم قبره الى جانب الطريق عند الكثيب الاحمر وفى رواية لمسلم قال جاء ملك الموت الى موسى فقال أجب ربك قال فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها ثم ذكر معنى ماتقدم قال الشيخ محيى الدين النووى قال المازرى وقد أنكر بعض الملاحدة هذا الحديث وأنكر تصوره قالوا كيف يجوز على موسى فقء عين ملك الموت وأجاب عنه العلماء باجوبة أحدها أنه لا يمتنع أن يكون الله قد أذن لموسى فى هذه اللطمة و يكون ذلك امتحانا للملطوم والله تعالى يفعل فى خلقه مايشاء و يمتحنهم بما أرادوا الثانى أن موسى لم يعلم انه ملك من عند الله وظن انه رجل قصده يريد نفسه فدافعه عنها فادت المدافعة الى فقء عينه لا أنه قصدها بالفقء وتؤيده رواية صكه وهذا جواب الامام أبى بكر بن خزيمة وغيره من المتقدمين واختاره المازرى والقاضى عياض قالوا وليس فى الحديث تصريح بانه قصد فقء عينه فان قيل فقد اعترف موسى حين جاءه ثانيا بانه ملك الموت فالجواب انه أتاه فى المرة الثانية بعلامة علم بها أنه ملك الموت فاستسلم له بخلاف المرة الاولى وأما سؤال موسى الادناء من الارض المقدسة فلشرفها وفضلها وفضل من بها من المدفونين من الانبياء وغيرهم وفيه دليل على استحباب الدفن فى المواضع الفاضلة والمواطن المباركة والقرب من مدافن الصالحين قال بعض العلماء وانما سأل موسى الادناء ولم يسأل نفس بيت المقدس لانه خاف أن يكون قبره مشهورا عندهم فيفتتن به الناس والله أعلم قال وهب بن منبه خرج موسى لبعض حاجته فمر برهط من الملائكة يحفرون قبرا لم ير شيأ أحسن منه ولا مثل مافيه من الخضرة والنضرة والبهجة فقال لهم يا ملائكة الله لمن تحفرون هذا القبر فقالوا لعبد كريم على ربه فقال ان هذا العبد من الله بمنزلة مارأيت كاليوم قط فقالت الملائكة يا صفى الله تحب أن يكون لك قال وددت قالوا فانزل واضطجع فيه وتوجه الى ربك فنزل واضطجع وتوجه الى ربه عز وجل ثم تنفس أسهل تنفس فقبض الله روحه ثم سوت الملائكة عليه التراب وقيل ان ملك الموت أتاه بتفاحة من الجنة فشمها فقبض روحه وكان عمر موسى عليه السلام مائة سنة وعشرين سنة فلما مات موسى عليه السلام انقضت الاربعون سنة و بعث الله يوشع الى بنى اسرائيل فاخبرهم ان الله قد أمره بقتال الجبارين فصدقوه وتابعوه فتوجه ببنى اسرائيل الى أريحاء وهى مدينة الجبارين ومعه تابوت الميثاق فاحاط بمدينة أريحاء ستة أشهر فلما كان فى السابع نفخوا فى القرون وضجوا فى الشعب ضجة واحدة فسقط سور المدينة فدخلوها وقاتلوا الجبارين وهزموهم وهجموا عليهم يقتلونهم فكانت العصابة من بنى اسرائيل يجتمعون على عنق الرجل من الجبابرة يضربونها حتى يقطعونها وكان القتال والفتح يوم الجمعة فبقيت منهم بقية وكادت الشمس أن تغرب وتدخل ليلة السبت فقال اللهم اردد على الشمس وقال للشمس انك فى طاعة الله وأنا فى طاعة الله وسأل الشمس أن تقف والقمر أن يقف حتى ينتقم من أعداء الله قبل دخول السبت فرد الله عليه الشمس وزيد فى النهار ساعة حتى قتلهم أجمعين وتتبع ملوك الشام فاستباح منهم احدا وثلاثين ملكا حتى غلب على جميع أرض الشام وصارت كلها لبنى اسرائيل وفرق عماله نواحيها وجمع الغنائم فجاءت النار لتأكلها فلم تطعمها فقال ان

قوله والثانى الخ هذا هو الجواب الثالث فى شرح النووى على مسلم ونص الجواب الثانى فيه والثانى أن هذا على المجاز والمراد ان موسى ناظره وحاججه فغلبه بالحجة و يقال فقأ فلان عين فلان اذا غلبه بالحجة و يقال عورت الشئ اذا أدخلت فيه نقصا قال وفى هذا ضعف لقوله صلى الله عليه وسلم فرد الله عينه فان قيل أراد حجته كان بعيدا والثالث الخ اهـ مصححه

فيكم غلولا فليبايعني من كل قبيلة رجل فبايعوه فلصقت يد رجل بيده فقال فيكم الغلول فجاؤا برأس ثور من
ذهب مكلل بالياقوت والجوهر قد غله رجل منهم فجعله في القربان وجعل الرجل معه فجاءت النار فأكلت
الرجل والقربان وفي الحديث الصحيح ما يدل على صحة هذا وهو ما روى عن أبي هريرة قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم غزا نبي من الانبياء فقال لقومه لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولم
يبن بها ولا أحد بنى بيوتا ولم يرفع سقوفها ولا رجل اشترى غنما أو خلفات وهو ينتظر أولادها فغزا فدنا من
القرية صلاة العصر أو قريبا من ذلك فقال للشمس انك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علينا فحبست حتى
فتح الله عليه فجمع الغنائم فجاءت يعني النار لتأكلها فلم تطعمها فقال ان فيكم غلولا فليبايعني من كل قبيلة
رجل فلزقت يد رجل بيده فقال فيكم الغلول فجاؤا برأس مثل رأس بقرة من الذهب فوضعها فجاءت النار
فأكلتها زاد في رواية فلم تحل الغنائم لاحد قبلنا ثم أحل الله لنا الغنائم لما رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا أخرجه
البخاري ومسلم * شرح غريب هذا الحديث * قوله لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة البضع بضم الباء كناية
عن فرج المرأة ولم يبن بها أي لم يدخل عليها والخلفات النوق الحوامل وقوله للشمس انك مأمورة وأنا مأمور
اللهم احبسها علينا قال الشيخ محيي الدين قال القاضي عياض اختلف الناس في حبس الشمس المذكور هنا
فقيل ردت الى ورائها وقيل وقفت ولم ترد وقيل بطء حركتها وكل ذلك من معجزات النبوة قال ويقال ان
الذي حبست عليه الشمس يوشع بن نون قال القاضي وقد روى أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم حبست له
الشمس مرتين احداهما يوم الخندق حين شغلوا عن صلاة العصر حتى غربت الشمس فردها الله عليه حتى
صلى العصر ذكر ذلك الطحاوي وقال رواته ثقات والثانية صبيحة ليلة الاسراء حين انتظر العير لما أخبر
بوصولها مع شروق الشمس ذكره يونس بن بكير في زياداته عن سيرة ابن اسحق وقال وهب ثم مات يوشع بن
نون ودفن في جبل افرائيم وكان عمره مائة سنة وستا وعشرين سنة وكان تدبيره أمر بني اسرائيل بعد موسى
سبعا وعشرين سنة وقيل ان الذي فتح أريحاء هو موسى عليه السلام وكان يوشع بن نون على مقدمته فسار
اليهم بمن بقي من بني اسرائيل فدخلها يوشع وقاتل الجبابرة ثم دخلها موسى وأقام بها ما شاء الله تعالى ثم قبضه
الله اليه ولا يعلم أحد قبره وهذا أصح الاقاويل لاتفاق العلماء أن موسى عليه السلام هو الذي قتل عوج ابن
عنق وهذا القول هو اختيار الطبري ونقل عن السدي قال غضب موسى على قومه فدعا عليهم فقال رب اني
لا أملك الا نفسي وأخي الآية فقال الله عز وجل فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الارض فلما ضرب
عليهم التيه ندم موسى وأتاه قومه الذين كانوا يطيعونه فقالوا له ما صنعت بنا يا موسى فمكثوا في التيه فلما خرجوا
منه رفع المن والسلوى والبقول والتقى موسى وعوج فنزا موسى في السماء عشرة أذرع وكانت عصاه عشرة
أذرع وكان طوله عشرة فاصاب كعب عوج فقتله قال الطبري ولو كان قتل موسى اياه قبل مصيره في التيه لم
يجزع بنو اسرائيل لانه كان من أعظم الجبارين وروى عن نوف قال كان سرير عوج ثمانمائة ذراع وقال وان
أهل العلم باخبار الاولين مجمعون على أن بلعم بن باعوراء كان ممن أعان الجبارين بالدعاء على موسى لانه كان
يعلم الاسم الاعظم فدعا عليه موسى وسترد قصته في سورة الاعراف ان شاء الله تعالى ۞ وقوله تعالى (فلا تأس
على القوم الفاسقين) يعني لا تحزن عليهم لانهم أهل مخالفة وخروج عن الطاعة وقيل لما ندم موسى على ما دعا
على قومه أوحى الله اليه فلا تأس على القوم الفاسقين قال الزجاج وجائز أن يكون خطابا لمحمد صلى الله عليه
وسلم أي لا تحزن يا محمد على قوم لم يزل شأنهم المعاصي ومخالفة الرسل ۞ قوله عز وجل (واتل عليهم نبأ ابني آدم
بالحق) يعني اذكر لقومك واخبرهم خبر ابني آدم وهما هابيل وقابيل في قول جمهور المفسرين ونقل عن
الحسن والضحاك ان ابني آدم اللذين قربا القربان ما كانا ابني آدم لصلبه وانما كانا رجلين من بني اسرائيل
ويدل عليه قوله تعالى في آخر القصة من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس

الآية

(فلا تأس على القوم الفاسقين) فلا تحزن عليهم لانهم فاسقون وقيل لم يكن موسى وهرون معهم في التيه لانه كان عقابا وقد سأل موسى ربه انه يفرق بينهما وبينهم وقيل كانا معهم الا انه كان ذلك روحا لهما وسلاما لا عقوبة ومات هرون في التيه وموسى فيه بعده بسنة ومات النقباء في التيه الا كالب ويوشع ثم أمر الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم ان يقص على حاسديه ما جرى بسبب الحسد ليتركوه ويؤمنوا بقوله (واتل عليهم) على أهل الكتاب (نبأ ابني آدم) من صلبه هابيل وقابيل أو هما رجلان من بني اسرائيل (بالحق) نبأ متلبسا بالصدق موافقا لما في كتب الاولين أو تلاوة متلبسة بالصدق والصحة او واتل عليهم وأنت محق صادق

الآية والصحيح ماذهب اليه جمهور المفسرين لان انه تعالى قال في آخر الآية فبعث الله غرابا يبحث في الارض لان القاتل جهل مايصنع بالمقتول حتى تعلم من فعل الغراب بالحق أي أخبرهم خبرا ملتبسا بالحق والصدق لانه من عند الله وموافق لما في الكتب المتقدمة وهم يعلمون صحته ومقصود هذا الخبر هو تقبيح الحسد لان المشركين وأهل الكتاب كانوا يحسدون رسول الله صلى الله عليه وسلم (اذقربا قربانا) القربان اسم لما يتقرب به الى الله عزوجل من صدقة أوذبيحة أونسك أوغير ذلك مما يتقرب به

﴿ذكر قصة القربان وسببه وقصة قتل قابيل هابيل﴾

ذكر أهل العلم بالاخبار والسير أن حواء كانت تلد لآدم في كل بطن غلاما وجارية فكان جميع ماولدته أربعين ولدا في عشرين بطنا أولهم قابيل وتوأمته اقليما وآخرهم عبد المغيث وتوأمته أم المغيث ثم بارك الله في نسل آدم قال ابن عباس لم يمت آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفا واختلفوا في مولد قابيل وهابيل فقال بعضهم غشي آدم حواء بعد مهبطهما الى الارض بمائة سنة فولدت له قابيل وتوأمته اقليما في بطن ثم هابيل وتوأمته لبودا في بطن وقال محمد بن اسحق عن بعض أهل العلم بالكتاب الاول ان آدم كان يغشى حواء في الجنة قبل أن يصيب الخطيئة فحملت بقابيل وأخته فلم تجد عليهما وحما ولا وصبا ولا طلقا ولم تردما وقت الولادة فلما هبطا الى الارض تغشاها فحملت بهابيل وتوأمته فوجدت عليهما الوحم والوصب والطلق والدم وكان اذا كبر أولاده زوج غلام هذا البطن جارية بطن أخرى وكان الرجل منهم يتزوج أية أخواته شاء غير توأمته التي ولدت معه لانه لم يكن يومئذ نساء الا أخواتهم فكبر قابيل وأخوه هابيل وكان بينهما سنتان فلما بلغوا أمر الله آدم أن يزوج قابيل لبودا أخت هابيل ويزوج هابيل اقليما أخت قابيل وكانت اقليما أحسن من لبودا فذكر آدم ذلك لهما فرضي هابيل وسخط قابيل وقال هي أختي وأنا أحق بها ونحن من أولاد الجنة وهما من أولاد الارض فقال أبوه آدم انها لاتحل لك فأبى أن يقبل ذلك وقال ان الله لم يأمرك بهذا وانما هو من رأيك فقال لهما آدم قربا لله قربانا فأيكما تقبل قربانه فهو أحق بها وكانت القرابين اذا كانت مقبولة نزلت من السماء نار بيضاء فأكلتها وان لم تكن مقبولة لم تنزل النار بل تأكله الطير والسباع فخرجا من عند آدم ليقربا القربان وكان قابيل صاحب زرع فقرب صبرة من طعام رديء وأضمر في نفسه لاأبالي أيتقبل مني أم لا لايتزوج أختي أحد غيري وكان هابيل صاحب غنم فعمد الى أحسن كبش في غنمه فقربه وأضمر في نفسه رضا الله فوضعا قربانهما على جبل ثم دعا آدم فنزلت النار من السماء فأكلت قربان هابيل ولم تأكل قربان قابيل فذلك قوله تعالى (فتقبل من أحدهما) يعني هابيل (ولم يتقبل من الآخر) يعني قابيل فغضب قابيل اذ لم يتقبل قربانه فاضمر لاخيه الحسد الى أن أتى آدم مكة لزيارة البيت وغاب عنهم فأتى قابيل هابيل وهو في غنمه (قال لاقتلنك قال) قال هابيل ولم تقتلني قال قابيل لان الله تقبل قربانك ورد قرباني وتريد أن تنكح أختي الحسناء وأنكح أختك الدميمة فيتحدث الناس بانك خير مني ويفخر ولدك على ولدي فقال هابيل وماذنبي (انما يتقبل الله من المتقين) يعني ان حصول التقوى شرط في قبول الاعمال فلذلك كان أحد القربانين مقبولا دون الآخر ولان التقوى من أعمال القلوب وكان قد أضمر في قلبه الحسد لاخيه على تقبل قربانه وتوعده بالقتل فقال له انما أوتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى وانما يتقبل الله من المتقين فأجابه بجواب مختصر وقيل يحتمل أن يكون خطابا للنبي صلى الله عليه وسلم فكانه تعالى بين للنبي صلى الله عليه وسلم انه انما لم يتقبل قربانه لانه لم يكن متقيا وانما يتقبل الله من المتقين ثم قال تعالى اخبارا عن هابيل (لئن بسطت الى يدك) يعني لئن مددت الى يدك (لتقتلني ما أنا بباسط يدي اليك لاقتلك) يعني ماأنا بمنتصر لنفسي بل استسلم لامر الله وقيل معناه ما كنت بمبتدئك بالقتل وذلك ان الله كان قد حرم عليهم قتل نفس بغير نفس ظلما وقال مجاهد كان قد كتب عليهم اذا أراد الرجل أن يقتل رجلا

تقدير حذف المضاف (قربانا) مايتقرب به الى الله من نسيكة أوصدقة يقال قرب صدقة وتقرب بها لان تقرب مطاوع قرب والمعنى اذقرب كل واحد منهما قربانه دليله (فتقبل من أحدهما) قربانه وهو هابيل (ولم يتقبل من الآخر) قربانه وهو قابيل روي أنه أوحى الله تعالى الى آدم أن يزوج كل واحد منهما توأمة الآخر وكانت توأمة قابيل أجمل واسمها اقليما فحسده عليها أخوه وسخط فقال لهما آدم قربا قربانا فمن أيكما قبل تزوجها فقبل قربان هابيل بان نزلت نار فأكلته فازداد قابيل حسدا وسخطا وتوعده بالقتل وهو قوله (قال لاقتلنك) أي قال لهابيل (قال انما يتقبل الله من المتقين) وتقديره قال لم تقتلني قال لان الله قبل قربانك ولم يقبل قرباني فقال انما يتقبل الله من المتقين وأنت غير متق فانما أوتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى لامن قبلي وعن عامر بن عبد الله انه بكى حين حضرته الوفاة فقيل له مايبكيك وقد كنت وكنت قال اني أسمع الله يقول انما يتقبل الله من المتقين

(لئن بسطت) مددت (الى يدك لتقتلني ما أنا بباسط) بماد (يدي) مدني وأبو عمرو وحفص (اليك لاقتلك

انى أخاف الله رب العالمين) قيل كان أقوى من القاتل وأبطش منه ولكن تحرج عن قتل أخيه واستسلم له خوفا من الله تعالى لان الدفع
لم يكن مباحا فى ذلك الوقت وقيل بل كان ذلك واجبا فان فيه اهلاك نفسه ومشاركة للقاتل فى اثمه وانما معناه

تركه ولا يمتنع منه وقيل ان المقتول كان أقوى من القاتل وأبطش منه ولكنه تحرج عن قتل أخيه فاستسلم له خوفا من الله فذلك قوله (انى أخاف الله رب العالمين) والمعنى انى أخاف الله فى بسط يدى اليك ان بسطتها لقتلك أن يعاقبنى على ذلك ۞ قوله عز وجل اخبارا عن هابيل (انى أريد أن تبوء باثمى واثمك) يعنى ترجع باثم قتلى الى اثم معاصيك التى عملتها من قبل فان قلت كيف قال هابيل انى أريد وارادة القتل والمعصية من الغير لا تجوز قلت أجاب ابن الانبارى عن هذا بان قال ان قابيل لما قال لاخيه هابيل لاقتلنك وعظه هابيل وذكره الله واستعطفه وقال لئن بسطت الى يدك الآية فلم يرجع فلما رآه هابيل قد صمم على القتل وأخذ له الحجارة ليرميه بها قال له هابيل عند ذلك انى أريد أن تبوء باثمى واثمك أى اذا قتلتنى ولم يندفع قتلك اياى الا بقتلى اياك فحينئذ يلزمك اثم قتلى اذا قتلتنى فكان هذا عدلا من هابيل واليه أشار الزجاج فقال معناه ان قتلتنى فما أنا مريد ذلك فهذه الارادة منه بشرط أن يكون قاتلا له والانسان اذا تمنى أن يكون اثم دمه على قاتله لم يلم على ذلك وعلى هذا التأويل قال بعضهم معناه انى أريد أن تبوء بعقاب اثمى واثمك فحذف المضاف وما باء باثم باء بعقاب ذلك الاثم ذكره الواحدى وقال الزمخشرى ليس ذلك بحقيقة الارادة لكنه لما علم أنه يقتله لا محالة ووطن نفسه على الاستسلام للقتل طلبا للثواب فكأنه صار مريدا لقتله مجازا وان لم يكن مريدا حقيقة (فتكون من أصحاب النار) يعنى الملازمين لها (وذلك جزاء الظالمين) يعنى جهنم جزاء من قتل أخاه ظلما ۞ قوله تعالى (فطوعت له نفسه قتل أخيه) يعنى زينت له وسهلت عليه القتل وذلك ان الانسان اذا تصور ان قتل النفس من أكبر الكبائر صار ذلك صارفا له عن القتل فلا يقدم عليه فاذا سهلت عليه نفسه هذا الفعل فعله بغير كلفة فهذا هو المراد من قوله تعالى فطوعت له نفسه قتل أخيه (فقتله) قال ابن جريج لما قصد قابيل قتل هابيل لم يدر كيف يقتله فتمثل له ابليس وقد أخذ طيرا فوضع رأسه على حجر ثم رضخه بحجر آخر وقابيل ينظر فعلمه القتل فرضخ قابيل رأس هابيل بين حجرين وهو مستسلم صابر وقيل بل اغتاله وهو نائم فقتله واختلف فى موضع قتله فقال ابن عباس على جبل نود وقيل على عقبة حراء وقيل بالبصرة عند مسجدها الاعظم وكان عمر هابيل يوم قتل عشرين سنة ۞ وقوله تعالى (فاصبح من الخاسرين) قال ابن عباس خسر دنياه وآخرته أما دنياه فاسخط والديه وبقى بلا أخ وأما آخرته فاسخط ربه وصار الى النار (ق) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقتل نفس ظلما الا كان على ابن آدم الاول كفل من دمها لانه أول من سن القتل ۞ قوله تعالى (فبعث الله غرابا يبحث فى الارض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه) قال أصحاب الاخبار لما قتل قابيل هابيل تركه بالعراء ولم يدر ما يصنع به لانه أول ميت من بنى آدم على وجه الارض فقصدته السباع لتأكله فحمله قابيل على ظهره فى جراب أربعين يوما وقال ابن عباس سنة حتى أروح وأنتن فاراد الله أن يرى قابيل سنته فى موتى بنى آدم فى الدفن فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر فحفر له بمنقاره ورجليه حفيرة ثم ألقاه فيها وواراه بالتراب وقابيل ينظر فذلك قوله تعالى فبعث الله غرابا يبحث فى الارض يعنى يحفرها وينثر ترابها ليريه كيف يوارى سوأة أخيه يعنى ليرى الله أو يرى الغراب قابيل كيف يوارى ويستر جيفة أخيه فلما رأى ذلك قابيل من فعل الغراب (قال يا ويلتا) أى لزمه الويل وحضره وهى كلمة تحسر وتلهف وتستعمل عند وقوع الداهية العظيمة وذلك انه ما كان يعلم كيف يدفن المقتول فلما علم ذلك من فعل الغراب علم ان الغراب أكثر علما منه وعلم انه انما أقدم على قتل أخيه بسبب جهله وعدم معرفته فعند ذلك تلهف وتحسر على ما فعله فقال يا ويلتا وفيه اعتراف على نفسه باستحقاق العذاب (أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب) يعنى مثل هذا الغراب الذى وارى الغراب الآخر (فاوارى

ما أنا بباسط يدى اليك مبتدئا كقصدك ذلك منى وكان هابيل عازما على مدافعته اذا قصد قتله وانما قتله فتكا على غفلة منه انى أخاف حجازى وأبو عمرو (انى أريد) مدنى (ان تبوء) ان تحتمل أو ترجع (باثمى) باثم قتلى اذا قتلتنى (واثمك) الذى لاجله لم يتقبل قربانك وهو عقوق الاب والحسد والحقد وانما أراد ذلك لكفره برده قضية الله تعالى أو كان ظالما وجزاء الظالم جائز أن يراد (فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين فطوعت له نفسه قتل أخيه) فوسعته ويسرته من طاع له المرتع اذا اتسع (فقتله) عند عقبة حراء أو بالبصرة والمقتول ابن عشرين سنة (فاصبح من الخاسرين فبعث الله غرابا يبحث فى الارض ليريه) أى الله أو الغراب (كيف يوارى سوأة أخيه) عورة أخيه وما لا يجوز أن ينكشف من جسده روى أنه أول قتيل قتل على وجه الارض من بنى آدم ولما قتله تركه بالعراء لا يدرى ما يصنع به فخاف عليه السباع فحمله فى جراب على ظهره سنة حتى اروح وعكفت عليه السباع فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر فحفر له بمنقاره ورجليه ثم ألقاه فى الحفرة فحينئذ (قال يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فاوارى) عطف على أكون (سوأة

سوأة

سوأة أخى) يعنى فاستر جيفته وعورته عن الاعين (فاصبح من النادمين) يعنى على حمله على ظهره مدة سنة لا على قتله وقيل انه ندم على قتل أخيه لانه لم ينتفع بقتله وسخط عليه أبواه واخوته فندم لاجل ذلك لا لاجل انه جنى جناية واقترف ذنبا عظيما بقتله فلم يكن ندمه ندم توبة وخوف واشفاق من فعله فلاجل ذلك لم ينفعه الندم قال المطلب بن عبد الله بن حنطب لما قتل ابن آدم أخاه رجفت الارض بمن عليها سبعة أيام وشربت دم المقتول كما تشرب الماء فناداه الله تعالى أين أخوك هابيل فقال ما أدرى ما كنت عليه رقيبا فقال الله تعالى ان دم أخيك ليناديني من الارض فلم قتلت أخاك قال فاين دمه ان كنت قتلته فحرم الله على الارض من يومئذ أن تشرب دما بعده أبدا وروى عن ابن عباس قال لما قتل قابيل هابيل كان آدم بمكة فاشتاك الشجر وتغيرت الاطعمة وحمضت الفواكه واغبرت الارض فقال آدم قد حدث في الارض حدث فاتى الهند فوجد قابيل قد قتل هابيل وقيل لما رجع آدم سأل قابيل عن أخيه فقال ما كنت عليه وكيلا فقال بل قتلته ولذلك اسود جلدك وقيل ان آدم مكث بعد قتل هابيل مائة سنة لا يضحك وانه رثاه بشعر فقال

تغيرت البلاد ومن عليها ❊ فوجه الارض مغبر قبيح
تغير كل ذى طعم ولون ❊ وقل بشاشة الوجه المليح

وروى عن ابن عباس أنه قال من قال ان آدم قال شعرا فقد كذب وان محمدا صلى الله عليه وسلم والانبياء كلهم فى النهى سواء ولكن لما قتل هابيل رثاه آدم وهو سريانى فلما قال آدم مرثيته قال لشيث يا بنى أنت وصيى احفظ هذا الكلام ليتوارث فيرثى الناس عليه فلم يزل ينتقل حتى وصل الى يعرب بن قحطان وكان يتكلم بالعربية والسريانية وهو أول من خط العربية وكان يقول الشعر فنظر فى المرثية فرد المقدم الى المؤخر والمؤخر الى المقدم فوزنه شعرا وزاد فيه أبياتا منها

ومالى لا أجود بسكب دمع ❊ وهابيل تضمنه الضريح
أرى طول الحياة على غما ❊ فهل أنا من حياتى مستريح

قال الزمخشرى وروى انه رثاه بشعر وهو كذب بحت وما الشعر الا منحول ملحون وقد صح أن الانبياء عليهم السلام معصومون من الشعر قال الامام فخر الدين الرازى ولقد صدق صاحب الكشاف فيما قال فان ذلك الشعر فى غاية الركاكة لا يليق الا بالحمقى من المعلمين فكيف ينسب الى من جعل الله علمه حجة على الملائكة قال أصحاب الاخبار فلما مضى من عمر آدم مائة وثلاثون سنة وذلك بعد قتل هابيل بخمسين سنة ولدت له حواء شيثا وتفسيره هبة الله يعنى انه خلف من هابيل وعلمه الله تعالى ساعات الليل والنهار وعلمه عبادة الخلق فى كل ساعة وأنزل عليه خمسين صحيفة وصار وصى آدم وولى عهده وأما قابيل فقيل له اذهب طريدا شريدا فزعا مرعوبا لا تأمن من تراه فأخذ بيد أخته اقليميا وهرب بها الى عدن من أرض اليمن فاتاه ابليس وقال له انما أكلت النار قربان هابيل لانه كان يعبدها فانصب أنت نارا تكون لك ولعقبك فبنى بيت النار فهو أول من عبد النار وكان قابيل لا يمر به أحد الا رماه بالحجارة فاقبل ابن لقابيل أعمى ومعه ابنه فقال ابن الاعمى لابيه هذا أبوك قابيل فرماه بحجارة فقتله فقال ابن الاعمى لابيه قتلت أباك قابيل فرفع الاعمى يده ولطم ابنه فمات فقال الاعمى ويل لى قتلت أبى برميتى وقتلت ابنى بلطمتى فلما مات قابيل علقت احدى رجليه بفخذه وعلق بها فهو معلق بها الى يوم القيامة ووجهه الى الشمس حيث دارت وعليه حظيرة من نار فى الصيف وحظيرة من ثلج فى الشتاء فهو يعذب بذلك الى يوم القيامة قالوا واتخذ أولاد قابيل آلات اللهو من الطبول والزمور والعيدان والطنابير وانهمكوا فى اللهو وشرب الخمر وعبادة النار والفواحش حتى أغرقهم الله تعالى جميعا بالطوفان فى زمن نوح عليه السلام فلم يبق من ذرية قابيل أحد وأبقى الله ذرية شيث ونسله الى يوم القيامة ❁ قوله تعالى (من أجل ذلك) يعنى بسبب ذلك القتل الذى حصل وقيل الاجل فى اللغة الجناية يقال أجل

أخى فاصبح من النادمين) على قتله لما تعب فيه من حمله وتحيره فى أمره ولم يندم ندم التائبين أو كان الندم توبة لنا خاصة أو على حمله لا على قتله وروى انه لما قتله اسود جسده وكان أبيض فسأله آدم عن أخيه فقال ما كنت عليه وكيلا فقال بل قتلته ولذا اسود جسدك فالسود ان من ولده وما روى ان آدم رثاه بشعر فلا يصح لان الانبياء عليهم السلام معصومون من الشعر (من أجل ذلك) بسبب ذلك وبعلته وذلك اشارة الى القتل المذكور قيل هو متصل بالآية الاولى فيوقف على ذلك أى فاصبح من النادمين لاجل حمله ولاجل قتله وقيل هو مستأنف والوقف على النادمين ومن يتعلق بكتبنا لا بالنادمين

عليهم شرا أى جنى عليهم شرا (كتبنا) أى فرضنا وأوجبنا (على بنى اسرائيل) فان قلت من أجل ذلك معناه من أجل ما مر من قصة قابيل وهابيل كتبنا على بنى اسرائيل وهذا مشكل لانه لا مناسبة بين واقعة قابيل وهابيل وبين وجوب القصاص على بنى اسرائيل قلت قال بعضهم هو من تمام الكلام الذى قبله والمعنى فاصبح من النادمين من أجل ذلك أى من أجل انه قتل هابيل ولم يواره وبروى عن نافع انه كان يقف على قوله من أجل ذلك ويجعله تمام الكلام الاول فعلى هذا يزول الاشكال لكن جمهور المفسرين وأصحاب المعانى على ان قوله من أجل ذلك ابتداء كلام وليس يوقف عليه فعلى هذا قال بعضهم ان قوله من أجل ذلك ليس هو اشارة الى قصة قابيل وهابيل بل هو اشارة الى ما مر ذكره فى هذه القصة من أنواع المفاسد الحاصلة بسبب هذا القتل الحرام منها قوله فاصبح من الخاسرين وفيه اشارة الى أنه حصلت له خسارة فى الدين والدنيا والآخرة ومنها قوله فاصبح من النادمين وفيه اشارة الى أنه حظر فى أنواع الندم والحسرة والحزن مع انه لا دافع لذلك البتة فقوله من اجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أى من اجل ذلك الذى ذكرنا فى أثناء القصة من أنواع المفاسد المتولدة من القتل العمد المحرم شرعنا القصاص على القاتل فان قلت فعلى هذا تكون شريعة القصاص حكما ثابتا فى جميع الامم فما الفائدة بتخصيصه ببنى اسرائيل قلت ان وجوب القصاص وان كان عاما فى جميع الاديان والملل الا ان التشديد المذكور ههنا فى حق بنى اسرائيل غير ثابت فى جميع الاديان والملل لانه تعالى حكم فى هذه الآية بان من قتل نفسا فكانما قتل الناس جميعا ولا يشك أن المقصود منه المبالغة فى عقاب قاتل النفس عدوانا وان اليهود مع علمهم بهذه المبالغة العظيمة أقدموا على قتل الانبياء والرسل وذلك يدل على قساوة قلوبهم وبعدهم عن الله عز وجل ولما كان الغرض من ذكر هذه القصة تسلية النبى صلى الله عليه وسلم على ما أقدم عليه اليهود بالفتك بالنبى صلى الله عليه وسلم وباصحابه فتخصيص بنى اسرائيل فى هذه القصة بهذه المبالغة مناسب للكلام وتوكيد للمقصود والله أعلم بمراده ﴿قوله عز وجل (انه من قتل نفسا) يعنى قتل نفسا ظلما (بغير نفس) يعنى بغير قتل نفس لا على وجه الاقتصاص فيقاد من قاتل النفس على وجه العدوان المحرم (أو فساد فى الارض) هو عطف على بغير نفس يعنى وبغير فساد فى الارض فيستحق به القتل لان القتل على أسباب كثيرة منها القصاص وهو المراد من قوله قتل نفسا بغير نفس ومنها الشرك والكفر بعد الايمان ومنها قطع الطريق ونحو ذلك وهو المراد من قوله أو فساد فى الارض (فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا) قال مجاهد من قتل نفسا محرمة يصلى النار بقتلها كما يصلاها بقتل الناس جميعا ومن سلم من قتلها فكأنما سلم من قتل الناس جميعا وقال ابن عباس من قتل نبيا أو امام عدل فكأنما قتل الناس جميعا ومن شد عضد نبى أو امام عدل فكأنما أحيا الناس جميعا وقيل معناه أن من قتل نفسا محرمة يجب عليه من القصاص مثل الذى يجب عليه لو قتل الناس جميعا ومن أحياها يعنى من غرق أو حرق أو وقوع فى هلكة فكأنما أحيا الناس جميعا يعنى ان له من الثواب مثل ثواب من أحيا الناس جميعا وقيل معناه من استحل قتل مسلم بغير حقه فكأنما استحل قتل الناس جميعا لانهم لا يسلمون منه ومن تورع عن قتل مسلم فكأنما تورع عن قتل جميع الناس فقد سلموا منه قال أهل المعانى قوله ومن أحياها على المجاز لان المحيى هو الله تعالى فى الحقيقة فيكون المعنى ومن نجاها من الهلاك فكأنما نجى جميع الناس منه سئل الحسن عن هذه الآية أهى لنا كما كانت لبنى اسرائيل فقال اى والذى لا اله غيره ما كانت دماء بنى اسرائيل أكرم على الله من دمائنا وقوله تعالى (ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات) يعنى ولقد جاءت بنى اسرائيل رسلنا ببيان الاحكام والشرائع والدلالات الواضحات (ثم ان كثيرا منهم بعد ذلك) يعنى بعد مجىء الرسل وبعد ما كتبنا عليهم تحريم القتل (فى الارض لمسرفون) يعنى بالقتل لا ينتهون عنه وقيل معناه لمجاوزون حد الحق وانما قال تعالى وان كثيرا منهم لانه تعالى علم ان منهم من يؤمن بالله ورسوله وهم قليل من كثير

خصمهم بالذكر وان اشترك الكل فى ذلك لان التوراة أول كتاب فيه الاحكام (أنه من قتل نفسا) الضمير للشأن ومن شرطية (بغير نفس) بغير قتل نفس (أو فساد فى الارض) عطف على نفس أى بغير فساد فى الارض وهو الشرك أو قطع الطريق وكل فساد يوجب القتل (فكأنما قتل الناس جميعا) أى فى الذنب عن الحسن لان قاتل النفس جزاؤه جهنم وغضب الله عليه والعذاب العظيم ولو قتل الناس جميعا لم يزد على ذلك (ومن أحياها) ومن استنقذها من أسباب الهلكة من قتل أو غرق أو حرق أو هدم أو غير ذلك (فكأنما أحيا الناس جميعا) جعل قتل الواحد كقتل الجميع وكذلك الاحياء ترغيبا وترهيبا لان المتعرض لقتل النفس اذا تصور أن قتلها كقتل الناس جميعا عظم ذلك عليه فثبطه وكذا الذى أراد احياءها اذا تصور ان حكمه حكم احياء جميع الناس رغب فى احيائها (ولقد جاءتهم) أى بنى اسرائيل (رسلنا) رسلنا أبو عمرو (بالبينات) بالايات الواضحات (ثم ان كثيرا منهم بعد ذلك) بعد ما كتبنا عليهم أو بعد مجىء الرسل بالآيات (فى الارض لمسرفون) فى القتل

لا يبالون بعظمته (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) أي أولياء الله في الحديث يقول الله تعالى من أهان لي وليا فقد بارزني بالمحاربة

﴿ قوله عز وجل (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) قال ابن عباس نزلت في قوم من أهل الكتاب كان بينهم و بين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد وميثاق نقضوا العهد وأفسدوا في الارض فخير الله رسوله صلى الله عليه وسلم ان يشأ يقتل وان يشأ يصلب وان يشأ يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وهذا قول الضحاك أيضا وقال الكلبي نزلت في قوم هلال بن عويمر وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم وادع هلال بن عويمر وهو أبو بردة الاسلمي على أن لا يعينه ولا يعين عليه ومن مر بهلال الى النبي صلى الله عليه وسلم فهو آمن لا يهاج فمر قوم من بني كنانة يريدون الاسلام بقوم هلال ولم يكن هلال شاهدا فشدوا عليهم فقتلوهم وأخذوا أموالهم فنزل جبريل عليه السلام بالقضاء فيهم بهذه الآية وقال سعيد بن جبير نزلت هذه الآية في قوم من عرينة وعكل أتوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم و بايعوه على الاسلام وهم كذبة فاستوخموا المدينة فبعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ابل الصدقة فارتدوا وقتلوا الراعي واستاقوا الابل (ق) عن أنس بن مالك أن ناسا من عكل وعرينة قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم وتكلموا بالاسلام فقالوا يانبي الله انا كنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف واستوخموا المدينة فأمر لهم النبي صلى الله عليه وسلم بذود وراع وأمرهم أن يخرجوا فيه فيشربوا من ألبانها وأبوالها فانطلقوا حتى اذا كانوا ناحية الحرة كفروا بعد الاسلام وقتلوا راعي النبي صلى الله عليه وسلم واستاقوا الذود فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فبعث الطلب في أثرهم فأمر بهم فسمروا أعينهم وقطعوا أيديهم وأرجلهم وتركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم قال قتادة بلغنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بعد ذلك يحث على الصدقة و ينهى عن المثلة زاد في رواية قال قتادة فحدثني ابن سيرين ان ذلك قبل أن تنزل الحدود وفي رواية للبخاري ان ناسا من عرينة اجتووا المدينة فرخص لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتوا ابل الصدقة فيشربوا من ألبانها وأبوالها فقتلوا الراعي واستاقوا الذود فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتي بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمر أعينهم وتركهم في الحرة يعضون الحجارة زاد في رواية قال أبو قلابة وأي شئ أشد مما صنع هؤلاء ارتدوا عن الاسلام وقتلوا وسرقوا وفي رواية أبي داود ان قوما من عكل أو قال من عرينة قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتووا المدينة فأمر لهم النبي صلى الله عليه وسلم بلقاح وأمرهم ان يشربوا من أبوالها وألبانها فانطلقوا فلما صحوا قتلوا راعي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستاقوا النعم فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرهم من أول النهار فأرسل في آثارهم فما ارتفع النهار حتى جيء بهم فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم وألقوا في الحرة يستسقون فلا يسقون قال أبو قلابة فهؤلاء قوم سرقوا وقتلوا وكفروا بعد ايمانهم وحاربوا الله ورسوله زاد في رواية له وأنزل الله عز وجل انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله و يسعون في الارض فسادا أن يقتلوا الآية ﴿ شرح غريب هذا الحديث ﴾ وحكمه قوله انا كنا أهل ضرع يعني أهل ماشية و بادية نعيش باللبن ولسنا من أهل المدن والريف هو الارض التي فيها زرع وخصب والجمع أرياف قوله استوخموا المدينة يعني انها لم توافق مزاجهم وكذا قوله فاجتووا المدينة وهو معناه والذود من الابل ما بين الثلاثة الى العشرة والحرة هي أرض ذات حجارة سود وهي هنا اسم لارض بظاهر المدينة معروفة وقوله فسمر أعينهم معناه انه حمي مسامير الحديد وكحل بها أعينهم حتى ذهب بصرها وقوله و ينهى عن المثلة المثلة أن تقطع أطراف الحيوان وتشوه خلقته ومثلة القتيل أن يقطع أنفه وأذنيه ومذاكيره ونحو ذلك واختلف العلماء في حكم هذا الحديث فقيل هو منسوخ النهي النبي صلى الله عليه وسلم عن المثلة وقيل حكمه ثابت غير السمل والمثلة وقيل ان هذه الآية ناسخة لما فعله النبي صلى الله عليه وسلم بهم وقيل كان ذلك قبل أن تنزل الحدود فلما نزلت الحدود وجب الاخذ بها والعمل بمقتضاها وقيل نزلت هذه الآية معاتبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعليما من الله تعالى اياه عقوبتهم وما يجب عليهم فقال تعالى انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله واعلم ان المحاربة لله غير ممكنة وفي معناها

للعلماء قولان أحدهما ان المحاربين لله هم المخالفون أمره الخارجون عن طاعته لان كل من خالف أمر انسان فهو حرب له فيكون المعنى يخالفون الله ورسوله و يعصون أمرهما والقول الثانى معناه يحاربون أولياء الله وأولياء رسوله فهو من باب حذف المضاف (و يسعون فى الارض فسادا) يعنى بحمل السلاح والخروج على الناس وقتل النفس وأخذ الاموال وقطع الطريق واختلفوا فى حكم هؤلاء المحاربين الذين يستحقون هذا الحد فقال قوم هم الذين يقطعون الطريق و يحملون السلاح والمكابرون فى البلد وهذا قول الاوزاعى ومالك والليث بن سعد والشافعى وقال أبو حنيفة المكابرون فى الامصار ليس لهم حكم المحاربين فى استحقاق هذا الحد ثم ذكر الله تعالى عقوبة هؤلاء المحاربين وما يستحقونه فقال تعالى (ان يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض) وللعلماء فى لفظة أو المذكورة فى هذه الآية قولان أحدهما انها للتخيير وهو قول ابن عباس فى رواية عنه و به قال الحسن وسعيد بن المسيب والنخعى ومجاهد وهو ان الامام مخير فى أمر المحاربين فان شاء قتل وان شاء صلب وان شاء قطع وان شاء نفى من الارض كما هو ظاهر الآية والقول الثانى ان لفظة أو للبيان وليست للتخيير وهو الرواية الثانية عن ابن عباس وهو قول أكثر العلماء لان الاحكام تختلف فترتبت هذه العقوبات على ترتيب الجرائم وهذا كما روى عن ابن عباس فى قطاع الطريق قال اذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا واذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا واذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف واذا أخافوا السبيل ولم يقتلوا ولم يأخذوا مالا نفوا من الارض وهذا قول قتادة والاوزاعى والشافعى وأصحاب الرأى واختلفوا فى كيفية الصلب فقيل يصلب حيا ثم يطعن فى بطنه برمح حتى يموت وقال الشافعى يقتل أولا و يصلى عليه ثم يصلب وانما يجمع بين القتل والصلب اذا قتل وأخذ المال و يصلب على الطريق فى ممر الناس ليكون ذلك زاجرا لغيره عن الاقدام على مثل هذه المعصية واختلفوا فى تفسير النفى من الارض المذكور فى الآية فقيل ان الامام يطلبهم ففى كل بلد وجدوا نفوا عنه وهو قول سعيد بن جبير وعمر بن عبد العزيز وقيل يطلبون حتى تقام عليهم الحدود وهو قول ابن عباس والليث بن سعد والشافعى وقال أبو حنيفة وأهل الكوفة النفى هو الحبس لانه نفى من الارض لان المحبوس لا يرى أحدا من أحبابه ولا ينتفع بلذات الدنيا وطيباتها فهو منفى من الارض فى الحقيقة الا من تلك البقعة الضيقة التى هو فيها قال مكحول ان عمر بن الخطاب أول من حبس فى السجون يعنى من هذه الامة وقال احبسه حتى أعلم منه التوبة ولا أنفيه الى بلد آخر فيؤذيهم ثم قال تعالى (ذلك) يعنى الذى ذكر فى هذه الآية من الحدود (لهم) يعنى للمحاربين (خزى فى الدنيا) أى عذاب وهوان وفضيحة (ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) هذا الوعيد فى حق الكفار الذين نزلت الآية فيهم فاما من أجرى حكم الآية على المحاربين من المسلمين فينفى العذاب العظيم عنهم فى الآخرة لان المسلم اذا عوقب بجناية فى الدنيا كانت عقوبته كفارة له وان لم يعاقب فى الدنيا فهو فى خطر المشيئة ان شاء عذبه بجنايته ثم يدخله الجنة وان شاء عفا عنه وأدخله الجنة هذا مذهب أهل السنة ۞ وقوله تعالى (الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم) يعنى لكن الذين تابوا من شركهم وحربهم لله ورسوله ومن السعى فى الارض بالفساد من قبل أن تقدروا عليهم يعنى فلا سبيل لكم عليهم بشئ من العقوبات المذكورة فى الآية المتقدمة (فاعلموا ان الله غفور) يعنى لمن تاب من الشرك (رحيم) يعنى به اذا رجع عما يسخط الله عز وجل وهذا قول معظم اهل التفسير ان المراد بهذا الاستثناء المشرك المحارب اذا آمن وأصلح قبل القدرة عليه سقط عنه جميع الحدود التى ذكرها الله تعالى فى هذه الآية وانه لا يطالب بشئ مما أصاب من مال أودم قال أبو اسحق جعل الله التوبة للكفار تدرأ عنهم الحدود التى وجبت عليهم فى كفرهم ليكون ذلك داعيا لهم الى الدخول فى الاسلام فهذا حكم المشرك المحارب اذا آمن وأصلح وكذلك لو آمن بعد القدرة عليه لم يطالب بشئ بالاجماع وأما المسلم المحارب

(و يسعون فى الارض فسادا) مفسدين و يجوز أن يكون مفعولا له أى للفساد وخبر جزاء (ان يقتلوا) وما عطف عليه وأفاد التشديد الواحد بعد الواحد ومعناه ان يقتلوا من غير صلب ان أفردوا القتل (أو يصلبوا) مع القتل ان جمعوا بين القتل وأخذ المال (أو تقطع أيديهم وأرجلهم) ان أخذوا المال (من خلاف) حال من الايدى والارجل أى مختلفة (أو ينفوا من الارض) بالحبس اذا لم يزيدوا على الاخافة (ذلك) المذكور (لهم خزى فى الدنيا) ذل وفضيحة (ولهم فى الآخرة عذاب عظيم الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم) فتسقط عنهم هذه الحدود لا ما هو حق العباد (فاعلموا أن الله غفور رحيم) يغفر لهم بالتوبة و يرحمهم فلا يعذبهم

اذا تاب واستأمن قبل القدرة عليه فقال السدى هو كالكافر اذا آمن لم يطالب بشئ الا اذا أصيب عنده مال بعينه فانه يرده الى أهله وهذا مذهب مالك والاوزاعى غيران مالكا قال يؤخذ بالدم اذا طلب به وليه فاما ما أصاب من الدماء والاموال ولم يطلبها أولياؤها فلا يتبعه الامام بشئ من ذلك وهذا حكم على بن أبى طالب فى حارثة بن زيد وكان قد خرج محاربا فتاب قبل أن يقدر عليه فامنه على على نفسه وكذلك جاء رجل من مراد الى أبى موسى الاشعرى وهو على الكوفة فى خلافة عثمان بعد ماصلى المكتوبة فقال يا أبا موسى هذا مقام العائذ بك أنا فلان بن فلان المرادى كنت قد حاربت الله ورسوله وسعيت فى الارض بالفساد وانى قد تبت من قبل أن يقدر على فقام أبو موسى فقال هذا فلان المرادى وانه كان حارب الله ورسوله وسعى فى الارض فسادا وانه قد تاب من قبل أن يقدر عليه فلا يتعرض له أحد الا بخير وقال الشافعى يسقط عنه بتوبته قبل القدرة عليه حد الله ولا يسقط عنه بها ما كان من حقوق بنى آدم من قصاص أو مظلمة من مال أو غيره وأما اذا تاب بعد القدرة عليه فظاهر الآية ان التوبة لا تنفعه وتقام عليه الحدود وقال الشافعى ويحتمل أن يسقط كل حد لله عز وجل بالتوبة ۞ قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) أى خافوا الله بترك المنهيات (وابتغوا اليه الوسيلة) يعنى واطلبوا اليه القرب بطاعته والعمل بما يرضى وانما قلنا ذلك لان مجامع التكاليف محصورة فى نوعين لا ثالث لهما أحد النوعين ترك المنهيات واليه الاشارة بقوله اتقوا الله والثانى التقرب الى الله تعالى بالطاعات واليه الاشارة بقوله وابتغوا اليه الوسيلة والوسيلة فعيلة من وسل اليه اذا تقرب اليه ومنه قول الشاعر * ان الرجال لهم اليك وسيلة * أى قربة وقيل معنى الوسيلة المحبة أى تحببوا الى الله عز وجل (وجاهدوا فى سبيله) أى وجاهدوا العدو فى طاعته وابتغاء مرضاته (لعلكم تفلحون) يعنى لكى تسعدوا بالخلود فى جنته لان الفلاح اسم جامع للخلاص من كل مكروه والفوز بكل محبوب ۞ قوله عز وجل (ان الذين كفروا لو أن لهم ما فى الارض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم) يعنى ان الكافر لو ملك الدنيا ودنيا أخرى مثلها معها ثم فدى نفسه من العذاب يوم القيامة لم يقبل منه ذلك الفداء (ولهم عذاب أليم) المقصود من هذا أن العذاب لازم للكفار وأنه لا سبيل لهم الى الخلاص منه بوجه من الوجوه (ق) عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى لاهون أهل النار عذابا لو كانت لك الدنيا كلها أكنت مفتديا بها فيقول نعم فيقول قد أردت منك أيسر من هذا وأنت فى صلب آدم أن لا تشرك بى ولا أدخلك النار وأدخلك الجنة فابيت الا الشرك هذا لفظ مسلم وفى رواية البخارى قال يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له أرأيت لو كان لك ملء الارض ذهبا أكنت تفتدى به فيقول نعم فيقال له لقد كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك أن لا تشرك بى (يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها) فيه وجهان أحدهما انهم يقصدون الخروج من النار ويطلبونه ولكن لا يستطيعون ذلك قيل اذا حملهم لهب النار الى فوق طلبوا الخروج منها فلا يقدرون عليه والوجه الثانى أنهم يتمنون الخروج من النار بقلوبهم (ولهم عذاب مقيم) يعنى ولهم عذاب دائم ثابت لا يزول عنهم ولا ينتقل أبدا ۞ قوله عز وجل (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) قال ابن السائب نزلت فى طعمة بن أبيرق وقد مناقصته فى سورة النساء وانما سمى السارق سارقا لانه يأخذ الشئ الذى ليس له أخذه فى خفاء ومنه استرق السمع مستخفيا والسارق هنا مرفوع بالابتداء لانه لم يقصد واحد بعينه انما هو كقولك من سرق فاقطع يده والمراد باليد المذكورة هنا اليمين قاله الحسن والشعبى والسدى وكذلك هو فى قراءة عبد الله بن مسعود فاقطعوا أيمانهما وانما قال أيديهما ولم يقل يديهما لانه أراد يمينا من هذا ويمينا من هذه فجمع فانه ليس للانسان الا يمين واحدة وكل شئ موحد من أعضاء الانسان اذا ذكر مضافا الى اثنين فصاعدا جمع

أو غير ذلك فاستعيرت لما يتوسل به الى الله تعالى من فعل الطاعات وترك السيئات (وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون ان الذين كفروا لو أن لهم ما فى الارض جميعا) من صنوف الاموال (ومثله معه) وأنفقوها (ليفتدوا به) ليجعلوه فدية لانفسهم ولو مع ما فى حيزه خبر ان ووحد الراجع فى ليفتدوا به وقد ذكر شيآن لانه أجرى الضمير مجرى اسم الاشارة كانه قيل ليفتدوا بذلك (من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم) فلا سبيل لهم الى النجاة بوجه (يريدون) يطلبون أو يتمنون (أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم) دائم (والسارق والسارقة) ارتفعا بالابتداء والخبر محذوف تقديره وفيما يتلى عليكم السارق والسارقة أو الخبر (فاقطعوا أيديهما) أى يديهما والمراد اليمينان بدليل قراءة عبد الله بن مسعود ودخول الفاء لتضمنهما معنى الشرط لان المعنى والذى سرق والتى سرقت فاقطعوا أيديهما والاسم الموصول يضمن معنى الشرط وبدأ بالرجل لان السرقة من الجراءة وهى فى الرجال أكثر وأخر الزانى لان الزنا ينبعث من الشهوة وهى فى النساء أوفر وقطعت اليد لانها آلة السرقة ولم تقطع آلة الزنا تفاديا عن قطع النسل

والمراد باليد هنا الجارحة وحدها عند جمهور أهل اللغة من رؤس الاصابع الى الكوع فيجب قطعها فى حد السرقة من الكوع ﴿وقوله تعالى (جزاء بما كسبا) يعنى ذلك القطع جزاء على فعلهم (نكالا من الله) يعنى عقوبة من الله (والله عزيز) فى انتقامه ممن عصاه (حكيم) يعنى فيما أوجبه من قطع يد السارق

﴿فصل فى بيان حكم الآية﴾ وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اقتضت هذه وجوب القطع على كل سارق وقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السرقة (ق) عن عائشة ان قريشا أهمهم شأن المخزومية التى سرقت فقالوا من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا ومن يجترئ عليه الا أسامة بن زيد حب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمه أسامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتشفع فى حد من حدود الله ثم قام فاختطب ثم قال انما هلك الذين من قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ﴿وعن عائشة قالت أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بسارق فقطعه فقالوا ما كنا نراك تبلغ به هذا قال لو كانت فاطمة لقطعتها أخرجه النسائى (ق) عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده قال الاعمش يرون انه بيض الحديد وان من الحبال ما يساوى دراهم أخرجه البخارى ومسلم أما السارق الذى يجب عليه القطع فهو البالغ العاقل العالم بتحريم السرقة فلو كان حديث عهد بالاسلام ولا يعلم أن السرقة حرام فلا قطع عليه ﴿المسئلة الثانية﴾ اختلف العلماء فى قدر النصاب الذى يقطع به فذهب أكثر العلماء الى انه ربع دينار فان سرق ربع دينار أو متاعا قيمته ربع دينار يقطع وهذا قول أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وبه قال عمر بن عبد العزيز والاوزاعى والشافعى ويدل عليه ما روى عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تقطع يد السارق الا فى ربع دينار فصاعدا أخرجاه فى الصحيحين وذهب مالك وأحمد واسحق الى انه ثلاثة دراهم أو قيمتها لما روى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قطع سارقا فى مجن قيمته ثلاثة دراهم أخرجه الجماعة المجن الترس وروى عن أبى هريرة ان قدر النصاب الذى تقطع به اليد خمسة دراهم وبه قال ابن أبى ليلى لما روى عن أنس قال قطع أبو بكر فى مجن قيمته خمسة دراهم وفى رواية قطع رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجه النسائى وقال الرواية الاولى أصح وذهب قوم الى أنه لا قطع فى أقل من دينار أو عشرة دراهم يروى ذلك عن ابن مسعود واليه ذهب سفيان الثورى وأبو حنيفة لما روى عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من قطع فى مجن قيمته دينارا أو عشرة دراهم أخرجه أبو داود فاذا سرق نصابا من المال من حرز لا شبهة له فيه قطعت يده اليمنى من الكوع ولا يجب القطع بسرقة ما دون النصاب وقال ابن عباس وابن الزبير والحسن القدر غير معتبر فيجب القطع فى القليل والكثير وكذا الحرز غير معتبر أيضا عندهم واليه ذهب داود الظاهرى واحتجوا بعموم الآية فان قوله تعالى والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما يتناول القليل والكثير وسواء سرقه من حرز أو غير حرز ﴿المسئلة الثالثة﴾ الحرز هو ما جعل للسكنى وحفظ الاموال كالدور والمضارب والخيم التى يسكنها الناس ويحفظون أمتعتهم فيها فكل حرز وان لم يكن فيه حافظ ولا عنده وسواء سرق من ذلك وهو مفتوح الباب أو مغلق فاما ما كان فى غير بناء ولا خيمة فانه ليس بحرز الا أن يكون عنده من يحفظه أما نباش القبور فانه يقطع وهو قول مالك والشافعى وأحمد وقال ابن أبى ليلى والثورى والاوزاعى وأبو حنيفة لا قطع عليه فان سرق شيأ من غير حرز كثمر من بستان لا حارس له أو حيوان فى برية ولا راعى له أو متاع فى بيت منقطع عن البيوت فلا قطع عليه عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الثمر المعلق فقال من أصاب بفيه منه من ذى حاجة غير متخذ خبنة فلا شئ عليه أخرجه الترمذى وأبو داود والنسائى وزاد فيه ومن خرج بشئ منه فعليه غرامة مثله والعقوبة ومن سرق منه شيأ بعد ان يؤويه الجرين فبلغ ثمن المجن فعليه القطع ومن

(جزاء بما كسبا). مفعول له (نكالا من الله) أى عقوبة منه وهو بدل من جزاء (والله عزيز) غالب لا يعارض فى حكمه (حكيم) فيما حكم من قطع يد السارق والسارقة

سرق دون ذلك فعليه غرامة مثله والعقوبة قوله غير متخذ خبنة الخبنة بالخاء المعجمة وبعدها باء موحدة من تحت ثم نون وهو ما يحمله الانسان فى حضنه وقيل هو ما يأخذه فى خبنة ثوبه وهو ذيله وأسفله والجرين موضع التمر الذى يجفف فيه مثل البيدر للحنطة وروى مالك فى الموطأ عن أبى حسين المكى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا قطع فى ثمر معلق ولا فى حريسة الجبل فاذا آواه المراح أو الجرين فالقطع فيما بلغ ثمن المجن هكذا رواه مالك منقطعا وهو رواية من حديث عبد الله بن عمرو المتقدم فان هذه الرواية عن أبى حسين عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وجده هو عبد الله بن عمرو بن العاص قوله ولا فى حريسة الجبل من العلماء من يجعل الحريسة السرقة نفسها يقال حرس يحرس حرسا اذا سرق ومنهم من يجعلها المحروسة ومعنى الحديث انه ليس فيما يحرس فى الجبل اذا سرق قطع لانه ليس بحرز وقيل حريسة الجبل هى الشاة التى يدركها الليل قبل أن تصل مأواها والمراح بضم الميم هو الموضع الذى تأوى اليه الماشية بالليل عن جابر ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ليس على خائن ولا منتهب ولا مختلس قطع أخرجه الترمذى والنسائى ﴿المسئلة الرابعة﴾ اذا سرق مالاله فيه شبهة كالولد يسرق من مال والده أو الوالد يسرق من مال ابنه أو العبد يسرق من مال سيده أو الشريك يسرق من مال شريكه فلا قطع على أحد من هؤلاء فيه ﴿المسئلة الخامسة﴾ اذا سرق أول مرة قطعت يده اليمنى من الكوع واذا سرق ثانية قطعت رجله اليسرى من مفصل القدم واختلفوا فيما اذا سرق مرة ثالثة فذهب أكثرهم الى انه تقطع يده اليسرى فان سرق مرة رابعة قطعت رجله اليمنى ثم اذا سرق بعد ذلك يعزر ويحبس حتى تظهر توبته يروى هذا عن أبى بكر وهو قول قتادة وبه قال مالك والشافعى لما روى عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى السارق ان سرق فاقطعوا يده ثم ان سرق فاقطعوا رجله ذكره البغوى بغير سند وذهب قوم الى انه ان سرق بعد ما قطعت يده ورجله فلا قطع عليه بل يحبس وروى عن على انه قال انى أستحى أن لا أدع له يدا يستنجى بها ولا رجلا يمشى بها وهذا قول الشعبى والنخعى والاوزاعى وبه قال أحمد وأصحاب الرأى ۞ قوله تعالى (فمن تاب من بعد ظلمه) يعنى من بعد ما ظلم نفسه بالسرقة (وأصلح) يعنى وأصلح العمل فى المستقبل (فان الله يتوب عليه) يعنى فان الله يغفر له ويتجاوز عنه (ان الله غفور) يعنى لمن تاب (رحيم) به

﴿فصل﴾ وهذه التوبة مقبولة فيما بينه وبين الله فأما القطع فلا يسقط عنه بالتوبة عند أكثر العلماء لان الحد جزاء على الجناية ولا بد من التوبة بعد القطع وتوبته الندم على ما مضى والعزم على تركه فى المستقبل عن أبى أمية المخزومى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بلص قد اعترف اعترافا ولم يوجد معه متاع فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اخالك سرقت فقال بلى فاعاد عليه مرتين أو ثلاثا كل ذلك يعترف فأمر به فقطع ثم جىء به فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم استغفر الله وتب اليه فقال الرجل استغفر الله وأتوب اليه فقال النبى صلى الله عليه وسلم اللهم تب عليه أخرجه أبو داود والنسائى بمعناه واذا قطع السارق يجب عليه غرم ما سرق من المال عند أكثر أهل العلم وقال الثورى وأصحاب الرأى لا غرم عليه فلو كان المسروق باقيا عنده يجب عليه أن يرده الى صاحبه وتقطع يده لان القطع حق الله والغرم حق الآدمى فلا يمتنع أحدهما بالآخر والله أعلم ۞ قوله عز وجل (ألم تعلم أن الله له ملك السموات والارض) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به جميع الناس وقيل معناه ألم تعلم أيها الانسان فيكون الخطاب لكل فرد من الناس ان الله له ملك السموات والارض يعنى ان الله مدبر أمر ما فى السموات والارض ومصرفه وخالق من فيهما ومالكه لا يمتنع عليه شئ مما أراده فيهما لان ذلك كله فى ملكه واليه أمره (يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء) قال ابن عباس يعذب من يشاء على الصغيرة ويغفر لمن يشاء الكبيرة وقيل يعذب من يشاء على معصيته وكفره بالقتل والقطع وغير ذلك فى الدنيا ويغفر لمن يشاء بالتوبة عليه فينقذه من الهلكة والعذاب وانما قدم التعذيب

(فمن تاب) من السرقة (من بعد ظلمه) سرقته (وأصلح) برد المسروق (فان الله يتوب عليه) يقبل توبته (ان الله غفور رحيم) يغفر ذنبه ويرحمه (ألم تعلم) يا محمد أو يا مخاطب (ان الله له ملك السموات والارض يعذب من يشاء) من مات على الكفر (ويغفر لمن يشاء) لمن تاب عن الكفر

على المغفرة لانه فى مقابلة قطع السرقة على التوبة وهذه الآية فاضحة للقدرية والمعتزلة فى قولهم بوجوب الرحمة للمطيع والعذاب للعاصى لان الآية دالة على ان التعذيب والرحمة مفوضان الى المشيئة والوجوب ينافى ذلك وجواب آخر وهو أنه تعالى أخبر أن له ملك السموات والارض والمالك له أن يتصرف فى ملكه كيف يشاء وأراد لا اعتراض لاحد عليه فى ملكه ويؤكد ذلك قوله (والله على كل شئ قدير) يعنى أنه تعالى قادر على تعذيب من أراد تعذيبه من خلقه وغفران ذنوب من أراد اسعاده وانقاذه من الهلكة من خلقه لان الخلق كلهم عبيده وفى ملكه ۞ قوله تعالى (يا أيها الرسول) هذا خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وهو خطاب تشريف وتكريم وتعظيم وقد خاطبه الله عز وجل بيا أيها النبى فى مواضع من كتابه وبيا أيها الرسول فى موضعين هذا أحدهما والآخر قوله تعالى يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وقوله (لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر) يعنى لا نهتم بموالاتهم الكفار ولا تبال بهم فانى ناصرك عليهم وكافيك شرهم (من الذين قالوا آمنا بافواههم ولم تؤمن قلوبهم) يعنى المنافقين لانهم أظهروا الايمان بالقول وكتموا الكفر وهذه صفة المنافقين (ومن الذين هادوا) أى وطائفة من اليهود قال الزجاج وهذا يحتمل وجهين أحدهما أن الكلام تم عند قوله ومن الذين هادوا ثم ابتدأ الكلام بقوله (سماعون للكذب) ويكون تقدير الكلام لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من المنافقين ومن الذين هادوا ثم وصف الكل بكونهم سماعين للكذب والوجه الثانى ان الكلام تم عند قوله ولم تؤمن قلوبهم ثم ابتدأ فقال تعالى ومن الذين هادوا سماعون للكذب أى ومن الذين هادوا قوم سماعون للكذب والمعنى أنهم قائلون الكذب أى يسمعون الكذب من رؤسائهم ويقبلونه منهم والسمع يستعمل والمراد منه القبول كما تقول لا تسمع من فلان أى لا تقبل منه وقيل معناه سماعون لاجل أن يكذبوا عليك وذلك انهم كانوا يسمعون من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يخرجون من عنده ويقولون سمعنا منه كذا وكذا ولم يسمعوا ذلك منه بل كذبوا عليه ۞ وقوله تعالى (سماعون) يعنى بنى قريظة يعنى انهم جواسيس وعيون (لقوم آخرين) وهم أهل خيبر (لم يأتوك) يعنى أهل خيبر لم يأتوك ولم يحضروا عندك يا محمد ۞ (ذكر القصة فى ذلك) ۞ قال علماء التفسير ان رجلا وامرأة من أشراف يهود خيبر زنيا وكانا محصنين وكان حدهما الرجم عندهم فى حكم التوراة فكرهت اليهود رجمهما لشرفهما فقالوا ان هذا الرجل بيثرب يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم وليس فى كتابه الرجم ولكن الضرب فارسلوا الى اخوانكم بنى قريظة فانهم جيرانه وصلح معه فليسألوه عن ذلك فبعثوا رهطا منهم مستخفين وقالوا لهم اسألوا محمدا عن الزانيين اذا أحصنا ما حدهما فان أمركم بالحد فاقبلوا منه وان أمركم بالرجم فاحذروه ولا تقبلوا منه وأرسلوا معهم الزانيين فقدم الرهط حتى نزلوا على بنى قريظة والنضير وقالوا لهم انكم جيران هذا الرجل ومعه فى بلده وقد حدث فينا حدث وذلك ان فلانا وفلانة قد زنيا وقد أحصنا فنحب ان تسألوه عن قضائه فى ذلك فقالت لهم بنو قريظة والنضير اذا والله يأمركم بما تكرهون ثم انطلق قوم منهم فيهم كعب بن الاشرف وكعب بن أسد وسعيد بن عمرو ومالك بن الصيف وكنانة بن أبى الحقيق وغيرهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا يا محمد أخبرنا عن الزانى والزانية اذا أحصنا ما حدهما فى كتابك فقال هل ترضون بقضائى قالوا نعم فنزل جبريل عليه السلام بآية الرجم فاخبرهم بذلك فابوا أن يأخذوا به فقال جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم اجعل بينك وبينهم ابن صوريا ووصفه له فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم هل تعرفون شابا أمرد أبيض أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا قالوا نعم قال فاى رجل هو فيكم فقالوا هو أعلم يهودى بقى على وجه الارض بما أنزل الله على موسى عليه السلام فى التوراة قال فارسلوا اليه ففعلوا فلما جاءه قال له النبى صلى الله عليه وسلم أنت ابن صوريا قال نعم قال أنت أعلم يهودى قال كذلك يقولون فقال النبى صلى الله عليه وسلم لليهود تجعلونه بينى وبينكم قالوا نعم

(والله على كل شئ) من التعذيب والمغفرة و غيرهما (قدير) قادر وقدم التعذيب على المغفرة هنا لتقدم السرقة على التوبة (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر) أى لا تهتم ولا تبال بمسارعة المنافقين فى الكفر أى فى اظهاره بما يلوح منهم من آثار الكيد للاسلام ومن موالاة المشركين فانى ناصرك عليهم وكافيك شرهم يقال أسرع فيه الشيب أى وقع فيه سريعا فكذلك مسارعتهم فى الكفر وقوعهم فيه أسرع شئ اذا وجدوا فرصة لم يخطؤها (من الذين قالوا) تبيين لقوله الذين يسارعون فى الكفر (آمنا) مفعول قالوا (بافواههم) متعلق بقالوا أى قالوا بافواههم آمنا (ولم تؤمن قلوبهم) فى محل النصب على الحال (ومن الذين هادوا) معطوف على من الذين قالوا أى من المنافقين واليهود ويرتفع (سماعون للكذب) على أنه خبر مبتدأ مضمر أى هم سماعون والضمير للفريقين أو سماعون مبتدأ وخبره من الذين هادوا وعلى هذا يوقف على قلوبهم وعلى الاول على هادوا ومعنى سماعون للكذب يسمعون منك ليكذبوا عليك بان يمسخوا ماسمعوا منك بالزيادة والنقصان والتبديل والتغيير (سماعون لقوم آخرين لم يأتوك) أى سماعون منك لاجل قوم آخرين من اليهود وجهوهم عيونا ليبلغوهم ما سمعوا منك

فقال

فقال النبي صلى الله عليه وسلم لابن صور يا أنشدك بالله الذي لا إله الا هو الذي أنزل التوراة على موسى وأخرجكم من مصر وفلق لكم البحر وأنجاكم وأغرق آل فرعون و بالذي ظلل عليكم الغمام وأنزل عليكم المن والسلوى وأنزل عليكم كتابه فيه حلاله وحرامه هل تجدون في كتابكم الرجم على المحصن فقال ابن صوريا اللهم نعم والذي ذكرتني به لولا خشيت أن ينزل علينا العذاب ان كذبت أو غيرت ما اعترفت لك ولكن كيف هي في كتابكم يا محمد قال اذا شهد أربعة رهط عدول أنه أدخله فيها كما يدخل الميل في المكحلة وجب عليهما الرجم فقال ابن صوريا والذي أنزل التوراة على موسى هكذا أنزل الله في التوراة على موسى فقال له النبي صلى الله عليه وسلم فما كان أول ما ترخصتم به في أمر الله تعالى فقال ابن صوريا كنا اذا أخذ الشريف تركناه واذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد فكثر الزنا في أشرافنا حتى زنى ابن عم ملك لنا فلم نرجمه ثم زنى رجل آخر في امرأة من قومه فأراد الملك رجمه فقام قومه دونه وقالوا والله لا ترجمه حتى ترجم فلانا لابن عم الملك فقلنا تعالوا نجتمع فلنضع شيأ دون الرجم يكون على الشريف والوضيع فوضعنا الجلد والتحميم وهو أن يجلد أربعين جلدة بحبل مطلي بقار ثم تسود وجوههما ثم يحملان على حمارين ووجوههما من قبل دبر الحمار و يطاف بهما فجعلوا ذلك مكان الرجم فقالت اليهود لابن صوريا ما أسرع ما أخبرته وما كنت لما أثنينا عليك باهل ولكنك كنت غائبا فكرهنا أن نغتابك فقال لهم ابن صوريا انه قد ناشدني بالتوراة ولولا خشيت أن ينزل علينا العذاب ما أخبرته فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بهما فرجما عند باب المسجد وقال اللهم اني أول من أحيا أمرك اذا أماتوه فأنزل الله هذه الآية (ق) عن ابن عمر قال ان اليهود جاؤا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له ان امرأة منهم ورجلا زنيا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تجدون في التوراة في شأن الرجم فقالوا نفضحهم و يجلدون فقال عبد الله بن سلام كذبتم ان فيها الرجم فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها فقال له عبد الله ابن سلام ارفع يدك فرفع يده فاذا فيها آية الرجم فقالوا صدق يا محمد فيها آية الرجم فأمر بهما النبي صلى الله عليه وسلم فرجما قال فرأيت الرجل ينحني على المرأة يقيها الحجارة وفي رواية أخرى لهما قال أتى النبي صلى الله عليه وسلم برجل وامرأة من اليهود قد زنيا فقال لليهود ما تصنعون بهما قالوا نحمم وجوههما ونخزيهما قال فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين فجاؤا بها فقال لرجل ممن يرضون أعور اقرأ فقرأ حتى انتهى الى موضع منها فوضع يده عليها فقال ارفع يدك فرفع يده فاذا آية الرجم تلوح فقال يا محمد ان فيها الرجم ولكنا نتكاتمه بيننا فأمر بهما فرجما فرأيته يحني زاد في رواية أخرى فرجما قريبا من موضع الجنائز قرب المسجد (م) عن البراء بن عازب قال مر على رسول الله صلى الله عليه وسلم بيهودي محمم مجلود فدعاهم فقال هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم قالوا نعم فدعا رجلا من علمائهم فقال أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم قال لا ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك نجد الرجم ولكنه كثر في أشرافنا فكنا اذا أخذنا الشريف تركناه واذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد فقلنا تعالوا فلنجتمع على شئ نقيمه على الشريف والوضيع فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم اني أول من أحيا أمرك اذ أماتوه فأمر به فرجم فأنزل الله يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر الى قوله ان أوتيتم هذا فخذوه يقول ائتوا محمدا فان أمركم بالتحميم والجلد فخذوه وان أمركم بالرجم فاحذروه فأنزل الله تبارك وتعالى ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون في الكفار كلها التحميم هو تسويد الوجه بالحمم وهو الفحم وقوله ما تجدون في التوراة في شأن الرجم قال العلماء هذا السؤال من النبي صلى الله عليه وسلم ليس

لتقليدهم ولا لمعرفة الحكم منهم وانما هو لالزامهم بما يعتقدونه فى كتابهم ولعله صلى الله عليه وسلم كان قد أوحى اليه ان الرجم فى التوراة الموجودة فى أيديهم لم يغيروه كما غيروا أشياء منها أو أخبره بذلك من أسلم من أهل الكتاب وهو عبد الله بن سلام كما فى حديث ابن عمر المتفق عليه ولذلك لم يخف عليه صلى الله عليه وسلم حين كتموه ۞ قوله تعالى (يحرفون الكلم) يعنى يغيرون حدود الله التى أوجبها عليهم فى التوراة وذلك انهم بدلوا الرجم بالجلد والتحميم وقال الحسن انهم يغيرون ما يسمعون من النبى صلى الله عليه وسلم بالكذب عليه وقال ابن جرير الطبرى يحرفون حكم الكلم فحذف ذكر الحكم لمعرفة السامعين به (من بعد مواضعه) يعنى من بعد ان وضعه الله مواضعه وفرض فروضه وأحل حلاله وحرم حرامه فان قلت قد قال الله عز وجل هنا يحرفون الكلم من بعد مواضعه وقال فى موضع آخر يحرفون الكلم عن مواضعه فهل من فرق بينهما قلت نعم بينهما فرق وذلك انا اذا فسرنا يحرفون الكلم عن مواضعه بالتأويلات الباطلة فيكون معنى قوله يحرفون الكلم عن مواضعه انهم يذكرون التأويلات الفاسدة لتلك النصوص وليس فيه بيان انهم يحرفون تلك اللفظة من الكتاب وأما قوله يحرفون الكلم من بعد مواضعه ففيه دلالة على انهم جمعوا بين الامرين يعنى انهم كانوا يذكرون التأويلات الفاسدة وكانوا يحرفون اللفظة من الكتاب ففى قوله يحرفون الكلم عن مواضعه اشارة الى التأويل الباطل وفى قوله من بعد مواضعه اشارة الى اخراجه من الكتاب بالكلية ۞ وقوله تعالى (يقولون) يعنى اليهود (ان أوتيتم هذا فخذوه) يعنى ان أفتاكم محمد بالجلد والتحميم فاقبلوا منه (وان لم تؤتوه فاحذروا) يعنى وان لم يفتكم بذلك وأفتاكم بالرجم فاحذروا ان تقبلوه (ومن يرد الله فتنته) يعنى كفره وضلالته (فلن تملك له من الله شيأ) يعنى فلن تقدر على دفع أمر الله فيه (أولئك الذين لم يرد الله ان يطهر قلوبهم) قال ابن عباس معناه ان يخلص نياتهم وقيل معناه لم يرد الله ان يهديهم وفى هذه الآية دلالة على ان الله تعالى لم يرد اسلام الكافر وانه لم يطهر قلبه من الشك والشرك ولو فعل ذلك لآمن وهذه الآية من أشد الآيات على القدرية (لهم فى الدنيا خزى) يعنى للمنافقين واليهود أما خزى المنافقين فبالفضيحة وهتك أستارهم باظهار نفاقهم وكفرهم وأما خزى اليهود فبأخذ الجزية والقتل والسبى والاجلاء من أرض الحجاز الى غيرها (ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) يعنى الخلود فى النار للمنافقين واليهود ۞ قوله عز وجل (سماعون للكذب أكالون للسحت) نزلت فى حكام اليهود مثل كعب بن الاشرف ونظرائه كانوا يرتشون ويقضون لمن رشاهم قال الحسن كان الحاكم منهم اذا أتاه أحدهم برشوة جعلها فى كمه ثم يريها اياه ويتكلم بحاجته فيسمع منه ولا ينظر الى خصمه فيسمع الكذب ويأكل الرشوة وهى السحت وأصل السحت الاستئصال يقال سحته اذا استأصله وسميت الرشوة فى الحكم سحتا لانها تستأصل دين المرتشى والسحت كله حرام تحمل عليه شدة الشره وهو يرجع الى الحرام الخسيس الذى لا تكون له بركة ولا لآخذه مروءة ويكون فى حصوله عار بحيث يخفيه لا محالة ومعلوم ان حال الرشوة كذلك فلذلك حرمت الرشوة على الحاكم * عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الراشى والمرتشى فى الحكم أخرجه الترمذى وأخرجه أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال الحسن انما ذلك فى الحاكم اذا رشوته ليحق لك باطلا أو يبطل عنك حقا وقال ابن مسعود الرشوة فى كل شئ فمن شفع شفاعة ليرد بها حقا أو يدفع بها ظلما فاهدى بها اليه فقبل فهو سحت فقيل له يا أبا عبد الرحمن ما كنا نرى ذلك الا الاخذ على الحكم فقال الاخذ على الحكم كفر قال تعالى ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون ۞ قوله عز وجل

يحرفون الكلم من بعد مواضعه) أى يزيلونه ويميلونه عن مواضعه التى وضعه الله فيها فيهملونه بغير مواضع بعد أن كان ذا موضع يحرفون صفة لقوم كقوله لم يأتوك أو خبر لمبتدا محذوف أى هم يحرفون والضمير مردود على لفظ الكلم (يقولون ان أوتيتم هذا) المحرف المزال عن مواضعه ويقولون مثل يحرفون وجاز أن يكون حالا من الضمير فى يحرفون (فخذوه) واعلموا انه الحق واعملوا به (وان لم تؤتوه) وافتاكم محمد بخلافه (فاحذروا) فاياكم واياه فهو الباطل روى ان شريفا زنى بشريفة بخيبر وهما محصنان وحدهما الرجم فى التوراة فكرهوا رجمهما لشرفهما فبعثوا رهطا منهم ليسالوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقالوا ان أمركم بالجلد والتحميم فاقبلوا وان أمركم بالرجم فلا تقبلوا فامرهم بالرجم فابوا ان ياخذوا به (ومن يرد الله فتنته) ضلالته وهو حجة على من يقول يريد الله الايمان ولا يريد الكفر (فلن تملك له من الله شيا) قطع رجاء محمد صلى الله عليه وسلم عن ايمان هؤلاء (أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم) عن الكفر لعلمه منهم اختيار الكفر وهو حجة لنا عليهم أيضا (لهم فى الدنيا خزى) للمنافقين فضيحة ولليهود جزية (ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) أى التخليد فى النار (سماعون للكذب) كرر لتأكيد أى هم سماعون ومثله (أكالون للسحت) وهو كل ما لا يحل كسبه وهو من سحته اذا استأصله لانه مسحوت البركة وفى الحديث هو الرشوة فى الحكم وكانوا يأخذون الرشا على الاحكام وتحليل الحرام وبالتثقيل مكى وبصرى وعلى فان

(فان جاؤك) يعني اليهود (فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وان تعرض عنهم فلن يضروك شيأ) خير الله رسوله صلى الله عليه وسلم في الحكم بينهم. فان شاء حكم وان شاء ترك قال الحسن ومجاهد والسدي نزلت في اليهوديين اللذين زنيا وقال قتادة نزلت في رجلين من قريظة والنضير قتل أحدهما الآخر قال ابن زيد كان حيي بن أخطب قد جعل للنضيري ديتين وللقرظي دية واحدة لانه كان من بني النضير فقالت قريظة لا نرضى بحكم حيي ونتحاكم الى محمد فأنزل الله هذه الآية يخير نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم في الحكم بينهم

﴿فصل﴾ اختلف علماء التفسير في حكم هذه الآية على قولين أحدهما أنها منسوخة وذلك ان أهل الكتاب كانوا اذا ترافعوا الى النبي صلى الله عليه وسلم كان مخيرا فان شاء حكم بينهم وان شاء أعرض عنهم ثم نسخ ذلك بقوله وان احكم بينهم بما أنزل الله فلزمه الحكم بينهم وزال التخيير وهذا القول مروي عن ابن عباس وعطاء ومجاهد وعكرمة والسدي والقول الثاني انها محكمة وحكام المسلمين بالخيار اذا ترافعوا اليهم فان شاؤا حكموا بينهم وان شاؤا أعرضوا عنهم وهذا القول مروي عن الحسن والشعبي والنخعي والزهري وبه قال أحمد لانه لا منافاة بين الآيتين أما قوله فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ففيه التخيير بين الحكم والاعراض وأما قوله وأن احكم بينهم بما أنزل الله ففيه كيفية الحكم اذا حكم بينهم قال الامام فخر الدين الرازي ومذهب الشافعي انه يجب على حاكم المسلمين أن يحكم بين أهل الكتاب اذا تحاكموا اليه لان في امضاء حكم الاسلام صغارا لهم فاما المعاهدون الذين لهم مع المسلمين عهد الى مدة فليس بواجب على الحاكم أن يحكم بينهم بل يتخير في ذلك وهذا التخيير المذكور في هذه الآية مخصوص بالمعاهدين وأما اذا تحاكم مسلم وذمي وجب على الحاكم الحكم بينهم لا يختلف القول فيه لانه لا يجوز للمسلم الانقياد لحكم أهل الذمة والله أعلم ﴿ وقوله تعالى (وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط) يعني بالعدل والاحتياط (ان الله يحب المقسطين) يعني العادلين فيما ولوا وحكموا فيه (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا هذا من أحاديث الصفات فمن العلماء من قال فيه وفي أمثاله نؤمن بها ولا نتكلم في تأويلها ولا نعرف معناها لكن نعتقد ان ظاهرها غير مراد وان لها معنى يليق بالله هذا مذهب جماهير السلف وطوائف من المتكلمين ومنهم من قال انها تؤول بتأويل يليق بها وهذا قول أكثر المتكلمين فعلى هذا قال القاضي عياض المراد بكونهم عن اليمين الحالة الحسنة والمنزلة الرفيعة والعرب تنسب الفعل المحمود والاحسان الى اليمين وضده الى اليسار قالوا واليمين مأخوذة من اليمن وقوله وكلتا يديه يمين منبه على انه ليس المراد باليمين الجارحة تعالى الله عن ذلك فانها مستحيلة في حقه تعالى وقوله وما ولوا بفتح الواو وضم اللام المخففة هكذا ذكره الشيخ محيي الدين في شرح مسلم قال ومعناه وما كانت لهم عليه ولاية وهذا الفضل لمن عدل فيما تقلده من الاحكام والله أعلم ﴿ قوله تعالى (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة) هذا تعجيب من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم في تحكيم اليهود اياه مع علمهم بما في التوراة وتركهم قبول ذلك الحكم مع اعتقادهم صحته وعدولهم الى حكم من يجحدون نبوته طلبا للرخصة لاجرم أن الله تعالى أظهر جهلهم وعنادهم لانهم حكموا النبي صلى الله عليه وسلم في أمر الزانيين ثم أعرضوا عن حكمه وفي الآية تقريع لليهود والمعنى وكيف يجعلونك حكما بينهم ويرضون بحكمك وعندهم التوراة (فيها حكم الله) يعني الرجم الذي تحاكموا اليك من أجله (ثم يتولون من بعد ذلك) يعني ثم يعرضون عن حكمك الموافق لما في كتابهم (وما أولئك) يعني اليهود (بالمؤمنين) يعني بكتابهم كما يزعمون وقيل معناه وما أولئك بالمصدقين لك ﴿ قوله عز وجل (انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور) سبب نزول هذه الآية استفتاء اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر الزانيين وقد سبق بيانه والهدى هو البيان لان التوراة مبينة صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ومبينة ما تحاكموا فيه

(فان جاؤك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم) قيل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مخيرا اذا تحاكم اليه أهل الكتاب بين أن يحكم بينهم وبين ان لا يحكم بينهم وقيل نسخ التخيير بقوله وأن احكم بينهم بما أنزل الله (وان تعرض عنهم فلن يضروك شيأ) فلن يقدروا على الاضرار بك لان الله تعالى يعصمك من الناس (وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط) بالعدل (ان الله يحب المقسطين) العادلين (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله) تعجيب من تحكيمهم لمن لا يؤمنون به وبكتابه مع ان الحكم منصوص في كتابهم الذي يدعون الايمان به فيها حكم الله حال من التوراة وهي مبتدأ وخبره عندهم (ثم يتولون من بعد ذلك) عطف على يحكمونك أي ثم يعرضون من بعد تحكيمك عن حكمك الموافق لما في كتابهم لا يرضون به (وما أولئك بالمؤمنين) بك أو بكتابهم كما يدعون (انا أنزلنا التوراة فيها هدى) يهدي للحق (ونور) يبين ما استبهم من الاحكام

(يحكم بها النبيون الذين أسلموا) انقادوا لحكم الله في التوراة وهو صفة أجريت للنبيين على سبيل المدح وأريد باجرائها التعريض باليهود لانهم بعداء من ملة الاسلام التي هي دين الانبياء كلهم (للذين هادوا) تابوا من الكفر واللام يتعلق بيحكم (والربانيون والاحبار) معطوفان على النبيون أي الزهاد والعلماء (بما استحفظوا) استودعوا قيل ويجوز أن يكون بدلا من بها في يحكم بها (من كتاب الله) من للتبيين والضمير في استحفظوا للانبياء والربانيين والاحبار جميعا ويكون الاستحفاظ من الله أي كلفهم الله حفظه أو للربانيين والاحبار ويكون الاستحفاظ من الانبياء (وكانوا عليه شهداء) رقباء لئلا يبدل (فلا تخشوا الناس) نهى للحكام عن خشيتهم غير الله في حكوماتهم وامضائها على خلاف ما أمروا به من العدل خشية سلطان ظالم أو خيفة أذية أحد (واخشون) في مخالفة أمري وبالياء فيهما سهل وافقه أبو عمرو في الوصل (ولا تشتروا بآياتي) ولا تستبدلوا بآيات الله وأحكامه (ثمنا قليلا) وهو الرشوة وابتغاء الجاه ورضا الناس (ومن لم يحكم بما أنزل الله) مستهينا به (فأولئك هم الكافرون) قال ابن عباس رضي الله عنهما من لم يحكم جاحدا فهو كافر وان لم يكن جاحدا فهو فاسق ظالم وقال ابن مسعود رضي الله عنه هو

والنور هو الكاشف للشبهات الموضح للمشكلات والتوراة كذلك وقيل الفرق بين الهدى والنور ان الهدى محمول على بيان الاحكام والشرائع والنور محمول على بيان أحكام التوحيد والنبوات والمعاد (يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا) أراد بالنبيين الذين بعثوا بعد موسى عليه السلام وذلك ان الله بعث في بني اسرائيل الوفا من الانبياء وليس معهم كتاب انما بعثوا باقامة التوراة وأحكامها ومعنى أسلموا أي انقادوا لامر الله تعالى والعمل بكتابه وهذا على سبيل المدح لهم وفيه تعريض باليهود لانهم بعدوا عن الاسلام الذي هو دين الانبياء عليهم السلام. وقال الحسن والزهري وعكرمة وقتادة والسدي يحتمل أن يكون المراد بالنبيين الذين أسلموا هو محمد صلى الله عليه وسلم وانما ذكره بلفظ الجمع تعظيما وتشريفا له صلى الله عليه وسلم لان النبي صلى الله عليه وسلم حكم على اليهود بالرجم وكان هذا الحكم في التوراة قال ابن الانباري هذا رد على اليهود والنصارى لان الانبياء عليهم السلام ما كانوا موصوفين باليهودية والنصرانية بل كانوا مسلمين لله تعالى منقادين لامره ونهيه للذين هادوا يعني لليهود يعني يحكم بالتوراة لهم وفيما بينهم ويحملهم على أحكامها كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من حملهم على حكم الرجم كما هو في التوراة ولم يوافقهم على ما أرادوه من الجلد وقال الزجاج وجائز أن يكون المعنى على التقديم والتأخير على معنى انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور للذين هادوا يحكم بها النبيون الذين أسلموا (والربانيون والاحبار) أما الربانيون فتقدم تفسيره في سورة آل عمران وأما الاحبار فقال ابن عباس هم الفقهاء وقيل هم العلماء الاحبار واحده حبر بفتح الحاء وكسرها لغتان وقال الفراء انما هو حبر بكسر الحاء وانما سمي به لمكان الحبر الذي يكتب به وذلك لانه صاحب كتاب وقال أبو عبيد انما هو حبر بفتح الحاء والحبر العالم لما يبقى من أثر علومه في قلوب الناس وأفعاله الحسنة التي يقتدى بها وجمعه أحبار ومنه كعب الاحبار وقيل الحبر الاثر المستحسن ومنه الحديث يخرج من النار رجل قد ذهب حبره وسبره أي جماله وبهاؤه وانما سمي العالم حبرا لما عليه من أثر جمال العلم وهل فرق بين الربانيين والاحبار أم لا فيه خلاف فقيل لا فرق والربانيون والاحبار بمعنى واحد وهم العلماء والفقهاء وقيل الربانيون أعلى درجة من الاحبار لان الله تعالى قدمهم في الذكر على الاحبار وقيل الربانيون هم الولاة والحكام والاحبار هم العلماء وقيل الربانيون علماء النصارى والاحبار علماء اليهود ومعنى الآية يحكم باحكام التوراة النبيون وكذلك يحكم بها الربانيون والاحبار ۞ وقوله تعالى (بما استحفظوا من كتاب الله) يعني بما استودعوا من كتاب الله وقيل هو أن يحفظوا كتاب الله فلا ينسوه وقيل هو أن يحفظوه فلا يضيعوا أحكامه وشرائعه وقد أخذ الله على العلماء حفظ كتابه من هذين الوجهين معا وذلك بان يحفظوا كتاب الله في صدورهم ويدرسوه بألسنتهم لئلا ينسوه وان لا يضيعوا أحكامه ولا يهملوا شرائعه فاذا فعلوا ذلك كانوا قائمين بحفظه (وكانوا عليه شهداء) يعني ان هؤلاء النبيين والربانيين والاحبار كانوا شهداء على كتاب الله تعالى ويعلمون أنه حق وصدق وأنه من عند الله (فلا تخشوا الناس واخشون) هذا خطاب لحكام اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني لا تخافوا أحدا من الناس في اظهار صفة محمد صلى الله عليه وسلم والعمل بالرجم واخشون يعني في كتمان ذلك (ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا) يعني ولا تستبدلوا بآيات الله وأحكامه ثمنا قليلا يعني الرشوة في الاحكام والجاه عند الناس ورضاهم والمعنى كما نهيتكم عن تغيير الاحكام لاجل خوف الناس كذلك أنهاكم عن التغيير والتبديل لاجل الطمع في المال والجاه وأخذ الرشوة فان كل متاع الدنيا قليل (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) يعني أن اليهود لما أنكروا حكم الله تعالى المنصوص عليه في التوراة وقالوا انه غير واجب عليهم فهم كافرون على الاطلاق بموسى والتوراة وبمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن واختلف العلماء فيمن نزلت هذه الآيات الثلاث وهي قوله ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم

الفاسقون فقال جماعة من المفسرين ان الآيات الثلاث نزلت في الكفار ومن غير حكم الله من اليهود لان المسلم وان ارتكب كبيرة لا يقال انه كافر وهذا قول ابن عباس وقتادة والضحاك ويدل على صحة هذا القول ماروى عن البراء بن عازب قال أنزل الله تبارك وتعالى ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون في الكفار كلها أخرجه مسلم وعن ابن عباس قال ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون الى قوله الفاسقون هذه الآيات الثلاث في اليهود خاصة قريظة والنضير أخرجه أبو داود وقال مجاهد في هذه الآيات الثلاث من ترك الحكم بما أنزل الله رداً لكتاب الله فهو كافر ظالم فاسق وقال عكرمة ومن لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به فقد كفر ومن أقر به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق وهذا قول ابن عباس أيضاً واختيار الزجاج لانه قال من زعم أن حكماً من أحكام الله تعالى التي أتت بها الانبياء باطل فهو كافر وقال طاوس قلت لابن عباس أكافر من لم يحكم بما أنزل الله فقال به كفر وليس بكفر ينقل عن الملة كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ونحو هذا روى عن عطاء قال هو كفر دون الكفر وقال ابن مسعود والحسن والنخعي هذه الآيات الثلاث عامة في اليهود وفي هذه الامة فكل من ارتشى وبدل الحكم فحكم بغير حكم الله فقد كفر وظلم وفسق واليه ذهب السدى لانه ظاهر الخطاب وقيل هذا فيمن علم نص حكم الله ثم رده عياناً عمداً وحكم بغيره وأما من خفي عليه النص أو أخطأ في التأويل فلا يدخل في هذا الوعيد والله أعلم بمراده ﴿قوله تعالى (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس) يعني وفرضنا على بني اسرائيل في التوراة ان نفس القاتل بنفس المقتول وفاقاً فيقتل به وذلك ان الله تعالى حكم في التوراة ان على الزاني المحصن الرجم وأخبر أن اليهود بدلوه وغيروه وأخبر أيضاً ان في التوراة ان النفس بالنفس وان هؤلاء اليهود غيروا هذا الحكم وبدلوه ففضلوا بني النضير على بني قريظة فكان بنو النضير اذا قتلوا من قريظة أدوا اليهم نصف الدية واذا قتل بنو قريظة من بني النضير أدوا اليهم الدية كاملة فغيروا حكم الله الذي أنزله في التوراة قال ابن عباس أخبر الله بحكمه في التوراة وهو أن النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالانف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص قال فما لهم يخالفون فيقتلون النفسين بالنفس ويفقؤن العينين بالعين ومعنى الآية ان قاتل النفس يقتل بها اذا تكافأ الدمان ومذهب الشافعي أنه لا يقتل مسلم بكافر لما صح من حديث علي بن أبي طالب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يقتل مسلم بكافر الحديث أخرجاه في الصحيحين ﴿وقوله تعالى (والعين بالعين) يعني تفقأ بها (والانف بالانف) يعني يجدع به (والأذن بالأذن) يعني تقطع بها (والسن بالسن) يعني تقلع بها وأما سائر الاطراف والاعضاء فيجرى فيها القصاص كذلك وقوله تعالى (والجروح قصاص) يعني فيما يمكن أن يقتص منه وهذا تعميم بعد التخصيص لان الله تعالى ذكر النفس والعين والانف والأذن فخص هذه الاربعة بالذكر ثم قال تعالى والجروح قصاص على سبيل العموم فيما يمكن أن يقتص منه كاليد والرجل والذكر والانثيين وغيرها وأما ما لا يمكن القصاص فيه كرض في لحم أو كسر في عظم أو جراحة في بطن يخاف منها التلف فلا قصاص في ذلك وفيه الارش والحكومة واعلم أن هذه الآية دالة على أن هذا الحكم كان شرعاً في التوراة فمن قال شرع من قبلنا يلزمنا الا ما نسخ منه بالتفصيل قال هذه الآية حجة في شرعنا ومن أنكره قال انها ليست بحجة علينا وأصل هذه المسئلة ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمته بعد البعثة هل هم متعبدون بشرع من تقدم من الانبياء عليهم السلام فنقل عن أصحاب أبي حنيفة وبعض أصحاب الشافعي وعن أحمد في احدى الروايتين عنه انه كان متعبداً بما صح من شرائع من قبله بطريق الوحي اليه لا من جهة كتبهم المبدلة ونقل أربابها واختار ابن الحاجب من المتأخرين هذا المذهب وهو أنه صلى الله عليه وسلم كان بعد البعثة متعبداً بشرع من قبله فيما لم ينسخ من الاحكام الباقية قبل شريعته لكنه لم يعتبر فيه قيد الوحي وهو الحق والا لم يبق للنزاع معنى

عام في اليهود وغيرهم (وكتبنا عليهم فيها) وفرضنا على اليهود في التوراة (أن النفس) مأخوذة (بالنفس) مقتولة بها اذا قتلتها بغير حق (والعين) مفقوأة (بالعين والانف) مجدوع (بالانف والأذن) مقطوعة (بالأذن والسن) مقلوعة (بالسن والجروح قصاص) أي ذات قصاص وهو المقاصة ومعناه ما يمكن فيه القصاص والا فحكومة عدل وعن ابن عباس رضي الله عنهما كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة فنزلت وقوله أن النفس بالنفس يدل على أن المسلم يقتل بالذمي والرجل بالمرأة والحر بالعبد نصب نافع وعاصم وحمزة رفع المعطوفات كلها للعطف على ما عملت فيه
٧ أن للعطف على محل أن النفس لان المعنى وكتبنا عليهم النفس بالنفس اجراء لكتبنا مجرى قلنا ونصب الباقون الكل ورفعوا الجروح والأذن بسكون الذال حيث كان نافع والباقون بضمها وهما لغتان كالسحت والسحت

(فمن تصدق) من أصحاب الحق (به) بالقصاص وعفا عنه (فهو كفارة له) فالمتصدق به كفارة للمتصدق باحسانه قال عليه السلام من تصدق بدم فما دونه كان كفارة له من يوم ولدته أمه (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) بالامتناع عن ذلك (وقفينا) معنى قفيت الشئ بالشئ جعلته في أثره كأنه جعل في قفاه قال قفاه يقفوه اذا تبعه (على آثارهم) على آثار النبيين الذين أسلموا (بعيسى ابن مريم مصدقا) هو حال من عيسى (لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة) أي وآتيناه الانجيل ثابتا فيه هدى ونور ومصدقا فنصب مصدقا بالعطف على ثابتا الذي تعلق به فيه وقام مقامه فيه وارتفع هدى ونور بثابتا الذي قام مقامه فيه (وهدى وموعظة) انتصبا على الحال أي هاديا وواعظا (للمتقين) لانهم ينتفعون به (وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه) وقلنا لهم احكموا بموجبه فاللام لام الامر وأصله الكسر وانما سكن استثقالا لفتحة وكسرة وفتحة وليحكم بكسر اللام وفتح الميم حمزة على انها لام كي أي وقفينا ليؤمنوا وليحكم (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) الخارجون عن الطاعة قال الشيخ أبو منصور رحمه الله يجوز أن يحمل على الجحود في الثلاث فيكون كافرا ظالما فاسقا لان الفاسق المطلق والظالم المطلق هو الكافر وقيل ومن لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر بنعمة الله ظالم في حكمه فاسق في فعله (وأنزلنا اليك الكتاب) أي القرآن فحرف التعريف فيه للعهد (بالحق) بسبب الحق واثباته وتبيين الصواب من الخطا

اذ لا ينكر أحد كون النبي صلى الله عليه وسلم متعبدا بعد البعثة بما أوحي اليه سواء كان من شريعة من قبله أم لا وذهبت الاشاعرة والمعتزلة الى المنع من ذلك وهو اختيار الآمدي من المتأخرين واحتج الاولون لصحة مذهبهم بان الاجماع منعقد على صحة الاستدلال بقوله وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس الآية مع انه من شريعة من تقدم لانه مذكور في التوراة ومكتوب على بني اسرائيل ولولا انا متعبدون بشريعة من قبلنا لما صح هذا الاستدلال ۞ وقوله تعالى (فمن تصدق به) يعني بالقصاص فلم يقتص من الجاني (فهو كفارة له) في هاء له قولان أحدهما ان الهاء في له كناية عن المجروح وولي المقتول وذلك أن المجروح أو ولي المقتول اذا تصدق بالقصاص كان ذلك كفارة لذنوبه وهذا قول ابن مسعود وعبد الله بن عمرو بن العاص والحسن ويدل عليه ما روي عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من رجل يصاب بشئ من جسده فيتصدق به الا رفعه الله به درجة وحط عنه به خطيئة أخرجه الترمذي وعن أنس قال ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع اليه شئ فيه قصاص الا أمر فيه بالعفو أخرجه أبو داود والنسائي والقول الثاني ان الضمير في قوله له يعود الى الجارح والقاتل يعني أن المجني عليه اذا عفا عن الجاني كان ذلك العفو كفارة لذنب الجاني لا يؤاخذ به في الآخرة وهذا قول ابن عباس ومجاهد ومقاتل كما ان القصاص كفارة له فاما أجر العافي فعلى الله تعالى ۞ وقوله تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) يعني لانفسهم حيث لم يحكموا بما أنزل الله عز وجل ۞ قوله عز وجل (وقفينا على آثارهم) يعني وعقبنا على آثار النبيين الذين أسلموا (بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة) يعني ان عيسى عليه السلام كان مصدقا بان التوراة منزلة من عند الله عز وجل وكان العمل بها واجبا قبل ورود النسخ عليها فان عيسى عليه السلام نسخ بعض أحكام التوراة وخالفها (وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور) يعني فيه هدى من الجهالة وضياء من عمى البصيرة (ومصدقا لما بين يديه من التوراة) هذا ليس بتكرار للاول لان في الاول الاخبار بان عيسى مصدق لما بين يديه من التوراة وفي الثاني الاخبار بان الانجيل مصدق للتوراة فظهر الفرق بين اللفظين وأنه ليس بتكرار (وهدى وموعظة للمتقين) انما قال وهدى مرة أخرى لان الانجيل يتضمن البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم فيكون سببا لاهتداء الناس الى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأما كون الانجيل موعظة فلما فيه من المواعظ البليغة والزواجر والامثال وانما خص المتقين بالذكر لانهم هم الذين ينتفعون بالمواعظ ۞ قوله تعالى (وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه) قال أهل المعاني قوله وليحكم يحتمل وجهين أحدهما أن يكون المعنى وقلنا ليحكم أهل الانجيل فيكون هذا اخبارا عما فرض عليهم في وقت انزاله عليهم من الحكم بما تضمنه الانجيل ثم حذف القول لان ما قبله من قوله وكتبنا وقفينا يدل عليه وحذف القول كثير والوجه الثاني أن يكون قوله وليحكم ابتداء وفيه أمر للنصارى بالحكم بما في كتابهم وهو الانجيل فان قلت فعلى هذا الوجه كيف جاز أن يؤمروا بالحكم بما في الانجيل بعد نزول القرآن قلت ان المراد بهذا الحكم الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم لان ذكره في الانجيل ووجوب التصديق بنبوته موجود فاذا آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم فقد حكموا بما في الانجيل وقوله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) يعني فأولئك هم الخارجون عن طاعة الله عز وجل ۞ قوله عز وجل (وأنزلنا اليك الكتاب) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يعني وأنزلنا اليك يا محمد القرآن (بالحق) يعني بالصدق

الذى

الذى لاشك فيه انه من عند الله (مصدقا لما بين يديه من الكتاب) يعنى انه يصدق جميع الكتب التى أنزلها الله على أنبيائه (ومهيمنا عليه) قال ابن عباس يعنى شاهدا على الكتب التى قبله ومنه قول حسان

ان الكتاب مهيمن لنبينا ٭ والحق يعرفه ذووا الالباب

يريد انه شاهد ومصدق لنبينا صلى الله عليه وسلم وانما كان القرآن مهيمنا على الكتب التى قبله لانه الكتاب الذى لا ينسخ ولا يغير ولا يبدل واذا كان القرآن كذلك كانت شهادته على التوراة والانجيل والزبور وجميع الكتب المنزلة حقا وصدقا وقيل المهيمن الامين وانما كان القرآن أمينا على الكتب التى قبله فيما أخبر أهل الكتاب عن كتبهم فان قالوا ذلك فى القرآن فقد صدقوا والافلا (فاحكم بينهم بما أنزل الله) يعنى اذا ترافع أهل الكتاب اليك يا محمد فاحكم بينهم بالقرآن الذى أنزله الله اليك (ولا تتبع أهواءهم) يعنى ولا تتبع أهواء هؤلاء اليهود فى الحكم وقال ابن عباس لا تأخذ باهوائهم فى جلد المحصن (عما جاءك من الحق) يعنى ولا تنصرف عن الحق الذى جاءك من عند الله متبعا أهواءهم وقوله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق وان كان خطابا للنبى صلى الله عليه وسلم لكن المراد به غيره لانه صلى الله عليه وسلم لم يتبع أهواءهم قط وقوله تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) الخطاب فى قوله منكم للامم الثلاثة أمة موسى وأمة عيسى وأمة محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين بدليل ان الله عز وجل قال قبل هذه انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ثم قال بعد ذلك وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم ثم قال وأنزلنا اليك الكتاب ثم جمع فقال لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا والشرعة الشريعة يعنى لكل أمة شريعة فللتوراة شريعة وللانجيل شريعة وللقرآن شريعة والدين واحد وهو التوحيد وأصل الشريعة من الشرع وهو البيان والاظهار فمعنى شرع بين وأوضح وقيل هو من الشروع فى الشئ والشريعة فى كلام العرب المشرعة التى يشرعها الناس فيشربون ويستقون منها وقيل الشريعة الطريقة ثم استعير ذلك للطريقة الالهية المؤدية الى الدين والمنهاج الطريق الواضح وقال بعضهم الشريعة والمنهاج عبارتان عن معنى واحد والتكرير للتأكيد والمراد بهما الدين وقال آخرون بينهما فرق لطيف وهو ان الشريعة هى التى أمر الله بها عباده والمنهاج الطريق الواضح المؤدى الى الشريعة قال ابن عباس فى قوله شرعة ومنهاجا سنة وسبيلا وقال قتادة سبيلا وسنة فالسنن مختلفة للتوراة شريعة وللانجيل شريعة وللقرآن شريعة يحل الله عز وجل فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء ليعلم من يطيعه ممن يعصيه والدين الذى لا يقبل غيره هو التوحيد والاخلاص لله الذى جاءت به جميع الرسل عليهم السلام وقال على بن أبى طالب الايمان منذ بعث آدم عليه السلام شهادة أن لا اله الا الله والاقرار بما جاء من عند الله ولكل قوم شريعة ومنهاج قال العلماء وردت آيات دالة على عدم التباين فى طريقة الانبياء والرسل منها قوله شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا الى قوله أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ومنها قوله أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ووردت آيات دالة على حصول التباين بينهم منها هذه الآية وهى قوله لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا وطريق الجمع بين هذه الآيات ان كل آية دلت على عدم التباين فهى دالة على أصول الدين من الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وكل ذلك جاءت به الرسل من عند الله ولم يختلفوا فيه وأما الآيات الدالة على حصول التباين بينهم فمحمولة على الفروع وما يتعلق بظواهر العبادات فجائز أن يتعبد الله عباده فى كل وقت بما يشاء فهذه طريق الجمع بين هذه الآيات والله أعلم باسرار كتابه واحتج بهذه من قال ان شرع من قبلنا لا يلزمنا لان قوله لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا يدل على أن كل رسول جاء بشريعة خاصة فلا يلزم أمة رسول الاقتداء بشريعة رسول آخر ثم قال تعالى (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) يعنى جماعة متفقة على شريعة واحدة ودين واحد لا اختلاف فيه (ولكن ليبلوكم) يعنى ولكن أراد أن

(مصدقا) حال من الكتاب (لما بين يديه) لما تقدمه نزولا وانما قيل لما قبل الشئ هو بين يديه لان ما تأخر عنه يكون وراءه وخلفه فما تقدم عليه يكون قدامه و بين يديه (من الكتاب) المراد به جنس الكتب المنزلة لان القرآن مصدق لجميع كتب الله فكان حرف التعريف فيه للجنس ومعنى تصديقه الكتب موافقتها فى التوحيد والعبادة وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون (ومهيمنا عليه) وشاهدا لانه يشهد له بالصحة والثبات (فاحكم بينهم بما أنزل الله) أى بما فى القرآن (ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق) نهى أن يحكم بما حرفوه وبدلوه اعتمادا على قولهم ضمن ولا تتبع معنى ولا تنحرف فلذا عدى بعن فكأنه قيل ولا تنحرف عما جاءك من الحق متبعا أهواءهم أو التقدير عادلا عما جاءك (لكل جعلنا منكم) أيها الناس (شرعة) شريعة (ومنهاجا) وطريقا واضحا واستدل به من قال ان شريعة من قبلنا لا تلزمنا وذكر الله انزال التوراة على موسى عليه السلام ثم انزال الانجيل على عيسى عليه السلام ثم انزال القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم و بين انه ليس للسماع فحسب بل للحكم به فقال فى الاول يحكم بها النبيون وفى الثانى وليحكم أهل الانجيل وفى الثالث فاحكم بينهم بما أنزل الله (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) جماعة متفقة على شريعة واحدة (ولكن) أراد (ليبلوكم) ليعاملكم معاملة المختبر

(فيما آتاكم) من الشرائع المختلفة فتعبد كل أمة بما اقتضته الحكمة (فاستبقوا الخيرات) فابتدروها وسابقوا نحوها قبل الفوات بالوفاة والمراد بالخيرات كل ما أمر الله تعالى به (الى الله مرجعكم) استئناف فى معنى التعليل لاستباق الخيرات (جميعا) حال من الضمير المجرور والعامل المصدر المضاف لانه فى تقدير اليه ترجعون (فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) فيخبركم بما لا تشكون معه من الجزاء الفاصل بين محقكم ومبطلكم وعاملكم ومفرطكم فى العمل (وان احكم) معطوف على بالحق أى أنزلنا اليك الكتاب بالحق

يختبركم (فيما آتاكم) يعنى من الشرائع المختلفة هل تعملون بها أم لا فيتبين بذلك المطيع من العاصى والموافق من المخالف (فاستبقوا الخيرات) هذا خطاب لامة محمد صلى الله عليه وسلم يعنى فبادروا يا أمة محمد بالاعمال الصالحات التى تقربكم الى الله تعالى (الى الله مرجعكم جميعا) يعنى المطيع والعاصى والموافق والمخالف (فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) يعنى فيخبركم فى الآخرة بما كنتم فيه تختلفون من أمر الدين والدنيا والمعنى فيخبركم فى الآخرة بما لا تشكون معه فيفصل بين المحق والمبطل والطائع والعاصى بالثواب والعقاب ۞ قوله تعالى (وأن احكم بينهم بما أنزل الله) قال ابن عباس ان كعب بن أسيد وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس قال بعضهم لبعض اذهبوا بنا الى محمد لعلنا نفتنه عن دينه فأتوه فقالوا يا محمد قد عرفت أنا أحبار اليهود وأشرافهم وساداتهم وانا ان اتبعناك اتبعتنا اليهود ولم يخالفونا وان بيننا وبين قومنا خصومة فنتحاكم اليك فاقض لنا عليهم نؤمن بك ونصدقك فابى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله هذه الآية وأن احكم بينهم بما أنزل الله يعنى احكم بينهم يا محمد بالحكم الذى أنزله الله فى كتابه (ولا تتبع أهواءهم) يعنى فيما أمروك به قال العلماء ليس فى هذه الآية تكرار لما تقدم وانما أنزلت فى حكمين مختلفين أما الآية الاولى فنزلت فى شأن رجم المحصن وان اليهود طلبوا منه أن يجلده وهذه الآية نزلت فى شأن الدماء والديات حين تحاكموا اليه فى أمر قتيل كان بينهم قال بعض العلماء هذه الآية ناسخة للتخيير فى قوله فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ۞ وقوله تعالى (واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك) يعنى واحذر يا محمد هؤلاء اليهود الذين جاؤا اليك أن يصرفوك ويصدوك بمكرهم وكيدهم فيحملوك على ترك العمل ببعض ما أنزل الله اليك فى كتابه واتباع أهوائهم (فان تولوا) يعنى فان أعرضوا عن الايمان بك والرضا بالحكم بما أنزل الله عليك (فاعلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم) يعنى فاعلم يا محمد أن الله يريد أن يعجل لهم العقوبة فى الدنيا ببعض ذنوبهم وانما خص بعض الذنوب لان الله جازاهم فى الدنيا على بعض ذنوبهم بالقتل والسبى والجلاء وأخر مجازاتهم على باقى ذنوبهم الى الآخرة (وان كثيرا من الناس لفاسقون) يعنى اليهود لانهم ردوا حكم الله تعالى (أفحكم الجاهلية يبغون) يعنى أفحكم الجاهلية يطلب هؤلاء اليهود قال ابن عباس يعنى بحكم الجاهلية ما كانوا عليه من الضلال والجور فى الاحكام وتحريفهم اياها عما أمر الله به وقال مقاتل كانت بين بنى النضير وقريظة دماء وهما حيان من اليهود وذلك قبل أن يبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فلما بعث وهاجر الى المدينة تحاكموا اليه فقالت بنو قريظة بنو النضير اخواننا أبونا واحد وديننا واحد وكتابنا واحد فان قتل بنو النضير منا قتيلا أعطونا سبعين وسقا من تمر وان قتلنا منهم قتيلا أخذوا منا مائة وأربعين وسقا وأرش جراحتنا على النصف من جراحتهم فاقض بيننا وبينهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فانى أحكم ان دم القرظى وفاء من دم النضيرى ودم النضيرى وفاء من دم القرظى ليس لاحدهما فضل على الآخر فى دم ولا عقل ولا جراحة فغضبت بنو النضير وقالوا لا نرضى بحكمك فانك لنا عدو وانك ما تألو فى وضعنا وتصغيرنا فانزل الله أفحكم الجاهلية يبغون وقرئ بالتاء على الخطاب والمعنى قل لهم يا محمد أفحكم الجاهلية تبغون (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) يعنى أى حكم أحسن من حكم الله ان كنتم

وبان احكم (بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك) أى يصرفوك أو هو مفعول له أى مخافة أن يفتنوك وانما حذره وهو رسول مأمون لقطع أطماع القوم (عن بعض ما أنزل الله اليك فان تولوا) عن الحكم بما أنزل الله اليك وأرادوا غيره (فاعلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم) أن بذنب التولى عن حكم الله وارادة خلافه فوضع ببعض ذنوبهم موضع ذلك وهذا الابهام لتعظيم التولى وفيه تعظيم الذنوب فان الذنوب بعضها مهلك فكيف بكلها (وان كثيرا من الناس لفاسقون) لخارجون عن أمر الله (أفحكم الجاهلية يبغون) يطلبون وبالتاء شامى يخاطب بنى النضير فى تفاضلهم على بنى قريظة وقد قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم القتلى سواء فقال بنو النضير نحن لا نرضى بذلك فنزلت وسئل طاوس عن الرجل يفضل بعض ولده على بعض فقرأ هذه الآية وناصب أفحكم يبغون (ومن أحسن) مبتدأ وخبر وهو استفهام فى معنى النفى أى لا أحد أحسن (من الله حكما) وهو تمييز واللام فى (لقوم يوقنون) للبيان كاللام فى هيت لك أى هذا الخطاب وهذا الاستفهام لقوم يوقنون فانهم هم الذين يتيقنون ان لا أعدل من الله ولا أحسن حكما منه وقال أبو على معنى لقوم عند قوم لان اللام وعند يتقاربان فى المعنى ونزل نهيا عن موالاة أعداء الدين

موقنين

موقنين ان لكم ربا وانه عدل فى أحكامه ﴿ قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) اختلف المفسرون فى سبب نزول هذه الآية وان كان حكمها عاما لجميع المؤمنين لان خصوص السبب لا يمنع من عموم الحكم فقال قوم نزلت هذه الآية فى عبادة بن الصامت رضى الله عنه وعبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين وذلك انهما اختصما فقال عبادة ان لى أولياء من اليهود كثير عددهم شديدة شوكتهم وانى أبرأ الى الله و الى رسوله من ولايتهم ولا مولى لى الا الله ورسوله فقال عبد الله بن أبى لكنى لا أبرأ من ولاية اليهود فانى أخاف الدوائر ولا بد لى منهم فقال النبى صلى الله عليه وسلم يا أبا الحباب ما نفست به من ولاية اليهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه فقال اذن أقبل فانزل الله هذه الآية وقال السدى لما كانت وقعة أحد اشتد الامر على طائفة من الناس وتخوفوا ان يدال عليهم الكفار فقال رجل من المسلمين أنا ألحق بفلان اليهودى وآخذ منه أمانا انى أخاف أن يدال علينا اليهود وقال رجل آخر أنا ألحق بفلان النصرانى من أهل الشام وآخذ منه أمانا فانزل الله هذه الآية ينهاهم عن موالاة اليهود والنصارى وقال عكرمة نزلت فى أبى لبابة بن عبد المنذر لما بعثه النبى صلى الله عليه وسلم الى بنى قريظة حين حاصرهم فاستشاروه فى النزول وقالوا ماذا يصنع بنا اذا نزلنا فجعل أصبعه فى حلقه اشارة الى انه الذبح وانه يقتلكم فانزل الله يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء فنهى الله المؤمنين جميعا أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصارا وأعوانا على أهل الايمان بالله ورسوله وأخبرانه من اتخذهم أنصارا وأعوانا وحلفاء من دون الله ورسوله والمؤمنين فانه منهم وان الله ورسوله والمؤمنين منه براء (بعضهم أولياء بعض) يعنى ان بعض اليهود أنصار لبعض على المؤمنين وان النصارى كذلك يد واحدة على من خالفهم فى دينهم وملتهم (ومن يتولهم منكم فانه منهم) يعنى ومن يتول اليهود والنصارى دون المؤمنين فينصرهم على المؤمنين فهو من أهل دينهم وملتهم لانه لا يتولى مولى أحدا الا وهو راض به وبدينه واذا رضيه ورضى دينه صار منهم وهذا تعليم من الله تعالى وتشديد عظيم فى مجانبة اليهود والنصارى وكل من خالف دين الاسلام (ان الله لا يهدى القوم الظالمين) يعنى ان الله لا يوفق من وضع الولاية فى غير موضعها فتولى اليهود والنصارى مع علمه بعداوتهم لله ولرسوله وللمؤمنين روى ان أبا موسى الاشعرى قال قلت لعمر بن الخطاب ان لى كاتبا نصرانيا فقال مالك وله قاتلك الله ألا اتخذت حنيفا يعنى مسلما أما سمعت قول الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض قلت له دينه ولى كتابته فقال لا أكرمهم اذ أهانهم الله ولا أعزهم اذ أذلهم الله ولا أدنيهم اذ أبعدهم الله قلت انه لا يتم أمر البصرة الا به فقال مات النصرانى والسلام يعنى هب انه مات فما تصنع بعده فما تعمله بعد موته فاعمله الآن واستغن عنه بغيره من المسلمين ﴿ قوله تعالى (فترى الذين فى قلوبهم مرض) يعنى فترى يا محمد الذين فى قلوبهم شك ونفاق (يسارعون فيهم) يعنى يسارعون فى مودة اليهود وموالاتهم ومناصحتهم لانهم كانوا أهل ثروة ويسار فكانوا يغشونهم ويخالطونهم لاجل ذلك نزلت فى عبد الله بن أبى المنافق وفى أصحابه من المنافقين (يقولون) يعنى المنافقين (نخشى أن تصيبنا دائرة) الدائرة من دوائر الدهر كالدولة التى تدول والمعنى يقول المنافقون انما نخالط اليهود لانا نخشى أن يدور علينا الدهر بمكروه ويعنون بذلك المكروه الهزيمة فى الحرب والقحط والجدب والحوادث المخوفة قال ابن عباس معناه نخشى أن لا يتم أمر محمد فيدور علينا الامر كما كان قبل محمد (فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده) قال المفسرون عسى من الله واجب لان الكريم اذا أطمع فى خير فعله وهو بمنزلة لوعد لتعلق النفس به ورجائها له والمعنى فعسى الله أن يأتى بالفتح لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم على أعدائه واظهار دينه على الاديان كلها واظهار المسلمين على أعدائهم من الكفار واليهود والنصارى وقد فعل الله ذلك بمنه وكرمه فاظهر دينه ونصر عبده وقيل أراد بالفتح فتح مكة وقيل فتح قرى اليهود مثل خيبر وفدك ونحوهما

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) أى لا تتخذوهم أولياء تنصرونهم وتستنصرونهم وتؤاخونهم وتعاشرونهم معاشرة المؤمنين ثم علل النهى بقوله (بعضهم أولياء بعض) وكلهم أعداء المؤمنين وفيه دليل على أن الكفر كله ملة واحدة (ومن يتولهم منكم فانه منهم) من جملتهم وحكمه حكمهم وهذا تغليظ من الله وتشديد فى وجوب مجانبة المخالف فى الدين (ان الله لا يهدى القوم الظالمين) لا يرشد الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفرة (فترى الذين فى قلوبهم مرض) نفاق (يسارعون) حال أو مفعول ثان لاحتمال أن يكون فترى من رؤية العين أو القلب (فيهم) فى معاونتهم على المسلمين وموالاتهم (يقولون) أى فى أنفسهم لقوله على ما أسروا (نخشى أن تصيبنا دائرة) أى حادثة تدور بالحال التى يكونون عليها (فعسى الله أن يأتى بالفتح) لرسول الله صلى الله عليه وسلم على أعدائه واظهار المسلمين (أو أمر من عنده) أى يؤمر النبى عليه السلام باظهار أسرار المنافقين وقتلهم

(فيصبحوا) أي المنافقون (على ما أسروا في أنفسهم) من النفاق (نادمين) خبر فيصبحوا (ويقول الذين آمنوا) أي يقول بعضهم لبعض عند ذلك ويقول بصري عطفا على أن يأتي ويقول بغير واو شامي وحجازي على أنه جواب قائل يقول فماذا يقول المؤمنون حينئذ فقيل يقول الذين آمنوا (أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم انهم لمعكم) أي اقسموا لكم باغلاظ الايمان انهم أولياؤكم ومعاضدوكم على الكفار وجهد أيمانهم مصدر في تقدير الحال أي مجتهدين في توكيد أيمانهم (حبطت أعمالهم) ضاعت أعمالهم التي عملوها رياء وسمعة لا ايمانا وعقيدة وهذا من قول الله عزوجل شهادة لهم بحبوط الاعمال وتعجيبا من سوء حالهم (فأصبحوا خاسرين) في الدنيا والعقبى لفوات المعونة ودوام العقوبة (ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه) من يرجع منكم عن دين الاسلام الى ما كان عليه من الكفر يرتدد مدني وشامي (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه) يرضى أعمالهم ويثني عليهم بها ويطيعونه ويؤثرون رضاه وفيه دليل نبوته عليه السلام حيث أخبرهم بما لم يكن فكان واثبات خلافة الصديق لانه جاهد المرتدين وفي صحة خلافته خلافة عمر رضي الله عنهما وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عنهم فضرب على عاتق سلمان وقال هذا وذووه لو كان الايمان معلقا بالثريا لناله رجال من أبناء فارس والراجع من الجزاء الى الاسم المتضمن لمعنى الشرط محذوف معناه فسوف يأتي الله بقوم مكانهم

من بلادهم أو أمر من عنده يعني أنه تعالى يقطع أصل اليهود من أرض الحجاز ويخرجهم من بلادهم بلا كلفة وتعب ولا يكون للناس فيه فعل البتة كما ألقى في قلوبهم الرعب فأخلوا ديارهم وخربوها بأيديهم ورحلوا الى الشام ۞ وقوله تعالى (فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين) يعني فيصبح المنافقون الذين كانوا يوالون اليهود نادمين على ما حدثوا به أنفسهم ان أمر محمد لا يتم وقيل ندموا على دس الاخبار الى اليهود (ويقول الذين آمنوا) يعني ويقول الذين آمنوا في وقت اظهار الله تعالى نفاق المنافقين (أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم انهم لمعكم) وذلك ان المؤمنين كانوا يتعجبون من حال المنافقين عندما أظهروا الميل الى موالاة اليهود والنصارى ويقولون ان المنافقين حلفوا بالله جهد أيمانهم انهم لمعنا ومن أنصارنا والآن كيف صاروا موالين لاعدائنا من اليهود محبين للاختلاط بهم فبان كذب المنافقين في أيمانهم الباطلة (حبطت أعمالهم) أي بطل كل خير عملوه لاجل ما أظهروا من النفاق وموالاة اليهود (فأصبحوا خاسرين) يعني انهم خسروا في الدنيا بافتضاحهم وخسروا في الآخرة باحباط ثواب أعمالهم وحصلوا بالعذاب الدائم المقيم ۞ قوله عزوجل (ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه) يعني من يرجع منكم عن دينه الحق الذي هو عليه وهو دين الاسلام فيبدله ويغيره بدخوله في الكفر بعد الايمان فيختار اما اليهودية أو النصرانية أو غير ذلك من أصناف الكفر فلن يضر الله شيأ وانما ضر نفسه برجوعه عن الدين الصحيح الذي هو دين الاسلام قال الحسن علم الله تعالى ان قوما سيرجعون عن الاسلام بعد موت نبيهم صلى الله عليه وسلم فأخبر أنه سيأتي بقوم يحبهم ويحبونه وذكر صاحب الكشاف ان احدى عشرة فرقة من العرب ارتدت ثلاث في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم بنو مدلج ورئيسهم ذو الحمار وهو الاسود العنسي وكان كاهنا فتنبأ باليمن واستولى على بلاده وأخرج منها عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى معاذ بن جبل والى سادات اليمن فاهلكه الله تعالى على يد فيروز الديلمي بيته وقتله فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين بقتله ليلة قتل فسر المسلمون بذلك وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغد وأتى خبر قتله في آخر ربيع الاول و بنو حنيفة وهم قوم مسيلمة الكذاب تنبأ وكتب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله أما بعد فان الارض نصفها لي ونصفها لك فكتب اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب أما بعد فان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وستأتي قصة قتله فيما بعد و بنو أسد وهم قوم طليحة بن خويلد تنبأ فبعث اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فقاتله فانهزم بعد القتال الى الشأم ثم أسلم بعد ذلك وحسن اسلامه وارتد سبع فرق في خلافة أبي بكر الصديق وهم فزارة قوم عيينة بن حصن الفزاري وغطفان قوم قرة بن سلمة القشيري وبنو سليم قوم الفجاءة بن عبد ياليل وبنو يربوع قوم مالك بن نويرة اليربوعي وبعض تميم قوم سجاح بنت المنذر المتنبئة التي زوجت نفسها من مسيلمة الكذاب وكندة قوم الاشعث بن قيس الكندي وبنو بكر بن وائل قوم الحطم ابن زيد فكفى الله أمرهم على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه وفرقة واحدة ارتدت في خلافة عمر بن الخطاب وهم غسان قوم جبلة بن الايهم واختلف العلماء في المعنى بقوله تعالى (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه) فقال علي بن أبي طالب والحسن وقتادة هم أبو بكر وأصحابه الذين قاتلوا أهل الردة ومانعي الزكاة وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قبض ارتد عامة العرب (٣) كما تقدم تفصيله الا أهل المدينة وأهل مكة وأهل البحرين من بني عبد القيس فانهم ثبتوا على الاسلام ونصر الله بهم الدين ولما ارتد من ارتد من العرب

ومنعوا

(٣) قوله ارتد عامة العرب الخ الذي تقدم ارتدادهم في زمن أبي بكر سبع فرق لا غير اهـ مصححه

ومنعوا الزكاة هم أبو بكر بقتالهم وكره ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال عمر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قالها فقد عصم منى ماله ودمه إلا بحقه وحسابه على الله فقال أبو بكر والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعونى عناقا أو قال عقالا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها وقال أنس بن مالك كرهت الصحابة قتال مانعى الزكاة وقالوا هم أهل القبلة فتقلد أبو بكر سيفه وخرج وحده فلم يجدوا بدا من الخروج على أثره فقال ابن مسعود كرهنا ذلك فى الابتداء ثم حمدناه عليه فى الانتهاء وقال أبو بكر ابن عياش سمعت أبا حصين يقول ما ولد بعد النبيين أفضل من أبى بكر الصديق لقد قام مقام نبى من الأنبياء فى قتال أهل الردة وقالت عائشة توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتدت العرب واشرأب النفاق ونزل بأبى بكر ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها وبعث أبو بكر الصديق خالد بن الوليد فى جيش كثير إلى بنى حنيفة باليمامة وهم قوم مسيلمة الكذاب فأهلك الله مسيلمة على يد وحشى غلام مطعم بن عدى الذى قتل حمزة فكان وحشى يقول قتلت خير الناس فى الجاهلية وشر الناس فى الإسلام أراد بذلك وحشى أنه فى حال الجاهلية قتل حمزة وهو خير الناس وفى حال إسلامه قتل مسيلمة الكذاب وهو شر الناس وقال قوم المراد بقوله تعالى فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه الأشعريون قوم أبى موسى الأشعرى روى عن عياض بن غنم الأشعرى قال لما نزلت هذه الآية فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هم قوم هذا يعنى أبا موسى الأشعرى أخرجه الحاكم فى المستدرك وقيل هم أهل اليمن (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوبا الإيمان يمان والحكمة يمانية وقال السدى نزلت فى الأنصار لأنهم هم الذين نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعانوه على إظهار الدين وقيل هم أحياء من أهل اليمن ألفان من النخع وخمسة آلاف من أهل كندة وبجيلة وثلاثة آلاف من أخلاط الناس جاهدوا فى سبيل الله يوم القادسية فى خلافة عمر وعلى هذا التقدير تكون هذه الآية إخبارا عن الغيب وقد وقع الخبر على وفقه بحمد الله تعالى فتكون هذه الآية معجزة وأما معنى المحبة فيقال أحببت فلانا بمعنى جعلت قلبى معرضا بأن يحبه والمحبة إرادة ما تراه أو تظنه خيرا ومحبة الله تعالى العبد إنعامه عليه وتوفيقه وهدايته إلى طاعته والعمل بما يرضى به عنه وأن يثيبه أحسن الثواب على طاعته وأن يثنى عليه ويرضى عنه ومحبة العبد لله عز وجل أن يسارع إلى طاعته وابتغاء مرضاته وأن لا يفعل ما يوجب سخطه وعقوبته وأن يتحبب إليه بما يوجب له الزلفى لديه جعلنا الله ممن يحبهم ويحبونه بمنه وكرمه ۞ وقوله تعالى (أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) هذه من صفات الذين اصطفاهم الله تعالى ووصفهم بقوله يحبهم ويحبونه يعنى أنهم أرقاء رحماء لأهل دينهم وإخوانهم من المؤمنين ولم يرد ذل الهوان بل أراد لين جانبهم لإخوانهم المؤمنين وهم مع رقتهم ورحمتهم ولين جانبهم أشداء أقوياء غلاظ على أعدائهم الكافرين قال على بن أبى طالب أذلة على المؤمنين يعنى أهل رقة على أهل دينهم أعزة على الكافرين أهل غلظة على من خالفهم فى دينهم وقال ابن عباس تراهم كالولد لوالده وكالعبد لسيده وهم فى الغلظة على الكافرين كالسبع على فريسته وقال ابن الأنبارى أثنى الله على المؤمنين بأنهم يتواضعون للمؤمنين إذا لقوهم ويعنفون الكافرين إذا لقوهم وقيل إن الذل هنا بمعنى الشفقة والرحمة كأنه قال راحمين للمؤمنين مشفقين عليهم على وجه التذلل والتواضع وإنما أتى بلفظة على حتى يدل على علو منصبهم وفضلهم وشرفهم لا لأجل كونهم ذليلين فى أنفسهم بل ذلك التذلل لأجل أنهم ضموا إلى علو منصبهم فضيلة التواضع ويدل على صحة هذا سياق الآية وهو قوله أعزة على الكافرين يعنى أنهم أشداء أقوياء فى أنفسهم وعلى أعدائهم (يجاهدون فى سبيل الله) يعنى أنهم ينصرون دين الله (ولا يخافون لومة لائم) يعنى لا يخافون عذل عاذل فى نصرهم الدين وذلك أن المنافقين كانوا يراقبون

(أذلة) جمع ذليل وأما ذلول فجمعه ذلل ومن زعم أنه من الذل الذى هو ضد الصعوبة فقد سها لأن ذلولا لا يجمع على أذلة قال الجوهرى الذل ضد العز ورجل ذليل بين الذل وقوم أذلاء وأذلة والذل بالكسر اللين وهو ضد الصعوبة يقال دابة ذلول ودواب ذلل (على المؤمنين) ولم يقل للمؤمنين لتضمن الذل معنى الحنو والعطف كأنه قيل عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع (أعزة على الكافرين) أشداء عليهم والعزاز الأرض الصلبة فهم مع المؤمنين كالولد لوالده والعبد لسيده ومع الكافرين كالسبع على فريسته (يجاهدون فى سبيل الله) يقاتلون الكفار وهو صفة لقوم كيحبهم وأعزة وأذلة (ولا يخافون لومة لائم) الواو يحتمل أن تكون للحال أى يجاهدون وحالهم فى المجاهدة خلاف حال المنافقين فإنهم كانوا موالين لليهود فإذا خرجوا فى جيش المؤمنين خافوا أولياءهم اليهود فلا يعملون شيأ مما يعلمون أنه يلحقهم فيه لوم من جهتهم وأما المؤمنون فجهادهم لله لا يخافون لومة لائم وأن تكون للعطف أى من صفتهم المجاهدة فى سبيل الله وهم صلاب فى دينهم إذا شرعوا فى أمر من أمور الدين لا تزعهم لومة لائم واللومة المرة من اللوم وفيها وفى التنكير مبالغتان كأنه قيل لا يخافون شيأ قط من لوم واحد من اللوام

(ذلك) اشارة الى ماوصف به القوم من المحبة والذلة والعزة والمجاهدة وانتفاء خوف اللومة (فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع) كثير الفواضل (عليم) بمن هو من أهلها عقب النهي عن موالاة من تجب معاداتهم ذكر من تجب موالاتهم بقوله (انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا) وانما يفيد اختصاصهم بالموالاة ولم يجمع الولي وان كان المذكور جماعة تنبيها على أن الولاية لله أصل ولغيره تبع

ولو قيل انما أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا لم يكن في الكلام أصل وتبع ومحل (الذين يقيمون الصلوة) الرفع على البدل من الذين آمنوا أو على هم الذين أو النصب على المدح (ويؤتون الزكوة) والواو في (وهم راكعون) للحال أي يؤتونها في حال ركوعهم في الصلاة قيل انها نزلت في علي رضي الله عنه حين سأله سائل وهو راكع في صلاته فطرح له خاتمه كأنه كان مرجا في خنصره فلم يتكلف لخلعه كثير عمل يفسد صلاته وورد بلفظ الجمع وان كان السبب فيه واحدا ترغيبا للناس في مثل فعله لينالوا مثل ثوابه والآية تدل على جواز الصدقة في الصلاة وعلى أن الفعل القليل لا يفسد الصلاة (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا) يتخذه وليا أو يكن وليا (فان حزب الله هم الغالبون) من اقامة الظاهر مقام الضمير أي فانهم هم الغالبون أو المراد بحزب الله الرسول والمؤمنون أي ومن يتولهم فقد تولى حزب الله واعتضد بمن لا يغالب وأصل الحزب القوم يجتمعون لامر حزبهم أي أصابهم وروى أن رفاعة بن زيد وسويد بن الحرث قد أظهرا الاسلام ثم نافقا وكان رجال من المسلمين يوادونهما فنزل (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا) يعني اتخاذهم دينكم هزوا ولعبا لا يصح ان يقابل باتخاذكم اياهم أولياء بل يقابل ذلك بالبغضاء والمنابذة

قولا

الكفار ويخافون لومهم فبين الله تعالى في هذه الآية ان من كان قويا في الدين فانه لا يخاف في نصرة دين الله بيده أو بلسانه لومة لائم وهذه صفة المؤمنين المخلصين ايمانهم لله تعالى (ق) عن عبادة بن الصامت قال بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أن لا ننازع الامر أهله وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم ثم قال تعالى (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) ذلك اشارة الى ما تقدم ذكره من وصفهم بمحبة الله ولين جانبهم للمؤمنين وشدتهم على الكافرين وأنهم يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم كل ذلك من فضل الله تعالى تفضل به عليهم ومن احسانه اليهم (والله واسع عليم) يعني انه تعالى واسع الفضل عليم بمن يستحقه ۞ قوله تعالى (انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا) قال ابن عباس نزلت هذه الآية في عبادة بن الصامت حين تبرأ من موالاة اليهود وقال أوالي الله ورسوله والمؤمنين يعني أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وقال جابر بن عبد الله نزلت في عبد الله بن سلام وذلك أنه جاء الى محمد صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ان قومنا قريظة والنضير قد هجرونا وفارقونا وأقسموا أن لا يجالسونا فنزلت هذه الآية فقرأها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبد الله بن سلام رضينا بالله ربا وبرسوله نبيا وبالمؤمنين أولياء وقيل الآية عامة في حق جميع المؤمنين لان المؤمنين بعضهم أولياء بعض فعلى هذا يكون قوله تعالى (الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة وهم راكعون) صفة لكل مؤمن ويكون المراد بذكر هذه الصفات تمييز المؤمنين عن المنافقين لان المنافقين كانوا يدعون أنهم مؤمنون الا أنهم لم يكونوا يداومون على فعل الصلاة والزكاة فوصف الله تعالى المؤمنين بأنهم يقيمون الصلاة يعني باتمام ركوعها وسجودها في مواقيتها ويؤتون الزكاة يعني ويؤدون زكاة أموالهم اذا وجبت عليهم أما قوله تعالى وهم راكعون فعلى هذا التفسير فيه وجوه أحدها أن المراد من الركوع هنا الخضوع والمعنى أن المؤمنين يصلون ويزكون وهم منقادون خاضعون لاوامر الله ونواهيه الوجه الثاني أن يكون المراد منه ان من شأنهم اقامة الصلاة وايتاء الزكاة وانما خص الركوع بالذكر تشريفا له الوجه الثالث قيل ان هذه الآية نزلت وهم ركوع وقيل نزلت في شخص معين وهو علي بن أبي طالب قال السدي مر بعلي سائل وهو راكع في المسجد فأعطاه خاتمه فعلى هذا قال العلماء العمل القليل في الصلاة لا يفسدها والقول بالعموم أولى وان كان قد وافق وقت نزولها صدقة علي بن أبي طالب وهو راكع ويدل على ذلك ما روى عن عبد الملك بن سليمان قال سألت أبا جعفر محمد بن علي الباقر عن هذه الآية انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا من هم فقال المؤمنون فقلت ان ناسا يقولون هو علي فقال علي من الذين آمنوا ۞ وقوله تعالى (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا) يعني ومن يتول القيام بطاعة الله ونصرة رسوله والمؤمنين قال ابن عباس يريد المهاجرين والانصار ومن يأتي بعدهم (فان حزب الله) يعني أنصار دين الله (هم الغالبون) لان الله ناصرهم على عدوهم والحزب في اللغة أصحاب الرجل الذين يكونون معه على رأيه وهم القوم الذين يجتمعون لامر حزبه يعني أهمه ۞ قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا) قال ابن عباس كان رفاعة بن زيد بن التابوت وسويد بن الحرث قد أظهرا الاسلام ثم نافقا وكان رجال من المسلمين يوادونهما فانزل الله تعالى هذه الآية ومعنى اتخذوا دينكم هزوا ولعبا هو اظهارهم الاسلام بالسنتهم

قولا وهم مع ذلك يبطنون الكفر ويسرونه (من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) يعني اليهود (والكفار) يعني عبدة الاصنام وانما فصل بين أهل الكتاب والكفار وان كان أهل الكتاب من الكفار لان كفر المشركين من عبدة الاصنام أغلظ وأفحش من كفر أهل الكتاب (أولياء) يعني لا تتخذوهم أولياء والمعنى ان أهل الكتاب والكفار اتخذوا دينكم يا معشر المؤمنين هزوا وسخرية فلا تتخذوهم أنتم أولياء وأنصارا (واتقوا الله ان كنتم مؤمنين) يعني مؤمنين حقا لان المؤمن يأبى موالاة أعداء الله عز وجل ۞ قوله تعالى (واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا) قال الكلبي كان منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نادى الى الصلاة وقام المسلمون اليها قالت اليهود قد قاموا لا قاموا وصلوا لا صلوا ويضحكون على طريق الاستهزاء فأنزل الله هذه الآية وقال السدي نزلت هذه الآية في رجل من النصارى كان بالمدينة فكان اذا سمع المؤذن يقول أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله يقول حرق الكاذب فدخل خادمه ذات ليلة بنار وهو وأهله نيام فطارت منها شرارة فاحترق البيت واحترق هو وأهله وقيل ان الكفار والمنافقين كانوا اذا سمعوا الاذان حسدوا المسلمين على ذلك فدخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا يا محمد لقد أبدعت شيئا لم يسمع بمثله فيما مضى من الامم قبلك فان كنت تدعي النبوة فقد خالفت الانبياء قبلك ولو كان فيه خير لكان أولى الناس به الانبياء فمن أين لك صياح كصياح العير فما أقبح هذا الصوت وما أسمج هذا الامر فانزل الله عز وجل ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله الآية وأنزل واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا (ذلك بانهم قوم لا يعقلون) يعني ان هزوهم ولعبهم من أفعال السفهاء والجهال الذين لا عقل لهم ۞ قوله تعالى (قل يا أهل الكتاب) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يعني قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى الذين اتخذوا دينك هزوا ولعبا (هل تنقمون منا) يعني هل تكرهون منا وتعيبون علينا (الا أن آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل من قبل) وهذا على سبيل التعجب من فعل أهل الكتاب والمعنى هل تجدون علينا في الدين الا الايمان بالله وبما أنزل الينا وبما أنزل على جميع الانبياء من قبل وهذا ليس مما ينكر أو ينقم منه وهذا كما قال بعضهم

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم * بهن فلول من قراع الكتائب

يعني انه ليس فيهم عيب الا ذلك وهذا ليس بعيب بل هو مدح عظيم لهم قال ابن عباس أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر من اليهود فيهم أبو ياسر بن أخطب ورافع بن أبي رافع وعازر وأزر وزيد وخالد وازار بن أبي ازار وأشيع فسألوه عمن يؤمن به من الرسل فقال أؤمن بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط الى قوله ونحن له مسلمون الآية فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا والله لا نؤمن بمن آمن به فانزل الله هذه الآية وقيل انهم قالوا والله ما نعلم أهل دين أقل حظا في الدنيا والآخرة منكم ولا دينا شرا من دينكم فانزل الله هذه الآية قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا الا أن آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل من قبل وهذا هو ديننا الحق وطريقنا المستقيم فلم تنقمونه علينا (وأن أكثركم فاسقون) يعني انما كرهتم ايماننا ونقمتموه علينا مع علمكم باننا على الحق بسبب فسقكم واقامتكم على الدين الباطل لحب الرياسة وأخذ الاموال بالباطل وانما قال أكثركم لان الله علم ان من أهل الكتاب من يؤمن بالله وبرسوله ۞ قوله عز وجل (قل هل أنبئكم بشر من ذلك) هذا جواب لليهود لما قالوا ما نعرف دينا شرا من دينكم والمعنى قل يا محمد لهؤلاء اليهود الذين قالوا هذه المقالة هل أخبركم بشر من ذلك الذي ذكرتم ونقمتم علينا من ايماننا بالله وبما أنزل علينا (مثوبة عند الله) يعني جزاء فان قلت المثوبة مختصة بالاحسان لانها في معنى الثواب فكيف جاءت في الاساءة قلت وضعت المثوبة موضع العقوبة على طريقة قوله

والكفار بصري وعلى عطف على الذين المجرورة أي من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الكفار (أولياء واتقوا الله) في موالاة الكفار (ان كنتم مؤمنين) حقا لان الايمان حقا يأبى موالاة أعداء الدين (واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها) أي الصلاة أو المناداة (هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) لان لعبهم وهزوهم من أفعال السفهاء والجهلة فكأنهم لا عقل لهم وفيه دليل على ثبوت الاذان بنص الكتاب لا بالمنام وحده (قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا الا أن آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل من قبل) يعني هل تعيبون منا وتنكرون الا الايمان بالله وبالكتب المنزلة كلها (وأن أكثركم فاسقون) وهو عطف على المجرور أي وما تنقمون منا الا الايمان بالله وما أنزل وبأن أكثركم فاسقون والمعنى أعاديتمونا لانا اعتقدنا توحيد الله وصدق أنبيائه وفسقكم لمخالفتكم لنا في ذلك ويجوز أن يكون الواو بمعنى مع أي وما تنقمون منا الا الايمان بالله مع أنكم فاسقون (قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله) أي ثوابا وهو نصب على التمييز والمثوبة وان كانت مختصة بالاحسان ولكنها وضعت موضع العقوبة كقوله فبشرهم بعذاب أليم وكان اليهود يزعمون ان المسلمين مستوجبون للعقوبة فقيل لهم

(من لعنه الله) شر عقوبة في الحقيقة من أهل الاسلام في زعمكم وذلك اشارة الى المتقدم أي الايمان أي بشر مما نقمتم من ايماننا ثوابا أي جزاء ولابد من حذف مضاف قبله أو قبل من تقديره بشر من أهل ذلك أو دين من لعنه الله (وغضب عليه وجعل منهم القردة) يعني أصحاب السبت (والخنازير) أي كفار (٥٠٨) أهل مائدة عيسى عليه السلام أو كلا المسخين من أصحاب السبت فشبانهم مسخوا قردة ومشايخهم مسخوا خنازير (وعبد الطاغوت) أي العجل أو الشيطان لان عبادتهم العجل بتزيين الشيطان وهو عطف على صلة من كأنه قيل ومن عبد الطاغوت وعبد الطاغوت حمزة جعله اسما موضوعا للمبالغة كقولهم رجل حذر وفطن للبليغ في الحذر والفطنة وهو معطوف على القردة والخنازير أي جعل الله منهم عبد الطاغوت (أولئك) الممسوخون الملعونون (شر مكانا) جعلت الشرارة للمكان وهي لاهله للمبالغة (وأضل عن سواء السبيل) عن قصد الطريق الموصل الى الجنة ونزل في ناس من اليهود كانوا يدخلون على النبي صلى الله عليه وسلم ويظهرون له الايمان نفاقا (واذا جاؤكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به) الباء للحال أي دخلوا كافرين وخرجوا كافرين وتقديره ملتبسين بالكفر وكذلك قد دخلوا وهم قد خرجوا ولذا دخلت قد تقريبا للماضي من الحال وهو متعلق بقالوا آمنا أي قالوا ذلك وهذه حالهم (والله أعلم بما كانوا يكتمون) من النفاق (وترى كثيرا منهم) من اليهود (يسارعون في الاثم) عن الكذب (والعدوان) الظلم أو الاثم ما يختص بهم والعدوان ما يتعداهم الى غيرهم والمسارعة في الشئ الشروع فيه بسرعة (وأكلهم السحت) الحرام (لبئس ما كانوا يعملون) لبئس شيأ عملوه (لولا) هلا وهو تحضيض (ينهاهم الربانيون والاحبار

* تحية بينهم ضرب وجيع * ومنه قوله تعالى فبشرهم بعذاب أليم والمعنى قل هل أنبئكم بشر من أهل ذلك الدين مثوبة فان قلت هذا يقتضي ان الموصوفين بذلك الدين محكوم عليهم بالشر لانه تعالى قال بشر من ذلك ومعلوم ان الامر ليس كذلك فما جوابه قلت جوابه ان الكلام خرج على حسب قولهم واعتقادهم فان اليهود حكموا بأن اعتقاد ذلك الدين شر فقال لهم هب ان الامر كذلك لكن من لعنه الله وغضب عليه ومسخ صورته شر من ذلك ۞ وقوله تعالى (من لعنه الله) معناه هل أنبئكم بمن لعنه الله أو هو من لعنه الله ومعنى لعنه الله أبعده وطرده عن رحمته (وغضب عليه) يعني وانتقم منه لان الغضب ارادة الانتقام من العصاة (وجعل منهم القردة والخنازير) يعني من اليهود من لعنه الله وغضب عليه ومنهم من جعلهم قردة وخنازير قال ابن عباس ان الممسوخين كلاهما أصحاب السبت فشبانهم مسخوا قردة ومشايخهم مسخوا خنازير وقيل ان مسخ القردة كان في أصحاب السبت من اليهود ومسخ الخنازير كان في الذين كفروا بعد نزول المائدة في زمن عيسى عليه السلام ولما نزلت هذه الآية عير المسلمون اليهود وقالوا لهم يا اخوان القردة والخنازير فافتضحوا بذلك (وعبد الطاغوت) يعني وجعل منهم عبد الطاغوت يعني من أطاع الشيطان فيما سول له والطاغوت هو الشيطان وقيل هو العجل وقيل هو الكهان والاحبار وجملته ان كل من أطاع أحدا في معصية الله فقد عبده وهو الطاغوت (أولئك) يعني الملعونين والمغضوب عليهم والممسوخين (شر مكانا) يعني من غيرهم ونسب الشر الى المكان والمراد به أهله فهو من باب الكناية وقيل أراد ان مكانهم سقر ولا مكان أشد شرا منه (وأضل عن سواء السبيل) يعني وأخطأ عن قصد طريق الحق ۞ قوله تعالى (واذا جاؤكم قالوا آمنا) قال قتادة نزلت في أناس من اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه انهم مؤمنون راضون بالذي جاء به وهم متمسكون بضلالتهم وكفرهم فكان هؤلاء يظهرون الايمان وهم في ذلك منافقون فأخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بحالهم وشأنهم (وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به) يعني انهم دخلوا كافرين وخرجوا كما دخلوا كافرين لم يتعلق بقلوبهم شئ من الايمان فهم كافرون في حالتي الدخول والخروج (والله أعلم بما كانوا يكتمون) يعني من الكفر الذي في قلوبهم ۞ قوله عز وجل (وترى كثيرا منهم) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يعني وترى يا محمد كثيرا من اليهود وكلمة من يحتمل أن تكون للتبعيض واعلم ان هذه الافعال المذكورة في هذه الآية ما كان يفعلها كل اليهود فلذا قال تعالى وترى كثيرا منهم (يسارعون) المسارعة في الشئ المبادرة اليه بسرعة لكن لفظة المسارعة انما تستعمل في الخير ومنه قوله تعالى يسارعون في الخيرات وضدها العجلة وتقال في الشر في الاغلب وانما ذكرت لفظة المسارعة في قوله يسارعون (في الاثم والعدوان وأكلهم السحت) لفائدة وهي انهم كانوا يقدمون على هذه المنكرات كأنهم محقون فيها والاثم اسم جامع لجميع المعاصي والمنهيات فيدخل تحته العدوان وأكل السحت فلهذا ذكر الله العدوان وأكل السحت بعد الاثم والمعاصي وقيل الاثم ما كتموه من التوراة والعدوان ما زادوا فيها والسحت هو الرشا وما كانوا يأكلونه من غير وجهه (لبئس ما كانوا يعملون) يعني لبئس العمل كان هؤلاء اليهود يعملون وهو مسارعتهم الى الاثم والعدوان وأكلهم السحت ۞ قوله تعالى (لولا) يعني هلا وهي هنا بمعنى التحضيض والتوبيخ (ينهاهم الربانيون والاحبار) قال الحسن الربانيون علماء أهل الانجيل والاحبار علماء أهل التوراة وقال غيره كلهم من اليهود لانه متصل بذكرهم

(عن قولهم الاثم) يعني الكذب (وأكلهم السحت) والمعنى هلا نهى الاحبار والرهبان اليهود عن قولهم الاثم وأكلهم السحت (لبئس ما كانوا يصنعون) يعني الاحبار والرهبان اذ لم ينهوا غيرهم عن المعاصي وهذا يدل على ان تارك النهي عن المنكر بمنزلة مرتكبه لان الله تعالى ذم الفريقين في هذه الآية قال ابن عباس ما في القرآن أشد توبيخا من هذه الآية وقال الضحاك ما في القرآن آية أخوف عندي منها ۞ قوله عزوجل (وقالت اليهود يد الله مغلولة) نزلت هذه الآية في فنحاص اليهودي قال ابن عباس ان الله كان قد بسط على اليهود حتى كانوا أكثر الناس أموالا وأخصبهم ناحية فلما عصوا الله ومحمدا صلى الله عليه وسلم وكذبوا به كف عنهم ما بسط عليهم من السعة فعند ذلك قال فنحاص يد الله مغلولة يعني محبوسة مقبوضة عن الرزق والبذل والعطاء فنسبوا الله تعالى الى البخل والقبض تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ولما قال هذه المقالة الخبيثة فنحاص ولم ينهه بقية اليهود ورضوا بقوله لاجرم ان الله تعالى أشركهم معه في هذه المقالة فقال تعالى اخبارا عنهم وقالت اليهود يد الله مغلولة يعني نعمته مقبوضة عنا وقيل معناه يد الله مكفوفة عن عذابنا فليس يعذبنا الا بقدر ما يبر به قسمه وذلك قدر ما عبد آباؤنا العجل والقول الاول أصح لقوله تعالى ينفق كيف يشاء واعلم ان غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود بدليل قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط والسبب ان اليد آلة لكل الاعمال لاسيما لدفع المال وانفاقه وامساكه فاطلقوا اسم السبب على المسبب وأسندوا الجود والبخل الى اليد مجازا فقيل للجواد الكريم فياض اليد ومبسوط اليد وقيل للبخيل مقبوض اليد ۞ وقوله تعالى (غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا) يعني أمسكت أيديهم عن كل خير وطردوا عن رحمة الله قال الزجاج رد الله عليهم فقال أنا الجواد الكريم وهم البخلاء وأيديهم هي المغلولة الممسوكة وقيل هذا دعاء على اليهود علمنا الله كيف ندعو عليهم فقال غلت أيديهم أي في نار جهنم فعلى هذا هو من الغل حقيقة أي شدت أيديهم الى أعناقهم وطرحوا في النار جزاء لهم على هذا القول ومعنى لعنوا بما قالوا عذبوا بسبب ما قالوا فمن لعنتهم أنهم مسخوا في الدنيا قردة وخنازير وضربت عليهم الذلة والمسكنة والجزية وفي الآخرة لهم عذاب النار ۞ وقوله تعالى (بل يداه مبسوطتان) يعني انه تعالى جواد كريم ينفق كيف يشاء وهذا جواب لليهود ورد عليهم ما افتروه واختلقوه على الله تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا وانما أجيبوا بهذا الجواب على قدر كلامهم وأما الكلام في اليد فقد اختلف العلماء في معناها على قولين أحدهما وهو مذهب جمهور السلف وعلماء أهل السنة وبعض المتكلمين ان يد الله صفة من صفات ذاته كالسمع والبصر والوجه فيجب علينا الايمان بها والتسليم ونمرها كما جاءت في الكتاب والسنة بلا كيف ولا تشبيه ولا تعطيل قال الله تعالى لما خلقت بيدي وقال النبي صلى الله عليه وسلم عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين والقول الثاني قول جمهور المتكلمين وأهل التأويل فانهم قالوا اليد تذكر في اللغة على وجوه أحدها الجارحة وهي معلومة وثانيها النعمة يقال لفلان عندي يد أشكره عليها وثالثها القدرة قال الله تعالى أولي الايدي والابصار فسروه بذوي القوى والعقول ويقال لا يد لك بهذا الامر والمعنى سلب كمال القدرة ورابعها الملك يقال هذه الضيعة في يد فلان أي في ملكه ومنه قوله تعالى الذي بيده عقدة النكاح أي يملك ذلك أما الجارحة فمنتفية في صفة الله عزوجل لان العقل دل على انه يمتنع أن تكون يد الله عبارة عن جسم مخصوص وعضو مركب من الاجزاء والابعاض تعالى الله عن الجسمية والكيفية والتشبيه علوا كبيرا فامتنع بذلك أن تكون يد الله بمعنى الجارحة واما سائر المعاني التي فسرت اليد بها فحاصلة لان أكثر العلماء من المتكلمين زعموا أن اليد في حق الله عبارة عن القدرة وعن الملك وعن النعمة وههنا اشكالان أحدهما أن اليد اذا فسرت بمعنى القدرة فقدرة الله واحدة ونص القرآن ناطق باثبات اليدين في قوله تعالى بل يداه مبسوطتان وأجيب عن هذا الاشكال بان اليهود لما جعلوا قولهم يد الله

عن قولهم الاثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون) هذا ذم للعلماء والاول للعامة وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي أشد آية في القرآن حيث أنزل تارك النهي عن المنكر منزلة مرتكب المنكر في الوعيد (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان) روي ان اليهود لعنهم الله لما كذبوا محمدا عليه السلام كف الله ما بسط عليهم من السعة وكانوا من أكثر الناس مالا فعند ذلك قال فنحاص يد الله مغلولة ورضي بقوله الآخرون فاشركوا فيه وغل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود ومنه قوله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط ولا يقصد المتكلم به اثبات يد ولا غل ولا بسط حتى انه يستعمل في ملك يعطي ويمنع بالاشارة من غير استعمال اليد ولو أعطى الاقطع الى المنكب عطاء جزلا لقالوا ما أبسط يده بالنوال وقد استعمل حيث لا تصح اليد يقال بسط الياس كفيه في صدري فجعل لليأس الذي هو من المعاني كفان ومن لم ينظر في علم البيان يتحير في تأويل امثال هذه الآية وقوله غلت أيديهم دعاء عليهم بالبخل ومن ثم كانوا أبخل خلق الله أو تغل في جهنم فهي كأنها غلت وانما ثنيت اليد في بل يداه مبسوطتان وهي مفردة في يد الله مغلولة ليكون رد قولهم وانكاره أبلغ وأدل على اثبات غاية السخاء له ونفي البخل عنه فغاية ما يبذله السخي أن يعطيه بيديه

مغلولة كناية عن البخل أجيبوا على وفق كلامهم فقال بل يداه مبسوطتان أى ليس الامر على ماوصفتموه من البخل بل هو جواد كريم على سبيل الكمال فان من أعطى بيديه فقد أعطى على أكمل الوجوه والاشكال الثانى ان اليد اذا فسرت بالنعمة فنص القرآن ناطق بتثنية اليد ونعم الله غير محصورة ولا معدودة ومنه قوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها وأجيب عن هذا الاشكال بان التثنية بحسب الجنس ثم يدخل تحت كل واحد من الجنسين أنواع كثيرة لانهاية لها مثل نعمة الدنيا ونعمة الدين ونعمة الظاهر ونعمة الباطن ونعمة النفع ونعمة الدفع فالمراد بالتثنية المبالغة فى وصف النعمة أجاب أصحاب القول الاول عن هذا بان قالوا ان الله تعالى أخبر عن آدم انه خالقه بيديه ولو كان معنى خلقه لآدم بقدرته أو بنعمته أو بملكه لم يكن لخصوصية آدم بذلك وجه مفهوم لان جميع خلقه مخلوقون بقدرته وجميعهم فى ملكه ومتقلبون فى نعمه فلما خص الله آدم عليه السلام بقوله تعالى لما خلقت بيدى دون خلقه علم بذلك اختصاصه وتشريفه على غيره ونقل الامام فخر الدين الرازى عن أبى الحسن الاشعرى قولا ان اليد صفة قائمة بذات الله وهى صفة سوى القدرة من شأنها التكوين على سبيل الاصطفاء قال والذى يدل عليه انه تعالى جعل وقوع خلق آدم بيديه على سبيل الكرامة لآدم واصطفائه له فلو كانت اليد عبارة عن القدرة امتنع كون آدم مصطفى بذلك لان ذلك حاصل فى جميع المخلوقات فلا بد من اثبات صفة أخرى وراء القدرة يقع بها الخلق والتكوين على سبيل الاصطفاء هذا آخر كلامه وأجيب عن قولهم ان التثنية بحسب الجنس ثم يدخل تحت كل واحد من الجنسين أنواع كثيرة بان الاسم اذا ثنى لايؤدى فى كلام العرب الاعن اثنين باعيانهما دون الجمع ولا يؤدى عن الجنس أيضا قالوا وخطأ فى كلام العرب أن يقال ما أكثر الدرهمين فى أيدى الناس بمعنى ما أكثر الدراهم فى أيديهم لان الدرهم اذا ثنى لايؤدى فى كلام العرب الاعن اثنين باعيانهما ولكن الواحد يؤدى عن جنسه كما تقول العرب ما أكثر الدرهم فى أيدى الناس بمعنى ما أكثر الدراهم فى أيديهم لان الواحد يؤدى عن الجمع فثبت بهذا البيان قول من قال ان اليد صفة لله تعالى تليق بجلاله وانها ليست بجارحة كما تقول المجسمة تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا (ينفق كيف يشاء) يعنى انه تعالى يرزق كما يريد و يختار فيوسع على من يشاء و يقتر على من يشاء لااعتراض عليه فى ملكه ولا فيما يفعله (ق) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال الله تبارك وتعالى أنفق أنفق عليك وقال يد الله ملأى لاتغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والارض فانه لم ينقص ما بيده وكان عرشه على الماء و بيده الميزان يرفع و يخفض هذا الحديث أيضا أحد أحاديث الصفات فيجب الايمان به وامراره كما جاء من غير تشبيه ولا تكييف ۞ وقوله تعالى (وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك طغيانا وكفرا) يعنى كلما نزلت عليك آية من القرآن كفروا بها فازدادوا شدة فى كفرهم وطغيانا مع طغيانهم والمراد بالكثير علماء اليهود وقيل اقامتهم على كفرهم زيادة منهم فيه (وألقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة) يعنى ألقينا العداوة والبغضاء بين اليهود والنصارى وقيل ألقى ذلك بين طوائف اليهود فجعلهم مختلفين فى دينهم متعادين متباغضين الى يوم القيامة فان بعض اليهود جبرية و بعضهم قدرية و بعضهم مشبهة وكذلك النصارى فرق كالملكانية والنسطورية واليعقوبية والمارونية فان قلت فهذا المعنى أيضا حاصل بين فرق المسلمين فكيف يكون ذلك عيبا على اليهود والنصارى حتى يذموا به قلت هذه البدع التى حصلت فى المسلمين انما حدثت بعد عصر النبى صلى الله عليه وسلم وعصر الصحابة والتابعين أما فى الصدر الاول فلم يكن شئ من ذلك حاصلا بينهم فحسن جعل ذلك عيبا على اليهود والنصارى فى ذلك العصر الذى نزل فيه القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم (كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) يعنى كلما أفسد اليهود وخالفوا حكم الله يبعث الله عليهم من يهلكهم أفسدوا فبعث الله عليهم بختنصر البابلى ثم أفسدوا فبعث الله عليهم طيطوس الرومى ثم أفسدوا فسلط الله

(ينفق كيف يشاء) تأكيد للوصف بالسخاء ودلالة على أنه لاينفق الا على مقتضى الحكمة (وليزيدن كثيرا منهم) من اليهود (ما أنزل اليك من ربك طغيانا وكفرا) أى يزدادون عند نزول القرآن لحسدهم تماديا فى الجحود وكفرا بآيات الله وهذا من اضافة الفعل الى السبب كما قال فزادتهم رجسا الى رجسهم (وألقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة) فكلمهم أبدا مختلفة وقلوبهم شتى لايقع بينهم اتفاق ولا تعاضد (كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) كلما أرادوا محاربة أحد غلبوا وقهروا لم يقم لهم نصر من الله على أحد قط وقد أتاهم الاسلام وهم فى ملك المجوس وقيل كلما حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم نصر عليهم عن قتادة لاتلقى يهوديا فى بلد الا وجدته من أذل الناس

عليهم المجوس وهم الفرس ثم أفسدوا وقالوا يد الله مغلولة فبعث الله المسلمين فلا تزال اليهود فى ذلة أبدا وقال مجاهد معنى الآية كلما مكروا مكرا فى حرب محمد صلى الله عليه وسلم أطفأها الله تعالى وقال السدى كلما أجمعوا أمرهم على شئ ليفسدوا به أمر محمد صلى الله عليه وسلم فرقه الله تعالى وكلما أوقدوا نارا فى حرب محمد صلى الله عليه وسلم أطفأها الله وأخمد نارهم وقذف فى قلوبهم الرعب وقهرهم ونصر نبيه ودينه (و يسعون فى الارض فسادا) يعنى و يجتهدون فى دفع الاسلام ومحو ذكر محمد صلى الله عليه وسلم من كتبهم وقيل انهم يسعون بالمكر والكيد والحيل وليس يقدرون على غير ذلك (والله لا يحب المفسدين) يعنى ان الله لا يحب من كانت هذه صفته قال قتادة لا تلقى اليهود ببلدة الا وجدتهم من أذل الناس فيها وهم أبغض خلق الله اليه ۞ قوله تعالى (ولو أن أهل الكتاب آمنوا) يعنى بمحمد صلى الله عليه وسلم وصدقوه فيما جاء به (واتقوا) يعنى اليهودية والنصرانية (لكفرنا عنهم سيآتهم) يعنى لمحونا عنهم ذنوبهم التى عملوها قبل الاسلام لان الاسلام يجب ما قبله (ولادخلناهم جنات النعيم) يعنى مع المسلمين يوم القيامة (ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل) يعنى أقاموا أحكامهما بحدودهما وعملوا بما فيهما من الوفاء بالعهود والتصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم لان نعته وصفته موجودان فيهما فان قلت كيف يأمر أهل الكتاب باقامة التوراة والانجيل مع انهما نسخا ولا بد لا قلت انما أمرهم الله تعالى باقامة ما فيهما من الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم واتباع شريعته وهذا غير منسوخ لانه موافق لما فى القرآن ۞ وقوله تعالى (وما أنزل اليهم من ربهم) فيه قولان أحدهما ان المراد به كتب أنبيائهم القديمة مثل كتاب شعياء وكتاب ارمياء وزبور داود وفى هذه الكتب أيضا ذكر محمد صلى الله عليه وسلم فيكون المراد باقامة هذه الكتب الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقول الثانى ان المراد بما أنزل اليهم من ربهم هو القرآن لانهم مامورون بالايمان به فكأنه نزل اليهم من ربهم (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) يعنى أن اليهود لما أصروا على تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وثبتوا على كفرهم و يهوديتهم أصابهم الله بالقحط والشدة حتى بلغوا الى حيث قالوا يد الله مغلولة فاخبر الله أنهم لو تركوا اليهودية والكفر الذى هم عليه لانقلبت تلك الشدة بالخصب والسعة وهو قوله تعالى لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم قال ابن عباس معناه لانزلت عليهم المطر وأخرجت لهم النبات والمراد من ذلك توسعة الرزق عليهم (منهم أمة مقتصدة) أى عادلة والاقتصاد فى العمل من غير غلو ولا تقصير وأصله من القصد لان من عرف مقصودا طلبه من غير اعوجاج عنه والمراد بالامة المقتصدة من آمن من أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وأصحابه والنجاشى وأصحابه الذين أسلموا (وكثير منهم) يعنى من أهل الكتاب الذين أقاموا على كفرهم مثل كعب بن الاشرف ورؤساء اليهود (ساء ما يعملون) يعنى بئس ما يعملون من اقامتهم على كفرهم قال ابن عباس عملوا بالقبيح مع التكذيب بالنبى صلى الله عليه وسلم ۞ قوله عز وجل (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك) الآية روى عن الحسن أن الله تعالى لما بعث رسوله صلى الله عليه وسلم ضاق ذرعا وعرف ان من الناس من يكذبه فانزل هذه الآية وقيل نزلت فى عيب اليهود وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم دعاهم الى الاسلام فقالوا أسلمنا قبلك وجعلوا يستهزؤن به و يقولون تريد أن نتخذك حنانا كما اتخذت النصارى وعيسى حنانا فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم ذلك منهم سكت فانزل الله هذه الآية وأمره بان يقول لهم يا أهل الكتاب لستم على شئ الآية وقيل نزلت هذه الآية فى أمر الجهاد وذلك أن المنافقين كرهوه فكان النبى صلى الله عليه وسلم يمسك فى بعض الاحايين عن الحث على الجهاد لما علم من كراهية بعضهم له فانزل الله هذه الآية وقيل نزلت فى قصة الرجم والقصاص وما سال عنه

بالتقوى (لكفرنا عنهم سيآتهم) ولم نؤاخذهم بها (ولادخلناهم جنات النعيم) مع المسلمين (ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل) أى أقاموا أحكامهما وحدودهما وما فيهما من نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (وما أنزل اليهم من ربهم) من سائر كتب الله لانهم مكلفون الايمان بجميعها فكأنها أنزلت اليهم وقيل هو القرآن (لأكلوا من فوقهم) يعنى الثمار من فوق رؤسهم (ومن تحت أرجلهم) يعنى الزروع وهذه عبارة عن التوسعة كقولهم فلان فى النعمة من فرقه الى قدمه ودلت الآية على ان العمل بطاعة الله تعالى سبب لسعة الرزق وهو كقوله تعالى ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا الآيات وأن لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقا (منهم أمة مقتصدة) طائفة حالها أمم فى عداوة رسول الله عليه السلام وقيل هى الطائفة المؤمنة

وهم عبد الله بن سلام وأصحابه وثمانية وأربعون من النصارى (وكثير منهم ساء ما يعملون) فيه معنى التعجب كأنه قيل وكثير منهم ما أسوأ عملهم وقيل هم كعب بن الاشرف وأصحابه وغيرهم (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك) جميع ما أنزل اليك وأى شئ أنزل اليك غير مراقب

اليهود ومعنى الآية يا أيها الرسول بلغ جميع ما أنزل اليك من ربك مجاهرا به ولا تراقبن أحدا ولا تترك شيأ مما أنزل اليك من ربك وان أخفيت شيأ من ذلك فى وقت من الاوقات فما بلغت رسالته وهو قوله تعالى (وان لم تفعل فما بلغت رسالته) وقرئ رسالاته قال ابن عباس يعنى ان كتمت آية مما أنزل اليك من ربك لم تبلغ رسالتى يعنى أنه صلى الله عليه وسلم لو ترك ابلاغ البعض كان كمن لم يبلغ شيأ مما أنزل الله اليه وحاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكتم شيأ مما أوحى اليه روى مسروق عن عائشة قالت من حدثك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتم شيأ مما أنزل اليه فقد كذب ثم قرأت يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك أخرجاه فى الصحيحين بزيادة فيه وقوله تعالى (والله يعصمك من الناس) يعنى يحفظك يا محمد ويمنعك منهم والمراد بالناس هنا الكفار فان قلت أليس قد شج رأسه وكسرت رباعيته يوم أحد وقد أوذى بضروب من الاذى فكيف يجمع بين ذلك وبين قوله والله يعصمك من الناس قلت المراد منه أنه يعصمه من القتل فلا يقدر عليه أحد أراده بالقتل ويدل على صحة ذلك ما روى عن جابر أنه غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل نجد فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم قفل معه فادركتهم القائلة فى واد كثير العضاه فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرق الناس يستظلون بالشجر فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة فعلق بها سيفه ونمنا معه نومة فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعونا واذا عنده اعرابى فقال ان هذا اخترط على سيفى وأنا نائم فاستيقظت وهو فى يده صلتا فقال من يمنعك منى فقلت الله ثلاثا ولم يعاقبه وجلس وفى رواية أخرى قال جابر كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بذات الرقاع فاذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم معلق بالشجرة فاخترطه فقال تخافنى فقال لا فقال من يمنعك منى قال الله فتهدده أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجاه فى الصحيحين وزاد البخارى فى رواية له ان اسم ذلك الرجل غورث بن الحرث (ق) عن عائشة رضى الله عنها قالت سهر رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمه المدينة ليلة فقال ليت رجلا صالحا من أصحابى يحرسنى الليلة قالت فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة السلاح فقال من هذا قال سعد بن أبى وقاص فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء بك فقال وقع فى نفسى خوف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئت أحرسه فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نام وعن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرس ليلا حتى نزلت والله يعصمك من الناس فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من القبة فقال لهم أيها الناس انصرفوا فقد عصمنى الله أخرجه الترمذى وقال حديث غريب وقيل فى الجواب عن هذا ان هذه الآية نزلت بعد ما شج رأسه فى يوم أحد لان سورة المائدة من آخر القرآن نزولا وقوله (ان الله لا يهدى القوم الكافرين) قال ابن عباس معناه لا يرشد من كذبك وأعرض عنك وقال ابن جرير الطبرى معناه ان الله لا يوفق للرشد من حاد عن سبيل الحق وجار عن قصد السبيل وجحد ما جئت به من عند الله ولم ينته الى أمر الله وطاعته فيما فرض عليه وأوجبه ۞ قوله تعالى (قل يا أهل الكتاب لستم على شئ) يعنى قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى لستم على شئ من الدين الحق المرتضى عند الله ولستم على شئ مما تدعون انكم عليه مما جاءكم به موسى عليه السلام يا معشر اليهود ولا مما جاءكم به عيسى يا معشر النصارى فانكم أحدثتم وغيرتم قال ابن عباس جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم رافع بن حارثة وسلام بن مشكم ومالك بن الصيف ورافع بن حرملة وقالوا يا محمد ألست تزعم أنك على ملة ابراهيم ودينه وتؤمن بما عندنا من التوراة وتشهد أنها حق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بلى ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ عليكم من الميثاق وكتمتم منها ما أمرتم أن تبينوه للناس فانا برئ من احداثكم قالوا فانا نأخذ بما فى أيدينا فانا على الحق

والهدى

فى تبليغه أحدا ولا خائف أن ينالك مكروه (وان لم تفعل) وان لم تبلغ جميعه كما أمرتك (فما بلغت رسالته) رسالاته مدنى وشامى وأبو بكر أى فلم تبلغ اذا ما كلفت من أداء الرسالة ولم تؤد منها شيأ قط وذلك ان بعضها ليس باولى بالاداء من بعض فاذا لم تؤد بعضها فكانك أغفلت أداءها جميعا كما ان من لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكلها لكونها فى حكم شئ واحد لدخولها تحت خطاب واحد والشئ الواحد لا يكون مبلغا غير مبلغ مؤمنا به غير مؤمن قالت الملحدة لعنهم الله تعالى هذا كلام لا يفيد وهو كقولك لغلامك كل هذا الطعام فان لم تأكله فانك ما أكلته قلنا هذا أمر بتبليغ الرسالة فى المستقبل أى بلغ ما أنزل اليك من ربك فى المستقبل فان لم تفعل أى ان لم تبلغ الرسالة فى المستقبل فكانك لم تبلغ الرسالة أصلا أو بلغ ما أنزل اليك من ربك الآن ولا تنتظر به كثرة الشوكة والعدة فان لم تبلغ كنت كمن لم يبلغ أصلا أو بلغ ذلك غير خائف أحدا فان لم تبلغ على هذا الوصف فكانك لم تبلغ الرسالة أصلا ثم قال مشجعا له فى التبليغ (والله يعصمك من الناس) يحفظك منهم قتلا فلم يقدر عليه وان شج فى وجهه يوم أحد وكسرت رباعيته أو نزلت بعد ما أصابه ما أصابه والناس الكفار بدليل قوله (ان الله لا يهدى القوم الكافرين) لا يمكنهم مما يريدون انزاله بك من الهلاك (قل يا أهل الكتاب لستم على شئ) على دين يعتد به حتى يسمى شيأ لبطلانه

(حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم) يعني القرآن (وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك طغيانا وكفرا) اضافة زيادة الكفر والطغيان الى القرآن بطريق التسبيب (فلا تأس على القوم الكافرين) فلا تتأسف عليهم فان ضرر ذلك يعود اليهم لا اليك (ان الذين آمنوا) بالسنتهم وهم المنافقون ودل عليه قوله لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بافواههم ولم تؤمن قلوبهم (والذين هادوا والصابئون والنصارى) قال سيبويه وجميع البصريين ارتفع الصابئون بالابتداء وخبره محذوف والنية به التأخير عما في حيز ان من اسمها وخبرها كأنه قيل ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى (من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) والصابئون كذلك أي من آمن بالله واليوم الآخر فلا خوف عليهم فقدم وحذف الخبر كقوله

فمن يك أمسى بالمدينة رحله ❊ فاني وقيار بها لغريب

أي فاني لغريب وقيار كذلك ودل اللام على انه خبر ان ولا يرتفع بالعطف على محل ان واسمها لان ذا لا يصح قبل الفراغ من الخبر لا تقول ان زيدا وعمرو منطلقان وانما يجوز ان زيدا منطلق وعمرو والصابئون مع خبره المحذوف جملة معطوفة على جملة قوله ان الذين آمنوا الى آخره ولا محل لها كما لا محل للتي عطفت عليها وفائدة التقديم التنبيه على أن الصابئين وهم أبين هؤلاء المعدودين ضلالا وأشدهم غيا يتاب عليهم ان صح منهم الايمان فما الظن بغيرهم ومحل من آمن الرفع على الابتداء وخبره فلا خوف عليهم والفاء لتضمن المبتدا معنى الشرط ثم الجملة كما هي خبر ان والراجع الى اسم ان محذوف تقديره من آمن منهم (لقد أخذنا ميثاق بني اسرائيل) بالتوحيد (وأرسلنا اليهم رسلا) ليقفوهم على ما يأتون وما يذرون في دينهم (كلما جاءهم رسول) جملة شرطية وقعت صفة لرسلا والراجع محذوف أي رسول منهم (بما لا تهوى أنفسهم) بما يخالف هواهم ويضاد شهواتهم من مشاق التكليف والعمل بالشرائع وجواب الشرط محذوف دل عليه (فريقا كذبوا وفريقا يقتلون) كأنه قيل كلما جاءهم رسول منهم ناصبوه وقوله فريقا كذبوا جواب مستأنف لقائل يقو[illegible] لوا [illegible]سلهم

والهدى ولا نؤمن لك ولا نتبعك فأنزل الله قل يا أهل الكتاب لستم على شيء (حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم) الآية وقد تقدم معنى اقامة التوراة والانجيل وانه يلزمهم العمل بما فيهما وهو الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وقد تقدم تفسير ما أنزل اليكم من ربكم (وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك طغيانا وكفرا) ❊ وقوله تعالى (فلا تأس على القوم الكافرين) يعني فلا تحزن يا محمد على هؤلاء الذين جحدوا نبوتك ولم يؤمنوا بك فانما يعود ضرر ذلك الكفر عليهم قوله عز وجل (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى) لما بين الله عز وجل ان أهل الكتاب ليسوا على شيء ما لم يؤمنوا بين في هذه الآية ان هذا الحكم عام في كل أهل الملل وانه لا يحصل لاحد منهم فضيلة ولا منقبة الا اذا آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا يرضاه الله ومن العمل الصالح الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم لانه لا يتم الايمان الا به وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة وقوله تعالى والصابئون ظاهر الاعراب يقتضي ان يقال والصابئين وكذا قراءة أبي بن كعب وابن مسعود وابن كثير من السبعة وقرأ الجمهور بالرفع ومذهب الخليل وسيبويه انه ارتفع الصابئون بالابتداء على نية التأخير كأنه قيل ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والصابئون كذلك فحذف خبره والحكمة في عطف الصابئين على من قبلهم هي ان الصابئين أشد الفرق المذكورة في هذه الآية ضلالا فكأنه قال كل هؤلاء الفرق اذا آمنوا وأتوا بالعمل الصالح قبل الله توبتهم حتى الصابئون فانهم اذا آمنوا كانوا أيضا كذلك وانما سموا صابئين لانهم صبؤا عن الاديان كلها يعني خرجوا لانهم صبؤا الى اتباع الهوى والشهوات في دينهم ولم يتبعوا ما جاءت به الرسل من عند الله فان قلت قد قال الله تعالى في أول الآية ان الذين آمنوا ثم قال في آخر الآية من آمن فما فائدة هذا التكرار قلت فائدته ان المنافقين كانوا يظهرون الاسلام ويزعمون انهم مؤمنون ففي هذا التكرار اخراجهم من قبيل المؤمنين فيكون معنى ان الذين آمنوا أي بالسنتهم لا بقلوبهم ثم قال من آمن يعني من ثبت على ايمانه ورجع عن نفاقه منهم وقيل فيه فائدة أخرى وهي ان الايمان يدخل تحته أقسام كثيرة وأشرفها الايمان بالله واليوم الآخر ففائدة التكرار التنبيه على أن أشرف أقسام الايمان هذان القسمان وفي قوله (من آمن بالله) حذف تقديره من آمن بالله (واليوم الآخر) منهم وانما حسن هذا الحذف لكونه معلوما عند السامعين (وعمل صالحا) يعني وضم الى ايمانه العمل الصالح وهو الذي يراد به وجه الله تعالى (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) يعني في الآخرة قوله عز وجل (لقد أخذنا ميثاق بني اسرائيل) يعني أخذنا العهود عليهم في التوراة بان يعملوا بما فيها من التوحيد والعمل بما أمرناهم به والانتهاء عما نهيناهم عنه (وأرسلنا اليهم رسلا) يعني لبيان الشرائع والاحكام (كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم) يعني بما يخالف أهواءهم ويضاد شهواتهم من ميثاق التكليف والعمل بالشرائع (فريقا كذبوا) يعني من الرسل الذين جاءتهم (وفريقا يقتلون) يعني من الرسل فكان فيمن كذبوا عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم

وقال يقتلون بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية استفظاعا للقتل وتنبيها على ان القتل من شأنهم وانتصب فريقا وفريقا على انه مفعول كذبوا ويقتلون وقيل التكذيب مشترك بين اليهود والنصارى والقتل مختص باليهود فهم قتلوا زكريا ويحيى (وحسبوا ان لا تكون) حمزة وعلي وأبو عمرو على أن أن مخففة من الثقيلة أصله أنه لا تكون فخففت ان وحذف ضمير الشأن ونزل حسبانهم لقوته في صدورهم منزلة العلم فلذا دخل فعل الحسبان على ان التي هي للتحقيق (فتنة) بلاء وعذاب أي وحسب بنو اسرائيل انهم لا يصيبهم من الله عذاب بقتل الانبياء وتكذيب الرسل وسد ٣ ما يشتمل عليه صلة ان و أن من المسند والمسند اليه مسد مفعولي حسب (فعموا وصموا)

وكان فيمن قتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام وانما فعلوا ذلك نقضا للميثاق وجراءة على الله عز وجل ومخافة لامره ۞ قوله تعالى (وحسبوا) يعني وظن هؤلاء الذين كذبوا الرسل وقتلوا الانبياء (أن لا تكون فتنة) يعني ان لا يعذبهم الله ولا يبتليهم بذلك الفعل الذي فعلوه وانما حملهم على هذا الظن الفاسد انهم كانوا يعتقدون ان كل رسول جاءهم بشرع آخر غير شرعهم يجب عليهم تكذيبه وقتله فلهذا السبب حسبوا أن لا يكون فعلهم ذلك فتنة يبتلون بها وقيل انما أقدموا على ذلك لاعتقادهم أن آباءهم وأسلافهم يدفعون عنهم العذاب في الآخرة (فعموا وصموا) يعني أنهم عموا عن الحق فلم يبصروه وصموا عنه فلم يسمعوه وهذا العمى هو كناية عن عمى البصيرة لا البصر وكذلك الصمم هو كناية عن منع نفوذ الحق الى قلوبهم وسبب ذلك شدة جهلهم وقوة كفرهم واعراضهم عن قبول الحق قال بعض المفسرين سبب هذا العمى والصمم عبادتهم العجل في زمن موسى عليه السلام (ثم تاب الله عليهم) يعني انهم لما تابوا من عبادتهم العجل تاب الله عليهم (ثم عموا وصموا) يعني في زمان زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام لانهم كذبوا عيسى وقتلوا زكريا ويحيى وقيل ان العمى والصمم الاول كان بعد موسى ثم تاب الله عليهم يعني ببعثة عيسى عليه السلام ثم عموا وصموا يعني بسبب الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم (كثير منهم) من اليهود لان بعضهم آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم مثل عبد الله بن سلام وأصحابه (والله بصير بما يعملون) يعني من قتل الانبياء وتكذيب الرسل ۞ قوله عز وجل (لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم) لما حكى الله عن اليهود ما حكاه من نقضهم الميثاق وقتلهم الانبياء وتكذيبهم الرسل وغير ذلك شرع في الاخبار عن كفر النصارى وما هم عليه من فساد الاعتقاد فقال تعالى لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم وهذا قول اليعقوبية والملكانية من النصارى لانهم يقولون ان مريم ولدت الها ولانهم يقولون ان الاله جل وعلا حل في ذات عيسى واتحد به فصار الها تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا (وقال المسيح يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم) يعني وقد كان المسيح قال هذا لبني اسرائيل عند مبعثه اليهم وهذا تنبيه على ما هو الحجة القاطعة على فساد قول النصارى ذلك لانه عليه السلام لم يفرق بينه وبين غيره في العبودية والاقرار لله بالربوبية وان دلائل الحدوث ظاهرة عليه (انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة) يعني انه من يجعل له شريكا من خلقه فقد حرم الله عليه الجنة يعني اذا مات على شركه (ومأواه النار) يعني انه يصير الى النار في الآخرة (وما للظالمين) يعني وما للمشركين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك (من أنصار) يعني ما لهم من أنصار ينصرونهم ويمنعونهم من العذاب يوم القيامة ۞ قوله تعالى (لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة) وهذا قول المرقوسية والنسطورية من النصارى ولتفسير قول النصارى طريقان أحدهما وهو قول أكثر المفسرين انهم أرادوا بهذه المقالة ان الله ومريم وعيسى آلهة ثلاثة وان الالهية مشتركة بينهم وان كل واحد منهم اله ويبين ذلك قوله تعالى للمسيح أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله فقوله ثالث ثلاثة فيه اضمار تقديره ان الله أحد ثلاثة آلهة أو واحد من ثلاثة آلهة قال الواحدي

فلم يعملوا بما رأوا ولا بما سمعوا أو فعموا عن الرشد وصموا عن الوعظ (ثم تاب الله عليهم) رزقهم التوبة (ثم عموا وصموا كثير منهم) هو بدل من الضمير أي الواو وهو بدل البعض من الكل أو هو خبر مبتدأ محذوف أي أولئك كثير منهم (والله بصير بما يعملون) فيجازيهم بحسب أعمالهم لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم لم يفرق عيسى عليه السلام بينه وبينهم في أنه عبد مربوب ليكون حجة على النصارى (انه من يشرك بالله) في عبادته غير الله (فقد حرم الله عليه الجنة) التي هي دار الموحدين أي حرمه دخولها ومنعه منه (ومأواه النار) أي مرجعه (وما للظالمين) أي الكافرين (من أنصار) وهو من كلام الله تعالى أو من كلام عيسى عليه السلام (لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة) أي ثالث ثلاثة آلهة والاشكال انه تعالى قال في الآية الاولى لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم وقال في الثانية لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة والجواب ان بعض النصارى كانوا يقولون كان المسيح بعينه هو الله لان الله ربما يتجلى في بعض الازمان في شخص فتجلى في ذلك الوقت في شخص عيسى ولهذا كان يظهر من شخص عيسى أفعال لا يقدر عليها الا الله وبعضهم ذهبوا الى آلهة ثلاثة الله ومريم والمسيح وانه ولد الله من مريم ومن في قوله

٣ قوله ما يشتمل عليه صلة أن أي أن وما تشتمل عليه صلتها اه

الواحدى ولا يكفر من يقول ان الله ثالث ثلاثة ولم يرد به انه ثالث ثلاثة آلهة لانه مامن اثنين الا والله ثالثهما بالعلم يدل عليه قوله تعالى فى سورة المجادلة ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لابى بكر ماظنك باثنين الله ثالثهما والطريق الثانى ان المتكلمين حكوا عن النصارى انهم يقولون انه جوهر واحد ثلاثة أقانيم أب وابن وروح القدس وهذه الثلاثة اله واحد كما أن الشمس اسم يتناول القرص والشعاع والحرارة وعنوا بالاب الذات وبالابن الكلمة وبالروح الحياة واثبتوا الذات والكلمة والحياة وقالوا ان الكلمة التى هى كلام الله اختلطت بجسد عيسى اختلاط الماء باللبن وزعموا ان الاب اله والابن اله والروح اله والكل اله واحد واعلم أن هذا الكلام معلوم البطلان ببديهة العقل فان الثلاثة لاتكون واحدا والواحد لايكون ثلاثة ولا ترى فى الدنيا مقالة أشد فسادا ولا أظهر بطلانا من مقالة النصارى وعلى هذا أخبر الله عنهم فى قوله لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة فهذا معنى مذهبهم وان لم يصرحوا بانه واحد من ثلاثة آلهة فذلك لازم لهم وانما يمتنعون من هذه العبارة لانهم اذا قالوا ان كل واحد من الاقانيم اله فقد جعلوه ثالث ثلاثة وقولهم بعد هذا هو اله واحد فيه مناقضة لما قالوا أولا فهذا بيان فساد قول النصارى ثم رد الله عليهم فقال تعالى (ومامن اله الا اله واحد) يعنى انه ليس فى الوجود اله واحد موصوف بالوحدانية لاثانى له ولا شريك له ولا والد له ولا ولد له ولا صاحبة له الا الله تعالى (وان لم ينتهوا عما يقولون) يعنى وان لم ينته النصارى عن هذه المقالة الخبيثة (ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم) يعنى ليصيبن الذين أقاموا على هذا القول الخبيث وهذا الدين الذى ليس بمرضى عذاب وجيع فى الآخرة وانما قال تعالى منهم لعلمه السابق ان من النصارى من سيؤمن ويخلص ويترك هذا القول ويعلم أنه فاسد ثم ندب سائر النصارى الى التوبة من هذه المقالة الخبيثة فقال تعالى (أفلا يتوبون الى الله) يعنى من قولهم بالتثليث (ويستغفرونه) وهذا استفهام بمعنى الامر أى توبوا الى الله واستغفروه من هذا الذنب العظيم فانه تعالى يغفر الذنوب (والله غفور) يعنى لمن استغفره وتاب اليه (رحيم) به وبسائر خلقه ۞ قوله عز وجل (ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل) يعنى المسيح رسول من الله عز وجل ليس باله كما ان الرسل الذين كانوا من قبله لم يكونوا آلهة وقد أتى عيسى عليه السلام بالمعجزات الدالة على صدقه كما أن الذين من قبله أتوا بالمعجزات الدالة على صدقهم (وأمه صديقة) يعنى انها كثيرة الصدق وقيل سميت مريم صديقة لانها صدقت بآيات ربها وكتبه ۞ وقوله تعالى (كانا يأكلان الطعام) فيه احتجاج على فساد قول النصارى بالهية المسيح يعنى ان المسيح وأمه مريم كانا بشرين يأكلان الطعام ويعيشان به كسائر بنى آدم فكيف يكون الها من يحتاج الى الطعام ولا يعيش الا به وقيل معناه انه لو كان الها كما يزعمون لدفع عن نفسه ألم الجوع وألم العطش ولم يوجد ذلك فكيف يكون الها وقيل هذا كناية عن الحدث وذلك ان كل من أكل وشرب لابد له من الغائط والبول ومن كانت هذه صفته فكيف يكون الها وبالجملة فان فساد قول النصارى أظهر من أن يحتاج الى اقامة دليل عليه ثم قال تعالى (انظر) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى انظر يامحمد (كيف نبين لهم الآيات) يعنى الدالة على بطلان قولهم (ثم انظر أنى يؤفكون) أى كيف يصرفون عن استماع الحق وقبوله ۞ قوله تعالى (قل أتعبدون من دون الله) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى قل

(ومامن اله الا اله واحد) للاستغراق أى وما اله قط فى الوجود الا اله موصوف بالوحدانية لاثانى له وهو الله وحده لاشريك له وفى قوله (وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم) للبيان كالتى فى فاجتنبوا الرجس من الاوثان ولم يقل ليمسنهم لان فى اقامة الظاهر مقام المضمر تكريرا للشهادة عليهم بالكفر أو للتبعيض أى ليمسن الذين بقوا على الكفر منهم لان كثيرا منهم تابوا عن النصرانية (عذاب أليم) نوع شديد الالم من العذاب (أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه) ألا يتوبون بعد هذه الشهادة المكررة عليهم بالكفر وهذا الوعيد الشديد مما هم عليه وفيه تعجيب من اصرارهم (والله غفور رحيم) يغفر لهؤلاء ان تابوا ولغيرهم (ما المسيح ابن مريم الا رسول) فيه نفى الالوهية عنه (قد خلت من قبله الرسل) صفة لرسول أى ماهو الا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله وابراؤه الاكمه والابرص واحياؤه الموتى لم يكن منه لانه ليس الها بل الله أبرأ الاكمه والابرص وأحيا الموتى على يده كما أحيا العصا وجعلها حية تسعى على يد موسى وخلقه من غير ذكر كخلق آدم من غير ذكر وأنثى (وأمه صديقة) أى وما أمه أيضا الا كبعض النساء المصدقات للانبياء المؤمنات بهم ووقع اسم الصديقة عليها لقوله تعالى وصدقت بكلمات ربها وكتبه ثم أبعدهما عما نسب اليهما بقوله (كانا يأكلان الطعام) لان من احتاج الى الاغتذاء بالطعام وما يتبعه من الهضم والنقض لم يكن الا جسما كما من لحم وعظم وعروق وأعصاب وغير ذلك مما يدل على انه مصنوع مؤلف كغيره من الاجسام (انظر كيف نبين لهم الآيات) أى الاعلام من الادلة الظاهرة على بطلان قولهم (ثم انظر أنى يؤفكون) كيف يصرفون عن استماع الحق وتامله بعد هذا البيان وهذا تعجيب من الله تعالى فى ذهابهم عن الفرق بين الرب والمربوب (قل أتعبدون من دون الله

مالايملك لكم ضرا ولا نفعا) هو عيسى عليه السلام أي شيأ لا يستطيع أن يضركم بمثل ما يضركم به الله من البلاء والمصائب في الانفس والاموال ولا أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم به من صحة الابدان والسعة والخصب لان كل ما يستطيعه البشر من المضار والمنافع فبتخليقه تعالى فكأنه لا يملك منه شيأ وهذا دليل قاطع على أن أمره مناف للربوبية حيث جعله لا يستطيع ضرا ولا نفعا وصفة الرب أن يكون قادرا على كل شئ لا يخرج مقدور عن قدرته (والله هو السميع العليم) متعلق بأتعبدون أي أتشركون بالله ولا تخشونه وهو الذي يسمع ما تقولونه ويعلم ما تعتقدونه (قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم) الغلو مجاوزة الحد فغلو النصارى رفعه فوق قدره باستحقاق الالوهية وغلو

يا محمد لهؤلاء النصارى أتعبدون من دون الله (ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا) يعني لا يستطيع أن يضركم بمثل ما يضركم الله به من البلايا والمصائب في الانفس والاموال ولا يقدر أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم الله به من صحة الابدان وسعة الارزاق فان الضار والنافع هو الله تعالى لا من تعبدون من دونه ومن لا يقدر على النفع والضر لا يكون الها (والله هو السميع العليم) يعني انه تعالى سميع لاقوالكم وكفركم عليم بما في ضمائركم ❁ قوله عز وجل (قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم) الغلو مجاوزة الحد وذلك ان الحق بين طرفي الافراط والتفريط فمجاوزة الحد والتقصير مذمومان في الدين (غير الحق) يعني لا تغلوا في دينكم غلوا باطلا غير الحق وذلك انهم خالفوا الحق في دينهم ثم غلوا في الاصرار عليه وكلا الفريقين من اليهود والنصارى غلوا في عيسى عليه السلام اما غلو اليهود فالتقصير في حقه حتى نسبوه الى غير رشدة واما غلو النصارى فمجاوزة الحد في حقه حتى جعلوه الها وكلا الغلوين مذموم (ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل) الاهواء جمع هوى وهو ما تدعو شهوة النفس اليه قال الشعبي ما ذكر الله تعالى الهوى في القرآن الا وذمه وقال أبو عبيدة لم نجد الهوى يوضع الا موضع الشر لانه لا يقال فلان يهوى الخير انما يقال فلان يحب الخير ويريده والخطاب في قوله ولا تتبعوا أهواء قوم لليهود والنصارى الذين كانوا في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهوا عن اتباع اسلافهم فيما ابتدعوه من الضلالة بأهوائهم وهو المراد بقوله أهواء قوم قد ضلوا من قبل فبين الله تعالى انهم كانوا على ضلالة (وأضلوا كثيرا) يعني من اتبعهم على ضلالتهم وأهوائهم (وضلوا عن سواء السبيل) يعني وأخطؤا عن قصد طريق الحق ❁ قوله تعالى (لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود) قال أكثر المفسرين هم أصحاب السبت لما اعتدوا في السبت واصطادوا الحيتان فيه قال داود عليه السلام اللهم العنهم واجعلهم قردة فمسخوا قردة وستأتي قصتهم في سورة الاعراف (وعيسى ابن مريم) يعني وعلى لسان عيسى ابن مريم وهم كفار أصحاب المائدة لما أكلوا منها وادخروا ولم يؤمنوا قال عيسى عليه السلام اللهم العنهم واجعلهم خنازير فمسخوا خنازير وستأتي قصتهم وقال بعض العلماء ان اليهود كانوا يفتخرون بأنهم ويقولون نحن من أولاد الانبياء عليهم السلام فأخبر الله تعالى بأنهم ملعونون على ألسنة الانبياء عليهم السلام وقيل ان داود وعيسى بشرا بمحمد صلى الله عليه وسلم ولعنا من يكفر به (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) يعني ذلك اللعن بسبب عصيانهم واعتدائهم ثم فسر الاعتداء والمعصية فقال تعالى (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه) أي لا ينهى بعضهم بعضا عن منكر وقيل معناه لا يتناهون عن معاودة منكر فعلوه ولا عن الاصرار عليه (لبئس ما كانوا يفعلون) اللام في لبئس لام القسم أي اقسم لبئس ما كانوا يفعلون يعني من ارتكاب المعاصي والعدوان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أول ما دخل النقص على بني اسرائيل انه كان الرجل يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فانه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله

اليهود وضعه عن استحقاق النبوة (غير الحق) صفة لمصدر محذوف أي غلوا غير الحق يعني غلوا باطلا (ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل) أي أسلافكم وأئمتكم الذين كانوا على الضلال قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم (وأضلوا كثيرا) ممن تابعهم (وضلوا) لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم (عن سواء السبيل) حين كذبوه وحسدوه وبغوا عليه (لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم) قيل ان أهل ايلة لما اعتدوا في السبت قال داود اللهم العنهم واجعلهم آية فمسخوا قردة ولما كفر أصحاب عيسى بعد المائدة قال عيسى اللهم عذب من كفر بعد ما أكل من المائدة عذابا لم تعذبه أحدا من العالمين والعنهم كما لعنت أصحاب السبت فأصبحوا خنازير وكانوا خمسة آلاف رجل

(ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) ذلك اللعن بعصيانهم واعتدائهم ففسر المعصية والاعتداء بقوله (كانوا لا يتناهون) لا ينهى بعضهم بعضا (عن منكر فعلوه) من قبح فعلوه أو عن وصف المنكر بفعلوه ولا يكون النهي بعد الفعل أنهم لا يتناهون عن معاودة منكر فعلوه أو عن مثل منكر فعلوه أو عن منكر أرادوا فعله والمراد لا ينتهون عن منكر فعلوه بل يصرون عليه يقال تناهى عن الامر وانتهى عنه اذا امتنع منه وتركه ثم عجب من سوء فعلهم مؤكدا لذلك بالقسم بقوله (لبئس ما كانوا يفعلون) وفيه دليل على أن ترك النهي عن المنكر من العظائم فيا حسرة على المسلمين في اعراضهم عنه

قلوب بعضهم ببعض ثم قال لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم الى قوله فاسقون ثم قال كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ثم لتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ولتقصرنه على الحق قصرا زاد في رواية أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ثم يلعنكم كما لعنهم أخرجه أبو داود وأخرجه الترمذي عنه فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما وقعت بنو اسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم في مجالسهم وآكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان متكئا فقال لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا قال الترمذي هذا الحديث حسن غريب قوله أكيله وشريبه وقعيده هو المؤاكل والمشارب والمقاعد فعيل بمعنى فاعل وقوله لتأطرنه الاطر العطف يعني لتعطفنه ولتردنه الى الحق الذي خالفه والقصر القهر على الشئ ۞ قوله عز وجل (ترى كثيرا منهم) يعني من اليهود مثل كعب بن الاشرف وأصحابه (يتولون الذين كفروا) يعني يوالون المشركين من أهل مكة وذلك حين خرجوا اليهم ليجيشوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ابن عباس معناه ترى كثيرا من المنافقين يتولون اليهود (لبئس ما قدمت لهم أنفسهم) يعني بئس ما قدموا من العمل لمعادهم في الآخرة (أن سخط الله عليهم) يعني بما فعلوا من موالاة الكفار (وفي العذاب هم خالدون) يعني في الآخرة (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي) يعني ولو كان هؤلاء الذين يتولون الكفار يؤمنون بالله ويصدقون بمحمد صلى الله عليه وسلم وانه نبي مبعوث الى كافة الخلق (وما أنزل اليه) يعني ويؤمنون بالقرآن الذي أنزل اليه من ربه (ما اتخذوهم أولياء) يعني ما اتخذوا الكفار أنصارا وأعوانا من دون المؤمنين (ولكن كثيرا منهم فاسقون) يعني ولكن أكثرهم خارجون عن طاعة الله وأمره وانما قال كثيرا لانه علم ان منهم من سيؤمن مثل عبد الله بن سلام وأصحابه ۞ قوله تعالى (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) اللام في قوله لتجدن لام القسم تقديره والله يا محمد انك لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا بك وصدقوك اليهود والذين أشركوا وصف الله شدة عداوة اليهود وصعوبة اجابتهم الى الحق وجعلهم قرناء المشركين عبدة الاصنام في العداوة للمؤمنين وذلك حسدا منهم للمؤمنين (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى) ووصف لين عريكة النصارى وسهولة قبولهم الحق قال بعضهم مذهب اليهود انه يجب عليهم ايصال الشر والاذى الى من خالفهم في الدين بأي طريق كان مثل القتل ونهب المال أو بانواع المكر والكيد والحيل ومذهب النصارى خلاف اليهود فان الايذاء في مذهبهم حرام فحصل الفرق بين اليهود والنصارى وقيل ان اليهود مخصوصون بالحرص الشديد على الدنيا وطلب الرياسة ومن كان كذلك كان شديد العداوة لغيره وأما النصارى فان فيهم من هو معرض عن الدنيا ولذاتها وترك طلب الرياسة ومن كان كذلك فانه لا يحسد أحدا ولا يعاديه بل يكون لين العريكة في طلب الحق فلهذا قال تعالى (ذلك بان منهم) يعني من النصارى (قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون) ولم يرد به كل النصارى فان معظم النصارى في عداوة المسلمين كاليهود بل الآية نزلت فيمن آمن من النصارى مثل النجاشي وأصحابه والقس والقسيس اسم رئيس النصارى والجمع قسيسون وقال قطرب القس والقسيس العالم بلغة الروم وهذا مما وقع الوفاق به بين اللغتين يعني العربية والرومية وأما الرهبان فهو جمع راهب وقيل الرهبان واحد وجمعه رهابين وهم سكان الصوامع فان قلت كيف مدحهم الله بذلك مع قوله ورهبانية ابتدعوها قلت انما مدحهم الله في مقابلة ذم اليهود ووصفهم بشدة العداوة للمؤمنين ولا يلزم من هذا القدر أن يكون مدحا

ما قدمت لهم أنفسهم ان سخط الله عليهم) لبئس شيأ قدموه لانفسهم سخط الله عليهم أي موجب سخط الله (وفي العذاب هم خالدون) أي في جهنم (ولو كانوا يؤمنون بالله) ايمانا خالصا بلا نفاق (والنبي) أي محمد صلى الله عليه وسلم (وما أنزل اليه) يعني القرآن (ما اتخذوهم أولياء) ما اتخذوا المشركين أولياء يعني ان موالاة المشركين تدل على نفاقهم (ولكن كثيرا منهم فاسقون) مستمرون في كفرهم ونفاقهم أو معناه ولو كان هؤلاء اليهود يؤمنون بالله وبموسى وما أنزل اليه يعني التوراة ما اتخذوا المشركين أولياء كما لم يوالهم المسلمون ولكن كثيرا منهم فاسقون خارجون عن دينهم فلا دين لهم أصلا (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود) هو مفعول ثان لتجدن وعداوة تمييز (والذين أشركوا) عطف عليهم (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى) اللام تتعلق بعداوة ومودة وصف اليهود بشدة الشكيمة والنصارى بلين العريكة وجعل اليهود قرناء المشركين في شدة العداوة للمؤمنين ونبه على تقدم قدمهم فيها بتقديمهم على المشركين (ذلك بان منهم قسيسين ورهبانا) أي علماء وعبادا (وأنهم لا يستكبرون) علل سهولة مأخذ النصارى وقرب مودتهم للمؤمنين بان منهم قسيسين ورهبانا

على الاطلاق وقيل انما مدح من آمن منهم بمحمد صلى الله عليه وسلم فوصفهم بالتمسك بدين عيسى الى ان بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فآمنوا به وتبعوه فان قلت كفر النصارى أشد واغلظ من كفر اليهود وأقبح فان النصارى ينازعون فى الالهيات فيدعون ان لله ولدا واليهود انما ينازعون فى النبوات فيقرون ببعض النبيين وينكرون بعضهم والاول أقبح فلم ذم اليهود ومدح النصارى قلت انما هو مدح فى مقابلة ذم وليس بمدح على الاطلاق وقد تقدم الفرق بين شدة عداوة اليهود ولين النصارى فلذلك ذم اليهود ومدح النصارى الذين آمنوا منهم واختلف العلماء فيمن نزلت فيه هذه الآية فقيل نزلت فى النجاشى ملك الحبشة واسمه أصحمة وأصحابه الذين أسلموا معه

﴿ذكر قصة الهجرة الاولى وسبب نزول هذه الآية﴾

قال ابن عباس وغيره من المفسرين فى قوله ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ان قريشا ائتمرت ان يفتنوا المؤمنين عن دينهم فوثبت كل قبيلة على من آمن منهم فآذوهم وعذبوهم فافتتن من افتتن منهم وعصم الله من شاء منهم ومنع الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بعمه أبى طالب فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نزل بأصحابه ولم يقدر أن يمنعهم من المشركين ولم يؤمر بعد بالجهاد أمر أصحابه بالخروج الى أرض الحبشة وقال ان بها ملكا صالحا لا يظلم ولا يظلم عنده أحد فاخرجوا اليه حتى يجعل الله للمسلمين فرجا فخرج اليها أحد عشر رجلا وأربع نسوة سرا وهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم والزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود وعبد الرحمن بن عوف وأبو حذيفة بن عتبة وامرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو ومصعب بن عمير وأبو سلمة بن عبد الاسد وزوجته أم سلمة بنت أمية وعثمان بن مظعون وعامر بن ربيعة وامرأته ليلى بنت أبى خيثمة وحاطب بن عمرو وسهيل بن بيضاء فخرجوا الى البحر وأخذوا سفينة بنصف دينار الى أرض الحبشة وذلك فى رجب فى السنة الخامسة من مبعث النبى صلى الله عليه وسلم وهذه الهجرة الاولى ثم خرج بعدهم جعفر بن أبى طالب وتتابع المسلمون فكان جميع من هاجر الى أرض الحبشة من المسلمين اثنين وثمانين رجلا سوى النساء والصبيان فلما علمت قريش بذلك وجهوا عمرو بن العاص وجماعة بهدايا الى النجاشى وبطارقته ليردهم اليهم فدخل اليه عمرو وقال له أيها الملك انه قد خرج فينا رجل سفه عقول قريش واحلامها وزعم انه نبى وانه قد بعث اليك برهط من أصحابه ليفسدوا عليك قومك فأحببنا ان نأتيك ونخبرك خبرهم وان قومهم يسألونك ان تردهم اليهم فقال حتى نسألهم فأمر بهم فاحضروا فلما أتوا باب النجاشى قالوا يستأذن أولياء الله فقال ائذنوا لهم فمرحبا بأولياء الله فلما دخلوا عليه سلموا فقال الرهط من المشركين أيها الملك ألا ترى انا قد صدقناك انهم لم يحيوك بتحيتك التى تحيا بها فقال لهم الملك ما منعكم ان تحيونى بتحيتى فقالوا انا حييناك بتحية أهل الجنة وتحية الملائكة فقال لهم النجاشى ما يقول صاحبكم فى عيسى وأمه فقال جعفر بن أبى طالب يقول هو عبد الله ورسوله وكلمة الله وروح منه ألقاها الى مريم العذراء ويقول فى مريم انها العذراء البتول قال فأخذ النجاشى عودا من الارض وقال والله ما زاد صاحبكم على ما قال عيسى قدر هذا العود فكره المشركون قوله وتغيرت وجوههم فقال هل تعرفون شيأ مما أنزل على صاحبكم قالوا نعم قال اقرؤا فقرأ جعفر سورة مريم وهنالك قسيسون ورهبان وسائر النصارى فعرفوا ما قرأ فانحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق فأنزل الله فيهم ذلك بان منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون الى آخر الآيتين فقال النجاشى لجعفر وأصحابه اذهبوا فأنتم سيوم بارضى يعنى آمنون فرجع عمرو وأصحابه خائبين وأقام المسلمون عند النجاشى بخير دار وخير جوار الى ان هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة وعلا أمره وقهر أعداءه وذلك فى سنة ست من الهجرة وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى النجاشى على يد عمرو بن أمية الضمرى أن يزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان وكانت قد هاجرت مع زوجها ومات عنها فارسل النجاشى جارية يقال لها ابرهة الى أم حبيبة تخبرها أن

رسول

وان فيهم تواضعا واستكانة واليهود على خلافه ذلك وفيه دليل على أن العلم أنفع شئ وأهداه الى الخير وان كان علم القسيسين وكذا علم الآخرة وان كان في راهب والبراءة من الكبر وان كانت في نصراني (واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) وصفهم برقة القلوب وانهم يبكون عند استماع القرآن كما روى عن

النجاشي أنه قال لجعفر بن أبي طالب حين اجتمع في مجلسه المهاجرون الى الحبشة والمشركون وهم يقرؤنه عليهم هل في كتابكم ذكر مريم قال جعفر فيه سورة تنسب الى مريم فقرأها الى قوله ذلك عيسى بن مريم وقرأ سورة طه الى قوله هل أتاك حديث موسى فبكى النجاشي وكذلك فعل قومه الذين وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم سبعون رجلا حين قرأ عليهم سورة يس فبكوا تفيض من الدمع تمتلئ من الدمع حتى تفيض لان الفيض ان يمتلئ الاناء أو غيره حتى يطلع ما فيه من جوانبه فوضع الفيض الذي هو من الامتلاء موضع الامتلاء أو قصدت المبالغة في وصفهم بالبكاء فجعلت أعينهم كأنها تفيض بانفسها أي تسيل من أجل البكاء ومن في مما عرفوا لابتداء الغاية على أن فيض الدمع ابتدأ ونشأ من معرفة الحق وكان من أجله ومن في من الحق لتبيين الموصول الذي هو ما عرفوا أو للتبعيض على أنهم عرفوا بعض الحق فأبكاهم فكيف اذا عرفوا كله وقرؤا القرآن وأحاطوا بالسنة (يقولون) حال من ضمير الفاعل في عرفوا (ربنا آمنا) بمحمد صلى الله عليه وسلم والمراد انشاء الايمان والدخول فيه (فاكتبنا مع الشاهدين) مع أمة محمد عليه السلام الذين هم الشهداء على سائر الامم يوم القيامة لتكونوا شهداء على الناس وقالوا ذلك لانهم وجدوا ذكرهم في الانجيل كذلك

رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خطبها فسرت بذلك وأعطت الجارية أوضاحا كانت لها وأذنت لخالد بن سعيد في نكاحها فأنكحها رسول الله صلى الله عليه وسلم على صداق مبلغه أربعمائة دينار وكان الخاطب لرسول الله صلى الله عليه وسلم النجاشي فأرسل اليها بجميع الصداق على يد جاريته ابرهة فلما جاءتها بالدنانير وهبتها منها خمسين دينارا فلم تأخذها وقالت ان الملك أمرني ان لا آخذ منك شيأ وقالت أنا صاحبة دهن الملك وثيابه وقد صدقت بمحمد صلى الله عليه وسلم وآمنت به وحاجتي اليك ان تقرئيه مني السلام قالت نعم فقالت قد أمر الملك نساءه أن يبعثن اليك بما عندهن من دهن وعود وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يراه عندها فلا ينكره قالت أم حبيبة فخرجنا الى المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحاصر خيبر فخرج من خرج اليه ممن قدم من الحبشة وأقمت بالمدينة حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخلت عليه فكان يسألني عن النجاشي وقرأت عليه السلام من ابرهة جارية الملك فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها السلام وأنزل الله عز وجل عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة يعني أبا سفيان وذلك بتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم حبيبة ولما بلغ أبا سفيان ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج أم حبيبة قال ذلك الفحل لا يجدع أنفه وبعث النجاشي بعد خروج جعفر وأصحابه الى النبي صلى الله عليه وسلم ابنه أزهى في ستين رجلا من أصحابه وكتب اليه يا رسول الله اني أشهد انك رسول الله صادقا مصدقا وقد بايعتك وبايعت ابن عمك جعفرا وأسلمت لله رب العالمين وقد بعثت اليك ابني أزهى وان شئت ان آتيك بنفسي فعلت والسلام عليك يا رسول الله فركبوا في سفينة في أثر جعفر حتى اذا كانوا في وسط البحر غرقوا ووافى جعفر وأصحابه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بخيبر ووافى مع جعفر سبعون رجلا عليهم الثياب الصوف منهم اثنان وستون رجلا من الحبشة وثمانية من الشام فقرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة يس الى آخرها فبكى القوم حين سمعوا القرآن وآمنوا وقالوا ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى عليه السلام فأنزل الله هذه الآية فيهم وهي قوله ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى يعني وفد النجاشي الذين قدموا مع جعفر وهم السبعون وكانوا من أصحاب الصوامع وقيل نزلت في ثمانين رجلا أربعين من نصارى نجران من بني الحرث بن كعب واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية روميين من أهل الشام وقال قتادة نزلت في ناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق مما جاء به عيسى عليه السلام فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم آمنوا به وصدقوه فأثنى الله عليهم بقوله ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون يعني لا يتعظمون عن الايمان والاذعان للحق ۞ قوله عز وجل (واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول) يعني واذا سمعوا القرآن الذي أنزل الى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم (ترى أعينهم تفيض من الدمع) يقال فاض الاناء اذا امتلأ حتى يخرج منه ما فيه وصفهم الله تعالى بسيل الدمع عند البكاء ورقة القلب عند سماع القرآن قال ابن عباس يريد النجاشي وأصحابه لما قرأ عليهم جعفر بن أبي طالب سورة مريم قال فما زالوا يبكون حتى فرغ جعفر من القراءة (مما عرفوا من الحق) يعني الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم وهو الحق (يقولون) يعني القسيسين والرهبان الذين سمعوا القرآن من جعفر عند النجاشي (ربنا آمنا) يعني بالقرآن وشهدنا أنه حق وصدق (فاكتبنا مع الشاهدين) يعني مع أمة محمد صلى

(ومالنا لا نؤمن بالله) انكار واستبعاد لانتفاء الايمان مع قيام موجبه وهو الطمع فى انعام الله عليهم بصحبة الصالحين وقيل لما رجعوا الى قومهم لاموهم فاجابوهم بذلك وما لنا مبتدأ وخبر ولا نؤمن حال أى غير مؤمنين كقولك مالك قائما (وماجاءنا) وبما جاءنا (من الحق) يعنى محمدا عليه السلام والقرآن (ونطمع) حال من ضمير الفاعل فى نؤمن والتقدير ونحن نطمع (أن يدخلنا ربنا) الجنة (مع القوم الصالحين) الانبياء والمؤمنين (فاثابهم الله بما قالوا) أى بقولهم ربنا آمنا وتصديقهم لذلك (جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين) وفيه دليل على أن الاقرار داخل فى الايمان كما هو مذهب الفقهاء وتعلقت الكرامية فى أن الايمان مجرد القول بقوله بما قالوا لكن الثناء بفيض الدمع فى السباق و بالاحسان فى السياق يدفع ذلك وأنى يكون مجرد القول ايمانا وقد قال الله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله و باليوم الآخر وما هم بمؤمنين نفى الايمان عنهم مع قولهم آمنا بالله لعدم التصديق بالقلب وقال

أهل المعرفة الموجود منهم ثلاثة أشياء البكاء على الجفاء والدعاء على العطاء والرضا بالقضاء فمن ادعى المعرفة ولم يكن فيه هذه الثلاثة فليس بصادق فى دعواه (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) هذا أثر الرد فى حق الاعداء والاول أثر القبول للاولياء ونزل فى جماعة من الصحابة رضى الله عنهم حلفوا ان يترهبوا و يلبسوا المسوح و يقوموا الليل و يصوموا النهار و يسيحوا فى الارض و يجبوا مذاكيرهم ولا يأكلوا اللحم والودك ولا يقربوا النساء والطيب (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) ما طاب ولذ من الحلال

الله عليه وسلم الذين يشهدون بالحق (ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق) قال ابن عباس لما رجع الوفد من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لامهم قومهم على ترك دينهم وقيل ان اليهود عيروهم وقالوا تركتم دينكم فاجابوهم بهذا الجواب ومعنى الآية ومالنا لا نؤمن بوحدانية الله وما جاءنا من الحق من عنده على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم (ونطمع) يعنى ونرجو بذلك الايمان (أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين) يعنى مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ۞ قوله تعالى (فاثابهم الله بما قالوا) يعنى بالتوحيد الذى قالوه وانما علق الثواب وهو قوله تعالى (جنات تجرى من تحتها الانهار) بمجرد القول لانه قد سبق وصفهم بما يدل على اخلاصهم فيما قالوا وهو المعرفة والبكاء المؤذنان بحقيقة الاخلاص واستكانة القلب لان القول اذا اقترن بالمعرفة فهو الايمان الحقيقى الموعود عليه بالثواب وقال ابن عباس بما قالوا يريد بما سألوا يعنى قولهم فاكتبنا مع الشاهدين (خالدين فيها) يعنى فى الجنات (وذلك جزاء المحسنين) يعنى المؤمنين الموحدين المخلصين فى ايمانهم (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا) لما ذكر الله عز وجل الوعد لمؤمنى أهل الكتاب وما أعد لهم من الجنات ذكر الوعيد لمن أقام منهم على كفره وتكذيبه وأطلق القول بذلك ليكون هذا الوعيد لهم ولمن جرى مجراهم فى الكفر والتكذيب فقال والذين كفروا وكذبوا بآياتنا (أولئك أصحاب الجحيم) ۞ قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) قال علماء التفسير ان النبى صلى الله عليه وسلم ذكر الناس يوما ووصف القيامة فرق الناس وبكوا فاجتمع عشرة من الصحابة فى بيت عثمان بن مظعون الجمحى ٣ وهم أبو بكر وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وأبو ذر الغفارى وسالم مولى أبى حذيفة والمقداد بن الاسود وسلمان الفارسى ومعقل بن مقرن وتشاوروا واتفقوا على انهم يترهبون و يلبسون المسوح و يجبون مذاكيرهم و يصومون الدهر و يقومون الليل ولا ينامون على الفرش ولا يأكلون اللحم والودك ولا يقربون النساء ولا الطيب و يسيحون فى الارض فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فأتى دار عثمان بن مظعون فلم يصادفه فقال لامرأته أحق ما بلغنى عن زوجك وأصحابه فكرهت ان تكذب وكرهت ان تبدى سر زوجها فقالت يا رسول الله ان كان قد أخبرك عثمان فقد صدق فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما جاء عثمان أخبرته بذلك فأتى هو وأصحابه العشرة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ألم أنبأ أنكم اتفقتم على كذا وكذا فقالوا بلى يا رسول الله

ومعنى لا تحرموا لا تمنعوها أنفسكم كمنع التحريم أو لا تقولوا حرمناها على أنفسنا مبالغة منكم فى العزم على تركها تزهدا منكم وتقشفا روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأكل الدجاج والفالوذ وكان يعجبه الحلواء والعسل وقال ان المؤمن حلوى يحب الحلواء وعن الحسن انه دعى الى طعام ومعه فرقد السبخى وأصحابه فقعدوا على المائدة وعليها الالوان من الدجاج المسمن والفالوذ وغير ذلك فاعتزل فرقد ناحية فسأل الحسن أهو صائم قالوا لا ولكنه يكره هذه الالوان فاقبل الحسن عليه وقال يا فريقد أترى لعاب النحل بلباب البر بخالص السمن يعيبه مسلم وعنه انه قيل له فلان لا يأكل الفالوذ ويقول لا أؤدى شكره فقال فيشرب الماء البارد قالوا نعم قال انه جاهل ان نعمة الله عليه فى الماء البارد أكبر من نعمته عليه فى الفالوذ وما

٣ قوله وهم أبو بكر الخ فيه ان المعدود تسعة وفى الخطيب ان العاشر عثمان بن مظعون لكن ينافيه قول الخازن فأتى هو وأصحابه العشرة نعم عبارة الخطيب خالية من ذلك اهـ مصححه

فما أردنا الا الخير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اني لم أومر بذلك ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ان لأنفسكم عليكم حقا فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا فاني أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللحم والدسم
وآتي النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني ثم جمع الناس وخطبهم فقال ما بال أقوام حرموا النساء والطعام
والطيب وشهوات الدنيا فاني لست آمركم أن تكونوا قسيسين ورهبانا فانه ليس في ديني ترك اللحم والنساء
ولا اتخاذ الصوامع وان سياحة أمتي الصوم ورهبانيتهم الجهاد اعبدوا الله ولا تشركوا به شيأ وحجوا واعتمروا
وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا رمضان واستقيموا يستقم لكم فانما هلك من كان قبلكم بالتشديد
شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم في الديار والصوامع فأنزل الله عز وجل هذه الآية يا أيها
الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم يعني الطيبات اللذيذات التي تشتهيها الأنفس وتميل اليها القلوب
من المطاعم الطيبة والمشارب اللذيذة فاعلم الله عز وجل بهذه الآية أن شريعة نبيه صلى الله عليه وسلم غير
ما عزموا عليه من ترك الطيبات وانه لا ينبغي أن تجتنب الطيبات المباحات ومعنى لا تحرموا لا تعتقدوا تحريم
الطيبات المباحات فان من اعتقد تحريم شئ أحله الله فقد كفر أما ترك لذات الدنيا وشهواتها والانقطاع
الى الله والتفرغ لعبادته من غير اضرار بالنفس ولا تفويت حق الغير ففضيلة لا منع منها بل مأمور بها
۞ وقوله تعالى (ولا تعتدوا) يعني ولا تجاوزوا الحلال الى الحرام وقيل معناه ولا تجبوا أنفسكم فسمى جب
المذاكير اعتداء وقيل معناه ولا تعتدوا بالاسراف في الطيبات (ان الله لا يحب المعتدين) يعني المجاوزين
الحلال الى الحرام ۞ وقوله تعالى (وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا) يعني وكلوا أيها المؤمنون من رزق الله
الذي رزقكم وأحله لكم من المطاعم والمشارب قال عبد الله بن المبارك الحلال ما أخذته من وجهه والطيب
ما غذى وأنمى فأما الجامد كالطين والتراب وما لا يغذي فمكروه الا على وجه التداوي وعن ابن عباس ان
رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اني اذا أصبت اللحم انتشرت للنساء وأخذتني شهوتي
فحرمت علي اللحم فأنزل الله يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب
المعتدين وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وله عن عائشة قالت
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحلواء والعسل وله عن أبي هريرة قال أتي رسول الله صلى الله عليه
وسلم بلحم فرفع اليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها قالت عائشة ما كان الذراع أحب الى رسول الله صلى الله
عليه وسلم ولكن كان لا يجد اللحم الا غبا وكان يعجل اليه الذراع لانه أعجلها نضجا أخرجه الترمذي ۞ وقوله
تعالى (واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون) هذا تأكيد للوصية بما أمر الله تعالى به وزاد التأكيد بقوله
الذي أنتم به مؤمنون لان الايمان به يوجب التقوى في الانتهاء الى ما أمر الله به وعما نهى عنه وفي الآية
دليل على أن الله عز وجل قد تكفل برزق كل أحد من عباده فانه تعالى لو لم يتكفل بذلك لما قال وكلوا مما
رزقكم الله واذا تكفل برزق العبد وجب أن لا يبالغ في الطلب والحرص على الدنيا وان يعول على ما وعده
الله وتكفل به فانه تعالى أكرم من أن يخلف الوعد ۞ قوله تعالى (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم)
قال ابن عباس لما نزلت يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم قالوا يا رسول الله كيف نصنع
بأيماننا التي حلفنا عليها وكانوا قد حلفوا على ما اتفقوا عليه فأنزل الله عز وجل هذه الآية لا يؤاخذكم الله
باللغو في أيمانكم وقد تقدم تفسير اللغو في الايمان في سورة البقرة ۞ وقوله تعالى (ولكن يؤاخذكم بما
عقدتم الأيمان) يعني ولكن يؤاخذكم بما تعمدتم وقصدتم به اليمين ومنه قول الفرزدق

ولست بمأخوذ بلغو تقوله ۞ اذا لم تعمد عاقدات العزائم

وفي الآية حذف تقديره ولكن يؤاخذكم بما عقدتم اذا حنثتم فحذفه لانه معلوم عند السامع (فكفارته)

(ولا تعتدوا) ولا تجاوزوا الحد الذي حد عليكم في تحليل أو تحريم أو ولا تعتدوا حدود ما أحل لكم الى ما حرم عليكم أو ولا تسرفوا في تناول الطيبات (ان الله لا يحب المعتدين) حدوده (وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا) حلالا حال مما رزقكم الله (واتقوا الله) توكيد للتوصية بما أمر به وزاده توكيدا بقوله (الذي أنتم به مؤمنون) لان الايمان به يوجب التقوى فيما أمر به ونهى (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم) اللغو في اليمين الساقط الذي لا يتعلق به حكم وهو أن يحلف على شئ يرى أنه كذلك وليس كما ظن وكانوا حلفوا على تحريم الطيبات على ظن أنه قربة فلما نزلت تلك الآية قالوا فكيف أيماننا فنزلت وعند الشافعي رحمه الله ما يجري على اللسان بلا قصد (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان) أي بتعقيدكم الايمان وهو توثيقها وبالتخفيف كوفي غير حفص والعقد العزم على الوطء وذا لا يتصور في الماضي فلا كفارة في الغموس وعند الشافعي رحمه الله القصد بالقلب ويمين الغموس مقصودة فكانت معقودة فكانت الكفارة فيها مشروعة والمعنى ولكن يؤاخذكم بما عقدتم اذا حنثتم فحذف وقت المؤاخذة لانه كان معلوما عندهم أو بنكث ما عقدتم فحذف المضاف (فكفارته) أي فكفارة نكثه أو فكفارة معقود الايمان والكفارة الفعلة التي من شأنها أن تكفر الخطيئة أي تسترها

يعني فكفارة أيمانكم التي عقدتموها اذا حنثتم (اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم) يعني من أقصده ذلك لان من الناس من يسرف في اطعام أهله ومنهم من يقتر عليهم فأمر الله بالعدل في أداء الكفارة وقيل أراد بالاوسط في القيمة فلا يكون غاليا من أعلى الموجود ولا خسيس الثمن من أردا الموجود بل الوسط في القيمة وقيل أراد بالاوسط الافضل قال ابن عباس كل شيء في كتاب الله أوسط فهو أفضل فعلى هذا يكون المعنى من خير ما تطعمون أهليكم وأفضله (أو كسوتهم) هو معطوف على محل أوسط أي كما تطعمون المساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم فكذلك فاكسوهم من أوسط الكسوة (أو تحرير رقبة) يعني عتق رقبة والمراد جملة الشخص

﴿فصل في حكم الآية﴾ وفيه مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ في بيان الكفارة وهي أربعة أنواع ﴿النوع الاول من الكفارة الاطعام فيجب اطعام عشرة مساكين واختلفوا في قدر ما يطعم لكل مسكين فذهب قوم الى أنه يطعم لكل مسكين مد من الطعام بمد النبي صلى الله عليه وسلم وهو رطل وثلث بالبغدادي من غالب قوت البلد وكذلك سائر الكفارات وهذا قول ابن عباس وابن عمر وزيد بن ثابت وبه قال سعيد بن المسيب والقاسم بن محمد وسليمان بن يسار وعطاء والحسن واليه ذهب مالك والشافعي ويروى عن عمر وعلي وعائشة أنه يطعم لكل مسكين مدان من بر وهو نصف صاع وبه قال أهل العراق وقال أبو حنيفة ان أطعم من الحنطة فنصف صاع وان أطعم من غيرها فصاع وهو قول الشعبي والنخعي وسعيد بن جبير ومجاهد وقال أحمد بن حنبل يطعم لكل مسكين مد من البر أو نصف صاع من غيرها مثل التمر والشعير ومن شرط الاطعام تمليك الطعام للمساكين فلو عشاهم وغداهم لم يجزه وقال أبو حنيفة يجزيه ذلك ولا يجوز اخراج القيمة في الكفارة كالدراهم والدنانير وقال أبو حنيفة يجوز ذلك ولا اخراج الدقيق والخبز في الكفارة بل يجب اخراج الحب وجوزه أبو حنيفة ولا يجوز صرف الكل الى مسكين واحد في عشرة أيام ﴿النوع الثاني من الكفارات الكسوة واختلف العلماء في قدرها فذهب قوم الى أنه يكسو كل مسكين ثوبا واحدا مما يقع عليه اسم الكسوة ازار أو رداء أو قميص أو عمامة أو سراويل أو كساء ونحو ذلك وهذا قول ابن عباس والحسن ومجاهد وعطاء وطاوس واليه ذهب الشافعي وقال مالك يجب أن يكسو كل مسكين ما تجوز به الصلاة فيكسو الرجل ثوبا والمرأة ثوبين درعا وخمارا وقال أحمد للرجل ثوبا وللمرأة ثوبين درعا وخمارا وهو أدنى ما يجزي في الصلاة وقال ابن عمر يجب قميص وازار ورداء وقال أبو موسى الاشعري يجب ثوبان وهو قول سعيد بن المسيب وابن سيرين وقال ابراهيم النخعي يجب ثوب جامع كالملحفة ﴿النوع الثالث من الكفارات العتق فيجب اعتاق رقبة مؤمنة وكذلك يجب في جميع الكفارات وأجاز أبو حنيفة والثوري اعتاق الرقبة الكافرة في جميع الكفارات الا كفارة القتل فان الله قيد الرقبة بالايمان في كفارة القتل ومذهب الشافعي ان المطلق يحمل على المقيد ولا يجوز اعتاق المرتد في الكفارة بالاجماع ويشترط أن تكون الرقبة سليمة الرق حتى لو أعتق في الكفارة مكاتبا أو أم ولد أو عبدا اشتراه بشرط العتق أو اشترى قريبه الذي يعتق عليه فكل هؤلاء لا يجزي في اعتاق الكفارة وجوز أصحاب الرأي عتق المكاتب في الكفارة اذا لم يؤد من نجوم الكتابة شيأ وجوزوا عتق القريب في الكفارة ويشترط أن تكون الرقبة سليمة من كل عيب يضر بالعمل فلا يجزي مقطوع اليد أو الرجل ولا الاعمى ولا الزمن ولا المجنون المطبق ويجوز عتق الاعور والاصم ومقطوع الاذنين والانف لان هذه العيوب كلها لا تضر بالعمل وعند أبي حنيفة كل عيب يفوت جنسا من المنفعة يمنع الجواز فيجوز عتق مقطوع احدى اليدين ولا يجوز عتق مقطوع الاذنين في الكفارة ﴿النوع الرابع من الكفارات الصوم وهو قوله تعالى (فمن لم يجد) يعني الكفارة (فصيام ثلاثة أيام) يعني فاذا عجز من لزمته كفارة اليمين عن الاطعام أو الكسوة أو العتق وجب عليه صيام ثلاثة أيام وهو قوله تعالى فصيام ثلاثة

ايام

(اطعام عشرة مساكين) هو أن يغديهم ويعشيهم ويجوز أن يعطيهم بطريق التمليك وهو لكل واحد نصف صاع من بر أو صاع من شعير أو صاع من تمر وعند الشافعي رحمه الله مد لكل مسكين (من أوسط ما تطعمون أهليكم) أي غداء وعشاء من براذ الاوسع ثلاث مرات مع الادام والادنى مرة من تمر أو شعير (أو كسوتهم) عطف على اطعام أو على محل من أوسط ووجهه ان من أوسط بدل من اطعام والبدل هو المقصود في الكلام وهي ثوب يغطي العورة وعن ابن عمر رضي الله عنه ازار وقميص ورداء (أو تحرير رقبة) مؤمنة أو كافرة لاطلاق النص وشرط الشافعي رحمه الله الايمان حملا للمطلق على المقيد في كفارة القتل ومعنى أو التخيير وايجاب احدى الكفارات الثلاث (فمن لم يجد) احداها (فصيام ثلاثة أيام) متتابعة لقراءة أبي وابن مسعود كذلك

أيام يعنى فعليه صيام ثلاثة أيام قال الشافعى اذا كان عنده قوته وقوت عياله يومه وليلته وفضل مايطعم عشرة مساكين لزمته الكفارة بالاطعام وان لم يكن عنده هذا القدر جازله الصيام وقال أبو حنيفة يجوزله الصيام اذا لم يكن عنده من المال ماتجب فيه الزكاة فجعل من لازكاة عليه عادما وقال الحسن اذا لم يجد درهمين صام وقال سعيد بن جبير ثلاثة دراهم واختلفوا فى وجوب التتابع فى الصيام عن كفارة اليمين على قولين أحدهما أنه يجب التتابع فيه قياسا على كفارة الظهار والقتل وهو قول ابن عباس ومجاهد وطاوس وعطاء وقتادة وهو مذهب أبى حنيفة وأحمد وأحد قولى الشافعى والقول الثانى لايجب التتابع فى كفارة اليمين فان شاء تابع وان شاء فرق والتتابع أفضل وبه قال الحسن ومالك وهذا القول الثانى للشافعى ﴿المسئلة الثانية﴾ كلمة أو للتخيير بين الاطعام والكسوة والعتق فان شاء أطعم وان شاء كسا وان شاء أعتق فبأيها أخذ المكفر فقد أصاب وخرج عن العهدة ﴿المسئلة الثالثة﴾ لايجوز صرف شئ من الكفارات الا الى مسلم حر محتاج فلو صرف الى ذمى أو عبد أو غنى لايجزيه وجوز أبو حنيفة صرفها الى أهل الذمة واتفقوا على أن صرف الزكاة الى أهل الذمة لايجوز ﴿المسئلة الرابعة﴾ اختلفوا فى تقديم الكفارة على الحنث فذهب قوم الى جوازه لما روى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من حلف على يمين فرأى خيرا منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذى هو خير أخرجه الترمذى (ق) عن عبد الرحمن بن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ياعبد الرحمن لاتسأل الامارة فانها ان أتتك عن مسئلة وكلت اليها وان أتتك من غير مسئلة أعنت عليها واذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك وهذا قول عمر وابن عباس وعائشة وعامة الفقهاء وبه قال الحسن وابن سيرين واليه ذهب مالك والاوزاعى والشافعى الا أن الشافعى قال ان كفر بالصوم قبل الحنث لايجوز لانه بدنى انما يجوز بالاطعام أو الكسوة أو العتق وقال أبو حنيفة لايجوز تقديم الكفارة على الحنث ۞ وقوله (ذلك) اشارة الى ماتقدم ذكره من الاطعام أو الكسوة أو العتق أو الصوم عند العجز (كفارة أيمانكم اذا حلفتم) يعنى وحنثتم لان الكفارة لاتجب بمجرد اليمين انما تجب بالحنث بعد اليمين وفيه اشارة الى أن تقديم الكفارة على اليمين لايجوز بل بعد اليمين وقبل الحنث كما تقدم (واحفظوا أيمانكم) يعنى قللوا أيمانكم ففيه النهى عن كثرة الحلف ومنه قول الشاعر

* قليل الألايا حافظ ليمينه * وصفه بانه لايحلف وقيل فى معنى الآية واحفظوا أيمانكم عن الحنث اذا حلفتم لئلا تحتاجوا الى التكفير وهذا اذا لم يحلف على ترك مندوب أو فعل مكروه فان حلف على ذلك فالافضل بل الاولى ان يحنث نفسه ويكفر لما روى عن أبى موسى الاشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال انى والله ان شاء الله لاأحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها الا كفرت عن يمينى وأتيت الذى هو خير أخرجاه فى الصحيحين ۞ قوله تعالى (كذلك يبين الله لكم آياته) يعنى كما بين لكم كفارة أيمانكم اذا حنثتم كذلك يبين لكم جميع ماتحتاجون اليه فى أمر دينكم (لعلكم تشكرون) يعنى نعمه التى أنعم بها عليكم أن بين لكم آياته ومعالم شريعته ۞ قوله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس) لما أنزل الله تعالى ياأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم وقوله وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا وكانت الخمر والميسر مما يستطاب عندهم بين الله فى هذه الآية ان الخمر والميسر غير داخلين فى جملة الطيبات المحللات بل هما من جملة المحرمات والخمر كل ماخامر العقل وغطاه والميسر القمار وقد تقدم تفسيرهما فى سورة البقرة والانصاب هى الحجارة التى كانوا ينصبونها للعبادة ويذبحون عندها والازلام هى القداح التى كانوا يستقسمون بها وتقدم تفسير ذلك والرجس فى اللغة الشئ الخبيث المستقذر (من عمل الشيطان) يعنى من تزيينه واغوائه ودعائه اياكم اليها وليس المراد انها من عمل يديه (فاجتنبوه) يعنى كونوا جانبا منه والضمير فى

(ذلك) المذكور (كفارة أيمانكم اذا حلفتم) وحنثتم فترك ذكر الحنث لوقوع العلم بان الكفارة لاتجب بنفس الحلف ولذا لم يجز التكفير قبل الحنث (واحفظوا أيمانكم) فبروا فيها ولاتحنثوا اذا لم يكن الحنث خيرا أو ولاتحلفوا أصلا (كذلك) مثل ذلك البيان (يبين الله لكم آياته) اعلام شريعته وأحكامه (لعلكم تشكرون) نعمته فيما يعلمكم ويسهل عليكم المخرج منه (ياأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر) أى القمار (والانصاب) الاصنام لانها تنصب فتعبد (والازلام) وهى القداح التى مرت (رجس) نجس أو خبيث مستقذر (من عمل الشيطان) لانه يحمل عليه فكانه عمله والضمير فى (فاجتنبوه) يرجع الى الرجس أو الى عمل الشيطان أو الى المذكور أو الى المضاف المحذوف كانه قيل انما تعاطى الخمر والميسر ولذا قال رجس

قوله فاجتنبوه عائد الى الرجس لانه اسم جامع للكل كأنه قال ان هذه الاربعة الاشياء كلها رجس فاجتنبوه (لعلكم تفلحون) يعني لكي تدركوا الفلاح اذا اجتنبتم هذه المحرمات التي هي رجس ﴿ قوله تعالى (انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر) اختلفوا في سبب نزول هذه الآية فروى أبو ميسرة ان عمر بن الخطاب قال اللهم بين لنا في الخمر والميسر بيانا شافيا فنزلت الآية التي في سورة البقرة يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير الآية فدعي عمر فقرئت عليه فقال اللهم بين لنا في الخمر والميسر بيانا شافيا فنزلت الآية التي في سورة النساء يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى فدعي عمر فقرئت عليه ثم قال اللهم بين لنا في الخمر والميسر بيانا شافيا فنزلت الآية التي في المائدة انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر الى قوله فهل أنتم منتهون فدعي عمر فقرئت عليه فقال انتهينا انتهينا أخرجه الترمذي من طريقين وقال رواية أبي ميسرة هذه أصح وأخرجه أبو داود والنسائي وروى مصعب بن سعد عن أبيه قال صنع رجل من الانصار طعاما فدعانا فشربنا وذلك قبل أن تحرم زاد حتى انتشينا فتفاخرت الانصار وقريش فقالت الانصار نحن أفضل منكم فقال سعد بن أبي وقاص المهاجرون خير منكم فاخذ رجل من الانصار لحي جمل فضرب به أنف سعد ففزره فأتى سعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبره فنزلت هذه الآية يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر الى قوله فهل أنتم منتهون وقال ابن عباس نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الانصار شربوا حتى ثملوا وعبث بعضهم ببعض فلما صحوا جعل الرجل يرى الاثر بوجهه ولحيته فيقول فعل بي هذا فلان أخي وكانوا اخوة ليس في قلوبهم ضغائن فانزل الله تعالى تحريم الخمر في هذه الآية يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر الى قوله فهل أنتم منتهون وأما تفسير الآية فقوله تعالى انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر يعني انما يزين لكم الشيطان شرب الخمر والقمار بالقداح وهو الميسر ويحسن ذلك لكم ارادة أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء بسبب شرب الخمر لانها تزيل عقل شاربها فيتكلم بالفحش وربما أفضى ذلك الى المقاتلة وذلك سبب ايقاع العداوة والبغضاء بين شاربيها وأما الميسر فقال قتادة كان الرجل في الجاهلية يقامر على أهله وماله فيقمر فيقعد حزينا سليبا ينظر الى ماله في يد غيره فيورثه ذلك العداوة والبغضاء فنهى الله عن ذلك وتقدم مافيه والله أعلم بما يصلح خلقه فظهر بذلك ان الخمر والميسر سببان عظيمان في ايقاع العداوة والبغضاء بين الناس وهذا فيما يتعلق بامر الدنيا وفيهما مفاسد تتعلق بامر الدين وهي قوله تعالى (ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلوة) لان شرب الخمر يشغل عن ذكر الله وعن فعل الصلاة وكذلك القمار يشغل صاحبه عن ذكر الله وعن الصلاة فان قلت لم جمع الخمر والميسر مع الانصاب والازلام في الآية الاولى ثم أفرد الخمر والميسر في هذه الآية قلت لان الخطاب مع المؤمنين بدليل قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا والمقصود نهيهم عن شرب الخمر واللعب بالقمار وانما ضم الانصاب والازلام الى الخمر والميسر لتأكيد تحريم الخمر والميسر فلما كان المقصود من الآية النهي عن شرب الخمر والميسر لاجرم أفردهما بالذكر في آخر الآية والله أعلم ﴿ وقوله تعالى (فهل أنتم منتهون) لفظه استفهام ومعناه الامر أي انتهوا وهذا من أبلغ ما ينهى به لانه تعالى ذم الخمر والميسر وأظهر قبحهما للمخاطب كأنه قيل قد تلي عليكم مافيهما من أنواع الصوارف والموانع فهل أنتم منتهون مع هذه الامور أم أنتم على ما كنتم عليه كأنكم لم توعظوا ولم تنزجروا وفي هذه الآية دليل على تحريم شرب الخمر لان الله تعالى قرن الخمر والميسر بعبادة الاصنام وعدد أنواع المفاسد الحاصلة بهما ووعد بالفلاح عند اجتنابهما وقال فهل أنتم منتهون ومعناه الامر وقد صح من حديث عائشة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال كل شراب أسكر فهو حرام أخرجاه في الصحيحين وزاد الترمذي وأبو داود ما أسكر الفرق منه فملء الكف منه حرام الفرق بالتحريك اناء يسع ستة عشر رطلا عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين صباحا فان

الحديث شارب الخمر كعابد الوثن وجعلهما رجسا من عمل الشيطان ولا يأتي منه الا الشر البحت وأمر بالاجتناب وجعل الاجتناب من الفلاح واذا كان الاجتناب فلاحا كان الارتكاب خسارا (انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلوة) ذكر ما يتولد منهما من الوبال وهو وقوع التعادي والتباغض بين أصحاب الخمر والقمر وما يؤديان اليه من الصد عن ذكر الله وعن مراعاة أوقات الصلاة وخص الصلاة من بين الذكر لزيادة درجتها كأنه قال وعن الصلاة خصوصا وانما جمع الخمر والميسر مع الانصاب والازلام أولا ثم افردهما آخرا لان الخطاب مع المؤمنين وانما نهاهم عما كانوا يتعاطونه من شرب الخمر واللعب بالميسر وذكر الانصاب والازلام لتأكيد تحريم الخمر والميسر واظهار ان ذلك جميعا من أعمال أهل الشرك فكأنه لا مباينة بين عابد الصنم وشارب الخمر والمقامر ثم أفردهما بالذكر ليعلم انهما المقصود بالذكر (فهل أنتم منتهون) من أبلغ ما ينهى به كأنه قيل قد تلي عليكم مافيهما من أنواع الصوارف والزواجر فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون أم أنتم على ما كنتم

تاب تاب الله عليه فان عاد لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحا فان تاب تاب الله عليه فان عاد لن يقبل الله له صلاة أربعين صباحا فان تاب تاب الله عليه فان عاد الرابعة لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحا فان تاب لم يتب عليه وسقاه الله من نهر الخبال قالوا يا أبا عبد الرحمن وما نهر الخبال قال صديد أهل النار أخرجه الترمذي وقال حديث حسن وأخرجه النسائي وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة اليه أخرجه أبو داود ﴿ قوله عز وجل (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) يعني فيما أمركم به ونهاكم عنه (واحذروا) أي واحذروا مخالفة الله ومخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أمركم به ونهاكم عنه (فان توليتم) يعني فان أعرضتم عما أمركم به ونهاكم عنه (فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين) وهذا وعيد وتهديد لمن أغرض عن أمر الله ونهيه كأنه قال فاعلموا انكم بسبب توليكم واعراضكم قد استحققتم العذاب والسخط ﴿ قوله تعالى (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) الآية عن البراء بن عازب قال مات ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وهم يشربون الخمر فلما نزل تحريم الخمر قال ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها قال فنزلت ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا الآية أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح عن ابن عباس قال قالوا يا رسول الله أرأيت الذين ماتوا وهم يشربون الخمر لما نزل تحريم الخمر فنزلت ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا الآية أخرجه الترمذي وقال حديث حسن ومعنى الآية ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا أي لا حرج ولا اثم عليهم فيما شربوا من الخمر وأكلوا من مال القمار في وقت الاباحة قبل التحريم قال ابن قتيبة يقال لم أطعم خبزا ولا ماء ولا نوما قال الشاعر

فان شئت حرمت النساء سواكم * وان شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا

النقاخ الماء والبرد النوم (اذا ما اتقوا) يعني اذا ما اتقوا الشرك وقيل اتقوا ما حرم الله عليهم (وآمنوا) يعني بالله ورسوله (وعملوا الصالحات) أي وازدادوا من عمل الصالحات (ثم اتقوا وآمنوا) يعني اتقوا الخمر والميسر بعد التحريم فعلى هذا تكون الاولى اخبارا عن حال من مات وهو يشربها قبل التحريم انه لا جناح عليه والثانية خطاب لمن بقي بعد التحريم وأمروا باتقائها والايمان بتحريمها (ثم اتقوا) يعني ما حرم عليهم في المستقبل (وأحسنوا) يعني العمل وقيل المراد بالاتقاء الاول فعل التقوى وبالثاني المداومة عليها وبالثالث اتقاء الظلم مع ضم الاحسان اليه وقيل ان المقصود من التكرير التأكيد والمبالغة في الحث على الايمان والتقوى وضم الاحسان اليهما ثم قال تعالى (والله يحب المحسنين) يعني انه تعالى يحب المتقربين اليه بالايمان والاعمال الصالحة والتقوى والاحسان وهذا ثناء ومدح لهم على الايمان والتقوى والاحسان لان هذه المقامات من أشرف الدرجات وأعلاها (م) عن عبد الله بن مسعود قال لما نزلت هذه الآية ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا الى آخر الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل لي أنت منهم ومعناه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل له ان ابن مسعود منهم يعني من الذين آمنوا وعملوا الصالحات والتقوى والاحسان ﴿ قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد) نزلت هذه الآية عام الحديبية وكانوا محرمين فابتلاهم الله بالصيد فكانت الوحوش تغشى رحالهم من كثرتها فهموا بأخذها وصيدها فانزل الله هذه الآية يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله الآية اللام في ليبلونكم لام القسم أي ليختبرن طاعتكم من معصيتكم والمعنى يعاملكم معاملة المختبر بشيء من الصيد يعني بصيد البر دون البحر وقيل أراد الصيد في حالة الاحرام دون الاحلال وانما قال بشيء من الصيد ليعلم أنه ليس بفتنة من الفتن العظام التي تزل عندها أقدام الثابتين ويكون التكليف فيها صعبا شاقا كالابتلاء ببذل الاموال والارواح وانما هو ابتلاء سهل كما ابتلي أصحاب السبت بصيد السمك فيه لكن الله عز وجل بفضله وكرمه عصم أمة محمد صلى الله عليه

عليه كان لم تتوعظوا ولم تزجروا (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا) وكونوا حذرين خاشعين لانهم اذا حذروا دعاهم الحذر الى اتقاء كل سيئة وعمل كل حسنة (فان توليتم) عن ذلك (فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين) أي فاعلموا انكم لم تضروا بتوليكم الرسول لانه ما كلف الا البلاغ المبين بالآيات وانما ضررتم أنفسكم حين أعرضتم عما كلفتموه ونزل فيمن تعاطى شيأ من الخمر والميسر قبل التحريم (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) أي شربوا من الخمر وأكلوا من مال القمار قبل تحريمهما (اذا ما اتقوا) الشرك (وآمنوا) بالله (وعملوا الصالحات) بعد الايمان (ثم اتقوا) الخمر والميسر بعد التحريم (وآمنوا) بتحريمهما (ثم اتقوا) سائر المحرمات أو الاول عن الشرك والثاني عن المحرمات والثالث عن الشبهات (وأحسنوا) الى الناس (والله يحب المحسنين) ولما ابتلاهم الله بالصيد عام الحديبية وهم محرمون وكثر عندهم حتى كان يغشاهم في رحالهم فيستمكنون من صيده أخذا بايديهم وطعنا برماحهم نزل (يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد

تناله أيديكم ورماحكم) ومعنى ليبلو ليختبر وهو من الله لاظهار ما علم من العبد على ما علم لا لعلم ما لم يعلم ومن للتبعيض اذ لا يحرم كل صيد أو لبيان
الجنس (ليعلم الله من يخافه بالغيب) ليعلم الله خوف الخائف منه بالامتناع عن الاصطياد موجودا كما كان يعلم قبل وجوده انه يوجد ليثيبه على
عمله لا على علمه فيه (فمن اعتدى) فصاد (بعد ذلك) الابتلاء (فله عذاب أليم) قال في قوله بشيء من الصيد ليعلم انه

وسلم فلم يصطادوا شيئا في حالة الابتلاء ولم يعصم أصحاب السبت فمسخوا قردة وخنازير ۞ وقوله تعالى (تناله أيديكم) يعني الفرخ والبيض وما لا يقدر أن يفر من صغار الصيد (ورماحكم) يعني كبار الصيد مثل حمر الوحش ونحوها وقال ابن عباس في قوله تناله أيديكم ورماحكم هو الضعيف من الصيد وصغيره يبتلي الله به عباده في احرامهم حتى لو شاؤا نالوا بأيديهم فنهاهم الله أن يقربوه (ليعلم الله) أي ليرى الله فانه قد علمه فهو مجاز لانه تعالى عالم لم يزل والمعنى يعاملكم معاملة المختبر وقيل معناه ليظهر المعلوم وهو خوف الخائف وقيل هو من باب حذف المضاف والتقدير ليعلم أولياء الله (من يخافه بالغيب) يعني من يخاف الله ولم يره فلا يصطاد في حالة الاحرام شيأ بعد النهي (فمن اعتدى بعد ذلك) يعني فصاد في حالة الاحرام بعد النهي (فله عذاب أليم) يعني في الدنيا قال ابن عباس هو أن يوجع ظهره وبطنه جلدا وتسلب ثيابه وهذا قول أكثر المفسرين في معنى هذه الآية لانه قد سمى الجلد عذابا وهو قوله وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ۞ وقوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم) جمع حرام أي لا تقتلوا الصيد وأنتم محرمون بالحج والعمرة وقيل المراد منه دخول الحرم يقال أحرم اذا عقد الاحرام وأحرم اذا دخل الحرم وقيل هما مرادان بالآية فلا يجوز قتل الصيد للمحرم ولا في الحرم نزلت هذه الآية في أبي اليسر شد على حمار وحش فقتله وهو محرم ثم صار هذا الحكم عاما فلا يجوز قتل الصيد ولا التعرض له ما دام محرما ولا في الحرم والمراد بالصيد كل حيوان متوحش مأكول اللحم وهذا قول الشافعي وقال أبو حنيفة هو كل حيوان متوحش سواء كان مأكولا أو لم يكن فيجب عنده الضمان على من قتل سبعا أو نمرا أو نحو ذلك واستثنى الشارع خمس فواسق فأجاز قتلهن (ق) عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خمس من الدواب ليس على المحرم في قتلهن جناح الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور وفي رواية خمس لا جناح على من قتلهن في الحرم والاحرام (ق) عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خمس من الدواب كلهن فواسق يقتلن في الحرم الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور ولمسلم خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم وذكر نحوه وفي رواية النسائي قال خمس يقتلهن المحرم الحية والعقرب والفأرة والغراب الابقع والكلب العقور قال ابن عيينة الكلب العقور كل سبع ضار يعقر وقاس الشافعي عليها جميع ما لا يؤكل لحمه قال لان الحديث يشتمل على أشياء بعضها سباع ضارية وبعضها هوام قاتلة وبعضها طير لا يدخل في معنى السباع ولا في معنى الهوام وانما هو حيوان مستخبث اللحم وتحريم الاكل يجمع الكل فاعتبره ورتب عليه الحكم وذهب أصحاب الرأي الى وجوب الجزاء في كل ما لا يؤكل لحمه الا الاعيان المذكورة في الحديث وقاسوا عليها الذئب فلم يوجبوا فيه كفارة ۞ قوله تعالى (ومن قتله منكم متعمدا) قال مجاهد والحسن وابن زيد هو الذي يتعمد قتل الصيد مع نسيان الاحرام فعليه الجزاء أما اذا تعمد قتل الصيد ذاكرا لاحرامه فلا جزاء عليه لانه أعظم من أن يكون له كفارة وقال ابن عباس والجمهور يحكم عليه بالجزاء وان تعمد القتل مع ذكر الاحرام وهذا مذهب عامة الفقهاء أما اذا قتل الصيد خطأ بأن قصد غيره بالرمي فأصابه فهو كالعمد في وجوب الجزاء وهو مذهب جمهور المفسرين والفقهاء قال الزهري نزل القرآن بالعمد وجرت السنة في الخطأ يعني ألحقت المخطئ بالمتعمد في وجوب الجزاء وقال سعيد بن جبير لا أرى في الخطأ شيأ وهذا قول شاذ لا يؤخذ به (فجزاء مثل ما قتل من النعم) يعني فعليه جزاء من النعم مثل ما قتل والمثل والشبه واحد واختلفوا في هذه المماثلة أهي

ليس من الفتن العظام وتناله صفة لشيء (يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد) أي المصيد اذ القتل انما يكون فيه (وأنتم حرم) أي محرمون جمع حرام كردح في جمع رداح في محل النصب على الحال من ضمير الفاعل في تقتلوا (ومن قتله منكم متعمدا) حال من ضمير الفاعل أي ذاكرا لاحرامه أو عالما أن ما يقتله مما يحرم قتله عليه فان قتله ناسيا لاحرامه أو رمى صيدا وهو يظن أنه ليس بصيد فهو مخطئ وانما شرط التعمد في الآية مع أن محظورات الاحرام يستوي فيها العمد والخطأ لان مورد الآية فيمن تعمد فقد روى أنه عن لهم في عمرة الحديبية حمار وحش فحمل عليه أبو اليسر فقتله فقيل له انك قتلت الصيد وأنت محرم فنزلت ولان الاصل فعل المتعمد والخطأ ملحق به للتغليظ وعن الزهري نزل الكتاب بالعمد ووردت السنة بالخطأ (فجزاء مثل ما قتل) كوفي أي فعليه جزاء يماثل ما قتل من الصيد وهو قيمة الصيد يقوم حيث صيد فان بلغت قيمته ثمن هدي خير بين أن يهدي من النعم ما قيمته قيمة الصيد وبين أن يشتري بقيمته طعاما فيعطي كل مسكين نصف صاع من بر أو صاعا من غيره وان شاء صام عن طعام كل مسكين يوما وعند محمد والشافعي رحمهما الله تعالى مثله نظيره من النعم فان لم يوجد له نظير من النعم فكما مر فجزاء مثل على الاضافة غيرهم وأصله فجزاء مثل ما قتل أي فعليه أن يجزي مثل ما قتل ثم أضيف كما تقول عجبت من ضرب زيد (من النعم) حال من الضمير في قتل اذ المقتول يكون من النعم

بالخلقة

أوصفة لجزاء (يحكم به) بمثل ماقتل (ذواعدل منكم) حكمان عادلان من المسلمين وفيه دليل على ان المثل القيمة لان التقويم مما يحتاج الى النظر والاجتهاد دون الاشياء المشاهدة ولان المثل المطلق فى الكتاب والسنة والاجماع مقيد بالصورة والمعنى أو بالمعنى لا بالصورة أو بالصورة بلا معنى ولان القيمة أريدت فيما لا مثل له صورة اجماعا فلم يبق غيرها مرادا اذ لا عموم للمشترك فان قلت قوله من النعم ينافى تفسير المثل بالقيمة قلت من أوجب القيمة خير بين أن يشترى بها هديا أو طعاما أو يصوم كما خير الله تعالى فى الآية فكان من النعم بيانا للهدى المشترى بالقيمة فى أحد وجوه التخيير لان من قوم الصيد واشترى بالقيمة هديا فاهداه فقد جزى بمثل ماقتل من النعم على ان التخيير الذى فى الآية بين أن يجزى بالهدى أو يكفر بالطعام أو الصوم انما يستقيم اذا قوم ونظر بعد التقويم أى الثلاثة يختار فاما اذا عمد الى النظير وجعله الواجب وحده من غير تخيير فاذا كان شيأ لا نظير له قوم حينئذ ثم يخير بين الطعام والصيام ففيه نبو عما فى الآية ألا ترى الى قوله أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما كيف خير بين الاشياء الثلاثة ولا سبيل الى ذلك الا بالتقويم (هديا) حال من الهاء فى به أى يحكم به فى حال الهدى (بالغ الكعبة) صفة لهديا لان اضافته غير حقيقية ومعنى بلوغه الكعبة أن يذبح بالحرم فاما التصدق به فحيث شئت وعند الشافعى رحمه الله فى الحرم (أو كفارة) معطوف على جزاء (طعام) بدل من كفارة أو خبر مبتدا محذوف أى هى طعام أو كفارة طعام على الاضافة مدنى وشامى وهذه الاضافة لتبيين المضاف كانه قيل أو كفارة من طعام (مساكين) كما تقول خاتم فضة أى خاتم من فضة (أو عدل) وقرئ بكسر العين قال الفراء العدل ماعادل الشئ من غير جنسه كالصوم والاطعام والعدل مثله من جنسه ومنه عدلا الحمل يقال عندى غلام عدل غلامك بالكسر اذا كان من جنسه فان أردت قيمته كقيمته ولم يكن من جنسه قيل هو عدل غلامك بالفتح (ذلك) اشارة الى الطعام (صياما) تمييز نحو لى مثله رجلا والخيار فى ذلك الى القاتل وعند محمد رحمه الله الى الحكمين

بالخلقة أم بالقيمة والذى عليه جمهور العلماء من الصحابة فمن بعدهم أن المماثلة فى الخلقة معتبرة لان ظاهر الآية يدل على ذلك ومالا مثل له فالقيمة وقال أبو حنيفة المثل الواجب فى قتل الصيد هو القيمة لان الصيد المقتول اذا لم يكن له مثل فانه يضمن بالقيمة وهذا لا نزاع فيه فكان المراد بالمثل هو القيمة فى هذه الصورة فوجب أن يكون فى سائر الصور كذلك لان اللفظ الواحد لا يجوز حمله الا على معنى واحد وأجيب عنه بان حقيقة المماثلة أمر معلوم فيجب رعايتها باقصى الامكان وان لم تمكن رعايتها الا بالقيمة وجب الاكتفاء بها للضرورة وحجة الشافعى ومن وافقه فى اعتبار المماثلة بالخلقة أن الصحابة حكموا فى بلدان شتى وأزمان مختلفة بالمثل من النعم فحكموا فى النعامة ببدنة وهى لا تساوى بدنة وحكموا فى حمار الوحش ببقرة وهو لا يساوى بقرة وكذا فى الضبع بكبش فدل ذلك على أنهم انما نظروا الى ما يقرب من الصيد شبها من حيث الخلقة فحكموا به ولم يعتبروا القيمة فيجب فى الظبى شاة وفى الارنب سخل وفى الضب سخلة وفى اليربوع جفرة ويجب فى الحمامة وكل ما عب وهدر كالفواخت والقمرى وذوات الاطواق شاة وما سواه من الطير ففيه القيمة فى المكان الذى أصيب فيه وروى عن عثمان وابن عباس انهما حكما فى حمام الحرم بشاة وروى عن عمر انه قضى فى الضبع بكبش وفى الغزال بعنز وفى الارنب بعناق وفى اليربوع بجفرة ۞ وقوله تعالى (يحكم به ذوا عدل منكم) يعنى يحكم بالجزاء فى قتل الصيد رجلان صالحان عدلان من أهل ملتكم ودينكم وينبغى أن يكونا فقيهين فينظران الى أشبه الاشياء به من النعم فيحكمان به قال ميمون بن مهران جاء أعرابى الى أبى بكر الصديق فقال انى أصبت من الصيد كذا وكذا فسأل أبو بكر أبى بن كعب فقال الاعرابى انى أتيتك أسألك وأنت تسأل غيرك فقال أبو بكر وما أنكرت من ذلك قال الله تعالى يحكم به ذوا عدل منكم فشاورت صاحبى فاذا اتفقنا على شئ أمرناك به ۞ وقوله تعالى (هديا بالغ الكعبة) يعنى ان الكفارة هدى يساق الى الكعبة وسميت الكعبة كعبة لارتفاعها والعرب تسمى كل بيت مرتفع كعبة وانما أريد بالكعبة كل الحرم لان الذبح لا يقع فى الكعبة وعندها وملاقيا لها انما يقع فى الحرم وهو المراد بالبلوغ فيذبح الهدى بمكة ويتصدق به على مساكين الحرم هذا مذهب الشافعى وقال أبو حنيفة له أن يتصدق به حيث شاء اذا وصل الهدى الى الكعبة (أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما) ذهب الشافعى ومالك وأبو حنيفة الى أن كلمة أو فى هذه الآية للتخيير وقال أحمد وزفر من أصحاب أبى حنيفة انها للترتيب وهما روايتان عن ابن عباس قال الشافعى اذا قتل صيدا له مثل فهو مخير بين ثلاثة أشياء ان شاء ذبح المثل من النعم وتصدق به على مساكين الحرم وان شاء قوم المثل دراهم والدراهم طعاما ثم يتصدق به على مساكين الحرم وان شاء صام عن كل مد من الطعام يوما وقال أبو حنيفة يصوم عن كل نصف صاع يوما وعن أحمد روايتان كالقولين وأصل هذه المسئلة ان الصوم مقدر بطعام اليوم فعند الشافعى مقدر بالمد وعند أبى حنيفة مقدر بنصف صاع وله أن يصوم حيث شاء لانه لا نفع فيه للمساكين وذهب جمهور الفقهاء الى أن الخيار فى تعيين أحد هذه الثلاثة الاشياء الى قاتل الصيد الذى وجب عليه الكفارة لان الله أوجب عليه أحد هذه الثلاثة على التخيير

فوجب أن يكون هو المخير بين أيهاشاء وقال محمد بن الحسن من أصحاب أبي حنيفة التخيير الى حكمين لان الله تعالى قال يحكم به ذوا عدل منكم ومن قال ان كلمة أو للترتيب قال ان لم يجد الهدي اشترى طعاما وتصدق به فان كان معسرا صام وقال مالك ان لم يخرج المثل من النعم يقوم الصيد ثم يجعل القيمة طعاما فيتصدق به أو يصوم وقال أبو حنيفة لا يجب المثل من النعم بل يقوم الصيد فان شاء صرف تلك القيمة الى شيء من النعم وان شاء الى الطعام فيتصدق به وان شاء صام عن كل نصف صاع من بر أو صاع من غيره يوما واختلفوا في موضع التقويم فقال جمهور الفقهاء يقوم في المكان الذي قتل فيه الصيد وقال الشعبي يقوم بمكة بثمن مكة لانه يصرف بها ۞ وقوله تعالى (ليذوق وبال أمره) يعني جزاء ذنبه والوبال في اللغة الشيء الثقيل الذي يخاف ضرره يقال مرعى وبيل اذا كان فيه وخامة وانما سمى الله ذلك وبالا لان اخراج الجزاء ثقيل على النفس لان فيه تنقيصا للمال وهو ثقيل على النفس وكذا الصوم أيضا ثقيل على النفس لان فيه انهاك البدن (عفا الله عما سلف) يعني قبل التحريم (ومن عاد) يعني الى قتل الصيد مرة ثانية (فينتقم الله منه) يعني في الآخرة والانتقام المبالغة في العقوبة وهذا الوعيد لا يمنع ايجاب الجزاء في المرة الثانية والثالثة فاذا تكرر من المحرم قتل الصيد تكرر عليه الجزاء وهذا قول جمهور العلماء وقد روي عن ابن عباس والنخعي وداود الظاهري أنه اذا قتل الصيد مرة ثانية فلا جزاء عليه لانه وعده بالانتقام منه قال ابن عباس اذا قتل المحرم صيدا متعمدا سئل هل قتل قبله شيأ من الصيد فان قال نعم لم يحكم عليه ويقال له اذهب فينتقم الله منك وان قال لم أقتل قبله شيأ حكم عليه فان عاد بعد ذلك لم يحكم عليه ولكن يملأ ظهره وصدره ضربا وكذلك حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم في صيد وج وهو واد بالطائف (والله عزيز ذو انتقام) يعني ممن عصاه واذا أتلف المحرم شيأ من الصيد الذي لا مثل له من النعم مثل البيض وطائر صغير دون الحمام ففيه القيمة فيقوم ثم يشتري بقيمته طعاما ويتصدق به على محاويج الحرم أو يصوم عن كل مد يوما ۞ قوله تعالى (أحل لكم صيد البحر وطعامه) المراد بالصيد ما صيد من البحر والمراد بالبحر جميع المياه العذبة والمالحة فاما طعامه فاختلفوا فيه فقيل هو ما قذفه البحر ورمى به الى الساحل يروى ذلك عن أبي بكر وعمر وابن عمر وأبي أيوب وقتادة وقيل صيد البحر طريه وطعامه مالحه يروى ذلك عن سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب والسدي ويروى عن ابن عباس ومجاهد كالقولين وجملة حيوان الماء على قسمين سمك وغير سمك فاما السمك فجميعه حلال على اختلاف أجناسه وأنواعه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في البحر هو الطهور ماؤه الحل ميتته أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي ولا فرق بين أن يموت بسبب او بغير سبب فيحل أكله وقال أبو حنيفة لا يحل الا أن يموت بسبب وما عدا السمك فقسمان قسم يعيش في البر والبحر كالضفدع والسرطان فلا يحل أكلهما وقال سفيان أرجو أن لا يكون بالسرطان بأس واختلفوا في الجراد فقيل هو من صيد البحر فيحل أكله للمحرم وذهب جمهور العلماء الى أنه من صيد البر وانه لا يحل للمحرم أكله في حال الاحرام فان أصاب جرادة فعليه صدقة قال عمر في الجرادة تمرة وعنه وعن ابن عباس قبضة من طعام وكذلك طير الماء فهو من صيد البر أيضا وقال أحمد يؤكل كل ما في البحر الا الضفدع والتمساح قال لان التمساح يفترس ويأكل الناس وقال ابن أبي ليلى ومالك يباح كل ما في البحر وذهب جماعة الى أن ماله نظير من البر يؤكل فيؤكل نظيره من حيوان البحر مثل بقر الماء ونحوه ولا يؤكل ما لا يؤكل نظيره في البر مثل كلب الماء وخنزير الماء فلا يحل أكله ۞ قوله تعالى (متاعا لكم وللسيارة) يعني ينتفع به المقيمون والمسافرون فيتزودون منه ۞ وقوله تعالى (وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما) ذكر الله عز وجل تحريم الصيد على المحرم في ثلاثة مواضع من هذه السورة أحدها في أول السورة وهو قوله غير محلي الصيد وأنتم حرم والثاني قوله يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم

والثالث

والوبال المكروه والضرر الذي ينال في العاقبة من عمل سوء لثقله عليه من قوله تعالى فأخذناه أخذا وبيلا أي ثقيلا شديدا والطعام الوبيل الذي يثقل على المعدة فلا يستمرأ (عفا الله عما سلف) لكم من الصيد قبل التحريم (ومن عاد) الى قتل الصيد بعد التحريم أو في ذلك لاحرام (فينتقم الله منه) بالجزاء وهو خبر مبتدا محذوف تقديره فهو ينتقم الله منه (والله عزيز) بالزام الاحكام (ذو انتقام) لمن جاوز حدود الاسلام (أحل لكم صيد البحر) مصيدات البحر مما يؤكل ومما لا يؤكل (وطعامه) وما يطعم من صيده والمعنى أحل لكم الانتفاع بجميع ما يصاد في البحر وأحل لكم أكل المأكول منه وهو السمك وحده (متاعا لكم) مفعول له أي أحل لكم تمتيعا لكم (وللسيارة) وللمسافرين والمعنى أحل لكم طعامه تمتيعا لتنائكم[٧] يأكلونه طريا ولسيارتكم يتزودونه قديدا كما تزود موسى عليه السلام الحوت في مسيره الى الخضر (وحرم عليكم صيد البر) ما صيد فيه وهو ما يفرخ فيه وان كان يعيش في الماء في بعض الاوقات كالبط فانه بري لانه يتولد في البر والبحر له مرعى كما للناس متجر (ما دمتم حرما) محرمين

[٧] قوله في الهامش لتنائكم التناء كرمان المقيمون جمع تانئ من تنا بالمكان أقام هكذا يؤخذ من القاموس

والثالث هذه الآية وحرم عليكم صيد البر مادمتم حرما كل ذلك لتأكيد تحريم قتل الصيد على المحرم واختلف العلماء هل يجوز للمحرم أن يأكل من لحم صيد صاده غيره فذهب قوم الى أنه لايحل ذلك بحال يروى ذلك عن ابن عباس وهو قول طاوس واليه ذهب الثورى واحتجوا على ذلك بما روى عن الصعب بن جثامة الليثى انه أهدى للنبى صلى الله عليه وسلم حمارا وحشيا وهو بالابواء أو بودان فرده عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأى مافى وجهه من الكراهة قال انا لم نرده عليك الا أنا حرم أخرجاه فى الصحيحين وذهب جمهور العلماء الى انه يجوز للمحرم أن يأكل لحم الصيد اذا لم يصده بنفسه ولاصيد له ولا باشارته ولا اعان عليه وهذا قول عمر وعثمان وأبى هريرة وبه قال عطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وهو مذهب مالك والشافعى وأحمد وأصحاب الرأى ويدل عليه ماروى عن أبى قتادة الانصارى قال كنت جالسا مع رجال من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فى منزل فى طريق مكة ورسول الله صلى الله عليه وسلم أمامنا والقوم محرمون وأنا غير محرم عام الحديبية فابصروا حمارا وحشيا وأنا مشغول أخصف نعلا فلم يؤذنونى وأحبوا لوأنى أبصرته فالتفت فابصرته فقمت الى الفرس فاسرجته ثم ركبت ونسيت السوط والرمح فقلت لهم ناولونى السوط والرمح قالوا لا والله لانعينك عليه فغضبت ونزلت فاخذتهما ثم ركبت فشددت على الحمار فعقرته ثم جئت به وقد مات فوقعوا فيه يأكلون ثم انهم شكوا فى أكلهم اياه وهم حرم فرحنا وخبأت العضد فادركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته عن ذلك فقال هل معكم منه شئ فقلت نعم فناولته العضد فأكل منها وهو محرم وزاد فى رواية أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لهم انما هى طعمة أطعمكموها الله وفى رواية هو حلال فكلوه وفى رواية قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هل منكم أحد أمره أن يحمل عليها أوأشار اليها قالوا لا قال كلوا مابقى من لحمها أخرجاه فى الصحيحين وأجاب أصحاب هذا المذهب عن حديث الصعب بن جثامة بانه انما رده النبى صلى الله عليه وسلم لانه ظن انه انما صيد لاجله والمحرم لايأكل ماصيد لاجله (واتقوا الله) يعنى ولاتستحلوا الصيد فى حال الاحرام ولافى الحرم ثم حذرهم بقوله (الذى اليه تحشرون) يعنى فى الآخرة فيجازيكم باعمالكم ۞ قوله عزوجل (جعل الله الكعبة البيت الحرام) جعل بمعنى صير وقيل معناه بين وحكم وقال مجاهد سمى البيت كعبة لتربيعه وقيل لارتفاعه عن الارض وسمى البيت الحرام لان الله حرمه وعظمه وشرفه وعظم حرمته وحرم أن يصطاد عنده وأن يختلى خلاه وأن يعضد شجره وأراد بالبيت الحرام جميع الحرم لما صح من حديث ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم خطب يوم فتح مكة فقال ان هذا البلد حرمه الله تعالى يوم خلق السموات والارض فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة لايعضد شوكه ولاينفر صيده ولايلتقط لقطته الامن عرفها ولايختلى خلاه ۞ وقوله تعالى (قياما للناس) أصله قواما لانه سبب لقوام مصالح الناس فى أمر دينهم ودنياهم وآخرتهم أما فى أمر الدين فانه به يقوم الحج وتتم المناسك وأما فى أمر الدنيا فانه تجبى اليه ثمرات كل شئ ويامنون فيه من النهب والغارة فلو لقى الرجل قاتل أبيه أو ابنه فى الحرم لم يهجه وأما فى أمر الآخرة فان البيت جعل لقيام المناسك عنده وجعل تلك المناسك التى تقام عنده أسبابا للعلو الدرجات وتكفير الخطيئات وزيادة الكرامات والمثوبات فلما كانت الكعبة الشريفة سببا لحصول هذه الاشياء كانت سببا لقيام الناس (والشهر الحرام) يعنى وجعل الشهر الحرام قياما للناس وأراد بالشهر الحرم الاشهر الحرم الاربعة وهى ذوالقعدة وذوالحجة والمحرم ورجب الفرد يعنى وكذلك جعل الاشهر الحرم يامنون فيهامن القتال وذلك أن العرب كان يقتل بعضهم بعضا ويغير بعضهم على بعض وكانوا اذادخلت الاشهر الحرم أمسكوا عن القتال والغارة فيها فكانوا يامنون فى الاشهر الحرم فكانت سببا لقيام مصالح الناس (والهدى والقلائد) يعنى وكذلك جعل الهدى والقلائد سببا لقيام مصالح الناس وذلك أنهم كانوا يامنون بسوق الهدى الى البيت الحرام على أنفسهم وكذلك

(واتقوا الله) فى الاصطياد فى الحرم أوفى الاحرام (الذى اليه تحشرون) تبعثون فيجزيكم على أعمالكم (جعل الله الكعبة) أى صير (البيت الحرام) بدل أوعطف بيان (قياما) مفعول ثان أوجعل بمعنى خلق وقياما حال (للناس) أى انتعاشا لهم فى أمر دينهم ونهوضا الى أغراضهم فى معاشهم ومعادهم لمايتم لهم من أمر حجهم وعمرتهم وأنواع منافعهم قيل لوتركوه عاما لم ينظروا ولم يؤخروا (والشهر الحرام) والشهر الذى يؤدى فيه الحج وهو ذوالحجة لان فى اختصاصه من بين الاشهر باقامة موسم الحج فيه شأنا قد علمه الله أوأريد به جنس الاشهر الحرم وهو رجب وذوالقعدة وذوالحجة والمحرم (والهدى) مايهدى الى مكة (والقلائد) والمقلد منه خصوصا وهو البدن فالثواب فيها أكثر وبهاء الحج معه أظهر

(ذلك) اشارة الى جعل الكعبة قياما أو الى ما ذكر من حفظ حرمة الاحرام بترك الصيد وغيره (لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الارض وان الله بكل شئ عليم) أي لتعلموا أن الله يعلم مصالح ما في السموات وما في الارض وكيف لا يعلم وهو بكل شئ عليم (اعلموا أن الله شديد العقاب) لمن استخف بالحرم والاحرام (وان الله غفور) لآثام من عظم المشاعر العظام (رحيم) بالجاني الملتجئ الى البلد الحرام (ما على الرسول الا البلاغ) تشديد في ايجاب القيام بما أمر به وان الرسول قد فرغ مما وجب عليه من التبليغ وقامت عليكم الحجة ولزمتكم الطاعة فلا عذر لكم في التفريط (والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) فلا يخفى عليه نفاقكم ووفاقكم (قل لا يستوي الخبيث والطيب) لما أخبر أنه يعلم ما يبدون وما يكتمون ذكر أنه لا يستوي خبيثهم وطيبهم بل يميز بينهما فيعاقب الخبيث أي الكافر ويثيب الطيب أي المسلم (ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله) وآثروا الطيب وان قل على الخبيث وان كثر وقيل هو عام في حلال المال وحرامه وصالح العمل وطالحه وجيد الناس ورديئهم (يا أولي الالباب) أي العقول الخالصة (لعلكم تفلحون) كانوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن أشياء امتحانا فنزل (يا أيها الذين آمنوا لا تسئلوا عن أشياء) قال الخليل وسيبويه وجمهور البصريين أصله شيئاء بهمزتين بينهما ألف وهي فعلاء من لفظ شئ وهمزتها الثانية للتأنيث ولذا لم تنصرف كحمراء وهي مفردة لفظا جمع معنى ولما استثقلت الهمزتان المجتمعتان قدمت الاولى التي هي لام الكلمة فجعلت قبل الشين فصار وزنها لفعاء والجملة الشرطية والمعطوفة عليها أي قوله (ان تبد لكم تسؤكم

في

كانوا يأمنون اذا قلدوا أنفسهم من لحاء شجر الحرم فلا يتعرض لهم أحد (ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الارض) يعني انه تعالى علم في الازل بمصالح العباد وما يحتاجون اليه فجعل الكعبة البيت الحرام والشهر الحرام والهدي والقلائد يأمنون بها لانه يعلم مصالح العباد كما يعلم ما في السموات وما في الارض لانه تعالى علم جميع المعلومات الكليات والجزئيات وهو قوله تعالى (وأن الله بكل شئ عليم) يعني انه تعالى لا يخفى عليه خافية (اعلموا أن الله شديد العقاب) يعني لمن انتهك محارمه واستحلها (وان الله غفور رحيم) يعني لمن تاب وآمن ولما ذكر الله أنواع رحمته بعباده ذكر بعدها انه شديد العقاب لان الايمان لا يتم الا بحصول الرجاء والخوف ثم ذكر بعده ما يدل على سعة رحمته وانه غفور رحيم

قوله تعالى (ما على الرسول الا البلاغ) يعني ليس على رسولنا الذي أرسلناه اليكم الا تبليغ ما أرسل به من الانذار بما فيه قطع الحجج ففي الآية تشديد عظيم في ايجاب القيام بما أمر الله وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد فرغ مما وجب عليه من التبليغ وقامت الحجة عليكم بذلك ولزمتكم الطاعة فلا عذر في التفريط (والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) يعني أنه تعالى لا يخفى عليه شئ من أحوالكم ظاهرا وباطنا (قل لا يستوي الخبيث والطيب) يعني الحلال والحرام في الدرجة والرتبة ولا يعتدل الردئ والجيد ولا المسلم والكافر ولا الصالح والطالح (ولو أعجبك كثرة الخبيث) يعني ولو سرك كثرة الخبيث لان عاقبته عاقبة سوء والمعنى ان أهل الدنيا يعجبهم كثرة المال وزينة الدنيا وما عند الله خير وأبقى لان زينة الدنيا ونعيمها يزول وما عند الله يدوم وقال ابن الجوزي روى جابر بن عبد الله ان رجلا قال يا رسول الله ان الخمر كانت تجارتي فهل ينفعني ذلك المال ان عملت فيه بطاعة الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله طيب لا يقبل الا الطيب وقال مقاتل نزلت في شريح بن ضبيعة البكري وحجاج ابن بكر وقد تقدمت القصة في أول السورة (فاتقوا الله) يعني فيما أمركم به أو نهاكم عنه ولا تعتدوه (يا أولي الالباب) يعني يا ذوي العقول السليمة (لعلكم تفلحون)

قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا تسئلوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم) اختلفوا في سبب نزول هذه الآية فروى عن أنس بن مالك قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ما سمعنا مثلها قط فقال لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا قال فغطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوههم لهم خنين فقال رجل من أبي فقال فلان فنزلت هذه الآية لا تسئلوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم وفي رواية أخرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج حين زاغت الشمس فصلى الظهر فقام على المنبر فذكر الساعة فذكر فيها أمورا عظاما ثم قال من أحب أن يسألني عن شئ فليسأل فلا تسألوني عن شئ الا أخبرتكم به ما دمت في مقامي فأكثر الناس البكاء وأكثر أن يقول سلوا فقام عبد الله بن حذافة السهمي فقال من أبي فقال أبوك حذافة ثم أكثر ان يقول سلوني فبرك عمر على ركبتيه فقال رضينا بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا فسكت ثم قال عرضت علي الجنة والنار آنفا في عرض هذا الحائط فلم أر كاليوم في الخير والشر قال ابن شهاب فأخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال قالت أم عبد الله بن حذافة لعبد الله بن حذافة ما سمعت بابن قط أعق منك أمنت أن تكون أمك قارفت بعض ما تقارف أهل الجاهلية فتفضحها على أعين الناس فقال عبد الله بن حذافة لو ألحقني بعبد أسود للحقته زاد في رواية أخرى قال قتادة يذكر هذا الحديث عند هذه الآية لا تسئلوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم أخرجاه

في الصحيحين (خ) عن ابن عباس قال كان قوم يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاء فيقول الرجل من أبي و يقول الرجل تضل ناقته أين ناقتي فانزل الله فيهم هذه الآية يا أيها الذين آمنوا لا تسئلوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم الآية كلها وقيل نزلت هذه الآية في شأن الحج عن علي بن أبي طالب قال لما نزلت ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا قالوا يا رسول الله في كل عام فسكت فقالوا يا رسول الله في كل عام قال لا ولو قلت نعم لوجبت فانزل الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا لا تسئلوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم أخرجه الترمذي وقال حديث غريب (م) عن أبي هريرة قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا فقال رجل أفي كل عام فسكت حتى قالها ثلاثا ثم قال ذروني ما تركتكم ولو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم وانما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم اذا أمرتكم بشئ فأتوا منه ما استطعتم واذا نهيتكم عن شئ فاجتنبوه وروى مجاهد عن ابن عباس لا تسئلوا عن أشياء قال هي البحيرة والوصيلة والسائبة والحام ألا ترى انه يقول بعد ذلك ما جعل الله من بحيرة ولا كذا ولا كذا وقال عكرمة انهم كانوا يسألونه عن الآيات فنهوا عن ذلك ثم قال قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ومعنى الآية يا أيها الذين آمنوا لا تسئلوا عن أشياء جمع شئ ان تبد لكم أي تظهر لكم وتبين لكم تسؤكم يعني ان أمرتم بالعمل بها فان من سأل عن الحج لم يأمن ان يؤمر به فلا يقدر عليه فيسوءه ذلك ومن سأل عن نسبه لم يأمن أن يلحقه النبي صلى الله عليه وسلم بغير أبيه فيفتضح و يسوءه ذلك (وان تسئلوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم) معناه ان صبرتم حتى ينزل القرآن بحكم من فرض أو نهي أو حكم وليس في ظاهره شرح ما تحتاجون اليه ومست حاجتكم اليه فاذا سألتم عنه فحينئذ يبدى لكم ومثال هذا ان الله عز وجل لما بين عدة المطلقة والمتوفى عنها زوجها والحامل ولم يكن في عدد هؤلاء دليل على عدة التي ليست ذات قرء ولا حامل فسألوا عنها فانزل الله عز وجل جوابهم في قوله واللائي يئسن من المحيض من نسائكم الآية (عفا الله عنها) يعني عن مسئلتكم عن الاشياء التي سألتم عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كره الله لكم السؤال عنها فلم يؤاخذكم بها ولم يعاقبكم عليها (والله غفور) يعني لمن تاب منكم (حليم) فلا يعجل بعقوبتكم وقال عطاء غفور يعني لما كان في الجاهلية حليم يعني عن عقابكم منذ آمنتم وصدقتم وقال بعض العلماء الاشياء التي يجوز السؤال عنها هي ما يترتب عليها أمر الدين والدنيا من مصالح العباد وما عدا ذلك فلا يجوز السؤال عنه (ق) عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان أعظم المسلمين في المسلمين جرما من سأل عن شئ لم يحرم على الناس فحرم من أجل مسئلته (ق) عن المغيرة بن شعبة أنه كتب الى معاوية ان النبي صلى الله عليه وسلم كان ينهى عن قيل وقال واضاعة المال وكثرة السؤال عن معاوية ان النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الاغلوطات أخرجه أبو داود الاغلوطات صعاب المسائل التي تزل فيها أقدام العلماء و يؤيد ذلك قول أبي هريرة شرار الناس الذين يسألون عن شرار المسائل كي يغلطوا بها العلماء وعن سلمان قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء فقال الحلال ما أحل الله في كتابه والحرام ما حرمه الله في كتابه وما سكت عنه فهو مما قد عفا عنه فلا تتكلفوا وعن أبي ثعلبة الخشني ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تقربوها وترك أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها هذان الحديثان أخرجهما في جامع الاصول ولم يعزهما الى الكتب الستة ثم قال تعالى (قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين) قال المفسرون يعني قوم صالح سألوا الناقة ثم عقروها فأصبحوا بها كافرين وقوم موسى قالوا أرنا الله جهرة فكان هذا السؤال وبالا عليهم وقوم عيسى سألوا نزول المائدة عليهم ثم كذبوا بها كأنه تعالى يقول ان أولئك سألوا فلما أعطوا سؤلهم

وان تسئلوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم) صفة لاشياء أي وان تسألوا عن هذه التكاليف الصعبة في زمان الوحي وهو مادام الرسول بين أظهركم تبد لكم تلك التكاليف التي تسوءكم أي تغمكم وتشق عليكم وتؤمرون بتحملها فتعرضون انفسكم لغضب الله بالتفريط فيها (عفا الله عنها) عفا الله عما سلف من مسئلتكم فلا تعودوا الى مثلها (والله غفور حليم) لا يعاقبكم الا بعد الانذار والضمير في (قد سألها) لا يرجع الى أشياء حتى يعدى بعن بل يرجع الى المسئلة التي دلت عليها لا تسئلوا أي قد سأل هذه المسئلة (قوم من قبلكم) من الاولين (ثم أصبحوا بها) صاروا بسببها (كافرين) كما عرف في بني اسرائيل

كفروا به فلا تسألوا أنتم شيأ فلعلكم ان أعطيتم سؤلكم ساءكم ذلك ۞ قوله تعالى (ما جعل الله) أي ما أنزل الله ولا حكم به ولا شرعه ولا أمر به (من بحيرة) البحيرة من البحر وهو الشق يقال بحر ناقته اذا شق أذنها فهي فعيلة بمعنى مفعولة (ولا سائبة) يعني المسيبة المخلاة (ولا وصيلة) الوصيلة الشاة وكانت العرب في الجاهلية اذا ولدت لهم ذكرا وأنثى قالوا وصلت أخاها (ولا حام) الحام هو الفحل من الابل يحمي ظهره فلا يركب ولا ينتفع به قال ابن عباس في بيان هذه الاوصاف البحيرة هي الناقة اذا ولدت خمسة أبطن لم يركبوها ولم يجزوا وبرها ولم يمنعوها الماء والكلأ ثم نظروا الى خامس ولدها فان كان ذكرا نحروه وأكله الرجال والنساء وان كانت أنثى شقوا أذنها وتركوها وحرموا على النساء منافعها وكانت منافعها للرجال خاصة فاذا ماتت حلت للرجال والنساء وقيل كانت الناقة اذا تابعت ثنتي عشرة سنة اناثا سيبت فلم يركب ظهرها ولم يجزوا وبرها ولم يشرب لبنها الا ضيف فما نتجت بعد ذلك من أنثى شق أذنها ثم سيبت مع أمها و يفعل بها كما يفعل بامها وقيل السائبة البعير الذي يسيب لآلهتهم وذلك ان الرجل من أهل الجاهلية كان اذا مرض أو غاب له قريب نذر فقال ان شفاني الله أو شفي الله مريضي أو قدم غائبي فناقتي هذه سائبة ثم يسيبها فلا تحبس عن ماء ولا مرعى ولا يركبها أحد فهي بمنزلة البحيرة والوصيلة من الغنم كانت الشاة اذا ولدت سبعة أبطن نظروا فان كان السابع ذكرا ذبحوه وأكل منه الرجال والنساء وان كانت أنثى تركوها في الغنم وان كانت ولدت ذكرا وأنثى قالوا وصلت أخاها واستحيوا الذكر فلم يذبحوه من أجل الانثى والحامي هو الفحل اذا ركب ولد ولده وقيل هو الفحل اذا نتج من صلبه عشرة أبطن قالوا حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى فاذا مات أكله الرجال والنساء (ق) عن سعيد بن المسيب قال البحيرة التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس والسائبة كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار ولمسلم عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أخا بني كعب وهو يجر قصبه في النار (خ) عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت جهنم يحطم بعضها بعضا ورأيت عمرا يجر قصبه وهو أول من سيب السوائب القصب بضم القاف وسكون الصاد المهملة الامعاء كانت الجاهلية تفعل هذا في جاهليتهم فلما بعث الله عز وجل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أبطل ذلك بقوله ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام يعني ما بحر الله من بحيرة ولا سيب من سائبة ولا وصل من وصيلة ولا حمى من حام ولا أذن فيه ولا أمر به ولكنكم أنتم فعلتم ذلك من عند أنفسكم (خ) عن ابن مسعود ان أهل الاسلام لا يسيبون وان أهل الجاهلية كانوا يسيبون ۞ وقوله تعالى (ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب) يعني لقولهم ان الله أمرنا بها (وأكثرهم لا يعقلون) أراد بالاكثر الاتباع يعني أن الاتباع لا تعقل أن هذا كذب وافتراء من الرؤساء على الله عز وجل (واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول) يعني واذا قيل لهؤلاء الذين بحروا البحائر وفعلوا هذه الاشياء وأضافوها الى الله كذبا تعالوا الى ما أنزل الله يعني في كتابه والى الرسول يعني محمدا صلى الله عليه وسلم الذي أنزل عليه كتابه ليبين لكم كذب ما تضيفونه الى الله و يبين لكم الشرائع والاحكام وان الذي تفعلونه ليس بشيء (قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) يعني قد اكتفينا بما أخذنا عنهم من الدين ونحن لهم تبع قال الله ردا عليهم (أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيأ ولا يهتدون) يعني انما يصح الاقتداء بالعالم المهتدي الذي يبني قوله على الحجة والبرهان والدليل وان آباءهم ما كانوا كذلك فيصح اقتداؤهم بهم ۞ قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم

(ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام) كان أهل الجاهلية اذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا اذنها أي شقوها وامتنعوا من ركوبها وذبحها ولا تطرد عن ماء ولا مرعى واسمها البحيرة وكان يقول الرجل اذ قدمت من سفري أو برأت من مرضي فناقتي سائبة وجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها وقيل كان الرجل اذا أعتق عبدا قال هو سائبة فلا عقل بينهما ولا ميراث وكانت الشاة اذا ولدت سبعة أبطن فان كان السابع ذكرا أكله الرجال وان كان أنثى أرسلت في الغنم وكذا ان كان ذكرا وأنثى وقالوا وصلت أخاها فالوصيلة بمعنى الواصلة واذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا قد حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى ومعنى ما جعل ما شرع ذلك ولا أمر به (ولكن الذين كفروا) بتحريمهم ما حرموا (يفترون على الله الكذب) في نسبتهم هذا التحريم اليه (وأكثرهم لا يعقلون) ان الله لم يحرم ذلك وهم عوامهم (واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول) أي هلموا الى حكم الله ورسوله بان هذه الاشياء غير محرمة (قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) أي كافينا ذلك حسبنا مبتدأ والخبر ما وجدنا وما بمعنى الذي والواو في (أولو كان آباؤهم) للحال قد دخلت عليها همزة الانكار وتقديره أحسبهم ذلك ولو كان آباؤهم (لا يعلمون شيأ ولا يهتدون) أي الاقتداء انما يصح بالعالم المهتدي وانما يعرف اهتداؤه بالحجة (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم) انتصب أنفسكم بعليكم وهو من أسماء الافعال أي الزموا اصلاح أنفسكم والكاف والميم في عليكم في موضع جر لان اسم الفعل هو الجار والمجرور لا على وحدها

لايضركم من ضل اذا اهتديتم) قال بعض العلماء هذا أمر من الله تعالى ومعناه احفظوا أنفسكم من ملابسة الذنوب والاصرار على المعاصى لانك اذا قلت عليك زيدا معناه الزم زيدا وقيل معناه عليكم أنفسكم فاصلحوها واعملوا فى خلاصها من عذاب الله عزوجل وانظروا لها مايقربها من الله عزوجل لايضركم من ضل اذا اهتديتم يعنى لايضركم كفر من كفر اذا كنتم مهتدين وأطعتم الله عزوجل فيما أمركم به ونهاكم عنه قال سعيد بن جبير ومجاهد نزلت هذه الآية فى أهل الكتاب اليهود والنصارى يعنى عليكم أنفسكم لايضركم من ضل من أهل الكتاب فخذوا منهم الجزية واتركوهم وقيل لما قبلت الجزية من أهل الكتاب قال بعض الكفار كيف تقبل الجزية من بعض دون بعض فنزلت هذه الآية وقيل ان المؤمنين كان يشتد عليهم بقاء الكفار على كفرهم فقيل لهم عليكم أنفسكم واجتهدوا فى صلاحها لايضركم ضلال الضالين ولا جهل الجاهلين اذا كنتم أنتم مهتدين فان قلت هل يدل ظاهر هذه الآية على جواز ترك الامر بالمعروف والنهى عن المنكر قلت لايدل على ذلك والذى عليه أكثر الناس ان المطيع لربه عزوجل لا يكون مؤاخذا بذنوب أصحاب المعاصى فاما وجوب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فثابت بدليل الكتاب والسنة عن قيس ابن أبى حازم عن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أنه قال أيها الناس انكم تقرؤن هذه الآية ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل اذا اهتديتم ولا تضعونها موضعها ولا تدرون ماهى وانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح وأخرجه أبو داود وزاد فيه مامن قوم يعمل فيهم بالمعاصى ثم يقدرون على أن يغيروا ولا يغيروا الا يوشك أن يعمهم الله بعقاب وقال قوم فى معنى الاية عليكم أنفسكم اذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر فلم يقبل منكم قال ابن مسعود مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ماقبل منكم فان رد عليكم فعليكم أنفسكم ثم قال ان القرآن نزل منه آى قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن ومنه آى وقع تأويلهن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنه آى وقع تأويلهن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بيسير ومنه آى يقع تأويلهن فى آخر الزمان ومنه آى يقع تأويلهن يوم القيامة وهوماذكر من الحساب والجنة والنار فمادامت قلوبكم وأهواؤكم واحدة لم تلبسوا شيعا ولم يذق بعضكم بأس بعض فأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر فاذا اختلفت قلوبكم وأهواؤكم وألبستم شيعا وأذيق بعضكم بأس بعض فامرؤ نفسه فعند ذلك جاء تأويل هذه الآية وقيل لابن عمر لوجلست فى هذه الايام فلم تأمر ولم تنه فان الله يقول عليكم أنفسكم لايضركم من ضل اذا اهتديتم فقال ابن عمر انها ليست لى ولا لاصحابى لان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألا ليبلغ الشاهد الغائب فكنا نحن الشهود وأنت الغائب ولكن هذه الآية لاقوام يجيؤن من بعدنا ان قالوا لم يقبل منهم وعن أبى أمية الشعبانى قال أتيت أبا ثعلبة الخشنى فقلت له كيف تصنع بهذه الآية قال أية آية قلت ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل اذا اهتديتم قال أما والله لقد سألت عنها خبيرا سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى اذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة واعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع العوام فان من ورائكم أيام الصبر فمن صبر فيهن قبض على الجمر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم وفى رواية قيل يارسول الله أجر خمسين رجلا منا أومنهم قال لا بل أجر خمسين منكم أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب وقيل فى معنى الآية ان العبد اذا عمل بطاعة الله واجتنب نواهيه لايضره من ضل وقال ابن عباس قوله عليكم أنفسكم لايضركم من ضل اذا اهتديتم يقول اذا ما العبد اطاعنى فيما أمرته من الحلال والحرام فلايضره من ضل بعده اذا عمل بما أمرته به وعن صفوان بن محرز قال دخل على شاب من أصحاب الاهواء فذكر شيئا من أمره فقلت له الا أدلك على خاصة الله التى خص بها أولياءه ياأيها الذين آمنوا عليكم

(لايضركم) رفع على الاستئناف أوجزم على جواب الامر وانما ضمت الراء اتباعا لضمة الضاد (من ضل اذا اهتديتم) كان المؤمنون تذهب أنفسهم حسرة على أهل العناد من الكفرة يتمنون دخولهم فى الاسلام فقيل لهم عليكم أنفسكم وما كلفتم من اصلاحها لايضركم الضلال من دينكم اذا كنتم مهتدين وليس المراد ترك الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فان تركهما مع القدرة عليهما لايجوز

أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم وقال الحسن لم يكن مؤمن فيما مضى ولا مؤمن فيما بقى الا والى جانبه منافق يكره عمله وقيل فى معنى الآية لا يضركم من كفر بالله وحاد عن قصد السبيل من أهل الكتاب اذا اهتديتم أنتم قال سعيد بن جبير نزلت هذه الآية فى أهل الكتاب وقال ابن زيد كان الرجل اذا أسلم قالوا له سفهت آباءك وضللتهم وفعلت وفعلت وكان ينبغى لك أن تنصرهم وتفعل وتفعل فقال الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم قال الطبرى وأولى هذه الاقوال وأصح التأويلات عندنا فى هذه الآية ما روى عن أبى بكر الصديق وهو العمل بطاعة الله وأداء ما لزم من الامر بالمعروف والنهى عن المنكر والاخذ على يد الظالم لان الله تعالى يقول وتعاونوا على البر والتقوى ومن التعاون على البر والتقوى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر والاخذ على يد الظالم حتى يرجع عن ظلمه وقال عبد الله بن المبارك هذه الآية أوكد آية فى وجوب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر لان الله تعالى قال عليكم أنفسكم يعنى أهل دينكم بان يعظ بعضكم بعضا ويرغبه فى الخيرات وينفره عن القبائح والمكروهات والذى يؤكد ذلك أن معنى قوله عليكم أنفسكم أى احفظوا أنفسكم وهذا أمر بان نحفظ أنفسنا ولا يتم ذلك الا بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر والله أعلم ۞ وقوله تعالى (الى الله مرجعكم جميعا) يعنى فى الآخرة الطائع والعاصى والضال والمهتدى (فينبئكم بما كنتم تعملون) يعنى فيخبركم بأعمالكم ويجزيكم عليها ۞ قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم) سبب نزول هذه الآية ما روى أن تميم بن أوس الدارى وعدى بن بداء خرجا من المدينة فى تجارة الى الشام وهما نصرانيان ومعهما بديل مولى عمرو بن العاص وكان مسلما فلما قدموا الشام مرض بديل فكتب كتابا فيه جميع ما معه من المتاع وألقاه فى متاعه ولم يخبر صاحبيه بذلك فلما اشتد وجعه أوصى الى تميم وعدى وأمرهما أن يدفعا متاعه الى أهله اذا رجعا الى المدينة ومات بديل ففتشا متاعه فوجدا فيه اناء من فضة منقوشا بالذهب فيه ثلثمائة مثقال فغيباه ثم انهما قضيا حاجتهما وانصرفا الى المدينة فدفعا المتاع الى أهل البيت ففتشوه فأصابوا الصحيفة وفيها تسمية ما كان معه فجاء أهل البيت الى تميم وعدى فقالوا هل باع صاحبنا شيأ من متاعه قالا لا قالوا فهل اتجر تجارة قالا لا قالوا فهل طال مرضه فانفق شيأ على نفسه قالا لا قالوا انا وجدنا فى متاعه صحيفة فيها تسمية ما كان معه وانا فقدنا اناء من فضة منقوشا بالذهب فيه ثلثمائة مثقال فضة قالا لا ندرى انما أوصى الينا بشئ وأمرنا أن ندفعه اليكم فدفعناه وما لنا علم بالاناء فاختصموا الى النبى صلى الله عليه وسلم فأصرا على الانكار وحلفا فانزل الله هذه الآية هذا قول المفسرين وروى الترمذى عن ابن عباس عن تميم الدارى فى هذه الآية يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم اذا حضر أحدكم الموت قال تميم برئ الناس منها غيرى وغير عدى بن بداء وكانا نصرانيين يختلفان الى الشام بتجارتهما قبل الاسلام فأتيا الى الشام بتجارتهما وقدم عليهما مولى لبنى سهم يقال له بديل بن أبى مريم بتجارة ومعه جام من فضة يريد به الملك وهو أعظم تجارته فمرض فأوصى اليهما وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله قال تميم ولما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم ثم اقتسمناه أنا وعدى فلما أتينا أهله دفعنا اليهم ما كان معنا وفقدوا الجام فسألونا عنه فقلنا ما ترك غير هذا ولا دفع الينا غيره قال تميم فلما أسلمت بعد قدوم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة تأثمت من ذلك فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر وأديت اليهم خمسمائة درهم وأخبرتهم أن عند صاحبى مثلها فأتوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألهم البينة فلم يجدوا فأمرهم أن يستحلفوه بما يعظم على أهل دينه فحلف فأنزل الله يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم اذا حضر أحدكم الموت الى قوله أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم فقام عمرو بن العاص ورجل آخر فحلفا فنزعت الخمسمائة درهم من عدى قال الترمذى هذا حديث غريب وليس اسناده بصحيح وقد روى عن ابن عباس شئ من هذا على الاختصار من غير هذا الوجه قال ابن عباس خرج رجل من بنى سهم مع تميم الدارى وعدى بن بداء فمات السهمى بأرض ليس فيها مسلم فلما قدما بتركته

(الى الله مرجعكم جميعا) رجوعكم (فينبئكم بما كنتم تعملون) ثم يجزيكم على أعمالكم روى انه خرج بديل مولى عمرو بن العاص وكان من المهاجرين مع عدى وتميم وكانا نصرانيين الى الشام فمرض بديل وكتب كتابا فيه ما معه وطرحه فى متاعه ولم يخبر به صاحبيه وأوصى اليهما بان يدفعا متاعه الى أهله ومات ففتشا متاعه فأخذا اناء من فضة فأصاب أهل بديل الصحيفة فطالبوهما بالاناء فجحدوا فرفعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم

فقدوا جاما من فضة مخوصا بالذهب فأحلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم وجدوا الجام بمكة فقيل اشتريناه من تميم وعدي فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وان الجام لصاحبهم قال وفيهم نزلت هذه الآية يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم اذا حضر أحدكم الموت أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وأخرج هذه الرواية الاخيرة البخاري في صحيحه فاما التفسير فقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم يعني ليشهد ما بينكم لان الشهادة انما يحتاج اليها عند وقوع التنازع والتشاجر (اذا حضر أحدكم الموت) يعني اذا قارب وقت حضور الموت (حين الوصية اثنان) لفظه خبر ومعناه الامر يعني ليشهد اثنان منكم عند حضور الموت وأردتم الوصية (ذوا عدل منكم) يعني من أهل دينكم وملتكم يا معشر المؤمنين واختلفوا في هذين الاثنين فقيل هما الشاهدان اللذان يشهدان على وصية الموصي وقيل هما الوصيان لان الآية نزلت فيهما ولانه قال تعالى فيقسمان بالله والشاهد لا يلزمه يمين وجعل الوصي اثنين تأكيدا فعلى هذا تكون الشهادة بمعنى الحضور كقولك شهدت وصية فلان بمعنى حضرت (أو آخران من غيركم) يعني من غير أهل دينكم وملتكم وهذا قول ابن عباس وأبي موسى الاشعري وسعيد بن المسيب وابن جبير والنخعي والشعبي وابن سيرين وشريح وأكثر المفسرين وقيل معناه من غير عشيرتكم وقبيلتكم وهم مسلمون واختلف العلماء في حكم هذه الآية فقال ابراهيم النخعي وجماعة هي منسوخة كانت شهادة أهل الذمة مقبولة في الابتداء ثم نسخت بقوله تعالى واستشهدوا شهيدين من رجالكم لان اجماع الامة على ان شهادة الفاسق لا تجوز فشهادة الكفار وأهل الذمة لا تجوز بطريق الاولى وذهب قوم الى أنها ثابتة لم تنسخ وهو قول ابن عباس وأبي موسى الاشعري وسعيد بن المسيب وابن جبير وابن سيرين وبه قال أحمد بن حنبل قالوا اذا لم يجد مسلمين يشهدان على وصيته وهو في أرض غربة فليشهد كافرين أو ذميين أو من أي دين كانا لان هذا موضع ضرورة قال شريح من كان بأرض غربة لم يجد مسلما يشهد وصيته فليشهد كافرين على أي دين كانا من أهل الكتاب أو من عبدة الاصنام فشهادتهم جائزة في هذا الموضع ولا تجوز شهادة كافر على مسلم بحال الا على وصيته في سفر لا يجد فيه مسلما عن الشعبي ان رجلا من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقا هذه ولم يجد أحدا من المسلمين حضر يشهده على وصيته فاشهد رجلين من أهل الكتاب فقدما الكوفة فاتيا أبا موسى فاخبراه وقدما بتركته ووصيته فقال أبو موسى هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحلفهما بعد العصر بالله ما خانا ولا كذبا ولا بدلا ولا كتما ولا غيرا وانها لوصية الرجل وتركته فامضى شهادتهما أخرجه أبو داود وقال قوم في قوله ذوا عدل منكم يعني من عشيرتكم وحيكم أو آخران من غيركم من غير عشيرتكم وحيكم وان الآية كلها في المسلمين وهذا قول الحسن والزهري وعكرمة وقالوا لا تجوز شهادة كافر في شيء من الاحكام وهذا مذهب الشافعي ومالك وأبي حنيفة غير ان أبا حنيفة أجاز شهادة أهل الذمة فيما بينهم بعضهم على بعض واحتج من قال بان هذه الآية محكمة بان سورة المائدة من آخر القرآن نزولا وليس فيها منسوخ واحتج من أجاز شهادة غير المسلم في هذا الموضع بان الله تعالى قال في أول الآية يا أيها الذين آمنوا فعم بهذا الخطاب جميع المؤمنين ثم قال بعده ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم فعلم بذلك انهما من غير المؤمنين ولان الآية دالة على وجوب الحلف على هذين الشاهدين وأجمع المسلمون على أن الشاهد المسلم لا يجب عليه يمين ولان الميت اذا كان في أرض غربة ولم يجد مسلما يشهده على وصيته ضاع ماله وربما كان عليه ديون أو عنده وديعة فيضيع ذلك كله واذا كان ذلك كذلك احتاج الى اشهاد من حضر من أهل الذمة وغيرهم من الكفار حتى لا يضيع ماله وتنفذ وصيته فهذا كالمضطر الذي أبيح له أكل الميتة في حال الاضطرار والضرورات قد تبيح شيأ من المحظورات واحتج من منع ذلك بأن الله تعالى قال ممن ترضون من الشهداء والكفار ليسوا مرضيين ولا عدولا

اذا حضر أحدكم الموت حين الوصيه اثنان) ارتفع اثنان لانه خبر المبتدا وهو شهادة بتقدير شهادة بينكم شهادة اثنين أو لانه فاعل شهادة بينكم أي فيما فرض عليكم أن يشهد اثنان واتسع في بين فأضيف اليه المصدر واذا حضر ظرف للشهادة وحين الوصية بدل منه وفي ابداله منه دليل على وجوب الوصية لان حضور الموت من الامور الكائنة وحين الوصية بدل منه فيدل على وجود الوصية ولو وجدت بدون الاختيار لسقط الابتلاء فنقل الى الوجوب وحضور الموت مشارفته وظهور أمارات بلوغ الاجل (ذوا عدل) صفة لاثنين (منكم) من أقاربكم لانهم أعلم بأحوال الميت (أو آخران) عطف على اثنان (من غيركم) من الاجانب

(ان أنتم ضربتم فى الارض) سافرتم فيها وأنتم فاعل فعل يفسره الظاهر (فاصابتكم مصيبة الموت) أو منكم من المسلمين ومن غيركم من أهل الذمة وقيل منسوخ اذ لا يجوز شهادة الذمى على المسلم وانما جازت فى أول الاسلام لقلة المسلمين (تحبسونهما) تقفونهما للحلف هو استئناف كلام أو صفة لقوله أو آخران من غيركم أى وآخران من غيركم محبوسان وان أنتم ضربتم فى الارض فاصابتكم مصيبة الموت اعتراض بين الصفة والموصوف (من بعد الصلاة) من بعد صلاة العصر لانه وقت اجتماع الناس وعن الحسن رحمه الله بعد العصر أو الظهر لان أهل الحجاز كانوا يقعدون للحكومة بعدهما وفى حديث بديل انها لما نزلت صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العصر ودعا بعدى وتميم فاستحلفهما عند المنبر

خلفا ثم وجد الاناء بمكة فقالوا انا اشتريناه من تميم وعدى (فيقسمان بالله) فيحلفان به (ان ارتبتم) شككتم فى أمانتهما وهو اعتراض بين يقسمان وجوابه وهو (لا نشترى) وجواب الشرط محذوف أغنى عنه معنى الكلام والتقدير ان ارتبتم فى شانهما فحلفوهما (به) بالله أو بالقسم (ثمنا) عوضا من الدنيا (ولو كان) أى المقسم له (ذا قربى) أى لا نحلف بالله كاذبين لاجل المال ولو كان من نقسم له قريبا منا (ولا نكتم شهادة الله) أى الشهادة التى أمر الله بحفظها وتعظيمها (انا اذا) ان كتمنا (لمن الآثمين) وقيل ان أريد بهما الشاهدان فقد نسخ تحليف الشاهدين وان أريد الوصيان فلم ينسخ تحليفهما (فان عثر) فان اطلع (على انهما استحقا اثما) فعلا ما أوجب اثما واستوجبا أن يقال انهما لمن الآثمين (فآخران) فشاهدان آخران (يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم) الميت

أى من الذين استحق عليهم الاثم ومعناه من الذين جنى عليهم وهم أهل الميت وعشيرته وفى قصة بديل انه لما ظهرت خيانة الرجلين حلف رجلان من ورثته انه اناء صاحبهما وان شهادتهما أحق من شهادتهما (الاوليان) الاحقان بالشهادة لقرابتهما ومعرفتهما وارتفاعهما على هما الاوليان كانه قيل ومن هما فقيل الاوليان أو هما بدل من الضمير فى يقومان أو من آخران استحق عليهم الاوليان حفص أى من الورثة الذين استحق عليهم الاوليان من بينهم بالشهادة أن يجردوهما للقيام بالشهادة ويظهروا بهما كذب الكاذبين الاولين حمزة وأبو بكر على انه وصف للذين استحق عليهم مجرور أو منصوب على المدح وسموا أولين لانهم كانوا أولين فى الذكر فى قوله شهادة بينكم

فشهادتهم غير مقبولة فى حال من الاحوال ۞ وقوله تعالى (ان أنتم ضربتم فى الارض) يعنى ان أنتم سافرتم فى الارض (فاصابتكم مصيبة الموت) يعنى نزل بكم أسباب الموت فاوصيتم اليهما ودفعتم مالكم اليهما (تحبسونهما) يعنى ان اتهمهما بعض الورثة وادعوا عليهما خيانة فالحكم فيه أن يوقفوهما (من بعد الصلاة) يعنى من بعد صلاة العصر لان جميع أهل الاديان يعظمون ذلك الوقت ويجتنبون فيه الحلف الكاذب وقيل من بعد صلاة أهل دينهما لانهما اذا كانا كافرين لا يحترمان صلاة العصر (فيقسمان بالله) يعنى فيحلفان بالله قال الشافعى الايمان تغلظ فى الدماء والطلاق والعتاق والمال اذا بلغ مائتى درهم بالزمان والمكان فيحلف بعد صلاة العصر ان كان بمكة بين الركن والمقام وان كان بالمدينة فعند المنبر وان كان فى بيت المقدس فعند الصخرة وفى سائر البلاد فى أشرف المساجد وأعظمها (ان ارتبتم) يعنى ان شككتم أيها الورثة فى قول الشاهدين وصدقهما فحلفوهما وهذا اذا كانا كافرين أما اذا كانا مسلمين فلا يمين عليهما لان تحليف الشاهد المسلم غير مشروع (لا نشترى به ثمنا) يعنى لا نبيع عهد الله بشئ من الدنيا ولا نحلف بالله كاذبين لاجل عوض نأخذه أو حق نجحده (ولو كان ذا قربى) يعنى ولو كان المشهود له ذا قرابة منا وانما خص القربى بالذكر لان الميل اليهم أكثر من غيرهم (ولا نكتم شهادة الله) انما أضاف الشهادة اليه لانه أمر باقامتها ونهى عن كتمانها (انا اذا لمن الآثمين) يعنى ان كتمنا الشهادة أو خنا فيها ولما نزلت هذه الآية صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العصر ودعا تميما وعديا وحلفهما عند المنبر بالله الذى لا اله الا هو انهما لم يخونا شيأ مما دفع اليهما فحلفا على ذلك فخلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبيلهما ثم ظهر الاناء بعد ذلك قال ابن عباس وجد الاناء بمكة فقالوا اشتريناه من تميم وعدى وقيل لما طالت المدة أظهروه فبلغ ذلك بنى سهم فأتوهما فى ذلك فقالا انا كنا اشتريناه منه فقالوا لهما ألم تزعما ان صاحبنا لم يبع شيأ من متاعه قالا لم يكن عندنا بينة فكرهنا أن نقر لكم به فكتمناه لذلك فرفعوهما الى النبى صلى الله عليه وسلم (فان عثر) يعنى فان اطلع وظهر والعثور الهجوم على أمر لم يهجم عليه غيره وكل من اطلع على أمر كان قد خفى عليه قيل له قد عثر عليه (على انهما استحقا اثما) يعنى الوصيين ومعنى الآية فان حصل العثور والوقوف على ان الوصيين كانا استوجبا الاثم بسبب خيانتهما وأيمانهما الكاذبة (فآخران) يعنى من أولياء الميت وأقربائه (يقومان مقامهما) يعنى مقام الوصيين فى اليمين (من الذين استحق عليهم) يعنى من الذين استحق عليهم الاثم وهم الورثة والمعنى اذا ظهرت خيانة الحالفين وبان كذبهما يقوم اثنان آخران من الذين جنى عليهم وهم أهل الميت وعشيرته (الاوليان) يعنى بامر

الميت وهم أهله وعشيرته (فيقسمان بالله) يعني فيحلفان بالله (لشهادتنا أحق من شهادتهما) يعني أيماننا أحق وأصدق من أيمانهما (وما اعتدينا) يعني في أيماننا وقولنا ان شهادتنا أحق من شهادتهما (انا اذا لمن الظالمين) ولما نزلت هذه الآية قام عمرو بن العاص والمطلب بن أبي وداعة السهميان وهما من أهل الميت وحلفا بالله بعد العصر ودفع الاناء اليهما وانما ردت اليمين على أولياء الميت لان الوصيين ادعيا ان الميت باعهما الاناء وأنكر ورثة الميت ذلك ومثل هذا أن الوصي اذا أخذ شيأ من مال الميت وقال انه أوصى له به وأنكر ذلك الورثة ردت اليمين عليه ولما أسلم تميم الداري بعد هذه القصة كان يقول صدق الله وصدق رسوله أنا أخذت الاناء فانا أتوب الى الله وأستغفره ۞ وقوله تعالى (ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها) يعني ذلك الذي حكمنا به من رد اليمين على أولياء الميت بعد أيمانهم أدنى أي أجدر وأحرى أن يأتوا بالشهادة على وجهها يعني أن يأتي الوصيان وسائر الناس بالشهادة على وجهها فلا يخونوا فيها (أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم) أي وأقرب أن يخاف الوصيان أن ترد الايمان على أولياء الميت فيحلفوا على خيانتهم وكذبهم فيفتضحوا او يغرموا فربما لا يحلفون كاذبين اذا خافوا هذا الحكم (واتقوا الله) يعني وخافوا الله أن تحلفوا أيمانا كاذبة أو تخونوا أمانة (واسمعوا) يعني المواعظ والزواجر وقيل معناه واسمعوا سمع اجابة (والله لا يهدي القوم الفاسقين) يعني والله لا يرشد من كان على معصية وهذا تهديد وتخويف ووعيد لمن خالف حكم الله تعالى أو خان أمانته أو حلف أيمانا كاذبة وهذه الآية الكريمة من أصعب ما في القرآن من الآيات نظما واعرابا وحكما والله أعلم بأسرار كتابه ۞ قوله عز وجل (يوم يجمع الله الرسل) قال الزجاج هي متصلة بما قبلها تقديرها واتقوا الله يوم يجمع الله الرسل وقيل تقديره والله لا يهدي القوم الفاسقين يوم يجمع الله الرسل أي لا يهديهم الى الجنة في ذلك اليوم وهو يوم القيامة وقيل انها منقطعة عما قبلها وتقديره اذكر يا محمد يوم يجمع الله الرسل وذلك يوم القيامة (فيقول ماذا أجبتم) يعني فيقول الله تبارك وتعالى للرسل ماذا أجابكم أممكم وما الذي رد عليكم قومكم حين دعوتموهم في دار الدنيا الى توحيدي وطاعتي وفائدة هذا السؤال توبيخ أمم الانبياء الذين كذبوهم (قالوا) يعني الرسل (لا علم لنا) قال ابن عباس معناه لا علم لنا كعلمك فيهم لانك تعلم ما أضمروا وما أظهروا ونحن لا نعلم الا ما أظهروا فعلمك فيهم أنفذ من علمنا وأبلغ فعلى هذا القول انما نفوا العلم عن أنفسهم وان كانوا علماء لان علمهم صار كلا علم عند علم الله وقال في رواية أخرى معناه لا علم لنا الا علم أنت أعلم به منا وهذا القول قريب من الاول وقيل معناه لا علم لنا بوجه الحكمة عن سؤالك ايانا عن أمر أنت أعلم به منا وقيل معناه لا حقيقة لعلمنا بعاقبة أمرهم لانا كنا نعلم ما كان من أفعالهم وأقوالهم وقت حياتنا ولا نعلم ما كان منهم بعد وفاتنا ولا نعلم ما أحدثوا من بعدنا ومنه ما أخبر الله عن عيسى عليه السلام بقوله وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم ومنه ما روي عن أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليردن على الحوض رجال ممن صاحبني حتى اذا رفعوا الى اختلجوا دوني فلأقولن أي رب أصحابي فيقال لي انك لا تدري ما أحدثوا بعدك زاد في رواية فأقول سحقا لمن بدل بعدي أخرجاه في الصحيحين وقال جمع من المفسرين ان للقيامة أهوالا وزلازل تزول فيها القلوب عن مواضعها فيفزعون من هول ذلك ويذهلون عن الجواب ثم اذا ثابت اليهم عقولهم يشهدون على أممهم بالتبليغ وهذا فيه ضعف ونظر لان الله تعالى قال في حق الانبياء لا يحزنهم الفزع الاكبر وذكر الامام فخر الدين الرازي وجها آخر وهو أن الرسل عليهم السلام لما علموا أن الله تعالى عالم لا يجهل وحليم لا يسفه وعادل لا يظلم علموا ان قولهم لا يفيد خيرا ولا يدفع شرا فرأوا أن الادب في السكوت وفي تفويض الامر الى الله تعالى وعدله فقالوا لا علم لنا (انك أنت علام الغيوب) يعني انك تعلم ما غاب عنا

وما تجاوزنا الحق في يميننا (انا اذا لمن الظالمين) أي ان حلفنا كاذبين (ذلك) الذي مر ذكره من بيان الحكم (أدنى) أقرب (أن يأتوا) أي الشهداء على نحو تلك الحادثة (بالشهادة على وجهها) كما حملوها بلا خيانة فيها (أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم) أن تكرر أيمان شهود آخرين بعد أيمانهم فيفتضحوا بظهور كذبهم (واتقوا الله) في الخيانة واليمين الكاذبة (واسمعوا) سمع قبول واجابة (والله لا يهدي القوم الفاسقين) الخارجين عن الطاعة فان قلت ما معنى أو هنا قلت معناه ذلك أقرب من أن يؤدوا الشهادة بالحق والصدق اما لله أو لخوف العار والافتضاح برد الايمان وقد احتج به من يرى رد اليمين على المدعى أو الجواب ان الورثة قد ادعوا على النصرانيين انهما قد اختانا فحلفا فلما ظهر كذبهما ادعيا الشراء فيما كتما فانكرت الورثة فكانت اليمين على الورثة لانكارهما الشراء (يوم) منصوب باذكروا واحذروا (يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم) ما الذي أجابتكم أممكم حين دعوتموهم الى الايمان وهذا السؤال توبيخ لمن أنكرهم وماذا منصوب بأجبتم نصب المصدر على معنى أي اجابة أجبتم (قالوا لا علم لنا) باخلاص قومنا دليله (انك أنت علام الغيوب) أو بما أحدثوا بعدنا دليله كنت أنت الرقيب عليهم أو قالوا ذلك تأدبا أي علمنا

والدتك) حيث طهرتها واصطفيتها على نساء العالمين والعامل في (اذ أيدتك) أي قويتك نعمتي (بروح القدس) بجبريل عليه السلام أيدبه لتثبت الحجة عليهم أو بالكلام الذي يحيابه الدين وأضافه الى القدس لانه سبب الطهر من أوصام الآثام دليله (تكلم الناس في المهد) حال أي تكلمهم طفلا واعجازا (وكهلا) تبليغا (واذ علمتك) معطوف على اذ أيدتك ونحوه واذ تخلق واذ تخرج واذ كففت واذ أوحيت (الكتاب) الخط (والحكمة) الكلام المحكم الصواب (والتوراة والانجيل واذ تخلق) تقدر (من الطين كهيئة الطير) هيئة مثل هيئة الطير (باذني) بتسهيلي (فتنفخ فيها) الضمير للكاف لانها صفة الهيئة التي كان يخلقها عيسى وينفخ فيها ولا يرجع الى الهيئة المضاف اليها لانها ليست من خلقه وكذا الضمير في (فتكون طيرا باذني) وعطف (وتبرئ الاكمه والابرص باذني) على تخلق (واذ تخرج الموتى) من القبور أحياء (باذني) قيل أخرج سام بن نوح ورجلين وامرأة وجارية

من بواطن الامور ونحن نعلم ما نشاهد ولا نعلم ما في البواطن وقيل معناه انك لا يخفى عليك ما عندنا من العلوم وان الذي سألتنا عنه ليس يخاف عليك لانك أنت علام الغيوب ومعناه العالم باصناف المعلومات على تفاوتها ليس تخفى عليه خافية وبناء فعال بناء التكثير ودلت الآية على جواز اطلاق العلام على الله تعالى كما يجوز اطلاق الخلاق عليه ۞ قوله عز وجل (اذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك) قال بعضهم ان اذ قال الله تعالى يا عيسى صلة لماذا أجبتم ولما كان المراد بقوله للرسل ماذا أجبتم توبيخ الامم المكذبة ومن تمرد منهم على الله وكان أشد الامم احتياجا وافتقارا الى التوبيخ والملامة النصارى الذين يزعمون انهم اتباع عيسى عليه السلام ووجه ذلك ان جميع الامم انما كان طعنهم في أنبيائهم بالتكذيب لهم وطعن هؤلاء النصارى تعدى الى جلال الله تعالى حيث وصفوه بما لا يليق بجلاله من اتخاذ الزوجة والولد ذكر الله في هذه الآية أنواع نعمه على عيسى عليه السلام التي تدل على انه عبد وليس باله والفائدة في ذكر هذه الحكاية تنبيه النصارى على قبح مقالتهم وفساد اعتقادهم وتوكيد الحجة عليهم وقيل فائدة ذلك اسماع الامم يوم القيامة ما خص الله عيسى عليه السلام به من الكرامة ٢ وقيل موضع اذ رفع بالابتداء على القطع ومعناه اذكر اذ قال الله يا عيسى وانما خرج قوله اذ قال الله على لفظ الماضي دون المستقبل لانه ورد على سبيل حكاية الحال وقيل تقديره اذ يقول الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك لفظه واحد والمراد به الجمع لان الله تعالى عدد نعمه عليه في هذه الآية والمراد من ذكرها شكرها (وعلى والدتك) يعني بنعمته على مريم عليها السلام انه تعالى أنبتها نباتا حسنا وطهرها واصطفاها على نساء العالمين ثم ذكر نعمه على عيسى عليه السلام فقال تعالى (اذ أيدتك بروح القدس) يعني بجبريل عليه السلام لان القدس هو الله تعالى وأضافه اليه على سبيل التشريف والتعظيم كاضافة بيت الله وناقة الله وقيل أراد بروح القدس الروح المطهرة لان الارواح تختلف باختلاف الماهية فنها روح طاهرة مقدسة نورانية ومنها روح خبيثة كدرة ظلمانية فخص الله عيسى بالروح المقدسة الطاهرة النورانية المشرقة (تكلم الناس في المهد) يعني تكلمهم طفلا في حال الصغر (وكهلا) يعني وفي حالة الكهولة من غير أن يتفاوت كلامك في هذين الوقتين وهذه معجزة عظيمة وخاصة شريفة ليست لاحد قبله قال ابن عباس أرسل الله عيسى عليه السلام وهو ابن ثلاثين سنة فمكث في رسالته ثلاثين شهرا ثم رفعه الله اليه (واذ علمتك الكتاب والحكمة) يعني الكتابة وهي الخط والحكمة الفهم والاطلاع على أسرار العلوم (والتوراة والانجيل) أي وعلمتك التوراة التي أنزلتها على موسى والانجيل الذي أنزلته عليك (واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني) يعني واذ تجعل وتصور من الطين كصورة الطير باذني (فتنفخ فيها) ذكر هنا فيها وفي سورة آل عمران فيه فالضمير في قوله فيها يعود الى الهيئة بجعلها مصدرا كما يقع اسم الخلق على المخلوق وذلك لان النفخ لا يكون في الهيئة انما يكون في المهيإ ذي الهيئة ويجوز أن يعود الضمير الى الطير لانها مؤنثة قال الله تعالى أولم يروا الى الطير فوقهم صافات وأما الضمير المذكور في آل عمران في قوله فيه فيعود الى الكاف يعني في ذلك الشئ المماثل لهيئة الطير (فتكون طيرا باذني) وانما كرر قوله باذني تأكيدا لكون ذلك الخلق واقعا بقدرة الله تعالى وتخليقه لا بقدرة عيسى عليه السلام وتخليقه لان المخلوق لا يخلق شيأ انما خالق الاشياء كلها هو الله تعالى لا خالق لها سواه وانما كان الخلق لهذا الطير معجزة لعيسى عليه السلام أكرمه الله تعالى بها وكذا قوله تعالى (وتبرئ الاكمه والابرص باذني) يعني وتشفي الاكمه وهو الاعمى المطموس البصر والابرص معروف ظاهر (واذ تخرج الموتى) يعني من قبورهم أحياء (باذني) تفعل ذلك كله بدعائك والفاعل لهذه الاشياء كلها في الحقيقة هو الله تعالى لانه هو المبرئ للاكمه والابرص وهو محيي الموتى وهو على كل شئ قدير وانما كانت هذه الاشياء معجزات لعيسى عليه السلام ووقعت باذن الله تعالى

(٢) قوله وقيل موضع اذ رفع الخ لا يلائمه قوله ومعناه الخ فليتأمل

وقدرته

(واذ كففت بني اسرائيل عنك) أي اليهود حين هموا بقتله (اذ جئتهم) ظرف لكففت (بالبينات فقال الذين كفروا منهم ان هذا الاسحر مبين) ساحر حمزة وعلي (واذ أوحيت) ألهمت (الى الحواريين) الخواص أو الاصفياء (ان

آمنوا) أي آمنوا (بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد باننا مسلمون) أي اشهد باننا مخلصون من أسلم وجهه (اذ قال الحواريون) أي اذكروا اذ (ياعيسى ابن مريم) عيسى نصب على اتباع حركته حركة الابن نحو يازيد بن عمرو (هل يستطيع ربك) هل يفعل أو هل يطيعك ربك ان سألته فاستطاع وأطاع بمعنى كاستجاب وأجاب هل تستطيع ربك علي أي هل تستطيع سؤال ربك فحذف المضاف والمعنى هل تسأله ذلك من غير صارف يصرفك عن سؤاله (أن ينزل علينا) ينزل مكي وبصري (مائدة من السماء) هي الخوان اذا كان عليه الطعام من ماده اذا أعطاه كأنها تميد من تقدم اليها (قال اتقوا الله) في اقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات (ان كنتم مؤمنين) اذ الايمان يوجب التقوى (قالوا نريد أن نأكل منها) تبركا (وتطمئن قلوبنا) ونزداد يقينا كقول ابراهيم عليه السلام ولكن ليطمئن قلبي (ونعلم أن قد صدقتنا) أي نعلم صدقك عيانا كما علمناه استدلالا (ونكون عليها من الشاهدين) بما عايناه لمن بعدنا ولما كان السؤال لزيادة العلم لا للتعنت (قال عيسى ابن مريم اللهم) أصله ياالله فحذف يا وعوض منه الميم (ربنا) نداء ثان (أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا) أي يكون يوم نزولها عيدا قيل هو يوم الاحد ومن ثم اتخذه النصارى عيدا والعيد السرور العائد ولذا يقال يوم عيد فكان معناه تكون لنا سرورا وفرحا (لاولنا وآخرنا) بدل من لنا

وقدرته وقوله تعالى (واذ كففت بني اسرائيل عنك) يعني واذكر نعمتي عليك اذ كففت وصرفت عنك اليهود ومنعتك منهم حين ارادوا قتلك (اذ جئتهم بالبينات) يعني بالدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات التي ذكرت في هذه الآية وذلك ان عيسى عليه السلام لما أتى بهذه المعجزات العجيبة الباهرة قصد اليهود قتله فخلصه الله منهم ورفعه الى السماء (فقال الذين كفروا منهم) يعني فقال الذين استمروا على كفرهم من اليهود ولم يؤمنوا بهذه المعجزات (ان هذا الا سحر مبين) يعني ما جاءهم به عيسى عليه السلام من المعجزات ۞ قوله عز وجل (واذ أوحيت الى الحواريين) يعني ألهمتهم وقذفت في قلوبهم فهو وحي الهام كما أوحي الى أم موسى والى النحل والحواريون هم أصحاب عيسى وخواصه (ان آمنوا بي وبرسولي) يعني عيسى عليه السلام (قالوا آمنا واشهد باننا مسلمون) لما وفقهم الله للايمان قالوا آمنا وانما قدم ذكر الايمان على الاسلام لان الايمان من أعمال القلوب والاسلام هو الانقياد والخضوع في الظاهر والمعنى انهم آمنوا بقلوبهم وانقادوا بظواهرهم ۞ قوله تعالى (اذ قال الحواريون ياعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك) قال المفسرون هذا على المجاز ولا يجوز لاحد أن يتوهم على الحواريين انهم شكوا في قدرة الله تعالى لكنه كما يقول الرجل لصاحبه هل تستطيع أن تقوم معي مع علمه بانه يقدر على القيام وانما قصد بقوله هل يستطيع هل يسهل عليك وهل يخف ان تقوم معي فكذلك معنى الآية لان الحواريين كانوا مؤمنين عارفين بالله عز وجل ومعترفين بكمال قدرته وانما قالوا ذلك ليحصل لهم مزيد الطمأنينة كما قال ابراهيم عليه السلام ولكن ليطمئن قلبي ولا شك أن مشاهدة هذه الآية العظيمة تورث مزيد الطمأنينة في القلب ولهذا السبب قالوا وتطمئن قلوبنا وقال بعضهم هو على ظاهره وقالوا غلط القوم وقالوا ذلك قبل استحكام الايمان والمعرفة في قلوبهم وكانوا بشرا فقالوا هذه المقالة فرد الله عليهم عند غلطهم بقوله اتقوا الله ان كنتم مؤمنين يعني اتقوا الله أن تشكوا في قدرة الله عز وجل والقول الاول أصح وقيل في معنى الآية هل يقبل ربك دعاءك ويعطيك باجابة دعائك وسؤالك انزال المائدة فقد ورد في الآثار من أطاع الله أطاعه كل شئ (أن ينزل علينا مائدة من السماء) المائدة الخوان الذي عليه الطعام ولا يسمى مائدة ان لم يكن عليه طعام انما يقال خوان أو طبق وأصلها من ماد يميد اذا تحرك كأنها تميد بما عليها من الطعام (قال) يعني عيسى مجيبا للحواريين (اتقوا الله ان كنتم مؤمنين) يعني اتقوا الله في هذا السؤال ان كنتم مؤمنين لانه سؤال تعنت وقيل أمرهم بالتقوى ليحصل لهم هذا السؤال ومعنى ان كنتم مؤمنين مصدقين فلا تشكوا في قدرة الله تعالى وقيل معناه اتقوا الله ان تسألوه شيأ لم يسأله أحد من الامم قبلكم فنهاهم عن اقتراح الآية بعد الايمان (قالوا نريد أن نأكل منها) يعني قال الحواريون مجيبين لعيسى عليه السلام انما نطلب نزول المائدة علينا لان نأكل منها فان الجوع قد غلب علينا وقيل معناه نريد أن نأكل منها للتبرك بها لا أكل حاجة (وتطمئن قلوبنا) يعني وتسكن قلوبنا ونستيقن قدرة الله تعالى لانا وان علمنا قدرة الله بالدليل فاذا شاهدنا نزول المائدة ازداد اليقين وقويت الطمأنينة (ونعلم أن قد صدقتنا) يعني ونزداد ايمانا ويقينا بانك رسول الله (ونكون عليها من الشاهدين) يعني لله بالوحدانية ولك بالرسالة والنبوة وقيل معناه ونكون لك عليها من الشاهدين عند بني اسرائيل اذا رجعنا اليهم فلما قالوا ذلك أمرهم عيسى أن يصوموا ثلاثين يوما وقال لهم انكم اذا صمتم ذلك وأفطرتم فلا تسألون الله شيأ الا أعطاكم ففعلوا ذلك وسألوا نزول المائدة فعند ذلك (قال عيسى ابن مريم اللهم) قيل انه اغتسل ولبس المسح وصلى ركعتين وطأطأ رأسه وبكى ثم دعا فقال اللهم (ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لاولنا وآخرنا) يعني عائدة من الله علينا وحجة وبرهانا

والعيد يوم السرور وأصله من عاد يعود اذا رجع والمعنى تتخذ ذلك اليوم الذى تنزل فيه المائدة عيدا نعظمه ونصلى فيه نحن ومن يجىء من بعدنا فنزلت فى يوم الاحد فاتخذه النصارى عيدا وقال ابن عباس معناه يأكل منها أول الناس كما يأكل آخرهم (وآية منك) أى تكون المائدة دلالة على قدرتك ووحدانيتك وحجة بصدق رسولك (وارزقنا) أى ارزقنا ذلك من عندك وقيل ارزقنا الشكر على هذه النعمة (وأنت خير الرازقين) يعنى وأنت خير من تفضل ورزق (قال الله) عزوجل مجيبا لعيسى (انى منزلها عليكم) يعنى المائدة (فمن يكفر بعد منكم) يعنى بعد نزول المائدة (فانى أعذبه عذابا) يعنى جنسا من العذاب (لا أعذبه أحدا من العالمين) يعنى من عالمى زمانهم فجحدوا وكفروا بعد نزول المائدة فمسخوا خنازير قال الزجاج ويجوز أن يكون هذا العذاب معجلا فى الدنيا ويجوز أن يكون مؤخرا الى الآخرة قال عبد الله بن عمر ان أشد الناس عذابا يوم القيامة المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون واختلف العلماء فى نزول المائدة فقال الحسن ومجاهد لم تنزل المائدة لان الله لما أوعدهم على كفرهم بالعذاب بعد نزول المائدة خافوا أن يكفر بعضهم فاستعفوا وقالوا لا نريدها فلم تنزل عليهم فعلى هذا القول يكون معنى قوله تعالى انى منزلها عليكم ان سألتم نزولها والصحيح الذى عليه جمهور العلماء والمفسرين انها نزلت لان الله تعالى قال انى منزلها عليكم وهذا وعد من الله بانزالها ولا خلف فى خبره ووعده ولما روى عن عمار بن ياسر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزلت المائدة من السماء خبزا ولحما وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا لغد فخانوا وادخروا ورفعوا لغد فمسخوا قردة وخنازير أخرجه الترمذى وقال قد روى عن عمار من غير طريق موقوفا وهو أصح وقال ابن عباس ان عيسى عليه السلام قال لهم صوموا ثلاثين يوما ثم اسألوا الله ما شئتم يعطيكموه فصاموا فلما فرغوا قالوا يا عيسى انا لو عملنا عملا لاحد فقضيناه لاطعمنا وسألوا المائدة فاقبلت الملائكة بمائدة يحملونها عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات حتى وضعوها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم وقال سلمان الفارسى لما سأل الحواريون المائدة لبس عيسى صوفا وبكى وقال اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء الآية فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين غمامة من فوقها وغمامة من تحتها وهم ينظرون اليها وهى تهوى اليهم منقضة حتى سقطت بين أيديهم فبكى عيسى عليه السلام وقال اللهم اجعلنى من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عقوبة واليهود ينظرون الى شئ لم ينظروا مثله ولم يجدوا ريحا أطيب من ريحه فقال عيسى عليه السلام ليقم أحسنكم عملا فليكشف عنها ويسم الله فقال شمعون الصفار رأس الحواريين أنت أولى بذلك منا فقام عيسى عليه السلام فتوضأ وصلى صلاة طويلة وبكى بكاء كثيرا ثم كشف المنديل عنها وقال بسم الله خير الرازقين فاذا هو بسمكة مشوية ليس فيها شوك ولا عليها فلوس تسيل من الدسم وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث واذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الثانى عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد فقال شمعون يا روح الله أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الجنة فقال عيسى ليس شئ مما ترون من طعام الدنيا ولا من طعام الجنة ولكنه شئ اخترعه الله بقدرته العالية كلوا مما سألتم واشكروا يمددكم ويزدكم من فضله فقالوا يا روح الله كن أول من يأكل منها فقال عيسى معاذ الله أن آكل منها يأكل منها من سألها فخافوا أن يأكلوا منها فدعا لها أهل الفاقة والمرض والبرص والجذام والمقعدين فقال كلوا من رزق الله لكم الشفاء ولغيركم البلاء فأكلوا منها وهم ألف وثلثمائة رجل وامرأة من فقير ومريض وزمن ومبتلى وصدروا عنها وهم شباع واذا السمكة بحالها حين أنزلت ثم طارت المائدة صعودا وهم ينظرون اليها حتى توارت ولم يأكل منها مريض أو زمن أو مبتلى الا عوفى ولا فقير الا استغنى وندم من لم يأكل منها وقيل مكثت أربعين صباحا تنزل ضحى فاذا نزلت اجتمع اليها الاغنياء والفقراء والصغار والكبار والرجال والنساء يأكلون منها ولا تزال منصوبة

بتكرير العامل أى لمن فى زماننا من أهل ديننا ولمن يأتى بعدنا أو يأكل منها آخر الناس كما يأكل أولهم أو للمتقدمين منا والاتباع (وآية منك) على صحة نبوتى ثم أكد ذلك بقوله (وارزقنا وأنت خير الرازقين) وأعطنا ما سألناك وأنت خير المعطين (قال الله انى منزلها عليكم) بالتشديد مدنى وشامى وعاصم وعد الانزال وشرط عليهم شرطا بقوله (فمن يكفر بعد منكم) بعد انزالها منكم (فانى أعذبه عذابا) أى تعذيبا كالسلام بمعنى التسليم والضمير فى (لا أعذبه) للمصدر ولو أريد بالعذاب ما يعذب به لم يكن بد من الباء (أحدا من العالمين) عن الحسن أن المائدة لم تنزل ولو نزلت لكانت عيدا الى يوم القيامة لقوله وآخرنا والصحيح أنها نزلت فعن وهب نزلت مائدة منكوسة تطير بها الملائكة عليها كل طعام الا اللحم وقيل كانوا يجدون عليها ما شاؤا وقيل كانت تنزل حيث كانوا بكرة وعشيا

يؤكل منها حتى فئ الفئ فاذا فاء الفئ طارت وهم ينظرون اليها حتى تتوارى عنهم وكانت تنزل غبا يوما تنزل و يوما لا تنزل فأوحى الله عز وجل الى عيسى عليه السلام اجعل مائدتى ورزقى للفقراء دون الاغنياء فعظم ذلك على الاغنياء حتى شكوا وشككوا الناس فيها وقالوا ترون المائدة حقا تنزل من السماء فأوحى الله عز وجل الى عيسى عليه السلام انى شرطت أن من كفر بعد نزولها عذبته عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين فقال عيسى عليه السلام عند ذلك ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم فمسخ الله منهم ثلثمائة وثلاثين رجلا باتوا ليلتهم مع نسائهم على فرشهم ثم أصبحوا خنازير يسعون فى الطرق يأكلون العذرة من الكناسات والحشوش فلما رأى الناس ذلك فزعوا الى عيسى عليه السلام وبكوا ولما أبصرت الخنازير عيسى عليه السلام بكت وجعلت تطيف به وجعل عيسى عليه السلام يدعوهم باسمائهم فيشيرون برؤسهم ولا يقدرون على الكلام فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا وقال كعب أنزلت المائدة منكوسة تطير بها الملائكة بين السماء والارض عليها كل شئ الا اللحم وقال ابن عباس أنزل على المائدة كل شئ الا الخبز واللحم وقال الكلبى كان عليها خبز وبقل وقال وهب بن منبه أنزل الله أقرصة من شعير وحيتانا فكان القوم يأكلون ويخرجون ثم يجئ آخرون فيأكلون حتى أكلوا جميعهم وفضل وقال قتادة كانت تنزل عليهم بكرة وعشيا حيث كانوا كالمن والسلوى لبنى اسرائيل وقال الكلبى ومقاتل أنزل الله سمكا وخمسة أرغفة فأكلوا منها ما شاء الله والناس ألف ونيف فلما رجعوا الى قراهم ونشروا الحديث ضحك من لم يشهد منهم وقالوا ويحكم انما سحر أعينكم فمن أراد الله به خيرا ثبته ومن أراد فتنته رجع الى كفره فمسخوا خنازير ليس فيهم صبى ولا امرأة فمكثوا ثلاثة أيام ثم هلكوا ولم يتوالدوا ولم يأكلوا ولم يشربوا وكذلك كل ممسوخ ۞ قوله عز وجل (واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله) الآية اختلف المفسرون فى وقت هذا القول فقال السدى قال الله لعيسى هذا القول حين رفعه الى السماء بدليل ان حرف اذ يكون للماضى وقال سائر المفسرين انما يقول الله له هذا القول يوم القيامة بدليل قوله يوم يجمع الله الرسل وذلك يوم القيامة وبدليل قوله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم وذلك يوم القيامة وأجيب عن حرف اذ بانها قد تجئ بمعنى اذا كقوله ولو ترى اذ فزعوا يعنى اذا فزعوا وقال الراجز

ثم جزاك الله عنى اذ جزى * جنات عدن فى السموات العلى

ولفظ الآية فى قوله أأنت قلت للناس لفظ استفهام ومعناه الانكار والتوبيخ لمن ادعى ذلك على عيسى عليه السلام من النصارى لان عيسى عليه السلام لم يقل هذه المقالة فان قلت اذا كان عيسى عليه السلام لم يقلها فما وجه هذا السؤال له مع علم الله بانه لم يقله قلت وجه هذا السؤال تثبيت الحجة على قومه واكذاب لهم فى ادعائهم ذلك عليه وانه أمرهم به فهو كقول القائل لآخر أفعلت كذا وهو يعلم أنه لم يفعله وانما أراد تعظيم ذلك الفعل فنفى عن نفسه هذه المقالة وقال ما قلت لهم الا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم فاعترف بالعبودية وانه ليس باله كما زعمت وادعت فيه النصارى فان قلت ان النصارى لم يقولوا بالهية مريم فكيف قال اتخذونى وأمى الهين من دون الله قلت ان النصارى لما ادعت فى عيسى أنه اله ورأوا ان مريم ولدته لزمهم بهذه المقالة على سبيل التبعية وقوله تعالى اخبارا عن عيسى عليه السلام (قال سبحانك) يعنى تنزيها لك عن النقائص و براءة لك من العيوب قال ابو روق اذا سمع عيسى عليه السلام هذا الخطاب وهو قوله أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله ارتعدت مفاصله وانفجرت من أصل كل شعرة من جسده عين من دم وقال مجيبا لله تعالى سبحانك (ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق) أى كيف أقول بهذا الكلام ولست باهل ولست أستحق العبادة حتى أدعو الناس اليها ولما بين أنه ليس له أن يقول هذه المقالة وهذا المقام مقام التواضع والخشوع لعظمة الله تعالى شرع فى بيان هل وقع ذلك منه أم لا فقال

(واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله) الجمهور على أن هذا السؤال يكون يوم القيامة دليله سياق الآية وسباقها وقيل خاطبه به حين رفعه الى السماء دليله لفظ اذ (قال سبحانك) من أن يكون لك شريك (ما يكون لى) ما ينبغى لى (أن أقول ما ليس لى بحق) أن أقول قولا لا يحق لى أن أقوله

(ان كنت قلته فقد علمته) أسند العلم الى الله تعالى وهذا هو غاية الادب واظهار المسكنة لعظمة الله تعالى وتفويض الامر الى علمه ثم قال (تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك) يعنى تعلم ما أعلم ولا أعلم ما تعلم وقال ابن عباس تعلم ما فى غيبى ولا أعلم ما فى غيبك وقيل معناه تعلم ما أخفى ولا أعلم ما تخفى وقيل معناه تعلم ما كان منى فى دار الدنيا ولا أعلم ما يكون منك فى دار الآخرة وقيل معناه تعلم ما أقول وأفعل ولا أعلم ما تقول وتفعل والنفس عبارة عن ذات الشئ يقال نفس الشئ وذاته بمعنى واحد وقال الزجاج النفس عبارة عن جملة الشئ وحقيقته يقول تعلم جميع حقيقة أمرى ولا أعلم حقيقة أمرك وقيل معناه تعلم معلومى ولا أعلم معلومك وانما ذكر هذا الكلام على طريقة المشاكلة والمطابقة وهو من فصيح الكلام ثم قال (انك أنت علام الغيوب) يعنى انك تعلم ما كان وما سيكون وهذا تأكيد لما تقدم من قوله تعالى تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك

قوله تعالى اخبارا عن عيسى (ما قلت لهم الا ما أمرتنى به) يعنى ما قلت لهم الا قولا أمرتنى به (أن اعبدوا الله) يعنى قلت لهم اعبدوا الله (ربى وربكم) يعنى وحدوه ولا تشركوا به شيأ (وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم) يعنى وكنت أشهد ما يفعلون وأحضره مادمت مقيما فيهم (فلما توفيتنى) يعنى فلما رفعتنى الى السماء فالمراد به وفاة الرفع لا الموت (كنت أنت الرقيب عليهم) يعنى الحفيظ عليهم المراقب لاعمالهم وأحوالهم والرقيب الحافظ الذى لا يغيب عنه شئ (وأنت على كل شئ شهيد) يعنى أنت شهدت مقالتى التى قلتها لهم وأنت الشهيد عليهم بعدما رفعتنى اليك لا تخفى عليك خافية فعلى هذا الشهيد هنا بمعنى الشاهد لما كان وما يكون ويجوز أن يكون الشهيد هنا بمعنى العليم يعنى أنت العالم بكل شئ فلا يعزب عن علمك شئ قوله عز وجل اخبارا عن عيسى عليه السلام (ان تعذبهم) يعنى ان تعذب هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة بان تميتهم على كفرهم (فانهم عبادك) لا يقدرون على دفع ضر نزل بهم ولا جلب نفع لانفسهم وأنت العادل فيهم لانك أوضحت لهم طريق الحق فرجعوا عنه وكفروا (وان تغفر لهم) يعنى لمن تاب من كفره منهم بان تهديه الى الايمان فان ذلك بفضلك ورحمتك (فانك أنت العزيز) يعنى فى الانتقام ممن تريد الانتقام منه لا يمتنع عليك ما تريده (الحكيم) فى أفعالك كلها وهذا التفسير انما يصح على قول السدى لانه قال كان سؤال الله عز وجل لعيسى عليه السلام حين رفعه الى السماء قبل يوم القيامة أما على قول جمهور المفسرين ان هذا السؤال انما يقع يوم القيامة ففى قوله وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم اشكال وهو انه لا يليق بعيسى عليه السلام طلب المغفرة لهم مع علمه بأن الله تعالى لا يغفر لمن يموت على الشرك والجواب عن هذا الاشكال من وجوه أحدها أنه ليس هذا على طريق طلب المغفرة ولو كان كذلك لقال فانك أنت الغفور الرحيم ولكنه على تسليم الامر الى الله وتفويضه الى مراده فيهم لانه العزيز فى ملكه الحكيم فى فعله ويجوز فى حكمته وسعة مغفرته ورحمته أن يغفر للكفار لكنه تعالى أخبر أنه لا يفعل ذلك بقوله ان الله لا يغفر أن يشرك به الوجه الثانى قيل معناه ان تعذبهم يعنى باقامتهم على كفرهم الى الموت وان تغفر لهم يعنى لمن آمن منهم وتاب ورجع عن كفره الوجه الثالث قال ابن الانبارى لما قال الله لعيسى أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله لم يقع لعيسى الا أن النصارى حكت عنه الكذب لانه لم يقل ذلك وقول الكذب ذنب فيجوز أن يسأل له المغفرة والله أعلم بمراده وأسرار كتابه (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل فى ابراهيم رب انهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فانه منى الآية وقول عيسى ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم فرفع يديه وقال اللهم أمتى أمتى وبكى فقال الله تعالى يا جبريل اذهب الى محمد وربك أعلم فاسأله ما يبكيك فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم فقال الله يا جبريل اذهب الى محمد فقل له انا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك عن أبى ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام حتى أصبح بآية والآية

(ان كنتُ قلتهُ فقد علمتَه) ان صح انى قلته فيما مضى فقد علمته والمعنى انى لا أحتاج الى الاعتذار لانك تعلم انى لم أقله ولو قلته علمته لانك (تعلم ما فى نفسى) ذاتى (ولا أعلم ما فى نفسك) ذاتك فنفس الشئ ذاته وهويته والمعنى تعلم معلومى ولا أعلم معلومك (انك أنت علام الغيوب) تقرير للجملتين معا لان ما انطوت عليه النفوس من جملة
الغيوب ولان ما يعلم ٧
علام الغيوب لا ينتهى اليه علم أحد (ما قلت لهم الا ما أمرتنى به) أى ما أمرتهم الا بما أمرتنى به ثم فسر ما أمر به فقال (أن اعبدوا الله ربى وربكم) فان مفسرة بمعنى أى (وكنت عليهم شهيدا) رقيبا (مادمت فيهم) مدة كونى فيهم (فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم) الحفيظ (وأنت على كل شئ شهيد) من قولى وفعلى وقولهم وفعلهم (ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم) قال الزجاج علم عيسى عليه السلام ان منهم من آمن ومنهم من أقام على الكفر فقال فى جملتهم ان تعذبهم أى ان تعذب من كفر منهم فانهم عبادك الذين علمتهم جاحدين لآياتك مكذبين لانبيائك وأنت العادل فى ذلك فانهم قد كفروا بعد وجوب الحجة عليهم وان تغفر لهم أى لمن أقلع منهم وآمن فذلك تفضل منك وأنت عزيز لا يمتنع عليك ما تريد حكيم

ان

أن تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم أخرجه النسائى ۞ قوله عز وجل (قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) اتفق جمهور العلماء على أن المراد بهذا اليوم يوم القيامة والمعنى ان صدقهم فى الدنيا ينفعهم فى الآخرة لانه يوم الاثابة والجزاء وما تقدم من صدقهم فى الدنيا يتبين نفعه يوم القيامة والمراد بالصادقين النبيون والمؤمنون لان الكفار لا ينفعهم صدقهم يوم القيامة قال قتادة متكلمان لا يخطئان يوم القيامة عيسى عليه السلام لانه يقوم فيقول ما قص الله عنه ما قلت لهم الا ما أمرتنى به الآية فكان صادقا فى الدنيا والآخرة فينفعه صدقه وأما المتكلم الآخر فابليس فانه يقوم فيقول وقال الشيطان لما قضى الامر الآية فصدق عدو الله فيما قال ولم ينفعه صدقه وقال عطاء هو يوم من أيام الدنيا لان الآخرة دار جزاء لا دار عمل وذهب فى هذا القول الى ظاهر الآية من ان الصدق النافع انما يكون فى الدنيا وهذا القول موافق لمذهب السدى حيث يقول ان هذه المخاطبة جرت مع عيسى عليه السلام حين رفع الى السماء والوجه ما ذهب اليه الجمهور ثم ذكر الله تعالى ما لهم من الثواب على صدقهم فقال تعالى (لهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها أبدا) فهذا اشارة الى ما يحصل لهم من الثواب الدائم الذى لا انقطاع له ولا انتهاء (رضى الله عنهم) يعنى بطاعتهم له (ورضوا عنه) يعنى بما أعطاهم من ثوابه وجزيل كرامته (ذلك) اشارة الى ما ذكره من ثوابهم (الفوز العظيم) يعنى انهم فازوا بالجنة وبرضوانه عنهم ونجوا من النار (لله ملك السموات والارض وما فيهن) عظم الله عز وجل نفسه عما قال فيه النصارى يعنى ان الذى له ملك السموات والارض هو الذى يستحق الالهية لا ما قالت النصارى من الهية المسيح وأمه لانهما من جملة من فى السموات والارض فهما عبيده وفى ملكه وقيل هو جواب لسؤال مضمر فى الكلام كانه لما وعد الصادقين بالثواب العظيم قيل من يعطيهم ذلك قال الذى له ملك السموات والارض ومن فيهن (وهو على كل شئ قدير)
والله سبحانه وتعالى اعلم
بمراده وأسرار
كتابه

(تم الجزء الاول من تفسير الخازن ويليه الجزء الثانى أوله تفسير سورة الانعام)

فى ذلك أو عزيز قوى قادر على الثواب حكيم لا يعاقب الا عن حكمة وصواب (قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) برفع اليوم والاضافة على انه خبر هذا أى يقول الله تعالى هذا يوم ينفع الصادقين فيه صدقهم المستمر فى دنياهم وآخرتهم والجملة من المبتدا والخبر فى محل النصب على المفعولية كما تقول قال زيد عمرو منطلق وبالنصب نافع على الظرف أى قال الله هذا لعيسى عليه السلام يوم ينفع الصادقين صدقهم وهو يوم القيامة (لهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم) بالسعى المشكور (ورضوا عنه) بالجزاء الموفور (ذلك الفوز العظيم) لانه باق بخلاف الفوز فى الدنيا فهو غير باق (لله ملك السموات والارض وما فيهن) عظم نفسه عما قالت النصارى ان معه الها آخر (وهو على كل شئ قدير) من المنع والاعطاء والايجاد والافناء نسأله أن يوفقنا لمرضاته ويجعلنا من الفائزين بجناته وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

(تم الجزء الاول من تفسير الامام النسفى ويليه الجزء الثانى واوله تفسير سورة الانعام)

﴿ فهرست الجزء الاول من تفسير الخازن ﴾

﴿فهرست الجزء الاول من تفسير القرآن العظيم للامام على بن محمد المعروف بالخازن﴾

صحيفة	
٢	مقدمة الكتاب وهى تتضمن ثلاثة فصول
٣	الفصل الاول فى فضل القرآن وتلاوته وتعليمه
٥	الفصل الثانى فى وعيد من قال فى القرآن برأيه من غير علم ووعيد من أوتى القرآن فنسيه ولم يتعهده
٦	الفصل الثالث فى جمع القرآن وترتيب نزوله وفى كونه نزل على سبعة أحرف
٩	فصل فى كون القرآن نزل على سبعة أحرف وما قيل فى ذلك
١٠	فصل فى معنى التفسير والتأويل
١١	القول فى الاستعاذة
١٢	﴿تفسير سورة الفاتحة﴾
١٢	فصل فى ذكر فضلها
١٤	فصل فى حكم البسملة وفيه مسئلتان
١٤	المسئلة الاولى فى كون البسملة من الفاتحة وغيرها من السور سوى سورة براءة
١٦	المسئلة الثانية فى حكم الجهر بالبسملة والاسرار
١٩	فصل فى آمين وحكم الفاتحة وفيه مسئلتان
١٩	المسئلة الاولى السنة للقارئ الخ
١٩	المسئلة الثانية فى حكم الفاتحة
١٩	﴿تفسير سورة البقرة﴾
٢٠	فصل فى فضلها
٤٣	فصل فى ماهية الملائكة وقصة خلق آدم عليه السلام
٥٢	ذكر سياق قصة فرق البحر ببنى اسرائيل
٥٣	ذكر القصة فى ميعاد موسى عليه السلام وذهابه للمناجاة
٥٩	ذكر الاشارة الى قصة ذبح البقرة
٦٣	فصل فى حكم القتيل اذا وجد فى موضع ولم يعرف قاتله
٧٥	فصل فى القول بعصمة الملائكة
٧٧	فصل فى حكم النسخ

صحيفة	
١٠٥	فصل فى ذكر أحاديث وردت فى ثواب أهل البلاء وأجر الصابرين
١٠٦	فصل اختلاف العلماء فى حكم السعى بين الصفا والمروة فى الحج والعمرة
١٠٧	فصل فيما يتعلق بهذه الآية من الحكم (أى قوله تعالى ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة الخ)
١١٢	فصل فى حكم هذه الآية (أى قوله تعالى فمن اضطر غير باغ) وفيه مسائل
١٢٢	فصل فى حكم الآية (أى قوله تعالى ومن كان مريضا الخ) وفيه مسائل
١٢٣	فصل فى فضل شهر رمضان وفضل صيامه
١٢٤	فصل فى فضل الدعاء وآدابه
١٢٧	فصل فى حكم الاعتكاف
١٢٨	فصل فى حكم أكل المال بالباطل
١٣٣	فصل واتفقت الامة على وجوب الحج الخ
١٥٦	فصل فى تحريم الخمر ووعيد من شربها
١٥٧	فصل فى أحكام تتعلق بالخمر
١٥٨	فصل وأما الميسر الخ
١٦٢	فصل فى حكم الآية (أى قوله تعالى ويسئلونك عن المحيض الخ) وفيه مسائل
١٦٥	فصل فى بيان حكم الآية (أى قوله تعالى لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم الخ) وفيه مسائل
١٦٧	فصل فى أحكام العدة وفيه مسائل
١٧٠	فصل فى حكم الخلع وفيه مسائل
١٧٥	فصل فى حكم عدة المتوفى عنها زوجها والاحداد وفيه مسائل
١٧٨	فصل فى بيان حكم هذه الآية (أى قوله تعالى ومتعوهن على الموسع قدره الخ) وفيه فروع
١٨٠	فصل فى ذكر اختلاف العلماء فى الصلاة الوسطى

صحيفة

١٨٥ ذكر الاشارة الى قصة الملأ من بنى اسرائيل مع نبيهم
١٩٥ فصل فى فضل آية الكرسى
٢١٥ فصل فى حكم الربا وفيه مسائل
٢١٨ فصل فى ثواب انظار المعسر والوضع عنه وتشديد أمر الدين والامر بقضائه
٢٣٨ ﴿تفسير سورة آل عمران﴾
٢٥٣ ذكر سبب القصة المتعلقة بقوله تعالى فلما أحس عيسى الخ
٢٧٧ فصل فى فضل البيت والحج والعمرة
٢٧٧ فصل فى أحكام تتعلق بالحج
٣٠٣ فصل فى فضل الاستغفار
٣١٧ فصل فى ذكر أحاديث وردت فى الغلول ووعيد الغال
٣٢٣ فصل فى فضل الجهاد والشهادة فى سبيل الله تعالى
٣٤٠ ﴿تفسير سورة النساء﴾
٣٤٥ فصل فى أحكام تتعلق بالحجر وفيه مسائل
٣٥٠ فصل فى الحث على تعليم الفرائض
٣٥٠ فصل فى بيان أحكام الفرائض
٣٥٠ فصل وأسباب الارث ثلاثة الخ
٣٥١ فصل والسهام المحدودة فى الفرائض الخ
٣٥١ فصل روى عن زيد بن ثابت قال ولد الابناء بمنزلة الابناء الخ
٣٥٨ فصل اتفق العلماء على أن هذه الآية (أى قوله تعالى واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم الخ) منسوخة
٣٦٧ فصل فى قدر الصداق ومايستحب منه
٣٨٣ فصل فى أحكام تتعلق بالآية (أى قوله تعالى يأأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى الخ)
٣٨٤ فصل فى أحكام تتعلق بالآية (أى قوله تعالى وان كنتم مرضى أو على سفر الخ)

صحيفة

٣٨٨ فصل وأركان التيمم خمسة
٤٠٨ فصل فى فضل السلام والحث عليه
٤٠٩ فصل فى أحكام تتعلق بالسلام
٤١٤ فصل فى أحكام تتعلق بالآية) أى قوله تعالى وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الاخطأ الخ)
٤١٦ فصل وقد تعلقت المعتزلة والوعيدية بهذه الآية (أى قوله تعالى ومن يقتل مؤمنا متعمدا الخ)
٤١٩ فصل اعلم أن الجهاد ينقسم الى فرض عين وفرض كفاية الخ
٤٢٢ فصل فى أحكام تتعلق بالآية (أى قوله تعالى واذا ضربتم فى الارض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة الخ)
٤٢٣ فصل قيل قوله تعالى ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا كلام متصل بما بعده الخ)
٤٢٤ فصل فى أحكام تتعلق بالآية (أى قوله تعالى واذا كنت فيهم الخ) وصفة صلاة الخوف وفيه مسائل
٤٢٧ فصل وقد تمسك بهذه الآية من يرى جواز صدور الذنب من الانبياء (أى قوله تعالى واستغفر الله ان الله كان غفورا رحيما)
٤٣٥ فصل وقد اتخذ الله محمدا صلى الله عليه وسلم خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا
٤٣٨ فصل فيما يتعلق بالقسم بين الزوجات
٤٥٨ ﴿تفسير سورة المائدة﴾
٤٦٠ فصل اختلف علماء الناسخ والمنسوخ فى هذه الآية (أى قوله تعالى يأأيها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله الخ)
٤٧١ فصل فى فرائض الوضوء
٤٧٢ فصل فى ذكر الاحاديث التى وردت فى صفة الوضوء وفضله
٤٨٢ ذكر قصة وفاة موسى وهرون عليهما السلام
٤٨٥ ذكر قصة القربان وسببه وذكر قصة قتل قابيل

صحيفة

وهابيل

٤٩٢ فصل في بيان حكم الآية (أى قوله تعالى والسارق والسارقة الخ) وفيه مسائل

٤٩٣ فصل وهذه التوبة مقبولة الخ (أى توبة السارق)

٤٩٤ ذكر القصة في ذلك) أى المتعلقة بقوله تعالى يا أيها الرسول لا يحزنك الخ

٤٩٧ فصل اختلف علماء التفسير في حكم الآية (أى قوله تعالى فان جاؤك فاحكم بينهم الخ)

٥١٨ ذكر قصة الهجرة الاولى وسبب نزول قوله تعالى لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود الخ)

٥٢٢ فصل في حكم الآية (أى قوله تعالى فكفارته اطعام عشرة مساكين الخ) وفيه مسائل

﴿تمت﴾